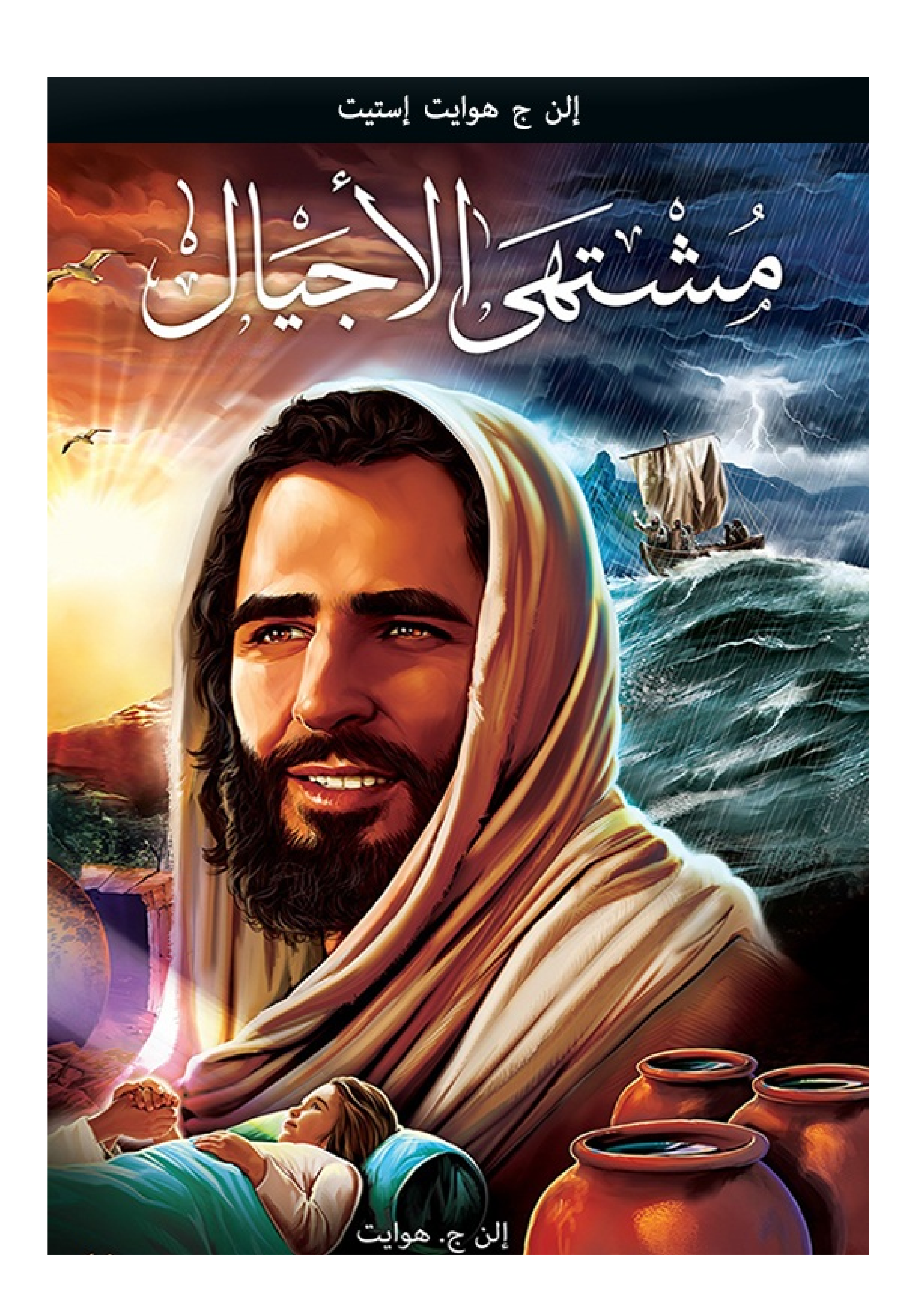

إلن ج هوايت إستيت
مُشْتَهَى الأَجْيَالْ
إلن ج. هوايت

مشتهى الأجيال

Ellen G. White

Information about this Book

Overview

This eBook is provided by the Ellen G. White Estate. It is included in the larger free Online Books collection on the Ellen G. White Estate Web site.

About the Author

Ellen G. White (1827-1915) is considered the most widely translated American author, her works having been published in more than 160 languages. She wrote more than 100,000 pages on a wide variety of spiritual and practical topics. Guided by the Holy Spirit, she exalted Jesus and pointed to the Scriptures as the basis of one's faith.

Further Links

A Brief Biography of Ellen G. White
About the Ellen G. White Estate

End User License Agreement

Further Information

For more information about the author, publishers, or how you can support this service, please contact the Ellen G. White Estate at mail@whiteestate.org. We are thankful for your interest and feedback and wish you God's blessing as you read.

هذا الكتاب " مشتهى الأجيال" هو أبرز كتاب عن حياة السيد المسيح، على حد قول واحد من كبار أمناء مكتبة الكونجرس. ونظراً لتهافت القراء عليه تم طباعة ملايين النسخ منه في السنوات الأخيرة. كما تُرجم (من الإنجليزية) إلى العديد من اللغات الأجنبية. وهو الآن في متناولك — أيها القارئ الكريم — ليضيف إلى مكتبتك إضافة قيّمة. هذا كتاب نفيس. ستعتز به وتقدّره أشد تقدير؛ لأنك ستجده نعم العون لك. وتجد نفسك ميالاً إلى قراءة مقاطع منه يومياً. يعتبره الكثيرون أعمق تاريخ روحي كُتب عن حياة السيد المسيح، وقد كان بحق سبب تعزية ومعونة لحياة عدد لا يُحصى من القرّاء في جميع أنحاء العالم. وهو الآن بين يديك لتقرأه وتستفيد منه في حياتك التأملية الروحية. [4] [5]

المقدمة

لقد طال ما انتظرنا من صدور سيرة كاملة لحياة السيد المسيح باللغة العربية ، مسطورة لا كحجة لاهوتية ، أو تعقيب وتعليق على ما ورد في الأناجيل ، أو تاريخ للسيد نفسه ، بل كإبراز لجمال الحياة الروحي الرائع. إن هذا السفر الجليل الذي وضع باللغة الإنكليزية منذ نحو ٨٥ سنة قد اعتبره أشهر أمناء المكتبات بين أفضل ما كتب في تلك

اللغة من مجلدات قليلة عن السيد المسيح- بل أفضلها جميعا من حيث كونه قطعة فريدة في الأدب التعبدي. لقد ترجم إلى لغات العالم الرئيسية كلها ، يسعدنا أن نقدمه الآن في لغة الضاد لمجتمعنا العربي الكريم .

إننا لنشعر بما هنالك من حرج في نشر كتاب ديني يكون السيد المسيح محوره الرئيسي ، إذ يقتضي الأمر ، بالضرورة ، الإتيان على ذكر اليهود. ولكن حسبنا أن نقول عن العبرانيين قديما إن السيد المسيح قد جعل لهم مثالا ليتوبوا ، ولكنهم أبوا وقسوا قلوبهم . إنه لم يشاطرهم ما سادهم آنئذ من تلهف على إقامة مملكة يهودية بفلسطين ، بل لقد أنبأهم بفشل كل مسعى يقومون به في هذا السبيل ، وعّلمهم أن مملكة الله روحية لا أرضية .

لقد أثير حول شخصية السيد المسيح نقاش كثير داخل المسيحية وخارجها. أما هذا الكتاب فيعكس وجهة النظر المسيحية للمؤلفة ، بيد أنه ليس نقاشاً غايته إثبات وجهة النظر هذه ، وإنما هو بالحري أجمل بيان عرفناه لتلك الحياة التي باركت كل من لامسها . إن مطالعة هذا المجلد قمينة بأن توقظ في القارئ نوازع حبه للخير والصلاح . وها نحن نقدمه ولنا ملء الرجاء بأنه سيثير ، للعمل ، في كل قارئ أسمى ما يتحلى به القارئ من فضائل ، ويكون للأمة العربية النبيلة معوانا في نضالها لبلوغ مثلها الروحية العليا - مثل البر والحق. [6]

الديباجة

إن في قلوب كل بني الإنسان من كل أمة وطبقة أشواقا لا يمكن التعبير عنها إلى طلب ما لا يملكونه. وهذه الأشواق هي من غرس الله الرحيم في أعماق طبيعة الإنسان ، حتى لا يقنع المرء بحاله الراهنة ، أو بما قد أحرزه ، حسنا كان أم رديئا . فإن الله يريد أن يطلب الإنسان ما هو أفضل ويجده فيحصل على بركة أبدية .

لقد استطاع الشيطان بمؤامراته ومخادعاته أن يفسد أشواق قلب الإنسان هذه ، فهو يوعز إلى الناس بأن هذه الرغبة يمكن إشباعها بالملذات أو الثروة أو الراحة أو الشهرة أو السطوة ، ومن أولئك الذين قد خدعهم (ويعدون بالربوات) يكتشفون أن كل تلك الأشياء قد أمست ثقلا على عقولهم تاركة نفوسهم في حال اليبوسة والجفاف والجوع كما كانت قبلا.

ولكن قصد الله هو أن هذا الشوق في القلب البشري يرشد جميع الناس إلى ذاك الذي يستطيع وحده أن يشبعه؛ فالشوق هو منه ليهدي الناس إليه ، إذ فيه ملء ذلك الشوق و تحقيقه. إن النبي حجي يدعوه "مشتهى كل الأمم" (حجي 2 : 7) ونحن أيضاً على هذا القياس لنا أن ندعوه: "مشتهى كل الأمم".

إن الغاية من هذا الكتاب هو أن يقدم يسوع المسيح كمن يستطيع وحده أن يشبع كل شوق في النفس. لقد كتب كثيرون من الكُتّاب كتبا جميلة وقيمة عن حياة المسيح ، وبها رصيد عظيم من حقائق مضبوطة سواء من الناحية التاريخية أو الأحداث المعاصرة أو العادات المألوفة ، وبها كثير من التعاليم التي لا غنى عنها . وفيها لمحات من حياة يسوع الناصري المتعددة الجوانب . ومع ذلك يجدر بكل واحد أن يقول: "هوذا النصف لم أخبر به" (1 ملوك 10 : 7).

ومع ذلك فإن الغاية من وضع هذا الكتاب ليست هي إثبات اتفاق الأناجيل أو إيراد الحوادث الهامة والدروس العجيبة في حياة المسيح حسب ترتيبها الإلهي الدقيق ، ولكن غايتا هي أن نستعرض محبة الله والجمال الإلهي في حياة المسيح الذي يمكن أن يشترك [7] فيه كل إنسان ، ليس فقط لإشباع فضول النقاد وتساؤلهم. ولكن كما أن جاذبية سجايا المسيح النبيلة قد اجتذبت تلاميذه إلى ذاته ، وبحضوره ذاتيا ومشاعره الرقيقة ولمساته الحانية في كل ضعفاتهم وحاجاتهم ، وبعشرته الدائمة لهم غيّر أخلاقهم الأرضية إلى أخلاق سماوية ، من الأثرة إلى التضحية والإيثار ، ومن الجهل وضيق العقل والقلب والتعصب إلى معرفة تملأ القلب الرحب ومحبة عظيمة لنفوس الناس من كل الأمم والأجناس- فكذلك هدف هذا الكتاب هو تقديم السيد المبارك إلى القارئ لكي يعينه على الإتيان إليه وجها لوجه وقلبا إلى قلب، فيجد فيه كما وجد التلاميذ قديما ، يسوع القدير الذي يخلص "إِلَى التَّمام" ويغير إلى صورته الإلهية كل من يتقدمون به إلى الله . ومع ذلك فما أعظم عجزنا عن إعلان حياته! إنَ هذا يشبه تجسيم صورة إنسان على الشاشة وجعلها تفيض بالحياة والقوة .

وفي الصفحات التالية تكشف المؤلفة التي هي سيدة واسعة الاطلاع وعميقة الاختبار في أمور الله عن نواح جديدة لجمال حياة يسوع. إنها تقدم لنا كثيرا من اللآلئ الغالية من خزانة الله . ومن هذا الكنز العظيم

الذي لا ينفد تبسط أمام القارئ غنى عظيما لم يكن يحلم به . هذا وإن نورا عظيما جديدا ومجيدا ينبعث من كثير من الفصول المألوفة التي كان القارئ يظن أنه قد سبر غورها منذ أمد بعيد . وبالإجمال نقول إن يسوع المسيح قد أظهر كشمس البر ورئيس الكهنة الرحيم ، والشافي العظيم لكل أمراض البشرية وأدوائها ، والصديق الرقيق الرحيم ، والرفيق الملازم للإنسان دائما الذي يقدم له العون في حينه ، وترس شعبه ورئيس السلام ، والملك الآتي والأب الأبدي ، والذي فيه تتحقق آمال كل الأجيال وأشواقهم .

إن هذا الكتاب يقدم إلى العالم بركة إلهية مشفوعا بابتهالاتنا حتى يجعل الرب أقوال هذا الكتاب بقوة روحه كلام الحياة الأبدية لكثيرين ممن لم تشبع أشواق قلوبهم ، لكي يعرفوه " وَقُوةَ قيامته، وَشَرِكَةَ آلاَمه" (فيلبي 3: 10). وأخيرا فمدى أجيال الأبد السعيدة يشتركون وهم عن يمينه في ملء الفرح الأبديَ الذي لا ينطقِ به ومجيد ، والذي سيكون لمن يجدونه الثمرة الناضجة و "الكل في الكل" (1 كورنثوس 15، 28) و "معلّم بين ربوة" و "كلّه مُشتهيات" (نشيد 5 : 10 و 16).

الناشرون [8]

محتويات الكتاب

الفصل الأول ـــــ الله معنا

"وَيدعونَ اسمه "عمانوئيل" ... الله معنا" (متى 1 : 23). إن نور "معرفة مجد اللهِ" يرى "في وَجه يسوعَ ٱلمسيح" ، فمنذ أيام الأزل كان المسيح "واحداً مع الآب". كان "صورَةِ اللهِ" ، صورة عظمته وجلاله وبهاء مجده . لقد أتى إلى عالمنا ليعلن هذا المجد ، أتى إلى هذه الأرض التي قد سودتها الخطية وشوهتها ليعلن نور محبة الله- ليكون "اَللهُ معَنا" ، ولذلك جاءت معه النبوة تقول: "وَيدعونَ اسمه "عمانُوئِيل".

إن المسيح إذ حل بيننا كان لا بد له أن يعلن الله للناس والملائكة. لقد كان هو كلمة الله وفكر الله مسموعا . ففي صلاته لأجل تلاميذه يقول: "أَنا أظهرتُ اسمك لِلنَّاسِ الَّذين أَعطيَتني من ٱلعالَم" (يوحنا 17 : 6). بأنك "رَحيم وَرَؤُوفٌ ، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء" (خروج 34 : 6) و "لتكون فيهم الحب الذي أحببتني به، و أكون أنا فيهم" (يوحنا 17 : 26). ولكن هذا الإعلان لم يعطَ لأبنائه المجبولين من تراب الأرض دون سواهم . إن عالمنا الصغير هذا هو بمثابة السفر المفتوح أمام الكون . إن غرض نعمة الله العجيب ، سر المحبة الفادية ، هو السر الذي "تشتَهِي ٱلملائِكةُ أَنْ تَطَّلع عليها" ، وسيكون موضوع درسهم وتفكيرهم مدى دهور الأبد . إن كلا الخلائق المفدية والخلائق غير الساقطة ستجد في صليب المسيح كنز معرفة وحكمة لا ينضب وحافزا للفرح والتسبيح . وسيرى أن المجد المتلألئ في وجه يسوع هو مجد محبته الباذلة . وفي النور المنبعث من جلجثة سيرى أن ناموس المحبة المنكرة لذاتها هو ناموس الحياة للأرضيين والسماويين ، وأن المحبة التي "لاَ تطلُب ما لِنَفسها" تنبع من قلب الله ، وأن ذاك الوديع والمتواضع القلب قد أُعلَنت فيه صفات الله الساكن في نور لا يدنى منه. [18]

الله معلن في الخليقة

في البدء أُعلن الله في كل أعمال الخلق. إن المسيح هو الذي نشر السماوات ووضع أساسات الأرض ، وإن يده هي التي علقت العوالم في الفضاء وأبدعت زنابق الحقل ، وهو "ٱلمثبِتُ ٱلجبالَ بِقُوته" "الَّذي لَه ٱلبحر وَهو صنعه ("مزمور ٦٥ : 6 ؛ 95 : 5). هو الذي ملأ الأرض بكل ألوان الجمال ، والهواء بالأغاني والتسابيح . وعلى كل ما في الأرض والهواء والسماء كتب رسالة محبة الآب.

إن الخطية قد أتلفت وشوهت عمل الله الكامل ، ومع هذا فتلك الكتابة لا تزال باقية. وحتى الآن كل الخلائق تعلن وتذيع جلال مجده . لا شيء ، فيما عدا قلب الإنسانالأناني ، يعيش لذاته . فلا طير يحلق في جو السماء ، ولا حيوان يدب على الأرض إلاّ ويخدم كائنا آخر ، ولا ورقة من أوراق أشجار الغابات أو وريقة عشب تطلع من الأرض إلاّ ولها خدمتها التي تؤديها . فكل شجرة كبيرة وصغيرة وكل ورقة تسكب ذلك العنصر من الحياة الذي بدونه لا يمكن أن يعيش إنسان ولا حيوان . والإنسان والحيوان بدورهما

يخدمان حياة الأشجار والنباتات . والأزهار يفوح شذا عطرها وتكشف عن جمالها بكونها بركة للعالم . والشمس ترسل نورها لتفرح العوالم كلها . والأوقيانوس العظيم الذي هو نفسه مصدر كل أنهارنا وينابيع المياه يستقبل الجداول من كل البلدان ، ولكنه يأخذ ليعطي .والضباب الصاعد من الأوقيانوس ينزل على الأرض في هيئة أمطار لإروائها حتى تلد وتنبت .

ثم إن ملائكة السماء يجدون لذتهم وسرورهم في العطاء والبذل ، فهم يمنحون محبتهم ، ويسهرون بلا كلال ليحرسوا أرواح الناس الساقطين النجسين. فتلك الخلائق السماوية تحاول أن تخطب ود قلوب الناس ، وهم يأتون إلى هذا العالم المظلم بالنور من مواطن السماء البهية ، وبخدمتهم الرقيقة الصبورة يرفون على قلوب بنى الإنسان ليعيدوا الساقطين إلى الشركة مع المسيح الذي هو أقرب إليهم مما يظنون .

ولكننا إذ نترك هذه الأمثلة الأقل شأنا نرى الله في يسوع. فإذ نشخص إلى الفادي نرى أنه يعكس لنا مجد الله . لقد قال المسيح: "لست أفعل شيئاً من نفسي". " كما أرسلني الآب الحي، وأنا حي بالآب" ، " أنا لست أطلب مجدي" بل مجد الذي أرسلني" (يوحنا 4:8 [19] 28: 6: 57 ؛ 8: 50 ؛ 7: 18). في هذه الأقوال يعلن لنا المبدأ العظيم الذي هو ناموس الحياة لكل المسكونة . فالمسيح أخذ كل شيء من الله ، ولكنه أخذ ليعطي . وهكذا في مواطن السماء ، في خدمته لكل الخلائق عن طريق ابنه الحبيب تفيض حياة الآب للجميع ، وعن طريق الابن تعود في شكل تسبيحات وخدمات مفرحة ومحبة غامرة لذاك الذي هو النبع العظيم لكل شيء . وهكذا في المسيح تكتمل دورة الرحمة والإحسان ممثلة صفة المعطي العظيم ، وناموس الحياة.

الخطية تشوه الكون

ولكن هذا القانون انتهك في السماء نفسها. لقد نشأت الخطية في طلب ما للنفس . إن لوسيفر الكروب المظلل تاق إلى أن يكون هو الأول في السماء . لقد طلب أن يكون متسلطا على الأجناد السماويين ، ويباعد بينهم وبين خالقهم ويظفر بولائهم لنفسه . ولذلك فقد أساء في تصوير الله ، ناسبا إليه الرغبة في تعظيم نفسه . وبنواياه الشريرة طلب أن يحاصر الخالق المحب . وهكذا خدع الملائكة وخدع الناس فجعلهم يشُكُّون في كلام الله ويرتابون في صلاحه . وحيث أن الله إله عدل وجلال مرهب فقد صوره الشيطان لهم على أنه صارم لا يعرف الرحمة ، وهكذا أغوى الناس على الانضمام إليه في العصيان على الله ، فأطبق ظلام الويل على العالم .

لقد اكتنفت الظلمة العالم بسبب سوء فهم الناس لله. فحتى تتبدد غياهب الظلمة ويشرق النور ، وحتى يعود العالم إلى الله كان لابد من سحق سلطة الشيطان الخادعة . ولكن هذا لم يكن تحقيقه ممكنا بالعنف أو القوة . فاستخدام القوة والقهر مناقض لمبادئ حكم الله ، فهو لا يرغب في غير خدمة المحبة ، والمحبة لا تجيء بالأمر أو الإكراه والإرغام . ولا يمكن اكتساب محبة القلوب بالعنف أو قوة السلطان ، فالمحبة لا يوقظها سوى المحبة . إن من يعرف الله يحبه . ولابد من إظهار صفات الله على نقيض صفات الشيطان . ولم يكن يستطيع إنجاز هذا العمل غير واحد في كل الكون . فذاك الذي قد عرف عِلو محبةِ الله وعمقها كان يستطيع دون سواه أن يعرف الناس بها . فكان لابد من أن يشرق "شَمس ٱلبِر وَٱلشِّفاءُ في أَجنحتها" مبددا ظلمات هذا العالم الداجية (ملاخي 4 : 2). [20]

تدبير العتق من الخطية

إن تدبير فدائنا لم يكن فكرة طارئة ولا خطة تقررت بعد سقوط آدم. ولكنها كانت "حسب إعلانِ السر الَّذي كَانَ مكتُوما في الأَزْمنة الأَزَلية" (رومية 16 : 25). لقد كانت كشفا وإعلانا للمبادئ التي كانت منذ دهور الأزل أساس عرش الله . فمنذ الأزل كان الله والمسيح يعرفان كل شيء عن ارتداد الشيطان وسقوط الإنسان بسبب قوة المرتد المخادع. إن الله لم يقرر وجود الخطية ، ولكنه سبق فرأى وجودها وقد أعد العدة لمواجهة ذلك الطارئ الرهيب . ولقد كانت محبته للعالم عظيمة بحيث أخذ على نفسه العهد أن يبذل ابنه الوحيد "لِكي لا يهلك كُلُّ من يؤْمن بِه، بلْ تَكُونُ لَه ٱلحياةُ الأَبدية" (يوحنا 3 : 16).

لقد قال لوسيفر: "أَرْفَع كُرسيي فوقَ كَواكبِ اللهِ ... أَصير مثْلَ ٱلعلي" (إشعياء 14 : 13، 14). أما المسيح "الَّذي إِذْ كَانَ في صورَةِ اللهِ ، لم يحسب خُلسةً أَنْ يكُونَ (معادِلاً لِلهِ" (فيلبي 2 : 6 و 7).

لقد كانت هذه ذبيحة طوعية. فلقد كان من الممكن أن يظل يسوع عن يمين أبيه ويبقى محتفظا لنفسه بمجد السماء وولاء الملائكة ، ولكنة اختار أن يسلم قضيب الملك للآب ويتنازل عن عرش الكون لكي يجيء بالنور إلى الجالسين في أرض ظلال الموت ويمنح حياة للهالكين

ومنذ حوالي ألفي سنة سمع في السماء ومن عرش الله صوت له دلالته الغامضة يقول "هَنَذا أَجِيءُ" . "ذَبِيحةً وَقُربانًا لَم تُرِدْ ، وَلكن هيأْتَ لِي جسدا". "هَنَذا أَجِيءُ . في دَرْجِ ٱلكتابِ مكتُوبٌ عنِّي ، لأَفعلَ مشيئَتك يا أَللهُ" "عبرانيين 10 : 5 — 7). ففي هذه الكلمة أعلن إتمام القصد الذي كان مكتوما منذ الدهور الأزلية . لقد كان المسيح مزمعا أن يفتقد عالمنا ويتخذ جسدا ، فهو يقول: "هيأْتَ لِي جسدا" ، فلو ظهر في مجده الذي كان له مع الآب قبل كون العالم ما كنا نستطيع احتمال بهاء حضوره . فلكي نراه ولا نهلك أخفى بهاء مجده . لقد اختفت ألوهيته واحتجبت تحت رداء بشريته- اختفى مجده خلف جسده البشري الظاهر للعيان . [21]

التدبير في رموز

إن هذا القصد العظيم أخفي خلف الرموز والاصطلاحات. فالعليقة التي كانت تتوقد بالنار والتي ظهر المسيح فيها لموسى أعلنت الله . فذلك الرمز الذي اختير لتمثيل الله كان شجيرة وضيعة لا تجتذب الأنظار . هذه الشجيرة أخفت الله غير المحدود . فالله الكلي الرحمة أخفى مجده وراء رمز متواضع جدا حتى ينظر إليه موسى ويحيا . وكذلك الحال بالنسبة إلى عمود السحاب في النهار وعمود النار في الليل . فكان الله يتحدث مع إسرائيل من ذلك العمود معلنا لهم إرادته ومانحا إياهم نعمته . لقد أخفي مجد الله وستر جلاله حتى يمكن للناس أن يروه بعيونهم الكليلة وهكذا كان لا بد من أن يتخذ المسيح "شكلَ جسد تواضعنا" (فيلبي 3 : 21) ويأتي "في شبه الناس". ففي نظر العالم لم يكن فيه جمال فنشتهيه ، ومع ذلك فقد كان هو الإله المتجسد ، نور السماوات والأرض . لقد حجب مجده وستر عظمته وجلاله حتى يمكنه الاقتراب من الناس الحزانى والمجربين .

لقد أمر الرب موسى عن بني إسرائيل قائلا: "يصَنعونَ لِي مقدسا لأَسكُن في وَسطهِم" (خروج 25 : 8). وقد سكن في المقدس في وسط شعبه ، ومدى سني غربتهم المتعبة في البرية كان رمز حضور الرب في وسطهم . وهكذا المسيح نصب خيمته في وسط المحلة البشرية . نصب خيمته إلى جوار خيام بني

الإنسان ليكون في وسطنا لكي يعرفنا بصفاته الإلهية وحياته: "وَٱلكلمة صارَ جسدا وَحلّ بيَنَنا ، وَرَأيَنا مجدهُ ، مجدا كَما لِوحيد من الآبِ ، مملُوءًا نعمةً وَحقا" (يوحنا 1 : 14).

وحيث قد أتى يسوع ليحل بينا فإننا نعلم أن الله عالم بتجاربنا ويعطف علينا في أحزاننا. وكل بنى آدم وبناته لهم أن يدركوا أن خالقنا هو صديق الخطاة ، لأن في كل مبدأ من مبادئ النعمة وكل وعد بالفرح ، وكل عمل من أعمال المحبة ، وكل جاذب إلهي مقدم لنا في حياة مخلصنا على الأرض نرى "اَللهُ معنا".

إن الشيطان يصور لنا ناموس الله القائم على المحبة بأنه ناموس أناني ، وهو يعلن لنا استحالة إطاعتنا لفرائضه. انه ينسب إلى الخالق سقوط أبوينا الأولين وما نجم عنه من ويلات . وبهذا يجعل الناس يعتقدون أن الله هو سبب الخطية والألم والموت . وقد كان [22] على يسوع أن يكشف القناع عن هذه الأكذوبة ، وكواحد منا كان لابد أن يقدم نفسه م ثالا للطاعة. ولأجل هذا اتخذ طبيعتنا وجاز في كل اختباراتنا "من ثَم كَانَ ينبغي أَنْ يشبِه إِخوته في كُلِّ شَيءٍ" (عبرانيين 2 : 17). فإذا كان علينا أن نحتمل شيئاً لم يحتمله يسوع قبلنا ، فمن هذه الناحية يصور لنا الشيطان قوة الله على أنها غير كافية . ولذلك قيل عن يسوع إنه: "مجربٌ في كُلِّ شَيءٍ مثلُنا ، بِلا خَطية" (عبرانيين 4 : 15). لقد احتمل كل تجربة يمكن أن نتعرض نحن لها ، وهو لم يستخدم لنفسه أية قوة إلاّ وهي تمنح لنا مجانا . فكإنسان واجه التجربة وانتصر بالقوة المعطاة له من الله . فهو الذي قال: "أَنْ أفعلَ مشيئَتك يا إِلهي سرِرْتُ ، وَشرِيعتُك في وَسط أَحشائِي" (مزمور 40 : 8) وإذ كان يجول يصنع خيرا ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس ، أظهر للناس ميزات شريعة الله وطبيعة خدمته . إن حياته لتشهد بأن في مقدورنا نحن أيضاً أن نطيع شريعة الله

تنفيذ التدبير

إن المسيح ببشريته قد لامس بشريتنا ، وبألوهيته يمسك بعرش الله. وكابن الإنسان كان مثالنا في الطاعة ، وكابن الله يعطينا القوة على أن نطيع . إن المسيح هو الذي تكلم إلى موسى من العليقة على جبل حوريب قائلا: "أهيه الَّذي أَهيه ... هكَذا تَقُولُ لِبني إِسرائِيلَ: أَهيه أَرْسلني إِليكُم" (خروج 3 : 14) . لأن هذا هو الضمان لخلاص إسرائيل وهكذا لما آتى في شبه الناس أعلن عن نفسه قائلا "أهيه" . إن طفل بيت لحم ، المخلص الوديع والمتواضع القلب هو الله "ظَهر في ٱلجِسد" (1 تيموثاوس 3 : 16). وهو يقول لنا: "أَنا هو الراعي الصالِح"، "أَنا هو ٱلخُبز ٱلحي" ، "أَنا هو الطَّرِيقُ وَٱلحقُّ وَٱلحياةُ" ، "دُفع إِلي كُلُّ سلطانٍ في السماءِ وَعَلى الأَرْض" (يوحنا 10 : 11 ؛ 6 : 51 ؛ 14 : 6، متى 28 : 18). "أَهيه" فيها تحقيق وضمان لكل وعد . أنا هو لا تخافوا . "اَللهُ معنا" هو ضمان خلاصنا من الخطية ، ويقين قدرتنا على إطاعة شريعة السماء

وفي تنازله ليتخذ لنفسه جسم بشريتنا أعلن المسيح خلقه الذي هو على نقيض أخلاق الشيطان. ولكنه انحدر إلى دركة أدنى من ذلك في طريق اتضاعه: "وَإِذْ وُجِد في ٱلهيئَة كَإِنسانٍ ، وَضع نَفسه وَأَطاعَ حتَّى ٱلموتَ موتَ الصليبِ" (فيلبي 2 : 8) . وكما أن رئيس [23] الكهنة كان ينزع عنه ثيابه الرسمية الفاخرة ، ويخدم في ثوب من الكتان الأبيض الذي كان يلبسه أي كاهن عادي ، كذلك المسيح أخذ صورة عبد ، وقدم ذبيحة. فكان هو الكاهن وهو الذبيحة: "وَهو مجروحٌ لأَجلِ معاصيِنا ، مسحوقٌ لأَجلِ آثامنا . تَأْدِيب سلامنا عليه ، وَبِحبرِهِ شُفيَنا" (إشعياء 53 : 15).

لقد عومل المسيح بالمعاملة التي كنا نستحقها لكي نُعامل نحن بالمعاملة التي يستحقهما هو. لقد دين لأجل خطايانا التي لم يشترك فيها لكي نتبرر نحن ببره الذي لم نشترك فيه لقد قاسى آلام الموت التي كانت

لنا حتى ننال الحياة التي كانت له: "وَبِحبرِهِ شُفِينَا" (إشعياء 53 : 5).

الاتحاد بالله

إن المسيح بحياته وموته قد أتم عملا هو أكثر من مجرد رد وإصلاح ما قد خربته الخطية. لقد كان الشيطان يقصد أن يفصل بين الله والإنسان فصلا أبديا ، ولكننا ــفي المسيح- نصير متحدين بالله اتحادا أوثق مما لو لم نكن قد سقطنا . فإذ اتخذ المخلص طبيعتنا ربط نفسه بالبشرية برباط لا يمكن أن ينفصم . لقد ارتبط بنا مدى دهور الأبد "لأَنَّه هَذا أَحب اللهُ ٱلعالَم حتَّى بذلَ ابَنه ٱلوحيد" (يوحنا 3 : 16). إنه بذله ليس فقط ليحمل خطايانا ويموت كفارة عنا ، ولكنه أعطاه لجنسنا الساقط . ولكي يؤكد لنا الله عهد سلامه الذي لا ينقض فقد بذل ابنه الوحيد ليصير واحدا من الأسرة البشرية وليظل إلى الأبد محتفظا بطبيعته البشرية . هذا هو الضمان على أن الله سينجز وعده: "لأَنَّه يوَلد لَنا وَلد وَنُعطى ابنًا ، وَتكُونُ الرياسةُ على كَتفه" لقد اتخذ الله الطبيعة البشرية في شخص ابنه الذي قد حملها إلى السماء العليا . إن "ابن الإنسانِ" هو الذي يجلس مع الله في عرش الكون . وابن الإنسان هو الذي يدعى اسمه "عجِيبا ، مشيرا ، إِلها قَديرا ، أبا أبديا ، رئيس السلام" (إشعياء 9 : 6). إن "أهية" هو الوسيط بين الله والبشرية الذي يضع يده على كليهما . إن ذاك الذي هو "قُدوسٌ بِلا شَر وَلا دَنسٍ ، قَد ٱنفَصلَ عنِ ٱلخُطاةِ" وهو "لاَ يسَتحي أَنْ يدعوهم إِخوةً" (عبرانيين 2 : 11). في المسيح ارتبطت الأسرة الأرضية والأسرة السماوية معا . فالمسيح الممجد هو أخونا . فلذلك تعتز السماء بالبشرية ، والبشرية تحتضنها المحبة غير المحدودة . [24]

يصف الله شعبه "كَحجارَةِ التَّاجِ مرفُوعةً على أَرْضه . ما أَجودَهُ وَما أَجمله!" (زكريا 9 : 16 و 17). إن تمجيد المفديين سيكون شهادة أبديَة لرحمة الله "لِيظهِر في الدهور الآتية غَنى نعمته ٱلفَائِقَ ، بِاللُّطْف علَينا في ٱلمسيحِ يسوعَ" ، "لِكي يعرفَ الآنَ عند الرؤَساءِ وَالسلاطينِ في السماوياتِ ، بِواسطة ٱلكنيسة ، بِحكمة اللهِ ٱلمتَنَوعة ، حسب قَصد الدهورِ الَّذي صنعه في ٱلمسيحِ يسوعَ رَبنَا" (أفسس 2 : 7 ؛ 3 : 10، 11).

وعن طريق عمل المسيح الفدائي يزكو حكم الله وقضاؤه. إن الله القدير يعرف على أنه إله المحبة . إن اتهامات الشيطان قد دحضت وكذبت وكشف الستار عن صفاته، ولن يمكن أن يحدث عصيان فيما بعد . ولن تعود الخطية لتدخل المسكونة فيما بعد . ومدى دهور الأبد سيكون الجميع بمأمن من الارتداد . وبواسطة تضحية المحبة لذاتها قد ارتبط سكان الأرض والسماء بخالقهم بصلات وثيقة لا يمكن أن تنفصم .

إن عمل الفداء سيكون كاملا. ففي المكان الذي فيه كثرت الخطية زادت النعمة وتفاضلت جدا . والأرض نفسها التي كانت ميدانا ادَّعى الشيطان ملكيته ، ستتمجد فضلا عن كونها ستفدى . وعالمنا الصغير الواقع تحت لعنة الخطية ، تلك البقعة السوداء الوحيدة في ملكوت الله المجيد سيكرم أكثر من كل العوالم الأخرى في الكون . فهنا حيث حل ابن الله في جسم بشريته ، وحيث عاش ملك المجد وتألم ومات - هنا عندما يصنع كل شيء جديدا سيحل الله في خيمته في وسط الناس ، وهو "سيسكُن معهم ، وَهم يكُونُونَ لَه شَعبا ، وَاللهُ نَفسه يكُونُ معهم إِلها لَهم" (رؤيا 21 : 3). ومدى دهور الأبد إذ يسير المفديون في نور الرب فسيشكرونه على عطيته التي لا يعبر عنها-

عمانويل، " الله معنا" [25]

الفصل الثاني— الشعب المرفوض

ظل الشعب اليهودي ينتظر مجيء المخلص حقبة طويلة من الزمن جاوزت ألف سنة وقد تركزت في هذا الحادث أبهج آمالهم وانتظاراتهم. ففي تسبيحاتهم ونبواتهم ، في طقوس الهيكل وفي العبادة العائلية كانوا يقدسون اسمه . ومع ذلك فإنهم لم يعرفوه عندما أتى . إن حبيب السماء ذاك كان في نظرهم "كَعِرق من أَرْضٍ يابِسة" فلم يروا فيه "صورَةَ ... وَلاَ جمالَ" فينظروا إليه ولا منظر فيشتهوه: "إِلى خَاصته جاءَ ، وَخاصتُه لَم تَقبله" (إشعياء 53 : 2 ؛ يوحنا 1 : 11).

ومع ذلك فإن الله كان قد اختار إسرائيل. دعاهم لكي يحفظوا معرفة شريعته بين الناس ، وليحتفظوا بالرموز والنبوات التي كانت تنبئ عن المخلص . كان يريدهم أن يكونوا مثل ينابيع خلاص للعالم . فكما كان إبراهيم في أرض غربته ، وكما كان يوسف في مصر ، وكما كان دانيال في بلاط مملكة بابل- كذلك كان يجب أن يكون الشعب العبراني بين الشعوب ، كان عليهم أن يعلنوا الله للناس

إن الله عندما دعا إبراهيم قال له: "أُبارِكك ... وَتكُونَ بركةً ... تَتبارَكُ فيك جميع قَبائِلِ الأَرْضِ" (تكوين 12 : 2 و 3). وقد ردد الأنبياء نفس هذا التعليم . وحتى بعدما اجتاحت الحروب أرض إسرائيل وأُخذ الشعب إلى السبي قدم لهم هذا الوعد: "وَتكُونُ بقيةُ يعقُوبَ في وَسط شُعوبٍ كَثيرين كَالنَّدى من عند الربِّ ، كَالْوابِلِ على الْعشبِ الَّذي لاَ ينتظر إِنسانًا وَلاَ يصبِر لِبني الْبشر" (ميخا 5 : 7). وعن الهيكل في أورشليم أعلن الله بواسطة إشعياء النبي: "لأَنَّ بيتي بيت الصلاةِ يدعى لِكُلِّ الشُّعوبِ" (اشعياء 56 : 7).

ولكن الإسرائيليين ركزوا آمالهم وانتظاراتهم في العظمة المادية. فمنذ أن دخلوا أرض كنعان حادوا عن وصايا الله واتبعوا طرق الوثنيين . وعبثا أنذرهم الله على أفواه أنبيائه ، وعبثا قاسوا الأهوال من جراء الاضطهادات التي أوقعها عليهم أعداؤهم الوثنيون ، فبعد [26] كل إصلاح كان الشعب يوغل في الارتداد

ولو كان بنو إسرائيل أمناء لله لكان قد أتم غرضه في إكرامهم وتعظيمهم. ولو ساروا في طريق الطاعة لكان الربِ قد تمم لهم وعده الذي أعطاه على فم موسى بأن يجعلهم مستعلين "على جميع الْقَبائِلِ الَّتي عملها في الثَّنَاءِ وَالاسم وَالْبهاءِ" " فَيرى جميع شُعوبِ الأَرْضِ أَنَّ اسم الربِّ قَد سمي" عليهم "وَيخافُونَ" منهم . ولقد نصحهم أن يعملوا بالحكمة والفطنة " أَمامَ أَعينِ الشُّعوبِ الَّذين يسمعونَ كُلَّ هذهِ الْفرائِضِ ، فَيقُولُونَ: هَذا الشَّعب الْعظيم إِنَّما هو شَعب حكيم وَفطن" (تثنية 26 : 19 ؛ 28 : 10 ؛ 4 : 6). ولكن نظراً لعدم أمانتهم لم يكن ممكنا أن يتم قصد الله إلاّ عن طريق تعاقب الضيق والإذلال

إخضاع شعب الله قديما

لقد أُخضعوا تحت سلطان مملكة بابل وتشتتوا في كل البلدان الوثنية. ففي ضيقهم جدد كثيرون منهم عهد الولاء لإلههم . وإذ علقوا أعوادهم على شجر الصفصاف وناحوا على هيكلهم المقدس الذي قد هدم ،

أشرق بواسطتهم نور الحق وانتشرت معرفة الله بين الأمم .لقد كانت أنظمة الذبائح الوثنية تزييفا للنظام الذي قد أقره الله . وكثيرون من المخلصين ممن كانوا يمارسون الطقوس الوثنية تعلموا من العبرانيين معنى الخدمة التي قد رسمها الله ، وبالإيمان تمسكوا بالوعد بمجيء الفادي

عانى كثيرون من بني السبي الاضطهاد المرير. وكثيرون بذلوا حياتهم ثمنا لرفضهم تدنيس يوم السبت ورفض الاحتفال بالأعياد الوثنية . وإذ ثار عبدة الأوثان ليقضوا على الحق ويس ت أصلوه جعل الرب عبيده يقفون وجها لوجه أمام الملوك والولاة لعلهم يقبلون الحق هم وشعوبهم .ومرارا وتكرارا اضطر أعاظم الملوك أن يشهدوا لعظمة الله الذي كان يعبده أسراهم العبرانيون

كان للسبي البابلي أثره الفعال في تحرير الإسرائيليين من عبادة التماثيل المنحوتة. ومدى العصور التالية قاسوا أهوال الاضطهاد الذي أثاره عليهم أعداؤهم الوثنيون إلى أن رسخ في أذهانهم الاقتناع بأن نجاحهم موقوف على الطاعة لشريعة الله . ولكن أكثرية الشعب لم يكونوا مدفوعين إلى الطاعة بدافع المحبة ، فقد كان الدافع هو الأثرة ، وكانوا يقدمون لله خدمة ظاهرية على اعتبار أنها طريق يؤدي إلى عظمتهم القومية . لم يصبحوا [27]

نورا للعالم ، ولكنهم عزلوا أنفسهم عن العالم تجنبا لإغراءات العبادة الوثنية. وفي التوجيهات التي قُدمت على فم موسى وضع الله لهم شروطا وقيودا خاصة باختلاطهم بعبدة الأوثان . ولكنهم أساءوا فهم هذا التعليم . لقد كان القصد منه الحيلولة بينهم وبين مشاكلة الوثنيين في ممارستهم ، إلاّ أنهم استخدموه في إقامة سور فاصل بين إسرائيل وبين كل الأمم الأخرى ، فنظر اليهود إلى أورشليم على أنها سماؤهم . وفي حسدهم كانوا يوجسون خيفة من أن يظهر الرب الرحمة للأمم

وبعد العودة من السبي البابلي أبدى الشعب اهتماما عظيما بالتعليم الديني. ففي كل أنحاء البلاد أقيمت المجامع التي كان الكهنة والكتبة يعلمون فيها الناموس للشعب ، كما أقيمت المدارس التي ادَّعى العاملون فيها وفي الفنون والعلوم أن مبادئ البر تُدرَّس فيها ولكن هذه المعاهد فسدت وتلك الوسائط فشلت . ففي أثناء سني السبي اعتنق كثيرون من الشعب آراء الوثنيين وعاداتهم . وقد تسللت تلك الآراء والعادات الغريبة إلى الخدمة الدينية . وفي أشياء كثيرة شاكل بنو إسرائيل الوثنيين في أعمالهم

فساد خدماتهم الدينية

وإذ ترك اليهود الله غاب عن أفهامهم مغزى الخدمة الطقسية ، تلك الخدمة التي كان قد رسمها المسيح نفسه. ففي كل جزئياتها كانت ترمز إليه ، وكانت ملأى بالحيوية والجمال الروحي . ولكن اليهود خسروا الحياة الروحية فلم يعد لها وجود في شعائرهم ، ومع ذلك فقد ظلوا متمسكين بالنظم الميتة . لقد وثقوا بالذبائح والفرائض نفسها بدلا من الوثوق بذاك الذي كانت تشير إليه . ولكي يملأ كهنة اليهود ومعلموهم الفراغ الناشئ عما قد خسروه ضاعفوا مطاليب من وضعهم الشخصي . وعلى قدر ما زادوا من صرامتهم قلّت محبتهم التي أظهروها لله ، فقاسوا قداستهم بنسبة كثرة شعائرهم في حين أن قلوبهم كانت مفعمة بالكبرياء والنفاق .

ومع كثرة وصاياهم الدقيقة والثقيلة صار من المستحيل عليهم أن يحفظوا الناموس .فأولئك الذين رغبوا في عبادة الله وحاولوا في نفس الوقت أن يحفظوا الفرائض التي فرضها معلمو الشريعة كانوا يرزحون تحت عبء ثقيل ، ولم يستطيعوا أن يجدوا راحة من اتهامات ضمائرهم المنزعجة. وهكذا حاول الشيطان أن يثبط همم الشعب ويقلل من فهمهم لصفات الله ويحقر إيمان إسرائيل . لقد أراد أن يثبت ادعاءه

الذي كان قد جاهر به [28] عندما عصى على الله في السماء- أي أن مطاليب الله غير عادلة ولا يمكن إطاعتها ، فقال- حتى إسرائيل نفسه لم يحفظ الناموس

وحين كان اليهود ينتظرون مجيء مسيا لم يكونوا يفهمون مهمته على حقيقتها ، فلم يطلبوا الفداء من الخطية بل طلبوا التحرر من نير الرومان. كانوا ينتظرون أن يجيء مسيا قائدا فاتحا يسحق قوة الظالمين ويرفع من شأن إسرائيل ويجعل سلطانه شاملا ، وهكذا كان الطريق ممهدا أمامهم لرفض المخلص

وعند ميلاد المسيح كانت الأمة رازحة تحت حكم سادتها الغرباء ، كما أن المنازعات الداخلية كانت قد مزقت شملها. وكان مسموحا لليهود أن يحتفظوا بصورة حكومة مستقلة ولكن لم يكن ممكنا إخفاء حقيقة كونهم تحت نير الرومان ، كما لم يكونوا راضين بأن يحد الرومان من سلطانهم . كان الرومان يدعون لأنفسهم الحق في تعيين رئيس الكهنة أو عزله . وكثيرا ما كان الإنسان يظفر بهذه الوظيفة عن طريق الاحتيال أو الرشوة أو حتى القتل . وهكذا انحدرت وظيفة الكهنوت إلى عمق أعماق الهوان والفساد . ومع ذلك فقد كان الكهنة يتمتعون بسلطان عظيم ، ولكنهم ويا للأسف استخدموه في أغراض نفسانية وفي الحصول على الربح القبيح ، فخضع الشعب لمطاليبهم القاسية ، كما عانوا الويلات من جراء الجزية الثقيلة التي فرضها عليهم الرومان . هذه الحالة تسبب عنها تذمر واسع النطاق ، فعبر الشعب عن سخطه بالثورات العامة مرارا كثيرة . لقد كان الجشع والظلم وعدم الثقة والبلادة الروحية تنهش أحشاء الأمة في الصميم

إن كراهية اليهود للرومان وكبرياؤهم القومية والروحية دفعتهم إلى التشبث العنيف بطقوس العبادة. وقد حاول الكهنة أن يشتهروا بالقداسة بتدقيقهم في مراعاة طقوس الديانة . ثم إن الشعب وهم مكتنفون بالظلام والاضطهاد ، والرؤساء وهم متعطشون للسلطة- كانوا مشتاقين لمجيء ذاك الذي سيقهر أعداءهم ويرد الملك إلى إسرائيل . لقد درسوا النبوات ولكن بدون فهم روحي . فأغفلوا تلك النبوات التي أشارت إلى اتضاع المسيح في مجيئه الأول ، وأساءوا تطبيق النبوات التي تتحدث عن مجد مجيئه الثاني ، فأعمت الكبرياء بصائرهم ، وفسروا النبوات بما يتفق ورغائبهم النفسانية [29]

الفصل الثالث ـــــ ملء الزمان

"لَما جاءَ مِلْءُ الزمانِ ، أَرْسلَ اللهُ ابنَه . . . لِيفَتديَ الَّذين تَحت النَّاموسِ ، لِنَنالَ التَّبنِّي" (غلاطية 4 : 4، 5).

لقد أُنبئ عن مجيء المخلص في جنة عدن. إن آدم وحواء عندما سمعا أولا هذا الوعد كانا ينتظران إتمامه سريعا . وبفرح عظيم استقبلا ابنهما البكر على أمل أن يكون هو المخلص . ولكن إنجاز الوعد تأخر ، فذانك اللذان قد أعطي لهما الوعد أولا ماتا دون أن يريا المخلص . ومنذ أيام أخنوخ تكرر الوعد على أفواه الآباء والأنبياء ، وبذلك حفظوا رجاء مجيئه حيا ، ومع ذلك فإنه لم يأتِ . وقد كشفت نبوة دانيال عن وقت مجيئه ، ولكن لم يفسر جميع الناس هذه الرسالة التفسير الصائب . انقضت القرون تباعا وصمتت أصوات الأنبياء ، وثقلت أيدي الطغاة الظالمين على إسرائيل ، وكاد كثيرون يصرخون قائلين: "قَد طَالَت الأَيامُ وَخابت كُلُّ رُؤْيا" (حزقيال 12 : 32).

ولكن كما تدور الكواكب في أفلاكها الوسيعة في مداراتها المعينة فكذلك مقاصد الله لا تعرف عجلة ولا إبطاء. فعن طريق رمزي الرعبة المظلمة وتنور الدخان أعلن الرب لإبراهيم أن بني إسرائيل سيستعبدون للمصريين وقال له إن مدة العبودية ستطول إلى أربع مئة سنة . ثم قال له: " وَبعد ذلِك يخرجونَ بِأملاَكٍ جزيَلة (تكوين 15 : 14). و لقد عبأ فرعون كل قوى إمبراطوريته الجبارة لمحاربة ذلك الوعد ولكن كل ذلك كان عبثا: "وَ كانَ . . . في ذلِك اْليوم عينه (المعين في الوعد الإلهي) ، أَنَّ جميع أَجَنادِ الربِّ خَرجت من أَرْضِ مصر" (خروج 12 : 41) . وكَذلك في محفل السماء تقررت ساعة مجيء المسيح. وعندما أشارت ساعة الزمن العظيمة إلى تلك الساعة ولد يسوع في بيت لحم. [30]

" ملء الزمان"

"لَما جاءَ مِلْءُ الزمانِ". لقد وجهت العناية تحركات الأمم وتيار البواعث والمؤثرات البشرية إلى أن صار العالم مهيأ لمجيء المخلص . لقد توحدت الأمم تحت حكومة واحدة ، ولغة واحدة كانت مستعمله على نطاق واسع ، وكانت في كل مكان تعتبر لغة العلم . ومن كل البلدان كان اليهود الذين في الشتات يجيئون إلى أورشليم للاحتفاء بأعيادهم السنوية . وعندما كانوا يعودون إلى أرض غربتهم أمكنهم أن ينشروا في كل أنحاء العالم أنباء مجيء مسيا

وفي ذلك الحين بدأت الأنظمة والعبادات الوثنية تفقد السيطرة على الناس الذين قد سئموا التمثيل والخرافات ، وكانوا يتوقون إلى ديانة تشبع القلب. وحين بدا كأن الحق قد رحل عن الناس كانت هنالك نفوس تنتظر مجيء النور وقد شملتها الحيرة والحزن . كانت متعطشة إلى معرفة الإله الحي وإلى يقين الحياة بعد الموت

وعندما انحرف اليهود عن الله بدأ الإيمان يضعف ، وكاد الرجاء لا يضيء ظلمات المستقبل ، وما عاد الناس يفقهون أقوال الأنبياء ، وأمسى الموت في نظر عامة الشعب سرا مخيفا. أما ما وراء القبر فكان مكتنفا بالشكوك والظلام: فلم يكن فقط عويل الأمهات في بيت لحم وحدها ، ولكن الصرخة ارتفعت من قلب البشرية العظيم ووصلت إلى النبي عبر الأجيال ـــ "صوتٌ سمع في الرامة ، نَوحٌ وَبكاءٌ وَعويلٌ كَثير . رَاحيلُ تَبكي على أَوْلادِها ولا تُريد أَنْ تَتعزى ، لأَنَّهم لَيسوا بِموجودِين" (متى 2 : 18). لقد جلس الناس "في كُورَةِ الموتِ : وَظِلالِه" لا يجدون عزاء . وبعيون مشتاقة جعلوا يتطلعون مترقبين مجيء المنقذ الآتي ، عندما ينقشع الظلام وتتكشف أسرار المستقبل

انتظار ظهور معلم عظيم

وكان رجال من خارج الأمة اليهودية قد أنبأوا بظهور معلم إلهي ، وكان أولئك القوم ينشدون الحق وقد أعطي لهم روح الوحي. فظهر أولئك المعلمون الواحد بعد الآخر كالكواكب التي تبدد غياهب الظلمة . وأضرمت تلك النبوات التي نطقوا بها الرجاء في قلوب آلاف الناس من كل الأمم [31]

قبل مئات السنين كان الكتاب المقدس قد تُرجِم إلى اليونانية ، وكان كل رعايا الدولة الرومانية المترامية الأطرف يتحدثون باليونانية حينذاك ، وكان اليهود مشتتين في كل مكان ، وكان الأمم يشاركونهم إلى حد ما في انتظارهم لمجيء مسيا. وبين الذين اعتبرهم اليهود وثنيين وُجدت جماعة كانوا يفهمون النبوات الخاصة بمسيا فهما أفضل من فهم معلمي إسرائيل . فلقد وُجِد من كانوا ينتظرون مجيئه كمخلص من الخطية . لقد حاول الفلاسفة أن يدرسوا أسرار النظام العبراني ، ولكن تعصب اليهود حال دون نشر النور . لقد أصروا على الانفصال عن الأمم الأخرى رافضين إذاعة معرفتهم عن الخدمات الرمزية . فكان ينبغي أن يجيء المفسر الحقيقي ، إذ ينبغي أن ذاك الذي كانت كل الرموز تشير إليه يفسر لهم مدلولاتها

فعن طريق الطبيعة ، وعن طريق الآباء والأنبياء ، وعن طريق الرموز والإشارات كلم الله العالم. فالدروس التي تقدم للبشر ينبغي أن تقدم لهم في لغتهم . ينبغي لرسول العهد أن يتكلم وأن يسمع صوته في هيكله . يجب أن ينطق المسيح بكلام واضح ومفهوم . وما دام هو مبدع الحق فينبغي له أن يفصل بين الحق فارزا إياه عن بطل كلام الناس الذي جعله عديم التأثير . ينبغي إيضاح مبادئ حكم الله وتدبير الفداء بكل جلاء . يجب أن توضع كل تعاليم العهد القديم أمام الناس كاملة.

انتعاش الرجاء

وقد كانت بين اليهود نفوس ثابتة من نسل تلك السلالة المقدسة التي عن طريقها حفظت معرفة الله. هؤلاء الناس ظلوا ينتظرون رجاء الوعد المقدم للآباء . وقد تشدد إيمانهم لدى تأملهم في الوعد المعطى لموسى وهو القائل: "إن نبياً سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلّمكم به" (أعمال 3 : 22). كما أنهم قرأو أيضاً ما تذكره نبوة إشعياء عن المسيح: "روح السيد الرب علي، لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي المسبيين بالعتق .. لأنادي بسنة مقبولة للرب" (إشعياء 61 : 1، 2). كما قرأوا ما قيل عنه أنه لا يكل "حتى يضع الحق في الأرض" وكيف أن الجزائر "تنتظر ... شريعته" والأمم "تسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك" (إشعياء 42 : 2 ؛ 60 :

3). [32]

كما أن الأقوال التي نطق بها يعقوب قبلما أسلم روحه ملأتهم رجاء إذ قال: " لا يزولُ قَضيب من يهوذَا وَمشَترعٌ من بينِ رِجَليه حتَّى يأتي شيْلُونُ وَله يكُونُ خُضوعُ شُعوبٍ" (تكوين 49: 10). إن اضمحلال سلطان إسرائيل شهد بأن مجيء مسيا صار قريبا جدا . لقد صورت نبوءة دانيال مجد ملكه في مملكة تجيء بعد كل ممالك الأرض ، وقد قال ذلك النبي: "هي تَثبتُ إِلى الأبد" (دانيال 2 : 44). ومع أن قليلين قد فهموا طبيعة رسالة المسيح فقد كان أكثرهم ينتظرون مجيء ملك يثبت ملكوته في إسرائيل ويأتي مخلصا للأمم .

لقد جاء ملء الزمان. فالبشرية وقد ازداد انحطاطها بسبب انغماسها في الخطية مدى الأجيال استدعت مجيء الفادي . وكان الشيطان يعمل جاهدا لتوسيع الهوة الحادثة بين الأرض والسماء بحيث لا يمكن عبورها ، فبأكاذيبه جرأ الناس على ارتكاب الخطية ، كما كان يقصد أن ينهك صبر الله ويطفئ نار محبته للإنسان فيترك العالم لسلطان الشيطان.

الشيطان يفسد الإيمان

كان الشيطان يحاول أن يحجب عن الناس معرفة الله ويحول انتباههم بعيداً عن هيكله ويوطد دعائم مملكة الظلام. فبدا وكان كفاحه في سبيل السيادة يوشك أن يكلل بالنجاح التام. نعم ، إننا نسلم بأن الله كان له رجاله الأمناء في كل عصر . وحتى بين الوثنيين وجد رجال كان الله يستخدمهم في رفع الشعب من أوحال الخطية والانحطاط . ولكن هؤلاء الرجال كانوا محتقرين ومكروهين . وكثيرون منهم ماتوا أشنع الميتات وأقواها . وهكذا زاد هول قتام الظلمة- التي لف فيها الشيطان العالم

وبواسطة الوثنية أبعد الشيطان الناس عن الله أجيالا طويلة. ولكنه أحرز أعظم انتصاراته إذ أفسد إيمان إسرائيل . وإذ تبع الوثنيون تصورات أفكار قلوبهم أضاعوا معرفة الله وأوغلوا في الفساد . وهذا يصدق أيضاً على إسرائيل . إن النظرية القائلة بأن الإنسان يستطيع أن يخلص نفسه بأعماله كانت هي أساس كل الديانات الوثنية ، وقد صارت نفس هذه الضلالة هي المبدأ السائد في الديانة اليهودية . والذي زرع هذه الفكرة هو الشيطان . والذين يدينون بهذا المبدأ ليس عندهم رادع يصدهم عن ارتكاب الخطية

إن رسالة الخلاص تُبلَّغ للناس بواسطة أناس مثلهم ، ولكن اليهود حاولوا احتكار الحق [33] الذي هو حياة أبدية. لقد اختزنوا الحق الحي (المن) فتولد فيه الفساد . فذلك الدين الذي حاولوا أن يبقوه لأنفسهم صار كريها . لقد سلبوا الله مجده وغبنوا العالم بإنجيل زائف . إنهم إذ رفضوا تسليم ذواتهم لله لأجل خلاص العالم صاروا آلات طيعة في يد الشيطان لإهلاك البشرية

ممثلو الشيطان

إن ذلك الشعب الذي قد اختاره الله ليكون عمود الحق وقاعدته صاروا نوابا عن الشيطان. كانوا يعملون ما أرادهم هو أن يعملوه إذ انتهجوا طريقا فيه صوروا صفات الله أسوأ تصوير وجعلوا الناس يعتبرونه طاغية مستبدا . حتى الكهنة أنفسهم الذين كانوا يخدمون في الهيكل ما عادوا يفهمون مغزى

الخدمة التي كانوا يمارسونها . وما عادوا ينظرون خلف الرمز إلى ما كان يعنيه ويرمز إليه . وإذ كانوا يقدمون الذبائح الكفارية كانوا يتصرفون كمن يمثلون رواية .والفرائض التي قد رسمها الله ذاته صارت وسيلة في تعمية العقل وتقسية القلب . ولم يعد الله قادرا أن يعمل شيئا أكثر للإنسان عن طريق هذه الوسائل ، فكان لابد من إبطال النظام كله

لقد وصل خداع الخطية وتضليلها إلى أقسى حدوده. وكانت كل وسائل إبعاد النفوس عن الله دائبة في عملها . إن ابن الله إذ نظر من عليائه إلى العالم رأى آلام البشر وشقاءهم. وبكل عطف وإشفاق رأى كيف صار الناس ضحايا قسوة الشيطان . وبكل رفق نظر إلى أولئك الذين قد أفسدوا وقتلوا وهلكوا . لقد اختاروا سيدا كبلهم بالأغلال وأوثقهم إلى مركبته كأسرى ، وإذ كانوا متحيرين ومخدوعين كانوا يسيرون في موكب الحزن إلى الهلاك الأبدي- إلى موت لا رجاء في الحياة بعده ، وإلى ليل لا أمل في أن يعقبه نور النهار . إن أعوان الشيطان قد اتحدوا مع الناس . فأجسام بنى الإنسان التي خلقت لتكون مسكنا لله صارت مباءة للشياطين ، فأصبح الإنسان بحواسه وأعصابه وعواطفه وأعضاء جسمه فريسة لعوامل فائقة الطبيعة تشدد للانغماس في أحط الشهوات . فتعكس على وجهه صورة الشيطان الذي يسكن في قلب الإنسان . هذا هو المنظر الذي رآه فادي العالم . ما كان أرهب هذا المنظر الذي وقعت عليه أنظار الطهارة غير المحدودة!

لقد أصبحت الخطية علما وفنا واعتبرت الرذيلة جزءا من الدين ، فتأصل التمرد في [34] القلب عميقا وصارت عداوة الإنسان للسماء عنيفة جدا. وقد تبرهن لدى الكون كله أن البشرية بدون الله لا يمكن أن ترتفع أو تتسامى أو تنهض من سقطتها . إذا فلابد من إدخال عنصر جديد للحياة والقوة بواسطة ذاك الذي خلق العالم

اهتمام العوالم غير الساقطة

إن العوالم غير الساقطة كانت قد راقبت باهتمام عظيم لترى الرب يقوم ويكتسح سكان الأرض. ولو فعل الله هذا فإن الشيطان كان على أتم استعداد لتنفيذ خطته في الظفر بولاء الخلائق السماوية . كان قد أعلن من قبل أن مبادئ حكم الله تجعل الغفران أمرا مستحيلا . فلو أهلك العالم لكان الشيطان يدعي أنه قد تبرهن صدق اتهاماته . كان مستعدا لأن يعود باللائمة على الله ، وينشر عصيانه في العوالم العليا . ولكن بدلا من أن يهلك الله العالم أرسل ابنه ليخلصه . ومع أنه كان يرى الفساد وتحدي الله العلي في كل أنحاء العالم الشرير فقد أعد تدبيرا لرد هذا العالم إلى الله . وفي اللحظة الحاسمة عندما بدا وكأن الشيطان سينتصر جاء ابن الله برسالة النعمة الإلهية . وفي كل عصر وكل ساعة ظهرت محبة الله لجنسنا الساقط .ورغم فساد الناس فقد ظهرت دلائل رحمة الله المستمرة نحوهم . ولما جاء ملء الزمان تمجد الله في كونه أغدق على العالم سيلا من نعمته الشافية التي لم يمكن حجزها أو منعها حتى يتم تدبر الخلاص

لقد سر الشيطان لكونه أفلح في تشويه صورة الله في البشرية. حينئذ أتى يسوع ليعيد إلى الإنسان صورة خالقه . وليس أحد غير المسيح يستطيع أن يشكل من جديد خلق الإنسان بعدما دمرته الخطية . لقد أتى ليطرد الشياطين الذين تحكموا في إرادة الإنسان ، أتى يرفعنا من التراب ويخلق من جديد صفاتنا التي قد فسدت لتكون على مثال صفاته الإلهية وليجعلها بهية بمجده [35]

الفصل الرابع ـــــولد لكم مخلص

لقد تنازل ملك المجد فاتخذ لنفسه جسدا بشريا وكانت البيئة الأرضية التي عاش فيها خشنة وكريهة. لقد احتجب مجده حتى لا يسترعي مظهر جلاله الخارجي التفات الناس إنه نبذ كل مظاهر الأبهة والتفاخر ، إذ أن الغنى والمجد العالمي والعظمة البشرية لا يمكنها أبداً أن تخلص نفسا من الموت . فقصد يسوع ألا يكون أي جاذب أرضي سببا في التفاف الناس حوله ، وإنما جمال الحق السماوي وحده هو الذي ينبغي أن يجتذب من يرغبون في اتباعه . لقد سبقت النبوات فأنبأت عن صفات مسيا ، وهو يرغب أن يقبله الناس بناء على شهادة كلمة الله

إن تدبير الفداء المجيد أذهل الملائكة ، فجعلوا يراقبون كيف سيستقبل شعب الله ابنه المتسربل بثياب البشرية ، وها هم قد أتوا إلى أرض الشعب المختار. كانت الأمم الأخرى تتعامل بالخرافات وتعبد الآلهة الكاذبة ، فأتى الملائكة إلى الأرض التي فيها قد أعلن مجد الله وعليها أشرق نور النبوة . جاءوا إلى أورشليم دون أن يراهم أحد ، وإلى مفسري أقوال الله المختارين وإلى خدام بيته . وقد سبق الملاك فأنبأ زكريا الكاهن إذ كان يخدم أمام المذبح عن قربى مجيء المسيح . وها قد ولد ذاك السابق للمسيح ورائده وكانت رسالته ستؤيد بالمعجزات والنبوات ، فانتشرت أنباء ميلاده ومغزى رسالته العجيبة في كل مكان . ومع ذلك فإن أورشليم لم تكن متأهبة لاستقبال فاديها

وبكل دهشة وذهول لاحظ الأجناد السماويون عدم مبالاة ذلك الشعب الذي دعاه الله لنشر نور الحق المقدس في العالم. لقد حفظت الأمة اليهودية شهادة على أن المسيح سيولد من ذرية إبراهيم ومن نسل داود ، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا يعلمون أن مجيئه قريب جدا وفي الهيكل كانت الذبائح الصباحية والمسائية التي كانت تقدم كل يوم ، تشير إلى حمل الله. ولكن حتى في الهيكل المقدس لم يكن هنالك أي استعداد للترحيب به . إن كهنة الأمة ومعلميها لم يكونوا يعلمون أن أعظم حدث مدى أجيال التاريخ مزمع أن يقع . لقد كانوا [36] يتلون صلواتهم العديمة المعنى ويمارسون طقوس العبادة لكي ينظرهم الناس. ولكن في كفاحهم سعيا وراء الغنى والشرف العالمي لم يكونوا متأهبين لاستقبال مسيا ، وهكذا ساد عدم المبالاة أرض إسرائيل . فالقلوب المحبة لذاتها المنغمسة في حب العالم لم يكن لها نصيب في الفرح الطاغي الذي ملأ أرجاء السماء . ولكن كانت هناك أقلية من الشعب تاق أفرادها إلى رؤية الرب غير المنظور . إلى هؤلاء أرسلت رسل السماء

مدينة الكرامة

ها الملائكة يصحبون يوسف ومريم في رحلتهما من وطنهما في الناصرة إلى مدينة داود. إن المنشور الذي أصدره إمبراطور روما لأجل اكتتاب شعوب تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف قد وصل إلى

أولئك الساكنين بين تلال الجليل . وكما دعي كورش قديما كي يتربع على عرش العالم ويطلق أسرى الرب أحرارا ، كذلك صار أوغسطس قيصر أداة طيعة في يد الله لإتمام مقاصده في الإتيان بأم يسوع إلى بيت لحم . إنها من بيت داود ، وينبغي أن يولد ابن داود في مدينته . لقد تنبأ النبي قائلا: "أما أَنْت يا بيتَ لَحم أَفْراتَةَ ، وَأَنْتِ صغيرةٌ أَنْ تَكُوني بين أُلوفِ يهوذَا ، فَمِنْك يخْرجُ لِي الَّذي يكونُ متَسلِّطًا علَى إِسرائِيلَ ، وَمخَارِجه منْذُ الْقَديم ، منْذُ أيام الأَزَلِ" (ميخا 5 : 2). ولكن يوسف ومريم وهما في مدينة آبائهما نسل الملوك لم يلحظهما الناس ولا فطنوا لوجودهما فلم يكرمهما أحد . وإذ كانا متعبين وبلا مأوى جعلا يذرعان أرض الشارع الضيق من أوله إلى آخره من باب المدينة إلى طرفها الشرقي يبحثان عبثا عن مكان يقضيان فيه ليلتهما ، ولكنهما لم يجدا لهما موضعا في المنزل المزدحم بالوافدين . ففي مبنى خشن غير لائق بالناس وكان مأوى للسائمة وجدا لهما مكانا يبيتان فيه . ففي هذا المكان الحقير ولد فادي العالم!

لم يعرف الناس عن ميلاده شيئا ، ولكن ذلك الخبر ملأ أرجاء السماء فرحا وحبورا ، فباهتمام عميق ورقيق جدا اتجهت أنظار تلك الخلائق المقدسة من سماء المجد والنور إلى أرضنا هذه. إن وجود الفادي ملأ كل العالم بهجة ونورا ، فتجمعت جماهير من الملائكة لا يحصى عددهم فوق جبال بيت لحم . إنهم ينتظرون الإشارة ليعلنوا تلك البشرى للعالم . ولو كان قادة إسرائيل أمناء [37] على وكالتهم لأمكنهم الاشتراك في إذاعة بشرى ميلاد يسوع. ولكن الرب غض الطرف عنهم

لقد أعلن الله قائلاً: " أني أسكب ماء على العطشان، وسيولاً على اليابسة" ، " نور أشرق في الظلمة للمستقيمين" (إشعياء 44: 3 ؛ مزمور 112: 4). فأولئك الذين يطلبون النور ويقبلونه بفرح ستشرق عليهم أشعته من عرش الله.

بشرى الملائكة

في الحقول التي كان داود من قديم يرعى فيها قطيعه كان رعاة يحرسون حراسات الليل على رعيتهم. وفي ساعات الليل الساكنة كانوا يتحدثون معاً عن المخلص الموعود به ويصلون طالبين مجيء الملك إلى عرش داود ،"وَإِذَا ملاَكُ الربِّ وَقَفَ بِهِم ، وَمجد الربِّ أَضاءَ حولَهم ، فَخَافُوا خَوفًا عظيما . فَقَالَ لَهم الْملاَكُ: "لاَ تَخَافُوا! فَها أَنا أُبشِّركُم بِفَرحٍ عظيم يكُونُ لِجميعِ الشَّعبِ: أَنَّه وُلِدلَكُم الْيومَ في مدينَة دَاوُدَ مخَلِّص هو الْمسيح الرب" (لوقا 2 : 9 — 11).

بهذه الأقوال امتلأت عقول الرعاة المستمعين برؤى المجد. لقد أتى المخلص إلى إسرائيل! وإن السلطان والرفعة والنصرة تصاحب مجيئه . ولكن ينبغي أن يعدهم الملاك ليميزوا مخلصهم وهو في حالة الاتضاع والفقر ، ولذلك يقول لهم: "وَهذه لَكُم الْعلاَمةُ: تَجِدونَ طفْلاً مقَمطًا مضجعا في مذْوَدٍ " (لوقا 2 : 12).

لقد سكَّن رسول السماء مخاوفهم وأخبرهم كيف يجدون يسوع. وبمراعاته الرقيقة لضعف بشريتهم كان قد أعطاهم وقتا كافيا لتعتاد عيونهم النور السماوي ، وحينئذ لم يعد ممكنا كبت الفرح أو إخفاء المجد أكثر من ذلك ، فاستتار ذلك الوادي الفسيح ببهاء نور ملائكة الله . لقد صمتت الأرض وانحنت السماء لتصيخ بسمعها إلى الأنشودة القائلة الْمجد لِلهِ في الأَعالِي ، وَعلَى الأَرْضِ السلاَمُ ، وَبِالنَّاسِ الْمسرةُ " (لوقا 2 : 14).

يا ليت الأسرة البشرية تعرف هذه الأنشودة اليوم. إن ذلك الإعلان وتلك الأنشودة التي ترنم بها ملائكة العلي ستظل ترن وتنتشر إلى انقضاء الدهر وسيرن صداها إلى أقصى الأرض . وعندما يشرق شمس البر

(المسيح) والشفاء [38] في أجنحته فسيردد صدى هذه الأنشودة جمع غفير ، وبصوت كصوت مياه كثيرة سيهتفون قائلين: "هلِّلويا! فَإِنَّه قَد ملَك الربُّ الإِله الْقَادِرُ علَى كُلِّ شَيءٍ" (رؤيا 19 : 6).

شهود عيان

وحينما مضت الملائكة اختفى النور وغطى الظلام تلال بيت لحم مرة أخرى. ولكن أبهى صورة رأتها عين بشر ظلت ماثلة في أذهان الرعاة: "وَلَما مضتْ عنْهم الْملاَئِكَةُ إِلَى السماءِ ، قَالَ الرجال الرعاةُ بعضهم لِبعضٍ : " لِنَذْهبِ الآنَ إِلَى بيتِ لَحم وَنَنْظُر هذَا الأمَر الْواقع الَّذي أَعلَمنَا بِه الربُّ". فَجاءُوا مسرِعين ، وَوَجدوا مريم وَيوسفَ وَالطِّفْلَ مضجع في الْمذْوَدِ" (لوقا 2 : 15، 16).

فلما انطلقوا إلى هناك فرحين أخبروا بما قد رأوه وسمعوه ، "وَكُلُّ الَّذين سمعوا تَعجبوا مما قيلَ لَهم من الرعاةِ . وَأَما مريم فَكَانَتْ تَحفَظُ جميع هذَا الْكَلاَم متَفَكِّرةً بِه في قَلْبِها . ثُم رَجع الرعاةُ وَهم يمجدونَ اللهَ وَيسبحونَه علَى كُلِّ ما سمعوه ورَأَوْهُ كَما قيلَ لَهم " (لوقا 2 : 18 — 12).

إن شقة البعد بين السماء والأرض ليست أعظم الآن مما كانت حين أصغى الرعاة لأنشودة الملائكة ، إذ أن البشرية لا تزال موضع اهتمام السماء الآن كما كانت في ما مضى عندما أناس عاديون كانوا يقومون بأعمال عادية في الكروم والحقول التقوا برسل السماء في منتصف النهار وتكلموا وإياهم. ويمكن أن تكون السماء قريبة منا جدا ونحن نسير في مسالك الحياة العادية ، فالملائكة القادمون من السماء يلازمون خطوات أولئك الذين يروحون ويجيئون حسب أمر الله

إن قصة بيت لحم موضوع لا ينضب معينه ، فإنه مخبوء فيها " عمق غنَى اللهِ وَحكْمته وَعلْمه" (رومية 11: 33). إننا نندهش من التضحية التي قد أقدم عليها المخلص إذ أبدل عرش السماء بالمذود ، وعشرة الملائكة الذين كانوا يسبحونه ويتعبدون له بالبهائم في حظائرها . إن في حضرته توبخ الكبرياء البشرية والاكتفاء الذاتي ، ومع ذلك فقد كان هذا بدء تنازله العجيب . كان الأمر سيعتبر اتضاعاً عظيما من ابن الله لو أنه اتخذ الطبيعة [39] البشرية حتى في الوقت الذي كان فيه آدم لا يزال محتفظا بكماله وطهارته في جنة عدن ولكن يسوع أخذ طبيعة إنسان بعدما أنهكت الخطية البشر مدة أربعة آلاف سنة. وككل طفل من أبناء آدم ، قبل السيد على نفسه نتائج تفاعل ناموس الوراثة العظيم . أما ماذا كانت تلك النتائج فهذا يرى في تاريخ حياة أسلافه الأرضيين . لقد كان من آثار تلك الوراثة أنه قاسمنا أحزاننا وتجاربنا ، وقدم لنا حياة مثالية منزهة عن الخطأ.

لقد أبغض الشيطانُ المسيح وهو في السماء بسبب منزلته في السماء. وازداد بغضا له عندما سقط هو نفسه من منزلته . لقد أبغض ذاك الذي آلى على نفسه أن يفتدي الخطاة ومع ذلك ففي العالم الذي ادعى الشيطان أنه سيد عليه سمح الله لابنه أن يحل هناك ، كطفل قاصر معرض لضعف البشرية . كان عليه ككل طفل بشري أن يجابه خطر الحياة الذي تشترك فيه كل نفس بشرية . وأن يشتبك في معركتها ، معرضا لخطر الفشل والخسارة الأبدية

إن قلب الأب البشري يحن إلى ابنه. إنه يتطلع في وجهه ويرى خوفا على صغيره من خطر الحياة . إنه يتوق لحماية ابنه العزيز من قوة الشيطان وأن يباعد بينه وبين التجارب والمحاربات . ولكن الله بذل ابنه الوحيد ليلاقي صراعا أقسى مرارة ، وليقدم على مخاطرة أشد هولاً حتى تتكشف معالم طريق الحياة أمام صغارنا. "في هذَا هي الْمحبةُ". (1 يوحنا 4: 10). اندهشي أيتها السماوات وتحيري أيتها الأرض! [40]

الفصل الخامس ــــ التكريس

بعد ولادة المسيح بحوالي أربعين يوما أخذته مريم ويوسف إلى أورشليم ليقدماه للرب وليقدما ذبيحة. وكان هذا طبقا للشريعة اليهودية . فكبديل عن الإنسان كان على المسيح أن يمتثل للناموس في كل دقائقه . كان قد سبق وخضع لفريضة الختان ضمانا لطاعته للناموس

كان الناموس يفرض أن تقدم عن الأم ذبيحة خروف ابن سنة محرقة وحمامة أو يمامة ذبيحة خطية. ولكن متى كان الأبوان فقيرين لا يستطيعان تقديم خروف كان الناموس يسمح لهما بتقديم زوج يمام أو فرخي حمام ، فيقدم أحدهما محرقة والثاني ذبيحة خطية

والذبائح المقدمة للرب كان مفروضا أن تكون بلا عيب. وهذه الذبائح كانت رمزا إلى المسيح ، فمن هذا يتضح أن يسوع نفسه كان خاليا من كل عيب أو عاهة جسمانية . لقد كان ذلك الحمل "بِلاَ عيبٍ وَلاَ دَنسٍ" (1 بطرس 1 : 19). إن تركيبه الجسماني لم يكن فيه أي نقص أو تشويه فلقد كان قوي الجسم وصحيح البدن . وطيلة أيام حياته عاش في وفاق مع نواميس الطبيعة . ومن الناحية الجسمانية والروحية كان مثالا لما قصد الله أن تكون عليه البشرية كلها عن طريق الطاعة لنواميسه

تكريس الابن البكر

إن تكريس الابن البكر كان متبعا منذ أيام القدم ، إذ وعد الله أن يقدم رئيس السماء ليخلص الخطاة. وكان ينبغي لكل بيت أن يعترف بهذه العطية بتكريس الابن البكر لله . كما كان يجب إفرازه للكهنوت كممثل للمسيح بين الناس [41]

وعند تحرير إسرائيل من عبودية مصر عاد الرب فأمر بني إسرائيل بتقديم أبكارهم له. عندما كان بنو إسرائيل تحت عبودية المصريين أوصى الرب موسى أن يذهب إلى فرعون ملك مصر ويقول له: "فَتَقُولُ لِفِرعونَ: هكذا يقُولُ الربُّ: إِسرائِيلُ ابني ٱلبِكر . فَقُلتُ لَك: أطلق ابني لِيعبدني ، فَأَبيت أَنْ تُطلقه . ها أَنا أَقتُلُ ابنك البكر" (خروج 4 : 22، 23).

وقد نطق موسى برسالته هذه في مسامع فرعون ، ولكن ذلك الملك المتكبر أجاب قائلا: " من هو الربُّ حتَّى أَسمع لِقولِه فَأُطلقَ إسرائِيلَ؟ لاَ أَعرِفُ الربَّ ، وَإِسرائِيلَ لاَ أُطلقُه" (خروج 5 : 2). وقد عمل الرب مع شعبه آيات وعجائب إذ أرسل على فرعون أحكاما رهيبة . أخيرا أمر الملاك المهلك أن يقتل كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم . ولكي ينجو بنو إسرائيل من تلك الضربة أمروا بأن يرشوا من دم الخروف المذبوح على العتبة العليا والقائمتين في بيوتهم . فكل بيت كان ينبغي أن يكون عليه الدم علامة حتى إذا أتى الملاك المهلك يعبر عن بيوت الإسرائيليين

فبعد وقوع هذه الضربة على مصر قال الرب لموسى: "قَدسْ لِي كُلَّ بِكرٍ . . . من النَّاسِ وَمن ٱلبهائِمِ .

إِنَّه لِي" ، "يومَ ضربتُ كَلّ بِكرٍ في أرْضِ مصر قَدستُ لِي كَلّ بِكرٍ في إِسرائِيلَ من النَّاسِ وَٱلبهائِم . لِي يَكُونُونَ . أنا الربُّ" (خروج 13 : 2 ؛ عدد 3 : 13). وبعدما نظمت الخدمة في خيمة الاجتماع اختار الرب سبط لاوي بدل كل أبكار إسرائيل ليخدموا في القدس . ولكن كان يجب اعتبار الأبكار خاصة الرب وكان ينبغي أن تقدم عنهم فدية

وهكذا كان لشريعة تقديم البكر دلالتها الخاصة. ففي حين أنها كانت تذكارا لخلاص بني إسرائيل من تحت نير المصريين ، ذلك الخلاص العظيم الذي صنعه الرب ، فقد كانت رمزا لخلاص أعظم يقوم به ابن الله الوحيد . فكما كان الدم المرشوش على العتبة العليا والقائمتين سببا في نجاة أبكار بني إسرائيل كذلك دم المسيح له قوة على تخليص العالم

فما كان أعظم المعنى المتعلق بتقديم المسيح إذاً! إلاّ أن الكاهن لم يكن يرى شيئا خلال الحجاب ، ولم يكن يعرف السر المنطوي خلفه . لقد كان تقديم الأطفال منظرا عاديا . ويوما بعد يوم كان الكاهن يتسلم فضة الفداء عندما كان الأطفال يقدمون للرب . ويوما بعد يوم كان الكاهن يقوم بذلك العمل الرتيب ، وقلما كان [42] يعير الأطفال أو والديهم أي التفات ما لم ير دليلا على ثراء الوالدين أو مقامهم الرفيع. أما يوسف ومريم فكانا فقيرين ، فلما قدما طفلهما لم ير الكهنة إلاّ رجلا وامرأة يرتديان زي الجليليين وعليهما أبسط الملابس . لم يكن في هيئتهما ما يسترعي الالتفات . ولم يقدما سوى التقدمة التي اعتاد فقراء الشعب أن يقدموها

الكاهن لم يعرف الطفل يسوع

قام الكاهن بعمله مباشرا تلك الخدمة. فأخذ الطفل بين ذراعيه ووقف به أمام المذبح وبعدما أعاده إلى أمه كتب اسمه "يسوعَ" في سجل الأبكار . ولم يكن الكاهن يفطن والطفل بين ذراعيه إلى أنه يحمل جلال السماء وملك المجد ، ولا كان يعلم أن هذا الطفلِ هو ذاك الذي كتب عنه موسى يقول: "إِنَّ نَبِيا مثْلي سيقيم لَكُم الربُّ إِلهكُم من إِخوتكُم . لَه تَسمعونَ في كُلِّ ما يكَلِّمكم بِه" (أعمال 3 : 22). ولم يكن يدري أن هذا الطفل هو ذاك الذي طلب موسى أن يرى مجده . ولكن ذلك الكاهن كان يحمل بين ذراعيه من هو أعظم من موسى ، وإذ كان يسجل اسمه سجل اسم ذاك الذي كان أساس كل النظام اليهودي ، فكان في ذلك الاسم شهادة على موت ذلك النظام ، لأن نظام الذبائح والمحرقات والتقدمات كان قد عتق وشاخ . وها هو الرمز يكاد يلتقي بالمرموز إليه والظل يلتقي بالحقيقة

لقد رحل المجد " الشكينا" عن القدس. ولكن في وليد بيت لحم كان يحتجب مجد عظيم كان الملائكة يخرون أمامه ساجدين . إن ذلك الطفل الذي لم يكن يحس بشيء كان هو النسل الموعود به والذي إليه رمز أول مذبح أقيم عند مدخل جنة عدن . هذا هو شيلون مانح السلام . إنه هو الذي أعلن لموسى عن نفسه أنه هو "أهيه" وفي عمود النار والسحاب كان هو قائدا لإسرائيل . إنه هو الذي سبق الراؤون والأنبياء فأنبأوا بمجيئه . لقد كان هو مشتهى كل الأمم ، أصل وذرية داود وكوكب الصبح المنير . إن ذلك الطفل الصغير القاصر الذي سجل اسمه بين أسماء أطفال بني إسرائيل معلنا عن نفسه أنه أخونا كان هو رجاء البشر الساقطين . ذلك الطفل الذي قدمت عن فدائه بعض دراهم الفضة كان هو الذي سيدفع ثمن الفداء عن خطايا كل العالم . إنه "رئِيس الكهنة الحقيقي على بيت الله" ، ورأس "كَهنُوتٌ لا يزولُ" والشفيع الجالس "في يمينِ ٱلعظَمة في الأَعالِي" (عبرانيين 10 : 21 ؛ 7 : 24 ؛ 1 : 3). [43]

إن الأمور الروحية إنما تُدرَك روحيا. لقد كُرس ابن الله في الهيكل للعمل الذي أتى ليعمله . نظر

الكاهن إليه كما كان ينظر إلى أي طفل آخر . ولكن مع أنه لم يكن يرى أو يحس بأي شيء غير عادي نحوه إلاّ أن عمل الله في بذله ابنه للعالم قد أقر به . فهذه

المناسبة لم تمر دون أن يكَتشف المسيح ويعَترف به: "وَ كانَ رَجلٌ في أُورُ شليم اسمه سمعانُ ، وَهذا الرجلُ كَانَ بارا تَقيا يَنتَظِر تعزيةَ إِسرائيلَ ، وَالروحُ ٱلْقُدسُ كَانَ عليه. وَكانَ قَد أُوحي إِليه بِالروحِ ٱلْقُدسِ أَنَّه لا يرى ٱلموتَ قَبلَ أَنْ يرى مسيح الربِّ" (لوقا 2 : 24 — 26).

سمعان وحنة يشهدان

فإذ يدخل سمعان الهيكل يرى عائلة تقدم ابنها البكر إلى الكاهن. ومنظرهما يدل على الفقر ، إلاّ أن سمعان يفهم إنذارات الروح فيقتنع اقتناعا عميقا بأن ذلك الطفل الذي يقدم إلى الرب هو تعزية إسرائيل ، والذي طالما اشتاق أن يراه ، فبدا لعيني الكاهن المنذهل أن فرحا طاغيا يملأ قلب ذلك الشيخ . لقد أعيد الطفل إلى أمه مريم ، وإذا به يأخذه بين ذراعيه ويقدمه لله بينما تمتلئ نفسه بموجة فرح غامر لم يشعر بمثله من قبل . وإذ يرفع ذلك الطفل المخلِّص إلى السماء يقول: "الآنَ تُطلقُ عبدكَ يا سيد حسبَ قَولِك بِسلام ، لأَنَّ عيَني قَد أَبصرتا خَلاصك ، الَّذي أعددْتَه قُدامَ وَجه جميعِ الشُّعوبِ . نُورَ إعلانٍ لِلأُممِ ، وَمجدا لشعبِكَ إِسرائِيلَ" (لوقا 2 : 29 — 32).

لقد استقر روح النبوة على رجل الله هذا. وإذ كان يوسف ومريم واقفين يتعجبان مما قيل فيه ، باركهما سمعان وقال لمريم: "ها إِنَّ هذا قَد وُضع لِسقُوطِ وَقيامِ كَثيرين في إِسرائِيلَ ، وَلِعلامة تُقاوَمُ . وَأَنت أَيضا يجوزُ في نَفسك سيفٌ ، لِتُعَلن أَفكارٌ من قُلُوبٍ كَثيرَة" (لوقا 2 : 34، 35).

وكانت هنالك أيضا نبية اسمها حنة. هذه أتت وأمنت على شهادة سمعان من نحو المسيح ، فإذ كان سمعان يتكلم أشرق على وجهها مجد الله فسكبت شكر قلبها لله لأنه قد سمح لها بأن ترى مسيح الرب

هذان العابدان المتواضعان لم يدرسا النبوات عبثا. ولكن مع أن أقوال الأنبياء الثمينة [44] كانت أيضا بين أيدي أولئك الذين شغلوا مناصب رؤساء وكهنة إسرائيل ، فإنهم لم يكونوا سائرين في طريق الرب ولذلك لم تفتح عيونهم لرؤية نور الحياة

هكذا الحال اليوم ، فالحوادث التي يتركز فيها اهتمام كل السماء لا يلتفت الناس إليها ، ورجال الدين والعابدون في بيت الله لا يلاحظون وقوعها. إن الناس يعترفون بالمسيح من الناحية التاريخية ، ولكنهم ينصرفون عن المسيح الحي . والمسيح في كلمته وهو يدعو الناس إلى تضحية الذات ، وفي أشخاص المساكين والمتألمين الطالبي النجدة والعون ، وفى مطاليب الله العادلة المنطوية على الفقر والكدح واحتمال العار ، لا يجد من الناس اليوم استجابة ولا قبولا أكثر مما كان منذ عشرين قرنا خلت.

كانت مريم تتأمل متفكرة في نبوة سمعان في اتساعها وبعد مداها. ففيما كانت تنظر إلى وليدها الذي كانت تحمله على ذراعيها وذكرت الكلام الذي كانت قد سمعته من رعاة بيت لحم امتلأ قلبها فرحا وشكرا ورجاء مشرقا . وقد ذكّرها كلام سمعان بنبوة إشعياء القائلة: "ويخرج قضيب من جذع يسّى ، و ينبت غصن من أصوله ، ويحلّ عليه روح الربّ ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوّة ، روح المعرفة ومخافة الربّ . ولذّته تكون في مخافة الرب ... ويكون البر منطقة متنية ، والأمانة حقويه" ، "الشعب السالك في لظلمة أبصر نوراً عظيماً . الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور ... لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً ، مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام" (إشعياء 11 : 1 — 5 ؛ 9 : 2 — 6).

إساءة فهم رسالته الحقيقية

ومع ذلك فإن مريم لم تكن تفهم رسالة المسيح. لقد تنبأ عنه سمعان بأنه سيكون نور إعلان للأمم تماما كما سيكون مجدا لشعب إسرائيل . وهكذا أعلنت الملائكة عن ميلاد المخلص كبشارة مفرحة لكل الشعوب . وقد كان الله يريد تصحيح الآراء اليهودية المتزمتة عن عمل مسيا . كان يريد أن ينظر الناس إليه لا لمجرد اعتباره مخلصا لإسرائيل وكفى بل على اعتباره فاديا للعالم . ولكن لابد من مرور سنين عديدة قبل أن تدرك حتى أم يسوع نفسها رسالته

كانت مريم تنظر إلى الأمام إلى ملك مسيا على عرش داود ، ولكنها لم تكن ترى [45] صبغة الآلام التي لا يمكن الوصول إلى العرش بدونها. لقد أعلن على فم سمعان أن مسيا لن يجد طريقا سهلا ممهدا رحبا يسير فيه في العالم . وفي قوله الذي وجهه إلى مريم حين قال لها: "وَأَنت أَيضا يجوزُ في نَفسك سيفٌ" ، أعطى الله في رأفته أم يسوع تلميحا عن الآلام التي قد بدأت تجوز فيها لأجل اسمه

وقال سمعان أيضا: " ها إِنَّ هَذا قَد وُضع لِسقُوطِ وَقيام كَثيرِين في إِسرائِيلَ ، وَلِعلامة تُقاوَمُ". فالذين يريدون أن يقوموا ينبغي أن يسقطوا أولا . يجب أننا نسقط على الصخرة ونتحطم قبلما نقوم في المسيح . ينبغي أن تُخلع الذات عن عرشها وتوضع الكبرياء في الثرى إذا أردنا معرفة مجد الملكوت الروحي . إن اليهود قد رفضوا قبول الكرامة التي تُنال عن طريق التواضع ، ولذلك رفضوا قبول فاديهم . لقد كان هو الصخرة والعلامة التي قوبلت بالمقاومة

ثم يقول سمعان: "لِتُعَلن أَفكارٌ من قُلُوبٍ كَثيرةٍ" . ففي نور حياة المخلص أعلنت أفكار قلوب الجميع من الخالق نفسه إلى سلطان الظلمة . لقد صور الشيطان الله على أنه أناني وظالم ، وعلى أنه يطلب كل شيء ولا يعطي شيئاً ، وعلى أنه يطلب من خلائقه الخدمة والعبادة لمجد ذاته ولكنه لا يقدم على أية تضحية لخيرهم . ولكن عطية المسيح تكشف عن قلب الآب . إنها لتشهد أن الله مفتكر من جهتنا "أَفكارَ سلامٍ لاَ شَر" (إرميا 29 : 11). وهي تعلن أنه في حين أن كراهة الله للخطية قوية كالموت فإن محبته للخاطِئ أقوى من الموت . وحيث قد شرع في فدائنا فلن يمسك عنا شيئا مهما عظمت قيمته ما دام لازما لإتمام مقاصد رحمته . فلا يحجز حق ما دام جوهريا لخلاصنا ، ولا تُهمل معجزة من معجزات الرحمة ، ولا تترك وسيلة إلهية دون استخدام . فالإحسانات والهبات تتكدس بعضها فوق بعض . إن خزانة الله تفتح على سعتها لأولئك الذين يطلب خلاصهم . فبعدما جمع كل كنوز المسكونة وفتح كل موارد قدرته غير المحدودة فهو يضع ذلك كله بين يدي المسيح قائلا: كل هذه لأجل الإنسان . فاستخدم كل هذه الهبات في إقناعه بأنه لا توجد محبة تفوق محبتي إن في الأرض أو في السماء . وهو سيجد أعظم سعادة في محبته لي.

وعند صليب جلجثة وقفت المحبة والأثرة وجها لوجه. فهناك كان ميدانهما الأخير لقد عاش المسيح ليعزي ويبارك وحسب . وفي تسليمه للموت أظهر الشيطان خبث عداوته [46] لله ، إذ جعل هذا الحق واضحا وهو أن غايته الحقيقية من عصيانه كانت خلع الله عن عرشه وإهلاك ذاك الذي فيه قد أظهرت محبة الله. وحياة المسيح وموته أعلنت أفكار الناس أيضا . حيث من المذود إلى الصليب كانت حياة يسوع دعوة الناس إلى تسليم النفس والاشتراك في الآلام ، كما أنها كشفت نوايا الناس . لقد أتى المسيح بحق السماء وكل من أصغوا إلى صوت الروح القدس اجتُذبوا إليه . أما من كانوا يعبدون الذات فقد كانوا من رعايا مملكة الشيطان . ففي موقف الناس تجاه المسيح لابد أن كلا منهم يبرهن مع أي الجانبين يقف . وهكذا حكم كل واحد في أمر نفسه

في يوم الدينونة الأخير سيدرك كل إنسان هالك طبيعة رفضه للحق. وهناك سيقدم الصليب ، فكل عقل أظلمته المعاصي سيرى مقام الصليب . وأمام منظر جلجثة بذبيحها السري العجيب سيقف الخطاة مدانين . كل الأعذار الكاذبة ستعصف بها الرياح حينئذ ولن يكون لها وجود . وسيبدو ارتداد الناس كما هو في شناعته ، وسيرى الناس ماذا كان اختيارهم . إن كل تساؤل عن الحق والخطإ في الصراع الطويل المدى سيظهر حينئذ واضحا كل الوضوح . وفي دينونة الكون سيقف الله مزكى من كل لوم بالنسبة إلى وجود الشر واستفحاله . وسيعلن أن شرائع الله لم تكن هي سبب الخطية . إن حكم الله لم يكن فيه أي نقص ولا داعي للنفور . وعندما تنكشف كل أفكار القلوب فالأمناء والعصاة سيرددون هذا القول معا: “عادِلَةٌ وَحقٌ هي طُرقُك يا ملك الْقديسين ئ! . . . من لا يخافُك يارَبُّ وَيمجد اسمك؟ . . . لأَنَّ أَحكامك قَد أُظهِرتْ” (رؤيا 15 : 3، 4). [47]

الفصل السادس ـــــقد رأينا مجده

" ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية ، في أيام هيرودس الملك ، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: " أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له" (متى 2 : 1، 2).

إن أولئك المجوس القادمين من المشرق كانوا رجالا فلاسفة ، كما أنهم كانوا ينتمون إلى هيئة كبيرة ذات نفوذ عظيم ضمت الرجال الكريمي المحتد العريقي النسب ، وكان لهم نصيب كبير من الثروة والعلم في أمتهم. وكان بينهم جماعة استغلوا سذاجة مواطنيهم وسرعة تصديقهم ، بينما كان بينهم قوم آخرون يسلكون بالاستقامة ويدرسون أسرار العناية الإلهية في الطبيعة . وقد حصلوا على كرامة عظيمة نظرا لاستقامتهم وحكمتهم . أما المجوس الذين أتوا إلى يسوع فقد كانوا من هذا النوع

إن نور الله يشرق أبدا مبددا ظلمات الوثنية ، فهؤلاء المجوس عندما درسوا حركات النجوم السابحة في السماء وحاولوا أن يسبروا السر المخبوء طي تحركاتها ، نظروا مجد الخالق ، وإذ طلبوا نورا أكمل اتجهوا إلى كتب العبرانيين المقدسة ، حيث كانت في بلادهم كتب نبوية مختزنة أنبأت عن مجيء معلم إلهي. وقد كان بلعام ينتمي إلى طائفة السحرة مع أنه كان نبيا لله يوما ما . فهذا الرجل كان قد أنبأ بإلهام روح الله بنجاح إسرائيل وظهور مسيا . وقد تسلم الناس هذه النبوات التي احتُفظ بها ونُقلت جيلا بعد جيل . ولكن في العهد القديم كان هناك إعلان أوضح عن مجيء المخلص . وقد ابتهج المجوس حين علموا أن مجيئه قريب وأن كل الأرض ستمتلئ من معرفة مجد الرب

كان أولئك المجوس قد رأوا نورا غامضا في السماء في الليلة التي أشرق فيها مجد الله فوف تلال بيت لحم. ولما اختفى النور ظهر نجم لامع وبقي مضيئا في السماء . لم يكن من النجوم الثابتة ولا من الكواكب السيارة ، فأثارت فيهم هذه الظاهرة اهتماما عظيما . لقد كان ذلك النجم البعيد مكوناً من جمع من الملائكة اللامعين ، ولكن المجوس كانوا يجهلون [48] ذلك ، ومع هذا فقد اقتنعوا بأن ذلك النجم كانت له دلالته العظيمة بالنسبة إليهم ، فاستشاروا الكهنة والفلاسفة ، ثم عكفوا على فحص كتبهم ومستنداتهم القديمة ، حيث قالت نبوة بلعام: " يبرزُ كَوكب من يعقُوبَ ، وَيقُومُ قَضيب من إِسرائيلَ" (العدد 24: 17). فهل يمكن أن يكون هذا النجم الغريب هو بشير السيد الآتي الموعود به؟ لقد رحب أولئك المجوس بنور الحق المرسل من السماء ، وها هو الآن ينير عليهم بنور أعظم . وعن طريق الرؤى والأحلام أُخبِروا بأن يذهبوا للبحث عن ذلك الملك المولود .

المجوس مقودون بالإيمان

كما خرج إبراهيم من أرضه بالإيمان إطاعةً لأمر الله "وَهو لا يعَلم إِلى أَين يأْتي " (عبرانيين 11 :

8) ، وكما تبع بنو إسرائيل عمود السحاب بالإيمان إلى أرض الموعد هكذا خرج هؤلاء الأمميون بحثا عن المخلص الموعود به . وقد كانت في بلاد الشرق تحف وأشياء كثيرة ثمينة ، فلذلك لم يأتِ أولئك المجوس بأيديهم فارغة ؛ إذ كانت العادة أن يقدم الناس الهدايا دليلا على ولائهم للحكام أو غيرهم من الشخصيات العظيمة . ولهذا حمل أولئك الرجال أغنى الهدايا التي جادت بها البلاد إلى ذاك الذي فيه تتبارك جميع قبائل الأرض . وكان لابد لهم من السفر ليلا حتى لا يغيب النجم عن أنظارهم وبالنسبة لبعد المسافة راحوا يقطعون الوقت بترداد الأقوال المنقولة عن التقليد والنبوات بشأن من جاءوا يطلبونه . وفي كل مرة توقفوا فيها عن السير كانوا يفتشون النبوات فزاد اقتناعهم بأن الله مرشدهم . وعندما كان النجم ظاهرا أمامهم كعلامة خارجية كان في داخلهم برهان روح الرب الذي كان يقنع قلوبهم ويلهمهم بالرجاء . ومع أن الرحلة كانت طويلة وشاقة إلاّ أنها كانت لهم مبهجة وممتعة .

لقد وصلوا إلى أرض إسرائيل وها هم ينزلون في منحدر جبل الزيتون وقد انبسطت أمامهم مدينة أورشليم ، وإذا بالنجم الذي هداهم طول تلك الطريق المتعبة يستقر فوق الهيكل ، ثم يختفي عن أنظارهم بعد قليل. فبكل شوق ساروا مسرعين إلى الأمام وهم واثقون وموقنون بأن ميلاد مسيا سيكون هو الخبر المفرح على كل لسان . ولكن استعلاماتهم كانت عبثا [49]

فإذ دخلوا المدينة المقدسة اتجهوا إلى الهيكل. ولكنهم لشدة دهشتهم يكتشفون أنه ليس هناك من يعرف شيئا عن الملك المولود . ولم يكن استفسارهم عنه ليوحي الفرح بل بالعكس الاستغراب والخشية والازدراء معا

فالكهنة يتلون التقاليد ويمجدون تدينهم وصلاحهم ، بينما هم يشهرون باليونانيين والرومان على أنهم وثنيون وخطاة دون جميع الناس. ولكن هؤلاء المجوس ليسوا عبدة أوثان بل هم في نظر الرب أرفع مقاما من هؤلاء الكهنة الذين كانوا يدعون أنهم يعبدون الله . إلاّ أن اليهود كانوا يعتبرون هؤلاء الرجال وثنيين . وحتى بين هؤلاء الذين أقامهم الله ليكونوا حراسا على كتابه المقدس لم يجد المجوس لأسئلتهم صدى ولا استجابة

لقد انتشر خبر قدوم أولئك المجوس في كل مدينة أورشليم ، وأثارت مهمتهم الغريبة اهتياجا بين الشعب ، فوصل الخبر إلى قصر الملك هيرودس ، فأثار هذا النبأ عن وجود منافس للملك ، نفس ذلك الأدومي الماكر. كان طريق ذلك الملك إلى العرش مخضبا بدماء الضحايا الذين لا يحصى عددهم . فلأنه لم يكن في الأصل يهوديا كان الشعب الذي تحت سلطانه يمقته . وكان أمنه الوحيد هو رضى روما . ولكن هذا الملك الجديد كان له حق أسمى وأعظم مما له ، فلقد ولد ليملك

اشتبه هيرودس في أن يكون الكهنة متآمرين مع أولئك الغرباء في إحداث ثورة عامة لخلعه عن العرش ، ولكنه أخفى شكوكه وعقد العزم على إحباط مؤامراتهم بمكر أعظم من مكرهم .وإذ استدعى رؤساء الكهنة وكتبة الشعب سألهم عما تقوله كتبهم المقدسة عن مكان ميلاد مسيا

هذا السؤال الذي جاء من مغتصب العرش بناء على طلب أولئك الغرباء طعن كبرياء أولئك المعلمين في الصميم. فعدم الاكتراث الذي بدا منهم وهم يتصفحون كتب الأنبياء أثار غضب ذلك الطاغية الحسود ، إذ ظن أنهم يحاولون إخفاء معرفة مكان الملك المولود. وبسلطان لم يسعهم إغفاله أو الاستخفاف به أمرهم أن يفحصوا بالتدقيق ويعلنوا عن مكان ميلاد مليكهم المنتظر ، “فقالوا له: “في بيت لحم اليهودية . لأنه هكذا مكتوب بالنبي: وأنت يا بيت لحم ، أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لأن منك يخرج مدبّر يرعى شعبي إسرائيل” (متى 2 : 5، 6). [50]

مقابلة هيرودس

والآن ها هو هيرودس يدعو المجوس ليقابلهم سرا ، لقد كانت تعصف بقلبه عاصفة هائلة من الغضب والخوف. ولكنه تظاهر بالهدوء ورباطة الجأش أمام أولئك الغرباء فقابلهم بكل رقة ولطف ، وسألهم عن زمان ظهور النجم وادعى أنه يرحب بكل سرور بنبإ ميلاد المسيح . ثم قال لهم: "اذْهبوا وَافْحصوا بِالتَّدقيق عنِ الصبِي . وَمَتى وَجدتُموهُ فَأَخبِروني ، لِكي آتي أَنا أَيضا وَأَسجد لَه" (كتة 2 : 8) . وإذ قال هذا صرفهم ليمضوا في سبيلهم إلى بيت لحم.

إن الكهنة وشيوخ إسرائيل لم يكونوا يجهلون مكان ميلاد المسيح كما كانوا يتظاهرون .فخبر ظهور الملائكة للرعاة كان قد وصل إلى أورشليم. ولكن معلمي اليهود قابلوه في غير اكتراث كما لو لم يكن جديرا باهتمامهم . كان بإمكانهم هم أنفسهم أن يجدوا يسوع ،وكان يمكنهم أن يتهيأوا لإرشاد المجوس إلى مكان ميلاده ، ولكن بدلا من هذا جاء المجوس ليسترعوا التفاتهم لميلاد مسيا فقالوا: "أين هو ٱلمولُودُ ملك ٱليهودِ؟ فَإِنَّنا رَأَينا نَجمه في ٱلمشرِقِ وَأَتيَنا لِنسجد لَه".

إن الكبرياء والحسد قد أوصدا الباب حتى لا يدخل النور ، فلو أن الأخبار التي أتى بها الرعاة والمجوس صدقت لكانت قد وضعت كهنة إسرائيل ومعلميهم في مركز لا يحسدون عليه إذ كان ذلك يكّذب ادعاءهم بأنهم محامو حق الله. إن هؤلاء المعلمين المثقفين لم يتنازلوا حتى إلى قبول التعليم من أولئك الذين كانوا يدعونهم وثنيين . فقالوا إن الله لا يمكن أن يتخطاهم ليتصل بالرعاة السذج أو الأمم الغلف . لذلك عقدوا العزم على أن يعلنوا احتقارهم لتلك الأخبار المثيرة للملك هيرودس ولكل سكان أورشليم . ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء الذهاب إلى بيت لحم ليتحققوا ما إذا كانت تلك الأخبار صحيحة أو غير صحيحة . وحملوا الشعب على اعتبار الاهتمام بيسوع اهتياجا منشأه التعصب . ومن هنا بدا رفض الكهنة والمعلمين للمسيح . ومن ذلك الحين زادت كبرياؤهم وصلابة قلوبهم إلى أن صارت كراهية للمخلص متأصلة في أعماقهم . فإذ كان الله يفتح الباب للأمم كان رؤساء اليهود يوصدون الباب في وجه أنفسهم.

رحل المجوس عن أورشليم وحدهم. وعند خروجهم من باب المدينة بدأت ظلمة الليل [51] تغطي وجه الأرض ، ولكن ما كان أشد فرحهم حين رأوا مرة أخرى النجم الذي هداهم إلى بيت لحم. إنهم لم يكونوا قد تلقوا إعلانا من الله عن وضاعة الحالة التي قد ولد فيها يسوع كما أعلن للرعاة . فبعد تلك الرحلة الطويلة خاب أملهم بسبب عدم مبالاة قادة اليهود. وتركوا مدينة أورشليم وهم أقل ثقة مما كانوا عند دخولها . وفي بيت لحم لم يجدوا حراسا يقومون على حراسة الملك الوليد ، ولم يكن بين حاشيته أحد من وجهاء العالم وأشرافه ، بل كان يسوع مضجعا في المذود ، وكان أبواه اللذان كانا من القرويين البسطاء غير المتعلمين هما وحدهما يقومان على حراسته . فهل يمكن أن يكون هذا هو الذي كتب عنه أنه قد تعين "لإقامة أَسباطِ يعقُوبَ ، وَرَدِّ محفُوظي إِسرائِيلَ" ، وليكون "نُورًا لِلأُممِ" وخلاصا "إِلى أَقصى الأَرْضِ" (إشَعياء 49 : 6).

إيمان المجوس

"وَأَتوا إِلى ٱلبيت ، وَرَأَوْا الصبِي مع مريم أُمه . فَخروا وَسجدوا لَه" (متى 2 : 11).لقد اكتشفوا تحت مظهر يسوع المتواضع جوهر الألوهية فسلموه قلوبهم كمخلصهم . وبعد ذلك أغدقوا عليه عطاياهم: "ذَهبا

وَلُباناً وَمرا" فيا له من إيمان! يمكن أن يقال عن هؤلاءالمجوس القادمين من المشرق ما قيل بعد ذلك عن قائد المئة الروماني: "لَم أَجِد وَلاَ في إِسرائِيلَ إِيمانًا بِمقدارِ هَذا!" (متى 8 : 10).

إن نية الغدر التي كان يضمرها هيرودس ليسوع قد خفيت على فطنة المجوس ، ومع ذلك فبعدما تمموا الغرض من رحلتهم تأهبوا للعودة إلى أورشليم وكانوا ينوون أن يخبروا الملك بنجاحهم في مهمتهم. ولكنهم في حلم الليل تلقوا رسالة من الله بألا يعودوا إليه . وإذتجنبوا أورشليم عادوا من طريق أخرى إلى كورتهم

الهرب إلى مصر

وبنفس الطريقة تلقى يوسف إنذارا بأن يأخذ الصبي وأمه ويهرب إلى مصر ، وقد قال له الملاك: " كُن هناكَ حتَّى أَقُولَ لَك . لأَنَّ هيرودُسَ مزمع أَنْ يطلُب الصبِي لِيهلكه" (متى 2 : 13). فأطاع يوسف بدون إبطاء ، وبدأوا بتلك الرحلة ليلا لضمان سلامتهم [52]

لقد وجه الله التفات الأمة اليهودية إلى ميلاد ابنه بواسطة المجوس. إن أسئلتهم التي وجهوها إلى سكان أورشليم ، وإثارة اهتمام الشعب حتى حسد هيرودس الذي استرعى انتباه الكهنة ومعلمي الشعب- كل ذلك وجه انتباه الناس إلى النبوات الخاصة بمسيا ، وإلى الحادث العظيم الذي حدث حينئذ

لقد أصر الشيطان على أن يحجب نور الله عن العالم واستخدم كل ما في جعبته من خداع ومكر لإهلاك المخلص. ولكن ذاك الذي لا ينعس ولا ينام كان ساهرا على ابنه الحبيب . ذاك الذي كان ينزل المن من السماء ، لإعالة إسرائيل في البرية والذي أطعم إيليا وعاله في أيام الجوع أعد لمريم ويوسف والصبي يسوع ملجأ يلوذون به في بلاد وثنية . وبفضل هدايا المجوس القادمين من بلاد وثنية دبر الله لتلك العائلة كل ما يلزم لتلك الرحلة إلى مصر وإعالتها أثناء وجودها بين الغرباء

كان المجوس من بين الأوائل الذين رحبوا بالفادي ، وكانت هديتهم هي الأولى التي وُضعت عند قدميه. فما أعظمه امتيازا للخدمة أتيحت لأولئك المجوس بفضل تلك العطية! إن الله يسر بإكرام العطية المقدمة من قلب محب إذ يعطيها أثرها العظيم الفعال في خدمته. فإن كنا قد سلمنا قلوبنا ليسوع فسنقدم له عطايانا أيضاً . ذهبنا وفضتنا وأثمن أملاكنا الأرضية وأسمى مواهبنا العقلية والروحية- كل هذه نقدمها عن طيب خاطر لذاك الذي قد أحبنا وبذل نفسه لأجلنا.

وفى أورشليم كان هيرودس ينتظر عودة المجوس بصبر نافد. فلما مضى وقت طويل ولم يظهر لهم أثر ثارت شكوكه . إن نفور معلمي الشعب من تحديد مكان ميلاد مسيا بدا وكأنه يدل على أنهم قد أدركوا قصد الملك ، وأن المجوس لم يعودوا إليه عن عمد ، فهذا الفكر أغضبه إلى حد الجنون . ولئن كان المكر قد أخفق فليلجأ إلى القوة والعنف . وهو سيمثل بهذا الملك الوليد . ولابد أن يرى أولئك اليهود المتعجرفون ما الذي ينتظرونه من محاولتهم أن يجلسوا ملكا على العرش

قتل الأطفال

وسرعان ما جرد الجنود على مدينة بيت لحم الوادعة مزودين بأمره المروع القائل بأن [53] يقتلوا

أطفال المدينة من ابن سنتين فما دون. وقد شهدت بيوت مدينة داود الهادئة أرهب مناظر الرعب التي أمكن لوحشية الملك وجنوده أن يبتكروها ، تلك المناظر التي كُشَفت لعيني النبي منذ ست مئة سنة فقال: "صوتٌ سمع في الرامة ، نَوحٌ ، بكاءٌ مر . رَاحيلُ تَبكي عَلى أَوْلاَدِها ، وَتَأْبى أَنْ تتعزى عن أَوْلاَدِها لأَنَّهم لَيسوا بِموجودِين" (إرميا 31 : 15).

إن اليهود هم الذين جلبوا على أنفسهم هذه الكارثة. فلو كانوا سائرين بأمانة وتواضع أمام الله لأمكنه تعالى بكيفية فريدة أن يحول عنهم غضب الملك أو يجعله عديم الأذ ولكنهم بخطاياهم أبعدوا أنفسهم عن الله ورفضوا روحه القدوس الذي كان ملاذهم الوحيد .إنهم لم يدرسوا الكتب المقدسة بقصد الطاعة لمشيئة الله . لقد كانوا يبحثون عن النبوات التي كان يمكن تفسيرها لتمجيد أنفسهم وللتدليل على أن الله يحتقر الأمم الأخرى . كانوا يتشدقون بالقول إن مسيا سيأتي كملك يقهر أعداءه وفي غضبه يدوس الأمم الوثنية . وهكذا أثاروا عداوة حكامهم ضدهم . فعن طريق إساءة تصويرهم لمرسلية المسيح قصد الشيطان أن يهلك المخلص . ولكن بدلا من ذلك دارت الدائرة عليهم.

كان ذلك العمل الوحشي واحدا من الأعمال التي اختتم بها حكم هيرودس الأسود المشؤوم. ذلك أنه حالا بعد تلك المذبحة الهائلة التي ذهب ضحيتها أولئك الأبرياء ، حلت به تلك الدينونة الرهيبة التي لم يمكن أن ينجو منها ، فمات ميتة شنيعة مخيف.

العودة إلى أرض الوطن

أما يوسف الذي كان لم يزل في مصر فقد أمره ملاك الله بالعودة إلى إسرائيل. وإذ كان يوسف يعتبر يسوع وارثا لعرش داود رغب في الإقامة فى بيت لحم . ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضا عن هيرودس أبيه ، خشي لئلا يحقق الابن مقاصد أبيه ضد المسيح ، حيث كان أقرب شبها إلى أبيه في قسوته دون كل إخوته . وسرعان ما حدثت ثورة في أورشليم حالما جلس على العرش فذبح رجال الحرس الروماني آلافا من اليهود.

ومرة أخرى أرشد يوسف إلى مكان أمين فعاد إلى الناصرة وطنه الأول حيث عاش المسيح حوالي ثلاثين عاما ، "لِكي يتم ما قيلَ بِالأَنبِياءِ: "إِنَّه سيدعى نَاصرِيا" (متى 2 : [54] 23). لقد كان يحكم على الجليل واحد من أبناء هيرودس . ولكن كان يعيش هناك خليط كبير من الأجانب أكثر مما في اليهودية . وهكذا لم يكن الناس يكترثون كثيرا للمسائل الخاصة باليهود . فكانت دعوى يسوع ورسالته أقل احتمالا أن تثيرا حسدا في قلوب ذوي السلطان.

هذا هو الاستقبال الذي قوبل به عندما حل بأرضنا. فقد بدا كأنه لا يوجد مكان راحة أو أمان لذلك الطفل الفادي . ولم يمكن أن يستأمن الله الناس على ابنه الحبيب حتى مع أنه كان يقوم بعمله لخلاصهم . فلقد أوفد الملائكة لملازمة يسوع وحراسته إلى أن ينجز عمله ويقوم بمهمته على الأرض ويموت بأيدي من قد أتى ليخلصهم [55]

الفصل السابع—يسوع في حداثته

لقد قضى يسوع سني حداثته وشبابه في قرية جبلية صغيرة. ليس من مكان في الأرض قاطبة إلا وتبارك بحضوره . إنه امتياز لقصور الملوك لو نزل ضيفا فيها . ولكنه مر على قصور الأثرياء وعلى بلاط الملوك ومراكز العلم الشهيرة مر الكرام ليختار وطنه في قرية صغيرة مغمورة ألا وهي الناصرة.

إن سيرة يسوع الأولى عجيبة في دلالتها ومغزاها ، "وَكانَ الصبِي ينمو وَيتَقوى بِالروح، ممَتلئًا حكمةً ، وَكاَنت نعمةُ اللهِ عليه" (لوقا 2 : 8). ففي نور وجه أبيه كان يسوع "يتَقدمُ في اْلحكمة وَاْلقاَمة وَالنِّعمة ، عْند اللهِ وَالنَّاسِ" (لوقا 2 : 52). لقد كان عقله نشيطا وفكره ثاقبا ، وكان تفكيره وحكمته سابقين لعمره . ومع ذلك فقد كان خلقه جميلا في تناسقه . كانت قوى جسمه وعقله تنمو تدريجا متمشية مع قوانين الصبا

وكصبي أبدى يسوع جمالا خاصا في ميوله: فكانت يداه على أتم استعداد للقيام بأية خدمة للآخرين ، وأظهر صبرا لم يكن ممكناً أن يعكره أحد. وكان متحليا بالصدق الذي لا يضحي بالاستقامة بأي ثمن . وإذ كان ثابتا على مبادئه كالصخر ، كشفت حياته عن جمال اللطف الذي لا تشوبه الأثرة

كانت أم يسوع تراقبه بجد واهتمام عميقين وهو يكشف عن قواه فرأت طابع الكمال في خلقه. وبفرح عظيم رغبت في تشجيع ذلك العقل النابه الواعي . وقد ألهمها الروح القدس حكمة لتتعاون مع العوامل السماوية في إنماء هذا الصبي الذي كان يعتبر أن الله وحده هو أبوه . [56]

التعليم عند العبرانيين

منذ العصور القديمة بذل الأمناء في إسرائيل أقصى جهدهم في تعليم الشباب ، وقد أوصاهم الرب أن يعلموا أولادهم عن صلاح الله وعظمته منذ طفوليتهم ، لاسيما المعلن منه في الشريعة ومسطور في تاريخ إسرائيل. كان لابد من أن يلقن المزامير والصلوات وبعض الدروس الكتابية منذ صباه وعقله متفتح للعلم . كان على الآباء والأمهات أن يعلموا أولادهم أن شريعة الله هي تعبير عن صفاته ، وأنهم إذ يقبلون مبادئ تلك الشريعة في قلوبهم فإن صورة الله تنطبع على عقولهم ونفوسهم . لقد كان أكثر تلك التعاليم يلقن شفويا ، ولكن الشباب تعلموا أيضاً قراءة الكتب العبرية ، كما كان يسمح لهم بدراسة أسفار العهد القديم التي كانت مكتوبة على جلود الحيوانات

وفي أيام المسيح كانت البلدة أو المدينة التي لا تقوم بتثقيف الشباب ثقافة دينية تعتبر واقعة تحت لعنة الله ، ومع ذلك فقد أصبح التعليم صوريا ، إذ احتلت التقاليد مكان الكلمة الإلهية إلى حد كبر. إن التعليم الصحيح يقود الشباب إلى أن "يطلُبوا اللهَ لَعلَّهم يتَلمسوَنه فَيجِدوهُ" (أعمال 17 : 27). ولكن معلمي اليهود قصروا اهتمامهم على الشكليات . كانوا يحشون عقول الشباب بأشياء تافهة ، لا تجدي المتعلمين فتيلا ولا اعتبار لها في نظر المدرسة السماوية العليا . إن الاختبار الذي يحصل عليه الفرد من قبوله لكلمة الله لم

يكن له مجال في النظام الثقافي . وإذ كان الطلبة ينشغلون بالأمور الخارجية العديدة لم يكونوا يجدون ساعات يقضونها في هدوء تام في حضرة الله . إنهم لم يسمعوا صوته مكلما قلوبهم . وفي بحثهم عن المعرفة مالوا بعيدا عن نبع الحكمة . لقد أُهملت الأمور المعتبرة جوهرية في خدمة الله . ومبادئ الشريعة ظلت مجهولة لا ترى النور . فما كان معتبرا أسمى تهذيب صار أعظم عائق يعطل النمو الحقيقي . وتحت تعليم معلمي إسرائيل كبتت قوى الشباب وتعطلت ملكات عقولهم وصار تفكيرهم ضيق الأفق.

ثقافة يسوع

أما الصبي يسوع فلم يتلقَّ علومه في مدرسة المجمع. ولكن أمه كانت أول معلم [57] بشري له . لقد تعلم عن الأمور السماوية من فمها ومن كتب الأنبياء . وعند ركبتي أمه تعلم نفس ما نطق هو به في مسمع موسى ليقوله لإسرائيل . فلما انتقل من طور الصبا إلى طور الشباب لم يذهب إلى مدارس معلمي اليهود إذ لم يكن محتاجا أن يتلقى العلم من تلك المصادر لأن الله كان معلمه.

إن السؤال الذي كان يطرح في أثناء خدمة المسيح القائل: ”كَيفَ هَذا يعرِفُ ٱلكُتُب ، وَهو لَم يتعلَّم؟“ لم يكن ليدل على أن يسوع كان عاجزا عن القراءة ، بل على أنه لم يتلقَّ العلمَ عن المعلمين (يوحنا 7 : 15). وحيث أنه قد حصل المعرفة بنفس الطريقة التي يمكننا نحن أن نحصل عليها بها فإن معرفته المدهشة للكتاب المقدس ترينا مقدار اجتهاده في سني الصبا في تعلم كلمة الله ودرسها . كما أنه كانت أمامه مكتبة عظيمة هي خليقة الله. فذاك الذي صنع كل الأشياء كان يتعلم نفس الدروس التي قد سطرها بيده على صفحة الأرض والبحر والسماء . وإذ كان بمعزل عن طرق العالم النجسة جمع كثيرا من أصول العلم من الطبيعية . لقد درس حياة النبات والحيوان والإنسان . ومنذ صباه كان مشغولا بهدف واحد وعمل واحد- فلقد عاش لكي يبارك الآخرين ويسعدهم . لأجل هذا وجد موارد في الطبيعة ، وبرقت في ذهنه آراء وطرق جديدة وهو يدرس حياة النبات وحياة الحيوان . كان على الدوام يحاول أن يستخرج من الأشياء التي يراها أمثلة يقدم بها للناس أقوال الله الحية ، فالأمثال التي أوردها وأراد أن يعلم بها الناس الحق الإلهي مدى سني خدمته ترينا إلى أي مدى كانت روحه متفتحة لمؤثرات الطبيعة ، وكيف جمع التعاليم الروحية من البيئة التي كان يعيش فيها.

وهكذا انكشف أمام يسوع مغزى كلام الله وأعماله عندما كان يحاول أن يربط السبب بالنتيجة. كانت الخلائق السماوية ترافقه وتحيط به . وكانت الأفكار والخواطر المقدسة والتأملات الروحية في متناول ذهنه وقلبه ، فمند بدء ظهور ذكائه كان دائما ينمو في النعمة الروحية ومعرفة الحق ويمكن لكل صبي أن يحصل العلم كما قد فعل يسوع ، وإذ نحاول التعرف بأبينا السماوي عن طريق كلمته فستقترب الملائكة منا وتتقوى أذهاننا ويسمو خلقنا ويتطهر ، ونصير أقرب شبها إلى مخلصنا . وإذ نرى ما هو جميل وجليل في الطبيعة تصبو عواطفنا إلى الله ، وإذ تخشع الروح فالنفس ستنتعش بالاتصال بالله غير المحدود عن طريق أعماله . ثم إن الشركة مع الله بالصلاة تنمي القوى العقلية والأدبية ، [58] وتنمو وتتقوى قوانا الروحية عندما نفكر في الروحيات.

حياة وفاق مع الله

لقد كانت حياة يسوع في حالة انسجام مع الله ففي طفولته كان يفكر ويتكلم كطفل ، ولكن لم يكن هنالك أثر لأية خطية تشوه صورة الله فيه . ومع ذلك فهو لم يكن معفى من التجارب . كان أهل الناصرة قوما يضرب بهم المثل لشرهم . إن التقدير الوضيع الذي طالما قيسوا به ظاهر من سؤال نثنائيل: "أَمِن النَّاصرةِ يمكن أَنْ يكُونَ شَيءٌ صالِح؟" (يوحنا 1 : 46). هكذا وجد يسوع في مركز امتحن فيه خلقه . لقد كان من الضروري له أن يكون حريصا كل الحرص على الدوام أن يظل محتفظا بطهارته ، إذ كان معرضا لكل المحاربات التي علينا نحن أن نخوض غمارها ليكون هو مثلنا الأعلى في الصبا والشباب والرجولة.

كان الشيطان لا يكل في بذل جهوده الجبارة لينتصر على صبي الناصرة ، كما كان ملائكة السماء يعسكرون حول يسوع لحراسته منذ بكور حياته ومع ذلك كانت حياته صراعا هائلا لا هوادة فيه ضد قوات الظلمة. إن وجود شخص واحد على الأرض منزه عن الشر والنجاسة كان مبعث الحزن ومرارة النفس والحيرة لسلطان الظلمة . لقد استخدم كل وسيلة ليوقع يسوع في أشراكه . إنه لن يطلب من أي صبي من بني الإنسان أن يحيا حياة القداسة في وسط أهوال التجارب العنيفة التي تكتنفه من كل جانب كما كان مخلصنا.

كان أبوا يسوع فقيرين ومعتمدين على كدهما اليومي. وقد اختبر هو الفقر وإنكار الذات والحرمان ، فكان هذا الاختبار واقيا له . وفي حياة الكدح التي عاشها لم يكن لديه وقت يقضيه في البطالة التي تعرض الإنسان للتجربة . ولم يكن عنده عدة ساعات بلا عمل مما يؤدي إلى فتح الطريق للعشرة المفسدة . وعلى قدر الإمكان كان يوصد الباب في وجه المجرب ، فلا ربح ولا مسرة ، ولا تهليل استحسان ولا انتقاد استطاع أن يحمله على أن يعمل عملا خاطئا . لقد كان حكيما في تمييزه للشر وقادرا على مقاومته.

كان المسيح هو الشخص الوحيد الذي عاش على أرضنا بلا خطية ، ومع ذلك عاش قرابة الثلاثين عاما بين الناس الأشرار في الناصرة. هذه الحقيقة هي توبيخ صارم لأولئك [59] الذين يظنون أن كونهم يعيشون بلا لوم يتوقف على البيئة أو المال الكثير أو النجاح. إن التجربة والفقر والضيق هي نفس التدريب اللازم لإنماء الطهارة والثبات.

النمو جسديا وعقليا

لقد عاش يسوع في بيت قروي ، وبكل أمانة وفرح قام بدوره في حمل أعباء البيت .لقد كان هو رئيس أجناد السماء ، وكان الملائكة يسرون بإتمام أوامره ، أما الآن فهو العبد المطيع والابن المحب الوديع. لقد تعلم حرفه وكان يعمل بيديه في حانوت النجارة مع يوسف . وفي ثياب عامل عادي بسيط كان يسير في شوارع تلك البلدة من الحانوت المتواضع وإليه . ولم يكن ليسخر قوته الإلهية في تخفيف أثقاله أو التقليل من متاعبه.

وإذ كان يسوع يعمل في صباه وشبابه كانت قوى عقله وجسمه تنمو. لم يكن يستخدم قوى جسمه بطيش ، بل استخدمها بكيفية حفظتها في حالة صحية ملائمة حتى يستطيع القيام بكل أنواع العمل على أفضل وجه . لم يعمل عملا ناقصا حتى وهو يستخدم الآلات .كان كاملا في كل عمله كما كان في خلقه . وبمثاله علمنا أن الواجب يقتضينا أن نكون مجدين في عملنا فنؤديه بالتمام والكمال: وإن مثل هذا العمل هو عمل شريف . إن العمل الذي يدرب اليدين على أن تكونا نافعتين ، ويدرب الشباب على القيام بنصيبهم في حمل أعباء الحياة يعطي الإنسان قوة جسمانية وينمي كل قوى العقل . ينبغي للكل أن يجدوا ما يفعلونه مما هو نافع لأنفسهم ومساعد لغيرهم ، عليهم أن يعملوا شيئا . لقد عين الله الشغل على أنه بركة ، والعامل

المجد هو وحده الذي يحصل على مجد الحياة وأفراحها . إن استحسان الله ورضاه يستقران بيقين المحبة على رؤوس الصبيان والشباب الذين يقومون بنصيبهم في مطاليب البيت بفرح إذ يقاسمون الآباء والأمهات في حمل أعبائهم . مثل هؤلاء الأولاد سيخرجون من البيت ليكونوا أعضاء نافعين في المجتمع.

إن يسوع طيلة حياته على الأرض كان عاملا مجدا. كان ينتظر الكثير ولذلك بذل محاولات كثيرة . ولما شرع في خدمته قال: "ينبغي أَنْ أعملَ أعمالَ الَّذي أَرْسَلني ما دَامَ نَهارٌ . يأْتي لَيلٌ حين لا يستطيع أحد أَنْ يعملَ" (يوحنا 9 : 4). لم يتنصل يسوع أو يتهرب من حمل المسؤولية ، كما يفعل اليوم كثيرون ممن يعترفون بأنهم أتباعه . إن كثيرين [60] لكونهم حاولوا التملص من هذا التدريب هم ضعفاء وغير أكفاء للعمل. قد تكون لهم ميزات جميلة ومواهب عظيمة ومع ذلك فهم ضعفاء ويكادون يكونون عديمي النفع حين يجابهون الصعوبات أو حين يتحتم عليهم التغلب عليها . إن الإصرار والنشاط ومتانة الخلق وقوته التي ظهرت في المسيح ينبغي لنا أن ننميها في نفوسنا عن طريق نفس التدريب الذي جاز هو فيه . وحينئذ سنحصل على النعمة التي حصل هو عليها.

بركة للبشرية

إن مخلصنا قاسم الفقراء في فقرهم طوال سني حياته التي عاشها بين الناس ، وبالاختبار عرف همومهم ومتاعبهم ولذلك استطاع أن يرثي لكل العمال البسطاء ويشجعهم. إن أولئك الذين يدركون إدراكا صحيحا الدروس التي يمكن استخلاصها من حياة الفادي ينبغي لهم أن يقتنعوا بخطإ التفريق بين الطبقات ، وبخطإ وجوب إكرام الأغنياء على الفقراء الأفاضل.

أسبغ يسوع على عمله مسحة الفرح واللباقة ، في حين أن إدخال ديانة الكتاب المقدس إلى الحياة البيتية والمعمل والمصنع يتطلب صبرا وحياة روحية ممتازة ، وأن يتحمل المرء إجهاد العمل العالمي ، وفي نفس الوقت تكون عينه خالصة لمجد الله. في هذا كان المسيح معينا . إن هموم العالم لم تكن تضغطه بشدة إلى درجة أنه لم يكن لديه وقت للتفكير في الأمور السماوية . ففي كثير من الأحيان كان يعبر عن فرح قلبه بإنشاد المزامير والتسابيح الروحية ، كما كان أهل الناصرة كثيرا ما يسمعون صوته عاليا في ترديد شكره وتسبيحه لله . لقد كان في شركة مع السماء عن طريق التسبيح . وحين كان رفاقه يشكون مر الشكوى من إجهاد العمل الفني كان هو يسري عنهم ويبهج قلوبهم بألحانه العذبة الجميلة المنبعثة من بين شفتيه ، فبدا وكأن تسبيحاته تطرد الملائكة الأشرار ، وكالبخور العطر كانت تعطر أرجاء المكان . وكانت أفكار سامعيه تسمو وترتفع في أرض اغترابهم إلى الوطن السماوي.

كان يسوع نبع الرحمة الشافية للعالم ، ومدى سني العزلة التي قضاها في الناصرة كانت تجري من حياته سيول الرقة والعطف . فالعجائز والحزانى والمثقلون بخطاياهم [61] والأطفال اللاعبون في مرح الطفولة وبراءتها. والحيوانات الصغيرة ساكنة الأحراج والحيوانات حاملات الأثقال- كل أولئك أحسوا بالسعادة في حضرته . إن ذاك الذي بكلمة قدرته يمسك العوالم كان ينحني ليعصب طائرا جريحا . لم يكن هنالك شيء أحقر من أن يلاحظه ويعنى به ، ولم يكن يستنكف من أن يقدم خدمة لمخلوق مهما كان وضيعا.

وهكذا إذ كان يسوع ينمو في الحكمة والقامة كان ينمو أيضا في النعمة لدى الله والناس. لقد استدر عطف كل القلوب لكونه كان عطوفا على الجميع . وإن جو الرجاء والشجاعة الذي كان يحيط به جعله بركة لكل بيت . وفي أحيان كثيرة إذ كان يذهب إلى المجمع في أيام السبوت كان يطَلب منه أن يقرأ الدرس

من الأنبياء ، فكانت تهتز مشاعر السامعين حين كان يراق نور جديد على بعض أقوال الكتاب المقدس المألوفة.

إلا أن يسوع كان يمقت التظاهر. فمدى سني وجوده في الناصرة لم يعرض على الناس قدرته العجائبية . لم يطلب مركزا عاليا ولا اتخذ لنفسه لقبا ، فحياته الهادئة البسيطة ، حتى صمت الكتاب عن ذكر شيء يختص بسني حياته الأولى ، يعلمنا درسا هاما . فكلما كانت حياة الصبي هادئة وبسيطة كانت خالية من الثورات المفتعلة . وكلما كانت في حالة انسجام مع الطبيعة كان ذلك في صالح النشاط الجسماني والذهني والقوة الروحية.

إن يسوع هو مثلنا الأوحد. كثيرون يطيلون التأمل باهتمام في مدة خدمته بين الجماهير ومع ذلك لا يلتفتون كثيرا إلى التعاليم التي يمكن استخلاصها من سني حياته الأولى ، مع أنه في حياته البيتية يصلح مثالا لكل الفتيان والشباب . لقد تنازل المخلص وافتقر لكي يعلمنا كيف يمكننا ونحن في ضعتنا وفقرنا أن نسير مع الله في أدنى قرب .لقد عاش لكي يرضي أباه ويكرمه ويمجده في شؤون الحياة العادية ، فبدأ عمله بتكريس تلك الحرفة المتواضعة ، حرفة الصناع الذين يكدون للحصول على قوتهم اليومي . كان يخدم الله وهو يعمل في حانوت النجار تماما كما كان وهو يصنع العجائب لخير جماهير الشعب . وكل شاب يتبع مثال المسيح في أمانته وطاعته في بيته المتواضع ، يمكنه أن ينسب لنفسه الكلام الذي قاله الآب عن ابنه بالروح القدس حين قال: "هوذَا عبدي الَّذي أَعضدهُ ، مخَتارِي الَّذي سرتْ بِه نَفسي" (إشعياء 42 : 1). [62]

الفصل الثامن ـــ زيارة عيد الفصح

كان اليهود يعتقدون أن سن الثانية عشرة هي الحد الفاصل بين الصبا والشباب. ففي ختام هذه الفترة من العمر كان الصبي العبراني يسمى ابن الشريعة وابناً لله كذلك . وكانت تعطى له فرصة خاصة لتعلّم الدين ، كما كان يطلب منه الاشتراك في الأعياد والفرائض المقدسة . واتباعا لهذا العرف قام يسوع بزيارة فصحية لأورشليم في صباه . وكان يوسف ومريم كغيرهما من الإسرائيليين الأتقياء يصعدان إلى أورشليم كل سنة لممارسة الفصح ، ولما بلغ يسوع السن القانونية أخذاه معهما.

كانت هنالك ثلاثة أعياد سنوية وهي عيد الفصح وعيد الخمسين وعيد المظال. وكان على كل رجال إسرائيل أن يظهروا أمام الرب في أورشليم في تلك الأعياد . وكان الذين يحضرون في عيد الفصح أكثر عددا ممن يحضرون في العيدين الآخرين . وكان كثيرون من اليهود المشتتين في البلدان كافة يحضرون في هذا العيد . فكانت جماهير غفيرة من العابدين تأتي إلى العيد من كل أنحاء فلسطين . وقد كان السفر من الجليل إلى أورشليم يستغرق عدة أيام .وكان المسافرون يسيرون معا جماعات كبيرة طلبا للرفقة والأمان . وكانت النساء والشيوخ يمتطون ظهور الثيران والحمير لعبور الطرق الصخرية المنحدرة. أما الرجال الأشداء والشباب فكانوا يسافرون سيرا على الأقدام . وكان عيد الفصح يجيء في الفترة ما بين أواخر ٧ آذار (مارس) وأوائل نيسان (إبريل) حين تكون الأرض كلها مكتسية حلة بديعة من الأزهار وزنابق الحقل وحين كانت الأطيار ترتل أناشيدها العذبة . وعلى طول الطريق كانت ترى أماكن تذكارية في تاريخ إسرائيل . فكان الآباء والأمهات يسردون على مسامع أولادهم العجائب التي أجراها الله مع شعبه في العصور الغابرة . وكانوا يقطعون الوقت في أثناء سيرهم بالتسبيح والعزف . وعندما كانت تبدو لأنظارهم أخيرا مدينة أورشليم بأبراجها [63] كانت كل الأصوات تتحد في إنشاد ترنيمة الظفر قائلة: "تَقِفُ أَرْجلنَا في أبوابِك يا أُورُشَليم ... لِيكُن سلاَمٌ في أبراجِك ، رَاحةٌ في قُصورِكِ" (مزمزر 122 : 2 — 7).

عيد الفصح

كان حفظ عيد الفصح قد بدأ منذ ولدت الأمة العبرانية. ففي آخر ليالي عبوديتهم في مصر حين لم تكن تبدو أية بارقة أمل في الخلاص ، أمرهم الله بالتأهب للحرية الناجزة لقد أنذر فرعون بالضربة الأخيرة التي ستقع على المصريين وكان الرب قد أوصى العبرانيين بأن يجمعوا عائلاتهم إلى داخل بيوتهم . وبعدما يرشون دم الخروف المذبوح على العتبة العليا والقائمتين في بيوتهم كان عليهم أن يأكلوا الفصح مشويا مع فطير وعلى أعشاب مرة . ثم قال لهم: "وَهكَذَا تَأْكُلونَه: أَحقَاؤُكُم مشْدودَةٌ ، وَأَحذيَتُكُم في أَرْجلكُم ، وَعصيكُم في أَيديكُم . وَتَأْكُلونَه بِعجلَة . هو فصح لِلربِّ" (خروج 2 : 11). وفي نصف الليل ضرب كل بكر في أرض مصر . فأرسل فرعون رسالة إلى إسرائيل تقول: "قُوموا اخْرجوا من بينِ شَعبِي أَنْتُما وَبنُو إسرائِيلَ جميعا ، وَاذْهبوا اعبدوا الربَّ كَما تَكَلَّمتُم" (خروج 12 : 31). فخرج العبرانيون من مصر أمة

مستقلة . وكان الرب قد أمرهم بأن يحفظوا الفصح سنة فسنة . قال: "وَيكُونُ حين يقُولَ لَكُم أوْلاَدُكَم: ما هذهِ الْخدمةُ لَكُم؟ أَنَّكُم تَقُوُلونَ: هي ذَبِيحةُ فصحِ لِلربِّ الَّذي عبر عن بيوتِ بني إِسرائِيلَ في مصر لَما ضربَ الْمصرِيين وَخَلَّص بيوتَنَا" (خروج 12 : 26 و 27). وهكذا كانت قصة هذا الخلاص العجيب تتلى على مسامع الأولاد جيلا بعد جيل.

وبعد الفصح كانت تجيء سبعة أيام الفطير. وفي ثاني أيام العيد كانت تقدم باكورة الغلات للرب أي حزمة شعير . وكانت كل احتفالات العيد رمزا لعمل المسيح . فقد كان خلاص إسرائيل من مصر درسا عمليا عن الفداء الذي كان القصد من الفصح بقاءه ماثلا في الأذهان ، كما كان الحمل المذبوح والفطير وحزمة الباكورة تمثل المخلص.

إلاّ أن غالبية الناس في أيام المسيح قد انحطت ممارستهم لهذا العيد فصاروا يحافظون على رسومه الخارجية وحسب ، ولكن ما كان أعظم معناه في نظر ابن الله! [64]

يسوع في الهيكل

ولأول مرة نظر الصبي يسوع الهيكل ، فرأى الكهنة في ثيابهم البيضاء يمارسون خدمتهم الجليلة. كما رأى الذبائح التي تقطر منها الدماء تقدم على مذبح المحرقة . وقد جثا للصلاة مع العابدين في حين كان البخور يصعد أمام الله . وكان يرى الطقوس المؤثرة لخدمة الفصح . وبمرور الأيام اتضح له معنى تلك الطقوس . وبدا كأن كل عمل مرتبط بحياته ، فاعتملت في نفسه بواعث جديدة . وإذ كان صامتا وغارقا في تفكره بدا كأنه يفكر في مسألة عويصة ، حيث بدأ جلال رسالة المخلص ينكشف أمامه.

وإذ كان مستغرقا في التأمل في تلك المناظر لم يبقَ إلى جوار أبويه. فطلب الانفراد بنفسه ، فلما انتهت خدمات الفصح كان هو لا يزال يتمشى في أروقة الهيكل ، وعندما رحل العابدون عن أورشليم عائدين إلى بلادهم تخلف هو عنهم.

رغب أبوا يسوع أن يجعلاه يجتمع بمعلمي إسرائيل العظام في أثناء تلك الزيارة ، ومع أنه كان مطيعا لكلمة الله في كل كبيرة وصغيرة ، فلم يكن يخضع لطقوس معلمي اليهود وعاداتهم. أما يوسف ومريم فكانا يأملان أنه سيحترم أولئك العلماء ويجتهد في الالتفات إلى مطاليبهم . غير أن يسوع وهو في الهيكل كان قد تعلم من الله ، فشرع لتوه في إبلاغ الناس ما قد تعلمه وأخذه.

وفي ذلك الوقت خصصت حجرة ملحقة بالهيكل لتكون مدرسة مقدسة على مثال مدارس الأنبياء ، فكان يجتمع فيها معلمو الناموس المتقدمون مع تلاميذهم ، وإلى هذا المكان أتى يسوع. فإذ جلس عند أقدام هؤلاء العلماء الموقرين جعل يصغي إلى تعاليمهم . وكمن يطلب الحكمة سأل هؤلاء المعلمين عن النبوات وعن الحوادث الجارية حينئذ التي تشير إلى مجيء مسيا.

قدم يسوع نفسه إليهم كمن هو متعطش لمعرفة الله. وقد نبهتهم أسئلته ووجهت التفاتهم إلى الحقائق العميقة التي كانت قد أخفيت عن الناس أمدا طويلا ، ولكنها كانت مع ذلك حيوية لخلاص النفوس . وكل تلك الأسئلة في حين أنها برهنت على قصر باع حكمة أولئك الحكماء وسطحيتها فقد بسط كل سؤال منها أمامهم درسا إلهيا وعرضت أمامهم [65] الحق في هيئة جديدة ونور جديد. لقد تحدث أولئك المعلمون عن الرفعة العجيبة التي سيحققها مجيء مسيا للأمة اليهودية . ولكن يسوع أورد لهم نبوة إشعياء وسألهم عن معنى النبوات التي تشير إلى آلام حمل الله وموته.

نقاش مع المعلمين

فجعل أولئك المعلمون يمطرونه بأسئلتهم ، وقد ذهلوا من فهمه وأجوبته. فبوداعة الطفولة وبراعتها تلا عليهم أقوال الكتاب مضفيا عليها معنى عميقا لم يكن أولئك العلماء يدركونه من قبل . فلو عمل الناس بتلك الأقوال واتبعوا الحق الذي أعلنه لأحدث ذلك إصلاحا عظيما في ديانة الناس في تلك الأيام ، ولنشأ في أعماق النفوس اهتمام عظيم بالأمور الروحية ، وكان الناس يتأهبون لقبول المسيح عندما يبدأ خدمته.

لقد كان أولئك المعلمون يعلمون أن يسوع لم يتلقَّ علومه في مدارسهم ، ومع ذلك فإن فهمه للنبوات فاق فهمهم إلى حد بعيد . لقد رأوا في هذا الصبي الجليلي المفكر ما يبشر بمستقبل باهر . وكانوا يتوقون إلى أن يتتلمذ لهم حتى يصير معلما في إسرائيل ، وكانوا يريدون أن يتولوا أمر تعليمه إذ كانوا يحسون أن هذا الذهن الخصب المبتكر ينبغي أن يشكلوه بأنفسهم ويتولوا تثقيفه.

لقد أثر كلام المسيح في قلوبهم تأثيرا لم يحسوا به لدى سماع أي إنسان آخر. أراد الله أن يمنح نوره لمعلمي إسرائيل أولئك فاستخدم الوسيلة الوحيدة التي لم يكن يمكن الوصول إليهم بأية وسيلة سواها . إنهم في كبريائهم كانوا يترفعون عن الاعتراف بقبول التعليم من أي إنسان . فلو بدا من يسوع أنه يحاول أن يعلمهم لكانوا يترفعون عن الاستماع لكلامه . ولكنهم كانوا يخدعون أنفسهم بأنهم هم الذين يعلمونه ، أو على الأقل يختبرون درايته بالكتاب المقدس . ولكن احتشام الفتى يسوع والنعمة المعطاة له جردت أولئك الرؤساء من تعصبهم . وبدون أن يشعروا انفتحت أذهانهم لكلمة الله وكلم الروح القدس قلوبهم.

ولم يسعهم إلاّ أن يروا أن انتظارهم الخاص بمسيا لا سند له في النبوات ، ولكنهم لم يريدوا التخلي عن النظريات التي كانوا يغذون بها طموحهم. لم يريدوا التسليم بحقيقة [66] كونهم قد أساءوا فهم الأسفار المقدسة التي ادعوا تعليمها ، وقد جعلوا يتناقلون فيما بينهم هذا السؤال قائلين: “ كيف تسنى لهذا الصبي أن يعرف كل هذا وهو لم يتعلم؟ لقد كان النُّورُ يضيءُ في الظُّلْمة ، وَالظُّلْمةُ لَم تُدرِكْه” (يوحنا 1 : 5).

والدا يسوع يفتقدانه

وفي أثناء ذلك كان يوسف ومريم في أشد حالات الضيق والحيرة. ففي عودتهما من أورشليم لم يقفا على أثر يسوع ، ولم يكونا يعلمان أنه قد تخلف في أورشليم . كانت البلاد حينئذ مزدحمة بالسكان وكانت القوافل القادمة من الجليل كبيرة جدا ، كما حدث كثير من التشويش في أثناء عودتهم من المدينة وإذ كان يوسف ومريم سائرين في الطريق انشغلت أفكارهما بفرحة السفر مع الأصدقاء والمعارف فلم يلاحظا تغيب يسوع - حتى أقبل الليل . فلما توقفا عن السير طلبا للراحة وكانا محتاجين لمساعدة المسيح لم يجداه وإذ ظناه بين الرفقة لم يكونا يحسان بأي قلق أو انزعاج . ومع حداثة سنه فقد كانا يثقان به ثقة كاملة وكانا ينتظران أنه عند الحاجة إليه لابد أن يخف إلى مساعدتهما إذ يعلم سلفا احتياجاتهما كما قد عودهما من قبل . أما الآن فقد ثارت مخاوفهما . لقد بحثا عنه بين كل أولئك الرفاق ولكن بلا جدوى . وبرعب شديد تذكرا كيف حاول هيرودس أن يهلكه في طفولته ، فامتلأ قلباهما بالتطيرات المزعجة ولاما نفسيهما بحزن مرير.

فلما رجعا إلى أورشليم استأنفا البحث عنه. وفي اليوم التالي إذ كانا يشتركان مع العابدين في الهيكل استرعى انتباههما صوت مألوف لديهما فلم يخطئاه إذ لم يكن هنالك صوت يشبه صوته الوقور الغيور ، وهو مع ذلك صوت مملوء عذوبة وجمالا.

لقد وجدا يسوع في مدرسة معلمي الشعب. ومع فرحهما بالعثور عليه لم يستطيعا نسيان حزنهما وجزعهما ، فلما اجتمع بهما ثانية قالت له أمه بصوت شاعت فيه نغمة التوبيخ: "يا بني ، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك و أنا كنا نطلبك معذبين!" (لوقا 2 : 48).

في ما لأبيه

فأجابهما يسوع بقوله: " لماذا كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟" [67] (لوقا 2 : 49). وإذ بدا أنهما لم يفهما كلامه أشار إلى السماء . وقد أشرق على وجهه نور أدهشهما . لقد كانت الألوهية تشع بنورها من خلال البشرية أنهما حين وجداه في الهيكل جعلا يصغيان إلى الحديث الذي دار بينه وبين المعلمين وقد اندهشا من أسئلته وإجاباته . لقد جعل كلامه خواطر متعددة تتوارد في عقليهما مما لا ينسيانه البتة.

لقد تعلما درسا من السؤال الذي وجهه إليها حين قال لهما: "أَلَم تَعلَما أَنَّه ينْبغي أَنْ أَكُونَ في ما لأَبِي؟" . لقد كان يسوع مشغولا بالعمل الذي أتى من السماء ليعمله . أما يوسف ومريم فقد أهملا عملهما . لقد أكرمهما الله إكراما ساميا في كونه أودع ابنه بين أيديهما . لقد وجه الملائكة خطوات يوسف في الطريق السوي ليحفظ حياة يسوع ، ولكنهما لم يعثرا عليه مدة يوم كامل . وكان ينبغي ألاّ ينسياه لحظة واحدة . فلما زايلهما الجزع لم يلوما نفسيهما بل وجها الملامة إليه .

كان أمرا طبيعيا أن ينظر أبوا يسوع إليه على أنه ابنهما. فلقد كان معهما كل يوم وكانت حياته شبيهة بحياة غيره من الفتيان من نواح كثيرة ، فكان من الصعب عليهما أن يدركا أنه ابن الله . وكانا في خطر الإخفاق في تقدير البركة الممنوحة لهما بوجود فادي العالم معهما . إن الحزن الناشئ عن افتراقهما عنه والتوبيخ الرقيق الذي كانت تحمله كلماته كان القصد منهما إقناعهما بقدسية الوديعة المسلمة لهما.

إن يسوع في جوابه لأمه أظهر لأول مرة أنه كان يفهم علاقته بالله. فقبل ولادته قال الملاك لمريم: "هذَا يكُونُ عظيما ، وَابن الْعلي يدعى ، وَيعطيه الربُّ الإله كُرسي دَاوُدَ أَبِيه" (لوقا 1 : 32 و 33). وكانت مريم تحفظ هذا الكلام متفكرة به في قلبها . ومع ذلك ففي حين أنها كانت تؤمن أن ابنها هو مسيح إسرائيل فهي لم تفهم طبيعة رسالته . لم تفهم الآن معنى كلامه ولكنها فهمت أنه قد تنصل من قرابته ليوسف وأعلن بنوته لله.

لم يكن يسوع يتجاهل علاقته بأبويه الأرضيين ، فعاد معهما من أورشليم إلى بيتهم في الناصرة ، وأعانهما على حياة الكدح ، إلاّ أنه أخفى في نفسه سر رسالته منتظرا ، بخضوع ، مجيء الوقت المعين له للبدء في عمله. لقد مر ثمانية عشر عاما منذ تحقق من أنه ابن الله ، واعترف بالصلة التي تربطه ببيته في الناصرة ، وكان يقوم بواجباته كابن وأخ وصديق ومواطن. [68]

العودة من أورشليم

وإذ كانت رسالته قد انكشفت له في الهيكل كان يتحاشى الاتصال بالجمهور ، وكان يرغب في ترك أورشليم ليعود بهدوء مع من كانوا يعرفون سر حياته. لقد كان الله يدعو شعبه عن طريق خدمة الفصح

ليباعد بينهم وبين هموم العالم وليذكرهم بعمله العجيب في إنقاذهم من مصر . وفي هذا العمل كان يريد أن يوجه أنظارهم إلى الوعد بالخلاص من عبودية الخطية . فكما أن الدم المرشوش حمى بيوت الإسرائيليين ، كذلك كان دم المسيح مزمعا أن يخلص نفوسهم . ولكن لم يكن يمكنهم الخلاص إلاّ بواسطة المسيح وحده ، إذ بالإيمان يمكنهم أن يجعلوا حياة يسوع حياتهم . فالقوة الكامنة في تلك الخدمة الرمزية منحصرة في توجيه العابدين إلى المسيح باعتباره مخلصهم الشخصي . لقد أراد الله بذلك أن يقودهم إلى الدرس والتأمل بروح الصلاة فيما يختص برسالة المسيح ، ولكن إذ كان ذلك الجمهور عائدا من أورشليم ابتلعت ضجة السفر والهرج والأحاديث الاجتماعية كل اهتمامهم وانتباههم ، فنسوا الخدمة التي قد شاهدوها . لذا لم يكن المخلص راغبا في صحبتهم.

وإذ كان لابد أن يعود يوسف ومريم منفردين مع يسوع كان يريد أن يوجه أنظارهما إلى النبوات التي تتحدث عن المخلص المتألم. وإذ كان هو معلقا على صليب جلجثة حاول التخفيف من حزن أمه ، وكان الآن يفكر فيها . لقد كان على مريم أن تشهد عذاباته الأخيرة ، وكان يرغب في أنها تفهم رسالته حتى تكون قادرة على الاحتمال عندما يجوز السيف في نفسها . فكما انفصل يسوع عنها وجعلت تطلبه ثلاثة أيام في حزن مرير ، كذلك عندما يبذل نفسه عن خطايا العالم سيغيب عن نظرها ثلاثة أيام . وعندما يخرج حيا من قبره سيتحول حزنها إلى فرح . ولكن كم كان احتمالها لآلام موته سيكون أسهل لو فهمت أقوال الكتاب التي كان يحاول حينئذ أن يوجه أفكارها إليها!

لو كان يوسف ومريم قد ثبتا أفكارهما في الله بالتأمل والصلاة لكانا قد تحققا من قداسة الوديعة التي بين أيديهما ولما كان قد غاب يسوع عن أنظارهما. إن يوم إهمال واحد جعلهما يفقدان المخلص ، وقد كلفهما ذلك عناء البحث عنه ثلاثة أيام في حزن وجزع ليجداه . كذلك الحال معنا فإننا بكلامنا البطال أو القدح في الناس أو إهمال الصلاة قد [69] نخسر في يوم واحد بركة وجود المخلص معنا ، وقد يكلفنا ذلك عناء البحث عنه في حزن أياما كثيرة حتى نجده ونستعيد السلام الذي أضعناه.

فيه كل رجائنا

وفي عشرتنا بعضنا مع بعض ينبغي لنا أن نحترس لئلا ننسى يسوع ونمر به دون أن نفكر في غيابه عنا. وحين ننشغل بأمور العالم بحيث لا نفكر في ذاك الذي فيه يتركز كل رجائنا في الحياة الأبدية فإننا نفصل أنفسنا عن يسوع وعن ملائكة السماء . إن تلك الخلائق المقدسة لا تستطيع البقاء حيث لا يرغب الناس في وجود المخلص وحيث لا يحسون بغيابه . هذا هو السبب في وقوع كثير من الفشل بين صفوف من يعترفون بأنهم أتباع المسيح.

إن كثيرين يواظبون على حضور الخدمات الدينية ويجدون العزاء في كلمة الله. ولكن بسبب إهمال السهر والتأمل والصلاة يخسرون البركة ويجدون أنفسهم في حال الوحشة والفقر الروحي أكثر مما كانوا قبلما قبلوا الكلمة . وفي غالب الأحيان يظنون أن الله قد قسا عليهم . إنهم لا يرون أن الخطأ هو خطأهم ، ففي ابتعادهم عن يسوع حجبوا عن أنفسهم نور حضوره.

يحسن بكل منا أن يقضي ساعة كل يوم بالتأمل في حياة المسيح. ينبغي لنا أن نتأمل في حوادث حياته واحدة فواحدة ولنجعل عقولنا تصور كل منظر على حدة ونتأمل فيه وعلى الخصوص أحداث حياته الأخيرة . فإذ نتأمل في كفارته العظيمة لأجلنا ستكون ثقتنا به دائمة وتستيقظ محبة قلوبنا بعمق أزيد ويسكن روحه فينا . فإذا كنا نصبو إلى الخلاص

أخيرا علينا أن نتعلم درس التوبة والتذلل والانسحاق عند قاعدة الصليب.

وإذ نجتمع معا يمكن أن نكون بركه لبعضنا بعضا ، فإذا كنا أتباعا للمسيح فإن أجمل أفكارنا ستتركز فيه ، وسيحلو لنا الحديث عنه ، وإذ نكلم بعضنا بعضا عن محبته فستلين قلوبنا أمام التأثيرات الإلهية. وإذ ننظر جمال صفاته "نَتَغَير إِلَى تِلْكَ الصورَةِ عينها ، من مجد إِلَى مجد" (2 كورنثوس 3 : 18). [70]

الفصل التاسع ـــ أيام الصراع

إن الطفل اليهودي منذ بدء حياته كان محاطا بمطاليب المعلمين. وكانت تفرض قوانين صارمة على كل عمل حتى أتفه أعمال الحياة . وعلى أيدي معلمي المجامع كان الشباب يتعلمون أنظمة لا حصر لها إذ كان المطلوب منهم كإسرائيليين سليمي العقيدة أن يراعوها. ولكن يسوع لم يكن يهتم بتلك المسائل . فمنذ صباه عاش مستقلا عن قوانين أولئك المعلمين وكانت أسفار العهد القديم موضوع دراسته الدائم ، وكانت تسمع من بين شفتيه دائما هذه العبارة: "هكَذَا قَالَ الربّ".

وإذ انكشفت أمام ذهنه حالة الشعب رأى أن مطاليب المجمع ومطاليب الله كانت في تصادم دائم. لقد ابتعد الناس عن كلمة الله فبدأوا يمجدون نظريات من ابتكار عقولهم ، فكانوا يراعون طقوسا تقليدية لا فضيلة فيها . وكانت عبادتهم مجموعة أنظمة شكلية طقسية . أما الحقائق المقدسة التي كان يمكنهم أن يستنبطوها من تلك الخدمات فقد أخفيت عن قلوب العابدين وأذهانهم . وقد رأى أنهم لم يحصلوا على السلام من خدماتهم الخالية من الإيمان . إنهم لم يعرفوا حرية الروح التي كان يمكنهم الحصول عليها لو عبدوا الله بالحق ، فأتى يسوع ليعلم الناس معنى عبادة الله ولم يكن يبيح أمر مزج مطاليب الناس بوصايا الله وفرائضه . إنه لم يهاجم فرائض معلمي الأمة ولا ممارساتهم أو أعمالهم ، ولكنهم عندما كانوا يعيرونه بعاداته البسيطة كان يردد أقوال كلمة الله لتزكية تصرفاته.

حاول يسوع بكل وسائل اللطف والمحبة أن يرضي أولئك الذين اختلط بهم. ولأنه كان لطيفا جدا ومحتشما ومؤدبا ظن الكتبة والشيوخ أنهم سيكونون قادرين بكل سهولة على التأثير فيه بتعاليمهم ، فألحوا عليه أن يقبل مبادئهم وتقاليدهم التي قد تسلموها من الأحبار الأقدمين ، ولكنه طلب منهم أن يأتوه بأسانيد من كلمة الله تلزم الناس بمراعاتها . لقد كان مستعدا لأن يسمع كل كلمة تخرج من فم الله . ولكنه رفض إطاعة ما ابتدعه الناس. [71] وكان يبدو أن يسوع يعرف الكتاب المقدس من أوله إلى آخره ، فقدم كلمة الله للناس بمعناها الحقيقي. وقد خجل أولئك المعلمون من أن يعلمهم صبي ، لذلك ادعوا أن وظيفتهم هي شرح الكلمة الإلهية ، وأن عليه أن يقبل تفسيرهم إذ أغضبهم موقفه منهم ، موقف المعارض لأقوالهم.

لقد كانوا يعرفون أنه لا يوجد في كتاب الله سند يؤيد رأيهم. ولقد تحققوا من أن يسوع كان متفوقا عليهم في الفهم الروحي ومع ذلك فقد غضبوا عليه لأنه لم يطع أوامرهم ، فلما عجزوا عن إقناعه بوجهة نظرهم قصدوا إلى يوسف ومريم وأخبروهما بأنه لا يمتثل لأوامرهم ، وهكذا احتمل السيد التوبيخ والتقريع.

كان صبورا لطيفا

وفي سن مبكرة جدا بدأ يسوع يستقل بنفسه في تكوين أخلاقه ، ولم يستطع حتى احترامه ومحبته أبويه

أن يحولا بينه وبين الطاعة لكلمة الله. وقد كان جوابه على كل عمل خالف فيه عادات العائلة: "مكتُوبٌ" ولكن نفوذ المعلمين وسلطانهم جعل حياته مريرة . حتى في مستهل شبابه كان عليه أن يتعلم الدروس القاسية دروس السكوت على الضيم والصبر والاحتمال.

ثم إن إخوته ، كما كان أبناء يوسف يدعون ، انحازوا إلى جانب معلمي إسرائيل ، وأصروا على وجوب حفظ التقاليد كما لو كانت أوامر إلهية ، لا بل حفظوا وصايا الناس واعتبروها أعظم من كلمة الله ، فاغتاظوا وتضايقوا بسبب ذكاء يسوع وفطنته في التمييز بين الزائف والحقيقي ، وحكموا عليه بأنه معاند وصلب الرأي لتدقيقه في إطاعة شريعة الله. ولقد أدهشتهم معرفته وحكمته اللتان أبداهما في إجابته على أسئلة المعلمين . لقد كانوا يعلمون أنه لم يتلق العلم على أيدي أولئك الأحبار الحكماء ، ومع ذلك فلم يسعهم إلاّ التسليم بأنه معلم لهم .ولهذا اعتبروا تعليمه أسمى من تعاليمهم . ولكنهم لم يكونوا يفطنون إلى أن شجرة الحياة كانت في متناوله ، نبع معرفة لم يكونوا يعرفون عنه شيئا [72]

لم يكن يسوع ممن يميلون إلى العزلة ، وقد أغضب الفريسيين بشكل خاص إذ جنح في هذه الناحية عن قوانينهم الصارمة وأغفلها. لقد رأى المجال الديني محاطا بأسوار عالية من العزلة ، وكأنه أقدس من أن يراعيه الإنسان في شؤون الحياة اليومية . لقد هدم هو أسوار العزلة تلك ، وفي مخالطته للناس لم يسألهم عن عقائدهم ولا الكنائس التي ينتمون إليها ، ولكنه سخر قوته في خدمة كل من كانوا بحاجة إلى العون . وبدلا من الاعتزال بنفسه في صومعة كالرهبان ليبرهن على أن أخلاقه سماوية ، فقد جعل يعمل جاهدا لخير الإنسانية . ولقد قرر في ذهنه أن ديانة الكتاب لا تنطوي على إماتة الجسد ، وعلم الناس أن الديانة الطاهرة النقية ليس المقصود بها أن يمارسها الإنسان في أوقات معينة أو مناسبات خاصة . ففي كل الأوقات وكل الأماكن أبدى اهتماما حبيا بالناس وأراق من حوله نور القداسة الفرحة المبتهجة ، فكان كل ذلك توبيخا للفريسيين . وقد برهن على أن الديانة لا تنحصر في الأثرة أو الأنانية ، وأن تقواهم المريضة التي ترمي إلى منافع شخصية كانت بعيدة كل البعد عن التقوى الحقيقية الصادقة . وهذا أثار عداوتهم ليسوع حتى لقد حاولوا إرغامه على الامتثال لقوانينهم.

اجتهد يسوع في تخفيف آلام كل المتألمين الذين عرفهم ، ولم يكن لديه غير القليل من المال لمساعدة المحتاجين ، ومع ذلك فإنه مرارا كثيرة حرم على نفسه الطعام ليسد به رمق أولئك الذين بدا أنهم أحوج منه إلى الطعام. لقد أحس إخوته بأن تأثيره قد امتد وانتشر بحيث أبطل تأثيرهم ، إذ كان يملك لباقة لم تكن لأي منهم ولا رغب أحدهم في الحصول عليها . وبينما كانوا يكلمون الناس المساكين المنحطين بخشونة كان يسوع يبحث عن نفس أولئك المنبوذين ويكلمهم بكلام التشجيع . كان يقدم لكل ظامئ أو رازح كأس ماء بارد وبكل رقة وهدوء كان يقدم للجياع طعامه . وإذ كان يخفف من آلامهم كانت أعمال الرحمة التي كان يقدمها لهم تصحب تعاليمه التي كانت ترسخ في أذهانهم بسبب ذلك.

ذووه يوبخونه

كل ذلك أسخط إخوته عليه. ولكونهم أكبر منه سنا فقد أحسوا أنه ينبغي له الخضوع لأحكامهم ، واتهموه بأنه يحسب نفسه أرفع منهم مقاما ، ووبخوه لأنه كان يتعالى على [73] معلميهم وعلى الكهنة ورؤساء الشعب. وفي كثير من الأحيان كانوا يتوعدونه بقصد إخافته ، ولكنه سار قُدما مسترشدا بكلمة الله.

لقد أحب يسوع إخوته وعاملهم برفق لا ينضب ، ولكنهم كانوا يحسدونه ويظهرون له عدم إيمان واحتقار ساخرين. إنهم لم يفهموا تصرفاته . وقد بدا لهم أنه توجد متناقضات كثيرة في حياته . كان هو ابن

العلي ومع ذلك فقد كان صبيا قاصرا . كان هو خالق الأكوان وكانت الأرض ملكا له ومع ذلك فقد اختبر الفقر في حياته في كل خطوة . كان فريدا في العظمة والجلال المنزهين عن الكبرياء والادعاء الأرضيين . لم يكن يركض وراء العظمة العالمية بل كان قانعا بأحقر المراكز . وهذا ما أسخط إخوته عليه . إنهم لم يستطيعوا التقليل من رصانته وهدوئه في مواجهة التجارب والحرمان ، ولم يكونوا يعلمون أنه من أجلنا افتقر وهو الغني "لِكَي تَستَغنُوا أنتُم بِفَقرِهِ " (2 كرنثوس 8 : 9). ولم يكونوا يفهمون سر مهمته ورسالته أكثر مما فهم أصحاب أيوب سر اتضاعه وآلامه.

ولقد أساء إخوة يسوع فهمه لأنه لم يكن يشبههم ، إذ كان مقياسه يختلف عن مقياسهم .وحيث كانوا ينظرون إلى الناس ارتدوا عن الله ولم تكن لهم قوته في حياتهم. لم تستطع طقوس الديانة التي كانوا يحفظونها أن تغير أخلاقهم . كانوا يعشرون "النَّعنَع وَالشِّبثَّ وَالْكمونَ" ولكنهم تركوا أَثقَلَ النَّاموسِ: "الْحقَّ وَالرحمة وَالإيمانَ " (متى 23 : 23). كان مثال يسوع الكامل مثيرا لهم على الدوام ، وكان الشيء الوحيد الذي أبغضه في العالم هو

الخطية. لم يكن يرى عملا واحدا خاطئا دون أن تتألم نفسه ألما لم يكن يستطيع إخفاءه . لم يكن أحد يخطئ في ملاحظة الفرق بين الطقسيين الذين كان تظاهرهم بالقداسة يخفي وراءه حبهم للخطية وبين الخلق الذي كانت الغيرة لله هي المبدأ السائد فيه . ولكون حياة يسوع قد دانت الشر فقد وجد مقاومات من البيت ومن الخارج . فكان الناس يعلقون على استقامته ونكرانه لذاته بالهزء والسخرية ، كما اعتبروا احتماله وشفقته جبنا.

كان ليسوع نصيب وافر من كل أنواع المرارة التي تحل بالإنسانية. كان هنالك جماعة حاولوا أن يلحقوا به الهوان والاحتقار بسبب مولده . وحتى في طفولته كان عليه أن يواجه نظرات الازدراء ويسمع الهمسات الشريرة منهم . فلو كان قد تأثر أو اهتاج ونظر نظرة أو نطق بكلمة تدل على الضجر لما أمكنه أن يكون مثالا كاملا ، ولما استطاع [74] كذلك أن ينفذ تدبير فدائنا. ولو سلم بأنه يمكن أن يكون هناك عذر عن أية خطية لكان الشيطان قد انتصر وهلك العالم . هذا هو السبب الذي لأجله جعل المجرب حياة السيد في غاية الصعوبة والمشقة حتى يمكن أن يرتكب الخطية.

لم يكن عنده لكل تجربة إلاّ إجابة واحدة وهي: "مكتُوبٌ" . ولم يكن يوبخ إخوته على أخطائهم إلاّ في القليل النادر ، ولكن كان لديه كلمة من الله يقولها لهم في كل مرة . وفي كثير من الأحيان كانوا ينعتونه بالجبن حين كان يرفض الاشتراك معهم في بعض الأعمال المحرمة فيجيبهم بلطف من المكتوب: "هوذَا مخَافَةُ الربِّ هي الْحكْمةُ ، وَالْحيدانُ عنِ الشَّر هو الْفهم" (أيوب 28 : 28).

أساءوا فهمه

ولكن وجد جماعة أحبوا الاجتماع به إذ كانوا يحسون بالسلام وهم في حضرته ، على أن الكثيرين كانوا يتجنبونه لأن حياته المنزهة عن الخطية كانت توبيخا لهم. وكان أترابه من الشباب يحرضونه على أن يفعل مثلما يفعلون . لقد كان ذكيا ومرحا فكانوا يسرون بوجوده معهم وكانوا يرحبون بمقترحاته الحاضرة ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون على تدقيقه وحذره فاتهموه بالتزمت والتدقيق الزائد . أما هو فكان يردد المكتوب: "بِم يزكِّي الشَّابُّ طَرِيَقه؟ بِحفْظه إِياهُ حسب كَلامك...خَبأْتُ كَلامك في قَلبِي لِكَيلاَ أُخْطئَ إِلَيك" (مزمور 119 : 9، 11).

وفي أحيان كثيرة كانوا يسألونه: " لماذا تحب أن تكون شاذا ومختلفا عن جميع الناس؟ فكان يجيبهم

بقوله: "طوبى لِلكاملين طرِيقًا ، السالِكين في شَريعة الربِّ . طوبى لِحافظي شَهادَاته . من كَل قَلوبِهِم يطلُبوَنه . أيضا لا يرتَكبونَ إِثْما . في طُرقه يسْلُكونَ" (مزمزر 119 : 1 — 3). وعندما كانوا يسألونه: " لماذا لا تشترك في اللهو والمزاح الذي يشترك فيه شباب مدينة الناصرة؟" كان يرد عليهم بالمكتوب: "بِطَريق شَهادَاتك فَرحتُ كَما على كُلِّ اْلغنَى . بِوصاياكَ أَلهج ، وَأُلاَحظُ سبلَك . بِفرائِضك أَتَلَذَّذُ . لاَ أنسى كَلاَمكَ" (مزمور 119 : 14 — 116).

ولم يكن يسوع يتنازع مع أحد لاستخلاص حقوقه. وفي كثير من الأحيان كان عمله [75] يغدو شاقا بلا مبرر لأنه كان راضيا وقانعا لا يشكو مر الظلم ، ومع ذلك فلم يفشل ولا خار عزمه. لقد عاش فوق الصعوبات لأنه كان متمتعا بنور وجه الله وابتسامته . كما أنه لم يثأر لنفسه عندما كان الناس يعاملونه بقسوة وخشونة بل كان يحتمل الإهانات بصبر

ومرارا عديدة كان يسأل هذا السؤال: " ما بالك تخضع وتستسلم لكل المعاملات السيئة الخبيثة التي تعامل بها حتى من إخوتك؟" فكان يجيب بما هو مكتوب: " يا ابني ، لاَ تَنس شَريعتي ، بلْ لِيحفَظ قَلبك وَصاياي . فَإِنَّها تَزيدكَ طُولَ أَيام ، وَسني حياةٍ وَسلامةً . لاَ تَدع الرحمة وَاْلحقَّ يْتركَانك . تَقَلَّدهما عَلى عنُقك . اُكْتُبهما عَلَى لَوحِ قَلبِك ، فَتجِد نعمةً وَفطْنةً صالِحةً في أَعينِ اللهِ وَالنَّاس" (أمثال 3 : 1 — 4).

ومنذ اليوم الذي بحث فيه أبوا يسوع عنه فوجداه في الهيكل كانت تصرفاته سرا غامضا استغلق عليهما. إنه لم يرد أن يشتبك في جدال مع أحد ومع ذلك كان مثاله درسا ماثلا أمام الأذهان دائما . كان يبدو عليه أنه مكرس ، وكانت أسعد ساعاته هي تلك التي كان ينفرد فيها مع الطبيعة ومع الله . وكلما كانت لديه فرصة كان يترك عمله ليخرج إلى الحقول ليتأمل في جمال تلك الأودية اليانعة ولتكون له شركة مع الله على الجبل أو بين أشجار الوعر . وفي الصباح الباكر كان أحيانا كثيرة يذهب إلى موضع خلاء ليتأمل مفتشا الكتب أو ليصلي . وكان يعود إلى بيته بعد تلك الساعات ، ساعات الهدوء ليباشر أعماله من جديد وليقدم للناس مثالا للصبر في العمل.

يسوع وأمه

كانت حياة المسيح تمتاز بإكرامه ومحبته لأمه. لقد كانت مريم مقتنعة في قرارة نفسها أن الطفل المقدس المولود منها هو مسيا الموعود به منذ أيام القدم ، ومع ذلك فلم تكن تجرؤ على الجهر بإيمانها ، إلاّ أنها مدى حياة المسيح على الأرض كانت تشاطره آلامه . وبكل حزن رأت التجارب التي تعرض لها في صباه وشبابه . وبتزكيتها لتصرفاته التي كانت مقتنعة بصوابيتها أوقفت نفسها بمركز حرج . لقد كانت تعتبر المعاشرات في البيت ورقابتها الدقيقة على أولادها أمرا حيويا هاما في تكوين الأخلاق . ولقد عرف هذا أبناء يوسف وبناته ، وإكراما لهذه الرغبة راحوا يحاولون تصحيح أعمال يسوع بموجب مقياسهم هم. [76]

كثيرا ما كانت مريم تعاتب يسوع وتناشده أن يمتثل لأوامر المعلمين. ولكن لم يكن يمكن إقناعه بترك عاداته الجميلة ومنها التأمل في أعمال الله والاجتهاد في تخفيف آلام الناس حتى الحيوانات البكم . وعندما استعان الكهنة والمعلمون بمريم لتساعدهم في السيطرة على يسوع أحست بانزعاج عظيم ، ولكن السلام عاد إلى قلبها عندما أورد لها يسوع الحقائق الكتابية المؤيدة لتصرفاته.

وفي بعض الأحيان كانت مريم تتأرجح بين يسوع وإخوته الذين لم يكونوا بعد يؤمنون بأنه مرسل من قبل الله. ولكن كانت توجد أدلة كثيرة على أنه شخص إلهي . لقد رأته يضحي بنفسه في سبيل الآخرين ،

كما أحدث وجوده في البيت جوا مقدسا ، وكانت حياته كخميرة تكمل عملها في المجتمع . وإذ كان مسالما ولا دنس فيه كان يسير في وسط الناس الطائشين الوقحين الشكسين ، بين الظالمين والعشارين والضالين المستهترين والسامريين الأثمة والجنود الوثنيين والفلاحين الأجلاف والجمع المختلط . كان ينطق بكلمة عطف هنا وأخرى هناك عندما كان يشاهد الناس المعيين الذين كانوا مضطرين لحمل الأعباء الثقيلة، فكان يشاطرهم أثقالهم ويردد على مسامعهم التعاليم التي قد تلقنها من الطبيعة عن محبة الله ورأفته وصلاحه.

كان عطوفا على البائسين

ولقد علم الجميع أن يعتبروا أنه قد سلمت إليهم وزنات ثمينة إذا أحسنوا استخدامها واستثمارها فستضمن لهم غنى أبديا. لقد استأصل كل الأباطيل من الحياة ، وبمثاله علم الناس أن كل لحظة تحمل في ذاتها نتائج أبدية ، وأنه يجب الحرص عليها ككنز ثمين واستخدامها في أغراض مقدسة . لم يمر بأي كائن بشري معتبرا إياه شخصا لا قيمة له ، بل اجتهد في تقديم وسائل الخلاص علاجا لكل نفس . وبين أي جمع من الناس وجد كان يقدم لهم درسا يناسب الزمان والأحوال ، كما حاول أن يلهم بالرجاء أشد الناس فظاظة ممن لم يكن يرجى منهم خير ، واضعا أمامهم الرجاء بأنهم يقدرون أن يصيروا بلا لوم ومسالمين ، ويمكن أن تكون لهم الصفات التي تؤهلهم لأن يكونوا أولادا لله . وكثيرا ما كان يقابل أولئك الذين قد انحرفوا ووقعوا تحت تأثير الشيطان ولم تكن لهم قوة على [77] الخلاص من أشراكه. مثل هؤلاء الناس الخائرين والمرضى والمجربين والساقطين كان يسوع يخاطبهم بأرق عبارات العطف والرفق ، وبالكلام الذي هم بحاجة إليه ويمكنهم فهمه ، وقد التقى بآخرين ممن كانوا قد التحموا في صراع مع عدو النفوس ، فشجعهم على مواصلة الحرب مؤكدا لهم أنهم لابد منتصرون لأن ملائكة الله معسكرون حولهم وسيعطونهم النصرة . إن أولئك الذين قدم لهم مثل هذه المعونة اقتنعوا بأنهم قد وجدوا شخصا يمكنهم أن يضعوا فيه ثقتهم الكاملة ، ولن يفشي أسرارهم التي أفضوا بها إليه.

كان يسوع شافيا للأجسام كما كان طبيبا للنفوس. فكان يبدي اهتماما بكل أشكال الآلام التي كانت تعرض عليه ، ويعطي العون والشفاء والراحة لكل متألم ، كما كانت كلماته اللطيفة بلسما شافيا لهم ، ولم يستطع أحد أن يقول إنه قد صنع أعجوبة ، ولكن القوة- قوة المحبة الشافية- كانت تخرج منه لتبرئ السقماء والمتضايقين . وهكذا منذ طفولته كان بكل تواضع يخدم الشعب ، وكان هذا هو السبب في أن كثيرين كانوا يسمعونه بسرور عندما بدأ خدمته الجهارية.

ومع ذلك ففي سني الصبا والشباب والرجولة كان يسوع يسير وحيدا ، وبطهارة وأمانة داس المعصرة وحده ومن الشعوب لم يكن معه أحد. لقد حمل على كاهله العبء الهائل ، عبء مسؤولية خلاص البشر . وقد عرف أنه ما لم يحدث تغير جوهري في مبادئ الجنس البشري وأغراضه فلابد من هلاك الجميع . كان هذا هو الحمل الذي ثقل على نفسه ، ولم يكن لأحد أن يقدر هول الحمل الثقيل الموضوع على كاهله . وإذ امتلأ قلبه بالعزم القوي تمم غرض حياته وذلك أن يكون هو نفسه نور الناس. [78]

الفصل العاشر ـــــ صوت صارخ في البرية

لقد قام سابق المسيح ورائده من وسط تلك الجماعة الأمينة في إسرائِيل التي ظلت تنتظر مجيء مسيا أمدا طويلا. كان زكريا الكاهن الشيخ وامرأته أليصابات "كلاهما بارَّين أمامَ اللهِ" (لوقا 1 : 16). وفي حياتهما الهادئة المقدسة كان يشرق نور الرجاء كنجم لامع بدد ظلمة تلك الأيام الشريرة . وقد أعطي لهذين الزوجين الصالحين الوعد بأنهما سينجبان ابنا يتقدم أمام وجه الرب ليعد طرقه.

كان زكريا يعيش في إقليم اليهودية الجبلي ، ولكنه كان قد صعد إلى أورشليم ليخدم مدة أسبوع في الهيكل ، خدمة كان يطلب من كل الكهنة أن يقوموا بها مرتين في كل عام كل في نوبة فرقته ، "فبَيْنما هو ي كهن في نَوبة فرَقته أَمامَ اللهِ ، حسب عادَةِ ٱلكهنُوتِ ، أَصابَته ٱلقُرعةُ أَنْ يدخُلَ إِلى هيكلِ الربِّ وَيبخِّر" (لوقا 1 : 8، 9).

كان واقفا أمام مذبح الذهب في المسكن ، وكانت سحابة البخور تصعد أمام الله مصحوبة بصلوات إسرائيل. وفجأة أحس بوجود كائن سماوي . فقد كان ملاك الله "وَاقفًا عن يمينِ مذبحِ ٱلبخُورِ" (لوقا 1 : 11) ، وكان موقف الملاك دليلا على الرضى الإلهي، ألا أن زكريا لم يلاحظ ذلك . لقد ظل سنين طويلة يصلي طالبا مجيء الفادي ، وها هي السماء ترسل الآن رسولها ليعلن له أن تلك الصلوات ستستجاب في وقت قريب . ولكن تراءى له أن رحمة الله عظيمة جدا بحيث لا يستحقها إنسان مثله ، وقد امتلأ خوفا واستذنابا لنفسه.

الوعد لزكريا

ولكن الملاك حيّاه باليقين المفرح قائلاً: "لا تخف يا زكريا، لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابناً وتسمّيه يوحنّا. ويكون لك فرحاً وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيماً أمام الرب، [79] وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدّم أمامه بروح إيليا وقوته، ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيّئ للرب شعباً مستعداً. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا، لأني أنا شيخ وامرأتي متقدّمة في أيامها؟" (لوقا 1 : 13 — 18).

إن زكريا كان يعرف جيدا كيف ولد لإبراهيم ابن في شيخوخته لأنه آمن أن الذي وعد هو أمين. ولكن لمدة لحظة تتجه أفكار هذا الكاهن الشيخ إلى ضعف البشرية فينسى أن الله لابد أن يتمم ما قد وعد به . ما كان أعظم الفرق بين عدم الإيمان هذا وبين ذلك الإيمان الحلو الشبيه بإيمان الأطفال الذي أظهرته مريم عذراء الناصرة التي أجابت على إعلان الملاك العجيب بقولها: "هوذَا أَنا أَمةُ الربِّ . لِيكُن لِي كَقولِكِ" (لوقا 1 : 38) إن ولادة ابن لزكريا كولادة ابن لإبراهيم وابن مريم ، كانت لتعلم درسا روحيا عظيما ،

درسا نحن متباطئون في تعلمه وسرعان ما ننساه . إننا في ذواتنا عاجزون عن عمل أي صلاح ، ولكن ما لا نستطيعه نحن سيتحقق بقوة الله لكل نفس خاضعة مؤمنة . لقد أعطي ابن الموعد بالإيمان: وبالإيمان تولد الحياة الروحية وبه نستطيع أن نعمل أعمال البر.

أجاب الملاك على تساؤل زكريا بقوله: "أَنَا جِبرائِيلُ الْواقفُ قُدامَ اللهِ ، وَأُرْسِلْتُ لأُكَلِّمك وَأُبشِّركَ بِهَذا" (لوقا 1 : 11). قبل ذلك بخمس مئة سنة كشف جبرائيل لدانيال عن المدة النبوية التي كانت ستمتد إلى مجيء المسيح . وإن معرفة زكريا بقرب نهاية تلك المدة حرك قلبه ليصلي طالبا مجيء مسيا . إن نفس ذلك الرسول الذي بواسطته أعطيت تلك النبوة قد أتى الآن ليعلن إتمامها.

ثم إن قول الملاك "أَنَا جِبرائِيلُ الْواقفُ قُدامَ اللهِ" يدل على أن له مركزا رفيعا ومقاما ممتازا في السماء . وعندما أتى هو نفسه برسالة إلى دانيال قال: "ولا أَحد يَتمسك معي عَلى هؤُلاَءِ إِلاَّ ميخائِيلُ(المسيح)[1] رَئِيسكُم" (دانيال 10 : 21). أما عن جبرائيل فالمخلص يقول:

---

[1] المعنى الحرفي للاسم ميخائيل هو "مثيل الله" أو "شبيه الله". ومن مقارنة عدد من الآيات ببعضها بعضا نجد أن ميخائيل هو المسيح، فالكتاب يدعوه في يهوذا ٩" رَئِيس اْلملائِكَة". وفي اتسالونيكي 4 : 16 وردت كلمة "صوت رئيس الملائكة". مقترنة بقيامة القديسين عند مجيء

[80]

"وبيّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنّا" (رؤيا 1 : 1). والملاك يعلن ليوحنا قائلاً: "أني عبد معك ومع إخوتك الأنبياء" (رؤيا 22 : 9). هذا فكر مدهش — إن الملاك الذي يقف في المرتبة الثانية بعد ابن الله هو الشخص المختار ليكشف للناس الخطاة عن مقاصد الله.

"ها أنت تكون صامتاً"

لقد عبر زكريا عن شكه في كلام الملاك ، فحكم عليه أن يكون صامتا لا يتكلم حتى يتم ذلك الكلام ، إذ قال له الملاك: "ها أَنت تَكُونُ صامتًا وَلا تَقدرُ أَنْ تَتكلَّم ، إِلى اْليوم الَّذي يكُونُ فيه هَذا" (لوقا 1 : 20). كان واجب الكاهن في هذه الخدمة يقتضي أن يصلى طالبا غفران خطَايا كل الناس وخطايا الأمة ، وطالبا أيضا مجيء مسيا ، لكن زكريا لما حاول أن يفعل ذلك لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

وإذ خرج ليبارك الشعب "كَانَ يومئُ إِليهِم وَبقي صامتًا" (لوقا 1 : 22). لقد ثبتوا ينتظرونه وقتا طويلا ، وبدأوا يخشون لئلا تكون قد أهلكته دينونة الله ، ولكن عندما خرج إليهم من القدس كان وجهه يلمع ببهاء مجد الله "ففهموا أَنَّه قَد رَأى رُؤْيا في اْلهيكلِ" (لوقا 1 : 22). وقد أعلمهم زكريا عن طريق الإيماءات بما قد رآه وسمعه ، "ولما كَمَلت أَيامُ خدمته مضى إِلى بيته" (لوقا 1 : 23).

وما إن ولد الطفل الموعود به حتى فكت عقدة لسان أبيه "وتكلّم وبارك الله. فوقع خوف على كل جيرانهم. وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية، فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين: "أترى ماذا يكون هذا الصبي؟" (لوقا 1 : 64 — 66). كل [81] هذا حول اهتمام الناس إلى مجيء مسيا الذي كان يوحنا مزمعا أن يعد له الطريق.

حل روح القدس على زكريا، وبهذه الكلمات الجميلة تنبأ عن رسالة ابنه قائلاً: " وأنت أيها الصبي نبي العليّ تدعي، لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعدّ طرقه. لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم،

بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء. ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام” (لوقا 1 : 76 — 79).

“أما الصبي فكان ينمو ويتقوّى بالروح، وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل” (لوقا 1 : 80). قبلما ولد يوحنا قال الملاك: “لأنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس” (لوقا 1 : 15). لقد دعا الله ابن زكريا للقيام بعمل عظيم وهو أعظم عمل أسند إلى إنسان إطلاقا . ولكي ينجز هذا العمل ينبغي أن يعمل الله معه ، وسيكون روح الله مرافقا له إذا كان يطيع تعليمات الملاك .

رسول للرب

كان على يوحنا أن يخرج كرسول الرب ليجيء بنور الله إلى الناس. عليه أن يحول أفكارهم في اتجاه جديد ، وأن يقنع الشعب بقداسة مطاليب الله وحاجتهم إلى بره الكامل مثل ذلك الرسول ينبغي أن يكون قديسا ، وعليه أن يكرس جسده لسكنى روح الله فيه . ولكي يتمم رسالته كان يجب أن يكون سليم البنية وله قوة ذهنية وروحية ممتازة . لذلك أصبح من الضروري له أن يكبح نهمه وشراهته وعواطفه ، ويتحكم في كل قواه بحيث يكون قادرا على الوقوف بين الناس ثابتا لا تزعزعه الظروف المحيطة به بل يكون كجبال البرية وصخورها الراسخة.

وفي أيام يوحنا المعمدان كان جشع الناس في سبيل جمع المال وولعهم بالترف وحب الظهور قد انتشر بين طبقات الشعب. إن الملذات الشهوانية والإفراط في الأكل والشرب كانت تسبب الأمراض الجسدية والانحطاط وتخدر الأحاسيس الروحية وتضعف الإحساس بالخطية . كان على يوحنا أن يقف كمصلح ، وكان عليه بحياته المعتدلة ولبسه البسيط أن يوبخ انصراف الناس في أيامه إلى اللهو والتأنق والإفراط في كل شيء . ولهذا أعطيت التعليمات الخاصة [82] بيوحنا إلى أبويه ، وهى درس في الاعتدال يقدمه إلى العالم ملاك آتٍ من أمام عرش السماء.

وفي أيام الصبا والشباب يسهل تشكيل الخلق والتأثير فيه ، وفي هذه الحالة يجب أن تتوافر في الإنسان فضيلة ضبط النفس. فحين يجلس أفراد الأسرة حول النار وفي المجلس العائلي تبذل الجهود لإحداث تأثيرات تدوم في حياة الصغار وتكون لها آثار تدوم إلى الأبد . إن العادات التي تتمكن من قلوب الأولاد في حياتهم الباكرة تقرر فيما بعد ما إذا كان الإنسان سينتصر في معركة الحياة أم ينهزم ، أكثر مما تقرره مواهبهم الطبيعية .إن الشباب هو وقت الزرع والغرس ، وهو يقرر نوع الحصاد للحياة الحاضرة والعتيدة

كان على يوحنا كنبي أن “ يردَّ قُلُوبَ الآباءِ إِلى الأَبْنَاءِ ، وَالْعصاةَ إِلى فكرِ الأَبرارِ ، لِكي يهيئَ لِلربِّ شَعبا مسَتعدا” (لوقا 1: 17) وفي إعداد الطريق لمجيء المسيح أول مرة كان يوحنا ممثلا للذين سيعدون شعبا لمجيء الرب مرة ثانية. لقد أسلم العالم نفسه للإفراط والشهوات والملذات . و لقد كثرت الأخطاء والخرافات . كما زادت وتضاعفت أشراك الشيطان لإهلاك النفوس . وكل الذين يريدون أن يكملوا القداسة في خوف الله عليهم أن يتعلموا درس الاعتدال وضبط النفس . ينبغي إخضاع الأهواء والشهوات لقوى العقل العليا . إن تدريب النفس هذا لازم وجوهري لإنماء القوى الذهنية والرؤى الروحية التي ستعيننا على فهم حقائق كلمة الله المقدسة والعمل بها . فلهذا السبب يجد الاعتدال لنفسه مركزا هاما في عملية التأهب لمجيء المسيح ثانية .

ثقافة يوحنا

وفي النظام الطبيعي للأشياء كان يمكن لابن زكريا أن يتهذب لخدمة الكهنوت. إلا أن تعليم مدارس معلمي إسرائيل ما كان ليؤهله لعمله . فلم يرسله الله إلى معلمي اللاهوت ليتعلم كيف يفسر الكتب المقدسة . ولكنه دعاه إلى البرية ليتعلم من الطبيعة ومن إله الطبيعة .

كان الإقليم الذي عاش فيه موحشا في وسط التلال الجرداء والكهوف الصخرية. ولكنه هو الذي اختار أن يهجر تمتعات الحياة ومباهجها ويجتاز ذلك التدريب الصارم في البرية كانت تلك البيئة تناسب عادات البساطة وإنكار الذات ، فإذ لم تكن تضايقه ضجة العالم أمكنه أن يدرس دروس الطبيعة والوحي والعناية الإلهية . وكم ردد أبوا يوحنا التقيان على مسمعه [83] كلام الملاك لزكريا! فمنذ صباه كانت مهمته ماثلة أمامه ، وقد قبل القيام بتلك المهمة المقدسة ، لذا رحب بالوحدة في البرية لينجو من ذلك المجتمع الذي قد طغى عليه عدم الإيمان والشكوك والنجاسة . إنه لم يكن يثق بقوته الذاتية للثبات أمام التجربة ، وكان يرتجف من الاتصال الدائم بالخطية لئلا يفارقه الإحساس بشناعتها

وحيث إنه قد كُرس ليكون نذيرا لله منذ ولادته فقد أقر هو باختياره هذا النذر في تكريسه نفسه مدى الحياة. كان يلبس لباس الأنبياء الأقدمين وهو عبارة عن ثوب من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد ، "وكانَ طَعامه جرادًا وَعسلاً بريا " (متى 3 : 4) ، مما وُجِد في البرية ، وكان يشرب من الماء العذب الصافي المنحدر من التلال.

غير أن يوحنا لم يقضِ حياته متعطلا في استغراق حزين أو وحدة أنانية ، ولكنه من وقت لآخر كان يخرج ليختلط بالناس ، ويلاحظ باهتمام ما يجري في العالم. فمن هذا المعتكف الهادئ كان يراقب ما تتمخض عنه الأحداث . وببصيرة مستنيرة بروح الله درس أخلاق الناس ليعرف كيف يستطيع أن يوصل رسالة السماء إلى قلوبهم . لقد كانت تبعة رسالته موضوعة عليه ، فبالتأمل والصلاة وهو في وحدته حاول أن يمنطق نفسه للعمل الذي أمامه والذي وقف له حياته

ومع إنه كان يعيش في البرية لم يكن بمنأى عن التجارب ، ولكنه على قدر الإمكان سد كل المنافذ التي كان يمكن أن يتسلل منها إليه الشيطان ، ومع ذلك كان المجرب لا يكف عن مهاجمته. إلا أن أحاسيسه الروحية كانت نقية ، إذ كان قد نمى قوة خلقه وعزيمته وبمساعدة الروح القدس أمكنه أن يكتشف تحركات الشيطان ويقاوم سلطانه

العيش في البرية

لقد وجد يوحنا في البرية مدرسته ومقدسه. فكموسى ، وهو في وسط جبال مديان ، كان هو أيضا محاصرا بحضور الله ، ومحاطا ببراهين قدرته . لم يكن نصيبه أن يعيش في وسط جلال معتكفات الجبال العظيمة كما كانت الحال مع قائد إسرائيل العظيم ، ولكنه كان يرى أمامه جبال موآب عبر الأردن ، وكانت تتحدث عن ذاك المثبت الجبال والذي يمنطقها بالقوة . إن منظر الطبيعة المرعب الكئيب في البرية التي عاش فيها صور أمامه [84] حالة إسرائيل بكل وضوح. فإن كرم الرب الشهي المحمل بالثمار قد أمسى خرابا يبابا. ولكن فوق الصحراء الجرداء انبسطت السموات المنيرة الجميلة . والسحب المتجمعة التي كانت تنذر بعاصفة هائلة كان يزينها قوس قزح الوعد . وهكذا أشرق مجد ملك مسيا الموعود به فوق

انحطاط إسرائيل ، وسطع نور قوس عهد رحمة الله فوق سحب الغضب

وإذا كان منفردا في الليل الساكن كان يقرأ وعد الله لإبراهيم بالنسل الذي كنجوم السماء التي لا تعد ولا تحصى . كما أن نور الفجر الذي كان يضيء جبال موآب كان يحدثه عن ذاك الذي سيكون "كَنُورِ الصباحِ إذَا أَشرقت الشَّمسِ" (2 صموئيل 23 : 4). وفي ضياء النور عند الظهر رأى بهاء ظهوره عندما "يعَلن مَجد الربِّ وَيراهُ كُلُّ بشرٍ جميعا" (إشعياء 40 : 5).

وبروح متهيبة ومبتهجة في نفس الوقت كان يفتش الأسفار النبوية عن إعلانات مجد مسيا- النسل الموعود به المزمع أن يسحق رأس الحية ، شيلون " مانح السلام" المزمع أن يظهر قبل أن ينتهي حكم آخر ملك ممن يجلسون على عرش داود. لقد جاء الوقت الآن ، ففي القصر المبني على جبل صهيون كان يجلس والٍ روماني . وبموجب كلمة الله الأكيدة ولد المسيح.

كانت الصور التي صورها إشعياء في رؤياه عن مجد مسيا موضوع دراسة يوحنا ليلا ونهارا- الغصن الذي كان ينبت من أصل يسى ، الملك الذي يملك بالعدل "ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض" ويكون "كمخبأ من الريح ... كظلّ صخرة عظيمة في أرض معيية" ، فلا يقال عن أورشليم فيما بعد "مهجورة" ولا يقال بعد لأرضها بل "موحشة" تدعى "حفصيبة" وتدعى أرضها "بعولة" (إشعياء 11 : 4 ؛ 32 : 2 ؛ 62 : 4) ، فامتلأ قلب ذلك الشاب المنفي المعتزل بالرؤيا المجيدة.

إساءة فهم مهمة يسوع

لقد نظر الملك في بهائه فنسى نفسه. رأى القداسة في جلالها فأحس بعجزه وعدم استحقاقه . وكان على تمام الأهبة للخروج كرسول السماء غير مخوف من إنسان بشري لأنه قد رأى الله . لقد استطاع أن يقف ثابتا وشجاعا في حضرة الملوك الأرضيين لأنه قد سجد متضعا أمام ملك الملوك [85]

لكن يوحنا لم يكن يدرك تماما طبيعة ملكوت مسيا ، فكان ينتظر خلاص الأمة الإسرائيلية من أعدائها ، بينما مجيء الملك بالبر وتثبيت إسرائيل كأمة مقدسة كان ذلك هو الغاية العظمى لرجائه. وهكذا آمن بأن النبوة التي قيلت عند ولادته ستتم وهى تقول : "لِيصَنع رَحمةً ...وَيذكُر عهدهُ ٱلمقدسَ ... أَنْ يعطيَنا إنَّنا بِلا خَوفٍ ، منَقذين من أيدي أَعدائِنا ، نَعبدهُ بِقداسة وَبِر قُدامه جميع أَيامِ حياتَنا" (لوقا 1 : 72 — 75).

إنه قد رأى بني شعبه مخدوعين ومكتفين بنفوسهم ونائمين مستريحين في خطاياهم ، فتاق إلى إيقاظهم لحياة القداسة. وقد كانت غاية الرسالة التي أعطاه الله إياها ليحملها إليهم هي إيقاظهم من سباتهم العميق وجعلهم يرتعبون من شرورهم العظيمة . إذ قبلما يجد بذار الإنجيل مكانا كان يجب حرث تربة القلب ، وقبلما يطلبون من يسوع الشفاء كان عليهم أن يتحققوا من هول خطر جروح الخطية التي فيهم.

إن الله لا يرسل رسله ليتملقوا الخطاة ، ولا يرسل رسالة السلام لكي يجعل النجسين يستكنون في طمأنينتهم الكاذبة المؤدية إلى الهلاك. ولكنه يثقل الحمل على ضمائر الأثمة ويطعن النفس بسهام التبكيت . إن الملائكة الخادمين يستعرضون أمامهم ديِنونة الله الرهيبة ليعمقوا فيهم الإحساس بحاجتهم لكي يصرخوا قائلين: "ماذَا يْنبغي أَنْ أَفعلَ لِكي أخلُص؟" (أعمال 16 : 30). وحينئذ فاليد التي قد أذلتهم وأجلستهم في التراب سترفع التائبين منهم. والصوتِ الذي وبخ الخطية وأخزى الكبرياء والطموح يسأل الخاطئ بأرق عبارات العطف قائلا: "ماذَا تُرِيد أَنْ أَفعلَ بِك؟ " (لوقا 18 : 41).

حالة الأمة

عندما بدأ يوحنا خدمته كانت الأمة في حالة اهتياج وتبرم وكانوا موشكين أن يقوموا بثورة. فلما عزل أرخيلاوس صارت اليهودية تحت سيطرة روما المباشرة . إن طغيان الولاة الرومان واغتصابهم وإصرارهم على إدخال الرموز والعادات الوثنية إلى الأرض المقدسة ، كل ذلك أضرم نيران الثورة التي لم يخمدها إلا دماء الآلاف من أشجع رجال إسرائيل. كل ذلك زاد من حقد الشعب وكراهيتهم لروما ، وزاد من شوقهم للتحرر من سلطانها.

في وسط تلك المنازعات والخصومات سمع صوت آتٍ من البرية ، صوت مفزع [86] وعبوس ، ولكنه مليء بالرجاء قائلا: ”تُوبوا ، لأَنَّه قَد اقْتَربَ مَلَكُوتُ السماوَاتِ“ (متى 2 : 3). هذا الصوت أيقظ الشعب بقوة جديدة وغريبة . لقد تنبأ الأنبياء عن مجيء المسيح على أنه حادث سيحدث في المستقبل البعيد ، ولكن هنا إعلان يقول إنه قد اقترب . إن ظهور يوحنا المفاجئ الغريب عاد بأفكار الشعب إلى الرائين الأقدمين . ففي عاداته ولبسه كان يشبه إيليا النبي . فبروح إيليا وقوته وبخ الأمة على فسادها . وشجب الخطايا المتفشية بين الشعب . لقد كان كلامه واضحا وموجها ومؤثرا . وكان كثيرون يعتقدون أن نبيا من القدماء قد قام ، وقد استيقظت الأمة كلها وتقاطرت جماهير الشعب إلى البرية.

أعلن يوحنا عن مجيء مسيا ، ودعا الناس إلى التوبة. وكرمز للتطهير من الخطية كان يعمدهم في مياه الأردن . وهكذا بدرس ظاهر أمام العيون وله دلالته أعلن يوحنا أن أولئك الذين يدعون أنهم شعب الله كانوا منجسين بالخطية ، وإنه بدون تطهير القلب والحياة لن يكون لهم نصيب في ملكوت مسيا.

وقد أتى إلى يوحنا الرؤساء ومعلمو اليهود والجنود والعشارون والفلاحون ليسمعوه .وقد أفزعهم إنذار الله الخطير إلى حين. وكثيرون تابوا واعتمدوا ، وخضع الناس من كل الطبقات لمطاليب المعمدان حتى يكون لهم نصيب في الملكوت الذي قد أعلن عنه.

ثم جاء كثيرون من الكتبة والفريسيين معترفين بخطاياهم وطالبين المعمودية. ولكنهم كانوا مترفعين إذ حسبوا أنفسهم أفضل من غيرهم . وجعلوا الناس يحترمونهم لأجل تقواهم المزعومة . أما الآن وقد انكشفت خفايا قلوبهم الآثمة . وقد أقنع الروح القدس يوحنا بأن كثيرين من أولئك القوم لم يكن في قلوبهم اقتناع حقيقي بالخطية ، بل كانوا انتهازيين .وكأصدقاء للنبي كانوا يأملون أن يجدوا حظوة لدى الملك الجديد ، وإذ يقبلون المعمودية على يدي هذا الكارز الشاب الشهير كانوا يفكرون في زيادة نفوذهم على الشعب.

”يا أولاد الأفاعي“

ففاجأهم يوحنا بهذا السؤال الفاحص: ”يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم“ (متى 3 : 7 — 19). [87]

كان اليهود قد حرفوا وعد الله بالرضى الأبدي عن إسرائيل، وهو يقول: “ هكذا قال الرب الجاعل الشمس للإضاءة نهاراً، وفرائض القمر والنجوم للإضائة ليلاً، الزاجر البحر حين تعج أمواجه، رب الجنود اسمه: إن كانت هذه الفرائض تزول من أمامي، يقول الرب، فإن نسل إسرائيل أيضاً يكف من أن

يكون أمة أمامي كل الأيام. هكذا قال الرب: إن كانت السموات تقاس من فوق وتفحص أساسات الأرض من أسفل، فإني أنا أيضاً أرفض كل نسل إسرائيل من أجل كل ما عملوا، يقول الرب" (إرميا 31 : 35 — 37). كان اليهود يبررون أن تناسلهم الطبيعي من إبراهيم يعطيهم حق امتلاك هذا الوعد. ولكنهم أغفلوا الشورط التي قد وضعها الله. فقبلما أعطى هذا الوعد قال: "أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً .. لأني أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيّتهم بعد" (إرميا 31 : 33 و 34).

إن الشعب الذي شريعة الله مكتوبة على قلبه هو الذي حقق له الرب إحسانه ورضاه أنهم يكونون متحدين به . ولكن اليهود كانوا قد انفصلوا عن الله . فبسبب خطاياهم كانوا يقاسون البلايا من هول أحكامه . وهذا كان السبب في عبوديتهم لأمة وثنية . لقد أظلمت المعاصي عقولهم ، ولكون الرب قد بسط لهم رحمة في العصور الغابرة كانوا يعتذرون عن خطاياهم . وكانوا يخدعون أنفسهم بالقول إنهم أفضل من غيرهم من الناس وإنهم يستحقون نوال بركات الله.

هذه الأمور "كُتبت لإِنذارنا نَحن الَّذين اْنتَهت إلِيَنا أَوَاخر الدهورِ" (1 كورنثوس 10 : 11). كم من مرة نعرف بركات الله ونخدعَ أنفسنا بالقول إننا قد أنعم علينا لأجل صلاحنا . إن الله لا يستطيع أن يصنع معنا ما يشتاق إلى صنعه . فنحن نستخدم عطاياه لإرضاء ذواتنا وتقسية قلوبنا في عدم الإيمان والخطية.

فساد أخلاق معلمي الشعب

أعلن يوحنا لمعلمي إسرائيل أن كبرياءهم وأنانيتهم وقسوتهم قد برهنت على أنهم أولاد الأفاعي ولعنة قاتلة ماحقة للشعب وليسوا أولاد إبراهيم البار المطيع. أما بالنظر إلى النور المعطى من الله فقد كانوا أشر من الوثنيين الذين كانوا يدعون أنهم أرفع منهم جدا. [88] لقد نسوا الصخر الذي منه قطعوا ونقرة الجب الذي منه حفروا. ولم يكن الله موقوفا عليهم في إنجاز مقاصده . فكما قد دعا إبراهيم من وسط شعب وثني كذلك كان يمكنه أن يدعو آخرين ليخدموه ، ومع أن قلوب أولئك الآخرين ربما تبدو عديمة الحياة كأحجار الصحراء فإن روحه يستطيع أن يحييهم ليفعلوا مشيئته ويقبلوا إتمام وعده.

ثم قال النبي: "وَالآنَ قَد وُضعت اْلفَأْسُ عَلى أَصلِ الشَّجرِ ، فَكُلُّ شَجرةٍ لاَ تصَنع ثمرا جيدا تُقطع وَتُلَقى في النَّار" (متى 3 : 10). إن قيمة الشجرة لا تقدر باسمها بل بثمرها.فمتى كان الثمر لا قيمة له فإن اسم الشجرة لا يمكن أن ينقذها من القطع والهلاك . ولهذا أعلن يوحنا لليهود أن موقفهم أمام الله تقرره أخلاقهم وحياتهم . فلا قيمة للاعتراف أو الادعاء ولا جدوى منهما . فإذا لم تكن حياتهم متمشية ومنسجمة مع شريعة الله فليسوا شعبه.

لقد اقتنع سامعو يوحنا وتبكتوا من وعظه الفاحص القلوب. فجاءوا يسألونه قائلين إذاً: "فَماذَا نَفعلُ؟"، فأجاب وقال لهم: "من لَه ثوبانِ فَليعط من لَيس لَه ، وَمن لَه طَعامٌ فَليفعلْ هكَذا" (لوقا 3 : 11). ثم حذر العشارين من الظلم ، كما حذر الجنود من القسوة والعنف.

ثم قال لهم إن كل من قد صاروا رعايا في ملكوت المسيح لابد أن يبرهنوا على ذلك بتوبتهم وإيمانهم. وستظهر في حياتهم صفات الرفق والأمانة والولاء . إنهم يخدمون المحتاجين ويقدمون تقدماتهم لله ، ويكونون حصنا ودرعا للقاصرين وغير المحصنين ، ويقدمون للناس مثالا في الفضيلة والرأفة . وهكذا يبرهن أتباع المسيح على قوة الروح القدس المغيرة والمجددة . وترى في حياتهم اليومية صفات العدل والرحمة ومحبة الله.وإلا فإنهم سيكونون كالتبن الذي يطرح في النار

“الذي يأتي بعدي”

ثم قال يوحنا: ”أنا أعمّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار” (متى 3 : 11). كان النبي إشعياء قد أعلن من قبل أن الرب سيطهر شعبه من آثامهم ”بروح القضاء وبروح الإحراق” (إشعياء 4 : 4). وهذا ما قاله الرب لإسرائيل: ”وأرد يدي عليك، وأنقّي زغلك [89] كأنه بالبورق، وأنزع كل قصديرك” (إشعياء 1 : 25). أما بالنسبة إلى الخطية أينما وجدت فإن ”إلهنا نار آكلة” (عبرانيين 12 : 29). وكل من يخضعون لسلطان الله فإن روحه يحرق الخطية. أما إذا تعلق الناس بالخطية فسيحرقون معها وحينئذ فمجد الله الذي سيهلك الخطية سيهلكهم. إن يعقوب بعد ليلة مع الملاك قال: ”لأني نظرت الله وجهاً لوجه، ونُجيت نفسي” (تكوين 30 : 32). لقد ارتكب يعقوب خطية عظيمة ضد أخيه عيسو ولكنه تاب ، فغفر إثمه وتطهر من خطيته ولذلك أمكنه احتمال الوجود في حضرة الله . ولكن أينما يمثل الناس أمام الله وهم بكل إصرار يحتضنون الشر فلابد من هلاكهم .وعند مجيء المسيح الثاني سيباد الأثيم ”بنفخة فمه، ويبطله بظهور مجيئه” (1 تسالونيكي 2 : 8). إن نور مجد الرب الذي يمنح الحياة للأبرار سيهلك الأثمة.

في أيام يوحنا المعمدان كان المسيح مزمعا أن يظهر كمن هو معلن وكاشف صفات الله. ونفس حضوره سيكشف للناس خطاياهم . ولا يمكنهم أن يدخلوا في شركة معه ما لم يكونوا راغبين في التطهر من الخطية . إن الأنقياء القلب هم وحدهم الذين يسكنون في حضرته.

وهكذا أعلن المعمدان رسالة الله لإسرائيل وقد حفظ كثيرون تعاليمه. وفي سبيل الطاعة ضحى كثيرون بكل شيء ، واتبعت جماهير الشعب هذا الكارز الجديد من مكان إلى آخر، وقد كان يرجو عدد غير قليل منهم أن يكون هو مسيا ، ولكن إذ رأى يوحنا الشعب منصرفين إليه انتهز كل فرصة لتوجيه إيمانهم إلى ذاك المزمع أن يأتي [90]

الفصل الحادي عشر ــــالمعمودية

لقد ذاعت أنباء نبي البرية وإعلانه العجيب في كل أنحاء الجليل حتى بلغت الرسالة مسامع الفلاحين الساكنين في أقصى المدن الجبلية والصيادين الساكنين عند البحر ، فوجدت تلك الرسالة في القلوب الساذجة الغيورة أصدق استجابة. وقد رددت هذه الرسالة في الناصرة في الحانوت الذي كان ليوسف النجار ، وكان هنالك من أدرك تلك الدعوة .لقد أتت ساعته ، فإذ ترك عمله اليومي ودع أمه وسار في إثر مواطنيه الذين كانوا يتقاطرون على نهر الأردن.

كان يسوع ويوحنا المعمدان من أبناء الخؤولة. وقد توثقت الأواصر بينهما بسبب ظروف ميلادهما ، إلا أنه لم يكن بينهما تعارف مباشر ، فيسوع قضى حياته في ناصرة الجليل أما يوحنا فكان يعيش في برية اليهودية . وفي بيئتين متباينتين عاش كل منهما في عزلة ولم يتصل أحدهما بالآخر . ولقد كان هذا بترتيب العناية . فلم تعط فرصة لتعزيز تهمة كونهما متآمرين على أن يعاضد كل منهما الآخر ويؤيد دعواه.

كان يوحنا عالما بالحوادث التي تميز بها ميلاد يسوع ، إذ سمع عن زيارته لأورشليم في صباه وما حدث في مدرسة معلمي الشعب ، كما عرف أنه كان معصوما من الخطية وآمن بأنه لابد أن يكون هو مسيا ، إلا أنه لم يكن عنده اليقين الجازم من هذه الناحية. إن حقيقة كون يسوع ظل سنين طويلة مغمورا دون أن يقدم دليلا خاصا على صدق رسالته ، أعطى مجالا للشك والتساؤل فيما إذا كان هو الشخص الموعود به أم لا . ومع ذلك فقد ظل المعمدان ينتظر بإيمان أن كل شيء سيصير واضحا في الوقت المعين من الله . كان قد أعلن له أن مسيا سيجيء ليعتمد منه وأنه ستعطى له [91] علامة تدل على صفته الإلهية ، وهكذا سيكون قادرا على تقديمه للشعب.

يسوع يعتمد

ولما أتى يسوع ليعتمد استطاع يوحنا أن يرى فيه نبلا وطهارة لم يرهما في أي إنسان من قبل. ولقد كان جو حضوره مقدسا وموجبا للتهيب . كان يوحنا قد سمح من الحشد الذي تجمع حوله بالأردن كثيراً من القصص المؤلمة التي حدثت لتلك الجموع عن الجرائم التي ارتكبوها ، وقد رأى نفوسا منحنية تحت ثقل الخطايا المريعة ولكنه لم يشاهد قط شخصا كهذا يفوح من حضوره عبير إلهي . كان كل هذا متفقا مع ما كان قد أعلن ليوحنا فيما يختص بمسيا ، ومع ذلك تراجع ولم يجب يسوع إلى طلبه ، إذ كيف يستطيع وهو الإنسان الخاطئ أن يعمد ذاك الذي بلا خطية؟ ولماذا يخضع ذاك الذي لم يكن بحاجة إلى التوبة لفريضة كانت اعترافا بالذنب في طلب التطهير والغفران؟

فلما طلب يسوع من يوحنا أن يعمده تراجع قائلا: "أنا محتاج أن أعتمد منك، وأنت تأتي إلي!" فأجابه يسوع بسلطان ثابت إنما بكل رقة قائلا: "اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل بر" (متى 3 : 14،

15). وإذ امتثل له يوحنا نزل به إلى نهر الأردن وغطسه في الماء "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه" (متى 3 : 16).

إن يسوع قد قبل المعمودية لا على اعتبار أنها اعتراف منه بخطية ارتكبها ، ولكنه وحد نفسه مع الخطاة وسار في نفس الخطوات التي علينا أن نسير فيها وقام بنفس العمل الذي وجب أن نقوم به. كما أن حياة الآلام والصبر والاحتمال التي عاشها بعد عماده كانت أيضاً مثالا لنا.

يصلي طلبا للقوة

ولما خرج يسوع من الماء جثا على الشاطئ يصلِّي . لقد بدأت حقبة جديدة وهامة في حياته ، وها هو الآن يقف على مسرح أوسع ويدخل في صراع حياته . ومع أنه رئيس السلام فإن مجيئه سيكون بمثابة امتشاق الحسام . والملكوت الذي أتى ليثبته الآن على [92] عكس ما كان يشتهيه اليهود. ذاك الذي كان أساس طقوس ونظام إسرائيل سينظر إليه على أنه مدمر ومخرب وعدو لذلك كله . ذاك الذي قد أعلن الناموس في سيناء سيحكم عليه بأنه متعد عليه ، وذاك الذي قد أتى ليحطم قوة الشيطان ويسحقها سيحكمون عليه بأنه بعلزبول . لم يكن على الأرض إنسان فهم يسوع على حقيقته ، إذ طوال سني خدمته كان عليه أن يسير وحيدا ، وطوال سنى حياته لم تدرك أمه ولا إخوته رسالته . حتى تلاميذه لم يفهموه . لقد كان يسكن في نور أزلي كمن هو واحد مع الله ، ولكن حياته على الأرض كان ينبغي أن تكون حياة العزلة والانفراد.

وإذ كان واحدا معنا كان عليه أن يحمل عبء آثامنا وويلاتنا. فالمنزه عن الخطية كان عليه أن يحس بعار الخطية ، ومحب السلام كان يجب أن يعيش في وسط النزاع والخصام ، وكان على الحق أن يعيش في جوار الكذب والطهارة إلى جوار الخسة والنذالة . وكل نفور أو نزاع وكل خطية وكل شهوة نجسة جلبها العصيان- كل تلك الشرور كانت سياط عذاب لروح المسيح.

لقد كان عليه أن يسير في الطريق وحده ، وأن يحمل العبء وحدة . وذاك الذي أخلى نفسه من مجده وقبل ضعفات البشرية كان ينبغي أن يأخذ على نفسه تبعة فداء العالم . لقد رأى ذلك كله وأحس به ولكنه ظل لابثا في عزمه على الوصول إلى غرضه . كان يستند على قوة يمينه لخلاص جنسنا الساقط ، وقد مد يده ليمسك بيد المحبة القادرة على كل شيء.

إن نظرة المخلص يبدو وكأنها اخترقت السماء عندما كان يسكب نفسه في الصلاة . إنه يعرف جيدا إلى أي حد قست الخطية قلوب الناس ، ويعرف مدى صعوبه إدراكهم لرسالته وقبولهم عطية الخلاص ، فهو يسأل الآب أن يمنحه القوة التي بها ينتصر على عدم إيمانهم ويحطم أغلالهم التي بها استرقَّهم الشيطان ، ولينوب عنهم في قهر مهلك النفوس ، وهو يطلب شهادة على أن الله يقبل البشرية في شخص ابنه.

على هيئة حمامة

لم يسبق للملائكة أن سمعوا مثل تلك الصلاة. إنهم يتوقون إلى أن يحملوا إلى رئيسهم المحبوب رسالة اليقين والعزاء . ولكن لا ، فإن الآب سيجيب بنفسه على طلبة [93] ابنه. فمن عرش الله مباشرة تنبث أنوار مجده . فها السموات تنفتح وينزل على رأس المخلص نور غاية في النقاوة على هيئة حمامة ، وهي

رمز يناسب ذاك الذي هو وديع ومتواضع القلب ومن بين كل الجمع الغفر المجتمع عند الأردن لم يفطن إلى تلك الرويا غير عدد قليل وعلى رأسهم يوحنا . ومع ذلك فإن جلال الحضور الإلهي شمل ذلك الجمع ، فوقف الناس يشخصون إلى المسيح وهم صامتون ، وقد غمره النور الذي يحيط دائما بعرش الله . ووجهه الشاخص إلى السماء تمجد ، الأمر الذي لم يسبق أن حدث لإنسان ، ومن السموات المفتوحة سمع صوت يقول: "هَذَا هو ابني ٱلْحبِيب ٱلَّذي بِه سرِرْتُ" (متى 3 : 17).

إن كلمات التثبيت هذه قد أرسلت لكي تبعث الإيمان إلى قلوب من شاهدوا ذلك المنظر ولتقوي المخلص في أداء رسالته وإنجاز مهمته. فعلى رغم أن حقيقة كون خطايا العالم الأثيم قد وضعت على المسيح ، وعلى رغم اتضاعه في كونه أخذ على نفسه طبيعتنا الساقطة ، فإن الصوت الذي سمع من السماء أعلن أنه ابن الله السرمدي

لقد تأثر يوحنا تأثرا عظيما عندما رأى يسوع جاثيا كمن يبتهل ويتضرع ، وهو يتوسل بدموع طالبا مصادقة الآب. فإذ أحاط به مجد الله وسمع الصوت من السماء تحقق يوحنا من العلامة التي سبق أن وعدد الله بها ، فعرف أن ذاك الذي عمده هو فادي العالم حيث استقر عليه الروح القدس . ثم أشار إلى المسيح قائلا: "هوذَا حملُ اللهِ الَّذي يرفَع خَطيةَ ٱلْعالَمِ!" (يوحنا 1 : 29).

لم يكن أحد من السامعين حتى ولا المتكلم نفسه قد فهم فحوى هذه العبارة " حملُ اللهِ ".لقد سمع إبراهيم وهو على جبل المريا ابنه يسأله قائلا: "يا أَبِي ... أين ٱلْخروفُ لِلْمحرقَة؟" فأجابه أبوه بقوله: "اللهُ يرى لَه ٱلْخروفَ لِلْمحرقَة يا ابني " (تكوين 22 : 7 و 8). ففي الكبش الذي أعده الله عوضا عن اسحق رأى إبراهيم رمزا لذاك الذي كان مزمعا أن يموت لأجل خطايا الناس . وقد تنبأ الروح القدس إذ التقط هذه الصورة فقال بلسان إشعياء: "كَشاةٍ تُساقُ إِلَى الذَّبح" ، "الربُّ وَضع علَيه إِثْم جميعنَا" (إشعياء 53 : 7، 6). إلا أن شعب إسرائيل لم يكونوا قد فهموا هذا الدرس . وكثيرون منهم اعتبروا الذبائح الكفارية كما كان الوثنيون يعتبرون ذبائحهم- كتقدمات أرادوا عن طريقها [94] استرضاء الله. وكان الله يريد أن يعلمهم أن من محبته تأتي العطية التي تصالحهم معه.

أولاد الله

هذا ، وإن ذلك القول الذي خوطب به يسوع عند نهر الأردن حين أعلن قائلا: " هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به" (متى 3 : 17) يشمل البشريه كلها . لقد خاطب الله يسوع على أنه نائبنا ، إذ مع كل ما فينا من خطايا وضعفات لم نُطرح خارجا بل تبنانا على رغم تفاهتنا بنعمته "التي أنعم بها علينا في المحبوب" (أفسس 1 : 7). إن المجد الذي استقر على المسيح هو ضمان لمحبة الله لنا ، وهو يبرهن لنا على قوة الصلاة . وكيف يمكن للصوت البشري أن يصل إلى أذني الله ، وأن طلباتنا تجد قبولا في السماء . فبالخطية حصل جفاء وقطيعة بين الأرض والسماء ونفيت الأرض عن الشركة مع السماء . ولكن يسوع ربط بينهما بمحيط المجد . لقد حاصرت محبته الإنسان ووصلت إلى أعالي السماء. إن النور الذي سطع من السماء من الأبواب المفتوحة على رأس مخلصنا سيسطع على وجوهنا عندما نصلى في طلب المعونة لمقاومة التجربة ، والصوت الذي خاطب يسوع يقول لكل نفس مؤمنة: "هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به".

" أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يظهر بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو" (1 يوحنا 3 : 2). لقد فتح فادينا الطريق بحيث أن أشر الناس وأفقرهم والمظلومين

منهم والمحتقرين يمكنهم أن يقبلوا أمام الآب . ويمكن للجميع أن يجدوا لهم مكانا في المنازل التي قد مضى يسوع ليعدها لشعبه ، "هذا يقوله القدوس الحق، الذي له مفتاح داود، الذي يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح .. هنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ولا يستطيع أحد أن يغلقه" (رؤيا 3 : 7 و 8). [95]

الفصل الثاني عشر ـــــ التجربة

"أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس، وكان يقتاد بالروح في البرية" (لوقا 4 : 1). إن ما قاله مرقس بهذا الصدد له دلالة أعظم إذ يقول: "وللوقت أخرجه الروح إلى البرية، وكان هناك في البرية أربعين يوماً يجرّب من الشيطان. وكان مع الوحوش"، "ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام" (مرقس 1 : 12، 13 ؛ لوقا 4 : 2).

إن يسوع عندما اقتيد إلى البرية لكي يجرب كان منقادا بروح الله. إنه لم يداعب التجربة . لقد انطلق إلى البرية لينفرد بنفسه ، ليتأمل في رسالته وعملة . وإذ صام وصلى كان عليه أن يعد نفسه للسير في الطريق المخضب بالدم الذي كان عليه أن يسلكه . ولكن الشيطان علم أن المخلص قد ذهب إلى البرية فظن أن هذا أنسب وقت فيه يقترب منه.

إن نتائج عظيمة وحوادث هامة وخطيرة لأجل العالم كانت في خطر عظيم في ذلك الصراع الهائل بين رب النور ورئيس مملكة الظلام. فبعدما جرب الشيطان الإنسان فأخطأ ادعى إبليس أن الأرض له وخلع على نفسه لقب رئيس هذا العالم . فبعدما جعل طبيعة أبوينا الأولين مشابهة ومطابقة لطبيعته ظن أنه سيقيم ملكوته هنا في العالم ، وأعلن أن الناس قد إختاروه ملكا وسيدا عليهم . وعن طريق سيطرته على الناس بسط سلطانه على العالم ، فأتى المسيح ليكذّب ادعاءات الشيطان . وكابن الإنسان قصد المسيح أن يكون وفيا ومخلصا لله . وهكذا يتبرهن أن الشيطان لم يسيطر على الجنس البشري سيطرة كاملة، وأن ادعاءه بأنه رئيس العالم هو ادعاء كاذب . وكل من تاقوا للتحرر من سلطانه يمكن أن تُردّ لهم حريتهم . إن المملكة التي خسرها آدم بالخطية سترد له. [96]

تحدي سلطان إبليس

ومنذ رن صوت ذلك الإعلان الإلهي في جنة عدن قائلا للحية: "وَأَضع عداوَةً بيَنك وَبين ٱلمرأَةِ ، وَبين نَسلك وَنسلها" (تكوين 3 : 15) علم الشيطان أنه لم يخضع العالم لنفسه إخضاعا كاملا . فلقد كانت هنالك قوة تعتمل في قلوب البشر تقاوم الشيطان وتصمد أمام سلطانه . وقد كان يراقب باهتمام زائد الذبائح التي كان آدم ونسمله يقدمونها ، فرأى في تلك الطقوس رمزا للشركة بين الأرض والسماء . وقد بذل قصاراه ليوقف هذه الشركة. وأساء في تصوير الله وتصوير الطقوس التي كانت تشير إلى المخلص . وبذلك جعل الناس يخافون من الله وينظرون إليه كمن يسر بإهلاكهم . والذبائح التي كان ينبغي أن تعلن محبته كانت تقدم فقط بقصد تسكين غضب الله . ثم أثار الشيطان شهوات الناس الشريرة لكي يثبت سلطانه عليهم . وعندما سلم الله كلمته المكتوبة للناس جعل الشيطان يدرس النبوات الخاصة بمجيء المخلص . ومن جيل إلى جيل حاول أن يعمي الناس عن هذه النبوات حتى يرفضوا المسيح عندما يجيء.

ولما ولد يسوع علم الشيطان أن شخصا قد أتى بتفويض إلهي يتحدى سلطانه وينازعه عليه. فارتعب من رسالة الملاك التي شهدت لسلطان الملك الوليد . ولقد عرف الشيطان جيدا المركز الذي احتله المسيح في السماء كحبيب الآب . فكون ابن الله يأتي إلى الأرض كإنسان ، ملأه دهشة وخوفا . ولم يستطع أن يسبر سر هذه التضحية العظيمة ، إذ أن نفسه المحبة لذاتها لم تستطع أن تدرك تلك المحبة المقدمة لجنسنا الذي قد خدعه الشيطان . ولم يكن الناس يدركون جيدا مجد السماء وسلامها ولا فرح الشركة مع الله ، ولكن هذه كانت معروفة تماما لدى لوسيفر- الكروب المظلل . ومنذ أن خسر السماء عزم على أن يثأر لنفسه بأن يشرك آخرين معه في سقوطه . ويمكنه عمل ذلك بكونه يجعل الناس يبخسون قدر الأمور السماوية ويجعلهم يضعون قلوبهم على الأرضيات.

ولم يكن يمكن لرئيس جند السماء أن يكسب قلوب الناس لملكوته دون أن تقوم في طريقه العراقيل والعقبات. فمنذ أن كان طفلا في بيت لحم أخذ الشرير يهاجمه دون انقطاع . لقد كانت صورة الله واضحة المعالم في وجه المسيح ، لذا عزم مجمع الشيطان على أن يقهروه . حيث لم يوجد إنسان جاء إلى العالم ونجا من سلطان ذلك [97] المخادع. وقد تعقب أجناد ذلك الحلف الجهنمي خطوات السيد لكي يشهروا عليه الحرب ويغلبوه إن أمكنهم ذلك.

كان الشيطان بين الشهود في معمودية المخلص. وقد رأى مجد الآب يظلل الابن السماوي . وسمع كذلك صوت الله معلنا ألوهية يسوع . ومنذ أن أخطأ آدم كان الجنس البشري قد انقطعت شركته مع الله ، وصار الاتصال بين الأرض والسماء عن طريق المسيح . أما الآن وقد جاء يسوع "في شبه جسد الخطية" (رومية 8 : 3) فقد تكلم الآب نفسه . كان قبلا يتصل بالبشر عن طريق المسيح ، أما الآن فهو يتصل بهم في المسيح . لقد كان الشيطان يأمل أنه بسبب كراهية الله وبغضه للشر سيحدث انفصال أبدي بين الأرض والسماء ، ولكن وضح الآن أن الصلة بين الله والإنسان قد أعيدت.

قاهر أو مقهور

رأى الشيطان أن عليه أن يكون إما قاهرا أو مقهورا ، وكان يعلق أهمية عظيمة على نتيجة ذلك الصراع إذ كان ينطوي عليها أشياء كثيرة ، فلم يستأمن عليها أحد ملائكته المتحالفين معه ، بل ينبغي له أن يقود المعركة بنفسه ، فاصطفت كل قوى الارتداد ضد ابن الله ، وبذلك صار المسيح هدفا لسهام كل قوات الجحيم.

إن كثيرين ينظرون إلى هذا الصراع بين الله والشيطان على أنه لا علاقة خاصة له بحياتهم. ولذلك فهو لا يتطلب منهم اهتماما كبيرا . ولكن هذا الصراع يتكرر في أعماق كل قلب بشري . ولا يمكن أن إنسانا يترك صفوف جيش الشر من أجل خدمة الله دون أن يهاجمه الشيطان . إن الإغراءات التي قاومها المسيح هي نفسها التي نجد صعوبة في الصمود لها . لقد صبت عليه تلك الإغراءات بقوة أشد عنفا مما تهجم به علينا بنسبة سمو أخلاقه عن أخلاقنا . وإذ كان عبء خطايا العالم الفظيع يثقل كاهله ثبت المسيح أمام تجربة الشهية (شهوة الطعام) وتجربة محبة العالم وتعظم المعيشة أي التفاخر الذي يؤدي إلى الغطرسة . لقد كانت هذه هي التجارب التي انهزم بها آدم وحواء والتي سرعان ما نستسلم نحن لها. [98]

وقد أشار الشيطان إلى خطية آدم كدليل على أن شريعة الله جائرة متعسفة ولا يمكن إطاعتها. وإذ اتخذ المسيح جسم بشريتنا كان عليه أن يعوض عن سقوط آدم ويفتديه . ولكن عندما هاجم العدو آدم ، لم يكن في قلبه أي أثر للخطية . فوقف في قوة الرجولة الكاملة وكان يتمتع بنشاط عقلي وجسماني كامل ، وكان

محاطا بأمجاد عدن وكانت له شركة مع الخلائق السماوية كل يوم . ولم يكن الأمر كذلك مع يسوع حين دخل إلى مجاهل البرية ليكافح مع الشيطان . لقد ظلت قوى الناس البدنية والذهنية والأدبية تتضاءل شيئا فشيئا مدى أربعة آلاف سنة . فأخذ يسوع على نفسه ضعفات البشرية وانحطاطها .وبدون هذه الوسيلة ما كان يستطيع أن ينتشل الإنسان من أعمق أغوار انحطاطه و فساده

كثيرون يدعون أنه كان من المستحيل على المسيح أن ينهزم أمام التجربة. ولو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يأخذ مكان آدم ، ولما أمكنه أن يحرز النصرة التي قصر آدم عن إحرازها . ولو كانت حروبنا أشد وطأة مما على يسوع بأي معنى من المعاني ففي هذه الحال لا يمكنه أن يعيننا . ولكن مخاصنا أخذ جسم بشريتنا بكل احتمالاتها وتبعاتها . لقد اتخذ طبيعة الإنسان بما فيها من إمكانية الخضوع للتجربة . فليس هنالك ما نلتزم أن نتحمله مما لم يتحمله هو قبلنا.

التجربة الأولى

وكما كانت الحال مع ذينك الزوجين المقدسين في جنة عدن كذلك كانت الحال مع المسيح إذ كان اشتهاء الأكل هو أساس التجربة الأولى التي هوجم بها ، ففي نفس الشيء الذي بدأ به الخراب والهلاك ينبغي أن يبدأ عمل فدائنا ، فكما سقط آدم بسبب شهود الأكل كذلك ينبغي أن ينتصر المسيح بإنكار تلك الشهوة والتغلب عليها ، " فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، جاع أخيراً. فتقدّم إليه المجرّب وقال له: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً". فأجاب وقال: "مكتوب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى 4 : 2 — 4).

منذ عهد آدم إلى أيام المسيح زاد انغماس الناس من قوة حب الشهية والشهوة فصار سلطانها عظيما بحيث لم يستطع أحد أن يكبحها. وهكذا انحط الناس وأصيبوا بالسقم ، فأمسى [99] من المستحيل عليهم أن ينتصروا بقوتهم. والمسيح كنائب عن الإنسان انتصر باحتماله أقسى امتحان . ولأجلنا لجأ المسيح إلى ضبط النفس الذي كان أقوى من الجوع ومن الموت .وكان لهذه النصرة الأولى كثير من النتائج التي تتدخل في كل حروبنا مع قوات الظلمة.

إن يسوع عندما دخل البرية كان محاطا بمجد الآب ، وإذ كان مشغولا بالشركة مع الله سما فوق الضعف البشري. ولكن المجد رحل عنه فتُرِك هو ليصارع التجربة . وكانت التجربة تلح عليه في كل لحظة ، فانكمشت طبيعته البشرية من الصراع الذي كان ينتظره، وظل صائماً ومصليا أربعين يوما . وإذ كان جسمه ضعيفا وهزيلا بسبب الجوع ، وإذ كان مضنى ومنهوكا بسبب العذاب النفسي والعقلي "كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم" (إشعياء 52 : 14). فكانت تلك الفرصة هي فرصة الشيطان السانحة ، وقد ظن أنه سيكون حينئذ قادرا على قهر المسيح.

مكر العدو

أتى إلى المخلص- وكأنما كان ذلك استجابة لصلاة السيد- شخص في هيئة ملاك آت من السماء. وادعى ذلك الشخص أنه جاء مفوضا من الله ليعلن أن صوم المسيح قد انتهى. فكما أرسل الله إلى إبراهيم ملاكا ليمنع يده عن تقديم ابنه اسحق ذبيحة ، فكذلك إذ اكتفى الآب بتطوع المسيح للسير في الطريق

المخضب بالدم أرسل ملاكا ليخلصه . هذه كانت الرسالة المرسلة إلى يسوع . كان المخلص قد غشي عليه من الجوع ، وكان مشتاقا إلى الطعام عندما أقبل عليه الشيطان فجأةً . وإذ أشار إلى الحجارة الملقاة على وجه الصحراء والتي تشبه الخبز قال له المجرب: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً" (متى 4 : 3).

ومع أنه جاء في شبه ملاك نور فقد فضحته هذه الكلمات وأظهرته على حقيقته: " إن كنت ابن الله" - في هذه الكلمات تلميح إلى الشك ، فلو عمل يسوع بمشورة الشيطان لكان ذلك تسليما بالشك ، إذ قصد المجرب أن يسقط المسيح بنفس الوسائل التي أفلحت في إسقاط أبوينا الأولين . ما أعظم الدهاء والخبث اللذين بهما اقترب الشيطان إلى حواء في الجنة! لقد سألها قائلاً: "أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟" (تكوين 3 : 1). إلى هنا كان كلام المجرب صادقا ، ولكن الطريقة التي تكلم بها كانت تشيع فيها نغمة الاحتقار لكلام [100] الله ، إذ كان في قوله نفي خفي سري وشك في صدق الله. لقد حاول الشيطان أن يبث في عقل حواء فكرة كون أنه لا يقصد أن ينفذ وعيده ، وأن تحريمه الأكل من تلك الثمرة الحلوة الجميلة هو أمر مناقض لمحبته وشفقته على الإنسان . وكذلك نجد الشيطان هنا يحاول أن يستميل المسيح لقبول آرائه هو: "ان كنت ابن الله". إن هذه الكلمات جاشت محمومة في ذهنه . إن نغمة كلامه يشيع فيها الارتياب: أهكذا يعامل الله ابنه؟ أيتركه في البرية مع الوحوش بدون طعام أو رفاق أو عزاء؟ وهو يوعز إليه أن الله لا يقصد البتة أن يصل ابنه إلى مثل هذه الحالة ، "إن كنت ابن الله" فأظهر قدرتك في إسعاف نفسك وسد هذا الجوع الشديد الذي تعانيه . قل أن يصير هذا الحجر خبزا.

قصد الشيطان

إن الصوت الذي أقبل من السماء قائلا: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (متى 3 : 17) كان لا يزال يرن في أذني الشيطان . ولكنه كان مصمما على أن يجعل المسيح يشك في هذه الشهادة . لقد كانت كلمة الله هي اليقين الذي لا يتزعزع على صدق رسالة المسيح الإلهية ، الذي جاء لكي يعيش كإنسان بين الناس ، وكلمة الله هي التي أعلنت ارتباطه بالسماء ، فكان الشيطان يقصد أن يشككه في تلك الكلمة . فلو أمكن أن تتزعزع ثقة المسيح بالله ، لعرف الشيطان أن النصرة في هذا الصراع كله ستؤول إليه . وسيكون قادرا على أن يقهر المسيح . كما كان يرجو أن يسوع وهو تحت ضغط اليأس والجوع الشديد سيفقد إيمانه بأبيه ويصنع معجزة للترفيه عن نفسه . فلو فعل هذا لانهار تدبير الخلاص من أساسه.

إن الشيطان وابن الله عندما تقابلا ليتحاربا أولا كان المسيح رئيس جند السماء. والشيطان ، قائد العصيان في السماء قد طُرِد آنئذ ، أما الآن فقد انعكست الحالة كما كان يبدو ، فالشيطان يفاخر بامتيازاته المزعومة وبحسن استخدامها . قال الشيطان إن واحدا من أقوى الملائكة قد طرد من السماء . وكان منظر يسوع يوحي بأنه هو ذلك الملاك الساقط إذ كان متروكا من الله والناس . إن الكائن الإلهي لابد أن يكون قادرا على إسناد ادعائه بعمل معجزة: "إن كنت ابن الله، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً" (لوقا 4 : 3) [101] قال له المجرب: إن هذا العمل الذي به تظهر قدرتك الخالقة سيكون دليلا قاطعا على ألوهيتك ، وسيضع حدا ونهاية لهذا الصراع

لم يكن يسوع يستطيع أن يصغي صامتا إلى كلام هذا المخادع الأعظم بدون حرب أو كفاح. ولكن ابن الله لم يكن ليبرهن للشيطان على ألوهيته أو يوضح له سبب اتضاعه .فلو أذعن لمطاليب ذلك المتمرد الثائر لما أمكن الحصول على أية فائدة لا لخير الإنسان ولا لمجد الله . فلو استجاب لاقتراح العدو لكان الشيطان

يقول له بعد ذلك: أرنى آية أومن بواسطتها أنك ابن الله . إن البرهان الساطع ما كان مجديا لسحق قوة التمرد من قلبه . وما كان المسيح ليستخدم السلطان الإلهي لخيره هو . لقد جاء لكي يحتمل التجربة كما يجب علينا نحن أن نحتملها ، تاركا لنا مثالا في الإيمان والخضوع . فهو لم يصنع معجزة لا في هذه المناسبة ولا في أي وقت من حياته المستقبلة لأجل نفعه الشخصي ، ولكن كل العجائب التي أجراها كانت لخير الآخرين . ومع أن يسوع قد عرف الشيطان من البدء فهو لم يسَتفز لمصارعته . وإذ تقوى عندما تذكر صوت الشهادة التي جاءته من السماء استراح في محبة أبيه . إنه لم يرد أن يتداول أو يتفاوض مع التجربة.

"مكتوب"

واجه يسوع الشيطان بكلام الله قائلا: "مكتُوبٌ" وفي كل تجربة جرب بها كان سلاح محاربته كلمة الله . لقد طلب الشيطان من يسوع أن يصنع معجزة لإثبات ألوهيته . ولكن ما كان أعظم من كل المعجزات هو الاعتماد الراسخ على القول: "هكَذَا قَالَ الربُّ" الذي كان آية لا يمكن أن تدحض . وطالما كان المسيح ثابتا في موقفه هذا لم يستطع المجرب أن يغنم أية فائدة.

لقد هوجم المسيح بأقسى التجارب وهو في أشد حالات الضعف. وهكذا ظن الشيطان أنه سينتصر ، إذ بهذه السياسة قد أحرز النصرة على بني الإنسان . فعندما ضعفت القوة ووهن العزم ، وعندما لم يعد الإيمان يستند على الله ، فأولئك الذين سبق أن ثبتوا وانتصروا للحق بكل شجاعة انهزموا . لقد تضايق موسى مدى سني تجوال إسرائيل في البرية مدة أربعين سنة بينما في لحظة أفلت إيمانه من قدرة الله غير المحدودة فلم يستند [102] عليها ، فأخفق وهو على حدود أرض الموعد. وكذلك كانت الحال مع إيليا الذي كان قد وقف أمام الملك أخآب غير هياب ولا وَجِل ، والذي سبق له أن جابه كل شعب إسرائيل وعلى رأسهم أنبياء البعل الأربع مئة والخمسين . ففي نهاية ذلك اليوم المخيف على جبل الكرمل ، وبعد ما قتل كل الأنبياء الكذبة وأعلن الشعب ولاءهم لله هرب إيليا لأجل حياته خوفا من تهديدات إيزابل الوثنية . وهكذا استفاد الشيطان من ضعف البشرية ، وسيظل دائبا على عمله بنفس هذه الطريقة . فكلما أحاطت بالإنسان سحب أو أربكته الظروف أو آلمه الفقر أو الضيق فالشيطان يقترب إليه ليجربه ويضايقه . إنه يهاجم نقطة الضعف في أخلاقة ، ويحاول أن يزعزع ثقتنا بالله الذي يسمح باجتيازنا هذا الظرف أو ذاك . فنحن نجرب حتى نشك في الله وفي محبته . وغالبا ما يأتينا المجرب كما قد أتى إلى المسيح ، إذ يصف أمام أبصارنا كل ضعفاتنا وأمراضنا ، مؤملا بذلك أن يثبط عزائمنا ويفصم عرى تمسكنا بالله . ففي هذه الحالة يكون قد تمكن من فريسته . فلو واجهناه كما قد فعل يسوع لكنا ننجو من هزائم كثيرة . أما إذا لجأنا إلى التفاوض مع العدو فنحن بذلك نجعله يطمع فينا فينتصر علينا.

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"

وعندما قال المسيح للمجرّب: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى 4 : 4). كان يردد نفس الكلمات التي كان قد تكلم بها في مسامع بني الله قبل ذلك بأكثر من ألف وأربع مئة سنة عندما قال: "سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر ... فأذلّك وأجاعك وأطعمك المن الذي لم

تكن تعرفه ولا عرفه أباؤك، لكي يعلّمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان" (تثنية 8 : 2 و 3). ففي البرية التي خلت من كل وسائل الإعالة كان الرب ينزل لشعبه المن من السماء بلا انقطاع بكميات كانت كافية لكل الشعب . وقد كان القصد من تدبير هذه المؤونة لهم أن يعلمهم أنهم طالما كانوا متكلين على الله وسائرين في طرقه فلن يتركهم . والآن ها هو المخلص يمارس نفس الدرس الذي كان قد سبق فعلمه لإسرائيل . إذ بكلمة الله قدم القوت والعون للشعب الإسرائيلي ، وبنفس الكلمة تقدم المعونة ليسوع الذي انتظر الوقت المعين من الله لإرسال المعونة والنجدة . لقد كان في البرية إطاعةً لله ، ولم يكن يريد أن [103] يحصل على الطعام باتباع مقترحات الشيطان. فأمام شهود المسكونة أجمعين شهد بأن احتمال أي خطب مهما عظم شأنه يعتبر كارثة أقل هولا من كارثة الانحراف عن طريق الله.

" ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله". في أحيان كثيرة يأتي تابع المسيح إلى حيث لا يستطيع أن يعبد الله ويتقدم في مشاريعه الدنيوية في نفس الوقت . وقد يبدو أحيانا أن إطاعته لمطاليب الله الصريحة تقطع عنه مورد المعيشة ويلقي الشيطان في روعه أن عليه أن يضحي بعقائده السليمة المستقيمة . ولكن الشيء الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه في كل العالم هو كلمة الله . " أطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تزاد لكم" (متى 6 : 33). وحتى في هذه الحياة ليس من صالحنا الابتعاد عن إرادة أبينا السماوي . فمتى عرفنا قوة كلمته فلن نتبع مقترحات الشيطان للحصول على الطعام أو لإنقاذ حياتنا . والسؤالان اللذان لا ثالث لهما سيكونان هذين: بماذا يأمرنا الله ، وبماذا يعدنا؟ فمتى عرفناهما فسنطيع أمره ونثق بوعده.

وفي الحرب الأخيرة العظيمة التي سيثيرها الشيطان سيرى الذين يبقون على ولائهم لله أن كل أسباب الإعالة الأرضية قد حرمت عليهم . فلكونهم يرفضون تعدي شريعة الله إطاعةً للسلاطين والقوات الأرضية فلن يسمح لهم بالتعامل في البيع والشراء . وسيقضى عليهم بالموت في النهاية . (أنظر ما ورد في رؤيا 13 : 11 — 17). ولكن الرب يقدم هذا الوعد للمطيعين: "هو في الأعالي يسكن. حصون الصخور ملجأه. يعطي خبزه، ومياهه مأمونة" (إشعياء 33 : 16). بهذا الوعد سيعيش أولاد الله. وعندمت تجتاح المجاعات الأرض سيأكلون للشبع، "لا يخزون في زمن السوء، وفي أيام الجوع يشبعون" (مزمور 37 : 19). وقد نظر النبي حبقوق إلى ذلك الزمن المستقبل، زمن الضيق، فعبر بكلامه عن إيمان الكنيسة قائلاً: "فمع أنه لا يزهر التين، ولا يكون حمل في الكروم. يكذب عمل الزيتونة، والحقول لا تصنع طعاماً. ينقطع الغنم من الحظيرة، ولا بقر في المذاود، فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي" (حبقوق 3 : 17، 18).

محاولة محو صورة الله

ومن بين كل التعاليم التي علينا أن نتعلمها من تجربة السيد الأولى لا شيء أهم من الدرس الخاص بضبط الشهية والشهوة. ففي كل العصور نجد أن [104] التجارب التي تهجم على الطبيعة الإنسانية كانت ولا تزال فعالة جدا في إفساد البشرية وجلب الهوان عليها. إن الشيطان عن طريق الإفراط في الأكل والشرب يعمل على تحطيم وتدمير قوى الإنسان الذهنية والأدبية التي قد منحها له الله على أنها هبات لا تقدر بثمن . وهكذا يصير من المستحيل على الناس أن يقدروا الأشياء ذات القيمة الأبدية . فعن طريق الانغماس الشهواني يحاول إبليس أن يمحو من النفس كل أثر لصورة الله.

إن الانغماس الجامح والإفراط في إشباع الشهوات وما نجم عن ذلك من أمراض وانحطاط ، الأمور

التي كانت موجودة عند المجيء الأول للمسيح ، ستكون موجودة أيضاً بأكثر شدة وشر قبل مجيئه الثاني. والمسيح يعلن أن حالة العالم حينئذ ستكون كحالته قبل الطوفان ، وكما كانت في سدوم وعمورة قبل تدميرهما ، سيكون تصور أفكار قلوب الناس شريرا كل يوم . إننا الآن عائشون على أبواب ذلك الوقت المخيف ، فعلينا أن نعي في قلوبنا درس صوم المخلص هذا . وعن طريق العذاب الذي لا يعبر عنه والذي احتمله المسيح يمكننا أن نُقدر شر الشهوات الجامحة . إن مثاله يعلن لنا أن رجاءنا الوحيد في الحياة الأبدية هو في إخضاع شهيتنا وشهواتنا لإرادة الله.

ولكن يستحيل علينا بقوتنا الذاتية أن ننكر عنف طبيعتنا الفاسدة التي عن طريقها يأتينا الشيطان بالتجربة. لقد عرف المسيح أن العدو سيهاجم كل إنسان ويستفيد من ضعفه الوراثي وسيحاول بدسائسه وأكاذيبه أن يوقع في أشراكه كل من لم يضعوا ثقتهم بالله . إن سيدنا إذ سار في الطريق الذي علينا أن نسير فيه قد أعد لنا طريق النصرة . إنه لا يريدنا أن نقف في مواقف حرجة في حربنا مع الشيطان ولا يريدنا أن نجبن أو تهمد عزائمنا أمام هجمات الحية . يقول لنا: "ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ ٱلْعَالَمَ" (يوحنا 16 : 33).

فعلى من يصارع ضد سلطان الشهية أن ينظر إلى المخلص في برية التجربة. فانظروه في نزاعه على الصليب وهو يصرخ قائلا: "أنا عطشانُ" (يوحنا 19 : 28). لقد احتمل كل ما في استطاعتنا أن نتحمله . وانتصاره يحسب لنا [105]

الاستناد على الله

استند المسيح على حكمة الآب السماوي وقوته ، إذ يقول: " والسيد الرب يعينني، لذلك لا أخجل. عرفت أني لا أخزى .. هوذا السيد الرب يعينني". وإذ يشير إلى نفسه كمن يقول لنا: "من منكم خائف الرب .. من الذي يسلك في الظلمات ولا نور له؟ فليتّكل على اسم الرب ويستند إلى إلهه" (إشعياء 50 : 7 — 10).

لم تكن في يسوع أية خالجة استجابت لتمويهات الشيطان كما يتبين من قوله: " رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء" (يوحنا 14: 30). إنه لم يرض بارتكاب الخطية ولم يخضع للتجربة ولا بمجرد الفكر.

وهكذا يمكن أن تكون الحال معنا. لقد كانت بشرية المسيح متحدة بألوهيته ، وكان مؤهلا للاشتباك في تلك الحرب بسكنى الروح القدس فيه ، فأتى لكي يجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية . وطالما نحن متحدون به بالإيمان فالخطية لن تسودنا ، حيث الله يوجه أيدي إيماننا لتتمسك بألوهية المسيح حتى يمكن أن نبلغ إلى كمال الخلق.

وقد أوضح لنا المسيح كيف يتم هذا. بأية وسائل غلب في حربه مع الشيطان؟ بكلمة الله . نعم بكلمة "مكتُوبٌ" دون سواها أمكنه أن يقاوم التجربة .ولنا نحن قد وهبت المواعيد العظمى والثمينة لكي نصير بها "شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة" (2 بطرس 1 : 4). فكل وعد في كلمة الله هو لنا . وعليه ، يجب أن نحيا "بكل كلمة تخرج من فم الله" فمتى هاجمتك التجربة فلا تنظر إلى الظروف أو إلى ضعفاتك الشخصية بل إلى قوة الكلمة ، إذ كل قوتها هي لك . يقول صاحب المزامير: "خبأت كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك"، كما يقول أيضاً: "من جهة أعمال الناس فبكلام شفتيك أنا تحفظت من طرق المعتنف" (مزمور 119 : 11 ؛ 17 : 4). [106]

الفصل الثالث عشر ـــ الانتصار

ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب: أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك" (متى 4 : 5 و 6).

ظن الشيطان الآن أنه إنما يواجه المسيح في ميدانه هو. ها هو العدو الماكر نفسه يقدم كلاما خرج من فم الله . إنه لا يزال متخذا هيئة ملاك نور ، ويبرهن على أنه خبير في معرفة الكلمة الإلهية ويدرك فحوى المكتوب وأهميته . فكما استخدم يسوع كلمة الله من قبل لإسناد إيمانه نرى المجرب يستخدمها الآن ليؤيد بها خداعه ، مدعيا أنه إنما يختبر ولاء يسوع . وهو الآن يمتدح ثباته . وإذ يعلن المخلص ثقته بالله فالشيطان يحرضه على تقديم برهان آخر على إيمانه.

ولكننا نرى هذه التجربة أيضاً تبدأ بما يثير الشك: "إِنْ كُنت ابن اللهِ" ، ولقد جرب المسيح بأن يجيب على كلمة "إِنْ"، ولكنه امتنع عن أقل تسليم بالشك . فلم يرد أن يخاطر بحياته ليقدم برهانا للشيطان.

فكر الشيطان في استغلال بشرية المسيح ليسوقه إلى الغطرسة ، ولكن مع أن الش ي طان يستطيع أن يغري فهو لا يستطيع أن يرغم أحدا على ارتكاب الخطية. لقد قال للمسيح: "اطرحْ نَفسكَ إِلى أَسَفلُ"، لعلمه أنه لا يستطيع أن يطرحه بنفسه ، لأن الله لابد أن يتدخل في هذه الحالة لإنقاذه ، كما لم يكن الشيطان قادرا على إرغام المسيح على طرح نفسه إلى أسفل . فما لم يسلم المسيح للتجربة فلا يمكن أن يهزم . ولم تكن كل قوات الأرض والجحيم قادرة على إرغامه ولو لمدى لحظة واحدة للابتعاد عن عمل إرادة أبيه. [107]

سبيل الطاعة

إن المجرب لا يمكنه أبدا أن يرغمنا على عمل الشر. فهو لا يستطيع التحكم في الأذهان والأفكار ما لم تخضع لسلطانه . فقبلما يتحكم الشيطان فينا لابد أن تذعن له الإرادة ويفلت منا الإيمان بالمسيح . ولكن كل رغبة خاطئة نحتضنها في قلوبنا تعطيه مكانا يثبت فيه قدمه . وكل عمل نخفق فيه في الوصول إلى مقياس الله هو باب مفتوح يمكنه الدخول منه ليجربنا ويهلكنا . وكل فشل أو هزيمة تحل بنا تعطيه المجال لأن يعير المسيح.

إن الشيطان عندما اقتبس الوعد القائل: "لأَنَّه يوصي ملائِكَته بِك لِكي يحَفظُوكَ في كُلِّ طُرقك" (مزمور 91 : 11) أي في كل الطرق التي يختارها الله . وقد رفض المسيح التنكب عن طريق الطاعة . ففي حين أبدى ثقة كاملة في أبيه ، لم يرد أن يضع نفسه ، بدون أمر إلهي ، في موقف يجعل من اللازم أن يتدخل الله ليحول بينه وبين الموت . لم يرد أن يرغم عناية الله على أن تتقدم لإنقاذه . وهكذا يخفق في

إعطاء الناس مثالا في الثقة والخضوع.

أجاب يسوع الشيطان بقوله: "مكتُوبٌ أَيضا: لاَ تُجرب الربَّ إِلهك" (متى 4 : 7). هذا القول نطق به موسى في مسامع بني إسرائيل عندما عطشوا في البرية وطلبوا من موسى أن يعطيهم ماء . وصرخوا قائلين: "أَفي وَسطِنا الربُّ أَمْ لاَ؟" (خروج 17 : 7). لقد صنع الرب معهم عجائب ومع ذلك ففي ضيقهم شكوا فيه وطلبوا برهانا على وجوده وسطهم . وفي عدم إيمانهم طلبوا أن يجربوه . فحرض الشيطان المسيح على أن يفعل نفس ذلك العمل . لقد سبق الله فشهد بأن يسوع هو ابنه . ولذلك فإن طلب الآن برهاناً جديداً على كونه ابن الله كان ذلك يعتبر تجربة لشهادة الله وتجربة لله . وهذا صدق أيضاً على من يسألون ما لم يعد به الله فهذا يدل على عدم الثقة وبالتالي يكون تجربة لله . ينبغي ألاّ نقدم طلباتنا إلى الله ليتبرهن لنا ما إذا كان سيتم وعده أم لا ، بل لأنه سيتممه ، لا ليبرهن على كونه يحبنا بل لأنه يحبنا ، إذ "بِدونِ إِيمانٍ لاَ يمكن إِرْضاؤُهُ ، لأَنَّه يجِب أَنَّ الَّذي يأْتي إِلى اللهِ يؤْمن بِأَنَّه موجودٌ ، وَأَنَّه يجازِي الَّذين يطْلُبوَنه" (عبرانيين 11 : 6).

الإيمان والغطرسة

ولكن الإيمان لا يتفق مع الغطرسة بأي معنى من المعاني . فالذي عنده إيمان حقيقي [108] هو وحده المحصن ضد الغطرسة. لأن الغطرسة والتهور هما تزييف الشيطان للإيمان .إن الإيمان يتمسك بوعد الله ويثمر ثمار الطاعة . والغطرسة والتهور يتمسكان هما أيضاً بالمواعيد ، ولكنهما يستخدمانها كما استخدمها الشيطان عذرا للعصيان . كان يمكن أن يقود الإيمان أبوينا الأولين إلى الثقة بمحبة الله وإطاعة أوامره ، ولكن التهور قادهما إلى عصيان شريعته وهما واثقان من أن محبته العظيمة ستنجيهما من قصاص خطيتهما . إن الإيمان ليس هو الذي يطلب رضى السماء دون الامتثال للشروط التي بموجبها توهب الرحمة . ولكن الإيمان الحقيقى هو الذي يؤسس على وعود الكتاب وإعداداته

في غالب الأحيان عندما يخفق الشيطان في إثارة الشك في نفوسنا فهو يفلح في إيقاعنا في الغطرسة والتهور. فإذا استطاع أن يجعلنا نضع أنفسنا في متناول التجربة بدون داع فهو يعرف أن النصر حليفه . إن الله سيحفظ كل من يسيرون في طريق الطاعة ، ولكن الانحراف عنها مجازفة عظيمة إذ يسير الإنسان في أرض الشيطان ، وفي هذه الحالة لابد من سقوطنا . لقد أمرنا المخلص قائلا: "اِسهروا وَصلُّوا لِئَلاَّ تَدخُلُوا في تَجرِبة" (مرقس 14 : 38). فالتأمل والصلاة يحفظاننا من الاندفاع في طريق الخطر بلا داع ، وهكذا نوفر على أنفسنا هزائم كثيرة.

ومع ذلك ينبغي ألاّ نفقد شجاعتنا متى هاجمتنا التجربة ، إذ غالبا عندما نوجد في موقف شاق نشك في أن روح الله هو الذي يتولى قيادتنا ، مع أن الروح هو الذي اقتاد يسوع إلى البرية ليجرب من إبليس. فعندما يدخلنا الرب في تجربة يكون له قصد يتممه لخيرنا . إن يسوع لم يجترئ على وعود الله بدخوله في التجربة بدون سماح إلهي ، كلا ، ولا استسلم إلى اليأس عندما هجمت عليه التجربة ، فعلينا نحن أيضاً ألاّ نفعل ذلك ، إذ "الله أَمين ، الَّذي لا يدعكم تُجربونَ فَوقَ ما تَستَطيعونَ ، بلْ سيجعلُ مع التَّجرِبة أَيضا ٱلْمَنْفَذَ ، لِتَستَطيعوا أَنْ تَحتملُوا" ، وهو يقول: "اِذْبح للهِ حمدا ، وَأَوْفِ ٱلْعلي نُذُورَكَ ، وَادْعني في يومِ الضيق أُنقذكَ فَتُمجدني" (2 كورنثوس 10 : 13، مزمور 50 : 14، 15).

لقد انتصر يسوع على التجربة الثانية ، وهوذا الشيطان يميط اللثام ويبدو على حقيقته .ولكنه لا يظهر في هيئة وحش مخيف وأظلافه مشقوقة وله أجنحة كأجنحة الخفافيش. إنه ملاك قوي مع أنه ساقط وهو

يجاهر بأنه قائد العصاة وإله هذا العالم. [109]

عرض أمجاد العالم

فإذ أوقف الشيطانُ المسيح فوق جبل عال جعل جميع ممالك العالم ومجدها تمر أمامه كما في مشهد متحرك. أشرق نور الشمس على مدن العالم وهياكلها العظيمة ، وعلى القصور المرمرية ، والحقول الغنية بالخيرات ، والكروم المحملة بالثمار . وقد اختفت عن الأنظار آثار الشر . إن عيني يسوع اللتين أبصرتا قبيل ذلك مناظر الخراب المحزنة تريان الآن منظر الجمال والنجاح الذي لا يبَارى . وحينئذ سمع صوت المجرب يقول: "لَكَ أُعطي هَذا السلْطانَ كُلَّه وَمجدهن ، لأَنَّه إلي قَد دُفع ، وَأَنا أُعطيه لِمن أُريد . فَإنْ سجدتَ أَمامي يكُونُ لَك الْجميع" (لوقا 4 : 6، 7).

إن مهمة المسيح لم تكن لتتم بغير الألم ، فكانت الحياة أمامه حياة آلام ومشقات ومصارعات ، كما كان كل ذلك سينتهي بموت مشين. كان عليه أن يحمل خطايا العالم كله ، وكان ينبغي له أن يتحمل آلام الانفصال عن محبة أبيه . وها هو المجرب يظهر الآن استعداده للتخلي عن السلطان الذي كان قد اغتصبه ، والمسيح يستطيع أن ينجي نفسه من المصير المخيف الذي ينتظره متى اعترف بسيادة الشيطان . ولكن إذا فعل ذلك فلابد أن يتنازل عن النصرة في ذلك الصراع العظيم . إن الشيطان عندما حاول أن يرفع مقامه فوق مقام ابن الله أخطأ في السماء ، فإذا انتصر الآن فسيكون ذلك انتصارا للعصيان.

وعندما أعلن الشيطان قائلا للمسيح إن ممالك العالم ومجدها قد دفعت إلي وأنا أعطي هذا السلطان كله لمن أريد ، كان يقرر بعض الحق وليس الحق كله. لقد قال ما قاله ليخدم أغراض الخداع الذي كان يضمره في نفسه . إن سلطان الشيطان الذي كان يتشدق به كان هو السلطان الذي قد اغتصبه من آدم . ولكن آدم كان وكيلا للخالق ونائبا عنه ، فلم يكن ليستقل بسلطانه . إن الأرض لله ، وقد وضع كل شيء في يدي ابنه ، وكان على آدم أن يملك خاضعا لله . وعندما سلم آدم سلطانه بين يدي الشيطان ظل المسيح الملك الشرعي . وهكذا قال الرب للملك نبوخذنصر: "أَنَّ الْعلي متسلِّطٌ في ممَلكة النَّاسِ ، فَيعطيها من يشاءُ" (دانيال 1 : 17). والشيطان يستطيع أن يمارس سلطانه الذي قد اغتصبه على قدر ما يسمح له الله [110]

عندما قدم المجرب للمسيح ممالك العالم ومجدها كان يقصد أن يتخلَّى المسيح عن ملك العالم الحقيقي ويحكم تحت سلطان الشيطان. لقد كان هذا الملك هو الذي قد ركز اليهود آمالهم فيه . كانوا يرغبون في ملكة عالمية فلو رضي المسيح بأن يمنحهم هذا الملكوت لكانوا قد قبلوه بكل سرور . ولما كانت لعنة الخطية وكل ويلاتها قد استقرت على تلك المملكة . فقال المسيح للمجرب. "اذْهب يا شَيطانُ! لأَنَّه مكتُوبٌ: لِلربِّ إِلهِك تَسجد وَإِياهُ وَحدهُ تَعبد" (متى 4 : 10).

إن ذاك الذي كان قد عصى في السماء هو الذي قدم ممالك العالم للمسيح ليشتري ولاءه لمبادئ الشر ، ولكن المسيح لم يمكن إرشاؤه ، فلقد أتى ليقيم ملكوت البر ، ولذلك لم يرد التخلي عن غرضه. إن الشيطان يقترب من الناس بنفس تلك التجارب ، وهو يفلح في خداعهم أكثر مما أفلح مع المسيح . فهو يقدم لهم ملك هذا العالم على شرط أن يعترفوا له بالسيادة ، كما يطلب منهم أن يضحوا بالاستقامة ويستخفوا بالضمير وينغمسوا في الأنانية. بينما المسيح يأمرهم بأن يطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، غير أن الشيطان يسير إلى جانبهم ويوسوس في صدورهم قائلا: مهما تكن الحياة الأبدية حقيقية وثمينة فلكي تشقوا طريقكم في هذه الحياة وتنجحوا ينبغي لكم أن تخدموني . إن سعادتكم هي بين يدي فأنا أستطيع أن أُغدق عليكم الثروة والمسرات والكرامة والسعادة . فأصغوا إلى مشورتي ، ولا تحملوا مع تيار المبادئ الغريبة كالأمانة

وإنكار الذات والتضحية . إني سأمهد لكم الطريق . وهكذا ينخدع كثيرون ، حيث يرضون بأن يعيشوا لخدمة الذات والشيطان يقنع بذلك . وإذ يغويهم برجاء الملك العالمي فإنه يملك على نفوسهم . ولكنه يقدم لهم ما لا حق له في تقديمه لأحد وما لابد أن يؤخذ منه وشيكا . وفي مقابل ذلك يحتال عليهم ويحرمهم من نصيبهم في ميراث أبناء الله.

قهر سلطان إبليس

لقد شك الشيطان في أن يسوع هو ابن الله. إن ما قيل للشيطان عند طرده كان ينطوي على برهان قاطع لم يستطع دحضه . لقد كانت ألوهية المسيح تشع من خلال البشرية المتألمة . ولم تكن لدى الشيطان قوة لمعارضة أمر السيد . وإذ كان يتلوى من هول [111] الإذلال والغيظ اضطر إلى الانسحاب من حضرة فادي العالم ، فكان انتصار المسيح كاملا بقدر ما كان فشل آدم

وهكذا يمكننا نحن أيضاً أن نقاوم التجربة ونرغم الشيطان على مفارقتنا. لقد أحرز يسوع النصرة عن طريق التسليم لله والإيمان به . وهو يقول لنا على لسان الرسول: "اخضعوا لِلهِ . قَاوِموا إبليس فَيهربَ مْنكُم . اِقْترِبوا إِلى اللهِ فَيْقَترِبَ إِليكُم" (يعقوب 4 : 7 و 8). إننا لا نستطيع أن ننجي أنفسنا من قوة المجرب فلقد انتصر على البشرية ، فإذا حاولنا الثبات بقوتنا فسنصبح فرائس لمكايده . ولكن "اِسم الربِّ برجٌ حصين ، يركُض إليه الصديقُ وَيَتمنَّع" (أمثال 18 : 10). إن الشيطان يرتعب ويهرب من أمام أضعف نفس تلتجئ إلى ذلك الاسم القوي العظيم.

بعدما رحل العدو سقط يسوع على الأرض من شدة الإعياء وعلى وجهه رعب الموت ، بينما كان ملائكة السماء يراقبون ذلك الصراع وهم ينظرون رئيسهم المحبوب وهو يجوز في آلام لا يعبر عنها ليفتح لنا طريقا للخلاص. وقد صمد أمام ذلك الامتحان الذي كان أشد هولا من أي امتحان يطلب منا أن نجتاز فيه . وقد صارت الملائكة تخدم وقتئذ ابن الله الذي كان منطرحا على الأرض كمن يحتضر . فأسعف بالطعام وتعزى برسالة المحبة من أبيه وبيقين انتصار جماهير السماويين وتهليلهم بنصرته . وإذ انتعش بالحياة مرة أخرى فإن قلبه المتسع العظيم رثى للإنسان ، وها هو يخرج ليكمل العمل الذي قد بدأه ، ولا يستريح حتى ينهزم العدو هزيمة ماحقة ويفتدي جنسنا الساقط.

ولن يمكن تقدير ثمن فدائنا حتى يقف المفديون مع فاديهم أمام عرش الله. فحينئذ عندما تسطع أمجاد السماء على حواسنا الفرحة المتهللة ، سنذكر أن يسوع قد تخلى عن كل ذلك لأجلنا ، وأنه فضلا عن كونه قد تغرب عن بيت الآب السماوي فقد خاطر بنفسه في سبيلنا إلى حد الفشل والخسارة الأبدية . وحينئذ سنطرح أكاليلنا عند قدميه ونتغنى قائلين: "مسَتحقٌ هو ٱلخروُفُ ٱلمذبوحُ أَنْ يأْخُذ ٱلقُدرةَ وَٱلْغَنى وَٱلحكمة وَٱلْقُوةَ وَٱلْكرامة . وَٱلمجد وَٱلبركة!" (رؤيا 5 : 12). [112]

الفصل الرابع عشر "ـــقد وجدنا مسيا"

كان يوحنا المعمدان يكرز الآن ويعمد في بيت عبرة في عبر الأردن ، في موضع لا يبعد كثيرا عن ذلك المكان حيث أوقف الله مياه النهر عن جريانها حتى عبر إسرائيل. وعلى بعد قليل من هذا المكان أسقطت أجناد السماء معاقل أريحا واستحكاماتها ، فعادت ذكريات تلك الحوادث وانتعشت ، وأضفت على رسالة المعمدان أهمية عظيمة . أفلا يمكن أن ذاك الذي قد صنع تلك المعجزات المدهشة في العصور القديمة يعود فيعلن قدرته لخلاص العبرانيين؟ كان هذا هو الفكر الذي أثار قلوب الشعب الذين كانوا يتوافدون على شواطىء الأردن.

كان تأثير كرازة المعمدان في الأمة عميقا وعظيما جدا بحيث استرعى اهتمام السلطات الدينية ، كما أن خطر نشوب ثورة جعل الرومان يشتبهون في كل تجمهر لجموع الشعب ، وكل ما من شأنه أن يساعد على إحداث ثورة يقوم بها الشعب أثار مخاوف رؤساء اليهود. لم يكن يوحنا يقيم وزنا لسلطة رجال السنهدريم ، كلا ، ولا سعى للظفر بمصادقتهم على أعماله . كان قد وبخ رؤساء الشعب ، الفريسيين منهم والصدوقيين . ومع ذلك فقد اتبعه الشعب بكل شوق وتلهف . وبدا أن اهتمامهم بعمله يزداد يوما بعد يوم . ومع أنه لم يذعن لرجال السنهدريم فقد اعتبروا أنه ككارز لعموم الشعب كان تحت سلطانهم.

كان هذا المجمع مكونا من أعضاء مختارين من رجال الكهنوت ومن رؤساء الأمة ومعلميها ، وكان الرئيس في العادة هو رئيس الكهنة ، كما كان رجال المجمع حسب العرف رجالا متقدمين في السن وإن لم يكونوا أشياخا. ووجب أن يكونوا متعلمين ليس فقط ملمين بمبادئ الديانة اليهودية وتاريخ الأمة بل أيضاً بالعلوم العامة . وكان ينبغي أن يكونوا خالين من كل عيب جسماني ومتزوجين وآباء ، إذ كان المفروض فيهم أن يكونوا محبين ومنصفين للناس أكثر من غيرهم . وكان مكان اجتماعهم مقصورة كبيرة ملحقة بالهيكل في أورشليم مخصصة لذلك الغرض. وفي الأيام التي كان اليهود فيها متمتعين بالاستقلال [113] كان مجمع السنهدريم هو المحكمة العليا في الأمة ، وتحت يده سلطات مدنية وإكليريكية . ومع أنهم كانوا آنئذ خاضعين للولاة الرومان فقد كان ذلك المجمع متمتعا بنفوذ كبير في المسائل المدنية والدينية على السواء.

فحص عمل المعمدان

لم يستطع السنهدريم أن يؤخر فحص عمل يوحنا ، فقد كان بعض رجاله يذكرون الرؤيا التى كان زكريا قد رآها في الهيكل ، والنبوة التي تنبأ بها عن أن ابنه سيكون بشيرا بمجيء مسيا. ولكن في غمرة الأحداث والتطورات التي حدثت مدة ثلاثين عاما غابت هذه الأمور عن الأذهان إلى حد كبير . أما الآن فقد عادت إلى الأذهان بسبب الإثارة التي أحدثتها كرازة يوحنا.

كان قد انقطع ظهور الأنبياء في إسرائيل منذ عهد بعيد ، ومنذ عهد بعيد أيضاً لم ير مثل ذلك الإصلاح الذي بدأ ينتشر ، فكانت الدعوة إلى التوبة والاعتراف بالخطية أمرا جديدا ومفزعا لكثيرين. لذا رفض كثيرون من قادة الشعب الذهاب لسماع وعظ يوحنا وتشهيره بالخطية لئلا يضطروا لفضح أسرارهم وخطاياهم أمامه ، إلاّ أن كرازته كانت إعلانا صريحا بظهور مسيا . لقد كان معروفا تماما أن السبعين أسبوعا المذكورة في نبوة دانيال التي تتناول مجيء مسيا كانت موشكة على الانتهاء ، وكان الجميع يتوقون إلى أن يكون لهم نصيب في مجد أمتهم الذي كان الجميع ينتظرونه . وهكذا كانت الحماسة عامة وعظيمة جدا حتى أن رجال السنهدريم كانوا مضطرين إما إلى المصادقة على عمل يوحنا أو رفضه . فبدأ سلطانهم على الشعب يتضاءل . والسؤال الخطير الذي كان يواجههم هو كيف يحتفظون بنفوذهم وسلطانهم . وإذ كانوا يريدون الوصول إلى نتيجة ما ، أرسلوا إلى الأردن وفدا من الكهنة واللاويين للتفاوض مع هذا المعلم الجديد.

كان جمهور كبير من الشعب مجتمعين يصغون إلى وعظ يوحنا ، وإذا بمبعوثي مجمع اليهود يقتربون منه. وبمحاولة إظهار السلطة التي كان القصد منها التأثير في الشعب وجعل النبى يبدي لهم الاحترام اللائق ، اقترب أولئك المعلمون وبحركة بدا فيها احترام [114] يكاد يصل إلى درجة الخوف أفسح الشعب لهم طريقا ليصلوا إلى يوحنا ، فوقف أولئك الرجال العظام في ثيابهم الفاخرة وفي كبرياء المقام والسلطان أمام نبي البرية ، ثم سألوه قائلين: ”من أنت؟“ (يوحنا 1 : 19). وإذ كان يوحنا يعرف أفكارهم أجابهم قائلاً: ”لست أنا المسيح“ (يوحنا 1 : 20). ثم عادوا يسألونه: ”إيليا أنت؟“ فقال: ”لست أنا“ ، ”النبي أنت؟“ فأجاب: ”لا“ فقالوا له: ”من أنت ، لنعطي جواباً للذين أرسلونا؟“ فقال: ”أنا صوت صارخ في البرية: قوّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي“ (يوحنا 1 : 21 — 23).

إن النبوة التي أشار اليها يوحنا هي تلك النبوة الجميلة التي نطق بها إشعياء حين قال: ”عزّوا، عزّوا شعبي، يقول إلهكم. طيّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفي عنه ... صوت صارخ في البرية: ”أعدّوا طريق الرب. قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وطاء يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً، والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً، لأن فم الرب تكلّك “ (إشعياء 40 : 1 — 5).

سابق المسيح

ممهدة كان يتقدم أمام مركبته جماعة من الناس ليمهدوا أمامه الطريق فيخفضون المرتفعات المنحدرة ويملأون المنخفضات حتى يمكن أن يسافر الملك آمنا لا يعوقه عائق. والنبي يستخدم هذه المادة هنا في وصف عمل الإنجيل: ”كُلُّ وَطَاءٍ يرتَفع ، وكَلُّ جبل وَأَكَمة ينْخَفض“. إن روح الرب عندما يلمس النفس بقوته المحيية العجيبة تخفض كبرياء الإنسان . وسيرى الناس أن المسرات العالمية والمركز والسلطان أشياء تافهة لا قيمة لها لأن الظنون ”وَكُلَّ علْوٍ يرتَفع ضد معرِفَة اللهِ“ لابد أن تهدم . وكل فكر لابد أن يستأسر إِلَى طَاعة الْمسيح“ (2 كورنثوس 10 : 5). ثم أن الوداعة والمحبة المضحية اللتين يستهين بهما الناس ترتفعان على اعتبار أن لهما قيمة عظيمة دون سواهما . هذا هو عمل الإنجيل الذي كانت رسالة يوحنا جزءا منه.

ولكن أولئك الأحبار عادوا يسألون يوحنا قائلين: ”فَما بالُك تُعمد إِنْ كُنْتَ لَستَ [115] الْمسيح ، وَلاَ إِيليا ، وَلاَ النَّبِي؟“ (يوحنا 1 : 25). إن كلمة ”النبي“ كانت تشير إلى موسى . لقد كان اليهود يميلون إلى

الاعتقاد أن موسى سيقام من الأموات ويؤخذ إلى السماء . ولم يكونوا يعلمون أنه قد قام . وعندما بدأ المعمدان خدمته ظن كثيرون أن موسى النبي قد قام من الأموات لأنه كان ملما إلماما كاملا بالنبوات وبتاريخ إسرائيل.

وكان الاعتقاد أيضاً أنه قبل مجيء مسيا سيظهر إيليا بشخصه. ولكن هذا الانتظار قابله يوحنا بالإنكار . إلاّ أن كلامه كان له معنى أعمق . وقد قال يسوع بعد ذلك مشيرا إلى يوحنا: "وَإِنْ أَرَدْتُم أَنْ تَقْبَلُوا ، فَهذَا هو إيليا الْمزمع أَنْ يأْتي" (متى 11 : 14). لقد جاء يوحنا بروح إيليا وقوته ، ليقوم بعمل كالذي قام به إيليا . فلو قبله اليهود لكان ذلك العمل قد أكمل لهم . ولكنهم لم يقبلوا رسالته ، إذ بالنسبة إليهم لم يكن هو إيليا فلم يستطع أن يتمم لهم الرسالة التي قد أتى لاتمامها.

كثيرون ممن اجتمعوا عند نهر الأردن كانوا حاضرين عندما اعتمد يسوع ، ولكن العلامة التى أعطيت حينئذ لم تعلن إلاّ لنفر قليل منهم. ففي أوائل شهور خدمة المعمدان رفض كثيرون النداء الذي أطلقه لهم ليتوبوا . وهكذا قسوا قلوبهم وأظلمت أذهانهم . فلما شهدت السماء ليسوع عند عماده لم يلاحظوا ذلك ، فالعيون التي لم تلتفت قط بإيمان إلى غير المنظور لم تشاهد إعلان مجد الله ، والآذان التي لم تصغ قط إلى صوته لم تسمع كلمات الشهادة . وكذلك الحال اليوم . ففي كثير من الأحيان يعلن حضور المسيح والملائكة الخادمين في وسط اجتماعات الشعب ، ومع ذلك فكثيرون لا يدرون عن ذلك ولا يرون شيئا غير عادي . ولكن حضور المسيح يعلن للبعض الآخر ، فتنتعش قلوبهم بالسلام والرجاء ويتعزون ويتشجعون و يتباركون.

"الذي يأتي بعدي"

ثم أن أولئك المبعوثين من أورشليم سألوا يوحنا قائلين "فما بالك تعمّد؟" ولبثوا ينتظرون منه جواباً. وفجأة إذ كان يوحنا يدور بعينيه بين تلك الجموع التهبت عيناه وأشرق وجهه واضطرم في نفسه إنفعال عميق. ثم بسط يده وصاح قائلاً: "أنا أعمّد بماء، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه. هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قدّامي، الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه" (يوحنا 1 : 26 و 27). [116]

فكانت تلك الرسالة التى كان على أولئك المبعوثين أن يحملوها إلى مجمع السنهدريم واضحة وقاطعة. ولم تكن كلمات يوحنا تنطبق على شخص آخر غير ذاك الذي سبق الإنباء عنه منذ أمد بعيد . لقد كان مسيا في وسطهم فجعل الكهنة والرؤساء يتلفتون حولهم في دهشة وذهول لعلهم يرون ذاك الذي تكلم عنه يوحنا ، ولكن لم يمكنهم تمييزه من بين ذلك الجمع.

لما أشار يوحنا إلى يسوع وقت عماده وقال عنه أنه حمل الله ، أريق نور جديد على عمل مسيا ، إذ اتجه فكر نبي البرية إلى ما قاله إشعياء: "كَشَاةٍ تُساقُ إِلَى الذَّبح" (إشعياء 53 : 7). وفي الأسابيع التالية درس يوحنا النبوات وكل ما يختص بالخدمة الكفارية باهتمام عظيم . إنه لم يميز بكل جلاء بين مظهري عمل المسيح كذبيح متألم وكملك قاهر- ولكنه كان يعلم أن مجيئه له دلالة أعمق مما كان يفهمه الكهنة أو الشعب . وعندما رأى يسوع بين الجمع عند عودته من البرية كان ينتظر منه بكل ثقة أنه سيقدم للشعب علامة تظهره على حقيقته ، وبصبر كاد ينفد انتظر من المخلص أن يعلن عن رسالته ، ولكنه لم ينطق بكلمة ولا صنع آية . إن يسوع لم يستجب لإعلان المعمدان عنه بل اندمج بين تلاميذ يوحنا دون أن يقدم برهانا ظاهرا على عمله الخاص ودون أن يتخذ أي إجراء لإشهار نفسه .

حمل الله

وفي اليوم التالي رأى يوحنا يسوع مقبلا إليه. فإذ رأى نور مجد الله يستقر عليه ، بسط ذلك النبي يديه وأعلن قائلا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم! هذا هو الذي قلت عنه: يأتي بعدي، رجل صار قدّامي، لأنه كان قبلي. وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمّد بالماء .. وشهد يوحنا قائلاً: إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمّد بالماء، ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله" (يوحنا 1 : 29 — 34).

فهل كان هذا هو المسيح؟ لقد نظر الشعب بتهيب ودهشة إلى ذاك الذي قد أعلن عنه أنه ابن الله . لقد تأثروا تأثرا عميقا من كلام يوحنا إذ كلمهم باسم الله ، فظلوا يصغون إلى أقواله [117] كل يوم وهو يوبخ خطاياهم ، وكل يوم كان يزيد اقتناعهم بأنه مرسل من السماء. ولكن من هذا الذي هو أعظم من يوحنا المعمدان؟ لم يكن في لبسه أو هيئته ما يدل على سمو مرتبته .كان يبدو عليه أنه شخص بسيط يلبس مثلهم ملابس الفقراء.

وقد كان بين ذلك الجمع بعض ممن قد رأوا المجد الإلهي وسمعوا صوت الله من السماء عند معمودية المسيح ، ولكن منذ ذلك الحين تغير منظر المخلص تغيرا كبيرا. فعند معموديته رأوا وجهه وقد تجلى بنور من السماء ، أما الآن فقد بدا شاحبا ومنهكا ومضنى وهزيلا ، ولم يعرفه غير النبي يوحنا.

ولكن عندما نظر إليه الناس رأوا وجها امتزج فيه الإشفاق الإلهي بالقوة التي كان هو عالما بسرها. فكل نظرة من نظراته وكل تعبير على وجهه كان مميزا بالوداعة ومعبرا عن المحبة التى لا ينطق بها . وقد بدا كأنه كان محاطا بجو روحي سماوي . ففي حين أنه كان رقيقا ووديعا في عاداته وتصرفاته فقد اقتنع الناس بالقود الكامنة فيه التي مع ذلك لم يمكن إخفاؤها إخفاء كاملا . فهل يمكن أن يكون هذا هو الذي ظل إسرائيل ينتظره هكذا طويلا؟

لقد جاء يسوع فقيرا ومتواضعا لكي يكون لنا مثالا وفاديا. فلو ظهر في أبهة الملك وجلاله فكيف كان يمكنه أن يعلم الناس الوداعة؟ وكيف كان يمكنه أن يقدم للشعب تلك الحقائق المؤثرة الفاحصة التي نطق بها في موعظته على الجبل؟ وأين كان يوجد رجاء للمساكين والأذلاء في الحياة لو أتى المسيح ليعيش بين الناس كملك عظيم؟

أما أولئك المجتمعون فقد بدا لهم أنه من المستحيل أن يكون ذاك الذي قد أشار إليه يوحنا هو من ترتكز فيه أنتظاراتهم وآمالهم العظيمة. وهكذا شمل الارتباك وخيبة الأمل كثرين منهم.

إنه لم يذكر شيئا عن الأقوال التى كان الكهنة والأحبار ينتظرون سماعها من أن يسوع سيرد الملك إلى إسرائيل. لقد كانوا ينتظرون مثل هذا الملك ويترقبون مجيئه ، وكانوا على أتم استعداد لقبوله والترحيب به . أما ذاك الذي يحاول أن يقيم في قلوبهم ملكوت البر والسلام فهذا لا يقبلونه.

وفي اليوم التالي إذ كان اثنان من التلاميذ واقفين غير بعيد ، رأى يوحنا يسوع مرة أخرى في وسط الشعب ومرة أخرى أضاء وجه ذلك النبي بمجد الله غير المنظور عندما [118] صاح يقول: " هوذَا حملُ اللهِ" (يوحنا 1: 36). وقد هزت هذه الكلمات مشاعر ذينك التلميذين ، مع أنهما لم يفهما معناها تمام الفهم . فما معنى هذا الاسم الذي أطلقه يوحنا عليه: "حملُ اللهِ"؟ إن يوحنا نفسه لم يوضح المعنى.

يطلبان يسوع

وإذ ترك ذانك التلميذان يوحنا ذهبا يطلبان يسوع. وكان أندراوس أخو سمعان أحد التلميذين ، أما التلميذ الآخر فهو يوحنا البشير . فكان هذان التلميذان أول من تتلمذا للمسيح. وقد تبعا يسوع مدفوعين بدافع قوي لا يقاوم- وكانا يتوقان إلى التحدث معه ، ومع ذلك فقد كانا متهيبين وصامتين ، وكانا غارقين في التفكير في هذا السؤال: "أهذا هو مسيا"؟

علم يسوع أن ذينك التلميذين يتبعانه ، وكانا باكورة ثمار خدمته فامتلأ قلب ذلك المعلم الإلهي فرحا لأن ذينك الشخصين قد استجابا لنداء نعمته. فالتفت إليهما مع ذلك وسألهما قائلا: "ماذَا تَطْلُبانِ؟" (يوحنا 1 : 38). لقد كان يريد أن يترك لهما الحرية في أن يرجعا أو أن يخبراه برغبتهما.

ولكنهما كانا يحسان أن لهما غرضا واحدا ، وكان يشغل أفكارهما شخص واحد. فصاحا: "ربَي ... أَين تَمكُثُ؟" (يوحنا 1 : 38). إنهما لم يكونا يستطيعان في فترة ذلك اللقاء القصير على جانب الطريق أن يستوعبا ما كانا يتوقان إلى تعلمه . لقد رغبا في الانفراد بيسوع والجلوس عند قدميه وسماع كلامه.

" فقال لهما: " تعاليا وانظرا". فأتيا ونظرا أين كان يمكث، ومكثا عنده ذلك اليوم" (يوحنا 1 : 39).

لو كان يوحنا واندراوس عديمي الإيمان كالكهنة والرؤساء لما كانا يجلسان عند قدمي يسوع ليتعلما منه بل كانا يأتيان لينتقداه ويحكما على كلامه. إن كثيرين يوصدون الباب في وجه أثمن الفرص . ولكن هذين التلميذين لم يتصرفا هكذا ، بل استجابا لنداء الروح القدس في كرازة يوحنا المعمدان . وها هما الآن يميزان صوت المعلم السماوي ، فوجدا في كلام المسيح كل عذوبة وصدق وجمال . وقد أشرق نور إلهي على أسفار العهد القديم وما بها من تعاليم ، وظهر أمامهما الحق المتعدد الجوانب في نور جديد. [119]

إن التوبة والانسحاق والإيمان والمحبة هي التي تعين النفس على قبول حكمة من السماء، وإن الإيمان العامل بالمحبة هو مفتاح المعرفة ، وكل من يحب " يعرِفُ الله" (1 يوحنا 4: 7).

التلاميذ الأول

لقد كان التلميذ يوحنا رجلا حارا وعميقا في محبته ، غيورا ولكن كثير التأمل. لقد بدأ يرى مجد المسيح- لا العظمة العالمية التي كان قد تعلم أن ينتظرها ، بل ذلك المجد "كَما لِوحيد من الآبِ ، ممُلوءًا نعمةً وَحقا" (يوحنا 1 : 14). كان مستغرقاً في تأمله في الموضوع العجيب .

وقد طلب أندراوس أن يشرك معه غيره في الفرح الذي ملأ قلبه ، فذهب يبحث عن أخيه سمعان وإذ وجده صاح قائلا: "قَد وَجدنَا مسيا" (يوحنا 1 : 13). ولم ينتظر سمعان دعوة ثانية . كان هو أيضاً قد سمع كرازة يوحنا المعمدان فأسرع إلى المخلص . وإذ استقرت عليه عين المسيح عرف أخلاقه وتاريخه . لقد عرف المخلص طبيعة بطرس المندفعة وقلبه المحب العطوف وطموحه وثقته بنفسه وتاريخ سقوطه وتوبته ، وخدماته في الحقول التبشيرية وموته شهيدا- عرف يسوع ذلك كله فقال له: "أَنْتَ سمعان بن يونَا .أَنْتَ تُدعى صفَا الَّذي تَفْسيرهُ: بطْرسُ" (حجر) — (يوحنا 1 : 42).

"في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل، فوجد فيلبس فقال له: "اتبعني" (يوحنا 1 : 43)، فامتثل فيلبس لأمر المسيح، وفي الحال بدأ هو أيضاً يخدمه.

وفيلبس دعا نثنائيل ، وكان نثنائيل هذا بين الجمع عندما أشار المعمدان إلى يسوع قائلا إنه حمل الله. وإذ نظر نثنائيل إلى يسوع خاب أمله . فهل هذا الإنسان الذي تبدو عليه سمات الفقر والكدح يمكن أن يكون هو مسيا؟ إلاّ أن نثنائيل لم يقدر أن يقرر رفض يسوع، لأن رسالة المعمدان أدخلت الاقتناع إلى قلبه .

وفي الوقت الذي دعاه فيه فيلبس ، كان نثنائيل معتكفا في حديقة هادئة ليتأمل في إعلان المعمدان والنبوات الخاصة بمسيا ، فصلى طالبا من الله أن يعرفه ما إذا كان من قد أعلن عنه المعمدان هو المخلص. وقد استقر عليه الروح القدس مؤكدا له أن الله قد افتقد [120] شعبه وأقام لهم قرن خلاص. وقد عرف فيلبس أن صديقه كان يفتش النبوات . وإذ كان نثنائيل مستغرقا في الصلاة تحت شجرة تين عرف فيلبس مكانه إذ كثيرا ما كانا يصليان معا في ذلك المكان المنعزل الذي تحجبه الأشجار.

لقد وجدناه

إن رسالة فيلبس القائلة: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء" (يوحنا 1: 45) بدا كأنها إجابة مباشرة لصلاته. ولكن إيمان فيلبس كان مع ذلك مزعزعاً، فلقد أضاف يقول في تشكك: "يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة" (يوحنا 1 : 45). وقد ثار التعصب في نفس نثنائيل فصاح يقول: "أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟" (يوحنا 1 : 46).

لكن فيلبس لم يشتبك في جدال، بل قال له: " تعال وانظر. ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه، فقال عنه: هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه" (يوحنا 1 : 46، 47) ، فصاح نثنائيل قائلاً في اندهاش: "من أين تعرفني؟" أجاب يسوع وقال له: "قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة، رأيتك" (يوحنا 1 : 48).

وكان ذلك كافيا ، فالروح الإلهي الذي شهد لنثنائيل وهو معتكف للصلاة تحت التينة خاطبه الآن على لسان يسوع. ومع أنه كان مرتابا ومتأثرا بالتعصب إلى حد ما ، فقد أتى نثنائيل هذا إلى يسوع برغبة صادقة لمعرفة الحق وقد تحققت الآن رغبته ، فأصبح إيمانه أعظم من إيمان من قد أتى به إلى المسيح . وقد أجاب قائلا: "يا معلّم، أنت ابن الله! أنت ملك إسرائيل!" (يوحنا 1 : 49).

لو كان نثنائيل قد وثق بالمعلمين ليرشدوه لما وجد يسوع قط. ولكنه إذ نظر وسمع وحكم لنفسه صار تلميذا . وهكذا هي الحال مع كثيرين اليوم الذين يعميهم التعصب ويصدهم عن عمل الصلاح والبر . ولكن كم يكون الفرق عظيما بالنسبة إليهم لو أنهم يأتون وينظرون!

إن الذين يركنون إلى إرشاد السلطات البشرية لن يمكنهم الوصول إلى معرفة الحق الخلاصي. إننا كنثنائيل نحتاج إلى أن ندرس كلمة الله لأنفسنا مصلين في طلب إنارة الروح [121] القدس. وذاك الذي رأى نثنائيل تحت التينة سيرانا في مخدع الصلاة . وإن الملائكة القادمين من كورة النور هم أبدا قريبون من أولئك الذين بكل وداعة يطلبون الإرشاد الإلهي.

فإذ دعي يوحنا وأندراوس وسمعان وفيلبس ونثنائيل بدأ تأسيس الكنيسة المسيحية. لقد أرشد يوحنا اثنين من تلاميذه إلى المسيح ، ثم إن أحد التلميذين الأولين وهو أندراوس وجد أخاه فدعاه إلى المخلص . كما أن فيلبس بعدما دعاه السيد ذهب يبحث عن نثنائيل . فمن الذين كانوا مثلا ينبغي أن نتعلم أهمية بذل السعي الشخصي ، مقدمين الدعوة المباشرة إلى أقربائنا وأصدقائنا وجيراننا . هناك من يعترفون بأنهم قد عرفوا المسيح مدى حياتهم ومع ذلك فلم يقوموا بأي مسعى شخصي للإتيان بنفس واحدة إلى المخلص . إنهم يضعون المسؤولية كلها على خادم الكلمة . قد يكون الخادم مؤهلا جيدا للقيام بخدمته ، ولكنه لا يستطيع القيام بالعمل الذي تركه الله ليقوم به أعضاء الكنائس.

قنوات للنور

كثيرون يحتاجون إلى خدمة المسيحيين ذوي القلوب المفعمة بالمحبة. لقد هلك كثيرون ممن كان يمكن أن يخلصوا ، لو أن جيرانهم من الرجال والنساء العاديين بذلوا معهم بعض الجهود الشخصية الفردية لربحهم . وكثيرون ينتظرون أن تقدم لهم دعوة شخصية . ففي نفس العائلة والبيئة والمدينة التي نعيش فيها لنا عمل نعمله كرسل للمسيح . إذا كنا مسيحيين بالحق فهذا العمل سيكون موضوع سرورنا . وما إن يهتدي إنسان إلى الله حتى ينشأ في قلبه حنين لأن يعرف الآخرين أي صديق غال قد وجد في يسوع ، إذ أن الحق المخلص والمقدس لا يمكن أن يحبس في صدره.

إن كل من هم مكرسون لله هم قنوات للنور. والله يجعلهم وسائل لإيصال غنى نعمته للآخرين . وهذا هو وعد الله لهم: "وَأَجعُلهم وَما حولَ أكَمتي بركَةً ، وَأُنْزِلُ علَيهِم الْمطر في وَقْته فَتَكُونُ أَمطَارَ بركَة" (حزقيال 34 : 26).

لقد قال فيلبس لنثنائيل: " تعال وانظر" . لم يطلب منه قبول شهادة إنسان آخر ، بل أن يرى المسيح لنفسه . والآن وقد صعد المسيح إلى السماء فإن تلاميذه هم ممثلوه بين الناس. ومن أفعل الوسائل لربح النفوس له هو إظهار صفاته في حياتنا اليومية . إن [122] تأثيرنا في الآخرين لا يتوقف على ما نقوله بل على حياتنا وتصرفاتنا. قد يعارض الناس منطقنا ويتحدونه ، وقد يقاومون توسلاتنا ، ولكن حياة المحبة غير المغرضة هي حجة لا يمكنهم معارضتها أو نقضها . فالحياة الثابتة المتصفة بوداعة المسيح هي قوة في العالم.

كان تعليم المسيح تعبيرا عن اقتناع واختبار داخليين والذين يتعلمون منه يصيرون معلمين حسب المثال الإلهي. فكلمة الله التي يتكلم بها إنسان وقد تقدس بها ، فيها قوه تمنح الحياة وتجعلها مقبولة من سامعيها وتقنعهم بأنها حقيقة حية . وحين يقبل الإنسان الحق حباً به فهو سيظهره في تصرفاته وفي كلامه . كما يعرف الناس بما قد سمعه ورآه وأخذه من كلمة الحياة حتى يشترك معه الآخرون بمعرفة المسيح . إن شهادته الخارجة من شفتين مطهرتين بجمرة من على المذبح المقدس هى الحق الصراح للقلب الذي يقبله ويعمل على تقديس الخُلق.

هذا وإن من يطلب أن ينير الآخرين سينال هو نفسه بركة ، "فَتَكُونُ أَمطَارَ بركَة" وإن "الْمروِي هو أَيضا يروَى" (أمثال 11 : 25). لقد كان الله قادرا على الوصول إلى قصده في تخليص الخطاة بدون معونتنا ، ولكن لكي ننمو في أخلاقنا حتى تصير كأخلاق المسيح ينبغي لنا أن نشاركه في عمله . وحتى نتمتع بفرحه- فرح رؤية النفوس تُفتَدى بكفارته - علينا أن نشاركه في عمله لأجل فدائهم.

" سوف ترى أعظم من هذا"

إن أول تعبير عبر به نثنائيل عن إيمانه، والذي كان شاملاً وحاراً ومخلصاً، نزل على أذني يسوع كموسيقى عذبة. " أجاب يسوع وقال له: " هل آمنت لأني قلت لك إني رأيتك تحت التنية؟ سوف ترى أعظم من هذا! " (يوحنا 1: 50). لقد نظر المخلص بفرح إلى المستقبل إلى عمله في تقديم البشارة المفرحة للمساكين الودعاء إذ يشفي المنكسري القلوب وينادي لمأسوري الشيطان بالإطلاق . وإذ فكر في البركات الثمينة التي قد أتى بها للناس أضاف يسوع قائلا: "الحق الحق أقول لكم: من الآن ترون السماء

مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان” (يوحنا 1 : 51).

إن المسيح يقول هنا في الواقع: على ضفاف الأردن انفتحت السموات ونزل الروح [123] القدس علي مثل حمامة ، فهذا المنظر كان علامة على أنني ابن الله ، فإن آمنتم بأنني ابن الله فسيتقوى إيمانكم وسترون السماء وقد فُتحت ولن تغلق ، لقد فتحتها أنا لكم. إن ملائكة الله يصعدون حاملين صلوات المساكين والمتضايقين إلى الآب في السماء وينزلون حاملين البركة والرجاء والشجاعة والعون والحياة لبني الإنسان.

إن ملائكة الله هم دائبون على الانتقال من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الأرض، وإن المعجزات التي أجراها المسيح لخير المتألمين والمفديين قد أجريت بقدرة الله عن طريق خدمة الملائكة. وبالمسيح عن طريق خدمة رسله السماويين تنسكب علينا كل البركات من الله . إن مخلصنا إذ اتخذ طبيعة البشر يوحد مصالحه بمصالح الساقطين من الرجال والنساء من أولاد آدم ، وعن طريق ألوهيته يمسك بعرش الله . وهكذا صار المسيح الواسطة التى بها يمكن أن يتحدث الناس مع الله والله مع الناس. [124]

الفصل الخامس عشر ـــــفي وليمة العرس

إن يسوع لم يبدأ خدمته بعمل عظيم أمام السنهدريم في أورشليم. ولكنه أظهر قدرته في حفل عائلي في إحدى قرى الجليل الصغيرة ، وذلك ليزيد من فرح وليمة عرس ، وبهذه الكيفية أظهر مشاركته للناس ورغبته في إسعادهم . لقد شرب هو نفسه كأس الويل والألم وهو في برية التجربة . ثم خرج من هناك ليقدم للناس كأس البركة بتقديسه علاقات الحياة البشرية.

عاد يسوع من الأردن إلى الجليل ، وكان سيقام حفل عرس في قانا ، وهي قرية لا تبعد كثيرا عن الناصرة ، وكانت العائلتان من أقرباء يوسف ومريم. فإذ علم يسوع بهذا الحفل العائلي ذهب إلى قانا إذ كان هو وتلاميذه قد دعوا إلى تلك الوليمة.

وقد تقابل هناك مرة أخرى مع أمه التي كان قد انفصل عنها بعض الوقت. كانت مريم قد سمعت عن ذلك الظهور العجيب عند الأردن في وقت معموديته إذ قد انتقلت تلك الأخبار إلى الناصرة . فأعادت تلك الأخبار إليها المناظر العجيبة التي كانت قد حفظتها في قلبها سنين طويلة . إن أخبار رسالة المعمدان قد أثارت مريم بشدة ، كما أثارت غيرها من الشعب ، وتذكرت جيدا النبوة التي قيلت قبل ميلاد يسوع . هذا وإن صلته بيسوع أضرمت في قلبها نار الرجاء من جديد . ولكنها كانت قد علمت أيضاً بانطلاق يسوع الغامض إلى البرية فاضطربت واكتنفت نفسها تطيرات مزعجة.

إن مريم منذ سمعت إعلان الملاك لها وهي في بيتها في الناصرة اختزنت في نفسها كل دليل على أن يسوع هو مسيا. إن حياته الجميلة الخالية من الأنانية أكدت لها أنه لابد أن يكون هو المرسل من الله ومع ذلك فقد ظهرت لها أيضاً بعض الشكوك والمفشلات . فكانت تتوق إلى اليوم الذي فيه يظهر مجده . لقد فصل الموت بينها وبين يوسف الذي كان مثلها يعرف أسرار ميلاد يسوع . أما الآن فلم يكن هناك من تبثه آمالها وتخبره عن مخاوفها . كان الشهران السابقان أيام حزن شديد . كانت قد افترقت عن يسوع الذي كانت [125] تجد في عطفه العزاء . وكانت تفكر في كلام سمعان حين قال لها: "وَأَنت أَيضا يجوزُ في نَفْسك سيف" (لوقا 2 : 35). كما ذكرت ثلاثة أيام العذاب حين ظنت أن يسوع افترق عنها إلى الأبد وكانت تنتظر عودته بقلب جزع وممزق.

الابن المحب المعوان

وها هي تلتقي به في وليمة العرس ، وإذا هو كعهدها به الابن الرقيق المستعد لأداء الواجب ، ومع ذلك فهو ليس كما كان . لقد تغير منظر وجهه فهو يحمل آثار صراعه في البرية ، كما أن هنالك تعبيرا جديدا عن العظمة والسلطان على وجهه برهانا على كونه مرسلا من السماء . وكان يصحبه جماعة من الشباب يشخصون إليه باحترام وهم يدعونه معلما . هؤلاء الرفاق يسردون على مسمع مريم ما قد نظروه

وسمعوه عند معمودية يسوع وفي أماكن أخرى ، ثم يختمون حديثهم بهذا الإعلان: "وَجدنَا الّذي كَتَب عْنه موسى في النَّاموسِ وَالأنبِياءُ" (يوحنا 1 : 45).

وإذ يجتمع المدعوون يبدو أن كثيرين منهم مشغولون في مواضيع هامة. وهنالك اهتياج مكبوت يشمل تلك الجماعة ، وهنالك جماعات صغيرة منهم تتحادث بنغمات مشتاقة وهادئة ، ونظراتهم المتسائلة تتجه إلى ابن مريم . وإذ سمعت مريم شهادة التلاميذ عن يسوع ابتهج قلبها موقنة بأن آمالها التي كانت تحتضنها طويلا لم تكن باطلة . ومع ذلك فلكونها من البشر فقد امتزج مع الفرح المقدس بعض آثار الزهو الطبيعي الذي تكنه الأم المحبة لابنها . فإذ رأت كل الأنظار متجهة إلى يسوع تاقت إلى أن تراه يبرهن لتلك الجماعة على أنه بالحقيقة المكرم والمختار من الله ، ورجت أن يكون هنالك مجال له ليصنع معجزة أمامهم.

وكان من العادات المألوفة في تلك الأيام أن تدوم ولائم العرس عدة أيام. وفي هذا العرس اكتشف قبل نهاية أيام الوليمة أن الخمر قد نفدت ، فسبب ذلك كثيرا من الارتباك والأسف . وكان من غير المألوف الاستغناء عن الخمر في مثل تلك الولائم ، كما أن عدم وجودها كان دليلا على نقص في الكرم وحسن الضيافة . ولكون مريم من أقارب العائلتين فقد ساعدت في ترتيبات الوليمة ، وها هي الآن تتحدث مع يسوع قائلة: "لَيس لَهم خَمر" [126] (يوحنا 2: 3). كان هذا الكلام اقتراحا مقدما منها له ليسد هذه الحاجة . فأجابها يسوع بقوله: "ما لِي وَلَك يا امرأَةُ؟ لَم تَأْتِ ساعتي بعد" (يوحنا 2 : 4).

" أكرم أباك وأمّك"

هذا الجواب الذي يبدو مقتضبا لم يكن يعبر عن أي فتور أو فظاظة. فلقد كان أسلوب خطاب المخلص الموجه لأمه على وفاق مع عادات الشرقيين ، إذ كان يوجه إلى من يقصد توقيرهم واحترامهم . إن كل عمل من أعمال المسيح على الأرض كان متمشيا مع الأمر الذي كان هو نفسه قد وضعه عندما قال: "أَكرِمْ أَباكَ وَأُمك" (خروج 20 : 12). وإذ كان معلقا على الصليب أظهر آخر دليل على رقته ومحبته نحو أمه بأن خاطبها بمثل ما يخاطبها به الآن ، عندما استودعها لرعاية يوحنا الحبيب أحب التلاميذ إلى نفسه . ففي وليمة العرس هذه كما وهو على الصليب نرى أن المحبة التي عبرت عنها نغمة كلامه ونظرته وأسلوبه قد فسرت كلامه.

عندما زار يسوع الهيكل في صباه وانكشف أمامه سر عمله في الحياة قال لمريم: "أَلَم تَعلَما أَنَّه يْنبغي أَنْ أَكُونَ في ما لأَبِي؟" (لوقا 2 : 49). هذه الكلمات نصت على عمل حياته وخدمته كلها . لقد كان كل شيء موقوفا على عمله ، عمل الفداء العظيم الذي قد أتى إلى العالم ليعمله . وها هو الآن يردد نفس الدرس . كان هنالك خطر لئلا تعتبر مريم أن صلتها بيسوع تجعل لها دالة خاصة عليه ، وبعض الحق في توجيهه في رسالته وعمله إنه مدى ثلاثين عاما كان ابنا محبا ومطيعا لها ، ولم تنقص محبته لها ولا تبدلت ، ولكن عليه الآن أن يبدأ بعمل أبيه . فكابن العلي ومخلص العالم ينبغي ألاّ تعطله العلاقات الأرضية عن إتمام رسالته أو تؤثر في تصرفاته ، بل ينبغي أن يقف حرا ليتمم إرادة الله وهذا الدرس موجه لنا نحن أيضاً ، فإن مطاليب الله هي الأعظم والمفضلة حتى على صلات القرابة الأرضية ، كما ينبغي ألاّ يحول أي جاذب أرضي أقدامنا عن الطريق الذي يأمرنا الرب بالسير فيه.

إن الرجاء الوحيد لفداء جنسنا الساقط هو في المسيح. وما كانت مريم لتجد الخلاص إلاّ عن طريق حمل الله ، إذ لم يكن فيها أي استحقاق شخصي . وعلاقتها بيسوع لم تجعلى [127] لها أية ميزة روحية أو

علاقة تقربها منه أكثر من أي نفس أخرى. وهذا ما يدل عليه كلام المخلص ، حيث جعل فرقا واضحا بين علاقته بها كابن الإنسان وعلاقته كابن الله .إن صلة القرابة بينهما لم تجعلها قط في مركز مساوٍ له.

مقود بإرادة الآب

إن قوله: "لَم تَأْتِ ساعتي بعد" يشير إلى حقيقة كون كل عمل من أعمال حياة المسيح على الأرض كان إتماما لتدبير الله المرسوم منذ دهور الأزل . فقبلما نزل إلى الأرض كان التدبير مرسوما أمامه بكل تفاصيله . ولكنه إذ كان يسير بين الناس كان يقتاد بإرادة الآب خطوة فخطوة . إنه لم يتردد في العمل في الوقت المعين ، وبنفس ذلك الخضوع كان ينتظر حتى يحين الوقت . إن يسوع إذ قال لمريم إن ساعته لم تأتِ بعد كان يجيبها على فكرها الذي لم تفصح عنه- عن انتظارها الذي شاركها فيه الناس . كانت ترجو أن يعلن نفسه بأنه مسيا ويجلس على عرش إسرائيل . ولكن الوقت لم يكن قد جاء . لقد قبل يسوع أن تكون قرعته مع البشرية ، لا كملك بل كرجل "أَوْجاعٍ وَمختَبِر ٱلحزنِ" (إشعياء 53 : 3).

ولكن مع أن مريم لم تكن تفهم رسالة المسيح فهما صحيحا فقد كانت تثق به ثقة كاملة. وقد استجاب يسوع لهذا الإيمان . فلكي يكرم ثقة مريم هذه ، ولكي يقوي إيمان تلاميذه أجرى السيد معجزته الأولى . كان التلاميذ سيواجهون تجارب كثيرة وعظيمة توحي بعدم الإيمان . لقد أوضحت لهم النبوات بما لا يحتمل الشك أو الجدال أن يسوع هو مسيا . كانوا ينتظرون من رجال الدين أن يقبلوه بثقة أعظم من ثقتهم هم . لقد أعلنوا للناس عن معجزات المسيح وثقتهم برسالته ، إلاّ أنهم ذهلوا وأحسوا بالخيبة المريرة لعدم إيمان الكهنة والمعلمين وتعصبهم المتأصل في نفوسهم وعداوتهم ليسوع ، وهكذا شددت معجزات المخلص الأولى قوة التلاميذ على الثبات أمام هذه المقاومات.

إن مريم التي لم تعثرها ولا أربكتها كلمات المسيح قالت للخدام: " مهما قَالَ لَكُم فافعلوه" (يوحنا 2: 5). هكذا عملت مريم ما استطاعت لتهيئة الطريق لعمل المسيح . [128]

كانت بجانب المدخل ستة أجران كبيرة من الحجارة ، فأمر يسوع الخدام بأن يملأوها ماء فملأوها إلى فوق. وحيث أنهم كانوا بحاجة شديدة إلى الخمر قال لهم: "استَقُوا الآنَ وَقَدموا إِلَى رَئِيسِ ٱلمتَّكَإِ" (يوحنا 2 : 8). فبدلا من الماء الذي ملئت به الأجران كانت هنالك خمر . لم يكن رئيس المتكإ ولا الضيوف يعلمون أن الخمر قد نفدت . ولما ذاق رئيس المتكإ ما قدمه له الخدام وجده أفضل من كل الخمر التي سبق لهم أن شربوها ، كما وجد أنها تختلف اختلافا كبيرا عما قدم عند بدء الوليمة . فالتفت إلى العريس وقال: "كُلُّ إِنْسانٍ إِنَّما يضع ٱلخَمر ٱلجيدةَ أَوَّلاً ، وَمتَى سكروا فَحينَئِذ الدونَ . أما أَنتَ فَقَد أَبقَيتَ ٱلخَمر الجيدةَ إِلَى الآنَ!" (يوحنا 2 : 10).

كما أن الناس يضعون الخمر الجيدة أولا وبعد ذلك يقدمون الدون كذلك يفعل العالم بعطاياه. إن ما يقدمه العالم يسر العيون ويسحر الحواس ولكن يتبرهن بعد ذلك أنه غير مشبع ، فالخمر تستحيل إلى مرارة والانشراح إلى وجوم وحزن . وما بدأ بالأغاني والفرح ينتهي بالتعب والاشمئزاز ، ولكن عطايا يسوع هي أبدا سائغة وجديدة . فالوليمة التي يقدمها للنفس لابد أن تملأها شبعا وفرحا . وكل عطية جديدة تزيد قابلية من يتناولها على تقدير بركات الرب والتمتع بها . إنه يعطى نعمة فوق نعمة . وعطاياه لا يمكن أن تنفد فإذا ثبتَّ فيه فإن حقيقة كونك تتناول هبة سخية اليوم تؤكد حصولك على عطية أعظم غدا. إن جواب يسوع لنثنائيل يعبر عن قانون معاملة الله لبنى الإيمان ، إذ مع كل إعلان جديد لمحبته يعلن للقلب الذي يأخذ قائلا: "هلْ آمَنْتَ ... سوفَ تَرى أَعظَم من هذا!" (يوحنا 1 : 50).

إن هبة المسيح لوليمة العرس كانت رمزا، فالماء رمز إلى المعمودية لموته ، أما الخمر فترمز إلى سفك دمه لأجل خطايا العالم. والماء الذي ملئت به الأجران أتت به أيد بشرية، ولكن كلمة المسيح وحدها أعطته قوة محيية. وكذاك الحال بالنسب إلى الطقوس التي تشير إلى موت المخلص ، فبقوة المسيح وحدها العاملة بالإيمان تكون فيها قوة وفاعلية لتغذية النفس.

لقد سدت كلمة المسيح حاجة المدعوين إلى تلك الوليمة ، وكذلك نعمة الله سخية وكافية لمحو خطايا الناس وآثامهم ولتجديد النفس وإعالتها وإسنادها. [129]

إن يسوع إذ ذهب مع تلاميذه إلى أول وليمة قدم لهم الكأس التي يرمز إلى عمله لأجل خلاصهم. وفي العشاء الأخير قدسها مرة أخرى عندما سن تلك الفريضة المقدسة التي بها يخبرون بموته "إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (1 كورنثوس 11 : 26). لقد تعزى التلاميذ عن حزنهم على افتراق سيدهم عنهم بوعده لهم باجتماع شمله بهم مرة أخرى حينما قال: "إِنِّي من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معتكم جديداً في ملكوت أبي" (متى 26 : 29).

" الخمر مستهزئة"

إن الخمر التي قدمها المسيح للمدعوين إلى الوليمة والتي قدمها لتلاميذه كرمز لدمه كانت من عصير الكرمة النقي الغير المختمر. والنبي إشعياء يشير إلى هذه الخمر عندما يتكلم عن الخمر الجديدة "في ٱلْعُنقُودِ" قائلا: "لاَ تُهلكه لأَنَّ فيه بركَةً " (إشعياء 65 : 8).

إن المسيح هو الذي قدم الإنذار لإسرائيل قديما قائلا: "اَلخَمر مستَهزِئَة . ٱلمسكر عجاجٌ، وَمن يتَرنَّح بِهما فَلَيس بِحكيم " (أمثال 20 : 1). فلا يعقل أنه يقدم مثل هذا المشروب بنفسه. إن الشيطان يجرب الناس لأن يسكروا بالخَمر حتى تظلم عقولهم وتتخدر بصيرتهم الروحية . ولكن المسيح يعلمنا أن نخضع طبيعتنا الدنيا . لقد كانت حياته كلها مثالا يحتذى في إنكار الذات . فلكي يحطم قوة الشاهية "شهوة الطعام" احتمل أقسى امتحان يمكن أن يحتمله بشر نيابة عنا . إن المسيح هو الذي أوصى ألاّ يشرب يوحنا خمرا ولا مسكرا وهو الذي حذر امرأة منوح ومنعها عن الخمر والمسكر ، كما أنه نطق بالويل على من يسقي صاحبه خمرا ومسكرا . والمسيح لم يناقض تعاليمه . إن الخمر غير المختمرة التي قدمها للمدعوين إلى العرس كانت شرابا صحيا منعشا ، وكان من أثرها أنها جعلت ذوق الشاربين على وفاق مع القابلية السليمة.

وإذ أبدى المدعوون ملاحظاتهم على نوع الخمر أخذوا يسألون عدة أسئلة جعلت الخدام يعترفون بحدوث المعجزة ، فاستولت على تلك الجماعة دهشة بالغة جعلتهم ينسون التفكير إلى حين في ذاك الذي صنع العمل العجيب. فلما بحثوا عنه أخيرا علموا أنه قد خرج بهدوء بحيث لم يلاحظ أحد خروجه حتى ولا تلاميذه أنفسهم. [130]

ثم اتجه انتباه تلك الجماعة آنئذ إلى التلاميذ. ولأول مرة اعترفوا بإيمانهم بيسوع ، وأخبروهم بما كانوا قد نظروه وسمعوه عند نهر الأردن ، فاضطرمت في قلوب كثيرين من السامعين نار الرجاء في أن الله قد أقام مخلصا لشعبه . وقد انتشر نبأ تلك المعجزة في كل الإقليم حتى وصل إلى أورشليم ، ولذلك بدأ الكهنة والشيوخ يفتشون في أسفار الأنبياء الخاصة بمجيء المسيح باهتمام جديد ، كما نشأ في القلوب شوق شديد لمعرفة رسالة هذا المعلم الجديد الذي ظهر بين الشعب في غير تكلف أو ادعاء.

خطر الانجراف وراء الرسميات

لقد كانت خدمة المسيح على طرفي نقيض مع خدمة شيوخ اليهود. إن حرصهم على حفظ التقاليد والرسميات والطقوس قضى على الحرية الحقيقية للتفكير والعمل . لقد عاشوا طيلة حياتهم في رعب دائم من التنجس . فلكي يتحاشوا النجسين كانوا يترفعون ليس فقط عن الأمم بل أيضاً عن الأكثرية الساحقة من بني أمتهم ، وبذلك لم يحاولوا أن ينفعوهم أو يكسبوا صداقتهم. وإذ ظلوا يفكرون في تلك الأمور صغرت عقولهم وضاق نطاق حياتهم، وكان مثالهم مشجعا للأنانية والتعصب بين طبقات الشعب.

شرع يسوع في عمل الإصلاح بكونه أبدى عطفا شديدا على البشرية. ففي حين أنه أبدى أعظم احترام للشريعة الإلهية فقد وبخ الفريسيين على تقواهم المصطنعة وحاول أن يحرر الشعب من القوانين التي لا معنى لها والتي أسرتهم ، وحاول أن ينقض السياجات التي كانت تفصل طبقات الشعب عن بعضهم البعض لكي يجمع الناس معا كأفراد أسرة واحدة ، وهكذا كان حضوره إلى ذلك العرس خطوة في سبيل تحقيق ذلك القصد.

لقد وجه الله يوحنا المعمدان للسكنى في البرية ليتقي شر تأثير الكهنة ومعلمي الشعب ولكي يتأهب لرسالة خاصة ، ولكن صرامة حياته وعزلته لم تكونا مثالا يحتذيه الشعب فهو نفسه لم يوصِ سامعيه باعتزال واجباتهم ، ولكنه أمرهم بأن يبرهنوا على توبتهم بأمانتهم لله في عملهم الذي قد عينَه لهم.

وبخ المسيح الانغماس والإفراط في كل صورهما ، ومع ذلك كان اجتماعيا بطبيعته ، وكان يقبل كرم الضيافة من كل الطبقات ويزور بيوت الأغنياء والفقراء ، والعلماء [131] والجهلاء على السواء ، وكان يحاول أن يسمو بتفكيرهم عن شؤون الحياة العادية إلى الأمور الروحية الأبدية. ولم يكن يتسامح مع الانغماس في الشهوات ، ولم يشوه تصرفاته أي أثر للرعونة العالمية ، ومع ذلك فقد سرته مناظر السعادة البريئة ، وبحضوره صادق على مجالس الإيناس . كانت حفلات الأعراس اليهودية فرصا تجلت فيها الحشمة والوقار، ولم تكن الأفراح مغيظة لابن الإنسان . فإذ حضر يسوع هذه الوليمة أضفى على الزواج كرامة عظيمة على اعتبار أنه دستور إلهي.

العلاقة الزوجية

في العهد القديم والعهد الجديد كليهما تستخدم العلاقة الزوجية كرمز للاتحاد الحبي المقدس الكائن بين المسيح وشعبه. وقد كان المسيح يفكر أن أفراح ولائم الأعراس تشير إلى الأمام إلى فرح ذلك اليوم الذي فيه سيأتي بعروسه إلى بيت الآب ويجلس المفديون مع فاديهم في عشاء عرس الخروف ، فهو يقول: “كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك” “لا يقال بعد لك: “مهجورة” .. بل تدعين “حفصيبة” .. لأن الرب يسر بك” “يبتهج بك فرحاً. يسكت في محبّته. يبتهج بك بترنّم” (إشعياء 62 : 5، 4 ؛ صفنيا 3 : 17). عندما سمح ليوحنا الرسول أن يرى الرؤى السماوية كتب يقول: “وسمعت كصوت جمع كثير، وكصوت مياه كثيرة، وكصوت رعود شديدة قائلة: “هللويا! فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء. لنفرح ونتهلل ونعطه المجد! لأن عرس الخروف قد جاء، وامرأته هيأت نفسها .. وقال لي: “أكتب: طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الخروف!” وقال: “هذه هي أقوال الله الصادقة ” (رؤيا 19 : 6و 7و9).

لقد رأى يسوع في كل نفس شخصا ينبغي أن تقدم له الدعوة للدخول إلى ملكوته ، فوصل إلى قلوب

الناس لأنه كان يسير بينهم كمن يطلب لهم الخير. كان يسعى إليهم في الشوارع العامة وفي المنازل وفي قوارب الصيد وفي المجمع وعلى شواطئ البحيرة وفي وليمة العرس ، وكان يلتقي بهم حيث كانوا يزاولون أعمالهم يوميا وأبدى اهتمامه بشؤونهم الدنيوية . وكان يقدم تعاليمه للعائلات جاعلا الناس وهم في بيوتهم يحسون بحضوره الإلهي ، فعطفه نحو كل فرد منهم شخصيا سبى قلوبهم . وفي أحيان كثيرة كان يذهب إلى [132] الجبال ليصلى منفردا ، ولكن هذا كان إعدادا له ليقوم بعمله بين الناس في حياة الخدمة .وبعد ذلك كان يخرج ليخفف آلام المرضى ويعلم الجهال ويحطم قيود أسرى الشيطان.

علم يسوع تلاميذه بالاتصال الشخصي والمعاشرة. فأحيانا كان يعلمهم وهو سائر في وسطهم بجانب الجبل ، وأحيانا أخرى بجانب البحر أو وهو سائر معهم في الطريق فكان يعلن لهم أسرار ملكوت السماوات . لم يكن يقدم مواعظ رسمية كما يفعل الناس اليوم . فأينما وجدت قلوب مفتوحة لقبول الرسالة الإلهية كان يكشف لها عن حقائق طريق الخلاص . لم يكن يأمر تلاميذه أن يفعلوا هذا أو ذاك بل كان يقول لكل واحد "اتبعني" وحين كان يسافر في الأرياف أو المدن كان يصطحبهم معه لكي يروا كيف كان يعلم الشعب . لقد جمع بين مصالحه ومصالحهم فشاركوه في العمل .

الارتباط بمصالح البشر

إن مثال المسيح في كونه ارتبط بمصالح البشر ينبغي أن يحتذيه كل من يكرزون بكلمته وكل من قبلوا إنجيل نعمته. ينبغي ألاّ ننبذ الشركة الاجتماعية وألا نعزل أنفسنا عن الآخرين . فلكي يمكننا الوصول إلى كل الطبقات علينا أن نذهب لمقابلتهم حيث هم ، إذ يندر أنهم يطلبوننا من تلقاء أنفسهم . إن قلوب الناس لا تتأثر بالحق الإلهي الذي يلقى من على المنبر فقط ، بل هناك حقل آخر للعمل ، قد يكون وضيعا ولكنه يبشر بحصاد وفير ، إنه في أكواخ الفقراء كما في قصور الأغنياء والعظماء ، على المائدة وفي مجتمعات الأنس البريئة.

وكتلاميذ للمسيح نحن لا نختلط بالعالم لمجرد حب السرور أو الملذات ، ولا لنشارك الناس في جهالاتهم ، فمثل تلك الاجتماعات لا ينجم عنها سوى الضرر. ينبغي ألاّ نبيح الخطية بكلامنا أو أعمالنا أو صمتنا أو حضورنا . فأينما نذهب ينبغي لنا أن نصطحب يسوع معنا وأن نعلن للآخرين عن قيمة مخلصنا العظيمة . أما أولئك الذين يريدون الاحتفاظ بديانتهم بإخفائها في حصون مشيدة فستضيع عليهم فرص كثيرة لعمل الخير ، إذ عن طريق الصلات الاجتماعية تتقارب المسيحية من العالم . فكل من قد حصل على النور الإلهي عليه أن ينير طريق أولئك الذين لا يعرفون نور الحياة.

علينا جميعا أن نكون شهودا ليسوع. فالجاذبية الاجتماعية أو ميل الإنسان إلى [133] المعاشرة إذ تتقدس بنعمة المسيح ينبغي استخدامها في ربح النفوس للمخلص. لير العالم أننا لسنا بكل أنانية مشغولين في مصالحنا الخاصة ، بل أننا نرغب في إشراك الآخرين في بركاتنا وامتيازاتنا . لنرِهم أن ديانتنا لا تجعلنا عديمي العطف أو متعصبين. فعلى كل من يعترفون بأنهم قد وجدوا المسيح أن يخدموه كما قد خدم هو لخير الناس.

ينبغي ألاّ نجعل العالم يعتقد اعتقادا كاذبا أن المسيحيين قوم تعساء تعلو العبوسة وجوههم. فإذا ثبتنا أنظارنا في يسوع سنرى أنه الفادي العطوف وسيشرق نور وجهه علينا ، إذ حيثما يملك روحه يحل السلام . وسيكون هنالك أيضاً الفرح لأن في الله ثقة مقدسة هادئة.

إن المسيح يفرح بتابعيه عندما يبرهنون على أنهم شركاء الطبيعة الإلهية مع أنهم بشر مجبولون من

التراب. إنهم ليسوا تماثيل جامدة ولكنهم أناس أحياء . فقلوبهم إذ تنتعش بندى النعمة الإلهية تنفتح وتتسع لشمس البر ، والنور الذي يشع عليهم يعكسونه على الآخرين في أعمالهم المنيرة بمحبة المسيح. [134]

الفصل السادس عشر ـــ المسيح في هيكله

" وبعد هذا انحدر إلى كفرناحوم، هو وأمه وإخوته وتلاميذه، وأقاموا هناك أياماً ليست كثيرة وكان فصح اليهود قريباً، فصعد يسوع إلى أورشليم" (يوحنا 2 : 12، 13).

في هذه الرحلة انضم يسوع إلى جمع كبير من الناس الصاعدين إلى العاصمة. لم يكن قد أعلن رسالته للناس بعد فاندمج في وسط ذلك الجمع دون أن يلحظه أحد . وفي تلك الظروف كان موضوع حديث الناس أحيانا كثيرة هو مجيء مسيا الذي قد أضفت عليه خدمة يوحنا المعمدان وكرازته سموا وجلالا عظيمين ، فكانوا يتحدثون عن آمالهم في عظمتهم القومية بحماسة ملتهبة . لقد عرف يسوع أن مصير كل تلك الآمال هو الخيبة والفشل لأنها كانت مبنية على سوء تفسيرهم للكتب المقدسة . ولذلك فبغيرة وحماسة عظيمتين جعل يسوع يفسر لهم النبوات محاولا أن يحثهم على التعمق في دراسة الكلمة الإلهية.

أما رؤساء اليهود فقد علموا الشعب أنه ينبغي لهم أن يتعلموا في أورشليم كيف يعبدون الله. وفي هذه المدينة كانت تجتمع جماعات غفيرة من الشعب في عيد الفصح قادمين من كل أنحاء فلسطين بل ومن بلدان بعيدة . وقد امتلأت أروقة الهيكل بجماهير مختلطة من الناس ، وكثيرون منهم عجزوا عن أن يحضروا معهم الذبائح التي كان ينبغي تقديمها رمزا للذبيح العظيم الأوحد . فلأجل راحة أمثال هؤلاء الناس كانت الحيوانات تشترى وتباع في أروقة الهيكل الخارجية . في هذا المكان اجتمع الشعب من كل الطبقات لشراء تقدماتهم ، وفي هذا المكان كانت كل النقود الأجنبية تستبدل بعملة الهيكل. [135]

غش واغتصاب في بيت الله

كان يطَلب من كل يهودي أن يدفع نصف شاقل كل سنة " فدية نَفسه"، وكانت تلك الأموال التي تجمع تستخدم في مطاليب الهيكل (خروج 30 : 12 — 16). وفضلا عن هذا فإن مبالغ طائلة كان يؤتى بها كتقدمات طوعية لتوضع في خزانة الهيكل . وكان يطلب استبدال كل النقود الأجنبية بعملة تسمى شاقل القدس ، وهي وحدها التي كانت تُقبل في خدمة الهيكل . وكانت عملية استبدال النقود فرصة سانحة للغش والاغتصاب . وتلك التجارة التي كانت موردا للثروة الطائلة التي كان الكهنة يستحوذون عليها ، صارت تجارة شائنة إلى أقصى حد.

كان التجار يفرضون على الحيوانات التي يبيعونها أثمانا خيالية باهظة ، وكان يقاسمهم في الأرباح الكهنة والرؤساء الذين أثروا على حساب الشعب. وقد أفلح أولئك القادة في إقناع العابدين بأنهم إذا لم يقدموا ذبائح فلن تستقر بركة الله على أولادهم أو أراضيهم ، وهكذا أمكن الحصول على أثمان غالية للحيوانات التي كانت تُباع ، لأن الشعب بعدما قطعوا أبعادا شاسعة من أوطانهم إلى أورشليم لم يكونوا يريدون العودة إلى بلادهم دون تقديم فروض العبادة التي قد أتوا ليمارسوها.

وفي عيد الفصح كان يقدم عدد هائل من الذبائح فكانت المبيعات في الهيكل ضخمة للغاية ، وكانت الضجة الهائلة الناشئة عن حركة بيع الماشية وشرائها تدل على أن ذلك المكان قد استحال من هيكل مقدس يعبد فيه الله إلى سوق تباع فيها الحيوانات. فكنت تسمع أصوات المساومات العالية وخوار البقر وثغاء الغنم وهديل الحمام ، وكان كل ذلك مختلطا برنين الفضة وأصوات المخاصمات الصاخبة . كانت تلك الضجة عظيمة بحيث شوشت على العابدين ، حتى أن الصلوات التي كانت تُرَفع إلى الله العلي طغت عليها تلك الغوغاء العالية التي خيمت على الهيكل . كان اليهود يفخرون ويتشدقون بتقواهم ، ويغبطون أنفسهم على هيكلهم ، ويعتبرون كل من يتكلم كلمة سوء في حقه مجدفا ، ويدققون أشد التدقيق في ممارسة الطقوس الخاصة به . ولكن حب المال طغى على ذلك كله ، وكادوا لا يدرون إلى أي دركة قد انحطوا عن الغرض الأصلي لتلك الخدمة التي قد سنها الله نفسه. [136]

وجوب الاحترام

عندما نزل الرب على جبل سيناء تقدس ذلك الجبل بحضوره. لقد أمر موسى أن يقيم حدودا حول الجبل من كل ناحية ويقدسه . وقد سمع صوت الرب محذرا للشعب وقائلا: "احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسّوا طرفه. كل من يمس الجبل يقتل قتلاً. لا تمسّه يد بل يرجم رجماً أو يرمى رمياً. بهيمة كان أم إنساناً لا يعيش" (خروج 19 : 12 و 13). وهكذا تعلم الشعب هذا الدرس وهو أن أي مكان يعلن الله فيه نفسه يعتبر مكانا مقدسا، فكان ينبغي اعتبار كل نطاق هيكل الله مقدسا . ولكن في سبيل الكفاح في طلب الكسب غير المشروع غاب كل ذلك عن بالهم.

لقد دعا الله الكهنة والرؤساء ليكونوا نوابا عنه أمام الشعب ، وكان عليهم أن يحرموا على الناس انتهاك حرمة أروقة الهيكل ، وأن يقدموا أنفسهم مثالا للشعب في الاستقامة والرفق. وبدلا من التفكير في منفعتهم الذاتية كان عليهم أن يراعوا موقف العابدين وحاجاتهم ، وأن يكونوا على استعداد لمساعدة غير القادرين على شراء الذبائح المطلوبة .لكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك إذ قد قسى الجشع قلوبهم.

لقد أتى إلى هذا العيد كثيرون ممن كانوا متألمين أو فقراء أو متضايقين ، فكان هناك العمي والعرج والصم. وكان البعض منهم يؤتى بهم على أسرة ، وكثيرون أتوا ممن قد أعجزهم فقرهم عن شراء أقل التقدمات للرب ، بل كانوا يتضورون جوعا لخلو أيديهم مما يشترون به ما يسد الرمق . هؤلاء الناس كانوا يتضايقون من ادعاءات الكهنة الذين كانوا يفخرون بتقواهم ويدعون أنهم أوصياء على الشعب ، بينما كانت قلوبهم خالية من كل عطف أو إشفاق ، فعبثا كان الفقراء والمرضى والمحتضرون يستجدون منهم الإحسان إذ لم تكن آلامهم تستدر الشفقة في قلوب الكهنة.

قوة ذات سلطان

فلما دخل يسوع الهيكل عرف كل شيء على حقيقته. رأى الصفقات الجائرة الظالمة ، ورأى ضيق الفقراء الذين كانوا يعلمون أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة لخطاياهم ، [137] ورأى دار هيكله الخارجية وقد استحالت إلى مكان للتجارة النجسة ، فتلك الدار المقدسة أصبحت سوقا كبيرة.

رأى المسيح أنه لابد من عمل شيء. لقد فرضت على الشعب فرائض كثيرة دون أن يعلمهم أحد

معناها ، كما كانوا يقدمون ذبائحهم دون أن يفهموا أنها كانت ترمز إلى الذبيحة الكاملة الواحدة ، فوقف في وسطهم ذاك الذي كانت كل الرموز تنتهي إليه، ولكن لم يعرفه أو يكرمه أحد . كان قد أعطى تعليماته الخاصة بالتقدمات ، وكان يعرف قيمتها الرمزية كما عرف أنها صارت آلات فاسدة وأساء الناس فهمها . لقد بدأت العبادة الروحية تختفي ، ولم تعد هنالك أية صلة بين الكهنة والرؤساء وبين إلههم ، فكان المسيح مزمعا أن يقيم عبادة تختلف عن هذه كل الاختلاف.

وإذ يقف المسيح على درج رواق الهيكل ويتطلع بنظراته الفاحصة يرى كل شيء على حقيقته. وبعين النبوة يرى حوادث الغيب ، إنه لا يرى السنين فقط بل يرى أيضاً تعاقب القرون والأجيال . فهو يرى كيف أن الكهنة والرؤساء سيصدون الفقراء عن حقوقهم ويمنعون الكرازة بالإنجيل للمساكين . ويرى كيف أن محبة الله ستحجب عن عيون الخطاة وكيف سيتجر الناس بنعمته ، فإذ يشاهد ذلك المنظر ترتسم على محياه أمائر الغضب والقوة والسلطان . وهنا تتجه أنظار الناس إليه ، وأولئك المشغولون في تجارتهم النجسة يثبتون أنظارهم فيه ولا يستطيعون أن يغضوا أبصارهم عنه ، بل ويحسون بأن هذا الإنسان يقرأ أعمق أفكار قلوبهم ويكشف طواياهم ، فيحاول بعضهم إخفاء وجوههم كما لو كانت أعمالهم الشريرة مسطورة على جباههم وأن عينه الفاحصة تراها.

سكون شامل

وفجأة يكف ذلك الضجيج وتهدأ جلبة الأصوات ، أصوات التجار والمساومين. ولكن هذا الصمت يصبح مؤلما لهم . لقد سيطر عليهم الإحساس بالرهبة وكأنما هم واقفون أمام محكمة الله الذي يدينهم على شرورهم . وإذ يشخصون إلى المسيح يرون نور الألوهية يسطع من خلال ثوب البشرية . إن جلال السماء واقف أمامهم كما سيقف الديان في اليوم الأخير- وإن لم يكن الآن محاطا بالمجد الذي سيتسربل به حينئذ ، ولكن بنفس القوة التي [138] تكشف خفايا النفس. إن عينه تنتقل بين ذلك الجمع عالمة بخفايا كل إنسان ، ويبدو كأن جسمه يعلو فوقهم في جلال آمر وعلى محياه يسطع نور سماوي . وإذ يتكلم فإن ذلك الصوت الصافي الذي يرن في ذلك المكان هو نفس الصوت الذي قد أعلن من على جبل سيناء الشريعة التي يتعداها الآن الكهنة والرؤساء ، هو نفس الصوت الذي يسمع صداه في أروقة الهيكل قائلا: "ارْفَعوا هذهِ من ههَنا! لاَ تَجعلُوا بيت أَبِي بيتَ تجارَةٍ!" (يوحنا 2 : 16).

وإذ بدأ يهبط الدرج ببطء وهو يرفع يده بالسوط من الحبال الذي قد التقطه عند دخوله إلى تلك الدار أمر أولئك الناس المنهمكين في البيع والمساومة أن يرحلوا عن أروقة الهيكل. وبغيرة وصرامة عظيمتين لم تُشاهدا فيه من قبل يقلب موائد الصيارفة فتسقط قطع الفضة فيحدث لسقوطها رنين على الأرض الرخامية . ولا يحاول أحد أن يتساءل عن السلطان الذي خوله أن يفعل ذلك ، كما لم يجرؤ أحد منهم على الانحناء لالتقاط قطع النقود التي قد كسبوها بغير حق . إن يسوع لم يضربهم بسوطه ، ولكن ذلك السوط المصنوع من الحبال أخافهم خوفا عظيما كما لو كان سيفا ملتهبا بالنار . وها هم المناظرون على الهيكل والكهنة الغارقون في تفكيرهم ، والسماسرة وتجار الماشية بخرافهم وثيرانهم يندفعون جميعهم بغاية واحدة هي الهرب من ذلك المكان لينجوا من دينونة حضوره .

شمل الرعب ذلك الجمهور الذي قد أحس بقوة ألوهية السيد الذي أخفى نوره عن الأنظار. وكانت صيحات الفزع تنطلق من أفواه مئات الناس الشاحبي الوجوه من هول الخوف ، بل حتى التلاميذ أنفسهم ارتعبوا . لقد شملهم الرعب من كلام يسوع وتصرفه الذي كان على غير مألوف عادته ، ثم ذكروا أنه

مكتوب عنه: "غَيرةَ بيتك أكَلَتني" (مزمور 69 : 9). وسرعان ما خرج أولئك القوم المضطربون وأخرجوا سلعهم التي كانوا يتجرون بها في هيكل الرب . وها هي أروقة الهيكل قد أخليت من تلك التجارة النجسة فاستحوذ على ذلك المكان الذي كان يسوده الاضطراب سكون وخشوع شاملان . إن حضور الرب الذي قدس الجبل قديما يقدس الآن الهيكل المقام لإكرامه. [139]

الهيكل رمز

إن يسوع بتطهيره الهيكل كان يعلن عن رسالته بأنه مسيا ويبدأ عمله ، فذلك الهيكل الذي بني ليحل فيه الله كان يقصد به أن يكون درسا إيضاحيا لإسرائيل ولكل العالم. ومنذ أجيال الدهر كان قصد الله أن كل كائن من مخلوقاته ، من السرافيم القديسين المتسربلين بالنور ، إلى الإنسان ، يكون كل منهم هيكلا يسكنه الخالق . ولكن بسبب الخطية لم تعد البشرية هيكلا لله . وإذ أظلمت قلوب الناس وتنجست بالخطية أمست لا تعلن مجد الله .ولكن قصد السماء قد تم بتجسد ابن الله . فالله يسكن في البشرية . وبواسطة النعمة المخلصة يصبح القلب هيكلا له من جديد . وقد قصد الله أن يكون الهيكل في أورشليم شاهدا دائما على المصير السامي المقدم لكل نفس . ولكن اليهود لم يفهموا دلالة ذلك البناء الذي كانوا يكرمونه ويفخرون به . فلم يقدموا ذواتهم هياكل مقدسة لسكنى روح الله . وإن أروقة هيكل أورشليم التي علت فيها الضوضاء وامتلأت بالمتاجرة الدنسة كانت تمثل تمثيلا صادقا هيكل القلب الذي نجسته الأهواء والشهوات والأفكار النجسة . وإذ طهر يسوع الهيكل ممن كانوا يبيعون فيه ويشترون أعلن عن رسالته في تطهير القلب من نجاسات الخطية- من الشهوات العالمية والأهواء النفسانية والعادات الشريرة المفسدة للنفس. " " يأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تسرون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود" ومن يحتمل يوم مجيئه؟ ومن يثبت عند ظهوره؟ لأنه مثل نار الممحّص، ومثل أشنان القصّار. فيجلس ممحًّصا ومنقياً للفضّة. فيُنقي بني لاوي ويصفيهم كالذهب والفضة، ليكونوا مقرّبين للرب، تقدمة بالبر" (ملاخي 3 : 1 — 3).

"أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم؟ إن كان أحد يفسد هيكل الله فيفسده الله، لأن هيكل الله مقدّس الذي أنتم هو" (1 كورنثوس 3 : 16 و 17). لا يستطيع أحد بنفسه أن يخرج من القلب الشرور التي قد احتلته ، ولكن يسوع هو وحده الذي يستطيع أن يطهر هيكل النفس . ولكنه لن يقتحم القلب أو يدخل عنوة . وهو لا يدخل القلب كما قد دخل الهيكل قديما، ولكنه يقول:"هنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي" (رؤيا 3 : 20). إنه سيأتي لا لمجرد يوم واحد لأنه يقول: "إني سأسكن فيهم وأسير بينهم .. وهو يكونون لي شعباً"، [140] " يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم" (2 كورنثوس 6: 16 ؛ ميخا 7: 19). إن حضوره يطهر النفس ويقدسها حتى تصير "هيكلاً مقدساً في الرب" و "مسكنا لله في الروح" (أفسس 2 : 21، 22).

وقت اقتناع

وإذ استولى الرعب على الكهنة والرؤساء هربوا من رواق الهيكل لينجوا بأنفسهم من نظرة يسوع الفاحصة التي كشفت طواياهم. وفي هربهم التقوا آخرين ممن كانوا في طريقهم إلى الهيكل فأمروهم

بالعودة وأخبروهم بما قد رأوا وسمعوا . وقد نظر المسيح إلى أولئك الهاربين في إشفاق رحيم لخوفهم وعدم معرفتهم مطاليب الديانة الحقيقية . وفي هذا المنظر رأى السيد رمزا لتشتت الأمة اليهودية كلها بسبب شرهم وصلابة قلوبهم.

ولكن لماذا هرب الكهنة من الهيكل؟ ولماذا لم يثبتوا في أماكنهم؟ إن من قد أمرهم بالخروج هو ابن النجار الذي كان جليليا فقيرا ، لا مقام له ولا سطوة في العالم . فلماذا لم يقاوموه ، ولماذا تركوا مكسب الظلم وهربوا انصياعا لأمر ذاك الذي كان مظهره الخارجي وضيعا جدا؟

لقد تكلم المسيح بسلطان كملك ، وفي مظهره ونغمة صوته كان هنالك شيء عجزوا عن مقاومته وأمام كلمة الأمر التي خرجت من شفتيه تحققوا ما لم يتحققوه من قبل وهو أنهم مراؤون ولصوص. وعندما سطعت ألوهيته من خلال بشريته لم يروا الغضب فقط مرتسما على وجه المسيح بل تحققوا مغزى كلامه . لقد أحسوا كأنهم ماثلون أمام عرش الديان السرمدي يستمعون لحكمه عليهم في الحياة ومدى الأبدية ، واقتنعوا بعض الوقت بأن المسيح نبي ، وآمن كثيرون بأنه مسيا ، أعاد الروح القدس إلى أذهانهم أقوال الأنبياء عن المسيح . فهل يخضعون لهذا الاقتناع؟

لقد رفضوا التوبة. عرفوا أن قلب المسيح كان ممتلئا بالعطف على الفقراء ، كما عرفوا أنهم ارتكبوا جريمة الاغتصاب في معاملتهم للشعب . ولأن المسيح عرف أفكارهم فقد أبغضوه . وإن توبيخه إياهم على مسامع الشعب كان فيه إذلال لكبريائهم ، كما كانوا يغارون منه لتزايد نفوذه بين الشعب ، فصمموا على أن يراجعوه ويتحدوه من جهة سلطانه في طردهم ، ومن أعطاه هذا السلطان. [141]

معز لطيف

فعادوا إلى الهيكل بتؤدة وتفكير ، والحقد ينهش قلوبهم. ولكن ما أعظم التبدل الذي حدث في غيابهم! فعند هربهم تخلف الفقراء الذين أخذوا يشخصون إلى يسوع الذي ارتسمت على محياه آيات الحب والعطف . وقال لأولئك الناس المرتعبين الملتفين من حوله وعيناه تفيضان بالدموع: لا تخافوا سأنقذكم وأنتم ستمجدونني . فلأجل هذا أتيت إلى العالم.

تزاحم الناس حول المسيح يقدمون إليه توسلاتهم الحارة في ضراعة موجبة للرثاء ، وكل منهم يقول: باركني يا معلم. وقد سمعت أذناه كل صراخهم . وبعطف يفوق عطف الأم الحنون انحنى إلى أولئك الأصاغر المتألمين وقد ظفروا جميعا باهتمامه ، فشفي جميع المرضى منهم ، فانفتحت أفواه الخرس تسبحه ، والعمى أبصروا وجه فاديهم ، وابتهجت قلوب أولئك المتألمين

وإذ أبصر الكهنة ونظار الهيكل هذا العمل العظيم ، فما كان أعظمه إعلانا ذاك الذي طرق مسامعهم عندما سمعوا ما سمعوه! لقد كان الشعب يتحدثون عن قصص الآلام التي عانوها وعن آمالهم التي قد خابت وأيام الألم وليالي الأرق. ولكن عندما انطفأت آخر بارقة من بوارق الأمل شفاهم يسوع. قال أحدهم:لقد كان حملي ثقيلا وجاثما على صدري ولكني وجدت معينا- إنه مسيح الله وسأكرس حياتي لخدمته . وكان الآباء يقولون لأولادهم: لقد أنقذ حياتكم فارفعوا أصواتكم وسبحوه ، فاتحدت أصوات الصغار والشباب والآباء والأمهات والأصدقاء والمشاهدين في الشكر والتسبيح . لقد امتلأت قلوبهم رجاء وحبورا وشمل السلام عقولهم وأفكارهم . لقد شفيت نفوسهم وأجسادهم فعادوا إلى بلادهم وهم يعلنون في كل مكان عن محبة يسوع التي لا مثيل لها.

وعندما صلب المسيح لم يشترك أولئك الذين قد شفاهم مع جماهير الرعاع حين صرخوا ضده قائلين:

" اصلبه! اصلبه! "، بل كانوا يعطفون على يسوع لأنهم سبقوا فاختبروا عطفه وقوته العجيبة . لقد عرفوه مخلصا لهم لأنه منحهم شفاء لأجسادهم ونفوسهم . لقد سمعوا كرازة الرسل ، وإذ دخلت كلمة الله إلى قلوبهم منحتهم وعيا وإدراكا ، فصاروا عاملين ورسل رحمة لله وآلات لنشر كلمة خلاصه [142]

اقتناع يخمد

إن أولئك الجموع الذين هربوا من الهيكل عادوا إليه بعد حين ببطء. كان الرعب الذي شملهم قد زايلهم الآن إلى حد ما . ولكن كانت تُرى على وجوههم سيماء التذبذب والجبن .وقد اندهشوا عندما رأوا أعمال يسوع واقتنعوا بأن النبوات الخاصة بمسيا قد تمت فيه . إن خطية انتهاك حرمة الهيكل استقرت على رؤوس الكهنة إلى حد كبير ، إذ بتدبيرهم استحالت دار الهيكل إلى سوق . أما الشعب فكانوا أبرياء نسبيا ، كما كانوا مقتنعين بسلطان يسوع الإلهي ، ولكن نفوذ الكهنة عليهم كان طاغيا . لقد اعتبروا رسالة المسيح بدعة وكانوا يشكون في أن له حق التدخل في ما قد أباحته سلطات الهيكل . لقد استاءوا لأن تلك التجارة قد قوطعت وبذلك أخمدوا صوت الروح القدس في قلوبهم فما عاد يبكتهم.

كان ينبغي للكهنة والرؤساء ، أكثر من جميع الناس ، أن يروا المسيح على أنه مسيح الرب ، لأن الأسفار المقدسة التي وصفت رسالته على حقيقتها كانت بين أيديهم ، وقد عرفوا أن تطهر الهيكل كان إعلانا لسلطان يفوق كل سلطان بشري. ومع أنهم كانوا يبغضون يسوع أشد البغض لم يستطيعوا التخلص من فكرة أنه قد يكون نبيا مرسلا من الله ليعيد إلى الهيكل قدسيته . فباحترام كان وليد هذا الخوف ذهبوا إليه وسألوه قائلين: "أَية آية تُرِيَنا حتَّى تَفعلَ هَذا؟" (يوحنا 2 : 18).

"انقضوا هذا الهيكل"

لقد أراهم يسوع آية ، وإذ أشرق بنوره في قلوبهم وصنع أمامهم الأعمال التي كان مسيا مزمعا أن يعملها قدم لهم البرهان المقنع على صفته ومقامه. فالآن إذ سألوه آية أجابهم بمثل مبرهنا بذلك على معرفته لحقدهم وخبثهم وإلى أي نهاية سيوصلهم حقدهم ، فقال : "اْنقُضوا هَذا اْلهيكلَ ، وَفي ثَلاَثة أَيامٍ أُقيمه" (يوحنا 2 : 19).

كان معنى هذا الكلام مزدوجا ، فهو لم يشر فقط إلى نقض هيكل اليهود والعبادة التي تُقام فيه بل إلى موته هو- أي نقض هيكل جسده. وهذا ما كان اليهود يتآمرون لعمله من قبل . فإن الكهنة والرؤساء بعدما عادوا إلى الهيكل كانوا قد ارتأوا قتل يسوع وبذلك يزيحون هذا الشخص المزعج من طريقهم . ومع ذلك فعندما كشف لهم عن قصدهم لم يفهموه . لقد [143] فهموا كلامه على أنه ينطبق فقط على الهيكل الذي في أورشليم. فصاحوا يقولون في غضب: "في ستٍّ وَأَرْبعين سَنةً بني هَذا اْلهيكلُ ، أَفأَنتَ في ثَلاَثة أَيام تُقيمه؟" (يوحنا 2 : 20). والآن تأكدوا من وجود مبرر لعدم إيمانهم به ، فزادوا من إصرارهم علىً رفضه .

لم يكن المسيح يقصد أن يفهم اليهود العديمو الإيمان أقواله حتى ولا تلاميذه حينئذ ، إذ عرف أن أعداءه سيحرفون أقواله ويحاربونه بها، وعند محاكمته سيحيكون من هذا الكلام اتهاما لإدانته. وإذ يعلق على صليب جلجثة سيلقون به في وجهه للتقريع والزراية به .ولكن لو فسره آنئذ لعلم تلاميذه أنه مزمع أن

يتألم فذلك سيجلب عليهم أحزانا لم يكونوا يستطيعون احتمالها حتى ذلك الحين . وذلك التفسير سيكشف لأولئك اليهود قبل الأوان عواقب تعصبهم وعدم إيمانهم . لقد بدأوا فعلا السير في طريق الإجرام وسيوغلون فيه إلى أن يساق يسوع كشاة إلى الذبح.

نطق المسيح بهذه الأقوال لأجل صالح الذين يؤمنون به. وعرف أن ذلك القول سيتكرر. وإذ نطق به في عيد الفصح فسيسمعه آلاف الناس فينتقل إلى كل أنحاء العالم . وبعد قيامته من الأموات يتضح معنى هذا الكلام ، ويكون برهانا مقنعا لكثيرين على ألوهية يسوع

إنه بسبب الظلام الروحي الذي كان جاثما على القلوب لم يكن حتى تلاميذ يسوع أنفسهم يفهمون تعاليمه. ولكن الكثير من تلك التعاليم وضحت لهم في الحوادث التي جرت فيما بعد . وبعد صعوده حينما لم يعد يسير معهم على الأرض كان كلامه سندا لقلوبهم.

وفيما يختص بهيكل أورشليم فإن قول المسيح: "اْنقُضوا هَذا اْلهيكلَ ، وَفي ثَلاَثة أَيام أُقيمه" كان له معنى أعمق مما قد فهمه سامعوه . لقد كان المسيح هو أساس الهيكل وحياته. وكانت الخدًمات التي تقام فيه رمزا إلى ذبيحة ابن الله . وكان نظام الكهنوت قد أقيم كرمز لشفاعة المسيح وعمله . إن نظام الذبائح المختص بالعبادة كله كان رمزا لموت المخلص لأجل فداء العالم ، ومتى تمت الحادثة العظيمة التي كانت تلك الذبائح تشير إليها منذ أجيال طويلة فلن تكون لها أية فاعلية أو تأثير.

نظام طقسي

وحيث أن النظام الطقسي برمته كان كله يرمز إلى المسيح فلم تكن له أية قيمة بدونه. [144] وعندما ختم اليهود على رفضهم للمسيح بتسليمهم إياه للموت رفضوا كل ما أضفى قيمة على الهيكل وخدماته ، فجرد الهيكل من قدسيته وحكم عليه بالخراب. ومنذ ذلك اليوم أمست تلك الذبائح الكفارية وكل الخدمات المرتبطة بها بلا معنى أو دلالة . لقد صارت كتقدمة قايين لا تعبر تعبرا صريحا عن الإيمان بالمخلص . وإذ صلب اليهود المسيح وقتلوه فهم في الواقع قد نقضوا الهيكل . وحينما صلب المسيح انشق حجاب الهيكل الداخلي إلى اثنين من فوق إلى أسفل دلالة على أن الذبيحة العظيمة الأخيرة قد قدمت وأن نظام الذبائح الكفارية قد أبطل إلى الأبد.

" وفي ثلاثة أيام أقيمه". عندما مات المخلص ظهر كأن قوات الظلمة قد انتصرت ، وقد فرحت وتهللت بانتصارها ، ولكنه خرج من قبر يوسف ظافرا: "إذ جرّد الريّاسات والسلاطين أشهرهم جهاراً، ظافراً بهم فيه" (كولوسي 2 : 15). فبفضل موته وقيامته صار "خادماً للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نصبه الرب لا إنسان" (عبرانيين 8 : 2). لقد أقام الناس الخيمة اليهودية ، وهم الذين بنوا الهيكل اليهودي . أما المقدس السماوي الذي كان المقدس الأرضي رمزا له ، فلم تقمه يد مهندس بشري "هوذا الرجل "الغصن" اسمه. فهو يبني هيكل الرب، وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلّط على كرسيه" (زكريا 6 : 12، 13).

لقد بطلت الخدمة الكفارية التي كانت ترمز إلى المسيح ، ولكن عيون الناس التفتت إلى الذبيح الحقيقي المقدم لأجل خطايا العالم. لقد بطل الكهنوت الأرضي ولكننا ننظر إلى يسوع خادم العهد الجديد ، وإلى: "دم رش يتكلّم أفضل من هابيل" ، " أن طريق الأقداس لم يظهر بعد، ما دام المسكن الأول له إقامة .. أما المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة، فبالمسكن الأعظم والأكمل، غير المصنوع بيد .. بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداء أبدياً" (عبرانيين 12 : 24 ؛ 9 : 8 — 12).

“فمن ثم يقدر أن يخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدّمون به إى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم” (عبرانيين 7 : 25). ومع أن الخدمة كانت مزمعة أن تنتقل من الهيكل الأرض إلى الهيكل السماوي ، ومع أن المقدس ورئيس كهنتنا الأعظم لن تراهما عين بشرية ، فإن التلاميذ لم تلحقهم من ذلك خسارة . لن يحدث شق في شركتهم كإخوة [145] ولن تضعف قوتهم نظرا لغياب مخلصهم عنهم بالجسد. ففي حين أن يسوع يخدم في المقدس السماوي فإنه بروحه لا يزال يخدم في الكنيسة على الأرض . لقد احتجب عن العيون البشرية ولكنه قبيل انطلاقه قدم لشعبه هذا الوعد: “ها أَنا معكُم كُلَّ الأَيامِ إِلى اْنقضاءِ الدهرِ” (متى 28 : 20). فإنه إذ يمنح قوته وسلطانه للخدام الذين على الأرض فإنه بحضوره ينشط كنيسته .

“فإذ لنا رئيس كهنة عظيم .. فلنتمسك بالإقرار. لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا، بل مجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية. فلنتقدّم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه” (عبرانيين 4 : 14 — 16). [146]

الفصل السابع عشر ـــــ نيقوديموس

عاليا وكانت له مواهب ممتازة فكان عضوا مكرما في مجلس الأمة. كان قد تأثر بتعاليم يسوع كما قد تأثر آخرون غيره . ومع كونه غنيا ومتعلما ومكرما فقد اجتذبه ذلك الناصري الوضيع بكيفية غريبة . لقد تأثر تأثرا عميقا بالتعاليم التي نطق بها المخلص ، فاشتاق إلى سماع المزيد من تلك الحقائق العجيبة.

إن استخدام المسيح لسلطته في تطهير الهيكل قد أثار الحقد والضغينة في قلوب الكهنة والرؤساء حتى باتوا يخشون قوة هذا الغريب ، فلم يمكنهم أن يتسامحوا مع هذه الجرأة التي أبداها هذا الجليلي المغمور الذكر ، فأصروا على إحباط عمله .ولكن لم يكن الكل مجمعين على هذا الغرض. فقد كان هنالك جماعة خشوا أن يقاوموا ذاك الذي اتضح جليا أنه كان مسوقا بروح الله ، وذكروا كيف أن الأنبياء قد قتلوا قديما لأنهم وبخوا رؤساء إسرائيل على خطاياهم ، وعرفوا أن استعباد أمة وثنية لهم كان نتيجة لعنادهم لأنهم رفضوا توبيخات الله . فكانوا يخشون لئلا يكون أولئك الكهنة والرؤساء بتآمرهم على يسوع سائرين في نفس الطريق الذي سار فيه آباؤهم من قبل ، وأنهم بذلك سيجلبون على الأمة أهوالا وكوارث جديدة . وقد كان نيقوديموس يشارك هؤلاء الناس في شعورهم . فإذ كان مجمع السنهدريم مجتمعا ليتداولوا فيما يجب اتخاذه من إجراءات حيال يسوع نصحهم نيقوديموس أن يلزموا جانب الحيطة والاعتدال . ثم قال لهم إنه اذا كان يسوع مزودا بسلطان من الله فالخطر كل الخطر في رفض إنذاراته أو مقاومتها ، فلم يجرؤ الكهنة على الاستخفاف بهذه المشورة أو رفضها . وفي ذلك الوقت لم تتخذ أية إجراءات علنية ضد المخلص.

ومنذ أن سمع نيقوديموس كلام يسوع بدأ بكل شوق واجتهاد لدرس النبوات [147] الخاصة بمسيا ، وكلما تعمق في الدرس زاد اقتناعا بأن هذا هو الآتي. وككثيرين غيره من بني إسرائيل كان متضايقا جدا ومنزعجا وهو يرى الهيكل وقد تنجس .كان بين المشاهدين حين طرد يسوع من كانوا يشترون ويبيعون فيه . وقد رأى إعلان سلطان الله العجيب ، كما رأى المخلص وهو يقبل المساكين ويشفي المرضى ، رآهم ورأى الفرح مرتسما على وجوههم وسمعهم وهم يسبحون فلم يعد يشك في أن يسوع الناصري مرسل من قبل الله .

مقابلة سرية

كان يتوق جدا إلى الاجتماع بيسوع ولكنه كان يخشى أن يطلبه جهارا. إنه يكون أمرا في منتهى الإذلال والمهانة لرئيس ومعلم لليهود أن يعلن عن ميله وعطفه نحو ذلك المعلم الحديث العهد بالشهرة . ولو وصل خبر تلك الزيارة إلى مسامع رجال السنهدريم لصار هدفا لاحتقارهم وتشيرهم به . ولذلك عزم على الذهاب إليه سرا ، قائلا إنه لو ذهب إلى يسوع علنا فقد يتمثل به الآخرون . فإذ علم من الاستخبارات الخاصة عن مكان اعتكاف المخلص في جبل الزيتون انتظر حتى هجع أهل المدينة ثم خرج يطلبه.

وإذ مثل نيقوديموس في حضرة المسيح بدأ يحس بخجل غريب حاول أن يستره تحت مظهر الرصانة والعظمة. قال له: "يا معلّم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلًّما، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه" (يوحنا 3 : 2). كان يرجو أنه إذ يتكلم عن مواهب المسيح الفذة كمعلم ، ويتحدث عن قدرته العظيمة في إجراء المعجزات فسيكون ذلك تمهيدا حسنا لتلك المقابلة ، كما قصد بكلامه هذا أن يعبر عن ثقته بالمسيح ويظفر بثقته ، ولكن ذلك الكلام كان في الحقيقة تعبيرا عن عدم الإيمان . فهو لم يعترف بالمسيح كمسيا بل قال عنه إنه ليس سوى معلم مرسل من قبل الله.

لكن يسوع بدلا من التسليم بهده التحية ثبت نظره في المتكلم كما لو كان يقرأ عمق أفكاره. وبحكمته اللامتناهية رأى أمامه رجلا يطلب الحق . وقد عرف [148] غرضه من تلك الزيارة ، فإذ كان يرغب في تعميق الحق الرابض في عقل ذلك الزائر تقدم مباشرة إلى الغاية المقصودة فقال بكل رفق ومهابة: "الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله" (يوحنا 3 : 3).

كشف البر الذاتي

لقد أتى نيقوديموس إلى الرب ظانا أنه سيدخل معه في مساجلة ، ولكن يسوع كشف له عن أساس مبادئ الحق. قال لنيقوديموس: إنك لست بحاجة إلى المعرفة النظرية قدر حاجتك إلى التجديد الروحي . لست بحاجة إلى إشباع حب الاستطلاع بل أنت تحتاج إلى قلب جديد . ينبغي لك أن تقبل حياة جديدة من فوق قبلما تستطيع تقدير الأمور الروحية حق قدرها . فإذا لم يحدث فيك هذا التغيير الذي يصير كل شيء جديدا فإنك لن تنال خيرا ولن تخلص بكونك تتباحث معي عن سلطاني أو رسالتي.

كان نيقوديموس قد سمع كرازة يوحنا المعمدان عن التوبة والمعمودية ، وكيف أنه أرشد الناس إلى ذاك الذي يعمد بالروح القدس.وكان هو نفسه يحس بأن الشعب تعوزهم التقوى، وأنه قد تحكم فيهم التعصب والطموح الدنيوي إلى حد كبير . وكان يرجو أن تتحسن الأحوال بمجيء مسيا . ومع ذلك فإن رسالة المعمدان الفاحصة للقلوب لم تفلح في إقناعه بخطيته . لقد كان فريسيا مدققا وكان يفخر بأعماله الصالحة . كان الجميع يكرمونه بسبب أريحيته وحبه لعمل الخير والسخاء بماله لمساعدة خدمة الهيكل ، فكان يحس بأنه قد ضمن لنفسه رضى الله ، ولذلك أفزعه التفكير في ملكوت أطهر من أن يراه هو في حالته الراهنة.

إن استعارة الولادة الجديدة من فوق التي استعملها يسوع في حديثه لم تكن أمرا غير مألوف بالكلية لدى نيقوديموس. كان المهتدون من الوثنية إلى إيمان إسرائيل يشبهون أحيانا كثيرة بأطفال حديثي الولادة ، ولذلك كان على نيقوديموس أن يدرك أن كلام المسيح ينبغي ألاّ يفهم على حرفيته ، ولكنه بفضل ولادته من نسل إسرائيل كان واثقا من أن له مكانا في ملكوت الله . لم يكن يحس بحاجته إلى أي تغيير ، ولهذا أبدى دهشته من كلام المخلص ، وأهاجه كون ذلك الكلام منطبقا عليه بدقة . إن الكبرياء الفريسية كانت في صراع مع الرغبة الصادقة التي أبداها ذلك الرجل الذي كان يبحث عن الحق . ولقد اندهش من كون المسيح تكلم معه بذلك [149] الكلام دون أي اعتبار لمقامه كمن هو رئيس ومعلم في إسرائيل.

إنسان مولود ثانية

وإذ بوغت وأخرج من رباطة جأشه أجاب المسيح جوابا مفعما بالتهكم قائلا: " كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟" (يوحنا 3: 4) وهو ، ككثيرين من أمثاله عندما يطعن الحق بحده القاطع أعماق الضمير ، أعلن حقيقة كون الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله. ليس فيه شيء يتجاوب مع الأمور الروحية لأن الروحيات تُدرك روحيا.

غير أن المخلص لم يقرع حجة بحجة ، بل إذ رفع يده بعظمة مهيبة هادئة أوصل الحق إلى قلب سامعه بتأكيد أعظم إذ قال: " الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يوحنا 3 : 5). عرف نيقوديموس أن المسيح كان يشير بكلامه هذا إلى معمودية الماء وتجديد القلب بروح الله ، واقتنع بأنه في حضرة ذاك الذي كان يوحنا المعمدان قد أنبأ عنه.

ثم عاد يسوع يقول: " المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح" (يوحنا 3: 6). إن القلب شرير بطبيعته ، "من يخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد!" (أيوب 14 : 4). لا يمكن لأي اختراع بشري أن يجد علاجا للنفس الخاطئة لأن "اهتمام الجسد هو عداوة لله، إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله، لأنه أيضاً لا يستطيع" ، "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديف" (رومية 8 : 7 ؛ متى 15 : 19). ينبغي أن يتطهر ينبوع القلب قبلما تصير المجاري الخارجة منه طاهرة . إن من يحاول الدخول إلى السماء بأعماله عن طريق حفظ الناموس إنما يحاول المستحيل . إنه لا أمان لمن يتمسك بمجرد ديانة رسمية أو تقوى شكلية . إن حياة المسيحي ليست ترقيعا ولا تعديلا ولا إصلاحا لحياته القديمة ولكنها تغيير يشمل الطبيعة كلها . ينبغي أن يموت الإنسان عن الذات والخطية ويحيا حياة جديدة في كل شيء . وهذا التغيير لا يمكن أن يتم بغير عمل الروح القدس الفعال.

الريح غير المنظورة

كان نيقوديموس لا يزال غارقا في حيرته وارتباكه فاستعار يسوع الريح لتمثيل معنى [150] كلامه قائلاً: " الريح تهب حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنّك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هذا كل من ولد من الروح" (يوحنا 3 : 8).

إن الريح يسمع صوتها من خلاك أغصان الشجر وهي تحف في الأوراق وتداعب الأزهار ، ولكنها لا ترى بالعين ، ولا يعرف أحد من أين تأتي ولا إلى أين تذهب ، هكذا عمل الروح القدس في القلب إذ لا يمكن إيضاحه أكثر مما يمكن إيضاح حركات الريح. قد لا يستطيع الإنسان أن يذكر نفس اليوم أو المكان أو يتتبع كل الظروف الملازمة للتجديد أو الميلاد الثاني . ولكن هذا لا يعني أن ذلك الإنسان غير متجدد ، إذ بوسيلة غير منظورة كالريح يعمل المسيح عمله في القلب على الدوام . فهنالك انطباعات تجذب النفس إلى المسيح شيئا فشيئا وربما لا يشعر الإنسان بها ، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق التأمل في يسوع بواسطة قراءة كلمة الله أو سماع عظة من واعظ غيور . وفجأة إذ يجيء الروح بدعوة مباشرة تخضع النفس ليسوع راضية . إن كثيرين يدعون هذا تجديدا مفاجئا ، ولكنه يأتي نتيجة لدعوات روح الله وتودده إلى النفس ، وهذه عملية طويلة الأمد تتطلب الصبر.

ومع أن الريح لا ترى بالعين فإنها تحدث نتائج نراها ونحس بها. هكذا عمل الروح في النفس فهو يعلن عن نفسه في كل عمل يعمله من قد أحس بقوته المخلصة . عندما يملك روح الله على القلب يغير الحياة ، فالأفكار الشريرة تطرد بعيدا والأعمال الخاطئة يبتعد الإنسان عنها . وفي موضع الحسد والغضب والخصام تملك المحبة والوداعة والسلام ، ويحل الفرح في مكان الحزن والكآبة ، وتسطع على الوجه

أنوار السماء . ليس من أحد يرى اليد التي ترفع الأثقال ، أو يبصر النور ينزل من مواطن السماء . إن البركة تجيء عندما تسلم النفس ذاتها لله . وحينئذ فالقوة التي لا يمكن لأي عين أن تراها تخلق كائنا جديدا على صورة الله .

إنه لا يمكن للحقول المحدودة أن تدرك عمل الفداء ، فهو سر يسمو فوق كل معرفة بشرية. ومع ذلك فإن من ينتقل من الموت إلى الحياة يتحقق من أن ذلك حقيقة إلهية . من هنا يمكننا أن نعرف بداءة الفداء بالاختبار الشخصي ، ونتائجه ستتصل بدهور الأبد.

قلب مضطرب

وفيما كان يسوع يتكلم أشرقت بعض أنوار الحق على عقل ذلك الرئيس فتأثر قلبه بقوة [151] الروح القدس الملطفة المقنعة. ومع ذلك فهو لم يدرك كلام المخلص تماماً . إنه لم يتأثر بضرورة الميلاد الثاني بقدر ما تأثر بكيفية إتمامه ، فقال باندهاش: "كَيفَ يمكن أَنْ يكُونَ هذَا؟ " (يوحنا 3 : 9).

فسأله يسوع بقوله: "أَنْتَ معلِّم إِسرائِيلَ وَلَستَ تَعلَم هذَا!" (يوحنا 3 : 10). حقاً إن شخصا مسؤولا عن تعليم الشعب تعليما دينيا ينبغي ألاّ يجهل مثل تلك الحقائق الهامة . كان كلام المسيح يحمل بين ثناياه درسا هاما لنيقوديموس ، فبدلا من أن يهتاج من كلام الحق الصريح كان عليه أن يفكر في نفسه تفكيراً وضيعا جدا بسبب جهله الروحي . ومع هذا فقد كان المسيح يتكلم بجلال مهيب . وبنظراته ونغمة كلامه كان يعبر عن محبته العظيمة بحيث لم يكن نيقوديموس يحس باستياء حين تحقق من ضعة حالته الروحية.

ولكن إذ أوضح يسوع أن مهمته على الأرض هي أن يؤسس ملكوتا روحيا بدلا من الملكوت الزمني ، فهذا الكلام أزعج سامعه. وإذ رأى يسوع منه هذا أردف يقول: "إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُم الأَرْضياتِ وَلَستُم تُؤْمنُونَ ، فَكَيفَ تُؤْمنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُم السماوياتِ؟" (يوحنا 3 : 12). إذا كان نيقوديموس لم يستطع أن يقبل تعليم المسيح الذي فيه وصف عمل النعمة في القلب ، فأنَّى له أن يدرك طبيعة ملكوته السماوي المجيد؟ وإذ لم يدرك طبيعة عمل المسيح على الأرض لم يمكنه إدراك عمله في السماء.

إن اليهود الذين طردهم يسوع من الهيكل ادعوا أنهم أولاد ابراهيم ولكنهم هربوا من حضرة المخلص لأنهم لم يستطيعوا احتمال مجد الله الذي أظهر فيه. وهكذا برهنوا على أنهم غير مؤهلين بنعمة الله للاشتراك في خدمة الهيكل المقدسة . كانوا غيورين على الاحتفاظ بصورة التقوى والقداسة ، ولكنهم أغفلوا قداسة القلب . ففيما كانوا متمسكين بحرفية الناموس كانوا على الدوام يتعدون روح الناموس . إن حاجتهم العظمى كانت إلى نفس ذلك التغيير الذي كان يسوع يوضحه لنيقوديموس- ميلاد جديد للخلق وتطهير من الخطية وتجديد في المعرفة والقداسة.

عمى بني إسرائيل

لم يكن لشعب اسرائيل عذر عن عماهم وعدم معرفتهم لعمل التجديد. فلقد كتب إشعياء بوحي الروح القدس يقول: "وقد صرنا كلنا كنجس، وكثوب عدة كل أعمال برنا" ، وقد [152] صلى داود قائلاً: " قلباً نقياً اخلق فيا يا الله، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي" ، وقد جاء على لسان حزقيال هذا الوعد: " وأعطيكم

قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم. وأجعل روحي في داخلكم، وأجعلكم تسلكون في فرائضي، وتحفظون أحكامي وتعملون بها" (إشعياء 64 : 6 ؛ مزمور 51 : 10 ؛ حزقيال 36 : 26 و 27).

كان نيقوديموس قد قرأ هذه الآيات الكتابية بذهن مظلم. أما الآن فقد بدأ يدرك معناها ، ورأى أن أعظم طاعة صارمة لحرفية الناموس في انطباقه على الحياة الخارجية لا يمكنها أن تؤهل أي إنسان لدخول ملكوت السماوات . لقد كانت حياة نيقوديموس في تقدير الناس حياة بارة مكرمة ، أما في حضرة المسيح فقد كان يحس أن قلبه منجس وحياته غير مقدسة.

كان نيقوديموس يجتذب إلى المسيح. فإذ أوضح المخلص لنيقوديموس ما يختص بالميلاد الثاني تاق إلى أن يحدث هذا التغيير في داخله . ولكن بأية الوسائل يتم هذا التغير؟ لقد أجاب المسيح عن هذا السؤال الذي كان يجول في خاطر نيقوديموس ولكنه لم ينطق به فقال: "وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3 : 14، 15).

الحية المرفوعة

هنا منطقة مألوفة لدى نيقوديموس. إن رمز الحية النحاسية المرفوعة أوضح له مهمة المخلص . عندما كان بنو إسرائيل يموتون من لدغات الحيات المحرقة أمر الله موسى بأن يصنع حية من نحاس ليرفعها على سارية في وسط الشعب . حينئذ أطلق النداء في كل المحلة بأن كل من نظر من الملدوغين إلى حية النحاس يحيا . وقد عرف الشعب جيدا بأن الحية في ذاتها لا يمكنها أن تقدم لهم أية معونة . ولكنها كانت رمزا إلى المسيح . فكما أن تمثال الحية المصنوع على هيئة حية مميتة قد رفع عاليا لأجل شفاء الشعب ، هكذا ذاك الذي صار "في شبه جسد الْخَطية" صار فاديا لهم (رومية 8 : 3). إن كثيرين من بني إسرائيل اعتبروا أن خدمة الذبائح في حد ذاتها كانت فيها قوة يتحررون بها من الخطية . ولكن الله أراد أن يعلمهم أنه لا قوة فيها أكثر مما في حية النحاس ، وأن الغرض منها كان توجيه [153] العقول والقلوب إلى المخلص. فسواء بالنسبة إلى إبراء جروحهم أو غفران خطاياهم لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم شيئا إلاّ أن يظهروا إيمانهم بعطية الله . كان عليهم أن يلتفتوا ويحيوا

كان يمكن أن من قد لدغتهم الحيات يرجئون النظر إلى الحية النحاسية ، وكان يمكنهم أن يتساءلوا عن كيف يمكن لذلك الرمز النحاسي أن تكون فيه أية قوة. وكان يمكنهم أن يطلبوا تفسير ذلك علميا . ولكن لم يعطَ لهم أي تفسير . إنما كان عليهم أن يقبلوا كلمة الله التي أرسلها إليهم على يد موسى . فالذي يرفض النظر إلى حية النحاس لابد من هلاكه.

إن النفس لا تستنير بالمجادلات والمباحثات ، بل ينبغي لنا أن نلتفت ونحيا. قبل نيقوديموس الدرس وحمله معه ، ثم فتش الكتاب بطريقة جديدة لا ليجادل في نظرية بل ليقبل حياة لنفسه . وقد بدأ يرى ملكوت السماوات عندما خضع لإرشاد الروح القدس.

يوجد اليوم آلاف من الناس الذين هم بحاجة إلى تعلم نفس هذا الحق الذي قد تعلمه نيقوديموس عن الحية المرفوعة. إنهم يتكلون على طاعتهم لناموس الله لينالوا بواسطتها حظوة لديه . وعندما يؤمرون بأن يلتفتوا إلى يسوع ويؤمنوا بأنه يخلصهم بنعمته وحدها يصرخون قائلين: "كَيفَ يمكن أَنْ يكُونَ هذَا؟".

علينا أن نكون مثل نيقوديموس راغبين في الدخول إلى الحياة بنفس الطريقة التي قد دخل بها أول

الخطاة. وبدون المسيح "ليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسم آخر تحت السماء، قد أعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص" (أعمال 4 : 12). إننا بالإيمان نقبل نعمة الله ، ولكن الإيمان ليس هو مخلصنا . إنه لا استحقاق فيه . إنما هو فقط اليد التي بها نتمسك بالمسيح ونخصص لأنفسنا استحقاقاته التي هي علاج الخطية . حتى التوبة نفسها لا يمكننا أن نمارسها بدون معونة روح الله . والكتاب يقول عن المسيح: "هذَا رَفَّعه الله بِيمينه رَئِيسا وَمخَلِّصا ، لِيعطي إِسرائِيلَ التَّوبةَ وَغُفْرانَ الْخَطَايا" (أعمال 5 : 31). إن التوبة تأتينا من المسيح كالغفران سواء بسواء.

عمل الروح القدس

إذا كيف نخلص؟ "كَما رَفَع موسى الْحيةَ في الْبريةِ"، هكذا قد رفع ابن الإنسان ، وكل [154] من خدعته الحية ولدغته يمكنه أن يلتفت ويحيا. "هوذَا حملُ اللهِ الَّذي يرفَع خَطيةَ الْعالَم!" (يوحنا 1 : 29). إن النور الساطع من الصليب يكشف لنا عن محبة الله . ومحبته تجذبنا إلى شخصه . فَإذا لم نقاوم هذه القوة الجاذبة فستأتي بنا إلى الصليب بالتوبة عن خطايانا التي قد صلبت المخلص . وحينئذ يخلق روح الله في النفس حياة جديدة بواسطة الإيمان . وهكذا تخضع أفكارنا ورغائبنا لإرادة المسيح ، ويخلق القلب والعقل خليقة جديدة على صورة ذاك الذي يعمل فينا ليخضع لنفسه كل شيء . وحينئذ تكتب شريعة الله في الذهن والقلب ، ويمكننا أن نقول مع المسيح: "أَنْ أَفْعلَ مشيئَتَك يا إِلهِي سرِرْتُ" (مزمور 40 : 8).

في محادثة نيقوديموس مع يسوع كشف له المخلص تدبير الفداء ومهمته في العالم .وفي أحاديثه التي نطق بها بعد ذلك ، لم يوضح السيد بكل إسهاب ، وخطوة بعد خطوة ، العمل الذي يجب أن يتمم في قلوب كل من يريدون أن يرثوا ملكوت السماوات كما أوضحه لنيقوديموس. ففي بدء خدمته أعلن المسيح الحق لواحد من أعضاء السنهدريم ، للعقل الذي كان أكثر استعدادا لقبول الحق ، الذي كان معلما للشعب . ولكن قادة إسرائيل لم يرحبوا بالنور . لقد أخفى نيقوديموس الحق في قلبه ، إذ طوال ثلاث سنين لم تكن هنالك ثمرة ظاهرة.

ولكن يسوع كان خبيرا بالتربة التي قد بذر فيها بذار الكلمة ، فالكلام الذي سمعه شخص واحد في تلك الليلة وفي ذلك الجبل المنعزل لم يذهب ضياعا. لقد ظل نيقوديموس صامتا إلى حين دون أن يعترف بالمسيح ، ولكنه راقب حياته وتأمل في تعاليمه . وفي مجمع السنهدريم أحبط مؤامرات الكهنة التي حاكوها لإهلاك المسيح مرارا . ولما رفع المسيح أخيرا على الصليب ذكر نيقوديموس الدرس الذي كان قد تعلمه من السيد في جبل الزيتون: "كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" . إن النور الذي انبعث من ذلك اللقاء السري أنار الصليب على جلجثة فرأى نيقوديموس في يسوع فادي العالم.

بعدما صعد الرب إلى السماء وعندما تشتت التلاميذ بسبب الاضطهاد تقدم نيقوديموس الصفوف بكل شجاعة ، واستخدم ثروته في إعالة وإسعاف تلك الكنيسة الوليدة التي كان [155] اليهود يتوقعون أنها ستمحى من الوجود عند موت المسيح. فذاك الذي كان شديد الحذر وكثير الشكوك رأيناه في وقت الخطر وإذا هو ثابت كالصخرة يشدد إيمان التلاميذ ويقدم الأموال اللازمة لعمل الإنجيل ، فاحتقره واضطهده أولئك الذين كانوا قبلا يكرمونه ويوقرونه . لقد صار فقيرا في المال ، ولكن إيمانه الذي قد وُلِد في قلبه منذ أن ذهب إلى يسوع في تلك الليلة لم يتزعزع.

لقد أخبر نيقوديموس يوحنا بقصة ذلك اللقاء ، فسجل ذلك الحديث قلم يوحنا لكى يكون تعليما خالدا

ينتفع به ملايين الناس. والتعاليم المذكورة فيه هامة وجوهرية اليوم كما كانت في تلك الليلة على الجبال الظليلة عندما أتى ذلك الرئيس اليهودي ليتعلم طريق الحياة من ذلك المعلم الجليلي الوضيع. [156]

الفصل الثامن عشر ـــ " ينبغي أن يزيد"

لقد ظل تأثير المعمدان على الأمة بعض الوقت أقوى من تأثير الرؤساء والكهنة أو الحكام. فلو أعلن عن نفسه أنه مسيا وقاد الثورة ضد روما ، لكان الكهنة والشعب يفدون إليه من كل صوب وينضوون تحت لوائه ، وكان الشيطان يقف على أتم استعداد لأن يحرض المعمدان على أن يستجيب لكل اعتبار يتفق مع أطماع غزاة العالم ، ولكن مع وجود الدليل على قوة يوحنا فقد رفض بكل إباء تلك الرشوة المغرية ، وحول أنظار الناس التي كانت متجهة إليه إلى شخص أخر (المسيح).

أما الآن فها هو يرى سيل العظمة والشهرة يتحول عنه إلى المخلص. ويوما بعد يوم بدأ إقبال الجموع إليه يتناقص شيئا فشيئا . وعندما جاء يسوع من أورشليم إلى إقليم الأردن احتشد الناس حوله ليسمعوه ، وكان عدد تلاميذ المسيح يتزايد كل يوم . وقد أتى كثيرون ليعتمدوا ، ولما لم يكن يسوع نفسه يعمد فقد صرح لتلاميذه بتعميد طالبي العماد ، وهكذا ختم على مهمة سابقه بختم القبول . ولكن تلاميذ يوحنا كانوا ينظرون بعين الغيرة والحسد إلى شهرة يسوع المتزايدة ، وكانوا على أتم استعداد لانتقاد عمله ، وسرعان ما وجدوا فرصة مواتية لذلك . فقد حدثت مباحثة بينهم وبين اليهود فيما إذا كانت المعمودية تنفع في التطهير من الخطية ، وأكدوا بأن معمودية يسوع تختلف اختلافا جوهريا عن معمودية يوحنا ، وسرعان ما اشتبكوا في جدال مع تلاميذ المسيح فيما يختص بنوع الكلام الذي يقال عند المعمودية ، وأخيرا عن الحق المخول لتلاميذ يسوع بأن يعمدوا إطلاقا .

بذور الشقاق

أتى تلاميذ يوحنا إليه بظلامتهم قائلين: "يا معلّم، هوذا الذي كان معك عبر الأردن، الذي أنت قد شهدت له، هو يعمّد، والجميع يأتون إليه" (يوحنا 3 : 26) لقد [157] جرب الشيطان يوحنا بهذا الكلام ، فمع أن خدمة يوحنا كانت على وشك الانتهاء فقد كان من الممكن له أن يعطل عمل المسيح. ولو أشفق على نفسه وعبر عن حزنه أو خيبة آماله لأن شخصا آخر سيخلفه ، لكان قد بذر بذور الخصومة ، وكان بذلك يشجع الغيرة والحسد ، ويعيق تقدم الإنجيل بدرجة خطيرة.

لقد كانت في يوحنا بالطبيعة الأخطاء والضعفات التي يشترك فيها جميع بني الإنسان ، إلاّ أن لمسة المحبة الإلهية قد غيرته. وكان يعيش في جو غير ملوث بالأثرة والطموح ، وكان أرفع من أن يتلوث بعفونة الحسد ، فلم يبد أية موافقة على تبرم تلاميذه وسخطهم ، بل برهن على إدراكه التام لصلته بمسيا ، كما أبدى فرحه العظيم بالترحيب بذاك الذي قد أعد له الطريق.

فقال: "لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطي من السماء. أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت: لست أنا المسيح بل إني مرسل أمامه. من له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف

ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل ثوت العريس" (يوحنا 3 : 27 — 29).

لقد شبه يوحنا نفسه بصديق العريس الذي يمثل دور الرسول بين الخطيبين ويمهد الطريق للزفاف. فعندما يأخذ العريس عروسه تنتهي مهمة الصديق . لقد فرح بسعادة ذينك اللذين أعان هو على اتحادهما بالزواج . هكذا كان يوحنا قد دعي ليرشد الشعب إلى يسوع . فكان فرحه منحصرا في مشاهدة نجاح عمل المخلص . وقد قال: "إذا فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص" (يوحنا 3 : 29، 30).

إن يوحنا إذ نظر بإيمان إلى الفادي سما إلى درجة إنكار الذات. فلم يحاول اجتذاب الناس إلى شخصه ، بل سما بأفكارهم إلى ما هو أرفع وأرفع إلى أن استقرت على حمل الله . أما عن نفسه فلم يكن أكثر من صوت صارخ في البرية . والآن هو يقبل بفرح أن يكون صامتا مغمورا حتى تتجه كل الأنظار إلى نور الحياة.

إنكار الذات

إن من هم أمناء لدعوتهم كمرسلين لله لا يطلبون لأنفسهم المجد. فمحبة الذات تبتلعها [158] محبة المسيح ، وحينئذ ليس من منافسة تشوه رسالة الإنجيل الثمينة. إن الخدام الأمناء يعتبرون أن عملهم هو نشر الدعوة كما فعل المعمدان حين قال: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!" (يوحنا 1 : 29). إنهم إذ يرفعون يسوع ترتفع البشرية معه وفيه ، "هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الأبد، القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيي روح المتواضعين، ولأحيي قلب المنسحقين" (إشعياء 57 : 15).

إن روح النبي إذ أخليت من الذات امتلأت من النور الإلهي. وإذ شهد لمجد المخلص كان كلامه قريب الشبه بكلام المسيح نفسه الذي كان قد نطق به في مسامع نيقوديموس . لقد قال يوحنا: "الذي يأتي من فوق الجميع، والذي من الأرض هو أرضي، ومن الأرض يتكلّم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع" ، "لأن الذي أرسله الله يتكلّم بكلام الله. لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح" (يوحنا 3 : 31، 34). ولقد استكاع المسيح أن يقول: "لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني" (يوحنا 5 : 30). وقد قدم له هذا الإعلان: "أحببت البر وأبغضت الإثم. من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك" (عبرانيين 1 : 9). و "ليس بكيل يعطي الله الروح".

كذلك هي الحال مع أتباع المسيح ، فإننا نستطيع الحصول على نور السماء بقدر ما نكون راغبين في التخلص من الذات. ولا نستطيع أن ندرك صفات الله أو أن نقبل المسيح بالإيمان ما لم نرضَ أن نستأسر كل فكر إلى طاعة المسيح . فكل من يفعلون ذلك يعطى لهم الروح القدس بدون كيل . وفي المسيح "يحل كل ملء اللاهوت جسدياً. وأنتم مملوؤون فيه، الذي هو رأس كل رياسة وسلطان" (كولوسي 2 : 9، 10).

كان تلاميذ يوحنا أعلنوا أن الجميع يأتون إلى المسيح ، ولكن يوحنا ببصيرة أصفى قال: " وشهادته ليس أحد يقبلها" (يوحنا 3 : 32). هكذا نجد أن قليلين هم الذين كانوا على استعداد لقبوله كالمخلص من الخطية. ولكن "من قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق" (يوحنا 3 : 33) "الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية" (يوحنا 3 : 36). لا حاجة إلى الجدال فيما إذا كانت معمودية يوحنا أو معمودية المسيح هي التي تطهر من الخطية . إن نعمة المسيح هي التي تعطي النفس حياة ، إذ بدون المسيح تمسي المعمودية كأي خدمة أخرى عديمة القيمة: "الذي لا [159] يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله" (يوحنا 3 : 36).

إن خبر نجاح عمل المسيح الذي تلقاه المعمدان بفرح عظيم ، وصل أيضاً إلى مسامع السلطات في

أورشليم. لقد كان الكهنة ومعلمو الشعب يغارون من تأثير يوحنا عندما رأوا الناس يتركون المجامع وينطلقون إلى البرية أفواجا أفواجا ، ولكن هنا واحدا آخر كان أشد قوة لاجتذاب الجماهير ، ولم يكن معلمو إسرائيل أولئك مستعدين لأن يقولوا مع يوحنا: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص". لقد نهضوا وقد عزموا من جديد على أن يجعلوا حدا ونهاية للعمل الذي كان يبعد الناس عن أشخاصهم.

صانع السلام

عرف يسوع أنهم لن يدخروا وسعا في إحداث ثغرة وانشقاق بين تلاميذه وتلاميذ يوحنا ، كما علم أن هنالك عاصفة عنيفة تتجمع وهي مزمعة أن تكتسح في طريقها نبيا من أعظم الأنبياء الذين عاشوا في العالم. فإذ كان يرغب في تجنب كل ما يدعو إلى سوء التفاهم أو الشقاق ترك العمل هناك وانسحب بكل هدوء إلى الجليل . كذلك نحن طالما بقينا على ولائنا للحق لا بد أن نبذل كل الجهد في تجنب كل ما يؤدي إلى النزاع أو سوء التفاهم . لأنه حيثما ينشأ النزاع والمخاصمات ينتج عن ذلك هلاك النفوس . وكلما طرأ ظرف يهدد بحدوث انقسام علينا أن نتمثل بيسوع ويوحنا المعمدان.

لقد دعي يوحنا ليكون مصلحا ، ولهذا كان تلاميذه في خطر أن يثبتوا أنظارهم فيه إذ شعروا بأن نجاح العمل كان موقوفا على جهوده ، وقد غابت عن أنظارهم حقيقة كون يوحنا آلة استخدمها الله في عمله. إلاّ أن عمل يوحنا لم يكن كافيا لوضع أساس الكنيسة المسيحية . فبعد انتهائه من عمله كان لابد من البدء بعمل آخر لم تكن شهادة يوحنا كفيلة بإنجازه . ولم يكن تلاميذه يفهمون ذلك . فإذ رأوا يسوع يتقدم ليقوم بالعمل امتلأت قلوبهم غيرة وسخطا.

ولا تزال نفس تلك المخاطر باقية. فالله يدعو إنسانا للقيام بعمل ما ، وعندما يبدأ في إنجازه بقدر ما هو مؤهل لعمله يأتي الله بقوم آخرين ليتقدموا به أكثر . ولكن كثيرين كتلاميذ يوحنا ، يحسون أن نجاح العمل وتقدمه موقوف على العامل الأول . فتتجه الأنظار إلى الإنسان لا إلى الله ، وإذ تتدخل الغيرة والحسد يفسد العمل ، فيجرب الإنسان الذي [160] يكرم إكراما أكثر من اللائق لأن يثق بنفسه ويفخر بمواهبه . إنه لا يتحقق من اعتماده على الله . والشعب يتعلمون الاعتماد على إرشاد الناس فيسقطون في الخطإ ويضلون عن الله .

إن عمل الله ينبغي ألاّ يحمل طابع الإنسان وصورته ، فالله بين حين وآخر يأتي بعمال مختلفين بواسطتهم يتمم عمله بأحسن كيفية . وطوبى لمن يرضون بالاتضاع قائلين مع المعمدان: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص". [161]

الفصل التاسع عشر — عند بئر يعقوب

اجتاز يسوع في السامرة وهو في طريقه إلى الجليل ، وكان الوقت ظهرا عندما وصل إلى وادي شكيم الجميل. وعند مدخل ذلك الوادي كانت بئر يعقوب . فإذ كان قد تعب من السفر جلس على البئر في حين مضى تلاميذه ليبتاعوا طعاما.

كان ثمة عداوة مستحكمة بين اليهود والسامريين ، وكان كل فريق يتحاشى التعامل مع الفريق الآخر ما أمكن. كان معلمو إسرائيل يعتبرون المتاجرة مع السامرين في حالة الضرورة أمرا مشروعا ، ولكن المقابلات والمعاملات الاجتماعية كانت محرمة ومحظورة . فلم يكن اليهودي يرضى أن يقترض شيئا من السامري ولا أن يقبل منه رفقا أو معروفا ، حتى ولا كسرة خبز ولا كأس ماء . إن التلاميذ بذهابهم لابتياع الطعام كانوا على وفاق مع العرف الذي اصطلحت عليه أمتهم ، ولم يتجاوزوا الحدود المفروضة عليهم. ولم يكن يخطر حتى ببال تلاميذ المسيح أن يسألوا معروفا أو إحسانا من السامريين أو أن يطلبوا نفعهم بأي شكل.

فإذ جلس بجانب البئر كان منهوك القوى من الجوع والعطش. فالرحلة التي بدأوا بها منذ الصباح كانت طويلة . والآن ها هي شمس الظهيرة تضرب على رأسه . وقد زاد من شدة عطشه تفكيره في المياه الباردة المنعشة القريبة منه جدا في تلك البئر ، ومع ذلك فقد كانت بعيدة عن متناول يده لأنه لم يكن يملك حبلا ولا دلوا ، والبئر عميقة . لقد كان يقاسم البشرية نصيبها وينتظر قدوم أحد ليستقي ماء.

يسوع يقابل السامرية

وهنا أقبلت امرأة من السامرة وملأت جرتها وكأنها لا تحس بوجوده. وفيما كانت تهم [162] بالانصراف عائدة إلى بيتها طلب منها يسوع أن تعطيه ليشرب. لم يكن أهل الشرق يمتنعون عن إسداء مثل هذا المعروف ، فهم يسمون الماء "عطية الله" ، فتقديمها جرعة ماء لذلك الغريب الظامئ كان يعتبر واجبا مقدسا جدا بحيث أن الأعراب سكان البيداء كانوا يحيدون عن طريقهم ليقوموا بذلك الواجب ، غير أن الكراهية التي كانت مستحكمة بين اليهود والسامريين كفت يد تلك المرأة عن إسداء ذلك المعروف إلى يسوع ، ولكن المخلص كان يحاول أن يجد مفتاحا لهذا القلب ، وبلباقة منشؤها المحبة الإلهية طلب منها خدمة بدلا من أن يقدم لها معروفا . فلو قدم هو لها معروفا ربما كانت ترفضه ، ولكن الثقة توقظ الثقة . ها ملك السماء يجيء إلى هذه النفس المنبوذة يسألها أن تقدم له خدمة . فذاك الذي خلق المحيطات والذي يضبط مياه الغمر العظيم والذي أجرى المياه في ينابيع الأرض وأنهارها يجلس الآن ليستريح من تعبه على بئر يعقوب ، وهو بحاجة إلى معروف تقدمه له امرأة غريبة ، إلى جرعة ماء يطفئ بها عطشه.

عرفت المرأة أن يسوع رجل يهودي. ففي دهشتها نسيت أن تمنحه ما قد طلب ، وحاولت أن تعرف

سبب ذلك فسألته قائلة: "كَيفَ تَطْلب منِّي لِتشْربَ ، وَأنْتَ يهودِيٌّ وَأنا امرأةٌ سامرِيةَ؟" (يوحنا 4 : 9).

أجابها يسوع بقوله: "لَو كُنْت تَعلَمين عطيةَ اللهِ ، وَمن هو الَّذي يقُولُ لَك أَعطيني لأَشْربَ ، لَطَلبت أَنْت منْه فَأَعطَاكِ ماءً حياً (يوحنا 4 : 10). إنك تتساءلين لماذا أسألك أن تسدي إلي هذا المعروف البسيط الذي لا يزيد على كونه جرعة ماء من هذه البئر التي تحت أقدامنا . ولو طلبت أنت مني كنت أعطيك من ماء الحياة الأبدية.

لم تفهم المرأة معنى كلام المسيح ، ومع ذلك فقد كانت تحس أن له معنى هاما ، حتى أن نغمة كلامها المرحة الفكهة تغيرت . وإذ ظنت أن يسوع يتكلم عن مياه البئر التي أمامها قالت: "يا سيد ، لاَ دَلْو لَك وَالْبِئْر عميَقَةٌ . فَمن أَين لَك الْماءُ الْحي؟ أَلعلَّك أَعظَم من أَبِينا يعقُوبَ ، الَّذي أَعطَانا الْبِئْر ، وشرِبَ منْها؟" (يوحنا 4 : 11 و 12). لم تر أمامها إلاّ مسافرا ظامئا إلى الماء ورجلا مضنى معفَّرا من طول السفر . وحسب فكرها شبهته بيعقوب أبي الآباء الوقور ، كما كانت تحس إحساسا طبيعيا بأنه لا توجد بئر أخرى تعادل تلك البئر التي قد سلمها لهم الآباء . كانت تنظر إلى الوراء إلى الآباء وإلى الأمام إلى مجيء مسيا ، مع [163] أن مسيا الذي كان هو رجاء الآباء كان جالسا بجوارها ولكنها لم تعرفه. كم من نفس ظامئة هي الآن قريبة جدا من الينبوع الحي ، ومع ذلك تنظر بعيدا في طلب ينابيع الحياة! "لا تقل في قلبك: من يصعد إلى السماء؟ (أي ليحدر المسيح)، أو من يهبط إلى الهاوية؟ (أي ليصعد المسيح) .. الكلمة القريبة منك، في فمك وفي قلبك .. إن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات، خلصت" (رومية 10 : 6 — 19).

ماء الحياة

لم يجب يسوع حالا عن السؤال الخاص بنفسه ، ولكنه بغيرة مقدسة قال لها: " كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى الحياة الأبدية" (يوحنا 4 : 13 و 14). إن من يحاول أن يطفئ ظمأه من ينابيع هذا العالم سيشرب ليعطش أيضاً . والناس في كل مكان يحسون بعدم الاكتفاء . إنهم يتوقون إلى ما يسد حاجة النفس . ولا يوجد غير شخص واحد يمكن أن يسد تلك الحاجة . إن حاجة العالم "مشتهى كل الأمم" هي المسيح ، فالنعمة الإلهية التي يعطيها هو وحدة مشبهة بالماء الحي الذي يطهر النفس وينعشها وينشطها .

إن يسوع لم يكن يقصد أن يقول إن جرعة واحدة من ماء الحياة تكفي من يشربها ، لأن من يذوق محبة المسيح لا بد أن يطلب المزيد منها ، ولكنه لا يطلب شيئا آخر سواها. فغنى العالم وكراماته ومسراته لا تستهويه . إن صرخة قلبه الدائمة هي إلى المزيد من الرب يسوع . وذاك الذي يكشف للنفس حاجاتها منتظر ليشبع جوعها ويروي عطشها . إن كل الموارد البشرية وكل اعتماد عليها مآله إلى الفشل . فالأحواض ستفرغ والبرك تجف ، ولكن فادينا هو نبع لا ينضب . يمكننا أن نشرب مرارا وتكرارا ، ومع ذلك يبقى هو على ملئه . إن من يسكن المسيح في قلبه له في داخله نبع بركات: "ينْبوعَ ماءٍ ينْبع إِلى حياةٍ أبدية" (يوحنا 4 : 14). وإن هذا النبع به قوة ونعمة كافيتان لسد كل أعوازنا.

وإذ تكلم يسوع عن الماء الحي نظرت إليه المرأة بانتباه تخالطه الدهشة. لقد أثار اهتمامها وأيقظ في نفسها الشوق للحصول على تلك العطية التي قد تكلم عنها . وهنا أدركت أنه لم يكن يشير إلى مياه بئر يعقوب إذ كانت هي تأتي لتستقى منها على الدوام ، فكانت [164] بعدما تشرب تعطش مرة أخرى. فقالت

له المرأة: "يا سيد أعطني هَذا الْماءَ ، لكي لاَ أعطش وَلاَ آتي إِلى هنَا لأستَقي" (يوحنا 4 : 15).

يعرف أسرار حياتها

وهنا اقتضب يسوع الحديث واتجه به اتجاها جديدا ، فقبلما تحصل هذه النفس على تلك العطية التي كان هو مشتاقا إلى منحها إياها ، عليها أن تتحقق من خطيتها ومن مخلصها. " قال لها يسوع: اذهبي وادعي زوجك وتعالي إلى ههنا. أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج" (يوحنا 4 : 16 و 17). وهكذا انتظرت المرأة أن ينتهي كل تساؤل في تلك الناحية. ولكن المخلص عاد يقول: "حسناً قلب: ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي لك الآن ليس هو زوجك. هذا قلت بالصدق" (يوحنا 14 : 17، 18).

فارتعدت المرأة وهي تصغي إلى كلامه. إن يدا خفية كانت تقلب صفحات تاريخ حياتها. كاشفة لها ما حاولت هي أن تبقيه إلى الأبد في طي الخفاء . فمن هذا الذي استطاع أن يطلع على سر حياتها؟ خطرت لها أفكار عن الأبدية والدينونة العتيدة ، عندما يستعلن كل ما هو مكتوم ويعرف كل خفي . ففي نور الأبدية استيقظ ضميرها.

لم يمكنها إخفاء شيء ، إلاّ أنها حاولت التهرب من ذكر ذلك الموضوع الذى كانت تنفر منه. فبكل وقار قالت: "يا سيد ، أَرَى أَنَّك نَبِي" (يوحنا 3 : 19). فإذ حاولت أن تسكت التبكيت حولت مجرى الكلام إلى المجادلات الدينية . فإن كان هذا نبيا فلابد أن يكون قادرا على أن يخبرها الخبر الصحيح عن تلك الأمور التي طال الجدال والنزاع فيها.

أورشليم أو جرزيم

وبكل صبر سمح لها يسوع أن تمضي في حديثها كما تريد. وفي أثناء ذلك كان هو يراقب الفرصة التي فيها يدخل الحق إلى قلبها . قالت له: "آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه" (يوحنا 4 : 20). وقد كان جبل جرزيم على مرأى العين ، وكان الهيكل المبني عليه قد هدم ولم يبق منه غير المذبح. كان مكان العبادة ذاك موضوع نزاع بين اليهود والسامريين . إن بعض أسلاف السامريين كانوا قبلا ضمن شعب إسرائيل ، ولكن بسبب خطاياهم سمح الرب لأمة وثنية أن تنتصر [165] عليهم. ولمدى أجيال طويلة اختلطوا بالوثنيين الذين أفسدت ديانتهم تدريجيا ديانة هؤلاء .نعم إنهم كانوا يعتقدون أن أوثانهم إن هي إلاّ لتذكرهم بالله الحي سيد الكون ، ومع ذلك فإن هذا الشعب جعل يكرم تماثيلهم المنحوتة ويمجدها.

وعندما أعيد بناء هيكل أورشليم في عهد عزرا حاول السامريون أن يشاركوا اليهود في إقامته. ولكن اليهود رفضوا هذا ، ولذلك نشأت عداوة مرة بين الشعبين . وقد بنى السامريون هيكلا منافسا لهيكل اليهود على جبل جرزيم . وكانت تقام فيه العبادة طبق الطقوس الموسوية ، وإن كانوا لم يبطلوا العبادة الوثنية تماما . ولكن الكوارث لاحقتهم فخرب الأعداء هيكلهم وبدا كأنهم واقعون تحت اللعنة . ومع ذلك ظلوا محتفظين بتقاليدهم وطقوس عبادتهم ، ورفضوا الاعتراف بهيكل أورشليم على أنه بيت الله أو بأن ديانة اليهود أفضل من ديانتهم.

وجوابا عن سؤال المرأة قال يسوع: "يا امرأة، صدّقيني أنه تأتي الساعة، لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم. لأن الخلاص هو من اليهود" (يوحنا 4 : 21 و 22). كان يسوع قد أبان للمرأة أن قلبه خال من التعصب اليهودي ضد السامريين ، والآن ها هو يحاول أن يهدم تعصب هذه السامرية ضد اليهود . وإذ أشار إلى حقيقة كون عقيدة السامريين مشوبة بالعقائد الوثنية ، أعلن لها أن حقائق الفداء العظيمة قد سلِّمت لليهود وأن مسيا سيظهر من بينهم . ففي أسفارهم المقدسة كان لديهم عرض واضح لصفات الله ومبادئ حكمه . وقد اعتبر يسوع نفسه ضمن اليهود على أنهم الشعب الذي قد عرفه الله بنفسه.

لقد حاول أن يرفع تفكير هذه المرأة فوق الرسميات والطقوس والمسائل الجدلية فقال لها: " تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يوحنا 4 : 23 و 24).

أساس الديانة الحقة

هنا يعلن السيد نفس الحق الذي سبق فأعلنه لنيقوديموس عندما قال: " الله روح. والذي يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يوحنا 3 : 3). إن الناس لا يتمتعون [166] بالشركة مع السماء بالبحث عن جبل مقدس وهيكل مقدس لعبادة الله. فالديانة لا تنحصر في الطقوس والفرائض الخارجية . إنما الديانة التي تأتينا من الله هي وحدها التي ترشدنا إليه . فلكي نخدمه خدمة مرضية ينبغي لنا أن نولد من روح الله . هذا يطهر القلب ويجدد الذهن واهباً إيانا قدرة جديدة على معرفة الله ومحبته ويجعلنا نطيع كل مطاليب الله بمحض اختيارنا . هذا هو السجود الحقيقي وهو ثمرة عمل الروح القدس . فالروح هو الذي يملي علينا كل صلاة مخلصة ومثل تلك الصلاة تقبل أمام الله . فأينما وجدت نفسي تشتاق إلى الله فهناك يبدو عمل الروح جليا ولابد من أن يعلن الله نفسه لتلك النفس . والآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له ، وهو ينتظر ليقبلهم ويتخذهم له بنين وبنات.

وإذ كانت المرأة تصغي ليسوع تأثرت من كلامه. لم يسبق لها أن سمعت مثل تلك المبادئ من أفواه كهنة قومها أو من اليهود ، وإذ انكشف لها تاريخها الماضي بدأت تحس بحاجتها العظمى ، وتحققت من أن نفسها عطشى ولا تستطيع مياه بئر سوخار أن تروي ذلك العطش . ولم يسبق أن شيئا مما حدث لها في الماضي أيقظ في نفسها الشعور بحاجتها إلى شيء أعظم وأسمى . وقد أقنعها يسوع بأنه قد عرف مكنونات قلبها وأسرار حياتها ، ومع ذلك فقد كانت تحس بأنه صديقها المحب العطوف . ومع أن طهارة حضوره قد دانت خطيتها فهو لم ينطق بكلمة تشهير بل أخبرها عن نعمته التي تستطيع أن تجدد النفس، حتى بدأت تكون لنفسها اعتقادا عن شخصيته . ثم خطر لها هذا الخاطر- ألا يمكن أن يكون هذا هو مسيا الذي ظل الناس ينتظرونه طويلا؟ قالت له: "أنا أعلم أن مسيّا، الذي يقال له المسيح، يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء" (يوحنا 4 : 25 و 12).

بزوغ الإيمان

حالما سمعت المرأة ذلك الكلام نبع الإيمان في قلبها وقبلت هذا الإعلان العجيب من فم هذا المعلم

الإلهي.

لقد كانت هذه المرأة ذات استعداد ذهني لتقبل الأمور وتقديرها، وكانت على أتم استعداد لقبول أسمى إعلان لأنها كانت تحب الكتاب المقدس ، وكان الروح القدس يعد قلبها لقبول نور أعظم. كانت قد اطلعت على الوعد المذكور في العهد القديم القائل: "يقيم لَكَ الربُّ [167] إلهك نَبِيا من وَسطك من إخْوتك مثْلي. لَه تَسمعونَ" (تثنية 18 : 15) ، فتاقت إلى فهم هذه النبوة ، وبدأ النور ينبثق في ذهنها ، كما بدأ الماء الحي ، الحياة الروحية التي يمنحها المسيح لكل نفسى عطشى ، ينبع في قلبها . لقد كان روح الله يعمل في قلبها.

إن تلك الحقيقة الواضحة التي أخبر بها المسيح تلك المرأة لم يكن يمكنه أن يصرح بها أمام اليهود الأبرار في أعين أنفسهم ، حيث كان المسيح أكثر تحفظا في الحديث معهم. فما قد حرم منه اليهود ، وما أوصى المسيح تلاميذه بعد ذلك أن يحفظوه سرا أعلن لتلك السامرية ، إذ قد رأى يسوع أنها ستستخدم ما قد عرفته للإتيان بآخرين ليقاسموها تلك النعمة.

ولما عاد التلاميذ من مأموريتهم اندهشوا عندما وجدوا معلمهم يتحدث مع امرأة. لم يكن قد تناول جرعة الماء المنعشة التي طلبها ، ولم يتقدم ليتناول من الطعام الذي قد ابتاعه التلاميذ . ولما مضت المرأة طلب منه التلاميذ أن يأكل ، لكنهم رأوه صامتا كأنما كان مستغرقا في تأمل مفرح ، وكان وجهه متألقا بالنور فاختشوا أن يقطعوا شركته مع السماء ، غير أنهم كانوا يعلمون أنه متعب ومرهق ، فرأوا أن من واجبهم أن يذكروه بحاجة جسده .وإذ لاحظ يسوع اهتمامهم به ومحبتهم له قال لهم: "أنا لِي طَعامٌ لآكُلَ لَستُم تَعرِفُوَنه أَنْتُم" (يوحنا 4 : 32).

جعل التلاميذ يتساءلون من ذا الذي أتاه بطعام ، ولكنه أوضح لهم مراده بالقول: " طَعامي أَنْ أَعملَ مشيئَة الَّذي أَرْسلَني وَأُتَمم عملَه" (يوحنا 4: 34). لقد فرح المسيح لأن كلامه قد أثار ضمير السامرية . رآها تشرب من ماء الحياة من ماء الحياة فزال عنه العطش والجوع . إن اتمام المخلص لمهمته التي قد ترك السماء في سبيل إنجازها أعانه في عمله وجهاده ورفعه فوق ضعفات الجسد وحاجاته . وكونه يخدم نفسا جائعة وظمأى إلى الحق كان أحب إلى قلبه وأعظم إنعاشا لنفسه من الأكل والشرب . كان ذلك تعزية وراحة وإنعاشا له . لقد كان عمل الخير هو حياة نفسه وغذاء روحه.

إن فادينا ظامئ إلى تقديرنا له. إنه يجوع إلى عطف ومحبة أولئك الذين قد افتداهم بدمه. إنه يتوق بشوق لا يعبر عنه لأن يراهم يأتون إليه وينالون الحياة . وكما تراقب الأم ابتسامة المعرفة والإدراك من فم طفلها الصغير ، تلك الابتسامة الدالة على بدء إشراق نور الذكاء فيه ، كذلك المسيح يراقب تعبيرنا عن محبتنا الشاكرة له ، وهذا يدل على بدء الحياة [168] الروحية في النفس.

((هلموا انظروا إنساناً))

لقد امتلأ قلب تلك المرأة فرحا وهي تصغي إلى كلام المسيح ، حيث كان ذلك الإعلان العجيب قويا وغامرا. فإذ تركت جرتها عادت إلى المدينة حاملة تلك الرسالة إلى بني شعبهما . وقد عرف المسيح لماذا ذهبت . وإن تَركها لجرتها كان برهانا صريحا على تأثير كلامه فيها . لقد كان شوق قلبها الحار أن تحصل على الماء الحي ، فنسيت غرضها من الذهاب إلى البئر كما نسيت عطش المخلص الذي كانت تقصد أن ترويه . وبقلب يفيض فرحا أسرعت في طريقها لتشرك معهما غيرها في النور الذي قد حصلت عليه.

صاحت المرأة تقول لرجال المدينة: " هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح؟" (يوحنا 4 : 29). فمست رسالتها قلوبهم ، كما بدا على وجهها تعبير جديد ، وكان هنالك تغيير

شامل في مظهرها، ولذا اهتم الناس برؤية يسوع: "فخرجوا من المدينة وأتوا إليه" (يوحنا 4 : 30).

وإذ كان يسوع لا يزال جالسا على البئر ألقى نظرة على حقول الحنطة الممتدة أمامه وقد أضاء نور الشمس على تلك الحقول اليانعة. وحين وجه التفات تلاميذه إلى ذلك المنظر أراد أن يتخذ منه رمزا وأمثولة فقال: "أما تقولون: إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد؟ ها أنا أقول لكم: ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضّت للحصاد" (يوحنا 4 : 35). وفيما هو يتكلم كان ينظر جماعات الناس القادمين إلى البئر . كان باقيا أربعة أشهر حتى يأتي حصاد الحنطة ، ولكن هنا كان الحصاد معدا ليجمعه الحصادون.

ثم قال أيضاً: " والحاصد يأخذ أجرة ويجمع ثمراً للحياة الأبدية، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنه في هذا يصدق القول: إن واحداً يزرع وآخر يحصد" (يوحنا 4 : 36، 37). والمسيح هنا يشير إلى الخدمة المقدسة التي هي من حق الله على الذين يقبلون الإنجيل . عليهم أن يكونوا عاملين أحياء لأجله . إنه يطلب من كل منهم أن يخدمه . وسواء أكنا نزرع أو نحصد فإننا عاملون لأجل الله . فهذا يبذر البذار وذاك يجمع الحصاد ، والزارع والحاصد كلاهما يأخذ أجرة ، وهما يفرحان معا بجزاء تعبهما. [169]

قال يسوع لتلاميذه: " أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم" (يوحنا 4 : 38). وقد كان المخلص هنا ينظر إلى الحصاد العظيم في يوم الخمسين . وما كان للتلاميذ أن يعتبروا ذلك نتيجة مساعيهم وجهودهم الذاتية . لقد دخلوا على تعب قوم آخرين ، فمنذ أن سقط آدم سلم المسيح بذار الكلمة لعبيده المختارين ليزرعوها في قلوب الناس ، غير أن عاملا غير منظور وقوة الرب القادر على كل شيء كانت تعمل بسكون ولكن بقوة فعالة لجمع الحصاد . إن ندى نعمة الله والمطر والشمس أعطيت كلها لإنعاش بذار الحق وتغذيته . كان المسيح مزمعا أن يروي البذار بدمه . وكان امتياز تلاميذه أن يكونوا عاملين مع الله . فكانوا شركاء المسيح في عمله وشركاء قديسي الأزمنة القديمة . وإذ انسكب الروح القدس في يوم الخمسين اهتدت آلاف الناس إلى الله في يوم واحد . فكان هذا نتيجة زرع المسيح وحصاد عمله.

زرع بذار الحق

إن يسوع إذ نطق بكلامه في مسمع المرأة على البئر زرع زرعا جيدا ، وسرعان ما أقبل الحصاد ، حيث أقبل السامريون وسمعوا المسيح فآمنوا به. وإذ تجمعوا حوله على البئر جعلوا يمطرونه بأسئلتهم ثم جعلوا يصغون بكل شوق إلى إجابته على أشياء كثيرة خفيت عليهم . وبينما كانوا يصغون إليه بدأ ارتباكهم يزايلهم وينقشع سريعا ، كانوا يش ب هون قوما في ظلمة داجية يتتبعون شعاعة نور فاجأتهم إلى أن وجدوا نور النهار . ولكن نفوسهم لم تشبع من هذا الحديث القصير . لقد كانوا يتوقون إلى سماع الكثير ، وأن تتاح الفرصة لأصدقائهم لسماع أقوال هذا المعلم العجيب ، فدعوه إلى مدينتهم وطلبوا منه أن يمكث عندهم فمكث في السامرة يومين ، فآمن به كثيرون.

كان الفريسيون يحتقرون بساطة يسوع ، كما تجاهلوا معجزاته وطلبوا منه آية تبرهن على أنه ابن الله ، أما السامريون فلم يسألوه آية ، ولم يصنع بينهم معجزات ، إلاّ في كونه كشف للمرأة التي كانت معه على البئر أسرار حياتها. ومع ذلك فقد قبله كثيرون ، وقالوا لتلك المرأة بملء الفرح: "إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح المخلّص العالم" (يوحنا 4 : 42). [170]

كان السامريون يؤمنون أن مسيا سيأتي فاديا ، ليس لليهود وحدهم بل لكل العالم. لقد سبق الروح القدس فأنبأ على لسان موسى أنه سيأتي نبي مرسل من قبل الله . كذلك أعلن على لسان يعقوب أن له سيكون خضوع شعوب ، وعن طريق إبراهيم أنه فيه (يسوع) تتبارك جميع قبائل الأرض . فعلى هذه المستندات الكتابية المقدسة بنى أهل السامرة إيمانهم بمسيا . وإن حقيقة كون اليهود قد حرفوا نبوات الأنبياء المتأخرين إذ نسبوا إلى مجيء المسيح الأول مجد مجيئه الثاني جعل السامريين ينبذون كل الأسفار المقدسة فيما عدا أسفار موسى الخمسة . ولكن حيث أن المخلص نبذ ودحض كل هذه التفسيرات الكاذبة فقد قبل كثيرون من أهل السامرة نبوات الأنبياء المتأخرين وكلام المسيح نفسه الخاص بملكوت الله.

إزالة التعصب

لقد بدأ يسوع يهدم حائط السياج الكائن بين اليهود والأمم ويكرز بالخلاص لكل العالم .ومع كونه يهوديا فقد اختلط بالسامريين بكل حرية معتبرا عادات أمته الفريسية كلا شيء .وفي وجه تعصبات اليهود قبل كرم الضيافة من هذا الشعب المحتقر المرذول. لقد نام في منازلهم وأكل معهم على موائدهم ، فتناول من الطعام الذي قد أعدوه وقدموه له بأيديهم ، وعلم في شوارعهم وعاملهم بمنتهى الرفق واللطف.

في هيكل أورشليم أقيم جدار منخفض ليفصل بين الدار الخارجية وكل الأقسام الأخرى في ذلك المبنى المقدس ، وعلى هذا الجدار كتبت كتابة بلغات مختلفة تحرم على من لم يكن يهوديا تجاوز هذا الحد. فلو تجرأ إنسان أممي ودخل الحجرات الداخلية لكان ينجس الهيكل وكان يقضى عليه بالموت جزاء هذه الجرأة . ولكن يسوع مبدع الهيكل وخدماته جذب إليه أولئك الأمم بربط العطف البشري ، بينما نعمته الإلهية أتت إليهم بالخلاص الذي رفضه اليهود.

كان قصد يسوع من بقائه في السامرة أن يكون بركة لتلاميذه الذين كانوا لا يزالون خاضعين لتأثير التعصب اليهودي. لقد أحسوا بأن ولاءهم لأمتهم يقتضيهم أن يضمروا العداء للسامريين . ولقد أدهشهم تصرف يسوع ، ولم يسعهم رفض التمثل به . وفي أثناء اليومين اللذين قضاهما في السامرة كان ولاؤهم له من أهم العوامل التي حدت من تعصبهم [171] ضد أولئك الناس ، ومع ذلك فقد كان يربض في قلوبهم الجفاء ضد السامريين. كانوا متباطئين في فهم حقيقة كون احتقارهم للسامريين وبغضهم لهم ينبغي أن يفسحا المجال للشفقة والعطف ، ولكن بعد صعود الرب عادوا فذكروا تلك التعاليم التي كانوا قد تعلموها منه إنما بمعنى جديد . وبعد انسكاب الروح القدس ذكروا نظرات المخلص وأقواله واحترامه ورقته ولطفه في تصرفه مع أولئك الغرباء المحتقرين . وحينما ذهب بطرس ليكرز في السامرة باشر عمله بنفس روح المسيح . وعندما دعي يوحنا للذهاب إلى أفسس وسميرنا ذكر الاختبار الذي جاز فيه في شكيم فامتلأ قلبه شكرا للمعلم الإلهي الذي إذ سبق فرأى الصعوبات التي ستواجههم أعانهم بمثاله.

إن المخلص لا يزال يقوم بنفس عمله كما فعل عندما قدم ماء الحياة لتلك المرأة السامرية. وأولئك الذين يقولون إنهم أتباعه قد يحتقرون الناس المنبوذين ويعرضون عنهم. ولكن لا ظروف الميلاد أو الجنسية ولا أية حالة من حالات الحياة يمكن أن تقلل من محبة الفادي نحو بنى الإنسان . فهو يقول لكل نفس مهما كانت خاطئة: لو طلبت مني لأعطيتك ماء حيا.

رسالة الحق للجميع

ينبغى ألاّ نضيق دائرة دعوة الإنجيل فنقدمها إلى جماعة قليلة مختارة ممن نظن أنهم يشرفوننا لو قبلوها. بل يجب أن نقدم الرسالة إلى الجميع ، فأينما تنفتح القلوب لقبول الحق فالمسيح يكون على أتم استعداد لأن يعلمها . إنه يعلن لهم الآب ، والعبادة المقبولة لدى ذاك الذي يعرف خفايا القلوب . مثل هؤلاء لا يكلمهم بأمثال بل يقول لهم ما قاله السامرية: "أَنا الَّذِي أُكَلِّمك هو".

إن يسوع عندما جلس ليستريح على بئر يعقوب كان قادما من اليهودية حيث لم تسفر خدمته إلاّ عن ثمار قليلة. لقد رفضه كهنة اليهود ومعلموهم ، وحتى الشعب الذين اعترفوا بأنهم تلاميذه عجزوا عن إدراك صفته الإلهية . لقد كان مضنى ومتعبا ، ومع ذلك فهو لم يهمل فرصة التحدث مع امرأة واحدة مع أنها كانت غريبة وأجنبية عن إسرائيل وعائشة في خطية كانت ترتكبها جهارا.

إن السيد لم ينتظر حتى تجتمع جماهير غفيرة. ففي أحيان كثيرة كان يبدأ في إلقاء [172] تعاليمه على جماعة قليلة ملتفين حوله ، ولكن العابرين كانوا يقفون ليسمعوه واحدا فواحدا حتى يسمع جمع غفر كلمة الله بدهشة ورهبة من فم ذلك المعلم المرسل من السماء. إن من يخدم المسيح ينبغى ألاّ يحس بأنه لا يستطيع أن يكلم جماعة صغيرة بنفس الغيرة والحماسة اللتين بهما يكلم جمعا غفيرا . ربما يكون فرد واحد هو الذي يسمع الرسالة ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقرر مدى تأثير تلك الرسالة . لقد بدا حتى للتلاميذ أمرا تافها أن يقضي المخلص وقته في التحدث مع المرأة السامرية . ولكنه جعل يحاجها بكل حكمة وغيرة وبلاغة أكثر مما يعمل مع الملوك والحكام أو رؤساء الكهنة . إن التعاليم التي علمها لتلك المرأة وصلت إلى أقصى حدود الأرض.

إن السامرية حالما وجدت المخلص أتت إليه بأناس آخرين. ولقد برهنت على أنها مرسلة أقوى من التلاميذ أنفسهم . إن التلاميذ لم يجدوا في السامرة ما يدل على أنها حقل مشجع . كانت أفكارهم منحصرة في عمل عظيم يتمم مستقبلا ، ولم يكونوا يدرون أن حولهم وبالقرب منهم حصادا ينتظر من يجمعه . ولكن بواسطة المرأة التي ازدروها أتى كل شعب المدينة ليسمعوا كلام المخلص ، وسرعان ما حملت النور إلى مواطنيها.

هذه المرأة تمثل عمل الإيمان العملي بالمسيح. إن كل تلميذ حقيقي يولد في ملكوت الله هو مرسل . والذي يشرب من الماء الحي يصير فيه ينبوع حياة ، فالذي يأخذ سيبذل ويعطي ، ونعمة المسيح في النفس تشبه نبع ماء في الصحراء يتفجر منه الماء لينعش الجميع ، ويجعل أولئك المشرفين على الهلاك راغبين في أن يشربوا من ماء الحياة. [173]

الفصل العشرون— "إن لم تروا آيات وعجائب"

لقد أذاع الجليليون القادمون من عيد الفصح أنباء العجائب التي أجراها يسوع. وإن الحكم الجائر الذي حكم به الرؤساء في أورشليم على أعماله فتح أمامه الطريق إلى الجليل. حزن كثيرون من الشعب بسبب مارأوه من انتهاك قداسة الهيكل وجشع الكهنة وغطرستهم وقد كانوا يؤملون أن هذا الرجل الذي استطاع أن يطرد الرؤساء سيكون هو المخلص الذي انتظروه طويلا ، كما جاءتهم أنباء بدا كأنها تثبت أعز انتظاراتهم المشرقة ، فلقد ذاع خبر مفاده أن هذا النبي أعلن عن نفسه أنه مسيا.

لكن شعب الناصرة لم يكن يؤمن به ، ولهذا السبب لم يذهب يسوع إلى هناك في طريقه إلى قانا. فلقد أعلن المخلص لتلاميذه قائلا إنه ليس لنبي كرامة في وطنه . إن الناس يقدرون الخلق بموجب ما يستطيعون هم أنفسهم أن يقدروه . فالناس المتزمتون والذين يفكرون تفكرا ماديا حكموا على المسيح بالنظر إلى ميلاده ولباسه المتواضعين وكده اليومي ، ولكنهم لم يقدروا طهارة روحه التي لم تلوثها الخطية.

وسرعان ما انتشر نبأ عودة المسيح إلى قانا في كل الجليل وبذلك امتلأت قلوب المرضى والمتضايقين بالآمال المشرقة. وفي كفرناحوم استرعت تلك الأنباء انتباه أحد نبلاء اليهود وكان خادما للملك . كان ابن ذلك الشريف مصابا بمرض بدا أنه لا شفاء منه . وقد يئس منه الأطباء وقالوا إنه مائت لا محالة .ولكن لما سمع ذلك الأب عن يسوع عول على الذهاب إليه طالبا معونته . كان الصبي في حالة انهيار جسمي شديد ، حتى كان يخشى من أنه سيموت قبل عودة أبيه ، ومع ذلك فقد أحس ذلك النبيل أنه ولابد من ذهابه بنفسه إلى يسوع ، وكان يرجو أن توسلاته ستوقظ عطف ذلك الطبيب العظيم. [174]

التماس أحد النبلاء

وحين وصل إلى قانا وجد جمعا من الناس ملتفين حول يسوع ، فبقلب جزع شق لنفسه طريقا حتى وقف في حضرة المخلص ، فضعف إيمانه وترنح عندما وجد أمامه رجلا بسيط الملبس قد علاه التراب من طول السفر ، وشك في أن هذا الإنسان يستطيع أن يفعل ما قد جاء هو يطلبه ، ومع ذلك ظفر بلقاء خاص مع يسوع فأخبره عن غايته من المجيء وتوسل إلى المخلص في أن يصحبه إلى بيته. ولكن يسوع كان قد عرف سبب حزن ذلك الرجل ، فقبلما غادر ذلك الأب بيته رأى المخلص ضيقته.

وعرف أيضاً أن ذلك الأب قد قرر في نفسه شروطا خاصة لإيمانه بالمسيح. فإذا لم يجبه إلى طلبه فلن يؤمن بأنه هو مسيا . وإذ كان ذلك الضابط ينتظر الجواب وهو معذب النفس قال يسوع: "لاَ تُؤْمِنُونَ إِنْ لَمْ تَرَوْا آيَاتٍ وَعَجَائِبَ" (يوحنا 4 : 48).

ومع كل البراهين على أن يسوع هو المسيح كان ذلك الأب قد عزم على أن يجعل إيمانه به موقوفا

على إجابته إلى طلبه ، فقارن المخلص بين عدم الإيمان والتشكك هذا وإيمان السامريين البسيط الذين لم يسألوه آية ولا معجزة. إن كلمته التي هي البرهان الدائم على ألوهيته كانت مصحوبة بقوة إقناع عظيمة وصلت إلى قلوبهم . تألم المسيح لأن أمته التي كانت قد اؤتمنت على أقواله الإلهية المقدسة قد اخفقت في سماع صوت الله يكلمهم على لسان ابنه.

بواعث أنانية

ومع ذلك فقد كان عند ذلك النبيل قليل من الإيمان لأنه قد أتى ليسأل ما كان يعتقد أنه أثمن البركات ، بينما كان لدى يسوع هبة أعظم ليمنحه إياها. كان يتوق ليس ليشفي الابن المريض فحسب بل أن يجعل أيضاً ذلك الضابط وكل بيته شركاء في بركات الخلاص ، وليشمل نورا في كفرناحوم التي عما قليل ستكون حقل خدمته . ولكن يجب على ذلك النبيل أن يدرك حاجته قبلما يطلب من المسيح النعمة . كان نديم الملك هذا مثالا لكثيرين من بني أمته ، فلقد كانوا مهتمين بيسوع لأجل بواعث أنانية . كانوا يرجون الحصول على [175] منافع خاصة بواسطة قوته. وقد جعلوا إيمانهم متوقفا على منحه إياهم ذلك الإحسان الزمني ، ولكنهم كانوا يجهلون مرضهم الروحي ، ولم يدركوا حاجتهم إلى النعمة الإلهية.

وكنور خاطف كشفت تلك الكلمات قلب ذلك النبيل له ، فلقد رأى أن الدوافع التي أتت به إلى يسوع كانت دوافع أنانية وقد بدا إيمانه المترنح على حقيقته. وفي ضيقه العميق تحقق من أن شكوكه قد تكلفه موت ابنه ، وعرف أنه في حضرة ذاك الذي يعرف ما يخطر ببال الناس والذي كل شيء مستطاع لديه . وفي توسل مؤثر محزن صرخ قائلا: "يا سيد ، انْزِلْ قَبْلَ أَنْ يموتَ ابني" (يوحنا 4 : 49). وكيعقوب تمسك بالمسيح بالإيمان ، إذ فيما كان يعقوب يصارع الملاك صرخ قائلا: "لاَ أُطْلِقُكَ إِن لَمتُبارِكْني" (تكوين 32 : 26).

وقد غلب كما غلب يعقوب من قبل. إن المخلص لا يمكنه أن يترك النفس التي تتعلق به متوسلة إليه أن يمنحها حاجتها العظمى ، "قَالَ لَه يسوعُ: اذْهب . اِبنُك حي" (يوحنا 4 : 50). فانطلق ذلك النبيل من حضرة المخلص وقد امتلأ قلبه بسلام وفرح عظيمين لم يكن له بهما عهد من قبل . ولم يؤمن فقط بأن ابنه سيشفى بل بثقة عظيمة آمن بأن المسيح هو الفادي.

وفي نفس الساعة رأى أقارب الصبي المحتضر الملتفون حول سريره تغييرا سريا مفاجئا طرأ عليه بعدما كان في حالة الاحتضار. فلقد اختفى شبح الموت بعيدا عن ذلك الابن المريض . وبدلا من وقدة الحمى حلت الصحة والراحة ، والعينان المنطفئتان أشرقتا بنور الذكاء وعادت القوة إلى ذلك الجسم المضنى . ولم يبق في جسم المريض أي أثر من آثار المرض . وذلك الجسم الذي كان ملتهبا بالحمى تندى بالعرق فنام الابن نوما هادئا . وقد زايلته الحمى في أشد ساعات النهار حرارة . وقد ذهلت العائلة وفرح الجميع فرحا عظيما.

إيمان نال مكافأة

ولم تكن قانا تبعد عن كفرناحوم كثيرا وكان يمكن أن يصل ذلك الضابط إلى بيته في مساء اليوم الذي فيه تقابل مع يسوع ، إلاّ أنه لم يسرع في عودته إلى البيت فلم يصل إلى [176] كفرناحوم إلا في غد اليوم

التالي. وكم كان قلبه مبتهجا وهو عائد إلى بيته! إنه عندما خرج من بيته يطلب يسوع كان قلبه مثقلا بالحزن فكان نور النهار مؤلما لنفسه وغناء الطيور كان سخرية بأحزانه . ولكن ما أعظم التبدل الذي حدث له الآن . إنه يرى الطبيعة كلها وقد اكتست ثوبا بهيا جميلا ، وها هو يرى بعينين جديدتين . وفيما كان مسافرا في ساعة الصباح الباكرة بدا كأن الطبيعة كلها تشاركه في تسبيح الله . وإذ كان لم يزل بعيدا عن بيته خرج عبيده لملاقاته لكي يسروا عنه الجزع الذي كانوا يعلمون أنه يضايقه . لم تدهشه الأخبار التي سمعها منهم . ولكن باهتمام عميق لم يعرفوا سره استخبرهم عن الساعة التي أخذ فيها ابنه يتعافى . فأجابوه قائلين: "أَمسِ في الساعة السابِعة تَركَتْه الْحمى" (يوحنا 4 : 52). ففي نفس اللحظة التي فيها تمسك الأب بقول المسيح "اِبنُك حي" لمست محبة الله ذلك الابن المحتضر بلمستها الشافية.

وقد أسرع الأب ليسلم على ابنه ، وإذ وصل إلى البيت احتضن ابنه كمن قد أقيم من الأموات ، وشكر الله مرارا وتكرارا على هذا الافتقاد الرباني الرحيم.

اشتاق ذلك النبيل إلى أن يعرف الشيء الكثير عن المسيح. فلما سمع تعاليمه بعد ذلك صار هو وكل بيته تلاميذ للسيد . لقد قدس الله التجربة فصارت واسطة في اهتداء أسرة كاملة . ثم انتشرت أنباء تلك المعجزة ، وفي كفرناحوم التي أجرى فيها المسيح قوات عديدة كان الطريق معدا لخدمته .

إن ذاك الذي بارك النبيل القادم من كفرناحوم له نفس الشوق لأن يباركنا ، ولكننا كذلك الأب المتألم كثيرا ما نطلب يسوع طمعا في الحصول على خير زمنى. فإذا منحنا طلبنا وثقنا بمحبته ، غير أن المخلص يتوق إلى أن يمنحنا بركة أعظم مما نطلب ، وهو يؤخر إجابة طلبنا إلى أن يرينا شر قلوبنا وحاجتنا العظمى إلى نعمته ، كما أنه يرغب في تحريرنا من الأنانية التي تسوقنا إلى أن نطلبه . وإذ نعترف بعجزنا وحاجتنا المرة علينا أن نسلم أنفسنا بالتمام لمحبته.

كان ذلك النبيل يرغب في رؤية إجابة صلاته قبلما يؤمن. ولكن كان عليه أن يقبل قول المسيح بأن طلبه قد أجيب وأنه قد منحه البركة . وعلينا نحن أيضاً أن نتعلم هدا الدرس عينه ، علينا أن نؤمن لا لأننا نحس أو نرى بل علينا أن نثق بمواعيده . ومتى أتينا [177]

إليه بإيمان ، فكل طلبة تصل إلى قلب الله. ومتى طلبنا منه بركة علينا أن نؤمن بأننا قد نلناها ونشكره لأنه منحنا إياها . وحينئذ نذهب لمزاولة أعمالنا ، موقنين أن البركة ستتحقق لنا عندما نكون في أشد الحاجة إليها . ومتى تعلمنا أن نفعل هذا فسنعرف أن صلواتنا قد أجيبت . والله سيفعل لنا "أَكْثَر جِدا" ، "بِحسبِ غنَى مجدِهِ" و "عظَمةُ قُدرَته" (أفسس 3 : 20، 16 ؛ 1 : 19). [178]

الفصل الحادي والعشرون—بيت حسدا والسنهدريم

"وفي أورشليم عند باب الضأن بركة يقال لها بالعبرية بيت حسدا لها خمسة أروقة. في هذه كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم، يتوقعون تحريك الماء" (يوحنا 5 : 2 و 3).

كانت مياه هذه البركة تتحرك أحيانا ، وقد ساد الاعتقاد آنئذ أن هذا يحدث نتيجة تدخل قوة فائقة الطبيعة ، وأن من ينزل أولا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه ، فزار ذلك المكان مئات من المرضى. ولكن عند تحريك الماء كان جمهور كبير من المرضى يندفعون إلى البركة ، وفي شدة اندفاعهم كانوا يدوسون تحت أقدامهم الرجال والنساء والأطفال الذين هم أضعف منهم ، كما كان كثيرون عاجزين عن الوصول إلى البركة . وكثيرون ممن نجحوا في الوصول إليها ماتوا على حافتها . وقد أقيمت بعض الأروقة حول البركة ليحتمي فيها المرضى من حر النهار وبرد الليل . وكان بعض الناس يقضون الليل يزحفون من تلك الأروقة إلى حافة البركة يوما بعد يوم مؤملين عبثا في الشفاء.

لقد ذهب يسوع إلى أورشليم مرة أخرى ، وإذ كان يتمشى وحده كأنما كان يتأمل ويصلي أتى إلى البركة ، فرأى أولئك المرضى المساكين وهم يتوقعون تحريك الماء الذي بدا كأنه أملهم الوحيد في الشفاء. وكان يتوق إلى استخدام قوته الشافية لشفاء كل المرضى. ولكن ذلك اليوم كان يوم سبت ، وكان كثيرون في طريقهم إلى الهيكل لأجل الصلاة ، وكان يسوع يعرف أن إجراء قوة الشفاء في ذلك اليوم سيثير تعصب اليهود حتى أنهم سيوقفونه عن العمل. [179]

"أتريد أن تبرأ"

لكن المخلص رأى إنسانا في أشد حالات التعاسة. كان ذلك الرجل كسيحا عاجزا منذ ثمان وثلاثين سنة ، وكان مرضه ، إلى حد كبير ، نتيجة خطاياه ، وكان معتبرا قصاصا له من الله عليه . وإذ كان ذلك المريض وحيدا بلا صديق ، وإذ كان يحس بأنه قد حرم من رحمة الله فقد مضى عليه ردح من الزمن وهو في حال الشقاء . وفي الوقت الذي كان الناس ينتظرون فيه تحريك الماء فأولئك الذين كانوا يشفقون على عجز هذا الرجل كانوا يحملونه إلى الأروقة . ولكن في اللحظة الموافقة لم يجد من يساعده . لقد رأى تحريك الماء ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى أبعد من حافة البركة . وكثيرون ممن كانوا أقوى منه كانوا ينزلون في الماء قبله . لم يكن يستطيع الانتصار على أولئك الناس المحبين لذواتهم الذين كانوا يتدافعون بالمناكب للنزول إلى البركة . إن جهوده الدائمة للوصول إلى ذلك الغرض الواحد وجزعه وإخفاقه المستمر ، كل هذه تضافرت على إفناء فلول ما تبقى من قوته.

كان ذلك المريض مضطجعا على فراشه ، ومِن حِين لآخر كان يرفع رأسه ليرى البركة ، وإذا بوجه رقيق عطوف ينحني نحوه ويسأله قائلا: "أَتُرِيد أَنْ تَبرأ؟ " (يوحنا 5: 6)، فيسترعى هذا السؤال انتباهه .

لقد قرع الرجاء باب قلبه ، فأحس الرجل أنه سيحصل على العون بطريقة ما . ولكن سرعان ما فارقته بارقة الرجاء . لقد ذكر المرات العديدة التي حاول فيها الوصول إلى البركة . والآن لم يعد يؤمل في أنه سيعيش حتى يتحرك ماؤها مرة أخرى . فحول وجهه في إعياء قائلا: "ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء. بل بينما أنا آت، ينزل قدّامي آخر" (يوحنا 5 : 7).

قوة الإيمان

لم يطلب يسوع من هذا المريض أن يؤمن به ، وإنما قال له: "قُم . احملْ سرِيركَ وَامشِ" (يوحنا 5 : 8). غير أن إيمان هذا الرجل يتمسك بتلك الكلمة وهكذا تنتعش كل أعَصابه وعضلاته وتدب فيها حياة جديد وتملأ الصحة أطرافه الكسيحة . وبدون سؤال يجعل الرجل إرادته تطيع أمر المسيح فتستجيب كل عضلاته لتلك الإرادة . وإذ يقفز على قدميه بحس بالنشاط في كل جسمه. [180]

لم يكن يسوع قد أعطاه تأكيدا بالمعونة الإلهية ، وكان يمكن للرجل أن يتلكأ فتساوره الشكوك ، ويضيع بذلك فرصته الوحيدة لنيل الشفاء. ولكنه آمن بكلمة المسيح ، وإذ أطاعها نال القوة .

بنفس هذا الإيمان يمكننا أن ننال الشفاء الروحي. إننا بسبب الخطية قد انفصلنا عن حياة الله فأصاب الشلل الروحي نفوسنا . ومن ذواتنا لسنا أقدر على أن نحيا حياة القداسة مما كان ذلك الرجل المريض العاجز قادرا على المشي على قدميه . إن كثيرين هم متحققون من عجزهم ويتوقون للحصول على تلك الحياة الروحية التي تجعلهم في حالة انسجام مع الله . وعبثا يحاولون بلوغ هذا المأرب ، وفي يأسهم يصرخون: "وَيحي أنا الإِنسانُ الشَّقي! من يُنقذُني من جسد هَذا الْموتِ؟" (رومية 7 : 24). فلينظر مثل هؤلاء الناس الذين يكافحون كفاحا مستميتا إلى فوق . إن المخلص ينحني نحو أولئك الذين قد اقتناهم بدمه قائلا لكل منهم برقة وعطف لا يعبر عنهما. "أَتُريد أَنْ تَبرأَ؟" فالمخلص يأمرك أن تنهض بصحة وسلام . فلا تنتظر حتى تحس بأنك قد شفيت . فإذا آمنت بكلمته ستنال الشفاء . اجعل إرادتك إلى جانب المسيح وأرد أن تخدمه . وإذ تطيع كلمته ستنال القوة . مهما كانت أعمالك شريرة ، ومهما كانت الشهوات المتحكمة فيك والتي بسبب انغماسك فيها قد كبلت جسدك وروحك بقيودها ، فالمسيح يقدر ويريد أن يحررك . فهو يمنح الحياة للنفس المائتة "بِالذُّنُوبِ وَالْخطايا" (أفسس 2 : 1). فهو يحرر الأسير الممسك بقيود ضعفه وسوء طالعه وخطاياه.

إفساد الشريعة

لقد انحنى ذاك الذي كان مريضا ليأخذ سريره الذي لم يكن أكثر من سجادة صغيرة وبطانية. وإذ انتصب مرة أخرى والفرح يغمر قلبه جعل يتطلع هنا وهناك بحثا عن منقذه وشافيه ، ولكن يسوع كان قد اختفى في وسط الجموع . وكان الرجل يخشى من أنه لن يعرفه لو رآه مرة أخرى . وإذ كان يسرع في طريقه بخطوات ثابتة ولا أثر فيه للمرض وهو يسبح الله فرحا بالقوة التي عادت إليه من جديد قابل كثيرين من الفريسيين وللوقت أخبرهم عن الشفاء الذي قد حصل عليه ، فأدهشه الفتور الذي به قابلوا خبر شفائه.

وبكل عبوسة قاطعوه وهو يتكلم وسألوه لماذا حمل سريره في يوم السبت ، وبكل عنف [181] ذكَّروه بأنه ، لا يحل له أن يحمل حملا في يوم الرب. لكن ذلك الرجل كان قد نسي أن ذلك اليوم هو يوم السبت

لشدة فرحه بالشفاء . ومع ذلك فإن ضميره لم يبكته لكونه قد أطاع أمر ذاك الذي كان مزودا بهذه القوة من الله . فأجابهم قائلا بكل شجاعة: "إِنَّ الَّذِي أَبرأني هو قَالَ لِي: احمِلْ سرِيرَكَ وَامشِ" (يوحنا 5 : 11). فسألوه قائلين من هو الذي فعل هذا . فلم يستطع أن يجيبهم عن ذلك السؤال . إن أولئك الرؤساء كانوا يعرفون جيدا أنه يوجد واحد فقط برهن على قوته على إجراء مثل هذه المعجزة ، ولكنهم كانوا يطلبون برهانا صريحا على أنه يسوع حتى يمكنهم أن يحكموا عليه بأنه قد نقض السبت . فهو ،

في رأيهم ، لم يخالف الشريعة بشفاء الرجل في يوم السبت فحسب ، بل قد انتهك حرمة الأقداس بكونه أمره بأن يحمل سريره.

لقد أفسد اليهود الشريعة بحيث جعلوها نير عبودية. إن أوامرهم ونواهيهم التي كانت بلا معنى جعلتهم مضغة في أفواه الأمم الأخرى ، وعلى الخصوص بما يتعلق بالسبت الذي كان محاطا بسياج من الأوامر المشددة التي لا معنى لها . لم يكن بالنسبة لهم لذة ولا مقدس الرب ولا مكرما . بل لقد جعل الكتبة والفريسيون حفظه عبئا لا يحتمل . فلم يكن يسمح لليهودي أن يشعل نارا أو حتى يضيء شمعة في يوم السبت . وقد نتج عن ذلك أن احتاج الشعب إلى مساعدة الأمم في القيام بكثير من الخدمات التي قد حرمت القوانين عليهم هم القيام بها لأنفسهم . ولم يفكروا في أنه إذا كانت هذه الأعمال خاطئة فإن من يستخدمون غيرهم في القيام بها هم مذنبون كما لو كانوا قد عملوها بأنفسهم ، وظنوا أن الخلاص محصور في اليهود . وإن حالة الأمم الأخرى التي كانت حالة ميئوسا منها لم يكن يمكن أن تكون أردأ مما هي عليه . ولكن الله لم يضع وصايا لكي يحفظها أناس دون غيرهم ، وشرائعه لا تصادق على القيود الأنانية غير المعقولة.

أمام السنهدريم

وفي الهيكل قابل يسوع الرجل الذي كان قد شفاه. لقد أتى لكي يقدم ذبيحة خطية وتقدمة شكر على الرحمة العظيمة التي قد حصل عليها . وإذ وجده يسوع بين العابدين عرفه بنفسه إذ قدم له هذا الإنذار قائلا: "ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضاً، لئلا يكون لك أشر" (يوحنا 5 : 14). [182]

فرح الرجل الذي شفي فرحا عظيما عند مقابلته لمحرره وشافيه. وحيث أنه كان يجهل أن الفريسيين يضمرون العداوة ليسوع أخبرهم أن يسوع هو الذي شفاه "ولهذا كان اليهود يطردون يسوع، ويطلبون أن يقتلوه، لأنه عمل هذا في سبت" (يوحنا 5 : 16).

وقد جيء بيسوع أمام السنهدريم لاستجوابه في تهمة كسره ليوم السبت. لو كان اليهود أمة مستقلة في ذلك الحين لكانت تلك التهمة كافية لأن تخدم غرضهم في قتل المسيح . ولكن استعبادهم للرومان حال دون ذلك . فلم يكن لليهود السلطان لإيقاع عقوبة الإعدام .والتهم الموجهة إلى يسوع لم يمكن لها أي اعتبار في نظر القضاء الروماني . ومع ذلك فقد كانوا يرجون الوصول إلى أغراض أخرى . فبالرغم من محاولة أولئك الرؤساء عرقلة المسيح وتعطيل عمله فإن نفوذه على الشعب حتى في أورشليم نفسها كان أعظم من نفوذهم . وجماهير الشعب الذين لم تكن تعجبهم خطب المعلمين اجتذبتهم تعاليم يسوع . لقد استطاعوا أن يفهموا كلامه فانتعشت قلوبهم وتعزت ، فلقد حدثهم عن الله لا على أنه ديان منتقم بل كمن هو أب رحيم ، وأعلن عن صورة الله منعكسة على وجهه . وكان كلامه بلسانا شفى أرواحهم الجريحة . وبكلامه وأعمال رحمته كان يسحق سلطان التقاليد القديمة ووصايا الناس ويقدم للشعب محبة الله التي لا ينضب معينها.

من بين أقدم النبوات الواردة عن المسيح نجد هذه النبوة القائلة: " لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب" (تكوين 49: 10). كان الشعب يتجمهر حول

المسيح . إن قلوب الجماهير الرقيقة قبلت تعاليمه عن المحبة والإحسان إذ آثروها على الطقوس الصارمة التي كان الكهنة يفرضونها عليهم . ولولا تدخل الكهنة والمعلمين لأحدثت تعاليم يسوع إصلاحات عظيمة لم يسبق لهذا العالم أن شهدها . ولكن هؤلاء القادة إبقاءً على سلطانهم صمموا على ملاشاة تأثير يسوع . وإن محاكمته أمام مجمع السنهدريم وإدانتهم لتعاليمه جهارا كان يمكن أن تحقق لهم غرضهم ، لأن الشعب كانوا لا يزالون يضمرون الاحترام العظيم لقادتهم الدينيين . فالذي كان يجرؤ على ذم وصايا أولئك المعلمين أو يحاول التخفيف من الأحمال التي وضعوها على كاهل الشعب كان يعتبر مجرما ليس فقط بتهمة التجديف بل أيضا بتهمة الخيانة . فعلى هذا الأساس كان أولئك المعلمون يؤملون أن يثيروا الشبهات حول المسيح . لقد صوروه على أنه يحاول أن يقلب العادات الثابتة ، وهكذا يحاول إحداث شقاق في [183] صفوف الشعب ويمهد الطريق لإخضاع الشعب للرومان إخضاعا كاملا.

ولكن تلك الخطط التي كان أولئك الرؤساء يرسمونها بكل غيرة ويعدون العدة لتنفيذها كانت قد نوقشت من قبل في مجلس سابق لمجمع السنهدريم. فبعدما أخفق الشيطان في الانتصار على المسيح في البرية حشد جيوشه لمقاومة خدمته ، وإن أمكن أن يعطل عمله . فما لم يستطع إنجازه بمساعيه الشخصية المباشرة حاول تحقيقه بالحيلة . وما أن انسحب من ميدان الصراع في البرية يجر أذيال الخذلان حتى اجتمع مع حلفائه الأبالسة وأكمل خططه في تعمية عقول الشعب اليهودي أكثر فأكثر حتى لا يعرفوا فاديهم ، كما فكر في أن يعمل بواسطة أتباعه البشريين في المحيط الديني بكونه يملأ قلوبهم بالعداوة التي يضمرها هو للمناضل عن الحق . وسيجعلهم يرفضون المسيح وسيمرر حياته إلى الدرجة القصوى على أمل أن يثبط من عزيمته حتى لا يقوم بمهمته . فصار رؤساء إسرائيل آلات في يد الشيطان لمحاربة المخلص.

"يعظّم الشريعة"

لقد أتى يسوع لكي "يعظّم الشريعة ويكرمها"، لم يكن عمله التقليل من شأن عظمتها بل ليزيها عظمة. والكتاب يقول عنه إنه: "لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض" (إشعياء 42 : 21، 4). لقد أتى ليحرر السبت من تلك الأحمال العسرة الحمل التي حولته إلى لعنة بدل كونه بركة.

لهذا السبب اختار يوم السبت ليجري فيه معجزة الشفاء عند بركة بيت حسدا. كان يمكنه أن يشفي ذلك المريض في أي يوم آخر من أيام الأسبوع ، أو كان يكتفي بشفائه دون أن يأمره بحمل سريره . ولكن هذا لم يكن ليتيح له الفرصة التي أرادها . لقد كان المسيح يخفي غرضا حكيما في كل عمل من أعمال حياته على الأرض ، فكل ما عمله كان عملا هاما في ذاته وفي الدرس المنطوي عليه . فمن بين المرضى المجتمعين حول البركة اختار المسيح أردأ حالة ميئوس منها ليجري في ذلك المريض قوته الشافية . وأمر الرجل أن يحمل سريره ويطوف في أنحاء المدينة لكي يذيع خبر تلك المعجزة التي قد أجريت فيه ، فهذا جعل الناس يتساءلون عما يحل عمله في السبت وما لا يحل . وفتح [184] أمامه الباب لينبذ القيود اليهودية المفروضة على يوم الرب وليعلن بطلان التقاليد.

لقد أبان لهم يسوع أن شفاء المرضى هو على أتم وفاق مع شريعة السبت. وهو على أتم وفاق مع عمل ملائكة الله الذين هم على الدوام ينزلون ويصعدون بين السماء والأرض ليخدموا البشرية المتألمة . لقد أعلن يسوع قائلا: "أَبِي يعملُ حتَّى الآنَ وَأَنا أعمل" (يوحنا 5 : 17).رإن كل الأيام هي أيام الرب وفيها يمكن أن ينفذ خططه لخير رالجنس البشري . فلو كان تفسير اليهود للناموس صحيحا فمعنى هذا أن

الله مخطئ وحاشاه أن يكون ذلك . مع أن عمله قد أحيا كل الكائنات الحية وعاضدها منذ وضع أساسات الأرض . إذا فذاك الذي قال عن عمله أنه حسن وفرض السبت لإحياء ذكرى إنجاز ذلك العمل ينبغي أن يتوقف عن عمله الذي يسير دون توقف في كل الكون.

جعل لأجل الإنسان

هل ينبغي أن ينهى الله الشمس عن أن تشرق في يوم السبت ويمنع أشعتها اللطيفة عن إشاعة الدفء والحرارة في الأرض وإحياء النباتات وإنعاشها؟ وهل يلزم توقف نظام الكون في ذلك اليوم المقدس؟ وهل هو ملزم بأن يأمر جداول المياه أن تكف عن الجريان لإرواء الحقول والغابات ، وأن يأمر أمواج البحر أن تكف عن عملية المد والجزر التي لا تنتهي؟ وهل يلزم أن تتوقف الحنطة والغلال عن النمو وأن تمتنع عناقيد العنب من أن تنضج؟ وهل يجب ألا تزهر الأشجار ولا تتفتح الأزهار في يوم السبت ؟

في هذه الحالة سيخسر الناس ثمار الأرض والبركات التي تجعل الحياة مرغوبا فيها .فينبغي أن تسير الطبيعة في طريقها الذي لا يتغير. إن الله لا يمكنه أن يكف يده عن العمل لحظة واحدة ، وإلا فسيغشى على الإنسان ويموت . وكذلك على الإنسان عمل يؤديه في هذا اليوم إذ ينبغي له أن يقوم بضروريات الحياة ، كما يجب العناية بالمرضى ، وسد حاجة المعوزين . إن من يهمل في تخفيف آلام المتألمين في يوم السبت لن يتبرر . إن يوم راحة الرب المقدس خلق لأجل الإنسان ، وأعمال الرحمة هي على وفاق تام مع قداسة ذلك اليوم . إن الله لا يريد أن تتألم خلائقه ساعة واحدة لو أمكن تخفيف ذلك الألم في يوم السبت أو أي يوم آخر. [185]

إن الالتزامات التي على الله هي أعظم في يوم السبت منها في أي يوم آخر. ففي ذلك اليوم يترك شعب الله أعمالهم المادية ويقضون وقتهم في التأمل والعبادة . وفي يوم السبت يطلبون من الله إحسانات وبركات أكثر مما في باقي الأيام . وهم يطلبون منه أن يلتفت إليهم التفاتا خاصا . ويتوقون إلى الحصول على أثمن بركاته . والله لا ينتظر إلى ما بعد السبت ليمنحهم هذه الهبات . إن عمل السماء لا يتوقف مطلقا . فينبغي ألاّ يستريح الناس من عمل الصلاح . ليس المقصود بالسبت أن يكون بطالة لا نفع فيها . إن الشريعة تنهى عن مزاولة الأعمال الدنيوية في يوم راحة الرب ، والعمل لأجل القيام بمطاليب المعيشة ينبغي ألاّ يعمل . وكل عمل يقصد منه التمتع بالمسرات أو الربح العالمي هو عمل غير مشروع في ذلك اليوم . ولكن كما أن الله كف عن عمل الخلق واستراح في يوم السبت وباركه فكذلك يجب على الإنسان أن يكف عن مزاولة عمله اليومي ويكرس تلك الساعات المقدسة للراحة والعبادة والأعمال المقدسة . إن عمل المسيح في شفاء الرجل المريض كان على وفاق تام مع الشريعة وبه أكرم السبت.

اتهام يسوع بالتجديف!

قال يسوع إن له نفس الحق الذي لله في القيام بالأعمال المتساوية في القداسة. وله نفس صفات الآب الذي في السماء . ولكن غيظ الفريسيين زاد اشتعالا عليه . فهو لم ينقض الشريعة فقط كما قد فهموا، بل "قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله" (يوحنا 5 : 18).

كانت الأمة اليهودية كلها تدعو الله أبا لها ، ولذلك لم يكونوا يغضبون على يسوع إلى هذا الحد لو أنه

وقف على قدم المساواة مع الشعب في علاقته بالله. ولكنهم اتهموه بالتجديف مبرهنين بذلك على أنهم قد فهموا أنه يعتبر نفسه ابنا لله بأسمى المعاني.

لم يكن لدى خصوم المسيح أولئك أية حجة يردون بها على تلك الحقائق التي مس بها ضمائرهم. وكل ما استطاعوا عمله هو أنهم اقتبسوا عاداتهم وتقاليدهم وأوردوها ، ولكنها بدت ضعيفة وجامدة بمقارنتها بالحجج التي اقتبسها يسوع من كلمة الله وفي حوادث الطبيعة وحركاتها التي لا تنتهي . ولو كانت في قلوب أولئك المعلمين أية رغبة في قبول النور لاقتنعوا بأن يسوع قد نطق بالحق ولكنهم تملصوا من الحقائق التي أوردها عن السبت ، وحاولوا إثارة غضب الشعب عليه فكونه ادعى أنه مساوٍ لله . ولم يكن لسخط [186] الرؤساء نهاية ولا حدود. ولولا خوفهم من الشعب لكان الكهنة والمعلمون قدً قتلوه في نفس ذلك المكان . ولكن الرأي العام كان قويا جدا في جانب المسيح . فكثيرون من الشعب رأوا في يسوع الصديق الذي شفى أمراضهم وطيب قلوب المحزونين بينهم ، فبرروا شفاءه للمريض عند بركة بيت حسدا . ولذلك اضطر أولئك الرؤساء إلى كبح نية الغدر التي كانوا يضمرونها للسيد.

وقد دفع يسوع عن نفسه تهمة التجديف. فقال لهم إن سلطاني في إجراء العمل الذي تتهمونني به هو في كوني ابن الله ومتحدا معه في طبيعته وهيئته وقصده ، وفي كل أعمال خلقه وعنايته أنا متحد مع الله في عمله: ”الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل“ (يوحنا 5 : 19). لقد كان الكهنة والمعلمون يلومون ابن الله لأجل نفس العمل الذي قد أرسل إلى العالم ليعمله . إنهم بسبب خطاياهم أبعدوا أنفسهم عن الله ، وفي كبريائهم كانوا يتحركون ويعملون مستقلين عنه . وأحسوا أنهم كفاة لكل شيء ، ولم يدركوا أنهم محتاجون إلى حكمة أسمى من حكمتهم لإرشاد خطواتهم في كل أعمالهم . لكن ابن الله كان خاضعا لمشيئة أبيه ومستندا على قدرته . لقد أخلى المسيح نفسه تماما حتى أنه لم يرسم أي تدبير بنفسه ، بل رضي بما رسمه له الله . ومن يوم إلى يوم كان الآب يكشف له تدابيره ، وهكذا علينا نحن أيضا أن نعتمد على الله ، لكي تكون حياتنا هي إتمام مشيئته.

حسب المثال

عندما شرع موسى في بناء المقدس ليكون مسكنا لله أمر بأن يصنع كل شيء حسب المثال الذي قد أظهر له في الجبل ، وكان قلب موسى ممتلئا غيرة على إتمام عمل الله ، وتحت يده رجال موهوبون لتحقيق مقترحاته. ومع ذلك لم يكن له أن يعمل جلجلة أو رمانة أو هدبا أو زركشة أو سجفا أو أي إناء من أواني المقدس إلا حسب المثال الذي قد أظهر له . لقد دعاه الله ليصعد إلى الجبل وهناك كشف له الأمور السماوية ، وستره الله بمجده ليرى المثال ، وبموجب ذلك المثال تم كل شيء . وهكذا بالنسبة إلى إسرائيل الذين أراد الله أن يجعلهم مقدسه أعلن لهم مثاله المجيد للخلق . لقد أظهر لهم المثال في الجبل [187] عندما أعلنت الشريعة في سيناء وعندما مر الرب أمام موسى وأعلن قائلا: ” الرب إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطية“ (خروج 34 : 6 و 17).

كان شعب إسرائيل قد اختاروا طرقهم فلم يبنوا حياتهم حسب المثال ، ولكن المسيح الذي هو هيكل الله ومسكنه الحقيقي صور كل مشتملات حياته الأرضية لتكون متفقة مع نموذج الله. إنه هو القائل: ”أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي“ (مزمور 40 : 8). كذلك ينبغي أن تبنى أخلاقنا لتكون مسكنا لله في الروح (أفسس 2 : 22). وعلينا أن ”تصنع كل شيء حسب المثال“ ، مثال ذاك الذي

"تألم لأجلنا، تاركاً لنا مثالاً" لكي نتبع "خطواته" (عبرانيين 8 : 5 ؛ 1 بطرس 2 : 21).

إن المسيح يعلمنا بكلامه وجوب اعتبار أنفسنا مرتبطين بأبينا السماوي ارتباطا وثيقا ، إذ كيفما كان مركزنا فنحن معتمدون على الله الذي بين يديه مصائر الجميع. لقد عين لنا عملنا ومنحنا المواهب والوسائل لإنجازه . فطالما نخضع إرادتنا لله ونثق بقدرته وحكمته فسيقودنا في طريق أمين لنقوم بنصيبنا في تدبيره العظيم . أما ذاك الذي يعتمد على قوته وحكمته فهو يفصل نفسه عن الله . وبدلا من أن يعمل وهو في حالة وفاق مع المسيح فإنه يتمم غرض عدو الله والناس.

شريك القوة الإلهية

استطرد المخلص قائلا: " لأن مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الابن كذلك.. لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء" (يوحنا 5 : 19، 21). كان الصدوقيون ينكرون عقيدة قيامة الأجساد ، ولكن يسوع يخبرهم هنا أن من بين أعظم أعمال أبيه هي إقامة الأموات ، وأنه هو نفسه له القدرة على القيام بنفس ذلك العمل: "تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون" (يوحنا 5 : 25). وكان الفريسيون يعتقدون بقيامة الأموات ، والمسيح يعلن أنه حتى الآن القوة التي تمنح الحياة للموتى هي بينهم وعليهم أن يشاهدوا إعلانها . ونفس قوة القيامة هذه هي التي تعطي حياة للنفس المائتة "بالذنوب والخطايا" (أفسس 2 : 1). إن روح الحياة في. [188] المسيح يسوع الذي هو " قوة قيامته" هو يعتقني " من ناموس الخطية والموت" (فيلبي 3 : 10، رومية 8 : 2). وسيادة الشر تنتهي ، وبالإيمان تحفظ النفس من الخطية . فمن يفتح قلبه لروح المسيح يصير شريكا في تلك القوة العظمى التي ستقيم جسده من القبر.

إن ذلك الناصري المتواضع يؤكد ويثبت أصله العظيم الرفيع على حقيقته. إنه يسمو فوق البشرية ويخلع عنه شبه جسد الخطية والعار ويقف متجليا كالممجد من الملائكة وابن الله المتحد بخالق الكون . لقد شمل الذهول سامعيه إذ لم يتكلم إنسان بمثل ما تكلم هو به ، أو حمل في نفسه ذلك الجلال الملكي . كلامه واضح وصريح ، وبكل وضوح يعلن مهمته وواجب العالم: "لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله .. لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان" (يوحنا 5 : 22 و 23 و 26 و 27).

للخلاص لا للدينونة

لقد أقام الكهنة والرؤساء أنفسهم قضاة ليحكموا على عمل المسيح. ولكنه أعلن عن نفسه أمامهم أنه ديانهم وديان كل الأرض . ولقد سلم العالم للمسيح ، وعن طريقه تنحدر كل البركات عن الله إلى الجنس البشري الساقط . إنه كان فاديا قبل تجسده كما صار بعدما تجسد . فحالما وُجدت الخطية وُجِد المخلص . لقد أعطى الجميع حياة ونورا ، وكل إنسان سيدان بنسبة النور المعطى له . وذاك الذي منح النور ، وذاك الذي لاحق النفس بتوسلاته الرقيقة محاولا أن ينقلها من الخطية إلى القداسة هو شفيعها كما أنه ديانها في نفس الوقت . ومنذ بدأت الخصومة العظيمة في السماء احتفظ الشيطان بدعواه بكل خبث وخديعة . ولكن

المسيح ظل يعمل ليكشف الستار عن مؤامرات ذلك العدو ويسحق سلطانه . وهو الذي جابه ذلك المخادع ، بل مدى أجيال التاريخ كان يحاول أن ينتزع أسرى الشيطان من قبضته ، وهو الذي سيدين كل نفس.

ثم إن الله: أعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان” (يوحنا 5: 12). فلكونه قد ذاق مرارة كأس الآلام والتجارب البشرية ، ولكونه يعرف ضعفات الناس وخطاياهم ، [189] ولكونه قد ناب عنهم إذ ثبت أمام تجارب الشيطان وانتصر عليه نيابة عنا ، وبكل حنان ورفق وعدل سيتعامل مع النفوس التي قد سفك دمه ليخلصنا- لأجل كل هذا قد أقيم ابن الإنسان ليدين.

إلاّ أن مهمة المسيح ليست للدينونة بل للخلاص: “ لأنه لم يرسل الله ابنة إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم” (يوحنا 3: 17). وقد أعلن المسيح أمام السنهدريم قائلاً: “إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة” (يوحنا 5 : 24).

وإذ أمر المسيح سامعيه ألا يتعجبوا كشف أمامهم في مجال أوسع سر المستقبل فقال: “ إنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة” (يوحنا 5: 28 و 29).

إن يقين الخلود هذا هو ما ظل اليهود ينتظرونه طويلا وما كانوا يؤملون الحصول عليه عند مجيء مسيا. وإن النور الوحيد الذي يمكنه أن يبدد ظلمات الهاوية كان يشرق عليهم، ولكن العناد أعمى لا يبصر ما أمامه . لقد تعدى يسوع تقاليد أولئك المعلمين واستخف بسلطانهم فرفضوا الإيمان به.

يوبخ السنهدريم

إن الزمان والمكان والمناسبة وقوة اندفاق الشعور الذي ساد على تلك الجماعة اتحدت كلها على جعل أقوال المسيح التي نطق بها أمام السنهدريم أقوى تأثيراً عليهم. هوذا أعظم السلطات الدينية في الأمة يحاولون القضاء على حياة ذاك الذي قد أعلن أنه هو الذي يرد منفيي إسرائيل . لقد حوكم رب السبت أمام محكمة أرضية ليدفع عن نفسه تهمة كونه قد نقض شريعة السبت . فلما أعلن عن مهمته بلا خوف جعل قضاته يحملقون فيه في دهشة وغيظ . ولكن كلامه كان باتا لم يمكن نقضه ، وهكذا لم يجدوا ما يستوجب إدانته . بل لقد أنكر على الكهنة والمعلمين الحق في استجوابه والتدخل في عمله إذ لم يكونوا مزودين بذلك السلطان . فكل ادعاءاتهم كانت ترتكز على كبريائهم وغطرستهم ، فرفض الاعتراف بأنه مذنب في التهم الموجهة إليه كما رفض أن يتعلم منهم. [190]

وبدلا من أن يعتذِر يسوع عن العمل الذي شكى منه أولئك الرؤساء أو يوضح لهم قصده من عمله انقلب عليهم فصار المشتكى عليه شاكيا . وقد وبخهم على قساوة قلوبهم وجهلهم للكتب المقدسة . وقد أعلن لهم أنهم قد رفضوا كلمة الله كما قد رفضوا من أرسله الله فقال لهم: “فتّشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية. وهي التي تشهد لي” (يوحنا 5 : 39).

إن كل أسفار العهد القديم في كل صفحة من صفحاتها سواء كانت تاريخا أو وصايا أو نبوات ، تشع منها أنوار مجد ابن الله. وعلى قدر ما كان النظام اليهودِي من صنع الله وترتيبه فقد كان هذا النظام برمته نبوة محكمة من الإنجيل . إن المسيح “له يشهد جميع الأنبِياءِ” (أعمال 10 : 43). فمنذ قدم الله الوعد لآدم وتحدر إلى سلسلة الآباء ، وإلى التدبير الشرعي ، جعل نور السماء المجيد آثار خطوات الفادي واضحة المعالم . لقد رأى الراؤون نجم بيت لحم ، شيلون الآتي ، عندما مرت أمامهم حوادث المستقبل في موكب عجيب . وقد كانت كل الذبائح ترمز إلى المسيح . وفي كل سحب البخور كان يصعد بره إلى السماء .

وكلما دوى صوت بوق اليوبيل كان ينادي باسمه . وفي سر قدس الأقداس الرهيب كان يحل مجده هناك.

يرفضون الكتب المقدسة

لقد كانت الكتب المقدسة في حوزة اليهود فكانوا يتوهمون أن في مجرد معرفتهم الخارجية السطحية لكلمة الله لهم حياة أبدية. ولكن المسيح صارحهم بقوله: "ليست لكم كلمته ثابتة فيكم" (يوحنا 5 : 38). وإذ رفضوا المسيح في كلمته فقد رفضوا شخصه ، فقال لهم: "ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة" (يوحنا 5 : 40).

كان رؤساء اليهود قد درسوا أقوال الأنبياء عن ملكوت مسيا ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك برغبة خالصة في معرفة الحق بل كان قصدهم من ذلك أن يجدوا دليلا تستند إليه آمال الطموح التي قد احتضنوها طويلا. فلما أتى المسيح في حالة غير التي قد ركزوا فيها انتظاراتهم لم يقبلوه . ولكي يبرروا أنفسهم حاولوا أن يبرهنوا على أنه محتال . وعندما خطوا أول خطوة في هذا السبيل صار من السهل على الشيطان أن يزيد من مقاومتهم للمسيح . فنفس الأقوال التي كان ينبغي لهم قبولها دليلا على ألوهيته فسروها على عكس [191] معناها . وهكذا حولوا حق الله إلى الكذب ، وكلما وجه المخلص كلامه إليهم مباشرة في أعمال رحمته ازدادوا إمعانا في إصرارهم على مقاومة النور.

قال يسوع: "مجداً من الناس لست أقبل" (يوحنا 5 : 41). إنه لم يكن يرغب في الظفر بتأييد السنهدريم أو مصادقتهم ، ولم يكن ليحصل على مجد من استحسانهم ، فلقد كان مزودا بمجد السماء وسلطانها . فلو رغب فيه لكان الملائكة يأتونه سجدا معلنين ولاءهم له . وكان الآب يشهد لألوهيته مرة ثانية . ولكن لأجلهم ، ولأجل الأمة التي كانوا هم رؤساءها كان يتوق إلى أن يدرك الرؤساء اليهود كيفية شخصيته ويقبلوا البركات التي قد آتى ليمنحهم إياها.

ثم قال لهم: "أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه" (يوحنا 5 : 43). لقد أتى يسوع مزودا بسلطان الله حاملا صورته مقيما كلامه وطالبا مجده ، ومع ذلك لم يقبله رؤساء إسرائيل . ولكن حين يأتي آخرون مدعين أنهم المسيح ولكن مدفوعين بدافع من أنانيتهم وطالبين مجد أنفسهم فالرؤساء يقبلون أمثال أولئك الأدعياء ، لماذا لأن من يطلب مجد نفسه يجد تجاوبا عند من يطلبون مجد أنفسهم ، هذا ما كان يتجاوب معه اليهود . كانوا يقبلون المعلمين الكذبة ، لأنهم كانوا يتملقون كبرياءهم ويصادقون على آرائهم وتقاليدهم المحبوبة لديهم . ولكن تعاليم المسيح لم تكن مطابقة لرغائبهم ، إذ كانت تلك التعاليم روحية وتتطلب تضحية النفس ولذلك رفضوا قبولها . لم تكن لهم معرفة بالله ولذلك كانوا يعتبرون أن صوته الناطق في المسيح هو صوت إنسان غريب.

قلوب متقسية

ألا نرى نفس هذا الشيء يتكرر في أيامنا؟ ألا يوجد كثيرون حتى من بين القادة الدينيين الذين يقسون قلوبهم ويقاومون الروح القدس وبذلك يجعلون من المستحيل عليهم تمييز صوت الله؟ أليسوا بذلك يرفضون كلمة الله لكي يحتفظوا بتقاليدهم؟

قال لهم يسوع: " لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عنّي. فإن كنتم لستم تصدّقون كتب ذاك، فكيف تصدّقون كلامي؟" (يوحنا 5: 46، 47). إن [192] المسيح هو الذي كلم إسرائيل على لسان موسى ، فلو أصغوا إلى صوت الله بفم قائدهم العظيم لكانوا قد ميزوه في تعاليم المسيح. ولو صدقوا موسى لكانوا يصدقون ذاك الذي كتب عنه موسى.

عرف يسوع نية الغدر التي كان يضمرها له الكهنة والمعلمون وإصرارهم على قتله. ومع ذلك فقد أبان لهم بكل وضوح أنه متحد بالآب ، كما أخبرهم عن صلته بالعالم ، فرأوا أنه لا يوجد ما يبرر مقاومتهم له ، ومع ذلك فلم يكن من الممكن إخماد نيران تلك العداوة القاتلة ضده . لقد استبد بهم الخوف عندما لمسوا قوة الإقناع العظيمة التي كانت تصحب خدمته ، ولكنهم قاوموا دعوات رحمته وأغلقوا على أنفسهم في الظلام

لقد أخفقوا إخفاقا عظيما في هدم سلطان يسوع وفي منع الناس من إكرامه والإصغاء إلى تعاليمه ، إذ كان كثيرون من الشعب قد تبكتوا بكلامه. بل أن الرؤساء أنفسهم أحسوا بتبكيت عميق عندما نخس ضمائرهم إذ أقنعهم بجرمهم . ومع ذلك فقد زاد هذا من مرارة عداوتهم له . لقد صمموا على قتله . فأرسلوا رسلهم في كل البلاد ليحذروا الشعب من يسوع قائلين عنه إنه مضل . وأرسلوا جواسيسهم لمراقبته وإعلامهم بما قاله وفعله . فهذا المخلص الحبيب كان بكل تأكيد واقفا الآن تحت ظل الصليب. [193]

الفصل الثاني والعشرون ـــــسجن يوحنا وموته

كان يوحنا المعمدان أول بشير بملكوت المسيح. كما كان أول من تألم . لقد سجن الآن داخل أسوار سجن رهيب بعدما كان يعيش في هواء البرية الطلق تحيط به جماهير الشعب الذين تعلقت قلوبهم بكلامه ، ولكنه أمسى الآن حبيسا في قلعة هيرودس أنتيباس . ففي المنطقة الواقعة شرقي الأردن التي كانت تحت سلطة أنتيباس قضى يوحنا كثيرا من أيام خدمته . وقد كان هيرودس نفسه أحد المستمعين لكرازة المعمدان . لقد ارتعب ذلك الملك الفاسق أمام الدعوة إلى التوبة: "لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقدّيس .. وإذ سمعه، فعل كثيراً، وسمعه بسرور" (مرقس 6 : 20). وقد تصرف يوحنا معه بكل أمانة إذ فضح علاقته الآثمة بهيروديا زوجة أخيه . حاول هيرودس بكل ضعف ووهن أن يحطم قيود الشهوات التي كبلته ، ولكن هيروديا أحكمت وثاقه بسحرها وانتقمت لنفسها من المعمدان بتحريضها هيرودس على الزج به في السجن.

كانت حياة يوحنا حياة العمل النشيط ، ولذلك فإن ظلام السجن وجلوسه بين تلك الجدران الكئيبة بلا عمل كان أمرا ثقيلا جدا على نفسه. وإذ مرت الأسابيع ، متثاقلة دون أن يحدث تغيير زحف الشك واليأس إلى قلبه. لم يهجره تلاميذه بل كان يسمح لهم بزيارته في السجن فكانوا يحملون إليه أخبار أعمال يسوع ، كما أخبروه كيف كان الناس يتقاطرون عليه . ولكنهم كانوا يتساءلون قائلين إذا كان هذا المعلم الجديد هو مسيا فلماذا لا يفعل شيئا لإطلاق سراح يوحنا ، ولماذا يسمح بأن يحرم سابقه وخادمه الأمين ذاك من الحرية وربما من الحياة أيضا.

تساؤلات وشكوك

لم تكن تلك الأسئلة عديمة التأثير. فالشكوك التي لولا تلك الظروف الحالكة ما كانت لتظهر ، خطرت ليوحنا . وقد سر الشيطان لدى سماعه أقوال تلاميذ يوحنا عندما رأى [194] أنها قد سحقت نفس رسول الرب هذا. كم من مرة يحدث أن أولئك الذين يظنون أنهم أصدقاء لرجل صالح ويتوقون إلى إثبات ولائهم وصداقتهم له يتبرهن أخيرا أنهم ألد أعدائه ! وبدلا من أن يشددوا إيمانه يحزنون ويثبطون همته !

لم يكن يوحنا المعمدان يدرك طبيعة ملكوت المسيح مثله في ذلك مثل تلاميذ المخلص ، حيث كان يتوقع أن يتربع يسوع على عرش داود. وإذ مرت الأيام دون إن يدعى المخلص لنفسه سلطانا ملكيا أرتج الأمر على يوحنا وانزعجت نفسه . كان قد أعلن للشعب أنه لكي يعد الطريق للرب ينبغي أن تتم نبوءة إشعياء فيجب أن ينخفض كل جبل وأكمة ويصير المعوج مستقيما والعراقيب سهلا . كان ينتظر أن تنخفض مرتفعات الكبرياء والقوة البشرية ، كما أشار إلى مسيا على أنه ذاك الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن أما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ . وكالنبي إيليا الذي جاء هو بروحه وقوته

إلى إسرائيل كان ينتظر أن الرب سيعلن عن نفسه كمن يجيب بنار.

وإذ كان المعمدان يقوم بعمله فقد وقف موبخا للآثم بلا خوف من الطبقات العالية والوضيعة بل لقد تجرأ على الوقوف في وجه هيرودس موبخا إياه على الخطية دون مواربة. لم يحسب نفسه ثمينة عنده حتى يتمم العمل الموكول إليه . وهاهو الآن وهو في سجنه يرقب مجيء الأسد الخارج من سبط يهوذا ليخفض كبرياء الظالم و يخلص المسكين والمستغيث . ولكن بدا بأن المسيح اكتفى بأن يجمع حوله تلاميذ ويشفي المرضى ويعلم الشعب . كان يأكل على موائد العشارين بينما كان النير الروماني يثقل على أعناق إسرائيل كل يوم ، وكان الملك هيرودس ومعشوقته يفعلان ما يروق لهما ، في حين أن صرخات البائسين والمتألمين كانت تصعد إلى السماء.

النبي المعذَّب

بدا كل هذا سرا استغلق على نبي البرية ، فكانت تمر عليه ساعات تتعذب فيها روحه من وساوس الشيطان ، و كانت المخاوف الرهيبة تضايقه. فهل معنى ذلك أن المخلص الذي ظل الشعب ينتظره طويلا لم يظهر بعد؟ إذا فما معنى الرسالة التي كان عليه أن يحملها؟ لقد أحس يوحنا بخيبة مريرة نظرا إلى النهاية التي انتهت إليها مهمته ، حيث كان [195] ينتظر أن رسالة الله سيكون لها نفس الأثر الذي حدث عندما قُرِئَ سفر الشريعة في أيام يوشيا وعزرا (٢أخبار ٣٤ ؛ نحميا ٨ و ٩) ، وأنه سيتبع ذلك توبة عميقة ورجوع إلى الله، إذ أنه لأجل نجاح هذه المهمة ضحى بحياته كلها. فهل كان ذلك عبثا ؟

انزعج يوحنا حين رأى تلاميذه يعززون الشك في قلوبهم ضد يسوع ، وذلك بسبب محبتهم له . فهل صار تعبه لأجلهم بلا ثمر؟ وهل كان هو غير أمين في تأدية مهمته حتى لقد حيل الآن بينه وبين مواصلة عمله؟ وإذا كان مسيا الموعود به قد ظهر ، ووجد يوحنا أمينا لدعوته ، أفلا يسحق يسوع قوة الظالم ويطلق سراح بشيره ؟

ولكن يوحنا لم يفرط في إيمانه بالمسيح . إن ذكرى الصوت الذي قد سمعه آتيا من السماء ، والحمامة التي استقرت على رأسه ، وحياة يسوع الطاهرة التي لا غبار عليها ، وقوة الروح القدس التي حلت على المعمدان عندما مثل في حضرة المخلص ، وشهادة كتب الأنبياء- كل هذه شهدت بأن يسوع الناصري هو الرب الموعود به.

“أنت هو؟”

لم يرد يوحنا أن يناقش تلاميذه في أمر شكوكه ومخاوفه. وقد عزم على إرسال رسالة إلى يسوع . فوكَّل إلى اثنين من تلاميذه أمر هذه الرسالة على أمل أن لقاءهما مع المخلص سيثبت إيمانهما ويجيء باليقين إلى إخوتهما . وقد تاق إلى رسالة يرسلها المسيح إليه مباشرة.

فأتى التلميذان إلى يسوع بتلك الرسالة القائلة “ أنت هو الآتي أن ننتظر آخر؟” (متى 11: 3).

منذ عهد قريب أشار المعمدان إلى يسوع وصاح قائلا: “ هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!” ، “هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قدّامي” (يوحنا 1 : 29، 27). وعقب ذلك سأل: “أنت هو الآتي أم

ننتظر آخر؟" لقد كان أمرا محزناً حقاً ومفشلاً للطبيعة البشرية. فإذا كان يوحنا السابق الأمين قد أخفق في إدراك مهمة المسيح فماذا ننتظر من الشعب الذي يطلب ما لنفسه

لم يجب المخلص عن سؤال ذينك التلميذين في الحال. فإذ وقفا مندهشين من صمته كان المرضى والمتألمون يأتونه في طلب الشفاء . وكان العمي يتلمسون في وسط [196] الجموع ، وكذلك المرضى من كل الطبقات بعضهم يأتونه سيرا على أقدامهم وآخرون يحملهم أصدقاؤهم والجميع يزحمون غيرهم ليأتوا أمام يسوع. فكان صوت ذلك الشافي القديم يخترق آذان الصم بكلمة منه . وبلمسة من يده ارتد العمي مبصرين يرون نور النهار ومناظر الطبيعة ووجوه الأصدقاء ووجه من قد شفاهم ، وهكذا كان يسوع ينتهر المرض ويطرد الحمى . وقد وصل صوته إلى آذان الموتى فقاموا في ملء الصحة والشفاء . والمفلوجون المجانين أطاعوا كلمته وإذ زايلهم جنونهم خروا وسجدوا له . وفيما كان يشفي أمراضهم كان يعلم الجموع . والفلاحون والفعلة المساكين الذين كان المعلمون يطردونهم كما لو كانوا نجسين تجمهروا يزحمونه ، فكان يخاطبهم بكلام الحياة الأبدية وهكذا انقضى معظم النهار وتلميذا يوحنا ينظران ويسمعان كل شيء . أخيرا دعاهما يسوع إليه وأمرهما بأن يذهبا ويخبرا يوحنا بما قد رأيا وسمعا . وفى ختام حديثه معهما قال: "وَطُوبى لِمن لاَ يعثُر فيّ" (لوقا 7 : 23). لقد ظهر برهان ألوهيته في توافقه مع حاجات البشرية المتألمة . كما ظهر مجده في تنازله إذ أخذ جسدا كأجسادنا.

إعطاء الجواب

حمل ذانك التلميذان الرسالة إلى معلمهما ، وقد كانت كافية. فلقد ذكر يوحنا النبوة الخاصة بمسيا والتي تقول: "روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق، لأنادي بسنة مقبولة للرب، وبيوم انتقام لإلهنا. لأعزي كل النائحين" (إشعياء 61 : 1، 2). إن أعمال المسيح لم تعلن أنه مسيا وحسب ، ولكنها أبانت الكيفية التي بها كان مزمعا أن يثبت ملكوته . لقد أعلن ليوحنا نفس الحق الذي سبق أن أعلن لإيليا فى البرية: "وإذا بالرب عابر وريح عظيمة شديدة قد شقّت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف" (1 ملوك 19 : 11، 12). هكذا كان يسوع يعمل عمله ليس بواسطة صليل السيوف أو قرقعة الأسلحة ولا بواسطة قلب العروش والممالك بل بمخاطبة قلوب الناس بحياة الرحمة والتضحية.

إن مبدأ حياة المعمدان ألا وهو مبدأ إنكار النفس كان مبدأ ملكوت مسيا . ولقد عرف [197] يوحنا جيدا كيف أن هذا كله كان على نقيض مبادئ رؤساء إسرائيل وانتظاراتهم. فما كان بالنسبة إليه برهانا مقنعا على ألوهية المسيح لم يكن كذلك بالنسبة إليهم ، فكانوا ينتظرون مسيحا غير موعود به . وقد رأى يوحنا أن مهمة المخلص لن تلاقي منهم غير الكراهية والإدانة والتقريع . وكان هو ، سابق المسيح ، يشرب من نفس الكأس التي كان السيد سيجرعها حتى الثمالة.

كانت كلمات المسيح القائلة: " وطوبى لمن لا يعثر فيّ" توبيخا رقيقا ليوحنا ، ولم يكن ذلك التوبيخ بلا جدوى فإذ فهم الآن بأجلى وضوح طبيعة مهمة المسيح سلم نفسه لله للحياة أو للموت على مقتضى ما يخدم مصالح الملكوت الذي أحبه.

امتداح عمل يوحنا

بعدما ذهب رسولاً يوحنا جعل يسوع يخاطب الجموع عن يوحنا. كان قلب المخلص يعطف على ذلك الشاهد الأمين الذي كان سجينا في سجن هيرودس ، ولم يرد أن يترك الشعب في اعتقادهم بأن الله قد تركه أو أنه إيمانه لم يثبت في يوم الامتحان . فقال لهم : "ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أقصبة تحركها الريح؟" (متى 11 : 7).

كانت الأقصاب أو أعواد الغاب النامية بجانب الأردن تتحرك أمام هبات النسيم الخفيفة، وكانت تشبه تمام الشبه معلمي اليهود الذين وقفوا ينتقدون رسالة المعمدان ويدينونه. كانوا يتمايلون إلى هذه الناحية وتلك أمام رياح الرأي العام . لم يريدوا أن يتواضعوا ويقبلوا تلك الرسالة الفاحصة للقلوب التي نطق بها المعمدان ، ومع ذلك لم يجسروا على مقاومة عمله جهارا . ولكن رسول الرب ذاك لم يكن إنسان رعديدا جبان القلب . وتلك الجموع التي تجمهرت حول المسيح كانت خير شاهد على عمل يوحنا . لقد سمعوه يوبخ الخطية بلا خوف . لقد خاطب يوحنا جماعة الفريسيين الذين كانوا يحسبون أنفسهم أبرار والكهنة الصدوقيين والملك هيرودس ورجال بلاطه الأمراء والجنود والعشارين والفلاحين بصراحته المعهودة . لم يكن قصبة تحركها الريح إذ لم تؤثر فيه رياح مديح الناس أو تعصبهم . وفى السجن ظل ثابتا على ولائه وغيرته على البر كما كان عندما كرز برسالته في البرية . لقد كان أمينا لمبادئه وثابتا كالصخر.

ثم استطرد يسوع يقول: " لكن ماذا خرجتم انتظروا؟ إنساناً لابساً ثياباً ناعمة؟ هوذا [198] الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك" (متى 11: 8). لقد دعي يوحنا ليوبخ الخطايا وعدم الاعتدال الذي كان متفشيا في عصره . فكان لباسه البسيط وحياة إنكار الذات التي عاشها على وفاق مع صبغة مهمته ورسالته . لا نصيب لخدام الله في الثياب الغالية والحلل البهية وترف الحياة . ولكنها من نصيب أولئك الذين يعيشون "في بيوت الملوك"، ورؤساء هذا العالم وسادته الذين لهم قد أعطي السلطان والغنى . وقد أراد يسوع أن يوجه انتباه الناس إلى البون الشاسع بين لباس يوحنا ولباس الكهنة والرؤساء . كان هؤلاء القادة يلبسون الثياب الفاخرة ويتحلون بأغلى الزينات . كانوا يحبون التظاهر ويحاولون أن يبهروا الشعب ، وبذلك يفرضون عليهم تقديم المزيد من التبجيل . كان شوقهم إلى الظفر بإعجاب الناس أعظم من شوقهم للحصول على طهارة القلب التي يرضى عنها الله . وهكذا برهنوا على عدم ولائهم لله بل لرئيس هذا العالم.

"أفضل من نبي"

عاد يسوع يقول: "لكن ماذا خرجتم انتظروا؟ أنبياً؟ نعم، أقول لكم، وأفضل من نبي. فإن هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيّئ طريقك قدّامك. الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان" (متى 11 : 9 — 11). عندما ظهر الملاك لزكريا ليبشره بولادة يوحنا قال له أنه "يكون عظيماً أمام الرب" (لوقا 1 : 15). ما الذي تنطوي عليه العظمة في نظر السماء؟ ليس ما يعتبره العالم عظمة هو الثروة ولا المركز ولا الانتساب إلى عظماء الأرض ولا المواهب العقلية في حد ذاتها . فإذا كانت العظمة العقلية منفصلة عن أي اعتبار آخر أعظم منها ، مستحقة للكرامة ، إذا فهذا يقتضي أن نقدم ولاءنا للشيطان الذي لا يباريه أي إنسان في قوة ذهنه . ولكن متى انحرفت الموهبة

العقلية وفسدت بحيث تخدم الذات فكلما عظمت صارت لعنة أعظم . إن الله يقدر القيمة الأخلاقية ، فهو يقدر فضيلتي المحبة والطهارة أعظم تقدير . لقد كان يوحنا عظيما أمام الرب عندما رفض أمام الرسل الموفدين من قبل السنهدريم وأمام الشعب وأمام تلاميذه أن يطلب لنفسه مجدا أو كرامة ، بل أشار إلى يسوع كالسيد الموعود به . إن فرحه الخالي من الأنانية بخدمته للمسيح يقدم لنا اعظم رمز للنبل ظهر في إنسان. [199]

والشهادة التي قيلت عنه بعد موته والتي نطق بها أولئك الذين كانوا قد سمعوا شهادته ليسوع هي هذه: "إن يوحنا لم يفعل آية واحدة، ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا (الإنسان) كان حقاً" (يوحنا 10 : 41). لم يعط ليوحنا أن يستمطر نارا من السماء أو أن يقيم الموتى كما قد فعل إيليا ، أو أن يحسن استخدام عصا موسى عصا القوة باسم الله . لقد أرسل لكي

يعلن عن مجيء المخلص وليعلن للناس عن وجوب الاستعداد لمجيئه. وقد أدى مهمته بكل أمانة حتى إن الناس عندما تذكروا ما قاله لهم عن يسوع شهدوا قائلين: "كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقاً". فعلى كل تلميذ للسيد أن يحمل مثل هذه الشهادة للمسيح.

وكبشير لمسيا كان يوحنا " أفضل من نبي"، لأنه في حين أن الأنبياء رأوا مجيء المسيح من بعيد فقد أعطي ليوحنا أن يراه ويسمع شهادة السماء بكونه مسيا ويقدمه لإسرائيل كمن هو مرسل من قبل الله . ومع ذلك قال يسوع إن "الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه" (متى 11 : 11).

النور الأضعف

كان النبي يوحنا حلقة اتصال بين العهدين. فكنائب عن الله وقف ليبين علاقة الناموس والأنبياء بالعهد المسيحي . كان هو النور الأضعف الذي سيجيء بعده النور الأعظم . لقد استنار عقل يوحنا بالروح القدس ليشرق بالنور على شعبه . ولكن لم يشرق ولن يشرق على الناس الضالين كالنور الباهر المنبثق من تعاليم يسوع ومثاله . لقد فهم المسيح ومهمته في نور ضئيل ضعيف إذ رمز إليه بالذبائح المبهمة . حتى يوحنا نفسه لم يدرك المستقبل على حقيقته ، ولا حياة الخلود بواسطة المخلص.

وإذا استثنينا الفرح الذي حصل عليه يوحنا وهو يقوم بمهمته أمكننا أن نقول أن حياته كانت حياة الحزن . فصوته قلما كان يسمع إلا في البرية . وكانت الوحدة والوحشة نصيبه، ولم يسمح له بأن يرى ثمار تعبه ، كما لم يحصل على امتياز الوجود مع المسيح ليرى بعينيه إظهار القوة الإلهية المرافقة للنور الأكمل . لم يكن له أن يرى العمي يبصرون والمرضى ينالون الشفاء والموتى تعود إليهم الحياة . ولم ير النور ينبثق من كل كلمة نطق بها المسيح إذ كان كلامه يريق نورا عظيما على النبوات . إن أصغر تلميذ للمسيح ممن رأوا المسيح رأوا القوات التي أجراها وسمعوا أقواله ، حصل بهذا المعنى [200] على امتياز يفوق امتياز يوحنا المعمدان ، ولذلك يقال عنه إنه أعظم منه.

وقد ذاعت شهرة يوحنا عن طريق الجموع الكثيرة التي جاءت تستمع لكرازته ، فاهتم الناس اهتماما عظيما بنتيجة سجنه. ومع ذلك فإن حياته التي كانت بلا لوم ووقوف الرأي العام إلى جانبه جعل الناس يعتقدون أنه لن تتخذ ضده أية إجراءات تعسفية.

كان هيرودس يعتقد أن يوحنا نبي مرسل من الله فقصد أن يراه حرا طليقا ، ولكنه تأخر في تنفيذ غرضه خوفا من هيروديا.

وقد عرفت هيروديا أنها لن تستطيع بإجراءاتها السافرة أن تظفر برضى هيرودس في قتل يوحنا المعمدان ، فعزمت على نيل بغيتها بالحيلة والخداع. كانت ستقام وليمة بمناسبة عيد ميلاد الملك يدعى إليها حكام الدولة وأشراف البلاد ، وسيكون هناك أكل وسكر . وسيغفل هيرودس عن حذره إذ يكون مخمورا وسيكون من السهل التأثير فيه فيجيبها إلى رغبتها .

وليمة سكر ومجون

فلما جاء ذلك اليوم العظيم وكان الملك وأشرافه يأكلون ويسكرون أرسلت هيروديا ابنتها إلى دار الوليمة لترقص احتفاء بالضيوف. كانت سالومي في شرخ شبابها فاستأسر جمالها الشهواني الخلاب ألباب أولئك الأشراف المعربدين . لم يكن أمرا مألوفا أن تظهر سيدات البلاط في مثل تلك الولائم . وقد قدمت كلمة ثناء خادعة لهيرودس عندما رقصت ابنة كهنة إسرائيل وأمرائهم هذه لتسلية الضيوف والترفيه عنهم.

ولكن الخمر أفقدت الملك وعيه فتسلطت عليه الشهوة وخلع العقل عن عرشه. فلم يعد الملك يرى غير تلك الدار التي كان يشيع فيها السرور ، والضيوف من حوله يطربون ويعربدون ، ومائدة الوليمة والخمر المرقرقة والأنوار المتلألئة وتلك الشابة ترقص أمامه. ففي لحظة الطيش تلك أراد الملك أن يبدي بعض المفاخرة والمباهاة ليرتفع قدره في نظر عظماء المملكة . فوعد ابنة هيروديا بقسم أن يعطيها كل ما تطلب ولو إلى نصف مملكته.

فأسرعت سالومي إلى أمها لتستشيرها فيما تطلب. وكان جواب الأم حاضرا - رأس يوحنا المعمدان . لم تكن سالومي تعلم شيئا عن شهوة الانتقام التي كانت أمها تضمرها في [201] قلبها فأجفلت من التقدم بهذا الطلب. ولكن عزم هيروديا انتصر. فعادت الفتاة لتقدم ذلك الطلب المخيف قائلةً: "أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنا المعمدان على طبق" (مرقس 6 : 25).

ذُهل الملك وتحير وكف الضيوف عن طربهم وعربدتهم وساد على كل أولئك المدعوين السكارى سكون مشؤوم ، وأصاب الملك رعب عظيم عندما فكر في قتل يوحنا. ومع ذلك فقد كان مرتبطا بوعده ، ولم يكن يريد أن يبدو أمام تلك الجماعة كمن هو طائش أو متقلب في رأيه. لقد نطق بقسمه إكراما لضيوفه فلو أن أحدا منهم اعترض على إجابة ذلك الطلب الوحشي لكان الملك بكل سرور يبقى على حياة النبي . وقد أعطاهم فرصة ليتكلموا دفاعا عن الأسير . كانوا قبلا يسافرون مسافات طويلة ليسمعوا كرازة يوحنا وكانوا يعرفون أنه خادم الرب الذي لم يرتكب جرما . ولكن مع أن طلب تلك الفتاة كان صدمة عنيفة لهم فإن الخمر كانت قد ذهبت بألبابهم فلم يتقدم أحد بكلمة احتجاج ، ولم يرتفع صوت لإنقاذ حياة رسول السماء . كان هؤلاء القوم يحتلون مراكز عظيمة تنطوي على مسؤوليات خطيرة ، ومع ذلك فقد أقبلوا على الأكل والسكر حتى تاه وعيهم وفارقهم شعورهم . كانت أصوات الموسيقى والرقص قد أدارت رؤوسهم فنامت ضمائرهم وهجع وجدانهم . ففي صمتهم حكموا بالموت على نبي الله لإشباع حب الانتقام في نفس تلك المرأة الخليعة المتهتكة.

مقتل المعمدان

عبثا انتظر هيرودس التحلل من قسمه فأمر أخيرا بقتل النبي وهو كاره. وسرعان ما جيء برأس

يوحنا أمام الملك ومدعويه . فتانك الشفتان اللتان حذرتا الملك من حياة الخطية التي كان يعيشها أبكمتا إلى الأبد . ولم يعد ذلك الصوت يدعو الناس للتوبة . إن سكر وعربدة ليلة واحدة كان فيها القضاء على حياة نبي من أعظم الأنبياء.

كم مرة ضحي بحياة الأبرياء بسبب إفراط أولئك الذين كان ينبغي أن يكونوا حراسا للعدالة! إن من يجرع المسكر يوقع نفسه تحت مسؤولية كل المظالم التي قد يوقعها على الأبرياء ويرتكبها تحت تأثير الخمر التي تسلب الألباب . فإذ تتخدر حواس الإنسان يغدو من المستحيل عليه أن يحكم بهدوء أو أن يكون عنده إدراك صحيح للتمييز بين الخطأ والصواب . إنه يفسح المجال للشيطان ليعمل بواسطته على إيقاع الظلم والقتل بالأبرياء: "الخمر مستهزئة. المسكر عجاج، ومن يترنّح بهما فليس بحكيم" (أمثال 20 : 1). وهكذا [202] يرتد الحق إلى الوراء والعدل يقف بعيدا والحائد عن الشر يسَلب (إشعياء 59: 14 و 15). إن من لهم حق التحكم في أرواح بني جنسهم متى استسلموا للخمر فلا بد من أن يحكم عليهم بأنهم مجرمون . فعلى من ينفذون القانون أن يكونوا حماة له . ينبغي لهم أن يكونوا رجالا أعفاء ضابطين لأنفسهم ، وليكن لهم السلطان الكامل على قواهم الجسدية والعقلية والأدبية حتى ينشط فيهم الذكاء والإحساس الرفيع بالعدالة.

أخذ رأس يوحنا المعمدان إلى هيروديا التي استقبلته بارتياح شيطاني. وسرت بانتقامها وكانت تخدع نفسها بالقول أن ضمير هيرودس لن يعود يزعجه . ولكنها لم تحصل على السعادة بعد ارتكاب تلك الخطية . لقد صار اسمها مسبة عار وصارت مكروهة . أما هيرودس فقد مزقته آلام الحزن والندامة أكثر مما كانت تؤرقه توبيخات المعمدان . إن تأثير تعاليم يوحنا لم يخمد بل كان سيمتد إلى كل الأجيال وإلى انقضاء الدهر.

ضمير يمزقه العذاب

ظلت خطية هيرودس تلاحقه ، فكان دائما يبحث عن وسيلة تريحه من اتهامات ضميره. ولم تتزعزع ثقته بيوحنا . فإذ عاد بالذكرى إلى حياة إنكار الذات التي عاشها وإنذاراته الجادة الخطيرة ، وحكمه السليم ومشوراته الصائبة ، ثم إذ ذكر كيف عاجله الموت لم يكن الملك يجد راحة أو عزاء . فإذ انشغل في شؤون الدولة وكان يتقبل الكرامات من الناس كان يبدو على وجهه الابتسام وسيماء العظمة ولكنه كان يخفي بين جنبيه قلبا مثقلا بالحزن ومتطيرا ، وكان لا يفتأ يضايقه الخوف من أن اللعنة قد استقرت عليه.

كان هيرودس قد تأثر تأثرا عميقا من أقوال يوحنا التي تفيد بأنه لا يمكن إخفاء شيء عن عيني الله ، واقتنع بأن الله موجود في كل مكان وأنه قد شاهد السكر والعربدة في دار الوليمة وأنه سمعه يأمر بقطع رأس يوحنا ، ورأى هيروديا تبتهج وتتهلل ، كما رأى الإهانات التي قد صبتها على ذلك الرأس المفصول عن جسم النبي الذي كان يوبخها .وكثير من الأقوال التي قد سمعها هيرودس من فم النبي جعلت تتحدث إلى ضميره بأكثر وضوح وقوة مما كان وهو يستمع لوعظه في البرية.

وعندما سمع هيرودس عن أعمال المسيح انزعج انزعاجا عظيما ، وظن أن الله قد أقام [203] يوحنا من الأموات وأرسله مزودا بقوة أعظم ليدين الخطية. فكان يلازمه خوف عظيم من أن يوحنا قد يثأر لموته بالحكم عليه وعلى بيته بالدينونة . لقد كان هيرودس يحصد ما قال الله أنه سيكون نتيجة حياة الخطية —— "قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس. وتكون حياتك معلّقة قدّامك، وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك. في الصباح تقول: يا ليته المساء، وفي المساء تقول: يا ليته الصباح، من ارتعاب قلبك الذي

يرتعب، ومن منظر عينيك الذي تنظر" (تثنية 28 : 65 — 67). إن أفكار الخاطئ وخواطره هي التي تتهمه ، وليس هناك عذاب أقسى من وخزات الضمير المذنب التي لا تعطى صاحبها راحة ، ليلا ولا نهارا .

وحيد ولكن غير متروك

كثيرون يعتبرون مصير المعمدان سرا غامضا فيتساءلون قائلين لماذا يترك رجل كهذا ليضعف ويذبل ثم يموت. إن أبصارنا البشرية لا يمكنها أن تخترق الحجب وتكتشف السر في هذا المصير المؤلم الذي قد سمحت به عناية الله . ولكن ثقتنا بالله لا تتزعزع متى ذكرنا أن يوحنا كان شريك المسيح في آلامه . إن كل من يتبعون المسيح لا بد لهم من أن يلبسوا إكليل التضحية . فالناس الأنانيون سيسيئون فهمهم حتما وسيصيرون هدفا لهجمات الشيطان العنيفة . إن مملكة ذلك العدو قد أقيمت لهدم مبدأ التضحية ، وهو سيحاربه أينما وجده.

لقد امتازت سنو حداثة يوحنا وشبابه ورجولته بالثبات والقوة الأدبية. وعندما سمع صوته في البرية يقول: "أعدّوا طريق الرب. اصنعوا سبله مستقيمة" (متى 3 : 3). خشي الشيطان على سلامة مملكته . لقد كشف يوحنا عن شر الخطية بكيفية جعلت الناس يرتعبون . لقد انسحق سلطان الشيطان الذي ظل كثيرون يئنون تحته ، ولم يكل الشيطان من بذل مساعيه ليحول بين المعمدان وحياة التسليم الكامل بلا تحفظ . ولكن كل تلك المساعي باءت بالفشل . وقد أخفق في الانتصار على يسوع . لقد انهزم الشيطان حين جرب المسيح في البرية فاحتدم غيظه . فقصد الآن أن يجلب المتاعب والأحزان على يسوع بكونه يضرب يوحنا . فذاك الذي لم يستطع إبليس أن يغويه ليرتكب الخطية يجعله يتألم. [204]

لم يتدخل يسوع لإنقاذ حياة خادمه ، فلقد عرف أن يوحنا سيصمد أمام تلك المحنة .كان المخلص يريد بكل سرور أن يأتي إلى يوحنا لينير ظلام السجن بحضوره ، ولكن لم يكن يحسن به أن يلقي بنفسه بين أيدي الأعداء ويعرض عمله للخطر. كان يريد بكل سرور أن ينقذ خادمه الأمين ، ولكن لأجل تشجيع الآلاف ممن سيقاسون فيما بعد من السجن والموت كان على يوحنا أن يشرب كأس الاستشهاد . فحينما يتألم أتباع يسوع في السجون أو يموتون قتلا بالسيف أو على آلات التعذيب أو حرقا بالنار ، متروكين حسب الظاهر من الله والناس فكم ستُسند قلوبهم وتتشجع إذ يفكرون بأن يوحنا المعمدان الذي قد شهد المسيح نفسه بأمانته جاز في ضيقات وآلام مماثلة !

لقد سمح للشيطان بأن يقضي على الحياة الأرضية لخادم الله ، أما تلك الحياة التي هي "مستَترةٌ مع الْمسيح في الله" (كولوسي 3 : 3) فالمهلك لم يستطع أن يمسها . ابتهج إبليس لكونه قد جلب الحزن إلى قلب المسيح ولكنه لم يستطع الانتصار على يوحنا ، إذ الموت ذاته قد أبعده فقط إلى الأبد عن متناول قوة التجربة . وفي هذه الحرب كان الشيطان يكشف القناع عن صفاته . وأمام الشهود من كل المسكونة أعلن عن عداوته لله والإنسان.

ومع إنه لم تجرِ معجزة لإنقاذ يوحنا فهو لم يكن متروكا ، فلقد كان ملائكة السماء يرافقونه دائما ، وهم الذين كشفوا له عن النبوات الخاصة بالمسيح ومواعيد الله العظمى والثمينة ، وكانت تلك المواعيد سندا لقلبه. كما أنها ستكون سندا لقلوب شعب الله في الأجيال القادمة . وقد قدم ليوحنا المعمدان كما قدم لمن أتوا بعده هذا الوعد: "ها أَنا معكُم كُلَّ الأَيامِ إِلى انْقضاءِ الدهرِ" (متى 28 : 20).

إن الله لا يقود أولاده أبداً في طريق غير الطريق الذي كانوا يختارونه لأنفسهم لو كانوا يعرفون

النهاية من البداية ويفطنون إلى مجد الغرض الذي يتممونه كعاملين معه. فلا أخنوخ الذي نقل إلى السماء وإيليا الذي أخذته إلى هناك مركبة نارية كان أعظم أو حصل على كرامة أوفر من يوحنا المعمدان الذي قتل وحده في السجن: "لأَنَّه قَد وُهب لَكُم لأَجلِ الْمسيحِ لاَ أَنْ تؤْمنُوا بِه فَقَطْ ، بلْ أَيضا أَنْ تَتأَلَّموا لأَجله" (فيلبي 1 : 29). ومن بين كل الهبات التي تمنحها السماء لبني الإنسان نجد أن مشاركة المسيح في آلامه تضفي على أصحابها أعظم كرامة وأسمى مجد. [205]

الفصل الثالث والعشرون—— "اقترب ملكوت الله"

" جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس 1: 14 و 15).

قد أعلن عن مجيء مسيا في اليهودية أولا. وفي الهيكل في أورشليم كان زكريا قد أُنبِئ بميلاد السابق للمسيا عندما كان يخدم أمام المذبح . ومن فوق تلال بيت لحم أعلنت الملائكة عن ميلاد المسيح ، ثم أتى المجوس إلى أورشليم يطلبونه . وفي الهيكل شهد سمعان وحنه لألوهيته ، وقد أصغى سكان أورشليم وكل اليهودية إلى كرازة المعمدان ، وسمع المبعوثون من قبل السنهدريم والجمع كله شهادته عن يسوع . وفي اليهودية اختار المسيح تلاميذه الأولين ، وفيها أيضا قضى كثيرا من أوقات خدمته الأولى . إن وميض نور ألوهيته عندما شرع في تطهير الهيكل ومعجزات الشفاء التي أجراها ، وتعاليم الحق الإلهي التي نطق بها- هذه كلها أعلنت ما أعلنه هو أمام السنهدريم بعد معجزة الشفاء التي أجراها في بيت حسدا ، وهو بنوته للإله السرمدي.

فلو قبل رؤساء اليهود المسيح لكان أكرمهم كرسله في حمل الإنجيل إلى العالم. لقد قدمت لهم هم أولا الفرصة ليصيروا مبشرين بالملكوت وبنعمة الله . ولكن إسرائيل لم يعرف زمان افتقاده . إن حسد رؤساء اليهود وشكوكهم اكتملت فأثمرت عداء فتحولت قلوب الشعب عن يسوع.

يرفضون الحق

لقد رفض رجال السنهدريم رسالة المسيح وعزموا على قتله ولذلك رحل يسوع عن أورشليم بعيدا عن كهنة الهيكل ورؤساء الذين والشعب الذين كانوا قد تعلموا من الناموس. وانتقل إلى طبقة أخرى من الناس ليعلن رسالته وينتخب أولئك الذين كان عليهم أن يحملوا [206] الإنجيل إلى العالم.

وكما رفضت السلطات الدينية نور الأبرار وحياتهم في أيام المسيح ، كذلك رُفضا في كل العصور المتعاقبة. لقد تكرر تاريخ انسحاب المسيح من اليهودية مرارا عديدة . فعندما كرز رجال الإصلاح بكلمة الله لم يكونوا يفكرون في الانفصال عن الكنيسة الأصلية ولكن القادة الدينيين لم يستطيعوا احتمال النور فاضطر من كانوا يحملونه إلى البحث عن طبقة أخرى كان أفرادها متعطشين إلى الحق . وفي يومنا هذا نجد قليلين ممن يعترفون بأنهم من أتباع المصلحين يتحركون بقوة روح الإصلاح . قليلون هم من يستمعون لصوت الله ، المستعدون لقبول الحق في أية هيئة يقدم لهم . وفي غالب الأحيان يضطر أولئك الذين يسيرون في إثر رجال الإصلاح لترك الكنائس التي يحبونها لكي يعلنوا للناس تعاليم الكلمة الصريحة . ويحدث في كثير من الأحيان أن أولئك الباحثين عن النور يلتزمون بنفس التعاليم أن يتركوا آبائهم إطاعة للرب.

كان المعلمون في أورشليم يحتقرون شعب الجليل إذ كانوا يعتبرونهم أجلافا عديمي العلم ، ومع ذلك فقد كان ذلك الحقل أحب إلى قلب المخلص من غيره لأنه كان تربة خصبة لعمله وكرازته. لقد كان الجليليون أكثر غيره وإخلاصا وأقل تعصبا وعقولهم أكثر استعدادا لقبول الحق . إن يسوع لم يكن ينشد العزلة أو الانفراد حين ذهب إلى الجليل .فإن ذلك الإقليم كان مزدحما بالسكان حينئذ وفيه خليط من الشعوب الأخرى أكثر مما في اليهودية.

وإذ كان يسوع يطوف في الجليل معلما وشافيا تقاطرت عليه جماهير الناس من المدن والقرى ، كما جاء إليه كثيرون من سكان اليهودية والأقاليم المجاورة. وأحيانا كثيرة كان يضطر للاختفاء بعيدا عن الشعب . وقد ازدادت حماسة الجماهير حتى لقد بدا من الضروري اتخاذ جانب الحيطة والحذر لئلا تتنبه السلطات الرومانية فتحسب ذلك التجمع إيذانا بنشوب ثورة . لم يسبق للعالم أن اجتاز في فترة مثل تلك الفترة . لقد نزلت السماء إلى الأرض ، والنفوس الجائعة والعطشى التي ظلت أحقابا طويلة تنتظر فداء إسرائيل بدأت الآن تتمتع بنعمة المخلص الرحيم. [207]

دقة التوقيت السماوي

كان موضوع كرازة المسيح: "قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل". هكذا كانت رسالة الإنجيل كما نطق بها المخلص مبنية على النبوات ومتممة لها . إن "الزمان" الذي أعلن أنه قد كمل كان هو المدة التي أعلم بها الملاك جبرائيل دانيال ، إذ قال له: "سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدّسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا، ولكفّارة الإثم، وليؤتى بالبر الأبدي، ولختم الرؤيا والنبوة، ولمسح قدّوس القدّوسين" (دانيال 9 : 24). إن اليوم في النبوة يعادل سنة . انظر ما ورد في عدد 14 : 34 و حزقيال 4 : 6. إن السبعين أسبوعاً التي هي 490 يوماً تمثل 490 سنة، وقد أعطيت بدء هذه الا إذ قال له: "فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً" تسعة وستون أسبوعاً أو 437 سنة (دانيال 9 : 25). إن الأمر بإعادة بناء أورشليم الذي صدر به أمر الملك ارتحشتا لونجمانوس (انظر عزرا 6 : 14 ؛ 7 : 1، 9) قد نفذ في خريف 457 ق. م. وبعد مرور 483 سنة من ذلك التاريخ كان الوقت قد بلغ خريف سنة 27 م. وبموجب هذه النبوة كانت هذه المدة لتبلغ أيام مسيا أو المسيح. ففي سنة 27 م. مسح يسوع بالروح القدس في وقت عماده، وبعد ذلك بقليل بدأ خدمته. وحينئذ نودي بالرسالة القائلة "قد كمل الزمان".

وبعد ذلك قال الملاك: " ويثبت عهداً مع كثيرين في أسبوع واحد (سبع سنين) ". وطوال سبع سنين منذ بدأ المخلص خدمته كان ينادي بالإنجيل لليهود بنوع خاص . وفي نصف هده المدة كان المسيح نفسه هو الكارز . وفي النصف الثاني كان الرسل يقومون بهذه المهمة "وفي وسط الأسبوع يبطّل الذبيحة والتقدمة" (دانيال 9 : 27). في ربيع عام 31 م قدم المسيح على صليب جلجثة كالذبيح الحقيقي . وحينئذ انشق حجاب الهيكل إلى اثنين دلالة على أن قدسية الخدمة الكفارية وأهميتها ومغزاها قد بطلت كلها . لقد جاء الوقت الذي فيه بطلت الذبائح والتقدمات الأرضية.

انتهى الأسبوع — السبع سنين — في عام 34 م، وحينئذ ختم اليهود على رفضهم الإنجيل، برجم استفانوس. فالتلاميذ الذين تشتتوا من جراء الإضطهاد "جالوا مبشّرين [208] بالكلمة" (أعمال 8: 4). وبعد ذلك بقليل اهتدى وتجدد شاول المضطهد وصار بولس رسول الأمم.

الإنباء بالمجيء الأول

لقد أشير إلى أيام مجيء المسيح ومسحه بالروح القدس وموته وتقديم الإنجيل للأمم بكل وضوح. وكان امتيازا للشعب اليهودي أن يفهموا هذه النبوات ويتحققوا من إتمامها في مهمة يسوع وعمله . وقد شدد المسيح على تلاميذه مبينا ضرورة وأهمية درس النبوات . وإذ أشار إلى النبوة المعطاة لدانيال الخاصة بزمانهم قال: "ليفهم القارئ" (متى 15 : 24). وبعد قيامة السيد من الأموات "ابتدا من موسى ومن جميع الأنبياء يفسّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب" (لوقا 24 : 27). لقد تكلم المخلص على أفواه جميع الأنبياء. " روح المسيح الذي فيهم" شهد " بالآلام التي للمسيح، والأمجاد التي بعدها" (1 بطرس 1: 11).

إن جبرائيل الملاك الذي يلي ابن الله في المقام هو الذي آتى بهذه الرسالة الإلهية إلى دانيال. وهو جبرائيل "ملاكه" الذي أرسله المسيح إلى يوحنا الحبيب ليكشف له عن مكنونات المستقبل . والكتاب يقول: "طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة، ويحفظون ما هو مكتوب فيها" (رؤيا 1 : 3).

"إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سرّه لعبيده الأنبياء" ويقول الكتاب: "السرائر للرب إلهنا، والمعلنات لنا ولنبينا إلى الأبد" (عاموس 3 : 7؛ تثنية 29 : 29). لقد أعطانا الله هذه الأمور وبركته تحل على من يدرسون النبوات في خشوع وبروح الصلاة.

قرب وقت المنتهى

وكما أعلنت الرسالة التي نطق بها المسيح في مجيئه الأول ملكوت نعمته ، كذلك ستعلن رسالة مجيئه الثاني ملكوت مجده. والرسالة الثانية مبنية على النبوات كما كانت الأولى . إن أقوال الملاك لدانيال المتعلقة بالأيام الأخيرة كانت لتفهم في وقت النهاية . في [209] ذلك الوقت: " كثيرون يتفحصونه والمعرفة تزداد" ، " أنا الأشرار فيفعلون شراً. ولا يفهم أحد الأشرار، لكن الفاهمون يفهمون" (دانيال 12 : 4 و 10). وقد أعطى المخلص نفسه علامات خاصة بمجيئه فيقول: "متى رأيتم هذه الأشياء صائرة، فاعلموا أن ملكوت الله قريب" ، "فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكر وهموم الحياة، فيصادفكم ذلك اليوم بغتة" ، "اسهروا إذاً وتضرّعوا في كل حين، لكي تحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون، وتقفوا قدّام ابن الإنسان" (لوقا 21 : 31 و 34 و 36).

لقد وصلنا إلى الزمان الذي قد أنبأت عنه هذه الآيات ، وأتى وقت النهاية ، فكشف الستار عن نبوات الأنبياء ، وإنذاراتهم الخطيرة توجه أنظارنا إلى مجيء سيدنا في مجده وهو قريب جدا.

لقد حرف اليهود كلمة الله وأساءوا تطبيقها فلم يعرفوا زمان افتقادهم. فسنو خدمة المسيح ورسله ، والسنوات الأخيرة الثمينة ، سنو النعمة للشعب المختار- كل هذه السنين قضوها في التآمر على قتل رسل الرب . لقد انهمكوا في المطامع الأرضية وعبثا قدمت لهم هبة الملكوت الروحي . كذلك الحال اليوم فإن مملكة هذا العالم تستأسر أفكار الناس ولذلك لا يلتفتون إلى سرعة إتمام النبوات وعلامات ملكوت الله الآتي سريعا.

"وأما أنتم أيها الإخوة فلستم في ظلمة حتى يدرككم ذلك اليوم كلص. جميعكم أبناء نور وأبناء نهار. لسنا من ليل ولا ظلمة". فمع أننا لا نعرف اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها الرب فيجب أن نعرف مجيئه

قريب: "فلا ننم إذاً كالباقين، بل لنسهر ونصحٍ" (1 تسالونيكي 5 : 4 — 6). [210]

الفصل الرابع والعشرون ـــ أليس هذا ابن النجار؟

في خلال الأيام المشرقة التي قضاها المسيح في الخدمة في إقليم الجليل خيمت سحابة قاتمة ، ذلك أن شعب الناصرة رفضوه قائلين: " أليس هذا ابن النجار؟" (متى 13: 55).

إن يسوع في إبان حداثته وشبابه كان يعبد الله مع إخوته في مجمع الناصرة. ومنذ بدء خدمته ظل متغيباً عنهم ، ولكنهم لم يكونوا يجهلون ما قد حل به . فلما ظهر بينهم من جديد ثار اهتمامهم وانتظارهم إلى أقصى حد . هنا كانت الوجوه المألوفة لديه والناس الذين عرفهم منذ الطفولة . كانت هنالك أمه وإخوته وأخواته ، وكانت كل العيون متجهة إليه عندما دخل المجمع في يوم السبت وجلس في مكانه بين العابدين.

في الخدمة اليومية المعتادة كان الشيخ يقرأ من كتب الأنبياء ويعظ الشعب أن ينتظروا مجيء الآتي الذي سيبدأ ملكه المجيد ويطرد الظالمين ، فكان يحاول تشجيع سامعيه بتلاوة البرهان على قرب مجيء مسيا ، كما كان يصف مجد مجيئه واضعاً أمامهم الفكرة السائدة من أنه سيظهر على رأس جيوش جرارة ليحرر إسرائيل.

يعلم في الهيكل

وعندما يحضر أحد المعلمين في المجمع كان المنتظر منه أنه هو الذي سيلقى العظة. وأي إسرائيلي يمكنه أن يقرأ من الأنبياء . لكن في هذا السبت طلب من يسوع أن يشترك في الخدمة . حينئذ "قام ليقرأ، فدفع إليه سفر إشعياء النبي" (لوقا 4 : 16 و 17). وكان فصل الكتاب الذي قرأه يفهم منه أنه يشير إلى مسيا ، ويقول: "روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى [211] السفر وسلّمه إلى الخادم... وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه... وكان الجميع يشهدون له وينعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه" (لوقا 4: 18 — 20 و 22).

وقف يسوع أمام الشعب كمفسر حي للنبوات الخاصة به. وفي تفسيره للأقوال التي قرأها تكلم عن مسيا كمن يطلق الأسرى ويرسل المنسحقين في الحرية ويشفي المنكسري القلوب ويعيد البصر للعميان ويكشف للعالم نور الحق . وإن طريقته المؤثرة في الكلام ومعنى كلامه العجيب هز مشاعر أولئك السامعين بقوة لم يعهدوها من قبل . إن اندفاق القوة الإلهية هدم كل الحواجز ، وكموسى رأوا الله غير المنظور . وإذ كان الروح القدس يرف على قلوبهم استجابوا بحرارة بكلمة آمين ، وبالتسابيح للرب.

ولكن عندما أعلن يسوع قائلا لهم: "إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم" (لوقا 4 : 21) تذكروا أنفسهم فجأة وتذكروا ادعاءات هذا الذي يخاطبهم . لقد شبههم هم الإسرائيليين أبناء إبراهيم كمن هم مأسورين ، خاطبهم كمن هم أسرى يحتاجون إلى الخلاص من سلطان الشر ، وكمن يعيشون في الظلام

ويحتاجون إلى نور الحق . لقد أذلّت كبرياؤهم وثارت مخاوفهم . ودلت أقوال يسوع على أن عمله لأجلهم يختلف اختلافا بيّنا عما كانوا يرغبون فيه . قد تفحص أعمالهم بكل تدقيق ، وبالرغم من تدقيقهم في مراعاة الطقوس والممارسات الخارجية كانوا يخافون من فحص تينك العينين الصافيتين اللتين تخترقان الأعماق.

القلوب تتقسى

فجعلوا يتساءلون قائلين: من هو يسوع هذا ؟ إن هذا الذي يدعي لنفسه مجد مسيا هو ابن نجار كان يزاول حرفته مع أبيه يوسف . لقد رأوه وهو يتعب في صعود الجبال والنزول منها ، وكانوا يعرفون إخوته وأخواته وحياته وخدماته . لقد رأوه وهو ينمو من الحداثة إلى الشاب ومن الشباب إلى الرجولة . ومع أن حياته كانت بلا لوم فانهم لم يريدوا أن يؤمنوا بأنه هو الموعود ب.

ما أعظم الفرق بين ما يعلّم به عما يختص بالملكوت الجديد وما سمعوه من شيخهم! إن [212] يسوع لم يذكر شيئا عن تحريرهم من نير الرومان. لقد سمعوا عن معجزاته وكانوا يرجون أنه سيستخدم قوته فيما يؤول إلى نفعهم وخيرهم ، ولكنهم لم يسمعوا منه ما يدل على تحقيقه لتلك الغاية .

وعندما أفسحوا المجال للشكوك زادت قساوة قلوبهم بعدما لانت قليلاً . لقد عقد الشيطان العزم على ألا تُفتح عيون العمى في ذلك اليوم ، ولا أن تحرر النفوس المستعبدة . وبكل ما من نشاط وقوة أراد أن يكبلهم بقيود عدم الإيمان ، فلم يقيموا أي وزن للعلامة التي قد أعطيت عندما اهتزت مشاعرهم إذ علموا أن فاديهم هو الذي يخاطبهم.

ولكن يسوع أعطاهم الآن البرهان على ألوهيته بكونه كشف عن أفكارهم الخفية: “ فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل: أيها الطبيب اشف نفسك! كم سمعنا أنه جرى في كفرناحوم، فافعل ذلك هنا أيضاً في وطنك، وقال: الحق الحق أقول لكم: إنه ليس نبي مقبولاً في وطنه. وبالحق أقول لكم: إن أرامل كثيرة كنّ في إسرائيل في أيام إيليا حين أغلقت السماء مدّة ثلاث سنين وستة أشهر، لما كان جوع عظيم في الأرض كلها، ولم يرسل إيليا إلى واحدة منها، إلا إلى امرأة أرملة، إلى صرفة صيداء. وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان أليشع النبي، ولم يطهر واحد منهم إلا نعمان السرياني” (لوقا 4 : 23 — 27).

وجوب الانتفاع ببركات الله

إن يسوع إذ ذكر علاقة هذه الحوادث بالأنبياء واجه تساؤل سامعيه. فعبيد الله الذين قد اختارهم لعمل خاص لم يسمح لهم أن يتعبوا مع شعب صلب الرقاب عديمي الإيمان قساة القلوب . ولكن أولئك الذين كانت لهم قلوب تحس وإيمان يثق ، أحسن الله إليهم إحسانات خاصة بإظهار قدرته بواسطة الأنبياء . ففي زمان إيليا ارتد الشعب عن الله وتعلقوا بخطاياهم ورفضوا إنذارات الروح بواسطة رسل الرب وبذلك قطعوا صلتهم بالوسيلة التي عن طريقها تأتيهم بركات الله . لقد مر الرب على بيوت إسرائيل ووجد لخادمه ملجأ في أرض وثنية عند امرأة لم تكن من الشعب المختار . ولكن هذه المرأة نالت نعمة لأنها اتبعت النور الذي حصلت عليه فانفتح قلبها للنور الأعظم الذي أرسله الله إليها بواسطة النبي.

ولنفس هذا السبب أغفل البرص في إسرائيل في أيام أليشع. أما نعمان الذي كان أميراً [213] وثنياً فكان أمينا لاقتناعه بالصواب وقد أحس بحاجته العظمى إلى المعونة. فكان في حالة تؤهله لقبول هبات نعمة الله . ولم يطهر فقط من برصه بل حصل على بركة معرفة الإله الحقيقي.

إن موقفنا أمام الله يتوقف لا على مقدار النور الذي حصلنا عليه. بل على كيفية استخدام ما قد حصلنا عليه . وهكذا حتى الوثنيون الذين يختارون الحق على قدر ما يستطيعون أن يميزوه هم في حالة أفضل ممن قد حصلوا على نور عظيم ويعترفون بأفواههم بأنهم يخدمون الله ولكنهم يستخفون بالنور . وبحياتهم اليومية يناقضون اعترافهم.

إن أقوال يسوع التي نطق بها في مسامع شعب الناصرة في المجمع ضربت شجرة برهم الذاتي من أصولها إذ اضطرهم إلى الاقتناع بالحقيقة المرة وهي أنهم قد ارتدوا عن الله وخسروا حقهم في الإدعاء بأنهم شعبه. وقد كانت كل كلمة قالها كسيف حاد حين كشف لهم عن حالتهم على حقيقتها . وهاهم الآن يحتقرون الإيمان الذي كان يسوع قد ألهمهم به في البداءة . فلم يريدوا التسليم بأن ذاك الذي نشأ في أحضان الفقر والمسكنة هو أكثر من إنسان عادي.

وقد حبل عدم إيمانهم فولد حقدا وضغينة ، فتحكم الشيطان فيهم. وفي غضبهم صرخوا ضد المخلص . لقد ارتدوا عن ذاك الذي كان عمله شفاء النفوس وردها . وظهرت فيهم الآن صفات المهلك.

ينجو من أيدي القتلة

وعندما أشار يسوع إلى البركات التي منحت للأمم ثارت كبرياء سامعيه القومية وضاع كلامه في وسط جلبة أصواتهم. كان هؤلاء الناس يفتخرون بحفظهم للناموس ، أما الآن وقد جرح تعصبهم فقد كانوا على أهبة ارتكاب جريمة قتل . انفض الاجتماع ثم ألقوا أيديهم على يسوع وأخرجوه بعنف من المجمع ومن المدينة ، وبدا كأنهم جميعاً كانوا متعطشين إلى إهلاكه فأسرعوا به إلى حافة هوة وقد عولوا على طرحه إلى أسفل . وارتفعت أصوات الصياح والشتائم وبعضهم كانوا يرشقونه بالأحجار . وإذا به يختفي من أمامهم فجأة . إن رسل السماء الذين كانوا إلى جانبه وهو في المجمع كانوا يعسكرون من حوله وهو في وسط ذلك الجمع الغاضب إلى حد الجنون . لقد حفظوه من أعدائه وأخذوه إلى مكان أمين. [214]

وكذلك حفظ الملاكان لوطا وأخرجاه سالما من وسط سدوم ، كما حفظت الملائكة أليشع في المدينة الجبلية الصغيرة ، إذ عندما عسكرت جيوش ملك آرام ومركباته وفرسانه حول تلك المدينة رأى أليشع الجبال لقريبة إليه وقد احتشدت فيها جيوش الله- خيل ومركبات من نار حول خادم الرب.

كذلك هي الحال في كل الأجيال ، فإننا نجد الملائكة قريبين من أتباع يسوع الأمناء إن حلفاء الشر الكثيرين يصطفون لمحاربة كل من يريدون أن ينتصروا ، ولكن المسيح يريدنا أن ننظر إلى ما لا يرى ، إلى جيوش السماء التي تعسكر حول من يحبون الله لتنقذهم. لقد حفظنا من مخاطر كثيرة منظورة وغير منظورة إذ تدخلت الملائكة لحراستنا. ولن نعرف كثرة تلك المخاطر التي قد نجونا منها حتى نرى حوادث عناية الله في نور الأبدية . وحينئذ سنعرف أن كل الأسرة السماوية كانت مهتمة بأسرة الرب على الأرض ، وأن الرسل القادمين من أمام عرش الله كانوا يلازمون خطواتنا يوماً فيوماً.

شعبه يرفضه

إن يسوع حين قرأ وهو في المجمع من النبوة لم يكمل قراءة كل ما ورد فيها عن عمل مسيا. فبعدما قرأ القول "وأكرز بسنة الرب المقبولة" ترك العبارة القائلة: "وبيوم انتقام لإلهنا" (إشعياء 61 : 2). إن هذا كان حقاً كما كان باقي النبوة ، ويسوع بصمته لم ينكر الحق . ومن هذه العبارة الأخيرة هي ما كان سامعوه يرغبون في الوقوف أمامها طويلاً وكانوا يرغبون في إتمامها . لقد حكموا بالدينونة على الأمم الوثنيين ، ولكنهم لم يكونوا يدركون أن جريمتهم أعظم وأرهب من جرائم أعدائهم . لقد كانوا هم أنفسهم في أشد حاجة إلى الرحمة التي كانوا يتوقون إلى حرمان الوثنيين منها . إن ذلك اليوم الذي فيه وقف يسوع أمامهم في المجمع كان فرصتهم لقبول دعوة السماء ، وذاك الذي "يسر بالرأفة" (ميخا 7 : 17) كان يرغب كل الرغبة في تخليصهم من الهلاك الذي كانت خطاياهم تستحقه.

لم يكن يريد أن ينفض يديه منهم ويسلمهم للدينونة قبلما يقدم لهم وعود أخرى للتوبة .فقبل انتهاء خدمته في الجليل زار مرة أخرى البيت الذي قضى فيه أيام حداثته. فمنذ رفضوه هناك ذاعت شهرة تعاليمه ومعجزاته في كل البلاد . فلم يعد أحد ينكر الآن أنه [215] مزود بقوة تفوق قوة البشر. وقد عرف سكان الناصرة أنه جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس . فكانت حولهم قرى بأكملها لم تكن تسمع من أحد سكانها صرخة أو آهة بسبب أي مرض لأنه قد مر بينهم وشفى كل مرضاهم . وأن الرحمة التي قد أعلنت في كل عمل من أعمال حياته شهدت لمسحته الإلهية.

وإذ سمع أهل الناصرة كلامه مرة أخرى تأثروا بقوة روح الله. ولكنهم حتى في هذه المرة رفضوا التسليم بأن هذا الإنسان الذي قد نشأ بينهم يمكن أن يكون أعظم من أي واحد منهم . كانت عقولهم لا تزال مسممة بفكرة أنه في حين ادعى أنه الشخص الموعود به فقد رفض أن يعدهم ضمن إسرائيل ، إذ برهن لهم أنهم أقل استحقاقا لرضى الله من الرجل الوثني والمرأة الأممية . لهذا فمع كونهم تساءلوا قائلين: "من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟" (متى 13 : 54)، فقد رفضوا قبوله كمسيح الله . فلعدم إيمانهم لم يقدر المخلص أن يصنع بينهم معجزات كثيرة ولم تُفتح لقبول بركته غير قلوب قليلة ، فبكل تردد رحل عنهم على ألا يعود إليهم . إن أهل الناصرة إذ أفسحوا المجال لعدم الإيمان مرة فقد ظل متحكماً فيهم . وهكذا تحكم في رجال السنهدريم والأمة كلها . فبالنسبة إلى الكهنة والشعب كان أول رفضهم لإعلان الروح القدس وإظهار قوته هو بداية النهاية . فلكي يبرهنوا على أنهم كانوا على صواب عندما رفضوه أول مرة ظلوا يماحكون في كلام المسيح بعد ذلك . إن رفضهم لروح الله كانت نهايته صليب جلجثة وخراب مدينتهم وتشتت الأمة كلها في كل أنحاء الأرض.

الحق نقيض التقاليد الباطلة

كم كان يسوع يتوق لأن يفتح لإسرائيل كنوز الحق! ولكن عماهم الروحي كان عظيماً بحيث غدا من المستحيل عليه أن يكشف لهم عن الحقائق الخاصة بملكوته . لقد ظلوا متشبثين بعقائدهم وطقوسهم الباطلة في حين أن حق السماء كان يعرض نفسه عليهم ليقبلوه . أنفقوا أموالهم على الخرنوب والتبن والأمور التافهة مع أن خبز الحياة كان في متناول أيديهم . فلماذا لم يذهبوا إلى كلمة الله ويفتشوها باجتهاد ليعرفوا هل كانوا على خطإ أم على صواب؟ لقد أبانت أسفار العهد القديم بكل وضوح كل تفاصيل خدمة المسيح ، [216] ومراراً وتكراراً اقتبس المسيح لهم من أقوال الأنبياء قائلا: " إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم" (لوقا 4 : 21). فلو كانوا قد فحصوا الكتب بأمانة وفحصوا نظرياتهم في نور كلمة الله ، لما التزم يسوع أن يبكي على جحودهم وصلابة قلوبهم ، ولما التزم أن يعلن لهم قائلا: "هوذا بيتكم يترك لكم

خراباً!" (لوقا 13 : 35). كان يمكنهم أن يطلعوا على برهان كونه مسيا ، وكان يمكن تلافي تلك الكارثة التي ألصقت مدينتهم المتشامخة بالثرى ، ولكن عقول اليهود كانت قد صارت ضيقة لسبب تعصبهم غير المعقول . لقد كشفت تعاليم المسيح عن نقص أخلاقهم ، ولكن الفرصة قدمت لهم ليتوبوا . فلو قبلوا تعاليمه لتغيرت أعمالهم وكانوا تنحوا عن آمالهم المحبوبة لديهم . فلكي ينالوا مجد السماء كان عليهم أن يضحوا بمجد الناس . ولو أطاعوا أقوال هذا المعلم الجديد لكانوا ساروا على عكس آراء المفكرين والمعلمين العظام الذين عاصروهم.

لم يكن الحق مقبولاً ولا محبوباً في أيام المسيح ، وهو كذلك في هذه الأيام. وهو غير مقبول ولا محبوب منذ جعل الشيطان الإنسان يعافه إذ قدم له الأكاذيب التي من شأنها أن تسوق إلى تعظيم الذات . ألا نصطدم في هذه الأيام بنظريات وتعاليم لا أساس لها في كلمة الله ؟ إن الناس يتشبثون بها بكل إصرار كما قد تمسك اليهود بتقاليدهم.

لقد كانت قلوب رؤساء إسرائيل مفعمة بالكبرياء الروحية . إن تحرقهم على تعظيم ذواتهم بدا حتى في خدمة المقدس . كانوا يحبون المجالس الأولى في المجامع ، والتحيات في الأسواق ، وكانوا يسرون عندما يسمعون الناس ينادونهم بألقاب الشرف . فإذ انحطت التقوى الحقيقية صاروا أشد غيرة على تقاليدهم وطقوسهم.

النفاق يكشفه الإخلاص

ولكون أفهامهم قد أظلمتها التعصبات الأنانية لم يستطيعوا التوفيق بين قوة أقوال المسيح المقنعة وبين اتضاع حياته. إنهم لم يقدروا حقيقة كون العظمة الحقة تغني صاحبها عن المظهر الخارجي . إن فقر هذا الإنسان بدا كأنه يتعارض مع دعواه بأنه مسيا . فجعلوا يتساءلون قائلين لو كان هو كما يدعي حقا فلماذا هو بسيط إلى هذا الحد؟ وإذا كان يكتفي بأن يكون مجرداً من قوة السلاح فماذا يكون مصير أمتهم ، ومن أين يمكن أن القوة [217] والمجد اللذين انتظرهما الشعب طويلاً يخضعان الشعوب لمدينة اليهود؟ ألم يعلم الكهنة الشعب بأن إسرائيل سيملك على كل الأرض؟ وهل من الممكن أن يكون معلمو الأمة الدينيون مخطئين؟

ولكن لم يكن تجرد يسوع من المجد الخارجي هو وحده الذي ساق اليهود إلى رفضه. لقد كان هو الطهارة مجسمة ، أما هم فكانوا نجسين . لقد عاش بين الناس مثالا للاستقامة التي لا غبار عليها . وإن نور حياته التي كانت بلا عيب كشف عما في قلوبهم من خبث ، كما فضح إخلاصه نفاقهم . إن ذلك النور كشف عن ريائهم في ادعائهم التقوى والقداسة كما كشف لهم عن إثمهم الكريه . ولكنهم لم يرحبوا بذلك النور.

ولو أن المسيح وجه أنظار الشعب إلى الفريسيين وأطرى علمهم وتقواهم لكانوا هتفوا له بفرح. ولكنه عندما تكلم عن ملكوت السماوات على أنه عهد الرحمة لكل بني الإنسان كان يقدم صورة للديانة التي لم يكونوا يحتملونها . لم تكن تعاليمهم أو مثالهم مما يحبب الناس في خدمة الله . وعندما رأوا اهتمام يسوع ينصرف إلى نفس الناس الذين كانوا هم يبغضونهم ويصدونهم ثارت في قلوبهم المتكبرة أعنف انفعالات الغضب . وبالرغم من تشدقهم بأن إسرائيل سيستعلي على كل الشعوب تحت حكم "الأسد الذي من سبط يهوذا" (رؤيا 5 : 5). فقد كان يمكنهم تحمل صدمة انهيار آمالهم وطموحهم ، وكان ذلك أهون عليهم من توبيخ يسوع إياهم على خطاياهم والخزي الذي كانوا يحسون به وهم في حضرته الطاهرة الكلية القداسة. [218]

الفصل الخامس والعشرون—الدعوة عند البحر

بدأ نور النهار يشرق على بحر الجليل. وإذ كان التلاميذ متعبين بعد ليلة قضوها في جهود ضائعة ، كانوا لا يزالون في قواربهم في عرض البحيرة ، وكان يسوع قد أتى إلى هناك ليقضي ساعة هادئة بجانب الماء . ففي بكور ذلك الصباح كان يرجو أن يقضي ساعة راحة بعيداً عن الجموع التي كانت تتبعه يوماً بعد يوم . ولكن سرعان ما بدأ الناس يتجمعون حوله . وسرعان ما تزايد عددهم حتى بدأ الناس يزحمونه من كل جانب . وفي أثناء ذلك كان التلاميذ قد وصلوا إلى الشاطئ . فلكي يتفادى يسوع زحام الجمع نزل في سفينة سمعان وطلب منه أن يبعد قليلا عن البر . ففي هذا الوضع كان يمكن للناس كلهم أن يروا يسوع ويسمعوه جيداً . ومن تلك السفينة بدأ يعلم الجموع الجالسين أمامه على الشاطئ.

ما كان أعظمه منظرا يستحق أن يتطلع إليه الملائكة ويتأملوه! فها قائدهم المجيد جالس في سفينة صيد تتمايل به الأمواج التي لا تهدأ إلى هنا وهناك وهو يعلن بشارة الخلاص للجموع المنصتة لكلامه والذين كانوا متجمعين حتى إلى حافة الماء! ذاك الذي تكرمه السماء وتجله نراه هنا يعلن الحقائق العظيمة المختصة بملكوته في الهواء الطلق لعامة الشعب ، ومع ذلك فقد كان أنسب مكان له للقيام بعمله . فالبحيرة والجبال والحقول المنبسطة ونور الشمس الذي يغمر الأرض- كل هذه الأشياء اتخذ منها أمثالا لتوضيح تعاليمه وطبعها في الأذهان . ولم يكن أي تعليم من تعاليم المسيح بلا ثمر ، فكل رسالة نطق بها كانت تأتي لنفس ما بكلام الحياة الأبدية [219]

رسالة تعزية ورجاء

وبمرور الوقت زاد عدد الجمهور المتجمع على الشاطئ ، فلقد تقاطر إلى هناك الأشياخ الطاعنون في السن وهم متوكئون على عصيهم ، والفلاحون الأقوياء القادمون من أعالي التلال ، والصيادون الذين كانوا يصطادون من البحيرة ، والتجار والمعلمون والأغنياء والعلماء والكبار والصغار ، وقد أتوا بمرضاهم المتألمين وزاحموا الباقين ليسمعوا أقوال هذا المعلم الإلهي. نظر الأنبياء بعين النبوة فرأوا مثل هذه المناظر من بعيد فكتبوا يقولون: "أرض زبولون، وأرض نفتاليم، طريق البحر، عبر الأردن، جليل الأمم. الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور" (متى 4 : 15 و 16).

وبجانب ذلك الجمع المحتشد على شاطئ بحيرة جنيسارت رأى يسوع وهو ينطق بموعظته على شاطئ البحر جموعا أخرى أمام ذهنه. فإذا تطلع عبر الأجيال رأى عبيده الأمناء في السجون وأمام المحاكم مجربين وموحودين ومتضايقين . كان يرى كل مناظر الفرح والصراع والارتباك والحيرة ماثلة أمامه . فعندما كان يتحدث إلى تلك الجموع الغفيرة المتجمعة أمامه في ذلك الصباح كان يخاطب بنفس

الكلام نفوس الناس في الأجيال القادمة بتلك الأقوال التي ستأتيهم بالرجاء في تجاربهم والعزاء في أحزانهم وبنور السماء الذي يقشع عنهم الظلمات . وبواسطة الروح القدس كان ذلك الصوت الذي خاطب الشعب من سفينة الصيد في بحر الجليل سيسمع ناطقا بكلام السلام لقلوب بني الإنسان إلى انقضاء الدهر.

مكافأة إيمان صياد سمك

فبعد انتهاء الحديث التفت يسوع إلى بطرس وأمره أن يبعد إلى العمق ويلقي شبكته للصيد. ولكن بطرس كان خائر العزم إذ لم يمسك شيئا طوال تلك الليلة . ومدى ساعات الوحدة كان يفكر في مصير يوحنا المعمدان ، الذي كان يذوي ويذبل وهو وحيد في سجنه، كما فكر في الأحداث التي تنتظر يسوع وتابعيه ، و فشل خدمته في اليهودية ، وخبث الكهنة والمعلمين . بل حتى حرفته قد خذلته . وإذ كان واقفا إلى جوار الشباك الخاوية بدا المستقبل أمامه مكتنفا بظلام الخيبة والخذلان . فأجاب سمعان و قال له :"يا [220] معلّم، قد تعبنا الليل كلّه ولم نأخذ شيئاً. ولكن على كلمتك ألقي الشبكة" (لوقا 5 : 5).

كانت ساعات الليل هي أنسب الأوقات الصيد بالشباك في مياه البحيرة الصافية. فبعدما تعبوا الليل كله ولم يصيبوا نجاحاً بدا لهم أنه من العبث أن يلقوا الشباك في وضح النهار ، ولكن يسوع كان قد أصدر أمره ولهذا فقد دفعت محبة التلاميذ لمعلمهم إلى إطاعته . فألقى سمعان وأخوه الشبكة معاً . فلما حاولا سحبها كانت كمية السمك التي فيها كبيرة جداً بحيث بدأت الشبكة تتخرق . فاضطرا إلى أن يدعوا يعقوب ويوحنا لأن يسرعا إلى مساعدتهما. فلما سحبوا الشبكة كان الصيد كثيراً جداً حتى لقد ثقل السمك على السفينتين مما عرضهما لخطر الغرق.

أما بطرس فكان آنئذ غافلاً عن القوارب والصيد ، فهذه المعجزة دون كل المعجزات التي كان قد شاهدها كانت في اعتباره إظهاراً لقدرة الله . لقد رأى في يسوع شخصاً تحكم في الطبيعة وسيطر عليها . فإحساسه بأنه في حضرة الله كشف له عن نجاسته . ثم أن حبه لمعلمه وخجله من عدم إيمانه وشكره للمسيح على تنازله ، وفوق الكل إحساسه بنجاسته ! في حضرته الطهارة الكاملة- كل ذلك غمر قلبه . وإذ كان رفاقه يجمعون السمك من الشبكة سقط بطرس عند ركبتي يسوع وصرخ قائلا: "اخرج من سفينتي يا رب، لأني رجل خاطئ!" (لوقا 5 : 8).

إن نفس حضور قداسة الله هذا هو الذي جعل النبي دانيآل يسقط كميت أمام ملاك الله .فلقد قال: " ونضارتي تحوّلت إلى فيّ إلى فساد، ولم أضبط قوة". وكذلك كانت الحال مع إشعياء الذي عندما عاين مجد الرب صرخ قائلاً: "ويل لي! إني هلكت، لأني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود" (دانيال 10 : 8 ؛ إشعياء 6 : 5). إن البشرية بما فيها من ضعف وخطية قد وقفت وجها لوجه أمام كمال اللاهوت فأحس النبي بنقصه ونجاسته العظيمين . وكذلك كانت الحال مع كل من قد حظوا برؤية عظمة الله وجلاله .

إن بطرس مع أنه صرخ قائلا: " أخرج من سفينتي يا رب، لأني رجل خاطئ!" إلا أنه ظل ممسكا بركبتي يسوع شاعراً بأنه لا يستطيع أن يفترق عنه . وقد أجابه المخلص بقوله: "لا تخف! من الآن تكون تصطاد الناس!" (لوقا 5 : 10). إن إشعياء بعدما رأى قداسة الله وعدم استحقاقه هو وكل الله إليه أمر تبليغ رسالته السماوية إلى الشعب .وبعدما [221] اقتيد بطرس إلى احتقار نفسه والاتكال على قدرة الله قبل الدعوة لخدمة المسيح.

صيادو ناس

ولم يكن أحد من التلاميذ قد تفرغ كلية بعد ليكون شريكاً للمسيح في عمله. لقد رأوا كثيراً من معجزاته واستمعوا لتعاليمه ولكنهم لم يكونوا قد تركوا حرفتهم وتبعوه نهائياً ، فقد كانت حادثة إلقاء يوحنا المعمدان في السجن صدمة عنيفة وخيبة أمل مريرة لجميعهم فإذا كانت هذه هي نتيجة خدمة يوحنا فلن يكون لهم كبير أمل في معلمهم وقد اصطف كل رجال الدين يحاربونه . وفي ذلك الظرف كان مما يسري عنهم كونهم يعودون لصيد السمك لوقت قصير . أما الآن فها يسوع يدعوهم لترك حرفتهم الأولى وحياتهم الأولى ليربطوا بين مصالحهم ومصلحته . وقد قبل بطرس الدعوة ولما وصل يسوع إلى الشاطئ دعا التلاميذ الثلاثة الآخرين (يعقوب ويوحنا وأندراوس) قائلاً: "هلمّ ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس" ففي الحال "تركوا كل شيء وتبعوه" (مرقس 1 : 17 ؛ لوقا 5 : 11).

ولكن يسوع قبلما أمرهم بترك شباكهم وسفن الصيد كان قد أعطاهم اليقين والضمان بأن الله سيسد أعوزهم. إن استخدامه لسفينة بطرس لأجل عمل الإنجيل جعل بطرس يأخذ في مقابل ذلك مكافأة سخية . إن ذاك الذي كان ولا يزال "غنياً لجميع الذين يدعون به" قال: "أعطوا تعطوا، كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً" (رومية 10 : 12 ؛ لوقا 6 : 38). وبهذا الكيل كافأ السيد تلميذه على خدمته . وكل تضحية نقوم بها في خدمته سيعطينا تعويضاً عنها "أكثر جداً مما نطلب" حسب "غنى نعمته الفائق" (أفسس 3 : 20 ؛ 2 : 7).

في أثناء تلك الليلة الكاسفة التي قضاها أولئك التلاميذ في البحيرة بعيداً عن المسيح كان عدم الإيمان رابضاً في قلوبهم وكانوا متعبين من عملهم العديم الفائدة. ولكن حضوره أضرم في قلوبهم الإيمان وأتاهم بالنجاح والفرح . وهذا ينطبق علينا . فبدون المسيح يمسي عملنا عديم الثمر ويكون من السهل علينا أن نشك ونتذمر . ولكن متى كان قريبا منا وعملنا نحن حسب توجيهاته فإننا نفرح عندما نتأكد من قوته العاملة معنا . إن عمل الشيطان هو تثبيط همة الإنسان ، أما عمل المسيح فهو أنه يلهمنا إيمانا ورجاء.

إن الدرس الأعمق الذي قد تعلمه التلاميذ من تلك المعجزة هو درس لنا نحن أيضاً — [222] هو أن ذلك الذي قد استطاع بكلمته أن يجمع السمك من البحر يمكنه أيضاً أن يعمل في قلوب بنى الإنسان ويجذبهم بربط محبته حتى يصير عبيده صيادي الناس.

ثقافة التلاميذ

إن صيادي الجليل أولئك كانوا قوماً متواضعين وأمينين ، ولكن المسيح ، نور العالم ، كان قادراً تماماً على أن يؤهلهم للمراكز التي قد اختارهم لها. إن المخلص لم يكن يحتقر العلم ، فالعلم متى سيطرت عليه محبة الله وكرس لخدمته تعالى فإن تلك الثقافة العقلية تكون بركة . ولكنه مر على حكماء زمانه لأنهم كانوا واثقين بأنفسهم فلم يعطفوا على البشرية المتألمة ليصيروا شركاء رجل الناصرة . وفي تعصبهم رفضوا واحتقروا التعلم من المسيح . إن الرب يسوع يطلب من أولئك الذين سيصرون قنوات صالحة ، لإيصال نعمته للناس أن يتعاونوا معه . إن أول ما يجب أن يتعلمه أولئك الذين يريدون أن يكونوا عاملين مع الله هو درس عدم الثقة بالنفس . أنهم حينئذ يكونوا مستعدين لأن تنطبع على قلوبهم صفات المسيح . وهذا لا ينال من التعلم في أرقى معاهد العلم . ولكنه ثمرة من ثمار الحكمة تعطى للإنسان من المعلم الإلهي وحده.

لقد اختار يسوع أولئك الصيادين العديمي العلم لأنهم لم يكونوا قد تعلموا في مدرسة التقاليد والعادات الخاطئة التي كانت شائعة في زمانهم. كانوا ذوي مقدرة فكرية ومتواضعين وقابلين للتعلم- رجالا يمكنه أن يدربهم على عمله . وفي مسالك الحياة المادية كثيراً ما يحدث أن رجلاً يسير في عمله اليومي وهو صابر ، دون أن يحس بأنه يملك مواهب لو دربت ونشطت فسترفعه لأن يكون صنوا لأكرم رجال العلم . إن الحال يحتاج إلى لمسة يد ماهرة لإيقاظ القوى الخامدة والملكات العظيمة الهاجعة . أمثال هؤلاء كان الرجال الذين دعاهم يسوع لمشاركته في عمله وأعطاهم امتياز معاشرته . إن أعاظم رجال العالم لم يظفروا بمثل هذا المعلم . وعندما تخرج التلاميذ في مدرسة المخلص لم يعودوا جهلة أو غير متعلمين كما كانوا . لقد صاروا مثله في التفكير والصفات ، وعرف الناس أنهم كانوا مع يسوع.

إن أسمى أهداف التهذيب ليس فقط تقديم العلم وإيصال المعلومات للعقول بل هو منح النشاط المحيي الذي يناله الإنسان بارتباط الذهن بالذهن والنفس بالنفس. إن الحياة وحدها [223] التي تلد حياة. ما كان أعظم امتياز أولئك الذين كانوا لمدى ثلاث سنين على اتصال دائم مع تلك الحياة الإلهية التي كانت تفيض منها كل البواعث المانحة للحياة والتي قد باركت العالم! هذا ، وأن يوحنا الحبيب قد سلم نفسه لقوة تلك الحياة العجيبة أكثر من صائر رفاقه. وهو الذي قال: "فإن الحياة أظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا" ، "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة" (1 يوحنا 1 : 2 ؛ يوحنا 1 : 16).

مؤهلون للخدمة

ولم يكن في رسل ربنا أية ميزة تجلب لهم الفخر أو المجد. فمن الواضح أن نجاحهم في عملهم إنما ينسب لله وحده . إن حياة هؤلاء الرجال والصفات التي نمت فيهم وعمل الله العظيم الذي عمل بواسطته - كل ذلك شهادة لما سيفعله الرب لكل من هم قابلون للتعليم وطائعون.

إن من يحب المسيح أكثر من غيره سيعمل أعظم قدر من الخير. إنه لا يوجد حد لنفع ذاك الذي إذ يطرح الذات جانبا يفسح المجال لعمل الروح القدس في قلبه ويحيا حياة التكريس التام لله . فلو صبر الناس على التدريب اللازم بدون شكوى أو ملل أو إعياء في الطريق فالله سيعلمهم ساعة فساعة ويوما فيوما . إنه يتوق إلى إعلان نعمته . فإذا أزاح شعبه العوائق فسيسكب سيول الخلاص بغزارة عن طريق القنوات البشرية . فلو اشتدت عزائم الناس في الحياة الوضيعة لعمل كل الصلاح الذي يستطيعون عمله ، وإذا لم يردع أحد غيرتهم لكان يوجد بدل العامل الواحد للمسيح عشرات ومئات.

إن الله يأخذ الناس كما هم ويدربهم على خدمته متى سلموا أنفسهم له. كذلك روح الله إذ يقبله الإنسان في نفسه فهو يحيي كل قواها وملكاتها . إن العقل المكرس لله بدون تحفظ متى كان منقادا بالروح القدس فهو ينمو في حالة توافق وانسجام واتزان ، ويتقوى ليدرك مطاليب الله ويتممها . والخلق الضعيف المترنح يصير قويا وثابتا . إن التعبد المستمر يوجد صلة وثيقة بين يسوع وتلميذه حتى ليصير المسيحي مثل سيده في الفكر والخلق فعن طريق الصلة بالمسيح ستكون عنده رؤى أصفي وأوسع مدى ، وإدراكه يكون ثاقبا [224] وحكمه أكثر اتزانا. إن من يتوق لأن يكون نافعاً في خدمة المسيح سينتعش بقوة شمس البر المحيية حتى يثمر ثمراً وفيراً لمجد الله.

إن الناس الذين حصلوا على أرقى تهذيب في الفنون والعلوم قد تعلموا دروساً ثمينة من المسيحيين في حياتهم الوضيعة مع أن العالم اعتبرهم عديمي العلم. ولكن هؤلاء التلاميذ المغموري الذكر قد حصلوا على

تهذيب في أعلى مدرسة . لقد جلسوا عند قدمي من شهد له موفدو الفريسيين ورؤساء الكهنة :“لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!” (يوحنا 7 : 46). [225]

الفصل السادس والعشرون ـــ في كفرناحوم

لقد سكن يسوع في كفرناحوم في أثناء تنقلاته إلى هنا وهناك ، وصارت تدعى " مدينته" وكانت تقع على شواطئ بحر الجليل بالقرب من حدود سهل جنيسارت الجميل ، إن لم تكن واقعة فيه بالفعل.

إن عمق انخفاض البحيرة يعطي للسهل المحيط بشواطئها طقس الجنوب اللطيف. في هذا السهل وفي أيام المسيح كانت تكثر أشجار النخيل والزيتون ، كما كانت توجد البساتين والكروم والحقول اليانعة والأزهار البديعة الناضرة بكثرة ، كانت تلك الأغراس تروى من ينابيع حية تنحدر من صخور الجبال . وكانت شواطئ البحيرة والتلال المحيطة بها على مسافة قريبة عامرة بالمدن والقرى ، و قوارب الصيد تملأ البحيرة . وفي كل مكان كنت ترى حركة ونشاطا.

كانت كفرناحوم نفسها مركزا ملائما لخدمة المخلص. فلكونها واقعة على الطريق العام الذي يربط دمشق بأورشليم ومصر وبمدن البحر الأبيض المتوسط فقد كانت جسرا عظيما للبلدان المجاورة ، وكان الناس القادمون من بلدان يمرون بهذه المدينة أو يلبثون فيها بعض الوقت للراحة من متاعب السفر جيئة وذهابا . ففي هذه المدينة أمكن ليسوع أن يلتقي بأناس كثيرين من كل الطبقات ومختلف الجنسيات ، فكان يقابل الأغنياء أو العظماء كما كان يتقابل مع الفقراء والمحتقرين ، فتناقلت الألسنة تعاليمه في بلدان كثيرة وعائلات عديدة . وكان هذا حافزا للناس على تفتيش أسفار الأنبياء ، فاتجهت الأنظار إلى المخلص وقدمت رسالته للعالم .

وبالرغم من الإجراءات التي اتخذها رجال السنهدريم ضد يسوع فقد كان الناس يتوقون إلى انتشار دعوته في كل الأماكن. وقد اهتمت السماء بكل من فيها بهذا الأمر اهتماما بالغا . وكان الملائكة يعدون الطريق لخدمته إذ كانوا يرفون على قلوب الناس ويجتذبونهم إلى المخلص. [226]

وفي كفرناحوم كان ابن خادم الملك الذي كان المسيح قد شفاه شاهدا لقوته وسلطانه. وقد شهد رب تلك الأسرة وكل بيته بإيمانهم بكل سرور . فعندما علم الناس بأن المخلص نفسه في وسطهم تحركت المدينة كلها واحتشدت الجماهير حوله ، وامتلأ المجمع بالعابدين في يوم السبت ، واشتد الزحام حتى لقد اضطر كثيرون من الناس للعودة من حيث أتوا لأنهم لم يستطيعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقا في وسط الزحام.

كلام نور وقوة

وكل من سمعوا المخلص: " بهتوا من تعليمه، لأن كلامه كان بسلكان" "لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة" (لوقا 4 : 32 ؛ متى 7 : 29). كان تعليم الكتبة والشيوخ باردا عديم التأثير وشكليا طقسيا كما لو كانوا يحفظونه عن ظهر قلب بدون فهم ، كما كنت كلمة الله في نظرهم عديمة القوة والحياة . لقد أبدلوا تعاليم الكلمة الإلهية بآرائهم وتقاليدهم . وفي خدمتهم التي كانوا قد اعتادوا القيام بها أقروا بأنهم

يفسرون الناموس ، ولكنهم لم يحصلوا على إلهام الهي ليوقظ قلوبهم أو قلوب سامعيهم.

لم يكن ليسوع أي دخل في المنازعات المختلفة التي كانت تحتدم بين اليهود إذ كان عمله هو تقديم الحق. وقد ألقت تعاليمه نورا إلهيا عظيما على أقوال الآباء والأنبياء ، وهكذا تلقى الناس الكتب المقدسة كإعلان جديد ، ولم يسبق لسامعيه أن لاحظوا ذلك المعنى العظيم لكلمة الله من قبل.

لتقى يسوع الناس على مستواهم كمن كان عليما بمشكلاتهم التي تربكهم ، وصير الحق جميلا إذ قدمه للناس بكل صراحة وبساطة. وكان كلامه طاهرا ونقيا وصافيا كمياه النهر الجارية . كان صوته موسيقيا على أسماع من اعتادوا الإصغاء إلى نغمات أصوات تنبعث على وتيرة واحدة من أفواه المعلمين الآخرين . ومع أن تعليمه كان بسيطا كان يتكلم كمن له سلطان . إن هذه الخاصة في طريقة تعليمه كانت على نقيض طريقة غيره . كان المعلمون يتكلمون وهم متشككون ومترددون ، كأن الكتب المقدسة تحتمل معنيين متناقضين . وكانت الشكوك تراود قلوب سامعيهم كل يوم . ولكن يسوع علم الناس بأن للكتب المقدسة سلطانا فوق كل تشكك . ومهما كان موضوع كلامه فقد كان يتكلم بكل قوة وسلطان إذ كان كلامه لا يحتمل جدالا. [227]

ومع ذلك فقد كان جادا وغيورا لا محتدا. كان يتكلم كمن أمامه غرض خاص ينبغي له أن يحققه . كان يكشف لعيون الشعب حقائق العالم الأبدي . لقد أعلن الله في كل موضوع طرقه . وحاول يسوع أن يكسر سحر الخطية الذي جعل الناس ينشغلون في الأمور الدنيوية ، فوضع شؤون هذه الحياة في وضعها الحقيقي كما هي على اعتبار أنها أمور ثانوية بالنسبة إلى المصالح الأبدية ، ولكنه مع ذلك لم يتجاهل أهمية الأشياء الأرضية . وقد علم الشعب أن السماء والارض مرتبطتان معا كما علمهم أيضا ان معرفتهم للحق الإلهي تعدهم إعدادا أفضل لإتمام واجباتهم اليومية . كان يتكلم كمن يعرف السماء وكمن يحس إحساسا واعيا بعلاقته بالله ، وفي نفس الوقت يعلم ارتباطه بكل فرد من أفراد الأسرة البشرية.

دروس لا تنسى

كانت رسائل الرحمة التي نطق بها تتنوع لتناسب سامعيه. ولقد قال عن نفسه على لسان إشعياء: "أعطاني السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيي بكلمة" (إشعياء 50 : 4) ، نعم إن النعمة قد انسكبت على شفتيه لكي يمكنه أن يحمل إلى الناس بكيفية جذابة كنوز الحق ، كما كانت عنده لباقة جعلته يواجه العقول المتعصبة ويسترعي انتباهها إذ كان يفاجئها بأمثاله ، عن طريق الخيال والفكر وصل إلى القلب . وكان يستنبط أمثاله من صور الحياة العادية التي مع بساطتها كانت تنطوي على معانٍ عميقة وعجيبة . فطيور السماء وزنابق الحقل والبذار والراعي وخرافه- من هذه الأشياء صور المسيح حقاً خالدا . ومنذ ذلك الحين عندما كانت أنظار سامعيه تقع على هذه الاشياء التي في عالم الطبيعة كانوا يتذكرون كلامه . وقد كانت أمثال المسيح مذكرا دائما بتعاليمه.

لم يتملق المسيح الناس قط . إنه لم يقل شيئا يمجد به رغباتهم وتصوراتهم ، كلا ولا أطرى واحدا منهم على مهارته في الابتكار . ولكن الناس المفكرين غير المتعصبين قبلوا تعاليمه ووجدوا أنها امتحان لحكمتهم . واندهشوا من الحق الإلهي الذي قد أوضحه السيد بأبسط الألفاظ ، وقد سحر كلامه ألباب أغزر الناس حكمة وعلما . وكذلك كان البسطاء في المعرفة يستفيدون دائما ، إذ كانت لديه رسالة ليقدمها للأميين العديمي العلم . وقد جعل حتى الوثنيين أنفسهم يفهمون أن لديه رسالة ليقدمها لهم كان حنانه ورقته يلمسان القلوب المثقلة والمضطربة ويشفيانها . حتى في وسط جلبة أعدائه الهائجين الغاضبين كان محاطا بجو

يسوده [228] السلام. إن جمال محياه وسمو صفاته وفوق الكل محبته التي كان يعبر عنها بنظراته وكلامه اجتذبت إليه كل من لم تتقس قلوبهم في عدم إيمان . فلولا روحه الحلو العطوف الذي كان يشرق فى كل نظرة وكلمة لما أمكنه أن يجتذب تلك الجموع العظيمة التي كانت تحتشد من حوله . والناس المرضى والمتألمون الذين أتوا إليه أحسوا بأنه قد ربط مصلحته بمصالحهم كصديقهم الأمين الرقيق القلب ، ولذلك كانوا يشتاقون إلى معرفة المزيد من الحق الذي علم به . لقد صارت السماء قريبة منهم فتاقت نفوسهم إلى البقاء في حضرته حتى تدوم لهم تعزية محبته.

كان يسوع يراقب بغيرة عظيمة التعبيرات المختلفة التي كانت تبدو على وجوه سامعيه. فالوجوه التي كان يلوح عليها الاهتمام والسرور جعلته يحس بالرضى والارتياح . فعندما كانت سهام الحق تطعن في صميم النفس محطمة حواجز الأنانية ومالئة القلب بشعور الانسحاق والتوبة وأخيرا تفعم القلب بالشكران كان قلب المخلص يمتلئ بهجة وحبورا . وعندما كان يجول ببصره ليرى جموع سامعيه ويعرف بينهم الناس الذين سبق أن رآهم كان وجهه يلمع بنور الفرح ، فلقد كان يرى في هؤلاء من يرجى دخولهم إلى الملكوت . وعندما يصدم الحق الذي ينطق به بكل صراحة صنما محبوبا ومتربعا في القلب كان السيد يرى التغيير الذي يبدو على وجه ذلك الإنسان ، وتلك النظرة الفاترة التي كانت تدل على عدم قبوله للحق . فحينما كان الناس يرفضون رسالة السلام كان ذلك طعنة نجلاء توجه إلى قلب الفادي.

الرجل المجنون

وإذ كان يسوع في المجمع تكلم عن الملكوت الذي قد أتى ليثبته ويوطد دعائمه وعن كونه مرسلا ليحرر أسرى الشيطان. وإذ به على حين فجأة يقاطع إذ سمعت في وسط ذلك السكون صرخة رعب عظيمة . وإذا برجل مجنون يندفع إلى الأمام من وسط الشعب صارخا وقائلا: "آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصري؟ أتيت لتهلكنا! أنا أعرفك أنت : قدوس الله!" (لوقا 4 : 34).

وقد حدث تشويش عظيم وامتلأت القلوب هلعا ورعبا ، وتحولت أنظار الناس بعيدا عن [229] يسوع ولم يلتفت أحد إلى كلامه. كان هذا ما يبغيه الشيطان من إتيانه بذلك المجنون (فريسته) إلى المجمع. ولكن يسوع انتهر الشيطان قائلاً: "اخرس! واخرج منه! فصرعه الروح النجس وصاح بصوت عظيم خرج منه" (لوقا 4 : 35).

كان الشيطان قد أظلم وشوش عقل ذلك الرجل المعذب ، ولكن عندما مثل في حضرة المخلص تبددت الظلمة أمام شعاعة من نوره. لقد أوقظ شعوره لكي يتوق إلى التحرر من قوة الشيطان ، ولكن الشيطان قاوم سلطان المسيح . وعندما طلب معونة يسوع وضع الروح الشرير كلاما في فم الرجل فصرخ وهو معذب من الخوف . عرف ذلك المجنون جزئيا أنه في حضرة ذاك الذي يستطيع أن يحرره . ولكن عندما حاول أن يقترب لكي يكون في متناول تلك اليد القوية منعته إرادة أخرى أقوى منه ونطق شخص آخر بكلام أخر وضعه في فمه ، فكان الصراع بين قوة الشيطان وبين رغبة الرجل في التحرر منها صراعا رهيبا .

إن ذاك الذي قهر الشيطان في برية التجربة نراه الآن يقف أمام عدوه وجها لوجه .ولقد بذل الشيطان كل ما في طوقه من حيلة وقوة لإبقاء فريسته تحس تحت سلطانه. فلو تراجع الآن لانتصر يسوع . وقد بدا كأن ذلك الرجل المعذب سيفقد حياته في صراعه مع العدو الذي كان العامل الأكبر في ضياع رجولته . ولكن المخلص تكلم بسلطان وحرر ذلك الأسير ، ووقف ذلك الرجل الذي كان فيه الشيطان أمام الجمع

المندهش فرحا بالحرية التي نالها وبقواه المعلية التي عادت إليه . حتى الشيطان نفسه شهد لقدرة ألوهية المخلص.

شكر ذلك الرجل الله على خلاصه. فتانك العينان اللتان كانتا ملتهبتين بنار الجنون صارت تشع منهما أنوار الفهم والذكاء وامتلأتا بدموع الشكر . وقد أبكمت الدهشة جمهور الشعب . فلما أفاق الناس من ذهولهم صرخوا قائلين: "ما هذا؟ ما هو هذا التعليم الجديد؟ لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه!" (مرقس 1 : 27).

عاقبة عدم الاعتدال

إن السبب الخفي في البلية التي جعلت هذا الرجل منظره مخيفا لأصدقائه وعبئا ثقيلا على نفسه كان في حياته. لقد بهرته ملذات الخطية وخلبت لبه فأراد أن يجعل حياته [230] مسرحا دائما للأكل والسكر والعربدة. لم يكن يعلم بأنه سيصير رعبا للعالم وعارا على أسرته . لقد ظن أنه سيقضي أيامه في اللهو البريء ، ولكن ما أن خطا أول خطوة في الطريق المنحدر حتى أسرع يهوي إلى أسفل . لقد أفسد الإفراط والطيش صفات طبيعته النبيلة ، وسيطر عليه الشيطان سيطرة كاملة.

ندم الرجل وتحسر ولكن بعد فوات الأوان. فعندما كان مستعدا لأن يضحي بالثروة والملذات لكي يستعيد رجولته الضائعة صار عاجزا إذ كان ممسكا في قبضة الشرير . لقد دخل بنفسه إلى أرض العدو فسيطر الشيطان على كل قوى عقله ونفسه ، إذ أغواه المجرب بكثير من العروض المغرية . ولكن حالما صار ذلك المسكين تحت سلطانه صار العدو عديم الرحمة في قسوته ومرعبا عندما كان يفتقده بحضوره . وهكذا ستكون الحال مع كل من يخضعون للشر ، فإن الملذات الفاتنة التي انغمسوا فيها في بكور حياتهم تنتهي بظلمة اليأس أو الجنون الذي يهاجم العقل ويحطمه.

إن نفس الروح الشرير الذي جرب المسيح في البرية والذي تحكم في قوى ذلك المجنون في كفرناحوم هو ذاته الذي سيطر على اليهود العديمي الإيمان. ولكن بالنسبة إليهم تزيا بزي التقوى إذ خدعهم فيما يختص ببواعثهم في رفض المخلص . فكانت حالتهم ميئوسا منها أكثر من حالة ذلك المجنون إذ لم يكونوا يحسون بحاجتهم إلى المسيح ولذلك تمكنت منهم قوة الشيطان.

خبث الشيطان

إن مدة خدمة المسيح بين الناس كانت هي الفرصة التي نشطت فيها جنود مملكة الظلمة بأكثر قوة. ولمدى دهور طويلة حاول الشيطان وملائكته الأشرار استرقاق الناس والسيطرة على أجسامهم وأرواحهم لكي يوقعوهم تحت سلطان الخطية والآلام ، وحينئذ حاول أن يلقي اللوم في كل هذا الشقاء على الله . ولكن يسوع كان يعلن للناس صفات الله وكان يحطم قوة الشيطان ويحرر أسراه ، فكانت حياة جديدة ومحبة جديده وقوة جديدة ترف على قلوب الناس . ولهذا ثار سلطان الظلمة وناضل لكي تسود مملكته . وقد عبأ الشيطان كل جيوشه وفي كل خطوة كان يحارب عمل المسيح. [231] وهكذا ستكون الحال في النضال الأخير العظيم بين البر والخطية. فعندما ينبثق نور وحياة وقوة جديدة من الأعالي على تلاميذ المسيح تنهض قوة معاكسة من أسفل لتنعش أعوان الشيطان وتنشطهم . إن القوة والعنف يسيطران على كل

عنصر أرضي . وإن رئيس قوات الشر بخداعه الذكي الذي قد أكتسبه مدى أجيال الصراع الطويلة يعمل عمله متنكرا ، فهو يظهر في شبه ملاك نور . ولذلك تنجذب جماهير غفيرة من الناس "تابعين أرواحاً مضلّة وتعاليم شياطين" (1 تيموثاوس 4 : 1).

وفي أيام المسيح كان رؤساء إسرائيل ومعلموهم عاجزين عن مقاومة عمل الشيطان .فلقد أهملوا الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها يستطيعون أن يصمدوا للأرواح الشريرة. إن المسيح غلب الشرير بقوة كلمة الله . وقد ادعى رؤساء إسرائيل أنهم مفسرو كلمة الله ، ولكنهم درسوها فقط لكي يعاضدوا تقاليدهم ويلزموا الشعب بحفظ وصايا الناس . ولكن تفسيرهم الذي ما أنزل الله به من سلطان ، جعل الحق الإلهي مشوها . وتفسيرهم الغامض زاد من تعقيد الحق الذي قد أوضحه الله . وكانت مجادلاتهم تدور حول اصطلاحات تافهة ولكنهم بالفعل أنكروا الحقائق الجوهرية . وهكذا استشرى الإلحاد . فلقد جردَت كلمة الله من قوتها فنجحت بذلك مقاصد الأرواح الشريرة.

تضليل الناس

والتاريخ يعيد نفسه. إن كثيرين من المعلمين الدينيين في هذه الأيام والذين كتاب الله مفتوح بين أيديهم ويعترفون بأنهم يوقرون تعاليمه ، هم مع ذلك يقوضون إيمان الناس بكلمة الله . إنهم يشغلون أنفسهم في تشريح كلمة الله ويجعلون آراءهم أعلى وأسمى من تعاليمه الواضحة كل الوضوح . وفي أيديهم تجرد كلمة الله من قوتها المجددة . هذا هو سبب تفشي الإلحاد وتسلطه على عقول الناس.

إن الشيطان عندما يقوض الإيمان بالكتاب المقدس فهو يوجه الناس إلى مصادر أخرى للحصول على النور والقوة. وهكذا يتسلل إلى القلوب بنفسه . فأولئك الذين يرتدون عن تعاليم الكتاب الصريحة وقوة روح الله القدوس المبكت يفتحون الباب لدخول الأبالسة إلى القلب واحتلاله . فالانتقاد والمجادلات والمماحكات فيما يختص بالكتاب هي فتح الطريق [232] على سعته أمام مناجاة الأرواح والتصوف- تلك الأشكال الوثنية القديمة المستحدثة تثبت أقدامها حتى في الكنائس المعترفة بالرب يسوع المسيح فإلى جوار الكرازة بالإنجيل توجد قوات هدامة ، التي هي مجرد آلات في يد الأرواح الشريرة ، وكثيرا ما يتقرب إنسان إلى هؤلاء القوم لا لشيء إلا لمجرد حب الاستطلاع ، ولكنه إذ يرى برهانا على وجود قوة عاملة تفوق قوة البشر فإنه يغوى ويستهوى إلى أن تتحكم فيه قوة تفوق قوته ولا يستطيع التملص من تلك القوة الخفية.

إن حصون النفس تنهدم ، فلا حواجز تحول بينة وبين الخطية ، فما أن يرفض الإنسان ضوابط كلمة الله وروحه حتى يغوص إلى أعماق الفساد السحيقة التي لا يعرف أحد لها قرارا. فالخطية السرية أو الشهوة المتحكمة تأسره وتصيره عاجزا تماما كما كان الرجل المجنون في كفرناحوم . ومع ذلك فإن حالته لا تدعو إلى اليأس.

إن وسيلة انتصارنا على الشرير هي نفس الوسيلة التي بها انتصر المسيح- بقوة كلمة الله. إن الله لا يضبط عقولنا أو يسيطر عليها بغير رضانا ، ولكن إذ رغبنا في معرفة مشيئته والسير بموجبها فإن مواعيده تكون لنا . " تعرفون الحق، والحق يحرركم" " إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم (" يوحنا 8: 32 ؛ 7 : 17). فبالإيمان بهذه المواعيد يمكن لكل إنسان أن ينجو من أشراك الخطأ وسلطان الخطية.

نجاة وخلاص

لكل إنسان كامل الحرية في اختيار القوة التي يريد أن تتحكم فيه. إنه لم ينحدر أحد إلى دركة سحيقة جدا ولا صار فاسدا وشريرا جدا إلى حد إنه لا يستطع أن يجد النجاة والخلاص في المسيح . إن الرجل الذي كان فيه الروح النجس وهو في موضع الصلاة لم يستطع أن ينطق إلا بكلام الشيطان ، ومع ذلك فإن صرخة قلبه التي لم ينطق بها سمعت . إنه لا توجد صرخة تصدر عن نفس محتاجة حتى ولو عجزت عن التعبير عنها بالكلام إلا ويلتفت الرب إليها ويجيبها . والذين يرغبون في الدخول في عهد مع رب السماء لا يتركون تحت رحمة الشيطان أو أي ضعف في طبيعتهم . فالمخلص يدعوهم قائلا: "يتمسك بحصني (بقوتي) فيصنع صلحاً معي. صلحاً يصنع معي" (إشعياء 27 : 5). إن الأرواح الشريرة [233] ستحارب للسيطرة على النفوس التي كانت قبلا تحت سلطانها. ولكن ملائكة الله يحاربون عن تلك النفوس بقوتهم القاهرة . يقول الرب: "هل تسلب من الجبار غنيمة؟ وهل يفلت سبي المنصور؟ فإنه هكذا قال الرب: حتى سبي الجبار يسلب، وغنيمة العاتي تفلت. وأنا أخاصم مخاصمك وأخلّص أولادك" (إشعياء 49 : 24، 25).

وإذ كان الشعب الذين في المجمع لا يزالون في ذهولهم وقد ملكتهم الرهبة تسلل يسوع إلى الخارج وذهب إلى بيت بطرس ليسترح قليلا. ولكن حتى في ذلك البيت خيم الحزن والألم على ساكنيه فلقد كانت حماة بطرس مريضة بـ "حمّى شديدة" فإذ انتهر يسوع الحمى قامت المريضة وصارت تخدم المعلم وتلاميذه.

الشافي العظيم

وبسرعة ذاعت أنباء خدمة المسيح وقدرته في كل كفرناحوم. ولكن خوفا من المعلمين لم يجرؤ المرضى على المجيء إليه في طلب الشفاء في يوم السبت . ولكن ما إن اختفت الشمس خلف الأفق حتى حدث هرج ومرج عظيم وسارع الناس إلى يسوع من البيوت والحوانيت والأسواق وجاء سكان المدينة يتزاحمون عليه في ذلك البيت المتواضع الذي أوى إليه . حيث أتي إليه بالمرضى محمولين على أسرة أو متوكئين على عصيهم أو مستندين على أصدقائهم وساروا بتثاقل ووهن حتى مثلوا في حضرة المخلص.

وساعة بعد ساعة كان الناس يجيئون ويروحون بينما لم يكن أي واحد منهم يعلم ما إذا كان ذلك الشافي العظيم سيظل معهم إلى الغد أم يرحل عنهم. ولم يسبق لمدينة كفرناحوم أن رأت يوما كهذا اليوم- فقد امتلأ الجو بأصوات الانتصار وهتافات الفرح بالنجاة والشفاء كما فرح المخلص بهذا الفرح الذي أوجده ، إذ حين رأى آلام من قد أتوا إليه امتلأ قلبه حنانا وعطفا ، وقد فرح بالقوة التي منحتهم العافية والسعادة.

لم يكف يسوع عن مزاولة عمله حتى شفي آخر مريض. ولم تترك الجماهير ذلك المكان حتى كان قد مضى شطر كبير من الليل . وحينئذ ساد السكون في بيت سمعان .لقد انقضى ذلك اليوم الطويل المثير فطلب يسوع الراحة . ولكن فيما كان أهل المدينة لا يزالون هاجعين في مضاجعهم: "في الصباح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يصلّي هناك" (مرقس 1 : 35). [234]

هكذا كان يسوع يقضى أيام حياته على الأرض. وفي أحيان كثيرة كان يصرف تلاميذه ليزوروا

عائلاتهم ويستريحوا بعض الوقت ، ولكنه بكل لطف عارض في الاستجابة إلى محاولاتهم في إبعاده عن عمله . كان يتعب طول اليوم وهو يعلم الجهال ويشفي المرضى، ويفتح أعين العميان ويشبع الجموع ، وفي وقت المساء أو في الصباح الباكر كان ينطلق إلى مقادس الجبال ليكون في شركة مع أبيه . وكثيرا ما كان يقضي الليل كله في الصلاة والتأمل ليعود في بكور اليوم لمزاولة عمله بين الشعب.

الشهرة نقيض الخدمة

وفي الصباح باكرا أتى بطرس ورفاقه إلى يسوع قائلين له إن شعب كفرناحوم قد جاءوا يطلبونه. لقد كان التلاميذ قبل ذلك يحسون بخيبة أمل مريرة من سوء استقبال الناس للمسيح . فلقد حاولت السلطات في أورشليم أن تقتله ، بل حتى مواطنوه الذين عاش بينهم حاولوا القضاء عليه بالموت . أما في كفرناحوم فقد استقبلوه بحماسة وفرح فاضطرمت نار الرجاء في قلوب التلاميذ من جديد ، إذ قد يكون بين أهل الجليل محبي الحرية ، من يهبون لمعاضدة هذا الملكوت الجديد . ولكن تلاميذه ذهلوا حينما سمعوه يقول: "لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً، لأني لهذا خرجت" (مرقس 1 : 38).

ففي الثورة التي شملت مدينة كفرناحوم كان يخشى لئلا يختفي غرض رسالته ويغيب عن الأنظار. لم يكن يسوع قانعا باجتذاب الأنظار إلى شخصه على أنه مجرد إنسان يصنع المعجزات ويشفي أمراض الجسد ، ولكنه كان يقصد أن يجتذبهم إلى نفسه كالمخلص . ففي حين كان الناس يتوقون إلى الإيمان بأنه قد أتى كملك ليقيم ملكوتا أرضيا كان هو يتوق إلى تحويل عقولهم وصرفها عن الأرضيات إلى الروحيات . فقد كان يمكن أن مجرد النجاح المادي الصرف يعطل عمله .

وقد أثرت في روحه دهشة الشعب العديم الاكتراث. فلم تمتزج بحياته أية غطرسة . إن ابن الإنسان لم يكن يقدم ولاءه للمركز أو الثروة أو العبقرية كما يفعل العالم ، ولم يستخدم يسوع الوسائل التي يستخدمها الناس للظفر بإكرام الشعب وولائه . فقبل ميلاده بقرون عديدة تنبأ عنه النبى قائلا: "لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا [235] يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ. إلى الأمان يخرج الحق. لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض" (إشعياء 42 : 2 — 4).

فقد طلب الفريسيون الشهرة والعظمة عن طريق التدقيق في حفظ الطقوس في عبادتهم وتقديم صدقاتهم ، وبرهنوا على غيرتهم على الديانة بجعلها موضوعا للجدل ، فثارت المنازعات وعلت الأصوات في الجدل بين الأحزاب المختلفة. وقد كان أمرا عاديا أن يسمع الإنسان في الشوارع المشادات الكلامية الغاضبة بين كبار معلمي الناموس. ولكن حياة يسوع كانت تختلف اختلافا بينا عن كل هذا . ففي حياته لم تكن تسمع مجادلات صاخبة ولا عبارة متفاخرة ، ولا عمل عملا لينال به استحسان الناس . لقد كان المسيح مستترا في الله فأُعلن الله وأُظهر في صفات ابنه . وقد رغب المسيح في أن تتجه عقول الشعب إلى هذا الإعلان وأن يقدموا له ولاءهم.

إن شمس البر (يسوع) لم يشرق على العالم في كمال طهارته ليبهر الأنظار بمجده. بل جاء عن المسيح: "خروجه يقين كالفجر" (هوشع 6 : 3). فنور النهار يشرق على الأرض بكل هدوء ولطف مبدداً الظلمات وموقظاً العالم إلى الحياة. وهكذا: "تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها" (ملاخي 4 : 2). [236]

الفصل السابع والعشرون ـــ "تقدر أن تطهرني"

من بين كل الأمراض المعروفة في الشرق كان البرص أشدها رعبا. فإذ كان مرضا معدياً ولا شفاء منه ، وبسبب آثاره المرعبة في ضحاياه ، كان أشجع الرجال يرتعدون فزعا منه . وكان اليهود يعتبرونه دينونة من الله على خطية . ولذلك كانوا يسمونه "الضربة" ، "إصبع الله". إذ كان ذلك المرض متأصلا في جسم المصاب ولا يمكن استئصاله كان الناس ينظرون إليه على أنه رمز للخطية . وبموجب الشريعة الطقسية كان يحكم على الأبرص بأنه نجس ، وكذلك يحكم بطرده من بين الناس كمن قد مات . وكل ما يلمسه الأبرص كان يتنجس ، بل حتى الهواء يتلوث من أنفاسه . ومن يشتبه فيه بأنه مصاب بهذا المرض كان عليه أن يعرض نفسه على الكاهن الذي وجب عليه أن يفحصه ويحكم في أمره .فمتى حكم عليه أنه أبرص يفصل عن عائلته بعيدا أو يقطع من جماعة إسرائيل ويقضى عليه بألا يعاشر إلا من كانوا مصابين بمثل إصابته . إن الناموس لم يكن يتسامح ولا يلين في مطاليبه بهذا الشأن . حتى الملوك والرؤساء لم يعفوا من تلك الأحكام. فالملك المصاب بهذا المرض المخيف كان يلتزم بأن يسلم قضيب الملك لأخر وينفى بعيدا عن الناس.

فكان على الأبرص أن يتحمل لعنة مرضه بعيدا عن أصدقائه وأقربائه. وكان مجبرا على أن يعلن عن مصيبته بكونه يمزق ثيابه ويحذر الكل لكي يهربوا من عدواه . إن الصرخة التي كانت تصدر عن الأبرص قائلة "نجس . نجس" بنغمة حزينة باكية من المنفي الموحود كانت كفيلة بأن تملأ قلوب سامعيها بالخوف والاشمئزاز. [237]

رجاء أبرص

وفي الإقليم الذي خدم فيه المسيح كان يوجد كثيرون من البرص ، وقد وصلتهم أنباء عمله فأشرقت في قلوبهم أنوار الرجاء. ولكن منذ أيام أليشع النبي لم يسمع أن إنسانا أبرص قد طهر من برصه . ولم يجرؤ أولئك البرص على أن ينتظروا من يسوع أن يجري فيهم تلك المعجزة التي لم يجرها لأحد قط . ومع ذلك فقد وجد إنسان واحد بدأ الإيمان ينتعش في قلبه ، ومع ذلك فإن هذا الرجل لم يكن يعلم كيف يصل إلى يسوع .وكيف يتقدم إلى ذلك الشافي ما دام محرما عليه الاختلاط ببني جنسه . فتساءل ذلك المريض ما إذا كان يسوع يرضى بأن يشفيه ، وهل يتنازل السيد ليلاحظ ذاك الذي كان الناس يعتقدون أنه يتألم تحت دينونة الله؟ ألا يلعنه كالفريسيين ، أو حتى كالأطباء وينذره بالهرب بعيدا عن مساكن الأصحاء؟ لقد فكر الرجل في كل ما قيل له عن يسوع بأنه لم يطرد أي إنسان أتاه يطلب منه العون ، لذلك عزم ذلك الإنسان التعس على أن يجد المخلص . ومع أنه كان منفيا بعيدا عن المدن فربما يلاقي ذلك السيد الرحيم في طريق منقطع غير مطروق في المسالك الجبلية ، أو قد يجده وهو يعلم خارج المدن . لقد كانت الصعوبات عظيمة أمامه ولكن هذا كان رجاءه الوحيد.

ثم أرشد الأبرص إلى المخلص. وها يسوع يعلم عند البحيرة وقد تجمهر الناس حوله . وقف الأبرص من بعيد وإذناه تلتقطان قليلا من أقوال المخلص . ثم ها هو يراه يضع يديه على المرضى ، وها هو يرى العرج والمفلوجين والموشكين على الموت من أمراضهم المختلفة ، رأى أولئك جميعا ينهضون في ملء الصحة وهم يسبحون الله على شفائهم . فيتشدد الإيمان في قلبه ، ثم يقترب من ذلك الجمع أكثر فأكثر ، ناسيا ، إلى حين ، القيود المفروضة عليه وسلامة الشعب والخوف الذي ينظر به الناس إليه ، ولا يفكر في غير الرجاء المبارك رجاء الشفاء.

إن منظره كريه ، فلقد هجم عليه المرض هجوما عنيفا بحيث صار منظر جسمه متآكلا مرعبا. فإذ رآه الناس تراجعوا في ذعر، ها هم يزحمون بعضهم بعضا للهرب من عدواه، وعبثا يحاول بعض منهم أن يحولوا بين الرجل والاقتراب من يسوع . إنه لا يراهم ولا يسمعهم . وعبارات الاشمئزاز التي يسمعها منهم لا تؤثر فيه . فهو لا يرى غير [238] ابن الله ، ولا يسمع غير الصوت الذي يمنح للموتى الحياة. وإذ يدنو من يسوع يجثو عند قدميه ويصرخ قائلا: "يا سيد، إن أردت تقدر أن تطهّرني" (متى 8 : 2).

" أريد، فاطهر!"

أجاب يسوع: أريد، فاطهر!" (متى 8 : 3) ووضع يده عليه وفي الحال حدث تغيير في ذلك الأبرص . فلقد عادت الصحة إلى جسمه وصارت أعصابه حساسة وقويت عضلاته . وتلك القشور الخشنة التي تتفرد بها أجسام البرص اختفت ، وحل مكانها لون وردي نضير جعل جسمه يبدو كجسم صبي صغير في ملء الصحة.

وقد أوصى يسوع ذلك الرجل ألا يذيع نبأ ذلك الشفاء ، بل أن يسرع ليقدم عن نفسه ذبيحة في الهيكل. وما كانت تلك الذبيحة تقبل إلا بعدما يفحصه الكهنة ويحكمون بأنه قد شفي تماما من المرض . ومع نفور الكهنة من القيام بتلك الخدمة فلم يكن يسعهم التهرب من فحص المريض ليحكموا له أو عليه .

ترينا أقوال الكتاب مقدار التشديد الذي اشترطه المخلص على ذلك الرجل بلزوم الصمت والعمل الناجز، إذ يقول البشير: " فانتهره وأرسله للوقت، وقال له: انظر، لا تقل لأحد شيئاً، بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدّم عن تطهيرك ما أمر به موسى، شهادة لهم" (مرقس 1: 43، 44). لو عرف الكهنة الحقائق الخاصة بشفاء ذلك الأبرص لكانت كراهيتهم للمسيح قد أملت عليهم حكما كاذبا جائرا ، فرغب يسوع في أن يقدم الأبرص فسه في الهيكل قبلما يصل إلى مسامع الكهنة خبر تلك المعجزة ، إذ بهذه الكيفية يمكنهم أن يصدروا حكما عادلا ، فيتمكن ذلك الأبرص الذي شفي من أن يجتمع بعائلته وأصدقائه مرة أخرى.

كانت للمسيح أغراض أخرى يرمى إليها من تشديده على الرجل بأن يظل صامتا. فلقد عرف المخلص أن أعداءه كانوا دائبين أبدا على الحد من نشاطه وخدمته وإبعاد الناس عنه. كما عرف أنه إذا انتشر خبر شفاء ذلك الأبرص فإن كثيرين من المصابين بذلك المرض الوبيل كانوا يتجمهرون حول المسيح ، وحينئذ سيصيح صائح ويقول إن الشعب قد أصيبوا بعدوى البرص من جراء احتكاكهم بأولئك البرص . وكثيرون من البرص ما كانوا يستخدمون بركة [239] الشفاء كبركة لذواتهم أو لغيرهم. ومتى اجتذب يسوع البرص حوله فإن ذلك يعطي أعداءه فرصة لاتهامه بأنه يتعدى نواهي الناموس الطقسي . وبهذا يتعطل عمل الكرازة بالإنجيل.

إذاعة الخبر

هذه الحالة بررت إنذار المسيح. إذ إن شفاء ذلك الأبرص شاهده جميع من الناس ، وكانوا يتوقون لمعرفة حكم الكهنة . فلما عاد الرجل إلى أصدقائه حدث اهتياج عظيم .فبالرغم من تحفظ يسوع لم يبذل ذلك الرجل أي مسعى لإخفاء حقيقة شفائه . وكان من المستحيل إخفاء الأمر ، لكن ذلك الأبرص بعدما شفي أذاع الخبر في كل مكان . كما فهم أن وداعة يسوع هي التي جعلته يأمره بالسكوت . ولذلك جال من مكان إلى مكان معلنا عن قوة هذا الشافي العظيم . ولكنه لم يكن يدرك أن تلك الإعلانات ستزيد من إصرار الكهنة والشيوخ على إهلاك يسوع . لقد أحس الرجل الذي شفي أن هبة الشفاء ثمينة جدا ، ففرح وتهلل إذ استعاد قوة رجولته وأعيد إلى عائلته وعشرائه ، ورأى أنه من المستحيل عليه أن يكف عن تمجيد ذلك الطبيب الذي شفاه . ولكن إذاعته لخبر تلك المعجزة نتج عنه تعطيل عمل المخلص ، إذ تقاطر الناس عليه بكثرة عظيمة حتى اضطر للتوقف عمن العمل إلى حين.

إن كل عمل من أعمال المسيح كان له غرض بعيد المدى ، وكان يشتمل على ما هو أكثر مما لاح في العمل نفسه . هكذا كانت الحال مع الأبرص ، ففي حين أن يسوع خدم حاجات كل من أقبلوا إليه فقد كان يتوق لأن يبارك من لم يأتوا . وفي حين أنه اجتذب العشارين والوثنيين والسامريين كان يشتاق للوصول إلى الكهنة والمعلمين الذين كبلهم التعصب والتقاليد . لقد استنفد كل وسيلة كان يمكنه بواسطتها أن يصل إليهم . وفي إرساله الأبرص الذي شفي إلى الكهنة قدم شهادة أراد بها القضاء على تعصبهم.

لقد ادعى الفريسيون أن تعليم المسيح مضاد للناموس الذي أعطاه الله لشعبه على يد موسى. ولكنه في توصيته للأبرص الذي قد طهر بأن يقدم ذبيحة حسب ما هو مفروض في الناموس ، كذب ذلك الادعاء ، فكان ذلك شهادة كافية لإقناع كل من يريدون أن يقتنعوا. ثم أرسل الرؤساء في أورشليم جواسيس ليتجسسوا على يسوع لعلهم يجدون عليه علة [240] يتعللون بها لإهلاكه ، فكان جوابه على ذلك الإجراء أن قدم لهم برهانا على حبه للبشرية واحترامه للناموس ، وقدرته على أن يخلص من الخطية والموت. وهكذا شهد عنهم قائلا: ”وضعوا عليّ شراً بدل خير، وبغضاً بدل حبّي“ (مزمور 109 : 5). إن ذاك الذي أوصى في موعظته على الجبل قائلاً: ”أحبّوا أعداءكم“ قد مثّل بنفسه هذا المبدأ القائل: ”غير مجازين عن شر بشر أو عن شتيمة بشتيمة، بل العكس مباركين“ (متى 5 : 44 ؛ 1 بطرس 3 : 9).

الشفاء حجة مقنعة

إن نفس الكهنة الذين حكموا على الأبرص بالطرد من بين الأصحاء شهدوا الآن بأنه قد شفي. وإذ نطقوا بهذا الحكم جهارا وسجلوه كان ذلك شهادة ثابتة للمسيح . وإذ أعيد الرجل بعدما شفي إلى جماعة إسرائيل بناء على تأكيد الكاهن نفسه بأنه لم يعد للمرض أي أثر فيه ، كان هو نفسه شهادة حية لمن قد أحسن إليه . وبفرح عظيم قدم ذبيحة وعظَّم اسم يسوع ، كما شهد الكهنة لقوة المخلص الإلهية . لقد قدمت لهم الفرصة لأن يعرفوا الحق وينتفعوا بالنور ، فإذا رفضوا النور فسيرحل عنهم إلى غير عودة . لقد رفض كثيرون النور ولكنه لم يعطَ عبثاً ، إذ تأثرت قلوب كثيرة لم يكن يبدو عليها أي تأثر . ومدى سني خدمة المخلص بدا كان رسالته لم تجد سوى تجاوبا قليلا من محبة الكهنة والمعلمين ، ولكن بعد صعوده إلى السماء نقرأ قول الكتاب: ”جمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان“ (أعمال 6 : 7).

إن عمل المسيح في تطهيره للأبرص من ذلك المرض المخيف هو مثال لعمله في تطهير النفس من الخطية. كان الرجل الذي أتى إلى يسوع "مملوءاً برصاً". لقد نفذ سم ذلك الداء الوبيل إلى كل جسمه . فحاول التلاميذ الحيلولة بين معلمهم وملامسة الأبرص ، لأن كل من يلمس أبرص يصير هو نفسه نجسا . ولكن يسوع لم يتنجس عندما لمس ذلك الأبرص. بل إن لمسته منحته قوة حياة فطهر من برصه . وهكذا الحال مع برص الخطية ، فهي متأصلة في القلب ومميتة ، ومن المستحيل أن يطهر أحد منها بقوة بشرية: "كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وأحباط" (إشعياء [241] 1: 5 و 6). ولكن يسوع إذ اتخذ جسماً بشرياً لم يتنجس، بل إن وجوده فيه له قوة شافية للخاطئ. وكل من يجثو عند قدميه بإيمان قائلاً: "يا سيد، إن أردت تقدر أن تطهرني" سيسمع الجواب "أريد، فاطهر!" (متى 8 : 2 و 3).

دروس في أعمال الشفاء

في بعض حالات الشفاء لم يعط يسوع البركة المطلوبة في الحال. ولكن في حالة هذا الأبرص ما إن تقدم بطلبه هذا إلى السيد حتى أجيب إلى طلبه . عندما نطلب بركات زمنية قد تتأخر الإجابة ، أو قد يمنحنا الله شيئا غير ما طلبناه . ولكن عندما نطلب الخلاص من الخطية فالأمر يكون على خلاف هذا . فالرب يريد أن يطهرنا من خطايانا ويجعلنا أولادا له ويجعلنا قادرين على أن نحيا حياة القداسة . إن المسيح "بذل نفسه لأجل خطايانا، لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا" (غلاطية 1 : 4) ، "هذه هي الثقة التي لنا عنده: أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا. وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا، نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه" (1 يوحنا 5 : 14، 15). "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" (1 يوحنا 1 : 9).

وإذ شفى المسيح المفلوج في كفرناحوم علَّم نفس الحق ، فلكي يعلن عن سلطانه لأن يغفر الخطايا أجرى تلك المعجزة. كما أن شفاء المفلوج يكشف لنا أيضاً حقائق ثمينة ، فهو غني بالرجاء والتشجيع ، وبالنسبة لعلاقته بمماحكة الفريسيين فإن فيه أيضاً تحذيرا لنا.

وكما كانت الحال مع الأبرص فكل آمال هذا المفلوج في الشفاء انهارت. وقد أصابه هذا المرض نتيجة لحياة قضاها في ارتكاب الخطية ، كما زادت من آلامه مرارة الندم . لقد ظل طويلا يتوسل إلى الفريسيين ومعلمي الناموس آملا أن يجد على أيديهم راحة من آلامه النفسية والجسمانية . ولكنهم بكل برود حكموا عليه بأن مرضه غير قابل للشفاء وأسلموه لغضب الله . فلقد اعتبر الفريسيون أن المحن والآلام برهان على سخط الله ، وكانوا يترفعون عن المرضى والفقراء . ومع ذلك فإن هؤلاء أنفسهم الذين شمخوا بأنوفهم في صلف وكبرياء معتبرين ذواتهم قديسين كانوا في غالب الأحيان أعظم جرما وأثقل إثما من أولئك المتألمين الذين حكموا عليهم. [242]

عون لفاقدي الرجاء

كان ذلك المفلوج عاجزا تماما ، فإذ لم ير عونا يأتيه من أي إنسان غاص في بالوعة اليأس. ولكنه بعد ذلك سمع عن القوات العجيبة التي أجراها يسوع . وسمع أن آخرين كانوا خطاة وعاجزين مثله نالوا الشفاء

، حتى البرص طهروا . وقد شجعه أصدقاؤه الذين أنبأوه بتلك الأخبار السارة ، على الإيمان بأنه يمكنه هو أيضا أن يشفى لو حمل إلى يسوع. ولكن قلبه غاص في داخله في يأس مرير عندما ذكر كيف أصابه ذلك المرض . وقد كان يخشى من أن ذلك الطبيب القدوس قد لا يحتمل أن يراه ماثلا في حضرته ومع ذلك فإن ما كان يصبو إليه هذا المريض لم يكن هو شفاء الجسد بقدر ما كان يتوق إلى الراحة من عبء الخطية ، فلو أمكنه أن يرى يسوع وينال يقين غفران السماء وسلام الله فسيكون قانعا بالموت أو بالحياة بحسب ما يريد الله . كانت صرخة ذلك الرجل المحتضر هي هذه: "يا ليتني أمثل أمامه!" لم يكن لديه وقت يضيعه هباء ، فلقد تهرأ جلده ولحمه وبدت في جسمه آثار الفساد فتوسل إلى أصدقائه أن يحملوه على فراشه إلى يسوع ، ففعلوا ذلك بكل سرور . ولكن الزحام في داخل البيت الذي كان في به المخلص وخارجه كان على أشده حتى بدا من المستحيل على ذلك المريض وأصدقائه أن يشقوا لأنفسهم طريقا في وسط تلك الكتل البشرية ليصلوا إليه أو على الأقل يسمعون صوته من بعد.

كان يسوع يعلم في بيت بطرس وحسب العادة كان تلاميذه جلوسا إلى جواره: " وكان فريسيون ومعلّمون للناموس جالسين وهم قد أتوا من كل قرية من الجليل واليهودية وأورشليم" (لوقا 5 : 17). لقد أتى أولئك الناس ليتجسسوا على يسوع لعلهم يجدون عليه علة ، وخارج هذه الدائرة كانت توجد جموع مختلطة بلا ترتيب . منهم المتشوقون والمتهيبون والفضوليون والعديمو الإيمان . وكانت جنسيات مختلفة وطبقات متعددة ممثلة هناك: "وكانت قوة الرب لشفائهم" (لوقا 5 : 17). فكان روح الحياة يحتضن ذلك الجمع ، ولكن الفريسيين والمعلمين لم يلاحظوا حضوره إذ لم يكونوا يحسون بحاجتهم ولذلك لم يكن لهم نصيب في الشفاء: "أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين" (لوقا 1 : 53). [243]

ثغرة في السقف

حاول حاملو المفلوج مرارا أن يشقوا لأنفسهم طريقا في وسط ذلك الجمع ولكن كل محاولاتهم ذهبت هباء. وقد جال الرجل المريض في ألم وعذاب لا يعبر عنهما . وبعدما صارت المعونة التي طالما اشتاق إليها في متناول يده ، كيف يمكنه الآن أن يفلت الرجاء من يده . فبناء على اقتراحه حمله أصدقاؤه إلى سطح البيت وبعدما كشفوا السقف دلوا المرض أمام قدمي يسوع ، فتوقف السيد عن حديثه ، ونظر إلى وجه ذلك الرجل الذي ارتسمت عليه الحزن والفجيعة ورأى عينيه المتوسلتين مركزتين فيه . وقد عرف حالته لأنه هو الذي كان قد اجتذب إليه تلك النفس المرتبكة المتشككة . فإذ كان المفلوج لا يزال في بيته أدخل المخلص التبكيت إلى ضميره . وعندما تاب عن خطاياه وآمن بقدرة يسوع على شفائه باركت قلبه المشتاق مراحم المخلص المانحة الحياة . وقد لاحظ يسوع أول بارقة من بوارق الإيمان تنمو فيه حتى صارت يقينا لا يتزعزع بأن هذا هو المعين الوحيد للخاطئ ، كما رأى ذلك الإيمان ينمو و يتقوى مع كل محاولة أبداها للمثول بين يدي الفادي.

وبكلمات نزلت كالموسيقى على أذني المتألم قال له المخلص: "ثق بي يا بني. مغفورة لك خطاياك" (متى 9 : 2).

تدحرج حمل اليأس عن نفس ذلك الإنسان وشمل قلبه سلام الغفران ، فأضاء وجهه بنور الفرح. لقد شفي من ألمه الجسماني فتبدل كل كيانه . شفي المفلوج العاجز! وغفرت خطايا ذلك الخاطئ المجرم!

وبإيمان بسيط قبل الرجل كلمات يسوع كهبة الحياة الجديدة ، ولم يلح في طلب شيء آخر ، بل ظل مضطجعا هناك في سكون فرح ، فكانت سعادته مما لا يمكن أن يعبر عنها لسان ، وأشرق نور السماء

على محياه ، ونظر الناس إلى ذلك الإنسان بتهيب ورهبة.

كان معلمو الشعب يتلهفون لمعرفة ما الذي سيفعله يسوع في هذه الحالة. وتذكروا كيف أن ذلك الرجل كان قد لجأ إليهم في طلب العون ولكنهم رفضوا إعطاءه الرجاء وأغلقوا أحشاءهم عنه . وإذ لم يكتفوا بذلك أعلنوا أنه يقاسى من لعنة الله على خطاياه . وها عادت إليهم تلك الذكرى عندما رأوه الآن أمامهم ، ثم لاحظوا الاهتمام العظيم بهذا [244] المشهد الذي أبداه كل ذلك الجمع. فاعتراهم خوف شديد من أن يتلاشى نفوذهم وس ل طانهم على الشعب.

لم يتحدث أولئك الرؤساء معا ، ولكنهم قرأوا أفكار بعضهم البعض لمجرد تبادل النظرات. وكان معنى نظراتهم أنه لا بد من عمل شيء لصد تيار ذلك الشعور الجارف . لقد أعلن يسوع لذلك المفلوج أن خطاياه قد غفرت ، ولكن الفريسيين اعتبروا هذا التصريح تجديفا ، واعتقدوا أنه يمكنهم اعتبار هذا التجديف خطية تستوجب الموت ، وبموجب ذلك يقدمون يسوع للمحاكمة . وفكروا في قلوبهم قائلين: “لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟” (مرقس 2 : 7).

“قم واحمل فراشك”

وإذ ثبت يسوع نظره فيهم جبنوا أمامه وتراجعوا ، ومن ثم قال لهم: “ ماذا تفكرون في قلوبكم؟ أيما أيسر: أن يقال: مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال: قم وامش؟ ولكن لكي تعلموا أن لإبن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا” ثم بعد أن رجع يصوّب نظره إلى المفلوج: “قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك!” (لوقا 5 : 22 — 24).

وإذا بذلك الرجل الذي أتي به إلى يسوع محمولا على فراشه ينهض على قدميه بكل ما في الشباب من خفة ومرونة وقوة ، وإذا بالدماء الحارة تجري في كل عروقه ، وكل عضو في جسمه تملأه القوة ، فينشط للعمل فجأة ، وبدلا من شحوب الموت الذي كان يدنو منه ، كان وجهه وجسمه يتألقان بالصحة والحياة: “فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدّام الكل، حتى بهت الجميع و مجّدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط!” (مرقس 2 : 12).

يا لمحبة يسوع العجيبة إذ تتنازل لتشفي المذنبين والمتألمين! هوذا الإله يحزن ويخفف آلام بني الإنسان المتألمين! ويا للقوة العجيبة التي تعلن نفسها هكذا لبنى الإنسان! من ذا يستطيع أن يشك في رسالة الخلاص ؟ أومن ذا يحتقر مراحم الفادي الرؤوف ؟

إن الأمر كان يحتاج إلى قدرة الله الخالقة لكي تعود إلى ذلك الجسم الواهن الذابل صحته ونضارته. إن ذلك الصوت الذي منح الحياة للإنسان المجبول من تراب الأرض هو نفسه الذي منح الحياة لذلك المفلوج الذي كان يحتضر . ونفس القوة التي أعادت الحياة [245] إلى الجسم هي التي جددت القلب. ذاك الذي عند بدء الخليقة: “قال فكان. هو أمر فصار” (مزمور 33 : 9). هو نفسه الذي تكلم بكلمة الحياة للنفس المائتة بالذنوب والخطايا . إن شفاء الجسد كان برهانا على القوة التي جددت القلب . وقد أمر المسيح المفلوج بأن يقوم ويمشي قائلا: “لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا” (لوقا 5 : 24).

ذلك المفلوج وجد في يسوع شفاء للنفس والجسد ، وتبع الشفاء الروحي شفاء جسدي ، فينبغي لنا ألا نغفل هذا الدرس. وفي هذه الأيام يوجد آلاف الناس الذين يتعذبون من أمراض جسدية ، وهم كالمفلوج يتوقون لسماع الرسالة القائلة: “مغفورة لك خطاياك” إن عبء الخطية بما ينطوي عليه من عدم الراحة والرغائب التي لم تشبع بعد هو سبب كل أدواء الناس . إنهم لا يستطيعون أن يجدوا راحة حتى يأتوا إلى

شافي النفوس . إن السلام الذي لا يستطيع أحد سواه أن يمنحه للنفس يمكنه أن يعطى للذهن نشاطا وللجسم صحة وقوة.

لقد أتى يسوع " لكي ينقض أعمال إبليس". "فيه كانت الحياة " وهو القائل: "أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل"، وقد صار "روحاً محييا (1 " يوحنا 3 : 8 ؛ يوحنا 1 : 4، 10 ؛ كورنثوس 15 : 45). ولا يزال يملك القوة المانحة الحياة ، كما قد شفي المرضى ومنح الغفران للخطاة عندما كان على الأرض ، "الذي يغفر جميع ذنوبك. الذي يشفي كل أمراضك" (مزمور 103 : 3).

كان تأثير معجزة شفاء المفلوج هذه على الشعب عظيما كما لو أن السماء انفتحت وكشفت عن أمجاد العالم الأفضل. وإذ شق الرجل الذي شفي لنفسه طريقا في وسط تلك الجموع وهو يبارك الله عند كل خطوة وحامل سريره وكأنه لا يحمل شيئا ، تراجع الناس ليفسحوا له الطريق ، وكانوا ينظرون إليه وهم ذاهلون ، ويتهامسون قائلين: "إننا قد رأينا اليوم عجائب!" (لوقا 5 : 26).

هزيمة الكهنة

أبكمت الدهشة الفريسيين وأصابتهم هزيمة ماحقة ، ورأوا أنه لا مجال لحسدهم الآن ليلهب الجمهور ضد يسوع. إن الآية التي أجريت في الرجل الذي كانوا قد أسلموه لغضب [246] الله كان تأثيرها على الشعب عظيما بحيث إن المعلمين صاروا حينئذ مغمورين في زوايا النسيان. فلقد رأوا أن المسيح يملك قوة كانوا هم ينسبونها لله وحده ، ومع ذلك فإن عظمته الممتزجة باللطف والتواضع كان الفرق عظيما بينها وبين غطرستهم وكبريائهم ، فشملهم الارتباك والخجل إذ كانوا متحققين من وجود كائن سام جليل بينهم ، ولكنهم لم يعترفوا بذلك . وعلى قدر عظمة البرهان على أن ليسوع السلطان أن يغفر الخطايا على قدر ما اعتصموا هم بعدم إيمانهم ، فخرجوا من بيت بطرس الذي خرج منه المفلوج في ملء الصحة بقوة كلمة السيد ، ليتآمروا على إسكات صوت ابن الله.

إن المرض الجسدي مع أنه كان مميتا ومتأصلا في ذلك الإنسان فقد شُفي بقوة المسيح ولكن مرض الروح تمكن بكل قوة من أولئك اللذين أغمضوا عيونهم حتى لا ترى النور .إن البرص والفالج لم يكونا متعصبين كما كان التعصب وعدم الإيمان.

وعندما عاد المفلوج إلى بيته بعد شفائه كان هنالك فرح عظيم بعودته صحيحا معافى حاملا ، في يسر ، السرير الذي كان قد حمل عليه بكل رفق وأخذ إلى حيث كان المسيح منذ قليل. فتجمع أهل بيته حوله وفي عيونهم دموع الفرح وهم لا يكادون يصدقون عيونهم . لقد وقف الرجل أمامهم في ملء نشاط الرجولة . وتانك الذراعان اللتان كانتا بلا حياة صارتا قويتن وطوع إرادته . ولحم جسمه المتقلص المنكمش الداكن اللون عاد الآن كلحم صبي صغير ذا لون وردي جميل . وكان يمشي بخطوات قوية ثابتة . وارتسم الفرح والرجاء على كل تقاسيم وجهه ، وحلت سيماء الطهارة والسلام في مكان أثار الخطية والآلام ، وارتفعت تهاليل الشكر من جوانب ذلك البيت ، وتمجد الله في ابنه الذي قد أعاد الرجاء إلى ذلك الإنسان اليائس ، والقوة لمن كان مضروبا بمرض لا يرجى منه الشفاء .لقد كان هذا الرجل وأهل بيته مستعدين لأن يضعوا حياتهم لأجل يسوع ، ولم يعد يعكر إيمانهم أي شك ، كلا ولا أفسد عدم الإيمان ولاءهم لذاك الذي قد أدخل النور والسعادة إلى بيتهم المظلم الكئيب . [247]

الفصل الثامن والعشرون—لاوي — متى

من بين كل موظفي الرومان في فلسطين كان العشارون أبغض الناس لقلوب الشعب ، فكانوا ممقوتين أشد المقت. وحقيقة كون أمة أجنبية هي التي فرضت هذه الضرائب عليهم كان ذلك موضوع إثارة واهتياج دائمين لليهود إذ كان ذلك مذكرا دائما لهم بأنهم ليسوا أحرارا ولا مستقلين . ولم يكن الجباة والعشارون مجرد آلات في أيدي الرومان المستبدين، بل كانوا مغتصبين لحسابهم الخاص ، فكانوا يصيبون ثراء فاحشا على حساب الشعب . واليهودى الذي كان يقبل القيام بهذه الوظيفة على أيدي الرومان كان ينظر إليه كمن هو خائن لشرف أمته . وكانوا يحتقرونه كمن هو مرتد ، وكان يعتبر من أحط طبقات المجتمع .

كان لاوي متى ضمن أفراد هذه الطبقة ، وكان سيدعى ليكون خادما للمسيح بعد التلاميذ الأربعة الأولين في جنيسارت. وقد حكم الفريسيون على متى بمقتضى حرفته ، ولكن يسوع رأى في هذا الرجل قلبا مفتوحا لقبول الحق . كان متى قد أصغى لتعاليم المخلص ، وإذ كشف له روح الله المبكت عن شر قلبه تاق إلى طلب العون من المسيح ، ولكنه كان معتادا القيود التي قد فرضها معلمو الشعب فلم يكن يفكر في أن هذا المعلم العظيم سيلاحظه.

ولكن إذ كان هذا العشار جالسا عند مكان الجباية في أحد الأيام رأي يسوع قادما إليه ، كم كانت دهشته عظيمة حينما سمعه يخاطبه قائلا: “ ابتعني” (متى 9: 9).

اختيار النصيب الصالح

“ فترك (متى كل شيء وقام وتبعه” (لوقا 5: 28). لم يكن ثمة تردد أو تساؤل. ولا تفكير في تلك الوظيفة المربحة التي تدر عليه ربحا وفيرا والتي يستبدل بها الفقر والمشقة، ولكن حسبه أنه سيكون مع يسوع ليسمع تعاليمه [248] ويشاركه في عمله.

كذلك كانت الحال مع التلاميذ الذين قد دعوا من قبل. فعندما أمر يسوع المسيح بطرس ورفاقه أن يتبعوه ففي الحال تركوا السفن والشباك وساروا وراءه كان لبعض هؤلاء التلاميذ أقارب وأصدقاء يعولونهم ، ولكنهم عندما سمعوا دعوة السيد لم يترددوا ، ولا سأل أحدهم قائلا: كيف أعيش ومن يعول عائلتي؟ لكنهم كلهم أطاعوا الدعوة . وعندما سألهم يسوع بعد ذلك قائلا: “حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية، هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا” (لوقا 22 : 35).

لقد قدم نفس الامتحان لمتى في ثرائه ولأندراوس وبطرس في فقرهما ، فقام كل منهم بنفس التكريس. وفي ساعة النجاح حين كانت الشباك ممتلئة بالسمك وحين كانت جوانب الحياة القديمة قوية سأل يسوع التلاميذ الذين كانوا عند البحر أن يتركوا كل شيء لأجل عمل الإنجيل . وهكذا يقدم الامتحان لكل نفس ليرى ما إذا كان شغفها بالخير الزمني أو شوقها إلى اتباع يسوع هو الأقوى.

إن المبادئ ملزمة للإنسان دائما. فلا يمكن لإنسان أن ينجح في خدمة الله ما لم يكن كل قلبه في العمل ويحسب كل شيء خسارة من أجل فضل معرفة المسيح . فالذي يقدم أية تحفظات واحتياطات لا يستطيع أن يكون تلميذا للمسيح بل بالحري لا يمكنه أن يكون عاملا معه . وعندما يقدر الناس الخلاص العظيم حق قدره فإن التضحية التي رؤيت في حياة المسيح سترى في حياتهم . وأينما سار فهم سيتبعونه فرحين.

إن دعوة المسيح لمتى ليكون تلميذا له أثارت عاصفة غضب عظيمة. فكون معلم ديني يختار عشارا ليكون واحدا من أتباعه المقربين كان إهانة عظيمة موجهة ضد العادات الدينية والاجتماعية والقومية . وإذ لجأ الفريسيون إلى تعصب الشعب كانوا يؤملون أن يثيروا مشاعرهم ضد يسوع.

وليمة العشار

ساد على العشارين اهتمام عظيم فمالت قلوبهم إلى هذا المعلم الإلهي. وإذ كان متى فرحا سعيدا بتلمذته تاق إلى أن يجتذب زملاءه السابقين إلى يسوع ، ولذلك صنع ضيافة [249] في بيته دعا إليها أقرباءه وأصدقاءه. ولم يدع العشارين وحدهم بل دعا أيضا آخرين ممن كانت سمعتهم موضع شبهة وقد جافاهم جيرانهم الأكثر تعصبا.

أقيمت تلك الوليمة إكراما ليسوع الذي لم يتردد في قبول تلك المجاملة. كان يعرف تماما أن ذلك سيغضب حزب الفريسيين وسيعرض مقامه هو للهوان في عيون الشعب. ولكنه لم يكن ليتأثر بالعادات في تنقلاته أو تصرفاته ، ولم يكن يقيم وزنا لوجاهة المظهر ، بل كل ما كان همة هو أن بجد نفسا ظامئة إلى ماء الحياة.

جلس السيد كضيف الشرف على مائدة العشارين ، وبعطفه ولطفه ومؤانسته برهن على تقديره للكرامة الإنسانية ، كما تاق أولئك الناس إلى أن يصيروا أهلا لثقته. فدخل كلامه إلى قلوبهم الظامئة بقوه محيية . واستيقظت في قلوبهم بواعث جديدة ، وفتح باب الحياة لهؤلاء القوم الذين كانوا معتبرين حثالة المجتمع ومنبوذين من جميع الناس.

وفي هذا الاجتماع تأثر كثيرون ممن سمعوا تعاليم المخلص ، ومع ذلك لم يعترفوا به إلاَّ بعد صعوده. وعندما انسكب الروح القدس وخلص ثلاثة آلاف نفس في يوم واحد كان بينهم كثيرون ممن سبقوا أن سمعوا الحق وهم على مائدة العشارين هذه ، وبعض منهم صاروا رسل الإنجيل . أما متى فقد اعتبر مثال المسيح ، وتصرفه في الوليمة درسا له ظل ماثلا أمامه دائما ، ثم صار هذا العشار المحتقر من أعظم المبشرين المكرسين ، وكان في خدمته يسير في إثر خطوات معلمه عن أقرب قرب.

“الأصحاء ...”

وعندما علم معلمو إسرائيل بوجود يسوع في ضيافة متى انتهزوا تلك الفرصة لاتهامه ، ولكنهم فضلوا أن يهاجموه عن طريق التلاميذ ، فإذ يثيرون تعصبهم يمكنهم أن يحدثوا الوقيعة والجفاء بينهم وبين معلمهم. وكانت سياستهم ترمى إلى اتهام المسيح للتلاميذ واتهام التلاميذ للمسيح مصوبين سهامهم إلى المقتل . هذه هي الوسيلة التي استخدمها الشيطان منذ أوجد النفور في السماء . فكل من يحاول إيجاد النزاع

والنفور والجفاء هم مدفوعون لعمل ذلك بنفس روح الشيطان.

سأل أولئك المعلمون الحاسدون التلاميذ قائلين: " لماذا يأكل معلّمكم مع العشارين والخطاة؟" (متى 9: 11). [250]

لم ينتظر يسوع حتى يدفع تلاميذه تلك التهمة ، بل أجابهم قائلا: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلّموا ما هو: إني أريد رحمة لا ذبيحة، لأني لم آت لأدعوا أبراراً بل خطاة إلى التوبة" (متى 9 : 12، 13). كان الفريسيون يدعون أنهم أصحاء روحيا ولم يحسبوا أنهم بحاجة إلى طبيب ، وكانوا يعتقدون أن العشارين والأمم هالكون بأمراضهم الروحية لا محالة . أفلم يكن إذا عمله كطبيب يقتضيه أن يخف إلى نجدة تلك الفئة المحتاجة إلى معونته . لكن مع أن الفريسيين كانوا يفكرون في أنفسهم أفكارا عالية فقد كانوا في الحقيقة أسوأ حالا من أولئك الذين كانوا يحتقرونهم . كان العشارون أقل تعصبا واكتفاء بأنفسهم ، ولذلك كانوا أكثر استعدادا لتفهم الحق . قال يسوع لأولئك المعلمين: "اذهبوا وتعلّموا ما هو: إني أريد رحمة لا ذبيحة"، وهكذا برهن لهم على أنهم مع ادعائهم بأنهم مفسرو كلمة الله كلنوا يجهلون روحها تماماً.

أبكم الفريسيون مؤقتا ولكنهم لم يزدادوا إلا إمعانا في عداوتهم للمسيح. وبعد ذلك ذهبوا يبحثون عن تلاميذ يوحنا المعمدان فلما وجدوهم حاولوا إثارتهم ضد المخلص . إن هؤلاء الفريسيين لم يقبلوا رسالة المعمدان . لقد كانوا يحتقرون زهده وعاداته الساذجة ولباسه الخشن وأعلنوا أنه متطرف . ولكونه وبخهم على ريائهم فقد قاوموا أقواله وحاولوا إثارة الشعب ضده . كان روح الله يرف على أولئك المزدرين مبكتا إياهم على الخطية .ولكنهم رفضوا مشورة الله وأعلنوا أن يوحنا به شيطان.

إساءة تمثيل المخلص

فلما أتى يسوع وامتزج بالشعب وكان يأكل ويشرب على موائدهم اتهموه بأنه أكول وشريب خمر . مع أن نفس الناس اللذين وجهوا إليه هذه التهم كانوا مذنبين . وكما أن الله قد أسيء تمثيله ونسبت إليه صفات الشيطان ، كذلك زيف هؤلاء الأشرار صفات رسل الرب.

لم يكن الفريسيون يريدون أن يقتنعوا بأن غاية يسوع من أكله مع العشارين والخطاة كانت أن يجيء بنور السماء إلى أولئك الجالسين في الظلمة ، ولم يريدوا أن يصدقوا بأن كل كلمة نطق بها هذا المعلم الإلهي كانت بذرة حية ستنمو وتثمر لمجد الله. لقد أصروا على رفض النور ، ومع أنهم كانوا قد رفضوا رسالة المعمدان وقاوموها كانوا يريدون [251] الآن أن يتوددوا إلى تلاميذه على أمل أن يقنعوهم بالتعاون معهم ضد يسوع. فصوروا لهم يسوع كمن يستخف بالتقاليد القديمة ، وجعلوا يصورون لهم الفارق العظيم بين تقوى المعمدان المتشدد ومسلك يسوع بأكله مع العشارين والخطاة.

في هذا الوقت كان تلاميذ يوحنا رازحين تحت ثقل حزن عظيم. وكان ذلك قبل زيارتهم ليسوع حاملين إليه رسالة من يوحنا . كان معلمهم المحبوب سجينا ، وكانوا يقضون أيامهم في النوح والبكاء . ولم يبذل يسوع أي مسعى لإخراج يوحنا من السجن بل بدا وكأنه يعيب تعاليمه . فإذ كان يوحنا مرسلا من الله فلماذا كان يسوع وتلاميذه يعيشون عيشة تختلف عن عيشة المعمدان؟

المعلم الصبور

لم يكن تلاميذ يوحنا يدركون عمل المسيح إدراكا صحيحا. فظنوا أن التهم التي وجهها الفريسيون إلى المسيح هي تهم تنطوي على بعض الحقيقة ، ولها ما يبررها . وكانوا هم يحفظون كثيرا من الوصايا التي فرضها المعلمون بل كانوا يرجون أن يتبرروا بأعمال الناموس . كان اليهود يمارسون الصوم وكانوا ينتظرون أن يثابوا عليه . وأشد الناس تدقيقا بينهم كانوا يصومون مرتين في الأسبوع ، وكان الفريسيون وتلاميذ يوحنا صائمين عندما أتوا إلى يسوع قائلين: "لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، وأما تلاميذك فلا يصومون؟" (متى 9 : 14).

أجابهم يسوع بكل رقة ولطف. ولم يحاول تصحيح أفكارهم الخاطئة عن الصوم ، ولكنه أراد فقط أن يعطيهم فكرة صحيحة عن رسالته . وقد فعل هذا باستخدام نفس الرمز الذي استخدمه المعمدان نفسه عندما شهد ليسوع . قال يوحنا: "من له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذا فرحي هذا قد كمل" (يوحنا 3 : 29). إن تلاميذ يوحنا لم يفتهم أن يتذكروا هذا الكلام الذي نطق به معلمهم . فإذ استعار يسوع ذلك الرمز نفسه قال: "أتقدرون أن تجعلوا بني العرس يصومون ما دام العريس معهم؟" (لوقا 5 : 34).

كان ملك السماء بين شعبه. إن أعظم هبات السماء قد أعطيت للعالم . لقد كان هنالك [252] فرح للمساكين لأن المسيح أتى ليجعلهم ورثة لملكوته ، وفرح للأغنياء لأنه سيعلمهم كيف يحصلون على الغنى الأبدي ، وفرح للجهلاء لأنه سيجعلهم يتحكمون للخلاص ، وفرح للعلماء لأنه سيكشف لهم عن أسرار أعمق مما قد اكتشفوا. والحقائق التي كانت محجوبة منذ تأسيس العالم كانت ستكشف للناس بواسطة رسالة المخلص.

سر المعمدان برؤية المخلص. وكم كانت فرصة مؤآتية للتلاميذ لأن يفرحوا حيث قد تمتعوا بامتياز السير والتحدث مع جلال السماء! إذا لم يكن هذا وقتا مناسبا للنوح والصوم. عليهم أن يفتحوا قلوبهم لاستقبال أنوار مجده ، حتى يشرق نورهم على الجالسين في الظلمة ووادي ظل الموت.

حزن يخالطه فرح

لقد كانت صورة مفرحة رسمتها كلمات المسيح. ولكن كانت في ثناياها ظلال كثيفة لم يرها أحد سواه فلقد قال: "ولكن سيأتي أيام حين يرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون في تلك الأيام" (لوقا 5 : 35). فحين يرى التلاميذ سيدهم مسلما للموت ومصلوبا سينوحون ويصومون . لقد قال لهم في خطابه الوداعي وهم في العلية: "بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضاً ترونني الحق الحق أقول لكم: إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون، ولكن حزنكم يتحول إلى فرح" (يوحنا 16 : 19 و 20).

فعندما يخرج حيا من قبره سيتحول حزنهم إلى فرح. وبعد صعوده إلى السماء سيغيب عنهم بالجسد ولكنه سيظل معهم في شخص المعزي ، ولن يقضوا أيامهم في البكاء والنوح . هذا ما كان يبغيه الشيطان . كان يريدهم أن يقنعوا العالم بأنهم قد خدعوا وأن آمالهم قد خابت . ولكن كان عليهم أن يشخصوا بالإيمان في المقدس الأعلى حيث يسوع يخدم لأجلهم ، وكان عليهم أن يفتحوا قلوبهم للروح القدس نائب يسوع وأن يبتهجوا بنور حضوره . ولكن ستأتي أيام محن وتجارب حين يجب عليهم أن يشتبكوا في صراع مع ولاة هذا العالم وقواد مملكة الظلمة حين لا يكون المسيح معهم بشخصه ويخفقون في معرفة المغزى ، فحينئذ سيكون من الأنسب لهم أن يصوموا. [253]

خمر جديدة في زقاق عتيقة

حاول الفريسيون أن يمجدوا أنفسهم بحفظهم الطقوس الصارمة بينما كانت قلوبهم مشحونة بالحسد والمخاصمات. يقول الكتاب: "ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون، ولتضربوا بكلمة الشر. لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم في العلاء. أمثل هذا يكون صوم أختاره؟ يوماً يذلّل الإنسان فيه نفسه، يحني كالأسلة رأسه، ويفرش تحته مسحاً ورماداً. هل تسمّي هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب؟" (إشعياء 58 : 4، 5).

إن الصوم الحقيقي ليس مجرد خدمة طقسية. لقد اختار الله أن يكون الصوم "حلّ قيود الشر. فك عقد النير، وإطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير" وإن "أنفقت نفسك للجائع، وأشبعت النفس الذليلة" (إشعياء 58 : 6، 7) تلق رضى الله وبذلك تكون عاملا بروح المسيح ومبدئه السامي . لقد كانت كل حياته هي تضحية نفسه لأجل خلاص العالم.

فسواء أكان صائما في برية التجربة أو كان يأكل مع العشارين على مائدة متى كان يبذل حياته لفداء الهالكين . إن روح التعبد الحقيقي لا يظهر في النوح الباطل أو في مجرد إذلال الجسد او تقديم الذبائح الكثيرة ه ولكنه يظهر في تسليم النفس لخدمة طوعية لله والناس.

واستطرد يسوع في كلامه وهو يجيب على سؤال تلاميذ يوحنا فضرب مثلا: " ليس أحد يضع رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق، وإلا فالجديد يشقه، والعتيق لا توافقه الرقعة التي من جديد" (لوقا 5: 36). إن رسالة يوحنا المعمدان ما كان لها أن تختلط أو تمتزج بالتقاليد والخرافات . إن محاولة مزج ادعاء الفريسيين بتعبد يوحنا سيجعل الاختلاف أردأ بين الاثنين.

وكذلك لم يمكن الجمع بين تعاليم المسيح والطقوس الفريسية. وما كان ليسوع أن يرمم الثغرة التي أحدثتها تعاليم يوحنا ، ولكنه أراد أن يجعل الفاصل كبيرا وظاهرا بين القديم والجديد . وبعد ذلك أورد المسيح مثالا لهذه الحقيقة فقال: "وليس أحد يجعل خمراً جديداً في زقاق عتيقة لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق، فهي تهرق والزقاق تتلف" (لوقا 5 : 37). إن الزقاق الجديدة التي كانت تستخدم لتوضع الخمر الجديدة فيها ، كانت بعد ذلك [254] تجف وتصبح سهلة الكسر ولذلك لم تكن تصلح لنفس الغرض مرة أخرى. ففي هذا المثل المألوف وصف المسيح حالة رؤساء اليهود . كان الكهنة والكتبة والرؤساء محصورين في أخدود من الفرائض والطقوس فانكمشت قلوبهم كالزقاق الجافة التي قد مثّلها بها . وطالما ظنوا مكتفين بصورة الديانة الصحيحة فقد غدا من المستحيل عليهم أن يصيروا مستودعات لحق السماء الحي ، حيث ظنوا أن برهم الذاتي فيه الكفاية ، فلم يرغبوا في إدخال عنصر جديدا في ديانتهم . لم يقبلوا إرادة الله الصالحة نحو الناس على أنها شيء منفصل عن أنفسهم فقد قرنوها باستحقاقهم لأجل أعمالهم الصالحة . ولم يكن يمكن أن الإيمان العامل بالمحبة الذي يطهر النفس يتحد بديانة الفريسيين المكونة من التقاليد ووصايا الناس . ولذلك بات من العبث توحيد تعاليم يسوع مع الديانة التي قد أقرها الرؤساء وتمسك بها الناس . فحق الله الحى الذي شبه خمرا جديدة لا بد أن يشق زقاق تقاليد الفريسيين البالية التالفة.

التمسك بطقوس ميتة

لقد ظن الفريسيون أنفسهم أحكم من أن يكونوا بحاجة إلى تعليم ، وأبر من أن يكونوا بحاجة إلى

خلاص ، وأكرم من أن يحتاجوا إلى الكرامة التي يمنحها المسيح فتركهم المخلص ليجد آخرين يقبلون رسالة السماء. وقد وجد في الصيادين الأميين والعشار الجالس عند مكان الجباية ، والمرأة السامرية ، والشعب البسيط الساذج الذي كان يسمعه بسرور ، الزقاق الجديدة التي توضع فيها الخمر الجديدة . إن الوسائط التي يستخدمها الله في عمل الإنجيل هي تلك النفوس التي بكل سرور تقبل النور الذي يرسله الله إليها . هذه هي الوسائط اللازمة لتبليغ معرفة الحق إلى العالم . فإذا كان شعب المسيح بفضل نعمته يصيرون زقاقا جديدة فسيملأهم بالخمر الجديدة.

إن تعاليم المسيح مع كونها قد شبهت بالخمر الجديدة فهي لم تكن تعاليم جديدة ، بل هي إعلان لما قد تعلمه الناس من البدء. ولكن حق الله كان قد فقد معناه وجماله الأصليين في نظر الفريسيين . وبالنسبة إليهم كان تعليم المسيح جديدا من كل الوجوه تقريبا ، فلم يقدروه ولا اعترفوا به.

أشار يسوع إلى قوة التعاليم الكاذبة على ملاشاة تقدير الحق والرغبة فيه ، فقال: " وليس أحد إذا شرب العتيق يريد للوقت الجديد، لأنه يقول: العتيق أطيب" (لوقا 5 : [255] 39). إن كل الحق الذي قد أعطي للعالم بواسطة الآباء والأنبياء قد أريق عليه نور جمال جديد من أقوال المسيح . ولكن الكتبة والفريسيين لم يستسيغوا الخمر الجديدة الثمينة بل كانوا راغبين عنها . وما لم يفرغوا ذواتهم من التقاليد والعادات والممارسات القديمة فلن يكون هنالك مكان في العقل أو القلب لتعاليم المسيح . لقد تمسكوا بالطقوس الميتة وحولوا أنظارهم عن الحق الحي وقدرة الله.

خطر الاعتداد بالذات

كان هذا هو العامل في هلاك اليهود ، وسيكون علة هلاك نفوس كثيرة في أيامنا هذه .إن آلاف الناس يرتكبون نفس الخطأ الذي قد أرتكبه الفريسيون الذين وبخهم المسيح في وليمة متى. كثيرون من الناس بدلا من التخلي عن رأي يعتزون به أو طرح عقيدة قديمة يعتبرونها صنما يعبدونة يرفضون نور الحق الذي ينبثق من عند أبي الأنوار . إنهم يثقون بأنفسهم ويعتمدون على حكمتهم ويصدقون حقيقة كونهم فقراء روحيا . إنهم يصرون على أن يخلصوا بوسيلة ما عن طريق إنجازهم لعمل هام وإثبات بر أنفسهم . ومتى عرفوا أنه لا مجال لإقحام الذات في ذلك العمل فإنهم يرفضون الخلاص المقدم لهم.

إن الديانة الطقسية لا يمكنها أن تأتي بالنفوس إلى المسيح ، لأنها ديانة خالية من المحبة ومن المسيح. فالصوم أو الصلاة التي تسوق الإنسان إليها روح تبرير الذات هي رجس قدام الله . فالمحافل المقدسة المجتمعة للعبادة وسلسلة الطقوس الدينية والتقشف الخارجي والذبائح المهيبة تعلن أن كل من يفعل تلك الأشياء يعتبر نفسه بارا وأهلا للسماء ، ولكن ذلك كله خداع مهلك . إن أعمالنا لا يمكنها أبدا أن تشتري لنا الخلاص.

وكما كانت الحال في أيام المسيح كذلك هي اليوم . فالفريسيون لا يعرفون فاقتهم الروحية ، ولذلك تأتيهم هذه الرسالة: "لأنك تقول: إني أنا غني وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء، ولست تعلم أنك أنت الشقي والبئس وفقير وأعمى وعريان. أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفى بالنار لكي تستغني، وثياباً بيضاً لكي تلبس، فلا يظهر خزي عريتك" (رؤيا 3 : 17 و 18). إن الإيمان والمحبة هما الذهب المصفي بالنار . ولكن بالنسبة لكثيرين قد اكدرَّ الذهب وضاع الكنز الثمين ، وثوب بر المسيح يشبه بالنسبة لهم [256] ثوبا لم يلبس وينبوعا لم يمسه أحد. ولذلك يقال لهم: "عندي عليك: أنك تركت محبّتك الأولى. فاذكر من أين سقطت وتب، واعمل الأعمال الأولى، وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من

مكانها، إن لم تتب” (رؤيا 2 : 4، 5).

“ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره” (مزمور 51 : 17). على الإنسان أن يفرغ من الذات قبلما يكون ، بكل معنى الكلمة ، مؤمنا بيسوع . فمتى نبذت الذات يمكن للرب أن يجعل الإنسان خليقة جديدة . فالزقاق الجديدة هي وحدها التي توضع فيهما الخمر الجديدة . إن محبة الله تنعش المؤمن بحياة جديدة . وذاك الذي ينظر إلى رئيس الإيمان ومكمله ستظهر فيه صفات المسيح. [257]

الفصل التاسع والعشرون—السبت

لقد قدس السبت عند الخليقة. وحيث أنه قد جعل لأجل الإنسان فقد بدأ عندما: "ترنّمت كواكب الصبح معاً، وهتف جميع بني الله" (أيوب 38 : 7). كان السلام سائدا حينئذ على العالم لأن الأرض كانت في حالة انسجام ووفاق مع السماء . " رأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً" (تكوين 1 : 31)، واستراح فرحاً بما أتمّه من عمل.

ولكونه استراح في يوم السبت: لذلك " بارك الله اليوم السابع وقدّسه". لقد أفرز للعمل المقدس وأعطاه الله لآدم كيوم راحة وكان تذكارا لعمل الخلق ، وهكذا صار رمزا لقدرة الله ومحبته . والكتاب يقول إن الله: "صنع ذكراً لعجائبه"، "لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركه بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته" (تكوين 2 : 3 ؛ مزمور 111 : 4 ؛ رومية 1 : 20).

تذكار عمل الخلق

والذي خلق كل شيء هو ابن الله: " في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله ... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يوحنا 1: 1 — 3). وحيث أن السبت هو تذكار لعمل الخلق إذاً فهو علامة على محبة المسيح وقدرته.

إن السبت يتجه بأفكارنا إلى الطبيعة ويجعلنا في حالة ارتباط بالخالق. ففي أغاريد الطيور وحفيف الاشجار وموسيقى البحار لا نزال نسمع صوت ذاك الذي قد نادى آدم في جنة عدن في وسط هبوب ريح النهار . وإذ نشاهد قدرته في الطبيعة نتعزى لأن الكلمة التي خلقت كل شيء هي التي تتكلم بكلام الحياة للنفس . وذاك: "الذي قال: أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (2 مورنثوس 4 : 6). [258]

هذا الفكر هو الذي ألهم المرنم بهذه التسبيحة: "لأنك فرّحتني يا رب بصنائعك. بأعمال يديك أبتهج. ما أعظم أعمالك يا رب! وأعمق جداً أفكارك!" (مزمور 92 : 4، 5).

والروح القدس يعلن بلسان إشعياء النبي قائلا: " فبمن تشبّهون الله، وأي شبه تعادلون به؟ .. ألا تعلمون؟ ألا تسمعون؟ ألم تخبروا من البداءة؟ ألم تفهموا من أساسات الأرض؟ الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب. الذي ينشر السماوات كسرادق، ويبسطها كخيمة للسكن .. فبمن تشبّهونني فأساويه؟ يقول القدّوس. ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا، من خلق هذه؟ من الذي يخرج بعدد جندها، يدعو كلها بأسماء؟ لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يفقد أحد. لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا إسرائيل: قد اختفت طريقي عن الرب وفات حقي إلهي؟ أما عرفت أم لم تسمع؟ إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا .. يعطي المعيي قدرة، ولعديم القوة يكثر شدة". "لا تخف لأني معك. لا تتلفّت لأني إلهك. قد أيدتك

وأعنتك وعضدتك بيمين برّي". "التفتوا إلي واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر". هذه هي الرسالة المكتوبة على صفحات الطبيعة والتي قد أفرز السبت لتظل ماثلة في الأذهان . وهذا هو أمر الرب لإسرائيل: "قدّسوا سبوتي فتكون علامة بيتي وبينكم" (إشعياء 40 : 17 — 29 ؛ 41 : 10 ؛ 45 : 22 ؛ حزقيال 20 : 20).

يوم راحة للجميع

لقد كانت وصية السبت ضمن الشريعة المعطاة في سيناء. ولكن لم تكن هي المرة الأولى التي عرِف فيها أن ذلك اليوم هو يوم الراحة . فلقد كان شعب إسرائيل يعرفونه قبل مجيئهم إلى سيناء ، وقد حفظوا السبت وهم في طريقهم إلى هناك . وعندما دنسه بعضهم وبخهم الله قائلا: "إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياي وشرائعي؟" (خروج 16 : 28).

لم يكن السبت لإسرائيل وحدهم بل لكل العالم. لقد أعلن للإنسان في جنة عدن ، وكغيره من الوصايا العشر المكتوبة على اللوحين لن يبطل التزام حفظه أبد الدهر . قال المسيح عن تلك الوصايا التي من بينها الوصية الرابعة: "إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس" وطالما الأرض والسماوات باقية فالسبت سيظل رمزا [259] لقدرة الخالق. وعندما تعود جنة عدن إلى الظهور في الأرض مرة أخرى فكل من تظلهم السماء سيحفظون يوم الرب يوم الراحة المقدس ، ويكون "من سبت إلى سبت" أن كل من يسكن في الأرض الجديدة سيصعد "ليسجد أمامي، قال الرب" (متى 5 : 18 ؛ إشعياء 66 : 23).

لا توجد شريعة أخرى سلمت لليهود كانت هي المميز العظيم الذي به امتازوا على سائر الشعوب المجاورة كما كانت شريعة السبت. و قد قصد الله من هذا أن حفظ يوم السبت يخصصهم لذاته كعابديه ، كما كان ينبغي أن يكون رمزا لاعتزالهم عن عبادة الأوثان وارتباطهم بالإله الحقيقي . ولكن ينبغي أن يكون الناس أنفسهم قديسين حتى يمكنهم حفظ السبت مقدسا وبالإيمان يكونون شركاء في بر المسيح . وعندما قدم لإسرائيل هذا الأمر القائل: "اذكر يوم السبت لتقدّسه". قال لهم الرب أيضاً: "تكونون لي أناساً مقدّسين" (خروج 20 : 8 ؛ 22 : 31). وبهذه الكيفية وحدها كان يمكن أن يكون السبت علامة لفرز إسرائيل كعباد الله.

جعلوه حملا ثقيلا

فلما ارتد اليهود عن الله وأخفقوا في تخصيص بر المسيح لأنفسهم بالإيمان ما عاد السبت ذا معنى أو دلالة بالنسبة إليهم . لقد كان الشيطان يحاول أن يمجد نفسه وأن يبعد الناس عن المسيح ، واجتهد في إفساد السبت لأنه رمز قدرة المسيح ، فتمم رؤساء اليهود إرادة الشيطان بإحاطة يوم راحة الله بمطاليب عسرة الحمل . وفي أيام المسيح كان السبت قد أصبح فاسدا جدا بحيث أن حفظه كشف عن أخلاق الناس الأنانيين المستبدين ، لا عن صفات الآب السماوي المحب . وفي الواقع أن معلمي اليهود صوروا الله كمن يضع شرائع يستحيل على الناس أن يحفظوها ، وجعلوا الشعب ينظرون إلى الله كما لو كان طاغية مستبدا ، كما جعلوهم يفكرون بأن حفظ السبت كما قد طلب الله يجعل الناس متصلبين قساة القلوب . وكان عمل المسيح

أن يكتسح سوء الفهم هذا ويقضي عليه . ومع أن معلمي الناموس تعقبوه بعداوة لا تعرف الرحمة فلم يبد عليه أنه قد امتثل لمطاليبهم بل تقدم إلى الأمام حافظا السبت بموجب شريعة الله.

وفي أحد السبوت عندما كان المخلص وتلاميذه عائدين من مكان العبادة اجتازوا في [260] حقل به حنطة ناضجة. وكان يسوع دائبا في عمله إلى ساعة متأخرة ، وفي أثناء مرورهم في الحقول ابتدأ التلامذ يقطفون سنابل القمح ويفركونها بأيدهم ثم يأكلونها . ولو حدث ذلك في غير يوم السبت لما كان هنالك أي اعتراض لأن من كان يعبر في حقل حنطة أو في بستان أو كرم كان له كامل الحرية أن يجمع ما يريد أن يأكله (انظر ما جاء في تثنية 23 : 24 و 25). ولكن التجرؤ على عمل ذلك في يوم السبت كان يعتبر تدنيسا له وانتهاكا لحرمته . وفضلا عن أن قطف السنابل اعتبر حصادا فقد اعتبر فركها بمثابة دراس للحنطة . وهكذا كان هنالك ذنب مضاعف حسب رأي المعلمين.

وسرعان ما اشتكى الجواسيس ليسوع قائلين: " هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت!" (متى 12 : 2).

عندما اتهم يسوع بكسر السبت في بيت حسدا دافع عن نفسه بإثبات بنوته للآب وبإعلانه أنه يعمل على وفاق مع الآب . فلما هوجم التلاميذ الآن سرد للمتهمين مثالا من العهد القديم عن أعمال عملها في السبت أولئك الذين كانوا يخدمون الله.

إساءة القصد من السبت

كان معلمو اليهود يفتخرون بأنهم يعرفون الكتب ، لكن جواب المخلص انطوى على توبيخ وجهه لجهلهم الكتب المقدسة إذ قال لهم: "أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه؟ كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه، بل للكهنة فقط"، "أو ما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يدنّسون السبت وهم أبرياء؟ ولكن أقول لكم: إن ههنا أعظم من الهيكل!" "ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً" (لوقا 6 : 3 و 4 ؛ مرقس 2 : 27 و 28 ؛ متى 21 : 5 و 6).

فإذا كان حقا وصوابا أن يشبع داود جوعه من الخبز المفرز لأغراض مقدسة ، إذا فقد كان حقا وصوابا أيضا أن يشبع التلاميذ جوعهم بقطف سنابل الحنطة في ساعات السبت المقدسة ثم أن الكهنة في الهيكل كانوا يوم السبت يقومون بأعمال أكثر مما في باقي الأيام. ولو مارس إنسان هذا العمل نفسه في أعماله الدنيوية لأصبح تعديا ، ولكن عمل الكهنة كان في خدمة الله ، فكانوا يمارسون تلك الطقوس التي كانت تشير إلى قوة المسيح [261] الفادية، وكان عملهم على وفاق مع غاية السبت. أما الآن فقد أتى المسيح نفسه . إن التلاميذ في قيامهم بأعمال المسيح كانوا يخدمون الله . وما كان لازما لإتمام هذا العمل كان من الصواب عمله في يوم السبت.

وقد أراد المسيح أن يعلم تلاميذه وأعداءه أن خدمة الله ينبغي أن تكون أولا ، لأن الغاية من عمل الله في هذا العالم هي فداء الإنسان. إذا فما يلزم عمله في يوم السبت لإنجاز هذا العمل هو مطابق لشريعة السبت . وبعد ذلك توج يسوع حجته بإعلانه عن نفسه أنه"رب السبت" كمن هو فوق كل تساؤل وكل قانون . فهذا القاضي الأعلى يبرئ تلاميذه من كل لوم إذ لجأ إلى نفس الوصايا التي كانوا متهمين بكسرها.

لم يكتف المسيح بأن تمر هذه المسألة بمجرد توجيه توبيخ إلى أعدائه ، فقد أعلن لهم أنهم في عماهم أخطأوا غاية السبت فقال لهم: "لو علمتم ما هو: إني أريد رحمة لا ذبيحة، لما حكمتم على الأبرياء!" (متى 12 : 7). إن طقوس اليهود الكثيرة التي كانوا يمارسونها بلا قلب لم تكن لتسد حاجتهم إلى الاستقامة الحقيقي

والمحبة الرقيقة التي طالما ميزت عبدة الله الحقيقيين.

يشفي في السبت

ومرة أخرى عاد المسيح فكرر حقيقة كون الذبائح في ذاتها عديمة القيمة ، فلقد كانت وسيلة لا غاية ، وكان الغرض منها إرشاد الناس إلى المخلص وبذلك يكونون في حالة انسجام ووفاق مع الله. إن خدمة المحبة هي التي يقدرها الله . فمتى قصر الإنسان في ذلك فإن كل الطقوس الروتينية تصير مكرهة له . وهذا يصدق على السبت أيضا ، لقد كان القصد منه أن يكون فرصة فيها يدخل الإنسان إلى قدس الشركة مع الله ، ولكن متى كان القلب مشغولا بالطقوس العملة فإن غاية السبت تتعطل وتبطل ، وحفظه حفظا ظاهريا يمسي سخرية.

وفي سبت آخر إذ دخل يسوع أحد المجامع رأى هناك إنسانا يده يابسة. وكان الفريسيون يراقبون يسوع وهم متلهفون لمعرفة ما سيفعله . ولقد عرف المخلص جيدا أنه لو شفى المريض في يوم السبت فسيعتبر متعديا ، ولكنه لم يتردد في نقض سياج المطاليب التقليدية التي أحاطت بيوم السبت ، بل أمر الرجل المريض بأن يقف ، ثم قال لهم: “هل [262] يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر؟ تخليص نفس أو قتل؟” كان عند اليهود مبدأ يقول بأن إهمال عمل الخير متى سنحت الفرصة لعمله معناه عمل الشر ، وإن إهمال تخليص النفس هو قتل لها . وهكذا التقى يسوع بالمعملين في ميدانهم: “فسكتوا. فنظر حوله إليهم بغضب، حزيناً على غلاظة قلوبهم، وقال للرجل: مد يديك. فمدها، فعادت إليه صحيحة كالأخرى” (مرقس 3 : 4، 5).

وعندما سئل يسوع هذا السؤال: “هل يحل الإبراء في السبوت؟” أجاب قائلاً: “أي إنسان منكم يكون له خروف واحد، فإن سقط هذا في السبت في حفرة، أفما يمسكه ويقيمه؟” (متى 12 : 10 — 12).

القيمة السامية للبشرية

لم يجرؤ الجواسيس على مجاوبة المسيح على مسمع من الجموع خشية أن يوقعوا أنفسهم في ورطة ، إذ عرفوا أنه إنما نطق بالحق. ولكنهم في سبيل الإبقاء على تقاليدهم كانوا يفضلون أن يتركوا ذلك الإنسان المتألم ليقاسي هول آلامه ، مع أنهم كانوا بكل اهتمام ينتشلون حيوانا أعجم ساقطا في حفرة حتى لا يموت بسبب إهمالهم انتشاله حتى لا يخسروا ثمنه . وهكذا كان اهتمامهم بالحيوان الأعجم أعظم من الاهتمام بالإنسان المخلوق على صورة الله . وهذا يصور لنا عمل كل الديانات الكاذبة ، فهي تبدأ باهتمام الإنسان بتمجيد نفسه أكثر من الله ، ولكن عاقبة ذلك هي انحطاط الإنسان إلى درجة أدنى من الحيوان . إن كل دين مضاد لسلطان الله يختلس من الإنسان المجد الذي كان له عند بدء الخليقة والذي سيعاد إليه في المسيح . فكل دين كاذب يعلم معتنقيه أن يكونوا عديمي الاكتراث لحاجات البشر وآلامهم وحقوقهم . ولكن الإنجيل يعطى للبشرية قيمة عظيمة لكونها مشتراة بدم المسيح ، وهو يعلمنا أن نراعى حاجات الناس وضيقاتهم بكل رقة ورفق . والرب يقول: “وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز، والإنسان أعز من ذهب أوفير” (إشعياء 13 : 12).

إن يسوع حين واجه الفريسيين بهذا السؤال: هل يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر ، تخليص

نفس أو قتل- واجههم بنواياهم الشريرة. كانوا يطلبون موته بكل ما في قلوبهم من حقد مرير ، في حين كان هو يخلص النفوس ويمنح السعادة للجموع ، فهل كان [263] الأفضل في يوم السبت ارتكاب جريمة القتل كما كانوا يقصدون أن يفعلوا أكثر من شفاء المرضى المتألمين كما قد فعل هو؟ وهل كان من العدالة والصواب أن يبقوا في قلوبهم شهوة القتل في يوم الرب المقدس بدلا من أن يضمروا المحبة لكل الناس ، تلك المحبة التي تعبر عن نفسها في أعمال الرحمة؟

ويسوع إذ يشفي الرجل ذا اليد اليابسة يدين عادات اليهود ويبقي الوصية الرابعة كما كانت حين أعطاها الله لشعبه. وقد أعلن قائلا: "إذا يحل فعل الخير في السبوات!" وإذ أزاح يسوع بعيدا نواهي اليهود العديمة المعنى أكرم السبت ، بينما أولئك الذين كانوا يشتكون من الفادي كانوا يمتهنون كرامة يوم الرب المقدس.

هل أبطل السبت؟

إن من يعتقدون أن المسيح قد أبطل الناموس يعلمون بأنه قد نقض السبت وبرر تلاميذه الذين قد انتهكوا كرامته . وهكذا هم يستندون إلى نفس الأركان التي قد استند اليها اليهود المماحكون . وهم في هذا يناقضون شهادة المسيح نفسه الذي قد أعلن قائلا: "أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته" (يوحنا 15 : 10). فلا المسيح ولا أتباعه نقضوا شريعة السبت ، بل كان المسيح هو الممثل الحي للناموس . وطوال حيات المقدسة لم يوجد أي تعد لمطالبيه ، فإذ نظر إلى أمة من الشهود كانوا يبحثون عن علة واحدة لإدانته أمكنه أن يقول لهم دون أن يراجعه أحد: "من منكم يبكتني على خطيّة؟" (يوحنا 8 : 46).

إن المخلص لم يأتِ لكي ينقض أو يلغي ما قد تكلم به الآباء والأنبياء ، لأنه هو نفسه الذي قد تكلم على أفواه ممثليه أولئك ، وكل حقائق كلمة الله قد أتت منه. غير أن هذه الأمور الغالية قد وضعت في أوضاع كاذبة ، وجعل نورها الثمين يخدم الكذب والخطأ . ولكن الله أراد لها أن ترفع من أوضاع الخطأ وتوضع في إطار الحق . وهذا العمل لا يمكن أن تقوم به غير يد الله . إن الحق إذ ارتبط بالباطل كان يخدم أغراض عدو الله والإنسان.

وقد أتى المسيح ليضعه في الوضع الذي فيه يمجد الله ويعمل على خلاص البشرية . " السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت" هذا ما قاله يسوع في [264] (مرقس 2: 27). إن التشريعات التي قد وضعها الله هي لخير بني الإنسان: "لأن جميع الأشياء هي من أجلكم" "أبولس، أم أبولس، أم صفا، أم العالم، أم الحياة، أم الموت، أم الأشياء الحاضرة، أم المستقبلة. كل شيء لكم. وأما أنتم فللمسيح، والمسيح لله" (2 كورنثوس 4 : 15 ؛ 1 كوونثوس 3 : 22 و 23). إن الوصايا العشر التي من بينها شريعة السبت أعطاها الله لشعبه كبركة . قال موسى: "فأمرنا الرب أن نعمل جميع هذه الفرائض ونتقي الرب إلهنا، ليكون لنا خير كل الأيام، ويستبقينا كما في هذا اليوم" (تثنية 6 : 24). ثم أعطيت الرسالة لإسرائيل على لسان المرنم وهي تقول: "اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنّم. اعلموا أن الرب هو الله. هو صنعنا، وله نحن شعبه وغنم مرعاه. ادخلوا أبوابه بحمد، دياره بالتسبيح. احمدوه، باركوا اسمه" (مزمور 100 : 2 — 4). وقد أعلن الرب قائلا: "كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجّسوه .. آتي بهم إلى جبل قدسي، وأفرّحهم في بيت صلاتي" (إشعياء 56 : 6، 7).

يوم الرب

"إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً" (لوقا 6 : 15). إن هذه الكلمات مليئة بالتعليم والعزاء . فلكون السبت قد جعل لأجل الإنسان فهو يوم الرب . إنه ملك المسيح الذي "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يوحنا 1 : 3). وبما أنه خلق كل الأشياء ، إذا فهو خالق السبت أيضا . فلقد أفرزه ليكون مذكرا بعمل الخلق ، ويشير إليه كالخالق والمقدس . وهو يعلمنا أن ذاك الذي خلق كل ما في السماء وما في الأرض وفيه يقوم الكل هو رأس الكنيسة وبقوته قد صولحنا مع الله . لأنه إذ يتكلم عن إسرائيل يقول: "وأعطيتهم أيضاً سبوتي لتكون علامة بيني وبينهم، ليعلموا أني أنا الرب مقدّسهم" أي أجعلهم مقدسين (حزقيال 20 : 12). إذا فالسبت هو علامة أو رمز لقدرة المسيح على أن يجعلنا مقدسين . والسبت كرمز لقوته المقدسة أعطي لكل من قد صاروا جزءا من شعب الله بواسطة المسيح.

وقد قال الرب: "إن رددت عن السبت رجلك، عن عمل مسرتك يوم قدسي، ودعوت السبت لذة، ومقدس الرب مكرماً .. فإنك حينئذ تتلذّذ بالرب" (إشعياء 58 : 13 و 14). [265] فكل من يقبلون السبت رمزا لقدرة المسيح الخالقة والفادية سيكون السبت لذة لهم. فإذ يرون المسيح فيه يتلذذون به ، السبت يوجه أنظارهم إلى أعمال الخلق كبرهان على قدرته العظيمة في الفداء . ففي حين أنه يعيد إلى الأذهان ذكرى السلام المفقود في عدن فهو يخبرنا عن السلام المسترد لنا في المخلص . وكل أعمال الطبيعة تردد دعوته القائلة: "تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم" (متى 11 : 28). [266]

الفصل الثلاثون— "أقام اثني عشر"

"ثم صعد إلى الجبل ودا الذين أرادهم فذهبوا إليه. وأقام اثني عشر ليكونوا معه، وليرسلهم ليكرزوا" (مرقس 3 : 13، 14).

في ظلال الأشجار المغروسة بجانب الجبل وعلى مسافة قصيرة من بحر الجليل دعي الاثنا عشر ليكونوا رسلا ، وألقيت الموعظة على الجبل. وكانت الحقول والتلال هي الأماكن المحبوبة التي كان يسوع يذهب اليها . وقد نطق بكثير من تعاليمه في الخلاء بدلا مما في الهيكل أو في المجامع . فلم يكن هنالك مجمع يتسع لكل الجموع التي كانت تتبعه ، ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي لأجله اختار السيد أن يعلم في الحقول والأحراج ، بل كان يسوع يحب مناظر الطبيعة ، ويعتبر كل معتكف هادئ هيكلا مقدسا.

تحت أشجار عدن اختار الساكنان الأولان مقدسهما ، وفي ذلك المكان كان المسيح يتحدث إلى الجنس البشري. فلما طرد أبوانا الأولان من الفردوس ظلا يعبدان الله في الحقول والأحراج ، وهناك كان المسيح يقابلهما ببشارة نعمته . والمسيح هو الذي خاطب إبراهيم تحت بلوطات ممرا ، وهو الذي تحدث مع اسحق حين ذهب ليصلي في الحقول في وقت المساء ، وهو الذي تكلم مع يعقوب على تلال بيت أيل ، ومع موسى بين جبال مديان ، ومع الفتى داود حين كان يرعى قطعانه . وبموجب تعليمات المسيح ظل الشعب العبراني مدة خمسة عشر قرنا يتركون دورهم لمدة أسبوع من كل عام ليسكنوا في مظال مصنوعة من أغصان خضراء مقطوعة من: "أشجار بهجة" وكانوا أيضاً يقطعون "سعف النخل وأغصان أشجار غبياء وصفصاف الوادي" لنفس الغرض (لاويين 23 : 40). [267]

في هدوء الطبيعة

إن يسوع وهو يدرب تلاميذه فضل الانسحاب بعيدا عن ضوضاء المدينة ، إلى الحقول والتلال حيث الهدوء والسكون ، ليكون ذلك أكثر انسجاما مع دروس إنكار الذات التي أراد أن يعلمهم إياها. ومدى سني خدمته كان يحب أن يجمع الشعب حوله تحت القبة الزرقاء على جانب جبل اكتسى ببساط من العشب الأخضر ، أو على شاطئ البحيرة . فهنا إذ كان محاطا بخليقته وصنع يديه أمكنه أن يحول أفكار سامعيه من الأشياء المصنوعة إلى الأشياء الطبيعية إذ في وسط نمو الطبيعة وازدهارها أعلنت مبادئ ملكوته . وإذ رفع الناس أنظارهم إلى جبال الله لينظروا عجائب يديه أمكنهم أن يتعلموا دروسا ثمينة من الحق الإلهي . وكانت تعاليم يسوع تتكرر أمامهم في مناظر الطبيعة . وكذلك الحال مع من يذهبون إلى الحقول والمسيح في قلوبهم ، فهم يحسون بأنهم محاطون بتأثيرات مقدسة . إن أعمال الطبيعة تتضمن أمثال الرب وتكرر نصائحه وتعاليمه . إن الذهن إذ يكون في شركة مع الله في الطبيعة فهو يتسامى ، كما أن القلب يجد في ذلك راحة .

وكان لابد حينئذ من اتخاذ الخطوة التمهيدية لتنظيم الكنيسة ، حتى بعد انطلاق المسيح تنوب هي عنه على الأرض. لم يكن تحت يدهم بناء فخم ثمين ، ولكن المخلص قاد تلاميذه إلى مكان هادئ كان يحبه ، وفي تصورهم كانت الاختبارات المقدسة التي جازوا بها في ذلك اليوم مرتبطة إلى الأبد بجمال الجبل والسهل والبحر.

عاملون مع الله

لقد دعا يسوع تلاميذه ليكونوا وليعلنوا للعالم ما قد رأوه وسمعوه منه ، فكانت خدمتهم أجلَّ خدمة أسندت إلى بنى الإنسان وفي المرتبة الثانية بعد خدمة المسيح نفسه. كان عليهم أن يكونوا عاملين مع الله لأجل خلاص العالم . وكما أن الآباء الاثني عشر الأولين في العهد القديم وقفوا نوابا عن العبرانيين ، كذلك كان على الرسل الاثني عشر أن ينوبوا عن كنيسة العهد الجديد.

عرف المخلص صفات الرجال الذين اختارهم ، إذ كانت كل ضعفاتهم وأخطائهم مكشوفة أمامه ، كما عرف المخاطر التى كانوا سيجوزون فيها والتبعات التي ستلقى على كواهلهم. [268] وكان قلبه يحن إلى أولئك الرجال المختارين. وقد قضى الليل كله وحده مصليا لأجلهم حين كانوا هم مستغرقين في النوم في أسفل الجبل . وعندما بزغ نور الفجر دعاهم لمقابلته إذ كان هنالك أمر هام يريد أن يقوله لهم.

كان هؤلاء التلاميذ قد صاحبوا المسيح إلى حين في العمل الناشط ، فكان يعقوب ويوحنا وأندراوس وبطرس وفيلبس ونثنائيل ومتى مرتبطين به أكثر من الباقين وقد شاهدوا المزيد من عجائبه ، وكان بطرس ويعقوب ويوحنا أقرب اليه من الجميع ، وكانوا معه كل الوقت تقريبا يشاهدون معجزاته و يسمعون أقواله. وقد دخل يوحنا إلى قدس أقداس الصداقة مع يسوع وامتاز على الباقين بكونه التلميذ الذي كان يسوع حبه . لقد أحبهم المخلص كلهم ، ولكن روح يوحنا كانت أكثرهم استيعابا . كان أصغر التلاميذ ، وبثقة تشبه ثقة الأطفال كشف مكنونات قلبه ليسوع ، وهكذا اشترك مع يسوع في عواطفه أكثر من الباقين ، وكان هو الذي قدم لشعبه أعمق التعاليم الروحية التي سمعها من المخلص.

بطيء القلب

وعلى رأس جماعة من الجماعات التي أنقسم إليها التلاميذ نجد اسم فيلبس. كان هو أول تلميذ أصدر إليه يسوع أمره الواضح القائل: "اتبعني" وكان فيلبس من بيت صيدا مدينة أندراوس وبطرس . لقد كان يصغي إلى تعاليم يوحنا المعمدان وسمع إعلانه عن المسيح بأنه حمل الله . وكان فيلبس باحثا مخلصا عن الحق ولكنه كان بطيء القلب في الإيمان . فمع أنه ارتبط بالمسيح فإن الإعلان الذي قدمه عنه لنثنائيل يدل على أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا اقتناعا كاملا بألوهية يسوع . ومع أنه قد جاء صوت من السماء معلنا أن المسيح هو ابن الله فإنه بالنسبة إلى فيلبس لم يكن أكثر من "يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة" (يوحنا 1 : 45). ومرة أخرى عند إشباع الخمسة الآلاف تبرهن أن فيلبس كان ينقصه الإيمان . فلكي يمتحنه يسوع سأله قائلا: "من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟" فكان جواب فيلبس دليلاً على عدم الإيمان إذ قال: "لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً" (يوحنا 6 : 5 و 7). وقد أحزن جوابه قلب يسوع . فمع أن فيلبس كان قد رأى أعمال السيد وأحس بقدرته فلم يكن عنده إيمان . وعندما سأل اليونانيون فيلبس

عن [269] يسوع لم ينتهز الفرصة ليقدمهم إلى المخلص ولكنه ذهب ليخبر أندراوس (راجع يوحنا 12: 20 — 22). ثم أنه في الساعات الأخيرة قبيل الصلب كان كلام فيلبس مما يثبط الإيمان إذ لما سأل توما يسوع قائلا: "يا سيد، لسنا نعلم أين تذهب، فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟" أجابه المخلص بقوله: "أنا هو الطريق والحق والحياة .. لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً". وإذا بفيلبس يندفع في عدم إيمان قائلا: "يا سيد، أرنا الآب وكفانا" (يوحنا 14 : 5 — 8). هكذا كان ذلك التلميذ الذي رافق يسوع مدة ثلاث سنوات بطيء القلب ضعيف الإيمان.

ولكن على عكس إيمان فيلبس كانت ثقة نثنائيل الشبيهة بثقة الأطفال. لقد كان رجلا ذا طبيعة جادة وغيورة جدا ، وتمسك بإيمانه بالحقائق غير المنظورة ، ومع ذلك فقد كان فيلبس تلميذا في مدرسة المسيح . وقد صبر المعلم طويلا محتملا عدم إيمانه وبلادته . فلما حل الروح القدس على التلاميذ صار فيلبس معلما حسب فكر الله . كان يعرف ما يتكلم به وكان يتكلم بقوة إقناع عظيمة فتبكتت قلوب سامعيه.

طالب مركز

وفيما كان يسوع يعد تلاميذه ليضطلعوا بالعمل إذا بواحد لم يدع ليكون تلميذا يفرض نفسه عليهم ليكون واحدا منهم. ذاك كان يهوذا الإسخريوطي الذي اعترف بأنه تابع للمسيح . فتقدم إلى الأمام طالبا أن يفسح له المجال بين هؤلاء التلاميذ الأخصاء ، وبغيرة عظيمة وإخلاص ظاهري أعلن قائلا للمسيح: "يا معلّم، أتبعك أينما تمضي" فلم يصده يسوع ولا رحب به ، ولكنه فقط نطق بهذا القول الحزين: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (متى 8 : 19 و 20). آمن يهوذا بأن يسوع هو مسيا ، وإذ انضم إلى الرسل كان يرجو أنه سيضمن لنفسه مكانة سامية في الملكوت الجديد ، فقصد المسيح أن يبتر هذا الأمل عندما قرر أنه فقير لا يجد مكان يسند إليه رأسه.

كان التلاميذ يتوقون إلى أن يصير يهوذا واحدا منهم. لقد كانت له هيئة آمرة ، وكان فطنا وله مقدرة على الإدارة والتنفيذ ، فامتدحوه لدى يسوع كمن يستطيع أن يقدم له عونا [270] كبيرا في عمله . وقد أدهشتهم عدم ترحيب يسوع به.

كان التلاميذ يحسون بخيبة أمل عظيمة لأن يسوع لم يحاول الظفر بتعاون رؤساء إسرائيل معه. كما أحسوا أنه من الخطأ ألا يدعم رسالته بمعاضدة أولئك الزعماء ذوي النفوذ العظيم . فلو كان قد طرد يهوذا فكانوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم عن السر في ذلك بل كانوا يشكون في حكمة معلمهم . ولكن حياة يهوذا بعد ذلك برهنت لهم على خطر إقامة وزن لأي اعتبار دنيوي في تقرير لياقة أي إنسان للقيام بعمل الله . إن تعاون مثل هؤلاء الناس الذي كان التلاميذ يشتاقون للحصول عليه كان معناه تسليم العمل الإلهي لأيدي ألد الأعداء.

ومع ذلك فإن يهوذا حين انضم إلى التلاميذ لم يكن عديم الإحساس بجمال صفات المسيح. فلقد أحس بتأثير تلك القوة الإلهية التي كانت تجتذب النفوس إلى المخلص . إن ذاك الذي لم يأت ليقصف قصبة مرضوضة أو ليطفئ فتيلة مدخنة لم يرد أن يطرد هذه النفس عندما وجد عندها رغبة ضئيلة للوصول إلى النور . لقد عرف المخلص قلب يهوذا، كما عرف أعماق وهدة الإثم التي كان مزمعا أن ينحدر إليها ما لم تتداركه نعمة الله . وإذ ربط هذا الإنسان بشخصه جعله في وضع خاص بحيث يمكنه يوما بعد يوم أن يبقى على اتصال بسيول محبة يسوع الدافقة التي لا تعرف الأثرة . فلو فتح قلبه للمسيح فإن النعمة الإلهية ستطرد من قلبه شيطان الأنانية ، وحتى يهوذا نفسه يمكن أن يكون أحد رعايا ملكوت الله.

الله يطلب الطائعين

إن الله يأخذ الناس كما هم بالعناصر البشرية التي في أخلاقهم ثم يدربهم على خدمته إذا كانوا يرغبون في أن يتدربوا ويتعلموا منه . إنهم لم يختاروا لكونهم كاملين ، بل لكي يتغيروا إلى صورته عن طريق معرفة الحق وممارسته وعن طريق نعمة المسيح بالرغم من نقائصهم.

كانت ليهوذا نفس الفرص التي كانت لباقي التلاميذ ، وكان يصغي إلى نفس التعاليم الثمينة. ولكن السلوك بموجب الحق الذي كان يطلبه المسيح كان على طرفي نقيض مع رغائب يهوذا وأغراضه ، فلم يرد أن يتخلى عن آرائه لكي يقبل الحكمة النازلة من فوق. [271]

وكم كان المخلص رقيقا في معاملته لذاك المزمع أن يسلمه! إن يسوع في تعاليمه تكلم كثيرا عن مبادئ الإحسان التي كانت فئوسا ضربت الطمع في أصوله ، وصور لعقل يهوذا شناعة الجشع ومرارا كثيرة كان التلميذ يقتنع بأن كلام المسيح صور أخلاقه أدق تصوير وكشف عن خطيته . ولكنه أبى الاعتراف بشره أو الإقلاع عنه . كان مكتفيا بنفسه وراضيا عنها وبدلا من مقاومة التجربة أمعن في الاختلاس والخيانة التي قد حذقها .كان المسيح أمامه مثالا حيا لما يجب أن يصير إليه إذا أراد أن يجتني ثمار الوساطة والخدمة الإلهية . ولكن كل تلك الدروس التي سمعها ذلك التلميذ لم تلاق منه أية استجابة.

لم يوجه إليه يسوع أي توبيخ على طمعه. ولكنه بصبر إلهي احتمل هذا الرجل المخطئ حتى مع كونه قد برهن له على أنه يعرف خفايا قلبه كما لو كان يقرأ من سفر مفتوح أمامه . وقد بسط أمامه أسمى الدوافع للعمل الصائب ، فإذا رفض يهوذا نور السماء فلن يكون له عذر.

وبدلا من أن يسير يهوذا في النور اختار الإبقاء على نقائصه . قد احتضن في قلبه الأميال الشريرة وشهوة الانتقام والأفكار المظلمة الكئيبة إلى أن سيطر عليه الشيطان سيطرة كاملة حتى صار يهوذا نائبا عن عدو المسيح.

وعندما صاحب يهوذا يسوع كانت في أخلاقه بعض الميزات التي كان يمكن أن تكون بركة للكنيسة. فلو رغب في حمل نير المسيح لصار بين طليعة الرسل ، ولكنه قسى قلبه عندما أشير إلى نقائصه ، وفي كبريائه وتمرده اختار مطامعه الأنانية وهكذا جعل نفسه غير أهل للقيام بالعمل الذي أراد الله أن يسنده إليه.

رأي واحد وحكم واحد

لقد كانت لكل التلاميذ أخطاء كثيرة عندما دعاهم يسوع لخدمته. حتى يوحنا الذي تمتع بأقدس وأوثق شركة مع ذاك الوديع والمتواضع القلب لم يكن بطبيعته وديعا أو متواضعا أو خاضعا . فلقد دعي هو وأخوه بـ "ابني الرعد" فعندما كانا مرافقين ليسوع كان أقل إهانة أو احتقار موجه إلى سيدهما كفيلا بإثارة غضبهما ومقاومتهما . كان في التلميذ المحبوب كثير من النقائص كالطبع الحاد الشرير وحب الانتقام وروح الانتقاد . كان متكبرا ويطمع في أن يكون الأول والأعظم في ملكوت الله . ولكنه يوما بعد يوم كان يرى رقة [272] يسوع وصبره واحتماله على نقيض روح الغضب التى كانت فيه هو ، وكان يسمع تعاليمه عن الوداعة والصبر ، ففتح قلبه لتأثيرات روح الله ، وصار ليس سامعا فقط لتعاليم المخلص بل أيضا عاملا بها. لقد استقرت الذات في المسيح وتعلم هو أن يحمل نير المسيح بدون تذمر أو شكوى.

وبخ يسوع تلاميذه وأنذرهم وحذرهم ، ولكن يوحنا وإخوته التلاميذ لم يتركوا السيد بل اختاروه برغم

توبيخاته. كما أن المخلص لم يتركهم بسبب ضعفاتهم وأخطائهم ، فلازموه طوال الوقت ليشاطروه تجاربه وليتعلموا من حياته دروسا ثمينة . وإذ نظروا إلى المسيح تغيرت صفاتهم.

كان الرسل يختلفون بعضهم عن بعض اختلافا بينا في عاداتهم وميولهم. فكان بينهم العشار لاوي-متى ، وسمعان الغيور الملتهب عدو سلطان روما الذي لا يلين ، وبطرس الكريم النفس السريع الاندفاع ، ويهوذا الدنيء النفس ، وتوما المستقيم القلب الذي كان مع ذلك خجولا ووجلا ، وفيلبس البطيء القلب والميال إلى الشكوك ، وابنا زبدي اللذان كانا يجاهران بطموحهما ومعهما إخوتهما . كان هؤلاء معا بما فيهم من أخطاء مختلفة ، وفيهم ميل إلى الشر موروث ومكتسب ، ولكنهم في المسيح وعن طريقه كان لا بد أن يعيشوا بين أسرة الله ليتعلموا كيف يكونون موحدين في إيمانهم وعقيدتهم وروحهم ، وستكون لهم تجاربهم ومضايقاتهم وآراؤهم المتباينة ، ولكن طالما كان المسيح ساكنا في قلوبهم لم يكن هنالك مجال للمنازعات . فمحبته ستجعل كلا منهم يحب إخوته ، والتعاليم التي يتلقونها من المعلم ستجعلهم جميعا في حالة انسجام ، وبذلك تختفي كل الفروق فيتحدون بحيث يكون لجميعهم رأي واحد وحكم واحد . إن المسيح هو مركز الدائرة وكل منهم كان مزمعا أن يقترب إلى باقي إخوته بنسبة اقترابه من المركز.

وعندما انتهى المسيح من تعليم التلاميذ جمع حوله ذلك القطيع الصغير ، وإذ جثا على ركبتيه في وسطهم واضعا يديه على رؤوسهم قدم لأجلهم صلاة ، مكرسا إياهم للعمل المقدس. وهكذا أقيم تلاميذ الرب لخدمة الإنجيل .

نواب الله

إن المسيح لم يختر نوابه بين الناس من الملائكة الذين لم يسقطوا قط ، بل اختارهم من [273] الخلائق البشرية ، من أناس كانوا تحت الآلام مثل أولئك الذين طلبوا أن يخلصوهم. لقد اتخذ المسيح لنفسه طبيعة بشرية حتى يمكنه الوصول إلى بني الإنسان . وكانت الطبيعة الإلهية بحاجة إلى الطبيعة البشرية لأن خلاص العالم كان يستلزم وجود كلتيهما معا . كانت الألوهية بحاجة إلى البشرية لكي تكون البشرية قناة اتصال بين الله والإنسان . وهذا يصدق أيضا على خدام المسيح ورسله . فالإنسان يحتاج إلى قوة خارجة عنه وأعلى منه لتعيده إلى صورة الله وتقدره على القيام بعمل الله ، ولكن هذا لا لجعل الوسيلة البشرية غير لازمة أو غير جوهرية . إن البشرية تمسك بقدرة الله ، والمسيح يسكن في القلب بالإيمان ، وعن طريق التعاون مع القوة الإلهية تصير قوة الإنسان فعالة لعمل الخير.

إن ذاك الذي دعا صيادي الجليل لم يزل يدعو الناس لخدمته ، لم يزل راغبا في إظهار قدرته فينا كما قد أظهرها في التلاميذ الأولين. ومهما نكن ناقصين وخطاة فالرب يقدم لنا هبة مشاركته والتلمذة للمسيح . وهو يدعونا إلى قبول التعليم الإلهي حتى إذا اتحدنا بالمسيح يمكننا أن نعمل أعمال الله.

“لنا هذا الكنز في أوان خزفية، ليكون فضل القوة لله لا منا” (2 كورنثوس 4 : 7). هذا هو السبب الذي لأجله أسند السيد عمل الكرازة بالإنجيل إلى أناس مخطئين لا إلى الملائكة. إنه أمر واضح أن القوة التي تعمل عن طريق ضعف البشرية هي قوة الله . وهذا يشجعنا على أن نؤمن بأن القوة التي قد أعانت من هم ضعفاء نظيرنا يمكنها أن تعيننا . فالإنسان الضعيف الذي هو أداة بيد القدير يكون “قادراً أن يترفق بالجهال والضالين، إذ هو أيضاً محاط بالضعف” (عبرانيين 5 : 2). وبما أن المندوبين لعمل البشارة هم أنفسهم محاطون بالمخاطر فإنهم يعرفون مخاطر الطريق وصعابها ، ولهذا السبب هم مدعوون لأن يبصروا غيرهم ممن هم سائرون في نفس الطريق حتى يتقوا تلك المخاطر . إن بعض النفوس تساورها

الشكوك وتضنيها الضعفات فهم ضعفاء في الإيمان وغير قادرين على التمسك بغير المنظور . ولكن الصديق الذي يمكنهم أن يروه والذي يأتيهم بدلا من المسيح يمكنه أن يكون حلقة اتصال ليثبت في المسيح إيمانهم المترنح المرتعش .

علينا أن نكون عاملين مع ملائكة السماء في تقديم يسوع للعالم . إن الملائكة ينتظرون منا أن نتعاون معهم بشوق عظيم وصبر يكاد يكون نافدا ، لأن الإنسان ينبغي أن يكون قناة [274] للاتصال بإنسان مثله. وعندما نسلم ذواتنا للمسيح في تكريس قلبي كامل فالملائكة سيفرحون ويتهللون حين يمكنهم أن يتكلموا بأصواتنا معلنين للناس محبة الله . [275]

الفصل الحادي والثلاثون—أسرار السعادة

كان المسيح نادرا ما يجمع تلاميذه وحدهم ليعلمهم ، ولم يكن يختار سامعيه ممن كانوا عرفون طريق الحياة دون سواهم . ولكن قصده كان الوصول إلى جماهير الشعب الذين كانوا يعمهون في ظلمات الجهل والخطأ ، فقدم تعاليم الحق لذوي العقول المظلمة . لقد كان هو نفسه الحق واقفا ممنطقا حقويه وباسطا يديه ليبارك الناس ، محاولا بإنذاراته وتوسلاته وتشجيعاته أن يسعى لرفع كل من يأتون إليه.

والموعظة على الجبل وإن لم يكن المقصود منها التلاميذ خصيصا ، فقد نطق بها السيد على مسامع الجماهير. وبعدما أقام يسوع رسله ذهب معهم إلى شاطئ البحر ، وكان الناس قد بدأوا يتجمعون في ذلك المكان منذ الصباح الباكر . ففضلا عن الجماعات التي اعتادت الإتيان إليه من مدن الجليل جاء قوم من اليهودية ومن أورشليم نفسها ومن بيرية والمدن العشر وأدومية الواقعة في أقصى جنوب اليهودية ومن صور وصيداء المدينتين الفينيقيتين الواقعتين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، "إذ سمعوا كم صنع أتوا إليه" ، "جاءوا ليسمعوه ويشفوا من أمراضهم .. أن قوة كانت تخرج منه وتشفي الجميع" (مرقس 3 : 8 ؛ لوقا 6 : 17 — 19).

ولكن الشاطئ الضيق لم يكن يتسع حتى ليقف الناس على أقدامهم بحيث يصل صوته إلى كل من يرغبون في سماعه. فسار يسوع متقدما أمام ذلك الجمع إلى الجبل . فإذ وصل إلى مكان فسيح منبسط يتسع لكل تلك الجماهير الغفيرة جلس يسوع على العشب فحذا التلاميذ والجموع حذوه .

كان التلاميذ في مكان قريب من يسوع ، وكان الناس يزحمونه ولكن التلاميذ رأوا أن أولئك الناس ينبغي ألا يزحفوا أكثر من ذلك لئلا يبعدوهم عن معلمهم. فجلسوا بالقرب منه حتى لا تفوتهم كلمة من كلامه ، وكانوا يصغون إلى كلامه [276] بكل انتباه وكلهم شوق لفهم الحقائق التي كان عليهم أن ينشروها في كل البلدان فتتناقلها الأجيال.

يؤملون في مغانم مادية

وإذ كان التلاميذ يتوقعون حدوث أمر غير عادي زادوا اقتراباً من معلمهم. كانوا يعتقدون أن الملكوت عتيد أن يقام قريبا . واستخلصوا من أحداث الصباح أن إعلانا قد أوشك أن يصدر بشأنه ، فساد روح الانتظار على ذلك الجمع أيضا وارتسمت على الوجوه دلائل الاهتمام العميق . وإذ كان الناس جالسين على جانب الجبل المكتسي بالعشب الأخضر ، منتظرين سماع أقوال ذلك المعلم الإلهي امتلأت عقولهم بالأفكار المبهجة عن الأمجاد المستقبلة . وكان هناك بعض الكتبة والفريسيين الذين كانوا يتطلعون إلى الأمام إلى اليوم الذي فيه يتسلطون على سادتهم الرومان المكروهين ويستحوذون على ثروات أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ وعلى كل أمجادها . وكان القرويون الفقراء والصيادون يؤملون أن يسمعوا ما يؤكد لهم أن

أكواخهم الحقيرة وطعامهم الزهيد وحياة الكدح التي يعيشونها في الخوف من العوز والفاقة سيستعاض عنها بقصور تفيض بالخيرات وحياة الراحة والاطمئنان . وبدل من الثياب الخشنة التى كانوا يستترون بها في النهار ويلتحفون بها في الليل كانوا يؤملون بأن المسيح سيغدق عليهم من الحلل الثمينة التي لأعدائهم المتسلطين عليهم . ولقد اهتزت كل المشاعر والقلوب بذلك الأمل الفخور بأن إسرائيل موشك أن يرتفع ويتسامى فوق كل الشعوب كشعب الرب المختار . وأن أورش ل يم ستصبح أمجد المدن لأنها ستصير قصبة المملكة التي ستشمل العالم كله.

ولكن المسيح خيب آمالهم في العظمة الدنيوية ، ففي موعظته على الجبل حاول أن يهدم كل ما بناه التعليم الكاذب ، وأن يعطى سامعيه فكرة صحيحة عن ملكوته وصفاته هو ، إلا أنه لم يهجم على أخطاء الشعب هجوما مباشرا. لقد رأى شقاء العالم الذي كانت الخطية سببه ، إلا أنه لم يقدم للشعب صورة واضحة لشقائهم . لقد علمهم شيئا أفضل بما لا يقاس من كل ما قد عرفوه . وبدلا من أن يجادلهم في آرائهم عن ملكوت الله بسط لهم شروط الدخول فيه ، تاركا إياهم ليستنتجوا ما يرونه عن طبيعته . وإن حاجتنا لتعلم أساس [277] مبادئ ملكوت الله ليست أقل من حاجة أولئك الناس.

الكرامة في التواضع

إن أول كلام نطق به المسيح في مسامع تلك الجموع على ذلك الجبل كان كلام البركة فقال طوبى لمن يعترفون بأنهم مساكين روحيا ويحسون بحاجتهم إلى الفداء. إن الإنجيل كان سيكرز به إلى المساكين . فهو لا يعلن لمن قد أعمتهم الكبرياء الروحية الذين يدعون أنهم أغنياء ولا حاجة بهم إلى شيء ، ولكنه يعلن للمتواضعين والمنسحقي القلوب ، حيث يوجد ينبوع واحد مفتوح للخطية هو الينبوع المفتوح للمساكين بالروح.

إن القلب المتكبر يجاهد ليحصل على الخلاص باستحقاقه. ولكن وثيقة امتلاكنا للسماء وأهليتنا لها يوجدان كلاهما في بر المسيح . إن الرب لا يمكنه أن يفعل شيئا لإرجاع الإنسان وتخليصه ما لم يسلم نفسه لسلطان الله وهو مقتنع بضعفه ومتجرد من الإحساس بكفايته الذاتية . وحينئذ يستطيع أن ينال العطية التي ينتظر الرب أن يهبه إياها . إن الله لا يمنع شيئا عن النفس التي تحس بحاجتها . فيمكن أن يأتي ذلك الإنسان دون عائق إلى ذاك الذي فيه يحل كل الملء ”لأنه هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الأبد، القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيي روح المتواضعين، ولأحيي قلب المنسحقين“ (إشعياء 57 : 15).

الفرح في الحزن

” طوبى للحزانة، لأنهم يتعزّون“ (متى 5: 4). إن المسيح لا يعلمنا بهذا الكلام أن الحزن أو النوح يمكنه في ذاته أن يرفع جرم الخطية . إنه لا يصادق على الإدعاء أو الاتضاع الطوعي ، فالحزن أو البكاء الذي يتحدث عنه ليس هو في الكآبة أو العويل .وفي حين نحزن على الخطية فإننا نفرح بذلك الامتياز الثمين ، امتياز كوننا أولاد الله.

إننا في غالب الأحيان نحزن لأن أعمالنا الشريرة قد جلبت على أنفسنا عواقب وخيمة ومكدرة. ولكن

هذه ليست توبة . إنما الحزن الحقيقي على الخطية يأتي نتيجة لعمل الروح القدس الذي يكشف لنا عن جحود قلوبنا الذي أهان المخلص وأحزنه ، ويأتي بنا في [278] انسحاق تحت الصليب. إن كل خطية نرتكبها هي طعنة جديدة ليسوع . فإذ ننظر إلى ذاك الذي طعناه نحزن وننوح على خطايانا التي جلبت عليه العذاب والحزن . مثل هذا النوح سيجعلنا نترك الخطية.

قد يحسب الإنسان العالمي هذا الحزن ضعفا. ولكنه في الحقيقة هو القوة التي تربط التائب بالإله غير المحدود بربط وثيقة لا تنفصم ، ويبرهن على أن ملائكة الله يعيدون للنفس فضائلها التي إضاعتها بسبب قساوة القلب والعصيان . إن دموع التائب ما هي إلا قطرات المطر النى تسبق شروق شمس القداسة . فهذا الحزن هو بشير الفرح الذي سيكون نبع ماء حي في النفس . " اعرفي فقط إثمك أنك إلى الرب إلهك أذنبت" ، "لا أوقع غضبي بكم لأني رؤوف، يقول الرب" (إرميا 3 : 13، 12). وهو القائل: "لأجعل لنائحي صهيون، لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرح عوضاً عن النوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة" (إشعياء 61 : 3).

وكل من ينوحون في تجاربهم وأحزانهم لهم العزاء. إن مرارة الحزن والانسحاق لأفضل بكثير من الانغماس في الخطية . إذ بواسطة الآلام يكشف الله لنا عن الأماكن الموبوءة في أخلاقنا حتى يمكننا أن ننتصر بنعمته علي أخطائنا . فالخطايا الك ثيرة التي ارتكبناها ونسيناها ستظهر واضحة أمام أذهاننا ، ثم يجيء الامتحان فيظهر ما إذا كنا سنقبل توبيخ الله ومشورته أم لا . وعندما نقع في تجربة ينبغي ألا ننطق بكلام تفوح منه رائحة التبرم أو الشكوى . يجب ألا نتمرد أو نزعج أنفسنا إلى حد الإفلات من يد المسيح ، بل علينا أن نتذلل أمام الله . إن طرق الرب تبدو غامضة وغير واضحة المعالم أمام ذلك الإنسان الذي يريد أن يرى الأشياء في النور الذي يروق له . إنها تبدو مظلمة وخالية من الفرح أمام طبيعتنا البشرية . ولكن طرق الله هي طرق الرحمة ونهايتها الخلاص . لم يكن إيليا يعلم ماذا يفعل عندما كان في البرية وقال إنه تكفيه السنون التي عاشها وطلب الموت لنفسه . ولكن الرب في رحمته لم يجبه إلى طلبه ، إذ كان باقيا لإيليا عمل ليعمله ، فلما أتم ذلك العلم لم يكن من نصيبه أن يموت في وحدته ويأسه في البرية . لم يكن له أن يدفن في الأرض ويتوارى تحت الثرى ، بل كان سيصعد في مجد مع ركب من المركبات السماوية إلى دار الخلود. [279]

وهذا ما يقوله الله للنائحين: " رأيت طرقه وسأشفيه وأقوده، وأرد تعزيات له ولنائحيه" ، "وأحوّل نوحهم إلى طرب، وأعزّيهم وأفرّحهم من حزنهم" (إشعياء 57 : 18 ؛ إرميا 31 : 13).

القوة في ضبط النفس

" طوبى للودعاء" (5 : 5). إن المشاكل التي علينا أن نواجهها يمكن للوداعة التي تخفي نفسها في المسيح أن تخفف كثيرا من شدتها . فإن كانت لنا وداعة السيد فإننا سنسمو فوق الإهانات والصدمات والمضايقات التي نتعرض لها كل يوم ، ولا تعود تلقي ظلالها المحزنة الكثيفة على أرواحنا . إن أسمى برهان على النبل في حياة المسيحي هو ضبط النفس . إن ذاك الذي يخفق في إظهار الروح الهادئة الواثقة ، اذ يكون تحت ضغط الإهانات أو القسوة ، يسلب الله حقه في أن يعلن فيه كمال صفاته الإلهية . إن تواضع القلب هو القوة التي تعطي النصرة لاتباع المسيح ، وهو علامة ارتباطهم بالمواطن البهية في السماء.

"لأن الرب عال ويرى المتواضع" (مزمور 138 : 6). إن أولئك الذين يظهرون وداعة المسيح

وروحه المتواضع يعاملهم الله بكل رفق ومحبة . قد ينظر إليهم العالم بازدراء ولكن الله يقدرهم تقديرا عظيما . إنه ليس الحكماء ولا العظماء ولا المحسنون وحدهم الذين سيسمح لهم بدخول مواطن السماء المجيدة . وليس فقط العامل المجد الممتلئ غيرة ونشاطا الذي لا يعرف الراحة . كلا ، فإن المساكين بالروح الذين يتوقون إلى وجود المسيح معهم وفيهم ، ومتواضعي القلب الذين غايتهم القصوى هي أن يحملوا إرادة الله - هؤلاء سيعطى لهم دخول بسعة إلى الملكوت السماوي . وسيكونون ضمن أولئك الذين قد غسلوا ثيابهم وبيضوها في دم الخروف: "من أجل ذلك هم أمام عرش الله، ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحل فوقهم" (رؤيا 7 : 15).

الشعور بعدم الاستحقاق

" طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون" (متى 5 : 6). إن الإحساس بعدم الاستحقاق يقود القلب إلى أن يجوع ويعطش إلى البر . وهذا الشوق لن يخزى . فأولئك الذين يفسحون في قلوبهم مجالا ليسوع سيدركون محبته . والذين يشتاقون لأن يحملوا صورة صفات الله سيشبعون . [280] إن النفس التي هي أبدا متطلعة إلى يسوع لن يتركها الروح القدس جائعة أو عطشى. إنه يأخذ مما للمسيح ويعطي ذلك الإنسان . وإذ تظل العين مثبتة في المسيح فإن الروح القدس لا يكف عن عمله حتى تصير تلك النفس على شبه صورته . إن عنصر المحبة الطاهر سيوسع طاقة النفس معطيا إياها قدرة لبلوغ مزيد من المعرفة الروحية حتى لا تقنع بأقل من الملء . "طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون" (متى 5: 6).

الحرية في التحفظ

والرحماء سيرحمون ، والأنقياء القلب يعاينون الله. إن كل مكر نجس يدنس النفس ويضعف الحساسية الأدبية ويفضي إلى إزالة انطباعات الروح القدس ويظلم البصيرة الروحية بحيث لا يستطيع إنسان أن يرى الله . إن الرب قد يغفر للخطاة التائبين وهو يفعل ذلك بكل تأكيد ، ولكن مع إن الإنسان يحصل على الغفران فإن النفس قد شوهت وأصابها العطب ، لذا يجب على كل من يريد أن يكون إدراكه للحق الروحي صافيا أن يطرح عنة كل نجاسة في القول أو الفكر.

ولكن كلام المسيح يشتمل على ما هو أكثر من التحرر من النجاسة الشهوانية ، ومن النجاسة الطقسية التي كان اليهود يتجنبونها بكل صرامة. إن الأنانية تحرمنا من رؤية الله . والإنسان الذي يطلب ما لنفسه يعتبر أن الله مثله محب للذات . فما لم ننبذ هذا لا يمكننا أن نفهم ذاك الذي هو محبة . إن القلب الخالي من الأنانية ، والروح المتواضع الواثقة ، هما وحدهما اللذان يعتبران الله أن الله "إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء" (خروج 34 : 6).

القوة في صنع السلام

“ طوبى لصانعي السلام” (متى 5: 9). إن سلام المسيح هو وليد الحق . وهذا السلام هو التوافق والانسجام مع الله . إن العالم عدو لشريعة الله ، والخطاة هم في حالة عداء مع جابلهم ، ونتج عن ذلك أنهم صاروا أعداء بعضهم لبعض . ولكن صاحب المزامير يقول: “سلامة جزيلة لمحبّي شريعتك، وليس لهم معثرة” (مزمور 119 : 165). إن الناس لا يستطيعون أن يصنعوا السلام . والخطط البشرية لتطهير الأفراد والسمو بهم وبالمجتمع [281] تقصر دون إيجاد السلام لأنها لا تمس القلب. ولكن القوة الوحيدة التي يمكنها أن تخلق سلاما حقيقيا دائما هي نعمة المسيح . فمتى غرست النعمة في القلب فستطرد كل الميول الشريرة التى تنشأ عنها المنازعات والانقسامات . “ عوضاً عن الشوك ينبت سرو، وعوضاً عن القريس يطلع آس” ، “ تفرح البرية والأرض واليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس” (إشعياء 55 : 13 ؛ 35 : 1).

بطلان المجد العالمي

بهتت الجموع من هذه التعاليم التي كانت تختلف اختلافا بينا عن وصايا الفريسيين ومثالهم. لقد كان الناس يعتقدون أن الغبطة تنحصر في حيازة متاع هذه الدنيا ، وأن الشهرة واحترام الناس ينبغي أن يشتهيهما الإنسان ، ولذا كان رؤساء اليهود يسرون ويبتهجون عندما يدعوهم الناس “سيدي” وعندما يمتدحونهم ويمجدونهم لحكمتهم وتدينهم إذ يعرضون فضائلهم أمام الجماهير ، فكان هذا معتبرا في نظرهم من أعظم أسباب السعادة لهم . ولكن يسوع أعلن أمام ذلك الجمهور العظيم أن الأرباح والكرامات الأرضية كانت هي كل الاجر الذي يحصل عليه أولئك المتفاخرون . كان يسوع يتكلم بكل يقين وكانت ترافق أقواله قوة إقناع عظيمة ، فأسكت الشعب وطغى على قلوبهم إحساس بالخوف والرهبة . كانوا يشخصون في وجوه بعضهم البعض وقد ساورتهم الشكوك: من منهم يمكن أن يخلص إذا كانت تعاليم هذا الإنسان حقيقية ؟ وقد اقتنع كثيرون منهم بأن هذا المعلم العظيم كان مسوقا بروح الله ، وأن التعاليم التي نطق لها هى تعاليم إلهية.

بعدما شرح يسوع مقومات السعادة وكيف يمكن نيلها وجه أنظار تلاميذه بشكل قاطع إلى واجبهم في إرشاد الآخرين إلى طريق البر والحياة الأبدية حيث قد اصطفاهم الله ليكونوا معلمين. لقد عرف أنهم أحيانا كثيرة سيقاسون آلام الخيبة وخوار العزم ، وسيلاقون مقاومة لا هوادة فيها ، وستنهال عليهم الإهانات وسيرفض الناس شهادتهم ، كما عرف جيدا أنهم إذ ينجزون مهمتهم ، فالناس المتواضعون الذين يستمعون لأقوالهم بكل انتباه سيشي بهم الأشرار ، وسيعذبون ويطرحون في غياهب السجون ويموتون . ثم استطرد يقول:

بركات الاضطهاد

“ طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيّروكم [282] وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلي، كاذبين. إفرحوا وتهلّلوا، لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم” (متى 5 : 10 — 12).

إن العالم يحب الخطية ويبغض البر ، وكان هذا هو السبب في عدائه ليسوع. وكل من يرفضون محبة

الفادي غير المحدودة سيجدون أن المسيحية هي عنصر مزعج . إن نور المسيح يكتسح الظلمات التي تستر خطايا الناس ، وتبدو حاجتهم إلى الإصلاح أمرا لازما كل اللزوم . ففي حين أن من يخضعون لتأثير الروح القدس تستعر في أعماقهم حرب شديدة ، فالذين يتشبثون بخطاياهم يحاربون الحق وكل الداعين إليه.

هكذا ينشأ الصراع ويتَّهم أتباع المسيح بأنهم مكدرو الشعب. ولكن شركتهم مع الله ، هي التي تثير ضدهم عداوة العالم . إنهم يحملون عار المسيح ، وهم يسيرون في نفس الطريق الذي سبق أن سار فيه أنبل من قد أظلتهم السماء . فعليهم ألا يقابلوا الاضطهادات بالحزن والعويل بل بالفرح والتهليل . إن كل بلوى محرقة تحل بهم هي الوسيلة التي يستخدمها الله لتنقيتهم . وكل تلك التجارب تؤهلهم لأن يكونوا عاملين معه . فكل صراع له مكانة في حرب البر العظيمة ، وكل ذلك يزيد من فرح انتصارهم النهائي . وفي نور هذا الحق سيكون امتحان إيمانهم وصبرهم مقبول لديهم بكل فرح ، ولن يخافوا أو يتهربوا منه . إن عبيد الله إذ يتوقون إلى القيام بالتزاماتهم للعالم ويثبتون أشواقهم في رضى الله واستحسانه عليهم أن يقوموا بكل واجباتهم دون ما التفات إلى خشية الناس أو رضاهم.

الأخلاق السامية البهية

قال يسوع: “ أنتم ملح الأرض” (متى 5: 13). لا تهجروا العالم هربا من الاضطهاد ، بل عليكم ان تلبثوا بين الناس حيث كنتم ، حتى يكون طعم رضى الله كالملح لحفظ العالم من الفساد .

إن القلوب التي تستجيب لنداء الروح القدس هي القنوات التي تجري فيها بركة الله .فلو أن من يخدمون الله هجروا العالم وارتحل روح الرب من بين الناس فإن هذا العالم يترك للدمار والخراب اللذين هما الثمرة المرة لسيادة الشيطان. إن الناس الأشرار مدينون- وإن كانوا لا يعلمون ذلك- حتى ببركات هذه الحياة ، إلى وجود شعب الله الذين [283] يحتقرونهم ويظلمونهم في هذا العالم. ولكن إذا كان المسيحيون لا يمتلكون من المسيحية غير اسمها فانهم يشبهون ملحا فقد ملوحته ، إذ لا يكون لهم تأثير صالح على العالم . وبسبب سوء تمثيلهم لله يصيرون شرا من غير المؤمنين.

“ أنتم نور العالم” (متى 5: 14). لقد فكر اليهود في احتكار فوائد الخلاص لأمتهم ، ولكن المسيح أبان لهم أن الخلاص ملك لجميع الناس كنور الشمس ، إنه ملك العالم كله . فديانة الكتاب المقدس ينبغي عدم حصرها بين دفتي الكتاب ولا بين جدران كنيسة ، أو إخراجها من حين لأخر لأجل منفعتنا الشخصية ، وبعد ذلك نلقي بها جانبا . ولكن القصد منها هو تقديس الحياة كل يوم ، وإظهار نفسها وتأثيرها في كل صفقة تجارية وفي جميع علاقاتنا الاجتماعية.

إن الخلق الحقيقي لا يصاغ من الخارج أو يلبس كرداء ، ولكنه يشع من الداخل. فإذا رغبنا في إرشاد غيرنا في طريق البر يجب أن تكون مبادئ البر مكنوزة في قلوبنا . إن اعترافنا قد يعلن مبادئ الدين ولكن تقوانا العملية هي التي تقدم للناس كلمة الحق . إن الحياة الثابتة على الحق والسيرة المقدسة والاستقامة التي لا انحراف فيها والروح النشيطة المحبة للخير والمثال الصالح هي النوافذ التي يشع منها النور إلى العالم.

إكرام المسيح للناموس

إن يسوع لم يتكلم كثيرا عن مطاليب الناموس ولكنة لم يعط لسامعيه المجال ليستنتجوا أنه قد جاء ليلقي بتلك المطاليب جانبا. لقد عرف أنه يوجد بين ذلك الجمع جواسيس هم على أتم استعداد للتمسك بأية كلمة يمكن استخدامها لتحقيق أغراضهم ، كما عرف التعصب الرابض في أذهان كثيرين من سامعيه ، ولذلك لم يقل شيئا ليزعزع إيمانهم في الدين أو النظم التي قد تسلموها من موسى . إن المسيح هو نفسه الذي قد سبق فأعطى الناموس الأدبي والطقسي . وهو لم يأت ليلاشي الثقة في ما سبق أن شرعه . إن السبب في إكرامه العظيم للناموس والأنبياء هو أن يهدم سياج الفرائض الطقسية التي كانت متأصلة في قلوب اليهود . وفي حين أنه ألقى جانبا تفسيراتهم الكاذبة للناموس فهو بكل حرص وقى تلاميذه من نبذ الحقائق الحيوية المسلمة للعبرانيين.

كان الفريسيون يفخرون بحفظهم للناموس ، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا يعرفون من مبادئه إلا النزر اليسير للسير بموجبه في تصرفاتهم اليومية ، حتى لقد تراءى لهم كلام [284] المخلص يشبه الهرطقات. وإذ اكتسح بعيدا النفاية التي كان الحق مدفونا تحتها كانوا يظنون أنه اكتسح الحق نفسه . وكانوا يتهامسون قائلين أنه يستخف بالناموس وقد عرف أفكارهم فأجابهم بقوله:

“ لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل” (متى 5 : 17). وهنا دحض المسيح اتهام الفريسيين . إن مهمته التي لأجلها قد أتى إلى العالم هي أن يزكي المطاليب المقدسة لذلك الناموس الذي اتهموه ظلما بنقضه . فلو أمكن تغيير الناموس أو إلغاؤه لما كانت هنالك حاجة لأن يقاسي المسيح قصاص عصياننا . لقد أتى لكي يوضح علاقة الناموس بالإنسان ويوضح مبادئه بإطاعته وصايا الناموس.

لقد أعطانا الله وصاياه المقدسة لأنه أحب بني الإنسان. فلكي يعينا من عواقب العصيان يعلن لنا مبادئ البر . إن الناموس يعبر عن فكر الله . فمتى قبلناه في المسيح يصير فكرنا ويرفعنا فوق مستوى الأميال والرغائب الطبيعية وفوق مستوى التجارب التي توقع الإنسان في الخطية . إن الله يريدنا أن نكون سعداء ، وقد أعطانا وصايا الناموس حتى اذا أطعناها يكون من نصيبنا الفرح والسعادة . إن الملائكة عندما ترنموا عند ميلاد المسيح قائلين: “المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة” (لوقا 2 : 14). كانوا يعلنون مبادئ الناموس الذي جاء هو ليعظمه ويكرمه وعندما أعلنت الشريعة من فوق جبل سيناء أعلن الله للناس قداسة صفاته حتى إذ يقارنون صفاته بصفاتهم يرون شر صفاتهم . لقد أعطى الناموس بقصد تبكيتهم على الخطية وإعلان حاجتهم إلى مخلص . وهو يفعل هذا عندما يطبق الروح القدس مبادئه على القلب . وما يزال يقوم بهذا العلم . وفي حياة المسيح وضحت مبادئ الناموس . وعندما يمس روح الله القدوس القلب ويكشف نور المسيح للناس حاجتهم إلى دمه المطهر وبره المبرر فإن الشريعة تظل وسيلة اجتذابنا إلى المسيح حتى نتبرر بالإيمان . “ ناموس الرب كامل يرد النفس” (مزمور 19: 7).

الناموس- أبدي وعادل

قال يسوع: “ إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل” (متى 5 : 18). إن الشمس التي تشرق في السماء والأرض الصلبة التي تعيش عليها هما شاهدا الله على أن ناموسه لا يتغير بل هو أبدي . وحتى لو [285] زال هذان الشاهدان فإن الوصايا الإلهية باقية. “ إن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس” (لوقا 16 : 17). إن نظام الرموز الذي كان يشير إلى يسوع كحمل الله كان سيبطل عند موته ، ولكن الوصايا العشر ثابتة ثبات

عرش الله.

وحيث أن " ناموس الرب كامل" فكل انحراف عنه هو شر. فأولئك الذين يعصون وصايا الله ويعلمون غيرهم أن يتمثلوا بهم سيدينهم المسيح . إن حياة الطاعة التي عاشها المخلص حفظت للناموس كرامته وبرهنت على إمكانية حفظ الناس للشريعة ، كما برهنت على سمو الأخلاق التي توجدها الطاعة . وكل من يطيعون كما قد أطاع هو يعلنون هم أيضاً أن ألوهيته "مقدسة وعادلة وصالحة" (رومية 7 : 12). ومن الناحية الأخرى فكل من يتعدون وصايا الله يعاضدون ويؤيدون ادعاء الشيطان بأن الشريعة غير عادلة ولا يمكن إطاعتها . وهكذا يناصرون الخصم الأعظم في مخادعاته ويجلبون على الله الإهانات. إنهم بنو الشرير الذي كان أول من عصى شريعة الله . فلو سمح لهؤلاء بدخول السماء فمعنى ذلك إدخال عناصر النزاع والعصيان إلى موطن السلام والقداسة من جديد وتعريض سعادة الكون للخطر . لا يمكن أن أنسانا يستخف بمبدأ واحد من مبادئ الشريعة في إصرار ثم يدخل ملكوت السماوات.

ديانة بلا بر

حسب معلمو الشريعة برهم جوازا به يدخلون السماء ، ولكن يسوع أعلن أنه غير جدير أو كاف. فالطقوس الخارجية والمعرفة النظرية للحق هي التي تكونت منها عناصر بر الفريسيين . لقد ادعوا أنهم قديسون عن طريق اجتهادهم في حفظ الناموس . ولكنهم بأعمالهم فصلوا البر عن الديانة . وإذ كانوا مدققين في ممارسة الفرائض والطقوس كانت حياتهم حياة الانحطاط والنجاسة . وبرهم الذي كانوا يتشدقون به لن يدخلهم إلى ملكوت السماوات.

إن أعظم خداع للعقل البشري في أيام المسيح كان اعتقاد الناس أن مجرد الموافقة على الحق يكون البر. وفي كل اختبارات الناس تبرهن أن معرفة الحق معرفة نظرية غير كافية لتخليص النفس ، ولا تثمر ثمار البر . إن التحمس في مراعاة ما يسمى بالحق اللاهوتي مصحوب دائما بكراهة الحق الجوهري الحقيقي الظاهر في الحياة ، كما أن أشد صفحات التاريخ سوادا مشحونة بأنباء الجرائم التي قد ارتكبها قوم متدينون متعصبون [286] لمبادئهم . لقد ادعى الفريسيون أنهم أولاد إبراهيم ، وكانوا يفخرون بأنهم قد استؤمنوا على أقوال الله ، ولكن هذه الامتيازات لم تحفظهم من الأنانية أو الخبث أو الطمع في المكسب الحرام ، وأحط الرياء . لقد تصوروا أنهم أعظم أهل الدنيا تدينا ، ولكن الاستقامة التي كانوا يدعونها لأنفسهم ساقتهم أخيرا إلى أن يصلبوا رب المجد.

إن نفس هذا الخطر لا يزال باقيا. فكثيرون يعتبرون أنه أمر مسلم به أنهم مسيحيون لمجرد كونهم يعتنقون عقائد لاهوتية خاصة ، ولكنهم لم يمارسوا الحق في حياتهم العملية .فهم لم يؤمنون به ولا أحبوه ولذلك لم يحصلوا على القوة والنعمة اللتين تأتيان عن طريق تقديس الحق . قد يعترف الناس بإيمانهم بالحق ، و لكن إذا لم يجعلهم الحق مخلصين ومشفقين وطويلي الأناة ، وما لم يجعل تفكيرهم سماويا فإنه يصير لعنة عليهم ، وعن طريق قدوتهم وتأثيرهم يصير لعنة للعالم.

أما البر الذي علم به المسيح فهو جعل القلب والحياة في وفاق مع إرادة الله المعلنة. ويمكن للناس الخطاة أن يصيروا أبرارا فقط لكونهم يؤمنون بالله ويتصلون به اتصالا حيويا . حينئذ ترفع التقوى الحقيقية أفكارهم وتسمو بها وتجعل حياتهم حياة النبل والإصلاح . وحينئذ تصير طقوس الديانة الخارجية في حالة توافق مع طهارة المسيحى القلبية . وعندئذ لا تصبح الطقوس المطلوبة في خدمة الله طقوسا عديمة المعنى كطقوس الفريسيين المرائين.

الطاعة من القلب

إن يسوع يتناول الوصايا كلا على حدة ويوضح عمق كل وصية واتساعها. وبدلا من أن يجردها من حرف أو نقطة من قوتها فهو يرينا مدى اتساع مبادئها ، ويشهر بخطأ اليهود القاتل في تظاهرهم الخارجي بالطاعة . كما يعلن أن الإنسان قد يتعدى شريعة الله عندما يفكر أفكارا شريرة أو ينظر نظرة شهوانية . والإنسان الذي ينحاز إلى أقل ظلم هو كاسر للشريعة ومنحدر بطبيعته الأدبية إلى أعماق الهوان . إن جريمة القتل تُنسج خيوطها أولا في العقل . فالذي يفسح المجال للبغضة في قلبه هو سائر في طريق القتلة المجرمين . وذبائحه وتقدماته تمسي كريهة في نظر الله [287]

كان اليهود يضمرون حب الانتقام. ففي كراهيتهم للرومان كانوا يشهرون بهم بكلام قاس . وقد أرضوا عدو الخير في التشبه به في إظهار صفاته الشريرة . وهكذا كانوا يدربون أنفسهم على القيام بالأعمال المخيفة التي كان يقودهم إليها ، فلم يكن في حياة الفريسيين الدينية ما يحبب الأمم في التقوى . وقد أمرهم يسوع بألا يخدعوا أنفسهم بفكرة كونهم في قلوبهم يثورون على غاضبيهم ومضطهديهم ويحتضنون الشوق للانتقام للمظالم التي قد وقعت عليهم.

أجل ، إنه يوجد غضب مشروع حتى ولو كان بين أتباع المسيح. فعندما يرون اسم الله مهانا وخدمته محتقرة ، وحين يرون الظلم يحيق بالأبرياء فإن الغضب المقدس يضطرم في نفوسهم . مثل هذا الغضب الذي مبعثه الأخلاق الحساسة ، يعتبر خطية .ولكن أولئك الذين لدى أقل إثارة أو إغاظة يطلقون لسخطهم العنان ويسمحون لأنفسهم بالتورط في الغضب أو الحنق يعطون إبليس في قلوبهم مكانا . فينبغي لنا أن نبعد عن نفوسنا كل مرارة وعداء إذا أردنا أن نكون في حالة وفاق مع السماء.

ثم استطرد المخلص إلى التصريح بما هو أبعد من ذلك فقال : ”فإن قدّمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكّرت لأن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدّم قربانك“ (متى 5 : 23، 24). إن كثيرين من الغيورين في خدماتهم الدينية توجد بينهم وبين أخوتهم خلافات محزنة كان يمكنهم تسويتها . إن الله يريدهم أن يبذلوا كل ما في طوقهم لإقرار السلام . وما لم يفعلوا ذلك فلا يمكنه أن يقبل خدماتهم أو يرضى عنها . إن الواجب المسيحي لواضح من هذا القبيل.

المقياس الذي يريده الله

إن الله يغدق بركاته على الجميع: ” يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين“ (متى 5: 45). وهو ”منعم على غير الشاكرين والأشرار“ (لوقا 6 : 35). وهو يأمرنا بأن نتمثل به ، فلقد قال يسوع: ”باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم ... لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات“ (متى 5 : 44، 45). هذه هي مبادئ الشريعة وهي ينبوع الحياة . إن مقياس الله لأولاده [288] هو أسمى من كل ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري: ”فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل“ (متى 5 : 48). هذا الأمر هو وعد . إن تدبير الفداء يشمل تحررا كاملا لنا من سلطان الشيطان . لأن المسيح دائما يعزل النفس المنسحقة ويفصلها عن الخطية . لقد أتى لكي ينقض أعمال إبليس ، وقد أعد العدة لكي يمنح الروح القدس لكل نفس تائبة لحفظها من ارتكاب الخطية.

إن وجود عمل المجرب ينبغي ألا يكون عذرا لأي إنسان لكي يرتكب خطية واحدة. والشيطان يفرح

جدا عندما يسمع أولئك الذين يعترفون بأنهم أتباع المسيح يعتذرون عن أخلاقهم المشوهة الضعيفة ، فهذه الأعذار هي التي تقود إلى الخطية . ولكن ليس لأي إنسان أي عذر لارتكاب الخطية . إن الخلق المقدس والطبع الوديع والحياة المسيحية هي في متناول كل ابن الله تائب ومؤمن.

إن مقياس الخلق المسيحي هو التمثل بالمسيح. فكما كان ابن الإنسان كاملا في حياته كذلك يجب على كل تابعيه أن يكونوا كاملين في حياتهم . لقد كان يسوع شبيها بإخوته في كل شيء . فلقد صار جسدا مثلنا . جاع وعطش وتعب . وقد أسند قلبه بالطعام وانتعش بالنوم وقاسم الناس في نصيبهم ، ومع ذلك فقد كان هو ابن الله الذي بلا عيب . كان هو الله الظاهر في الجسد ، وينبغي أن تكون صفاته لنا . إن الرب يقول عمن يؤمنون به: "إني سأسكن فيهم وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً" (2 كورنثوس 6 : 16).

المسيح هو السلم التي رآها يعقوب ترتكز بقاعدتها على الأرض ورأسها تمس السماء ، حتى إلى أعتاب المجد. فلو قصرت هذه السلم دون الوصول إلى الأرض درجة واحدة لكنا قد هلكنا . ولكن المسيح يصل إلينا في مستوانا . لقد اتخذ طبيعتنا وانتصر حتى إذا أخذنا طبيعته ننتصر . ومع إن الله "أرسل ابنه في شبه جسد الخطية" (رومية 8 : 3) فقد عاش بلا خطية . والآن هو بألوهيته يمسك بعرش السماء ، بينما ببشريته يتصل بنا . وهو يأمرنا أن نبلغ مجد صفات الله بالإيمان به . لذلك يقول متشددا: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل". [289]

الإخلاص في الخدمة

لقد سبق يسوع فأبان لنا في أي شيء ينحصر البر ، كما أشار إلى الله على اعتبار أنه مصدره. والآن ها هو يتجه إلى الواجبات العملية . ففي الصدقات والصلوات والأصوام قال لنا لا تفعلوا شيئا لكي تسترعوا انتباه الناس إليكم أو لتحصلوا على المديح والمجد العالمي . قدم عطاياك لي بإخلاص في الخفاء لإسعاف المساكين المتألمين . وفي الصلاة لتكن النفس في شركة مع الله . وفي الصوم لا تسر في طريقك خافض الرأس وقلبك ممتلئ بتفكيرك في نفسك . إن قلب الفريسي هو تربة قاحلة لا نفع فيها ولا يمكن أن ينمو فيها بذار الحياة الالهية . ولكن ذاك الذي يسلم نفسه لله بدون تحفظ هو الذي يقدم لجلاله أعظم خدمة مقبولة ، لأنه عن طريق الشركة مع الله يصير الناس عاملين معه في إظهار صفاته في البشرية

والخدمة التي تقدم بإخلاص القلب لها جزاؤها "أبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية" (متى 6 : 4). فبالحياة التي نحياها بنعمة المسيح تتكون أخلاقنا ، وسيعود إلى النفس جمالها الأصلي ، وتغرس فيها صفات المسيح ، والصورة الإلهية يبدأ سناها يشع من قلوبنا . إن وجوه الرجال والنساء الذين يسيرون ويحملون مع الله تعبر عن سلام السماء ويكونون محاطين بجو سماوي . فلمثل هؤلاء الناس قد بدأ ملكوت الله . إن لهم فرح المسيح ، فرح كونهم بركة للآخرين ، ولهم فخر كونهم قد قبلوا لخدمة السيد ، واستؤمنوا على عمله ليعملوه باسمه.

التكريس الكامل

"لا يقدر أحد أن يخدم سيدين" (متى 6 : 24). إننا لا يمكننا أن نخدم الله بقلب منقسم . وديانة الكتاب

ليست عاملا بين عوامل أخرى كثيرة بل ينبغي أن يكون تأثيرها هو السائد متغلغلا في القلوب ومسيطرا على كل تأثير آخر . يجب ألا تكون كلمسات أحد الألوان ترى على الشاشة في بعض نواحيها ، بل يجب أن تسيطر على الحياة بجملتها كما لو أن الشاشة تنغمس في ذلك اللون الواحد حتى تصطبغ كل أجزاء ذلك النسيج بلون لا يزول.

"فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً" (متى 6 : 22، 23). إن الطهارة والثبات في المبدأ هما الشرطان اللذان [290] بموجبهما نحصل على نور من الله. فكل من يريد أن يعرف الحق ينبغي أن يكون راغبا في قبول كل ما يعلنه الحق . ينبغي ألا يعقد مساومة مع الخطأ . إن كون الإنسان مذبذبا منقسم القلب ومترددا في إظهار ولائه للحق معناه اختيار ظلمة الخطأ وخداع الشيطان.

إن السياسة واللباقة العالمية لا يمكن اندماجهما مع مبادئ البر الراسخة بحيث يريان كشيء واحد كألوان قوس قزح . فبين الاثنين فاصل كبير واضح رسمه الله السرمدي . إن صورة المسيح هي على عكس صورة الشيطان والفرق بينهما واضح وجلي كالفرق بين نور الظهيرة وظلام نصف الليل . والذين يحيون حياة المسيح هم وحدهم شركاؤه في العمل . فإذا احتضن إنسان خطية واحدة في قلبه أو أبقى على عمل واحد خاطئ في حياته فإن كيانه كله يتلوث بحيث يصير ذلك الإنسان آلة لعمل الإثم.

عناية الله بالإنسان

على كل من اختاروا خدمة الله إن يستريحوا إلى عنايته ورعايته. وقد أشار المسيح إلى طيور السماء وزنابق الحقل ، وأمر سامعيه أن يتأملوا في هذه الخلائق ، ثم قال: "ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟" (متى 6 : 26). إن مقياس التفات الله إلى أي شيء يتناسب مع مكانته في ميزان الوجود . وعناية الله ترعى الطائر الصغير وتسهر عليه .وزنابق الحقل والعشب الذي يكسو الأرض بحلة خضراء يانعة لها نصيب في اهتمام الأب السماوي ورعايته . إن المهندس الأعظم فكر في الزهور وزنابق الحقل فجملها بحيث فاق جمالها مجد سليمان . فكم وكم يهتم بالإنسان الذي هو صورة مجد الله . وهو يتوق لأن يرى أولاده متشبهين به في الصفات . ومثلما تعطي أشعة الشمس للزهور ألوانها الناصعة هكذا يعطى الله للروح الوديعة جمال صفاته الإلهية.

إن كل من يختارون ملكوت المسيح الذي هو ملكوت المحبة والبر والسلام ويجعلون مطاليبه ومصالحه فوق كل ما عداها هم مرتبطون بالعالم السماوي ، وكل بركة يحتاجون إليها في هذه الحياة هي لهم. وفي سفر عناية الله ، سفر الحياة ، خصص لكل منا صفحة فيه . وفي تلك الصفحة تكتب كل تفاصيل تاريخنا ، وحتى شعور رؤوسنا جميعها محصاة. إن الله لا ينسى أولاده أبدا. [291]

"فلا تهتموا للغد" (متى 6 : 34). علينا أن نتبع المسيح يوما فيوما . إن الله لا يمنحنا عونا للغد . وهو لا يعطي أولاده كل التعليمات اللازمة لسماحتهم مدى الحياة مرة واحدة لئلا يصيبهم الارتباك والحيرة . ولكنه يخبرهم على قدر ما يستطيعون تذكره والعمل به . فالقوة والحكمة اللتان تمنحان لهم هما لأجل الحاجة الراهنة: "إن كان أحدكم تعوزه حكمة، فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر، فسيعطى له" (يعقوب 1 : 5).

“لا تدينوا”

“لا تدينوا لكي لا تدانوا” (متى 7 : 1). لا تحسب نفسك أفضل من غيرك فتقيم نفسك قاضيا عليه . وحيث أنك لا تستطيع تمييز البواعث فأنت غير أهل للحكم على الآخرين .أنت يا من تدين أخاك تحكم على نفسك ، وأنت بذلك تبرهن على أنك شريك الشيطان المشتكي على الإخوة . والرب يقول: “جرّبوا أنفسكم، هل أنتم في الإيمان؟ امتحنوا أنفسكم” هذا هو عملنا وواجبنا. “لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حكم علينا” (2 كورنثوس 13 : 5 ؛ 1 كورنثوس 11 : 31).

إن الشجرة الجيدة تصنع ثمارا جيدة. فإذا كان الثمر لا يذاق ولا ينفع في شيء كانت الشجرة رديئة . وكذلك ثمار الحياة تشهد على حالة القلب وسمو الخلق إن الأعمال الصالحة لا يمكنها أبدا أن تشتري الخلاص ، ولكنها برهان على الإيمان العامل بالمحبة الذي يطهر النفس . ومع أن الجزاء الأبدي لا يمنح لنا لاستحقاقنا إلا أنه سيكون بنسبة العمل الذي قد عملناه بنعمة المسيح.

وهكذا أعلن المسيح مبادئ ملكوته وأعلن أنها دستور الحياة العظيم. ولكي يعمق هذه التعاليم في القلوب أورد مثلا ، فقال أنه لا يكفي أنكم تسمعون أقوالي بل ينبغي أن تجعلوها أساس أخلاقكم وطاعتكم . إن الذات ما هي إلا رمال سائبة . فإذا بنيتم على النظريات والمخترعات البشرية فسيسقط بناؤكم لأن رياح التجارب وعواصف البلايا تكتسحه . أما المبادئ التي قدمتها لكم فستبقى . فاقبلوني وابنوا بناءكم على أقوالي.

“ فكل من يمع أقوالي هذه ويعمل بها، أشبّهه برجل عاقل، بنى بيته على الصخر. فنزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبّت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر” (متى 7 : 24، 25). [292]

الفصل الثاني والثلاثون—عسكري يقابل طبيباً

لقد قال المسيح لخادم الملك الذي شفى ابنه: "لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب" (يوحنا 4 : 48). لقد أحزنه أن يرى بني أمته يطلبون هذه العلامات الخارجية دليلا على كونه مسيا ، كما تعجب كثيرا من عدم إيمانهم . ولكننا نراه هنا يتعجب من إيمان قائد المئة الذي جاء إليه . إن قائد المئة هذا لم يشك في قوة المخلص ، بل حتى لم يسأله أن يأتي بنفسه لإجراء المعجزة ، بل قال: "قل كلمة فقط فيبرأ غلامي" (متى 8 : 8).

كان غلام قائد المئة قد أصيب فجأة بمرض الفالج ، وكان مشرفا على الموت. وكان الرومان آنئذ يعتبرون الخدم عبيدا يباعون ويشترون في أسواق الرقيق ويعاملون بمنتهى الإذلال والقسوة . ولكن قائد المئة الروماني هذا كان عطوفا على غلامه ومحبا له ، وكان يتوق بشدة إلى شفائه ، وقد آمن بأن يسوع قادر على أن يشفيه . لم يكن قد رأى المخلص ، ولكن الأخبار التي كان قد سمعها كانت كافية لأن تلهمه بالإيمان . وبدون أن يلتفت هذا الروماني إلى رسميات اليهود المتبعة عندهم اقتنع بأن ديانتهم أسمى من ديانته . وها هو قد سبق فنقض سياجات التعصب القومي والكراهية التي قد فصلت بين الفاتحين المنتصرين والشعب المغلوب على أمره . فأبدى احتراما لعبادة الله وخدمته وأظهر لليهود حبا وإشفاقا لأنهم عباد الله . كما وجد في تعاليم المسيح حسبما سمعها من الناس ما يسد حاجة النفس . وكل ما كان في قلبه من روحانية استجاب لأقوال المخلص . ولكنه كان يحس بعدم استحقاقه للمثول في حضرة يسوع فالتمس من شيوخ اليهود أن يطلبوا من يسوع أن يشفي غلامه . وقد فكر قائد المئة بأن أولئك الرجال يعرفون المعلم الالهي ويعرفون كيف يقتربون منه بحيث يحوزون رضاه. [293]

كلمة واحدة فقط

فإذ دخل يسوع كفرناحوم قابله وفد من الشيوخ وأخبروه بطلب قائد المئة ، ثم طلبوا إليه باجتهاد قائلين: "إنه مستحق أن يفعل له هذا، لأنه يحب أمّتنا، وهو بنى لنا المجمع" (لوقا 7 : 4، 5).

فتوجه يسوع في الحال إلى بيت قائد المئة ، ولكنه كان يسير متباطئا لأن الجمع كان يزحمه. غير أن أخبار قدومه قد سبقته ، وإذا بقائد المئة الذي لم يكن واثقا في نفسه يبعث إليه بهذه الرسالة قائلا: "يا سيّد، لا تتعب. لأني لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي" (لوقا 7 : 6). ولكن المخلص ظل سائرا في طريقه . فإذ أقدم قائد المئة في النهاية على مجازفة الاقتراب من يسوع أكمل الرسالة التي كان قد أرسلها إليه قائلا: "لذلك لم أحسب نفسي أهلاً أن آتي إليك. لكن قل كلمة فيبرأ غلامي. لأني أنا أيضاً إنسان مرتّب تحت سلطان، لي جند تحت يدي. وأقول لهذا: اذهب! فيذهب، ولآخر: ائت! فيأتي، ولعبدي: افعل هذا! فيفعل" (لوقا 7 : 7 و 8). حيث أنني ممثل سلطان روما وجنودي يعترفون بأن سلطاني هو فوق كل سلطان ،

كذلك أنت تمثل سلطان الله السرمدي وكل الخلائق طوع أمرك . فأنت تستطيع أن تأمر المرض بأن يرحل فيطيعك ، وتستطيع أن تدعو أجنادك السماويين فيقدمون للمريض الشفاء . قل كلمة فقط فيبرأ غلامي.

"ولما سمع يسوع هذا تعجّب منه، والتفت إلى الجمع الذي يتبعه وقال: أقول لكم: لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا!" (لوقا 7 : 6). ثم قال لقائد المئة: "كما آمنت ليكن لك. فبرأ غلامه في تلك الساعة" (متى 8 : 13).

إيمان رجل وثني

إن شيوخ اليهود الذين امتدحوا قائد المئة أمام يسوع برهنوا على بعدهم العظيم عن روح الإنجيل. لم يدركوا أن حاجتنا الشديدة هي حجتنا الوحيدة في طلب رحمة الله . فإذ كانوا ملتحفين ببرهم الذاتي امتدحوا قائد المئة على المأثرة التي قد أسداها إلى "أمتنا". ولكن قائد المئة قال عن نفسه "لست أهلاً" لقد لمست نعمة الله قلبه فرأى عدم أهليته ومع [294] ذلك فلم يخش من أن يطلب العون. إنه لم يستند على صلاح فيه ، ولكن حجته كانت هي حاجته الشديدة . لقد تمسك إيمانه بالمسيح كما هو في صفاته الحقيقية . إنه لم يؤمن به على أنه مجرد صانع معجزات بل على أنه صديق بنى الإنسان ومخلصهم.

بهذه الكيفية يمكن لكل خاطئ أن يأتي إلى المسيح "لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته ــــ خلّصنا" (تيطس 3 : 5). فعندما يأتيك الشيطان قائلا لك إنك خاطئ ولا رجاء لك في الحصول على بركة الله قل له أن المسيح قد أتى إلى العالم ليخلص الخطاة. إننا لا نملك شيئا به يمكننا أن ننال حظوة لدى الله ، ولكن الحجة التي يمكننا أن نقدمها الآن وفي كل وقت هي حالتنا ، حالة العجز التام التي تجعل قوته الفادية أمرا لازما لنا كل اللزوم . فإذ نطرح عنا كل اعتماد على الذات يمكننا أن نشخص إلى صليب جلجثة قائلين: "لا ليس بيدي مال أقدمه ولكني فقط أتعلق بصليبك".

كان اليهود يتعلمون منذ صباهم عن عمل مسيا ، فأقوال الأباء والأنبياء الموحى بها والتعاليم الرمزية عن الخدمة الكفارية كانت بين أيديهم ولكنهم لم يكترثوا للنور. والآن هم لا يرون في يسوع ما يشتهى . لكن قائد المئة المولود في الوثنية ، والذي قد تربى على وثنية روما الامبراطورية ، وتربى كرجل عسكري ، وكان يبدو كأنه منقطع عن الحياة الروحية بتربيته وبيئته ، وفوق ذلك كان محروما بسبب تعصب اليهود ، وبسبب الاحتقار الذي كان يعامل به مواطنوه شعب إسرائيل- هذا الرجل عرف الرجل الذي قد عمي عنه أولاد إبراهيم . إنه لم ينتظر ليرى ما إذا كان اليهود أنفسهم سيقبلون في ذاك الذي قال عن نفسه أنه مسيحهم أو لا يقبلونه . فإذ أشرق عليه ذلك النور: "الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم" (يوحنا 1 : 9) رأى ، ولو من بعد ، مجد ابن الله.

رأى يسوع في هذا باكورة العمل الذي كان الإنجيل مزمعا أن يعمله بين الأمم. وبفرح عظيم نظر إلى الأمام عندما يجتمع الناس من كل الأمم وينضمون إلى ملكوته . وبحزن عميق صور لليهود نتائج رفضهم لنعمته فقال لهم: "أقول لكم: إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان" (متى 8 : 11، 12). واآسفاه! ما أكثر الذين يوشكون على الوقوع في ذلك المصير المخيف وتلك [295] الخيبة المهلكة! ففي حين أن النفوس الجالسة في ظلمة الوثنية تقبل نعمته فما أكثر من يعيشون في البلدان المسيحية ممن إذ يشرق عليهم النور لا يكترثون له !

إقامة ميت

على مسافة تبعد عن كفرناحوم أكثر من عشرين ميلا وفي مكان مرتفع يشرف على السهل الجميل الذي يدعى مرج ابن عامر كانت تقع قرية نايين ، وإلى هناك ذهب يسوع ، وذهب معه كثيرون من تلاميذه وجمع غفير. وعلى طول الطريق أتى الناس وهم متلهفون لسماع تعاليمه عن المحبة والرفق ، وكانوا يأتونه بمرضاهم ليشفيهم ، وكان يراودهم الأمل في أن ذاك الذي قد أحسن استخدام قدرته العجيبة سيشهر نفسه كملك إسرائيل . فازدحم حوله خلق كثيرون ، وكان ذلك الجمع الذي يتبعه أناسا فرحين جاشت في صدورهم آمال وانتظارات مشرقة فسار الجميع صاعدين في الطريق الصخري إلى تلك القرية الجبلية.

وفيما كانوا يقتربون من القرية إذا بهم يلتقون بموكب جنازة يخرج من باب المدينة .ويسير بخطوات بطيئة حزينة إلى المدافن . وكان الميت محمولا على النعش يحيط به النائحون وهم يصرخون مولولين فامتلأ الجو باصوات العويل . وكان كل شعب المدينة قد اجتمعوا ليعبروا عن تقديرهم لمكانة الميت وعطفهم على الأم الثكلى.

كان مشهدا أيقظ العطف في كل نفس ، فلقد كان الميت هو الابن الوحيد ، لأمه الأرملة .وكانت تلك الأم النائحة سائرة إلى القبر لتودع سندها وعزاءها الوحيد في العالم "فلمّا رآها الرب تحنن عليها". وإذ كانت تسير على غير هدى باكية دون أن تلاحظ وجوده اقترب منها وقال لها بكل عطف "لا تبكي" (لوقا 7 : 13). لقد كان يسوع مزمعا أن يحول حزنها إلى فرح ، ومع ذلك فهو لم يستطيع أن يمنع نفسه عن أن يعبر لها عن عطفه ورقته.

"ثم تقدم ولمس النعش" (لوقا 7 : 14). إن لمسه حتى للميت لم يكن لينجسه . وقد وقف حاملو النعش بلا حراك ، كما كف النائحون عن النوح . واجتمع الجمعان حول النعش وهم يرجون على خلاف الرجاء . لقد كان حاضرا في ذاك المكان الذي انتهر المرض وقهر الشياطين ، فهل يمكن للموت أيضا أن يخضع ويخشع أمام سلطانه؟

وبصوت رائق وسلطان عظيم نطق بهذه الكلمات: "أيها الشاب، لك أقول: قم!" (لوقا [296] 7 : 17). فقرع ذلك الصوت أذني الشاب الميت وإذا به يفتح عينيه فيمسك يسوع بيده ويقيمه. وقد وقع نظره عل أمه التي كانت تبكي إلى جواره . وإذا بالأم وابنها يتعانقان عناقا طويلا . فوقفت الجماهير تنظر إليهما وقد انعقدت ألسنتهم من فرط الذهول . "فأخذ الجميع الخوف" ووقفوا صامتين في خشوع وقتا قصيرا كمن هم في حضرة الله "مجّدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط!" (لوقا 7 : 16) عاد موكب الجنازة إلى المدينة كموكب انتصار: "وخرج هذا الخبر عنه في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة" (لوقا 7 : 17).

الرجاء بعد الموت

إن ذاك الذي وقف إلى جوار تلك الأم النائحة الحزينة عند أبواب نايين يقف إلى جوار كل إنسان نائح أمام نعش قريبه. إنه يرثي لنا في أحزاننا . وقلبه الذي أحب الناس وعطف عليهم هو نفس القلب العطوف الرقيق الذي لا يتغير . وكلمته التي أعادت إلى الموتى الحياة ليست أقل في قوتها وفاعليتها الآن مما كانت حين سمعها الشاب الميت في نايين . إنه يقول: "دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى 28 :

18). فذلك السلطان لم ينقص بمرور آلاف السنين ولا نفد لكثرة ما استنفد السيد من نعمة فائضة . إنه لا يز المخلص الحي لكل من يؤمنون به.

لقد أحال يسوع حزن تلك الأم إلى فرح عندما أعاد إليها ابنها. ومع هذا فإن ذلك الشاب ما عاد إلى هذه الحياة الأرضية إلا ليقاسي أحزانها ومشقاتها ومخاطرها ، وليقع فريسة للموت مرة أخرى . لكن يسوع يعزينا عن أحزاننا على موتانا برسالة الرجاء العظيمة إذ يقول : "أنا هو ... الحي. وكنت ميتاً. وها أنا حي إلى أبد الآبدين! .. ولي مفاتيح الهاوية والموت" ، "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين — خوفاً من الموت — كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية" (رؤيا 1 : 17، 18 ؛ عبرانيين 2 : 14، 15).

إن الشيطان لا يستطيع أن يبقي الأموات تحت سلطانه وفي قبضته حين يأمرهم ابن الله أن يحيوا. ولا يستطيع أن يبقي تحت طائلة الموت الروحي نفسا واحدة قبلت قوة المسيح بإيمان . إن الله يقول لكل من الأموات بالخطية: "استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح" (أفسس 5 : 14). إن تلك الكلمة هي حياة أبدية . فكما أن كلمة الله [297] التي أحيت الإنسان الأول لا تزال تمنح الحياة ، وكما أن كلمة المسيح القائلة لذلك الشاب: "أيها الشاب، لك أقول: قم!" منحت الحياة لذلك الشاب في نايين- فكذلك تلك الكلمة القائلة: "قم من الأموات" هي حياة لكل نفس تقبلها . إن الله قد "أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (كولوسى 1 : 13). كل هذا مقدم لنا في كلمته، فإذا قبلنا الكلمة فلنا النجاة والخلاص.

"إن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم"، لأن "الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة وبوق الله، سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاُ. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون كل حين مع الرب" (رومية 8 : 11 ؛ تسالونيكي 4 : 16 و 17). هذه هي كلمة العزاء التي يأمرنا الرب أن نعزي بها بعضنا بعضاً. [298]

الفصل الثالث والثلاثون ـــ من هم إخوتي؟

إن أبناء يوسف كانوا بعيدين كل البعد عن مناصرة يسوع ، ولا كانوا في حالة عطف أو انسجام معه في عمله. والأخبار التي وصلتهم عن حياته وخدماته ملأتهم دهشة وفزعا. لقد سمعوا أنه كان يخصص ليالي كاملة للصلاة ، وأنه أثناء النهار كانت جماهير غفيرة من الشعب تتقاطر عليه من كل صوب بحيث لم تكن لديه فرصة حتى للأكل . وأحس أصدقاؤه بأنه ينهك نفسه بالعمل المتواصل ، ولم يستطيعوا أن يعللوا موقفه حيال الفريسيين . وكان آخرون يخشون لئلا يكون قد حدث اختلال في إدراكه.

سمع إخوته بهذا ، كما سمعوا بالتهمة التي قد اتهمه بها الفريسيون. حين قالوا أنه بقوة رئيس الشياطين يخرج الشياطين ، فكانوا يحسون بقسوة العار الذي حاق بهم بسبب قرابتهم ليسوع . ثم عرفوا كم من الشغب والضجة قد أحدثت أقواله وأعماله . لم يفزعوا فقط بسبب تصريحاته الجريئة ، بل غضبوا عليه أيضا بسبب تشهيره بالكتبة والفريسيين ، فعقدوا العزم على أن يقنعوه أو يجبروه إذا لزم على تغيير خطته في العمل . وقد استمالوا مريم لتعاونهم في ذلك ، إذ ظنوا أنه بسبب محبته لها سينتصرون عليه فيكون أكثر فطنة وتبصرا.

فصلوا أنفسهم عن الله

قبيل ذلك بوقت شفي يسوع مرة ثانية إنسانا به شيطان وكان الرجل أعمى وأخرس. فعاد الفريسيون إلى اتهامهم القديم له قائلين: "برئيس الشياطين يخرج الشياطين!" (متى 9 : 34). فأخبرهم المسيح بكل صراحة أنهم إذ نسبوا عمل الروح القدس إلى الشيطان كانوا يبعدون أنفسهم عن نبع البركة . إن من قد تكلموا ضد يسوع نفسه لكونهم لم يفهموا صفته الإلهية كان يمكنهم الحصول على الغفران إذ كان يمكنهم بمساعدة الروح القدس أن يكتشفوا خطأهم ويتوبوا عنه ، حيث مهما كانت جسامة الخطية فإذا تابت النفس وآمنت فإن [299] الذنب يمحى في دم المسيح. أما من يرفض عمل الروح القدس فإنه يضع نفسه في وضع يستحيل فيه وصول التوبة والإيمان إليه . إن الله يعمل في القلب بواسطة الروح القدس ، فمتى رفض الناس الروح القدس في إصرار معلنين أنه من الشيطان فإنهم يقطعون القناة التي يمكن بواسطتها أن يتصل الله بهم . فمتى رفضت النفس روح الله نهائيا فلا يوجد بعد عمل يعمله الله لأجلها.

إن الفريسيين الذين وجه يسوع إليهم هذا الإنذار لم يكونوا في دخيلة أنفسهم مقتنعين بصحة التهمة التي قد وجهوها إليه. ولم يكن بين كل أولئك الرؤساء أحد لم يشعر بجاذبية في المخلص تجذبه إليه . لقد سمعوا صوت الروح القدس يرن في قلوبهم معلنا لهم أنه المسيح وملحا عليهم في الاعتراف بأنهم تلاميذه . إنهم قد تحققوا في نور حضرته من نجاستهم واشتاقوا للحصول على بر ليس من صنعهم . ولكن بعدما رفضوه فسيكون أمرا في منتهى الإذلال لهم أن يقبلوه كمسيا . وإذ بدأوا يسيرون في طريق عدم الإيمان

منعتهم كبرياؤهم من الاعتراف بخطئهم . ولكي يتحاشوا الاعتراف بالصدق حاولوا بعنف يائس أن يجادلوا في تعاليم المخلص ، فأسخطهم برهان قدرته ورحمته . إنهم لم يستطيعوا أن يكفوا يد المخلص عن إجراء المعجزات ولا أن يسكتوه عن إلقاء تعاليمه . ولكنهم بذلوا كل ما في طوقهم من خبث ليصوروه أسوأ تصوير ويكذبوا أقواله . ومع ذلك فقد ظل روح الله يلاحقهم مبكتا إياهم . ولكنهم حاولوا إقامة حواجز كثيرة وهائلة ليصدوه ويصدوا قوته عن ملاحقتهم . إن أقوى عامل يمكن أن يؤثر في القلب البشري كان يجاهد معهم ولكنهم أبوا الخضوع.

إن الله ليس هو الذي يعمي عيون الناس ولا هو الذي يقسي قلوبهم. ولكنه يرسل نوره لإصلاح أخطائهم وإرشادهم في طريق الأمان . لكن العيون تعمى والقلب يتقسى عندما يرفض الإنسان النور . في غالب الأحيان تكون العملية تدريجية بحيث لا تكاد تدرك . إن النور يجيء إلى النفس بواسطة كلمة الله أو بواسطة خدامه أو بأية واسطة مباشرة من وسائط روحه . ولكن عندما يستخف الإنسان بشعاعه واحدة من النور يحدث شلل جزئي في قوة إدراكه الروحي . وعندما يجيء النور في المرة الثانية فلن يكون واضحا كما أول مرة . ثم تتجمع الظلمة حتى في النهاية تعيش النفس في ليل ظلام دامس . هكذا كانت الحال مع أولئك الرؤساء اليهود . فلقد كانوا مقتنعين بأن [300]

قوة إلهية ترافق المسيح ولكن في سبيل مقاومتهم للحق نسبوا عمل الروح القدس إلى الشيطان. فإذ فعلوا ذلك اختاروا الخداع تعمدا . لقد أسلموا أنفسهم للشيطان ومنذ ذلك الحين تسلط عليهم بقوته.

كلام المرء يدينه

هذا ، وإن التحذير من الكلام البطال مرتبط ارتباطا وثيقا بالتحذير الخاص بخطية التجديف على الروح القدس. إن الكلام هو الذي يكشف عما في داخل القلب ، إذ "من فضلة القلب يتكلّم الفم" (متى 12 : 34). ولكن الكلام هو أكثر من أن يكون دليلا على الخلق ، فإن له قوة رد فعل على الخلق . إن الناس يتأثرو بكلامهم . ففي غالب الأحيان إذ يثيرهم الشيطان بدافع طارئ ينطقون بكلام الحسد أو سوء الظن فيتفوهون بما لا يؤمنون به حقا . ولكن ذلك الكلام يؤثر على الأفكار . إنهم ينخدعون بأقوالهم وينتهي بهم الأمر إلى تصديق ما قيل بإيعاز من الشيطان . فإذا ما عبروا عن رأي أو قرار فإن كبرياءهم تمنعهم من سحب أقوالهم ، ويحاولون أن يبرهنوا على أنهم على صواب حتى ينتهي بهم الأمر إلى أن يعتقدوا ذلك اعتقادا راسخا . إنه أمر خطر أن ينطق الإنسان بكلمة شك أو أن يتشكك الإنسان بالنور أو ينتقده . إن عادة الانتقاد في عدم مبالاة وعدم وقار لها تأثير سيئ على الخلق إذ تجعل الإنسان يحتضن الوقاحة وعدم الإيمان . كثيرا ما يحدث أن إنسانا يتساهل مع هذه العادة ويظل ممعنا في ضلاله غير آبه للخطر حتى لا يرى بأسا بانتقاد عمل الروح القدس ورفضه . ولكن يسوع يقول: "إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان" (متى 12 : 36، 37).

بعد ذلك قدم السيد إنذارا آخر ، ولأولئك الذين تأثروا من كلامه وسمعوه بسرور ، ولكنهم لم يخضعوا ذواتهم لسكنى الروح القدس في قلوبهم. إن النفس لا تهلك بالمقاومة فحسب بل قد تهلك بالإهمال . فلقد قال يسوع :"إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء، يطلب راحة ولا يجد. ثم يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيأتي ويجده فارغاً مكنوساً مزيَّنا. ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أخر أشرّ منه، فتدخل وتسكن هناك" (متى 12 : 43 — 45). [301]

حصن ضد هجمات ابليس

في أيام المسيح كما في أيامنا هذه وُجِد أناس كثيرون بدا في وقت ما أن سلطان الشيطان قد انفك عنهم ، وبنعمة الله تحرروا من الأرواح الشريرة التي قد تسلطت على نفوسهم. وقد فرحوا بمحبة الله ، ولكنهم كالسامعين المشبهين بالأرض المحجرة في مثل الزارع لم يثبتوا في محبته . ولم يسلموا نفوسهم لله يوميا حتى يسكن المسيح في قلوبهم . فلما عاد الروح النجس ومعه "سبعة أرواح أخر أشر منه" ساد عليهم سلطان الشر سيادة كاملة.

إن النفس عندما تسلم ذاتها للمسيح تملك على القلب الجديد قوة جديدة ، ويحدث تغيير لا يستطيع الإنسان أبدا أن يحدثه في نفسه. إنه عامل خارق الطبيعة قد أدخل في طبيعة الإنسان عنصرا فوق الطبيعة . والنفس المسلمة للمسيح تصير له حصنا ومعقلا يملك عليه في وسط عالم متمرد . وهو يقصد ألا تنافسه في امتلاك ذلك القلب سلطة أخرى معترف بها غير سلطته . مثل هذه النفس المحفوظة بالقوة السماوية هي محصنة ضد هجمات الشيطان . ولكن ما لم نسلم ذواتنا لسلطان المسيح فسيسود علينا الشرير . لابد لنا أن نكون خاضعين لسلطان إحدى القوتين العظيمتين اللتين تتنازعان السيادة على العالم . ليس من الضروري لنا أن نتعمد اختيار خدمة ملكوت الظلام لنصير تحت سيطرته ، بل حسبنا أن نهمل الانضمام إلى ملكوت النور . فإذا لم نتعاون مع القوات السماوية فسيتملك الشيطان على القلب ويتخذه مسكنا له . والواقي الوحيد ضد الشر هو سكنى المسيح في القلب بالإيمان ببره . فما لم نرتبط بالله ارتباطا حيويا فلن نستطيع مقاومة الآثار الدنسة لحب الذات والانغماس في الشهوات وإغراءات الخطية . قد نقلع عن عادات شريرة كثيرة ، وقد نترك صحبة الشيطان بعض الوقت ، ولكن ما لم نرتبط بالله ارتباطا حيا بتسليم ذواتنا له لحظة بعد لحظة فلا بد من أن ننهزم . وما لم تكن لنا معرفة شخصية بالمسيح وشركة مستمرة معه فإننا نمسي تحت رحمة العدو وفي النهاية نأتمر بأوامره.

قال يسوع: " فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله! هكذا يكون أيضاً لهذا الجيل الشرير" (متى 12 : 43 — 45). إن أشد القلوب صلابة هي قلوب أولئك الذين استخفوا بدعوة الرحمة وازدروا بروح النعمة . إن أعظم مظاهر الخطية ضد الروح القدس في [302] انتشارها هو الإصرار على الاستخفاف بدعوة السماء الناس للتوبة. وكل خطوة يخطوها الإنسان في طريق رفضه للمسيح هي أيضا خطوة نحو رفض الخلاص ونحو ارتكاب خطية التجديف ضد الروح القدس.

إن الشعب اليهودي إذ رفض المسيح ارتكب الخطية التي لا غفران لها. وكذلك نحن إن رفضنا دعوة الرحمة فإننا نرتكب نفس الخطأ . ونحن نهين رئيس الحياة ونجلب عليه العار أمام مجمع الشيطان وأمام مسكونة السماء عندما نرفض الإصغاء إلى رسله المنتدبين من قبله ، وبدلا من ذلك نصغي إلى رسل الشيطان الذين عملهم هو إبعاد النفوس عن المسيح . فطالما الإنسان يفعل هذا لن يجد رجاء أو غفرانا ، وفي النهاية لا تعود عنده رغبة في أن يتصالح مع الله.

أقرباؤه يرفضونه

وإذ كان يسوع لا يزال مشغولا في تعليم الشعب أخبره تلاميذه بأن أمه وإخوته هم في الخارج ويريدون أن يروه ، فعرف ما في قلوبهم ، " فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده

نحو تلاميذه وقال: ها أمي وأخوتي. لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي" (متى 12 : 48 — 50).

إن كل الذين قبلوا المسيح بالإيمان هم مرتبطون به ارتباطا أقرب وأوثق من القرابة الجسدية. إنهم متحدون به كما أنه هو متحد بالآب . إن أمه إذ كانت مؤمنة به ومطيعة لكلامه كانت على هذا الاعتبار الخلاصي أقرب إليه مما على اعتبار العلاقة الطبيعية .ولكن إخوته ما كان لهم أن يحصلوا على أية فائدة من قرابتهم له ما لم يقبلوه كمخلصهم الشخصي.

ما كان أعظم المعاضدة والمعونة اللتين كان يمكن للمسيح أن يحصل عليهما من أقربائه الأرضيين لو كانوا قد آمنوا به كمن هو مرسل من السماء وتعاونوا معه في القيام بعمل الله. إن عدم إيمانهم ألقى ظلالا على حياة يسوع الأرضية ، فزاد ذلك من مرارة كأس الألم والويل الذي شربه لأجلنا.

لقد أحس ابن الله بقسوة العداوة التي اضطرمت في قلوب بني الإنسان ضد الإنجيل ، [303] وكانت تلك العداوة أشد إيلاما له في بيته لأن قلبه كان مفعما بالرأفة والحب ، وكان يقيم وزنا كبيرا للاحترام والتقدير في العلاقات العائلية. كان إخوته يريدونه أن ينصاع لآرائهم حين كانت تلك الآراء بعيدة كل البعد عن الوفاق مع غرضه ومهمته الإلهية . كانوا ينظرون إليه كمن هو في حاجة إلى مشورتهم . لقد حكموا عليه من وجهة نظرهم البشرية وظنوا أنه إذا كان ينطق بالأقوال التي يقبلها الكتبة والفريسيون ، فذلك سيكون كفيلا بأن يجنبه تلك الخصومة الممقوتة التي أثارتها أقواله . لقد ظنوه مختل العقل حين ادعى لنفسه سلطانا إلهيا وأوقف نفسه أمام معلمي الشريعة موقف المبكت لهم على خطاياهم . ولقد عرفوا أن الفريسيين يتحينون الفرص للشكاية في حقه ، وكانوا يحسون أنه بتصرفاته قد أعطى للرؤساء المجال الكافي لاتهامه.

إنهم بمقاييسهم القصيرة لم يمكنهم أن يسبروا غور مهمته التي قد أتى ليتممها ، ولذلك لم يعطفوا عليه في تجاربه. إن كلامهم الفظ الذي به عبروا عن عدم تقديرهم له برهن على أنهم لم يفهموا أخلاقه على حقيقتها ، ولم يفطنوا إلى أن الألوهية كانت متحدة بالبشرية . كانوا في غالب الأحيان يرونه مكتئفا بالحزن ، ولكنهم بدلا من أن يعزوه فإن روحهم وأقوالهم جرحت قلبه . لقد تعذبت طبيعته الحساسة وأُسيء فهم بواعثه ولم يفهم أحد طبيعة عمله.

ألزق من أخ

كان إخوته كثيرا ما يوردون فلسفة الفريسيين التي قد عتقت وشاخت ، وادعوا أنه يمكنهم أن يعلموه كيف يفهم كل الحق ويعرف جميع الأسرار. وبكل إصرار حكموا بخطأ كل ما استغلق عليهم فهمه . وقد كانت تعييراتهم طعنات أصابته في الصميم فتضايقت نفسه وتألمت . لقد اعترفوا بإيمانهم بالله وكانوا يظنون أنهم يبررون الله ، مع أن الله كان بينهم بالجسد ولم يعرفوه.

كل هذه الأمور جعلت طريقه مكربا وشائكا. ولقد تألم المسيح جدا من سوء التفاهم الذي كان في بيته بحيث لم يكن يحس بالراحة إلا عندما يترك جو ذلك البيت إلى جو أصفي وأنقى ، ولكن كان هناك بيت كان يسوع يحب أن يزوره- وهو بيت لعازر ومريم [304] ومرثا ، لأن روحه كانت تجد الراحة في المكان الذي يسوده الإيمان والمحبة. ومع ذلك فلم يكن على الأرض إنسان أمكنه أن يفهم مهمة السيد أو يعرف العبء الذي حمله كنائب عن بني الإنسان . وفي أحيان كثيرة كان يجد راحته في الانفراد والشركة مع أبيه السماوي.

يمكن لأولئك الذين يتألمون لأجل المسيح والذين يتضايقون من سوء تقدير الناس لهم وسوء الظن بهم

والشك فيهم حتى في بيوتهم ، أن يجدوا العزاء في الفكر بأن يسوع سبق له أن تحمل نفس تلك المتاعب. إنه يعطف عليهم ويشفق . وهو يريدهم أن يحسبوه شريكا لهم وأن يبحثوا عن الراحة حيث قد وجدها هو- في الشركة مع الآب.

يمكن لأولئك الذين يقبلون المسيح كمخلصهم الشخصي هم غير متروكين كاليتامى ليحتملوا تجارب الحياة وحدهم ، فهو يقبلهم كأعضاء في الأسرة السماوية ويأمرهم بأن يدعوا الله أباه أبا لهم. إنهم إخوته الأصاغر وهم أعزاء على قلب الله ومرتبطون به بأرق الربط الوثيقة الباقية . إن قلبه عامر بالرقة والإشفاق عليهم ، وهو أعظم إشفاقا علينا في عجزنا من كل حنان آبائنا وأمهاتنا ، بنسبة عظمة الله وسموه عن الإنسان.

في الشرائع المعطاة لإسرائيل يوجد تشبيه جميل يفسر علاقة المسيح بشعبه. فعندما كان الإسرائيلي يفتقر إلى حد أن يبيع ميراثه ويباع هو عبدا ، كان واجب فدائه واسترداد ميراثه يقع على عاتق وليه الأقرب إليه (انظر لاويين 25 : 25و 47 — 49 ؛ راعوث 2 : 20). وهكذا وقع عمل فدائنا وفداء ميراثنا الذي قد خسرناه بسبب الخطية على عاتق ذاك الذي هو "ولي أقرب" (راعوث 3 : 12). فلكي يفتدينا صار قريبا لنا . إن الرب مخلصنا هو أقرب الينا من الأب والأم والأخ والصديق والحبيب . وهو يقول لنا: "لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك. أنت لي" ، "إذ صرت عزيزاً في عيني مكرماً .. وأنا قد أحببتك. أعطي أناساً عوضك وشعوباً عوض نفسك" (إشعياء 43 : 1، 4).

إن المسيح يحب الخلائق السماوية المحيطة بعرشه. ولكن بماذا نعلل تلك المحبة العظيمة التي بها قد أحبنا؟ لا يمكننا إدراكها ، ولكننا نستطيع أن نعرفها على حقيقتها في اختبارنا . وإذا كنا ندرك علاقة قرابتنا له فبأية محبة ورقة ينبغي لنا أن ننظر إلى أولئك الذين هم أخوة الرب وأخواته! ألا يجب علينا أن نسرع في مراعاة علاقتنا بالله والقيام بمطاليبها؟ وحيث إننا قد صرنا أولادا في أسرة الله ألا يجب علينا أن نكرم أبانا وولينا الأقرب إلينا؟ [305]

الفصل الرابع والثلاثون ـــــدعوة السيد الرب

" تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم" (متى 11: 28). لقد نطق يسوع بكلمات التعزية هذه في مسامع الجمع الذي كان يتبعه . كان المخلص قد قال إنه بواسطته دون سواه يمكن أن يحصل الناس على معرفة الله . وتكلم عن تلاميذه قائلا إنهم هم الذين قد أعطيت لهم معرفة الأمور السماوية . ولكنه لم يدع أحدا يشعر بأنه محروم من رعايته وحبه . فكل المتعبين والثقيلي الأحمال يمكنهم أن يأتوا إليه.

إن الكتبة والمعلمين الذين كانوا مدققين في ممارسة طقوسهم الدينية كانوا يحسون بحاجتهم التي لم تستطع كل طقوسهم التكفيرية أن تشبعها. كان يمكن للعشارين والخطاة أن يتظاهروا بالاكتفاء بالأشياء الحسية والأرضية ، ولكن في أعماق قلوبهم كانت تربض الشكوك والمخاوف . نظر يسوع إلى المتضايقين والمثقلي القلوب ، أولئك الذين قد ذبلت آمالهم وضربت ، والذين كانوا يحاولون بمسراتهم وأفراحهم الأرضية أن يسكنوا أشواق نفوسهم فدعاهم جميعا ليجدوا الراحة فيه.

وبكل لطف وإشفاق أمر الشعب المتعب قائلا: " احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (متى 11: 29).

راحة للمتعب

إن المسيح يخاطب كل إنسان بهذه الكلمات. كل الناس هم متعبون وثقيلو الأحمال سواء عرفوا ذلك أم لم يعرفوه . والجميع منحنون تحت ضغط أحمالهم التي يستطيع المسيح وحده أن يرفعها . إن أثقل الأحمال التي نرزح تحتها هو حمل الخطية . فلو تركنا لنحمل هذا الحمل وحدنا لسحقنا . ولكن ذاك الذي بلا خطية قد أخذ مكاننا . "الرب وضع [306] عليه إثم جميعنا" (إشعياء 53: 6). لقد حمل ثقل ذنوبنا ، وهو سيرفع الحمل عن كواهلنا المتعبة ويريحنا . وهو أيضا سيحمل عنا حمل الهموم والأحزان . وهو يدعونا لنلقي كل همومنا عليه لأنه يحملنا على قلبه. إن الأخ الأكبر لجنسنا هو قريب من العرش الأبدي وهو ينظر نظرة الرضى إلى كل من يوجهون أنظارهم إليه كمخلصهم . إنه يعرف بالاختبار ضعفات البشرية ويعرف احتياجاتنا كما يعرف أين تكمن قوة تجاربنا لإنه قد تجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية .إنه يسهر عليك يا ابن الله المرتعب . أأنت مجرب؟ إنه سيخلصك . أضعيف أنت؟ هو سيقويك . أم أنت جاهل؟ إنه سيشرق بنوره عليك . وهل أنت جريح؟ هو يشفيك . إن الرب "يحصي عدد الكواكب" ومع ذلك فهو يشفي المنكسري القلوب ويجبر كسرهم "مزمور 147 : 4 و 3) "تعالوا إليّ". فمهما كانت همومك وتجاربك أبسط حالتك واكشفها أمام الرب . وستتشدد روحك وتتجلد على الاحتمال . وسيفتح أمامك الطريق لتتخلص من الارتباكات والصعوبات . كلما ازددت معرفة بضعفك وعجزك ازددت قوة بقوة الرب . وكلما ثقلت

أحمالك أحسست بسعادة الراحة عندما تلقيها على حامل الأثقال . إن الراحة التي يمنحها المسيح تتوقف على بعض الشروط ، ولكن هذه الشروط محددة بكل وضوح . وهذه الشروط يمكن للجميع أن ينفذوها . إنه يخبرنا بدقة كيف يمكننا أن نجد راحته.

عون للعامل

يقول يسوع "احملوا نيري عليكم". إن النير هو أداة للخدمة . فالنير يوضع على أعناق الثيران لكي تشتغل ، والنير لازم كل اللزوم حتى يمكن أن يكون عملها مجديا . والمسيح يعلمنا بهذا المثل أننا مدعوون للخدمة طالما نحن عاملون في هذا العالم . يجب أن نحمل علينا نيره لكي نكون عاملين معه.

إن النير الذي يربطنا بالخدمة هو شريعة الله. إن شريعة المحبة العظيمة المعلنة في جنة عدن والتي نودي بها في سيناء وفي العهد الجديد المكتوب على القلب هو الذي يربط العمال العاملين من بني الإنسان بإرادة الله . فلو تركنا لنتبع ميولنا ورغائبنا ولنذهب إلى حيث تقودنا مشيئتنا فسنسقط بين صفوف الشيطان وستكون صفاتنا كصفاته . ولذلك [307] يحصرنا الله في دائرة مشيئته التي هي سامية ونبيلة وتسمو بالنفس فوق الدنايا. إنه يريدنا أننا بكل صبر وحكمة نأخذ على عاتقنا القيام بالواجبات التي تفرضها علينا الخدمة . لقد حمل المسيح نفسه نير الخدمة في طبيعته البشرية . فهو القائل "أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي" (مزمور 40 : 8)، "لأني قد نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني" (يوحنا 6 : 38). إن المحبة لله والغيرة على مجده والمحبة البشرية الساقطة هي التي أتت بيسوع إلى الأرض ليتألم ويموت . كانت هذه هي القوة التي سيطرت على حياته . وهو يأمرنا بأن نسير بموجب هذا المبدأ.

غوث للمهموم

كثيرون قلوبهم متألمة ومعذبة تحت نير الهموم لأنهم يهتمون ببلوغ مقياس العالم. لقد اختاروا خدمة العالم واضطلعوا بارتباكاته وخضعوا لعاداته وهكذا تشوهت أخلاقهم وأمست حياتهم عبئا ثقيلا . فلكي يشبعوا طموحهم ورغائبهم الدنيوية يجرحون ضمائرهم ويحملون أنفسهم بأحمال جديدة هي أحمال الحسرة والندم . والهموم المستمرة الضاغطة عليهم تنهك قوى الحياة . ولكن السيد يريدهم أن يلقوا عنهم نير العبودية هذا ويدعوهم لقبول نيره قائلا لهم: "نيري هيّن وحملي خفيف" (متى 11 : 30). إنه يأمرهم أن يطلبوا أولا ملكوت الله وبره ويعدهم بأن كل الأشياء الأخرى اللازمة لهذه الحياة ستزاد لهم . إن إلهم أعمى ولا يمكنه رؤية المستقبل ، ولكن يسوع يعرف النهاية من البداية . وفي كل صعوبة قد أعد طريقا للنجدة . إن لدى أبينا السماوي آلاف الطرق للعناية بنا وإن كنا لا نعرف عنها شيئا . إن أولئك الذين يجعلون من خدمة الله ومجده المطلب الأسمى لهم سيجدون إن الارتباكات قد اختفت وسيجدون أمامهم طريقا واضحا للسير فيه.

يقول يسوع: "تعلّموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (متى 11 : 29). علينا أن نلتحق بمدرسة المسيح ونتعلم منه الوداعة والتواضع . إن الفداء هو العملية التي بها يؤهل الإنسان للسماء . وهذا التأهل أو التدرب معناه معرفة المسيح ، ومعناه أيضا التحرر من كل الآراء والعادات

والأعمال التي قد تلقنها الإنسان من مدرسة رئيس الظلمة فعلى النفس أن تتحرر من كل ما يناقض الولاء لله. [308]

سلام للمضطرب

في قلب المسيح حيث ساد الولاء التام لله ساد السلام الكامل. إنه لم يته عجبا حين صفق له الناس تصفيق الاستحسان ، ولا خار عزمه عندما ذمه الأشرار أو واجه المفشلات . ففي وسط أشد مقاومة وأقسى معاملة ظل رابط الجأش . ولكن كثيرين ممن يعرفون بأنهم أتباعه تجزع قلوبهم وتضطرب خوفا من تسليم ذواتهم لله . إنهم لا يخضعون له خضوعا كاملا إذ يرتعبون من عواقب ذلك الخضوع . ولكن ما لم يخضعوا له فلا يمكنهم أن ينالوا السلام.

إن الأنانية هي التي ينجم عنها القلق. ولكن عندما نولد من فوق فسيكون فينا نفس الفكر الذي في يسوع ، ذلك الفكر الذي جعله يضع نفسه للموت لكي نخلص . وحينئذ لن نطلب لنفوسنا أرفع مكانة بل سنصبو إلى الجلوس عند قدمي يسوع لنتعلم منه . وسندرك أن قيمة عملنا ليست في الظهور أمام الناس وإحداث ضجة في العالم ، أو في أننا نكون نشيطين وغيورين بقوتنا الذاتية . إن قيمة عملنا هى بنسبة ما أعطي لنا من الروح القدس . إن ثقتنا في الله تملأ عقولنا بأفكار مقدسة وهكذا بصبرنا نقتني أنفسنا.

راحة لثقيل الحمل

النير يوضع على أعناق الثيران لمساعدتها على جر الأثقال ولكي يكون الحمل خفيفا .وكذلك الحال مع نير المسيح. فحين تبتلع إرادتنا في إرادة الله ونستخدم عطاياه في جلب السعادة والبركة للآخرين تخف عنا أعباء الحياة . ومن يسير في طريق وصايا الله إنما يسير في صحبة المسيح فيستريح القلب في محبته . إن موسى عندما صلى قائلا: "علّمني طريقك حتى أعرفك". أجابه الرب بقوله: "وجهي يسير فأريحك". وبواسطة الأنبياء قدمت لنا هذه الرسالة: "هكذا قال الرب: قفوا على الطريق وانظروا، واسألوا عن السبل القديمة: أين هو الطريق الصالح؟ وسيروا فيه، فتجدوا راحة لنفوسكم" (خروج 33 : 13، 14 ؛ إرميا 6 : 16). والرب يقول: "ليتك أصغيت لوصاياي، فكان كنهر سلامك وبرك كلجج البحر" (إشعياء 48 : 18). [309]

إن أولئك الذين يتمسكون بوعد المسيح ويسلمون أرواحهم لحراسته وحياتهم لتوجيهاته سيجدون السلام والطمأنينة. وليس في العالم شيء يحزن قلوبهم عندما يبهجهم يسوع بحضوره . ففي الإذعان التام والطاعة الكاملة هناك الراحة الكاملة . إن الرب يقول: "ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك متوكل" (إشعياء 26 : 3). إن حياتنا قد تبدو مرتبكة ومعقدة ، ولكن متى سلمنا ذواتنا للصانع الحكيم فهو سيجعل حياتنا وأخلاقنا نموذجا يتمجد به . وذلك الخلق الذي يعبر عن المجد -خلق المسيح- سيقبل ويرحب به في فردوس الله . إن جموع المخلصين المتجددين سيمشون معه في ثياب بيض لأنهم مستحقون.

إننا إذ ندخل إلى الراحة بواسطة المسيح فالسماء تبدأ من هنا. نحن نستجيب لدعوته القائلة تعالوا ، تعلموا مني ، وبهذا المجيء تبدأ الحياة الأبدية . إن السماء هي القدوم إلى الله بلا انقطاع عن طريق المسيح . وكلما طال بقاؤنا في سماء السعادة انكشف لنا شيء أكثر وأكثر من المجد السماوي ، وكلما زادت

معرفتنا لله زاد تمتعنا بالسعادة . إننا إذ نسير مع يسوع في هذه الحياة سنمتلئ بمحبته ونشبع بشبهه وحضوره . يمكننا أن نحصل في هذا العالم على كل ما يمكن أن تناله الطبيعة البشرية ، ولكن ما هذا في مقابل الحياة العتيدة ؟ “هو أمام عرش الله، ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حيّة، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم” (رؤيا 7 : 15 — 17). [310]

الفصل الخامس والثلاثون—عاصفة في الليل

لقد كان يوما كثير الوقائع في حياة يسوع. فبجانب بحر الجليل كان قد ألقى أمثاله الأولى ، وبتشبيهات مألوفة فسر للشعب ثانية طبيعة ملكوته والكيفية التي بها سيثبت ويدوم . لقد شبه عمله بعمل الزارع ، كما شبه نمو ملكوته بنمو حبة الخردل وتأثير الخميرة في أكيال الدقيق . وذلك الانفصال النهائي العظيم بين الأبرار والأشرار صوره في مثل الحنطة والزوان وشبكة الصيد . وقيمة الحقائق الإلهية الغالية التي نطق بها شبهت بالكنز المخفي واللؤلؤة الكثيرة الثمن ، بينما في مثل رب البيت علم تلاميذه كيف يجب عليهم أن يكدوا ويعملوا كنواب عنه.

لقد ظل طوال اليوم يعمل ويشفي ، فلما أقبل المساء كانت الجموع لا تزال تتقاطر عليه. ويوما بعد يوم كان يخدم أولئك الناس حتى لم يكد يجد الوقت للراحة أو لتناول الطعام . ثم إن انتقاد الفريسيين اللاذع له وتحريفهم لكلامه وتشويههم لصفاته ، كل هذه الأمور التي كانوا يتعقبونه بها كل يوم بلا هوادة جعلت عمله أشد قساوة وإزعاجا له . ففي نهاية اليوم كان السيد مضني ومرهقا جدا حتى لقد عزم على الاعتكاف في مكان منعزل عبر البحيرة.

لم يكن شاطئ بحيرة جنيسارت الشرقي خاليا من السكان فقد كان بعض المدن والقرى هنا وهناك بجانب البحيرة ، ولكن بالمقابلة بالشاطئ الغربي كان هذا الشاطئ الشرقي يعتبر موحشا. ثم إن غالبية السكان كانت من الوثنيين ، أما اليهود فكانوا أقلية . ولم يكن لهذا الشاطئ اتصال كبير بالجليل . لذلك كان ذلك الجانب ملائما للعزلة التي طلبها يسوع، ثم أمر تلاميذه بالذهاب معه إلى هناك. [311]

نوء في البحيرة

بعدما صرف الجموع أخذوه " كما كان" في السفينة وأقلعوا بسرعة. ولكنهم لم يمضوا وحدهم فقد كانت توجد قوارب صيد أخرى على الشاطئ سرعان ما امتلأت بالناس الذين تبعوا يسوع لأنهم كانوا لا يزالون مشتاقين لرؤيته وسماع تعاليمه.

أخيرا استطاع المخلص أن يستريح من ضغط الجموع عليه ، وإذ غلبه الإرهاق والجوع اضطجع في مؤخر السفينة وسرعان ما غلبه النوم. كان ذلك المساء هادئا وجميلا ، والسكون يخيم على البحيرة . ولكن فجأة اظلم الجو وهبت الرياح من أعالي الجبال على الشاطئ الشرقي فثارت على البحيرة عاصفة هوجاء.

كانت الشمس قد غابت فشمل الظلام تلك البحيرة المائجة وإذا بالأمواج تندفع بقوة وتصدم بعنف وقوة جوانب سفينة التلاميذ وتهددها بالإغراق في الماء. كان هؤلاء الصيادون الشجعان قد قضوا حياتهم في البحيرة ، وكانوا يسيرون بسفينتهم بسلام في وسط عواصف شديدة كثيرة . أما الآن فإن قوتهم ومهارتهم لم تجدياهم فتيلا . فكانوا عاجزين وهم في قبضة العاصفة وقد خذلهم الأمل عندما رأوا سفينتهم تكاد تمتلئ

بالماء.

وإذ كانوا منهمكين في محاولتهم لإنقاذ أنفسهم نسوا أن يسوع كان على ظهر السفينة .أما الآن فإذ رأوا أن كل محاولاتهم إنما هي إلى العبث ، وليس أمامهم سوى الموت تذكروا بأمر من قد بدأوا في عبور البحر. كان رجاؤهم الوحيد في يسوع . ففي عجزهم ويأسهم صرخوا قائلين: "يا معلم . يا معلم!" ولكن الظلمة الحالكة حجبته عن أنظارهم . وقد ابتلعت صرخاتهم في وسط زئير العاصفة فلم يكن مجيب . وقد هاجمتهم الشكوك والمخاوف . فهل هجرهم يسوع أو تخلى عنهم؟ وهل ذاك الذي قهر الأمراض والشياطين وحتى الموت يعجز الآن عن تقديم العون لتلاميذه؟ وهل يغفل عنهم في ضيقهم؟

عادوا يصرخون مرة أخرى فلم يجبهم غير زئير ذلك النوء الغاضب. وها قد بدأت سفينتهم في الغرق . ولقد بدأ وكأنهم بعد لحظة ستبتلعهم المياه الفاغرة أفواها. [312]

سيد البحر

ولكن فجأة يخترق وميض البرق أحشاء تلك الظلمات فيري التلاميذ يسوع نائما لا تزعجه كل تلك الضجة ، وإذا بهم في ذهولهم ويأسهم يصرخون قائلين: "يا معلّم، أما يهمّك أننا نهلك؟" (مرقس 4 : 38). كيف يستريح هادئا مطمئنا بهذا الشكل في حين أنهم في خطر يصارعون الموت؟

وقد أيقظ صراخهم يسوع. وإذ كشفه لهم نور البروق رأوا سلام السماء مرتسما على محياه ، وقرأوا نظراته المحبة الرقيقة التي لا تفكر في نفسها . وإذ اتجهوا إليه بقلوبهم صرخوا قائلين: "يا سيّد، نجّنا إننا نهلك!" (متى 8 : 25).

لم يسبق لأي نفس أن صرخت مثل تلك الصرخة ولم يلتفت السيد إليها. وإذ يمسك التلاميذ بالمجاديف ليبذلوا آخر مجهود يقوم يسوع . إنه يقف في وسط تلاميذه والعاصفة تثور عليهم والأمواج تصدمهم والبروق تلمع على وجهه . وإذا به يرفع يده التي طالما استخدمها في أعمال الرحمة ، ثم يقول للبحر الغاضب الصاخب: "اسكت. أبكم" (مرقس 4 : 39) وإذا بالعاصفة تهدأ والأمواج تسكن ، والسحب تتقشع والنجوم تلمع في السماء والسفينة تسير آمنة في ذلك البحر الهادئ . وإذ يلتفت يسوع إلى تلاميذه يسألهم قائلا في حزن: "ما بالكم خائفين هكذا؟ كيف لا إيمان لكم؟" (مرقس 4 : 40).

فاستولى على التلاميذ صمت مهيب. حتى بطرس لم يحاول التعبير عن الرهبة التي ملأت قلبه . هذا وإن السفن التي كانت سائرة في البحر لمرافقة سفينة يسوع كانت واقعة في نفس الخطر الذي كان محدقا بسفينة التلاميذ . كان الرعب واليأس قد استوليا على قلوب كل من كانوا في تلك السفن ، ولكن أمر يسوع أدخل السلام والهدوء إلى مشهد الرعب ذاك . إن عنف العاصفة جعل السفن تتقارب من بعضها البعض ولذلك رأى من كانوا على ظهرها تلك المعجزة . ففي غمرة السكون الذي شمل البحر نسي الخوف . فجعل الناس يتهامسون قائلين: "من هو هذا؟ فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه!" (مرقس 4 : 41).

عون في وقت الخطر

إن يسوع عندما أوقظ ليواجه تلك العاصفة كان يتمتع بسلام كامل. لم يكن هنالك أي [313] أثر

للخوف في كلامه أو نظراته لأن قلبه كان خاليا من الخوف. إلا أن راحته لم تكن بسبب قوته الإلهية الجبارة . ولم يكن هادئا أو ساكنا لأنه كان "سيد الأرض والبحر والسماء"، فلقد أخلى نفسه من ذلك السلطان ، وهو الذي قال: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً" (يوحنا 5 : 30). لقد وثق بقدرة أبيه . واستراح يسوع في الإيمان- الإيمان في محبة أبيه ورعايته ، وإن قوة تلك الكلمة التي هدأت البحر كانت قوة الله.

وكما استراح يسوع بالإيمان في رعاية الآب فكذلك علينا أن نطمئن إلى رعاية مخلصنا. لو كان التلاميذ قد اتكلوا عليه لكانوا قد حفظوا في سلام . فكشف خوفهم في ساعة الخطر عن عدم إيمانهم . وفي محاولتهم تخليص أنفسهم نسوا يسوع . وإذ كانوا يائسين من الاعتماد على أنفسهم اتجهوا إليه فأمكنه أن يعينهم.

كم من مرة يكون اختبار التلاميذ هو اختبارنا! فعندما تتجمع عواصف التجارب وتلمع البروق المخيفة وتطغى علينا الأمواج فإننا نصارع مع العاصفة وحدنا وقد نسينا أن هنالك من يستطيع أن يعيننا . إننا نثق بقوتنا حتى يخيب رجاؤنا ونوشك على الهلاك ، وحينئذ نذكر يسوع . ومتى صرخنا إليه ليخلصنا فلن يكون صراخنا باطلا . ومع إنه يوبخنا بحزن على عدم إيماننا وثقتنا بذواتنا فإنه دائما يمنحنا العون الذي نحتاجه . وسواء كنا على اليابسة أو في عرض البحر فمتى كان المخلص ساكنا في قلوبنا ليس هناك ما يدعو إلى الخوف . إن الإيمان الحي بالفادي يهدئ بحر الحياة المضطرب وينقذنا من الخطر بالكيفية التي يرى هو أنها أفضل من سواها.

سلام مع الله

وهنالك درس روحي آخر من معجزة إسكات العاصفة. إن اختبار كل إنسان يشهد بصدق أقوال الكتاب المقدس: "أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ ... ليس سلام، قال إلهي، للأشرار" (إشعياء 57 : 20 و 21). لقد قضت الخطية على سلامنا . فما دامت الذات لم تخضع بعد فلا يمكننا أن نذوق طعم الراحة . لا يمكن لأية قوة بشرية أن تضبط الأهواء والشهوات المسيطرة على القلب . إننا في هذا نمسي عاجزين كما قد عجز التلاميذ عن تهدئة تلك العاصفة الهوجاء . ولكن ذاك الذي نطق بكلمة [314] هدأت أمواج بحر الجليل ينطق بنفس كلمه السلام لكل إنسان. فمهما يكن عنف العواصف فإن كل من يصرخون إلى يسوع قائلين: "يا سيّد نجّنا" (متى 8 : 25) سيجدون الخلاص. إن نعمته التي تصالح النفس مع الله تهدئ مصارعات الأهواء البشرية ، فيستريح القلب في محبته . "يهدئ العاصفة فتسكن، وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا، فيهديهم إلى المرفأ الذي يريدونه" (مزمور 107 : 29 و 30). "فإذ قد تبرّرنا بالإسمان لنا سلام مع الله بربّنا يسوع المسيح"، "ويكون صنع العدل سلاماً، وعمل العدل سكوناً وطمأنينة إلى الأبد" (رومية 5 : 1 ؛ إشعياء 32 : 17).

الشياطين تهاجمهم

وفي بكور اليوم التالي وصل المخلص ورفاقه إلى الشاطئ. وقد لمست أشعة الشمس المشرقة البحر والأرض بلمسة السلام . ولكن ما إن وصلوا إلى الشاطئ حتى وقعت عيونهم على منظر أشد رعب من

هول العاصفة . ذاك أن اثنين من المجانين خرجا من مخبأين من بين القبور واندفعا صوبهم كأنما يريدان أن يمزقا أجسامهم إربا . وقد كان عالقا بأيديهما وأرجلهما بعض السلاسل والقيود التي كانا قد كسراها عند هروبها من الحبس . وكان لحمهما ممزقا يسيل منه الدم إذ كانا قد جرحا نفسيهما بالحجارة الحادة. وكانت عيونهما تحملق في أولئك القادمين من خلال الشعر الطويل الأشعث . وقد بدأ كأن صورة الإنسانية فيهما قد محيت بأيدي الشياطين التي كانت تسكن فيهما . فكانا أقرب إلى الوحوش الضارية منهما إلى الناس.

هرب التلاميذ ورفاقهم من هول الرعب ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن يسوع قد تخلف عنهم فعادوا يبحثون عنه فوجدوه واقفا حيث تركوه. إن ذاك الذي سكن العاصفة ، والذي سبق أن واجه الشيطان وهزمه لم يهرب من تلك الشياطين . فعندما كان ذانك المجنونان يصران بأسنانهما والزبد يخرج من فم كل منهما واقتربا من يسوع رفع تلك اليد التي هدأت أمواج البحر ، وحينئذ لم يستطع ذانك المجنونان أن يقتربا منه أكثر من ذلك . وقفا أمامه وصدراهما يغليان ولكنهما كانا عاجزين عن عمل شيء.

وبكل سلطان أمر يسوع الأرواح النجسة أن تخرج منهما ، فتغلغل كلامه في أعماق العقل [315] المظلم لكل من ذينك الرجلين التعيسين ، وتحققا ، وإن يكن بغير وضوح أن بالقرب منهما شخصا يمكنه أن يخلصهما من الشياطين التي تعذبهما ، فسقطا عند قدمي المخلص ساجدين أمامه. ولكن عندما انفرجت شفاهما لتطلب منه الرحمة تكلمت الشياطين فيهما صارخة بشدة وقائلة: "مالي ولك يا يسوع ابن الله العلي؟ أستحلفك بالله أن لا تعذّبني!" (مرقس 5 : 7).

تغيير مدهش

فسأله يسوع: "ما اسمك" فأجابه قائلاً: "اسمي لجئون، لأننا كثيرون" (مرقس 5 : 9). وإذ استخدمت الشياطين ذينك المجنونين واسطة للاتصال والتخاطب توسلوا إلى يسوع ألا يرسلهم خارج الكورة . وعند سفح جبل غير بعيد عن ذلك المكان كان قطيع كبير من الخنازير يرعى . فطلبت منه الشياطين السماح لها بالدخول في الخنازير فأذن لها يسوع بذلك . ففي الحال شمل الرعب ذلك القطيع فاندفعت كل تلك الخنازير بسرعة جنونية إلى أسفل الصخور ، وإذ لم تستطع التوقف على الشاطئ اندفعت إلى أعماق البحيرة وغرقت.

وفي أثناء ذلك حدث تغيير عجيب للمجنونين. فقد أشرق النور على عقلهما وأضاء من عيونهما نور الذكاء . ووجهاهما اللذان كانا مشوهين كوجوه الشياطين ساد عليهما الهدوء فجأة . والأيدي الملوثة بالدماء عادت عديمة الأذى ، وبأصوات الفرح مجد ذانك الرجلان الله على خلاصهما.

ومن فوق الصخور شاهد رعاة الخنازير كل ما حدث فأسرعوا يقصون ذلك الخبر على أصحاب الخنازير وكل الناس ، فتجمع كل سكان المدينة حول يسوع في خوف ودهشة. لقد كان المجنونان مبعث الرعب لكل سكان ذلك الإقليم ، فلم يكن أحد يأمن على حياته بالمرور من طريقهما ، إذ كانا يهاجمان كل عابري الطريق بكل ما في الشيطان من غضب واهتياج . أما الآن فقد صار ذانك الرجلان لابسين وعاقلين جالسين عند قدمي يسوع يصغيان إلى أقواله ويمجدان اسم ذاك الذي قد حررهما وشفاهما . ولكن الناس الذين رأوا هذا المنظر العجيب لم يفرحوا . إن غرق الخنازير في البحيرة كان في نظرهم مصيبة أفدح ، لا تتناسب مع شفاء المجنونين اللذين كانا تحت أسر الشيطان. [316]

ولكن خسارة الخنازير كانت رحمة من الله مقدمة لأصحابها. فلقد كانوا مرتبكين في الأرضيات ولم يكترثوا لمصلحتهم العظيمة التي هي مصلحة الحياة الروحية . ولقد رغب يسوع في تحطيم الأثرة وعدم

المبالاة حتى يقبلوا نعمته . ولكن حسرتهم وغيظهم بسبب خسارتهم الزمنية أعمت عيونهم فلم يروا رحمة المخلص.

يفضلون المصالح الزمنية

إن إظهار قدرة المسيح الفائقة الطبيعة أثارت الخرافات والمخاوف في نفوس أولئك الناس. فقد كانوا يخشون من وقوع كوارث جديدة لو ظل ذلك الغريب بينهم . كانوا يخافون من الانهيار الاقتصادي فعقدوا العزم على التخلص من وجود السيد . إن من قد عبروا البحيرة مع يسوع أخبروا أهل تلك الكورة بما حدث في الليلة السابقة عن المخاطر التي اكتنفتهم عندما هجمت عليهم العواصف والأنواء وكيف هدأت كلها . ولكن كلامهم لم يكن له أي تأثير ، فتجمهر الناس حول يسوع وهم مرتعبون وسألوه أن يذهب عنهم . وقد أجابهم يسوع إلى طلبهم وركب السفينة ليعبر البحيرة إلى الشاطئ الآخر.

كان ماثلا أمام عيون أهل جرجسة مثال حي على قدرة المسيح ورحمته. رأوا الرجلين اللذين خرجت منهما الشياطين وقد صارا عاقلين . ولكنهم كانوا يخشون من تعريض مصالحهم الدنيوية للخطر حتى لقد عاملوا ذاك الذي قهر سلطان الظلمة أمام عيونهم كما لو كان إنسانا متطفلا عليهم ، فتحول ذاك الذي هو عطية السماء بعيدا عن دورهم.

ليس ما يدعونا إلى الابتعاد عن المسيح كما كانت الحال مع الجرجسيين ، ومع ذلك فيوجد كثيرون ممن يرفضون إطاعة كلامه لأن الطاعة تقتضي التضحية ببعض المصالح المالية. كثيرون يرفضون نعمة الرب يسوع ويطردون روحه لئلا ينطوي حضوره على خسارة مادية تصيبهم.

لكن شعور ذينك المجنونين اللذين أعيد إليهما وعيهما وقواهما العقلية كان يختلف عن ذلك اختلافا بينا . كانا يتوقان إلى ملازمة من قد حررهما . ففي حضرته كانا يشعران بالراحة والأمان من الشياطين التي عذبتهما ومررت حياتهما وأذلت رجولتهما . ففيما كان يسوع يهم بالنزول في السفينة ظلا ملازمين له وجثيا عند قدميه طالبين منه أن يسمح لهما [317] بالبقاء قريبا منه حيث يتسنى لهما سماع تعاليمه. ولكن يسوع أمرهما بالذهاب إلى بيتهما وأهلهما ليخبرا بكم صنع الرب بهما ورحمهما.

شاهدان لله

هاهو الآن يسند إليهما عملا يعملانه ، وهو أن يذهبا إلى بيت وثني أممي ليخبرا من فيه عن البركة التي نالاها منه. كانا يحسان بصعوبة الانفصال عن المخلص . فلابد من أن تواجههما صعاب عظيمة بسبب معاشرتهما لمواطنيهما الوثنيين . ثم أن اعتزالهما عن الناس أمدا طويلا بدا كأنه يقلل من أهليتهما للعمل الذي أسنده إليهما يسوع . ولكن حالما أرشدهما الرب إلى واجبهما كانا على أتم استعداد لإطاعته . ولم يكتفيا بالتحدث مع عائلتيهما وأقربائهما وجيرانهما عن يسوع ولكنهما جالا في كل المدن العشر يعلنان في كل مكان عن قدرة المسيح على أن يخلص ، ويصفان للناس كيف حررهما من الأرواح الشريرة . وإذ قاما بذلك الحمل حصلا على بركة أعظم مما لو بقيا في حضرة السيد ليحصلا على نفع ومتعة لنفسيهما . إننا إذ نذيع بشرى الخلاص نصير قريبين من قلب المخلص.

إن ذينك المجنونين اللذين شفيا كانا في طليعة الرسل الذين أرسلهم المسيح للكرازة بالإنجيل في ذلك الإقليم الواقع شرقي الأردن. لقد أعطي لهذين الرجلين امتياز سماع تعاليم المسيح لمدى لحظات قليلة . إنهما لم يسمعا من فمه عظة واحدة ، ولم يكونا يستطيعان أن يعلما الشعب كما كان يستطيع التلاميذ الذين كانوا يلازمونه كل الأيام .ولكنهما كانا يحملان في قلبيهما الدليل على كون يسوع هو مسيا . كانا يستطيعان أن يقولا ما يعرفانه وما قد رأياه وسمعاه وأحسا به من قوة المسيح . وهذا ما يستطيع أن يفعله كل من مست نعمة الله قلبه . وقد كتب يوحنا التلميذ الحبيب يقول: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة .. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به" (1 يوحنا 1 : 1 — 3). فكشهود للمسيح علينا أن نشهد بما نعرفه وما قد سمعناه بآذاننا ورأيناه بعيوننا وما أحسسنا به . لو كنا سائرين وراء يسوع خطوة فخطوة فسنقول الصواب عن الطريق التي قادنا فيها . يمكننا أن نقول للناس إننا قد جربنا وعد الله فوجدناه صادقا . ويمكننا أيضا أن نشهد لما قد عرفناه من نعمة المسيح .هذه هي الشهادة التي يدعونا إليها السيد ، والتي لعدم توافرها يهلك العالم. [318]

ومع أن أهل كورة جرجسة لم يقبلوا يسوع فهو لم يتركهم يعمهون في الظلمة التي اختاروها لأنفسهم. فعندما طلبوا منه أن ينصرف عن تخومهم ما عادوا يسمعون كلامه .لقد كانوا يجهلون قيمة من رفضوه ، ولهذا أرسل إليهم النور مرة أخرى بواسطة الرجلين اللذين ما كانوا ليرفضوا سماع كلامهما.

إن الشيطان كان يرمي من وراء إغراق الخنازير إلى إبعاد الناس عن المخلص وإلى منع الكرازة بالإنجيل في ذلك الاقليم. ولكن نفس هذا الحادث أيقظ كل تلك الكورة أكثر مما كان يمكن أن يفعله أي حادث آخر فاتجه انتباه الجميع إلى المسيح . فمع أن المخلص نفسه رحل عنهم فإن ذينك الرجلين اللذين كان قد شفاهما ظلا شاهدين لقدرته . فذانك اللذان كانا آلات في يد رئيس الظلمة صارا قنوات لإيصال النور لمواطنيهما ورسولين لابن الله . لقد اندهش الناس لدى سماعهم تلك الأخبار المدهشة . وانفتح باب لرسالة الإنجيل في كل تلك الكورة . ولما عاد يسوع إلى المدن العشر مرة أخرى تجمهر الناس حوله ، ولمدة ثلاثة أيام لم يسمع رسالة الخلاص سكان مدينة واحدة ، ولكن سمعها آلاف من كل أهل الكورة المجاورة . إنه حتى قوة الشيطان هي تحت سيطرة المخلص ، وعمل الشر يمكن أن يتحول إلى خير.

الواقي من قوة الشيطان

كان اللقاء مع مجنوني جرجسة درسا للتلاميذ ، إذ تبرهن لهم إلى أية دركة عميقة يحاول الشيطان أن يحدر كل الجنس البشري ، وأن مهمة المسيح هي تحرير الناس من سلطانه. فذانك الرجلان البائسان اللذان كانا يسكنان تحت القبور وقد تسلطت عليهما الشياطين وصارا مستعبدين لأهواء وشهوات كريهة وجامحة- ذانك الرجلان يصوران لنا المصير الذي كان يمكن للجنس البشري أن يصير إليه لو أسلم لسلطان الشيطان . إن الشيطان يستخدم قوته على الدوام لكي يصيب كل قوى الإنسان وحواسه بالخبال ويوجه العقل إلى الشر ويحرضه على الالتجاء إلى العنف والظلم وارتكاب الجرائم . إنه يضعف الجسم ويظلم العقل ويشوشه ويحط من شأن النفس . وأينما يرفض الناس دعوة المخلص فهم بالفعل يخضعون للشيطان . إن كثيرين من الناس في كل نواحي الحياة ، في البيت [319] وفي العمل وحتى في الكنيسة يعملون نفس هذا العمل في هذه الأيام. ولأجل هذا انتشرت القسوة والجرائم في كل الأرض ، ولفت الظلمة الخلقية عقول الناس وقلوبهم في أكفانها السوداء . إن الشيطان بواسطة تجاربه وتمويهاته يسوق الناس من شر إلى ما هو أدهى منه وأسوأ حتى في النهاية يسود الفساد والهلاك الشامل . ولكن الحارس والواقي الوحيد ضد قوة

الشيطان هو وجود يسوع . لقد ظهر الشيطان على حقيقته أمام الناس والملائكة بأنه عدو الإنسان ومهلكه ، أما المسيح فقد برهن على أنه صديق الإنسان ومحرره . إن روحه يغرس وينمي في الإنسان كل ما من شأنه أن يجعل خلقه كريما ونبيلا ويعظم طبيعته ويسمو بها . وهذا يبني الإنسان في الجسم والروح لمجد الله ، "لأن الله لم يعطنا روح الفشل (الخوف)، بل روح القوة والمحبة والنصح" (2 تيموثاوس 1 : 7). لقد دعانا "لاقتناء مجد" (وخلق) ربنا يسوع المسيح، دعانا لكي نكون "مشابهين صورة ابنه" (2 تسالونيكي 2 : 14 ؛ رومية 8 : 29).

هذا ، وإن النفوس التي قد انحطت بحيث صارت آلات يسخرها الشيطان لمآربه ، هذه النفوس بعينها تتغير بقوة المسيح حتى يصير أصحابها رسل البر يرسلهم ابن الله لكي "يحدثوا بكم صنع بهم الرب ورحمهم". [320]

الفصل السادس والثلاثون ــــ لمسة الإيمان

إن يسوع إذ عاد من كورة الجرجسيين إلى الشاطئ الغربي وجد جمعاً من الناس محتشدين لاستقباله ، وقد رحبوا به فرحين. فلبث بجوار الشاطئ بعض الوقت يعلم الناس ويشفي المرضى . وبعد ذلك توجه إلى بيت متى اللاوي ليلتقي بالعشارين الذين كانوا قد تعرفوا به في وليمة متى . وفي هذا المكان وجده يايرس رئيس المجمع .

لقد أتى هذا الشيخ اليهودي إلى يسوع وهو في أشد حالات الضيق وخر عند قدميه صارخا: "ابنتي الصغيرة على آخر نسمة. ليتك تأتي وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا!" (مرقس 5 : 23).

ففي الحال مضى يسوع مع ذلك الرئيس إلى بيته. ولكن مع أن التلاميذ كانوا قد رأوا كثيراً من أعمال رحمته فقد اندهشوا من استجابته لتوسل ذلك المعلم المتعجرف . إلا أنهم رافقوا معلمهم وتبعهم جمع من الناس المشتاقين المنتظرين.

لم يكن بيت الرئيس يبعد كثيرا عن ذلك المكان ، ومع ذلك فقد سار يسوع ومرافقوه متمهلين ، لأن الجمع كان يزحمه من كل جانب . فنفد صبر ذلك الأب الجزع بسبب هذا التأخير ، ولكن يسوع إذ كان مدفوعا بدافع العطف على الشعب كان يتوقف من حين لآخر ليخفف آلام المتألمين أو ليعزي القلوب المضطربة.

"قد ماتت ابنتك"

وفيما كانوا سائرين في الطريق تقدم رسول وشق لنفسه طريقاً إلى حيث كان يايرس يحمل إليه خبراً يقول إن ابنته قد ماتت ولا جدوى من كونه يتعب المعلم بعد. وإذ سمع يسوع ذلك الكلام قال له: "لا تخف! آمن فقط، فهي تشفى" (لوقا 8 : 50). [321]

زاد اقتراب يايرس من المخلص فأسرعا معاً إلى بيت الرئيس- وكأن النائحون المأجورون والمزمرون قد وصلوا من قبل إلى ذلك البيت ، و ملأوا البيت بضجيجهم ، فأثر وجود ذلك الجمع والضجيج الحادث تأثيرا سيئا في روح يسوع . وقد حاول إسكاتهم بقوله: "لماذا تضجون وتبكون؟ لم تمت الصبية لكنها نائمة" (مرقس 5 : 39)، فأغضبهم كلام ذلك الغريب . لقد رأوا الصبية في أحضان الموت فضحكوا منه ساخرين به . وإذ أمر يسوع بإخراج ذلك الجمع أخذ معه أبا الصبية وأمها وتلاميذه الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا ، ثم دخلوا غرفة الموت معاً.

حياة لفاقد الحياة

اقترب يسوع من السرير وإذ أمسك يد الصبية بيده فبكل رقة ولطف وبلغة بيتها المألوفة نطق بهذه الكلمات: "يا صبية، لكي أقول: قومي!" (مرقس 41 : 5).

ففي الحال حدثت رعشة في ذلك الجثمان المسجى العديم الحياة. ثم عادت نبضات القلب كما كانت ، ثم انفرجت الشفتان عن ابتسامة . وقد فتحت الفتاة عينيها على سعتهما كما لو كانت قد أفاقت من نومها . وشخصت باندهاش إلى تلك الجماعة الواقفة إلى جوار سريرها. ثم قامت فاحتضنها أبواها وهما يبكيان من فرط السرور.

من الضعف إلى نشاط العافية

وإذ كان يسوع في طريقه إلى بيت الرئيس التقى في وسط ذلك الجمع بامرأة مسكينة كانت قد تألمت مدى اثنتي عشرة سنة من مرض جعل حياتها عبئاً ثقيلا عليها. لقد أنفقت كل معيشتها على الأطباء والعقاقير ولكنهم أجمعوا على أن مرضها عديم الشفاء ، إلا أن آلامها انتعشت عندما سمعت عن معجزات الشفاء التي أجراها يسوع ، وقد كانت مؤمنة أنها لو ذهبت إليه فستشفى . ففي ضعفها وآلامها ذهبت إلى شاطئ البحر حيث كان السيد يعلم فحاولت أن تشق لنفسها طريقاً بين الجمع ولكن بلا جدوى . ثم سارت وراءه من بيت لاوي متى ولكنها مع ذلك لم تستطع الوصول إليه . فبدأ اليأس يتسلل إلى قلبها ، وإذا به وهو يسير في وسط ذلك الجمع يقترب منها. [322]

لقد حانت فرصتها الذهبية . فها هي الآن في حضرة ذلك الطبيب العظيم! ولكن في وسط تلك الضجة العظيمة لم تستطع التحدث معه وإنما فقط لمحت منه نظرة عابرة . فلخوفها من أن تضيع فرصتها الوحيدة للشفاء تقدمت إلى الأمام قائلة لنفسها: "إن مسست ولو ثيابه شفيت" (مرقس 5 : 28). فإذ كان مارا في طريقه تقدمت إلى الأمام واستطاعت أن تلمس هدب ثوبه . وفي تلك اللحظة علمت أنها قد برئت من الداء . في تلك اللمسة تركز إيمان حياتها ، وفي الحال زايلها ضعفها وآلامها وامتلأ جسمها بقوة نشاط الصحة الكاملة.

وإذ امتلأ قلبها شكرا حاولت أن تتسلل بعيدا عن ذلك الجمع ، ولكن فجأة وقف يسوع في مكانه ووقف كل ذلك الجمع معه. ثم جعل السيد يتلفت هنا وهناك ، وبصوت علا فوق ضجيج الجمع سأل: "من الذي لمسني؟" (لوقا 8 : 45). فأجاب الناس عن هذا التساؤل بنظرات بدا فيها الاندهاش . فإذ كان الجمع يزحمه من كل جانب والناس يضيقون عليه ظهر أن ذلك السؤال كان سؤالا غريبا

وإذا ببطرس الذي كان دائما مستعدا للكلام يقول له: "يا معلّم، الجموع يضيّقون عليك ويزحمونك، وتقول: من الذي لمسني؟" (لوقا 8 : 45). فقال يسوع: "قد لمسني واحد، لأني علمت أن قوة قد خرجت مني" (لوقا 8 : 45). لقد استطاع المخلص أن يميز بين لمسة الإيمان وبين الاتصال العرضي من ذلك الشعب العديم الاكتراث . ومثل تلك الثقة لا يمكن أن تمر دون أن يعلق السيد عليها . إنه يريد أن يكلم تلك المرأة الوضيعة بكلام العزاء الذي سيصير نبع فرح ينبع من أعماقها- ذلك الكلام الذي سيكون بركة لتابعيه إلى انقضاء الدهر.

وإذ اتجه يسوع ببصره نحو تلك المرأة أصر على معرفة من قد لمسه ، فإذ وجدت المرأة أنها عبثا تحاول أن تختفي جاءت مرتعدة وخرت عند قدميه . وإذ كانت دموع الشكر تنهمر من عينيها أخبرته بقصة آلامها وكيف وجدت الشفاء . فقال لها بكل رقة: "ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاك، اذهبي بسلام" (لوقا 8 : 48). إنه لم يعط المجال للاعتقاد الخرافي بأن القوة الشافية أتت نتيجة مجرد لمس ثيابه . لقد وصل الشفاء

إليها ليس بواسطة اللمس الخارجي بل بواسطة لمسة الإيمان التي تمسك بقوة ألوهيته. [323]

إيمان حي

إن ذلك الجمع المندهش الذي كان يزحم المسيح لم يكن يحس بقوة حياة أو نشاط .ولكن تلك المرأة المتألمة حينما مدت يدها لتلمسه مؤمنة بأنها ستشفى أحست بقوته الشافية. كذلك الحال في الناحية الروحية . فكون الإنسان يتكلم عن الديانة في غير اكتراث ، وكونه يصلي بدون جوع في النفس وبدون إيمان حي فكل ذلك لا يجدي النفس فتيلا . إن الإيمان الأسمى بالمسيح الذي يقبله على أنه مجرد مخلص للعالم لا يمكنه أن يمنح الناس الشفاء . فالإيمان الذي للخلاص ليس هو مجرد قبول الحق قبولا عقليا ، فذاك الذي ينتظر أن يعرف كل شيء قبلما يدرب إيمانه لا يمكنه أن ينال بركة من الله . لا يكفي كوننا نؤمن عن المسيح بل علينا أن نومن به . إن الإيمان الوحيد الذي يمكن أن ينفعنا هو الذي يعانق يسوع ويقبله كمخلص شخصي ، الإيمان الذي يخصص استحقاقات الفادي لأنفسنا . كثيرون يتمسكون بالإيمان كفكرة أو رأي . ولكن الإيمان المخلص هو اتفاقية بموجبها كل من يقبلون المسيح يرتبطون بصلة عهد مع الله . إن الإيمان الصحيح هو حياة ، والإيمان الحي معناه مزيد من النشاط والاتكال الواثق الذي بموجبه تصير النفس قوة غالبة.

بعدما شفى المسيح المرأة طلب منها الاعتراف بالبركة التي قد نالتها. إن البركات التي يمنحها الإنجيل ينبغي ألا ننالها بالاختلاس ولا أن نتمتع بها في الخفاء . وهكذا الرب يدعونا للاعتراف بصلاحه: "أنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله" (إشعياء 43 : 12).

شهود من حجارة

إن اعترافنا بأمانة الله هو الوسيلة التي قد اختارتها السماء لإعلان المسيح للعالم. علينا أن نعترف بنعمته كما قد أعلنها القديسون منذ القدم . ولكن ما يمكن أن يكون أعظم فاعلية هو شهادتنا الاختبارية . إننا نكون شهودا لله عندما نعلن في ذواتنا فاعلية القوة الإلهية . إن كل فرد له حياة تختلف عن حياة الآخرين واختبار يختلف اختلافا بينا عن اختباراتهم .والله يرغب في أن يرتفع تسبيحنا إليه وأن يكون مميزا لشخصياتنا . فهذه الاعترافات الثمينة في تسبيح مجد نعمته متى كانت تسندها حياة شبيهة بحياة المسيح ستكون لها قوة لا تقاوم تعمل لخلاص النفوس. [324] إن البرص العشرة عندما أتوا إلى يسوع في طلب الشفاء أمرهم بأن يذهبوا ويروا أنفسهم للكاهن. وفيما هم منطلقون طهروا . ولكن واحدا منهم فقط رجع ليمجده ، أما الباقون فمضوا في طريقهم وقد نسوا ذاك الذي قد شفاهم . كم منا ما زالوا يتصرفون نفس هذا التصرف! إن الرب لا يكف عن عمل ما فيه خير البشرية وهو على الدوام يوزع بركاته . فهو يقيم المرضى من فراش الألم والضنى وهو يجنب الناس المخاطر المستورة عن أنظارهم ويرسل ملائكة السماء ليخلصوهم من الكوارث ويحرسوهم من أي "وبإ يسلك في الدجى" ومن أي "هلاك يفسد في الظهيرة" (مزمور 91 : 6)، غير أن قلوبهم لا تتأثر . لقد بذل أثمن كنوز السماء ليفتديهم ومع ذلك فهم لا يكترثون لحبه العظيم . إنهم بجحودهم يغلقون قلوبهم حتى لا تدخلها نعمة الله . إنهم يشبهون مرجا في البرية فلا يعلمون متى يجيء الخير . ونفوسهم تسكن الأماكن اليابسة في البرية.

علينا لأجل منفعتنا الشخصية أن نظل ذاكرين على الدوام كل عطية يمنحها لنا الله. وبهذه الكيفية يتقوى إيماننا ليطلب ويقبل من الله مزيدا من تلك الهبات . لنا في أقل بركة من البركات التي ننالها من الله تشجيع أعظم من كل ما نقرأه أو نسمعه من أخبار إيمان الآخرين واختباراتهم . إن النفس التي تستجيب لنعمة الله تكون كجنة ريا . ومثل ذلك الإنسان تنبت صحته سريعاً ونوره يشرق في الظلمة ويرى عليه مجد الرب . إذاً فلنتذكر رأفة الرب وكثرة مراحمه . وكما فعل بنو إسرائيل علينا أن نقيم من الحجارة أعمدة لتكون شهودا ونكتب عليها قصة صنائع الرب ومراحمه نحونا . وإذ نراجع معاملاته معنا في غربتنا فمن أعماق قلوبنا التي يغمرها ويصهرها الشكر نعلن قائلين: “ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟ كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو. أوفي نذوري للرب مقابل كل شعبه” (مزمور 116 : 12 — 14). [325]

الفصل السابع والثلاثون ـــــسفراء الحق

كان الرسل أعضاء في أسرة يسوع وكانوا يرافقونه وهو يطوف في كل الجليل سيرا على قدميه ، كما شاركوه في الكدح وتحمل المشقات التي صادفتهم. لقد أصغوا إلى أحاديثه وساروا وتحدثوا مع ابن الله . ومن بين التعاليم التي كانوا يتلقونها كل يوم تعلموا كيف يعملون على رفعة شأن البشرية . وإذ كان يسوع يخدم الجموع الغفيرة التي ازدحمت حوله كان تلاميذه معه وهم مشتاقون إلى تنفيذ كل أوامره والتخفيف من أعبائه . كانوا يساعدون في تنظيم الجموع وفي الإتيان بالمتألمين والمرضى إلى المخلص وفي توفير الراحة والعزاء للجميع . كانوا يراقبون السامعين المهتمين ويفسرون لهم الكتب وبطرق مختلفة كانوا يخدمون مصالحهم الروحية . كذلك كانوا يعلمونهم ما قد تعلموه من يسوع .وفي كل يوم كانوا يحصلون على اختبار عظيم . ولكنهم أيضاً كانوا بحاجة إلى اختبار العمل وحدهم . وكانوا لا يزالون بحاجة إلى تعليم كثير وصبر ورقة وحنان عظيم . والآن إذ كان المخلص معهم بشخصه لينبههم إلى أخطائهم ولينصحهم ويصلح تلك الأخطاء ، أرسلهم كنواب عنه.

حين كان التلاميذ مع معلمهم كثيرا ما كانت تعاليم الكهنة والفريسيين تربكهم وتحيرهم ، ولكنهم كانوا يأتون بتلك التعاليم المربكة إلى يسوع ، وكان هو قد أورد لهم حقائق الكتاب ضداً للتقاليد. وهكذا قوى إيمانهم وثقتهم بكلمة الله وحررهم إلى حد كبير من الخوف من المعلمين وعبوديتهم لتقاليدهم . وفي تدريب التلاميذ كان مثال حياة المخلص أفعل من مجرد التعليم العقائدي . وعندما تركوه وخرجوا ليكرزوا تذكروا كل نظرة ونغمة صوت أو كلمة قالها يسوع . وفي أحيان كثيرة عندما كانوا يشتبكون في صراع مع أعداء الإنجيل كانوا يرددون أقواله . وعندما كانوا يرون تأثير تلك التعاليم في الشعب كانوا يفرحون فرحا عظيما. [326]

"اثنين اثنين"

وإذ دعا يسوع إليه الاثني عشر أمرهم بأن يذهبوا اثنين اثنين إلى كل المدن والقرى .ولم يرسل واحدا وحده ، ولكن الأخ كان يصاحب أخاه والصديق صديقه ، فكان كل منهما يعين الآخر ويشدده. فكانا يتشاوران ويصليان معا ، وكانت قوة الواحد تسند ضعف الآخر. وبنفس هذه الكيفية أرسل السيد السبعين فيما بعد . كان غرض المخلص أن رسل الإنجيل ينبغي لهم أن يتصاحبوا معا بهذه الكيفية . وفي أيامنا هذه كان يمكن أن الكرازة بالإنجيل تصيب نجاحا أعظم لو أتبع هذا المثال بأكثر دقة.

كانت رسالة التلاميذ هي نفس رسالة يوحنا المعمدان والمسيح نفسه: "قَد اقْتَربَ ملكُوتُ السماوَاتِ ". لم يكن لهم أن يشتبكوا في جدال مع الشعب فيما إذا كان يسوع الناصري هو مسيا أم لا . ولكن كان عليهم باسمه أن يعملوا نفس أعمال الرحمة التي قد عملها هو . ثم أمرهم قائلا: "اشفوا مرضى. طهّروا برصاً.

أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجاناً أخذتم. مجاناً أعطوا” (متى 10 : 8).

خدمة شفاء

إن يسوع في خلال سني خدمته كرس وقتا أطول لشفاء المرضى مما للكرازة. وقد شهدت معجزاته لصدق تعاليمه وأنه لم يأتِ ليهلك بل ليخلص . لقد سار بره أمامه ومجد الرب جمع ساقته ، وأينما ذهب كانت تسبقه أخبار رحمته ، وأينما كان يمر كان الناس موضوع رحمته ورأفته يفرحون بالصحة ويستعملون قواهم الجديدة التي منحت لهم مجددا. كان جماهير الناس يزدحمون حول التلاميذ ليسمعوا منهم عن العظائم التي قد صنعها الرب . فكان صوته أول صوت سمعه كثيرون منهم ، وكان اسمه أول كلمة نطقوا بها ، ووجهه أول وجه نظروه . إذاً فلماذا لا يحبون يسوع ويذيعون تسبيحه ؟ إنه عندما كان يجول في المدن والقرى كان يشبه تيارا حيويا ينشر الحياة والفرح أينما ذهب.

وعلى أتباع المسيح أن يخدموا المسيح كما قد خدم هو. علينا أن نطعم الجياع ونكسو العراة ونعزي المتألمين والمتضايقين . علينا أن نخدم اليائسين ونلهم القانطين بالرجاء .وسيتم لنا نحن أيضاً هذا الوعد القائل: “يسير برّك أمامك، ومجد الرب يجمع ساقتك” [327] (إشعياء 58 : 8). إن محبة المسيح المقدمة في الخدمة المنكرة لذاتها هي أفعل في إصلاح فاعلي الشر من حد السيف أو منصة القضاء . إن القانون الذي لا يرحم والسيف الذي يهلك لازمان لردع من يتعدون القانون ، ولكن الخادم المحب يستطيع أن يفعل أكثر من هذا . إن القلب يتقسى غالبا أمام التوبيخ ، ولكنه يذوب انسحاقا أمام محبة المسيح . والرسول لا يستطيع أن يخفف آلام الجسم وحدها ومنه يستطيع أيضاً أن يرشد الخاطئ إلى الطبيب العظيم الذي يستطيع أن يطهر النفس من برص الخطية . والله يقصد أنه عن طريق خدامه يسمع المرضى والعاثر والحظ والذين فيهم أرواح شريرة صوته . وعن طريق أتباعه يرغب الرب أن يعزي النفوس بكيفية بجهلها العالم.

أول من يسمعون

وفي الحملة التبشيرية الأولى كان على التلاميذ أن يذهبوا فقط إلى “ خراف بيت إسرائيل الضالة” (متى 10 : 6). فلو كرزوا بالإنجيل حينئذ للأمم أو السامريين لضاع تأثيرهم على اليهود ، لأنهم إذ يثيرون تعصب الفريسيين فسيشتبكون في مجادلات قد تثبط عزائمهم في بدء خدمتهم . وحتى الرسل أنفسهم كانوا متباطئين في فهم حقيقة كون الإنجيل هو لكل الأمم . وقبلما أمكنهم فهم هذا الحق لم يكونوا متأهبين للخدمة بين الأمم . فلو قبل اليهود الإنجيل كان الله يقصد أن يجعلهم رسله إلى الأمم . ولذلك كان يجب أن يكونوا هم أول من يسمعون الرسالة.

وفي كل حقل خدمة المسيح كانت هنالك نفوس استيقظت لتحس بحاجتها ، نفوس كانت جائعة وظمأى إلى الحق. وقد جاء الوقت الذي فيه ترسل أخبار محبته لتلك القلوب المشتاقة . وقد كان على التلاميذ أن يذهبوا إلى كل أولئك الناس كنواب عن المسيح . وهذا كان يجب أن يقود المؤمنين منهم إلى أن ينظروا إليهم كمعلمين مرسلين من قبل الله ، وعندما يؤخذ المخلص من بينهم لن يتركوا بدون معلمين.

ينادون بالحق

في تلك السفرة الأولى كان على التلاميذ أن لا يذهبوا إلا إلى الأماكن التي ذهب إليها يسوع قبلهم وكان له فيها أصدقاء. وكان تأهبهم للرحلة غاية في البساطة . لم يكن يسمح لهم بشيء من شأنه أن يبعد عقولهم عن عملهم العظيم أو يثير عداء الناس ومقاومتهم [328] ويغلق باب الخدمة في المستقبل. ولم يكن يسمح لهم بأن يلبسوا ملابس معلمي الدين أو أي زي يميزهم عن طبقة الفلاحين الوضعاء ، كما لم يكن مسموحا لهم بدخول المجامع ليجمعوا الشعب لخدمة عامة ، بل كان يجب أن يقصروا عملهم على الكرازة في البيوت.ولم يكن لهم أن يضيعوا الوقت في تحيات لا داعي لها أو الانتقال من بيت إلى بيت ليستضيفهم الناس . ولكن في كل مكان كان عليهم أن يقبلوا كرم ضيافة من هم مستحقون أي من يرحبون بهم ترحيبا قلبيا كما لو كانوا هم المسيح نفسه . وعند دخولهم أي بيت كان عليهم أن يبادروا أهله بهذه التحية الجميلة : ”سلام لهذا البيت“ (لوقا 10 : 5). فذلك البيت كان يبارك بصلواتهم وتسبيحاتهم وقراءة كلمة الله في محيط العائلة.

كان على هؤلاء التلاميذ أن ينادوا بكلمة الحق ويعدوا الطريق لمجيء معلمهم. والرسالة التي كان عليهم أن يحملوها كانت كلام الحياة الأبدية ، وكان مصير الناس معلقا على قبول السامعين للحق أو رفضه . ولكي يقتنعوا الناس بعظمة كلمة الله أمر يسوع تلاميذه قائلا: ”ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة، وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم: ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الذين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة“ (متى 10 : 14 و 15).

”كغنم في وسط ذئاب“

هنا نرى عين المخلص تخترق حجب المستقبل. فهو يرى الحقول الأكثر اتساعا التي سيكون التلاميذ شهودا له فيها بعد موته . لقد شملت نظرته النبوية اختبار خدامه مدى العصور كلها إلى أن يأتي في مجيئه الثاني . إنه يطلع تابعيه على المحاربات التي عليهم أن يواجهوها ويكشف لهم عن صفة تلك المعارك وخطتها ، كما يريهم المخاطر التي ستعترضهم وإنكار الذات المطلوب منهم . وهو يريدهم أن يحسبوا النفقة حتى لا يأخذهم العدو على حين غرة . إن مصارعتهم ”ليست مع ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات“ (أفسس 6 : 12). عليهم أن يصارعوا مع قوات فوق قوة البشر ، ولكن الرب مع ذلك يعدهم بالمعونة الإلهية . كل أجناد السماء هم في هذا الجيش الذي يحارب إلى جانبهم . كما أن بين تلك الصفوف من هو أعظم من الملائكة . فالروح القدس نائب رئيس جند [329] الرب ينزل ليقود المعركة. وقد تكون ضعفاتنا كثيرة ومحزنة ، وقد تكون خطايانا وأخطاؤنا شنيعة ولكن نعمة الله تقدم لكل من يطلبونها بانسحاق . إن قوة الله القادر على كل شيء هي في صف كل من يثقون به.

قال يسوع: ”ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام“ (متى 10 : 16). إن المسيح نفسه لم يخف أي جزء من الحق ولكنه كان دائما ينطق به في محبة . في حديثه مع الشعب استعمل أحسن لباقة وأعظم اهتمام رقيق رصين. فلم يكن قط فظا ولا نطق بكلمة قاسية البتة بدون مبرر ، كلا ولا آلم نفسا حساسة إطلاقا من دون داع . لم ينتقد الناس على ضعفهم . ولكنه كان يذم الرياء

وعدم الإيمان والإثم بلا خوف ، إلا أن دموعه كانت تخنق صوته . بكى على أورشليم التي أحبها لأنها رفضت قبوله بوصفه الطريق والحق والحياة . لقد رذلوه بوصفه المخلص و لكنه كان رقيقا ومحبا لهم جدا ، وكأن حزنه عليهم من شدة العمق بحيث سحق قلبه . لقد كانت كل نفس عزيزة في عينيه ، ومع أنه كان دائما يحمل في نفسه الجلال الإلهي فقد كان بكل تقدير ورفق ينحني لمساعدة كل فرد في أسرة الله . كان يرى في الجميع نفوسا ساقطة كان هو مكلفا بتخليصها.

على عبيد المسيح ألا يطيعوا توجيهات القلب الطبيعي. إنهم بحاجة إلى الشركة الوثيقة مع الله لئلا إذا أثيروا ترتفع الذات وتشمخ فيصبون سيلا من الكلام غير اللائق الذي لا يشبه الندى أو المطر الهادئ المحيي للأغراس الذابلة . هذا ما يريدهم الشيطان أن يفعلوه لأن ذلك هو أسلوبه . إن التنين هو الذي يغضب ، وروح الشيطان هي التي تعلن عن نفسها في الغضب والاتهام ، أما عبيد الله فهم ممثلوه . وهو يريدهم أن يتعاملوا مع الناس بمعاملة السماء وحدها وبالحق الذي يحمل صورة الله واسمه . إن القوة التي بها يغلبون الشر هي قوة المسيح . إن مجد المسيح هو قوتهم ، وعليهم أن يثبتوا أنظارهم فيه ليتمتعوا بجماله . وحينئذ يمكنهم أن يقدموا الإنجيل باللباقة واللطف الإلهيين . إن الروح التي تظل لطيفة ورقيقة أمام الإغاظات سيكون كلامها مؤثرا وفعالا في جانب الحق أكثر من أية حجة مهما تكن قوية أو مقنعة.

والذين يلتزمون أن يواجهوا أعداء الحق ويشتبكوا معهم في مشادة عليهم أن يواجهوا لا [330] الناس فقط بل أيضاً الشيطان وأعوانه. فليذكر أمثال هؤلاء ما قاله المخلص : "ها أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب" (لوقا 10 : 13). وليستريحوا في محبة الله فيحفظ أرواحهم هادئة حتى ولو وقعت عليهم إهانات . إن الرب سيسلحهم بسلاحه الكامل ، وروحه القدوس سيضبط العقل والقلب بحيث لا تصير أصواتهم كعواء الذئاب بل كهديل الحمام.

استطرد يسوع في إلقاء توجيهاته للتلاميذ فقال: " احذروا من الناس" (متى 10: 17). لم يكن لهم أن يثقوا ثقة عمياء في من لم يعرفوا الله أو يطلعوهم على مقاصدهم لأن ذلك يكون في مصالح أعوان الشيطان . إن ابتكارات الإنسان كثيرا ما تناقض تدابير الله . والذين يبنون هيكل الله عليهم أن يبنوه حسب المثال الذي أظهر في الجبل- حسب المثال الإلهي . إن الله يهان والإنجيل يفشى سره ويغدر به عندما يعتمد عبيد الله على مشورة من لا يسيرون حسب إرشاد الروح القدس . إن الحكمة البشرية هي جهالة في نظر الله فالذين يعتمدون عليها يخطئون لا محالة .

جهالة الحكمة الدنيوية

" سيسلمونكم إلى مجالس... وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم" (متى 10 : 17 و 18). إن الاضطهاد يذيع النور وينشره . وخدام المسيح سيوقفون أمام عظماء العالم الذين لولا هذا ما كانوا يسمعون الإنجيل البتة . لقد قدم الحق إلى أولئك الرجال محرفا ومشوها ، فأصغوا إلى التهم الكاذبة ضد إيمان تلاميذ المسيح وعقائدهم .وفي غالب الأحيان تكون الوسيلة الوحيدة التي بها يعرفون تلك العقائد على حقيقتها هي الشهادة التي يدلي بها أولئك الذين يوقفون أمامهم للمحاكمة لأجل إيمانهم ، وعند الفحص يطلب من هؤلاء أن يجيبوا وعلى القضاة أن يستمعوا لشهادتهم . وستمنح نعمة الله لخدامه لدفع تلك التهم . قال يسوع: "تعطون في تلك الساعة ما تكتملون به، لأن لستم أنتم المتكلمون بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" (متى 10 : 19 و 20). وإذ ينير روح الله عقول خدامه فحقه الثمين سيقدم في قوته الإلهية . والذين يقاومون الحق سيتقدمون لاتهام التلاميذ واضطهادهم . ولكن تحت طائلة الخسائر والآلام وحتى الموت

يجب على عبيد الرب أن يظهروا وداعة مثالهم الإلهي الأعلى . وهكذا يرى الفرق بين أعوان الشيطان ونواب المسيح . وسيرفع اسم المخلص أمام الولاة والشعب. [331] ولكن التلاميذ لم يزودوا بشجاعة الشهداء وجلدهم إلى أن جاء الوقت الذي صاروا فيه بحاجة إلى تلك النعمة. وحينئذ أنجز المخلص وعده لهم . فحين شهد بطرس ويوحنا أمام مجمع السنهدريم فان أولئك الرجال "تعجبوا فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع" (أعمال 4 : 13). وقد جاء هذا القول عن استفانوس: "فشخص إليه جميع الجالسين في المجمع ورأوا وجهه كأنه وجه ملاك"، "ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به" (أعمال 6 : 15 و 10). أما بولس فإذ يكتب عن محاكمته لدى بلاط القياصرة يقول: "في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني ... ولكن الرب وقف معي وقوّاني، لكي تتم بي الكرازة، ويسمع جميع الأمم، فأنقذت من فم الأسد" (2 تيموثاوس 4 : 16 و 17).

كنوز الحق

ولم يكن على خدام المسيح أن يعدوا خطبا ليتكلموا بها متى أُتي بهم للمحاكمة ولكن كان يجب عليهم أن يستعدوا يوما بعد يوم بكونهم يكتنزون حقائق كلمة الله الثمينة في عقولهم وقلوبهم ، وبالصلاة يتقوى إيمانهم. فعندما كان يؤتى بهم ليحاكموا كان الروح القدس يذكرهم بنفس الحقائق التي كانوا يحتاجون اليها.

إن المحاولة الجادة الغيورة التي تبذلها النفس كل يوم لمعرفة الله ويسوع المسيح الذي قد أرسله لا بد أن تمنح النفس قوة وكفاءة. وإن المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من فحصه للكتب بكل اجتهاد ستكون حاضرة في الذهن في الوقت المناسب . أما من قد أهملوا التعرف على أقوال المسيح ، فإنهم ما داموا لم يتذوقوا قوة نعمته في التجربة فلا ينتظروا أن يذكرهم الروح القدوس بكلام المسيح . كان يجب عليهم أن يخدموا الله ويعبدوه كل يوم بمحبة كاملة ومن ثم يثقون به.

إن العداء الذي يضمره العدو للإنجيل هو عداء مستحكم ومرير حتى أنه لن تراعى أرق الصلات الأرضية في تلك الحرب. فقد كان تلاميذ المسيح مزمعين أن يسلموا للموت بأيدي أفراد عائلاتهم . قال لهم السيد: "وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص" (مرقس 13 : 13). إلا أنه أمرهم بألا يعرضوا أنفسهم للاضطهاد من غير داع . إنه هو نفسه كان أحيانا كثيرة يترك حقلا من [332] حقول الخدمة ويذهب إلى حقل آخر لينجو بنفسه من شر من كانوا يريدون قتله . فعندما رفضه شعب الناصرة وحاول مواطنوه قتله نزل إلى كفرناحوم حيث بهت الناس من تعليمه ، لأن "كلامه كان بسلطان" (لوقا 4 : 32)، فعلى خدامه ألا يفشلوا أمام الاضطهاد، بل أن يبحثوا عن مكان آخر حيث يواصلون جهودهم لأجل خلاص النفوس.

تحذير من المساومة

إن التلميذ ليس أفضل من معلمه. فملك السماء قد دعي بعلزبول "رئيس الشياطين" وكذلك سيسيء الناس تصوير تلاميذه على هذا النسق . ولكن مهما يكن الخطر فعلى أتباع المسيح أن يصرحوا بمبادئهم وأن ينبذوا التستر والتخفي . إنهم لا يستطيعون أن يظلوا غير ملتزمين أو في غير مكلفين بالاعتراف بالحق حتى يضمنوا لأنفسهم النجاة . لقد أقيموا كرقباء ليحذروا الناس من خطرهم . وينبغي لهم أن يقدموا

مجانا وجهارا الحق الذي قد تسلموه من المسيح . لقد قال يسوع: "الذي أقوله لكم لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح" (متى 10 : 27).

إن يسوع نفسه لم يشتر السلام قط بالمساومة. لقد كان مفعم القلب حبا للجنس البشري كله ولكنه لم يتساهل قط مع خطايا الناس . كانت صداقته لهم عظيمة بحيث لم يستطع أن يظل صامتا في حين أنهم كانوا سائرين في طريق يؤدي إلى هلاك نفوسهم- تلك النفوس قد اشتراها بدمه . لقد اجتهد في أن يجعل كل إنسان أمينا لنفسه ولمصالحه الأبدية السامية. وخدام المسيح مدعوون للقيام بنفس هذا العمل ، وعليهم أن يحترسوا لئلا وهم يحاولون فض المنازعات يضحون بالحق . قال الرسول: "فلنعكف إذاً على ما هو للسلام" (رومية 14 : 19). ولكن السلام الحقيقي لا يمكن تحقيقه بتعريض المبادئ للمساومة . ولا يمكن أن إنسانا يكون أمينا للمبادئ الصالحة دون أن يثير على نفسه المقاومات . إن المسيحية الحقيقية لا بد من أن يقاومها أبناء المعصية . ولكن يسوع يقول لتلاميذه: "ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها" (متى 10 : 28). لا حاجة بمن هم أمناء لله أن يخافوا من بطش الناس أو عداوة الشيطان . إن سلامتهم الأبدية مكفولة في المسيح . ولكن الشيء الوحيد الذي عليهم أن يخافوه ويحذروا منه هو التضحية بالحق ، إذا فعلوا ذلك فإنهم يخونون الأمانة التي قد أكرمهم الرب بها. [333]

موضوع اهتمام السماء

إن عمل الشيطان هو أن يملأ قلوب الناس بالشكوك. فهو يوهمهم بأن الله ديان صارم . وهو يجربهم لأن يخطئوا ، وحينئذ يجعلهم يعتبرون أنفسهم في منتهى الشر والنذالة بحيث لا يمكنهم الاقتراب من أبيهم السماوي أو استدرار عطفه وحنانه . ولكن الرب يفهم كل هذا. ويسوع يؤكد لتلاميذه عطف الله عليهم في أعوازهم وضعفاتهم . إنه لا توجد آهة تخرج من قلب إنسان ولا ألم يحس به ولا حزن يصيب النفس إلا ويختلج له قلب الآب السماوي.

إن الكتاب يصور لنا الله في مقدسه العظيم المرتفع ، ليس كمن هو في حالة ركود أو سكون أو استغراق ، ولا كمن هو معتزل بنفسه بلا عمل ، ولكنه محاط بربوات ربوات من أجناد السماء القديسين الذين هم على أتم استعداد لتنفيذ إرادته. وعن طريق قنوات لا علم لنا بها هو على اتصال ناشط مع كل جزء من أجزاء ملكوته . ولكن في بقعة هذا الكوكب الصغير (الأرض) ، التي بذل ابنه الوحيد لكي يخلصها ، قد تركز اهتمامه واهتمام كل سكان السماء . إن الله ينحني من عرشه ليسمع أنين المظلومين . إنه يجيب على كل صلاة تقدم من قلب مخلص بقوله: ((هأنذا)) . إنه يرفع المكروبين والمنسحقين.

وفي كل ضيقنا يتضايق. وفي كل تجربة أو بلية ، ملاك حضرته قريب ليخلص.

وحتى العصفور الصغير لا يسقط إلى الأرض بدون علم الآب. إن عداوة الشيطان لله تجعله يبغض كل من هم موضوع رعاية المخلص . وهو يحاول إفساد عمل الله ، بل إنه يسر حتى بقتل الحيوانات العجم . إن العصافير محفوظة برعاية الله وحدها لكي تشنف آذاننا بألحانها المطربة إذ حفظها الله ويرعاها ، فهو لا ينسى حتى العصافير . "فلا تخافوا! أنتم أفضل من عصافير كثيرة!" (متى 10 : 31).

يعترف بمن يعترفون به

ويستطرد يسوع قائلا: كما تعترفون بي قدام الناس فسأعترف أنا بكم أمام الله والملائكة القديسين. إنكم ستكونون شهودي على الأرض وقنوات تجري فيها نعمتي [334] لأجل شفاء العالم. كذلك سأكون أنا نائبا عنكم وممثلا لكم في السماء . إن الآب لا ينظر إليكم في نقائصكم أو أخطائكم ولكنه يراكم وأنتم متسربلون بكمالاتي . إني أنا القناة التي فيها تنحدر بركات السماء إليكم . كل من يعترف بي بكونه يشاركني في التضحية لأجل الهالكين فسيعترف به كمن هو شريك في أمجاد المفديين وفرحهم.

ولكن يجب على من يعترف بالمسيح أن يكون ساكنا في قلبه. إنه لا يستطيع أن يقدم للناس شيئا لم يحصل هو عليه . يمكن للتلاميذ أن يتكلموا عن العقائد بكل طلاقة وأن يرددوا نفس أقوال المسيح ، ولكن ما لم يملكوا وداعة ومحبة كوداعة المسيح ومحبته فإنهم لا يعترفون به . إن الروح المضاد لروح المسيح قد ينكره مهما يكن اعترافه . وقد ينكر الناس المسيح بالطعن في حق الآخرين وبكلام الجهالة والكذب والقساوة . وقد ينكرونه برفض حمل أعباء الحياة وانتهاج طريق الملذات الآثمة . وقد يشكرونه بمشاكلة أهل العالم وبتصرفهم الخالي من العطف وبالإصرار على أفكارهم الخاصة وبتزكية أنفسهم واحتضان الشكوك والبحث عن المتاعب والسلوك في الظلمة . بكلى هذه الوسائل يعلنون أن المسيح ليس فيهم . ثم يقول: "ولكن من ينكرني قدّام الناس أنكره أنا أيضاً قدّام أبي الذي في السموات" (متى 10 : 33).

المقاومة واللطف

قال المخلص لتلاميذه ألا يؤملوا بأنه يمكن التغلب على عداوة العالم للإنجيل ، أو أن الناس سيكفون عن المقاومة بعد قليل ، فلقد قال: "ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً" (متى 10 : 34). إن وجود هذه الحرب واشتدادها ليس بسبب تأثير الإنجيل بل هو نتيجة مقاومته . ومن بين كل الاضطهادات نجد أن أقسى ما يمكن احتماله منها هو الانقسام في العائلة والنفور الذي يفرق بين أخلص الأصدقاء . ولكن يسوع يعلن قائلا: "من أحب أباً أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني" (متى 10 : 37 و 38).

إن مهمة خدام المسيح هي كرامة عظيمة وعهدة مقدسة. فالمسيح يقول: "من يقبلكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني" (متى 10 : 40). وكل عمل من أعمال الشفقة والمحبة يقدم لهم باسمه لا بد أن يكون له تقدير ومكافأة . وبنفس هذا التقدير الرقيق هو [335] يجمع أضعف الناس وأبسطهم إلى أسرة الله ، فيقول: "ومن سقى أحد هؤلاء الصغار" الذين يشبهون الأطفال في إيمانهم ومعرفتهم — "ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ، فالحق أقول لكم أنه لا يضيع أجره" (متى 10 : 42).

هكذا انتهى المسيح من إلقاء تعليماته ، وخرج الاثنا عشر الذين اختارهم للبشارة وهم يرددون في قلوبهم: "روح الرب علي .. لأبشر المساكين ... لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة" (لوقا 4 : 18 و 19).
[336]

الفصل الثامن والثلاثون—تعالوا استريحوا قليلاً

عند عودتهم من حملتهم التبشيرية " اجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكي شيء، كل ما فعلوه وكل ما عملوا. فقال لهم: تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء واستريحوا قليلاً. لأن القادمين والذاهبيت كانوا كثيرين، ولم تتيسّر لهم فرصة للأكل" (مرقس 6 : 30 و 31).

لقد أتى التلاميذ إلى يسوع وأخبروه بكل شيء. إن صلتهم الوثيقة به شجعتهم على أن يخبروه بكل اختباراتهم المشجعة وغير المشجعة ، وبفرحهم عندما كانوا يجدون نتائج حسنة ويجتنون ثمار جهودهم ، وحزنهم عندما كانوا يفشلون ، كما أخبروه بأخطائهم وضعفاتهم . لقد ارتكبوا أخطاء في بدء عملهم ككارزين . وإذ أخبروا المسيح باختباراتهم بكل صراحة رأى أنهم بحاجة إلى كثير من الإرشادات . وقد رأى أيضاً أنهم قد تعبوا في عملهم وأنهم بحاجة إلى الراحة.

ولكن المكان الذي كانوا فيه حينئذ لم يكن يصلح للخلوة التي كانوا ينشدونها. " لأن القادمين والذاهبين كانوا كثيرين، ولم تتيسّر لهم فرصة للأكل". كان الشعب يجتمعون حول يسوع مشتاقين إلى الشفاء وإلى سماع أقواله . وقد أحس كثيرون منهم بجاذبية تجذبهم إليه لأنه قد بدا لهم كنبع لكل البركات . وكثيرون ممن اجتمعوا حول المسيح لينالوا شفاء لأجسادهم قبلوه مخلصا لهم ، وكثيرون آخرون لخوفهم من الاعتراف به بسبب الفريسيين اهتدوا إلى الله عند حلول الروح القدس ، واعترفوا به كابن الله أمام الكهنة والرؤساء الغاضبين الناقمين.

"إلى موضع خلاء"

أما الآن فقد كان يسوع يتوق إلى خلوة يعتكف فيها مع تلاميذه لأنه كان لديه كثير ليقوله لهم. إنهم في عملهم اجتازوا في اختبار المصارعات وقد وجدوا مقاومة في [337] أشكال مختلفة. كانوا قبل ذلك يستشيرون المسيح في كل شيء ، ولكنهم ظلوا وحدهم بعض الوقت . وفي بعض الأحيان كان يعتريهم اضطراب عظيم إذ كانوا في حيرة من جهة ما يجب عليهم أن يفعلوه . وقد وجدوا تشجيعا كبيرا في عملهم لأن المسيح لم يرسلهم دون أن يزودهم بروحه ، وبالإيمان به صنعوا معجزات كثيرة . ولكنهم آنئذ كانوا بحاجة إلى أن يتغذوا بخبز الحياة . كانوا يحتاجون إلى الذهاب إلى موضع خلاء يعتكفون فيه ويتحدثون مع يسوع ليتقبلوا منه التوجيهات الخاصة بعملهم في مستقبل الأيام.

" تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء واستريحوا قليلاً". إن قلب المسيح مفعم بالعطف والإشفاق على كل الذين يخدمونه . لقد أراهم أن الله يريد رحمة لا ذبيحة . إنهم وضعوا كل قلوبهم في العمل لأجل الشعب وذلك أنهك قواهم العقلية والجسدية ، فكان الواجب يقضي بأن يستريحوا.

ولكن التلاميذ إذ رأوا أنهم أصابوا نجاحا في عملهم صاروا في خطر أن ينسبوا الفخر لأنفسهم ويبقوا

على الكبرياء الروحية في قلوبهم وهكذا يتعرضون لتجارب الشيطان. لقد كان أمامهم عمل عظيم . فعليهم أول كل شيء أن يعلموا أن قوتهم ليست في ذواتهم بل في الله . فكموسى في برية سيناء وكداود بين تلال اليهودية وكإيليا عند نهر كريت كان على التلاميذ أن ينعزلوا عن دائرة عملهم ونشاطهم ليتحدثوا مع المسيح ومع الطبيعة ومع قلوبهم.

تكاثف الظلال

فيما كان التلاميذ متغيبين في حملتهم الكرازية زار المسيح مدنا وقرى أخرى كارزا بإنجيل الملكوت. ونحو هذا الوقت وصله خبر موت المعمدان ، فأظهرت له هذه المأساة بكل جلاء النهاية التي كان هو سائرا إليها . كانت تتفاقم الظلمات وتتجمع حول طريقه ، فقد كان الكهنة والمعلمون يتحينون الفرص ليقضوا عليه بالموت ، وكان هنالك جواسيس يترصدون خطواته ، ومن كل جانب تجمعت القوات المتآمرة لإهلاكه . وقد بلغت مسمع هيرودس أنباء كرازة الرسل في كل أنحاء الجليل فثار اهتمامه بيسوع وبعمله . فقال [338] الملك: " هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات!" (متى 14 : 2). وكان يريد أن يرى يسوع . كان هيرودس يلازمه الخوف من أن تنشب ثورة في الخفاء يكون هدفها خلعه عن العرض و كسر نير الرومان عن أعناق الشعب اليهودي . كانت روح التذمر و الثورة متفشية بين الشعب. وقد بات واضحاً أن خدمات المسيح العلنية في الجليل لن يطول أمدها. و كانت مشاهد آلامه تدنو وتقترب ، ولهذا اشتاق إلى الاختلاء لبعض الوقت بعيداً عن ضجيج الجموع.

وبقلوب مثقلة بالحزن حمل تلاميذ يوحنا جثته ليدفنوها. " ثم أتوا وأخبروا يسوع" (متى 14: 13). لقد حسد هؤلاء التلاميذ المسيح حين تراءى لهم أنه يبعد الشعب عن يوحنا . وقد انحازوا إلى جانب الفريسيين في اتهامه عندما جلس مع العشارين والخطاة على مائدة متى ، وساورتهم الشكوك في كونه مرسلا من قبل الله لأنه لم يطلق سراح يوحنا المعمدان. أما الآن وقد مات معلمهم وكانوا يتوقون إلى السلوان والعزاء عن حزنهم العظيم وإلى النصح والإرشاد فيما يختص بعملهم مستقبلا فقد أتوا إلى يسوع و ربطوا مصالحهم بمصالحه . وقد كانوا هم أيضاً في حاجة إلى فترة هدوء ليتحدثوا مع المخلص .

وقت للتأمل

وبالقرب من بيت صيدا وفي نهاية البحيرة من الشمال كان إقليم خلاء. وكان في ذلك الوقت مزدانا بخضرة الربيع اليانعة فصار معتكفا مناسبا ليسوع وتلاميذه . فانطلقوا إلى ذلك المكان وركبوا سفينته ليعبروا البحيرة . ففي ذلك المكان سيكونون بعيدين عن الطريق العام وعن ضجة المدن وضوضائها المثيرة ، كما كانت مناظر الطبيعة في ذاتها مصدر راحة لهم . فتغيير المناظر يبهج الحواس . وفي هذا المكان كان يمكنهم أن يصغوا إلى أقوال يسوع دون أن يقاطعهم أحد أو يسمعوا الكلام القاسي أو رد الإهانات والاتهامات من أفواه الكتبة والفريسيين . هنا يمكنهم أن يتمتعوا بفرصة ثمينة في صحبة سيدهم.

إن فرصة الراحة التي تمتع بها المسيح وتلاميذه لم تكن راحة استرخاء أو تكاسل ، فوقت الاختلاء ذاك لم يكرسوه للملذات السارة ولكنهم تحادثوا عن عمل الله وإمكانية الحصول على كفاءات أعظم للعمل. كان التلاميذ مع المسيح ولذلك أمكنهم أن يفهموه ، [339] ولم تكن ثمة حاجة لأن يكلمهم بأمثال ، فصحح

أخطاءهم وأوضح لهم الطريق الصائب للاقتراب من الشعب ، وكشف لهم عن كنوز الحق الإلهي الغنية بأكثر وضوح ، فانتعشوا ونالوا حياة بقوة الله وألهموا بالرجاء والشجاعة.

ومع أن يسوع كان يستطيع أن يجري المعجزات وقد زود تلاميذه بنفس تلك القوة فقد أشار على خدامه المتعبين أولئك أن يمضوا إلى موضع خلاء ليستريحوا. وحين قال لهم أن الحصاد كثير والفعلة قليلون لم يلزم تلاميذه بضرورة العمل في الخدمة بدون توقف بل قال لهم: "اطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعله إلى حصاده" (متى 9 : 38). لقد عين الله لكل إنسان عمله حسب إمكانياته (أفسس 4 : 11 — 13). وهو لا يريد أن تضطلع جماعة قليلة بمسئوليات جسام في حين أن الآخرين لا يحملون أثقالا ولا يتمخضون لتولد نفوس.

الحاجة إلى الصلاة

هذا ، وإن المسيح يوجه نفس كلام الرفق والحنان إلى خدامه اليوم تماما كما قد وجهه إلى تلاميذه. فهو يقول لكل المنهوكين والمتعبين . " تعالوا أنتم منفردين .. واستريحوا". ليس من الحكمة أن يكون الإنسان دائما تحت إجهاد العمل وضغطه المثير حتى وهو يخدم حاجات الناس الروحية ، لأن الخادم في هذه الحالة يهمل التقوى الشخصية ويحل الإرهاق الشديد بقوى العقل والنفس والجسد . نعم إنه يطلب من تلاميذ المسيح أن ينكروا ذواتهم ولابد لهم من أن يضحوا بأشياء ، إنما يجب الحذر لئلا بسبب الغيرة الزائدة عن الحد يستفيد الشيطان من ضعف البشرية فيشوه عمل الله أو يتعطل.

وفي تقدير معلمي اليهود كانت خلاصة الدين أن يعيش الإنسان في غمرة ضجيج النشاط والعمل. وكانوا يعتمدون على بعض الممارسات الخارجية للإعلان عن تقواهم الممتازة . وهكذا فصلوا أرواحهم عن الله واتكلوا على الكفاية الذاتية . ولا تزال نفس تلك المخاطر باقية . فإذ يزيد نشاط الناس وينجحون في أي عمل يقومون به لله فهناك يكمن خطر الإركان إلى الخطط والوسائل البشرية . والإنسان في هذه الحالة يقلل من الصلاة والإيمان. فنحن كالتلاميذ معرضون لخطر إغفال الاستناد على الله والسعي في جعل نشاطنا مخلِّصا لنا . إننا بحاجة دائمة للنظر إلى يسوع موقنين بأن قوته هي التي تنجز [340]

العمل. ففي حين أنه ينبغي لنا أن نكد ونتعب بكل غيرة لأجل خلاص الهالكين علينا أيضاً أن نقضي وقتا في التفكير والتأمل والصلاة ودرس كلمة الله . إن العمل الذي يتم بقوة الصلاة الحارة بدون ملل ، والذي يتقدس باستحقاق المسيح هو وحده الذي يتبرهن في النهاية أنه فعال للخير.

إنه لم تكن هنالك حياة مزدحمة بالأعمال والمسئوليات كما كانت حياة يسوع ، ومع ذلك فما أكثر المرات التي وجد فيها وهو يصلي! وكم كانت شركته مع الله متصلة ودائمة! ومرارا عديدة في تاريخ حياته الأرضية نجد مثل هذه الشهادات "وفي الصباح الباكر جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يصلّي هناك". " فاجتمع جموع كثيرة لكي يسمعوا ويشفوا به من أمراضهم. وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلي"، "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلّي. وقضى الليل كلّه في الصلاة لله" (مرقس 1 : 35 ؛ لوقا 5 : 15و 16 ؛ 6 : 12).

إن المخلص في حياته التي كرسها بجملتها لخير الآخرين وجد أنه من الضروري له أن يعتزل بعيدا عن ضجة العالم وضوضائه ، وبعيدا عن الجموع التي كانت تتبعه يوما بعد يوم ، رأى أنه يجب عليه أن يتنحى عن حياة النشاط الذي لا ينقطع والاتصال بالناس المحتاجين ليطلب مكانا يعتكف فيه ليتحدث مع الآب حديثا متصلا. وكواحد منا يشاطرنا حاجاتنا وضعفاتنا كان معتمدا بالتمام على الله ، وفي مخدع

الصلاة كان يطلب قوة الله لكي يتشدد في القيام بواجباته ويصمد أمام التجارب . وفي عالم الإثم هذا احتمل يسوع المصارعات والعذاب النفسي . وفي حديثه مع الآب كان يطرح عن كاهله الهموم والأحزان التي كادت تسحقه . وهنا كان يجد العزاء والفرح.

القوة تأتينا من الله

وعن طريق المسيح وصلت صرخات البشرية إلى الآب الكلي الرأفة. فكإنسان جعل يتوسل أمام عرش الله حتى سرى في جسم بشريته تيار سماوي ليوصل ويربط بين البشرية والألوهية ، وبواسطة الحديث المستمر مع الله أخذ منه حياة ليمنحها للعالم . فيجب أن يكون اختباره اختبارنا.

إنه يأمرنا قائلا: "تعالوا أنتم منفردين" فإذا انتبهنا إلى كلامه فسننال قوة أعظم ونصبح [341] أكثر نفعا. لقد طلب التلاميذ يسوع وأخبروه بكل شيء ، فشجعهم وعلمهم . فإذا كنا اليوم نقضي وقتا فيه نذهب إلى يسوع ونخبره بحاجاتنا فلن يخيب رجاءنا بل سيكون عن يميننا ليعيننا.

إننا بحاجة إلى مزيد من البساطة والاتكال والثقة بمخلصنا ، هذا المخلص المدعو " إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام" والمكتوب عنه " وتكون الرياسة على كتفه" هو ذلك المشير العجيب الذي يدعونا لنطلب الحكمة منه لأنه " يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر، فسيعطي له" (إشعياء 9 : 6 ؛ يعقوب 1 : 5).

إن كل من هم تحت تدريب الله تظهر فيهم حياة لا تنسجم مع العالم أو عاداته أو أعماله. وكل واحد بحاجة إلى أن يكون عنده اختبار شخصي بمعرفة إرادة الله . فعلى كل منا أن يسمع صوته يهمس في قلبه . وعندما يصمت كل صوت آخر ونمثل أمام الرب في خشوع وصمت فإن صمت النفس يجعل صوت الله أكثر وضوحا . إنه يقول لنا: "كفوا واعلموا أني أنا الله" (مزمور 46 : 10). هنا فقط يمكن الحصول على الراحة الحقيقية . وهذا هو الإعداد الفعال لكل من يخدمون الله . ففي وسط الجموع المسرعة في سيرها ، وفي وسط الإجهاد العظيم الواقع على قوى الإنسان فالنفس التي تحصل على مثل هذا الانتعاش ستكون محاطة بجو كله نور وسلام . وسيصعد من النفس عبير زكي منعش وتعلن قوة الله التي تصل إلى قلوب الناس . [342]

الفصل التاسع والثلاثون—— "أعطوهم أنتم ليأكلوا"

كان المسيح قد ذهب مع تلاميذه إلى مكان خلاء ليعتكفوا ، ولكن فرصة الهدوء هذه سرعان ما انقضت. ظن التلاميذ أنهم في مكان لا يمكن لأحد أن يعرفه . ولكن ما إن أحست الجموع بغياب المعلم الإلهي حتى تساءلوا قائلين: "أين ذاك؟" وقد عرف بعضهم الجهة التي انطلق إليها المسيح وتلاميذه ، فذهب كثيرون إلى هناك مشاة ، بينما ركب غيرهم السفن وعبروا بها البحيرة ليصلوا إليهم . وكان عيد الفصح قريبا ، فجاءت جموع المعيدين من قرب ومن بعد في طريقهم إلى أورشليم واجتمعوا حول يسوع . ثم تقاطرت إلى هناك جموع أخرى حتى بلغ عددهم خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد . فقبلما وصل يسوع إلى الشاطئ كان جمع غفير من الناس في انتظاره . ولكنه نزل من السفينة دون أن يلاحظوه فقضى بعض الوقت مع تلاميذه منفردين.

ومن جانب الجبل تطلع يسوع إلى ذلك الجمع القادم إليه فامتلأ قلبه عطفا وحنانا عليهم. ومع أنه قوطع وضاعت عليه فرصة الراحة فإنه لم يتضجر أو يتململ . إذ رأى ضرورة أعظم تتطلب اهتمامه ، وعندما كان الناس يأتون إليه زرافات تحنّن عليهم "إذ كانوا كخراف لا راعي لها" (مرقس 6 : 34). وحين ترك معتكفه وجد مكانا ملائما فيه يمكنه أن يخدمهم . إنهم لم يحصلوا على أي عون من الكهنة أو الرؤساء ولكن مياه الحياة الشافية فاضت من قلب المسيح وهو يعلم ذلك الجمع طريق الخلاص.

أصغى الناس إلى كلام الرحمة الذي كان يفيض بغزارة من بين شفتي ابن الله ، واستمعوا إلى كلام النعمة الذي كان غاية في البساطة والوضوح ، فكان كبلسان جلعاد لنفوسهم. إن لمسة يده الإلهية الشافية جاءت بالبهجة والحياة لمن كانوا يحتضرون ، وبالراحة والصحة لمن كانت تعذبهم أمراضهم ، فكان يومهم كأيام السماء على الأرض ، [343] إذ لم يشعروا البتة بمرور الوقت منذ أن أكلوا آخر وجبة.

سمكتان وأرغفة شعير

كان معظم النهار قد انقضى وأوشكت الشمس على الأفول ، ومع ذلك لم يترك الناس أماكنهم ، فظل يسوع يتعب ويخدم كل النهار دون أن يستريح أو يتناول طعاما. كان شاحب الوجه من فرط الإعياء والجوع فالتمس منه التلاميذ أن يكف عن العمل . ولكنه لم يستطع الانسحاب من وسط ذلك الجمع الذي كان يزحمه.

أخيرا جاء التلاميذ إليه يلحون عليه أن يصرف الجموع رحمة بهم ، إذ كان كثيرون منهم قد أتوا من بعيد ولم يتناولوا أي طعام منذ الصباح. فيمكنهم أن يبتاعوا طعاما من المدن والقرى المجاورة . ولكن يسوع قال لهم: "أعطوهم أنتم ليأكلوا؟" (مرقس 6 : 37). وإذ التفت إلى فيلبس سأله قائلا: "من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟" (يوحنا 6 : 5). قال يسوع هذا ليمتحن إيمان ذلك التلميذ . فنظر فيلبس إلى ذلك البحر

الزاخر من الناس وقدر أنه من المستحيل تدبير طعام يكفي لإشباع تلك الجموع الغفيرة . فأجاب قائلا إنه لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل منهم شيئا يسيراً . فسأل يسوع كم من الخبز يمكن الحصول عليه من ذلك الجمع . فأجاب أندراوس قائلا: "هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟" (يوحنا 6 : 9). فأمر يسوع بأن يحضروها إليه وطلب من تلاميذه أن يجلسوا الناس رفاقا رفاقا على العشب الأخضر مئة مئة وخمسين خمسين حفاظا للنظام وليرى الجميع ما هو مزمع أن يصنع . فلما تم هذا واستتب النظام أخذ يسوع الأرغفة والسمكتين "رفع نظره نحو السماء وبارك وكسّر وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع" "فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشر قفة مملوّة، ومن السمك" (لوقا 9 : 16 ؛ مرقس 6 : 42، 43).

درس في البساطة

إن ذاك الذي قد علم الشعب طريق الحصول على السلام والسعادة كان مهتما نفس الاهتمام بحاجاتهم الزمنية قدر اهتمامه بحاجاتهم الروحية. كان الناس متعبين ومعيين . [344] كانت توجد أمهات يحملن أطفالهن على أذرعهن وأولاد صغار يتعلقون بأذيالهن. وقد ظل البعض واقفين على أقدامهم ساعات طويلة . وكانوا متلهفين لسماع أقوال المسيح فلم يفكروا قط في الجلوس . كان الجمع غفيرا حتى لقد كان يخشى لئلا يدوسوا بعضهم بعضا ، لهذا أراد يسوع أن يعطيهم فترة راحة فأمرهم بالجلوس . وكان تحت أقدامهم بساط كثيف من العشب الأخضر فكان يمكن للجميع أن يجلسوا ويستريحوا

إن المسيح لم يصنع قط معجزة إلا ليسد حاجة حقيقية. فكانت كل معجزة من شأنها أن ترشد الشعب إلى شجرة الحياة التي ورقها لشفاء الأمم . إن ذلك الطعام البسيط الذي قدمه التلاميذ للشعب الجائع كانت فيه كنوز غنية بالتعاليم . فذلك الطعام الذي أمكن تقديمه للشعب كان طعاما متواضعا ، حيث كان السمك وأرغفة الشعير هى الطعام اليومي الذي اعتاد جماعة الصيادين الساكنين بالقرب من بحر الجليل أن يتناولوه . لقد كان المسيح قادرا على أن يقدم للشعب طعاما فخما دسما ، ولكن مثل ذلك الطعام الذي كان الغرض منه التلذذ وإشباع النهم ما كان ليحمل دروسا نافعة ، علمهم المسيح في هذا الدرس أن المؤونة الطبيعية التي أعدها الله للناس قد فسدت . والناس لم يتلذذوا قط بالولائم الفخمة المعدة لإشباع الذوق الذي فسد بقدر ما تمتع هذا الشعب بالراحة والطعام البسيط الذي أعده المسيح في ذلك المكان المنقطع البعيد عن العمران .

لو كان الناسِ في هذه الأيام يمشون بالبساطة وفي حالة انسجام مع قوانين الطبيعة كما كان آدم وحواء في فجر التاريخ لَوجِد الكثير من المؤونة لسد حاجة الأسرة البشرية ، ولقلت المطاليب الوهمية ، وتوفرت فرص أخرى للعمل بالطرق المعينة من الله. ولكن الأنانية والانغماس في اللذائذ غير الطبيعية ، كل ذلك جلب على العالم الخطية والشقاء بسبب الإفراط من الجانب الواحد والعوز والفاقة من الجانب الآخر .

لم يكن يسوع يريد أن يجتذب الناس إليه بإشباع شوقهم إلى الرفاهية والتنعم. كذلك الطعام البسيط الذي قدمه لذلك الجمع العظيم المتعب الجائع بعد يوم طويل مثير ، كان برهانا لا على قدرته فحسب بل على رعايته الرقيقة في احتياجات الحياة اليومية . إن المخلص لم يمد تابعيه بتنعمات العالم فقد يكون نصيبهم بسيطا وشحيحا وقد يكون نصيبهم الفقر . ولكن كلمته كانت عهدا أخذه على نفسه بأنه سيسد احتياجهم بل لقد وعدهم بما هو [345] أفضل جدا من كل البركات الدنيوية- وعدهم بالتعزية المرجوة من حضوره معهم.

مصدر كل الأشياء

إن يسوع بإشباعه الخمسة الآلاف يرفع الستار عن عالم الطبيعة ويكشف عن القوة التي يستخدمها أبدا لخيرنا. وإن الله إذ يجعل الأرض تعطي قوتها وثمارها الوفيرة للإنسان يصنع كل يوم معجزة . وعن طريق العوامل الطبيعية تتم نفس المعجزة التي أجريت عند إشباع الجماهير . الناس يعدون الأرض ويبذرون البذار ، ولكن الحياة التي مصدرها الله هي التي تجعل البذار ينبت . فالمطر والهواء والشمس بنورها وحرارتها ، وكلها مرسلة من الله ، تجعل النبات يطلع ، "أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحاً ملآن في السنبل" (مرقس 4 : 28). إن الله هو الذي في كل يوم يشبع ملايين الناس من محاصيل الحقول . والمطلوب من الناس هو أن يتعاونوا مع الله في رعاية الحبوب وإعداد رغيف الخبز ، ولأجل هذا ينسون يد الله العاملة في كل ذلك . إنهم لا يعطون الله المجد الذي يستحقه اسمه القدوس . إنهم ينسبون عمل قوته إلى عوامل طبيعية أو إلى الإنسان نفسه ، فالمجد يعطى للإنسان لا لله ، والناس يفسدون هبات الله إذ يستخدمونها لغايات أنانية وبذلك تصير لعنة بدل كونها بركة . ولكن الله مهتم بتغيير ذلك كله . إنه يرغب في أن تتنبه حواسنا البليدة لتميز شفقته ورحمته وتمجده لأجل عمل قدرته . إنه يرغب في أن نعرفه عن طريق عطاياه حتى تكون بركة لنا كما قد قصد هو . فلأجل تحقيق هذا الغرض أجرى المسيح معجزاته .

بعدما شبعت الجموع بقيت كمية من الطعام. ولكن ذاك الذي كل مصادر القوة غير المحدودة تحت أمرته قال: "اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء" (يوحنا 6 : 12). كان يسوع يعني بهذا القول شيئا أكثر من مجرد وضع الكسر في السلال . لقد كان الدرس يعني أمرين . ينبغي ألا يضيع شيء وعلينا ألا نفلت من أيدينا أي ربح زمني . ويجب ألا نهمل شيئا يمكن أن يكون فيه نفع لأي إنسان . يجب أن نجمع كل ما يمكن أن يسد احتياج الجائعين من بني الإنسان . ثم ينبغي أن يكون عندنا نفس هذا الحرص بالنسبة إلى البركات الروحية . عندما جمعت الكسر فكر الناس في أصدقائهم الذين في بيوتهم ، فأرادوا أن يشركوهم معهم [346] في التناول من الخبز الذي قد باركة المسيح. وقد وزعت تلك الكسر على ذلك الجمع المشتاق فحملوها إلى كل ذلك الإقليم . فكان على من قد أكلوا وشبعوا من تلك الوليمة أن يعطوا للآخرين من ذلك الخبز النازل من السماء لإشباع نفوسهم الجائعة . كما كان عليهم أن يرددوا ما قد تعلموه من عظائم الله ، فكان ينبغي ألا يضيع شيء ، وألا تسقط كلمة واحدة مما يتعلق بخلاصهم الأبدي إلى الأرض بلا فائدة .

مواعيد بالإنقاذ

إن معجزة الأرغفة تعلمنا درس الاعتماد على الله . عندما أشبع المسيح الخمسة الآلاف لم يكن الطعام في متناول اليد . وحسب الظاهر لم تكن هنالك أية وسيلة طوع أمره . لقد كان هو ومعه الخمسة الآلاف عدا النساء والأولاد في البرية . إنه لم يدع كل ذلك الجمع ليتبعه ، ولكنهم أتوا من تلقاء أنفسهم دون دعوة أو أوامر ، ولكنه كان يعلم أنهم بعدما استمعوا لتعاليمه طول تلك المدد كانوا يحسون بالجوع والإعياء ، لأنه كان مثلهم يحس بالجوع . وكانوا بعيدين عن بيوتهم وكان الليل مقبلا عليهم . وكثيرون منهم لم يكن لديهم ما يشترون به طعاما . إن ذاك الذي لأجلهم صام أربعين يوما في البرية لم يسمح بعودتهم إلى بيوتهم صائمين . فسمحت إرادة الله وعنايته أن يكون يسوع حيث كان ، واعتمد هو على أبيه السماوي ليدبر لهم ما يسد تلك الحاجة.

ونحن عندما نقع في أي مأزق علينا بالاعتماد على الله ، علينا أن نتصرف بحكمة وروية في كل عمل من أعمال الحياة لئلا بتصرفاتنا الطائشة نوقع أنفسنا في المحن والتجارب. علينا ألا نوقع أنفسنا في الصعوبات بإهمالنا للوسائط التي قد أعدها الله أو بإساءة استعمال القوى والمواهب المعطاة لنا . على خدام المسيح أن يطيعوا إرشاداته بكل دقة . إن العمل هو عمل الله فإذا أردنا أن نبارك الآخرين علينا باتباع كل تعليماته . علينا ألا نركز كل شيء في الذات ، فالذات لن تنال أية كرامة . وإذا كنا نرسم خططنا كما يخطر لنا فالرب يتركنا لنحصد ثمار أخطائنا . ولكن إذا كنا نقع في مأزق بعدما اتبعنا تعليمات الرب فإنه يخلصنا . علينا ألا نستسلم لليأس ، ولكن في كل مأزق أو طارئ لنطلب العون من ذاك الذي تحت يده موارد لا تنفد ولا تنضب . إننا في كثير من الأحيان [347] نحاط بظروف مغيظة ومثيرة وقاسية ، فعلينا حينئذ أن نعتمد على الله بكل ثقة. إنه يحفظ كل نفس يكتنفها الارتباك بسبب اجتهادها في حفظ طريق الرب.

بركات العطاء والإحسان

يوصي المسيح بأن " تكسر للجائع خبزك" وتشبع" النفس الذليلة" و "إذا رأيت عرياناً أن تكسوه" و "أن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك" (إشعياء 58 : 7 — 10). وهو يقول أيضاً: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" (مرقس 16 : 15). ولكن كم مرة تغوص قلوبنا في أعماقنا ويخذلنا إيماننا عندما نرى ضآلة الموارد التي بين أيدينا في مواجهة حاجة العالم العظيمة الهائلة . إننا نصرخ مع أندراوس عندما رأى خمسة الأرغفة والسمكتين قائلين: "ما هذا لمثل هؤلاء؟" كثيرا ما نتردد ونحن غير راغبين في تقديم كل ما نملك ونخشى أن ننفق ونُنَفق لأجل الآخرين . ولكن يسوع يأمرنا قائلا: "أعطوهم أنتم ليأكلوا". إن أمره هو وعد ، وخلف الوعد توجد تلك القوة التي أشبعت ذلك الجمع بجانب البحر.

إن عمل المسيح في سد حاجة ذلك الجمع الجائع إلى الخبز ينطوي على درس روحي عميق لكل العاملين معه . لقد أخذ المسيح من الآب وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ قدموا للجموع ، والجموع كانوا يعطون بعضهم بعضا . كذلك كل من هم متحدون بالمسيح يأخذون منه خبز الحياة ثم يقدمون هذا الخبز السماوي للآخرين.

وإذ كان يسوع معتمدا على الآب اعتمادا كاملا أخذ الأرغفة القليلة ، ومع أنها لم تكن كافية لسد حاجة التلاميذ أنفسهم فلم يدعهم ليأكلوا بل بعدما أعطاهم الخبز أمرهم بأن يوزعوه على الشعب. وقد تكاثر الخبز وتبارك بين يديه . وأيدي التلاميذ التي مدوها إليه الذي هو خبز الحياة لم ترجع فارغة قط . لقد كان ذلك القليل كافيا لإشباع الجميع . وبعدما شبع ذلك الجمع كله جمعت الكسر الفاضلة فأكل المسيح وتلاميذه معا من ذلك الطعام الثمين المرسل لهم من السماء.

عاملون مع الله

كان التلاميذ هم قنوات الاتصال بين المسيح والشعب. وهذا ينبغي أن يكون مشجعا [348] عظيما لتلاميذه في هذه الأيام. إن المسيح هو مركز الدائرة العظيم ونبع كل قوة . وعلى تلاميذه أن يتناولوا كل احتياجاتهم منه . إن أعظم الناس ذكاء ونبوغا وروحانية يمكنهم أن يعطوا بقدر ما يأخذون فقط . إنهم من ذواتهم لا يستطيعون أن يسدوا حاجات النفس . ونحن يمكننا أن نوزع على الآخرين ما نأخذه فقط من

المسيح . ونحن نأخذ بقدر ما نعطي للآخرين . وطالما نحن نوزع فإننا نأخذ . وكلما وزعنا أكثر أخذنا أكثر . وهكذا يمكننا باستمرار أن نؤمن ونثق ونأخذ ونعطي.

إن عمل بناء ملكوت المسيح سيتقدم إلى الأمام وإن تكن الظواهر كلها تدل على أنه يتحرك ببطء ، والمستحيلات تعيق تقدمه. إن العمل هو من الله فهو سيدبر الوسائل وسيرسل مساعدين من التلاميذ الأمناء الغيورين الذين ستمتلئ أيديهم بالخبز هم أيضاً ليقدموه للجموع الجائعة . والله ليس بغافل عن أولئك الذين يتعبون في محبة ليقدموا كلمة الحياة للنفوس الهالكة التي هي بدورها تمد أيديها في طلب الطعام لنفوس أخرى جائعة.

في خدمتنا لله خطر منشأه الاعتماد أكثر من اللازم على ما يستطيع الإنسان أن يفعله بكل قواه ومواهبه. وهكذا يغيب عن عقولنا السيد الذى هو العامل الأوحد . في غالب الأحيان لا يتحقق العامل لأجل المسيح من مسؤوليته الشخصية ، فيكون في خطر التحايل بالاعتماد على التنظيمات بدلا من الاعتماد على ذاك الذي هو نبع كل قوة . ففي عمل الله يكون الاعتماد على الحكمة البشرية أو كثرة العدد خطأ جسيما . إن العمل الناجح للمسيح لا يتوقف على كثرة العدد أو المواهب قدر ما يستند على خلوص النية واستقامة الغرض والبساطة الحقة في الإيمان المليء بالثقة . فينبغي تحمل المسئوليات الشخصية والقيام بالواجبات ، وبذل الجهود لمن لا يعرفون المسيح . فبدلا من إلقاء التبعة على إنسان آخر تظن أنه موهوب أكثر منك ، اعمل بقدر ما تستطيع.

التقدم بإيمان

وعندما يخطر لقلبك هذا السؤال: "من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟" فلا يكون جوابك دليلاً على عدم الإيمان. إن التلاميذ عندما سمعوا المخلص يأمرهم قائلا: "أعطوهم أنتم ليأكلوا"، ثارت في عقولهم شتى الصعوبات . فجعلوا يتساءلون قائلين: "أنذهب إلى القرى [349] لنشتري طعاماً؟" وكذلك الحال اليوم عندما يكون الناس محرومين من خبز الحياة يتساءل أولاد الله قائلين: " أنرسل في طلب إنسان من مكان بعيد لكي يأتي ويطعمهم؟" ولكن ماذا قال يسوع؟ قال "اجعلوا الناس يتكئون" ثم أشبعهم هناك . وهكذا أنت عندما تكون محاطا بنفوس محتاجة اعلم أن المسيح هناك . فتحدث معه ، ثم ضع أرغفة الشعير التي معك بين يدي يسوع.

قد تبدو الوسائل التي في حوزتنا غير كافية للعمل. ولكن إذا تقدمنا إلى الأمام بإيمان متكلين على قوة الله الكافية لسد كل حاجة فستنفتح أمامنا ينابيع غنية وفياضة . فإذا كان العمل عمل الله فهو بنفسه سيدبر الوسائل لإنجازه . إنه سيكافئ من يتكلون عليه بالأمانة والبساطة . إن القليل الذي يستعمل بحكمة وحرص في خدمة رب السماء سيزيد ويتبارك عند توزيعه . وإن القليل من الطعام الذي كان في يد المسيح بقي كاملا لم ينقص منه شيء حتى شبع كل ذلك الشعب الجائع . فإذا كنا نذهب إلى مصدر القوة ونمد يد الإيمان منتظرين أن نأخذ ما يسد الحاجة فسنجد معاضدة في عملنا حتى في أقسى الظروف ، وسنكون قادرين على تقديم خبز الحياة للآخرين.

يقول الرب: " اعطوا تعطوا" ، "من يزرع بالشح فبالشح أيضاً يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضاً يحصد .. والله قادر أن يزيدكم كل نعمة، لكي تكونوا ولكم كل إكتفاء كل حين في كل شيء، تزدادون في كل عمل صالح. كما هو مكتوب: فرّق، أعطى المساكين. برّه يبقى إلى الأبد" (لوقا 6 : 38 ؛ 2 كورنثوس 9 : 6 — 11). [350]

الفصل الأربعون ـــــ ليلة هائلة في البحيرة

إن الشعب إذ كانوا جالسين على العشب الأخضر في ذلك السهل في نور الغسق في فصل الربيع ، أكلوا من الطعام الذي هيأه لهم المسيح. وتلك الأقوال التي سمعوها في ذلك اليوم جاءتهم كصوت الله . ومعجزات الشفاء التي شاهدوها لم يكن يمكن إجراؤها بغير قوة الله . ولكن معجزة الأرغفة تأثر بها كل فرد في ذلك الجمع الغفير إذ كان لكل منهم نصيب في بركاتها . في أيام موسى أطعم الله العبرانيين المن في البرية ، فمن هو هذا الذى أطعمهم في ذلك اليوم إلا أن يكون هو ذاك الذي سبق موسى فتنبأ عنه؟ لم يكن يمكن أن قوة بشرية تخلق من خمسة أرغفة شعير وسمكتين صغيرتين طعاما يكفي لإشباع آلاف من الناس الجياع . وقد قال الواحد للآخر . "إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم!" (يوحنا 6 : 14).

لقد زاد اقتناعهم طوال ذلك اليوم ، لأن ذلك العمل الذي أجراه في نهاية اليوم يدل دلالة أكيدة على أن المحرر الذي طال انتظارهم له هو في وسطهم ، فانتعشت آمال الشعب وتعاظمت. هذا هو الذي سيجعل اليهودية فردوسا أرضيا ، أرضا تفيض لبنا وعسلا . إنه يستطيع أن يشبع كل رغبة ويحقق كل أمل ويسحق ويحطم سلطان روما الكريه . هو قادر على تخليص يهوذا وأورشليم ، ويستطيع أن يبرئ جروح الجنود الذين يجرحون في ساحات القتال ، ويزود جيوشا بكاملها بالطعام . ويقهر الأمم ويعيد إلى شعب الله السلطان الذي ظلوا ينتظرونه طويلا.

وإذ امتلأت القلوب حماسة كانوا على أتم استعداد لأن يتوجوه ملكا في الحال. إنهم يرون أنه لا يبذل أي مسعى لكي يسترعي انتباه الناس إليه ولا يحاول أن يحرز لنفسه مجدا أو كرامة . وهو في هذا يختلف اختلافا جوهريا عن الكهنة والرؤساء ، ولذلك هم يخشون من أنه لن يطالب بحقه في عرش داود . وإذ يتشاورون معا تتفق كلمتهم على أن يأخذوه قسرا وينادوا به ملكا على إسرائيل . وهوذا التلاميذ يتحدون مع الشعب في الجهر [351]

بأن عرش داود هو الإرث الشرعي لمعلمهم. ثم قالوا إن وداعة المسيح هي التي تجعله يرفض مثل هذا الشرف . فليعظم الشعب مخلصهم ويمجدوه ، وليرغم الكهنة والرؤساء المتغطرسون على إكرام ذاك الذي أتى متسربلا بسلطان الله.

مطامح تفشل

وبكل لهفة وشوق يحزمون أمرهم على تنفيذ مأربهم ، ولكن يسوع يعرف ما يجري حوله ، ويدرك ، كما لم يستطيعوا هم أن يدركوا ، ماذا ستكون عواقب تلك الحركة .فحتى الآن يحاول الكهنة والرؤساء أن يصطادوه لكي يهلكوه. إنهم يتهمونه بأنه يحاول إقصاء الناس عنهم . إن محاولة إجلاسه على العرش ستتبعها حتما ثورة وأعمال عنف وقسوة . وحينئذ يتعطل ويتوقف عمل الملكوت الروحي . لذلك وجب أن

تقمع هذه الحركة في المهد ، فدعا يسوع تلاميذه وأمرهم بالنزول في السفينة والإقلاع إلى كفرناحوم في الحال وأن يتركوه هو حتى يصرف الجموع.

لم يسبق للمسيح أن أصدر لتلاميذه أمرا ورأوا استحالة تنفيذه كما في هذه المرة. لقد ظل التلاميذ طويلا يأملون حدوث حركة عامة لتنصيب يسوع على العرش ، ولم يستطيعوا الآن احتمال فكرة كون كل هذه الحماسة تصير إلى العبث ولا تجدي فتيلا . والجموع الذين اجتمعوا لممارسة عيد الفصح كانوا يتوقون لرؤية النبي الجديد . وقد ظهر لأتباع المسيح أن تلك كانت الفرصة الذهبية لتثبيت معلمهم المحبوب على عرش إسرائيل. وفي اهتياج هذا الطموح الجديد كان من الصعب عليهم أن يذهبوا وحدهم تاركين يسوع وحيدا على ذلك الشاطئ الموحش . فاحتجوا على هذا الإجراء ، ولكن يسوع تكلم الآن بسلطان لم يسبق له أن خاطبهم به . وقد عرفوا أن أي اعتراض من جانبهم بعد ذلك سيكون بلا جدوى فاتجهوا إلى البحر وهم صامتون.

وها هو يسوع الآن يأمر تلك الجموع بالانصراف. كانت طريقته في الكلام حاسمة بحيث لم يجرؤ أحدهم على العصيان . فجمدت على أفواههم كلمات الثناء والمديح . وفيما كانوا يهمون بأخذه عنوة جمدوا في أماكنهم وغاضت نظرات الفرح والشوق من وجوههم. لقد كان بين ذلك الجمع رجال ذوو عقول جبارة وعزم لا يفل ، ولكن هيئة يسوع الملكية [352] وأمره الهادئ الذي نطق به في كلمات قليلة أخمد الضوضاء الحاصلة ، وأبطل ما كانوا ينوون أن يعملوه. وهاهم يرون فيه الآن قوة تفوق كل سلطان أرضي فينصرفون بدون سؤال.

ينفرد ليصلي

ولما تُرك يسوع وحده: "صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي" (متى 14: 23). ولقد استمر ساعات طويلة يصلي إلى الله . ولم يكن يصلي لأجل نفسه بل لأجل الناس . فصلى طالبا قوة بها يعلن للناس الصفة الإلهية لرسالته حتى لا يعمي الشيطان أفهامهم ويفسد حكمهم ويبلبل أفكارهم . لقد عرف المخلص أن أيام خدمته الشخصية على الأرض موشكة على الانتهاء وأن قليلين من الناس سيقبلونه فاديا لهم . ففي صراع وآلام نفسية عميقة صلى لأجل تلاميذه . إنهم سيجربون تجارب مرة ومحزنة . وآمالهم التي احتضنوها طويلا ، والمبنية على الغرور العالمي ستخيب بكيفية مذلة ومفجعة إلى أقصى حد . فبدلا من أن يعتلي عرش داود سيرونه مصلوبا على صليب . ولكن هذا اليوم سيكون يوم تتويجه الحقيقي . إلا أنهم لم يدركوا هذا وسيكون من نتائج ذلك أن التجارب القاسية ستهاجمهم وسيكون من الصعب عليهم أن يعتبروها تجارب . وبدون الروح القدس الذي ينير العقل ويوسع أفق الإدراك فإن إيمانهم سيخذلهم . كان أمراً مؤلما لقلب يسوع أن إدراكهم لطبيعة ملكوته كان منحصرا إلى حد كبير في العظمة والكرامة العالمية . وبسببهم صار العبء ثقيلا على قلبه فسكب تضرعاته بدموع غزيرة وعذابات مريرة.

فشل يسود التلاميذ

لم يكن التلاميذ قد أقلعوا بسفينتهم في الحال كما أمرهم يسوع ولكنهم انتظروا بعض الوقت على أمل أنه سيوافيهم قبلما يقلعون. ولكنهم إذ رأوا الظلام يهجم عليهم "دخلوا السفينة وكانوا يذهبون إلى عبر البحر

إلى كفرناحوم" (يوحنا 6 : 17). لقد تركوا يسوع بقلوب ساخطة وكانوا ضجرين منه أكثر مما في أي وقت مضى منذ اعترفوا به ربا لهم .لقد تذمروا لأنه لم يسمح لهم بأن ينادوا به ملكا ، ولاموا أنفسهم لأنهم أذعنوا لأمره بسرعة. ثم تحاجوا قائلين إنهم لو كانوا أكثر إلحاحا لكانوا قد حققوا غرضهم. [353]

كان عدم الإيمان قد تمكن من عقولهم وقلوبهم ، وأعمى حب الكرامة عيونهم. لقد عرفوا أن يسوع كان مكروها من الفريسيين ، وكانوا هم يتوقون إلى رؤيته ممجدا كما ظنوا أنه ينبغي أن يكون . وحيث أنهم متحدون مع معلم استطاع أن يصنع آيات ومعجزات عظيمة ومع ذلك يهانون كما لو كانوا مخادعين كان ذلك تجربة قاسية عليهم لم يستطيعوا احتمالها . فهل سيعتبرون دائما تلاميذ لمعلم كاذب؟ أو لا يثبت المسيح سلطانه كملك؟ كيف حدث أن ذاك الذي كان له ذلك السلطان وتلك القوة لا يعلن نفسه بصفته الحقيقية وبذلك يصير طريقهم أقل مشقة ووعورة؟ ولماذا لم ينقذ يوحنا المعمدان من تلك الميتة الرهيبة؟ هكذا ظل التلاميذ يتحاجون حتى جلبوا على أنفسهم ظلمة روحية عظيمة . ثم تساءلوا قائلين: هل يمكن أن يكون يسوع محتالا كما أكد الفريسيون؟

لقد شاهد التلاميذ في ذلك اليوم المعجزات العظيمة التي أجراها المسيح. فبدا كأن السماء قد نزلت إلى الأرض . وكان يجب أن ذكرى ذلك اليوم العجيب المجيد تملأهم بالإيمان والرجاء . فلو أنهم من فيض قلوبهم المفعمة حبا وتقديرا ظلوا يتحدثون معا عن تلك العظائم لما دخلوا في تجربة . ولكن خيبتهم استبدت بكل تفكيرهم . إنهم لم يلتفتوا إلى قول المسيح: "اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء". لقد كانت تلك الساعات ساعات بركة جزيلة للتلاميذ ولكنهم نسوا ذلك كله . لقد كانوا في وسط المياه الثائرة المضطربة . وكانت أفكارهم جامحة وغير معقولة ، فأعطاهم الرب شيئا آخر ليعذب نفوسهم ويشغل أفكارهم . وكثيرا ما يتصرف الله هكذا مع الناس حين يخلقون لأنفسهم متاعب وأثقالا . ولم تكن بالتلاميذ حاجة ليخلقوا الاضطراب ، هوذا الخطر قد بدأ يدنو منهم سريعا.

عاصفة هوجاء

لقد هاجمتهم عاصفة هوجاء ولم يكونوا متأهبين لها. كان ذلك تغييرا مفاجئا لهم لأن طقس ذلك اليوم كان جميلا ، فعندما هاجمهم ذلك النوء خافوا . فنسوا نفورهم وعدم إيمانهم وضجرهم . وكان كل منهم يعمل جاهدا حتى لا تغوص السفينة في أعماق المياه . كانت المسافة قصيرة للذهاب بحرا من بيت صيدا إلى المكان الذي كانوا ينتظرون أن يقابلوا يسوع فيه ، وفي الطقس العادي لا تستغرق الرحلة غير ساعات قليلة ، أما الآن فقد ساقتهم الرياح بعيدا جدا عن المكان الذي كانوا يقصدونه. [354]

فظلوا يكافحون حتى جاء الهزيع الرابع من الليل وهم يجدفون. وحينئذ استسلم أولئك الرجال لليأس من الحياة والنجاة . ففي وسط العاصفة والظلام علمهم البحر أنهم عاجزون تماما فاشتاقوا إلى حضور معلمهم.

أما يسوع فلم ينسهم. إن ذلك الرقيب الواقف على الشاطئ رأى أولئك الرجال المذعورين وهم يصارعون تلك العاصفة الهائلة . إن تلاميذه لم يغيبوا عن نظره لحظة واحدة . بل كانت عيناه تتبعان بقلق عميق تلك السفينة في مهب الريح بحمولتها الغالية الثمينة . لأن هؤلاء الرجال سيكونون نور العالم . فكما تراقب الأم طفلها الصغير في حنان وحب كذلك كان السيد الرحيم يراقب تلاميذه . فلما أخضعت قلوبهم وخمد طموحهم العالمي وبكل تواضع صلوا طالبين النجدة ، أعطيت لهم .

يمشي على المياه

في اللحظة التي كانوا يعتقدون أنهم لا محالة هالكون ظهر نور انكشف عن شبح غامض يدنو منهم فوق الماء. ولم يكونوا يعلمون أنه يسوع . فذاك الذي خف إلى نجدتهم ظنوه عدوا فشملهم الرعب . فالأيدي التي كانت تقبض على المجاذيف بقبضة من فولاذ تركتها تفلت من قبضتها فصارت السفينة تهتز كما تشاء الأمواج ، وقد حملقوا في شبح ذلك الإنسان الذي كان يسير فوق اللجج المزبدة في ذلك البحر المضطرب.

لقد ظنوه خيالا ينذر بهلاكهم فمن الخوف صرخوا ، فتقدم يسوع سائرا إلى الأمام كأنما يريد أن يجتازهم ، ولكنهم إذ عرفوه صرخوا إليه في طلب العون. وهنا يلتفت إليهم معلمهم المحبوب وبصوته الرقيق يسكن مخاوفهم قائلا لهم: "تشجعوا! أنا هو. لا تخافوا" (متى 14 : 27).

وحالما أيقنوا بتلك الحقيقة العجيبة كاد السرور يذهب بعقل بطرس. وكما لو كان غير مصدق بعد صرخ قائلا: "يا سيّد، إن كنت أنت هو، فمرني أن آتي إليك على الماء. فقال: تعال" (متى 14 : 28 و 29).

فإذ كان بطرس ينظر إلى يسوع كان يمشي على الماء مطمئنا ، ولكنه إذ ينظر إلى الوراء إلى إخوته كمن هو معجب بنفسه كانت تتحول عيناه عن المخلص. إن العاصفة [355] كانت لا تزال على شدتها ، والأمواج تعلو وتفصل بينه وبين سيده فيخاف. ولمدة لحظة يغيب المسيح عن نظره فيخذله إيمانه ويبتدئ يغرق . لكن إذ ترتفع الأمواج من حوله منذرة إياه بالموت يرفع بطرس عينيه بعيدا عن المياه الصاخبة ، وإذ يثبت نظره في يسوع يصرخ قائلاً: "يا رب، نجّني!" (متى 14 : 30). ففي الحال يمسك يسوع بيده الممدودة قائلاً له: "يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟" (متى 14 : 31).

وإذ يسيران معاً جنباً إلى جنب و يد بطرس في يد سيده ينزلان في السفينة معا. أما بطرس فكان مغمورا صامتا لأنه لم يكن هنالك ما يدعوه إلى الافتخار على زملائه ، إذ بسبب عدم إيمانه وتعظيمه لنفسه كاد يموت . حيث أنه حين حول عينيه بعيدا عن يسوع لم تثبت خطواته وابتدأ يغوص في وسط الأمواج.

ضعف في القوة

عندما تهجم علينا المتاعب والضيقات فما أقربنا شبها إلى بطرس! إننا ننظر إلى الأمواج بدلا من أن نثبت أنظارنا في مخلصنا . حينئذ تنزلق خطواتنا فتطغى على نفوسنا المياه الطامية . إن يسوع لم يأمر بطرس أن يأتي إليه لكي يهلك . وهو لا يأمرنا باتباعه ثم يتركنا . ولكنه يقول: "لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك. أنت لي. إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلذع، واللهيب لا يحرقك. لأني أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل، مخلّصك" (إشعياء 43 : 1 — 3).

لقد عرف يسوع صفات تلاميذه وعرف إلى أي حد سيجرب إيمانهم بتجارب قاسية. وفي هذه الحادثة التي حدثت في عرض البحر أراد السيد أن يكشف لبطرس عن ضعفه ، وأن يريه بأن سلامته هي في اعتماده المستمر على قدرة الله . في وسط عواصف التجربة أمكنه أن يسير آمنا فقط بانصياعه للمخلص واتكاله عليه . وفي اللحظة التي ظن نفسه فيها قويا كان ضعيفا . ولم يتحقق من حاجته إلى الاعتماد على المسيح إلا بعدما فطن إلى ضعفه . فلو كان قد تعلم الدرس الذي أراد يسوع أن يعلمه إياه في ذلك الاختبار وهو في عرض البحر لما فشل عندما اجتاز في ذلك الامتحان القاسي فيما بعد.

إن الله يعلم أولاده يوما بعد يوم ، فبظروف الحياة اليومية هو يعدهم لتمثيل دورهم عل [356] المسرح الأكبر الذي تعينه لهم عناية الله. إن نتائج الاختبار اليومي هي التي تقرر انتصارهم أو هزيمتهم في أزمة الحياة العظيمة.

إن من لا يعتمدون اعتمادا دائما على الله سينهزمون أمام التجربة. يمكننا أن نفترض الآن أن أقدامنا تقف ثابتة وأننا لن نتزعزع ، ويمكننا أن نقول واثقين: أنا عالم بمن آمنت .لا شيء يستطيع أن يزعزع إيماني بالله وبكلمته ، ولكن الشيطان يرسم خططه بحيث يستفيد من أخلاقنا الموروثة وعاداتنا المكتسبة فينا ، ويعمي عيوننا عن رؤية حاجاتنا ونقائصنا ، فلا نستطيع أن نسير آمنين مطمئنين إلا إذا تحققنا من ضعفنا وثبتنا أنظارنا في يسوع.

وما أن اتخذ يسوع لنفسه مكانا في السفينة حتى هدأت الريح . “ وللوقت صارت السفينة إلى الأرض التي كانوا ذاهبين إليها” (يوحنا 6 : 21). إن تلك الليلة المرعبة المخيفة عقبها نور الفجر . فالتلاميذ ومن كانوا معهم في السفينة جاءوا وسجدوا عند قدميه . وبقلوب ملؤها الشكر قالوا: “بالحقيقة أنت ابن الله!” (متى 14 : 33). [357]

الفصل الحادي والأربعون—مواجهة الأزمة

إن المسيح عندما نهى الناس عن المناداة به ملكا كان يعلم أنه قد وصل إلى نقطة تحول حاسمة في تاريخه. فالجماهير التي ترغب في إجلاسه على العرش اليوم ستنصرف عنه غدا . والخيبة التي قضت على طموحهم الأناني ستقلب محبتهم له إلى بغضه ، وتمجيدهم إلى لعنات . ولكن مع علمه بكل ذلك لم يقم بأي إجراء لتفادي الأزمة . ومنذ البداية لم يقدم لتابعيه أي وعد أو أمل في مكافآت أرضية . فلقد أجاب الرجل الذي جاءه في أحد الأيام يعلن عن رغبته في أن يكون تلميذا له ، بقوله: "للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (متى 8 : 20). فلو أمكن الناس أن يحتفظوا بالعالم مع المسيح لكان ألوف منهم يأتون ليقدموا له ولاءهم ، ولكنه لم يقبل مثل تلك الخدمة . وكثيرون ممن كانت لهم صلة به حينئذ كان قد استهواهم الأمل في قيام مملكة عالمية . فكان عليه أن يصارحهم بالحقيقة . إنهم لم يفهموا الدرس الروحي العميق المتضمن في معجزة الأرغفة ، فكان يجب إيضاحه . ولا بد من أن يصحب هذا الإعلان الجديد اختبار أدق.

لقد ذاعت شهرة معجزة الأرغفة في كل مكان ، ففي صبيحة اليوم التالي تقاطر الناس من كل الأنحاء إلى بيت صيدا لكي يروا يسوع وكان عدد الآتين كبيرا ، فمنهم من جاء برا ، ومنهم من جاء عن طريق البحر. والذين كانوا قد تركوه في الليلة السابقة عادوا إلى هنالك على أمل أن يجدوه ، إذ لم تكن هناك سفينة يعبر فيها إلى الشاطئ الآخر . ولكن بحثهم كان غير مجد فوفد كثيرون منهم إلى كفرناحوم بحثا عنه.

يسعون وراء المنافع المادية

وفي غضون ذلك كان هو قد وصل إلى جنيسارت بعد غياب يوم واحد. فحالما عرف الناس أنه قد أرسى: "طافوا جميع تلك الكورة المحيطة، وابتدأوا يحملون المرضى على [358] أسرّة إلى حيث سمعوا أنه هناك" (مرقس 6: 55).

وبعد وقت قصير ذهب إلى المجمع وهناك وجده القادمون من بيت صيدا. وقد أخبرهم تلاميذه كيف عبر البحر . ثم أخبروا تلك الجموع المندهشة بكل أمانة عن شدة العاصفة والساعات الطوال التي قضوها وهم يجذفون بلا جدوى ضد الرياح المضادة ، وظهور المسيح ماشيا على الماء والمخاوف التي استبدت بهم عندما رأوه ، وكلامه المشجع المطمئن ، ومجازفة بطرس وما نجم عنها ، وهدوء العاصفة فجأة ووصول السفينة إلى الشاطئ بسلام . وإذ لم يقنع الناس بذلك تجمهر كثيرون منهم حول يسوع وسألوه قائلين : "يا معلّم، متى صرت هنا؟" (يوحنا 6 : 25). وكانوا يرجون أن يسمعوا من فمه تفاصيل تلك المعجزة.

ولكن يسوع لم يشبع فضولهم بل قال لهم بحزن: " أنتم تطلبوننب ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم

أكلتم من الخبز فشبعتم" (يوحنا 6: 26). إنهم لم يطلبوه بسبب باعث شريف ولكن حيث أنهم كانوا قد شبعوا من أرغفة الخبز كانوا ما زالوا يؤملون أنهم سيحصلون منه على خير زمني إذا كانوا يلازمونه . ولكن المخلص أمرهم قائلا: "اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية" (يوحنا 6 : 27). لا تطلبوا الخيرات الزمنية وحدها ولا يكن اهتمامكم الرئيسي هو مطاليب هذه الحياة الحاضرة . بل اطلبوا لطعام الروحي والحكمة التي تبقى إلى الأبدية . وهذا ما لا يستطيع أن يعطيه غير ابن الله وحده، "لأن هذا الله الآب قد ختمه" (يوحنا 6 : 27).

ثمن السماء

لقد أوقظ اهتمام السامعين وقتيا فصاحوا قائلين: " ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟" (يوحنا 6: 28). كانوا يمارسون أعمالا كثيرة شاقة لكي ينالوا استحسان الله . وكانوا على استعداد لأن يسمعوا عن أي عمل جديد يمكنهم بواسطته أن يحصلوا على استحقاق أعظم . وكان معنى سؤالهم هو هذا: "ما الذي نفعله حتى نكون مستأهلين لدخول السماء؟ ما الثمن الذي علينا أن ندفعه ليكون لنا الحق في الحياة الأبدية؟".

أجاب يسوع وقال لهم: " هذا هو عمل الله: أن تؤمنوا بالذي هو أرسله" (يوحنا 6 : [359] 29). إن ثمن السماء هو يسوع . والطريق إلى السماء هو طريق الإيمان بيسوع لأنه "حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا 1 : 29).

لكن الشعب رفضوا قبول هدا الحق الإلهي. إن يسوع قد عمل نفس العمل الذي سبق الأنبياء بأن مسيا سيفعله ، ولكنهم لم يروا ما قد صورته لهم آمالهم الأنانية على أنه عمله .نعم إن المسيح قد أشبع مرة جمهورا غفيرا من بعض أرغفة الشعير ، ولكن الشعب ظل يقتات من المن أربعين سنة في عهد موسى ، فكانوا ينتظرون بركات أعظم من هذه على يدي مسيا . إن قلوبهم التي لم تكن تعرف القناعة أو الشبع كانت تتساءل قائلة لماذا لا يستطيع يسوع أن يمنح كل شعبه الصحة والقوة والغنى ما دام قد استطاع أن يجري كل تلك العظائم والمعجزات التي قد شاهدوها ، ولماذا لا يحررهم من ظالميهم ومستعبديهم ويسمو بهم إلى مراتب الكرامة والسلطان؟ إن حقيقة كونه قد صرح بأنه مرسل من الله ، ورفضه في نفس الوقت أن يكون ملكا على إسرائيل كان ذلك سرا عجزوا عن معرفته وإدراكه . فحرفوا هذا الرفض ، واستنتج كثيرون أنه لم يجرؤ على تحقيق ادعاءاته لأنه هو نفسه كان يشك في كون رسالته هي من الله . وهكذا أفسحوا في قلوبهم مجالا لعدم الإيمان ، وذلك البذار الذي ألقاه الشيطان في قلوبهم أثمر ثمارا من جنسه ، ثمار سوء الفهم والارتداد .

خبز من السماء

وإذا بأحد معلمي الشعب يسأله بنغمة شاعت فيها السخرية قائلا: " أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المن في البرية، كما هو مكتوب: أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا" (يوحنا 6 : 30 و 31).

لقد أكرم اليهود موسى على اعتبار أنه هو معطي المن وبذلك نسبوا المجد لإنسان لم يكن غير مجرد آلة ، وغاب عن أنظارهم ذاك الذي قام بالعمل وأتمه. لقد تذمر آباؤهم على موسى وشكوا في كونه مرسلا

من قبل الله وتنكروا لرسالته . وبنفس تلك الروح رفض الأبناء ذاك الذي حمل إليهم رسالة الله (يسوع)، "فقال لهم يسوع: "الحق الحق أقول لكم: ليس موسى أعطاكمالخبز من السماء" (يوحنا 6 : 32) إن ذاك الذي كان قد أعطاهم المن كان واقفا حينئذ بينهم ، وهذا هو المسيح بالذات الذي كان قائدا للعبرانيين في البرية وكان يؤَمن لهم يوميا الطعام الذي كان رمزا للخبز السماوي الحقيقي . إن الروح المانح الحياة [360] الذي يفيض من ملء الله غير المحدود هو المن الحقيقي. قال يسوع: "أن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم" (يوحنا 6 : 33).

وإذ كان بعض سامعيه لا يزالون يظنون أن يسوع يشير إلى الخبز المادي صاحوا قائلين: "يا سيد، أعطنا في كل حين هذا الخبز" فقال لهم يسوع بكل وضوح: "أنا هو خبز الحياة" (يوحنا 6 : 34، 35).

كانت الاستعارة التي استعملها المسيح مألوفة لدى اليهود ، فقد قال موسى بوحي من الروح القدس: " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب". وكتب إرميا النبي يقول: "وجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي" (تثنية 38 : 3 ؛ إرميا 15 : 16). كان هنالك مثل يردده معلمو إسرائيل ويقول إن أكل الخبز بالمعنى الروحي هو درس الناموس وممارسة الأعمال الصالحة . وكثيرا ما كان يقال أنه عند مجيء مسيا سيأكل كل إسرائيل ويشبعون . وقد أوضحت تعاليم الأنبياء الدرس الروحي العميق الذي يستقي من معجزة الأرغفة . كان يسوع يحاول أن يوضح هذا الدرس لسامعيه في المجمع . فلو كانوا قد فهموا الكتب لفهموا كلامه عندما قال لهم: "أنا هو خبز الحياة". إن ذلك الجمع العظيم عندما كانوا معيين ومتعبين في اليوم السابق أكلوا وشبعوا من الخبز الذي قدمه لهم يسوع . وكما قد حصلوا على قوة وانتعاش لأجسادهم إذ أكلوا من الخبز فكذلك يمكنهم أن يحصلوا من المسيح على قوة روحية للحياة الأبدية . فلقد قال: "من يقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً" (يوحنا 6 : 35) ولكنه أضاف: "إنكم قد رأيتموني، ولستم تؤمنون" (يوحنا 6 : 36).

لقد رأوا المسيح بشهادة الروح القدس وبإعلان الله لنفوسهم. إن البراهين الحية على قدرته كانت ماثلة أمام عيونهم يوما بعد يوم ، ومع ذلك طلبوا آية أخرى . ولكن لو أنه أراهم آية أخرى لظلوا في عدم إيمانهم كما كانوا . فما داموا لم يقتنعوا بما قد رأوه وسمعوه فلا جدوى من كونه يريهم عجائب أخرى . إن عدم الإيمان يجد دائما أعذارا للشك وينكر أقطع البراهين.

الحياة الأبدية مجانا للجميع

ومرة أخرى ناشد المسيح تلك القلوب القاسية المتمردة قائلا: "من يقبل إليّ لا أخرجه [361] خارجاً" (يوحنا 6 : 37). وقال إن كل من قد قبلوه بإيمان لهم حياة أبدية ، ولن يهلك واحد منهم . لا حاجة للفريسيين والصدوقيين أن يجادل بعضهم بعضا عن الحياة العتيدة ، ولا حاجة للناس بعد أن ينوحوا في حزن يائس على موتاهم . " هذه مشيئة الآب الذي أرسلني: أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً، بل أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنا 6: 40).

لكن رؤساء الشعب تذمروا واستاءوا قائلين: " أليس هذا هو يسوع ابن يوسف، الذي نحن عارفون بأبيه وأمه؟ فكيف يقول هذا: إني نزلت من السماء؟" (يوحنا 6 : 42). لقد حاولوا أن يثيروا التعصب حين أشاروا بكل احتقار إلى أصل يسوع الوضيع . وبكل ازدراء لمحوا إلى حياته كعامل جليلي ، وإلى عائلته الفقيرة الوضيعة . وقالوا إن ادعاءات هذا النجار غير المثقف ليست جديرة باهتمامهم . وبالنسبة إلى ميلاده الغامض لمحوا إلى أنه كان من أصل مشكوك فيه ، وهكذا صوروا ظروف ميلاده البشرية كأنها وصمة

في تاريخه.

لم يحاول يسوع أن يوضح لهم سر ميلاده ، ولم يقدم جوابا عن شكوكهم في كونه قد نزل من السماء ، كما لم يجبهم بشيء عن تساؤلهم الخاص بعبوره البحر سيرا على الماء. كما أنه لم يوجه انتباههم إلى المعجزات التي قد انفردت بها حياته . إنه قبل طوعا أن يخلي نفسه آخذا صورة عبد . ولكن أقواله وأعماله كشفت عن حقيقته . غير أن كل من فتحت قلوبهم لقبول النور الإلهي ميزوه كما هو ممجدا "كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً" (يوحنا 1 : 14).

كان تعصب الفريسيين متأصلا فيهم إلى ما هو أعمق مما دلت عليه أسئلتهم إذ كان يغتذي من فساد قلوبهم. فكل كلمة نطق بها يسوع وكل عمل من أعماله أثار خصومتهم ، لأن الروح التي احتضنوها في قلوبهم لم تجد منه استجابة.

قال يسوع: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني، وأنا أقيمه في اليوم الأخير، إنه مكتوب في الأنبياء: ويكون الجميع متعلمين من الله. فكل من سمع من الآب وتعلّم يقبل إليّ" (يوحنا 6 : 44، 45). لا يقدر أن يأتي إلى المسيح إلا أولئك الذين يستجيبون لجاذبية محبة الآب . ولكن الله يجتذب إليه كل القلوب ، أما الذين يقاومون جاذبيته فهم وحدهم الذين يرفضون المجيء إلى المسيح. [362]

"من يؤمن بي"

إن يسوع قد أشار بقوله: " ويكون الجميع متعلمين من الله" إلى نبوءة إشعياء القائلة: "وكل بنيك تلاميذ الرب، وسلام بنيّك كثيراً" (إشعياء 45 : 13). وقد طبق اليهود هذه النبوة على أنفسهم وكانوا يفتخرون بأن الله هو معلمهم . ولكن يسوع أبان لهم بطلان هذا الادعاء إذ قال: "فكل من سمع من الآب وتعلّم فيقبل إليّ". فعن طريق المسيح وحده كان يمكنهم أن يأخذوا العلم و المعرفة عن الآب . إن الطبيعة البشرية لا يمكنها احتمال رؤية مجده . فأولئك الذين قد تعلموا من الله كانوا يصغون إلى صوت ابنه ، وفي يسوع الناصري عرفوا ذاك الذي في الطبيعة والوحي قد أعلن الله الآب.

" الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فله حياة أبدية" (يوحنا 6: 17). إن يوحنا الحبيب الذي كان قد سمع هذه الأقوال استخدمه الروح القدس في تقديم الإعلان التالي للكنائس: "وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة، ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة" (1 يوحنا 5 : 11، 12). وقال يسوع: "وأنا أقيمه في اليوم الأخير". لقد صار المسيح جسداً واحداً معنا لنصير نحن معه روحاً واحداً . إننا بقوة هذا الاتحاد سنقوم من قبورنا- ليس فقط لمجرد إظهار قدرة المسيح ، بل لأن حياته صارت حياتنا بالإيمان . إن من يرون المسيح في صفته الحقيقية ويقبلونه في قلوبهم لهم حياة أبدية . إن المسيح يسكن فينا بالروح القدس ، وإذ نقبل روح الله بالإيمان في قلوبنا يكون ذلك بداءة الحياة الأبدية.

كان الشعب قد وجهوا انتباه المسيح إلى المن الذي أكله آباؤهم في البرية ، كما لو أن إمدادهم بذلك الخبز كان معجزة أعظم من المعجزة التي أجراها يسوع ، ولكنه أبان لهم تفاهة تلك العطية بالمقارنة بالبركات التي قد أتى ليمنحها للعالم. فقد أمكن أن يسند المن حياتهم الأرضية فقط ، ولكنه لم يستطع أن يصد عنهم الموت أو يضمن لهم الخلود ، أما خبز السماء فيمكنه أن ينعش النفس حتى تتمتع بالحياة الأبدية . قال لهم المخلص: "أنا هو خبز الحياة. أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء، لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا

الخبز يحيا إلى الأبد” (يوحنا 6 : 48 — 51). ثم أضاف المسيح إلى هذه الاستعارة [363] استعارة أخرى ، فعن طريق الموت دون سواه كان يمكنه أن يمنح الحياة للناس. وفي الكلمات التالية أشار إلى موته كوسيلة للخلاص إذ يقول: “والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم” (يوحنا 6 : 51).

مأكل ومشرب

كان اليهود موشكين أن يحتفلوا بعيد الفصح في أورشليم ، تذكارا لليلة نجاة العبرانيين عندما ضرب الملاك المهلك بيوت المصريين. أراد الرب أن يرشدهم إلى حمل الله عن طريق خروف الفصح ، و عن طريق الرمز يقبلون من قد بذل نفسه لأجل حياة العالم . ولكن اليهود كانوا يعلقون أهمية عظيمة على الرمز بينما أغفلوا معناه الحقيقي . لم يميزوا جسد الرب . ونفس الحق الذي كان يرمز إليه في خدمة الفصح قدم إليهم في كلام المسيح ، ومع ذلك لم يميزوه.

وهنا صاح المعلمون غاضبين: “ كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟” (يوحنا 6: 52). لقد تظاهروا بأنهم يفهمون كلامه بالمعنى الحرفي الذي فهمه نيقوديموس عندما سأل يسوع قائلا: “كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟” (يوحنا 3 : 4). لقد فهموا المعنى الذي قصده يسوع إلى حد ما ، ولكنهم لم يرغبوا في الاعتراف به ، إذ قصدوا بتحريفهم كلامه أن يؤلبوا الشعب ضده.

لم يرد المسيح أن يخفض من تصويره الرمزي بل ردد الحق على مسامعهم بلغة أقوى ، فقال: “ الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه” (يوحنا 6 : 53 — 56).

إن أكل جسد المسيح وشرب دمه هو قبوله مخلصا شخصيا. فنؤمن بأنه يغفر خطايانا وأننا كاملون فيه . فإذ ننظر إلى محبته ونتأمل فيها ونرشفها نصير شركاء في طبيعته .ينبغي أن يكون المسيح للنفس كالطعام للجسم . فنحن لا ننتفع بالطعام ما لم نأكله وما لم يصر جزءا من كياننا . فكذلك المسيح لا يمكن أن يكون ذا قيمة بالنسبة إلينا ما لم نعرفه [364] مخلصا شخصيا لنا. إن المعرفة النظرية لا تنفعنا في شيء بل ينبغي لنا أن نغتذي به ونقبله في قلوبنا بحيث تصير حياته حياتنا ، كما ينبغي لنا أن نهضم محبته ونعمته.

ولكن حتى هذه الأمور تقصر عن إيضاح امتياز علاقة المؤمن بالمسيح. لقد قال يسوع: “كما أرسلني الآب الحي، وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي” (يوحنا 6 : 57). فكما أن ابن الله يحيا بالإيمان بالآب كذلك علينا نحن أن نحيا بالإيمان بالمسيح . لقد سلم يسوع نفسه تسليما كاملا لمشيئة الله بحيث لم يظهر في حياته سوى الآب . فمع أنه كان مجربا في كل شيء مثلنا فقد وقف أمام العالم منزها عن الشر الذي كان يحيط به . كذلك علينا نحن أيضًا أن ننتصر كما قد انتصر المسيح.

كلمات الحياة

أفأنت مع المسيح؟ إذا فكل ما قد كتب عن الحياة الروحية موجه إليك ويمكنك أن تناله باتحادك بيسوع . هل فترت غيرتك أو تركت محبتك الأولى؟ إذا فاقبل من جديد محبة المسيح المقدمة إليك . كل من جسده واشرب من دمه وبذلك تصير واحدا مع الآب والابن.

لكن أولئك اليهود العديمي الإيمان رفضوا أن يروا شيئا آخر غير المعنى الحرفي لكلام المخلص. كان محرما عليهم بموجب الناموس الطقسي أن يشربوا الدم ، وهاهم الآن يؤولون أقوال المسيح بحيث تصير كلاما دنسا ، وبعد ذلك جعلوا يجادلون فيه فيما بينهم . بل أن كثيرين من التلاميذ أنفسهم قالوا: "هذا الكلام صعب! من يقدر أن يسمعه؟" (يوحنا 6 : 60).

فأجابهم المخلص بقوله: " أهذا يعثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً! الروح هو الذي يحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يوحنا 6 : 61 — 63).

إن حياة المسيح التي تعطي حياة للعالم هي في كلمته. لقد شفي يسوع بكلمته الأمراض وأخرج الشياطين ، وبكلمته هدأ البحر وأقام الموتى . وشهد الشعب بأن كلامه كان بسلطان . لقد تكلم بكلام الله ، كما قد تكلم على أفواه الأنبياء ومعلمي العهد القديم . إن الكتاب كله هو إعلان المسيح فأراد المخلص أن يثبت إيمان تابعيه في صدق الكلمة الإلهية. وعندما يتركهم بالجسد ينبغي أن تكون الكلمة نبع قوة لهم . وكمعلمهم كان عليهم أن يحيوا "بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى 4 : 4). [365]

وكما أن الطعام يسند حياتنا الجسدية ، كذلك حياتنا الروحية تسندها كلمة الله. فعلى كل إنسان أن يتناول الحياة لنفسه من كلمة الله . وكما يجب علينا أن نأكل لأنفسنا وبأنفسنا لكي نحصل على غذاء لأجسادنا ، كذلك علينا أن نقبل الكلمة لأنفسنا . وينبغي لنا ألا نقبلها عن طريق عقل إنسان آخر ، بل علينا أن ندرس الكلمة بكل اهتمام وحرص طالبين من الله أن يعيننا بروحه القدوس حتى نستطيع فهم كلمته . علينا أن نتناول آية واحدة ونركز أفكارنا في عملية التثبت من الفكرة الرئيسية التي وضحها الله في تلك الآية لأجلنا . وعلينا أن نتعمق في الفكرة نفسها إلى أن تصير هى فكرنا ، ونعرف "ما يقوله الرب".

مواعيد ثمينة

إن الرب يسوع في وعوده وإنذاراته يقصدني أنا. إن الله هكذا احب العالم حتى بذل ابنه الوحيد كي لا أهلك أنا إذا ما آمنت بل تكون لي الحياة الأبدية . إن الاختبارات المذكورة في كلمة الله المقصود منها أن تكون هي اختباراتى أنا . فالصلوات والمواعيد والوصايا والانذارات هي لي ، "مع المسيح صلبت، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبّني وأسلم نفسه لأجلي" (غلاطية 2 : 20). فإذ يقبل بالإيمان مبادئ الحق ويهضمها تصير جزءا من كيان الإنسان والقوة المحركة في الحياة . وإذ تقبل كلمة الله في النفس تشكل الأفكار وتتدخل في تكوين الخلق ونموه.

إننا إذ ننظر على الدوام إلى يسوع بعين الإيمان نتقوى. إن الله يقدم للجياع والعطاش من شعبه أثمن الإعلانات . وسيجدون أن المسيح هو مخلص شخصي . وإذ يغتذون بكلمته سيجدون أنها روح وحياة . إن الكلمة تلاشي الطبيعة البشرية الآثمة وتمنح الإنسان حياة جديدة في المسيح يسوع . والروح القدس يأتي إلى النفس كالمعزي وبقوة نعمته المغيرة تعود صورة الله لتطبع في نفس كل تلميذ من تلاميذ المسيح فيصير خليقة جديدة ، فتحل المحبة في موضع البغضة ويقبل القلب صورة الله . هذا هو معنى القول: "بِكُلِّ كَلمة تَخرجُ من فَمِ اللهِ" هذا هو الأكل من الخبز النازل من السماء.

امتحان الإيمان

لقد نطق المسيح بحق أبدي مقدس عن العلاقة الكائنة بينه وبين تابعيه ، كما عرف [366] صفات أولئك الذين ادعوا أنهم تلاميذه ، وامتحن كلامه إيمانهم. لقد أعلن أن عليهم أن يؤمنوا به ويعيشوا بموجب تعاليمه وكل من قبلوه يصيرون شركاءه في طبيعته ويتشبهون به في صفاته . وهذا يتضمن أنهم يتركون مطامعهم التي يحبونها كما يتطلب أيضاً تسليم ذواتهم ليسوع تسليما تاما . لقد دُعوا ليكونوا مضحين بأنفسهم وودعاء ومتواضعي القلب وعليهم أن يسيروا في الطريق الضيق الذي سار فيه رجل جلجثة إذا أرادوا أن يكون لهم نصيب في هبة الحياة و مجد السماء.

كان الامتحان فوق أطوارهم. إن حماس أولئك الذين أرادوا أن يختطفوه ليجعلوه ملكا بالقوة قد أخمد ، وقد أعلنوا أن هذا الحديث الذي سمعوه من يسوع في المجمع فتح عيونهم. فهم الآن غير مخدوعين . وقد تراءى لهم أن كلامه هذا كان اعترافا صريحا منه بأنه مسيا وأنهم لن يستطيعوا أن يحققوا أي مغنم أرضي إذا ظلوا أتباعا له . لقد رحبوا بقدرته على صنع المعجزات ، و كانوا يتوقون إلى التخلص من الأمراض والآلام ، ولكنهم لم يريدوا مشاركته في حياة التضحية . ولم يكونوا يكترثون للملكوت الروحي الغامض الذي كان يتحدث عنه . فالناس غير المخلصين والأنانيون الذين كانوا قبلا يطلبونه بلهفة ما عادوا الآن يرغبون فيه أو يشتهون الوجود معه . فإذا لم يكرس قوته ونفوذه ليحصل لهم على الحرية من الرومان فلن يكون لهم أي شأن به.

لقد صارحهم يسوع بالقول: " منكم قوم لا يؤمنون" ثم أضاف قوله: لهذا قلت لكم: "إنه لا يقدر أحد أن يأتي إلي إن لم يعط من أبي" (6 : 64، 65). ثم أرادهم أن يفهموا أنهم إذا لم يجتذبوا إليه فسبب ذلك هو أن قلوبهم لم تفتح للروح القدس ، لأن "الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة، ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً" (1 كورنثوس 2 : 14). فبالإيمان وحده تبصر النفس مجد يسوع . وهذا المجد مستتر إلى أن يضطرم الإيمان في النفس بالروح القدس

إن هؤلاء التلاميذ إذ وبخ يسوع عدم إيمانهم أوغلوا في الابتعاد عنه. لقد استاءوا استياءً عظيما ، وإذ أرادوا أن يجرحوا شعور المخلص ويرضوا خبث الفريسيين رجعوا إلى الوراء وتركوه بكل أنفة وازدراء . لقد اختاروا لأنفسهم- تمسكوا بالصورة دون الروح ، اختاروا الأصداف و طرحوا اللآلئ جانبا . و لم يعدلوا عن هذا القرار فيما بعد [367] لأنهم لم يعودوا يمشون مع يسوع.

" الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن" (متى 3 : 12). كان ذلك الوقت هو وقت التنقية أو التذرية . لقد عزل كلام الحق التبن بعيدا عن الحنطة . فلأنهم كانوا معجبين بأنفسهم وأبرارا في أعين أنفسهم إلى أقصى حد بحيث رفضوا التوبيخ ، وكانوا محبين للعالم جدا إلى حد أنهم رفضوا حياة التواضع فكثيرون منهم تركوا يسوع وارتدوا عنه . إن كثيرين من الناس ما زالوا يعملون نفس العمل . إن النفوس تمتحن في هذه الأيام كما قد امتحن أولئك التلاميذ في مجمع كفرناحوم . فعندما يمس الحق شغاف قلوبهم يرون أن حياتهم ليست منطبقة على إرادة الله . إنهم يرون حاجة نفوسهم إلى تغيير شامل ، ولكنهم لا يرغبون في ذلك العمل المنطوي على إنكار الذات . لذلك يغضبون عندما تكتشف خطاياهم فيمضون مستائين ويتركون يسوع قائلين مع أولئك التلاميذ: "إن هذا الكلام صعب! من يقدر أن يسمعه؟".

لقد راق لهم أن يسمعوا عبارات المديح و الملق ، أما الحق فغير مقبول ولم يقدروا أن يسمعوه. فعندما تسير جماهير الناس في ركاب الحق ويأكلون للشبع وتسمع هتافات الانتصار فإنهم يهتفون بأصوات عالية . ولكن عندما يكشف روح الله الفاحص عن خطيتهم ويأمرهم بتركها يديرون للحق القفا ولا يعودون

يمشون مع يسوع.

من أصدقاء إلى أعداء

وإذ ارتد أولئك التلاميذ الساخطون عن يسوع فإن روحا مخالفا لروح المسيح سيطر عليهم أما ذاك الذي كانوا قبلا مسرورين به فما عادوا الآن يرون فيه أية جاذبية. وقد خرجوا يطلبون أعداءه الذين كانت روحهم وعملهم منسجمين مع أولئك التلاميذ المرتدين .لقد حرفوا كلامه وزيفوا تصريحاته وطعنوا في غاياته وأهدافه ، كما دعموا تصرفهم هذا بأن جمعوا كل عبارة يمكن استخدامها ضده . فأثارت تلك البلاغات الكاذبة سخطا عظيما بحيث غدت حياة يسوع مهددة بالخطر.

وبسرعة عظيمة انتشر خبر مؤداه أن يسوع الناصري قد اعترف بفمه أنه ليس هو مسيا. وهكذا انقلب الشعور العام ضده في الجليل كما حدث في اليهودية قبل ذلك بعام . [368] وأسفاه على إسرائيل! لقد رذلوا مخلصهم لأنهم كانوا يتوقون إلى ظهور قائد فاتح يزودهم بسلطان زمني . كانوا يعملون للطعام البائد لا للطعام الباقي للحياة الأبدية.

وبقلب جزع نظر يسوع إلى أولئك الذين كانوا تلاميذ له يرتدون عنه الذي هو حياة ونور الناس. إن عدم تقديرهم لشفقته ورحمته وعدم استجابة قلوبهم لنداء محبته واستهانتهم برحمته ورفضهم لخلاصه- كل ذلك ملأ قلبه بحزن لا يمكن التعبير عنه مثل هذه التطورات جعلته رجل الأوجاع ومختبر الحزن.

بقية أمينة

وبدلا من أن يحاول يسوع الحيلولة بين أولئك المرتدين وبين تنفيذ غرضهم التفت إلى الاثنى عشر وسألهم قائلا: " ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟" (يوحنا 6: 67).

فأجابه بطرس عن هذا السؤال بسؤال آخر قائلا: "يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي" (يوحنا 6 : 68، 69).

"إلى من نذهب؟" كان معلمو إسرائيل عبيدا للرسميات والطقوس . كما كان الفريسيون والصدوقيون في نزاع مستمر . فلو ترك الرسل يسوع فمعنى ذلك أنهم يقعون بين أيدي أولئك القوم المتشبثين بالرسميات والطقوس . والطامعين الذين كانوا يطلبون مجد أنفسهم .إن التلاميذ منذ قبلوا المسيح وجدوا سلاما وفرحا أكثر مما وجدوا في حياتهم السالفة . فكيف إذا يعودون إلى أولئك الذين احتقروا محب الخطاة واضطهدوه؟ لقد ظلوا ينتظرون مجيء مسيا أمدا طويلا ، أما الآن وقد أتى فلم يعد يمنعهم أن يرتدوا عنه لينضموا إلى أولئك الذين كانوا يريدون أن يصطادوه والذين اضطهدوهم لأجل اتباعهم إياه.

"إلى من نذهب؟" لا يمكننا أن نترك تعاليم المسيح أو الدروس التي قد لقننا إياها بمحبة ورحمة لنلقى بأنفسنا في أحضان ظلمة عدم الإيمان وشرور العالم . عندما ترك المخلص من قبل كثيرين ممن كانوا قد شاهدوا معجزاته و آياته ، عبر بطرس عن إيمان التلاميذ حين قال: "أنت المسيح" (يوحنا 6 : 69). إن مجرد التفكير في إفلات مرساة نفوسهم هذه من أيديهم ملأ قلوبهم بالخوف والحزن . إن حرمانهم من المخلص لابد أن يجعلهم تحت رحمة البحر الهائج في ليل حالك الظلام. [369] إن كثيرا من أقوال المسيح

وأعماله يبدو غامضا أمام العقول المحدودة. ولكن كل كلمة وكل عمل كان له قصده المعين في تدبير فدائنا ، وكل منها كان معينا له أن ينتج نتائجه .فلو أمكننا ادراك مقاصد الله فكل شيء سيبدو هاما وكاملا ومنسجما مع مأمورية الفادي.

إننا وإن كنا لا نستطيع الآن أن ندرك أعمال الله وطرقه يمكننا أن نميز محبته العظيمة التي تستتر وراء كل معاملاته هذه مع الناس. إن من يعيش قريبا من يسوع سيفهم كثيرا من سر التقوى وسيدرك ويعرف الرحمة التي تنطق بالتوبيخ وتختبر الخلق وتنير خفايا القلب.

عندما قدم يسوع الحق الفاحص الذي جعل كثيرين من تلاميذه يرتدون ، عرف ماذا سينتج عن تصريحاته. ولكن كان أمامه غرض من أغراض الرحمة ليتممه . لقد سبق فرأى أنه في ساعة التجربة سيجرب كل واحد من تلاميذه المحبوبين بتجارب قاسية . إن آلامه وأحزانه في جثسيماني وتسليمه وصلبه ستكون بالنسبة إليهم محنة قاسية ، فلو لم يكونوا قد امتحنوا من قبل فإن كثيرين ممن كانوا مسوقين ببواعث أنانية كانوا سيظلون مرتبطين بهم . وعندما حكم على سيدهم في دار الولاية ، وعندما انقلب الجمهور الذي كان قد هتف له كملك وسخروا به وشتموه ، وعندما صاح الناس من حوله قائلين في تهكم لاذع: "اصلبه"، وعندما خابت كل انتظاراتهم الدنيوية فإن هؤلاء الذين كانوا يطلبون ما لأنفسهم طارحين نير ولائهم ليسوع جلبوا على قلوب التلاميذ حزنا عظيما أثقل قلوبهم فوق حزنهم وخيبة آمالهم المحبوبة التي عاشوا في انتظار تحقيقها . وفي ساعة الظلمة تلك كان مثال أولئك المرتدين عنه كفيلا بأن يجعل كثيرين يرتدون . ولكن يسوع أحدث تلك الأزمة عندما كان بحضوره الشخصي يمكنه أن يشدد إيمان تابعيه الأمناء.

ما أعظم فادينا من سيد مشفق رحيم إذ وهو عالم بالحكم الصارم الذي كان سيحكم به عليه ، والموت الرهيب الذي كان سيقاسيه ، مهد بكل رقة وحب الطريق أمام التلاميذ ، وأعدهم لمواجهة التجربة القادمة عليهم وقواهم على احتمال الامتحان النهائي! [370]

الفصل الثاني والأربعون ــــتقاليد الناس

إن الكتبة والفريسيين إذ كانوا يتوقعون رؤية يسوع في الفصح أعدوا له شركا ، ولكن يسوع إذ كان يعلم نياتهم نحوه تغيب عن اجتماعهم ، "واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة" (مرقس 7 : 1). فإذ لم يذهب إليهم أتوا هم إليه . وقد بدا إلى حين كأن شعب الجليل سيقبلون يسوع كمسيا وأن سطوة الكهنة في ذلك الإقليم ستضمحل . إن إرسالية الاثني عشر التي دلت على مدى اتساع عمل المسيح ، والتي جعلت التلاميذ في نزاع وخلاف مباشر مع المعلمين - كل هذا أثار من جديد حسد رؤساء أورشليم وحفيظتهم . إن الجواسيس الذين كانوا قد أرسلوهم إلى كفرناحوم في بدء سني خدمة السيد والذين حاولوا أن يلصقوا به تهمة كسر شريعة السبت كان نصيبهم الارتباك والفشل ، ولكن المعلمين كانوا قد عقدوا العزم على تنفيذ مآربهم . فأرسلوا وفدا آخر ليراقبوا تحركات المسيح وليجدوا أية تهمة يوجهونها إليه.

وكما حدث من قبل كذلك حدث الآن فكان أساس شكواهم عدم اكتراثه للشرائع التقليدية التي كانت معطلة ومربكة لشريعة الله. هذه الشرائع التي أعلن عنها كان القصد منها أن تكون واقية لحفظ الناموس ، ولكنها كانت معتبرة في نظرهم أقدس من الناموس نفسه . ولما كانت تتعارض مع الوصايا المعطاة في سيناء كانت الأفضلية تعطى لوصايا المعلمين التقليدية.

جهالة التقاليد

وقد كان ضمن تلك الشرائع المفروض على الجميع حفظها تلك الشرائع الخاصة بالطهارة الطقسية. فإهمال تلك الطقوس التي كان ينبغي مراعاتها قبل الأكل كان يعتبر خطية هائلة لها جزاؤها في هذا العالم وفي العالم الآتي ، وكان قتل وإهلاك من يتعدى تلك التقاليد معتبرا فضيلة. [371]

وكانت القوانين الخاصة بالتطهير لا تعد ولا تحصى. وبالكاد كانت فترة العمر كلها تكفي لأن يتعلم الإنسان تلك القوانين كلها . وكانت حياة من كانوا يحاولون حفظ مطاليب المعلمين صراعا طويلا ضد النجاسة الطقسية ، فكانوا يقومون بغسلات وتطهرات لا تنتهي . فإذ انشغل الناس في خلافات تافهة وممارسات لم يأمر الله بها ابتعدت قلوبهم عن مبادئ شريعته العظيمة.

لم يكن المسيح ولا تلميذه يراعون هذه الغسلات الطقسية فجعل الجواسيس هذا الإهمال أساسا لاتهامهم. قالوا له على مسمع من الجمع: "لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ، بل يأكلون خبزاً بأيد غير مغسولة؟" (مرقس 7 : 5).

إنه كلما لمست رسالة الحق نفس إنسان بقوة عظيمة يثير الشيطان أعوانه لخلق المنازعات في مسائل تافهة. وهو بهذا يحاول أن يصرف الانتباه عن المسألة الحقيقية والمطلب الهام . وكلما ابتدأ عمل صالح

فهنالك قوم مماحكون هم على أتم استعداد لأن يشتبكوا في جدال عن الطقوس والتقاليد ليجتذبوا عقول الناس بعيدا عن الحقائق الحية . وعندما يبدو أن الله مزمع أن يعمل بكيفية خاصة لأجل شعبه ، فلا يغررن بهم أحد للدخول في جدال تكون عقباه هلاك النفوس . فالمسائل التي تهمنا أكثر من غيرها هي هذه هل أنا مؤمن بابن الله إيمانا خلاصيا؟ وهل حياتي منسجمة مع شريعة الله؟ “الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن بن يرى حياة”، “وبهذا نعرف أننا قد عرفناه: إن حفظنا وصاياه” (يوحنا 3 : 36 ؛ 1 يوحنا 2 : 3).

وصايا الناس

لم يحاول يسوع أن يدافع عن نفسه أو عن تلاميذه. ولم يشر إلى التهم الموجهة إليه بل تقدم ليكشف عن الروح التي دفعت أولئك المتعصبين للدفاع عن الطقوس البشرية ، فقدم لهم مثالا لما كانوا يحملونه باستمرار وما قد عملوه قبيل مجيئهم إليه . فقال: “حسناً! رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم! لأن موسى قال: أكرم أباك وأمك، ومن يشتم أباً أو أما فليمت موتاً. وأنا أنتم فتقولون: إن قال إنسان لأبيه أو أمه: قربان، أي هدية، هو الذي تنتفع به مني فلا تدعونه في ما بعد يفعل شيئاً لأبيه أو لأمه” (مرقس 7 : 9 — 12). لقد ألقوا بالوصية الخامسة عرض الحائط كأن لا قيمة لها ، ولكنهم كانوا حريصين أشد [372] الحرص على حفظ تقاليد الشيوخ. لقد علموا الشعب أن تكريس أموالهم للهيكل هو واجب أكثر قدسية من إعالة والديهم ، وأنه مهما كانت حاجة الوالدين فإن تقديم أي جزء للأب أو الأم مما قد كرسوه للهيكل كان يعتبر تدنيسا للأقداس . وما كان على الابن العاصي ألا يطق فقط بكلمة “قربان” على أملاكه مكرسا ما يملك لله ، وكان له أن يبقيها لينتفع بها لنفسه مدى الحياة ، وبعد موته كانت تخصص لخدمة الهيكل . وهكذا كانت له الحرية في الحياة وبعد الموت لأن يهين أبويه ويغدر بهما تحت ستار تصنع التكريس لله.

إن يسوع لم يقلل قط ، سواء بالقول أو العمل ، من التزام الإنسان بأن يقدم عطاياه وتقدماته لله. إن المسيح هو الذي أعطى كل وصايا الناموس الخاصة بالعشور والتقدمات . وعندما كان على الأرض مدح الأرملة التي قدمت كل ما كانت تملكه لخزانة الهيكل . ولكن الغيرة الظاهرية لله التي أبداها الكهنة والمعلمون كانت ادعاء منهم لستر رغبتهم في تمجيد أنفسهم . وقد خدعوا الشعب فحملوهم أحمالا لم يفرضها الله عليهم . بل حتى تلاميذ المسيح أنفسهم لم يكونوا أحرارا تماما من النير الذي وضعه على أعناقهم التعصب الممقوت وسلطة معلمي الشعب . والآن إذ كشف يسوع عن حقيقة روح أولئك المعلمين. حاول أن يحرر من عبء التقليد كل من كانوا راغبين رغبة صادقة في خدمة الله وعبادته.

ثم قال ، موجها كلامه إلى أولئك الجواسيس المحتالين: “يا مراؤون! حسناً تنبأ عنكم إشعياء قائلاً: يقترب إليّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه، وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي وصايا الناس” (متى 15 : 7 - 9). لقد كان كلام المسيح انتقاضا لكل النظام الفريسي . وقد أعلن أن أولئك المعلمين إذ جعلوا تعاليمهم فوق وصايا الله وشريعته فقد وضعوا أنفسهم في مركز أعلى من مركز الله.

يبغضون الحق

امتلأ أولئك المبعوثون القادمون من أورشليم غضبا. إنهم لم يستطيعوا أن يوجهوا إلى المسيح تهمة التعدي على شريعة الله المعطاة في سيناء لأنه دافع عنها وحارب تقاليدهم . فتلك الوصايا ، وصايا الناموس التي قدمها بدا الفرق عظيما ومدهشا بينهما وبين [373] تلك الوصايا الحقيرة التي هي من اختراع الناس.

أوضح يسوع للشعب ، كما أوضح لتلاميذه بعد ذلك بكيفية أكمل ، أن النجاسة لا تأتي من الخارج بل من الداخل... إن الطهارة والنجاسة هما شيئان يختصان بالنفس. فالذي ينجس الإنسان ليس هو إهمال الطقوس الخارجية التي هي من صنع الناس ، ولكن الذي ينجسه هو الأعمال والأقوال والأفكار الشريرة والتعدي على شريعة الله.

لاحظ التلاميذ غضب الجواسيس عندما فضحت تعاليمهم الكاذبة. ولاحظوا النظرات الغاضبة وسمعوا تمتمات السخط والانتقام التي لم يجرؤا على النطق بها علانية . فإذ نسي التلاميذ المرات العديدة التي برهن المسيح فيها على أنه يعرف أفكار القلب كما لو كان يقرأ من كتاب مفتوح بين يديه أخبروه عن تأثير كلامه في أولئك الجواسيس . فإذ كانوا يرجون أنه سيسترضي أولئك المبعوثين الساخطين قالوا له: "أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا؟" (متى 15 : 12).

" فأجاب وقال: كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يقلع" (متى 15: 13). إن العادات والتقاليد التي كان المعلمون يولونها أعظم اعتبار كانت من هذا العالم لا من السماء . ومهما كان سلطانها على الشعب عظيما فلا يمكنها أن تثبت أمام امتحان الله . فكل اختراع بشري يستعاض به عن وصايا الله سيظهر بطله وتفاهته وعدم جدواه في ذلك اليوم "لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة، على كل خفي، إن كان خيراً أو شراً" (جامعة 12 : 14).

إن إبدال وصايا الله بأوامر الناس لم ينته بعد. فحتى اليوم توجد بين المسيحيين قوانين وعادات لا أساس لها أكثر مما كان لتقاليد الآباء في إسرائيل . مثل تلك القوانين التي يسندها السلطان البشري قد احتلت مكان الشرائع التي أقرها الله . إن الناس يتعلقون بتقاليدهم ويوقرون عاداتهم ويضمرون الكراهية لمن يحاولون أن يبصروهم بخطئهم . ففي هذه الأيام عندما يطلب منا أن نسترعي انتباه الناس إلى وصايا الله وإيمان يسوع نرى نفس العداوة التي أظهرت في أيام المسيح . إنه مكتوب عن البقية الباقية من شعب الله: "فغضب التنين على المرأة، وذهب ليصنع حرباً مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله، وعندهم شهادة يسوع المسيح" (رؤيا 12 : 17). [374]

ولكن " كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يقلع" (متى 19: 13). فبدلاً من قبول سلطان من يقال عنهم أنهم آباء الكنيسة يجب علينا أن نقبل كلمة الآب الأبدي رب السماء والأرض . هنا فقط يوجد الحق غير مشوب بالخطايا . قال داود: "أكثر من كل معلمي تعلقت، لأن شهاداتك هي لهجي. أكثر من الشيوخ فطنت، لأني حفظت وصاياك" (مزمور 119 : 99 و 100). ليحترس كل من ينحنون أمام السلطة البشرية وعادات الكنيسة وتقاليد الآباء ولينتبهوا إلى إنذار المسيح القائل: "باطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس" (متى 15 : 19). [375]

الفصل الثالث والأربعون ـــ نقض السياجات

بعد الصدام مع الفريسيين ترك يسوع كفرناحوم مجتازا في الجليل إلى الإقليم الجبلي الواقع عند تخوم فينيقية. وإذ اتجه ببصره ناحية الغرب أمكنه أن يرى في السهل المنبسط أمامه مدينتي صور وصيداء

العريقتين في القدم بهياكلهما الوثنية وقصورهما الفخمة وأسواق التجارة العامرة وموانئهما التي ازدحمت فيها السفن . وكان يمتد وراءهما البحر الأبيض المتوسط بمياهه الصافية الزرقاء ، الذي كان سيسافر فيه رسل الإنجيل حاملين البشائر المفرحة إلى عواصم الإمبراطورية العظيمة المترامية الأطراف . ولكن ذلك الوقت لم يكن قد جاء بعد . أما العمل الذي كان أمام السيد حينئذ فكان هو إعداد التلاميذ لحمل الرسالة . وإذ أتى إلى هذا الإقليم كان يرجو أن يجد فيه المعتكف الذي لم يجده في بيت صيدا . ولكن هذا لم يكن غرضه الوحيد من تلك الرحلة.

“وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني، يا سيد، يا ابن داود! ابنتي مجنونة جداً” (متى 15 : 22). كان شعب هذا الإقليم من سلالة الشعب الكنعاني القديم . كانوا يعبدون الأوثان وكان اليهود يبغضونهم ويحتقرونهم . وكانت المرأة التي أتت إلى يسوع من ذلك الشعب . كانت وثنية ، ولذلك حرمت من الامتيازات التي كان ينعم بها اليهود كل يوم . كان يوجد كثيرون من اليهود ساكنين بين الفينيقيين ، وقد وصلت أنباء عمل المسيح إلى هذا الإقليم ، فسمع بعض الناس أقواله وشهدوا آياته ومعجزاته . وقد سمعت هذه المرأة عن هذا النبي الذي قيل لها أنه يشفي من كل الأمراض . فلما سمعت عن قدرته امتلأ قلبها رجاء . وإذ ألهمتها محبة الأم عولت على أن تعرض عليه حالة ابنتها ، فعقدت العزم على أن تتقدم بمحنتها إلى يسوع ولا بد له من أن يشفي ابنتها . كانت قد لجأت إلى الآلهة الوثنية ولكنها لم تجد عندها عونا . وفي بعض الأحيان جربت أن تفكر قائلة: ما الذي يستطيع هذا المعلم اليهودي أن يصنع لي؟ فجاءها الجواب: إنه يشفي كل [376] مرض ، سواء أكان من يأتون إليه أغنياء أو فقراء. لقد عزمت على ألا تضيع رجاءها الوحيد.

سياجات التعصب

عرف المسيح موقف هذه المرأة ، كما عرف أنها كانت تتوق لرؤيته فوضع نفسه في طريقها. وهو إذ يرثي لحزنها ويجبر قلبها يقدم مثالا حيا للدرس الذي قصد أن يعلمه .فلأجل هذا أتى بتلاميذه إلى ذلك الإقليم . لقد أرادهم أن يلمسوا مقدار الجهل المتفشي في المدن والقرى المتاخمة لأرض العبرانيين . فالشعب الذي أعطيت لهم كل فرصة لفهم الحق لم يكونوا يعرفون شيئا عن حاجات من حولهم . فلم يبذل أي مسعى لخير أولئك الجالسين في الظلمة . إن السور السميك الفاصل الذي أقامته الكبرياء اليهودية حال حتى بين التلاميذ أنفسهم والعطف على العالم الوثني . ولكن كان لا بد من نقض هذه السياجات.

إن المسيح لم يجب تلك المرأة إلى طلبها لأول وهلة ، فقد استقبل هذه المرأة التي تمثل الجنس المحتقر كما كان يمكن أن يستقبلها اليهود. وبهذا قصد أن يتأثر تلاميذه بالمعاملة الفاترة التي كان لليهود أن يعالجوا بها مثل هذه الحالة كما يثبته استقباله لتلك المرأة ، والكيفية الرقيقة المشفقة التي أرادهم أن يعاملوا بها مثل هذه الضيقة كما يظهر من استجابته لطلبها بعد ذلك.

ولكن مع أن يسوع لم يجبها بكلمة فإن تلك المرأة لم تفقد إيمانها. فإذ كان سائرا في طريقه كمن لم يسمعها اتبعته المرأة وجعلت تلاحقه بتوسلاتها . فإذ تضايق التلاميذ من صراخها سألوه أن يصرفها . لقد رأوا أن معلمهم قد عاملها بغير اكتراث ولذلك ظنوا أن التعصب اليهودي ضد الكنعانيين أمر يسره . ولكن تلك المرأة كانت تتوسل إلى مخلص شفوق . وإجابة على كلام التلاميذ قال يسوع: “لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة” (متى 15 : 24). ومع أنه بدا كأن هذا الجواب مطابق لتعصب اليهود فقد كان يتضمن توبيخا للتلاميذ ، وقد فهموه بعد ذلك على أنه مذكر لهم بما كان قد قاله لهم مرارا - أي أنه قد

جاء إلى العالم ليخلص كل من يقبله. [377]

فتات من المائدة

ظلت تلك المرأة تطلب إلى السيد بإلحاح متزايد جاثية عند قدميه وصارخة تقول: "يا سيد، أعنّي!" (متى 15 : 25). لكن يسوع ظل وكأنه يتغاضى عنها كمن يرفض توسلاتها. وطبقا لتعصب اليهود وجحود شعورهم أجابها قائلا: "ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب" (متى 15 : 26). فكان هذا الجواب في الواقع تأكيدا أنه ليس من العدل أن يغدق البركات المرسلة لشعب الله المفضل على الأجانب ، والغرباء عن إسرائيل . هذا الجواب كان يمكن أن يكون كافيا لتثبيط من لم يكن في مثل غيرة وإلحاح المرأة . ولكن هذه المرأة رأت أن فرصتها قد حانت ، إذ رأت خلف رفض يسوع الظاهر رأفة لم يستطع إخفاءها ، فأجابته بقولها: "نعم، يا سيّد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها!" (متى 15 : 27). ففي حين أن أبناء البيت يأكلون على مائدة أبيهم ، فالكلاب لا تترك بدون طعام ، فإن لها الحق في الفتات الساقط من تلك المائدة الحافلة بالطعام . وكذلك في حين توجد بركات وفيرة تعطى لإسرائيل أفلا توجد بركة لأجلها هي أيضا ؟ لقد كان ينظر إليها على أنها كلبة ، أفلا حق لها في الفتات الساقط من المائدة الذي هو من نصيب الكلاب والذي يفيض من فيض سخائه ؟

إن يسوع كان قد ترك حقل خدمته لأن الكتبة والفريسيين كانوا يتعقبونه ليقتلوه. كانوا يتذمرون ويشتكون . لقد أظهروا عدم الإيمان والمرارة ورفضوا الخلاص المقدم لهم مجانا . وهنا يلتقي المسيح بواحدة من ذلك الجنس المحتقر المنكود الحظ ، لم يكن لها حق التمتع بنور كلمة الله ومع ذلك فهي في الحال تخضع لتأثير المسيح الإلهي ، وغدا إيمانها ثابتا لا يتزعزع بقدرته على أن يمنحها الإحسان الذي تطلبه . وهي تطلب أن يسمح لها بالتقاط الفتات الساقط من مائدته . فلو سمح لها بأن تنال حظوة الكلاب فهي تقبل أن يحسبها كالكلاب . ليس في قلبها أي تعصب قومي أو ديني ولا أي كبرياء لتؤثر في تصرفاتها ، وفي الحال اعترفت بيسوع كالفادي وكمن هو قادر على أن يجيبها إلى كل م ا تطلبه منه.

اكتفى المخلص وشبعت نفسه. لقد امتحن إيمانها به . وبتصرفه معها برهن على أنها هي التي كانت معتبرة منبوذة من إسرائيل ما عادت غريبة بل صارت ابنة في بيت الله . [378] وكابنة كان لها الامتياز أن تشترك في هبات الله. وها المسيح يمنحها الآن طلبها ويختتم الدرس المقدم لتلاميذه . وإذ يلتفت إليها بنظرة العطف والمحبة يقول: "يا امرأة، عظيم إيمانك! ليكن لك كما تريدين" (متى 15 : 28). وقد شفيت ابنتها من تلك الساعة وما عاد الشيطان يزعجها بعد ذلك . فعادت المرأة إلى بلدها معترفة بمخلصها وسعيدة لأن صلاتها قد استجيبت.

العمل لأجل الآخرين

هذه هي المعجزة الوحيدة التي أجراها يسوع في هذه الرحلة ، فلكي يتمم ذلك العمل ذهب إلى تخوم صور وصيداء. لقد أراد أن يغيث تلك الأم المعذبة القلب ، وفي نفس الوقت يقدم مثالا في عمل الرحمة لامرأة من شعب محتقر لكي يعلم تلاميذه ويتمثلوا به عندما ينطلق إلى السماء ويتركهم . لقد أراد أن يخرجهم من عزلتهم اليهودية حتى يهتموا بالعمل لخير الشعوب الأخرى فضلا عن شعبهم.

تاقت نفس يسوع لكشف الستار عن أسرار الحق العميقة التي ظلت مستورة عن العيون والأذهان أجيالا طويلة ، فللأمم الحق في أن يكونوا مع اليهود ورثة ويحصلون على "نوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أفسس 3 : 6). كان التلاميذ متباطئين في فهم هذا الحق ، فقدم لهم معلمهم الإلهي درسا بعد آخر . وإذ كافأ إيمان قائد المئة في كفرناحوم وكرز بالإنجيل لأهل مدينة سوخار سبق فقدم البرهان على أنه لا يشارك اليهود في تعصبهم . ولكن السامريين كانت عندهم بعض المعرفة عن الله ، وقائد المئة أبدى شفقة وعطفا على شعب إسرائيل . وها المسيح الآن يقدم لتلاميذه امرأة كنعانية كانوا يعتبرون أنه لا يوجد سبب لأجله تنتظر من السيد إحسانا دون باقي شعبها ، فقدم لهم مثالا لما يجب أن يعامل به أمثال تلك المرأة . كان التلاميذ يظنون أن يسوع يغدق هبات نعمته بسخاء أكثر مما يجب . ولكنه أراهم أنه ينبغي ألا يقصر محبته على جنس واحد أو أمة واحدة.

عندما قال: "لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" كان يقرر الحق. وفي عمله الذي عمله مع تلك المرأة الكنعانية كان يتمم مأموريته ورسالته . فلقد كانت هذه المرأة شاة ضالة وكان يجب على بني إسرائيل أن يخلصوها و يستردوها . كان المسيح يقوم بهذا [379] العمل الذي كان منوطا بهم ولكنهم كانوا قد أهملوه.

فتح هذا العمل أذهان التلاميذ بدرجة أكثر جلاء لاكتشاف العمل الذي كان عليهم أن يقوموا به بين الأمم ، فوجدوا حقلا متسعا للخدمة والعمل النافع خارج حدود اليهودية .كما أنهم رأوا نفوسا ترزح تحت أثقال أحزان لم يكن يعرفها غيرهم من المحظوظين المنعم عليهم. كذلك كان يوجد بين أولئك الذين كانوا قد تعلموا أن يحتقروهم نفوس تتوق إلى المعونة والشفاء من الشافي المقتدر ، وكانوا جياعا إلى نور الحق الذي قد أغدق على اليهود بكل سخاء.

وبعد ذلك عندما انصرف اليهود عن التلاميذ بكل عناد لأنهم أعلنوا أن يسوع هو مخلص العالم ، وعندما نقض حائط السياج الكائن بين اليهود والأمم وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى أسفل عند موت المسيح ، فإن هذا الدرس وغيره من الدروس التي تشير إلى عمل الإنجيل الذي لا ينحصر في قوميات خاصة كان له تأثير قوي في نواب المسيح ، في توجيههم في عملهم وخدماتهم.

الخلاص للجميع

ثم إن زيارة المخلص لفينيقية والمعجزة التي أجراها هناك كان لها غرض أوسع. إن السيد لم يقم بذلك العمل لتلك المرأة المعذبة وحدها ، ولا لأجل التلاميذ ومن قد تسلموا منهم العمل من بعدهم ، بل "لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه" (يوحنا 20 : 31). إن نفس الناس الأشرار الذين قد أعاقوا غيرهم وأبعدوهم عن المسيح منذ تسعة عشر قرنا خلت لا يزال من على شاكلتهم يعملون نفس هذا العمل اليوم . والروح التي أقامت حائط السياج بين اليهود والأمم لا تزال تعمل بكل نشاط . لقد أقامت الكبرياء والتعصب جدرانا قوية للفصل بين طبقات الناس المختلفة ، كما حرف الناس وشوهوا المسيح ومهمته . وكثيرون يحسون بأنهم في الواقع محرومون من خدمة الإنجيل . ولكن ينبغي ألاّ يحس هؤلاء بأنهم حرموا من المسيح ، إذ لا توجد حواجز يمكن أن يقيمها الناس أو الشيطان إلا ويستطيع الإيمان أن يخترقها.

إن هذه المرأة الفينيقية ألقت بنفسها بالإيمان على الحواجز التي كانت قد أقيمت بين [380] اليهود والأمم. لقد وثقت بمحبة المخلص غير مكترثة للمثبطات أو الظواهر التي كان يمكن أن تسوقها

إلى الشك . وهكذا يريدنا المسيح أن نثق به . إن بركات الخلاص هي لكل نفس . ولا يوجد ما يحول بين أي إنسان من مانع كي يكون شريكا لمواعيد المسيح بالإنجيل إلا ما يختاره لنفسه.

إن نظام الطبقات كريه في عيني الله ، فهو يتجاهل كل ما يقوم به مثل هذا النظام. ويعتبر نفوس كل الناس ذات قيمة متساوية . إنه قد "صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض، وحتم بالأقات المعينة وبحدود مسكنهم، لكي يطلبوا الله لعلّهم يتلمسونه فيجدونه، مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً" وبدون تمييز من ناحية العمر أو المقام أو الجنسية أو الامتيازات الدينية الجميع مدعوون لأن يأتوا إليه ويحيوا . " كل من يؤمن به لا يخزى. لأنه لا فرق"، "ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر"، "الغني والفقير يتلاقيان، صانعهما كليهما الرب"، "لأن رباً واحداً للجميع، غنياً لجميع الذين يدعون به. لأن: كل من يدعو اسم الرب يخلص" (أعمال 17 : 26 و 27 ؛ غلاطية 3 : 28 ؛ أمثال 22 : 2 ؛ رومية 10 : 11 — 13). [381]

الفصل الرابع والأربعون ـــ الآية الحقيقية

"ثم خرج أيضاً من تخوم صور وصيداء، وجاء إلى بحر الجليل في وسط حدود المدن العشر" (مرقس 7 : 31).

في منطقة المدن العشر كان المجنونان اللذان من جرجسة قد شفيا. وفي تلك المدينة فزع الناس عندما غرقت الخنازير وطلبوا من يسوع أن ينصرف عن تخومهم . ولكنهم أصغوا إلى ما قاله لهم ذانك الرسولان اللذان تركهما السيد هناك . فكان الناس يرغبون أن يروه . فلما عاد إلى ذلك الإقليم اجتمع حوله جمهور من الناس . وقد أتى إليه برجل أصم أعقد . ولم يشف يسوع ذلك الرجل في الحال بكلمة كما هي عادته ، بل أخذه من بين الجمع على ناحية ووضع أصابعه في أذنيه ولمس لسانه وإذ رفع نظره نحو السماء تنهد عندما ذكر الآذان التي ترفض أن تنفتح للحق والألسنة التي ترفض الاعتراف بالفادي فإذ قال له: "انفتح" تكلم الرجل مستقيما . وإذ تغاضى عن أمر المسيح له بألا يقول لأحد أذاع الرجل قصة شفائه في كل مكان.

ثم صعد يسوع إلى جبل فجاءت إليه جموع كثيرة وأحضروا إليه المرضى والعمي والخرس والشل وطرحوهم عند قدميه فشفاهم كلهم حتى أن الناس مع أنهم وثنيون مجدوا إله العبرانيين. وقد ظلوا متجمهرين حوله ثلاثة أيام ، فكانوا في الليل ينامون في العراء ، وفي النهار يزدحمون حوله بكل شوق ليسمعوا كلامه ويروا آياته . وفي نهاية الثلاثة الأيام نفد ما كان معهم من الخبز . لم يرد يسوع أن يصرفهم صائمين فطلب من تلاميذه أن يقدموا لهم خبزا . ومرة أخرى برهن التلاميذ على عدم إيمانهم . لقد رأوا في بيت صيدا كيف أن القليل من الزاد كان كافيا ببركة المسيح لإشباع الجمع الغفير . ولكنهم في هذه المرة لم يقدموا للمسيح كل ما كان معهم واثقين بقدرته على أن يباركه فيكفي لإشباع الجموع الجائعة . زد على ذلك فإن من قد أشبعهم في بيت صيدا كانوا يهودا ، أما هؤلاء فكانوا أمما ووثنيين . وكان التعصب اليهودي لا يزال متمكنا من قلوب التلاميذ فأجابوا [382] يسوع قائلين: "من أين يستطيع أحد أن يشبع هؤلاء خبزاً هنا في البرية؟" (مرقس 8 : 4). لكنهم إطاعة لكلمته أحضروا إليه ما كان عندهم-سبعة أرغفة وسمكتين . فأكل الجميع وشبعوا . ثم رفعوا فضلات الكسر سبعة سلال . شبع أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد . ثم صرفهم يسوع فعادوا إلى ديارهم فرحين شاكرين.

يطلبون آية

وإذ نزل يسوع وتلاميذه في السفينة جاءوا إلى تخوم مجدل ، وهي تقع في أقصى جنوبي سهل جنيسارت. في تخوم صور وصيداء انتعشت روح المسيح بالإيمان الواثق الذي أبدته المرأة الفينيقية السورية . وقد قبله الشعب الوثني في المدن العشر بسرور . والآن بعدما أرسى في الجليل مرة أخرى

حيث ظهرت قدرته للجميع بأعظم قوة مدهشة وحيث كان قد أجرى أعظم معجزات الرحمة وقدم للشعب التعاليم- في ذلك الإقليم قوبل بالاحتقار وعدم الإيمان.

إن وفدا من الفريسيين كان قد انضم إليه ممثلون من أثرياء الصدوقيين ونبلائهم وحزب الكهنة والمتشككين وأشراف الأمة. وكان بين تينك الطائفتين عداء مستحكم . فالصدوقيون كانوا يريدون أن يخطبوا ود القوة الحاكمة حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بمراكزهم وسلطتهم، ومن الناحية الأخرى كان الفريسيون يشعلون في قلوب الشعب نار العداء للرومان ويتوقون لمجيء الوقت الذي فيه يستطيعون أن يطرحوا عنهم نير أولئك الغزاة الفاتحين . ولكن الفريسيين والصدوقيين اتحدوا الآن معا ضد المسيح . وشبيه الشيء منجذب إليه . والشر أينما يوجد يتحالف مع الشر لتحطيم الخير وملاشاته.

أتى الفريسيون والصدوقيون إلى المسيح طالبين منه أن يريهم آية من السماء. عندما خرج العبرانيون في أيام يشوع لمحاربة الكنعانيين في بيت حورون وقفت الشمس في السماء إطاعة لأمر ذلك القائد حتى انتصر الشعب ، وقد ظهرت عجائب أخرى عديدة مشابهة لهذه في تاريخهم . فطلب أولئك الرجال من يسوع الآن أن يريهم آية كتلك الآيات . ولكن تلك الآيات لم تكن هي ما يحتاجه اليهود . إن مجرد البرهان الخارجي لا يمكنه أن يفيدهم . لم يكونوا بحاجة إلى الإنارة العقلية قدر احتياجهم إلى التجديد الروحي. [383] قال لهم يسوع: "يا مراؤون! تعرفون أن تميّزوا وجه السماء" - فبتطلعهم في السماء ودرس علاماتها كان يمكنهم أن يتنبأوا عن حالة الجو — "أما علامات الأزمنة فلا تستطيعون!" (متى 16 : 3). إن أقوال المسيح التي نطق بها بالروح القدس وبكتتهم على الخطية كانت هي العلامة التي قدمها الله لأجل خلاصهم . بل لقد جاءت آيات من السماء مباشرة لتشهد لرسالة المسيح . فأغنية الملائكة التي سمعها الرعاة ، والنجم الذي قاد المجوس ، والحمامة والصوت الذي جاء من السماء عند عماده كانت كلها شهودا له.

"فتنهد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية؟"، "لا تعطى له آية إلا آية يونان النبي" (مرقس 8 : 12 ؛ متى 16 : 4). كما كان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال كذلك سيكون المسيح ((في قلب الأرض)) المدة نفسها . وكما كانت كرازة يونان آية لأهل نينوى كذلك كانت كرازة المسيح لذلك الجيل . ولكن كم كان الفرق عظيما بين الفريقين بالنسبة لقبول الكلمة ! إن شعب تلك المدينة الوثنية العظيمة ارتعبوا عندما سمعوا ذلك الإنذار المرسل إليهم من الله . فالملك والأشراف تذللوا والعظماء والوضعاء معا صرخوا إلى إله السماء فمنحهم الرحمة . " رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه، لأنهم تابوا بمناداة يونان، وهوذا أعظم من يونان ههنا!" (متى 12 : 40 و 41).

يتجاهلون أهمية المعجزات

إن كل معجزة أجراها المسيح كانت آية تشهد لألوهيته. لقد كان يعمل نفس العمل الذي قد أنبئ به عن مسيا . ولكن أعمال الرحمة هذه كانت في نظر الفريسيين إساءة مباشرة إليهم . كان رؤساء اليهود ينظرون إلى آلام الناس بفتور وعدم مبالاة . وفي كثير من الحالات كانت أنانيتهم وظلمهم سببا في تلك الآلام التي شفاها المسيح . وهكذا كانت عجائبه توبيخا لهم.

إن ما دعا اليهود لرفض المخلص كان من أنصع الأدلة على صفته الإلهية. وإن ما جعل لمعجزاته تلك الأهمية العظيمة هو حقيقة كونها صنعت لخير الإنسانية . وأعظم برهان على كونه مرسلا من قبل الله هو أن حياته أعلنت صفات الله . لقد نطق بكلام الله وعمل أعماله . فمثل هذه الحياة هي معجزة المعجزات.

[384]
عندما تقدم رسالة الحق للناس في هذه الأيام فهنالك كثيرون يطلبون آية كاليهود. اصنعوا أمامنا معجزة- هكذا يقولون . ولكن المسيح لم يصنع معجزة تلبية لطلب الفريسيين ، وهو لم يصنع معجزة في البرية نزولا على تحريضات الشيطان . إنه لا يعطينا قوة لتزكية أنفسنا أو إرضاء لعدم الإيمان والكبرياء . ولكن الإنجيل ليس عاريا عن آيات تبرهن على أنه من الله . أليست معجزة عظيمة كوننا نتحرر من عبودية الشيطان ؟ إن العداوة للشيطان ليست أمرا طبيعيا في القلب البشري . ولكن نعمة الله هي التي تغرسها فيه . فعندما نرى إنسانا تحت سيطرة إرادته المتمردة العنيدة ثم يتحرر مسلما نفسه بجملتها لجاذبية العوامل الإلهية السماوية ـ فقد أجريت في حياته معجزة . وكذلك الحال عندما يكون الإنسان واقعا تحت تأثير خداع قوي وبعد ذلك يدرك الحق الأدبي . ففي كل مرة تهتدي نفس إلى الله وتتعلم أن تحبه وتحفظ وصاياه يتم لها وعد الله القائل: "وأعطيكم قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم" (حزقيال 36 : 26). فالتغيير الذي يتم في القلب البشري والتبدل الذي يحدث في أخلاق الناس هو معجزة تعلن عن وجود مخلص حي إلى الأبد يعمل على خلاص النفوس . والحياة الثابتة في المسيح هي أيضا معجزة عظيمة .وفي الكرازة بكلمة الله تكون الآية التي ينبغي ظهورها في كل وقت هي حضور الروح القدس ليجعل قوة مجددة للسامعين . هذه هي شهادة الله أمام العالم على رسالة ابنه الإلهية.

إن أولئك الذين طلبوا من يسوع آية كانوا قد قسوا قلوبهم في عدم إيمان بحيث لم يدركوا أوجه الشبه بين صفاته وصفات الله. ولم يريدوا الاقتناع بأن رسالته هي إتمام للكتب المقدسة . وفي مثل الغني ولعازر قال يسوع للفريسيين: "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدّقون" (لوقا 16 : 31). وما كان يمكنهم أن يستفيدوا لو أجريت آية في السماء أو على الأرض.

" تحرزوا من خمير ..."

"فتنهّد (يسوع بروحه" وإذ ترك تلك الجماعة المماحكة عاد فنزل في السفينة مع تلاميذه. وفي صمت حزين عبروا البحيرة مرة أخرى . ومع ذلك لم يعودوا إلى المكان [385] الذي كانوا قد تركوه بل اتجهوا صوب بيت صيدا بقرب المكان الذي فيه أشبع الخمسة الآلاف . وعندما وصل يسوع إلى الناحية القصوى قال: "انظروا، وتحرّزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين" (متى 16 : 6). كان اليهود منذ عهد موسى معتادين أن ينزعوا الخمير من بيوتهم في أيام عيد الفصح ، وقد تعلموا أن الخمير يرمز إلى الخطية . ومع ذلك فإن التلاميذ لم يفهموا مراد يسوع . فإنهم إذ رحلوا عن مجدل فجأة نسوا أن يأخذوا خبزا فلم يكن معهم غير رغيف واحد ، وظنوا أن يسوع يشير إلى ذلك الظرف محذرا إياهم حتى لا يشتروا خبزا لا من فريسي ولا من صدوقي . إن عدم إيمانهم ، وافتقارهم إلى الإدراك الروحي جعلاهم في أحيان كثيرة يسيئون فهم أقوال المسيح كما في هذه المرة. أما الآن فقد وبخهم يسوع لكونهم ظنوا أنه ، هو الذي أشبع آلافا من الناس بقليل من أرغفة الشعير وصغار السمك ، يشير بهذا الإنذار الخطير فقط إلى الطعام البائد .لقد كان هنالك خطر من أن مجادلات الفريسيين والصدوقيين الماكرة تخمر عقول التلاميذ وقلوبهم بخمير عدم الإيمان وتجعلهم يستخفون بأعمال المسيح.

كان التلاميذ يميلون إلى الاعتقاد أن معلمهم كان ينبغي أن يجيب أولئك الرؤساء إلى طلبهم فيريهم آية من السماء. كانوا يعتقدون بقدرته الأكيدة على ذلك ، وأن مثل تلك الآية قد تبكم أولئك الأعداء . ولكنهم لم يكونوا يميزون رياء أولئك القوم المماحكين.

وبعد ذلك بشهور "إذا اجتمع ربوات الشعب، حتى كان بعضهم يدوس بعضاً" ردد يسوع نفس ذلك التعليم، ابتدأ يقول لتلاميذه: "أولاً تحرزوا لأنفسكم من خمير الفريسيين الذي هو الرياء" (لوقا 12 : 1).

إن الخمير يوضع في العجين فيعمل عمله خفية ويحول العجين كله إلى خمير مثله. وهكذا إذا سمح للرياء بالوجود في القلب فهو يتخلل الخلق والحياة بجملتها . ومن الأمثلة المدهشة على رياء الفريسيين ما وبخهم المسيح عليه حين فضح ممارسة "القربان" الذي بواسطته كان الأبناء يخفون خطية إهمال الواجب نحو الآباء تحت ستار التظاهر بالسخاء في تقديم العطاء للهيكل. كان الكتبة والفريسيون يروجون المبادئ الخادعة ويخفون الاتجاه الحقيقي لمبادئهم وينتهزون كل فرصة لكي يبثوها بكل دهاء في عقول سامعيهم . فهذه المبادئ الزائفة متى قبلها الناس فهي تعمل عمل الخميرة في العجين إذ تنفذ إلى الخلق [386] وتفسده . فهذا التعليم الخادع هو الذي جعل من الصعب على الشعب أن يقبلوا أقوال المسيح.

ديانة إخلاص

مثل هذه المؤثرات تعمل عملها في هذه الأيام عن طريق أولئك الذين يحاولون أن يفسروا شريعة الله بحيث تتفق مع أعمالهم. هذه الفئة من الناس لا يهاجمون الشريعة علانية ولكنهم يقدمون تعاليم نظرية تقوض مبادئ الشريعة . فهم يفسرون الشريعة بكيفية تلاشي قوتها.

إن نفاق الفريسيين كان ثمرة طلبهم ما لأنفسهم. لقد كان هدف حياتهم هو تمجيد أنفسهم. وهذا ما دفعهم إلى إفساد الكتاب المقدس وتطبيقه تطبيقا خاطئا . وأعماهم عن اكتشاف غرض رسالة المسيح . كان التلاميذ أنفسهم في خطر الوقوع في حبائل هذا الشر الماكر . والذين حسبوا أنفسهم ضمن اتباع يسوع ولكنهم لم يتركوا كل شيء لكي يصيروا له تلاميذ تأثروا إلى حد كبير بمماحكات الفريسيين . وفي أحيان كثيرة كانوا يتأرجحون بين الإيمان وعدم الإيمان ، ولم يميزوا أو يكتشفوا كنوز الحكمة المذخرة في المسيح . وحتى التلاميذ ، مع أنهم في الظاهر تركوا كل شيء لأجل يسوع فإنهم في قلوبهم لم يكفُّوا عن طلب أشياء عظيمة لأنفسهم . وهذا ما أثار بينهم المشاجرة في من منهم هو الأعظم . وهذا ما حال بينهم وبين المسيح إذ جعلهم غير جادين في تأييد رسالة انكار الذات التي قد علم بها ، ومتباطئين جدا في فهم سر الفداء . وكما أن الخميرة لو تركت لتعمل عملها ستتلف وتفسد فكذلك روح الأنانية وطلب ما للذات لو أبقي عليها في القلب فهي تنجس النفس وتهلكها.

وكما في أيام القدم ، ما أسرع انتشار هذه الخطية الخادعة الماكرة بين أتباع الرب في هذه الأيام! وكم من المرات تشوه خدمتنا للمسيح وشركتنا مع بعضنا البعض بالرغبة الخفية في تعظيم الذات ! وما أسرع أن تقفز إلى عقولنا فكرة مديح النفس وطلب استحسان الناس ! إن حب الذات والرغبة في انتهاج طريق أسهل مما قد رسمه الله هو الذي يجعلنا نبذل الوصايا الإلهية بأفكار الناس ومبادئهم وتقاليدهم . إن المسيح يوجه هذا الإنذار إلى تلاميذه حين يقول: "انظروا، وتحرّزوا من خمير الفريسيين". [387]

إن ديانة المسيح هي الإخلاص مجسما. والغيرة على مجد الله هي الباعث الذي يغرسه الروح القدس في النفس ، وليس غير قوة الروح الفعالة تستطيع أن تغرس في القلب هذا الباعث المقدس . إن قوة الله دون سواها هي التي تستطيع أن تطرد طلب ما للذات والرياء. وهذا التغيير هو آية عمله . فإذا كان الإيمان الذي نقبله يلاشي الأثرة والتظاهر ويقودنا إلى طلب مجد الله لا مجد أنفسنا نعلم أنه إيمان حقيقي صحيح . لقد كانت الطلبة الرئيسية في حياة المسيح هي هذه: "أيها الآب مجّد اسمك!" (يوحنا 12 : 28). وإذا كنا نسير في إثر خطواته فستكون هذه الطلبة هي لغة قلوبنا على الدوام . فنسلك "كما سلك"، "وبهذا نعرف أننا قد

عرفناه: إن حفظنا وصاياه” (1 يوحنا 2 : 6 و 3). [388]

الفصل الخامس والأربعون ــــ ظلال الصليب

كان عمل المسيح على الأرض يسرع إلى نهايته. لقد ظهرت أمامه في صورة واضحة الأماكن التي كان ينبغي أن تسير فيها قدماه . وحتى قبل تجسده رأى كل الطريق الذي كان يجب أن يسير فيه لكي يخلص ما قد هلك . فكل وخزة من الوخزات التي أدمت قلبه ، وكل إهانة وقعت عليه وكل عوز وكل حرمان كان عليه أن يتحمله- كل ذلك كان ماثلا أمام ناظريه قبلما خلع عنه ثياب الجلال وتاج الملك ونزل عن العرش ليخفي ألوهيته تحت سربال البشرية . إن الطريق من المذود إلى جلجثة كان واضحا أمامه . وقد عرف الآلام والأحزان التي ستحل به . عرف كل ذلك ومع هذا قال :"هأنذا جئت. بدرج الكتاب مكتوب عنّي: أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي" (مزمور 40 : 7 و 8).

كانت نتائج مهمته ماثلة أمامه أبداً . فحياته الأرضية التي كانت هكذا ملآنة كلها تعبا وتضحية كان يبهجها وينيرها الرجاء في أن كل آلامه وأوجاعه لن تذهب هباء . وإذ يبذل حياته لأجل خلاص بني الإنسان فسيعيد العالم إلى حالة الولاء لله . ومع أنه ينبغي له أن يقبل صبغة الدم أولا ، ومع أن خطايا العالم كانت ستثقل وتضغط على نفسه البارة ، ومع أن ظلال الحزن والويل الذي لا يعبر عنه كانت ستقع عليه فإنه من أجل السرور الموضوع أمامه اختار أن يحتمل الصليب مستهينا بالخزي.

كانت المشاهد المؤلمة الرابضة أمام يسوع مستورة عن عيون تلاميذه الذين قد اختارهم رفقاء له في خدمته ، ولكن الوقت الذي فيه سيشاهدون آلامه وأحزانه كان قريبا. إنهم سيرونه هو الذي قد أحبوه ووثقوا به مسلما لأيدي أعدائه ومعلقا على صليب جلجثة . وبعد قليل عليه أن يتركهم ليواجهوا العالم دون أن يحصلوا على عزاء وجوده معهم بالجسد.

لقد عرف كيف سيضطهدون حين يواجهون عدم الإيمان والكراهية المرة ، ولذلك رأى أن يعدهم لمواجهة تجاربهم. [389]

"من تقولون إني أنا؟"

أتى يسوع وتلاميذه الآن إلى إحدى قرى قيصرية فيلبس ، وكانوا قد تجاوزوا تخوم الجليل وأتوا إلى إقليم تفشت فيه عبادة الأوثان. وهنا كان التلاميذ بعيدين عن تأثير الديانة اليهودية ، وهاهم قريبون جدا من العبادة الوثنية ، فتمثلت حولهم أشكال الخرافات التي كانت منتشرة في كل أنحاء العالم . أراد المسيح أن تشعرهم رؤيتهم لتلك الأباطيل بمسئوليتهم نحو الوثنيين . وفي أثناء وجوده في ذلك الإقليم أراد أن يكف بعض الوقت عن تبشير الشعب ليتفرغ لتلاميذه أكثر من ذي قبل.

كان على وشك إبلاغهم خبر الآلام التي تنتظره. ولكنه قبل ذلك ابتعد عنهم قليلا وانفرد بنفسه وصلى لكي تكون قلوبهم مهيأة لقبول كلامه . وعندما عاد إليهم لم يصارحهم في الحال بما كان ينوي أن يقوله لهم

. بل قبل ذلك أعطاهم فرصة للاعتراف بإيمانهم به ليتشددوا لاحتمال التجربة القادمة عليهم . فسألهم قائلا: "من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟" (متى 16 : 13).

وبكل حزن اضطر التلاميذ للاعتراف بأن بني إسرائيل قد قصرت أفهامهم عن معرفة مسيحهم . صحيح أن بعض الناس عندما أبصروا معجزاته أعلنوا أنه ابن داود . والجموع الذين كانوا قد أكلوا وشبعوا من الخبز الذي باركه في مدينة بيت صيدا أرادوا أن ينادوا به ملكا على إسرائيل . وكثيرون كانوا على استعداد لأن يقبلوه كنبي ولكنهم لم يؤمنوا به على أنه مسيا.

أما الآن فقد وجه يسوع إليهم سؤالا خاصا بالتلاميذ أنفسهم فقال لهم: "وأنتم، من تقولون إني أنا؟" فأجابه بطرس قائلاً: "أنت هو المسيح ابن الله الحي!" (متى 16 : 15، 16).

لقد آمن بطرس من البداءة أن يسوع هو مسيا. إن كثيرين آخرين ممن كانوا قد تأثروا بكرازة يوحنا المعمدان وقبلوا المسيح بدأوا يشكون في صدق رسالة يوحنا عندما زج به السجن ومات ، وهاهم الآن يشكون في أن يسوع هو مسيا الذي ظلوا ينتظرونه طويلا . وكثيرون من التلميذ الذين كانوا بكل حرارة وحماسة ينتظرون من يسوع أن يعتلي عرش داود تركوه وما [390] عادوا يمشون معه عندما رأوه زاهدا في الملك. أما بطرس ورفاقه فقد ظلوا على ولائهم له . إن الموقف المزعزع الذي وقفه أولئك الذين كانوا يمجدونه بالأمس وهاهم يدينونه اليوم ، لم يلاش إيمان تابع المخلص الأمين . فلقد أعلن بطرس قائلا: "أنت هو المسيح ابن الله الحيّ!" إنه لم ينتظر أمجاد الملك لكي يتوج بها سيده بل قبله كما هو في حالة اتضاعه.

مصدر المعرفة الإلهية

كان بطرس يعبر عن إيمان الاثني عشر ، ومع ذلك فان التلاميذ كانوا لا يزالون بعيدين عن فهم مهمة المسيح. إن مقاومة الكهنة والرؤساء وتمويهاتهم وإن تكن لم تجعلهم يرتدون عن المسيح فقد أوقعتهم في حيرة وارتباك شديدين . لم يكونوا يرون الطريق واضحة أمامهم . إن تأثير تربيتهم الأولى وتعاليم معلمي إسرائيل وسلطان التقاليد- كل ذلك حال بينهم وبين رؤية الحق . ومع أن أشعة ثمينة كانت تسطع عليهم بين حين وآخر ، فإنهم كثيرا ما كانوا يشبهون قوما يتلمسون طريقهم في الظلام . ولكنهم في هذا اليوم قبلما وقفوا وجها لوجه أمام تجربة إيمانهم العظيمة استقر عليهم الروح القدس بقوة ، ولمدى وقت قصير تحولت أنظارهم عن "الأشياء التي ترى .. إلى التي لا ترى" (2 كورنثوس 4 : 18) وتحت رداء البشرية رأوا مجد ابن الله.

أجاب يسوع بطرس قائلا: " طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات" (متى 16: 17).

إن الحق الذي اعترف به بطرس هو أساس إيمان كل مؤمن. وهو الحق الذي أعلن المسيح نفسه أنه هو الحياة الأبدية . ولكن امتلاك هذه المعرفة ليس سببا لتمجيد الذات . إن هذا الإعلان لم يعط لبطرس لحكمة أو صلاح فيه . والبشرية في ذاتها لا يمكنها أبدا أن تبلغ إلى معرفة الأمور الإلهية . "هو أعلى من السموات، فماذا عساك أن تفعل؟ أعمق من الهاوية، فماذا تدري؟" (أيوب 11 : 8). إن روح التبني هو وحده الذي يعلن لنا أعم ا ق الله: "ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان ... فأعلنه الله لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله" (1 كورنثوس 2 : 6، 10). "سر الرب لخائفيه". وإن حقيقة كون بطرس أدرك مجد المسيح كانت برهانا على أنه من هؤلاء الذين كانوا "متعلّمين من الله" (مزمور 25 : 14 ؛ يوحنا 6 : 45). نعم بكل تأكيد: [391] "طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن

لحماً ودماً لم يعلن لك".

"على هذه الصخرة"

واستطرد يسوع قائلا: "وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (متى 16 : 18). إن كلمة "بطرس" معناها حجر — حجر متدحرج. إن بطرس لم يكن هو الصخرة التي بنيت عليها الكنيسة ، فإن أبواب الجحيم قويت عليه عندما أنكر سيده باللعن والحلف . ولكن الكنيسة بنيت على ذاك الذي لم تستطع أبواب الجحيم أن تقوى عليه.

قبل مجيء المخلص بعدة قرون أشار موسى إلى صخر خلاص إسرائيل. وقد تغنى صاحب المزامير عن "صخرة قوتي" كما كتب إشعياء يقول: "هكذا يقول السيد الرب: هأنذا أؤسس في صهيون حجراً، حجر امتحان، حجر زاوية كريمة، أساساً مؤسساً" (تثنية 32 : 4 ؛ مزمور 62 : 7 ؛ إشعياء 28 : 16). وبطرس نفسه إذ يكتب بوحي سماوي يطبق هذه النبوة على يسوع فيقول: "إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح. الذي يأتون إليه، حجراً حياً مرفوضاً من الناس، ولكن مختار من الله كريم، كونوا أنتم أيضاً مبنيين — كحجارة حية — بيناً روحياً" (1 بطرس 2 : 3 — 5).

"فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وضع، الذي هو يسوع المسيح" (1 كورنثوس 3 : 11). قال يسوع: "على هذه الصخرة أبني كنيستي". ففي محضر الله وكل أجناد السماء وفي محضر جيش الجحيم غير المنظور بنى المسيح كنيسته على الصخرة الحية . وتلك الصخرة كانت المسيح ذاته ،- جسده المكسور والمسحوق من أجلنا . إن الكنيسة المبنية على هذا الأساس لن تقوى عليها أبواب الجحيم.

ولكن كم كانت الكنيسة تبدو ضعيفة وواهنة القوى عندما نطق المسيح بهذا الكلام. فلم يكن هناك غير حفنة من المؤمنين الذين اصطفت ضدهم كل قوة الشيطان والناس الأشرار. ولكن أتباع المسيح لم يكن لهم أن يخافوا . فإذ كانوا مبنيين على صخرة خلاصهم لم يمكن أن ينقلبوا.

طوال ستة آلاف سنة بني الإيمان على المسيح ، وطوال ستة آلاف سنة كانت سيول [392] وعواصف الشيطان الحانق الغاضب تصدم صخرة خلاصنا ولكنها ظلت راسخة لا تتزعزع.

إن بطرس قد نطق بالحق الذي هو أساس إيمان الكنيسة ، وها يسوع يكرمه الآن على أنه نائب عن جماهير المؤمنين فيقول له: " وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات. وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات" (متى 16 : 19).

إن "مفاتيح ملكوت السموات" هي كلام المسيح . فكل كلام الكتاب المقدس هو كلامه وهو متضمن هنا . فهذا الكلام له السلطان على أن يفتح السماء أو يغلقها ، وهو يعلن شروط قبول الإنسان أو رفضه . وهكذا نجد أن عمل من يكرزون بكلمة الله إما أن يكون رائحة حياه لحياة أو رائحة موت لموت . فعملهم ورسالتهم هي رسالة لها خطورتها إذ عليها تتوقف نتائج أبدية.

رأس الكنيسة

إن المخلص لم يسند عمل الإنجيل إلى بطرس وحده. فبعد مرور زمن إذ كرر نفس ما قاله لبطرس

وجه الكلام مباشرة إلى الكنيسة . ومضمون هذا الكلام وجه إلى الاثني عشر كنواب عن جماهير المؤمنين . لو كان يسوع قد منح سلطة خاصة لواحد من التلاميذ فوق الباقين لما كنا نراهم مرارا عديدة يتشاجرون عمن منهم يكون الأعظم . فلا بد أنهم كانوا يخضعون لإرادة سيدهم ويكرمون من قد اختاره.

ولكن بدلا من إقامة واحد ليكون رئيسا قال لهم: "لا تدعوا سيدي" ، "ولا تدعوا معلّمين، لأن معلّمكم واحد المسيح" (متى 23 : 8 و 10).

"رأس كل رجل هو المسيح". إن الله الذي وضع كل شئ تحت قدمي المخلص "إياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل" (1 كورنثوس 11 : 3 ؛ أفسس 1 : 22 و 23). لقد بنيت الكنيسة على الأساس الذي هو المسيح وعليها أن تطيع المسيح بوصفه رأسها . عليها ألا تعتمد على إنسان أو تخضع لسيطرة إنسان . كثيرون يدعون أن مركزهم المهم في الكنيسة يخول لهم سلطة لأن يملوا على الآخرين ما يجب أن يعتقدوه وما يجب أن يفعلوه . ولكن الله لا يصادق على مثل هذا الادعاء . إن المخلص يعلن قائلا: "أنتم جميعاً إخوة" (متى 23 : 8). الجميع معرضون [393] للتجربة وللخطأ. ونحن لا نعتمد على إنسان محدود لإرشادنا . إن صخرة الإيمان هي وجود المسيح الحي في الكنيسة . فعلى هذه الصخرة يمكن لأضعف إنسان أن يستند . والذين يظنون أنفسهم أقوى الناس هم أضعف الناس ما لم يجعلوا المسيح قوتهم "ملعون الرجل الذي يتّكل على الإنسان، ويجعل البشر ذراعه". إن الرب هو "الصخر الكامل صنيعه"، "طوبى لجميع المتكلين عليه" (إرميا 17 : 5 ؛ تثنية 32 : 4 ؛ مزمور 2 : 12).

ينبئهم بآلامه

بعدما أدلى بطرس باعترافه أوصى يسوع تلاميذه ألا يقولوا لأحد أنه المسيح . وقد أوصاهم بذلك لأن الكتبة والفريسيين كانوا قد أصروا على مقاومته ، وأكثر من ذلك فإن الشعب وحتى التلاميذ أنفسهم كانت معرفتهم لمسيا زائفة ومشوهة بحيث أن المناداة به علنا لا تقدم للناس فكرة صحيحة عن صفاته أو عمله . ولكنه يوما بعد يوم كان يعلن نفسه لهم كالمخلص ، وهكذا أراد أن يقدم لهم فكرة صحيحة عن نفسه كمسيا.

كان التلاميذ لا يزالون ينتظرون أن يملك المسيح ملكا دنيويا . ومع أنه كان قد أخفى قصده أمدا طويلا فقد كانوا يعتقدون أنه لن يظل إلى الأبد فقيرا خامل الذكر ، فقد دنا الوقت الذي فيه يثبت ملكه . فبقاء عداوة الرؤساء والمعلمين قوية لن تقهر أبدا ، وبقاء المسيح مرفوضا من أمته ومحكوما عليه كمحتال ومخادع ويصلب كفاعل شر- مثل هذا الفكر لم يخطر للتلاميذ على بال . ولكن ساعة سلطان الظلمة كانت تدنو سريعا ، فوجب أن يصارح يسوع تلاميذه بالصراع القادم عليهم . وها قد اكتنفه الحزن وهو يتوقع قدوم التجربة.

إلى ذلك الحين لم يكن قد أطلعهم على شيء له علاقة بآلامه وموته . في حديثه مع نيقوديموس قال له: "كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3 : 14، 15). ولكن التلاميذ لم يسمعوا هذا ، حتى ولو سمعوه لما فهموه . أما الآن فها هم مع يسوع يصغون إلى أقواله ويشاهدون أعماله ، حتى أنهم ، بالرغم من وضاعة مظهره ومقاومة الكهنة والشعب له ، يمكنهم الآن أن يشتركوا مع بطرس في شهادته قائلين: "أنت هو المسيح ابن الله الحي!" أما الآن فقد حان الوقت الذي فيه يكشف لهم الستار عن المستقبل "من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ [394] ورؤساء الكهنة والكتبة،

ويقتل، وفي اليوم الثالث يقوم" (متى 16 : 21).

يسوع ينتهر المجرب

وإذ أبكم التلاميذ من فرط الحزن والذهول ظلوا يصغون إلى كلامه . لقد قبل المسيح اعتراف بطرس بأنه ابن الله ، ولكن حديثه عن آلامه وموته بقي غير مفهوم تماما . ولم يستطع بطرس السكوت فأمسك معلمه وكأنما هو يحاول أن يباعد بينه وبين الموت الذي يتهدده فقال: "حاشاك يا رب! لا يكون لك هذا!" (متى 16 : 22).

كان بطرس يحب سيده ، ولكن يسوع لم يمتدح تلميذه لإبداء رغبته في أن يحول بينه وبين الألم . إن كلمات بطرس لم تكن تحمل عونا أو عزاء ليسوع في المحنة الهائلة القادمة عليه . ولم تكن تلك الكلمات على وفاق مع مقاصد الله الرحيمة نحو العالم الهالك ،ولا مع درس التضحية الذي أتى يسوع ليعلمه للناس بمثاله . ولكن بطرس لم يكن يريد أن يرى الصليب متداخلا في عمل المسيح ، فكان تأثير كلامه على نقيض ما أراد يسوع أن يحدثه في عقول تابعيه . تأثر المخلص بحيث اضطر لأن ينطق بأقسى انتهار خرج من بين شفتيه إذ قال له: "اذهب عنّي يا شيطان! أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس" (متى 16 : 23).

كان الشيطان يحاول أن يثبط عزم يسوع ويحوله عن مهمته . وكان بطرس في حبه الأعمى يساند التجربة . لقد كان سلطان الشر هو منشئ تلك الفكرة ، وكان تحريضه خلف تلك الاستغاثة المؤثرة . إن المسيح إذ كان في البرية قدم له الشيطان ممالك العالم على شرط أن يتنحى عن طريق الاتضاع والتضحية . والآن هو يقدم نفس التجربة لتلميذ المسيح . كان يحاول أن يثبت نظر بطرس في المجد الأرضي حتى لا يرى الصليب الذي كان يسوع يريد أن يوجه نظره إليه . وعن طريق بطرس كان الشيطان يلح بالتجربة على يسوع . لكن المخلص لم ينظر إلى التجربة بل كان يفكر في تلميذه . لقد أقحم الشيطان نفسه بين بطرس وسيده حتى لا يتأثر قلب ذلك التلميذ من منظر اتضاع المسيح لأجله ولم يكن كلام المسيح موجها إلى بطرس بالذات بل إلى ذاك الذي كان يحاول أن يفصله عن فاديه "اذهب عنّي يا شيطان!" أي لا تتدخل فيما بعد بيننا وبين خادمي المغرور . دعني أقف أمام بطرس وجها لوجه لكي أعلن له سر محبتي. [395]

حتى الموت

لقد كان درسا قاسيا لبطرس ، درسا تعلمه ببطء وهو أن طريق المسيح على الأرض هو طريق محفوف بالآلام المبرحة والاتضاع . تراجع ذلك التلميذ عن اتباع سيده في طريق الآلام . ولكن في وسط آتون النار المحرقة كان عليه أن يكتشف بركة الألم . وبعد زمن طويل انحنت قامته القوية النشيطة تحت أثقال السنين والكفاح المرير فكتب يقول: "أيها الأحباء، لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة، لأجل امتحانكم، كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين" (1 بطرس 4 : 12، 13).

أوضح يسوع الآن لتلاميذه أن حياة إنكار الذات التي عاشها كانت مثالا لهم يجب أن يحتذوه . وإذ دعا إليه مع تلاميذه الناس الذين كانوا قريبين منه قال: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه

ويتبعني" (لوقا 9 : 23). لقد كان الصلب من بين العقوبات التي فرضتها روما . وكان الصليب من أقسى آلات الإعدام المذلة للنفس .وكان على المجرمين الأدنياء أن يحملوا صلبانهم إلى ساحة الإعدام . وفي كثير من الأحيان عندما كانت الصلبان على وشك أن توضع على أكتافهم كانوا يقاومون بعنف مستيئس إلى أن يغلبوا على أمرهم وتربط آلات الرعب تلك على أجسامهم . ولكن يسوع يأمر تلاميذه أن يحمل كل منهم صليبه ويتبعه . ومع أن التلاميذ لم يدركوا جليا معنى كلام المسيح حينئذ فقد فهموا أنه يشير إلى وجوب الخضوع لأمر ألوان الإذلال والاتضاع- الخضوع حتى الموت لأجل المسيح . كان كلام المخلص هذا أبلغ كلام جامع في وصف الخضوع التام ، ولكنه هو قبل كل هذا لأجلهم . إن يسوع لم يكن يحسب السماء مكانا مرغوبا فيه بينما نحن على الأرض هالكون . لقد ترك السماء ليعيش على الأرض حياة مجللة بالعار والإهانات وليموت لأجلنا موتا مشينا مهينا . ذاك الذي كان غنيا بكل ما في خزائن السماء من كنوز لا تقدر ، افتقر من أجلنا لكي نستغني نحن بفقره . وعلينا أن نقتفي آثار خطواته.

إن محبتنا للنفوس التي مات المسيح لأجلها معناها صلب الذات . ومن هو ابن الله يجب عليه من الآن أن ينظر إلى نفسه على أنه حلقة في السلسلة المدلاة لتخليص العالم ، وأنه [396] متحد بالمسيح في تدبير الرحمة يخرج معه لكي يطلب ويخلص الهالكين . على المسيحي أن يتحقق دائما من أنه قد كرس نفسه لله ، وأنه في أخلاقه عليه أن يعلن المسيح للعالم . إن العطف والحب والتضحية التي ظهرت في حياة المسيح ينبغي أن تعود للظهور في حياة كل من يعملون لأجل الله.

"فإن من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلّصها" (مرقس 8 : 35). إن الأنانية هي الموت . لا يمكن لأي عضو في الجسم أن يحيا إذا كان يقصر خدمته على نفسه . فالقلب إذا لم يرسل الدم إلى اليد والرأس سرعان ما يضعف . وكالدم كذلك ينبغي أن تتغلغل محبة المسيح إلى كل أعضاء جسده الروحي . فنحن أعضاء بعضنا لبعض ، والنفس التي ترفض أن تعطي ستهلك . "لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟" (مرقس 8 : 36).

آمال تتحطم

ولكن بعد الفقر والاتضاع في الزمن الحاضر وجه السيد أنظار تلاميذه إلى مجيئه في مجده ، ليس في مجد عرش أرضي بل بمجد الآب والأجناد السماويين . ثم قال: "وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله" (متى 16 : 27). ثم لأجل تشجيعهم قدم لهم هذا الوعد قائلاً: "الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته" (متى 16 : 28). ولكن التلاميذ لم يدركوا معنى كلام يسوع . لقد بدا كأن المجد بعيد جدا . كانت عيونهم مثبتة في المنظر الأقرب ، في الحياة الأرضية ، حياة الفقر والاتضاع والآلام . فهل يلتزمون بأن يتخلوا عن انتظاراتهم المشرقة عن ملكوت مسيا ؟ وهل لن يروا سيدهم ممجدا على عرش داود؟ وهل قدر المسيح أن يحيا كإنسان هائم على وجهه ووضيع بلا بيت يأوي إليه ليحتقر ويرفض ويموت ؟ لقد اعتصر الحزن قلوبهم لأنهم كانوا يحبون سيدهم . وضايقتهم الشكوك وأزعجت عقولهم لأنه بدا لهم أنه من غير المعقول أن يتعرض ابن الله لمثل ذلك الإذلال القاسي . فشرعوا يتساءلون فيما بينهم لماذا يذهب بمحض اختياره إلى أورشليم ليلاقي تلك المعاملة القاسية التي أخبرهم أنه سيعامل بها هناك ؟ وكيف يسلم نفسه إلى ذلك المصير ويتركهم في ظلمة داجية أشد ادلهماما من الظلمة التي كانوا فيها قبلما أعلن نفسه لهم ؟ [397]

في إقليم قيصرية فيلبس كان يسوع بعيدا عن متناول يد هيرودس وقيافا- هكذا كان التلاميذ يتناقشون . ليس ما يخافه من كراهية اليهود أو سلطان الرومان فلماذا لا يعمل هنا بعيدا عن الفريسيين ؟ ولماذا هو ملتزم أن يسلم نفسه للموت؟ وإذا كان سيموت فكيف يمكن أن تثبت مملكته وتتوطد بحيث أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها ؟ كان هذا سرا ولغزا محيرا لعقول التلاميذ.

وهاهم الآن مسافرون بمحاذاة بحر الجليل صوب المدينة التي ستتحطم فيها كل آمالهم وتنهار . ولم يتجاسروا على الاعتراض على المسيح . ولكنهم كانوا يتحدثون معا بأصوات منخفضة حزينة عما سيحدث في المستقبل . وحتى في وسط تساؤلهم كانوا يتعلقون بهذا الأمل أنه ربما يحدث حادث لم يخطر لأحد ولم يكن في حسبانهم يبعد عن سيدهم المصير المرعب الذي ينتظره . وهكذا ظلوا نهبا للأحزان والشكوك والخوف والرجاء ستة أيام طويلة كئيبة. [398]

الفصل السادي والأربعون ـــــ تجلي المسيح

اقترب وقت المساء عندما دعا يسوع إلية ثلاثة من تلاميذه هم بطرس ويعقوب ويوحنا ، وسار في طليعتهم عبر الحقول ، ثم جعلوا يصعدون في طريق وعر على جانب جبل منعزل . كان المخلص وتلاميذه قد قضوا اليوم في السفر وفي تعليم الناس ، وقد زاد صعود الجبل من إرهاقهم . كان المسيح قد أزاح أثقالا عن كواهل كثيرين من المتألمين وعقولهم ، وبعث الحياة في أجسامهم الذابلة الكليلة المعروقة . وحيث أنه كان هو أيضاً محاطا بالضعف البشري فقد أحس هو وتلاميذه بالتعب وهم يصعدون فوق الجبل.

كانت الشمس الغاربة ترسل بعض أشعتها إلى قمة الجبل فتنير بنورها الضعيف طريقهم وهم يصعدون . ولكن سرعان ما تتراجع أشعة النور أمام جحافل الظلام الزاحفة على الجبل والسهل على السواء ، فتختفي الشمس خلف الأفق الغربي ، ويلف الليل أولئك المسافرين في رداء أسود من الظلام القاتم . كانت الظلمة المحيطة بهم متجاوبة مع حياتهم الكاسفة الحزينة ، إذ كانت الظلمات تتجمع وتتكاثف من حولهم.

لم يجرؤ التلاميذ على أن يسألوا المسيح إلى أين هو ذاهب أو لأي غرض هو سائر في ذلك الطريق ، لأنه كثيرا ما كان يقضي ليال بكاملها فوق الجبال . فذاك الذي قد كونت يداه الجبال والأودية كان يحب الوجود في أحضان الطبيعة حيث يستمتع بالهدوء . وها التلاميذ يتبعون المسيح إلى حيث يسير . ومع ذلك فهم يتساءلون لماذا يتقدمهم معلمهم في صعود ذلك الجبل الصعب المرتقى وهم متعبون ، كما أنه هو أيضاً بحاجة إلى الراحة.

صلاة على سفح جبل

وهنا يخبرهم المسيح أن لا يتقدموا إلى أبعد من ذلك . وإذ ينفصل عنهم قليلا يسكب رجل الأوجاع تضرعاته بدموع وصراخ شديد . إنه يصلي في طلب القوة لاحتمال التجربة لأجل البشرية . عليه أن يتمسك من جديد بقدرة الله إذ بذلك وحده يستطيع أن [399] يواجه المستقبل . إنه يسكب أشواق قلبه لأجل تلاميذه حتى إذا هجمت عليهم يوما قوات الظلمة لا يفنى إيمانهم . فأخذ جسمه المنحني يبتل كله بالندى ولكنه لا يلاحظ ذلك ، وهوذا ظلمات الليل تتكاثف من حوله ولكنه لا يلاحظ شدة حلوكتها . وهكذا تمر الساعات متلكئة متباطئة . لقد شاركه التلاميذ في الصلاة في بادئ الأمر بكل تكريس وإخلاص ، ولكن بعد وقت نراهم يستبد بهم التعب والضنى ، فمع أنهم قد حاولوا أن يولوا ذلك المنظر اهتمامهم فقد غلبهم النوم . كان يسوع قد أنبأهم بآلامه فأخذهم معه ليشاركوه في الصلاة ، وحتى الآن هو يصلي من أجلهم . لقد رأى المخلص حزن التلاميذ فتاقت نفسه أن يخفف من هول أحزانهم بتأكيده لهم أن إيمانهم لم يكن باطلا . وقليلون حتى من بين الاثني عشر يستطيعون أن يتقبلوا الإعلان الذي يريد أن يخبرهم به . إنما التلاميذ

الثلاثة فقط الذين سيشاهدون أحزانه وآلامه في جثسيماني اختيروا للصعود معه إلى الجبل . وقد توخى الآن في صلاته أن يعلن لهم المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم لكي يعلن ملكوته للعيون البشرية ويتقوى تلاميذه حتى يستطيعوا مشاهدته . وهو يطلب أن يشاهدوا إعلان ألوهيته ، الأمر الذي لا شك سيساعدهم ويعزيهم في ساعة آلامه الرهيبة بيقين كونه ابن الله ، وإن موته المشين هو جزء من تدبير الفداء.

لقد سمعت صلاته ، ففيما كان جاثيا في تواضع وانسحاق على الأرض المحجرة إذا بالسماوات تنفتح فجأة والأبواب الذهبية ، أبواب مدينة الله تفتح على سعتها ويشرق على ذلك الجبل نور باهر يحيط بجسم المخلص ، فيشرق نور الألوهية من الداخل على البشرية، ويلتقي بالمجد الآتي من فوق . وإذ ينهض عن الأرض يقف بجلاله الإلهي وقد زايله حزنه النفسي . وإذا وجهه يضيء "كالشمس"، وثيابه تلمع "بيضاء كالنور" (متى 17 : 2).

السماوات تنفتح

فلما استيقظ التلاميذ رأوا فيض المجد الذي كان يغمر الجبل وينيره . وفي خوف وذهول يشخصون في سيدهم الذي يتألق بالنور. وإذ تقوى عيونهم على احتمال ذلك النور العجيب يكتشفون أن سيدهم ليس وحده إذ كان معه اثنان من السماويين يتحدثان معه وجها [400] لوجه ، وهما موسى الذي كان قد تحدث مع الله على جبل سيناء ، وإيليا الذي منح امتيازا عظيما ، امتيازا لم يتمتع به أحد غيره هو وشخص آخر فقط من جميع بني آدم- ألا يسود عليهما الموت أبدا.

قبل ذلك التاريخ بخمسة عشر قرنا وعلى جبل الفسجة وقف موسى ينظر إلى أرض الموعد ، ولكن بسبب خطيته التي كان قد ارتكبها في مريبة لم يسمح له بالدخول إليها . فلم يكن له أن يتمتع بامتياز إدخال الشعب إلى ميراث آبائهم . وقد توسل إلى الرب في حزن وانسحاق قائلا: "دعني أعبر ورأى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن، هذا الجبل الجيد ولبنان" (تثنية 34 : 25). ولكن طلبه رفض . لقد حرم حتى من ذلك الرجاء الذي أنار ظلمات تجوالهم في البرية مدى أربعين سنة . وكانت خاتمة تلك السنين سني التعب والمشقة والهموم الضاغطة على القلب في البرية قبرا في ذلك القفر . ولكن ذلك "القادر أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر" (أفسس 3 : 20) أجاب صلاة عبده على هذا القياس. لقد خضع موسى للموت ولكن لم يكن له أن يبقى في القبر ، فلقد أعاده المسيح إلى الحياة . إن الشيطان المجرب كان قد ادعى لنفسه الحق في جسد موسى لأنه كان قد أخطأ . ولكن المسيح المخلص أخرجه من القبر (يهوذا 9).

إن موسى وهو على جبل التجلي كان شاهدا لنصرة المسيح على الخطية والموت ، وهو يمثل أولئك الذين سيخرجون من قبورهم في قيامة الأبرار . أما إيليا الذي أصعد إلى السماء بدون أن يرى الموت فيمثل أولئك الذين سيكونون أحياء على الأرض عند مجيء المسيح ثانية ، والذين يتغيرون "في لحظة في طرفة عين، عند البوق الأخير" عندما "هذا المائت يلبس عدم موت" ز "هذا الفاسد .. عدم فساد" (1 كورنثوس 15 : 52 — 53). كان يسوع محاطا بنور السماء ، كما سيظهر عند مجيئه "ثانية بلا خطيّة للخلاص" لأنه سيأتي "بمجد أبيه مع الملائكة القديسين" (عبرانيين 9 : 28 ؛ مرقس 8 : 38). لقج تم آنئذ وعد المخلص لتلاميذه . فعلى الجبل كان ملكوت المجد العتيد ممثلا بكيفية مصغرة- فالمسيح هو الملك ، وموسى يمثل القديسين المقامين من قبورهم ، وإيليا يمثل القديسين الذين ستتغير أجسادهم. [401]

ثلاث مظال

إن الرسل لم يكونوا قد أدركوا المنظر على حقيقته ، ولكنهم يفرحون لأن معلمهم الصبور الوديع المتواضع الذي كان يجول من مكان إلى آخر كغريب لا حول له ولا قوة ، يحصل على كرامة من أولئك الذين تكرمهم السماء . وهم يعتقدون أن إيليا قد أتى لكي يعلن عن ملك مسيا وأن ملكوت الله على وشك أن يقام على الأرض . وهم سيتخلصون من ذكرى خوفهم وفشلهم إلى الأبد . إنهم يريدون أن يلبثوا هنا حيث قد أعلن مجد الله فها بطرس يهتف قائلا: "يا سيدي، جيد أن نكون ههنا. فنصنع ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة" (مرقس 9 : 5). إن التلاميذ واثقون من أن موسى وإيليا أرسلا لحماية معلمهم وتوطيد سلطانه كملك.

ولكن قبل الإكليل ينبغي أن يجيء الصليب . إن موضوع حديث موسى وإيليا مع يسوع لم يكن لتتويج المسيح ملكا بل كان لموته الذي كان عتيدا أن يكمله في أورشليم . إن يسوع إذ حمل ضعفات البشرية وكان مثقلا بأحزانها وخطاياها سار وحيدا بين الناس . فإذ ضغطت عليه ظلمة المحنة القادمة كان منعزلا بروحه في عالم لم يعرفه . بل حتى تلاميذه المحبوبون أنفسهم إذ كانوا مغرقين في شكوكهم وحزنهم وآمالهم وطموحهم لم يكونوا قد فهموا سر مهمته ورسالته . لقد كان يعيش محوطا بجو المحبة ، أما في العالم الذي قد خلقه فكان في عزلة . وها هي السماء ترسل رسلها إلى يسوع ، ولم يكن ذانك الرسولان من الملائكة بل كانا رجلين جازا في الآلام والأحزان حين كانا في العالم وكانا لذلك قادرين على أن يرثيا للمخلص في محنة حياته الأرضية . لقد كان موسى وإيليا عاملين مع المسيح وكانا مثله تائقين إلى خلاص الناس . لقد توسل موسى لأجل إسرائيل قائلا: "والآن إن غفرت خطيتهم، وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت" (خروج 32 : 32). وقد عرف إيليا حياة العزلة . فمدى الثلاث سنين وستة أشهر التي اشتدت فيها وطأة الجوع حمل عبء كراهية الأمة وكل ويلاتها . وقد وقف وحده إلى جانب الله على جبل الكرمل كما هرب وحده إلى البرية في غم ويأس شديدين . هذان الرجلان اللذان وقع عليهما الاختيار دون كل الملائكة الواقفين حول العرش أتيا ليتحدثا مع يسوع عن مناظر آلامه وعذابه وليعزياه بيقين عطف السماء عليه . وقد كان عماد هذا الحديث هو رجاء العالم وخلاص كل الناس. [402]

الكشف عن كنوز الحق

وإذ غلب التلاميذ النوم لم يسمعوا غير القليل من الحديث الذي دار بين المسيح وذينك الرسولين السماويين . فلكونهم لم يسهروا ولم يصلوا لم يحصلوا على ما قصد الله أن يمنحهم إياه عن معرفة آلام المسيح والأمجاد التي بعدها . لقد خسروا البركة التي كان يمكنهم الحصول عليها عن طريق الاشتراك معه في تضحية نفسه . كان هؤلاء التلاميذ بطيئي القلوب في الإيمان ، ولم يكونوا يقيمون كبير وزن للكنز الذي أرادت السماء أن تغنيهم به.

ومع ذلك فقد حصلوا على نور عظيم . وتأكد لهم أن كل السماء عرفت خطية الأمة اليهودية في رفضها للمسيح . ولقد أعطيت لهم بصيرة أنقى وأصفى لمعرفة عمل الفادي ، فرأوا بعيونهم وسمعوا بآذانهم أشياء لا يمكن أن تصل إليها أفهام الناس . لقد كانوا "معاينين عظمته" (2 بطرس 1 : 16). وتأكدوا أن يسوع هو بالحقيقة مسيا الذي قد شهد له الآباء والأنبياء ، وأنه هكذا كانت تعتبره ديار السماء.

وإذ كان التلاميذ لا يزالون شاخصين في المنظر الذي رأوه على الجبل "إذا سحابة نيّرة ظللتهم، وصوت من السحابة قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا" (متى 17 : 5). وإذ شاهدوا سحابة المجد التي كانت أشد بهاء ونورا من السحابة التي لازمت أسباط إسرائيل في البرية . وسمعوا صوت الله يتكلم بجلال مهيب جعل الجبل كله يهتز ويرتجف سقط التلاميذ على وجوههم إلى الأرض كالمصعوقين ، وظلوا منطرحين ومخفين وجوههم إلى أن اقترب منهم يسوع ولمسهم مبددا مخاوفهم بصوته المعهود قائلاً: "قوموا، ولا تخافوا" (متى 17 : 7). وإذ اجترأوا ورفعوا عيونهم رأوا أن المرسلين السماويين قد انصرفا واختفيا عنهم ، فصاروا وحدهم على الجبل مع يسوع. [403]

الفصل السابع والأربعون—الخدمة

قضى الليل كله في الجبل ، وعندما أشرقت الشمس نزل يسوع وتلاميذه إلى السهل . وإذ كان التلاميذ غارقين في تأملاتهم كانوا صامتين وشاعرين بالرهبة . حتى بطرس نفسه لم يكن لديه ما يقوله . لقد كانوا بكل سرور يودون البقاء في ذلك المكان المقدس الذي لمسه نور السماء والذي فيه كشف ابن الله عن مجده . ولكن الشعب كانوا بحاجة إلى العمل والخدمة ، كانوا يبحثون عن يسوع هنا وهناك.

وعند سفح الجبل كان جمع كبير من الناس إذ اجتذبهم إلى هناك وجود باقي التلاميذ الذين تخلفوا في أسفل الجبل ، وكانوا يعرفون إلى أين ذهب يسوع . وفيما كان يسوع

ورفاقه الثلاثة يقتربون من ذلك الجمع أوصاهم ألا يقولوا شيئا عما قد شاهدوه قائلا: "لا تعلموا أحداً بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات" (متى 17 : 9). كان على أولئك التلاميذ الذين رأوا تلك الرؤيا أن يتأملوا ويفكروا فيها في قلوبهم لا أن يذيعوها على الناس. فلو حدثوا بها الشعب لأثار ذلك السخرية أو الدهشة العاطلة . حتى التلاميذ التسعة لم يكونوا ليستطيعوا معرفة المنظر على حقيقته حتى يقوم المسيح من الأموات . ولكي نعرف إلى أي حد كان التلاميذ الثلاثة المقربون أنفسهم بطيئي الفهم علينا أن نلاحظ هذه الحقيقة وهي أنه بالرغم من كل ما قاله لهم يسوع عن الأحداث التي تنتظره جعلوا يتساءلون فيما بينهم عن ما هو القيام من الأموات . ومع ذلك فهم لم يطلبوا من يسوع تفسيرا . إن كلامه فيما يختص بالمستقبل ملأ قلوبهم حزنا ، فلم يطلبوا منه إعلانا جديدا عن أمر سروا بأن يصدقوه ولكنهم اعتقدوا أنه لن يحدث أبدا.

وإذ لمح الناس الذين في السهل يسوع قادما إليهم ركضوا للقائه وجعلوا يحيونه بعبارات التوقير والفرح . ولكن عينه السريعة أدركت أنهم كانوا مرتبكين ارتباكا عظيما . لقد بدا الاضطراب على التلاميذ إذ عرضت لهم حالة جلبت عليهم الخيبة المريرة والإذلال المهين. [404]

هزيمة التلاميذ

ففيما كانوا منتظرين في أسفل الجبل أحضر رجل ابنه إليهم ليحرروه من روح نجس أخرس كان يعذبه. لقد كان السلطان على إخراج الأرواح النجسة معطى للتلاميذ عندما أرسل يسوع الاثني عشر ليكرزوا في كل الجليل . فعندما خرجوا وهم أقوياء بالإيمان خضعت الأرواح الشريرة لسلطانهم . والآن هاهم يأمرون ذلك الروح المعذب باسم يسوع أن يخرج من الصبي ، ولكن الشيطان جعل يسخر بهم بإظهار قوته من جديد . وإذ لم يكن التلاميذ يستطيعون أن يعرفوا سبب هزيمتهم أحسوا بأنهم قد جلبوا العار على أنفسهم وعلى معلمهم . وكان بين ذلك الجمع قوم من الكتبة الذين أرادوا انتهاز تلك الفرصة لإذلالهم . فإذ ازدحموا حول التلاميذ جعلوا يمطرونهم بالأسئلة محاولين إثبات كونهم هم ومعلمهم قوما

مخادعين . ثم أعلن الكتبة قائلين بنغمة الانتصار: ها روح شرير لا يستطيع التلاميذ ولا المسيح نفسه أن يقهروه . وكان الناس يميلون للانحياز إلى جانب الكتبة فشمل ذلك الجمع روح الازدراء والاحتقار.

ولكن فجأة كفت تلك الاتهامات ، فلقد رؤي يسوع وتلاميذه الثلاثة يقتربون من الجمع فحدث انقلاب سريع في مشاعر الناس فنهضوا لاستقبال أولئك القادمين. إن الليلة التي قضوها في شركة مع المجد السماوي تركت آثارها على المخلص ورفاقه ، فعلى جباههم شوهد نور أوقع الرهبة في قلوب المشاهدين . فتراجع الكتبة الخائفين بينما رحب الشعب بيسوع.

وكأنه كان المخلص قد شاهد كل ما حدث ، فتقدم إلى منظر ذلك الصراع وثبت نظره على الكتبة قائلا لهم: "بماذا تحاورونهم؟" (مرقس 9 : 16) لكن تلك الأصوات التي كانت قبلا جريئة ومتحدية صمتت الآن.

وقد شمل الصمت ذلك الجمع كله. وإذا بوالد ذلك الصبي المعذب يشق لنفسه طريقا في وسط الجمع ، وإذ يسقط عند قدمي يسوع يفضي إليه بقصة اضطرابه وخيبته.

قال الرجل: "يا معلم، قد قدّمت إليك ابني به روح أخرس، وحيثما أدركه يمزّقه .. فقلت لتلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا" (مرقس 9 : 17 و 18). [405]

تطلع يسوع في من حوله فرأى الجمع المندهش والكتبة المماحكين والتلاميذ المرتبكين. ورأى عدم الإيمان رابضا في كل قلب . وبصوت شاعت فيه نغمة الحزن صاح قائلا: "أيها الجيل غير المؤمن، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتملكم؟" ثم أمر ذلك الأب المتضايق قائلاً: "قدّم ابنك إلى هنا!" (مرقس 9 : 19 ؛ لوقا 9 : 41).

"كل شيء مستطاع"

فأتى بالصبي وحالما وقعت عليه عينا المخلص صرعه الشيطان فوقع على الأرض في حالة تشنج ونزاع وأخذ يتمرغ ويزبد ويملا الجو بصرخات شيطانية.

ومرة أخرى تقابل رئيس الحياة مع رئيس قوات الظلام في حومة القتال- فالمسيح إتماما لرسالته قال: أرسلت "لأنادي للمأسورين بالإطلاق .. وأرسل المنسحقين في الحرية" (لوقا 4 : 18). وكان الشيطان يحاول التسلط على فريسته ويبقيها تحت سيطرته . وكان ضمن من ازدحموا في ذلك المكان ليروا نتيجة ذلك الصراع وإن لم يرهم أحد ، ملائكة النور وجنود الملائكة الأشرار . ولمدى لحظة سمح يسوع للروح الشرير أن يستعرض قوته حتى يدرك المشاهدون الخلاص الذي كان مزمعا أن يصنعه.

كان الناس ينتظرون وقد حبسوا أنفاسهم ، وكان أبو الولد موزع القلب بين الأمل والألم. فسأله يسوع: "كم من الزمان منذ أصابه هذا؟" (مرقس 9 : 21)، فأخبره ذلك الأب بقصة سني الألم الطويلة . ثم كمن لم يعد له طاقة على الاحتمال أكثر من ذلك صرخ قائلاً: "إن كنت تستطيع شيئاً فتحنّن علينا وأعنّا" (مرقس 9 : 22). "إن كنت تستطيع" حتى في تلك الساعة كان الرجل يشك في قدرة المسيح.

فأجابه يسوع بقوله: "إن كنت تستطيع أن تؤمن. كل شيء مستطاع للمؤمن" (مرقس 9 : 23). إن المسيح لا تنقصه القوة ولكن شفاء ذلك الابن موقوف على إيمان أبيه . فانهمرت الدموع من عيني الأب وقد أدرك ضعفه ولكنه ألقى بنفسه على رحمة المسيح وصرخ قائلاً: "أومن يا سيّد، فأعن عدم إيماني" (مرقس 9 : 24).

فالتفت يسوع إلى ذلك الصبي المعذب وانتهر الروح النجس قائلا: "أيها الروح الأخرس الأصم، أنا آمرك: اخرج منه ولا تدخله أيضاً!" (مرقس 9 : 25). وهنا تسمع [406] صرخة ويرى صراع مصحوب بالعذاب والألم . إن ذلك الشيطان وهو يخرج بدا كأنه يريد انتزاع الحياة من فريسته . وحينئذ انطرح الصبي بلا حراك وكأنه قد فارق الحياة .وهنا ينهامس الناس قائلين: "إنه مات!" (مرقس 9 : 26). ولكن يسوع يمسك بيده ويقيمه ويسلمه إلى أبيه في ملء صحة الجسد والعقل . فشكر الأب وابنه ذلك المحرر العظيم ، "فبهت الجميع من عظمة الله) (لوقا 9 : 43)، بينما انصرف الكتبة مطأطئي الرؤوس

من أرفع مجد إلى أدنى اتضاع

"إن كنت تستطيع شيئاً فتحنّن علينا وأعنّا"، ما أكثر ما تردد النفوس المثقلة بالخطايا هذه الصلاة! وهذا ما يجيب به السيد ، مشفقا ، على كل تلك الابتهالات: "إن كنت تستطيع أن تؤمن. كل شيء مستطاع للمؤمن". إن الإيمان هو الذي يربطنا بالسماء ويمنحنا قوة بها نكافح ضد قوات الظلمة . إن الله في المسيح قد أعد الوسائل لإخضاع كل الميول الخاطئة ومقاومة كل التجارب مهما كانت قوتها . إلا أن كثيرين يعوزهم الإيمان ولذلك يظلون بعيدين عن المسيح . فلتلق هذه النفوس ذواتها على رحمة المخلص الرقيق القلب ، في عجزها وعدم استحقاقها . لا تنظروا إلى أنفسكم بل إلى المسيح . إن ذاك الذي شفى المرضى وأخرج الشياطين عندما كان يسير بين الناس هو نفس الفادي القدير اليوم . إن الإيمان يأتي بكلمة الله . إذاً تمسك بهذا الوعد: "من يقبل إليّ لا أخرجه خارجاً" (يوحنا 6 : 37). واطرح نفسك عند قدميه واصرخ قائلاً: "أؤمن يا سيد، فأعن عدم إيماني". إنك لن تهلك أبداً إن فعلت ذلك.

إن تلاميذ المسيح المقربين رأوا في فترة قصيرة أرفع مجد وأدنى اتضاع . رأوا البشرية متغيرة إلى صورة الله ، كما رأوها منحطة حتى صارت شبيهة بالشيطان . فمن الجبل حيث تحدث السيد مع الرسولين السماويين وشهد له بصوت آت من المجد الأسنى بأنه ابن الله ، رأوا يسوع ينزل ليلتقي بمنظر محزن ومنفر للغاية- الولد المجنون بوجهه المشوه وهو يصر بأسنانه في نوبات ألم وتشنج ، لم يستطع أي إنسان أن يشفيه أو يغيثه منها . وإذا بالفادي القدير ، الذي منذ ساعات قليلة وقف في ملء مجده أمام تلاميذه المندهشين ، ينحني ليقيم أسير الشيطان من الأرض المتمرغ فيها . وفي أتم صحة جسدية [407] وقوة عقلية يعيده إلى أبيه وإلى عائلته.

كان هذا تعليما عظيما عن الفداء- الشخص الإلهي ينحني من مجد الآب ليخلص الهالكين . ثم إن ذلك العمل مثل رسالة التلاميذ أيضاً . فحياة خدام المسيح ينبغي ألا تقضي كلها فوق الجبل مع يسوع في ساعات استنارة وبهجة ومجد ، بل بقي لهم عمل يعملونه في السهل . إن النفوس التي أسرها الشيطان تنتظر كلمة الإيمان والصلاة لتحررها.

"حبة خردل"

كان التلاميذ التسعة لا يزالون مستغرقين يفكرون في حقيقة فشلهم المرير . فلما عاد يسوع ليجتمع بهم وحدهم سألوه: "لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه؟ فقال لهم يسوع: "لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن

لديكم. وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم" (متى 17 : 19 — 21). إن عدم إيمانهم الذي حال بينهم وبين العطف على المسيح والتجاوب معه ، وعدم الاكتراث الذي به قابلوا العمل المقدس المسند إليهم كان هو السبب في هزيمتهم عندما اشتبكوا في صراع مع قوات الظلمة.

إن كلام المسيح الذي نطق به مشيرا إلى موته جلب على التلاميذ الأحزان والشكوك .وإن اختيار المسيح للتلاميذ الثلاثة ليصحبوه في الصعود إلى الجبل أثار حسد التسعة الباقين . وبدلا من تقوية إيمانهم بالصلاة والتأمل في كلام المسيح جعلوا يتأملون في المفشلات والظلم الواقع عليهم . فإذ كانوا في هذه الحالة النفسية المظلمة الكريهة شرعوا في النضال مع الشيطان.

فلكي ينتصروا في ذلك الصراع كان ينبغي لهم أن يقبلوا على هذا العمل بروح المسيح التي تخالف روحهم هذه . كان ينبغي أن يتقوى إيمانهم بالصلاة الحارة والصوم واتضاع القلب . كان ينبغي لهم أن يتخلصوا من الأنانية ويمتلئوا بروح المسيح وقوته . فالتضرع إلى الله بغيرة ومواظبة وإيمان- ذلك الإيمان الذي يقود إلى الاعتماد الكامل على الله وتكريس النفس لعمله في غير تحفظ- هذا وحده هو الذي يضمن للناس معونة الروح القدس في حربهم مع الرياسات والسلاطين ومع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد [408] الشر الروحية في السماويات.

قال يسوع: "لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: "انتقل من هنا إلى هناك فينتقل". ومع أن حبة الخردل صغيرة جدا فإنها تحتوي على مبدأ الحياة السري الذي به تنمو أعلى الأشجار . وعندما تلقى حبة الخردل في الأرض فإن البذرة الصغيرة تمسك بكل عنصر أعده الله لتغذيتها . وسرعان ما تنمو حتى تصير شجرة عظيمة . فإن كان عندك مثل هذا الإيمان فأنت تتمسك بكلمة الله وبكل العوامل المرجوة التي عينها. وهكذا يتقوى إيمانك ويأتيك بقوة السماء لمعونتك . وكل العوامل التي كومها الشيطان في طريقك مع أنه يبدو أنها مما لا يمكن تخطيه كالجبال الدهرية ستختفي أمام الإيمان "ولا يكون شيء غير ممكن لديكم" (متى 17 : 20). [409]

الفصل الثامن والأربعون ـــــمن هو الأعظم ؟

إن يسوع عند عودته إلى كفرناحوم لم يتوجه إلى الأماكن المعروفة التي كان يعلم الناس فيها بل بكل هدوء قصد هو وتلاميذه البيت الذي كان سيقيم فيه مؤقتا . وفي أثناء وجوده في الجليل قصد أن يقصر تعليمه على تلاميذه لا على خدمة الجموع ، في المدة الباقية له هناك .

وفيما كانوا يسافرون في الجليل قصد المسيح مرة أخرى أن يهيئ عقول تلاميذه لمواجهة الأحداث التي تنتظره . فقال لهم أنه صاعد إلى أورشليم ليموت ويقوم ثانية . ثم أضاف إلى ذلك إعلانه الغريب الخطير وهو أنه سيسلم إلى أيدي اعدائه . ولكن حتى في هذه المرة لم يفهم التلاميذ كلامه . ومع أن ظلال حزن كئيبة وقعت عليهم فقد وجد روح التنافس مجالا في قلوبهم . لقد تناقشوا فيما بينهم من منهم يعتبر الأعظم في الملكوت ، وقصدوا أن يخفوا أمر هذه المشاجرة عن يسوع . وفي هذه المرة لم يلتفوا حوله كما قد اعتادوا أن يفعلوا من قبل بل تراجعوا إلى الخلف حتى يتقدمهم هو وهم يدخلون إلى كفرناحوم . عرف يسوع أفكارهم واشتاق إلى أن يعلمهم وينصحهم . ولكنه انتظر ساعة هدوء وسكون تكون فيها قلوبهم مهيأة لقبول كلامه.

دراهم الجزية

وحالما وصلوا إلى تلك المدينة جاء الرجل الموكول إليه جمع الإيرادات للهيكل إلى بطرس وقال له: ”أما يوفي معلّمكم الدرهمين؟“ (متى 17 : 24). لم تكن هذه ضريبة مدنية بل كانت تبرعا دينيا يفرض على كل يهودي كل سنة إعانة للهيكل . ومن يرفض دفع هذا التبرع كان يعتبر خائنا للهيكل- كان هذا في نظر معلمي الشريعة خطية هائلة جدا. إن موقف المخلص من قوانين المعلمين وتوبيخه الصريح لمروجي التقاليد كان حجة تسند اتهامهم له بأنه يريد أن يخرب الهيكل ويبطل خدماته . وهنا وجد أعداؤه الفرصة [410] مواتية ليلصقوا به العار ، كما وجدوا في شخص جامع جزية الهيكل حليفا نافعا.

رأى بطرس في سؤال جامع الجزية تلميحا يمس ولاء المسيح للهيكل ، فإذ كان بطرس يغار على كرامة سيده أجاب دون أن يستشير السيد قائلا إنه يدفع.

ولكن بطرس فهم غرض سائله فهما جزئيا . فقد كان بعض طبقات الشعب معفى من دفع تلك الضريبة . ففي أيام موسى عندما أفرز اللاويون لخدمة المقدس لم يعط لهم ميراث بين الشعب . قال الرب: ”لم يكن للاوي قسم ولا نصيب مع إخوته. الرب هو نصيبه“ (تثنية 10 : 9). وفي أيام المسيح كان الكهنة واللاويون لا يزالون معتبرين الأنبياء أيضا معفين من دفعها . إن المعلمين إذ طلبوا الجزية من يسوع أغفلوا تصريحه بأنه نبي ومعلم ، وكانوا يعاملونه كأي شخص عادي . فلو امتنع عن دفع الجزية لاعتبر ذلك في نظرهم خيانة للهيكل ، ومن الناحية الأخرى لو دفع تلك الضريبة لاعتبر ذلك تبريرا لرفضهم إياه

كنبي.

قبل ذلك بقليل كان بطرس قد اعترف بأن يسوع هو ابن الله ، أما الآن فقد ضاعت منه فرصة كان يمكنه فيها أن يعلن الصفة الحقيقية لسيده . فإذ قال لجامع الجزية بأن يسوع سيدفع الضريبة كان في الواقع يقر الرأي الكاذب عن السيد الذي كان الكهنة والرؤساء قد أذاعوه عنه.

فلما دخل بطرس البيت لم يشر السيد بشيء إلى ما قد حدث ولكنه سأله بقوله: "ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أمن بينهم أو من الأجانب؟" فأجاب بطرس قائلاً: "من الأجانب". فقال يسوع: "فإذا البنون أحراراً" (متى 17 : 25 و 26). عندما تفرض على شعب أية مملكة ضريبة لمعاضدة مليكهم يكون أبناء الملك أنفسهم معفين منها بالطبع . وهكذا إسرائيل كشعب الله كان المفروض فيهم أن يقدموا ما يلزم من أموال لاستمرار تلك الخدمة ، أما يسوع ابن الله فلم يكن تحت مثل ذلك الالتزام . فإذا كان الكهنة واللاويون معفين بسبب ارتباطهم بالهيكل فكم بالحري ذاك الذي كان الهيكل هو بيت أبيه !

ولو كان يسوع قد دفع الضريبة بدون اعتراض لكان في الواقع قد اعترف بصدق [411] ادعاء المعلمين ، وكان بذلك قد أنكر ألوهيته . ولكن في حين رأى أنه من الصواب إجابة الطلب فقد أنكر الادعاء المبني عليه ذلك الأمر . وفي تدبير الضريبة قدم البرهان على صفته الإلهية . فقد بدا جليا أنه واحد مع الله ولذلك فهو ليس تحت التزام بدفع الضريبة كأي شخص عادي في المملكة.

نقود في فم سمكة

فأمر يسوع بطرس قائلا: "اذهب إلى البحر وألق صنارة، والسمكة التي تطلع أولاً خذها، ومتى فتحت فاها تجج إستاراً (قطعة نقود)، فخذه وأعطهم عني وعنك" (متى 17 : 27).

فمع أنه كان قد أخفى ألوهيته تحت رداء البشرية فقد أعلن مجده في هذه المعجزة . فاتضح أن هذا هو الذي قد أعلن على لسان المرنم: "لأن لي حيوان الوعر والبهائم على الجبال الألوف. قد علمت كل طيور الجبال، ووحوش البرية عندي. إن جعت فلا أقول لك، لأن لي المسكونة وملأها" (مزمور 50 : 10 — 12).

وفي حين أن يسوع جعل الأمر واضحا من أنه ليس تحت أي التزام بأن يدفع الضريبة فهو لم يشتبك في أي جدال مع اليهود في هذا الأمر ، وإلا لكانوا يحرفون أقواله ويستخدمونها ضده . وحتى لا يكون عثرة بامتناعه عن دفع تلك الجزية فقد فعل ما لم يكن يطلب منه عدلا . وكان هذا الدرس ذا قيمة عظيمة لتلاميذه . إذ كانت ستحدث تطورات هامة خاصة بعلاقتهم بالهيكل وخدمته ، وقد علمهم المسيح بهذا ألا يوقفوا أنفسهم موقف العداء من النظام المقرر بدون داع ، فكان عليهم أن يتجنبوا ، على قدر الإمكان ، إعطاء الأعداء فرصة لتحريف إيمانهم وعقيدتهم . ففي حين ينبغي للمسيحيين ألا يضحوا بأي مبدأ من مبادئ الحق عليهم أن يتجنبوا المجادلات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

"يكون آخر الكل"

عندما كان المسيح وتلاميذه وحدهم في البيت حين ذهب بطرس إلى البحر دعا التلاميذ الآخرين إليه وسألهم: "بماذا كنتم تتكالمون فيما بينكم في الطريق؟" (مرقس 9 : 33). إن وجود يسوع وسؤاله الذي وجهه إليهم جعل الأمر يبدو أمامهم في نور يختلف اختلافا بينا [412] عما قد رأوه عندما كانوا يتشاورون معا في الطريق . فخجلهم وإدانتهم لأنفسهم جعلاهم يصمتون . كان يسوع قد أخبرهم بأنه سيموت لأجلهم فلذلك كان طموحهم الأناني يختلف اختلافا مؤلما عن محبته المنكرة لذاتها.

وعندما أخبرهم يسوع بأنه سيقتل ويقوم ثانية كان يحاول اجتذابهم إلى التحدث معه عن الامتحان الشديد الذي سيجوز فيه إيمانهم . فلو كانوا مستعدين أن يقبلوا ما أراد هو أن يكشفه لهم لكانوا قد جنبوا أنفسهم كثيرا من الحزن واليأس . وكان يمكن لكلامه أن يجيئهم بالعزاء في حزنهم وخذلانهم . ولكن مع أنه كان قد خاطبهم بكل وضوح عما كان ينتظره فإن تصريحه لهم بأنه بعد قليل سيذهب إلى أورشليم أضرم في نفوسهم الأمل بأن الملكوت مزمع أن يقام . وهذا ما دعاهم إلى التساؤل عمن منهم هو المزمع أن يشغل أعظم مركز . فلما عاد بطرس من البحر أخبره التلاميذ عن سؤال المخلص . وأخيرا تجاسر واحد منهم فوجه إلى يسوع هذا السؤال: "من هو أعظم في ملكوت السموات؟" (متى 18 : 1).

فجمع المخلص تلاميذه حوله وقال لهم: "إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل" (مرقس 9 : 35). كان في هذا الكلام جلال وقوة تأثير عظيمان . ولكن التلاميذ كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك ذلك . فهم لم يروا ما قد رآه المسيح . لم يفهموا طبيعة ملكوت المسيح ، وهذا الجهل كان هو السبب الظاهر لمشاجرتهم . ولكن السبب الحقيقي كان أعمق من ذلك . فلو أوضح لهم طبيعة الملكوت لأمكنه أن يهدئ الخصومة والنزاع إلى حين ولكن ما كان يمكنه أن يمس العلة المتأصلة في قلوبهم . حتى بعدما أعطاهم أكمل معرفة فإن أي تساؤل عن الأفضلية كان لا يمكن أن يثير النزاع مجددا . وهكذا كانت الكوارث تصيب الكنيسة بعد انطلاق المسيح إلى السماء . إن التنازع على المكان الأرفع والأعظم كان من آثار تلك الروح التي بدأت الخصومة والصراع في العوالم العليا والتي أنزلت المسيح من السماء ليموت . لقد رأى أمامه كما في رؤيا لوسيفر "زهرة بنت الصبح" مكللاً بمجد كل الملائكة المحيطين بالعرش، وكانت له أوثق صلة بابن الله. قال لوسيفر: "أصير مثل العلي" (إشعياء 14 : 12، 14). وإن رغبته في تعظيم نفسه هي التي زجت بالخصومة والنزاع في السماء وهي التي طردت جمعا غفيرا من ملائكة الله . لو كان لوسيفر قد رغب حقا في أن يصير مثل العلي لما ترك مكانه المعين [413] له في السماء ، لأن روح العلي تظهر في الخدمة المنكرة لنفسها . لقد كان لوسيفر يرغب في بلوغ مركز الله دون صفاته ، فطلب لنفسه أرفع مكان . وكل مخلوق يتأثر بهذه الروح ويخضع لها يعمل نفس العمل . وبهذه الكيفية لا يكون هنالك مفر من وجود النفور والنزاع والخصام . إن الملك والسلطان يعطى للأقوى . فمملكة الشيطان هي مملكة العنف والقوة ، وكل فرد يعتبر الآخر عقبة في طريق تقدمه أو حجرا يقف عليه ليرتفع إلى مكان أعلى.

بينما كان لوسيفر يتصور أن مساواته لله هي شيء يستحق أن يناله ويحتفظ به فإن المسيح العلي الممجد "أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب" (فيلبي 2 : 7 و 8). الآن كان الصليب أمامه مباشرة ، أما تلاميذه فقد كانوا مملوئين من محبة الذات وطلب ما للنفس . وهذا هو نفس مبدأ مملكة الشيطان ، وبذلك لم يمكنهم أن يوجدوا في حالة عطف أو تجاوب مع سيدهم أو حتى يفهموا كلامه عندما حدثهم عن اتضاعه لأجلهم.

"مثل الأولاد"

بكل رقة ولطف ، وإن يكن بتأكيد مهيب ، حاول يسوع أن يصحح ويصلح هذا الشر . وقد أراهم ما هو المبدأ الذي يسود في ملكوت السماوات وعلى أي عظمة حقيقية ينطوي كما يقدره المغبوطون في المواطن العليا . إن أولئك الذين كانوا مسوقين بروح الكبرياء وحب الشهرة كانوا يفكرون في أنفسهم وفي المكافآت التي سينالونها بدلا من أن يردوا لله فضل عطاياه التي قد حصلوا عليها . هؤلاء لا يوجد لهم مكان في ملكوت السماوات لأنهم محسوبون من صفوف الشيطان.

قبل الكرامة التواضع . إن السماء تختار العامل الذي ، كيوحنا المعمدان ، يأخذ مكانا متواضعا أمام الله ، ليحتل مكانا ساميا أمام الناس . وأقرب تلميذ إلى التشبه بالأولاد هو أكفأ إنسان في خدمة الله . إن رسل السماء يتعاونون مع ذاك الذي لا يطلب مجد نفسه بل يطلب خلاص النفوس . وإن من يحس إحساسا عميقا بحاجته إلى معونة الله هو الذي يتوسل في طلبها ، والروح القدس يعطيه لمحات من يسوع التي تعينه وترفع نفسه . وإذ يخرج من مقدس الشركة مع المسيح سيذهب ليخدم أولئك الذين يهلكون في خطاياهم. [414] إنه ممسوح للقيام بخدمته وإنجاز مهمته ، ولا بد من أن ينجح حيث قد يخفق كثيرون من العلماء وجبابرة العقول ولكن عندما يشمخ الناس بأنوفهم وهم شاعرون أنه لا يمكن الاستغناء عنهم لضمان نجاح تدبير الله العظيم فالرب يلقي بهم جانبا . وسيتضح أن الرب غير موقوف عليهم . والعمل لا يتوقف لكونهم قد أخرجوا منه بل يسير إلى الأمام بقوة أعظم.

لم يكن يكفي أن يتعلم تلاميذ يسوع منه عن طبيعة ملكوته فقد كانوا بحاجة إلى تغيير قلوبهم حتى يكونوا في حالة انسجام مع مبادئ الملكوت . فإذ دعا يسوع إليه ولدا صغيرا أقامه في وسطهم ثم بكل رفق وحنان احتضن ذلك الصغير بين ذراعيه ثم قال لهم: “إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات” (متى 18 : 3). إن صفات البساطة ونسيان الذات، والمحبة الواثقة التي يمتاز بها الطفل الصغير هي الصفات التي تقدرها السماء. وهذه هي مميزات العظمة الحقيقية.

ومرة أخرى أوضح يسوع لتلاميذه أن ملكوته لا يتميز بالعظمة أو المظاهر العالمية .إن كل هذه الفروق تنسى عند قدمي يسوع . فالغني والفقير والعالم والجاهل يتلاقون دون تفكير في نظام الطبقات أو الرفعة العالمية . بل الجميع يتلاقون كنفوس مشتراة بالدم والجميع يعتمدون على ذاك الذي قد افتداهم بدمه لله.

إن النفس المخلصة المنسحقة عزيزة في عيني الله . وهو يختم الناس بخاتمه لا على أساس مقامهم أو ثروتهم أو عبقريتهم بل على أساس اتحادهم بالمسيح . إن رب المجد راض عن الودعاء والمتواضعي القلب . قال داود: “تجعل لي ترس خلاصك .. ولطفك” الذي هو عنصر من الخلق البشري — “يعظمني” (مزمور 18 : 35).

قال يسوع: “من قبل واحداً من أولاد مثل هذا باسمي يقبلني، ومن قبلني فليس يقبلني أنا بل الذي أرسلني” (مرقس 9 : 37). “السموات كرسيي، والأرض موطن قدمي .. وإلى هذه أنظر: إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي” (إشعياء 66 : 1، 2).

توبيخ التعصب

أيقظ كلام المخلص في نفوس التلاميذ شعورا بعدم الثقة في ذواتهم . ولم يشر السيد في [415] جوابه إلى أي واحد منهم بالذات . ولكن يوحنا سأله ما إذا كان تصرفه صائبا في حالة من الحالات . فبروح الأطفال بسط تلك المسألة أمام يسوع قائلا: “يا معلّم، رأينا واحداً يخرج شياطين باسمك وهو ليس يتبعنا،

فمنهناه لأنه ليس يتبعنا” (مرقس 9 : 38).

ظن يعقوب ويوحنا أنهما بمنعهما هذا الإنسان يحرصان على كرامة سيدهما . ولكنهما بدأا يكتشفان أنهما يغاران على كرامتهما الشخصية . وقد اعترفا بخطئهما وقبلا توبيخ يسوع حين قال: “لا تمنعوه، لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمي ويستطيع سريعاً أن يقول عليّ شراً” (مرقس 9 : 39). إن من يعلنون ولاءهم ومحبتهم ليسوع بأية كيفية ينبغي ألا يصدهم عن عملهم أحد . كان كثيرون قد تأثروا تأثرا عميقا بأخلاق المسيح وأعماله وكانت قلوبهم مفتوحة له بالإيمان ، ولأن التلاميذ ما استطاعوا تمييز البواعث الحقيقية لأولئك القوم ، كان عليهم أن يحترسوا لئلا يثبطوا عزيمة تلك النفوس . وعندما انطلق يسوع إلى السماء وما عاد موجودا معهم بالجسد وترك العمل أمانة بين أيديهم كان ينبغي أن تتسع مداركهم وألا يكونوا متزمتين بل كان عليهم أن يوسعوا أفق عطفهم بحيث يكون شبيها بذلك العطف الذي قد رأوه في معلمهم.

إن حقيقة كون أي إنسان غير متفق معنا في آرائنا الشخصية ومعتقداتنا وكل شيء ، لا يبرر كوننا نمنعه من القيام بخدمة الله . إن المسيح هو المعلم العظيم ، ونحن لا حق لنا في أن نقضي على أحد أو ندين أحدا ، بل على كل منا أن يجلس في وداعة عند قدمي يسوع لنتعلم منه . فكل نفس جعلها الله راغبة ومنتدبة هي قناة يعلن فيها المسيح محبته الغافرة فكم يجب علينا أن نكون على حذر لئلا تضعف عزيمة واحد يحمل نور الله وهكذا نحجز النور الذي يريد الله أن ينير به كل العالم !

إن الخشونة أو البرودة التي يبديها أي تلميذ نحو إنسان يعمل المسيح على اجتذابه - مثل ذلك العمل الشبيه بما عمله يوحنا إذ منع إنسانا من صنع معجزات باسم المسيح- قد يكون من نتائجها أن يرتد ذلك الإنسان وتسير قدماه في اتجاه معسكر العدو فيتسبب في هلاك تلك النفس . قال يسوع إنه بدلا من ذلك “خير له لو طوّق عنقه بحجر رحى وطرح في البحر” ثم أضاف قائلاً: “وإن أعثرتك يدك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنّم، إلى النار التي لا تطفأ. حيث دودهم لا يموت [416] والنار لا تطفأ. وإن أعثرتك رجلك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحاة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح في جهنّم في النار التي لا تطفأ” (مرقس 9 : 43 — 45).

العثرات

لماذا هذه اللغة الغيورة الجادة وذلك الكلام الذي لا يمكن أن يوجد كلام أقوى منه ؟ “لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلّص ما قد هلك” (متى 18 : 11). أفيكون تلاميذه أقل تقديرا لنفوس بني جنسهم من تقدير ذاك الذي هو صاحب الجلال في السماء ؟ لقد تكلفت كل نفس ثمنا غاليا . فما أرهب خطية كوننا نضل نفسا واحدة أو نبعدها عن المسيح ، إذ بذلك تكون محبة المخلص واتضاعه وآلامه عبثا بالنسبة إلى تلك النفس .

“ويل للعالم من العثرات! فلا بد أن تأتي العثرات” (متى 18 : 7). إن العالم لكونه ملهما من الشيطان لا بد أن يقاوم أتباع المسيح محاولا أن يقوض إيمانهم ويلاشيه ، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي قد اتخذ اسم يسوع المسيح ومع ذلك يرتكب ذلك الشر . إن سيدنا يلحقه العار بسبب أولئك الذين يدعون أنهم يخدمونه ومع ذلك يصورون صفاته أسوأ تصوير فينخدع بهم كثيرون ويسيرون في طريق الضلال.

فكل عادة أو عمل من شأنه أن يوقع أي إنسان في الخطية ويجلب العار على المسيح يحسن بنا طرحه بعيدا عنا مهما تكن التضحية . إن ما يهين الله لا يمكن أن يكون ذا نفع لأي إنسان . وأن بركة الله لا تستقر على أي إنسان يحاول الانتقاض على مبادئ الحق الأبدية . وإن خطية واحدة نبقيها في قلوبنا ونعتز بها

كافية لأن تهوي بالأخلاق وتضل الآخرين . فإذا كان لابد من قطع اليد أو بتر الرجل أو قلع العين لأجل صيانة الجسد من الموت فكم يجب علينا أن نكون أكثر غيرة في طرح الخطية بعيدا عنا حتى لا تهلك النفس!

في الخدمات الطقسية كان يضاف الملح إلى كل تقدمه . وهذا ، كتقديم البخور ، كان يدل على أن بر المسيح وحده هو الذي يجعل خدمتنا مرضية لله . وقد أشار يسوع إلى هذا العمل قائلا: "كل ذبيحة تملح بملح"، "ليكن لكم في أنفسكم ملح، وسالموا بعضكم بعضاً"، (مرقس 9 : 49، 50). إن كل من يريدون أن يقدموا أنفسهم "ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله" (رومية 12 : 1) عليهم أن يقبلوا الملح المخلص أي بر مخلصنا وحينئذ يصبحون "ملح [417] العالم" فيوقفون الشر المتفشي بين الناس عند حده كما أن الملح يحفظ من الفساد "متى 5 : 13). ولكن إن فسد الملح وصار بلا ملوحة ولم يبق غير الاعتراف بالتقوى دون محبة المسيح فلا توجد قوة تعمل للخير . ولا يمكن للنفس أن تبذل مجهودا أو تأثيرا لخير العالم . ويسوع يقول: إن نشاطكم ومقدرتكم على رفع شأن ملكوتي يتوقفان على قبولكم لروحي . ينبغي لكم أن تكونوا شركاء في نعمتي لكي يمكنكم أن تكونوا رائحة حياة لحياة . وحينئذ لن يكون هنالك مجال للتنافس أو التناحر ، ولا يطلب أحدكم ما لنفسه ولا يتحرق أحد على احتلال أرفع مكان ، وستكون قلوبكم عامرة بالمحبة التي لا تطلب ما لنفسها بل تطلب الخير للآخرين.

احتمال أضعاف الضعفاء

إذا ردد الخاطئ التائب هذه الشهادة "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!" (يوحنا 1 : 29)، وثبت نظره في المسيح فلابد أن يصير إنسانا مجددا . فخوفه يتبدل إلى فرح وشكوكه إلى رجاء . ويمتلئ قلبه بروح الشكر فيفيض على لسانه . والقلب الحجري ينسحق ، ويفيض في النفس سيل دافق من المحبة . ويصير المسيح فيه ينبوع ماء حي ينبع إلى حياة أبدية . إننا عندما نرى يسوع رجل الأوجاع ومختبر الحزن عاملا على تخليص الهالكين وإذا به يهان ويحتقر ويستهزأ به ويطرد من مدينة إلى أخرى حتى تنتهي رسالته ، وعندما نراه في جثسيماني وعرقه ينزل كقطرات من الدم ويموت على الصليب في آلام مبرحة - عندما نرى كل هذا فلا تعود الذات تصخب لكي تلفت إليها الأنظار . فإذ ننظر إلى يسوع فسنخزى من فتورنا وعدم اكتراثنا ونومنا وتكاسلنا وطلب ما لأنفسنا . وحينئذ سنرضى أن نكون أي شيء أو لا شيء بالمرة حتى نقدم للسيد خدمة من القلب . وسنفرح إذ نحمل الصليب ونتبع يسوع أو نحتمل التجربة أو الاضطهاد أو العار لأجل اسمه العزيز

"فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء" (رومية 15 : 1). ينبغي لنا ألا نستخف بأي إنسان يؤمن بالمسيح مهما يكن إيمانه ضعيفا أو متعثرا في خطواته كما لو كان طفلا صغيرا . إننا بسبب ما عندنا من امتيازات قد حرم منها الآخرون- سواء أكان ذلك تعليما أو تهذيبا أو أخلاقا نبيلة أو تربية مسيحية أو اختبارا دينيا- فنحن مدينون لمن لم يكن [418] لهم نصيب وافر مثلنا عن هذه الامتيازات . وعلينا أن نخدمهم بقدر ما نستطيع . فإن كنا أقوياء فلنسند أيدي الضعفاء . إن ملائكة المجد الذين هم في كل حين ينظرون وجه الآب الذي في السماء يسرون بخدمة أخوة الرب الأصاغر . وهم يعنون عناية خاصة بالنفوس المرتعدة التي عندها كثير من الأخلاق الشاذة والصفات الكريهة . والملائكة يوجدون دائما في الأماكن حيث الحاجة تقضي إلى خدماتهم ، أي مع أولئك الذين يخوضون غمار الحرب مع الذات والذين لا تشجع بيئتهم ولا ظروفهم على مواصلة النضال ، وفي هذه الحرب يتعاون أتباع المسيح الأمناء.

الخروف الضال

ولو انغلب أحد أولئك الأصاغر وارتكب خطأ في حقك فواجبك يقتضيك أن تسعى إلى رده . فلا تنتظر حتى يخطو هو أول خطوة أو يبذل أول مسعى في سبيل الصلح . لقد قال يسوع: "ماذا تظنون؟ إن كان لإنسان مئة خروف، وضلّ واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال و يذهب يطلب الضال؟ وإن اتّفق أن يجده، فالحق أقول لكم: إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضلّ. هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السماوات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار" (متى 18 : 12 — 14).

وفي روح الوداعة، "ناظراً إلى نفسك لئلا تجرّب أنت أيضاً" (غلاطية 6 : 1). اذهب إلى ذلك الخاطئ "وعاتبه بينك وبينه وحدكما" (متى 18 : 15). احذر من التشهير به أو إعلان خطئه على ملأ من الناس ، ولا تجلب العار على المسيح بكونك تشهر بالخطية أو الخطأ الذي قد ارتكبه ذاك الذي يحمل اسم المسيح . في غالب الأحيان ينبغي مصارحة المخطئ بخطئه ، وتبصيره بذلك الخطأ كي يستطيع أن يصلح نفسه . ولكن لا حق لك في أن تحكم عليه أو تدينه . ولا تحاول تزكية نفسك ولتكن كل مساعيك منصرفة إلى رده .ففي معالجة جروح النفس تدعو الحاجة إلى أرق اللمسات وألطف المشاعر . إنما تلك المحبة الفائضة من قلب ذبيح جلجثة هى التي تجدي هنا لا سواها فعلى الأخ أن يتعامل مع أخيه بكل رقة وعطف . واعلم يقينا أن الذي يرد خاطئا "يخلّص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا" (يعقوب 5 : 20). [419]

ومع ذلك فقد لا يكون هذا المسعى مجديا . ولذلك قال المسيح: "خذ معك أيضاً واحداً أو اثنين" (متى 18 : 16). فربما تفلح المساعي والجهود المتحدة حيث لم تنجح مساعي الأخ الأول . وحيث أنهما لا ينحازا إلى أحد طرفي النزاع فسيقومان بمساعيهما في غير تحيز . وهذه الحقيقة تجعل لمشورتهما وزنا وقيمة عظيمة في نظر الشخص المخطئ.

فإن لم يسمع منهم ، حينئذ وليس قبل ذلك ، ينبغي أن تعرض القضية على جمهور المؤمنين . فلتتحد الكنيسة نيابة عن المسيح في الصلاة والتوسل الحبي حتى يرد المخطئ .إن الروح القدس سيتكلم في خدامه متوسلا إلى الضال حتى يرجع إلى الله . يقول بولس الرسول بوحي إلهي: "كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله" (2 كورنثوس 5 : 20). فالذي يرفض هذا الطلب من تلك الهيئة المتحدة معا يكون قد فصم العرى التي تربطه بالمسيح وهكذا يبتر نفسه من شركة الكنيسة . ومنذ ذلك الحين ، يقول يسوع: "ليكن عندك كالوثني والعشّار" (متى 18 : 17). ولكن ينبغي عدم اعتباره مقطوعا أو محروما من رحمة الله . فلا يحتقره أو يهمله إخوته السابقون بل يجب معاملته بكل رقة وإشفاق كأحد الخراف الضالة التي لا يزال المسيح يسعى في ردها إلى حظيرته.

إصلاح المخطئين

إن إرشادات المسيح الخاصة بمعاملة المخطئين هى ترديد ، بشكل قاطع أكمل ، للتعاليم المسلمة لإسرائيل بواسطة موسى وهى تقول: "لا تبغض أخاك في قلبك" (لاويين 19 : 17). ومعنى هذا أنه إذا أهمل أي واحد الواجب الذي فرضه عليه المسيح أي محاولة رد المخطئين فإنه يصبح شريكا لهم في الخطية ، لأن الشرور التي كان يمكننا أن نوقفها عند حدها ثم أهملنا في ذلك فنحن مسئولون عنها كما لو

كنا قد ارتكبنا نفس تلك الشرور بأنفسنا.

ولكن علينا أن نكشف للمخطئ نفسه عن خطئه . يجب ألا نفسح المجال للتعليقات والانتقادات بين أنفسنا حتى ولا بعدما نخطر بها الكنيسة إذ لا يجوز لنا أن نرددها على مسامع الآخرين . إن التشهير بأخطاء المسيحيين من شأنه أن يكون حجر عثرة للعالم العديم الإيمان ، ومن جهتنا نحن أن التأمل والتحدث في هذه الأمور لا يلحقان بنا سوى [420] الضرر لأننا نتغير بالنظر فقط . فحينما نحاول إصلاح أخطاء أحد الأخوة فإن روح المسيح يرشدنا إلى حمايته من انتقاد الناس حتى أقرب الأقربين إليه على قدر الإمكان ، وبالأحرى من تعييرات العالم العديم الإيمان . إننا نحن أنفسنا مخطئون ونحتاج إلى عطف المسيح وغفرانه . وهو يأمرنا أن نعامل بعضنا بعضا كما نريده أن يعاملنا.

"كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء" (متى 18 : 18). إنكم تتصرفون كسفراء السماء وستكون لعملكم نتائج أبدية ولكننا لن نحمل هذه المسئولية العظيمة وحدنا . فأينما تطاع كلمة المسيح بقلب مخلص فهناك يمكث هو . إنه لا يوجد فقط في محافل الكنيسة ، بل أينما يجتمع تلاميذه باسمه مهما كانوا قليلي العدد ، فهناك يكون هو ، وهو الذي قال: "إن اتّفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السماوات" (متى 18 : 19).

يقول يسوع: "أبي الذي في السماوات" وبهذا يذكّر تلاميذه أنه في حين أنه متحد بهم ببشريته ويشاركهم في تجاربهم ويرثي لهم في آلامهم ، فإنه بألوهيته مرتبط بعرش الله غير المحدود . ما أعجب هذا اليقين ! إن الأجناد السماويين يتحدون مع الناس ، في عطف وخدمة وجهاد ، لتخليص ما قد هلك . وكل قوة السماء تتحد مع مقدرة بني الإنسان في اجتذاب النفوس إلى المسيح. [421]

الفصل التاسع والأربعون—يسوع يحضر العيد

كان مطلوبا من اليهود أن يصعدوا إلى أورشليم ثلاث مرات في السنة لأغراض دينية . أن قائد العبرانيين غير المنظور والمحتجب في عمود السحاب أعطى التعليمات والتوجيهات الخاصة بتلك المحافل . وفي أثناء سبي اليهود لم يكن ممكنا إقامة تلك الاحتفالات ولكن بعدما رد سبيهم وعادوا إلى بلادهم بدئ بالاحتفال بتلك التذكارات مرة أخرى ، وكان قصد الله من تلك الأعياد هو تذكير الشعب بالرب إلههم . ولكن ، باستثناء جماعة قليلة ، غاب هذا الغرض عن أذهان كهنة الأمة ورؤسائها . فذاك الذي قد رسم هذه المحافل القومية وعرف مدلولاتها رأى مواطن الضعف والانحراف فيها . كان عيد المظال خاتمة أعياد السنة . وقد قصد الله أن يتأمل الشعب في هذا الوقت في ذكريات خلاصه وصلاحه ورحمته . كانت البلاد كلها تحت حراسته ورعايته وكان الناس ينعمون ببركاته . وقد ظلت عينه الحارسة ترعاهم نهارا وليلا أمدا طويلا . فالشمس والمطر جعلا الأرض تعطي ثمارها ، وقد جمع الحصاد من كل أودية فلسطين وسهولها ، وجمعت ثمار الزيتون ووضع الزيت في الأواني ، كما أثمرت أشجار النخيل ثمارا وفيرة وديست ثمار الكروم- الثمار الأرجوانية اللون ، في معاصر الخمر.

استمر العيد سبعة أيام . ولأجل إحياء هذا العيد ترك سكان فلسطين وغيرهم من البلدان الأخرى بيوتهم وأتوا إلى أورشليم . فجاء الناس من قرب ومن بعد حاملين هداياهم دليلا على فرحهم . فالكبار والصغار والأغنياء والفقراء جميعهم أتوا بتقدماتهم كفريضة شكر لذاك الذي قد كلل السنة بوجوده وآثاره تقطر دسما . وجلبوا من الغابات كل ما يسر النظر وما يدل على الفرح الشامل ، وبذلك بدت المدينة كغابة جميلة.

ولم يكن هذا العيد موسم الشكر على الحصاد وحده ، بل كان أيضاً تذكارا لحفظ الله [422] ورعايته للعبرانيين في البرية . ولأجل تذكار معيشتهم في الخيام كان الإسرائيليون يسكنون مظال أو خيام مصنوعة من أغصان الأشجار العظيمة . وكانت هذه المظال تقام في الشوارع وأروقة الهيكل أو فوق سطوح المنازل . وكان يرى كثير من تلك المظال منتشرة في الوديان وفوق التلال المحيطة بأورشليم فكانت تغص بالسكان وتنبض بالحياة و الفرح.

عيد شكر

كان العابدون يحيون هذا العيد ويحتفلون بهذه المناسبة بأغاني وتسابيح الشكر . وقبل هذا العيد بأيام كان يوم الكفارة ، إذ بعدما يعترف الشعب بخطاياهم كان يملن لهم أنهم قد صار لهم سلام مع السماء . وهكذا كان يمهد الطريق للفرح بالعيد: “احمدوا الرب لأنه صالح، لأن إلى الأبد رجمته” (مزمور 106 : 1). كانت تسبيحة الانتصار هذه تسمع من أفواه الشعب في حين كانت تمتزج نغمات آلات الطرب المختلفة

بهتافات الشعب القائلة أوصنا بفم واحد وقلب واحد . لقد كان الهيكل مركز فرح الشعب كله . وفي الهيكل كانت تتجلى أبهة الطقوس الكفارية . وكانت ترى على جانبي سلم الهيكل المصنوعة من الرخام الأبيض في ذاك البيت المقدس فرقة الترنيم المكونة من اللاويين الذين كانوا يقومون بخدمة التسبيح . وإذ كان العابدون يلوحون بسعوف النخل وأغصان الآس يشتركون في التسبيح بإنشاد القرار ، وهكذا كان القريبون والبعيدون يشتركون في تسبيح الرب فكانت التلال تردد صدى ترانيم الحمد لله.

وفي الليل كانت الأنوار الاصطناعية تضيء الهيكل وتحيل الليل إلى نهار . فأصوات الموسيقى ، والتلويح بسعوف النخل ، وهتافات الفرح ، واجتماع الشعب معا حيث كانت تغمرهم أنوار مصابيح الهيكل ، وملابس الكهنة وجلال الطقوس كل ذلك أضفى على العبادة هيبة وخشوعا ، وأثّر في المشاهدين تأثيرا عميقا . ومن أروع طقوس العيد والتي سببت للشعب فرحا عظيما كانت طقسا يذكّر الشعب بحادث حدث في أثناء غربتهم في البرية.

فعند بدء ظهور نور الفجر كان الكهنة يبوقون بصوت عظيم مجلجل طويل في أبواقهم الفضية ، والأبواق الأخرى التي تجاوبها وهتافات الفرح من أفواه الشعب الذين في المظال [423] والتي كان يرن صداها من التلال وبطون الأودية- كل هذه كانت ترحب بيوم العيد .حينئذ كان الكاهن يملأ دورقا بالماء الجاري من جدول في وادي قدرون ، وإذ يرفعه عاليا عندما تدوي أصوات الأبواق يصعد على الدرج العريض على توقيعات الموسيقى بخطوات متئدة متزنة وهو يترنم قائلا: "تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم" (مزمور 122 : 2).

وكان يحمل الدورق إلى المذبح الذي كان يتوسط دار الكهنة . وهنا كان يوجد طستان من الفضة يقف على جانب كل منهما كاهن ثم يصب الماء الذي في الدورق في أحدهما ويصب دورق خمر في الآخر ، ثم يجري الماء والخمر كلاهما في أنبوبة كانت متصلة بجدول قدرون حتى يصل إلى البحر الميت . وهذا الاستعراض للماء المكرس للرب كان يرمز إلى الينبوع الذي جرى من الصخرة بأمر الله لإرواء عطش بني إسرائيل . وحينئذ يرن صوت تلك التسبيحة المبهجة القائلة: "لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي"، "فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص" (إشعياء 12 : 2، 3).

"أظهر نفسك للعالم"

لما استعد أبناء يوسف للذهاب للاحتفاء بعيد المظال رأوا أن المسيح لم يبد منه ما يدل على أنه ينوي حضور العيد . وقد كانوا يراقبونه بجزع . إنه منذ شفى المريض عند بركة بيت حسدا لم يحضر تلك الاحتفالات القومية . لقد قصر خدماته على الجليل تجنبا للمنازعات التي لا جدوى منها مع الرؤساء في أورشليم . وإن إهماله الظاهر لتلك المواسم الدينية العظيمة والعداوة التي كان يبديها نحوه الكهنة والمعلمون كانا سبب ارتباك للشعب من نحوه وحتى لتلاميذه وأقربائه . ففي تعاليمه تكلم كثيرا عن بركات الطاعة لشريعة الله ، ومع ذلك فإنه هو نفسه بدا عليه أنه لا يكترث لتلك الخدمة التي رسمها الله . ثم أن اختلاطه بالعشارين وغيرهم من ذوي السمعة الرديئة ، وعدم اكتراثه لتقاليد المعلمين وتحرره من طرح الوصايا التقليدية الخاصة بيوم السبت ، الأمور التي أوقفته موقف العداء من الرؤساء الدينيين ، أثارت كثيرا من التساؤل بين الناس . وقد ظن إخوته أنه من الخطإ أن يجافي علماء الأمة وعظماءها . وأحسوا بأن أولئك الرجال لابد من أن يكونوا على صواب وأن يسوع مخطئ لوقوفه منهم موقف العداء . غير أنهم راقبوا حياته التي بلا [424] لوم ، ومع أنهم لم يكونوا بين صف تلاميذه فقد تأثروا من أعماله تأثرا عظيما

. إن شهرته المطبقة في الجليل أشبعت وأرضت طموحهم ، وكانوا لا يزالون يؤملون أنه سيقدم برهاناً على قدرته يقنع الفريسيين بأنه صادق في ادعائه . وماذا لو أنه كان هو مسيا ، ملك إسرائيل! لقد احتضنوا هذا الفكر برضى وفخر.

كانوا مهتمين بهذا الأمر اهتماما عظيما حتى لقد ألحوا على يسوع في الذهاب إلى أورشليم قائلين له: ”انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية، لكي يرى تلاميذك أيضاً أعمالك التي تعمل، لأنه ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية. إن كنت تعمل هذه الأشياء فاظهر نفسك للعالم“ (يوحنا 7 : 3 و 4). إن كلمة ”إن“ هذه تعبر عن الشك وعدم الإيمان . لقد نسبوا إليه الجبن والضعف . فإذا كان يعرف أنه هو مسيا فلماذا هذا التحفظ وهذا الجمود الغريب؟ إن كان حقا يملك هذه القوة العظيمة فلماذا لا يذهب إلى أورشليم وبكل شجاعة يثبت صدق ادعاءاته؟ ولماذا لا يصنع في أورشليم القوات والمعجزات التي اشتهر بها في الجليل؟ قالوا له: لا تُخف نفسك في أقاليم نائية منعزلة لتجري آياتك وقواتك لأجل خير الصيادين والفلاحين الجهلاء ، بل قدم نفسك في العاصمة واجتهد لتظفر بمعاضدة الكهنة والرؤساء ووحد الأمة لإقامة الملكوت الجديد.

إن إخوة يسوع هؤلاء تباحثوا معه مدفوعين ببواعث أنانية كالتي توجد غالبا في قلوب أولئك الذين تستهويهم المظاهر ، ولكن هذه الروح هي الروح المتحكمة في أهل العالم . لقد استاءوا لأن يسوع بدلا من أن يحاول الجلوس على عرش أرضي أعلن أنه خبز الحياة، وانهارت آمالهم عندما هجره كثيرون من تلاميذه . وهم أنفسهم تحولوا عنه هروبا من صليب الاعتراف بما أعلنته وشهدت به أعماله- أي أنه مرسل من الله.

اجتناب التصادم

”فقال لهم يسوع: إن وقتي لم يحضر بعد، وأما وقتكم ففي كل حين حاضر. لا يقدر العالم أن يبغضكم، ولكنه يبغضني أنا، لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة. اصعدوا أنتم إلى هذا العيد. أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد، لأن وقتي لم يكمل بعد. قال لهم هذا ومكث في الجليل“ (يوحنا 7 : 6 — 9). كان إخوته يخاطبونه بهذا الكلام بنغمة السلطان [425] وكأنهم بذلك يرسمون له الطريق الذي عليه أن يسلكه . وقد رد عليهم توبيخهم وألقى به في وجوههم إذ لم يعتبرهم ضمن تلاميذه المنكرين لذواتهم بل حسبهم من العالم إذ قال لهم: ”لا يقدر العالم أن يبغضكم، ولكنه يبغضني أنا، لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة“. إن العالم لا يبغض أولئك الذين يشبهونه في روحه ، بل يحبهم لأنهم خاصته.

لم يكن العالم في نظر المسيح مكانا للراحة وتعظيم الذات . فلم يكن يتحين الفرص للحصول على سلطان أو مجد عالمي . ولم يقدم له العالم شيئا من ذلك . لقد كان العالم هو المكان الذي أرسله الآب إليه . ولقد بذل لأجل حياة العالم وليتمم تدبير الفداء العظيم . فكان يتمم عمله لأجل جنسنا الساقط . ولكنه لم يكن ليتهور أو يلقي بنفسه في الخطر والتهلكة أو ليخلق أزمة . فكل عمل من أعمال حياته كانت له ساعته المحددة ، فكان عليه ان ينتظر بصبر . لقد عرف أن العالم سيقابله بالكراهية والجفاء ، وعرف كذلك أن نتيجة عمله ستكون موته . أما أن يعرض نفسه للموت قبل الأوان فهذا ما لم يكن من إرادة الله .لقد انتشرت أنباء معجزات المسيح من أورشليم إلى كل الأماكن التي كان اليهود مشتتين فيها . ومع أنه تغيب عن الأعياد شهورا طويلة فإن الاهتمام به لم يقل . لقد أتى كثيرون من أنحاء العالم كافة لإحياء عيد المظال على أمل أن يروا يسوع . وفي بدء أيام العيد جعل كثيرون يسألون عنه . كان الفريسيون والرؤساء

ينتظرون مجيئه على أمل أن يجدوا فرصة سانحة لإدانته . فبكل اهتمام سألوا قائلين: "أين ذاك؟" (يوحنا 7 : 11). ولكن أحدا من الناس لم يكن يعرف . أما الجميع فكانت أفكارهم متجهة نحوه وبسبب خوف الشعب من الكهنة والرؤساء لم يكن أحد يجرؤ على الاعتراف به كمسيا . ولكن في كل مكان كانت توجد مباحثات هادئة وجادة بخصوصه . فقد دافع كثيرون عنه كمن هو مرسل من قبل الله بينما وشى به آخرون كمن يضل الشعب.

وفي تلك الأثناء وصل يسوع إلى أورشليم بكل هدوء ، وقد اختار طريقا غير مطروق ليسير فيه حتى يتجنب مقابلة الوافدين إلى المدينة من كل البلاد . فلو كان قد انضم إلى قافلة من القوافل الصاعدة إلى العيد لاتجهت إليه أنظار الجماهير عند دخوله المدينة وكان الناس يلتفون حوله في مظاهرة لصالحه ، وكان ذلك يثير حنق السلطات ضده . فلكي يتجنب كل ذلك اختار السفر وحده. [426]

كلام بسلطان

وعندما انتصف العيد وحينما بلغ الاهتياج بخصوصه أشده دخل إلى دار الهيكل أمام جموع الشعب . إنه بسبب غيابه من العيد أكد كثيرون أنه لا يجرؤ على أن يضع نفسه تحت رحمة سلطان الكهنة والرؤساء ، ولذلك فوجئ الجميع بحضوره ، فصمتت كل الأصوات وتعجب الجميع من شجاعته وجلال هيئته وهو محاط بأعدائه الأشداء المتعطشين لقتله والقضاء عليه.

فإذ وقف يسوع هكذا في الوسط وتركزت عليه كل العيون والعقول جعل يخاطبهم كما لم يتكلم قط أي إنسان . وقد دل كلامه على معرفته ودرايته بشرائع إسرائيل وقوانينه وبالخدمة الكفارية وتعليم الأنبياء . وكانت معرفته تلك أسمى وأرفع بكثير من معرفة الكهنة والمعلمين . لقد نقض سياجات الطقوس والتقاليد ، وبدا كأنه مطلع على أسرار الحياة العتيدة . وكمن يرى ما لا يرى تكلم عن الأمور الأرضية والسماوية والجانب البشري والجانب الإلهي بسلطان قاطع . كان كلامه واضحا كل الوضوح ومؤثرا في النفوس أبلغ تأثير . ومرة أخرى تعجب الناس من كلامه: "لأن كلامه كان بسلطان" (لوقا 4 : 32)، كما كان الحال في كفرناحوم . وبأمثال متنوعة حذر سامعيه من الكارثة التي ستحل بكل من يرفضون الهبات التي جاء إلى العالم ليقدمها لهم . فقدم لهم كل البراهين الممكنة على كونه قد خرج من قبل الله ، وبذل كل جهد ممكن ليقودهم إلى التوبة . وما كان ليرفض ويقتل بأيدي بني أمته لو أمكنه أن يحول بينهم وبين ارتكاب تلك الجريمة النكراء

تعجب الجميع من معرفته للناموس والنبوات وجعل الناس يتساءلونٍ فيما بينهم قائلين: "كيف هذا يعرف الكتب، وهو لم يتعلّم؟" (يوحنا 7 : 15). لم يكن أحد يعتبر مؤهلاً لأن يكون معلما للدين ما لم يكن قد تهذب في مدارس معلمي إسرائيل ، وكان يسوع ويوحنا المعمدان كلاهما معتبرين جاهلين لكونهما لم يتلقيا العلم على أيدي أولئك الأحبار . فالذين سمعوا كلامهما اندهشوا من معرفتهما للكتب ((وهما لم يتعلما)) . نعم إنهما لم يتعلما من الناس ولكن إله السماء كان معلمهما . وقد تلقيا منه أسمى حكمة.

عندما تكلم يسوع في رواق الهيكل ذهل الشعب . إن أولئك الذين كانوا أشد الناس عنفا [427] وقسوة عليه أحسوا بعجزهم عن إيقاع أي أذى به . لقد نسيت كل المصالح والمهام الأخرى مؤقتا.

ينبوع الحياة

واظب يسوع على تعليم الشعب يوما بعد يوم إلى "اليوم الأخير العظيم من العيد" (يوحنا 7 : 37). وفي صبيحة ذلك اليوم كان الشعب متعبين وضجرين من طول موسم العيد . وفجأة رفع يسوع صوته في نغمات رن صداها في أروقة الهيكل قائلا:

"إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يوحنا 7 : 37 و 38). وقد جعلت حالة الشعب هذا التصريح قويا وفعالا . لقد كانوا منصرفين إلى مناظر لا نهاية لها من الأبهة ومسببات البهجة . فبهرت عيونهم الأنوار والألوان الزاهية ، وطنت آذانهم من أصوات الموسيقى المطربة . ولكن لم يكن في كل تلك الاحتفالات التي لا تنتهي ما يسد حاجة الروح ، ولا شيء يطفئ ظمأ النفس إلى الأشياء التي لا تفنى . فدعاهم يسوع ليأتوا إليه ويشربوا من نبع الحياة الذي يصير فيهم ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية .

كان الكاهن قد أقام الاحتفال الذي كان تذكارا لضرب الصخرة في البرية . وكانت الصخرة رمزا لذاك الذي بموته سيجعل ينابيع الخلاص الحية تفيض لإرواء جميع الظامئين . كان كلام المسيح هو ماء الحياة . وهناك على مرأى من ذلك الجمع الحاشد أفرز يسوع نفسه ليضرب حتى تفيض مياه الحياة للعالم . إن المسيح حين ضرب كان الشيطان يقصد أن يهلك رئيس الحياة . ولكن من تلك الصخرة التي ضربت فاض الماء الحي . وإذ خاطب يسوع الشعب بهذا الكلام اختلجت في قلوبهم أحاسيس الرهبة ، وكثيرون كانوا مزمعين أن يصرخوا مع المرأة السامرية حين قالت: "يا سيد أعطني هذا الماء، لكي لا أعطش" (يوحنا 4 : 15).

لقد عرف يسوع حاجة كل نفس . إن الأبهة والغنى والكرامة لا يمكنها أن تشبع القلب. يقول يسوع: "إن عطش أحد فليقبل إليّ"، وهو يرحب بالأغنياء والفقراء والعالي والدون على السواء . إنه يعد بالراحة للعقل المجهد المثقل ويعزي كل حزين ويمنح [428] الرجاء لليائسين . إن كثيرين ممن سمعوا أقوال يسوع كانوا نائحين لخيبة آمالهم ، وآخرون كان يربض في أعماقهم حزن دفين ، وآخرون حاولوا إشباع أشواقهم التي لا تعرف الشبع بأمور العالم ومديح الناس ، ولكنهم بعدما حصلوا على ما كانوا يشتهون وجدوا أنهم كانوا يتعبون ليحصلوا على آبار مشققة لا تضبط ماء ، ولذلك لم يمكنهم إرواء عطشهم . ففي وسط بريق المناظر المفرحة الخلابة وقفوا غير قانعين وتعساء . فتلك الصرخة المفاجئة القائلة "إنْ عطش أحد" أفزعتهم وأيقظتهم من أفكارهم الكئيبة . فلما سمعوا ما قاله بعد ذلك اضطرم في قلوبهم أمل جديد . إن الروح القدس قدم إليهم الرمز حتى رأوا فيه هبة الخلاص المجانية التي لا تقدر بثمن.

إن دعوة المسيح للنفوس الظامئة لا يزال يرن صداها في الآذان والقلوب ، وهي اليوم تقدم لنا بقوة أعظم مما إلى أولئك الذين سمعوها في الهيكل في اليوم الأخير العظيم من العيد . إن الينبوع مفتوح للجميع . فالمتعبون والمعيون يقدم لهم ماء الحياة الأبدية المنعش ويسوع لا يزال يصرخ قائلا: "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب"، "من يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجاناً"، "من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدرية" (رؤيا 22 : 17 ؛ يوحنا 4 : 14). [429]

الفصل الخمسون ــــ هزيمة المتآمرين

إن يسوع طوال أيام وجوره في أورشليم في العيد كان الجواسيس يتعقبونه . ويوما بعد يوم كانت المؤامرات تحاك ضده بقصد إسكاته . كان الكهنة والرؤساء يراقبونه ليصطادوه. وكانت خطتهم هي منعه بالقوة ، ولكن تلك القوة لم تقتصر على هذا ، فلقد أرادوا إذلال هذا المعلم الجليلي وتحقيره أمام الشعب.

ففي أول يوم حضر فيه يسوع إلى العيد أتاه الرؤساء وسألوه بأي سلطان كان يعلم ، حيث أرادوا تحويل انتباه الناس عنه إلى السؤال عن حقه في التعليم ، وهكذا يوجهون الناس إليهم وإلى مكانتهم وسلطانهم.

فقال لهم يسوع: "تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلّم أنا من نفسي" (يوحنا 7 : 16 و 17). لقد واجه يسوع سؤال هؤلاء المماحكين ليس بالإجابة على تلك المماحكة بل بتقديم الحق الذي هو حيوي لخلاص النفس . قال لهم إن فهم الحق وتقديره لا يتوقف كله على العقل بل بالأكثر على القلب . ينبغي قبول الحق في النفس فهو يتطلب ولاء الإرادة . فلو أمكن إخضاع الحق للحقل وحده فلن تقف الكبرياء عائقا في طريق قبوله . بل ينبغي قبوله بواسطة عمل النعمة في القلب ، وقبوله يتوقف على نبذ كل خطية يكشفها روح الله للإنسان . إن مزايا قبول معرفة الحق مهما تكن عظيمة سيتبرهن عدم نفعها ما لم يفتح القلب لقبول الحق وما لم يكن هنالك تصميم حقيقي ، كما يتطلب الضمير الحي ، على التخلص من كل عادة وعمل مضاد لمبادئ الحق . فالذين يخضعون ذواتهم هكذا لله والذين عندهم رغبة مخلصة لمعرفة إرادته والعمل بها ينكشف لهم الحق على أنه قوة الله لخلاصهم . وهؤلاء سيكونون قادرين على التمييز بين من يتكلم في جانب الله وبين من يتكلم فقط لأجل نفسه . ولكن الفريسيين لم يجعلوا إرادتهم تتمشى مع إرادة الله . فهم لم يطلبوا معرفة الحق بل كانوا ينتحلون الأعذار لتجنبه والتملص منه . وقد أبان لهم المسيح أن هذا هو السبب في عدم فهمهم لتعاليمه. [430]

حق أو خداع

والآن قدم لهم اختبارا به يتميز المعلم الحقيقي من المعلم المخادع ، فقال: "من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم" (يوحنا 7 : 18). إن من يطلب مجد نفسه يتكلم من نفسه فقط . إن روح طلب ما للذات تفضح نفسها . ولكن المسيح كان يطلب مجد الله . لقد تكلم بكلام الله . وكان هذا هو البرهان على أن له سلطانا لأن يكون معلما للحق.

قدم يسوع للمعلمين البرهان على ألوهيته بكونه أراهم أنه قد عرف ما في قلوبهم . فمنذ شفى المريض عند بركة بيت حسدا ظلوا يتآمرون على قتله ، وهكذا كانوا ينقضون الناموس الذي ادعوا أنهم حماته . قال

لهم: "أليس موسى قد أعطاكم الناموس؟ وليس أحد منكم يعمل الناموس! لماذا تطلبون أن تقتلوني؟" (يوحنا 7 : 19).

وكنور سريع خاطف كشف هذا القول للمعلمين عن هوة الهلاك الرهيبة التي كانوا مزمعين أن يطرحوا أنفسهم فيها . ولمدى برهة امتلأت قلوبهم رعبا ، ورأوا أنهم في حالة حرب مع قوة الله غير المحدودة . ولكنهم رفضوا قبول الإنذار . فلكي يظلوا محتفظين بسلطانهم ونفوذهم على الشعب كان ينبغي أن يبقوا نواياهم الإجرامية طي الخفاء . ولكي يتملصوا من سؤال يسوع صاحوا قائلين: "بك شيطان. من يطلب أن يقتلك؟" (يوحنا 7 : 2). وهم هنا يلمحون إلى أن عجائب يسوع كان مدفوعا إليها بروح شرير.

لم يلتفت المسيح إلى هذا التلميح ، بل استمر يقول إن معجزة الشفاء التي كان قد أجراها في بيت حسدا كانت على وفاق مع شريعة السبت ، وقد بررها وزكاها التفسير الذي فسروا به الناموس . فقال لهم: "لهذا أعطاكم موسى الختان. ففي السبت تختتون الإنسان" (يوحنا 7 : 22). كان ينبغي أن يختن كل طفل في اليوم الثامن بموجب الناموس . فإذا وقع ذلك اليوم في يوم السبت فينبغي إجراء تلك الفريضة . فما ضر إذا أني "شفيت إنساناً كله في السبت" أليس عملا كهذا هو على وفاق مع روح الشريعة؟ ثم أنذرهم قائلا: "لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً" (يوحنا 7 : 23 و 24).

وإذ أبكم الرؤساء صاح كثيرون من الشعب قائلين: "أليس هذا هو الذي يطلبون أن [431] يقتلوه؟ وها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً! ألعلّ الرؤساء عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً؟" (يوحنا 7 : 25 و 26).

بين الشك والإيمان

إن كثيرين من سامعي تعاليم المسيح الساكنين في أورشليم ولم يكونوا يجهلون مؤامرات الرؤساء ضده ، أحسوا بقوة جاذبة لا تقاوم تجذبهم إليه ، واقتنعوا اقتناعا قويا بأنه ابن الله ولكن الشيطان كان مستعدا دائما لأن يملأهم بالشكوك ، والذي مهد الطريق لهذه الشكوك آراؤهم الخاطئة عن مسيا ومجيئه . لقد كان الاعتقاد السائد عن المسيح أنه يولد في بيت لحم ، ولكن بعد وقت يختفي وعندما يظهر ثانية لا يعلم أحد من أين أتى . وكانت هنالك جماعة غير قليلة اعتقد أفرادها أن مسيا لن تكون له أية صلة طبيعية بالبشرية . وبالنظر للفكرة الرائجة أن للمسيح مجدا لم يتوافر في يسوع الناصري ، فالكثيرون قبلوا بالرأي العام واستفهموا قائلين: "ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو" (يوحنا 7 : 27).

وفيما كانوا يتأرجحون بين الشك والإيمان التقط يسوع أفكارهم وقال لهم: "تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه" (يوحنا 7 : 28). لقد ادعوا أنهم يعرفون ما يجب أن يكون أصل المسيح ولكنهم كانوا يجهلون ذلك جهلا تاما . ولو عاشوا طبقا لإرادة الله لكانوا قد عرفوا ابنه عندما أعلن لهم.

أمكن أولئك السامعون أن يفهموا معنى أقوال المسيح إذ كانت تكرارا واضحا لما قد صرح به أمام السنهدريم مند شهور طويلة عندما أعلن لهم أنه ابن الله . وكما حاول الرؤساء أن يقضوا عليه بالموت كذلك ها هم الآن يحاولون أن يأخذوه . ولكن قوة غير منظورة منعتهم من ذلك ، تلك القوة جعلت حدا ونهاية لغضبهم قائلة لهم: "إلى هنا تأتي ولا تتعدّى" (أيوب 38 : 11).

كان بين الشعب كثيرون آمنوا به وقالوا: "ألعلّ المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها

هذا؟" (يوحنا 7 : 31). إن رؤساء الفريسيين الذين كانوا يراقبون سير [432] الحوادث بلهفة سمعوا من الجمع كلاما يدل على عطفهم على المسيح . فأسرعوا إلى رؤساء الكهنة واعدوا خطتهم للقبض عليه . ورتبوا أن يمسكوه حين يكون وحده لأنه لم تكن لديهم الشجاعة الكافية للقبض عليه أمام الشعب . ومرة أخرى برهن لهم يسوع على علمه بنواياهم ، فقال لهم: "أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدوني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا" (يوحنا 7 : 33 و 34). فبعد قليل سيجد ملجأ بعيدا عن متناول الاحتقار والبغضاء . سيصعد إلى الآب ليكون مرة أخرى معبود الملائكة ، ولن يستطيع قاتلوه الوصول إلى هناك.

قال أولئك المعلمون ساخرين: "إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعلّه مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلّم اليونانيين؟" (يوحنا 7 : 35). ولم يكن يخطر ببال أولئك المماحكين أنه بكلامهم الساخر كانوا يصورون رسالة المسيح . لقد بسط يديه طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم ، ومع ذلك فقد وجد من الذين لم يطلبونه وصار ظاهرا للذين لم يسألوا عنه (رومية 10 : 20، 21).

الإنسان يختار لنفسه

إن كثيرين ممن قد آمنوا بأن يسوع هو ابن الله أضلهم الكهنة والمعلمون بسوء تفكيرهم . كان أولئك المعلمون قد رددوا بحماسة شديدة ، النبوات الخاصة بمسيا من أنه سيملك "في جبل صهيون وفي أورشليم، وقدّام شيوخه مجد"، "وأنه "يملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض" (إشعياء 24 : 23 ؛ مزمور 72 : 8). ثم جعلوا يعملون مفارقات محقرة بين المجد الموصوف هنا وحقارة مظهر يسوع . إن نفس كلمات النبوة كانت قد حرفت بحيث أقرت الخطأ . ولو كان الشعب قد درسوا الكلمة لأنفسهم بإخلاص لما انساقوا وراء الضلال . إن الإصحاح الحادي والستين من إشعياء يشهد بأن المسيح كان سيعمل نفس العمل الذي قد عمله . أما الإصحاح الثالث والخمسون ففيه نجد رفض العالم له والآلام التي كان لابد له أن يتحملها في العالم ، في حين أن الإصحاح التاسع والخمسين يصف أخلاق الكهنة والمعلمين.

إن الله لا يرغم الناس على ترك عدم إيمانهم . إن أمامهم النور والظلمة ، الحق والخطأ . [433] ولهم أن يختاروا أي الاثنين ليقبلوه . إن عقل الإنسان مزود بقوة بها يمكنه أن يميز بين الصواب والخطإ . والله لا يقصد أن يقرر الناس بموجب دوافع فورية بل بناء على رجاحة البرهان بكل حرص قارنين أقوال الكتاب ببعضها البعض. فلو أن اليهود طرحوا التعصب جانبا وقارنوا النبوات المكتوبة بالحقائق المميزة لحياة يسوع لرأوا توافقا بين النبوات وإتمامها في حياة ذلك الجليلي المتواضع وخدمته.

كثيرون ينخدعون في هذه الأيام بنفس الطريقة التي قد انخدع بها اليهود . إن معلمي الدين يقرأون الكتاب في نور فهمهم وتقاليدهم ، ولكن الشعب لا يفتشون الكتب لأنفسهم ولا يحكمون لأنفسهم فيما هو حق بل يتخلون عن حكمهم ويسلمون نفوسهم بين أيدي رؤسائه .إن الكرازة وتعليم كلمة الله هما من الوسائل التي رسمها الله لنشر النور . ولكن علينا نحن أن نختبر تعليم كل إنسان بمحك الكلمة الإلهية . فالذي يدرس الكتاب المقدس بروح الصلاة مشتاقا إلى معرفة الحق لكي يطيعه سيحصل على النور الإلهي ويفهم الكتب: "إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلّم أنا من نفسي" (يوحنا 7 : 17).

وفي اليوم الأخير من العيد رجع الخدام الذين كان الكهنة قد أرسلوهم للقبض على يسوع، بدونه .

فسألهم الرؤساء بغضب قائلين: "لماذا لم تأتوا به؟" (يوحنا 7 : 45). أجابوهم قائلين بوقار: "لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان!" (يوحنا 7 : 46).

ومع قساوة قلوبهم فقد أذاب كلامه تلك القلوب . فإذ كان يسوع يتكلم في رواق الهيكل انتظر أولئك الخدام قريبا لعلهم يسمعون شيئا يؤخذ حجة ضده ، ولكن فيما كانوا يس ت معون لكلامه نسوا الغرض الذي قد أرسلوا لأجله ، ووقفوا ذاهلين حيث أعلن المسيح نفسه لنفوسهم فرأوا ما لم يره الكهنة أو الرؤساء- رأوا البشرية مغمورة بمجد الألوهية ، فعادوا ممتلئين بهذا الفكر ومتأثرين بكلامه حتى لقد أجابوا عن سؤال الرؤساء بقولهم: "لم يتكلّم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان! ".

الحق ليس بكثرة العدد

إن الكهنة والرؤساء عندما مثلوا أمام المسيح في البداية كان عندهم مثل هذا الاقتناع . لقد تأثرت قلوبهم تأثرا عميقا ، ووجد هذا الفكر طريقه إلى قلوبهم: "لم يتكلّم قط إنسان [434] هكذا مثل هذا الإنسان!" ولكنهم أخمدوا هذا الاقتناع الذي أحدثه فيهم الروح القدس . والآن إذ كانوا مغتاظين لكون أعوانهم أولئك قد تأثروا من تعاليم ذلك الجليلي المكروه صاحوا قائلين: "ألعلّكم أنتم أيضاً قد ضللتم؟ ألعلّ أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به؟" (يوحنا 7 : 47 و 48).

إن أولئك الذين تبلغ إليهم رسالة الحق قلما يسألون قائلين: "هل هذا هو الحق؟" بل يسألون قائلين: "من الذي نطق به؟". إن كثيرين يقدرون الحق بنسبة عدد من يقبلونه . ولا يزال هذا السؤال يسأل: هل آمن أحد العلماء أو الرؤساء الدينيين ؟ إن الناس في هذه الأيام ليسوا أكثر اندفاعا للتقوى الحقيقية ممن كانوا في أيام المسيح . إنهم منصبون على طلب الخيرات الزمنية فيهملون الغنى الأبدي . وليس مما يؤخذ حجة ضد الحق كون كثيرين من الناس غير مستعدين لقبوله أو أن عظماء هذا الدهر أو حتى الرؤساء الدينيين لم يقبلوه.

ومرة أخرى شرع الكهنة والرؤساء في رسم خطة للقبض على يسوع . وقد تشاوروا فيما بينهم قائلين إنه لو ترك حرا أكثر من ذلك فسيجتذب الشعب بعيدا عن الرؤساء الرسميين ، وإنَّ أسلم طريق يسلكونه هو أن يسكتوه بلا إبطاء . ففيما كانوا في غمرة مؤامراتهم أوقفوا عند حدهم إذ سألهم نيقوديموس قائلا: "ألعلّ ناموساً يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟" (يوحنا 7 : 51). فاستولى الصمت على تلك الجماعة . لقد لمس كلام نيقوديموس ضمائرهم . إنهم في الحقيقة لم يكونوا يستطيعون أن يدينوا إنسانا لم يسمعوه . ولكن لم يكن هذا هو السبب الذي لأجله ظل أولئك الرؤساء المتكبرون صامتين وهم يشخصون في ذاك الذي تجرأ على الدفاع عن العدالة . لقد فزعوا واغتنموا لأن واحدا منهم كان قد كان تأثر تأثرا بالغا بأخلاق يسوع إلى حد أنه تجرأ أن يقول كلمة مدافعا عنه. فلما أفاقوا من دهشتهم خاطبوا نيقوديموس بتهكم جارح قائلين: "ألعلّك أنت أيضاً من الجليل؟ فتّش وانظر! إنه لم يقم نبي من الجليل" (يوحنا 7 : 52).

ومع ذلك فإن هذا الاحتجاج أوقف إجراءات المجلس . فلم يستطع الرؤساء أن ينفذوا غرضهم ويدينوا يسوع بدون أن يسمعوا منه . فلما انهزموا إلى حين "مضى كل واحد إلي بيته. أنا يسوع فمضى إلى جبل الزيتون" (يوحنا 7 : 53 ؛ 8 : 1). [435]

تحول يسوع بعيدا عن المدينة بما فيها من هيجان وتشويش ، بعيدا عن الجموع المشتاقة والمعلمين الغادرين ، وانطلق إلى حدائق الزيتون الساكنة لينفرد مع الله . ولكن في بكور اليوم التالي عاد إلى الهيكل

، وإذ اجتمع الشعب حوله جلس ليعلمهم.

امرأة أمسكت في الخطية

ولكنه سرعان ما قوطع . ذلك أن جماعة من الفريسيين والكتبة اقتربوا إليه وهم يسحبون امرأة مرتعبة وبأصوات محمومة قاسية راحوا يتهمونها بتعدي الوصية السابعة .فإذ دفعوها إلى أمام يسوع قالوا له باحترام تصنعي ريائي: "موسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت؟" (يوحنا 8 : 5).

إن احترامهم التصنعي له كان يخفي وراءه مؤامرة جد خبيثة للقضاء عليه . لقد انتهزوا هذه الفرصة لكي يحصلوا على حكم بإدانة المسيح إذ ظنوا أنه مهما يكن قراره فسيجدون مجالا لاتهامه . فإذا أطلق سراح تلك المرأة فسيتهم باحتقار شريعة موسى ، أما إذا أعلن أنها تستحق الموت فسيقدمون في حقه شكوى إلى الرومان مفادها أنه ينتحل لنفسه سلطانا هو من حقهم وحدهم.

ولمدى لحظة تطلع يسوع إلى ذلك المنظر- إلى تلك الضحية المرتعبة وهي مجللة بعارها ، وإلى أولئك الرؤساء الصارمي الوجوه والنظرات ، الذين خلت قلوبهم حتى من الشفقة الإنسانية، فانكمشت روحه الكلية الطهارة من ذلك المنظر . لقد عرف جيدا الغرض الحقيقي الذي حداهم على أن يعرضوا عليه هذه القضية . لقد عرف ما في القلوب كما عرف أخلاق وتاريخ حياة كل واحد من أولئك الماثلين أمامه . إن هؤلاء الأدعياء الذين يتشدقون قائلين إنهم حماة العدالة هم أنفسهم الذين ساقوا فريستهم هذه لارتكاب الخطية لكي يمكنهم أن ينصبوا شركا ليسوع . وإذ لم يبد منه ما يدل على أنه قد سمع سؤالهم انحنى وثبت عينيه على الأرض وجعل يكتب في التراب.

وإذ نفد صبرهم من تأخره وعدم اكتراثه الظاهري اقترب منه أولئك المشتكون وألحوا عليه في الالتفات إلى الأمر . ولكن حالما راقبت عينهم عيني يسوع نظروا إلى الأرض عند قدميه وتغيرت ملامح وجوههم . فلقد رأوا أمامهم أسرار حياتهم الآثمة مسطورة [436]

الأرض . وقد رأى الشعب المراقب التبدل الذي ظهر على وجوه أولئك الرؤساء وتزاحموا ليروا ما هو ذلك الشيء الذي كانوا ينظرونه في دهشة وخجل.

إن هؤلاء المعلمين مع كل ادعائهم بحفظ الناموس واحترامه فإنهم إذ قدموا تلك التهمة ضد المرأة كانوا يحتقرون نصوص الناموس . إن زوج تلك المرأة هو الذي كان عليه أن يتخذ تلك الإجراءات ضدها وكان يجب معاقبة الفريقين المذنبين بالتساوي . ولكن عمل أولئك المشتكين كان كله غير مشروع . ومع ذلك قابلهم يسوع في ميدانهم . لقد نصت الشريعة على أنه في عقوبة الرجم كان على الشهود في القضية أن يكونوا أول من يرمون المتهم بحجر . فلما انتصب يسوع ثبت عينيه في أولئك الشيوخ المتآمرين وقال لهم: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر!" (يوحنا 8 : 7). ثم انحنى إلى أسفل واستمر يكتب على الأرض.

إنه لم يغفل الناموس ولا ألقى بتلك الشريعة المعطاة بواسطة موسى جانبا ، كلا ولا تعدى سلطان روما . انهزم أولئك المشتكون ، والآن إذ تمزق رداء قداستهم المتصنعة وقفوا مذنبين ومحكوما عليهم في حضرة الطهارة الكاملة . لقد ارتعبوا خشية أن تنكشف آثامهم المستورة عن العيون أمام جمهور الشعب فتسللوا واحدا فواحدا مطأطئي الرؤوس وخافضي العيون تاركين ضحيتهم أمام المخلص الرحيم.

“اذهبي ولا تخطئي أيضاً”

ثم إذ انتصب يسوع والتفت إلى المرأة سألها: “يا امرأة، أين هم أولئك المشتكون عليك؟ أما دانك أحد؟ فقالت: لا أحد، يا سيد!. فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً” (يوحنا 8 : 10 و 11).

وقفت المرأة أمام يسوع ثم جثت وهي مرتعبة خوفا . عندما قال للمشتكين: “من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر! ”. بدا لها كأن هذه الكلمات هي حكم الموت عليها . ولم تجرؤ على أن ترفع عينيها إلى وجه المخلص بل بكل سكون انتظرت مصيرها . لكنها اندهشت حين رأت أولئك المشتكين يخرجون صامتين ومرتبكين ، ثم سمعت من فم السيد هذا القول وفيه رجاء لها: “ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً”. لقج ذاب قلبها [437] فألقت نفسها عند قدمي يسوع ساكبة أمامه محبتها وشكرها . وبدموع غزيرة اعترفت بخطاياها وهي مرة النفس.

كان ذلك اليوم بدء حياة جديدة بالنسبة إليها ، حياة طهارة وسلام مكرسة لخدمة الله .إن يسوع إذ رفع هذه النفس الساقطة من أوحال الدنس أجرى معجزة أعظم مما لو شفى أعظم الأمراض المستعصية . لقد شفى ذلك المرض الروحي الذي نهايته الموت الأبدي .فصارت هذه المرأة التائبة من أعظم تابعيه ثباتا . وبمحبة مضحية وتكريس كامل وفَّت دين رحمته الغافرة.

إن يسوع إذ غفر لهذه المرأة وشجعها على أن تحيا حياة أفضل ظهرت صفاته تتألق في جمال بره الكامل . ففي حين أنه لا يلتمس عذرا للخطية ولا يقلل من الشعور بالذنب فإنه لا يقصد أن يدين بل أن يخلص . كان العالم يضمر لهذه المرأة المخطئة الاحتقار والازدراء أما يسوع فيكلمها بكلام العزاء والرجاء . إن السيد المعصوم يعطف على تلك الخاطئة الضعيفة ويقدم لها يد المعونة . وفي حين أن الفريسيين المرائين يشتكون عليها يقول هو لها: “اذهبي ولا تخطئي أيضاً”.

إن تابع المسيح لا يغض الطرف عن المخطئين تاركا إياهم دون رادع ليسيروا في طريقهم المنحدر إلى أسفل . فأولئك الذين يسارعون إلى اتهام الآخرين ويحرصون على تسليمهم ليد العدالة هم في غالب الأحيان أعظم جرما من المخطئين . إن الناس يبغضون الخاطئ وهم في نفس الوقت يحبون الخطية . أما المسيح فيكره الخطية ويحب الخاطئ .وهذه هي روح كل أتباعه . إن المحبة المسيحية هي مبطئة في الاتهام والتوبيخ ، ولكنها مسرعة في ملاحظة التوبة ، ومستعدة أبدا لأن تغفر وتشجع الضال وتعيده إلى طريق القداسة وتثبت خطواته فيها. [438]

الفصل الحادي والخمسون— "نور الحياة"

"ثم كلّمهم يسوع أيضاً قائلاً: أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة" (يوحنا 8 : 12).

عندما تكلم يسوع بهذا الكلام كان في رواق الهيكل الذي له علاقة خاصة بخدمة عيد المظال . في وسط هذا الرواق نصب عمودان عاليان علقت فيهما منارتان كبيرتا الحجم .فبعد خدمة المساء كانت تنار المصابيح فترسل أنوارها إلى مدينة أورشليم . وكانت هذه الخدمة تذكارا لعمود النور الذي قاد العبرانيين في البرية ، كما كان يشير إلى مجيءمسيا . ففي المساء عندما أضيئت الأنوار كانت تلك الدار مسرحا للفرح العظيم . فالرجال الذين كلل الشيب رؤوسهم وكهنة الهيكل ورؤساء الشعب اتحدوا معا في الرقص المبهج على أصوات آلات الطرب وأغاني اللاويين.

وإذ استنارت المدينة بذلك النور عبر الشعب عن أملهم في مجيء مسيا ليضيء بنوره على إسرائيل . أما بالنسبة إلى يسوع فقد كان لذلك معنى أوسع . فكما أن مصابيح الهيكل المضيئة أنارت كل ما حولها كذلك المسيح مصدر النور الروحي ينير مبددا ظلمات العالم. ومع ذلك فقد كان الرمز ناقصا . فذلك النور العظيم الذي ثبتته يمناه في جلد السماء كان تمثيلا أصدق لمجد رسالته.

جاء الصباح وأشرقت الشمس لتوها على جبل الزيتون ووقعت أشعتها التي تبهر الأبصار على القصور المرمرية ، وقد عكست جدران الهيكل المذهبة أنوار الشمس عندما أشار يسوع إليها قائلا: "أنا هو نور العالم".

إن واحدا ممن كانوا يصغون إلى هذا القول عاد فردد صداه في كلامه الجليل حين قال: "فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه"، "كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم" (يوحنا 1 : 4، 5، 9). [439] وبعد صعود يسوع إلى السماء بوقت طويل كتب بطرس الرسول أيضاً مستنيرا بإلهام الروح الإلهي ذاكرا الرمز الذي استعمله المسيح فقال: "وعندنا الكلمة النبوية، وهي أثبت، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها، كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار، ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (2 بطرس 1 : 19).

النور يكتسح الظلمة

في إعلان الله لشعبه كان النور دائما رمزا لحضوره . وبكلمته الخالقة في البدء أشرق نور من ظلمة . لقد كان النور محتجبا في عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا وهو يقود جيوش العبرانيين العظيمة . وقد أشرق النور بجلال رهيب حول الرب على جبل سيناء .استقر النور على غطاء التابوت في خيمة الاجتماع . كذلك ملأ النور هيكل سليمان عند تدشينه . وأشرق النور فوق تلال بيت لحم عندما أبلغ الملاك رسالة

الفداء للرعاة الساهرين على رعيتهم.

الله نور ، فإذ قال المسيح: "أنا هو نور العالم" أعلن وحدانيته بالله وعلاقته بالأسرة البشرية جمعاء . وهو الذي في البدء أمر أنْ "يشرق نور من ظلمة" (2 كورنثوس 4 : 6). إنه هو نور الشمس والقمر والنجوم . كان هو الضوء الروحي الذي أضاء على إسرائيل في الرموز والظلال والنبوات . ولكن النور لم يعط للأمة الإسرائيلية وحدها . فكما أن أشعة الشمس تصل إلى أقصى زوايا الأرض كذلك يشرق نور شمس البر على كل نفس.

"كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم". لقد كان للعالم معلموه العظام وكانوا رجالا من جبابرة العقول ولهم بحوث عظيمة مدهشة ، وهم الذين قد أيقظت أقوالهم الفكر الإنساني وفتحت أمام الناس مجالات المعرفة الواسعة ، فحصل أولئك الناس على كرامة عظيمة كقادة للفكر البشري وكمحسنين . ولكن هنالك من يسمو عليهم جميعا ، "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله". "الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر" (يوحنا 1 : 12 و 18). يمكننا أن نتتبع صفوف معلمي [440] العالم العظماء منذ فجر التاريخ. ولكن النور سبق وجودهم . فكما أن القمر والنجوم في النظام الشمسي تضيء بالنور المنعكس عليها من الشمس ، فكذلك مفكرو العالم العظام على قدر ما عندهم من تعليم صحيح يعكسون نور شمس البر . فكل درة من درر الأفكار وكل نور من أنوار العبقرية والنبوغ هو مقتبس من نور العالم . في هذه الأيام نسمع الكثير عن "التعليم العالي"، ولكن "التعليم العالي" الحقيقي هو مستمد من ذلك "المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" الذي "فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس" (كولوسي 2 : 3 ؛ يوحنا 1 : 4). لقد قال يسوع: "من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة" (يوحنا 8 : 12).

قلوب مغلقة

إن المسيح إذ قال: "أنا هو نور العالم" أعلن عن نفسه أنه هو مسيا . وسمعان الشيخ في نفس الهيكل الذي كان يعلم فيه المسيح قال: "لأن عيني قد أبصرتا خلاصك. نور إعلان للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل" (لوقا 2 : 20 و 32).

فلقد أعلن الروح القدس على لسان إشعياء قائلا: "قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب، ورد محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض" (إشعياء 49 : 6). لقد فهم الجميع أن هذه النبوة تتحدث عن مسيا . فعندما قال يسوع: "أنا هو نور العالم" فهم الشعب أنه يقول عن نفسه أنه هو السيد الموعود به.

رأى الفريسيون والرؤساء أن تصريح يسوع هذا هو ادعاء وعجرفة . إنهم لم يستطيعوا السكوت عندما رأوا إنسانا مثلهم يقدم على مثل تلك الادعاءات . فإذ تظاهروا أنهم يتجاهلون كلامه سألوه قائلين: "من أنت؟" وأصروا على إرغامه على إعلان كونه هو المسيح . لقد كان مظهره وعمله يختلفان عما كان يتوقعه الشعب حتى ، كما كان أعداؤه الماكرون يعتقدون ، إذا أعلن عن نفسه إعلانا مباشرا أنه هو المسيح فإن ذلك يكون مدعاة رفضه كمحتال.

ولكن عندما سأله أولئك الرؤساء قائلين: "من أنت؟" أجابهم قائلاً: "أنا من البدء ما أكلّمكم أيضاً به" (يوحنا 8 : 25). إن ما أعلنه بكلامه أعلنته أيضاً صفاته . لقد كان هو تجسما للحقائق التي علم بها . ثم استطرد يقول: "متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو، ولست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلم

بهذا كما علّمني أبي. والذي أرسلني [441] هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" (يوحنا 8 : 28 و 29). إنه لم يحاول إثبات صدق ادعائه بأنه هو مسيا بل كشف لهم عن اتحاده بالله . فلو كانت عقولهم وقلوبهم مفتوحة لقبول محبة الله لقبلوا يسوع.

كان بين سامعيه كثيرون قد انجذبوا إليه بفعل الإيمان فقال لهم: "إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحرّركم" (يوحنا 8 : 31 و 32).

ناموس الحرية

هذا الكلام أغضب الفريسيين . لقد غضوا الطرف عن حقيقة أن الأمة كانت خاضعة مدة طويلة تحت نير دولة غريبة ، فصاحوا يقولون في حنق: "إننا ذرية إبراهيم، ولم نستعبد لأحد قط! كيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحراراً؟" (يوحنا 8 : 33). فنظر يسوع إلى أولئك الرجال الذين كانوا عبيدا للحقد والذين كانوا يضمرون نية الانتقام وأجابهم بحزن: "الحق الحق أقول لكم" إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية" (يوحنا 8 : 34). لقد كانوا في أحط حالات العبودية- إذ كانوا تحت سيطرة روح الشر.

إن كل من يرفض تسليم نفسه لله هو تحت سلطان قوة أخرى ، فهو ليس ملكا لنفسه .قد يتحدث عن الحرية ولكنه في أقسى حالات الإذلال والعبودية فلا يسمح له برؤية جمال الحق لأن عقله خاضع لسلطان الشيطان . ففي حين أنه يخدع نفسه بأنه يتبع ما تمليه عليه بصيرته وحكمه فإنه في الواقع يطيع مشيئة سلطان الظلمة . ولكن يسوع قد أتى ليحطم أصفاد عبودية الخطية عن النفس . "فإن حرّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يوحنا 8 : 36). "لأن ناموس الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت" (رومية 8 : 2).

في عمل الفداء ليس إرغام ، ولا تستخدم أية قوة خارجية . فتحت تأثير روح الله تترك للإنسان الحرية ليختار السيد الذي سيخدمه . وفي التغيير الذي يحدث عندما تسلم النفس إرادتها للمسيح هناك أسمى معاني الحرية . ثم إن طرد الخطية وطرحها بعيدا هو عمل النفس ذاتها . نعم إنه ليست فينا قوة بها نحرر أنفسنا من سلطان الشيطان ، ولكن الإنسان عندما يرغب في التحرر من الخطية ، وفي حاجتنا العظمى نصرخ في طلب قوة خارجة عنا [442] وأسمى منا فإن قوى النفس تستمد القوة من الروح القدس فنطيع أوامر الإرادة لإتم ا م إرادة الله.

إن الشرط الوحيد الذي بموجبه تصير حرية الإنسان في حيز الإمكان هو كونه يصير واحدا مع المسيح . "الحق يحرّركم"، والمسيح هو الحق. إن الخطية يمكنها أن تنتصر فقط بإضعاف العقل وملاشاة حرية النفس . ولكن الخضوع لله هو إرجاع الإنسان لنفسه ـ لمجد الإنسان وكرامته الحقيقيين . إننا نُحاكم "بناموس الحرية" ولهذا الناموس يجب أن نخضع، لأنه يتضمن الشريعة الإلهية (يعقوب 2 : 12).

أولاد إبراهيم

لقد أعلن الفريسيون انهم أولاد ابراهيم . ولكن يسوع أخبرهم أن هذا الادعاء لا يمكن تأييده ما لم يعملوا أعمال ابراهيم . إن أولاد ابراهيم الحقيقيين لابد أن يعيشوا كما عاش هو حياة الطاعة لله . وطبعا لا

يحاولون اغتيال ذاك الذي كان يتكلم بالحق الذي تسلمه من الله . إن معلمي إسرائيل بتآمرهم على المسيح لم يكونوا يعملون أعمال ابراهيم . ومجرد كونهم من نسل إبراهيم كان أمرا عديم القيمة إذا لم تكن له صلة روحية به ، تلك الصلة التي تظهر في امتلاك نفس روحه ومباشرة نفس أعماله وإلا فليسوا من أولاده.

هذا المبدأ يتساوى في وزنه وقيمته مع مسألة أربكت العالم المسيحي مدة طويلة - وهي مشكلة الخلافة الرسولة . إن التناسل من إبراهيم لم يكن يتبرهن بالاسم والسلالة ، بل بالتشابه في الصفات . وكذلك الخلافة الرسولية لا تستند على نقل السلطة الإكليريكية ، بل على الصلة الروحية . إن الحياة التي تحركها روح الرسل والعقائد وتعاليم الحق التي علموها للناس- هذا هو البرهان الحقيقي على الخلافة الرسولية . هذا هو الذي يقيم الناس لكي يكونوا خلفاء رسل الإنجيل الإلهي.

أنكر يسوع ادعاء اليهود بأنهم أولاد إبراهيم فقال لهم: “أنتم تعملون أعمال أبيكم”. فأجابوه في سخرية قائلين: “إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد وهو الله” (يوحنا 8 : 41). هذا الكلام الذي يلمح إلى ظروف ولادة يسوع كان المقصود منه أن يكون طعنة موجهة إليه أمام أولئك الذين بدأوا يؤمنون به . ولم يلق يسوع بالا إلى ذلك التلميح الدنيء بل قال [443] لهم:ك “لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت” (يوحنا 8 : 42).

لقد شهدت أعمالهم على صلتهم بذاك الذي كان كذابا وقتالا للناس . قال لهم يسوع: “أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء، ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي” (يوحنا 8 : 44، 45). إن حقيقة كون يسوع قد نطق بالحق بكل يقين كانت هي سبب عدم قبول رؤساء اليهود له . فالحق هو الذي أغضب أولئك الرجال الأبرار في أعين أنفسهم . لقد فضح الحق مغالطة الخطإ وسفسطته ، كما دان تعاليمهم وأعمالهم ، ولم يكن مقبولا لديهم . كانوا يفضلون أن يغمضوا عيونهم لكي لا يروا الحق على أن يتواضعوا معترفين بأنهم على خطأ . إنهم لم يحبوا الحق ولا رغبوا فيه حتى مع علمهم بأنه الحق.

حكم المرء على نفسه

“من منكم يبكتني على خطية؟ فإن كنت أقول الحق، فلماذا لستم تؤمنون بي؟” (يوحنا 8 : 46). إن أعداء المسيح ظلوا يتعقبونه يوما فيوما مدة ثلاث سنين ليلا ونهارا محاولين أن يجدوا لطخة واحدة في حياته . وحاول الشيطان وكل حلفاء الشر طويلا أن ينتصروا عليه ولكنهم لم يجدوا شيئا في حياته يمكنهم الاستفادة منه . بل حتى الشياطين نفسها كانت مضطرة لأن تعترف قائلة: “أنت: قدوس الله!” (مرقس 1 : 24). لقد عاش يسوع بموجب والناس والشياطين تكلم كلاما لم يراجعه فيه أحد ، كلاما لو تكلم به أي إنسان آخر كان يعتبر مجدفا إذ قال: “أني في كل حين أفعل ما يرضيه” (يوحنا 8 : 29).

إن حقيقة كون اليهود لم يقبلوا يسوع مع أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا فيه علة واحدة أو خطية واحدة برهنت على أنهم هم أنفسهم لم تكن لهما أية صلة بالله . لم يستطيعوا أن يميزوا صوته في رسالة ابنه ، فكانوا يظنون أنهم يحكمون على المسيح ولكنهم برفضهم إياه حكموا على أنفسهم “الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من الله” (يوحنا 8 : 47).

إن هذا الدرس ينطبق على كل العصور . كثيرا ما يحدث أن إنسانا ممن يسرون [444]

بالمماحكة والانتقاد يطلب ما يساعده على التساؤل والشك في كلمة الله . مثل هذا الرجل يظن أنه بهذا يقدم البرهان على استقلاله بالتفكير وعلى حدة ذكائه العقلي ، ويظن أنه يصدر حكمه على الكتاب المقدس

. والحقيقة هي أنه إنما يحكم على نفسه . وهو بهذا يبرهن على عدم أهليته لتقدير الحقائق التي تصدرها السماء وتتناول الأبدية . إن نفسه لا تخشع أمام بر الله وجلاله العظيم . وهو يشغل نفسه في جمع الحصى والهشيم ، وبهذا يكشف عن طبيعته الأرضية الضيقة وقلبه يفقد مقدرته بسرعة على إدراك أمور الله . أما الذي استجاب قلبه للمسة الله فسيطلب ما يزيد معرفته لله وما يمحص الخلق ويسمو به .فكما أن الزهرة تتجه نحو الشمس حتى تلمس أشعتها (تلك الزهرة) بألوان الجمال كذلك تتجه النفس إلى شمس البر حتى تجمل أنوار السماء الخلق بجمال صفات المسيح.

دروس من حياة إبراهيم

وقد استطرد يسوع فأورد مباينة لاذعة بين مركز اليهود ومركز إبراهيم فقال لهم: "أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح" (يوحنا 8 : 56).

لقد تاق إبراهيم لرؤية المخلص الموعود به فقدم صلاة غاية في الحرارة حتى يرى مسيا قبل موته . فرأى المسيح . لقد أعطي له نور فائق الطبيعة فاعترف بألوهية المسيح .لقد رأى يومه وفرح ، كما أعطيت له فكرة عن كفارة الله عن الخطية . وبالنسبة إلى هذه الذبيحة كان له مثال من واقع اختباره . لقد جاءه أمر من الله يقول له: "خذ ابنك وحيدك، الذي تحبه، إسحاق. وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" (تكوين 22 : 2). فعلى مذبح المحرقة قدم ابن الموعد الذي فيه تركزت كل آماله وانتظاراته . وإذ كان واقفا منتظرا أمام المذبح وقد رفع السكين بيده ليذبح ابنه إطاعة لأمر الله سمع صوتا من السماء قائلا له: "لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني" (تكوين 22 : 12). فهذه التجربة الهائلة جرب بها إبراهيم حتى يرى يوم المسيح ، ويتحقق من محبة الله الفائقة للعالم ، محبة بلغت درجة بذل ابنه الوحيد ليقاسي موتا مشينا وذلك من أجل رفع العالم من الانحطاط.

تعلم إبراهيم من الله أعظم درس يمكن أن يتعلمه إنسان . وقد أجيبت صلاته التي طلب [445] فيها أن يرى المسيح . فلقد رأى المسيح ، رأى كل ما يمكن أن تراه عين إنسان ويعيش .فإذ خضع لله خضوعا كاملا أمكنه أن يفهم رؤيا المسيح التي أعطيت له . لقد أراه الله أنه في بذله أبنه الوحيد ليخلص الخطاة من الهلاك الأبدي أقدم على تضحية أعظم وأعجب من كل ما يمكن أن يقدم عليه أي إنسان.

لقد جاء اختبار إبراهيم جوابا على هذا السؤال: "بم أتقدّم إلى الرب وأنحني للإله العلي؟ هل أتقدّم بمحرقات، بعجول أبناء سنة؟ هل يسر الرب بألوف الكباش، بربوات أنهار زيت؟ هل أعطي بكري عن معصيتي، ثمرة جسدي عن خطية نفسي؟" (ميخا 6 : 6، 7). في كلام إبراهيم عندما قال لابنه: "الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني" (تكوين 22 : 8)، وفي تدبير الله للذبيحة عوضا عن اسحق أعلن أنه لا يمكن لإنسان أن يقدم كفارة عن نفسه . إن نظام الذبائح عند الأمم لم يكن مقبولا لدى الله ، ولم يكن لأي إنسان أن يقدم ابنه أو ابنته ذبيحة خطية . ولكن ابن الله وحده هو الذي يستطيع أن يحمل خطية العالم.

استطاع إبراهيم عن طريق آلامه أن يرى مهمة المخلص المضحية ، ولكن إسرائيل لم يفهموا ما كانت تنفر منه قلوبهم المتكبرة . إن كلام المسيح عن إبراهيم لم يكن له معنى عميق في نظر سامعيه ، ولم ير الفريسيون فيه إلا أساسا جديدا للمماحكة ، فجاوبوه في سخرية وكأنهم يبرهنون على أن يسوع إنسان مجنون قائلين: "ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟" (يوحنا 8 : 85).

فبعظمة وجلال مقدس أجابهم يسوع قائلا: "الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن"

(يوحنا 8 : 58).

استولى الصمت على ذلك الجمع الغفير . فها هو المعلم الجليلي يطلق على نفسه اسم الله المعطى لموسى للتعبير عن فكرة وجود الله السرمدي ، وها هو يعلن عن نفسه أنه الإله القيوم والموعود به لإسرائيل الذي "مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل" (ميخا 5 : 2).

ومرة أخرى صاح الكهنة والمعلمون ضد يسوع كمن يجدف . إن ادعاءه السابق أنه واحد مع الله كان قد أثارهم حتى حاولوا أن يقضوا عليه بالموت ، وبعد ذلك بأشهر قليلة [446] قالوا له بصراحة: "لسنا نرجمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً" (يوحنا 10 : 33). فلأنه كان ابن الله وجاهر بذلك صمموا على إهلاكه . وقد انحاز كثيرون من الشعب إلى الكهنة والمعلمين ورفعوا حجارة ليرجموه . "أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا" (يوحنا 8 : 59).

كان النور يضيء في الظلمة ، "والظلمة لم تدركه" (يوحنا 1 : 5).

تزييف الحق

"وفيما هو (يسوع) مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته، فسأله تلاميذه قائلين: يا معلّم، من أخطأ: هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه. ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمت في العالم فأنا نور العالم. قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطيم عيني الأعمى. وقال له: اذهب اغتسل في بركة سلوام. الذي تفسيره: مرسل، فمضى واغتسل وأتى بصيراً" (يوحنا 9 : 1 — 7).

كان هنالك اعتقاد سائد بين اليهود أن الخطية تعاقب في هذه الحياة . فكل تجربة أو بلية كانت تعتبر قصاصا لعمل خاطئ شرير ارتكبه إما المتألم نفسه أو أبواه . نعم إن كل ألم هو نتيجة التعدي على شريعة الله . ولكن هذا الحق قد أفسد وحرف . إن الشيطان الذي هو أصل كل خطية والمتسبب في كل عواقبها ساق الناس إلى أن ينظروا إلى الأمراض والموت على أنها صادرة من الله- كقصاص استبدادي تعسفي يحل بالإنسان عقابا للخطية. ولذلك فالإنسان الذي تحيق به تجربة أو كارثة عظيمة كان يقع تحت عبء إضافي وهو أنه يعتبر خاطئا عظيما.

وهكذا صار الطريق معبدا أمام اليهود لرفض يسوع . فالذي حمل "أحزاننا ... وأوجاعنا تحملها" حسبه اليهود "مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً" فستروا وجوههم عنه (إشعياء 53 : 4، 3).

أعطى الله للناس درسا كان القصد منه أن يلاشي هذا الاعتقاد . فلقد برهن تاريخ أيوب على أن الآلام والضيقات تحل بالناس نتيجة لعمل الشيطان ولكن الله يسيطر عليها لأغراض رحيمة . غير أن بني إسرائيل لم يفهموا هذا الدرس . فنفس الغلطة التي وبخ الله [447] عليها أصحاب أيوب كررها اليهود حين رفضوا المسيح

إن اعتقاد اليهود الخاص بارتباط الآلام بالخطية كان هو الاعتقاد الذي رسخ في عقول تلاميذ المسيح . وفي حين أصلح يسوع خطأهم لم يوضح لهم أسباب البلية التي حلت بالأعمى بل أخبرهم بنتائجها إذ بسبب تلك البلية ستظهر أعمال الله . ثم قال لهم: "ما دمت في العالم فأنا نور العالم" (يوحنا 9 : 5). وبعدما طلى بالطين عيني الأعمى أرسله إلى بركة سلوام ليغتسل فاستعاد الرجل بصره . وبهذا أجاب يسوع عن سؤال

التلاميذ بطريقة عملية ، كما اعتاد أن يجيب عن الأسئلة المقدمة إليه بدافع الفضول . إن التلاميذ لم يطلب منهم أن يتناقشوا في السؤال عمن قد أخطأ أو من لم يخطئ بل أن يفهموا ويدركوا قدرة الله ورحمته في إعطاء البصر للأعمى . كان واضحا أن الطين لم تكن فيه قوة شافية ولا في البركة التي أرسل الأعمى ليغتسل فيها ولكن القوة الشافية كانت في المسيح نفسه.

أيقدر خاطئ أن يصنع معجزات كهذه ؟

لم يسع الفريسيين إلاّ أن يندهشوا من معجزة الشفاء هذه ، ومع ذلك فقد زادوا بغضا له أكثر مما في أي وقت مضى لأن المعجزة أجريت في يوم السبت.

سأل جيران ذلك الأعمى والذين كانوا يعرفونه وهو أعمى: "أليس هذا هو الكائن هو الذي كان يجلس ويستعطي؟" (يوحنا 9 : 8). نظروا إليه بارتياب لأنه عندما فتحت عيناه تغيرت هيئة وجهه الذي اكتسى تألقا وسرورا وتراءى لهم كأنه إنسان آخر . وتناقلت الألسنة ذلك السؤال . فقال بعضهم: "هذا هو" وآخرون قالوا: "إنه يشبهه" وأما الذي نال البركة العظيمة فقد أنهى كل تساؤل إذ قال: "إني أنا هو"، وبعد ذلك أخبرهم عن يسوع وكيف منحه الشفاء. فلما سألوه قائلين: "أين ذاك؟" قال: "لا أعلم" (يوحنا 9 : 9 — 12).

وبعد ذلك أتوا به إلى مجمع الفريسيين ومرة أخرى سئل كيف أبصر . "فقال لهم: وضع طيناً على عيني واغتسلت، فأنا أبصر". فقال قوم من الفريسيين: هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت" (يوحنا 9 : 15 و 16). كان الفريسيون يريدون أن يخرجوا اسم يسوع كشرير ويترتب على ذلك أنه ليس مسيا . لم يعرفوا أن ذاك الذي وضع السبت وعرف كل مطالبيه هو الذي شفى الأعمى لقد بدا عليهم أنهم يغارون جدا [448] على كرامة السبت ومع ذلك ففي نفس ذلك اليوم كانوا يتآمرون لارتكاب جريمة قتل . ولكن الكثيرون تأثروا بشدة لدى سماعهم نبأ تلك المعجزة واقتنعوا بأن من قد فتح عيني الأعمى هو أكثر من إنسان عادي . وجوابا على اتهام يسوع بأنه خاطئ لأنه لم يحفظ السبت قالوا: "كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات؟" (يوحنا 9 : 16).

ومرة أخرى سأل المعلمون الرجل الذي كان قبلا أعمى قائلين: "ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك؟" (يوحنا 9 : 17). وقد زعم الفريسيون حينئذ أنه لم يكن أعمى فأبصر فاستدعوا أبويه وسألوهما قائلين: "أهذا ابنكما الذي تقولان إنه ولد أعمى؟ فكيف يبصر الآن؟" (يوحنا 9 : 19). ولكن كان هنالك الرجل نفسه الذي كان يعلن أنه كان أعمى وقد ارتد بصيرا غير أن الفريسيين كانوا يفضلون إنكار برهان حواسهم على الاعتراف بخطئهم . إن التعصب قوي جدا وبر الفريسيين هو الاعوجاج نفسه.

"والآن أبصر"

لم يبق أمام الفريسيين غير أمل واحد وهو إلقاء الرعب في قلب أبوي ذلك الشاب .فبإخلاص مصطنع سألوهما قائلين: "فكيف يبصر الآن؟" وكان ذانك الأبوان يخشيان من تعريض نفسيهما للخطر ، لأنه قد أُعلن أنه إن اعترف أحد بيسوع المسيح "يخرج من المجمع" أي يطرد من المجمع لمدة ثلاثين يوما . وفي خلال مدة العقوبة هذه لم يكن يسمح بختان طفل أو النوح على ميت في بيت الشخص المذنب . وكان هذا

الحكم معتبرا كارثة عظيمة . وإذا لم ينتج عنه رجوع أو توبة فستتلوه عقوبة أعظم جدا . إن المعجزة التي حدثت لذلك الأعمى أقنعت أبويه ، ولكنهما مع ذلك أجابا قائلين: "نعلم أن هذا ابننا، وأنه ولد أعمى. وأما كيف يبصر الآن فلا نعلم. أو من فتح عينيه فلا نعلم. هو كامل السن. اسألوه فهو يتكلم عن نفسه" (يوحنا 9 : 20 و 21). لقد تملصا من المسؤولية وألقياها كلها على ابنهما لأنهما لم يجسرا على الاعتراف بالمسيح.

إن الورطة التي وقع فيها جماعة الفريسيين وتشككهم وتعصبهم وعدم إيمانهم بالحقائق الواضحة في تلك القضية ، كل ذلك فتح عيون جماهير الشعب وعلى الخصوص عامتهم . إن يسوع كثيرا ما كان يصنع عجائبه علنا في الشوارع ، وكانت دوما لتخفيف آلام [449] المتألمين . والسؤال الذي كان ماثلا في أذهان كثيرين هو هذا: هل يمكن أن صنع الله هذه المعجزات والقوات على يدي إنسان محتال كما أصر الفريسيون في اعتقادهم عن يسوع؟ وقد بدأت الحرب تشتد ويحمى وطيسها بين الفريقين .

رأى الفريسيون أنهم بتصرفهم كانوا يروجون للعمل الذي عمله يسوع . إنهم لم يستطيعوا إنكار المعجزة . لقد كان قلب الأعمى مفعما بالفرح وفائضا بالشكر . ها هو الآن يرى لأول مره عجائب الطبيعة فيمتلئ قلبه سرورا وهو يرى جمال الأرض والسماء . وها هو بكل حرية يحكي اختباره . وهنا يحاول الرؤساء مرة أخرى أن يسكتوه بقولهم له: "أعط مجداً لله. نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ" (يوحنا 9 : 17). وكأنما هم يقولون له: لا تعد تقول أن هذا الإنسان قد منحك البصر ، فإن الله هو الذي فعل ذلك.

فأجابهم الأعمى قائلا: "أخاطئ هو؟ لست أعلم. إنما أعلم شيئاً واحداً: أني كنت أعمى والآن أبصر" (يوحنا 9 : 25).

الكهنة يقعون في الفخ

فعادوا يستجوبونه قائلين: "ماذا صنع بك؟ كيف فتح عينيك؟". جعلوا يمطرونه بأسئلتهم لعلهم يربكونه فيحسب نفسه قد خدع . وكان الشيطان وأعوانه من الأبالسة منحازين إلى الفريسيين . وقد وحدوا كل جهودهم وخبثهم من المحاباة البشرية لكي يبطلوا مفعول تأثير المسيح . لقد أضعفوا الاقتناع الذي كان متأصلا في عقول الكثيرين . كما أن ملائكة الله كانوا هم أيضاً في ميدان القتال لتشديد عزيمة الذي أبصر.

كان الفريسيون موقنين أنهم لا يتعاملون مع أي واحد غير ذلك الرجل الجاهل المولود أعمى ، ولم يعرفوا ذاك الذي كانوا يناصبونه العداء . لقد أشرق النور الإلهي في مخادع نفس الرجل المولود أعمى ، وإذ حاول هؤلاء المنافقون أن يشككوه فيما قاله ويجعلوه ينكره فقد أعانه الله على أن يبرهن بقوة إجاباته السديدة على إنه لا يمكن أن يؤخذ في أشراكهم . فأجابهم بقوله: قد قلت لكم ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟ ألعلّكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟" (يوحنا 9 : 27 — 29).

لقد عرف الرب يسوع المحنة التي كان يجتاز فيها ذلك الرجل فأعطاه نعمة وكلاما [450] بحيث صار شاهدا للمسيح . لقد كانت إجاباته توبيخا جارحا لمستجوبيه . لقد كانوا يدعون أنهم مفسرو كلمة الله وقادة الأمة الدينيون ، ومع ذلك فها واحد يصنع المعجزات ومع ذلك كانوا يجهلون جهلا قاطعا مصدر قوته وكل ما يتعلق بصفاته وتصريحاته . قال لهم الرجل: إن في هذا عجباً! إنكم لستم تعلمون من أين هو، وقد فتح عيني. ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة. ولكن إن كان أحد يتّقي الله ويفعل مشيئته، فلهذا يسمع. منذ الدهر لم يسمع أن أحداً فتح عيني مولود أعمى لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً" (يوحنا 9 : 30 — 33).

لقد واجه الرجل مستجوبيه في ميدانهم ولم يستطيعوا الإجابة على حججه ، بل ذهل أولئك الفريسيون

وسكتوا- لقد أبكمهم الذهول أمام كلامه الموجه القاطع الثابت . نعم صمتوا لمدى لحظات قصيرة ومن ثم لم الكهنة والمعلمون العابسون أطراف ثيابهم كأنما كانوا يخشون من أن تصيبهم عدوى ذلك الرجل ونفضوا غبار أرجلهم وجعلوا يقذفونه بوابل من شتائمهم قائلين له: "في الخطايا ولدت أنت بجملتك، وأنت تعلّمنا! فأخرجوه خارجاً" (حرموه) (يوحنا 0 : 34).

فسمع يسوع بكل ما حدث ، وإذ وجد الرجل بعد قليل قال له: "أتؤمن بابن الله؟" (يوحنا 9 : 35).

واهب النور

فلأول مرة شخص الرجل في وجه من قد شفاه . إنه إذ كان واقفا يحاكم أمام مجمع الفريسيين رأى أبويه مضطربين ومرتبكين ، وكان ينظر إلى وجوه المعلمين العابسة . أما الآن فها هو يرى وجه يسوع المحب الذي يتجلى فيه السلام . لقد سبق له أن اعترف بأنه مرسل من السماء ومزود بسلطان إلهي وإن كان ذلك قد كلفه ثمنا غاليا . أما الآن فها هو يتلقى إعلان أسمى.

فإذ سأله المخلص قائلا: "أتؤمن بالله؟" أجابة الأعمى على سؤاله بسؤال آخر قائلا: "من هو يا سيد لأؤمن به؟" فأجابه يسوع بقوله: "قد رأيته، والذي يتكلم معك هو هو!" (يوحنا 9 : 35 — 37). فخر الرجل عند قدمي المسيح وسجد له . ففضلا عن كون الرجل عاد بصيرا فقد فتحت عين ذهنه وفهمه . لقد أعلن المسيح لنفس ذاك الرجل فقبله كمن هو [451] مرسل من قبل الله.

وكان جمع من الفريسيين مجتمعين هناك ، فإذ رآهم يسوع ارتسم في ذهنه التباين الدائم الوضوح كنتيجة لأقواله وأعماله . فقال: "لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذي لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون" (يوحنا 9 : 39). أتى يسوع ليفتح أعين العميان ولينير على الجالسين في الظلمة . لقد أعلن نفسه أنه نور العالم ، وكانت المعجزة التي أجريت حينئذ خير شاهد على صدق رسالته . إن من قد رأوا المخلص في مجيئه ، كان لهم امتياز الإعلان الأكمل عن الحضور الإلهي أكثر مما قد تمتع ببر العالم من قبل .لقد أعلنت معرفة الله كمال أزيد ، ولكن في نفس هذا الإعلان قضى بالدينونة على الناس إذ اختبرت أخلاقهم وتقرر مصيرهم.

إن إعلان القوة الإلهية التي منحت للأعمى بصرا طبيعيا وروحيا . ذلك الإعلان ترك الفريسيين في ظلمة أشد ادلهماماً . وإذ أحس بعض السامعين أن كلام المسيح ينطبق عليهم سألوه قائلين: "ألعلّنا نحن أيضاً عميان؟" فأجابهم يسوع: "لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية"، أي لو كان الله قد جعل من المستحيل عليكم أن تروا الحق لما كان ينطوي على جهلكم خطية ، "ولكن الآن تقولون إننا نبصر". أنتم تعتقدون أنكم قادرون على أن تبصروا ولكنكم ترفضون الوسيلة التي بها دون سواها يمكنكم الحصول على البصر . لقد أتى المسيح بمعونة غير محدودة لكل من يعرفون حاجتهم ويحسون ويعترفون بها . أما الفريسيون فلم يعترفوا بحاجة إلى شيء . ولذلك رفضوا الإتيان إلى المسيح فتُرِكوا في عماهم- العمى الذي تقع عليهم وحدهم تبعته . فقال لهم يسوع: "خطيتكم باقية" (يوحنا 9 : 40، 41). [452]

الفصل الثاني والخمسون—الراعي الإلهي

"أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف". "أما أنا فإني الراعي الصالح، وأعرف خاصّتي وخاصّتي تعرفني" (يوحنا 10 : 11، 14).

وجد يسوع مرة أخرى سبيلا إلى عقول سامعيه عن طريق الأشياء المألوفة لديهم . لقد شبه تأثر الروح القدس بالماء البارد المنعش المروي ، كما شبه نفسه بالنور الذي هو مصدر الحياة والفرح للطبيعة والإنسان . أما الآن فهو يصور علاقته بمن يؤمنون به في صورة جميلة للراعي ورعيته . وكانت هذه الصورة مألوفة جدا لسامعيه . وقد قرنت كلمات المسيح هذه الصورة لشخصه إلى الأبد . وما من مرة كان التلاميذ فيها ينظرون إلى الرعاة وهم يحرسون أغنامهم إلا وكانوا يذكرون هذا الدرس الذي علمهم إياه المخلص . فكانوا يرون المسيح في شخص كل راع أمين ، وكانوا يرون أنفسهم ممثلين في كل قطيع عاجز يعتمد على راعيه.

طبق إشعياء النبي هذه الصورة على رسالة مسيا . ففي كلمات معزية يقول: "على جبل عال اصعدي، يا مبشرة صهيون. ارفعي صوتك بقوة، يا مبشرة أورشليم. ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا: "هوذا إلهك .. كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات" (إشعياء 40 : 9 — 11). وقد تغنى داود قائلاً: "الرب راعي فلا يعوزني شيء" (مزمور 23 : 1). وعلى لسان حزقيال أعلن الروح القدس قائلاً: "وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها"، "وأطلب الضال، واسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح"، "وأقطع معهم عهد سلام"، "فلا يكونون بعد غنيمة للأمم .. بل يسكنون آمنين ولا مخيف" (حزقيال 34 : 23 و 16 و 25 و 28).

طبق المسيح هذه النبوات على نفسه . وأبان الفرق بين صفاته وصفات رؤساء إسرائيل. فمنذ قليل طرد الفريسيون من الحظيرة واحدا لأنه تجرأ على أن يشهد لقدرة المسيح . لقد قطعوا نفس إنسان كان الراعي الحقيقي يجتذبه إلى نفسه . وبهذا التصرف [453] برهنوا على أنهم يجهلون العمل المسند إليهم وعلى أنهم غير جديرون بان يستأمنوا كرعاة على القطيع المسلم لهم . وقد أبان لهم يسوع الفرق بينهم وبين الراعي الصالح ، وأشار إلى نفسه كالحارس الحقيقي لقطيع الرب . وقبلما فعل ذلك تكلم عن نفسه في صورة أخرى .

الدخول من الباب

قال لهم: "إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف، بل يطلع من موضع آخر، فذاك سارق ولص. وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف" (يوحنا 10 : 1 و 2). ولكن الفريسيين لم يفهموا أنه قد تكلم بهذا ضدهم . وعندما كانوا يتفكرون في قلوبهم معنى هذا الكلام أخبرهم يسوع بكل وضوح قائلا:

"أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى. السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل" (يوحنا 10 : 9 و 10). المسيح هو الباب إلى حظيرة الله . ومن هذا الباب دخل أولاده منذ أقدم العصور . ففي شخص يسوع كما هو ظاهر في الصور ومخفي في الرموز ومعلن في نبوات الأنبياء ، وواضح في التعاليم التي قدمها لتلاميذه والمعجزات التي أجراها لخير بني الإنسان- في كل هذا رأوا فيه "حمل الله الذي يرفع خطية العالم (يوحنا 1 : 29). وبواسطته يؤتى بهم إلى حظيرة نعمته . إن كثيرين قدموا مواضيع وأغراضا أخرى لإيمان العالم ، وابتكرت طقوس ونظم يؤمل الناس أن يحصلوا بواسطتها على التبرير والسلام مع الله وهكذا يجدون الباب للدخول إلى حظيرته . لكن المسيح هو الباب الوحيد ، وكل من أتوا بشيء ليحتل مكان المسيح ، وكل من حاولوا دخول الحظيرة بطريقة أخرى هم سراق ولصوص.

لم يدخل الفريسيون من الباب بل طلعوا إلى الحظيرة من موضع آخر غير المسيح ، ولم يتمموا عمل الراعي الحقيقي. فالكهنة والرؤساء والكتبة والفريسيون خربوا المراعي الحية وأفسدوا آبار الماء الحي . إن كلمات الوحي الإلهي تصف هؤلاء الرعاة الزائفين وصفا دقيقا: "المريض لم تقووه، والمجروح لم تعصبوه، والمكسور لم تجبروه، والمطرود لم تستردوه، والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلطتك عليهم" (حزقيال 34 : 4). [454]

إنجيل النعمة

في كل العصور كان الفلاسفة والمعلمون يقدمون للعالم نظريات حاولوا بها سد حاجات النفس. فكل أمة وثنية كان لها معلموها العظام ونظمها الدينية وهذه كلها قدمت وسائل أخرى للفداء غير المسيح ، وبذلك حول أولئك المعلمون أنظار الناس عن وجه الآب وملأوا قلوبهم خوفا ورعبا من ذاك الذي لم يمنحهم غير البركات . فكانوا بذلك يحاولون سلب حقوق الله في الخلق والفداء . كما أن أولئك المعلمين الكذبة يسلبون الإنسان أيضاً .إن ملايين من بني الإنسان مقيدون تحت سلطان الديانات الكاذبة ، تحت عبودية الخوف المذل أو عدم المبالاة البليدة وهم يكدحون كالدواب حاملات الأثقال بلا أمل أو طموح في هذه الحياة وليس لهم غير الكآبة والخوف من المستقبل . وليس غير إنجيل نعمة الله يستطيع أن يسمو بالنفس . إن التأمل في محبة الله الظاهرة في ابنه هو الذي يلهب القلب وكل قوى النفس أكثر من أي شيء آخر . ولقد أتى المسيح لكي يخلق في الإنسان صورة الله من جديد . وكل من يبعد الناس عن المسيح إنما يبعدهم عن مصدر كل ارتقاء حقيقي ويختلس منهم أمل الحياة وغايتها الحقيقيين . إنه سارق ولص.

"وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف" (يوحنا 10 : 2). المسيح هو الباب كما أنه هو الراعي. إنه يدخل بنفسه. وبواسطة كفارته يصير راعي الخراف "لهذا يفتح البواب، والخراف تسمع صوته، فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها. ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها، والخراف تتبعه، لأنها تعرف صوته" (يوحنا 10 : 3 و 4).

إن الخروف هو من أكثر كل الخلائق جبنا وعجزا . وفي بلاد الشرق يهتم الراعي بقطيعه اهتماما دائما ويرعاه رعاية لا تعرف الكلال . وفي العصور القديمة كما في هذه الأيام لم يكن يوجد أمان خارج أسوار المدن . وإن قطاع الطرق القادمين من القبائل المجاورة المغيرة أو الوحوش الخارجة من أوجارها في الصخور كانت تتربص بالغنم .ولكن الراعي كان يحرس غنمه مع علمه أن ذلك كان يكلفه حياته . إن يعقوب الذي كان يرعى غنم لابان في حقول حاران إذ يصف خدمته في غير كلال يقول: "كنت في النهار

يأكلني الحر وفي الليل الجليد، وطار نومي من عيني" (تكوين 31 : 40). وإذ كان الفتى داود يحرس غنم أبيه قاتل الأسد والدب وهو أعزل وأنقذ الشاة من أنيابهما . [455]

الراعي الإلـهي

وإذ يقود الراعي قطيعه فوق التلال الصخرية والغابات والأودية الوعرة الضيقة إلى المراعي الخضراء الممتدة على جانب النهر ، وإذ يحرسها فوق الجبل في الليالي الموحشة ويحفظها من اللصوص وبكل رقة يعَنى بالخراف المريضة والهزيلة فإن حياته تتحد وترتبط بحياتها . إن الرابطة القوية الرقيقة توحد بينه وبين الخراف التي هي موضع رعايته . ومهما يكن القطيع كبيرا فالراعي يعرف كل شاة . ولكل واحدة اسمها وعندما تسمع الراعي يناديها باسمها تستجيب لندائه.

وكما يعرف الراعي الأرضي خرافه فكذلك يعرف الراعي الإلهي قطيعه المشتت في كل أنحاء العالم . وها الرب يسوع يقول: "وأنتم يا غنمي، غنم مرعاي، أناس أنتم. أنا إلهكم، يقول السيد الرب" كما يقول أيضاً: "دعوتك باسمك. أنت لي"، "هوذا على كفّيّ نقشتك" (حزقيال 34 : 31 ؛ إشعياء 43 : 1 ؛ 49 : 16).

إن يسوع يعرف كل فرد منا وهو يرثي لضعفاتنا ويعرف كلا منا باسمه ، ويعرف نفس البيت الذي يسكنه كل واحد واسم كل فرد من العائلة . وفي بعض الأيام يرسل أحد خدامه إلى شارع من شوارع إحدى المدن وإلى بيت في ذلك الشارع ليجد واحدا من خرافه ويفتقده.

إن نفس كل إنسان معروفة لدى يسوع تماما كما لو كان هو الشخص الوحيد الذي قد مات المخلص لأجله . إن كرب كل فرد يمس قلبه وصراخهم يصل إلى أذنيه . لقد أتى ليجتذب إلى نفسه كل الناس . وهو يأمر كلا منهم قائلا: "اتبعني" ، وروحه يرف على قلوبهم ليجتذبهم للإتيان إليه . إن كثيرين يقاومون تلك الجاذبية ويسوع يعرف من هم ، كما يعرف أولئك الذين إذ يسمعون نداءه يكونون على أتم استعداد ليأتوا ويكونوا تحت رعايته بكل سرور . إنه يقول: "خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها تتبعني" (يوحنا 10 : 27) وهو يهتم بكل واحد كما لو كان هو الشخص الوحيد على وجه كل الأرض.

"يدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها .. والخراف تتبعه، لأنها تعرف صوته" (يوحنا 10 : 3 و 4). إن رعاة الشرق لا يسوقون أصنامهم أمامهم . والراعي لا يركن إلى [456] القوة أو الخوف ، ولكنه إذ يسير أمامها يدعوها بأسمائها . والخراف تعرف صوته وتطيع نداءه. وهذا هو نفس ما يفعله مخلصنا وراعينا مع غنمه . والكتاب يقول: "هديت شعبك كالغنم بيد موسى وهارون". ويسوع يعلن قائلاً على لسان النبي: "محبة أبدية أحببتك، من أجل ذلك أدمت لك الرحمة" (اجتذبتك بالرحمة). إنه لا يرغم أحداً على اتباعه: "كنت أجذبتهم بحبال الشر، يربط المحبة" (مزمور 77 : 20 ؛ 31 : 3 ؛ هوشع 11 : 4).

المحبة الجاذبة

إن ما يدعو تلاميذ المسيح إلى اتباعه ليس هو الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب الأبدي ، لكنهم يرون محبة المخلص التي لا مثيل لها معلنة للناس مدى سني حياته على الأرض من مذود بيت لحم إلى

صليب جلجثة ، والنظر إليه وإلى محبته يجتذبهم ، وهذا يلين القلب ويخضع النفس . فتستيقظ المحبة في قلوب مشاهديه . فإذ يسمعون صوته يتبعونه.

وكما يتقدم الراعي خرافه معرضا نفسه لمخاطر الطريق كذلك يفعل يسوع مع شعبه: "ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها" (يوحنا 10 : 4). إن الطريق إلى الماء قد تقدس بآثار خطوات المخلص . ربما كان الطريق منحدرا وعرا ، ولكن يسوع سبق فسار فيه . لقد داس بقدميه الأشواك القاسية ليمهد الطريق أمامنا . لقد سبق فحمل كل حمل علينا أن نحمله.

ومع أن يسوع الآن قد صعد إلى محضر الله وهو جالس على عرش الكون فإنه لا يزال محتفظا بطبيعته الرحيمة الرقيقة . واليوم نجد أن نفس ذلك القلب الرقيق العطوف لا يزال يرثى لكل البشر في آلامهم وبلاياهم . وتلك اليد المثقوبة تمتد اليوم لتجزل البركات بغزارة لشعبه الذين في العالم "ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي" (يوحنا 10 : 28). إن الشخص الذي قد سلم نفسه للمسيح هو أغلى في نظره من كل العالم . والمخلص كان بكل سرور يجتاز في آلام جلجثة وعذاباتها حتى تخلص نفس واحدة وتأتي إلى ملكوته . وهو لن يتخلى عن إنسان مات لأجله . وما لم يتركه أتباعه بمحض اختيارهم فسيظل متمسكا بهم بكل قوته. [457]

إننا في كل تجاربنا نجد معينا لا يخذلنا أبدا . إنه لا يتركنا وحدنا لنصارع مع التجربة ونحارب الشر لتسحقنا أعباؤنا وأحزاننا في النهاية . ومع أنه الآن لا يرى بالعين البشرية فإن أذن الإيمان تستطيع أن تسمع صوته قائلا: لا تخف أنا معك . أنا "الحي. وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين!" (رؤيا 1 : 18). إني قد حملت أحزانكم واختبرت محارباتكم، وجزت في تجاربكم . إني أعرف دموعكم فلقد بكيت أنا أيضًا . وإني أعرف الأحزان التي هي في أعماق النفس حتى ما تسمعها أذن بشر . لا تظنوا أنكم قد تركتم وحدكم لمعاناة آلام الوحشة . ومع أن آلامكم لا تجد عطفا ولا استجابة من قلوب الناس فالتفتوا إلي واحيوا ، "فإن الجبال تزول، والآكام تتزعزع، أما إحساني فلا يزول عنك، وعهد سلامي لا يتزعزع، قال راحمك الرب" (إشعياء 54 : 10).

خراف الرب

مهما كانت محبة الراعي لخرافه عظيمة فإن محبته لبنيه وبناته هى أعظم من ذلك بما لا يقاس ، ما في ذلك شك . ولكن يسوع ليس راعينا فقط بل هو "أب أبدي" لنا. وهو يقول: "أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني، كما أنا الآب يعرفني وأنا أعرف الآب" (يوحنا 10 : 14، 15). ما أعظم هذا الحق وهذا التصريح!- فالابن الوحيد الذي هو في حضن الآب ، دعاه الله بـ "رجل رفقتي" (زكريا 13 : 7). فالشركة التي بينه وبين الإله السرمدي تمثل لنا الشركة بين المسيح وأولاده على الأرض!

فلكوننا عطية الآب وثواب عمله فيسوع يحبنا كأولاده . إنه يحبك أيها القارئ .والسماء نفسها لا يمكنها أن تمنح شيئا أعظم ولا أفضل من هذا . إذا فاتكل عليه .

كان يسوع يفكر في نفوس الناس في كل العالم ، في كل من قد أضلهم الرعاة الكذبة . أولئك الذين كان يتوق إلى أن يجمعهم كغنم مرعاه تشتتوا بين الذئاب . قال: "ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي، وتكون رعية واحدة وراع واحد" (يوحنا 10 : 16).

"لهذا يحبني الآب، لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً" (يوحنا 10 : 17). وكأنما هو يقول: إن أبي قد أحبكم حبا عظيما حتى أنه يحبني بالأكثر لأني أبذل حياتي لفدائكم . فإذ [458] أصير نائبا عنكم وضامنا

لكم بتسليم حياتي وتحمل ضعفاتكم وتعدياتكم ، لهذا كله يعزني أبي.

"أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يوحنا 10 : 17 و 18). فإذ كان كفرد من الأسرة البشرية كان قابلا للموت ، ولكون الله هو نبع حياة لكل العالم . كان يمكنه أن يثبت أمام هجوم الموت ويرفض الخضوع لسلطانه ، ولكنه بمحض اختياره وضع حياته حتى ينير الحياة والخلود . لقد حمل خطية العالم واحتمل لعنتها مقدما حياته ذبيحة حتى لا يهلك الناس هلاكا أبدياً "لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمّلها .. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحبره شفينا. كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا" (إشعياء 53 : 4 — 6). [459]

الفصل الثالث والخمسون—الرحيل عن الجليل لآخر مرة

حدث تغيير في الأسلوب الذي اتبعه المسيح في العمل عندما أوشكت خدمته على الانتهاء . كان إلى ذلك الحين يتجنب الدعاية والشهرة . لقد رفض الولاء الذي قدمه له الشعب وكان ينتقل بسرعة من مكان إلى آخر عندما التهبت قلوب الشعب حماسة له بحيث لم يستطيعوا السيطرة على عواطفهم . ومرارا كثيرة كان يأمر الناس أ ّ لا يعلنوا عنه أنه هو المسيح.

عندما حل ميعاد عيد المظال سافر إلى أورشليم بسرعة وبدون أن يعلم أحد . وحين ألح عليه إخوته أن يعلن على رؤوس الملإ أنه مسيا أجابهم قائلا: "إن وقتي لم يحضر بعد" (يوحنا 7 : 6) سافر إلى أورشليم دون أن يلاحظ الناس ذلك ، ودخل المدينة دون أن يعلن أحد خبر قدومه ودون أن يقدم له الشعب الإكرام اللائق به . ولكن رحلته الأخيرة كانت تختلف عن سابقاتها . لقد ترك أورشليم بعض الوقت بسبب حقد الكهنة . أما الآن فها هو يعود بطريقة أشد ما تكون علنية جهارية سائرا في طريق دائري ، يتقدمه رسل ليعلنوا عن مجيئه ، الأمر الذي لم يسبق له أن فعله . كان يتقدم إلى مشهد كفارته العظيم الذي كان ينبغي أن تتجه إليه انظار الناس جميعهم.

"وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان" (يوحنا 3 : 14). فكما اتجهت أنظار كل شعب إسرائيل إلى الحية المرفوعة التي كانت هي الرمز المعين من الله لشفائهم ، كذلك ينبغي أن تتجه كل الأنظار إلى المسيح الذي هو الذبيحة التي أتت بالخلاص للعالم الهالك.

إن ما دعا إخوة يسوع إلى أن يلحوا عليه في إعلان نفسه للناس في عيد المظال كان فهمهم المخطئ لعمل مسيا وعدم إيمانهم بألوهيته . وفي روح قريبة الشبه بهذه حاول التلاميذ منع السيد من السفر إلى أورشليم . لقد ذكروا كلامه الذي قاله عما سيحدث له هناك ، وعرفوا العداء الرهيب الذي يضمره له الرؤساء الدينيون ولذلك حاولوا إقناعه بالعدول عن السفر إلى هناك. [460]

يسوع ينطلق إلى أورشليم

كان أمراً مريراً على قلب المسيح أن يتقدم إلى الأمام غير عابئ بالمخاوف أو الخيبة أو عدم الإيمان التي كانت تكتنف تلاميذه المحبوبين . وكان أمراً شاقا جدا عليه أن يسير في طليعتهم إلى الأمام حيث الأحزان والآلام التي كانت تنتظرهم في أورشليم . كان الشيطان قريبا ليمطر ابن الإنسان بوابل من تجاربه- لماذا يذهب الآن إلى أورشليم حيث يلاقي الموت المحقق؟ لقد كانت حوله في كل مكان نفوس جائعة إلى خبز الحياة . وفي كل مكان كان أناس متألمون ومعذبون ينتظرون أن ينالوا منه الشفاء . إن

العمل الذي كان يجب أن يتم بواسطة إنجيل نعمته كان في أول مراحله ، كما أنه هو كان في ملء نشاط رجولته . فلماذا لا يذهب إلى حقول العالم الواسعة حاملا رسالة نعمته ومقدما بلمسته الشفاء للمرضى؟ ولماذا لا يتمتع بفرح إيصال النور والسعادة إلى ملايين الناس الجالسين في كورة الظلام والأحزان؟ ولماذا يترك جمع الحصاد لتلاميذه الضعفاء في الإيمان المتباطئين في الفهم والمتلكئين في العمل؟ ولماذا يواجه الموت الآن تاركا العمل في بدئه؟ إن العدو الذي نازل المسيح في البرية نراه يحاربه هنا بتجاربه القوية الماكرة . فلو أذعن له يسوع لحظة واحدة ، أو غير اتجاهه في أقل شيء لينجي نفسه لانتصر أعوان الشيطان وهلك العالم.

ولكن يسوع "ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم" (لوقا 9 : 51). إن قانون حياته الوحيد هو مشيئة الآب . فإنه عندما زار الهيكل في صباه قال لمريم: "ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟" (لوقا 2 : 49). وإذ كان في قانا وهو في العرس إذ كانت مريم تتوق إلى أن يظهر قدرته المعجزية قال لها: "لم تأت ساعتي بعد" (يوحنا 2 : 4). وقد أجاب على إلحاح إخوته عليه في الذهاب إلى العيد بنفس أسلوب الكلام . ولكن في تدبير الله العظيم كانت قد حددت الساعة التي فيها يبذل نفسه لأجل خطايا الناس ، وكانت تلك الساعة قريبة. إنه لم يفشل . كلا ، ولا تردد . وها هو يسير إلى أورشليم حيث ظل أعداؤه يتآمرون طويلا على قتله ، وبعد قليل سيضع حياته . لقد ثبت وجهه لينطلق إلى حيث الاضطهاد والإنكار والرفض والإدانة والموت. [461]

السامريون يرفضونه

"وأرسل أمام وجهه رسلاً، فذهبوا ودخلوا قرية للسامريين حتى يعدوا له" (لوقا 9 : 51). ولكن أهل تلك القرية رفضوا قبوله لأن وجهه كان متجها إلى أورشليم . وقد فسروا هذا على أن المسيح يفضل عليهم اليهود الذين كان السامريون يبغضونهم بغضة مريرة . فلو أنه جاء لكي يبني لهم الهيكل على جبل جرزيم ويعيد إليه العبادة لقبلوه بكل سرور ، ولكنه كان منطلقا إلى أورشليم فرفضوا إكرامه والترحيب به . ولم يكونوا يدرون أنهم بهذا التصرف قد ردوا عن أبوابهم أثمن هبة يمكن أن تقدمها السماء لبني الإنسان . لقد دعا يسوع الناس لقبوله وطلب منهم معروفا حتى يمكنه الاقتراب منهم ليقدم لهم أثمن البركات . فكل معروف أسدي إليه منح صاحبه أثمن النعم وأغناها . ولكن السامريين خسروا كل شيء بسبب تحاملهم وتعصبهم.

اغتاظ يعقوب ويوحنا رسولا المسيح أشد الغيظ من جراء الإهانة التي لحقت بسيدهما .فامتلآ غضبا لأن أولئك السامريين عاملوه بمثل ذلك الجفاء وتلك القسوة ، مع أنه كان قد أكرمهم بمجيئه إليهم . لقد كان ذانك التلميذان مع السيد فوق جبل التجلي منذ عهد قريب ورأياه ممجدا من الله ومكرما من موسى وإيليا . فهذه الإهانة من جانب السامريين كان ينبغي ألا تمر بدون قصاص رادع- هكذا ظن يعقوب ويوحنا.

فإذ أتيا إلى يسوع قصا عليه ما قاله لهما السامريون قائلين له إنهم قد رفضوا حتى قبوله ضيفا ليلة واحدة ، فأحسا بقسوة تلك الإهانة . وإذ رأيا جبل الكرمل على مسافة قريبة حيث كان إيليا قد قتل الأنبياء الكذبة قالا له: "يا رب، أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم، كما فعل إيليا أيضاً؟" (لوقا 9 : 54). لكنهما اندهشا لأن يسوع تألم من كلامهما ، وزاد اندهاشهما عندما سمعاه ينتهرهما قائلا: "لستما تعلمان من أي روح أنتما! لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلّص" (لوقا 9 : 55 و 56). فمضى إلى قرية أخرى.

ليس من شأن رسالة المسيح أن ترغم الناس على قبوله . إن الشيطان والناس الذين يدينون بمبادئه هم الذين يلجأون إلى القسر والإرغام لإخضاع ضمائر الناس . فالناس [462]

المتحالفون مع الملائكة الأشرار يوقعون الآلام على بني جنسهم تحت ستار الغيرة على البر ليجعلوهم يدينون بمبادئهم ، ولكن المسيح يصنع رحمة دائما ويحاول كسب القلوب بمحبته التي يظهرها للناس . إنه لا يسمح بوجود منافس له في القلب ولا يقبل خدمة ناقصة . ولكنه يقبل الخدمة الطوعية وتسليم القلب بمحض الاختيار تحت إلزام المحبة . إنه لا يوجد دليل أنصع يبرهن على أن فينا روح الشيطان أكثر من كوننا نحاول ايذاء وإهلاك كل من لا يشجعوننا في عملنا ومن يتصرفون تصرفا مناقضا لآرائنا.

كل كائن بشري هو ملك لله جسدا ونفسا وروحا . وقد مات المسيح ليفتدي الكل . إنه لا يوجد شيء أكثر اغاظة لله من أن يحاول الناس ، مدفوعين بدافع التعصب الديني ، أن يجلبوا الآلام والمتاعب على أولئك اللذين افتداهم المخلص بدمه.

إرسال السبعين

"وقام من هناك وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الأردن. فاجتمع إليه جموع إيضاً، وكعادته كان أيضاً يعلّمهم" (مرقس 10 : 1).

قضى المسيح الجانب الأكبر من شهور خدمته في بيرية "في عبر الأردن" بعيداً عن اليهودية . وفي ذلك المكان تبعته الجموع كما حدث عند بدء خدمته في الجليل كما ردد كثيرا عن تعاليمه السالفة.

وكما أرسل الاثني عشر كذلك عين "سبعين آخرين أيضاً، وأرسلهم اثنيت اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزعماً أن يأتي" (لوقا 10 : 1). لقد ظل هؤلاء التلاميذ ملازمين ليسوع بعض الوقت لكي يتدربوا على القيام بخدمة الملكوت وحين أرسل التلاميذ الاثنا عشر في حملتهم الأولى المنفصلة كان تلاميذ آخرون يرافقون يسوع وهو يجول في بلاد الجليل . وهكذا تمتعوا بامتياز الصحبة الوثيقة معه والتعلم منه مباشرة . أما الآن فقد حان الوقت الذي فيه يخرج هذا العدد الأكبر من التلاميذ في حملة منفصلة.

إن التوجيهات التي قدمها السيد للتلاميذ السبعين كانت قريبة الشبه بتلك التي قدمها للاثني عشر ، إلا إنه سمح لهم بزيارة مدن الأمم والسامريين وكان هذا مغايرا لما أوصى [463] به الاثنى عشر . ومع أن السامريين قد رفضوه وطردوه من تخومهم منذ عهد قريب فإن محبته لهم لم تتغير . فلما خرج السبعون باسمه زاروا أول ما زاروا مدن السامرة.

إن زيارة المخلص نفسه للسامرة ، والمثل الذي نطق به بعد ذلك في مدح السامري الصالح ، ومجيء السامري الأبرص ليشكر المسيح الذي شفاه إذ لم يرجع من أولئك العشرة الذين قد شفاهم سواه ليقدم له شكر قلبه- كل هذه الأمور كانت حوادث ذات مغزى في نظر التلاميذ ، فرسخ ذلك الدرس في أذهانهم . وفي وصية المسيح لهم قبيل صعوده ذكر لهم السامرة مع أورشليم واليهودية ضمن الأماكن التي كان عليهم أن يقدموا لها رسالة الإنجيل أولا . وقد أعدتهم تعاليمه لتنفيذ تلك الوصية . فلما ذهبوا باسم لسيدهم إلى بلاد السامرة كان الناس مستعدين لقبولهم والترحيب بهم . كان السامريون قد سمعوا عن كلمات المديح التي نطق بها المسيح وأعمال الرحمة التي عملها مع بعض مواطنيهم ، ورأوا أنه برغم الجفاء الذي عاملوه به كان لا يزال يحبهم وبذلك كسب قلوبهم . وبعد صعود المسيح رحب السامريون برسله فجمع التلاميذ حصادا ثمينا للنفوس من بين أولئك الذين كانوا قبلا ألد أعدائهم: "قصبة مرضوضة لا يقصف،

وفتيلة خامدة لا يطفئ. إلى الأمان يخرج الحق"، "وعلى اسمه يكون رجاء الأمم" (إشعياء 42 : 3 ؛ متى 12 : 21).

"ويل لك."

وإذ أرسل يسوع تلاميذه السبعين أمرهم كما سبق له أن أمر الاثني عشر ألا يفرضوا أنفسهم على من لم يرحبوا بهم فقال: "وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم، فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا: حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم. ولكن اعلموا هذا إنه قد اقترب منكم ملكوت الله" (لوقا 10 : 10، 11). ولكنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك مدفوعين بدافع الغضب أو لأن كبرياءهم قد جرحت ، بل لكي يبرهنوا لهم على شناعة رفضهم لرسالة الرب ورسله . فإن رفضهم لخدام الرب هو رفض للرب نفسه.

ثم أضاف يسوع: "وأقول لكم: إنه يكون لسدوم في ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة" (لوقا 10 : 12). وبعد ذلك انصرف تفكيره إلى مدن الجليل حيث قضى شطرا طويلا من سني خدمته . فبنغمة حزينة باكية صاح قائلا: "ويل لك يا كورزين! ويل لك يا [464] بيت صيدا! لأنه لو صنعت في صور و صيداء القوات المصنوعة فيكما، لتابتا قديماً جالستين في المسوح والرماد. ولكن صور و صيداء يكون لهما في الدين حالة أكثر احتمالاً مما لكما. وأنت يا كفرناحوم المرتفعة إلى السماء! ستهبطين إلى الهاوية" (لوقا 10 : 13 — 15).

لقد أغدقت السماء أغنى بركاتها بكل سخاء على تلك المدن المتاخمة لبحر الجليل والمزدحمة بالسكان. ويوما بعد يوم كان رئيس الحياة يدخل ويخرج أمامهم . ومجد الله الذي اشتهى ملوك وأنبياء أن يروه أشرق على تلك الجموع التي كانت تتبع المخلص ، ومع ذلك فقد رفضوا هبة السماء.

إن معلمي إسرائيل الذين كانوا يدعون الحكمة حذروا الشعب من قبول التعاليم الجديدة التي كان يكرز بها هذا المعلم الجديد لأن تعاليمه وأعماله كانت مخالفة لما كان يعلم به الآباء . وقد صدق الشعب ما كان يعلم به الكهنة والفريسيون بدلا من أن يحاولوا فهم كلمة الله لأنفسهم . كانوا يكرمون الكهنة والرؤساء بدلا من إكرام الله ، ورفضوا الحق في سبيل الإبقاء على تقاليدهم . كثيرون تأثروا وكادوا يقتنعون ولكنهم لم يتعرفوا بموجب اقتناعهم ولم يقفوا إلى جانب المسيح . فلقد عرض الشيطان عليهم تجاربه إلى أن بدا النور أمامهم قريب الشبه بالظلام . وهكذا رفض كثيرون الحق الذي كان يمكن أن يخلص نفوسهم.

يقول الشاهد الأمين: "هأنذا واقف على الباب وأقرع..." (رؤيا 3 : 20). فكل إنذار أو توبيخ أو توسل في كلمة الله أو عن طريق رسله هو قرعة على باب القلب . إنه صوت يسوع يطلب الدخول . وفي كل مرة لا يكترث الإنسان فيها للقرع يصير ميله لفتح الباب أضعف مما كان . إن تأثيرات الروح القدس إذا أهملت اليوم لا يكون لها نفس القوة في الغد . والقلب يصبح أقل قبولا للتأثيرات وينزلق إلى حالة عدم المبالاة الخطرة تجاه قصر العمر ، وبمدى الأبدية العظيم . والحكم علينا في يوم الدين لن يكون لأننا كنا مخطئين بل لأننا أهملنا السماء وأضعنا الفرص التي كان يمكننا فيها تعلم الحق.

عدو مهزوم

أعطي التلاميذ السبعون قوة فائقة الطبيعة كختم لرسالتهم كما كانت الحال مع الرسل .فلما أنجزوا عملهم رجعوا بفرح قائلين: "يا رب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك!" فأجابهم [465] يسوع قائلاً: "رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء" (لوقا 10 : 17 و 18).

كانت مناظر الماضي والمستقبل ماثلة أمام ذهن يسوع . فلقد رأى لوسيفر عندما طرد أولا من المواطن السماوية . كما نظر إلى الأمام إلى مشاهد آلأمه هو عندما ينكشف الستار عن صفات المخادع الأعظم أمام المسكونة كلها . لقد سمع الصرخة القائلة: "قد أكمل" (يوحنا 19 : 30). معلنة أن فداء جنسنا الساقط صار حقيقة واقعة وثابتة إلى الأبد . وأن السماء صارت بمأمن إلى الأبد من كل الاتهامات والمخادعات والمزاعم التي يثيرها الشيطان ويحرض عليها.

وخلف صليب جلجثة بكل آلامه وعذاباته وعاره نظر يسوع إلى الأمام ، إلى اليوم الأخير العظيم عندما يلاقي رئيس سلطان الهواء هلاكه المحتوم في الأرض التي عاث فيها مفسدا أمدا طويلا بتمرده وعصيانه . لقد رأى يسوع عمل الشر ينتهي إلى الأبد وسلام الله يملأ السماوات والأرض.

كان على اتباع المسيح فيما بعد أن ينظروا إلى الشيطان على أنه عدو منهزم . وعلى الصليب كان يسوع سيحرز النصرة لأجلهم ، فرغب في أنهم يقبلون تلك النصرة على أنها لهم . قال: "ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيّات والعقارب وكل قوة العدو ، ولا يضرّكم شيء" (لوقا 10 : 19).

إن قوة الروح القدس القادر على كل شيء هى الحصن الحصين لكل نفس منسحقة .ليس أحد يطلب حماية المسيح بانسحاق وإيمان إلا ويحفظه ولا يسمح بوقوعه تحت رحمة العدو . إن المخلص يقف دائما إلى جانب شعبه المجربين . وإذ يكونون تحت حمايته فلن يذوقوا طعم الفشل أو الخسارة أو الهزيمة، ولن يكون شيء غير ممكن لديهم . إننا نستطيع كل شيء في المسيح الذي يقوينا . فعندما تهاجمك المحن والتجارب لا تنتظر حتى تسوى كل مشكلاتك بل التفت إلى معينك يسوع .

هنالك بعض المسيحيين الذين يفكرون ويتكلمون عن قوة الشيطان بكثرة زائدة . إنهم يفكرون في خصمهم ويصلون عنه ويتحدثون عنه حتى يبدو متزايد القوة في تصورهم .نعم إن الشيطان هو كائن قوي ، ولكن شكرا لله فإن لنا مخلصا قديرا استطاع أن يطرد ذلك العدو الشرير من السماء . إن الشيطان يفرح ويسر عندما نُهول ونعظم قوته . ولكن لماذا لا نتحدث عن يسوع ، نعظم قدرته ونمجد محبته؟ [466] إن قوس قزح الوعد المحيطة بعرش السماء هي علامة أبدية على أنه "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3 : 16)، وهي شهادة للكون كله على أن الله لن يترك شعبه في نضالهم مع الشر ، وهي اليقين الثابت الذي يضمن لنا القوة والحماية طالما عرش الله نفسه باق.

الروح الحقيقي للفرح

ثم أضاف يسوع قائلا: "ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كتبت في السموات" (لوقا 10 : 20). لا تفرحوا لكونكم تملكون القوة لئلا تغيب عن أذهانكم حقيقة اعتمادكم على الله . احترسوا لئلا يتسلل إلى قلوبكم الاتكال على الذات فتخدمون بقوتكم بدلا من الاتكال على روح سيدكم وقوته . إن الذات هي أبدا مستعدة لأن تنفرد بالمجد والمديح عندما تصيب أي قدر من النجاح . والنفس تنخدع وتتكبر فلا يعود العقل يقتنع بأن الله هو الكل في الكل . يقول بولس الرسول: "لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي" (2 كورنثوس 12 : 10). فعندما نكون متحققين من ضعفنا نتعلم الاستناد

على قوة ليست فطرية فينا . ليس ما يمكن أن يمسك بالقلب بكل قوة مثل شعورنا الدائم بأننا مسؤولون أمام الله . وليس هنالك ما يمكن أن يرسخ في أعماق دوافع تصرفاتنا كالإحساس بمحبة المسيح الغامرة . ينبغي لنا أن نكون على اتصال بالله وحينئذ نمتلئ بروحه القدوس الذي يجعلنا قادرين على الاتصال ببني جنسنا . إذاً فافرحوا لأنكم بواسطة المسيح صرتم في صلة مع الله وأعضاء في الأسرة السماوية . إنك عندما تنظر إلى ما هو أسمى من نفسك ستشعر شعورا دائما بضعف البشرية . وكلما أقللت من تدليلك للذات ازددت إدراكا واضحا وكاملا لعظمة مخلصك . وكلما كان ارتباطك بمصدر النور والقوة وثيقا كلما زاد النور عليك إشراقا وكلما خدمت الله بأكثر قوة . فافرح باتحادك بالله وبالمسيح وبكل أسرة السماويين.

وإذ كان السبعون يصغون إلى أقوال المسيح كان الروح القدس يعمق في قلوبهم الاقتناع بالحقائق الحية ويكتب الحق على ألواح قلوبهم . ومع أنهم كانوا محاطين بجماهير الشعب فقد بدأ كأنهم منفردون مع الله.

وإذ أدركوا وحي الساعة: "تهلّل بالروح وقال: أحمدك أيها الآب، رب السماء [457] والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك ... كل شيء قد دفع إلي من أبي. وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الآب، ولا من هو الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له" (لوقا 10 : 21، 22).

عقول مستنيرة

إن شرفاء هذا العالم ومن يدعون عظماء وحكماء بكل حكمتهم التي يفخرون بها لم يستطيعوا أن يدركوا صفة المسيح. لقد حكموا عليه حسب مظهره الخارجي واتضاعه كإنسان . ولكن الصيادين والعشارين هم الذين أُعطي لهم أن يروا ما لا يرى . بل حتى التلاميذ أنفسهم لم يستطيعوا أن يفهموا كل ما أراد يسوع أن يعلنه لهم . ولكن من حين لآخر عندما أخضعوا أنفسهم لقوة الروح القدس استنارت عقولهم . وتحققوا أن الله القدير ، متسربلا بثوب البشرية ، كان في وسطهم . فرح يسوع لأنه مع كون هذه المعرفة قصرت عن إدراكها عقول الحكماء والفهماء فقد أعلنت لهؤلاء الناس المساكين الوضعاء . ومرارا كثيرة عندما كان يشرح لهم ما جاء في اسفار العهد القديم ويريهم أن ما ورد فيها ينطبق عليه وعلى عمل الكفارة كان روحه يوقظهم ويرفعهم إلى جو سماوي . أما التعاليم الروحية التي نطق بها الأنبياء فقد فهمها التلاميذ فهما أوضح ممن قد كتبوها أصلا . وكانوا بعد ذلك يقرأون أسفار العهد القديم ليس على أنها شبيهة بتعاليم الكتبة والفريسيين ولا كأقوال الحكماء الذين قد واراهم التراب بل كانوا يقرأونها على أنها إعلان جديد من الله . لقد شاهدوا ذاك: "الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" (يوحنا 14 : 17).

إن الطريقة الوحيدة التي بها يمكننا الحصول على مزيد من الإدراك الكامل للحق هي حفظ القلب رقيقا وخاضعا بواسطة روح المسيح . ينبغي أن تتطهر النفس من البطل والكبرياء ومن كل الأشياء التي استعبدتها . كما ينبغي أن يجلس المسيح على عرش النفس. إن المعرفة البشرية محدودة بحيث تقصر عن فهم الكفارة . وإن تدبير الفداء سام جدا وشامل حتى أن الفلسفة يقصر باعها دون الوصول إليه أو إيضاحه . وسيظل إلى الأبد سرا يعجز جبابرة الحقول عن سبر غوره . إن علم الخلاص لا يمكن إيضاحه ، إنما يمكن معرفته [468] بالاختبار . والذي يرى شر قلبه هو وحده الذي يفهم قيمة المخلص العظيمة.

كانت الدروس التي نطق بها المسيح غنية بالتعليم فيما سار على مهل من الجليل إلى أورشليم . وكان

الناس يصغون إلى كلامه بكل لهفة واهتمام . وفي بيرية كما في الجليل كان تعصب اليهود أخف وطأة على الناس مما في اليهودية . فاستجابت قلوب الناس لتعاليمه.

دروس من المعلم الأعظم

نطق المسيح بكثير من الأمثال في خلال أشهر خدمته الاخيرة . وكان الكهنة والمعلمون يتعقبونه بمرارة زائدة وكان هو يخفي إنذاراته لهم تحت الرموز . ولم يخطئوا فهم معاني أقواله ومع ذلك فلم يجدوا فيها ما يمكن أن يبنوا عليه تهمة يوجهونها إليه . وفي مثل الفريسي والعشار كانت صلاة الفريسي المتكل على نفسه وبره التي قال فيها: ”اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس“ على نقيض توسل العشار التائب الذي صرخ قائلاً: اللهم ارحمني، أنا الخاطئ“ (لوقا 18 : 11 و 13). وهكذا وبخ المسيح رياء رؤساء اليهود. وتحت رمز التينة العقيمة والعشاء العظيم تنبأ عن الهلاك العظيم الموشك أن ينقض على تلك الأمة غير التائبة . وأولئك الذين رفضوا بكل ازدراء قبول الدعوة إلى وليمة الإنجيل سمعوا منه كلمات الإنذار القائلة: ”أقول لكم: إنه ليس واحد من أوائك الرجال المدعوين يذوق عشائي“ (لوقا 14 : 24).

كانت التعاليم التي تلقنها التلاميذ عظيمة القيمة جدا . وإن مثل الأرملة اللجوجة والصديق الطارق في نصف الليل ملتمسا خبزا اعطيا قوة لكلام السيد القائل: ”اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم“ (لوقا 11 : 9). وفي أحيان كثيرة كان إيمان التلاميذ المتزعزع يتقوى عندما كانوا يذكرون قول المسيح: ”أفلا ينصف الله مختاريه، الصارخيم إليه نهاراً وليلاً، وهو متمهل عليهم؟ أٌول لكم: إنه ينصفهم سريعاً!“ (لوقا 18 : 7 و 8).

كرر المسيح مثل الخروف الضال ، ذلك المثل الجميل حمل معناه إلى مدى بعيد عندما نطق بمثل الدرهم المفقود والابن الضال . لم يكن التلاميذ يقدرون قيمة هذه الدروس ولا [469] قوتها التقدير الكامل اللائق بها ، ومن بعد انسكاب الروح القدس عليهم إذ رأوا الأمم ينضمون إلى حظيرة الملكوت أفواجا ، الأمر الذي أثار غضب اليهود وحسدهم ، فهموا حينئذ، فهما أفضل ، مثل الابن الضال والدروس التي يمكن استخلاصها منه ، وأمكنهم أن يحسوا بهزة الفرح الظاهرة في كلام المسيح عندما قال: ”كان ينبغي أن نفرح ونسر“، ”لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد“ (لوقا 15 : 32، 24). وعندما خرجوا باسم سيدهم ليواجهوا الشر والفقر والاضطهاد كانوا كثيرا ما يسندون قلوبهم بترديد كلامه الذي نطق به في رحلته الأخيرة هذه حين قال: ”لا تخف، أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت. بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة. اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفذ في السموات، حيث لا يقرب سارق ولا يبلى سوس، لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً“ (لوقا 12 : 32 — 34). [470]

الفصل الرابع والخمسون—السامري الصالح

في مثل السامري الصالح يصور لنا المسيح طبيعة الديانة الحقيقية . ويرينا أنها لا تنحصر في النظم أو العقائد أو الطقوس بل في القيام بأعمال المحبة وبأعظم خير للآخرين وبالصلاح الحقيقي.

بينما كان المسيح يعلم الشعب: "إذا ناموسي قام يجربه قائلاً: "يا معلّم، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟" (لوقا 10 : 25). فباهتمام عظيم ولهفة شديدة انتظر الجمع العظيم سماع الجواب . لقد فكر الكهنة والمعلمون في إيقاع المسيح في شرك بكونهم أوعزوا إلى ذلك الناموسي بأن يسأله ذلك السؤال . ولكن المخلص لم يشتبك معه في جدال ، بل طلب من السائل نفسه أن يجيب عن السؤال فقال له: "ما هو مكتوب في الناموس. كيف تقرأ؟" (لوقا 10 : 26). كان اليهود لا يزالون يتهمون يسوع باستخفائه بالشريعة المعطاة في سيناء ، ولكنه أحال السؤال عن الخلاص إلى حفظ وصايا الله.

فقال الناموسي: "تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك" (لوقا 10 : 27). فقال له يسوع: "بالصواب أجبت. افعل هذا فتحيا" (لوقا 10 : 28).

إن ذلك الناموسي لم يكن راضيا عن موقف الفريسيين وأعمالهم . فظل يدرس الكتب المقدسة رغبة منه في معرفة معناها الحقيقي . كان مهتما بالأمر اهتماما حيويا فسأل السيد في إخلاص قائلا: "ماذا أعمل؟" وإذ أجاب عن مطاليب الشريعة مر على جميع الفرائض والطقوس مر الكرام . فهو لم يعتبر تلك الأشياء ذات قيمة ومنه قدم المبدأين العظيمين اللذين بهما يتعلق الناموس كله والأنبياء . فهذا الجواب الذي امتدحه المسيح أوقف المخلص موقفا حسنا مع المعلمين . فلم يستطيعوا أن يدينوه لكونه قد امتدح ما أجاب به أحد مفسري الناموس. [471] قال له يسوع: "افعل هذا فتحيا" (لوقا 10 : 28). لقد قدم الشريعة كوحدة إلهية، وبهذا الدرس علمنا أنه لا يمكن حفظ وصية ونقض أخرى لأن نفس المبدأ يسري عليها جميعها . إن مصير الإنسان رهن بحفظه كل الناموس . فالمحبة الفائقة لله والمحبة غير المغرضة للإنسان هما المبدآن اللذان ينبغي أن يسودا الحياة كلها .

"من هو قريبي"

اكتشف ذلك الناموسي أنه كاسر للناموس ، وتبكت أمام كلام المسيح الفاحص . إن بر الناموس الذي ادعى أنه يفهمه لم يمارسه في حياته ممارسة عملية . إنه لم يظهر محبة للقريب . وكان مطلوبا منه أن يتوب ، ولكن بدلا من ذلك أراد أن يبرر نفسه . وبدلا من الاعتراف بالحق حاول أن يبرهن على مقدار حفظ الوصية عمليا . وهكذا حاول تفادي التبكيت وتزكية نفسه في نظر الناس . وقد برهن كلام المخلص على أن سؤاله لم يكن له داع حيث أنه هو كان يمكنه الإجابة عنه بنفسه . ومع ذلك فقد قدم سؤالا آخر قائلا: "ومن هو قريبي؟" (لوقا 10 : 29).

كان هذا السؤال سببا في كثير من المنازعات التي لا نهاية لها بين اليهود . ولم يكن عندهم أي شك بالنسبة إلى الوثنيين والسامريين ، فقد كان هؤلاء أقواما أعداء وغرباء .ولكن كيف يمكن التمييز بين شعب أمتهم وبين طبقات المجتمع؟ ومن هم الذين يجب أن يعتبرهم الكاهن والمعلم والشيخ من الأقرباء؟ لقد قضوا حياتهم في ممارسة طقوس متشابكة ليصيروا طاهرين ، وعلموا الناس أن ملامستهم للشعب الجاهل العديم الاكتراث تلصق بهم نجاسة كانوا يلتزمون بأن يبذلوا جهودا مضنية للتطهر منها- فهل كان عليهم أن يعتبروا الناس "النجسين" أقرباء لهم؟

ومرة أخرى تحاشى يسوع الدخول في منازعات ومجادلات كما أنه لم يشهر بتعصب أولئك الذين كانوا يراقبونه ليحكموا بإدانته . ولكنه في مثل بسيط رسم أمام أذهان سامعيه صورة لفيض المحبة الدافقة التي مصدرها السماء . وقد تأثرت كل القلوب وأمكنه أن يستخرج من فم ذلك الناموسي اعترافا بالحق.

إن الوسيلة الفعالة لطرد الظلام هي إدخال النور ، وأفضل وسيلة لتعامل مع الخطإ هي [472] تقديم الصواب والحق . إن إعلان محبة الله هو الذي يكشف عن تشويهات الخطية في القلب الذي يتركز في الذات.

يقع بين اللصوص

قال يسوع: "إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بين لصوص، فعرّوه وجرّحوه، ومضوا وتركوه بين حيّ وميت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق، فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيضاً، إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله" (لوقا 10 : 30 — 32). لم يكن ذلك منظرا خياليا بل حادثا وقع بالفعل وكان معروفا بأنه قد حدث كما صوره المسيح تماما . وقد كان الكاهن واللاوي اللذان جازا مقابل الرجل الجريح حاضرين مع الجمع الذي كان يصغي إلى كلام المسيح.

إن المسافر من أورشليم إلى أريحا كان عليه أن يعبر جانبا من برية اليهودية . كان الطريق ينحدر في واد ضيق موحش صخري وكان اللصوص يغيرون عليه وكان أحيانا كثيرة مشهدا للقسوة والجرائم . ففي ذلك المكان هوجم المسافر وجرد من كل ما هو غال وثمين . وضرب وأصيب بجروح وترك بجانب الطريق مطروحا وهو بين حي وميت .وفيما هو ملقى على قارعة الطريق مر في تلك الطريق الكاهن ولكنه اكتفى بإلقاء نظرة على الرجل الجريح . وبعده أقبل اللاوي . هذا الرجل دفعه الفضول لمعرفة ما قد حدث فاقترب من الجريح المتألم ونظر إليه . وقد عرف ذلك الرجل واجبه ولكنه كان واجبا غير محبب إلى نفسه . وكان يتمنى لو لم يمر في تلك الطريق حتى لا يرى ذلك الجريح . وقد أقنع نفسه بأنه لا شأن له بذلك الرجل الجريح.

لقد كان ذانك الرجلان يمارسان خدمة مقدسة ويدعيان أنهما من مفسري الكتب المقدسة ، ومن تلك الطبقة المختارة خصيصا كي تكون نائبة عن الله وممثلة له أمام الشعب . فوجب على كل من الكاهن واللاوي "أن يترفق بالجهال والضالين" (عبرانيين 5 : 2)، ويرشد الناس في فهم محبة الله العظيمة لبني الإنسان . إن العمل الذي قد دعي إليه كلا من الكاهن واللاوي للقيام به كان هو نفس العمل الذي وصفه يسوع على أنه عمله عندما قال: "روح الرب عليّ، لأنه مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق والعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية" (لوقا 4 : 18). [473]

"أحبّوا الغريب"

إن ملائكة السماء يتطلعون إلى آلام كل فرد من أفراد أسرة الله على الأرض وهم على تمام الأهبة للتعاون مع الناس في التخفيف من آلام المتألمين والظلم الواقع عليهم . إن الله في عنايته قد أتى بالكاهن واللاوي في الطريق الذي كان الرجل الجريح ملقى على قارعته حتى يريا حاجته إلى الرحمة والمعونة . وقد تطلع كل سكان السماء ليروا هل كان ذانك الرجلان سيتأثران بالعطف والإشفاق على آلام البشر وبلاياهم . كان المخلص هو الذي علم العبرانيين في البرية . فمن عمود السحاب والنار علمهم درسا يختلف اختلافا بينا عما كان الشعب الآن يتعلمه من الكهنة والمعلمين . إن تعاليم الناموس الرحيمة تناولت حتى الحيوانات الدنيا التي لا تستطيع أن تعبر بالكلام عن حاجاتها وآلامها . وهذه التعليمات هي التي قد تلقاها موسى من الله ليبلغها لبني إسرائيل: "إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً، تردّه إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حلّه، فلا بد أن تحل معه" (خروج 32، 4، 5). ولكن يسوع قدم في شخص الرجل الذي وقع بين اللصوص فأثخنوه بالجراح أخا يتألم . فكم كان يجب أن يتأثر قلب كل من الكاهن واللاوي إشفاقا عليه وحنانا أكثر مما على حيوان أو دابة من حاملات الأثقال! لقد قدمت للشعب الرسالة بواسطة موسى تقول: "الإله العظيم الجبار المهيب"، "الصانع حق اليتيم والأرملة، والمحب الغريب" ولذلك أمر قائلاً "فأحبّوا الغريب"، "تحبه كنفسك" (تثنية 10 : 17 — 19 ؛ لاويين 19 : 34).

قال أيوب: "غريب لم يبت في الخراج. فتحت للمسافر أبوابي". وعندما أتى الملاكان إلى سدوم في هيئة بشرية سجد لهما لوط بوجهه إلى الأرض وقال: "يا سيدي، ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا" (أيوب 31 : 32 ؛ تكوين 19 : 2). كان الكاهن واللاوي يعلمان هذا كله ولكنهما لم يمارساه عمليا . فحيث أنهما تعلما في مدرسة التعصب القومي صارا أنانيين متزمتين ومنعزلين . وإذ نظرا إلى ذلك الجريح لم يكونا متحققين ما إذا كان من أمة اليهود أم من شعب آخر ، وإذ ظنا أنه ربما كون سامريا انصرفا عنه.

لم ير ذلك الناموسي في عمل ذينك الرجلين كما قد وصفه المسيح شيئا مناقضا لما كان قد تعلمه عن مطاليب الناموس . ولكن جاء بعد ذلك مشهد آخر. [474]

"اذهب... واصنع هكذا"

إن سامريا مسافرا أتى إلى حيث كان الجريح ولما رآه تحنن عليه . ولم يسأل ما إذا كان ذلك الجريح يهوديا أو أمميا ، مع علمه بأنه لو كان هو يهوديا وكان الجريح هو السامري لكان اليهودي المسافر يبصق في وجهه ويتركه بمنتهى الاحتقار . ولكن ذلك السامري لم يتردد بسبب هذا . ولم يفكر في أنه هو نفسه قد يتعرض لخطر إغارة اللصوص عليه إذا توقف في ذلك المكان- ولكن كان يكفيه أن يعلم أن أمامه إنسانا متألما يحتاج إلى الغوث . فخلع رداءه ليستر به الرجل الجريح . وكذلك أخرج ما معه من الزيت والخمر الذي احتفظ به لرحلته ليطيب به جروح المريض وينعش قواه . ثم أركبه على دابته وسار به على مهل بخطوات متئدة حتى لا يهتز جسم الجريح فتزيد آلامه ، وأتى به إلى فندق واعتنى به طول الليل ساهرا عليه بكل رقة ومحبة . وفي الغد عندما بدأ الجريح يتعافى أمكن السامري أن يتابع رحلته . ولكن قبل الشروع في السفر وكّل أمر رعايته إلى صاحب الفندق ودفع له الأجر كما ترك رصيدا لأجل الاعتناء به ، ولم يكتف حتى بذلك بل أبدى استعداده لإيفاء كل النفقات الإضافية وسد كل حاجة للمريض إذ قال لصاحب

الفندق: "اعتن به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك" (لوقا 10 : 35).

ولما انتهت القصة ثبت يسوع نظره في ذلك الناموسي بنظرة كشفت كل ما في قلبه ثم قال له: "فأي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص؟" (لوقا 10 : 36).

لكن الناموسي بعد كل هذا لم يرد أن ينطق باسم السامري على شفتيه فأجاب قائلا: "الذي صنع معه الرحمة". فقال له يسوع: "اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا" (لوقا 10 : 37).

وهكذا أجيب على السؤال القائل: "من هو قريبي" جوابا حاسما إلى الأبد . فقد أبان لنا المسيح أن قريبنا ليس هو فقط أي واحد من أفراد كنيستنا أو من يعتنق عقيدتنا . ولا إشارة فيه إلى الجنس أو اللون أو المقام . ولكن قريبنا هو نفس الإنسان المحتاج إلى معونتنا . قريبنا هو كل شخص أصابه العدو بجروح أو أحدث فيه إصابات . قريبنا هو كل فرد يعتبر خاصة الله. [475]

عاملون بالناموس

إن ربنا يسوع قدم لنا في قصة السامري الصالح صورة لنفسه ومهمته . فالشيطان قد خدع الإنسان وسحقه وجرده من كل فضيلة فخسر كل شيء وترك ليهلك . ولكن المخلص تحنن علينا في عجزنا ، فترك مجده ليأتي لإنقاذنا ، فوجدنا موشكين على الموت وعرف حالتنا على حقيقتها ، فشفى جروحنا وكسانا برداء بره وأتى بنا إلى ملجإ أمين ، ودبر لنا كل أعوازنا على نفقته . لقد مات ليفتديا . ثم قال لتابعيه مشيرا إلى نفسه كمثال:"بهذا أوصيكم حتى تحبّوا بعضكم بعضاً"، "كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً" (يوحنا 15 : 17 ؛ 13 : 34).

سأل الناموسي يسوع قائلا: "ماذا أعمال؟". فإذ كان يسوع يعتبر المحبة لله والإنسان خلاصة مطاليب البر قال لذلك السائل: "افعل هذا فتحيا". لقد أطاع السامري وحي قلبه المحب العطوف فبرهن بذلك على أنه عامل بالناموس . وقد أمر المسيح ذلك الناموسي قائلاً: "اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا". إن المطلوب من أولاد الله ليس فقط مجرد الكلام أو الادعاء بل العمل والطاعة ، من قَالَ: "إنه ثابت فيه فينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً" (1 يوحنا 2 : 6).

إن حاجة العالم إلى هذا الدرس اليوم ليست أقل من حاجة أولئك الذين نطق به يسوع في مسامعهم . فالأنانية والرسميات الجامدة كادت تخمد نار المحبة وتطرد الفضائل التي تكسب الخلق حلاوة وعطرا ذكيا . إن كثيرين من المعترفين باسم المسيح قد غاب عن خاطرهم أن المسيحيين ينبغي لهم أن يتمثلوا بالمسيح . فما لم نقدم على تضحية عملية لأجل خير الآخرين في محيط العائلة وفي البيئة والكنيسة وفي كل مكان نوجد فيه ، فمهما يكن ادعاؤنا ، فلسنا مسيحيين بالحق.

تعزية للحزانى

إن المسيح قد قرن مصالحه بمصالح بني الإنسان وهو يطلب أن نتَّحد به ونتعاون معه لأجل خلاص الناس . وهو يقول: "مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا" (متى 10 : 8). إن الخطية هي أعظم الشرور . وواجبنا يقتضينا أن نعطف على الخاطئ ونقدم له العون. [476] كثيرون يخطئون ويحسون بعارهم وجهالتهم وهم

جياع إلى كلمات التشجيع ، ومتحسرون على غلطاتهم وأخطائهم ويتأملون في هفواتهم تلك حتى يكادوا يجرفوا إلى حدود اليأس ، فعلينا ألاّ نهمل هذه النفوس . فإذا كنا مسيحيين حقا فلا يمكننا أن نجوز مقابلهم مبتعدين على قدر الإمكان عن أولئك الذين هم في أشد الحاجة إلى معونتنا . عندما نرى الناس يقاسون أهوال الضيق سواء من جراء الآلام والتجارب أو من جراء الخطية فلا يقل أحدنا: "هذا لا يعنيني".

"فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة" (غلاطية 6 : 1). فبالإيمان والصلاة صدوا قوة العدو ، وتكلموا بكلام الإيمان والتشجيع الذي هو بلسان يشفي جراح المنسحقين والجرحى . لقد أعيا كثيرون وضعفت شجاعتهم في صراع الحياة العظيم بينما كان يمكن أن مجرد كلمة مبهجة مشجعة تقال في رفق ومحبة تعينهم على الانتصار . ينبغي ألاّ نمر على إنسان يتألم دون أن نقدم له التعزية التي نتعزى نحن بها من الله.

وكل هذا إن هو إلاّ إتمام لمبدإ الشريعة- المبدإ الذي يصوره لنا السيد في مثل السامري الصالح والذي ظهر في حياة يسوع . إن خلقه يعلن لنا حقيقة معنى الناموس ويرينا معنى كوننا نحب قريبنا كأنفسنا . وعندما يظهر أولاد الله الرحمة والرفق والمحبة نحو جميع الناس فهم أيضاً يشهدون لصفة شريعة السماء ، ويشهدون للحقيقة القائلة: "ناموس الرب كامل يرد النفس" (مزمور 19 : 7). فالذي يخفق في إظهار هذه المحبة هو كاسر للناموس الذي يعترف بأنه يحترمه ويوقره . لأن الروح التي نظهرها نحو إخوتنا تعلن عن ما هي روحنا نحو الله . إن محبة الله في القلب هى نبع المحبة الوحيد نحو القريب "إن قال أحد: إني أحب الله، وأبغض أخاه، فهو كاذب. لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره؟"، "إن أحب بعضنا بعضاً، فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكملت فينا" (1 يوحنا 4 : 20، 21).
[477]

الفصل الخامس والخمسون—ملكوت الله لا يأتي بمراقبة

جاء إلى يسوع بعض الفريسيين وسألوه قائلين: "متى يأتي ملكوت الله؟" (لوقا 17 : 20). كان قد مضى أكثر من ثلاث سنين منذ أعلن يوحنا المعمدان رسالته التي كما ، بصوت بوق ، رنت قائلة: "قد اقترب ملكوت السموات" (متى 3 : 2). ومع ذلك فإلى هذا الحين لم ير هؤلاء الفريسيون أي دليل على إقامة الملكوت . إن كثيرين ممن رفضوا يوحنا وفي كل خطوة كانوا يقاومون يسوع كانوا يلمحون إلى أن مهمته قد فشلت.

أجابهم يسوع بقوله: "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون: هوذا ههنا، أو: هوذا هناك! لأن ها ملكوت الله داخلكم" (لوقا 17 : 20 و 21). إن ملكوت الله يبدأ في القلب . لا تلتفتوا إلى هنا وهناك لتروا ظاهرة من مظاهر القوة الأرضية لتتبئ بمجيئه.

بعد ذلك التفت إلى تلاميذه وقال: "ستأتي أيام فيها تشتهون أن تروا يوماً واحداً من أيام ابن الإنسان ولا ترون" (لوقا 17 : 22). فلكون ملكوتي لا تصحبه الأبهة العالمية فأنتم يخشى عليكم لئلا تعجزوا عن إدراك أنكم غير متحققين من عظمة امتيازكم الراهن في أن في وسطكم هذا الذي هو حياة الناس ونورهم وأن يكن محتجبا في ثياب البشرية . فستأتي أيام فيها تنظرون بشوق إلى هذه الفرص التي أنتم الآن متمتعون بها ، لتسيروا وتتحدثوا مع ابن الله.

إنه حتى تلاميذ يسوع أنفسهم بسبب أنانيتهم وتعلقهم بالأرضيات لم يستطيعوا إدراك الحق الروحي الذي حاول أن يعلنه لهم . ولم يستطيعوا أن يقدروا صفات المخلص وصفة ملكوته التقدير الكامل اللائق إلاّ بعد صعود المسيح إلى أبيه وانسكاب الروح القدس على المؤمنين . فبعد قبول معمودية الروح القدس بدأوا يتحققون أنهم كانوا في محضر رب المجد ذاته . وإذ بدأوا يستعيدون إلى ذاكرتهم أقوال المسيح تفتحت عقولهم لفهم النبوات والمعجزات التي صنعها . وقد مرت أمام أذهانهم عجائب حياته فكانوا كمن أوقظوا من حلم ، كما تحقق لهم أن معلمهم هو "الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً [478] كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً" (يوحنا 1 : 14). لقد أتى المسيح من حضن الآب فعلا إلى عالم الإثم ليخلص أبناء وبنات أدم الساقطين . وقد بدأ التلاميذ الآن أقل أهمية في نظر أنفسهم مما كانوا قبلما تحققوا من ذلك . ما عادوا الآن يحسون بالسآمة أو التعب من تلاوة أعماله وترديد تعاليمه التي لم يكونوا يفهمونها فهما كاملا واضحا وقد عادت اليهم كما لو كانت أعلانا جديدا . والكتاب المقدس اصبح في نظرهم كتابا جديدا.

تفتيش الكلمة باجتهاد

وإذ بدأ التلاميذ يفشون النبوات التي تشهد للمسيح دخلوا إلى مقادس اللاهوت ، وتعلموا من ذاك الذي صعد إلى السماء ليتمم العمل الذي كان قد بدأه على الأرض . وعرفوا أن فيه تحل الحكمة والعلم اللذان لا يمكن لبشري أن يدركهما ما لم يحصل على معونة إلهية .كانوا بحاجة إلى معونة ذاك الذي سبق فتنبأ عنه الملوك والأنبياء والأبرار . وبدهشة بالغة قرأوا وأعادوا قراءة الأقوال النبوية التي وصفت صفاته وعمله وصفا دقيقا . كم كان فهمهم للأقوال النبوية مظلما وغامضا ! وكم كانوا متباطئين في قبول الحقائق العظيمة التي تشهد للمسيح ، وإذ نظروا إليه في اتضاعه إذ كان يسير في العالم كإنسان بين الناس لم يكونوا يدركون سر تجسده ولا الصفة المزدوجة لطبيعته . لقد أمسكت أعينهم بحيث لم يستطيعوا رؤية الألوهية في البشرية ، ولكن بعدما أنارهم الروح القدس وكشف عن بصائرهم كم اشتاقوا إلى رؤية الفادي ثانية والجلوس عند قدميه ! وكم اشتهوا أن يأتوا إليه ليفسر لهم الأقوال الإلهية التي عسر عليهم فهمها ! وبأي انتباه كانوا يصغون إلى أقواله ! وماذا كان قصد المسيح من قوله لهم: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن" (يوحنا 16 : 12). وكم تاقت أنفسهم لمعرفة كل شيء ! وقد حزنوا لأن إيمانهم كان ضعيفا جدا ولأن آراءهم كانت بعيدة جدا عن الهدف وأنهم قصروا كل هذا التقصير عن إدراك الحقيقة.

لقد أرسل من قبل الله رسول ليعلن عن مجيء المسيح وليوجه انتباه الأمة اليهودية وكل العالم إلى رسالته ليتأهب الناس لاستقباله . إن الشخص العجيب الذي أعلن عنه يوحنا كان في وسطهم أكثر من ثلاثين سنة ولكنهم لم يعرفوه حقا كمن هو مرسل من قبل الله . أحس [479] التلاميذ بالندم لأنهم سمحوا لعدم الإيمان المستشري بين الناس أن يخمر أفكارهم ويظلم عقولهم وأفهامهم . إن النور الذي أتى إلى هذا العالم المظلم كان ينير مبددا ظلماته ولكنهم لم يدركوا ولا فهموا من أين كانت تنبعث أشعته . وكانوا يسألون أنفسهم فيما بعد لماذا تصرفوا تصرف جعل المسيح ملزما بأن يوبخهم عليه . ومرارا كثيرة كانوا يرددون أحاديثه ويقولون لماذا سمحنا للاعتبارات الأرضية ومقاومة الكهنة والمعلمين أن تربك حواسنا حتى لقد غاب عن أفهامنا أن شخصا أعظم من موسى كان في وسطنا ، وأن معلما أعظم من سليمان كان يتولى أمر تعليمنا؟ كم كانت آذاننا غلفاء ! وكم كان فهمنا متعثرا وضعيفا !

يفرحون في الاضطهاد

إن توما لم يؤمن إلاّ بعدما وضع إصبعه في مكان الطعنة التي أحدثتها حربة الجنود الرومانيين ، وقد أنكره بطرس عندما كان متضعا ومهانا ومرذولا . فعادت إليهم تلك الذكريات المحزنة بكل وضوح . كانوا معه ولكنهم لم يعرفوا قدره . ولكن كم أثارت هذه الأمور نفوسهم والهبت قلوبهم الآن بعدما اكتشفوا عدم إيمانهم !

وعندما تضافر الكهنة والرؤساء ضدهم وأُوقفوا أمام مجالس وطُرحوا في غياهب السجون فرح اتباع المسيح أولئك "لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه" (أعمال 5: 41). فرحوا لأنهم برهنوا أمام الناس والملائكة أنهم قد أدركوا مجد يسوع واختاروا أن يتبعوه ولو كلفهم ذلك خسارة كل شيء.

وهذا حق الآن كما كان في عصر الرسل أنه بدون إنارة الروح الإلهي لا يستطيع الناس أن يروا مجد المسيح . إن المسيحية التي تثير الشكوك والمولعة بحب العالم لا يمكنها أن تقدر حق الله وعمله كما يجب . وإن أتباع السيد لا يوجدون بين أحضان الراحة أو الكرامة الأرضية أو التشبه بالعالم . ولكنهم يتقدمون سائرين في طريق الكدح والاتضاع والعار ، وإن مصارعتهم "ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع

السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات” (أفسس 6 : 12). وإننا نجد الآن كما في أيام المسيح أن الكهنة والفريسيين هم الذين يسيئون فهم المؤمنين الذين في عصرهم [480] ويعيرونهم ويضطهدونهم.

إن ملكوت الله لا يأتي بمراقبة . وإنجيل نعمة الله بروحه التي هي روح إنكار الذات لا يمكن أن يكون على وفاق مع روح العالم . فالمبدآن متناقضان . “ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة، ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً” (1 كورنثوس 2 : 14).

“ليست من هذا العالم”

ولكن يوجد بين العالم المتدين اليوم كثيرون ممن يعتقدون أنهم يعملون على توطيد ملكوت المسيح كملكوت أرضي زمني ، فهم يتوقون إلى تمليك يسوع على مملكة هذا العالم فيسود على محاكمها ومعسكراتها ودور القضاء فيها وقصورها وأسواقها . وينتظرون أنه يملك بواسطة أوامر شرعية تنفذها سلطة بشرية . وحيث أن المسيح ليس بيننا الآن بجسده فهم أنفسهم سينوبون عنه في العمل وفي تنفيذ قوانين ملكوته . كان اليهود في أيام المسيح يتوقون إلى إقامة مثل هذا الملكوت . فلو رغب يسوع في إقامة ملكوت أرضي وفي تنفيذ ما قد اعتبروه قوانين الله ، وفي جعلهم مفسري شريعته وإرادته في السلطة لكانوا قبلوه . ولكنه قال: “مملكتي ليست من هذا العالم” (يوحنا 18 : 36). ولم يقبل العرش الأرضي.

إن الحكم الذي عاش يسوع في ظله كان حكما فاسدا وجائرا . ففي كل مكان كنت ترى سوء المعاملة الصارخة والاغتصاب والتعصب والقسوة الساحقة . ومع ذلك فلم يحاول المخلص القيام بأي إصلاح مدني . ولم يهاجم سوء المعاملة القومية ولا دان الأعداء القوميين . ولم يتدخل في سلطة ذوي السلطان أو سياستهم . فذاك الذي هو مثلنا الأعلى ترفع عن التدخل في شؤون الحكومات الأرضية ، ليس لأنه لم يكن يكترث لآلام الناس وبلاياهم بل لأن العلاج لم يكن ينحصر في الإجراءات البشرية الخارجية وحدها . فلكي يكون العلاج ناجعا كان ينبغي أن يصل إلى كل إنسان بمفرده ويجدد قلبه.

إن ملكوت المسيح لا يثبت بأحكام المحاكم أو المحافل التشريعية ولا برعاية عظماء هذا الدهر ومعاضدتهم بل بغرس طبيعة المسيح في القلوب البشرية بعمل الروح القدس “وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه. الذين ولدوا ليس [481] من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله” (يوحنا 1 : 12، 13). هنا نجد القوة الوحيدة التي تستطيع أن تسمو بالبشرية . والوسيلة البشرية لإنجاز هذا العمل هي تعليم كلمة الله والعمل بها.

عندما بدأ بولس الرسول خدمته في كورنثوس ، المدينة الكثيرة السكان الواسعة الثراء الممتلئة بالشر والتي انتشرت فيها مفاسد الوثنية ومباذلها التي ذكرها أيضا قبيح ، قال: “لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً” (1 كورنتثوس 2 : 2). وإذ كتب بعد ذلك إلى بعض من كانوا قد تنجسوا بأقبح الخطايا قال: “لكن اغتسلتم، بل تقدستم، بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا” ، “أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح” (1 كورنثوس 6 : 11 ؛ 1 : 4).

والآن كما كانت الحال في أيام المسيح لا ينحصر عمل الله في أولئك الذين يتحرقون شوقا إلى الشهرة ومعاضدة الحكام الأرضيين والشرائع الأرضية بل في أولئك الذين باسم الرب يعلنون للناس تلك الحقائق الروحية التي تخلق في قلوب من يقبلونها نفس الاختبار الذي حدث لبولس عندما قال: “مع المسيح صلبت،

فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا في" (غلاطية 2 : 20). وحينئذ سيعملون كما عمل بولس لأجل خير الناس . فقد قال: "إذا نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله" (2 كورنثوس 5 : 20). [482]

الفصل السادس والخمسون—يسوع يبارك الأولاد

كان يسوع دائما محبا للأولاد. وقد قبل عطفهم الصبياني ومحبتهم الصريحة غير المتصنعة . وتسبيحاتهم الجميلة الخارجة من شفاه طاهرة كانت موسيقى عذبة لمسمعه انتعشت لها روحه عندما كان محاطا بالناس الماكرين المنافقين . وأينما ذهب المخلص كانت الشفقة البادية على محياه ومعاملته المشفقة اللطيفة كفيلة بأن تجعله يكسب الأولاد وثقتهم.

كان أمرا عاديا ومألوفا لدى اليهود أن يؤتى بالأولاد إلى أحد المعلمين ليضع يديه عليهم ويباركهم. ولكن تلاميذ المخلص ظنوا أن عمله أهم من أن يقاطع بهذه الكيفية . وعندما قدمت الأمهات أولادهن إليه نظر التلاميذ إلى أولئك الصغار نظرة ازدراء إذ ظنوا أن الأولاد أصغر من أن ينتفعوا بمجيئهم إلى يسوع واستنتجوا أنه سيستاء من قدومهم إليه . ولكنه اغتاظ من التلاميذ . لقد عرف المخلص عبء الأمهات ومسؤولية رعايتهن لصغارهن إذ كن حريصات على تربيتهم بحسب كلمة الله . فسمع صلواتهن . وهو الذي اجتذبهن إلى حضرته.

إن إحدى تلك الأمهات تركت بيتها وأتت بطفلها إلى حيث كان يسوع ، وفيما كانت سائرة في طريقها إليه أخبرت إحدى جاراتها بمهمتها فرغبت هذه أن تأتي بأولادها إلى يسوع لينالوا بركته ، وهكذا اجتمعت كثيرات من الأمهات وأتين بأولادهن الصغار. كان بعض أولئك الأولاد قد تخطوا دور الطفولة وبلغوا دور الصبا والشباب . وعندما أعلنت الأمهات عن رغبتهن سمعهن يسوع بكل عطف وهن يقدمن طلبهن بكل خوف والدموع تنهمر من عيونهن . ولكنه انتظر ليرى كيف سيعاملهن التلاميذ . فعندما رآهم يبعدون الأمهات بأولادهن ظانين أنهم بذلك يسدون إلى المخلص معروفا أبان لهم خطأهم قائلا قوله الخالد: "دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله" (مرقس [483] 10 : 14). فأخذ الأولاد بين ذراعيه ووضع يديه عليهم ومنحهم البركة التي جاءوا يطلبونها.

تعزت الأمهات ، وعدن إلى بيوتهن وقد نلن من كلام المسيح قوة وبركة ، كما تشجعن على حمل أعبائهن بفرح جديد وعولن على خدمة أولادهن ممتلئة قلوبهن بالآمال المشرقة . فعلى أمهات اليوم أن يقبلن كلام السيد بنفس ذلك الإيمان . إن المسيح هو بالتأكيد مخلص شخصي اليوم كما كان عندما عاش إنسانا بين الناس . وهو بلا شك معين الأمهات اليوم كما كان عندما احتضن الأولاد الصغار بين ذراعيه في اليهودية . لقد اقتنى أطفالنا بدمه كما اقتنى الأولاد الذين عاشوا قديما سواء بسواء.

قوة للأم

إن يسوع يعرف العبء الذي تحمله كل أم على قلبها . فذاك الذي كانت له أم كافحت ضد الفقر والحرمان يعطف على كل أم مكافحة . ذاك الذي سافر سفرا طويلا لكي يزيل الجزع عن أم كنعانية جزعة

ويزيح عن قلبها الأحزان هو مستعد لأن يفعل ذلك لكل أم في هذه الأيام . وذاك الذي أعاد إلى أرملة نايين وحيدها والذي إذ كان معلقا على الصليب يقاسي العذابات ذكر أمه ، يؤثر فيه في هذه الأيام منظر أي أم متألمة حزينة . وفي كل حزن وحاجة يمنح العزاء والعون .

فلتأتِ الأمهات بارتباكاتهن إلى يسوع وحينئذ سيجدن نعمة كافية تعينهن على تربية أولادهن . إن الأبواب مفتوحة أمام كل أم تريد أن تطرح أحمالها عند قدمي المخلص . فالذي قال: "دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم" لم يزل يدعو الأمهات ليأتين بصغارهن إليه لكي يباركهم . حتى الطفل الذي بين ذراعي أمه يمكنه أن يبيت في ظل القدير بواسطة إيمان أمه المصلية . لقد امتلأ يوحنا المعمدان بالروح القدس منذ ولادته . فإذا كنا نعيش في شركة مع الله يمكننا نحن أيضا أن ننتظر من الروح الإلهي أن يشكل أخلاق صغارنا منذ أيام طفولتهم الباكرة.

رأى يسوع في الأولاد الذين جيء بهم إليه الرجال والنساء الذين سيكونون ورثة نعمته ورعايا ملكوته . وبعض منهم كانوا مزمعين أن يموتوا شهداء في سبيله . لقد عرف أن [484] هؤلاء الأولاد سيصغون إلى تعاليمه ويقبلونه فاديا لهم بأسرع مما يفعل الكبار الذين كان كثيرون منهم حكماء في أمور هذه الدنيا ولكنهم كانوا قساة القلوب . وفي تعليمه للصغار نزل إلى مستواهم . فذاك الذي هو جلال السماء لم يترفع عن أن يجيبهم عن أسئلتهم ويبسط لهم تعاليمه الهامة لتتناسب أفهامهم الصبيانية ، فغرس في عقولهم بذار الحق الذي كان لينمو بعد سنين ويأتي بثمار للحياة الأبدية.

إنه حق ثابت أن الأولاد هم أكثر الناس قبولا لتعاليم الإنجيل وقلوبهم مفتوحة للتأثيرات الإلهية وقوية لتحتفظ بالدروس التي تقبلها . إن الأولاد الصغار يمكن أن يكونوا مسيحيين ولهم اختبار يتناسب مع أعمارهم . إنهم بحاجة إلى تعلم الأمور الروحية ، وعلى الوالدين أن يقدموا لهم كل الفرص والامتيازات حتى يمكن أن تتشكل أخلاقهم على شبه صفات المسيح.

أنموذج للوالدين

وعلى الآباء والأمهات أن ينظروا إلى أولادهم كأفراد صغار في أسرة الرب وهم ودائع بين أيديهم ليربوهم ليكونوا أهلا للسماء . وعلينا أن نعلمهم نفس الدروس التي قد تعلمناها من المسيح على قدر ما تستطيع عقولهم الصغيرة أن تقبل ، فنكشف لهم شيئا فشيئا عن جمال مبادئ السماء . وهكذا يصير البيت المسيحي مدرسة فيها يكون الآباء المعلمين الصغار تحت إشراف المسيح نفسه الذي هو المعلم الأعظم.

وفي محاولتنا هداية أولادنا إلى الرب ينبغي ألاّ ننتظر أن يكون البرهان الجوهري على تبكيتهم على الخطية الانفعال العنيف ، وكذلك ليس من الضروري معرفة الوقت المضبوط الذي فيه قد تجددوا . وعلينا أن نعلمهم أن يأتوا إلى يسوع بخطاياهم طالبين منه الغفران ومؤمنين بأنه يغفر لهم ويقبلهم كما قبل الأولاد ورحب بهم عندما كان في العالم.

إن الأم إذ تعلم أولادها أن يطيعوها مدفوعين بدافع حبهم لها فهي تعلمهم أول الدروس في الحياة المسيحية . إن محبة الأم تمثل أمام الولد محبة المسيح ، والصغار الذين يثقون بأمهم ويطيعونها يتعلمون أن يثقوا بالمخلص ويطيعوه.

كان يسوع مثالا ونموذجا للأولاد كما كان نموذجا للآباء . لقد تكلم كمن له سلطان [485] وكان كلامه مصحوبا بقوة ، ومع ذلك ففي حديثه مع الناس الأشرار القساة لم ينطق بكلمة قاسية أو سمجة . إن نعمة المسيح في القلب تمنح الإنسان جلالا سماويا وتعقلا ولياقة . إنها تلين كل ما هو قاسٍ وتخضع كل

عنف وصرامة وفظاظة وترشد الآباء والأمهات لمعاملة أولادهم كخلائق عاقلة كما يريدون هم أن يعاملوا .

أيها الوالدون ، عليكم وأنتم تربون أولادكم أن تتعلموا الدروس التي يقدمها لكم الله في الطبيعة . إذا أردت أيها الأب أن تعتني بشجيرة القرنفل أو الورد أو السوسنة فكيف تفعل ذلك؟ اسأل البستاني في ذلك عن العملية التي بها تجعل كل غصن وكل ورقة تنمو وتترعرع وتكون في عز نضارتها وتنمو في أعظم تناسق وأبهى جمال فهو يقول لك إنه لم يكن ليلمس تلك الأغراس الرقيقة بخشونة ولا أمسكها بقسوة أو عنف وإلا لانكسرت الأغصان الرقيقة . ولكنه أولاها اهتمامه والتفاتاته البسيطة المتكررة ، وبلل التربة بالماء وحرس تلك النباتات النامية من هبات الريح الشديدة ومن حرارة الشمس المحرقة . فجعلها الله تترعرع وتتفتح حتى اكتمل جمالها . ففي معاملتكم لأولادكم أيها الوالدون اتبعوا طريقة البستاني . وبلمساتكم الرقيقة وخدمات المحبة اجتهدوا في تكوين أخلاقهم على نموذج صفات المسيح.

التعليم بروح المحبة

شجعوهم على التعبير عن محبتهم لله ولبعضهم البعض . إن السبب في كثرة عدد الرجال والنساء القساة القلوب في العالم هو أن المحبة الصادقة معتبرة ضعفا ، وهي من حين إلى آخر تخمد وتكبت . فالطبائع الصالحة في أولئك الناس خنقت منذ طفولتهم . فإذا لم يمكن لنور المحبة الإلهية وحرارتها أن يذيبا أنانيتهم وجحودهم فسيقضى على سعادتهم فتتلاشى إلى الأبد . إذا كنا نرغب في أن يكون لأولادنا روح المسيح المحب الرقيق ، والعطف الذي يبديه لنا الملائكة فعلينا أن نشجع دوافع الخير والإحسان الرقيقة في الأولاد منذ الطفولة.

علموا الأولاد أن يروا المسيح في الطبيعة . خذوهم إلى الخلاء تحت الاشجار الوارفة وفي الحدائق وفي كل أعمال الخليقة العجيبة علموهم أن يروا في كل ذلك تعبيرا عن محبة [486] الفادي . علموهم أنه هو الذي وضع القوانين التي تسوس كل الخلائق الحية وأنه هو الذي وضع الشريعة لنا ، وأن القصد من كل هذه الشرائع هو سعادتنا وفرحنا . لا تتعبوهم بالصلوات الطويلة والمواعظ والتحذيرات المملة التي تجلب السآمة ، ولكن عن طريق مشاهد الطبيعة علموهم الطاعة لشريعة الله.

وإذ تكتسبون ثقتهم كتابعين للمسيح سيكون من السهل عليكم أن تعلموهم عن المحبة العظيمة التي بها قد أحبنا الله . وإذ تحاولون تبسيط حقائق الخلاص لأذهانهم وتوجهون التفاتهم إلى المسيح مخلصهم الشخصي ، فالملائكة سيكونون إلى جانبكم . والرب س ي عطي نعمة للآباء والأمهات حتى يسترعوا اهتمام صغارهم ويشوقوهم لسماع قصة وليد بيت لحم الجميلة ، قصة ذاك الذي هو في الحقيقة رجاء العالم.

إن يسوع عندما قال لتلاميذه ألاّ يمنعوا الأولاد من الإتيان إليه كان يخاطب تابعيه في كل الأجيال- موظفي الكنيسة والخدام والمساعدين وكل المسيحيين . إن يسوع يجتذب الأولاد ، وهو يأمرنا أن ندعهم يأتون إليه . وكأنما هو يريد أن يقول لنا أنهم سيأتون إذا لم تمنعوهم أنتم.

ممثلون حقيقيون

لا تجعلوا صفات الجفاء التي فيكم تسيء تمثيل يسوع . لا تمنعوا الصغار ولا تبعدوهم عنه بجحودكم وقسوتكم ، ولا تجعلوهم بسوء تصرفكم يحسون بأن السماء ستكون مكانا كريها في نظرهم لو كنتم أنتم هناك . ولا تتحدثوا عن الديانة كأنها شيء لا يستطيعون هم أن يفهموه ، ولا تتصرفوا تصرفا يجعلهم يعتقدون أنه لا ينتظر منهم أن يقبلوا المسيح في صباهم . ولا تجعلوهم يعتقدون ذلك الاعتقاد الخاطئ وهو أن ديانة المسيح هي ديانة الحزن والانقباض والوجوم وأنهم عندما يأتون إلى المخلص ينبغي لهم أن ينفضوا أيديهم من كل ما يجعل الحياة مرحة وسعيدة.

وعندما يرف الروح القدس على قلوب الأطفال يجب عليكم أن تتعاونوا معه في عمله وأن تعلموهم أن المخلص يدعوهم وأنه ليس ما يفرحه قدر فرحه عندما يسلمون أنفسهم له في بكور حياتهم وميعة صباهم. [487]

إن المخلص يهتم أعظم اهتمام ويبدي أعظم رقة ومحبة نحو النفوس التي قد اقتناها بدمه . إنهم خاصته بحق المحبة . وهو ينظر إليهم بشوق وحنين لا يعبر عنه . إن قلبه منجذب ليس فقط إلى أفضل الأولاد سلوكا بل إلى أولئك الذين فيهم صفات كريهة موروثة . إن كثيرين من الآباء لا يدركون إلى أي حد هم مسؤولون عن الأخلاق الشاذة التي في أولادهم . إنه تعوزهم الرقة والحكمة اللتان بهما يتعاملون مع أولادهم المخطئين الذين أوصلوهم هم إلى تلك الحالة . ولكن يسوع ينظر إلى هؤلاء الأولاد بكل حنان وشفقة ، وهو يتتبع حياتهم من السبب إلى النتيجة.

إن العامل المسيحي قد يكون واسطة نافعة في يد المسيح لاجتذاب هؤلاء الأولاد إلى المخلص . فبالحكمة واللباقة قد يربطهم إلى قلبه برباط وثيق ، وقد يلهمهم شجاعة ورجاء ، وبنعمة المسيح قد يراهم وقد تغيرت أخلاقهم بحيث يمكن أن يقال عنهم: "لمثل هؤلاء ملكوت الله". [488]

الفصل السابع والخمسون—يعوزك شيء واحد

"وفيما هو خارج إلى الطريق، ركض واحد وجثا له وسأله: أيها المعلّم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟" (مرقس 10 : 17).

إن الشاب الذي سأل يسوع هذا السؤال كان رئيسا وكان ذا أموال كثيرة وفي مركز ذي مسؤولية . رأى المحبة التي أظهرها المسيح للأولاد الذين أتي بهم إليه ، ورأى كيف قبلهم بكل رقة ومحبة وأخذهم بين ذراعيه فالتهب قلب ذلك الشاب حبا للمخلص ، وقد نشأت في قلبه رغبة في أن يكون تلميذا له . وكان متأثرا تأثرا عميقا حتى أنه عندما رأى المسيح سائرا في طريقه ركض خلفه وإذ جثا عند قدميه سأله بكل اخلاص وغيرة ذلك السؤال الهام جدا لنفسه ولنفس كل إنسان قائلا: " ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟".

قال له المسيح: "لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله" (مرقس 10 : 18). لقد رغب يسوع أن يختبر إخلاص ذلك الرئيس ويستخلص من فمه السبب الذي جعله يعتبره صالحا . فهل تحقق من أن الشخص الذي كان يتحدث إليه هو ابن الله؟ ماذا كان فكر قلبه الحقيقي الذي كان يجول في خاطره؟

كان هذا الرئيس يقدر بره الذاتي تقديرا عظيما ولم يكن في الحقيقة يظن نفسه ناقصا في شيء ، ومع ذلك فهو لم يكن راضيا عن نفسه كل الرضى فلقد أحس بحاجته إلى شيء لم يكن يملكه . أفلا يمكن أن يباركه يسوع كما بارك الأولاد ويشبع حاجة نفسه . وجوابا على سؤاله هذا أخبره يسوع أن الطاعة لوصايا الله واجبة عليه جدا إذا أراد أن ينال الحياة الأبدية . واقتبس عدة وصايا تري واجب الإنسان نحو بني جنسه . وقد جاء جواب ذلك الرئيس حاسما إذ قال: "هذه كلّها حفظتها منذ حداثتي. فماذا يعوزني بعد؟" (متى 19 : 20). [489]

قارئ القلوب

فشخص المسيح في وجه ذلك الشاب كأنما يقرأ تاريخ حياته ويفحص أخلاقه . وقد أحبه ، وكان يتوق إلى أن يمنحه السلام والنعمة والفرح الذي يغير خلقه تغييرا جوهريا فقال له: "يعوزك شيء واحد: إذهب بع كل ما لك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب" (مرقس 10 : 21).

لقد انجذب قلب المسيح إلى ذلك الشاب . عرف أنه كان مخلصا حين قال: "هذه كلها حفظتها منذ حداثتي" (مرقس 10 : 20). وتاق الفادي إلى أن يخلق في نفس الشاب بصيرة روحية تجعله قادرا على أن يرى ضرورة التعبد القلبي ولزوم الصلاح المسيحي .اشتاق إلى أن يرى فيه قلبا متواضعا منسحقا يحس بوجوب تقديم المحبة العظمى لله ، وقلبا يخفي نقائصه في كمالات المسيح.

إن يسوع رأى في هذا الشاب الرئيس نفس المعونة التي يحتاجها الفادي لو أراد الشاب أن يصير

عاملا معه في خدمة الخلاص . فلو رغب في أن يضع نفسه تحت إرشاد المسيح فسيصير قوة للغير . وبدرجة ممتازة كان يمكن لهذا الرئيس أن يكون نائبا عن المسيح لأنه كانت عنده مؤهلات ، لو ارتبط بالمخلص ، كان يمكن أن تُصيره قوة إلهية بين الناس . وإذ نظر يسوع خلقه أحبه . لقد بدأت المحبة للمسيح تستيقظ في نفس ذلك الرئيس لأن المحبة تلد محبة . واشتاق المسيح إلى أن يراه عاملا معه وإلى أن يجعله نظير نفسه مرآة تنعكس عليها صورة الله . اشتاق إلى أن ينمي جمال خلقه ويكرسه لخدمة السيد . فلو سلم ذلك الرئيس نفسه للمسيح وقتئذ لنما وترعرع في جو حضوره . ولو أنه اختار هذا النهج فكم كان مستقبله يختلف عما صار إليه !

قال له يسوع: "يعوزك شيء واحد". "إن أردت أن تكون كاملاً فإذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني" (مرقس 10 : 21 ؛ متى 19 : 20). لقد قرأ المسيح مكنونات قلب ذلك الرئيس . كان يعوزه شيء واحد ولكن ذلك الشيء الواحد كان أمرا جوهريا . كان بحاجة إلى محبه الله في نفسه . وما لم تسد تلك الحاجة فقد يكون ذلك علة هلاكه . وقد تفسد كل طبيعته ، إذ بالإفراط تتقوى الأنانية . [490] فلكي يحصل على محبة الله ينبغي إخماد حبه العظيم لنفسه.

"اختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون"

قدم المسيح لهذا الرجل امتحانا فدعاه ليختار بين كنز السماء أو العظمة العالمية . وكان كنز السماء مضمونا له لو اتبع المسيح . ولكن ينبغي أن تخضع الذات وأن تكون إرادته تحت سيطرة المسيح . إن نفس قداسة الله قدمت لذلك الرئيس الشاب وقدم له امتياز أن يكون ابنا لله ووارثا مع المسيح الكنز السماوي . ولكن ينبغي له أن يأخذ الصليب ويتبع المخلص في طريق إنكار الذات.

وفي الواقع كان كلام المسيح لذلك الرئيس هو هذه الدعوة: "اختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون" (يشوع 24 : 15). وقد ترك له حق في الاختيار . كان يسوع مشتاقا إلى هدايته وخلاصه . وقد أبان له نقطة الضعف في أخلاقه . وبأي اهتمام عميق كان يترقب النتيجة عندما وزن الشاب ذلك السؤال ! فلو قرر اتباع المسيح لوجب عليه أن يطيع كلامه في كل شيء . عليه أن يتخلى عن مشاريعه وطموحه . فبأي شوق جزع غيور وبأي جوع قلبي نظر المخلص إلى ذلك الشاب مؤملا أنه سيستجيب لدعوة روح الله !

لقد قدم المسيح الشروط الوحيدة التي تمكّن ذلك الرئيس من أن يصبح ذا خلق مسيحي كامل . كان كلامه كلام الحكمة وإن كان يبدو قاسيا وملزما . فلو قبل الرئيس ذلك الكلام وأطاعه لكان ذلك رجاؤه الوحيد في الخلاص . كان مركزه الرفيع وأمواله الكثيرة تبذل جهدا ماكرا لتؤثر تأثيرا شريرا على أخلاقه . فلو أطاعها فستحتل مكان الله في عواطفه بطريقة خادعة . ولو استبقى لنفسه قليلا أو كثيرا ولم يعطه لله فمعنى ذلك الإبقاء على ما من شأنه أن يضعف قوته الأدبية وكفاءته ، لأننا إذا أحببنا الأشياء الدنيوية مهما تكن زائلة تافهة فلابد من أن تسيطر علينا كل السيطرة.

كان ذلك الرئيس حاضر البديهة ففهم فحوى كلام المسيح كله ، فحزن . لو أنه عرف قيمة الهبة المقدمة له فسرعان ما كان ينضوي تحت لواء المسيح ويصير تابعا له . لقد كان أحد اعضاء مجمع اليهود الموقر وكان الشيطان يغويه بآمال وانتظارات المستقبل الخادعة . كان يرغب في امتلاك الكنز السماوي ولكنه في نفس الوقت كان يطمع في [491] المزايا الزمنية التي تحققها له أمواله ، فأسف لوجود تلك الشروط . كان راغبا في الحياة الأبدية ولكنه لم يكن مستعدا للإقدام على تلك التضحية . لقد بدا له أن كلفة الحياة الأبدية عظيمة جدا ، فمضى حزينا "لأنه كان ذا أموال كثيرة" (متى 19 : 22).

قوة الأنانية

إن ادعاء ذلك الشاب أنه قد حفظ كل الوصايا كان خداعا خطرا ، إذ برهن على أن المال هو صنمه الذي كان يتعبد له. لم يستطع أن يحفظ وصايا الله ما دام العالم كان هو الأول في عواطفه ، فأحب عطايا الله أكثر مما أحب معطيها . لقد قدم المسيح لذلك الشاب هبة مصاحبته . قال له: "اتبعني" ولكن المخلص لم يكن في اعتباره يساوي شهرته وأمواله . فكونه يتخلى عن كنزه الأرضي المنظور في مقابل كنز السماء غير المنظور ، كان ذلك في نظره مخاطرة عظيمة غير مأمونة العواقب ، فرفض هبة الحياة الأبدية ومضى . ومنذ ذلك الحين صار العالم إلهه الذي يتعبد له . إن آلافا من الناس يجوزون في نفس هذه التجربة وهم يوازنون بين المسيح والعالم ، وكثيرون منهم يختارون العالم . إنهم ، كذلك الرئيس الشاب ، يديرون للمخلص القفا قائلين في قلوبهم لا نريد أن يكون هذا الإنسان رئيسا علينا.

إن لنا في معاملة المسيح لهذا الشاب دروسا يجب أن نتعلمها. لقد أعطانا الله قانون الخلق الذي يجب على كل خدامه أن يسيروا بموجبه ، وهو الطاعة لشريعته ، ليس مجرد الطاعة القانونية بل تلك التي تتغلغل في كل أنسجة الحياة وتتمثل في الخلق . إن الله هو بذاته الذي وضع المقاييس للخلق لكل من يريدون أن يكونوا ضمن رعايا ملكوته . فالذين يريدون أن يكونوا عاملين مع المسيح ، والذين يقولون: يا رب أنا وكل ما أملك لك ، هم وحدهم الذين سيعترف بهم على أنهم أبناء وبنات الله . على كل واحد أن يتأمل في معنى كون الإنسان يرغب في دخول السماء ثم يرتد لأنه يتصور أن الشروط المطلوبة لامتلاكها شروط صارمة فادحة . فكر في معنى قولك للمسيح: "لا". إن ذلك الرئيس قال للمسيح لا، فأنا لا أستطيع أن أتنازل لك عن الكل . فهل هذا هو نفس ما تقوله؟ إن المخلص يقدم لنا فرصة لأن يقاسمنا في العمل الذي قد أعطانا الله إياه لنعمله ، يقدم لنا فرصة استعمال [492] الوسائل التي قد أعطاها لنا الله لإنجاح عمله في العالم. بهذه الوسيلة وحدها يمكنه أن يخلصنا .

لقد أودعت أموال ذلك الرئيس بين يديه لكي يبرهن بذلك على أنه وكيل أمين ، وكان عليه أن يوزع تلك الأموال لينتفع بها المعوزون فتكون لهم . وهكذا الله في هذه الأيام يودع بين أيدي الناس الأموال والمواهب والفرص لكي تكون وسائل لإغاثة الفقراء والمتألمين . فالذي يستثمر ما قد أودعه الله بين يديه من هبات كما يريد الله يصير عاملا مع المخلص ورابحا نفوسا للمسيح لأن صفات المسيح منطبعة على قلبه.

قد يبدو لأولئك الذين يشغلون مراكز سامية كذلك الرئيس ، مراكز هي أمانة بين أيديهم، يبدو لهم أنها تضحية عظيمة كونهم يضحون بكل شيء لكي يتبعوا المسيح. ولكن هذا هو قانون العمل والتصرف لكل من يريدون أن يصيروا له تلاميذ . فلا يقبل شيئا أقل من الطاعة الكاملة . إن تسليم النفس لله هو خلاصة تعاليم المسيح . وفي غالب الأحيان يقدم لنا هذا الأمر ويطَلب منا في لغة تبدو ملزمة وحازمة ، لأنه لا توجد طريقة أخرى لتخليص الإنسان غير التخلص من الأشياء التي لو أبقي عليها لأضعفت الإنسان كله.

إن أتباع المسيح عندما يعيدون إلى الرب حقوقه فهم يكومون ويجمعون كنزا سيعطى لهم عندما يسمعون القول "نعما أيها العبد الصالح الأمين! كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيّدك"، "الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله" (متى 25 : 23 ؛ عبرانيين 12 : 2). إن الفرح برؤية النفوس تفتدى وتخلص خلاصا أبديا هو الجزاء الصالح لكل من يسيرون في أثر خطوات ذاك الذي قال: "اتبعني". [493]

الفصل الثامن والخمسون ـــ لعازر، هلمّ خارجاً

كان لعازر أحد مواطني بيت عنيا من أعظم تلاميذ المسيح ثباتا. فمنذ التقى المسيح أول مرة كان إيمانه قويا ومحبته له عميقة كما كان المخلص يحبه حبا عظيما . فلأجل لعازر أجرى المسيح أعظم عجائبه . لقد بارك المخلص كل من طلبوا منه المعونة فهو يحب كل الأسرة البشرية ، ولكنه مرتبط بالبعض بصلات رقيقة خاصة . كان قلبه مرتبطا بعائلة بيت عنيا بربط قوية وثيقة هي ربط المحبة الخالصة . ولأجل أحد أفراد تلك العائلة أجرى أعجب معجزاته.

كثيرا ما كان يسوع يجد راحته في بيت لعازر. إن المخلص لم يكن يملك بيتا لنفسه فقد كان معتمدا على كرم أصدقائه وتلاميذه ، وفي كثير من الأحيان عندما يكون متعبا وظامئا إلى عشرة الناس كان يفرح أن يهرب إلى هذه العائلة الوادعة بعيدا عن شكوك الفريسيين الغاضبين وحسدهم . وكان يجد في هذا البيت ترحيبا قلبيا وصداقة طاهرة مقدسة ، وهنا كان يمكنه أن يتحدث ببساطة وحرية كاملة عالما أن كلامه سيفهم ويدخر في القلب.

إن مخلصنا كان يعرف قيمة البيت الهادئ ويرحب بمن يصغون إلى كلامه باهتمام .كان يتوق إلى الرقة الإنسانية واللطف والحب. وأولئك الذين كانوا يقبلون التعليم السماوي الذي كان هو أبدا مستعدا لتقديمه للناس كانوا ينالون بركة عظيمة . وإذ كانت الجموع تتبع يسوع في الخلاء كان يكشف لهم عن جمال العالم الطبيعي . ويحاول أن يفتح عيون أذهانهم ليروا كيف تسند يد الله العالم . ولكي يجعلهم يقدرون صلاح الله وإحسانه كان يسترعي انتباه سامعيه إلى قطرات الندى النازلة في هدوء وسيول المطر ونور النهار المشرق الجميل الذي يشرق على الأشرار والصالحين . أراد أن يتحقق الناس تحققا كاملا من الاهتمام الذي يوليه الله للوسائل البشرية التي خلقها . ولكن أولئك الناس كانوا بطيئي السمع . أما في بيت أحبائه في بيت عنيا فكان يجد الراحة من كفاح الحياة العامة المتعبة . [494] ففي هذا البيت كان يفتح لسامعيه المعجبين سفر العناية . وفي تلك الأحاديث الخاصة كان يكشف لأصفيائه ما لم يحاول أن يخبر به الجمهور المختلط . ولم تكن ثمة حاجة لأن يكلم أصدقاءه بأمثال.

“ الحاجة إلى واحد”

وإذ كان المسيح ينطق بتعاليمه العجيبة كانت مريم تجلس عند قدميه لتصغي إلى كلامه بخشوع وتعبد. وفي ذات مرة إذ كانت مرثا مرتبكة في إعداد الطعام ذهبت إلى المسيح قائلة: “يا رب، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي؟ فقل لها أن تعينني!” (لوقا 10 : 40). كان ذلك هو الوقت لأول زيارة يقوم بها المسيح لبيت عنيا . كان المخلص وتلاميذه قد انتهوا من سفرتهم المضنية من أريحا سيرا على الأقدام . وكانت مرثا مهتمة بتوفير الراحة لهم ، وفي جزعها نسيت أن تبدي اللياقة والكياسة لضيفها . وقد أجابها

يسوع بلطفه وصبره المعهود قائلا لها: "مرثا، مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها" (لوقا 10 : 41، 42). لقد كانت مريم تختزن في عقلها الأقوال الثمينة التي كان المخلص ينطق بها والتي كانت تعتبرها أثمن من أثمن لآلئ العالم وجواهره.

أما ذلك الشيء " الواحد" الذي كانت تحتاجه مرثا فكان هو الروح المتعبد الهادئ ، واللهفة العميقة في طلب المعرفة عن المستقبل وحياة الخلود والفضائل اللازمة للنمو والتقدم الروحي. كانت بحاجة إلى التقليل من جزعها على الأشياء الزائلة وزيادة الاهتمام بما يبقى إلى الأبد . إن يسوع يريد أن يعلم أولاده أن ينتهزوا كل فرصة لاقتناء المعرفة التي تُحكِّمهم للخلاص . إن ملكوت المسيح يحتاج إلى عمال حريصين نشيطين . يوجد حقل واسع لمن يشبهن مرثا في غيرتهن على العمل الديني النشيط . ولكن عليهن أن يجلسن أولا مع مريم عند قدمي يسوع . ليتقدس الاجتهاد والحزم والنشاط بنعمة المسيح . وحينئذ تصير الحياة قوة عاملة للخير لا تُقهر. [495]

على فراش الموت

ولكن الحزن دخل إلى ذلك البيت الهادئ الذي فيه استراح يسوع. ذلك أن لعازر أصيب بمرض مفاجئ فأرسلت أختاه إلى المخلص قائلتين: "يا سيد، هوذا الذي تحبه مريض" (يوحنا 11 : 3). لقد شاهدتا المرض يهجم على أخيهما بكل قسوة ، ولكنهما مع ذلك كانتا تعرفان أن المسيح قد برهن على قدرته على شفاء كل الأمراض . وكانتا موقنتين أنه سيعطف عليهما في شدتهما ولذلك لم تشددا عليه في الإسراع بالحضور بل اكتفتا بإرسال تلك الرسالة الواثقة إليه . وقد ظنتا أنه سيستجيب لرسالتهما حالا وسيجيء إلى بيت عنيا بأسرع ما يمكن.

وبكل جزع جلستا تنتظرا رسالة من يسوع. وطالما كان أخوهما على قيد الحياة جعلتا تصليان منتظرتين قدوم سسوع . ولكن الرسول عاد بدونه . ومع ذلك فقد جاءهما برسالة تقول: "هذا المرض ليس للموت" (يوحنا 11 : 4). فتعلقتا بهذا الأمل وهو أن أخاهما سيعيش . وبكل رقة وحب حاولتا التحدث إلى أخيهما الذي كان يفقد الوعي بكلام الرجاء والتشجيع . فلما مات لعازر أصيبت الأختان بالخيبة المريرة ، ومع ذلك كانتا تحسان بأننعمة المسيح تسندهما وهذا حفظهما من أن تعودا باللائمة على المخلص.

عندما سمع المسيح رسالة الأختين ظن التلاميذ أنه قد تلقاها بفتور. فلم يبد عليه الحزن الذي كانوا يتوقعون أنه سيظهره . وإذ نظر إليهم قال: "هذا المرض ليس للموت، بل لأجلي مجد الله، ليتمجّد ابن الله به" (يوحنا 11 : 4). وقد مكث في الموضع الذي كان فيه يومين . كان هذا التأخير سرا استغلق على التلاميذ فهمه . إذ كم كان يمكن أن يكون وجود المسيح هنا مع الأختين الحزينتين المتألمتين سبب عزاء لقلبيهما الجريحين . كان التلاميذ يعلمون مقدار المحبة العظيمة التي كان الفادي يضمرها لتلك الأسرة القاطنة في بيت عنيا، ولذلك اندهشوا عندما رأوه لا يستجيب لتلك الرسالة المحزنة "هوذا الذي تحبّه مريض".

وظهر كأن المسيح قد أغفل الرسالة التي تسلمها منذ يومين ، لأنه لم يتكلم عن لعازر .وقد ذكر التلاميذ يوحنا المعمدان سابق المسيح . وقد تساءلوا لماذا سمح يسوع بأن يذوي يوحنا ويذبل في السجن ويموت تلك الميتة القاسية الرهيبة مع ما له من قوة عظيمة على [496] عمل المعجزات المدهشة . وما دام المسيح يملك مثل هذه القوة فلماذا لم ينقذ حياة يوحنا؟ وكثيرا ما سأل الفريسيون هذا السؤال وقدموه

على أنه حجة لا تُردّ ضد ادعاء المسيح بأنه ابن الله . كان المخلص قد أنذر تلاميذه بوقوع التجارب والخسائر والاضطهاد عليهم . فهل سيتركهم في تجاربهم؟ لقد جعل بعضا منهم يتساءلون فيما إذا كانوا قد أخطاوا فهم رسالته واضطربوا جميعهم اضطرابا عظيما.

كلمات الرجاء

وفي نهاية اليومين قال يسوع لتلاميذه: "لنذهب إلى اليهودية أيضاً" (يوحنا 11 : 7). فأخذ التلاميذ يتساءلون إذا كان يسوع ذاهبا إلى اليهودية فلماذا انتظر يومين ، ومن خوفهم على المسيح وعلى أنفسهم كان قد تمكن من عقولهم . فلم يروا سوى الخطر رابضا في الطريق الذي كان هو مزمعا أن يسلكه . فقالوا له: "يا معلّم، الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك، وتذهب أيضاً إلى هناك. أجاب يسوع: أليست ساعات النهار اثنتي عشر؟" (يوحنا 11 : 8 و 9). إني أسير بموجب إرشاد أبي ، وطالما أنا أفعل مشيئته فحياتي مصونة . إن ساعات نهاري الاثنتي عشرة لم تنقضِ بعد ، وأنا الآن في الجزء الأخير المتبقي من يومي ، ولكن طالما بقيت من يومي بقية فلا خوف علي.

ثم استطرد يقول: "إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم" (يوحنا 11 : 9). إن من يعمل مشيئة الله ويسير في الطريق الذي رسمه الله لا يمكن أن يعثر أو يسقط . إن نور روح الله الهادئ يعطيه فهما واضحا لواجبه ويرشده في طريق الصواب حتى ينتهي من عمله: "لكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر، لأن النور ليس فيه" (يوحنا 11 : 10). فالذي يسير في الطريق الذي يختاره بنفسه والذي لم يدعه الله للسير فيه يعثر ويستحيل نهاره إلى ليل وأينما يكون فليس له أمان.

"قال هذا وبعد ذلك قال لهم: "لعازار حبيبنا قد نام. لكني أذهب لأوقظه" (يوحنا 11 : 11). "لعازار حبيبنا قد نام". ما أعظم تأثير هذا الكلام ! وما أعظمه من كلام يدل على العطف ! إن التلاميذ إذ كانوا يفكرون في الخطر الذي سيتعرض له معلمهم لو ذهب إلى أورشليم كادوا ينسون العائلة المنكوبة في بيت عنيا . ولكن المسيح لم ينس تلك [497] العائلة. لقد أحس التلاميذ بأن كلام المسيح كان توبيخا لهم . كانوا قد أحسوا بالخيبة لأنالمسيح لم يجب بسرعة على الرسالة المرسلة إليه ، وقد جربوا أن يفتكروا بأنه لم يكن يعز لعازر وأختيه بالقدر الذي ظنوه وإلاّ لأسرع في العودة إلى بيت عنيا مع الرسول .ولكن قوله لهم "لعازار حبيبنا قد نام" أيقظ في عقولهم مشاعر صحيحة . فاقتنعوا بأن المسيح لم ينس أصدقاءه المتألمين.

"فقال تلاميذه: يا سيد، إن كان قد نام فهو يشفى. وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم" (يوحنا 11 : 21، 13). إن المسيح يشَبه موت أولاده المؤمنين بالنوم ، إذ أن حياتهم مستترة مع المسيح في الله . فالذين يموتون يرقدون فيه إلى أن يضرب البوق الأخير.

"لأجلكم"

"فقال يسوع حينئذ علانية: "لعازر مات. وأنا أفرح لأجلكم إني لم أكن هناك، لتؤمنوا، ولكن لنذهب إليه!" (يوحنا 11 : 14، 15) أما توما فلم يكن يتوقع لسيده إلاّ الموت المحقق لو ذهب إلى اليهودية فمنطق روحه وقال للتلاميذ رفقائه: "لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه!" (يوحنا 11 : 16). لقد عرف مقدار العداوة التي كان اليهود يضمرونها للسيد ، حيث كان غرضهم القضاء عليه بالموت . ولكن هذا الغرض لم

يتم لأن ساعته لم تكن قد جاءت . وفي خلال المدة الباقية له على الأرض كان ملائكة السماء يحرسونه . وحتى في إقليم اليهودية حيث كان المعلمون يتآمرون في كيف يقضون عليه بالموت لم يمكن أن يمسه أحد بأذى.

اندهش التلاميذ من كلام المسيح عندما قال: "لعازر مات .. افرح .. إني لم أكن هناك" فهل تحاشى المخلص الذهاب إلى بيت أصدقائه المتألمين بمحض اختياره؟ لقد بدا كأن مريم ومرثا ولعازر المحتضر قد تركوا وحدهم بلا معين . ولكنهم لم يكونوا وحدهم فلقد رأى المسيح ذلك المشهد من أوله إلى آخره . وبعد موت لعازر أسند بنعمته تينك الأختين المنكوبتين . لقد رأى يسوع حزن قلبيهما عندما كان أخوهما يصارع الموت ، عدوه القوي، وكان يحس بكل وخزة من وخزات الحزن عندما قال للتلاميذ "لعازر [498] مات". ولكن المسيح لم يكن مشغولا في التفكير في أحبائه الذين في بيت عنيا وحدهم بل كان عليه أيضا أن يهتم بتدريب تلاميذه . كان عليهم أن يكونوا نوابا عنه أمام العالم حتى تحتضن الجميع محبة الآب . فلأجلهم سمح بموت لعازر . فلو أنه كان قد شفاه من مرضه لما أجرى المعجزة العظيمة التي هي البرهان الإيجابي القاطع على صفته الإلهية.

لو كان المسيح في غرفة المرض لما مات لعازر لأن الشيطان ما كان يمكن أن يكون له عليه سلطان . وما كان للموت أن يصوب سهامه إلى قلب لعازر في حضرة معطي الحياة . لذلك بقي المسيح بعيدا وسمح للعدو باستخدام قوته حتى في النهاية يصده مقهورا .لقد سمح للعازر أن يجوز تحت سلطان الموت فرأت الأختان النائحتان أخاهما الحبيب مسجى في قبره . عرف المسيح أن تينك الأختين إذ تشخصان في وجه أخيهما الميت فإن إيمانهما بفاديهما سيجوز في محنة قاسية . ومنه عرف أيضا أنه بسبب ذلك الصراع الذي كانتا تجوزان فيه حينئذ سيتقوى إيمانهما ويتألق بلمعان أعظم . تألم وشعر بكل وخزة من وخزات الألم التي حلت بهما . وإذ تأخر عن المجيء إليهما لم يكن ذلك دليلا على فتور محبته لهما لكنه علم أنه ستكون هناك نصرة لهما وللعازر ولنفسه ولتلاميذه.

"لأجلكم"، "لتؤمنوا" أن كل من يمدون أيديهم يتلمسون طريقهم ليلمسوا يد الله الهادية ستكون أعظم خيبة تحل بهم هي الوقت الذي تكون فيه معونة الله أقرب ما تكون منهم .وسينظرون إلى الوراء شاكرين الله على الظلمة التي اكتنفت طريقهم: "يعلم الرب أن ينقذ الأتقياء" (2 بطرس 2 : 9). فمن كل تجربة وكل بلية سيخرجهم الرب بإيمان أقوى واختبار أغنى .

إن المسيح إذ تأخر عن المجيء إلى لعازر كان له قصد رحيم نحو أولئك الذين لم يقبلوه بعد . لقد تأخر حتى بعدما يقيم لعازر من الأموات يقدم لشعبه العنيد العديم الإيمان برهانا آخر على أنه هو حقا "القيامة والحياة". لم يكن قط يرغب في أن يقطع كل أمل من ذلك الشعب ومن تلك الخراف المسكينة ، خراف بيت إسرائيل الضالة . لقد انسحق قلبه بسبب قساوة قلوبهم ففي رحمته قصد أن يقدم لهم برهانا جديدا على أنه هو الذي يرد النفوس وهو وحده الذي يستطيع أن ينير الحياة والخلود . وسيكون هذا برهانا لن يستطيع الكهنة أن يحرفوه أو يسيئوا تأويله . كان هذا هو السبب في تأخره عن الذهاب إلى بيت [499] عنيا . فتلك المعجزة الختامية ، أي إقامة لعازر قصد بها أن تختم بختم الله على خدمة المسيح ودعواه بالألوهية.

رسالة إلى مرثا

في الطريق إلى بيت عنيا كان يسوع يخدم المساكين ويشفي المرضى كما كانت عادته دائما . وعند

وصوله إلى بيت عنيا أرسل إلى الأختين رسولا ينبئهما بقدومه ، إذ لم يرد المسيح أن يدخل البيت في الحال بل ظل في مكان هادئ بجانب الطريق . إن مظاهر الحزن التي كان اليهود يحرصون عليها عند موت حبيب أو قريب كانت مخالفة لروح المسيح . لقد سمع أصوات الصراخ والعويل من أفواه أناس مأجورين للندب ولذلك لم يرد أن يقابل الأختين في وسط مشهد تلك الضجة العظيمة . وكان بين الأصدقاء النائحين بعض أقارب العائلة ، وبعض منهم يشغلون مراكز سامية ويضطلعون بمسؤوليات جسام في أورشليم . وكان بين هؤلاء جماعة من ألد أعداء المسيح . وقد عرف المسيح نواياهم ولهذا لم يظهر نفسه في الحال.

قدمت الرسالة إلى مرثا بكل هدوء بحيث لم يستطع أحد غيرها أن يسمعها . وإذ كانت مريم في غمرة حزنها لم تسمع تلك الرسالة . فقامت مرثا في الحال وذهبت لمقابلة سيدها . أما مريم فإذ كانت تظن أن أختها ذهبت إلى قبر أخيها استمرت جالسة في البيت في حزن صامت وكآبة خرساء.

سرعت مرثا لملاقاة يسوع وقد اهتاجت في نفسها انفعالات متضاربة . قرأت في وجه السيد المعبر نفس ملامح الرقة والمحبة التي كانت ترى على محياه دائما . ولم تتزعزع ثقتها به ، إلاّ أنها فكرت في أخيها الحبيب الذي كان يسوع أيضا يحبه . وكان الحزن يغلي في قلبها لأن يسوع تأخر في المجيء ، ومع ذلك فإنها حتى الآن كانت ترجو أنه قد يعمل شيئا لتعزيتهما، فقالت: "يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي!" (يوحنا 11 : 21). لقد ظلّت تانك الأختان الحزينتان ترددان هذا القول مرارا عديدة في وسط ضجة النائحين والنائحات.

وبشفقة بشرية وحنان إلهي نظر يسوع إلى وجهها الحزين الذي أضنته الهموم . ولم تكن مرثا ترغب في سرد تفاصيل تلك الفجيعة التي ألمت بها وبأختها ، بل عبرت عن ذلك كله بكلماتها المفعمة حزنا وشجنا حين قالت: "يا سيّد، لو كنت ههنا لم يمت أخي!" [500] ولكنها إذ تطلعت في وجهه المحب أضافت قائلة: "لكني الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه" (يوحنا 11 : 22).

امتحان الإيمان

شجع يسوع إيمانها بقوله: "سيقوم أخوك" (يوحنا 11 : 23). لم يكن يقصد بجوابه أن يلهمها بالرجاء في تغيير مباشر . بل طار بأفكار مرثا إلى ما يأتي بعد قيامة أخيها وثبتها في قيامة الأبرار . فعل هذا لكي ترى مرثا في قيامة لعازر ضمانا لقيامة كل الأموات الأبرار وتأكيدا بأنها ستتم بقوة المخلص.

"قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم من القيامة، في اليوم الأخير" (يوحنا 11 : 24).

وإذ كان يسوع لا يزال يحاول أن يوجه إيمانها إلى الوجهة الصحيحة أعلن قائلا لها: "أنا هو القيامة والحياة" (يوحنا 11 : 25). إن ألوهية المسيح هي يقين المؤمن بالحياة الأبدية . وقد قال يسوع لمرثا: "من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟" (يوحنا 11 : 25 و 26). إن المسيح هنا ينظر إلى الأمام إلى مجيئه الثاني . حينئذ سيقام الأبرار الأموات عديمي فساد ، أما الأبرار الأحياء فسينقلون إلى السماء بدون أن يروا الموت . إن المعجزة التي كان المسيح مزمعا أن يصنعها بإقامة لعازر من الأموات كانت ستمثل قيامة كل الأموات الأبرار . لقد أعلن بكلامه وأعماله أنه صانع القيامة ومبدعها . وذاك الذي كان مزمعا أن يموت على الصليب وقف وبيده مفاتيح الموت ظافرا على القبر مؤكدا حقه وسلطانه على منح الحياة الأبدية .

“لو كنت ههنا”

وإذ سأل المخلص مرثا قائلا: “أتؤمنين بهذا؟”، أجابته بقولها: “نعم يا سيّد. أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله، الآتي إلى العالم” (يوحنا 11 : 27). إنها وإن تكن لم تدرك كلام المسيح بكامل معناه فقد اعترفت بإيمانها بألوهيته وثقتها بقدرته على أن يتمم كل ما يريد أن يصنعه. [501]

“ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سراً، قائلة: المعلّم قد حضر، وهو يدعوك” (يوحنا 11 : 28). لقد أبلغتها هذه الرسالة بسرية تامة وبكل هدوء معبر لأن الكهنة والرؤساء كانوا متأهبين للقبض على يسوع حالما تسنح الفرصة . وقد حال صراح النائحات دون سماع الناس لكلامها .

عندما سمعت مريم تلك الرسالة قامت سريعا وتركت الغرفة وقد ارتسمت على وجهها أمارات الاشتياق . وإذ ظنت النادبات أنها ذاهبة إلى القبر لتبكي هناك تبعنها . وحينما وصلت إلى المكان الذي كان يسوع منتظرا فيه خرت عند رجليه ثم انفرجت شفتاها المرتعشتان من فرط الانفعال عن هذا القول: “يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي!” (يوحنا 11 : 32). لقد كانت صرخات النائحات مؤلمة لقلبها ، لأنها كانت تتوق إلى أن تتحدث مع يسوع حديثا قصيرا هادئا وحدها . ولكنها كانت تعلم الحسد والغيرة اللذين كانا رابضين في قلوب بعض أولئك الناس الموجودين هناك ضد المسيح . ولذلك ضبطت شعورها ولم تعبر عن حزنها تعبيرا كاملا.

“فلما رآها يسوع تبكي، واليهود الذين جاءوا معها يبكون، انزعج بالروح واضطرب” (يوحنا 11 : 33). لقد عرف قلوب كل أولئك المجتمعين ، وعرف أن كثيرين ممن كان يبدو على وجوههم الحزن كان ك ذلك مجرد تظاهر وادعاء . كما عرف أن بين ذلك الجمع بعض من كانوا يتظاهرون بحزن ريائي بينما كانوا يدبرون الخطط للقضاء على صانع المعجزات العظيم ، وليس إياه فقط بل كانوا سيخططون أيضا لقتل ذاك الذي هو مزمع أن يقيمه من الأموات . كان المسيح قادرا على أن يجردهم من ثوب الرياء الذي كانوا يستترون به ، رداء الحزن الزائف المتصنع . ولكنه كظم غضبه العادل . والكلام الذي كان يستطيع أن ينطق به بكل صدق ويقين لم يتفوه به تقديرا لعواطف تلك المحبوبة الجاثية عند قدميه في حزن وانسحاق وهي مؤمنة به إيمانا حقيقيا.

دموع الحنان

سألهم يسوع قائلا: “أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيد، تعال وانظر” (يوحنا 11 : 33). فساروا جميعهم معه إلى القبر . كان المشهد مبكيا . لقد كان لعازر محبوبا جدا وقد بكته أختاه بحرقة من قلبين منسحقين . كما أن أصدقاء الميت مزجوا دموعهم بدموع تينك [502] الأختين المفجوعتين . فأمام هذه الأحزان والآلام البشرية ، وأمام حقيقة كون أولئك الأصدقاء يبكون على ذلك الميت في حين أن مخلص العالم كان واقفا بينهم — “بكى يسوع” (يوحنا 11 : 35). ومع كونه ابن الله فقد اتخذ طبيعة بشرية وتأثر بأحزان البشر . فقلبه الرقيق العطوف يستيقظ دوما بالعطف على المتألمين . إنه يبكي مع الباكين كما يفرح مع الفرحين.

ولكنه بكى ليس فقط بسبب عطفه البشري على مريم ومرثا ، بل كان في دموعه حزن يفوق أحزان البشر كما علت السماوات فوق الأرض . إن المسيح لم يبك على لعازر فقد كان مزمعا أن يدعوه ليخرج

من قبره . ولكنه بكى لأن كثيرين ممن كانوا يبكون على لعازر آنئذ كانوا موشكين أن يتآمروا على قتل ذاك الذي هو القيامة والحياة . ولكن كم كان أولئك اليهود غير المؤمنين عاجزين عن التعليل عن بكائه ! إن البعض منهم ممن لم يكونوا يرون شيئا أكثر من الظروف الخارجية للمشهد الذي أمامهم كسبب لحزن الفادي جعلوا يتهامسون قائلين: "انظروا كيف كان يحبه!" (يوحنا 11 : 36). وآخرون جربوا أن يزرعوا روح الشك في قلوب الحاضرين فقالوا ساخرين: "ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟" (يوحنا 11 : 37) وكأنهم يريدون أن يقولوا: إذا كان في مقدور المسيح أن ينقذ لعازر فلماذا تركه يموت؟

إن المسيح رأى بعين النبوة عداوة الفريسيين والصدوقيين له ، وعرف أنهم يتدبرون أمر قتله . وعرف أن بعض أولئك الذين يتظاهرون الآن بالعطف الشديد سيغلقون بعد قليل دون نفوسهم باب الرجاء وأبواب مدينة الله . إن مشهد إذلاله وصلبه صار وشيكا وسيكون من نتائجه خراب أورشليم . وفي ذلك الحين لن ينوح أحد على الأموات . والقصاص الذي كان قادما على أورشليم ظهر واضحا أمام المسيح . فقد رأى تلك المدينة محاطة بجيوش الرومان . وعرف أن كثيرين ممن يبكون الآن على لعازر سيموتون في حصار المدينة ، وفي موتهم لن يكون لهم رجاء.

إن المسيح لم يبك فقط من تأثير المشهد الذي كان ماثلا أمام عينيه ، فلقد كان يحمل عبئا ثقيلا هو عبء آلام الناس وأحزانهم مدى الأجيال . لقد رأى الآثار الرهيبة لتعدي الناس شريعة الله . لقد رأى في تاريخ العالم منذ مات هابيل أن الصراع الهائل بين الخير والشر لم يخمد أواره بعد . وإذ نظر إلى الأمام إلى السنين القادمة رأى الآلام والأحزان [503] والدموع والموت الذي هو نصيب كل إنسان . لقد أحس بالآلام تعتصر قلبه وهو يرى آلام الأسرة البشرية في كل الأجيال والأمصار . إن بلايا الجنس البشري الخاطئ ثقلت على نفسه فانفجرت ينابيع دموعه عندما تاق لأن يخفف من هول تلك البلايا.

البشرية تتحد بالألوهية

"فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء إلى القبر" (يوحنا 11 : 38). كان لعازر قد دفن في كهف منقور في الصخر وقد وضع حجر هائل على باب القبر . فقال المسيح: "ارفعوا الحجر!" (يوحنا 11 : 39). فإذ ظنت مرثا أنه يريد فقط أن يلقي نظرة على الجثمان عارضت في ذلك قائلة أن جثمان أخيها له في القبر أربعة أيام وأنه قد أنتن ودب فيه الفساد . فهذا التصريح الذي نطقت به مرثا قبيل إقامة لعازر قطع على أعداء المسيح خط الرجعة فلم يعد لهم مجال لأن يقولوا أن في الأمر خديعة . كان الفريسيون فيما مضى يذيعون الأكاذيب عن أعجب مظاهر قدرة الله . فعندما أقام ابنة يايرس كان قد قال: "لم تمت الصبية لكنها نائمة" (مرقس 5 : 39). فإذ كانت مدة مرضها قصيرة وأقيمت حالا بعد الموت أعلن الفريسيون أن الصبية لم تمت وأن المسيح نفسه أعلن أنها نائمة . كانوا قد أوهموا الشعب أن المسيح لا يقدر أن يشفي الأمراض وأنه كان هنالك تلاعب خبيث شرير في معجزاته . ولكن في هذه المرة لم يمكن لأحد أن ينكر حقيقة كون لعازر قد مات بكل تأكيد.

إن الرب عندما يشرع في عمل فالشيطان يحرض أحد الناس لكي يعارض في ذلك .قال يسوع: "ارفعوا الحجر!" (يوحنا 11 : 39). وكأنما هو يقول لهم: على قدر الإمكان أعدوا لي الطريق لأعمل . ولكن طبيعة مرثا الحازمة الطموح فرضت نفسها على ذلك الجمع . فلم تكن ترغب في أن ذلك الجسم المتعفن يكشف لعيون الناس . إن القلب البشري بطيء في فهم كلام المسيح . ولم يكن إيمان مرثا قد أدرك

المعنى الحقيقي لوعده.

وبخ المسيح مرثا ، ولكن كلامه كان رقيقا إلى أقصى حد ، إذ قال لها: "ألم أقل لك: إن آمنت ترين مجد الله؟" (يوحنا 11 : 40) لماذا تشكين في قدرتي؟ لماذا تفكرين ضداً لمطاليبي؟ لقد قدمت لك وعدي فإن آمنت سترين مجد الله . إن المستحيلات الطبيعية لا يمكنها أن تعيق عمل الله القادر على كل شيء . وإن الشك وعدم الإيمان ليسا دليلا على التواضع . الإيمان الثابت بوعد المسيح هو الوداعة الحقيقية والتسليم الحقيقي للنفس [504]

"ارفعوا الحجر ! ". كان المسيح يستطيع أن يأمر الحجر فيتدحرج بعيدا إطاعةً لكلمته . وكان يستطيع أن يأمر الملائكة الذين كانوا بجواره أن يفعلوا ذلك ، وامتثالا لأمره كانت تلك الأيادي غير المنظورة ترفع الحجر . ولكن كان ينبغي أن ترفعه الأيدي البشرية . وهكذا أرانا المسيح أن الإنسان يجب عليه أن يتعاون مع الله . فما تستطيع القوة البشرية أن تفعله لا يطلب من القوة الإلهية أن تعمله . والله لا يستغني عن معاونة الإنسان . ولكنه يقويه ويتعاون معه عندما يستخدم قواه وإمكانياته المعطاة له.

وقد أطاعوا أمره ورفعوا الحجر ، وعمل كل شيء بترو علناً أمام الناس . وأعطيت للجميع فرصة لأن يتحققوا من أن ليس في الأمر أي خداع . فهناك كان جثمان لعازر موضوعا في قبر صخري ، وكان باردا إذ أسكته الموت ، وقد سكنت ضجة النائحين . وإذ كان ذلك الجمع ذاهلا ومترقبا وقفوا متجمهرين حول القبر منتظرين ما سيحث بعد ذلك.

واهب الحياة

ها المسيح يقف هادئا أمام القبر ، وها الخشوع المقدس يسود على الجميع . وبعدما يقترب المسيح من القبر يرفع عينيه نحو السماء ويقول: "أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي" (يوحنا 11 : 41). كان أعداء المسيح قد اتهموه منذ عهد قريب بالتجديف ورفعوا حجارة ليرجموه لأنه قال عن نفسه أنه ابن الله . واتهموه أيضا بأنه يصنع المعجزات بقوة الشيطان . ولكن ها هو المسيح الآن يدعي بأن الله أبوه ، وبثقة كاملة يعلن أنه ابن الله.

إن المسيح كان متعاونا مع أبيه في كل عمل عمله . وكان حريصا دائما على أن يبرهن على أنه لا يعمل مستقلا . وقد أجرى معجزاته مستندا على قوة الإيمان والصلاة . كان المسيح يرغب في أن يعرف الجميع صلته بأبيه ، فصلى قائلا: "أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني" (يوحنا 11 : 41 و 42). وهنا قدم للتلاميذ وللشعب أقطع برهان فيما يختص بالعلاقة الكائنة بين المسيح والله . وكان سيتضح لهم أن دعوى المسيح لم تكن خداعا ولا تضليلا.

"ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: "لعازر، هلمّ خارجاً!" (يوحنا 11 : 43). إن [505] صوته الواضح النافذ يخترق إذني الميت . وإذ يتكلم تتجلى الألوهية متألقة في البشرية . فرأى الناس في وجهه الذي تجلى عليه مجد الله ، اليقين على قدرته العظيمة . ثم اتجهت كل العيون نحو باب القبر وأضاء الجميع بأسماعهم إلى أخف صوت . وباهتمام وتوتر عظيم ينتظر الناس كلهم نتيجة امتحان ألوهية المسيح والبرهان الذي يدعم بالحجة القاطعة دعواه على أنه ابن الله ، أو يخمد الرجاء إلى الأبد.

فحدثت حركة في القبر الساكن ، وذاك الذي كان ميتا رؤي واقفا في باب القبر . ولكن الأكفان التي كان ملفوفا بها عاقته عن الحركة . فقال المسيح لأولئك المشاهدين الذاهلين: "حلّوه ودعوه يذهب" (يوحنا

11 : 44). ومرة أخرى أراهم أن العامل البشري يجب أن يكون عاملا ومتعاونا مع الله . فعلى الناس أن يخدموا بنى جنسهم . وها هو لعازر بعدما تخلص من أكفانه يقف أمام ذلك الجمع ليس كرجل مضنى أو مريض ، ولا يبدو أن أعضاء جسمه واهنة أو مترنحة بل يقف كرجل في ملء الصحة وعنفوان الشباب ونشاط الرجولة الكريمة النبيلة ، ومن عينيه تشع أنوار الذكاء ، وفي حب غامر لمخلصه يخر أمامه بخشوع ساجدا عند قدميه.

أما الجموع فقد أبكمتهم الدهشة في بادئ الأمر ، وبعد ذلك تعالت أصوات الفرح والشكر الذي لا يمكن التعبير عنه . وقد تقبلت الأختان أخاهما بعد قيامته على أنه عطية الله لهما . وبدموع الفرح عبرتا عن شكرهما للسيد بكل تواضع . ولكن فيما كان الأخ وأختاه وأصدقاؤهم فرحون باجتماع شملهم ثانية انسحب يسوع بعيدا عن ذلك المشهد . وإذ كانوا يبحثون عن مانح الحياة لم يجدوه. [506]

الفصل التاسع والخمسون ـــــ مؤامرات الكهنة

كانت بيت عنيا قريبة جدا من أورشليم بحيث أن نبأ إقامة لعازر وصل إلى المدينة بسرعة عظيمة . فبواسطة الجواسيس الذين شاهدوا تلك المعجزة علم الرؤساء بكل ما قد حدث على وجه السرعة . وفي الحال انعقد مجمع السنهدريم ليقرروا ما ينبغي أن يفعلوه .كان المسيح حينئذ قد برهن بكل وضوح على أن له السلطان على الهاوية والموت . فتلك المعجزة العظيمة كانت هي البرهان النهائي القاطع المقدم من الله للناس على أنه قد أرسل ابنه إلى العالم ليخلصهم . لقد كانت دليلا واضحا على قدرة الله وكافية لإقناع كل عقل مدرك رشيد وكل ضمر حي مستنير . وكثيرون ممن شاهدوا إقامة لعازر آمنوا بيسوع ، ولكن عداوة الكهنة له زادت وتفاقمت . لقد رفضوا كل البراهين الأخرى على ألوهيته ، ولكن هذه المعجزة الجديدة زادتهم سخطا على سخط . إن لعازر أقيم في وضح النهار وأمام جمع كبير من الشهود . فلم يمكن لأية خدعة أو حيلة أن تدحض مثل هذا البرهان . ولهذا السبب عينه زادت عداوة الكهنة وصارت مميتة إلى أقصى حد . وقد زاد إصرارهم الآن أكثر مما في أي وقت مضى على أن يجعلوا حدا ونهاية لأعمال المسيح ونشاطه.

إن الصدوقيين مع أنهم لم يكونوا على وفاق مع المسيح لم تصل عداوتهم له إلى الحد الذي وصلت إليه عداوة الفريسيين ولم تكن من الشدة والمرارة كما كانت عداوة الفريسيين. ولكن ها هم الآن يفزعون أشد الفزع . لم يكونوا يعتقدون بقيامة الأموات .وقد قادهم العلم الكاذب الاسم إلى أن يتحاجوا قائلين إنه من المستحيل أن تعود الحياة إلى جسم ميت . ولكن بكلمات قليلة من فم المسيح بطلت نظريتهم وتلاشت . فاتضح لكل الناس أن الصدوقيين لا يعرفون الكتب ولا قوة الله . رأوا أنه من غير الممكن إزالة التأثير الذي حدث في عقول الشعب وقلوبهم بسبب تلك المعجزة . فكيف يرتد الناس عن يسوع وقد انتصر إذ انتزع الميت من قبره . لقد تناقلت الألسنة كثيرا من البلاغات الكاذبة ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر تلك المعجزة ، ولم يكونوا يعرفون كيف يعطلون أو يبطلون تأثيرها . [507] إلى هذا الحد لم يشجع الصدوقيون التدبير الذي يستهدف قتل المسيح ، ولكن بعد إقامته لعازر قرروا أنه لن يمكن إسكات تشهيره الجريء بهم إلا إذا مات.

مؤامرة لقتله

أما الفريسيون فكانوا يؤمنون بالقيامة ، ولم يسعهم إلا أن يروا أن هذه المعجزة كانت برهانا قويا على أن مسيا نفسه في وسطهم . ولكنهم كانوا دائما يقاومون عمل المسيح . فمن بادئ الأمر أبغضوه لأنه فضح ادعاءاتهم ورياءهم . لقد مزق رداء الطقوس الصارمة التي كانوا يخفون تحتها العيوب والنقائص الأخلاقية . كما أن الديانة الطاهرة التي علم بها دانت اعترافهم الفارغ بالتقوى ، فكانوا متعطشين إلى الانتقام منه بسبب توبيخاته الجارحة . لقد حاولوا إثارته ليقول أو يفعل ما يمكن أن يكون علة لإدانته . وحاولوا مرارا

أن يرجموه ولكنه كان ينسحب بهدوء ويغيب عن أنظارهم.

ثم أن المعجزات التي كان يصنعها في يوم السبت كانت كلها للتخفيف من آلام المتألمين ولكن الفريسيين طلبوا إدانته كمن هو ناقض السبت . وحاولوا إثارة الهيرودسيين ضده . لقد صوروه على أنه يحاول إقامة مملكة منافسة فتباحثوا معهم في كيف يهلكونه . وحتى يثيروا ثائرة الرومان ضده صوروه كمن يحاول هدم سلطتهم . ولقد استخدموا كل وسيلة لملاشاة تأثيره على الشعب . ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل وأحبطت . فالجموع الذين شاهدوا أعمال رحمته وسمعوا تعاليمه النقية المقدسة عرفوا أن هذه لم تكن أقوال أو أعمال إنسان ناقض للسبت أو مجدف . وحتى الخدام الذين أرسلهم الفريسيون ليمسكوه كان لأقواله تأثير مدهش عليهم فلم يستطيعوا أن يلقوا عليه يدا . إن اليهود في يأسهم وتهورهم أصدروا أمرا أن كل من اعترف بالإيمان به يطرد من المجمع.

وهكذا إذ اجتمع الكهنة والرؤساء مع الشيوخ ليتشاوروا معا كان قرارهم وتصميمهم القاطع هو إسكات ذاك الذي عمل تلك الأعمال العجيبة التي أدهشت كل الناس . وهكذا زاد ارتباط الفريسيين بالصدوقيين وتقربهم منهم عما كان قبلا . فمع أنهم كانوا قبلا منقسمين على بعضهم فقد اتفقت كلمتهم الآن على مقاومة المسيح . لقد استطاع نيقوديموس ويوسف الرامي فيما مضى أن يمنعاهم من إدانة يسوع ، ولذلك لم يدعيا الآن إلى هذا [508] الاجتماع . وكان حاضرا في اجتماعهم هذا رجال ذوو نفوذ ممن كانوا قد آمنوا بيسوع ولكن نفوذهم كان ضئيلا وضعيفا أمام نفوذ الفريسيين الحاذقين الماكرين.

ومع ذلك فإن أعضاء المجمع لم تتفق كلمتهم . ولم يكن السنهدريم في ذلك الوقت مجمعا قانونيا ، والسبب في وجوده هو تساهل الرومان . وقد تساءل بعض أعضائه عن الحكمة في القضاء على المسيح بالموت وكانوا يخشون من حدوث ثورة وشغب في الشعب فيكون من نتائج ذلك أن يسحب الرومان من الكهنة امتيازات جديدة وأن يؤخذ منهم السلطان الذي لا يزال بين أيديهم . لقد أجمع رأي الصدوقيين على كراهة المسيح . ومع ذلك فقد آثروا الحذر في تحركاتهم لئلا يحرمهم الرومان من مركزهم السامي.

إنسان واحد يجب أن يموت

في هذا المجمع الذي اجتمع اعضاؤه لإعداد خطة لاهلاك المسيح ، كان حاضرا الشاهد الذي كان قد سمع تشدق نبوخذنصر ، والذي شاهد الوليمة الوثنية التي أقامها بيلشاصر ، والذي كان حاضرا عندما أعلن المسيح في الناصرة أنه مسيا . كان هذا الشاهد يؤثر على الرؤساء بالعمل الذي كانوا يعملونه . فلقد مرت أمام أذهانهم حوادث في حياة المسيح بوضوح مفزع لهم . ذكروا المشهد الذي كان في الهيكل عندما وقف يسوع في صباه وهو في الثانية عشرة من عمره أمام أولئك المعلمين المتجرين بالعلم والذين كانوا حجة في الناموس وجعل يسألهم أسئلة أذهلتهم . والمعجزة التي قد أجراها حديثا برهنت بما لا يحتمل الشك على أنه لابد أن يكون هو ابن الله ، كما برقت في أذهانهم أقوال أسفار العهد القديم في دلالتها الحقيقية وعلاقتها بالمسيح . إن الرؤساء في حيرتهم وضيقهم وارتباكهم سألوا قائلين: "ماذا نصنع؟" (يوحنا 11 : 47). فحدث انشقاق في المجمع . وتحت تأثير الروح القدس لم يستطع الكهنة ولا الرؤساء طرد الاقتناع بأنه إنما يحاربون الله.

وإذ كان المجمع في أقصى حالات حيرته وارتباكه وقف قيافا رئيس الكهنة ، وكان رجلا متكبرا وقاسيا ومتصلفا ومتعصبا . وقد كان بين أفراد أسرته [509] صدوقيون متكبرون حسودون متهورون امتلأت قلوبهم بالطموح والقسوة ، وكانوا يخفون ذلك كله تحت رداء البر الذاتي المصطنع . كان قيافا قد

درس النبوات ومع جهله بمعناها الحقيقي فقد تكلم بسلطان ويقين عظيمين قائلا: "أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أنا يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها!" (يوحنا 11 : 49، 50). قال رئيس الكهنة إنه حتى لو كان يسوع بريئا فلا بد من إزاحته من الطرق ، فهو مزعج لنا إذ أنه يجتذب الناس إلى شخصه ويقلل من سلطة الرؤساء . وهو فرد ، وخير لنا أن يموت من أن يضعف سلطة الرؤساء . فإذا ضاعت ثقة الشعب برؤسائهم فلابد من أن يتلاشى سلطان الأمة . ثم قال قيافا إنه بعد إجراء هذه المعجزة من المرجح أن يقوم اتباع يسوع بثورة وسيأتي الرومان ويغلقون أبواب الهيكل ويبطلون شرائعنا ويهلكوننا كأمة . فكم تساوي حياة هذا الجليلي بالنسبة إلى حياة الأمة . وإن كان وجوده عائقا لرفاهية بني إسرائيل ، ألسنا إذا بمقدمين خدمة لله باستئصاله من الوجود ؟ خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها.

إن قيافا إذ أعلن أنه ينبغي أن يموت إنسان واحد عن الشعب برهن على أن له بعض الإلمام بالنبوات وإن تكن معرفته محدودة جدا . ولكن يوحنا إذ يصف ذلك المشهد يأخذ النبوة مبينا معناها الواسع العميق ، فيقول ، "وليس عن الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا 11 : 52). بأية غباوة يعترف قيافا المتعجرف بمهمة المخلص !

إن هذا الحق الثمين جدا الذي نطق به قيافا استحال إلى أكذوبة . فالسياسة التي دافع عنها كانت تستند على مبدإ مستعار من الوثنية ، إذ أن إحساس الوثنيين الغامض بأنه ينبغي أن يموت إنسان واحد عن الجنس البشري قادهم إلى تقديم الذبائح البشرية . وهكذا اقترح قيافا أن تخلص الأمة المذنبة بالتضحية بيسوع ، ليس من خطاياهم بل وهم في خطاياهم لكي يداوموا على ارتكاب الخطية . وبهذه المحاجة ظن أنه يمكنه أن يسكت احتجاجات أولئك الذين قد يتجرأون على القول بأنه إلى الآن لم يوجد في يسوع ما يستوجب إماتته. [510]

في قبضة الشيطان

في هذا المجمع نُخس أعداء المسيح في ضمائرهم بشدة ، فلقد أثر الروح القدس في عقولهم ولكن الشيطان حاول السيطرة عليهم ، وجعلهم يفكرون في بالمضايقات والمتاعب التي قد تحملوها بسبب المسيح ، فما كان أقل تقديره لبرهم . لقد قدم برا أعظم كثيرا من برهم ، البر الذي ينبغي أن يحصل عليه كل من يرغبون في أن يكونوا أولادا لله . وإذ لم يكن يحفل بطقوسهم أو عوائدهم أو تقاليدهم شجع الخطاة على الإتيان إلى الله مباشرة كالآب الرحيم ليخبروه باحتياجاتهم . وقد فكروا أنه بهذا قد ألقى بالكهنوت جانبا . لقد رفض الاعتراف بعلوم مدارس اللاهوت اليهودية ، وعرض بشرور الكهنة وفضح رذائلهم وأضر بنفوذهم ضررا بليغا لا يمكن إصلاحه . كما أضر أيضًا بتأثير مبادئهم وتقاليدهم معلنا أنه مع كونها تلزم الناس بمراعاة الناموس الطقسي فقد جعلت شريعة الله باطلة . كل هذا ذكرهم به الشيطان.

وقد أخبرهم الشيطان أيضاً أنهم لكي يحتفظوا بسلطتهم ينبغي لهم أن يقضوا على يسوع بالموت ، فاتبعوا مشورته . إن حقيقة كونهم قد يفقدون سلطانهم الذي كانوا يتمتعون به ويمارسونه حينئذ كانت كافية ، كما ظنوا ، لأن تجعلهم يقومون بعمل حاسم . إن رجال السنهدريم باستثناء الجماعة القليلة التي لم تكن تجرؤ على المجاهرة بأفكارها ، قبلوا كلام قيافا على أنه كلام الله ، فسري عن المجلس وانتهى النزاع . ثم عقدوا العزم على قتل المسيح عند أول فرصة مواتية . وإذ رفض الكهنة قبول البرهان على ألوهية يسوع حبسوا أنفسهم هم والرؤساء في ظلمة كثيفة داجية . لقد خضعوا للشيطان خضوعا كاملا ليسوقهم إلى حافة

الهلاك الأبدي . ومع ذلك فقد أحكم الشيطان خداعهم إلى حد أنهم باتوا راضين عن أنفسهم . لقد اعتبروا أنفسهم رجالا محبين لوطنهم طالبين خلاص أمتهم.

"فاهربوا"

ومع ذلك فقد كان أعضاء مجلس السنهدريم يخشون مغبة اتخاذ أي إجراءات طائشة ضد يسوع لئلا تثور ثائرة الشعب ويرتد على رؤوسهم الظلم الذي فكروا في إيقاعه به . [511] ولهذا أجل المجلس تنفيذ حكمه الذي نطق به . عرف المخلص بمؤامرات الكهنة ضده وعلم أنهم كانوا يتوقون للقضاء عليه والتخلص منه وأنهم سينفذون غرضهم سريعا . ولكن السيد لم يرد الإسراع بإحداث الأزمة فانسحب من ذلك الإقليم ومعه تلاميذه . وهكذا نفذ يسوع المبدأ الذي علم به تلاميذه إذ قال: "ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى" (متى 10 : 23). لقد كان هناك حقل واسع فيه يباشر عمل خلاص النفوس . ولم يكن عبيده ليخاطروا بحياتهم إلا إذا كان ولاؤهم له يستلزم ذلك.

كان يسوع قد خدم العالم خدمة جهارية مدة ثلاث سنين ، ومثاله ، مثال الإحسان النزيه المنكر لذاته كان ماثلا أمامهم وحياته ، حياة الطهارة واحتمال الألم والتكريس كانت معروفة لدى الجميع . ومع ذلك ففترة الثلاث سنوات القصيرة كانت طويلة بقدر ما يستطيع العالم أن يحتمل وجود فاديه.

وطيلة حياته احتمل صنوفا من الاضطهادات والإهانات . فإذ طرده من بيت لحم ملك حسود ، ورفضه شعبه في الناصرة ، وحكم عليه بالموت ظلما "بدون علة في أورشليم" وجد يسوع هو وأتباعه الأمناء القليلون ملاذا مؤقتا في مدينة غريبة . فذاك الذي كان يتألم دائما لآلام الناس ، والذي شفى المرضى وأعاد البصر للعميان والسمع للصم وقوة النطق للبكم ، والذي أشبع الجياع وعزى المحزونين طُرِد من بين شعبه الذين قد تعب ليخلصهم ، ذاك الذي مشى على لجج المياه الثائرة وبكلمة أسكت البحر الغاضب وهدأ العواصف الثائرة ، والذي أخرج الشياطين التي في خروجها اعترفت بأنه ابن الله والذي أيقظ الموتى وأقامهم وأعاد لهم الحياة ، والذي أذهل الألوف بكلام الحكمة الخارج من شفتيه- لم يستطع الوصول إلى قلوب أولئك الذين قد أعماهم التعصب والكراهية ، وبكل صلابة وعناد رفضوا النور. [512]

الفصل الستون—قانون الملكوت الجديد

كان ميعاد عيد الفصح يقترب فسار يسوع مرة أخرى إلى أورشليم ، وكان قلبه عامرا بسلام اتحاده الكامل بارادة الله ، فبخطوات مشتاقة سريعة سار متقدما إلى الأمام حيث موضع الذبيحة . أما التلاميذ فقد ساورهم إحساس غامض فيه كثير من الشك والخوف ، "وكانوا في الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدمهم يسوع، وكانوا يتحيرون. وفيما هم يتبعون كانوا يخافون" (مرقس 10 : 32).

ومرة أخرى دعا المسيح تلاميذه الاثني عشر إليه ، وبثبات أعظم مما في أي وقت مضى كشف لهم عن تسليمه وآلامه فقال: "وأخذ الاثني عشر وقال لهم: ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وسيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان، لأنه يسلم إلى الأمم، ويستهزأ به، ويشتم ويتفل عليه، ويجلدونه، ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم" (لوقا 18 : 31 — 34).

ألم يعلنوا قبيل ذلك في كل مكان مجاهرين وقائلين: "اقترب ملكوت الله". أو لم يقل المسيح نفسه أن كثيرين سيتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت الله ؟ ألم يعد كل من ترك شيئا لأجله بمئة ضعف في هذا الدهر وبنصيب في ملكوته العتيد ؟ أو لم يقدم للاثني عشر وعدا خاصا بأنه سيكون لهم مركز رفيع في ملكوته- أن يجلسوا على كراسي ليدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر ؟ وها هو الآن يقول لهم إنه سيتم كل ما هو مكتوب عنه في الأنبياء . أفلم يتنبأ الأنبياء عن مجد ملك مسيا ؟ على ضوء هذه الأفكار بدا كلامه عن التسليم والاضطهاد والموت ملتبسا ومبهما وغامضا . لقد اعتقدوا أن الملكوت سيقام سريعا مهما كانت العقبات والصعوبات التي ستعترضه. [513]

التماس أُم

كان يوحنا بن زبدي أحد التلميذين الأولين اللذين قد تبعا المسيح . وكان هو وأخوه يعقوب من ضمن الفريق الأول الذي تركوا كل شيء في سبيل خدمته . وبكل سرور تركوا أوطانهم وأصدقاءهم ليكونوا معه . لقد ساروا وتحدثوا معه ، وكانوا معه في الخلوة في البيت وفي المجتمعات العامة . سكن مخاوفهم وأنقذهم من المخاطر وخفف آلامهم وعزاهم في أحزانهم . وبكل صبر ورقة علمهم حتى بدا كأن قلوبهم ارتبطت بقلبه ، وفي حرارة محبتهم تاقوا أن يكونوا أقرب المقربين إليه في ملكوته . وفي كل فرصة ممكنة كان يوحنا يأخذ مكانه إلى جوار المخلص . وكان يعقوب يتوق للتمتع بتلك الصلة وتلك الشركة نفسها مع يسوع.

وكانت أمهما تابعة للمسيح ، وبكل سخاء كانت تخدمه من أموالها . وإذ كانت امرأة محبة وطموحة من نحو ابنيها كانت تطمع في أكرم مكان لهما في ملكوته الجديد ، فشجعتهما على أن يطلبا ذلك منه.

وقد جاءت تلك الأم مع ابنيها إلى يسوع طالبة منه أن يمنحها الطلبة التي قد وضعا قلبيهما عليها.

فسألهما قائلاَ: "ماذا تريدان أن أفعل لكما؟" (مرقس 10 : 36). فقالت الأم: "قل أن يجلس ابناي هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك" (متى 20 : 21).

احتملهم يسوع بكل رقة ولطف إذ لم يوبخ ذينك التلميذين على أنانيتهما في محاولة تفضيل نفسيهما على إخوتهما . إنه يقرأ مكنونات قلبيهما ويعرف عمق تعلقهما به . إن محبتهما له ليست مجرد عاطفة بشرية ، وإن تكن قد تلوثت بالمجرى الأرضي الذي جرت فيه فإنها نبع يجري من نهر محبته الفادية . إنه لن ينتهر أو يوبخ بل يصل إلى الاعماق ويطهر . فأجاب يسوع وقال لهما: "لستما تعلمان ما تطلبان. أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟" (متى 20 : 22). لقد ذكرا كلامه العجيب عندما أشار إلى المحاكمة والآلام ، ومع ذلك فبكل ثقة يجيبان قائلين: "نستطيع" (متى 20 : 22). إنهما يحسبانه أعظم شرف أن يبرهنا على ولائهما له بأن يقاسما سيدهما في كل ما سيحل به.

فقال لهما: "أما كأسي فتشربانها، والصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان" (متى [514] 20 : 23). كان ينتظره صليب لا عرش وسيعلقون عن يمينه وعن يساره مذنبين . وكان على يعقوب ويوحنا أن يشاطرا سيدهما آلامه . وكان أكبر ذينك الأخوين (يعقوب) مزمعاً أن يموت قتلا بالسيف ، أما الآخر فكان سيقاسي آلام الكدح والعار والاضطهاد مدة أطول من جميعهم ثم استطرد يسوع فقال: "أما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعدّ لهم من أبي" (متى 20 : 23). في ملكوت الله لا يمنح المركز الرفيع بالمحسوبية أو المحاباة ولا ينال باستحقاق الإنسان ولا يعطى كمنحة تعسفية ولكنه نتيجة للخلق . إن الإكليل والعرش هما علامة لبلوغ الإنسان حالة خاصة وإتمامه بعض الشروط. وهما علامة على قهر الذات بقوة ربنا يسوع المسيح.

أعمدة وعروش

بعد ذلك بوقت طويل عندما تجاوب التلميذ مع المسيح عن طريق مشاركته في آلامه أعطى الرب ليوحنا شرف القربى والحظوة في ملكوته . فلقد قال المسيح: "من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه"، "من يغلب فسأجعله عموداً في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتب عليه اسم إلهي .. واسمي الجديد" (رؤيا 3 : 21 و 12). وكذلك يكتب بولس الرسول قائلا: "فإني أنا الآن أسكب سكيباً، ووقت انحلالي قد حضر. قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وضع لي إكليل البر، الذي يهبه لي في ذلك اليوم، الرب الديّان العادل" (1 تيموثاوس 4 : 6 — 8).

إن من يقف في أدنى قرب من المسيح هو ذاك الذي تشرب أكثر من غيره من روح محبته المضحية بذاتها- المحبة التي "لا تتفاخر، ولا تنفتح، ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتد، ولا تظن السوء" (1 كورنثوس 13 : 4 و 15) - تلك المحبة التي تحرك التلميذ كما قد حركت الرب نفسه لبذل كل شيء ، وإلى أن يعيش ويتعب ويضحي حتى الموت لأجل خلاص بني الإنسان . هذه الروح ظهرت في حياة بولس ، فهو الذي قال: "لي الحياة هي المسيح" لأن حياته أعلنت المسيح للناس . ثم قال: "والموت هو ربح" — ربح المسيح. لأن الموت نفسه سيعلن قوة نعمته ويجمع له نفوسا . كما قال أيضاً: "يتعظّم المسيح في جسدي، سواء كان بحياة أم بموت" (فيلبي 1 : 21 و 20). [515]

التسلط نقيض الخدمة

وعندما سمع العشرة بطلب يعقوب ويوحنا اغتاظوا . إن أرفع مركز في الملكوت كان هو بغية كل التلاميذ الذي كانوا يعلمون به وكان كل منهم يطلبه لنفسه . وقد غضبوا لأن هذين التلميذين حصلا على ما بدا أنه امتياز دونهم جميعا .

ومرة أخرى بدا وكأن المشاجرة عمن يكون الأعظم ستعود للظهور مجددا ، وإذ بيسوع يدعو إليه أولئك التلاميذ الغاضبين ليقول لهم: "أنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم يسودونهم، وأن عظماءهم يتسلّطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم" (مرقس 10 : 42، 43).

في ممالك العالم نجد أن المركز الرفيع معناه تعظيم الذات . وكان مفروضا أن الشعب موجود لأجل منفعة الطبقات الحاكمة . فالنفوذ والثروة والتهذيب كانت من ضمن الوسائل الكثيرة للسيطرة على عامة الناس لأجل منفعة الرؤساء . كان للطبقات الراقية الحق في أن تفكر وتقرر وتتمتع وتحكم ، أما الطبقات الدنيا فكان عليها أن تطيع وتخدم . وقد كان الدين كأي شيء آخر مسألة سلطة ، وكان على أفراد الشعب أن يعتقدوا ويعملوا بموجب ما يمليه عليهم سادتهم . أما حق عامة الشعب في أن يفكروا ويتصرفوا لأنفسهم كأناس عقلاء مسؤولين فكان أمرا غير معترف به.

ولكن المسيح كان يؤسس ملكوته على مبادئ تختلف عن ذلك . فقد دعا الناس لا ليتقلدوا السلطة بل ليخدموا . دعا الأقوياء ليحتملوا أضعاف الضعفاء . فالسلطان والمركز والمنصب والمواهب والتهذيب تجعل أصحابها تحت التزام أعظم بأن يخدموا بني جنسهم ويمكن أن يقال حتى لأبسط تلاميذ المسيح: "لأن جميع الأشياء هي من أجلكم" (2 كورنثوس 4 : 15).

وبموجب كلام المسيح القائل: "كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدم بل ليَخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (متى 20 : 28). هكذا كان هو بين تلاميذه كالحارس وحامل الأثقال بكل معاني الكلمة . لقد قاسمهم الفقر ، وأنكر نفسه لأجلهم ، وكان يسير في طليعتهم ليمهد ويعبد الأماكن الوعرة في الطريق . وبعد قليل كان عليه أن يكمل عمله على [516] الأرض ببذل حياته للموت . إن المبدأ الذي سار عليه المسيح هو حث وتحميس أعضاء الكنيسة التي هي جسده . إن أساس تدبير الخلاص هو المحبة . ففي ملكوت المسيح نرى أن أولئك الذين يتبعون المثال الذي قدمه ويتصرفون كرعاة للرعية هم الأعظم.

إن كلام بولس يكشف لنا عن العظمة والكرامة الحقيقيتين للحياة المسيحية ، إذ يقول: "فإني إذ كنت حراً من الجميع، استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين"، وأنا "أرضي الجميع في كل شيء، غير طالب ما يوافق نفسي، بل الكثيرين، لكي يخلصوا" (1 كورنثوس 9 : 19 ؛ 10 : 33).

ولكن فيما يختص بالضمير ينبغي أن تترك للنفس الحرية فلا تتقيد بشيء . فينبغي ألا يسيطر أي إنسان على عقل إنسان آخر أو يقرر له أو يفرض عليه القيام بأي واجب . إن الله يعطي لكل إنسان كامل الحرية ليفكر ويتبع اعتقاداته الخاصة. "كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله". لا حق لإنسان أن يدمج شخصيته في شخصية إنسان آخر . ففي كل أمر له مساس بالمبدأ "ليتقين كل واحد في عقله" (رومية 14 : 12، 5). وفي ملكوت المسيح لا ظلم يفرضه السادة الأشراف ، ولا إرغام في العادات أو التصرفات . إن ملائكة الله لا ينزلون إلى الأرض لكي يحكموا ويفرضوا على الناس الولاء . بل يأتون كرسل الرحمة ، وليتعاونوا مع الناس رفع شأن البشرية.

إن مبادئ المخلص ونفس الأقوال التي نطق بها في تعاليمه بجمالها الإلهي رسخت في أذهان التلاميذ المحبوبين . إن عبء شهادة يوحنا الذي اضطلع به إلى أخريات أيامه كان هكذا "لأن هذا هو الخبر الذي

سمعتموه من البدء: أن يحب بعضنا بعضاَ"، "بهذا قد عرفنا المحبة: أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أنا نضع نفوسنا لأجل الإخوة" (1 يوحنا 3 : 11 و 16).

كانت هذه هي الروح التي سادت في قلوب أعضاء الكنيسة الأولى . فبعدما انسكب الروح القدس "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له"، "إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً"، "وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم" (أعمال 4 : 32 و 34 و 33). [517]

الفصل الحادي والستون ـــ زكا العشار

إن يسوع إذ كان سائرا في طريقه إلى أورشليم "دخل واجتاز في أريحا" (لوقا 19 : 1). فعلى مسافة أميال قليلة من الأردن في أقصى الغرب من الوادي الذي اتسع وامتد فصار سهلا ، كانت تقع تلك المدينة التي تحيط بها الأشجار الاستوائية والمراعي الخصبة وأشجار نخيلها وبساتينها الغنية التي كانت ترويها ينابيع حية مما جعلها تتألق كما لو كانت حجر زمرد في وسط تلك التلال الجيرية والكهوف الموحشة الواقعة بين أورشليم ومدينة السهل.

قوافل كثيرة وهي سائرة في طريقها إلى العيد اجتازت في أريحا . وكان وصول تلك القوافل إلى هناك مناسبة مبهجة سعيدة ، أما الآن فقد أثار الشعب اهتمام عميق ، فلقد عرف الناس أن المعلم الجليلي الذي كان قد أعاد الحياة إلى لعازر منذ عهد قريب كان بين تلك الجموع . ومع أن كثيرين كانوا يتهامسون في كل مكان عن مؤامرات الكهنة ضده فقد كان الناس جميعهم مشتاقين إلى تقديم آيات ولائهم له.

كانت أريحا إحدى المدن المفرزة منذ القديم لسكنى الكهنة . وفي ذلك الحين كان يسكن فيها عدد كبير منهم . على أن المدينة كان فيها أيضاً فريق يختلف اختلافا بينا عن الكهنة ، فقد كانت تلك المدينة مركزا عظيما للتجارة ، وكان هناك أيضاً الموظفون والجنود الرومان ، وأناس غرباء من أماكن بعيدة كانوا يوجدون هناك ، بينما جمع الضرائب جعل منها موطنا لكثيرين من العشارين.

عشار محب للاستطلاع

إن زكا "رئيس العشارين" كان يهوديا ، وكان ممقوتا ومكروها من مواطنيه . وكان مركزه وثروته هما الأجر الذي كان يتقاضاه عن تلك الحرفة التي كان الناس يبغضونها [518]

ويترفعون عنها والتي كانت من مرادفات الظلم والاغتصاب . ومع ذلك فإن جامع الضرائب الثري هذا لم يكن ذلك الرجل الجافي كما كان يبدو عليه . فتحت مظهر المادية والعالمية والكبرياء كان قلب سريع التأثر بالعوامل الإلهية . وكان زكا قد سمع عن يسوع . إن ما أشيع عن ذاك الذي أبدى عطفا ومجاملة نحو تلك الطبقات المحرومة انتشر خبره في كل مكان ، فنشأ في قلب رئيس العشارين هذا جوع وشوق إلى أن يحيا حياة أفضل . وعلى مسافة أميال قليلة من أريحا كان يوحنا المعدان يكرز عند الأردن . وكان زكا قد سمع عن دعوته الناس إلى التوبة . وكان قد أخبر عن وصيته للعشارين القائلة: "لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم" (لوقا 3 : 13). ولكن مع أن زكا كان قد أغفل هذه الوصية ظاهرا فإن عقله تأثر بها . لقد عرف الكتب واقتنع بخطإه في طريقة مزاولته لعمله . والآن بعدما سمع الأقوال التي قيل له أن المعلم العظيم قد نطق بها أحس بأنه خاطئ في نظر الله . ومع ذلك فإن ما كان قد سمعه عن يسوع أضرم في قلبه نار الرجاء ، إذ بدا أنه من الممكن حتى له هو نفسه أن يتوب ويصلح حياته . أفلم يكن أحد تلاميذ هذا

المعلم الجديد الموثوق بهم عشارا ؟ ففي الحال بدأ زكا يعمل بموجب الاقتناع الذي سيطر عليه ، وعزم على أن يقدم تعويضا لكل من ظلمهم

وقد بدأ بالفعل في انتهاج ذلك الطريق بالتراجع عن مسلكه ، وإذا به يسمع خبرا انتشر في كل أريحا مؤداه أن يسوع داخل إلى المدينة . فعقد زكا العزم على أن يراه . كان قد بدأ يتحقق من شدة قسوة مرارة ثمار الخطية ، وعرف وعورة الطريق على من يحاول التنكب عن طريق الشر والخطإ . فكونه يساء فهم بواعثه ويقابل بالشك وعدم الثقة وهو يحاول إصلاح أخطائه- كان هذا أمرا شق عليه احتماله . لقد تاق رئيس العشارين إلى التطلع في وجه ذاك الذي جلب كلامه إلى قلبه العزاء.

ازدحمت الشوارع بجماهير الناس ولذلك لم يستطع زكا الذي كان قصير القامة التطلع إلى ما فوق رؤوس الشعب ولم يرد أحد أن يفسح له الطريق ، ولذلك ركض متقدما تلك الجماهير إلى حيث كانت توجد شجرة تين امتدت اغصانها إلى هنا وهناك وكانت أغصانها ممتدة فوق الطريق فتسلق ذلك العشار الغني تلك الشجرة حيث وجد لنفسه مكانا بين أغصانها . ومن هناك كان يمكنه أن يرى الموكب وهو يمر تحته . وها هو الموكب يقترب منه . وكان هو يتصفح الوجود بعينيه المشتاقتين لعله يرى السيد الذي كان يتوق لرؤيته. [519]

دعوة غير منتظرة

وفوق ضجة الكهنة والمعلمين وهتافات الترحيب من أفواه الجماهير ، فوق كل ذلك فإن تلك الرغبة الحارة التي لم يفصح عنها صاحبها بشفتيه وصلت إلى قلب يسوع. وفجأة تتوقف عن السير جماعة تحت تلك الشجرة تماما فيتوقف الذين في الطليعة والذين في الساقة . ثم ينظر إلى فوق شخص يبدو أن نظراته تخترق أعماق القلوب . حينئذ سمع الرجل الذي على الشجرة هذا القول: ”يا زكّا، أسرع وانزل، لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك“ (لوقا 19 : 5). فكاد يكذّب حواسه .

وهنا يفسح الجمع الطريق ، وإذا بزكا الذي كان قبلا يسير كالحالم يسير الآن متقدما الجموع إلى بيته . ولكن المعلمين كانوا ينظرون نظرات عابسة ويتمتمون في تذمر واحتقار قائلين: ”إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ“ (لوقا 19 : 7).

فاض قلب زكا شكرا وذهل وأبكم أمام محبة المسيح وتنازله إذ انحنى إليه هو العديم الاستحقاق. والآن فها محبته وولاؤه لصديقه الجديد الذي وجده يفتحان فمه ليتكلم فيعلن على الملإ اعترافه وتوبته ففي وسط ذلك الجمع ”وقف وكا وقال للرب: ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف“ (لوقا 19 : 8).

”فقال يسوع: اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم“ (لوقا 19 : 9).

عندما مضى الشاب الغنى تاركا يسوع بهت التلاميذ عندما قال معلمهم: ”ما أعشر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله!“ فصاح بعضهم يقولون لبعض: ”فمن يستطيع أن يخلص؟“ أما الآن فها هم يجدون ما يثبت صدق أقوال المسيح عندما صرح قائلا: ”غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله“ (مرقس 10 : 24 و 26 ؛ لوقا 18 : 27). لقد رأوا كيف استطاع رجل غني أن يدخل الملكوت بنعمة الله. [520]

توبة مغتصب مبتز

إن زكا قبلما شخص في وجه المسيح كان قد بدأ بالعمل الذي جعله يبرهن على صدق توبته . وقبلما اتهمه الناس اعترف بخطيته . وقد خضع لتبكيت الروح القدس وابتدأ بتنفيذ تعاليم الكتاب المعطاة لشعب الله قديما كما لنا نحن أيضاً . فلقد قال الرب منذ عهد بعيد: "إذا افتقر أخوك وقصرت يده عنك، فاعضده غريبا أو مستوطناً فيعيش معك لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة، بل اخش إلهك، فيعيش أخوك معك. فضّتك لا تعطيك بالربا، وطعامك لا تعط بالمرابحة"، "فلا يغبن أحدكم صاحبه، بل اخش إلهك" (لاويين 25 : 35 — 37 و 17). هذه الأقوال نطق بها المسيح نفسه عندما كان محتجبا في عمود السحاب . وقد ظهرت استجابة زكا الأولى لمحبة المسيح في إظهار الإشفاق والرفق نحو المساكين والمتألمين.

كانت بين العشارين محالفة يستطيعون بموجبها أن يظلموا الشعب وأن يساندوا بعضهم بعضا في أعمال التدليس . وفي أعمال الاغتصاب التي كانوا يرتكبونها إنما كانوا ينفذون أمرا كاد يكون ممارسا في كل الأقطار . ولكن حتى الكهنة والمعلمون الذين كانوا يحتقرون العشارين كانوا هم أنفسهم مجرمين في ابتزاز الأموال لإثراء أنفسهم بطرق ملتوية تحت ستار الخدمة المقدسة . ولكن ما أن خضع زكا لتأثير الروح القدس حتى طرح بعيدا عنه كل الأعمال التي تتنافى مع النزاهة.

إن التوبة التي لا ينشأ عنها إصلاح في التصرف لا يمكن أن تكون توبة حقيقية ، إذ أن بر المسيح ليس رداء يخفي تحته الخطية التي لم يعترف بها الإنسان ولا تركها ، بل هو مبدأ الحياة الذي يغير الأخلاق ويضبط السلوك والتصرف. إن القداسة هي الكمال أمام الله ، وهي تسليم القلب والحياة بالتمام لسكنى مبادئ السماء فيهما.

دليل لرجل الأعمال

إن المسيحي في حياته العملية عليه أن يبين للعالم الكيفية التي بها يمكن للرب أن يدير مشروعا تجاريا. إنه يبرهن في كل صفقة على أن الله هو معلمه . فعلى دفاتر الحسابات [521] ودفاتر اليومية وعلى الصكوك والإيصالات والكمبيالات- على هذه كلها تكتب هذه العبارة "قدس للرب". وأولئك الذين يعترفون بأنهم أتباع المسيح وفي نفس الوقت يتعاملون بكيفية آثمة شريرة إنما يقدمون شهادة زائفة عن صفات الله العادل الرحيم القدوس . ولكن كل نفس متجددة مهتدية إلى الله تعلن كما فعل زكا أن الله قد دخل إلى القلب بترك الأعمال الشريرة اتصفت بها تلك الحياة . وكرئيس العشارين ذاك ، يبرهن على إخلاصه بالتعويض عما أخذه من الناس ظلما ووشاية واختلاسا . إن الرب يقول: "إن رد الشرير الرهن وعوض عن المغتصب، وسلك في فرائض الحياة بلا عمل إثم .. كل خطيته التي أخطأ بها لا تذكر عليه .. فيحيا حياة" (حزقيال 33 : 15 و 16).

فإن كنا قد أضررنا بالآخرين في صفقة تجارية ظالمة ، وإذا كنا نعمد إلى الاحتيال في المعاملات التجارية أو إذا غششنا أي إنسان حتى ولو كان ذلك ضمن حدود القانون ، فعلينا أن نعترف بخطئنا ونعو ض عن ذلك بقدر ما نستطيع . ومن الصواب لنا أن نعوض ليس ما أخذناه فقط بل كل ما كان يمكن أن يتجمع لو استخدم استخداما صائبا وحكيما في خلال المدة التي كان فيها في حيازتنا.

قال المخلص لزكا :"اليوم حصل خلاص لهذا البيت" (لوقا 19 : 9). لم يكن زكا وحده هو الذي

حصل على البركة بل كل بيته معه . لقد ذهب المسيح إلى بيته ليعلمه دروس الصدق والاستقامة وليتعلم أهل بيته مبادئ الملكوت . كانوا قد حرموا من دخول المجامع بسبب احتقار المعلمين والعابدين لهم . أما الآن وقد نال ذلك البيت أعظم حظوة دون كل البيوت في أريحا فقد اجتمع أهله حول المعلم الإلهي ليسمعوا كلمة الحياة لأنفسهم.

إن الخلاص يأتي إلى النفس عندما تقبل المسيح كمخلصها الشخصي . إن زكا قد قبل يسوع ليس فقط كضيف عابر في بيته بل كمن سيسكن في هيكل النفس . لقد اتهمه الكتبة والفريسيون بأنه خاطئ وقد تذمروا على المسيح لأنه رضي بأن يكون ضيفه ، ولكن الرب اعتبره ابنا لإبراهيم لأن "الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم" (غلاطية 3 : 7). [522]

الفصل الثاني والستون ــــ وليمة في بيت سمعان

كان سمعان الذي من بيت عنيا محسوبا أحد تلاميذ يسوع ، وأحد الفريسيين القليلين الذين انضموا جهارا إلى تلاميذ المسيح. لقد اعترف بيسوع كمعلم وكان يرجو أن يكون هو مسيا ولكنه لم يقبله كمخلص . لم يحدث تغيير في أخلاقه أو في مبادئه.

كان سمعان قد شفي من البرص وكان هذا هو السبب في اجتذابه إلى يسوع. كان يرغب في أن يبرهن على شكره . فعندما زار المسيح بيت عنيا آخر مرة صنع سمعان عشاء للمخلص ولتلاميذه . وقد دعي إلى هذا العشاء كثيرون من اليهود . وكان يوجد في ذلك الحين كثير من الاهتياج في أورشليم . ذلك أن المسيح ورسالته استرعيا التفات الناس أكثر من كل ما قد حدث من قبل . كان بعض المدعوين إلى هذه الوليمة يراقبون حركات السيد عن كثب ، وكان بعضهم ينظرون إليه نظرات العدوان.

كان المخلص قد وصل إلى بيت عنيا قبل الفصح بستة أيام فقط ، وكما كانت عادته جاء ينشد الراحة والاستجمام في بيت لعازر ، فأذاع جموع الناس الذاهبين إلى المدينة أنباء تفيد أن يسوع هو في طريقه إلى أورشليم وبأنه سيستريح في بيت عنيا في يوم السبت. وقد سادت الحماسة على جماهير الشعب فتقاطر كثيرون منهم إلى بيت عنيا ، بعضهم حبا ليسوع أما الباقون فجاءوا مدفوعين بدافع الفضول ليروا ذاك الذي قد أقيم من بين الأموات.

كان كثيرون يتوقعون أن يسمعوا بيانا مدهشا عن المشاهد التي قد رآها بعد موته ، إلا أنهم اندهشوا لكونه لم يقل لهم شيئا ، إذ لم يكن لديه شيء من ذلك ليخبرهم به . إن كتاب الله الموحى به يعلن قائلا: "لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئاً .. محبّتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت" (جامعة 9 : 5، 6). ولكن لعازر كانت توجد في فمه شهادته عجيبة ليشهد بها عن عمل المسيح ، حيث أقم من الأموات لأجل هذه الغاية . فبكل يقين وقوة أعلن أن يسوع هو ابن الله. [523]

مؤتمر إجرامي

إن الأنباء التي نقلها إلى أورشليم أولئك الذين زاروا بيت عنيا زادت من اهتياج الشعب. لقد تاق الشعب إلى رؤية يسوع وسماع تعاليمه . وكان الجميع يتساءلون فيما إذا كان لعازر سيصحب يسوع إلى أورشليم ، وما إذا كان النبي سيتوج ملكا في الفصح أم لا . وقد رأى الكهنة والرؤساء أن سلطانهم على الشعب أخذ في التناقص والتضاؤل ، فزاد غضبهم وسخطهم على يسوع شدة ومرارة . كانوا على أحر من الجمر وهم يتعجلون الساعة التي فيها يزيحونه إلى الأبد من طريقهم . وإذ طال الوقت باتوا يخشون لئلا يعدل يسوع عن الذهاب إلى أورشليم . وقد ذكروا أنه مرارا كثيرة أحبط نواياهم الإجرامية ، فكانوا يوجسون خيفة أن يكون قد كشف الآن عن سوء نواياهم ضده فيظل بعيدا . لم يستطيعوا إخفاء جزعهم

فجعلوا يتساءلون فيما بينهم قائلين: "ماذا تظنّون؟ هل هو يأتي إلى العيد؟" (يوحنا 11 : 56).

دعي الكهنة والفريسيون للاجتماع معا. إنه منذ أقام المسيح لعازر من القبر انجذبت عواطف الشعب إليه بحيث غدا التفكير في أمر القبض عليه علنا أمرا خطيرا لا تؤمن عواقبه ، ولذلك قررت السلطات أن تقبض عليه في الخفاء ، وأن يحاكم في سرية وهدوء تامين . فكانوا يؤملون أنه متى عرف أنه قد تمت إدانة يسوع فالرأي العام المتردد المذبذب سينحاز إلى جانبهم.

وهكذا عولوا على إهلاك يسوع. ولكن طالما بقي لعازر حيا فالكهنة والرؤساء كانوا يعلمون أنهم غير مطمئنين ولا آمنين . إن مجرد وجود إنسان كان قد ظل ميتا في قبره أربعة أيام ثم أعيد إلى الحياة بكلمة من يسوع لابد أن يكون له رد فعل إن عاجلا أو آجلا . فلابد للشعب من أن يثأر لنفسه من الرؤساء إذا قضوا على حياة ذاك الذي أمكنه إجراء تلك العجيبة ، ولهذا قرر رجال السنهدريم أن يقتلوا لعازر أيضاً . إلى هذا الدرك الأسفل يحدر الحسد والتعصب أسراهما . لقد زادت كراهية رؤساء اليهود ليسوع وعدم إيمانهم به وتفاقما إلى حد أنهم فكروا في القضاء على حياة إنسان أقامته من قبره قوة إلهية غير محدودة. [524]

قنينة طيب

وإذ كانت هذه المؤامرات تُحاك في أورشليم دُعي يسوع وتلاميذه وأصدقاؤه إلى الوليمة في بيت سمعان. فاتكأ يسوع على المائدة مع سمعان الذي كان قد شفي من مرضه الكريه على هذا الجانب ، ومع لعازر الذي كان قد أقامه من الأموات عنى الجانب الآخر . وكانت مرثا تخدم الضيوف على المائدة ، أما مريم فكانت منصرفة بكل جوارحها للإصغاء إلى كل كلمة ينطق بها يسوع . ففي رحمته غفر لها يسوع خطاياها . لقد دعا أخاها الحبيب وأخرجه من قبره فامتلأ قلب مريم بالحمد والشكران . كانت قد سمعت يسوع يتحدث عن موته القريب ، ففي حبها وحزنها العميقين تاقت إلى إكرامه . فأقدمت على تضحية عظيمة إذ اشترت منا من "طيب ناردين خالص كثير الثمن" (يوحنا 12 : 3) لتعطر به جسده . ولكن كثيرين كانوا يعلنون آنئذ أنه مزمع أن يتوج ملكا . فاستحال حزنها إلى فرح وتاقت إلى أن تكون أول من يكرمون سيدها . فبعدما كسرت القارورة سكبت الطيب على رأس يسوع وقدميه . وإذ جثت عند قدميه باكية جعلت تغسلهما بدموعها وتمسح رجليه بشعرها المسترسل.

كانت تحاول أن تتحاشى نظرات الناس ، وكان يمكن ألا يلاحظها أحد ، ولكن شذا الطيب ملأ الغرفة فاشتم الضيوف أريجه الذي أذاع خبر ما عملته مريم بين كل المدعوين. فنظر يهوذا إلى هذا العمل بسخط عظيم . وبدلا من أن يتريث حتى يسمع ما سيقوله المسيح عن هذه المسألة بدا يهمس بتذمراته في آذان رفاقه القريبين منه ملقيا اللوم على المسيح لأنه سمح بذلك الإتلاف . وبكل دهاء أدلى ببعض الملاحظات التي من شأنها أن تثير النفور.

كان يهوذا أمينا للصندوق بين التلاميذ . ومن القليل الذي كان يوجد فيه كان يأخذ في السر بعض المال لنفسه ، مما جعل المبلغ المتبقى قليلا وتافها جدا . كان يتوق لأن يضع في الصندوق كل ما يستطيع أن يحصل عليه . وكثيرا ما كان يعطى ما في الصندوق للفقراء لإسعافهم ، فإذا اشتُرِيَ شيء مما كان يهوذا يراه غير لازم أو جوهري كان يقول: لماذا هذا الإتلاف ؟ ولماذا لم يوضع ثمنه في الصندوق الذي أتولى أمره ليعطى للفقراء ؟ أما الآن فإن ما عملته مريم كان على نقيض أنانيته بحيث خجل وجلله العار . وكما كانت [525] عادته دائما حاول أن يبدي سببا وجيها لتبرير اعتراضه على تقدمتها . فإذ التفت إلى التلاميذ

سألهم قائلا: "لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمئة دينار ويعط الفقراء؟ قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء، بل لأنه كان سارقاً، وكان الصندوق عنده، وكان يحمل ما يُلقى فيه" (يوحنا 12 : 5 و 6). لم يكن يهوذا يعطف على الفقراء . فلو بيع الطيب الذي قدمته مريم للسيد ووقع ثمنه في يد يهوذا فقل عليه السلام ، أما الفقراء فما كانوا ليحصلوا منه على قليل أو كثير.

كان يهوذا يقدر مقدرته الإدارية تقديرا عاليا جدا. فقد اعتبر نفسه أسمى بكثير من زملائه التلاميذ كرجل خبير بالشؤون المالية . كما جعلهم ينظرون إليه تلك النظرة ويقدرونه بذلك التقدير . فظفر بثقتهم وكان له فيهم تأثير قوي . وهكذا انخدعوا بعطفه الزائف على الفقراء . ثم جعلهم تلميحه الخبيث ينظرون إلى عمل مريم التعبدي التكريسي نظرة الشك . وتناقلت ألسنة الذين على المائدة كلمات التذمر قائلة: "لماذا هذا الإتلاف؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيّب بكثير ويعطى للفقراء" (متى 26 : 8 و 9).

كلمات عطف

سمعت مريم تلك الانتقادات فارتجف قلبها داخلها. وكانت تخشى لئلا توبخها أختها على تبذيرها ، بل حتى المعلم نفسه قد يعتبر عملها هذا مجازفة لا داعى لها . وبدون اعتذار أو استئذان كانت موشكة على التسلل والانسحاب ، وإذا بصوت سيدها يسمع قائلا: "اتركوها! لماذا تزعجونها؟" (مرقس 14 : 6). لقد رآها مرتبكة ومتضايقة . وعرف أنها بهذه الخدمة إنما كانت تعبر عن شكرها له إذ غفر لها خطاياها وأنالها راحة البال . وإذ رفع صوته فوق أصوات التذمر والانتقاد قال: "قد عملت بي عملاً حسناً! لأن الفقراء معكم في كل حين، ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً. وأما أنا فلست معكم في كل حين. عملت ما عندها. قد سبقت ودهنت بالطيّب جسدي للتكفين" (مرقس 14 : 6 — 8).

إن ذلك الطيب الذي كانت مريم تفكر في أنها ستسكبه على جثمان المخلص بعد موته سكبته على جسده وهو بعد حي . فلو أنها سكبته على جثمانه عند دفنه فإن رائحته الطيبة كانت تملأ القبر وحده ، أما الآن وهو حي فإن ذلك الطيب أبهج قلبه بيقين إيمانها ومحبتها. إن يوسف الرامي ونيقوديموس لم يقدما ليسوع عطية محبتهما في حياته فلقد [526] أحضرا الأطياب ومزجاها بدموع حزنهما المرير لتطييب جثمانه البارد الساكن. ثم إن النساء اللواتي أحضرن الأطياب إلى القبر في صبيحة يوم القيامة اكتشفن أنهن عبثاً أحضرن تلك العطور لأن السيد كان قد قام . ولكن مريم إذ سكبت محبتها مع أطيابها على رأس المخلص وقدميه وهو شاعر لتعبدها وتكريسها كانت تسكب ذلك الطيب على جسده للتكفين. وعندما نزل إلى أعماق ظلمة محنته العظيمة حمل معه ذكرى ذلك الصنيع عربونا للمحبة التي ستقدم له من مفدييه إلى الأبد.

كثيرون هم الذين يقدمون أثمن تقدماتهم للموتى. فإذ يقفون أمام ذلك الجثمان البارد الساكن ينطقون بكلام المحبة بكل طلاقة . يغدقون من كلمات الرقة والتقدير على ذاك الذي لا يرى ولا يسمع . ومن لو أنهم نطقوا بهذه الأقوال عندما كانت تلك النفس المتعبة في أشد الحاجة إليها ، عندما كانت الآذان تستطيع أن تسمع والقلب يحس ويشعر ، فكم كان شذا عطرها يفوح وينعش تلك النفس الخائرة!

إن مريم لم تكن تدرك إدراكا كاملا مدى دلالة عمل محبتها. ولم تستطع مجاوبة المشتكين عليها ، ولا أمكنها إيضاح سبب اختيارها لتلك المناسبة لدهن جسد يسوع بالطيب . لقد رسم لها الروح القدس خطة السير فأطاعت إلهامه . إن الوحى الإلهي لا يتنازل ليقدم تعليلا عن ذلك . إن ذلك الإلهام الإلهي الذي هو حضور غير منظور إنما يخاطب الذهن والنفس ويحرك القلب ليعمل . إنه هو الذي يزكي نفسه.

أخبر المسيح مريم بمعنى عملها وبذلك أعطاها أكثر مما أخذ منها. فقد قال: "فإنها إذ سكبت هذا الطيب على جسدي إنما فعلت ذلك لأجل تكفيني" (متى 26 : 12). فكما كسرت قارورة الطيب فامتلأ البيت بتلك الرائحة العطرة ، كذلك كان ينبغي أن يموت المسيح ويسحق جسده . ومن كان لابد له أن يقوم ثانية من قبره وكان لابد أن يفوح شذا عطر حياته ليملأ أرجاء الأرض . لقد أحبنا المسيح "وأسلم نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة" (أفسس 5 : 2).

مدح وتوبيخ

قال المسيح: "الحق أقول لكم: حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم، يخبر أيضاً [527] بما فعلته هذه تذكاراً لها" (متى 26 : 13). فإذ نظر المخلص إلى المستقبل تكلم بكل يقين عن إنجيله . كان سيكرز به في كل العالم . وأينما امتد عمل الإنجيل فاح عبير الطيب الذي قدمته مريم للسيد وتباركت نفوس كثيرة عن طريق ذلك العمل الارتجالي الذي قامت به مريم . لقد قامت ممالك وازدهرت وطار صيتها ثم سقطت ، ونسيت أسماء الملوك والفاتحين ، ولكن عمل هذه المرأة صار خالدا إذ سجل في السفر المقدس . وعلى انقضاء الدهر حين لا يكون زمان بعد ستذيع قارورة الطيب التي انكسرت قصة محبة الله الفائضة لجنسنا الساقط.

إن ما فعلته مريم كان على نقيض ما كان يهوذا مزمعا أن يفعله. كم كان درسا قاسيا ذاك الذي كان يمكن أن يلقنه المسيح لذلك الإنسان الذي ألقى بذار الانتقاد والتفكير الشرير في عقول التلاميذ ! وكم هو عادل ومستقيم أن المشتكي يصير مشكوا ! إن ذاك المطلع على كل خوالج قلوب الناس والذي يفهم كل عمل كان في إمكانه أن يكشف لضيوف تلك الوليمة أمورا مرعبة وقاتمة في اختبار يهوذا . إن ذلك التصنع الفارغ الذي بنى عليه ذلك الخائن كلامه كان يمكن كشف حقيقته ، لأنه بدلا من عطفه على الفقراء كان يسلبهم المال الذي خصص لإغاثتهم . كان يمكن أن يثور عليه غضب الحاضرين في ذلك البيت على ظلمه للأرملة واليتيم والأجير . ولكن لو أن المسيح فضح يهوذا وكشف للناس عن طواياه الخبيثة لاعتبر هذا سببا لتسليم يهوذا للسيد . وحتى مع اتهام يهوذا بالاختلاس والسرقة كان يمكنه أن يظفر بعطف الناس حتى التلاميذ أنفسهم . إن المسيح لم يوبخه وهكذا لم يعطه مجالا للغدر والخيانة.

ولكن النظرة التي ألقاها يسوع على يهوذا أقنعته بأن المخلص كان مطلعا على ريائه وعالما بما يجول في خاطره وعليما بصفاته الدنيئة الحقيرة. وإذ امتدح عمل مريم الذي استهجنوه بكل صرامة وبخ يهوذا . لم يسبق للمسيح أن وجه إليه توبيخا مباشرا قبل ذلك ، أما الآن فإن ذلك التوبيخ ألهب النار في قلبه فعول على أن يثأر لنفسه . فقام عن العشاء وتوجه توا إلى قصر رئيس الكهنة حيث وجد المجمع ملتئما فعرض عليهم أمر تسليم يسوع لأيديهم. [528]

القيم الحقيقية

فرح الكهنة فرحا عظيما. كان قد أعطي لقادة إسرائيل هؤلاء امتياز قبول المسيح كمخلصهم بلا فضة وبلا ثمن . ولكنهم رفضوا قبول العطية الثمينة المقدمة لهم بروح المحبة الرقيقة الآسرة . رفضوا قبول ذلك المخلص الذي هو أثمن من الذهب واشتروا سيدهم وربهم للموت بثلاثين من الفضة.

كان الطمع متمكنا من قلب يهوذا إلى حد أنه قضى على كل الصفات الجميلة والخلال النبيلة في قلبه. فقد تذمر على تلك المرأة التي قدمت طيبها ليسوع ، واضطرمت في قلبه نيران الحسد للمخلص الذي قدمت له هدية تليق بملوك الأرض ، كما أسلم سيده لقاء مبلغ أقل بكثير من ثمن قارورة الطيب.

لكن التلاميذ لم يكونوا كيهوذا ، فلقد أحبوا مخلصهم. لكنهم لم يقدروا صفاته السامية التقدير اللائق . فلو كانوا قد تحققوا ما قد صنعه لأجلهم لما كانوا يعتبرون أي عمل أو أية تضحية تقدم له على أنها تلفت أو ذهبت ضياعا . إن المجوس القادمين من المشرق والذين لم يكونوا يعرفون عن يسوع غير النزر اليسير قدروا المجد والكرامة اللائقين به تقديرا أصدق ، فقدموا للمخلص هداياهم الثمينة وخروا ساجدين أمامه وهو بعد طفل مضطجع في مذود.

إن المسيح يقدر أعمال العطف والمحبة النابعة من القلب. فمتى أسدى إليه أي إنسان معروفا فإنه يباركه برقة ولطف سماويين أنه لم يرفض قط أصغر زهرة قدمها إليه أي طفل صغير في محبة . لقد تقبل عطايا الأولاد وباركهم وكتب أسماءهم في سفر الحياة إن دهن مريم لجسد يسوع بالطيب ذكر في الكتاب للتمييز بينها وبين باقي المريمات . إن أعمال المحبة والتكريم ليسوع هي برهان الإيمان به كابن الله . والروح القدس يذكر أن البرهان على ولاء المرأة للمسيح هو خدمة المحبة "إن تكن قد .. غسّلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتّبعت كل عمل صالح" (1 تيموثاوس 5 : 10).

سر المسيح برغبة مريم الحارة في أن تعمل إرادة سيدها. لقد قبل منها ثروة المحبة النقية الطاهرة التي لم يفهمها تلاميذه ولا أرادوا أن يفهموها . إن رغبة مريم في تقديم هذه الخدمة لسيدها كانت بالنسبة للمسيح أغلى قيمة من كل الطيب الغالي الثمن في كل العالم [529] لأن تلك الرغبة عبرت عن تقديرها العظيم لفادي العالم. كانت محبة المسيح تحصرها ، وجمال صفات المسيح التي لا مثيل لها يملأ نفسها ، فكان الطيب رمزا لقلب تلك التي قدمته . كما أنه كان المظهر الخارجي لتلك المحبة التي اغتذت من ينابيع السماء حتى فاضت.

إن عمل مريم كان هو الدرس الذي احتاجه التلاميذ ليريهم أن تعبيرهم عن محبتهم للمسيح يبهج قلبه. لقد كان هو كل شيء لهم ، ولكنهم لم يكونوا مدركين أنهم بعد قليل سيحرمون من حضوره ، ولن تكون لهم فرصة فيها يقدمون له الشكر اللائق على محبته العظيمة لهم . إن وحشة المسيح وهو متغرب عن السماء وساكنيها وعائش كما يعيش الناس- كل هذا لم يدركه التلاميذ ولا قدروه كما كان ينبغي لهم أن يفعلوا . وكان من دواعي حزنه في أحيان كثيرة أن تلاميذه لم يقدموا له ما كان يجب أن يقدموه . كما عرف أنهم لو كانوا تحت تأثير ملائكة السماء الذين كانوا يرافقونه دائما لما كانوا هم أيضاً يعتبرون أية تقدمة ذات قيمة كافية للتعبير عن محبة قلوبهم له.

" لماذا هذا الإتلاف؟"

ولكن معرفتهم التي حصلوا عليها بعد ذلك أعطتهم إدراكا صحيحا للأشياء الكثيرة التي كان يمكنهم أن يفعلوها لأجل يسوع للتعبير عن محبتهم وشكر قلوبهم له وهو بعد معهم .فعندما رحل المسيح عنهم بالجسد أحسوا يقينا بأنهم يشبهون خرافا لا راعي لها ، وابتدأوا يرون كيف أنه كان في مقدورهم أن يبرهنوا له على تقديرهم إياه ، الأمر الذي كان كفيلا بأن يملأ قلبه بهجة وسرورا. فما عادوا الآن يوجهون اللوم إلى مريم بل إلى ذواتهم . آه ، يا ليتهم كانوا يستطيعون أن يسحبوا ألفاظ الملامة والتأنيب التي كانوا يوجهونها إليها واعتبارهم الفقراء أحق بتلك العطية من المسيح ! عندما أنزلوا جسد سيدهم المسحوق عن الصليب

أحسوا بالتبكيت الشديد والندامة يعتصران قلوبهم.

هذه الحاجة نفسها سائدة وملموسة في العالم اليوم. ولكن الذين يقدرون قيمة المسيح بالنسبة لأنفسهم قليلون . ولو أنهم قدروه التقدير الصائب لكانوا يعبرون عن محبتهم للسيد كما فعلت مريم وكانوا يسكبون الطيب على جسده بكل سخاء . وفي هذه الحالة ما كان أحد يقول عن سكب الطيب على جسد السيد ورأسه أنه إتلاف ، ولا تعتبر أية تقدمة أولى من [530] أن تقدم للمسيح ، وما كان أي عمل من أعمال إنكار الذات والتضحية بالنفس أعظم من أن يحتمله الإنسان لأجل المسيح.

إن القول الذي نطق به قائله في غضب حين قال: " لماذا هذا الإتلاف؟" أبان المسيح عظم التضحية التي كان قادما عليها- تقديمه نفسه كفارة عن العالم الهالك. لقد أراد الرب أن يكون سخيا ومحسنا نحو أسرته البشرية إلى أقصى حد حتى لا يقال فيما بعد أنه كان يمكنه أن يفعل أكثر من هذا . إن الله إذ قدم المسيح بذل كل السماء . لقد كانت تلك التضحية ، من وجهة النظر البشر ، إتلافا بالغا . وبالنسبة إلى الفكر البشري يعتبر تدبير الخلاص بجملته إتلافا لمراحم السماء ومواردها السخية . إنما إنكار الذات والتضحية بقلب كامل يلاقياننا في كل مكان . وحسنا يحملق ملائكة السماء بدهشة وذهول في الأسرة البشرية التي يأبى أفرادها الرفعة والغنى عن طريق المحبة غير المحدودة الظاهرة في المسيح . وحسنا يمكنهم أن يصرخوا قائلين: لماذا هذا الإتلاف العظيم.

ولكن الكفارة عن العالم الهالك كان ينبغي أن تكون كاملة ووفيرة وشاملة. إن ذبيحة المسيح كانت غنية وكافية جدا للوصول إلى كل نفس خلقها الله . فلم يمكن حصرها بحيث ، تزيد على عدد من يريدون قبول تلك الهبة الغنية (يسوع) . ليس كل الناس يخلصون ، ومع ذلك فإن تدبير الفداء ليس إتلافا لكونه لا يحقق كل ما أعده سخاؤه فينبغي أن يكون هنالك كفاية وزيادة.

ديون متروكة

تأثر سمعان صاحب الضيافة بالانتقادات التي نطق بها يهوذا بخصوص تقدمة مريم فاندهش من تصرف يسوع. لقد أهينت كبرياؤه الفريسية . وعرف أن كثيرين من ضيوفه كانوا يوجهون إلى المسيح نظرات الشك والسخرية . فقال سمعان في قلبه: "لو كان هذا نبياً، لعلم من هذه الإمرأة التي تلمسه وما هي! إنها خاطئة" (لوقا 7 : 39).

إن المسيح إذ شفى سمعان من البرص أنقذه من حياة موت متقطع ، أما الآن فها هو يشك فيما إذا كان المخلص نبيا. فلكون المسيح سمح لهذه المرأة بأن تدنو منه ، ولكونه لم يطردها شر طردة في سخط شديد كمن قد صارت خطاياها أعظم من أن تغفر ، ولكونه لم يبرهن على علمه بأنها قد سقطت- لأجل كل ذلك جرب سمعان أن يظن بأن المسيح ليس [531] نبيا. ثم تفكر في نفسه قائلا: إن يسوع لا يعرف شيئا عن هذه المرأة التي هي خليعة في مظهرها إلى هذا الحد ، وإلا ما كان يسمح لها بأن تلمسه.

ولكن الذي قاد سمعان إلى هذا الظن هو جهله بالله وبالمسيح. إنه لم يكن يعرف أن ابن الله ينبغي له أن يتصرف كما يريد الله بكل رأفة ورقة ورحمة . إن طريقة سمعان كانت ألا يعير المسيح خدمة مريم وتوبتها أي اهتمام ، إذ أن عملها في تقبيل قدمي السيد ودهنهما بالطيب كان مغيظا ومثيرا لقلبه القاسي . وقد فكر قائلا إنه لو كان المسيح نبيا لكان يكتشف الخطاة ويوبخهم.

وجواباً على هذا الفكر الذي لم يفصح عنه سمعان قال له يسوع: " يا سمعان، عندي شيء أقوله لك. كان لمداين مديونان. على الواحد خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما

جميعاً. فقل: أيهما يكون أكثر حباً له؟ فأجاب سمعان وقال: أظن الذي سامحه بالأكثر. فقال له: بالصواب حكمت" (لوقا 7 : 40 — 43).

وكما فعل ناثان مع داود كذلك فعل المسيح إذ أخفي كلامه تحت طي مثل. لقد ألقى على مضيفه مسؤولية الحكم على نفسه . إن سمعان كان قد قاد إلى الخطية هذه المرأة التي يحتقرها الآن . كان قد أوقع بها ظلما فادحا . كان سمعان والمرأة يمثلان المديونين المذكورين في المثل . لم يكن يسوع يرمي من وراء هذا إلى أن يعلمنا أن كلا من ذينك الشخصين ينبغي له أن يحس بدرجة مختلفة من المديونية أو الالتزام ، لأن كلا منهما كان مدينا بشكر عظيم لا قبل له بإيفائه . ولكن سمعان أحس أنه أبر من مريم ، أما يسوع فأراده أن يرى مقدار هول إثمه . أراد أن يبرهن له على أن خطيته أعظم من خطيتها بنسبة زيادة خمس مئة دينار على خمسين.

دوافع في متجددة

بدأ سمعان الآن يرى نفسه في نور جديد. رأى كيف اعتبرت مريم في نظر ذاك الذي هو أعظم من نبي . ورأى أن المسيح بعينيه الحادتين الكاشفتين للمستقبل قرأ ما يكنه له قلبها من آيات الحب والتكريس . فاستبد بقلبه خجل عظيم وتحقق أنه في حضرة شخص يفوقه في كل شيء.

استطرد المسيح فقال: " إني دخلت بيتك، وماء لأجل رجلي لم تعط. وأما هي [532] (مريم) فقد غسلت رجلي بالدموع (دموع التوبة المدفوعة بالمحبة) ومسحتهما بشعر رأسها. قبلة لم تقبلني، وأما هي (التي تحتقرها) فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلي" (لوقا 7 : 44، 45). ردد المسيح على مسمع سمعان الفرص التي كانت لديه لإظهار حبه لسيده وتقديره لما قد صنعه به . وقد أكد المخلص لتلاميذه بكل وضوح ، وإنما بكل رقة ولباقة ، أن قلبه يحزن عندما يهمل أولاده أن يقدموا له الشكر بالكلام وأعمال المحبة.

إن ذاك الذي هو فاحص القلوب عرف الدافع الذي دفع مريم إلى أن تتصرف هكذا ، كما عرف الروح التي ألهمت سمعان بأن يقول ما قال . قال له السيد: "أتنظر هذه المرأة؟" (التي تقول إنها خاطئة) "أقول لك: قد غفرت خطاياها الكثيرة، لأنها أحبّت كثيراً. والذي يغفر له قليل يحب قليلاً" (لوقا 7 : 44، 47).

إن فتور محبة سمعان وإهماله للمخلص برهنا على قلة تقديره للرحمة الممنوحة له .لقد ظن أنه أكرم يسوع بدعوته إياه إلى منزله. أما الآن فقد رأى نفسه على حقيقتها . ففي حين كان يظن أنه مطلع على أفكار قلب ضيفه كان ضيفه يقرأ أفكار قلبه . رأى كم كان حكم المسيح عليه صائبا وحقيقيا . لقد كانت ديانته عبارة عن رداء الفريسية ، فاحتقر رأفة يسوع ولم يقدره على أنه نائب عن الله وممثل له . ففي حين كانت مريم خاطئة مغفورة الإثم كان هو خاطئا غير مغفور الإثم . إن قانون العدل الصارم الذي قصد أن يدينها به دانه هو.

تأثر سمعان من رفق يسوع نحوه إذ لم يوبخه علنا أمام ضيوفه ، فلم يعامل بمثل ما أراد أن تعامل به مريم. وقد رأى أن يسوع لم يكن يريد أن يشهر بإثم مضيفه أمام الآخرين بل حاول بشرحه حقيقة المسألة له أن يقنع عقله ويخضع قلبه برأفته وإشفاقه .فلو شهر المسيح به في عبوسة لكان قلبه قد تقسى ورفض التوبة . ولكن إنذار المسيح إياه في أناة أقنعه بخطئه . وقد رأى الدين الباهظ الذي كان مدينا به لسيده ، فأذلت كبرياؤه فتاب ، وصار ذلك الفريسي المتكبر تلميذا وديعا ومضحيا بنفسه.

رجاء الخاطئ

كان الناس ينظرون إلى مريم على أنها خاطئة كبيرة ، أما المسيح فعرف الظروف التي قد شكلت حياتها. كان يمكنه أن يخمد كل شرارة رجاء في نفسها ، ولكنه لم يفعل، [533] فإنه هو الذي رفعها من حضيض اليأس والهلاك. لقد رأته ينتهر الشياطين التي تحكمت في قلبها وعقلها سبع مرات . وسمعت صرخاته القوية إلى الآب لأجلها . وعرفت كم كانت خطاياها كريهة في نور طهارته التي لا غبار عليها ، فانتصرت بقوته.

وحين بدا لعيون الناس أن حالتها ميؤوس منها رأى المسيح في مريم إمكانيات للصلاح والخير. رأى الجانب الأفضل من أخلاقها . إن تدبير الفداء منح البشرية إمكانية عظيمة ، وقد تحققت تلك الإمكانيات في حياة مريم . فبنعمته صارت شريكة الطبيعة الإلهية . فتلك التي سقطت فأمسى عقلها مأوى للشياطين أصبحت الآن قريبة جدا من المخلص في العشرة والخدمة . إنها مريم التي كانت تجلس عند قدميه وتتعلم منه ، وهي التي سكبت على رأسه الطيب الكثير الثمن وغسلت رجليه بدموعها . وقد وقفت مريم إلى جوار الصليب وتبعت سيدها إلى القبر ، وكانت أول من وصل إلى القبر بعد قيامته ، كما كانت أول من بشرن بقيامة المخلص.

إن يسوع يعرف ظروف كل نفس. قد تقول أنا خاطئ جدا ، وقد تكون كذلك ، ولكن على قدر ما تكون شريرا بقدر ما تحتاج إلى المخلص . إنه لا يطرد أبدا إنسانا باكيا منسحق القلب . إنه لا يخبر أي إنسان بكل ما يمكن أن يكشفه ، ولكنه يأمر كل نفس مرتعبة أن تتشجع . وهو يغفر مجانا لكل من يأتون إليه في طلب الغفران والرجوع إلى الحظيرة.

كان يمكن للمسيح أن يرسل ملائكة السماء ليسكبوا جامات غضبه على عالمنا الشرير هذا ويهلكوا كل من قد امتلأت قلوبهم بالعداوة لله ، وكان يمكنه أن يمحو هذه الوصمة السوداء من مسكونته. لكنه لا يفعل هذا . إنه اليوم واقف أمام مذبح البخور يقدم لله صلوات أولئك الذين يطلبون معونته.

إن تلك النفوس التي تلجأ إلى يسوع يرفعها فوق كل شكوى أو اتهام ومخاصمة الألسن. ولا يمكن لإنسان أو ملاك شرير أن يتهم هذه النفوس بالخيانة ، بل إن المسيح يوحدهم بطبيعته الإلهية البشرية . وهم يقفون إلى جوار حامل الخطايا العظيم في النور المنبعث من عرش الله: "من سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرّرر. من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل الحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا" (رومية 8 : 33، 34). [534]

الفصل الثالث والستون ـــ الملك الذي أوقف موكبا

“ ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادل ومنصور وديع، وراكب على حمار وعلى جحش ابت أتان” (زكريا 9 : 9).

قبل ميلاد المسيح بخمس مئة سنة تنبأ زكريا النبي عن مجيء الملك إلى شعب الله. وها هي ذي النبوة تتم الآن . فذاك الذي ظل أمدا طويلا يرفض أمجاد الملك نراه الآن يدخل إلى أورشليم كالوارث لعرش داود حسب الوعد.

ففي أول يوم من الاسبوع دخل المسيح دخوله الانتصاري إلى أورشليم. إن جماهير كثيرة ممن كانوا قد تجمعوا حوله ليشاهدوه في بيت عنيا صحبوه الآن وهم مشتاقون لمشاهدة استقباله . كان كثيرون من الشعب في طريقهم إلى المدينة لأجل ممارسة الفصح ، وهؤلاء انضموا إلى من كانوا يرافقون يسوع . وقد بدت الطبيعة كلها مبتهجة ومتهللة .كانت الأشجار مكتسية بالخضرة اليانعة ، كما امتلأ الجو بأريج الأزهار ، فانتعش الشعب بفرح جديد وحياة جديدة ، وامتلأت قلوبهم برجاء الملكوت الجديد مرة أخرى.

فإذ كان يسوع ينوي أن يدخل أورشليم راكبا أرسل اثنين من تلاميذه ليأتوه بأتان وجحش ابن أتان. إن المخلص عند ولادته كان يعتمد على كرم الغرباء . فالمذود الذي اضجع فيه كان مضجعا مستعارا . والآن ، مع أن له البهائم على الجبال الألوف نراه يعتمد على لطف إنسان غريب ليعطيه دابة يركبها وهو داخل إلى المدينة كملك . ولكننا نرى ألوهيته معلنة مرة أخرى حتى في التعليمات الدقيقة التي قدمها لتلميذيه للقيام بهذه المهمة . وقد أجيب الطلب القائل: “الرب محتاج إليهما” (متى 21 : 3) كما سبق هو فأنبأ . إن يسوع اختار لاستعماله الخاص جحشا لم يجلس عليه أحد من الناس . وقد كان فرح التلاميذ وحماسهم شديدين حتى لقد فرشوا ثيابهم على الجحش وأجلسوا سيدهم عليه . كان يسوع قبل ذلك يسافر سيرا على قدميه ، ولذلك بدت الدهشة على التلاميذ في بادئ الأمر في كيف اختار الآن أن يدخل المدينة راكبا . ولكن قلوبهم استنارت بأنوار الرجاء والفكر [535] المبهج في أنه سيدخل العاصمة ويعلن نفسه ملكا ويفرض سلطانه على الشعب كملك . وإذ كان التلميذان ذاهبين لإنجاز مهمتهما أبل غا انتظاراتهما المبهجة لأصدقاء يسوع ، فانتشرت الحماسة هنا وهناك ، وبذلك ارتفعت آمال الشعب وانتعش الرجاء في نفوسهم إلى أقصى حد.

موكب رائع

اتبع المسيح العادة الهودية التي كانت تراعى عند دخول الملوك ، فقد ركب دابة كما قد اعتاد ملوك إسرائيل أن يفعلوا . وكانت النبوة قد سبقت فأنبأت بأن مسيا ينبغي أن يدخل مملكته بهذه الكيفية . وما أن ركب يسوع على الجحش حتى ارتفعت هتافات الانتصار إلى عنان السماء وشقت أجواز الفضاء . وقد

حيته الجموع كمسيا ملكهم . قبل المسيح الآن الولاء الذي لم يسبق له أن سمح به ، كما قبل التلاميذ هذا كبرهان على أن انتظاراتهم المفرحة ستتحقق إذ يرونه جالسا على العرش . وقد كانت الجموع تعتقد أن ساعة تحررهم قد أذنت ، وحملهم الخيال على أجنحته فرأوا كأن جيوش الرومان قد طردت من أورشليم وكأن دولة إسرائيل قد عاد إليها استقلالها . كان الجميع متهللين وفي حالة اهتياج جعل الناس يتسابقون في إظهار ولائهم للسيد . لم يستطيعوا إبداء مظاهر الأبهة والجلال الخارجيين بل قدموا له سجودا من قلوبهم الفرحة . ومع أنهم لم يستطيعوا تقديم الهدايا الغالية الثمن له فقد فرشوا ثيابهم الخارجية في طريقه كبساط ، كما فرشوا أغصان الزيتون وسعوف النخل في الطريق . لم يكونوا يستطيعون أن يتقدموا ذلك الموكب الانتصاري بالأعلام الملكية ولكنهم مع ذلك قطعوا أغصان النخل التي هي رمز النصرة في عالم الطبيعة وجعلوا يلوحون بها عاليا مصحوبة بالهتافات والتسبيحات.

وفيما كانوا يتقدمون كان الموكب يكبر ويتزايد إذ أسرع لينضم إليهم كثيرون ممن سمعوا بمجيء يسوع . وكان كثيرون من المتفرجين ينضمون إلى ذلك الجمع بلا انقطاع وقد سألوا قائلين: من هذا ، وما معنى كل هذا الهرج والمرج ؟ كانوا كلهم قد سمعوا عن يسوع وكانوا ينتظرون أنه سيصعد إلى أورشليم ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه كان قبل ذلك قد أحبط كل المحاولات لإجلاسه على العرش ، ولذلك فقد اندهشوا [536] بشدة حين علموا أن ذلك الموكب هو موكبه ، وتساءلوا عن السبب الذي أحدث هذا التحول فيه بعدما أعلن أن ملكوته ليس من هذا العالم.

لكن هتافات الانتصار أسكتت تساؤلاتهم ، فردد الشعب المشتاق هذا الهتاف مرارا وتكرارا ، كما اشترك فيه الشعب من بعيد ومن قريب ، فرددت صداه الأودية والتلال المجاورة. وها جموع كثيرة قادمة من أورشليم تنضم إلى الموكب . فمن بين الجماهير المجتمعة لإحياء عيد الفصح خرجت آلاف الناس لاستقبال يسوع ، وكانوا يحيونه بالتلويح بسعوف النخل وترديد الأغاني المقدسة . وإذ حان موعد الخدمة المسائية في الهيكل جعل الكهنة ينفخون في الأبواق يدعون الناس إليها ، ولكن الذين استجابوا لذلك النداء كانوا أقلية ضئيلة . فقال الرؤساء بعضهم لبعض في رعب: "هوذا العالم قد ذهب وراءه!" (يوحنا 12 : 19).

يزف إلى الموت

لم يسبق ليسوع في حياته على الأرض أن سمح بمثل تلك المظاهرة ، فلقد سبق فرأى النتيجة بكل جلاء ، لأن ذلك كله سينتهي به إلى الصليب. ولكنه قصد أن يقدم نفسه علنا للناس كالفادي . كما أراد أن يوجه الانتباه إلى النتيجة المزمعة أن تتوج رسالته إلى العالم الساقط . فإذ كان الشعب مجتمعين في أورشليم لممارسة الفصح أفرز هو نفسه كالحمل المرموز إليه بعمل تطوعي ليكون قربانا وذبيحة ، فكان من اللازم لكنيسته في كل العصور المتعاقبة أن تجعل موته لأجل خطايا العالم موضوعا للتفكر والدرس العميق . وكل حقيقة متصلة به ينبغي إثباتها فوق كل الشكوك. كذلك من اللازم حينئذ أن تتجه أنظار كل الناس إليه ، وكل الحوادث السابقة لذبيحته العظيمة كان ينبغي أن توجه انتباه الجميع إلى الذبيح نفسه . فبعدما خرج الناس في تلك المظاهرة لمرافقته في دخوله إلى أورشليم اتجهت كل الأنظار إليه متتبعة سيره السريع إلى المشهد الختامي.

إن الحوادث المتصلة بهذا الدخول الانتصاري صار الحديث عنها على كل لسان وجعلت صورة يسوع ماثلة أمام كل الأذهان. فبعد صلبه ذكر كثيرون هذه الحوادث في علاقتها بمحاكمته وموته . وهذا

جعلهم يدرسون النبوات ويقتنعون بأن يسوع هو مسيا ، وفي كل البلدان كان سيزداد عدد المهتدين إلى الإيمان زيادة عظيمة. [537]

وفي هذا المشهد الانتصاري الوحيد في حياة المخلص على الأرض كلها كان يمكنه أن يظهر وتحف به ملائكة السماء وبوق الله يعلن عن مجيئه. ولكن مثل هذه المظاهرة تتنافى مع غرض رسالته وتتنافى مع القانون الذي عاش بموجبه مدى حياته . لقد ظل مخلصا وأمينا للنصيب المتواضع الذي رضي به . كان ينبغي له أن يحمل عبء البشرية حتى يبذل نفسه لأجل حياة العالم.

إن هذا اليوم الذي بدا للتلاميذ أنه غرة أيام حياتهم كان يمكن أن تكتنفه الغيوم القاتمة السوداء لو عرفوا أن مشهد الفرح هذا إن هو إلاّ مقدمة لآلام سيدهم وموته. فمع أنه كان قد أخبرهم مرارا وتكرارا بأنه لا بد له أن يقدم ذبيحة ، فإنهم في غمرة نصرة ذلك اليوم نسوا أقواله المحزنة ونظروا إلى الأمام إلى سني ملكه الزاهر على عرش داود.

"هوذا ملكك يأتي"

وقد انضم كثيرون من القادمين من أماكن كثيرة إلى ذلك الموكب فصار كبيرا جدا . وما عدا أناسا قليلين فقد اندمج الجميع في وحي الساعة وارتفعت الهتافات التي رددت صداها الجبال والأودية . لقد ارتفعت هتافات الانتصار بلا انقطاع قائلة: "أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب! أوصنا في الأعالي!" (متى 21 : 9).

لم يسبق للعالم أن شهد موكب انتصار كهذا . إنه لم يكن يشبه مواكب الفاتحين المشهورين . فلم تكن ترى صفوف الأسرى النائحين التعساء دليلا على شجاعة الملوك الفاتحين وبسالتهم . فلم يكن لمثل تلك المناظر وجود في موكب انتصار المسيح . ولكن كانت ترى حول المخلص تذكارات مجيدة لأعمال محبته للخطاة . كان هنالك الأسرى الذين حررهم من أسر الشيطان وسلطانه وهم يسبحون الله على نجاتهم . فالعميان الذين وهبهم البصر ساروا في مقدمة الموكب ، والخرس الذين كان قد فك عقدة ألسنتهم كانوا يهتفون بأعلى أصواتهم . والعرج الذين شفاهم كانوا يطفرون فرحا ، وبنشاط بالغ كانوا يقطعون أغصان النخل ويلوحون بها أمام المخلص . والأرامل والأيتام كانوا يمجدون اسم يسوع ويعظمونه لأجل أعمال رحمته لهم . والبرص الذين طهرهم فرشوا ثيابهم غير الملوثة في طريقه وهتفوا لملك المجد . وأولئك الذين أيقظهم بكلمة قدرته من ضجعة الموت كانوا [538] سائرين بين تلك الجموع . إن لعازر الذي كان جسده قد رأى فسادا في القبر والذي صار الآن فرحا بقوة الرجولة ونشاطها سار ممسكا بزمام الدابة التي ركبها المخلص.

رأى كثيرون من الفريسيين ذلك المشهد فالتهبت قلوبهم بحمى الحسد والخبث وحاولوا أن يصدوا تيار الشعور العام الطاغي . فبكل ما كانوا يملكون من فلول سلطانهم حاولوا إسكات الشعب ، ولكن كل محاولاتهم وتهديداتهم زادت الشعب حماسة فوق حماستهم ، وباتوا يخشون من أن قوة عدد تلك الجموع ستجعلهم قادرين على أن يقيموا يسوع ملكا . ولكنهم قاموا بمحاولة أخيرة فشقوا لأنفسهم طريقا بين تلك الجموع إلى أن وقفوا أمام المخلص وجها لوجه . ثم بادروه بألفاظ التوبيخ والتهديد قائلين: "يا معلّم، انتهر تلاميذك! ". وقد قالوا له إن مثل هذه المظاهرات الصاخبة لا يبيحها القانون والسلطات لا تسمح بها . ولكن جواب يسوع أبكمهم إذ قال لهم: "أقول لكم: إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ!" (لوقا 19 : 39، 40). إن الله هو الذي دبر قيام موكب الانتصار ذاك وقد سبق النبي فأنبأ به . لذلك ليس في مقدور إنسان عل

وجه الأرض أن يحبط قصد الله . فلو قصر الناس عن إتمام تدبيره تعالى لأعطيت الحجارة البكم صوتا يرتفع بالتهليل والتسبيح . وعندما تراجع الفريسيون الذين أبكمهم يسوع ردَّدت مئات الأصوات صدى نبوة زكريا القائلة: "ابتهجي جداً يا ابنه صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادل ومنصور وديع، وراكب على حمار و على جحش ابن أتان" (زكريا 9 : 9).

ابتهاج يبله الدمع

وعندما وصل الموكب إلى حافة التل وكانوا مزمعين أن ينحدروا إلى المدينة توقف يسوع فتوقف كل الجمع معه . لقد انبسطت أمامهم مدينة أورشليم بكل مجدها وقد سطعت عليها أشعة شمس الأصيل ، فاجتذب الهيكل أنظار الجميع . ففي فخامته المنقطعة النظير ارتفع الهيكل متشامخا فوق كل الأبنية كأنما يشير إلى السماء ، وكأنما هو يوجه أنظار الشعب إلى الإله الحي الحقيقي . لقد ظل الهيكل موضوع فخر الأمة اليهودية وعنوان مجدها أحقابا طويلة . بل حتى الرومان أنفسهم كانوا يفخرون لفخامته . إن أحد الملوك [539] الذين قد أقامهم الرومان اشترك مع اليهود في إعادة بناء الهيكل وزخرفته. وقد أغدق عليه إمبراطور روما هداياه . إن متانته وغناه وروعته جعلت منه إحدى عجائب الدنيا.

وإذ كانت أشعة الشمس المائلة إلى الغروب تصبغ السماوات بألوانها الذهبية فقد أضاء مجدها المطلق على جدران الهيكل المرمرية البيضاء فلمعت أعالي أعمدته المذهبة. ومن قمة الجبل الذي كان يسوع وتلاميذه واقفين عليه كان الهيكل يشبه بناء كبيرا في مثل بياض الثلج وأبراجه مموهة بالذهب . وعند مدخل الهيكل كانت توجد كرمة مصنوعة من الذهب والفضة لها أوراقها الخضراء وعناقيد كبيرة من العنب أبدعت في نقشها أنامل أمهر الفنانين . وكان هذا الرسم يمثل بني إسرائيل ككرمة نضيرة مثمرة . وقد امتزج الذهب بالفضة في ذوق نادر وصنعة شائقة والكرمة تلتف برشاقة حول الأعمدة البيضاء المتألقة وهي تتعلق بفروعها وبعطفاتها المتلألئة على زخارفها الذهبية . وانعكس عليها نور الشمس في غروبها فتألق ضياؤها ببهاء عظيم كأنما قد استعارته من السماء.

ها هو يسوع يتطلع إلى ذلك المشهد ، وهوذا ذلك الجمع الغفير من الناس يصمتون إذ أذهلهم ذلك المنظر المفاجئ ، منظر الجمال الأخاذ. وهنا تتجه كل الأنظار إلى المخلص وهم ينتظرون أن يروا على محياه لوائح الإعجاب الذي يحسون به . ولكنهم بدلا من ذلك يشاهدون سحابة حزن متجمعة على جبينه ، فأصابتهم الدهشة وخيبة الأمل وهم يرون عينيه وقد امتلأتا بالدموع وجسمه يتمايل ويهتز كشجرة أمام ريح عاتية ، وإذا بشفتيه المرتعشين تنفرجان عن عويل مؤلم ومرثاة حزينة ، وكأن كلامه ينبعث من قلب منسحق جريح . يا له من منظر تطلّع عليه الملائكة ! ها رئيسهم المحبوب ينتحب ويبكي الدموع !وأي منظر هذا الذي يراه ذلك الجمع الفرح الطروب الذين وهم يهتفون هتافات الانتصار ويلوحون بسعوف النخل كانوا يحفون به ليأتوا به إلى المدينة المجيدة ، والأمل يراودهم بأنه مزمع أن يصير ملكا ! كان يسوع قد بكى أمام قبر لعازر ، ولكن حزنه حينئذ كان حزنا إلهيا عبر به عن عطفه على بني الإنسان المتألمين المحزونين . أما هذا الحزن المفاجئ فكان يشبه نغمة عويل في نشيد انتصار عظيم . ففي وسط مشهد الفرح حيث كان الجميع يقدمون له ولاءهم كان ملك إسرائيل يبكي أمر البكاء . ليس بدموع الفرح الهادئة بل لدموع وأنينٍ لا يمكن أن يكبت . وقد شمل تلك الجموع حزن مفاجئ فكفوا عن الهتاف . وكثيرون بكوا مشاركةً له في حزنه الذي لم يكونوا يدركون كنهه. [540]

إن بكاء يسوع لم يكن بسبب توقعه الآلام التي ستحل به. كان أمامه مباشرة بستان جثسيماني حيث

سيكتنفه رعب تلك الليلة الداجية . وكذلك كان بالقرب من ذلك المكان باب الضأن الذي كانت تمر منه قطعان الغنم التي كانت تقدم كذبائح كفارية مدى قرون طويلة .وبعد قليل كان هذا الباب سيفتح له هو السيد العظيم المرموز إليه الذي كانت كل التقدمات تشير إلى ذبيحته لأجل خطايا العالم . وقريبا من ذلك المكان كانت جلجثة التي كان سيمثل فيها مشهد موته القريب . ولكن الفادي لم يبك أو يتأوه في مرارة نفسه وانسحاق روحه بسبب تلك المشاهد التي كانت تذكره بموته القاسي . إن حزنه لم يكن حزنا أنانيا . وتفكيره في موته لم يكن ليفزع تلك الروح النبيلة المضحية بنفسها . ولكن ما طعن قلب يسوع في الصميم كان هو منظر مدينة أورشليم- أورشليم التي قد رفضت ابن الله واحتقرت محبته كما رفضت الاقتناع بعجائبه وآياته العظيمة وكانت مزمعة أن تقضي عليه بالموت . رآها في حالتها الراهنة وقد لطخت يديها بجريمة رفض فاديها ، وما كان يمكن أن تصير إليه لو أنها قبلت ذاك الذي كان يستطيع دون سواه أن يبرئ جروحها . لقد أتى لكي يخلصها فكيف يطاوعه قلبه أن يمضي ويتركها تهلك ؟

مدينة محكوم عليها بالهلاك

كان بنو إسرائيل أمة محظوظة متميزة عن غيرها. وهيكلهم “جميل الإرتفاع، فرح كل الأرض” (مزمور 48 : 2). وجعله الله مسكنا له ، وكانت فيه طوال ألف عام ويزيد آثار تشهد كلها لرعاية المسيح وحراسته ورقته وحبه . كما يحمل الأب ابنه الوحيد هكذا حمل المسيح شعب إسرائيل . وفي ذلك الهيكل نطق الأنبياء بإنذاراتهم الخطيرة . وفي الهيكل كان الكهنة يلوحون بالمباخر فكان البخور يصعد إلى الله مصحوبا بصلوات العابدين . وفي الهيكل كانت دماء الذبائح تجري كالأنهار وكانت ترمز إلى دماء المسيح . وهناك أظهر الرب مجده من فوق الغطاء (كرسي الرحمة). وهناك كان الكهنة يخدمون ، وكانت فخامة الرموز والمحافل المقدسة تسير على قدم وساق مدى أجيال طويلة . ولكن هذا كله كان لا بد أن يبطل.

رفع يسوع يده- تلك اليد التي طالما باركت المرضى والمتألمين- وإذ أشار بها إلى [541] المدينة المحكوم عليها بالهلاك صاح بصوت تخالجه نغمة الحزن العظيم قائلا: “إنك لو علمت أنت أيضاً، حتى في يومك هذا، ما هو لسلامك!” (لوقا 19 : 42). وهنا توقف المخلص عن الكلام ، ولم يقل شيئا عما كان يمكن أن تصير إليه حالة أورشليم لو قبلت المعونة التي كان الله يتوق لأن يمنحها إياها- هبة ابنه الحبيب . فلو علمت أورشليم ما كان لها امتياز معرفته وقبلت وقدرت النور الذي أرسلته إليها السماء لأمكنها أن تبدو في مجد نجاحها وكمال عظمتها كملكة على كل الممالك ، حرة في ملء قوة السلطان المعطى لها من الله . وما كان يرى في أبوابها حراس مسلحون ولا أعلام رومانية تخفق فوق أسوارها . وقد ارتسم في ذهن ابن الله المصير المبارك المجيد الذى كان يمكن أن تتبارك به أورشليم لو أنها قبلت فاديها . وقد رأى أنه كان يمكن لها أن تبرأ من دائها العضال وتتحرر من عبوديتها وتتثبت أركانها كقصبة العالم ومجد الأرض كلها . ومن فوق أسوارها كان يمكن أن تطير حمامة السلام إلى كل الأمم ، وكان يمكنها أن تكون إكليل مجد للعالم كله.

ولكن الصورة المنيرة الجميلة لما كان يمكن أن تصير إليه حالة أورشليم وتختفي بعيدا عن ذهن المخلص ونظره . إنه يعلم علم اليقين سوء حالها الآن وهي رازحة تحت نير الرومان وواقعة تحت طائلة سخط الله ومحكوم عليها بالدينونة الرهيبة . وها هو يستطرد في مرثاته فيقول: “ولكن الآن أخفي عن عينيك. فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة، ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً على حجر، لأنك لم تعرفي زمان افتقادك” (لوقا 19 : 42 — 44).

أمة ضالة

لقد أتى المسيح لكي يخلص أورشليم مع بنيها. ولكن الكبرياء الفريسية والرياء والحسد والخبث حالت بينه وبين إنجاز عمله وتحقيق غرضه . وقد عرف يسوع القصاص الرهيب الذي ستفتقد به تلك المدينة المحكوم عليها بالهلاك . رأى أورشليم محاطة بجيوش ورأى سكانها يقاسون أهوال الحصار والجوع والموت . ورأى الأمهات يأكلن أولادهن بعد موتهم . ورأى الآباء والأولاد يتخاطفون آخر كسرة خبز من بعضهم البعض. وقد قضت وخزات الجوع وآلامه على المحبة الطبيعية . ورأى عناد اليهود [542] وصلابة قلوبهم كما ثبت وتبرهن من رفضهم لخلاص الله سيجعلهم يرفضون الاستسلام للجيوش الغازية . ورأى جلجثة التي كان هو سيرفع على صليب في ساحتها وإذا هي قد نصبت فيها صلبان كثيرة جدا كما لو كانت غابة كثيفة . ورأى سكان المدينة يقاسون الأهوال على آلات التعذيب أو الصلبان . ورأى القصور الشاهقة الجميلة وقد هدمت وصارت خرابا والهيكل وقد صار خرابا يبابا بحيث لم يبق من أحجاره الضخمة حجر على حجر . أما المدينة فقد فلحت كحقل- ولهذا حق للمخلص أن يبكي بحرقة وألم وعذاب وهو يرى ذلك المشهد الرهيب.

لقد كانت أورشليم موضع رعايته وعطفه. فكما ينوح الأب المحب على ابنه العاصي كذلك بكى يسوع على تلك المدينة المحبوبة . وكأنما هو يقول: كيف أسلمك للهلاك ؟ هل أتركك تملئين مكيال إثمك ؟ إن نفسا واحدة هي غالية القيمة جدا بحيث أن العوالم بكل ما فيها لا تساوي شيئا بالنسبة إليها . ولكننا هنا نرى أمة كاملة موشكة على الهلاك . فعندما تختفي شمس ذلك اليوم وراء الأفق سيكون يوم النعمة المقدم لأورشليم قد انقضى . عندما وقف ذاك الموكب على منحدر جبل الزيتون لم يكن وقت التوبة المقدم لأورشليم قد فات بعد . والآن ملاك الرحمة قد بسط جناحيه لينزل من أمام عرش الرحمة الذهبي ليفسح الطريق للعدل والدينونة القادمة سريعاً . ولكن قلب المسيح الكبير العامر بالمحبة كان لا يزال يتوسل لأجل أورشليم التي قد احتقرت مراحمه واستهانت بإنذاراته وكانت مزمعة أن تلوث يديها بدمه الكريم . فلو تابت أورشليم حينئذ ، إذ كانت الفرصة لم تزل سانحة للتوبة وإذ كانت آخر أشعة الشمس لا تزال تتلكأ على الهيكل والصروح والأبراج ، أفلم يكن هنالك ملاك طاهر يقود تلك المدينة وسكانها الى محبة المخلص ويبعد عنها جامات الدينونة والهلاك ؟ تلك المدينة الجميلة النجسة التي قد رجمت الأنبياء ورفضت ابن الله وبقساوة قلبها قيدت نفسها بقيود الألم والعبودية- كان يوم الرحمة المقدم لها موشكا على الانقضاء ! [543]

سلوا إبراهيم

ومع ذلك فروح الله خاطب أورشليم مرة أخرى. فقبل انتهاء اليوم تأتي شهادة أخرى للمسيح . فها صوت الشهود يرتفع إجابة لصوت النبي في القديم . فلو سمعت أورشليم النداء وقبلت المخلص الداخل من أبوابها لأمكنها أن تخلص.

وقد وصلت الأنباء إلى الرؤساء في أورشليم تفيد بأن يسوع يقترب من المدينة وحوله حشود كبيرة من الشعب. غير أنهم لا يرحبون بابن الله . ففي خوف يخرجون لمقابلته على أمل أن يصرفوا ذلك الجمع . وإذ يبدأ الموكب بالنزول من على جبل الزيتون يفاجأ بظهور أولئك الرؤساء الذين يسألون عن سبب تلك الهتافات المدوية . وإذ يسألون قائلين: "من هذا؟" يجيب التلاميذ عن هذا السؤال مسوقين بروح الإلهام ،

وبكل طلاقة يرددون النبوات الخاصة بالمسيح:

إن آدم يخبركم ، فهو يقول لكم إنه نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية -

سلوا إبراهيم فهو يجيبكم إنه" ملكي صادِقُ ، ملك شَالِيم" أي ملك السلام (تكوين. (١٨ :١٤

ويعقوب يقول لكم إنه شيلون من سبط يهوذا (تكوين ٤٩ : ١١ . (

" وإشعياء يخبركم بأنه عمانوئيل" ويدعوه " عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياَ، رئيس السلام) " إشعياء 7: 14 ؛ 9: 6. (

وإرميا يقول لكم إنه غصن داود " الرب برّنا" (إرميا 23: 6). ودانيال يخبركم بأنه المسيح.

وهوشع يجيبكم قائلاً إنه " الرب إله الجنود يهوه اسمه" (هوشع 12: 5).

ويوحنا المعمدان يقول لكم إنه "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!" (يوحنا 1 : 29). [544]

والإله العظيم قد أعلن من فوق عرشه قائلاً: "هذا هو انبي الحبيب" (متى 3 : 17). ونحن تلاميذه نعلن قائلين: هذا هو يسوع ، مسيا رئيس الحياة وفادي العالم

بل إن رئيس قوات الظلمة يعترف به قائلا: "أنا أعرفك من أنت: قدوس الله!" (مرقس 1 : 24). [545]

الفصل الرابع والستون—شعب محكوم عليه بالهلاك

إن دخول المسيح الانتصاري إلى أورشليم كان رمزا ضئيلا لمجيئه في سحب السماء بقوة ومجد كثير في وسط هتافات انتصار الملائكة وفرح القديسين . حينئذ سيتم ما قاله المسيح للكهنة والفريسيين: "إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب!" (متى 23 : 39). لقد رأى زكريا في رؤياه النبوية ذلك اليوم ، يوم النصرة النهائية ، كما رأى أيضاً هلاك أولئك الذين رفضوا المسيح في مجيئه الأول: "ينظرون إليّ، الذي طعنوه، وينوحون عليه كنائح على وحيد له، ويكونون في مرارة عليه كمن هو في مرارة على بكره" (زكريا 12 : 10). لقد سبق المسيح فرأى هذا المنظر عندما رأى المدينة وبكى عليها . ففي خراب أورشليم الزمني رأى الخراب النهائي لذلك الشعب الذي كان مجرما في دم ابن الله.

لقد رأى التلاميذ كراهية اليهود للمسيح ولكنهم لم يكونوا يرون إلى أي مدى سيمضي اليهود في عدوانهم . ولم يفهموا بعد حالة إسرائيل الحقيقية ولا أدركوا هول العقاب المزمع أن يحل بأورشليم . وهذا ما كشفه لهم المسيح في درس محسوس له مغزاه.

إن آخر دعوة قدمت لأورشليم كانت عديمة الجدوى. كان الكهنة والرؤساء قد سمعوا صوت الماضي النبوي من أفواه الجموع جوابا عن سؤالهم القائل "من هذا؟" ولكنهم لم يقبلوه على أنه صوت الوحي . ففي غضب وذهول حاولوا إسكات الشعب . كان ضباط رومان بين ذلك الجمع وقد وشى بالمسيح أعداؤه لأولئك الرومان كمن يتزعم ثورة وعصياناً ، وصوروه على أنه مزمع أن يستولى على الهيكل ويقيم نفسه ملكا في أورشليم.

لكن صوت يسوع الهادئ أسكت ضجيج الشعب لمدى لحظة عندما أعلن مرة أخرى أنه لم يأت ليقيم ملكوتا زمنيا أو أرضيا . فبعد قليل سيصعد إلى أبيه ولن يراه المشتكون عليه فيما بعد حتى يأتي ثانية في مجده . وحينئذ سيعترفون به ولكن يوم خلاصهم سيكون قد انقضى . نطق يسوع بهذا الكلام بحزن وبسلطان فريد . وقد أبكم الضباط الرومان [546] وأخضعوا. ومع أنهم كانوا غرباء عن التأثيرات الإلهية فقد تأثرت قلوبهم كما لم يسبق لها أن تأثرت . لقد رأوا في وجه يسوع الهادئ الوقور المحبة والإحساس والعظمة الهادئة فثار في قلوبهم عطف لم يدركوا كنهه . وبدلا من أن يقبضوا على يسوع كانوا أشد ميلا لتقديم فروض الولاء له . وإذ التفتوا إلى الكتبة والرؤساء اتهموهم بإحداث الشغب . فإذ حل بأولئك الرؤساء الغم والهزيمة عادوا إلى الشعب بشكواهم وجعلوا ينازعون بعضهم بعضا بغضب.

الشجرة العديمة الثمر

وفي تلك الأثناء مر يسوع في وسطهم داخلا إلى الهيكل دون أن يلاحظوه وكان كل شيء هادئا هناك لأن المشهد الذي حدث على جبل الزيتون اجتذب الشعب . وقد بقي يسوع في الهيكل وقتا قصيرا وكان ينظر إليه نظرات حزينة . وحينئذ انسحب ومعه تلاميذه وانطلقوا إلى بيت عنيا . وعندما طلبه الشعب ليقيموه ملكا لم يجدوه.

قضى يسوع الليل كله في الصلاة ، وفي الصباح عاد مرة أخرى إلى الهيكل . وفي طريقه مر على بستان تين . وقد جاع "فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق، وجاء لعلّه يجد فيها شيئاً. فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً، لأنه لم يكن وقت التين" (مرقس 11 : 13).

لم يكن ذلك الوقت وقت التين الناضج إلاّ في بعض المواقع . وفي المرتفعات التي حول أورشليم يمكن أن يقال بحق "لم يكن وقت التين" ولكن كانت توجد في البستان الذي أتى إليه يسوع شجرة بدا عليها أنها متقدمة على كل الأشجار . كانت مكتسية بالورق . ومن الطبيعي في شجرة التين أن الثمار تظهر قبل ظهور الأوراق . ولذلك فإذ كانت هذه الشجرة مكتسية بالورق كان ذلك بشيرا بوجود الثمار الناضجة . ولكن مظهرها كان خادعا . فإذ بحث السيد بين أغصانها من أسفلها إلى أعلاها: "لم يجد شيئاً إلاّ ورقاً" فلم يكن هناك غير المظهر الخادع والادعاء الكاذب.

وقد لعنها المسيح لعنة يبستها إذ قال: "لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد!" (مرقس 11 : 14). وفي صبيحة اليوم التالي إذ كان المخلص وتلاميذه سائرين مرة أخرى في [547] طريقهم إلى المدينة اجتذبت أنظارهم الأغصان المضروبة والأوراق اليابسة . فقال بطرس: "يا سيدي، انظر! التينة التي لعنتها قد يبست!" (مرقس 11 : 21).

عمل غريب

إن عمل المسيح حين لعن تلك التينة أدهش التلاميذ . وقد بدا لهم أن ذلك التصرف كان مخالفا لمألوف طرقه وأعماله . لقد سمعوه يعلن مرارا أنه لم يأت ليدين العالم بل ليخلص به العالم . وقد تذكروا قوله إن "ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلّص" (لوقا 9 : 56). . وكانت معجزاته العجيبة كلها للإبراء والشفاء ولم تكن قط للإهلاك ، كما عرفه التلاميذ على أنه الشافي المحيي . ولكن هذا العمل كان فريدا . فجعلوا يتساءلون قائلين: ما هو غرضه من هذا ؟

إن الله: "يسر بالرأفة"، "حي أنا، يقول السيد الرب، إني لا أسر بموت الشرير" (ميخا 7 : 18 ؛ حزقيال 33 : 11). إن عمل الهلاك وإعلان الله الدينونة هو في نظره "فعله الغريب" (إشعياء 28 : 21). ولكنه في رحمته ومحبته يرفع الستار عن المستقبل ويكشف للناس عن نتائج حياة الخطية.

لا شيء إلا الورق

إن لعن يسوع لشجرة التين كان مثلا ممثلا على مسرح الحقيقة . فتلك الشجرة العقيمة التي كانت تتباهى بأوراقها الخضراء الخادعة أمام المسيح نفسه كانت رمزا للأمة اليهودية . وكان المخلص يرغب في أن يوضح لتلاميذه سبب ويقينية هلاك إسرائيلوحقيقة كون ذلك أمراً مؤكدا ومحتوما . فلأجل هذا

الغرض أضفى على الشجرة صفات أدبية وجعل منها مفسرا وشارحا للحق الإلهي . لقد كان اليهود ممتازين على كل الأمم الأخرى وكانوا يعترفون بولائهم لله . وكان الله قد أغدق عليهم إحسانات خاصة ، وكانوا يدعون أنهم أبرار دون كل الأمم الأخرى . ولكن حبهم للعالم وطمعهم في الربح أفسد قلوبهم وحياتهم . كانوا يفخرون بمعرفتهم ولكنهم كانوا يجهلون مطاليب الله وكانوا مشحونين رياء . فكالشجرة العقيمة ارتفعت أغصان ادعاءاتهم عالية وكانت ناضرة في [548] مظهرها وشهية للنظر ، ولكن: "لم يكن عليهم شيء إلا ورق". إن الديانة اليهودية بهيكلها الفخم ومذابحها المقدسة وكهنتها بعمائمهم الطاهرة وطقوسها المؤثرة كانت في الواقع جميلة في مظهرها الخارجي ولكن كانت تعوزهم المحبة والوداعة والإحسان.

كانت كل الأشجار المغروسة في بستان التين بلا ثمر ، ولكن تلك الأشجار الجرداء لم تكن توحي بأي انتظارات ولم يشعر العابرون بالخيبة حين لم يجدوا فيها ثمرا . وقد كانت هذه الأشجار تمثل الأمم . كانوا خالين من التقوى كاليهود سواء بسواء ، ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يخدمون الله . لم يكونوا يتباهون مدعين في أنفسهم التقوى والقداسة . كانوا عميانا فلم يروا أعمال الله ولا طرقه . فبالنسبة إليهم لم يكن قد جاء وقت التين . كانوا لا يزالون ينتظرون اليوم الذي يأتيهم بالنور والرجاء . أما اليهود الذين كانوا قد تمتعوا ببركات أعظم أغدقها عليهم الله فكانوا مسؤولين عن سوء استخدامهم لتلك الهبات والامتيازات التي كانوا يتباهون بها زادت من هول آثامهم.

لقد أقبل يسوع على شجرة التين وهو جائع لعله يجد فيها ثمرا . وكذلك قد أتى إلى إسرائيل وهو جائع وتائق لأن يجد فيهم ثمار البر . لقد أغدق عليهم من فيض هباته لعلهم يثمرون ثمرا به يباركون العالم كله ، كما اعطيت لهم كل الفرص والامتيازات . وفي مقابل ذلك كان الرب ينتظر منهم أن يبدوا عطفهم على عمل نعمته وتعاونهم معه فيه . كان يتوق لأن يرى فيهم صفات التضحية والرأفة والغيرة لله والحنين القلبي العميق لخلاص بني جنسهم . فلو حفظوا شريعة الله لكانوا قد عملوا نفس عمل المسيح الخالي من الأنانية . ولكن محبة الله ومحبة الناس طغت عليهما الكبرياء والاكتفاء الذاتي . لقد جلبوا على أنفسهم الويل والدمار لكونهم رفضوا خدمة الآخرين . ولم يشركوا العالم معهم في اقتناء كنوز الحق التي أودعها الله بين أيديهم . وكان يمكنهم أن يكتشفوا في الشجرة العميقة خطيتهم وقصاصها . إن شجرة التين التي يبستها لعنة المخلص وكانت واقفة ذابلة ومضروبة وقد يبست من الأصول- هذه الشجرة برهنت على ما يمكن أن يصير إليه الشعب اليهودي عندما تؤخذ منهم نعمة الله . فما داموا قد رفضوا أن يشركوا غيرهم معهم في البركة فلن ينالوا بركة فيما بعد . يقول الرب: "هلاكك منك يا إسرائيل" (هوشع 13 : 9). [549]

إدانة الأنانية

إن هذا الإنذار يصلح لكل العصور ، فعمل المسيح في كونه قد لعن الشجرة التي قد خلقها بقدرته هو إنذار لكل الكنائس وكل المسيحيين . لا يستطيع إنسان أن يعيش بموجب شريعة الله دون أن يخدم الآخرين . ولكن يوجد كثيرون ممن لا يعيشون حياة المسيح الرحيمة المنكرة لذاتها . إن بعض من يظنون أنفسهم من أفاضل المسيحيين لا يفهمون معنى خدمة الله . إنهم يرسمون الخطط و يدرسونها لكي يرضوا أنفسهم . ولا يتصرفون إلاّ بموجب ما يخدم الذات . فللوقت قيمته في نظرهم على قدر ما يجنون من الربح لأنفسهم . وهذا هو هدفهم في كل شؤون الحياة . إنهم لا يخدمون لأجل الآخرين بل لأجل أنفسهم . لقد خلقهم الله في عالم ينبغي أن تقدم فيه الخدمة المنكرة لنفسها ، وهو يريدهم أن يساعدوا بني جنسهم بكل وسيلة ممكنة .

ولكن الذات احتلت كل كيانهم وسيطرت عليهم بحيث لا يمكنهم أن يروا شيئا آخر . إنهم ليسوا على اتصال بالإنسانية . والذين يعيشون هكذا لأنفسهم يشبهون تلك التينة التي أبدت كل ادعاء ولكنها عقيمة لا ثمر فيها . إنهم يراعون طقوس العبادة ، ولكن بلا توبة أو إيمان . يعترفون بأنهم يكرمون شريعة الله ولكن تعوزهم الطاعة . يقولون ولا يفعلون . إن المسيح إذ نطق بحكمه على شجرة التين أظهر مقدار كراهيته للتظاهر والادعاءات الفارغة العاطلة . وهو يعلن أن الخاطئ الصريح المكشوف أخف جرما ممن يعترف بأنه يخدم الله ولكنه لا يثمر لمجده.

إن مثل التينة الذي نطق به المسيح قبل زيارته لأورشليم كانت له علاقة مباشرة بالدرس الذي علمه لتلاميذه عندما لعن التينة العقيمة . لأن التينة العقيمة المذكورة في المثل توسل الكرام لأجلها قائلا: يا سيد اتركها هذه السنة أيضاً حتى أنقب حولها وأضع زبلا . فإن صنعت ثمرا وإلا ففيما بعد تقطعها . كان لا بد للكرام من أن يولي تلك الشجرة العقيمة اهتماما زائدا ورعاية خاصة ، وكان لابد من تقديم كل المزايا لتلك الشجرة . فإن ظلت على عقمها فلا مندوحة من قطعها . في مثل التينة العقيمة لم تذكر نتيجة خدمة الكرام ورعايته ولا أنبئ بها . وكانت النتيجة تتوقف على ذلك الشعب الذين نطق المسيح بهذا الكلام في مسامعهم . لقد شبهوا بالتينة العقيمة وكان عليهم وحدهم أن يقرروا مصيرهم . لقد قدمت لهم كل المزايا التي أمكن أن تمنحهم السماء إياها ، ولكنهم لم ينتفعوا [550] بتلك البركات المنسكبة عليهم . وإذ لعن المسيح التينة العقيمة أعلنت النتيجة . لقد حكموا على أنفسهم بالهلاك.

رفض الإنذار

إن الأمة اليهودية قد استهانت برحمة الله وغنى لطفه وإمهاله مدة تزيد على ألف عام فاستوجبوا الدينونة على أنفسهم . لقد ضربوا بإنذاراته عرض الحائط وقتلوا أنبياءه . فعلى اليهود الذين عاشوا في أيام المسيح تقع مسؤولية هذه الخطايا جميعها لكونهم ساروا طريق آبائهم ، ففي رفض المراحم والإنذارات الحاضرة يكمن ذنب ذلك الجيل الشرير . فالأغلال التي كانت تلك الأمة تطرقها وتصنعها مدى قرون طويلة كان الناس في أيام المسيح يكبلون بها أنفسهم.

في كل عصر يعطى للناس يوم النور والامتياز والرحمة ، ووقت للاختبار يمكنهم فيه أن يتصالحوا مع الله . ولكن وقت النعمة والرحمة هذا لابد له من نهاية وحدود . وقد تظل الرحمة تتوسل سنين عديدة ، وقد يستخف بها وترفض ، ولكن يأتي وقت فيه تقدم الرحمة آخر توسلاتها . فالقلب يتقسى بحيث لا يعود يستجيب لنداء روح الله . وحينئذ لا يعود ذلك الصوت العذب الآسر يتوسل إلى الخاطئ فيما بعد ، وتكف التوبيخات والإنذارات.

ذلك اليوم جاء على أورشليم . لقد بكى يسوع على تلك المدينة المقضي عليها بالهلاك ولكنه لم يستطع أن يخلصها . لقد استنفد كل وسيلة . إن بني إسرائيل إذ رفضوا إنذارات روح الله رفضوا وسيلة المعونة الوحيدة . فلم تبق بعد قوة أخرى يمكنها أن تخلصهم.

كانت الأمة اليهودية رمزا لكل الناس في كل العصور ممن يحتقرون توسلات المحبة غير المحدودة . ودموع المسيح التي سكبها حزنا على أورشليم كانت لأجل خطايا الناسفي كل العصور . فكل من يرفضون توبيخات روح الله القدوس وإنذاراته سيحكم عليهم بنفس الدينونة التي حكم بها على إسرائيل.

وفي هذا العصر كثيرون ممن يسيرون على نفس النهج الذي سار عليه اليهود العديمو الإيمان . لقد شاهدوا مظاهر قدرة الله ، كما قد كلم الروح القدس قلوبهم ولكنهم متشبثون بعدم إيمانهم ومقاومتهم . والله

يقدم لهم الإنذارات والتوبيخات مرارا وتكرارا ، ولكنهم لا [551] يرغبون في الاعتراف بأخطائهم فيرفضون رسالته ورسله . فنفس الوسيلة التي يستخدمها يستخدمها الرب لإرجاعهم تصير حجر عثرة لهم.

يختارون الظلمة بدل النور

إن بني إسرائيل المرتدين قد أبغضوا أنبياء الله الذين عن طريقهم انكشفت خطايا الشعب الخفية أمام النور . فأخاب اعتبر إيليا عدوا له لأن ذلك النبي كان أمينا في توبيخه للملك على آثام قلبه الخفية . وهكذا نجد هذه الأيام أن خادم المسيح الذي يوبخ الناس على الخطية يعامل بالاحتقار والطرد . إن الحق المعلن في الكتاب وديانة المسيح يتصارعان مع تيار الفساد الأدبي الجارف . ثم إن التعصب السائد على قلوب الناس الآن هو أقوى مما كان في أيام المسيح . إن السيد لم يحقق انتظارات الناس . فقد كانت حياته توبيخا لخطاياهم فرفضوه . وكذلك نجد اليوم أن الحق المعلن في كلمة الله لا ينسجم مع أعمال الناس وأميالهم الطبيعية ، ولهذا نجد آلافا من الناس يرفضون نوره . إن الناس الذين يستفزهم الشيطان يلقون ظلال الشكوك على كلمة الله فيفضلون الاستقلال بأفكارهم الخاصة وحكمهم وحده . يختارون الظلمة ويرفضون النور ولكنهم إذ يفعلون ذلك يجازفون بأرواحهم . إن أولئك الذين لجأوا إلى المماحكة عندما سمعوا أقوال المسيح الصريحة وجدوا كثيرا من أسباب المماحكات بعد ذلك إلى أن ارتدوا عن الحق والحياة . وكذلك هي الحال في يومنا الحاضر ، فالله لا يقصد أن يزيل كل اعتراض يمكن أن يقدمه القلب الطبيعي ضد حقه تعالى . إن من يرفضون أشعة النور الثمين الذي يمكن أن يبدد الظلمات ستظل أسرار كلمة الله مستغلقة عليهم إلى الأبد . فإذ يخفى الحق عنهم يتلمسون طريقهم كالعميان ولا يدرون شيئا عن الهلاك الذي يربض في طريقهم.

لقد أطل المسيح على العالم في كل الأجيال من أعالي جبل الزيتون ، وكلامه ينطبق على كل نفس تستهين بتوسلات الرحمة الإلهية . فيا من تحتقر محبته إنه يخاطبك اليوم . فأنت أنت الذي ينبغي لك أن تعلم ما هو لسلامك . إن المسيح يسكب الدموع الغزيرة لأجلك أنت الذي قد جفت الدموع من مآقيك فما عدت تبكي على شقائك . إن قساوة القلب المميتة التي أهلكت جماعة الفريسيين قد نمت وترعرعت في [552] قلبك . وكل دليل على نعمة الله وكل بصيص من أشعة نوره إما أن تكون عاملة على تليين القلب وإخضاعه أو تثبته في تمرده وعصيانه الميئوس منه .

لقد سبق المسيح فرأى أن أورشليم ستظل سادرة في صلابتها وتحجر قلبهما ، ومع ذلك فإن كل إثمها وكل عواقب رفضها للرحمة الإلهية كانت رابضة عند بابها . وكذلك ستكون الحال مع كل من يسيرون في نفس ذلك الطريق الوعر . إن الرب يعلن قائلا: "هلاكك منك يا إسرائيل" (هوشع 13 : 9)، "اسمعي أيتها الأرض: هأنذا جالب شراً على هذا الشعب ثمر أفكارهم، لأنهم لم يصغوا لكلامي، وشريعتي رفضوها" (هوشع 13 : 9 ؛ إرميا 6 : 19). [553]

الفصل الخامس والستون—لصوص في الهيكل

كان المسيح عند بدء خدمته قد طرد من الهيكل أولئك الذين دنسوه بتجارتهم المحرمة .وقد أوقع تصرفه ومنظر وجهه الإلهي العابس الرعب في قلوب أولئك التجار المت آ مرين .وعند نهاية خدمته عاد أيضا إلى الهيكل فوجده منجسا كما في المرة الأولى . كانت دار الهيكل الخارجية شبيهة بحظيرة فسيحة للماشية . فلقد اختلطت بأصوات الحيوانات ورنين قطع النقود أصوات مهاترات التجار ومشاجراتهم الغاضبة ، وكان بينهم بعض من يخدمون في الهيكل . كان أحبار الهيكل مشغولين في الشراء والبيع وفي استبدال قطع النقود . لقد كانوا مستعبدين للطمع وحب المال بحيث أنهم لم يكونوا أفضل من اللصوص في نظر الله.

إن الكهنة والرؤساء قلما كانوا يقدرون قدسية العمل الذي كان عليهم أن يضطلعوا به ، ففي كل سنة عندما كان يجيء ميعاد عيد الفصح وعيد المظال كانت تنحر آلاف الذبائح ، وكان الكهنة يأخذون الدم ويرشونه على المذبح . وكان اليهود قد ألفوا تقديم الدم ، وكادوا ينسون حقيقة كون الخطية هي التي أوجبت سفك دماء كل تلك الحيوانات . ولم يدركوا أن تلك الدماء كانت رمزا إلى دم ابن الله الحبيب الذي كان مزمعا أن يبذله من أجل حياة العالم. وأن مقدمي تلك الذبائح كان ينبغي أن تتجه عقولهم وانظارهم إلى الفادي المصلوب.

الطاعة أفضل من الذبيحة

تطلع يسوع إلى تلك الذبائح البريئة فرأى كيف أحال اليهود تلك المحافل العظيمة إلى مشاهد للقسوة وسفك الدماء . فبدلا من التوبة والانسحاق على الخطية أكثروا من تقديم الذبائح كما لو أن الله يتمجد إذ تقدم له خدمة فاترة بلا قلب . أما الكهنة والرؤساء فقد قسوا قلوبهم بالأثرة والطمع . لقد جعلوا نفس الرموز التي كانت تشير إلى حمل الله وسيلة للربح [554] القبيح ، وهكذا ضاعت قدسية خدمة الذبائح وتلاشت عن أذهان الشعب وقلوبهم إلى حد كبير . فثار غضب يسوع إذ علم أن دمه المزمع أن يسفك لأجل خطايا العالم سيستهان به تماما كما استهين بدماء الذبائح التي كانت تسيل كنهر دائم الجريان.

كان المسيح قد ذم تلك التصرفات على أفواه الأنبياء . فلقد قال صموئيل: “هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش”. وإذ رأى إشعياء بعين النبوة ارتداد اليهود خاطبهم كمن هم قضاة سدوم وعمورة قائلا: “اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم! أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة: لماذا لي كثرة ذبائحكم، يقول الرب. اتّخمت من محرقات كباش وشحم مسمّنات، وبدم عجول وخرفان و تيوس ما أسر. حينما تأتون لتظهروا أمامي، من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟” اغتسلوا. تنقّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني.

كفوا عن فعل الشر. تعلّموا فعل الخير. اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم. أقضوا لليتيم. حاموا عن الأرملة" (1 صموئيل 15 : 22 ؛ إشعياء 1 : 10 — 12 و 16 و 17).

فذاك الذي لنفسه قد أعطى هذه النبوات يردد الإنذار الآن لآخر مرة . كان الشعب قد نادوا بيسوع ملكا على إسرائيل إتماما للنبوة . فرحب بولائهم وقبل أن يكون ملكا . وكان لابد له أن يتصرف كملك . لقد عرف أن محاولاته لإصلاح الكهنة الفاسدين محاولات فاشلة لا جدوى منها ، ومع ذلك فعمله لابد أن يتم . وينبغي أن يقدم للشعب العديم الإيمان البرهان على كونه مرسلا من قبل الله.

مغارة لصوص

ومرة أخرى يصوب يسوع نظراته الفاحصة الأعماق إلى رواق الهيكل الذي قد تنجس . فاتجهت إليه كل الابصار والتفت إليه الكهنة والرؤساء والفريسيون والأمم ، التفتوا بدهشة وخشوع إلى ذاك الذي وقف أمامهم بجلال عظيم كمن هو ملك السماء . لقد أشرق نور الألوهية من خلال البشرية ، فظهر المسيح بجلال ومجد لم يريا عليه من قبل . وأولئك القريبون منه هربوا بعيدا عنه قدر ما استطاعوا فلم يبق قريبا من يسوع غير القليل [555] من تلاميذه . حدث سكوت تام ولم يستطع الناس الصبر على ذلك الصمت . ثم تكلم المسيح بسلطان عظيم اكتسح الشعب كله كما لو كان عاصفة قوية فقال: "مكتوب : بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص!" (متى 21 : 13). وقد رن صوته في أرجاء الهيكل كصوت بوق ، وبدا الغضب على محياه كما لو كان نارا آكلة . وبسلطان أمر قائلاً: "ارفعوا هذه من ههنا!" (يوحنا 2 : 16).

قبل ذلك بثلاث سنين خجل نظار الهيكل لأنهم هربوا أمام أمر يسوع . ومنذ ذلك الحين كانوا مندهشين من مخاوفهم وطاعتهم الناجزة بدون تردد أو سؤال لذلك الإنسان الواحد الوضيع . وكانوا يحسبون أن خضوعهم الحقير الذليل لن يتكرر . ولكن ها نحن نراهم الآن أشد رعبا وهلعا مما كانوا قبلا وأسرع في إطاعة أمره مما فعلوا أول مرة . ولم يكن هنالك من يجرؤ على أن يتساءل عن سلطانه أو يشك فيه . وقد هرب الكهنة والتجار من حضرته وهم يسوقون ماشيتهم أمامهم.

وإذ كانوا يهربون خارجين من الهيكل التقوا جمعا من الناس جاءوا بمرضاهم وهم يسألون أين يجدون يسوع الشافي العظيم . فكان الجواب الذي سمعوه من أولئك الهاربين سببا في رجوع بعض ممن قد جاءوا يطلبونه ، إذ خافوا من مقابلة ذاك الذي كان قويا وعظيما بهذا المقدار بحيث أن مجرد نظرته طردت الكهنة والرؤساء من حضرته . ولكن عددا كبيرا منهم اندفعوا يشقون لأنفسهم طريقا في وسط ذلك الجمع المندفع إلى الخارج وهم متلهفون للوصول إلى ذاك الذي هو رجاؤهم الوحيد . وعندما هربت الجموع بقي آخرون كثيرون في الهيكل فانضم إليهم الآن أولئك القادمين ، فامتلأ رواق الهيكل مرة أخرى بالمرضى والمحتضرين فخدمهم يسوع.

بيت سلام

وبعد لأي جازف الكهنة والرؤساء وعادوا إلى الهيكل . وعندما خفت حدة الهلع كانوا جزعين يريدون أن يعرفوا ما الذي سيفعله يسوع بعد ذلك . كانوا يتوقعون أنه سيعتلي عرش داود . وإذ عادوا إلى الهيكل

بكل سكون سمعوا أصوات الرجال والنساء والأولاد وهم يسبحون الله . فلما دخلوا تسمروا في أماكنهم أمام ذلك المنظر العجيب إذ رأوا المرضى يصحون والعمي يبصرون والصم يسمعون والعرج يطفرون فرحا . وقد كان [556] الأولاد أول من تهللوا . لقد شفاهم من أمراضهم وأخذهم ين ذراعيه وسمح لهم بتقبيله شكرا له وحباً . وقد نام بعض منهم على صدره وهو يعلم الشعب . والآن ها هم الأولاد يسبحونه فرحا ويرددون هتافات الانتصار التي كانوا يهتفون بها في اليوم السابق قائلين أوصنا ، ويلوحون بسعوف النخل بانتصار أمام المخلص . وقد رددت جوانب الهيكل صدى هتافاتهم حين قالوا: "مبارك الآتي باسم الرب"، "هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادل ومنصور" (مزمور 118 : 26 ؛ زكريا 9 : 9)، "أوصنا لابن داود!" (متى 21 : 9).

تلك الأصوات الفرحة الحرة المنطلقة كانت بغيضة لدى نظار الهيكل فحاولوا أن يوقفوا تلك المظاهرات عند حدها . فصوروا للشعب أن بيت الله قد تنجس بوجود الأولاد فيه وبأصوات الفرح التي سمعت من جوانبه . فإذ رأى أولئك الرؤساء أن كلامهم لم يؤثر في الشعب لجأوا إلى المسيح وقالوا له: "أتسمع ما يقول هؤلاء؟ فقال لهم يسوع: "نعم! أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً؟" (متى 21 : 16). لقد سبق الأنبياء فأنبأوا بأن المسيح سينادى به ملكا ، وقد تمت تلك النبوة . ولكن كهنة إسرائيل وحكامه رفضوا أن يعلنوا مجده ، غير أن الله حرك الأولاد ليكونوا شهوده . ولو سكت الأولاد لكانت نفس أعمدة الهيكل تذيع حمد المخلص.

أصاب الفريسيين الارتباك والحيرة لأن ذاك الذي حاولوا أن يحملوه على الجبن والفشل كان سيد الموقف . فلقد تبوأ يسوع مركزه كحارس ومهيمن على الهيكل . لم يسبق له أن أحرز مثل هذا السلطان الملكي ، ولم يسبق لكلامه وأعماله أن كان لها القوة والسلطان اللذان لها الآن . لقد صنع عظائم وعجائب في كل أورشليم من قبل ، ولكن لم يكن لها مثل هذه القوة وهذا التأثير كما هي اليوم . ولم يجرؤ الكهنة والرؤساء على المجاهرة بعدائهم له أمام الشعب الذين قد شاهدوا تلك الآيات . ومع أنهم اغتاظوا وارتبكوا إذ سمعوا جوابه فإنهم لم يستطيعوا اتخاذ أية إجراءات أخرى في ذلك اليوم.

"من أعطاك هذا السلطان؟"

وفي صبيحة اليوم التالي جعل رجال السنهدريم يتباحثون في ماذا يفعلون بيسوع . قبل ذلك بثلاث سنين طلبوا منه آية يثبت بها أنه مسيا . ومنذ ذلك الحين صنع يسوع عظائم وعجائب وقوات كثيرة في كل البلاد . لقد شفى المرضى وأشبع آلاف الناس [557] الجياع بكيفية عجائبية ، ومشى على الماء وسكن مياه البحر الهائجة . ومرارا كثيرة كشف خفايا قلوب الناس كمن يقرأ في كتاب مفتوح ، وأخرج الشياطين وأقام الموتى فكان لدى الرؤساء براهين لا حصر لها على أنه مسيا . والآن هم لا يطلبون منه آية تبرهن على سلطانه بل أرادوا أن يسمعوا منه قرارا أو تصريحا يكون علة إدانته.

فإذ توجهوا إلى الهيكل حيث كان هو يعلم تقدموا ليسألوه قائلين: "بأي سلطان تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السلطان؟" كانوا يتوقعون أنه سيدعي أنه يستمد سلطانه من الله ، وكانوا ينوون أن ينكروا عليه هذا الادعاء . ولكن يسوع وج ه إليهم سؤالا كان يبدو أنه يتناول موضوعا آخر وقد جعل جوابه على سؤالهم موقوفا على إجابتهم على سؤاله . فسألهم قائلا: "معمودية يوحنا: من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟" (متى 21 : 23 — 25).

هنا وجد الكهنة أنهم أوقعوا أنفسهم في ورطة لا يمكن لأية سفسطة أن تنتشلهم منها .فإن قالوا إن

معمودية يوحنا من السماء فسيتضح تقلبهم ، وفي هذه الحالة سيقول لهم يسوع: لماذا لم تؤمنوا به ؟ لقد شهد يوحنا ليسوع قائلا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!" (يوحنا 1 : 29). فلو صدق الكهنة شهادة يوحنا فكيف كان يمكنهم إنكار حقيقة كون يسوع هو مسيا ؟ ولو صرحوا بما كانوا يعتقدونه وهو أن معمودية يوحنا من الناس لكانوا يثيرون على أنفسهم عاصفة هائلة من السخط لأن الشعب كانوا يؤمنون بأن يوحنا نبي.

وباهتمام عظيم كان الشعب ينتظرون جواب الكهنة . لقد عرفوا أن الكهنة كانوا قد اعترفوا بقبولهم لخدمة يوحنا وكانوا ينتظرون أنهم سيعترفون بدون سؤال بأنه مرسل من الله . ولكن بعدما تداول الكهنة سرا فيما بينهم قرروا ألا يدلوا برأيهم . فبكل رياء أقروا بأنهم يجهلون ذلك قائلين: "لا نعلم" فقال لهم المسيح: "ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا" (متى 21 : 27).

جلال السماء

أبكم الكهنة والكتبة والرؤساء جميعا . ففي حيرتهم وخيبتهم وقفوا مقطبين وعابسين [558] وهم لا يجسرون على تقديم أسئلة جديدة للمسيح . وبسبب جبنهم وترددهم أضاعوا حقهم في توقير الشعب الذين وقفوا بالقرب منهم يتسلون برؤية أولئك الرجال المتكبرين الأبرار في أعين أنفسهم وقد جللتهم الهزيمة والعار.

إن كل أقوال المسيح وأعماله هذه كانت هامة . وكان تأثيرها سيمتد ويزيد إلى درجة عظيمة بعد صلبه وصعوده . فكثيرون ممن كانوا بفارغ الصبر ينتظرون نتيجة استجواب يسوع كانوا سيجذبون إليه أخيرا ليصيروا له أتباعا وتلاميذ ، وكانوا قد جذبوا إليه أولاً بقوة أقواله التي كانوا قد سمعوها منه في ذلك اليوم الكثير الوقائع . وما كان المشهد الذي رأوه في الهيكل ليزول من أذهانهم . وقد لاحظوا الفرق العظيم بين يسوع وبين رؤساء الكهنة وهو يناقشهم . كان رئيس الكهنة المتكبر متسربلا بثياب ثمينة غالية الثمن ، وكان يلبس على رأسه إكليلا يتلألأ متألقا ، وكانت طلعته مهيبة وكان شعر رأسه ولحيته طويلا وأشيب من طول السنين ، وكانت هيئته توقع الخوف في قلوب من يرونه . فأمام هذه الشخصية المهيبة وقف جلال السماء عاريا عن كل زينة أو تفاخر . وكانت ثيابه متسخة من وعثاء السفر ، وكان وجهه شاحبا يعبر عن الحزن الصبور . ولكن كان يرى مسطورا على ذلك المحيا آيات العظمة والإحسان التي أبانت الفرق الشاسع بينه وبين هيئة رئيس الكهنة المتكبر الغضوب الواثق بنفسه . إن كثيرين ممن قد سمعوا أقوال يسوع وشاهدوا أعماله في الهيكل ادخروا كل ذلك ككنز في قلوبهم وقبلوه كنبي مرسل من الله . ولكن عندما اتجه الشعور العام في صالح يسوع زادت كراهية الكهنة له وتفاقمت . وإن الحكمة التي بها تحاشى يسوع الوقوع في الأشراك المنصوبة له والتي كانت برهانا جديدا على ألوهيته زادت نار غضب أعدائه اشتعالا.

إن المسيح في نضاله مع المعلمين لم يكن يرمي إلى إذلال خصومه . ولم يكن مما يبهجه أن يراهم في مركز حرج . كان لديه درس هام أراد أن يعلمه للشعب . لقد أذل أعداءه بكونه جعلهم يؤخذون في الشرك الذي قد نصبوه لاصطياده . إن اعترافهم بأنهم يجهلون صفة معمودية يوحنا أعطاه مجالا للكلام ، وقد أحسن استخدام تلك الفرصة بكونه أبان لهم موقفهم على حقيقته إذ قدم لهم إنذارا جديدا بالإضافة إلى كل الإنذارات السالفة. [559]

ابنان

قال: "ماذا تظنون؟ كان لإنسان إبنان، فجاء إلى الأول وقال: "يا ابني، اذهب اليوم اعمل في كرمي. فأجاب وقال: ما أريد. ولكنه ندم أخيراً ومضى. وجاء إلى الثاني وقال كذلك. فأجاب وقال: ها أنا يا سيّد. ولم يمض. فأي الاثنين عمل إرادة الأب؟" (متى 21 : 28 — 31).

هذا السؤال المقتضب من يسوع جعل سامعيه يؤخذون على غرة . لقد تتبعوا المثل بكل انتباه ثم قالوا حالا: "الأول". إذ ذاك ثبت يسوع نظره عليهم ثم أجابهم بنغمات متجهمة وقورة قائلا: "الحق أقول لكم: إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله، لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به" (متى 21 : 31، 32).

إن الكهنة والرؤساء لم يسعهم إلاّ أن يقدموا إجابة صحيحة عن سؤال المسيح . وهكذا عرف رأيهم في تحبيذ مسلك الابن الأول . إن هذا الابن يمثل العشارين الذين كان الفريسيون يحتقرونهم ويرفضونهم . لقد كان العشارون فاسدين جدا . نعم إنهم كانوا متعدين شريعة الله ، وقد برهنوا في حياتهم على مقاومتهم الشديدة لمطاليب الله . كانوا غير شاكرين وأشرارا ، وعندما طلب منهم أن يذهبوا ليعملوا في كرم الله رفضوا بكل إباء وازدراء . ولكن عندما جاء يوحنا يكرز بالتوبة والمعمودية قبل العشارون رسالته واعتمدوا.

أما الابن الثاني فيمثل قادة الأمة اليهودية . لقد تاب بعض الفريسيين وقبلوا معمودية يوحنا ، ولكن الرؤساء رفضوا الاعتراف به كمن هو مرسل من قبل الله . ولم تستطع إنذاراته وتوبيخاته أن تجعلهم يصلحون أنفسهم وأخطاءهم . لقد "رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم، غير معتمدين منه" (لوقا 7 : 30). لقد قابلوا رسالته بمنتهى الازدراء . وكالابن الثاني الذي عندما وجهت إليه الدعوة قال: "ها أنا يا سيد" ولكنه لم يذهب، كذلك الكهنة والرؤساء أعلنوا الطاعة ولكنهم ارتكبوا العصيان . لقد صرحوا بتصريحات عظيمة عن التقوى وادعوا أنهم يطيعون شريعة الله ولكنهم قدموا طاعة زائفة . لقد شهر الفريسيون بالعشارين ولعنوهم واعتبروهم ملحدين ، ولكن أولئك العشارين برهنوا بإيمانهم [560] وأعمالم على استحقاقهم لدخول ملكوت السماوات قبل أولئك الرؤساء الأبرار في أعين أنفسهم الذين قد أعطي لهم نور عظيم ، ولكن أعمالهم لم تكن مطابقة لاعترافهم بالتقوى.

لم يكن الكهنة ولا الرؤساء يرغبون في الاستماع لهذه الحقائق الفاحصة ، ومع ذلك فقد ظلوا صامتين على أمل أن يسمعوا من يسوع ما أمكن أن يتخذوه ذريعة ضده. ولكن بقي شيء آخر كان عليهم أن يسمعوه.

الكرامون الأشرار

قال المسيح: "اسمعوا مثلاً آخر: كان إنسان رب بيت غرس كرماً، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبنى برجاً، وسلّمه إلى كرّامين وسافر. ولمّا قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً: يهابون ابني! وأما الكرّامون فلمّا رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث! هلمّوا نقتله ونأخذ ميراثه! فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى

جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرّامين؟" (متى 21 : 33 — 40).

كان يسوع يخاطب كل الشعب الماثلين أمامه ، ولكن الكهنة والرؤساء أجابوه قائلين: " أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً رديا، ويسلّم الكرم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها" (متى 21: 41). إن أولئك المتكلمين لم يلاحظوا بادئ ذي بدء تطبيق المثل ، ولكنهم أدركوا الآن أنهم إنما نطقوا بحكم الدينونة على أنفسهم . نجد في المثل أن رب البيت يمثل الله ، والكرم يمثل الأمة اليهودية ، والسياج يمثل شريعة الله التي كانت واقيا لهم ، والبرج يرمز إلى الهيكل. لقد عمل صاحب الكرم كل ما يلزم لنجاح كرمه . وهو يقول: "ماذا يصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟" (إشعياء 5 : 4). وهكذا صوّر المسيح رعاية الله لإسرائيل التي لا تكل . وكما كان يجب على الكرامين أن يقدموا للسيد في مقابل ذلك كمية مناسبة من ثمر الكرم كذلك كان من واجب شعب الله أن يقدموا له الإكرام المطابق لامتيازاتهم المقدسة . ولكن كما قتل الكرامون العبيد الذين أرسلهم السيد في طلب الأثمار كذلك قتل اليهود الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم يدعونهم للتوبة . لقد قتلوا [561] رسولا بعد رسول. إلى هنا لم يكن مجال للشك والتساؤل في تطبيق المثل ، والكلام الذي تلا ذلك لم يكن أقل وضوحا . لقد رأى الكهنة والرؤساء في الابن الحبيب الذي أرسله صاحب الكرم أخيرا إلى عبيده العصاة والذين أمسكوه وقتلوه ، صورة واضحة ليسوع ومصيره المحتوم الوشيك الوقوع . لقد كانوا من قبل يتآمرون على قتل ذاك الذي قد أرسله الآب إليهم كآخر إنذار . وفي الهلاك الذي حل بأولئك الكرامين غير الشاكرين ظهرت صورة واضحة المعالم لهلاك من سيقتلون المسيح.

يدينون أنفسهم

وإذ نظر إليهم المخلص بحزن وإشفاق استطرد يقول: "أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية؟ من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا! لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه!" (متى 21 : 42 — 44).

لقد ظل اليهود يرددون هذه النبوة في المجامع على أنها تنطبق على مسيا. لقد كان المسيح هو حجر الزاوية في النظام اليهودي وتدبير الخلاص بجملته . هذا الحجر الأساسي كان البناؤون اليهود الذين هم كهنة إسرائيل ورؤساؤه يرفضونه الآن . وقد وجه المخلص التفاتهم إلى النبوات الدالة على خطر موقفهم . وبكل وسيلة وجهد أراد أن يوضح لهم طبيعة العمل الذي كانوا مزمعين أن يعملوه.

كان يستهدف غرضا آخر في كلامه. فإذ سألهم المسيح قائلا: "فمتى جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟" كان يقصد أنهم يجيبون نفس ذلك الجواب وأن يدينوا أنفسهم . فإذ لم يكن لإنذاراته أن تسوقهم إلى التوبة فستختم على هلاكهم ، وكان يرغب في أنهم يرون أنهم هم الذين جلبوا الدمار على أنفسهم . كما قصد أن يريهم عدالة الله في انتزاع الامتيازات القومية منهم ، الأمر الذي قد بدأ فعلا والذي سيكون من عواقبه ليس فقط خراب هيكلهم ومدينتهم بل تشتت الأمة كلها.

لقد فطن سامعوه إلى ذلك الإنذار ولكن على الرغم من ذلك الحكم الذي حكموا به على أنفسهم ، فإن أولئك الكهنة والرؤساء كانوا مزمعين أن يكملوا تلك الصورة بقولهم: "هذا [562] هو الوارث! هلمّا نقتله" (متى 21 : 38). "وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه، خافوا من الجموع، لأنه كان عندهم مثل نبي" (متى 21 : 46). لأن الرأي العام كان في جانب المسيح.

الحجر المرفوض

إن المسيح إذ اقتبس النبوة الخاصة بالحجر المرفوض كان يشير إلى حادث وقع بالفعل في تاريخ إسرائيل ، وكان له علاقة ببناء الهيكل الأول ، ففي حين كان لها تطبيق خاص في مجيء المسيح الأول وكان ينبغي أن تروق لليهود بقوة خاصة فإن فيها لنا نحن أيضا درسا ثمينا . عندما أقيم هيكل سليمان أعدت الحجارة الضخمة التي كان سيبنى بها الأساس والجدران ، في مقطع الأحجار ، إذ بعد الإتيان بها إلى مكان البناء لم يكن مسموحا بأن ترفع عليها فأس أو معول أو إزميل ، ولم يكن على الفعلة إلاّ أن يضعوا كل حجر في المكان المخصص له . وقد أتي بحجر كبير الحجم جدا وغريب الشكل ليوضع في الأساس. ولكن الفعلة لم يجدوا له مكانا يناسبه فلم يقبلوه . وإذ كان ملقى هكذا في طريقهم دون أن يستعمل كان مصدر كدر ومضايقة لهم . وقد ظل مرفوضا ومطروحا أمدا طويلا . ولكن عندما أراد البناؤون أن يضعوا حجر الزاوية بحثوا طويلا لعلهم يجدون حجرا ضخما ومتينا يتناسب شكله مع شكل الزاوية ليشغل ذلك الفراغ الخاص ويتحمل ثقل البناء كله . فلو أنهم اختاروا اختيارا طائشا لهذا المكان الهام فإن سلامة البناء كله تتعرض للخطر . فينبغي لهم أن يجدوا حجرا يتحمل حرارة الشمس وتأثير الجليد وقوة العواصف .ففي أوقات مختلفة اختيرت عدة أحجار ولكنها كلها تحطمت تحت ثقل الضغط الشديد ، ولم يكن للأحجار الأخرى أن تتحمل تجربة تقلبات الطقس المباغتة . ولكن الأنظار اتجهت أخيرا إلى ذلك الحجر الذي ظل مرفوضا أمدا طويلا . لقد تعرض لحر الشمس والهواء والعواصف دون أن يظهر فيه شق صغير . وقد فحص البناؤون هذا الحجر . لقد صمد لكل امتحان إلا امتحانا واحدا ، فلو أمكنه تحمل الضغط الشديد فسيقررون قبوله كحجر الزاوية . وقد أجري الامتحان وقبل الحجر ووضع في المكان المخصص له ووجد أنه يناسبه تماما . ولقد أظهر لإشعياء في رؤيا نبوية أن هذا الحجر كان رمزا للمسيح . فيقول إشعياء:

“قدّسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم. ويكون مقدَّسا وحجر صدمة [563] وصخرة عثرة لبيتي إسرائيل، وفخًّا وشركاً لسكّان أورشليم. فيعثر بها كثيرون ويسقطون، فينكسرون ويعلقون فيلقطون”. وإذ حمل النبي عبر الأجيال في الرؤيا النبوية إلى مجيء المسيح الأول أظهر لذلك النبي أن المسيح سيتحمل تجارب واختبارات كانت المعاملة التي عومل بها حجر زاوية هيكل سليمان رمزا إليها ، “لذلك هكذا يقول السيد الرب: هأنذا أؤسس في صهيون حجراً، حجر امتحان، حجر زاوية كريماً، أساساً مؤسساً” (إشعياء 8 : 13 — 15 ؛ 28 : 16).

أساس مؤسّس

إن الله في حكمته اللامتناهية قد اختار حجر الأساس ووضعه بنفسه. وقد دعاه “أساس مؤسًّسا”. ويمكن لكل سكان العالم أن يلقوا عليه كل أثقالهم وهمومهم . وهو يستطيع أن يصمد لها كلها ، ويمكنهم أن يبنوا عليه بكل اطمئنان . إن المسيح هو “حجر امتحان” (حجر مجرّب) وهو لا يخذل من يتكلون عليه أبداً . لقد ثبت أمام كل امتحان وتحمل ثقل خطية آدم وخطايا نسله وعظم انتصاره على قوات الشر . لقد حمل كل الأثقال التي ألقاها علية كل الخطاة التائبين . ففي المسيح يجد القلب الخاطئ الراحة ، إذ هو الأساس الركين . وكل من يتخذونه سندا ومعتمدا لهم يستريحون في طمأنينة كاملة.

إن إشعياء يعلن في نبواته أن المسيح حجر صدمة كما أنه أساس مؤسس. إن بطرس الرسول إذ يكتب بوحي الروح القدس يبين بكل وضوح من هم الذين يكون لهم المسيح حجر الأساس ومن هم الذين يصير لهم صخرة عثرة ، فيقول:

"إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح. الذي إذ تأتون إليه، حجراً حياً مرفوضاً من الناس، ولكن مختار من الله كريم، كونوا أنتم أيضاً مبنيين — كحجارة حية — بيتاً روحياً، كهنوتاً مقدَّسا، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله يسوع المسيح. لذلك يتضمّن أيضاً في الكتاب: هأنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً، والذي يؤمن به لن يخزى. فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة، وأما للذين لا يطيعون، فالحجر الذي رفضه البناؤون، هو قد صار رأس الزاوية، وحجر صدمة وصخرة عثرة. الذين يعثرون غير طائعين للكلمة، الأمر الذي جعلوا له" (1 بطرس 2 : 3 — 8).

فالذين يؤمنون يصير لهم المسيح أساسا مؤسسا . هؤلاء هم الذين يسقطون على الحجر [564] ويترضضون فالخضوع للمسيح والإيمان به يمثلان هنا. فالسقوط على الحجر والترضض هو التخلي عن برنا الذاتي وتقديم توبتنا عن آثامنا للمسيح وإيماننا بمحبته الغافرة بوداعة الأولاد . وهكذا أيضا يحدث أننا بالإيمان والطاعة نبنى على المسيح كأساسنا.

ويمكن لليهود كما للأمم أن يبنوا على هذا الحجر الحي . هذا هو الأساس الوحيد الذي يمكننا أن نبني عليه بكل اطمئنان . وهو يتسع للجميع ، كما أنه قوي ومتين جدا بحيث يستطيع أن يتحمل ثقل أحمال العالم كله . وبالارتباط بالمسيح الحجر الحي يصير كل من يبنون على هذا الأساس حجارة حية . إن أشخاصا كثيرين بمجهودهم الشخصي يقطعون ويصقلون ويجمّلون ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا "حجارة حية" لعدم ارتباطهم بالمسيح . فبدون هذا الارتباط لا يمكن لإنسان أن يخلص . فما لم تكن حياة المسيح فينا لا نستطيع الصمود أمام عواصف التجارب . إن سلامتنا الأبدية موقوفة على كوننا نبني على الأساس المؤسس . إن كثيرين يبنون اليوم على أسس لم تمتحن . فعندما تهطل الأمطار وتزأر العواصف وتفيض الانهار يسقط بيتهم لأنه غير مؤسس على الصخرة الأزلية ، حجر الزاوية العظيم ، يسوع المسيح.

أما "للذين يعثرون غير طائعين" فالمسيح يصير صخرة عثرة . ولكن "الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية". فالمسيح إذ كان في رسالته الأرضية كالحجر المرفوض احتمل الإهمال والإهانة . قيل عنه: "محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمستر عنه وجوهنا، محتقر فلم نعتد به" (إشعياء 53 : 3). ولكن يوم تمجيده كان قريبا . فبقيامته من الأموات سيعلن أنه قد تعين "ابن الله بقوة" (رومية 1 : 4). وفي مجيئه الثاني سيظهر كمن هو رب السماء والأرض . وأولئك الذين كانوا الآن مزمعين أن يصلبوه سيرونه ويعرفونه في بهاء عظمته . وأمام المسكونة كلها يصير هذا الحجر المرفوض رأس الزاوية.

"يسحقه!"

"ومن سقط هو عليه يسحقه!" (متى 21 : 44). فأولئك القوم الذين قد رفضوا المسيح كانوا سيرون مدينتهم وأمتهم وقد هلكتا وتلاشتا من الوجود . كان مجدهم سيسحق ويذرى [565] كالرماد أمام الريح . وما الذي أهلك اليهود ؟ إنها الصخرة التي لو بنوا عليها لتمتعوا بالطمأنينة والسلام . لقد كان هو لطف الله الذي استهانوا به ، وبره الذي امتهنوه وركلوه ، ورحمته التي استخفوا بها . إن الناس يناصبون الله العداء ويقاومونه ولذلك فكل ما كان يمكن أن يكون سبب خلاصهم يصير علة هلاكهم . وكل ما أراده أن يكون

لهم للحياة وجدوه للموت . لقد كان صلب اليهود للمسيح علة خراب أورشليم . والدم الذي سفك في جلجثة كان هو حجر الرحى الذي أغرقهم في لجة الهلاك في هذا العالم وفي العالم الآتي. وكذلك سيكون الحال في اليوم الأخير عندما تنقض صواعق الدينونة على جميع رافضي نعمة الله . فالمسيح الذي كان بالنسبة لهم صخرة عثرة سيظهر لهم كجبل هلاك وانتقام . إن بهاء مجد وجهه الذي هو للأبرار حياة وسلام سيكون نارا آكلة الاشرار . فلكون الخاطئ قد رفض محبة الله وازدرى بنعمته فلابد من هلاكه.

وبأمثلة كثيرة وإنذارات متكررة أبان المسيح لليهود ماذا ستكون نتيجة رفضهم لابن الله . وهو بهذه الأقوال يخاطب كل من يرفضون قبوله فاديا لهم ، في كل عصر ومصر . فكل إنذار قد وجه إليهم ، إذا فلا عذر لهم . فالهيكل الذي تنجس والابن العاصي العاق والكرامون الأردياء والبناؤون المزدرون- كل أولئك لهم ضريب يشبههم في اختبار كل خاطئ . فإذا لم يتب فلابد أن تحيق به الدينونة. [566]

الفصل السادس والستون ـــــيوم نزاع

لقد استمع الكهنة والرؤساء في صمت إلى توبيخات المسيح السديدة . ولم يستطيعوا تفنيد اتهاماته ، ولكنهم زادوا إصرارا على اصطياده . ولأجل هذا أرسلوا إليه جواسيس "يتراؤون أنهم أبرار لكي يمسكوه بكلمة، حتى يسلّموه إلى حكم الوالي وسلطانه" (لوقا 20 : 20). ولم يرسلوا إليه الفريسيين القدامى الذين التقاهم يسوع مرارا ، بل أرسلوا إليه شبانا متحمسين وغيورين وكانوا يظنون أن يسوع لا يعرفهم . فذهب هؤلاء في صحبة بعض الهيرودسيين الذين كان عليهم أن يسمعوا أقوال المسيح حتى يشهدوا ضده عند محاكمته . لقد كان الفريسيون والهيرودسيون أعداء ألداء ، ولكنهم اتحدوا الآن معا في عدائهم ومناوأتهم للمسيح.

ينصبون شركا

ظل الفريسيون مهتاجين بسبب الجزية التي فرضها عليهم الرومان . وكانوا يعتقدون أن دفع الجزية أمر مخالف لشريعة الله . وها هم الآن يرون الفرصة مواتية لهم لينصبوا شركا لاصطياد يسوع . فجاء إليه جواسيسهم ، وبإخلاص ريائي ، كأنما يرغبون في معرفة واجبهم قالوا له: "يا معلّم، نعلم أنك بالاستقامة تتكلّم وتعلّم، ولا تقبل الوجوه، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟" (لوقا 20 : 21 و 22).

فلو كانوا مخلصين لكان قولهم "أنك بالاستقامة تتكلّم وتعلّم" اعترافا مدهشا . ولكنهم نطقوا بهذا الكلام للتمويه والخداع . ومع ذلك فقد كانت شهادتهم صادقة ، فلقد عرف الفريسيون ، عن يقين ، أن المسيح كان بالاستقامة يتكلم ويعلم وسيدانون بموجب شهادتهم

لقد ظن أولئك الذين قدموا ذلك السؤال إلى يسوع بأنهم قد أحكموا إخفاء قصدهم وأحسنوا التنكر ، ولكن يسوع علم ما في قلوبهم كمن يقرأ في كتاب مفتوح ، وكشف [567] القناع عن ريائهم إذ قال لهم: "لماذا تجربونني؟" (لوقا 20 : 23). وبذلك قدم لهم آية لم يطلبوها إذ أراهم أنه قد كشف نواياهم الخفية . ولقد زاد ارتباكهم عندما أضاف قائلاً: "أروني ديناراً. لمن الصورة والكتابة؟ فأجابوا وقالوا: لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما للقيصر للقيصر وما لله لله" (لوقا 20 : 24 و 25).

كان الجواسيس ينتظرون أن يقدم يسوع جوابا مباشرا بطريقة أو بأخرى . فلو ق ا ل: لا يجوز لكم أن تعطوا جزية لقيصر لكانوا يقدمون شكوى ضده للسلطات الرومانية ، وكان يقبض عليه كمحرض على الثورة والعصيان . ولو قال: يجوز لكم أن تعطوا الجزية ، لكانوا يشكونه للشعب كمن يقاوم شريعة الله . ولكنهم أمام جوابه أحسوا بالارتباكوالهزيمة . لقد تشوشت خططهم ، فالجواب المختصر الذي أجاب به السيد على سؤالهم لم يترك لهم بابا للكلام.

لم يكن جواب المسيح تملصا أو مراوغة بل كان جوابا صريحا على سؤالهم . فإذ أمسك في يده تلك العملة الرومانية التي كان مطبوعا عليها اسم القيصر وصورته أعلن لهم أنهم طالما هم عائشون تحت حماية القوة الرومانية فهم ملتزمون بأن يقدموا لتلك القوات المعونة الواجبة طالما أن ذلك لا يتعارض مع واجبهم الرسمي . ولكن بينما هم يخضعون مسالمين لقوانين البلاد عليهم دائما أن يقدموا ولاءهم لله أولا.

إن قول المخلص: "أعطوا .. ما لله لله" كان توبيخا جارحا لأولئك اليهود المتآمرين . فلو كانوا بكل أمانة قد قاموا بكل التزاماتهم لله لما صاروا أمة منهزمة خاضعة للحكم الأجنبي ، وما كانت أية راية أجنبية تخفق فوق روابي أورشليم ، وما كان يقف على أبوابها حراس من الرومان ، وما كان يحكم داخل أسوارها والٍ روماني . لقد كانت الأمة اليهودية حينئذ تتحمل قصاص ارتدادها عن الله.

فلما سمع الفريسيون جواب المسيح "تعجّبوا من جوابه وسكتوا" (متى 22 : 22). لقد وبخ رياءهم وغطرستهم وبعمله هذا قرر مبدأ عظيما ، مبدأ يبين حدود واجب الإنسان بوضوح تلقاء الحكومة المدنية وواجبه نحو الله . فلقد وجدت عقول مرتبكة كثيرة جوابا ثابتا ، وبعد ذلك التزمت تلك العقول جانب المبدأ الصائب . ومع أن كثيرين مضوا ساخطين فقد رأوا أن المبدأ الذي ينطوي عليه السؤال قد أوضح [568] تماما . وقد تعجبوا من فطنة المسيح البعيدة النظر.

انشقاق في الكنيسة

وما أن أبكم الفريسيون حتى تقدم الصدوقيون بأسئلتهم الخبيثة . لقد كان العداء الشديد مستحكما بين هذين الحزبين . كان الفريسيون متمسكين بالتقاليد أشد التمسك ، كانوا بكل قوتهم يحافظون على التقاليد الخارجية ومجدين في ممارسة الغسلات والأصوام والصلوات الطويلة وكانوا يفاخرون الناس بصدقاتهم . ولكن المسيح أعلن أنهم قد أبطلوا وصية الله إذ كانوا يعلمون تعاليم هي وصايا الناس . وكطائفة كانوا قوما متعصبين ومنافقين ، ومع ذلك فقد وجد بينهم جماعة كانوا متمسكين بالتقوى الحقيقية . وهؤلاء قبلوا تعاليم المسيح وصاروا له تلاميذ . أما الصدوقيون فكانوا يرفضون تقاليد الفريسيين وكانوا يعترفون بإيمانهم بأكثر أسفار الكتاب معتبرين إياها قانونا للأعمال ، ولكنهم كانوا في الواقع قوما كثيري الشكوك وماديين.

كان الصدوقيون ينكرون وجود الملائكة وقيامة الأموات وعقيدة الحياة العتيدة بثوابها وعقابها . في كل هذه الأمور كانوا على طرفي نقيض مع الفريسيين . وكان موضوع الجدال الدائم بين ذينك الحزبين هو القيامة بوجه خاص . كان الفريسيون يؤمنون بالقيامة إيمانا ثابتا ، ولكنهم في مناقشاتهم كانت آراؤهم عن الحياة الآتية ملتبسة وغامضة . فكان الموت في نظرهم سرا استعصى عليهم فهمه وعجزوا عن إيضاحه . وإن عجزهم عن مقارعة حجج الصدوقيين أعطى مجالا لكثير من الاهتياج الذي لا ينقطع . وكانت المناقشات الدائرة بين الحزبين غالبا ما تنتهي بالمشادات الغاضبة والخصومات الشديدة .وهكذا كان يتفاقم الجفاء وتتسع شقة الخلاف بين الفريقين أكثر مما كانت.

كان الصدوقيون في العدد أقل جدا من خصومهم ، ولم يكن لهم سلطان قوي على عامة الشعب كما كان للفريسيين . ولكن كثيرين منهم كانوا أثرياء فكان لهم النفوذ الذي يمكن أن يمنحه الثراء . وقد كان بين صفوفهم السواد الأعظم من الكهنة ، وكان رئيس الكهنة يختار من بينهم عادة . وكان هذا بموجب شرط صريح ألاّ ينشروا شكوكهم أو يجعلوها تسيطر على عقول الناس . ونظرا لكثرة عدد الفريسيين وشهرتهم كان من اللازم [569] للصدوقيين أن يوافقوهم على معتقداتهم ولو ظاهرا متى شغل أحدهم إحدى وظائف الكهنوت ، ولكن نفس فكرة كونهم لائقين لتلك الوظيفة ساعد على نشر أخطائهم.

تفكير معوج مراوغ

رفض الصدوقيون تعليم يسوع . لقد كان يحركه روح لم يريدوا هم الاعتراف بأنه يظهر نفسه بهذه الكيفية . وكان تعليمه عن الحياة الآتية وعن الله مناقضا لآرائهم ونظرياتهم . كانوا يعتقدون أن الله هو الكائن الوحيد الأسمى من الإنسان ، ولكنهم كانوا يجادلون قائلين إن عناية الله المتسلطة وعلمه السابق يجردان الإنسان من حرية العمل والارادة وينزلانه إلى منزلة العبيد . كما كانوا يعتقدون أن الله بعدما خلق الإنسان تركه لنفسه مستقلا عن كل نفوذ أو سلطان أعلى . وكانوا يعتقدون كذلك أن الإنسان حر لأن يتسلط على نفسه ويشكل حوادث العالم ، وأن مصيره هو بين يديه . وكانوا ينكرون أن روح الله يعمل عن طريق المساعي البشرية أو الوسائل الطبيعية ، ومع ذلك كانوا يعتقدون أن الإنسان إذ يستخدم قواه الطبيعية بكيفية سديدة يمكنه أن يتسامى ويستنير ، وأن حياته يمكن أن تتطهر بواسطة فرض ممارسات عنيفة وصارمة على نفسه.

هذا وإن آراءهم عن الله شكلت أخلاقهم . فكما أنهم كانوا يعتقدون أن الله غير مهتم بالإنسان أصبحوا قليلي التقدير أحدهم للآخر ، وكان اتحادهم بعضهم ببعض ضعيفا . وإذ رفضوا الاعتراف بتأثير الروح القدس على أفعال بني الإنسان فقد كانت تعوزهم قوته في حياتهم . وكغيرهم من اليهود كانوا يفخرون بأنهم أولاد إبراهيم ولهم الحق في الميراث ، كما كانوا يفخرون بتمسكهم الشديد بمطاليب الناموس ، ولكنهم كانوا مجردين عن فهم روح الناموس وإيمان ابراهيم وكرمه . وكانت دائرة عطفهم الإنساني ضيقة ومحدودة جدا. وكانوا يعتقدون أنه من الممكن للناس جميعا أن يحرزوا نصيبا في متع الحياة وبركاتها . ولم تتأثر قلوبهم باحتياج الآخرين أو آلامهم ، بل كانوا يعيشون لأنفسهم.

شهد المسيح ، بأقواله وأعماله ، بوجود قوة إلهية يمكنها أن تأتي بنتائج فائقة للطبيعة ، وشهد بوجود حياة مستقبلة بعد هذه الحياة ، وشهد بوجود الله كآب لبني الإنسان وهو ساهر دائما على مصالحهم الحقيقية . وأعلن عن عمل القوة الإلهية في الإحسان والرفق اللذين [570] كانا توبيخا للصدوقيين على أنانيتهم وانطوائهم . وقد علَّم أن الله لأجل خير الإنسان الزمني والأبدي يرف على قلبه بالروح القدس . وأبان خطأ الإركان إلى القوة البشرية لأجل تغيير الخلق الذي لا يمكن أن يحدثه غير روح الله.

عقد الصدوقيون العزم على تكذيب هذا التعليم . فإذ حاولوا الاشتباك في جدال مع يسوع أحسوا بالثقة في أنهم حتى ولو لم يتمكنوا من إدانته فعلى الأقل سيجلبون عليه العار . واختاروا موضوع القيامة ليناقشوا المسيح فيه . فإذا وافقت عقيدته عقيدتهم فذلك سيكون كفيلا بأن يثير ضده المزيد من سخط الفريسيين ، أما إذا خالفهم فسيسخرون منه ومن تعاليمه.

وقد تحاج الصدوقيون قائلين إذا كان الجسم يتكون من نفس عناصر المادة في كلتا حالتي الخلود والموت ، إذا فعندما يقوم من الأموات ينبغي أن يتكون من لحم ودم ، ولابد أن يستأنف في عالم الخلود حياته التي قضى عليها الموت . ثم استنتجوا أنه في هذه الحالة ستعود الروابط الأرضية إلى ما كانت عليه فيتزوج الرجل امرأته وتعقد الزيجات وتعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الموت ، وستخلد ، في حياة الخلود الضعفات والشهوات والعواطف التي كانت في الحياة الدنيا.

وجوابا عن أسئلتهم رفع يسوع الستار عن الحياة الآتية فقال لهم: "في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوّجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء". فأبان لهم أنهم مخطئون في اعتقادهم ، كما كان الفرض الذي قدموه كاذبا . قال لهم: "تضلّون، إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله" (متى 22 : 30، 29). إنه لم يتهمهم بالرياء كما اتهم الفريسيين بل بالخطإ في العقيدة.

كان الصدوقيون يخدعون أنفسهم بالقول إنهم ، دون جميع الناس ، متمسكون بالكتاب بكل تدقيق . ولكن يسوع برهن لهم على عدم فهمهم لمعنى الكتاب الحقيقي . فتلك المعرفة ينبغي إدخالها إلى القلب بإنارة الروح القدس . كما أعلن لهم أن جهلهم للكتب المقدسة ولقوة الله هو السبب في تشوش إيمانهم وظلام عقولهم . كانوا يحاولون حصر أسرار الله في داخل محيط تفكيرهم الضيق المحدود ، فدعاهم المسيح لأن يفتحوا عقولهم لقبول تلك الحقائق المقدسة التي توسع مداركهم وتقويها . إن آلافا من الناس يسقطون في هاوية [571] الإلحاد لأن عقولهم المحدودة عاجزة عن إدراك سرائر الله . لا يمكنهم إيضاح مظاهر حوادث العناية الإلهية المدهشة ولذلك يرفضون براهين تلك القوة التي ينسبونها إلى عوامل طبيعية كانوا يفهمونها فهما أقل حتى من فهمهم لقوة الله . إن المفتاح الوحيد لمعرفة الأسرار المستغلقة علينا والمحيطة بنا هو الاعتراف بوجود الله وقدرته فيها كلها . إن الناس بحاجة إلى الاعتراف بالله كمن هو خالق الكون الذي يقول فيكون ويأمر فيصير . إنهم بحاجة إلى نظرة أوسع واشمل لصفاته واسرار وسائله.

أعلن المسيح لسامعيه أنه إذا لم تكن هنالك قيامة أموات فلا فائدة من الكتب المقدسة التي يعترفون بإيمانهم بها ، فقال: "وأما من جهة الأموات إنهم يقومون: أفما قرأتم في كتاب موسى، في أمر العليقة، كيف كلمة الله قائلاً: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب؟ ليس هو إله أموات بل إله أحياء" (متى 22 : 31 و 32). أن الله يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة وهو يرى النهاية من البداية ويرى نتيجة عما كما لو كان قد أكمل . فالموتى الأعزاء من آدم إلى أخر قديس يموت سيسمعون صوت ابن الله ويخرجون من قبورهم لحياة الخلود . إن الله سيكون لهم إلها وهم يكونون له شعبا وستكون هنالك صلة وثيقة ورقيقة بين الله وقديسيه المقامين . فهذه الحالة المنتظرة من قصده يراها هو كما لو كانت كائنة فعلا ، فالأموات أحياء لله.

أبكمت أقوال المسيح جماعة الصدوقيين ، ولم يستطيعوا أن يجيبوه . ولم ينطق يسوع بكلمة واحدة يمكن مؤاخذته عليها أو ادانته بسببها بأي شكل ، فلم يجد خصومه شيئا بل خرجوا مجللين باحتقار الشعب.

إن الفريسيين لم يقطعوا الأمل ، حتى ذلك الحين ، من أن يجروا المسيح لأن ينطق بما يمكن أن يأخذوه حجة ضده . فأقنعوا رجلا عالما من الكتبة بأن يسأل المسيح عن أية وصية من الوصايا العشر في الناموس هي أعظم الكل وأهم الكل.

الوصية العظمى

لقد عظم الفريسيون الوصايا الأربع الأولى التي تتناول واجب الإنسان نحو خالقه ، على أنها أعظم بكثير من الوصايا الست التي تحدد واجب الإنسان نحو أخيه وكان من [572] نتائج ذلك أن أخفق الناس في التقوى العملية وأغفلوها . كان يسوع قد أبان للناس نقصهم العظيم وعتقهم لزوم الأعمال الصالحة معلنا أن الشجرة تعرف من ثمرها . ولهذا السبب اتهم بتعظيمه للوصايا الست الاخيرة فوق الوصايا الأربع الأولى.

تقدم ذلك الناموسي إلى يسوع بسؤال مباشر قائلا: "أية وصية هي أول الكل؟" وقد كان جواب المسيح مباشرا وفعالا إذ أجابه قائلا: "إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". وقال المسيح إن الثانية هي مثل الأولى لأنها تنبع منها: "تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين". "بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كله والأنبياء".

إن الوصايا الأربع الأولى من الوصايا العشر مجملة في الوصية العظمى القائلة: "تحب الرب إلهك من كل قلبك" والوصايا الست الأخيرة متضمنة في الوصية الأخرى وهي: "تحب قريبك كنفسك". وكلتا هاتين الوصيتين هي تعبير عن مبدإ المحبة. فلا يمكن حفظ الوصية الأولى بينما تكسر الثانية، كما لا يمكن حفظ الوصية الثانية بينما تكسر الأولى. فمتى كان الله مركزه الشرعي على عرش القلب فإننا نضع القرب في الوضع اللائق به فنحبه كأنفسنا. وفقط عندما نحب الله من كل القلب يصبح في إمكاننا أن نحب قريبنا وبدون محاباة وبكل إنصاف.

وحيث أن كل الوصايا مجملة في محبتنا لله وللناس فيتبع ذلك أنه لا يمكن تعدي أية وصية دون الانتقاض على هذا المبدإ. وهكذا علّم المسيح سامعيه أن شريعة الله ليست وصايا كثيرة متفرقة بعضها هام والبعض الآخر قليل الأهمية ويمكن تجاهله بوقاحة وازدراء. إن ربنا يقدم الوصايا الأربع الأولى والوصايا الست الأخيرة كوحدة إلهية وهو يرينا أن محبتنا له تتبرهن بطاعتنا لكل وصاياه.

الكاتب الذي أعجب بالمخلص

إن ذلك الكاتب الذي سأل يسوع كان فاهما للناموس وقد أدهشته أقوال المسيح. لم يكن ينتظر منه أن يظهر مثل تلك المعرفة العميقة الصحيحة للكتب المقدسة. لقد حصل على [573] فكرة أوسع وأشمل للمبادئ المنطوية عليها الوصايا المقدسة. فأمام الكهنة والرؤساء المجتمعين اعترف بكل أمانة بأن المسيح قدم التفسير الصحيح للشريعة قائلا:

"جيداً يا معلم، بالحق قلت، لأنه الله واحد وليس آخر سواه. ومحبته من كل القلب، ومن كل الفهم، ومن كل النفس، ومن كل القدرة، ومحبة القريب كالنفس، هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح" (مرقس 12 : 32، 33).

إن الحكمة التي أبداها المسيح في جوابه أقنعت ذلك الكاتب. لقد عرف أن الديانة اليهودية كانت منحصرة في طقوس خارجية لا في تقوى قلبية. وكان يفهم تفاهة الذبائح الطقسية وعدم نفعها، وسفك الدم في عدم إيمان للتكفير عن الخطية، كما بدا له أن المحبة والطاعة لله ومحبة الناس وإيثارهم أعظم قيمة من كل الطقوس. وإن الاستعداد الذي أبداه هذا الرجل وسرعة بديهته في الاعتراف بصواب محاجة المسيح، واستجابته الأكيدة السريعة أمام الشعب كشفت عن روح تختلف اختلافا بينا عن روح الكهنة والرؤساء وقد امتلأ قلب يسوع عطفا على ذلك الكاتب الأمين الذي تجرأ على مجابهة عبوسة الكهنة وتهديدات الرؤساء فتكلم عن اقتناع قلبي "فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل، قال له: لست بعيداً عن ملكوت الله" (مرقس 12 : 34).

لقد كان ذلك الكاتب قريبا من ملكوت الله لكونه فهم أن أعمال البر مقبولة لدى الله أكثر من المحرقات والذبائح. ولكنه كان بحاجة إلى فهم صفة المسيح الإلهية. فبالإيمان به يستطيع أن ينال قوة لعمل البر. أما خدمة الطقوس فلم يكن لها قيمة حقيقية ما لم تتحد بالإيمان الحي. وحتى الشريعة الأدبية تقصر عن إتمام غرضها ما لم تفهم في صلتها بالمخلص. وقد أرانا المسيح مرارا أن شريعة أبيه تشتمل على ما هو أعمق من مجرد الأوامر الجازمة، كما اشتمل الناموس على نفس المبدإ المعلن في الإنجيل. إن الناموس يري الإنسان واجبه كما يريه أيضا ذنبه. وعليه أن يلتفت إلى المسيح في طلب الغفران والقوة على إكمال مطاليب الناموس.

“ماذا تظنون في المسيح؟”

تجمهر الفريسيون ملتفين حول يسوع عندما أجاب على سؤال الكاتب . فالتفت إليهم [574] وسألهم قائلا: “ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟” وقد كان قصده بهذا السؤال اختبار اعتقادهم في مسيا ، ليرى ما إذا كانوا يعتبرونه مجرد إنسان أو يعتبرونه ابن الله . فأجابه جماعه منهم بفم واحد قائلين: “ابن داود” (متى 22 : 42). هذا كان اللقب الذي أطلقته النبوات على مسيا . عندما أظهر يسوع ألوهيته بآياته ومعجزاته العظيمة ، عندما شفى المرضى وأقام الموتى جعل الناس يتساءلون فيما بينهم قائلين: “أليس هذا هو ابن داود؟” إن المرأة الكنعانية وبارثيماوس الأعمى وكثيرين غيرهما كان كل يطلب منه قائلا: “ارحمني، يا سيد، يا ابن داود!” (متى 15 : 22). وإذ دخل راكبا إلى مدينة أورشليم هتفت له الجموع الفرحة قائلا: “أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب!” (متى 21 : 9)، كما رن في الهيكل صدى أصوات الأولاد الصغار وهم يرددون نفس ذلك الهتاف . ولكن كثيرين ممن كانوا يدعون يسوع ابن داود لم يعترفوا بألوهيته ، ولم يعترفوا أن ابن داود هو أيضا ابن الله.

وجوابا على قولهم إن المسيح هو ابن داود قال يسوع: “فكيف يدعوه داود بالروح (روح الإلهام من الله) ربا؟ قائلاً: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإن كان داود يدعوه ربا، فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة. ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بتة” (متى 22 : 43 — 46). [575]

الفصل السابع والستون—الويلات على الفريسيين

كان ذلك آخر يوم علَّم فيه المسيح في الهيكل ، وقد اتجهت إليه أنظار كل الجماهير الحاشدة المجتمعة في أورشليم ، وازدحمت كل أروقة الهيكل بالناس ليشهدوا ذلك الصراع المحتدم ، وبكل شوق ولهفة أصغوا إلى كل كلمة نطقت بها شفتاه . لم يسبق للناس أن رأوا مثل ذلك المشهد قط . لقد وقف هناك ذلك الشاب الجليلي وهو لا يحمل أي وسام ملوكي أو مجد أرضي ، وكان يحيط به الكهنة بحللهم الغالية الثمن والرؤساء بثيابهم المزدانة بالأوسمة الدالة على شرف محتدهم ورفعة شأنهم ، والكتبة يحملون الأسفار المقدسة في أيديهم وكانوا يرجعون إليها بين حين وآخر . وقف يسوع أمامهم بكل هدوء وعلى وجهه وقار ملك . وكمن هو مزود بسلطان سماوي نظر بلا خوف ولا وجل إلى خصومه الذين قد رفضوه واستخفوا بتعاليمه وكانوا متعطشين لسفك دمه . لقد هاجمه عدد غفير منهم ، ولكن كل مؤامراتهم التي حاكوها لاصطياده أحبطت وباءت بالفشل . وقد تلقى هجوما في إثر هجوم ، وهو يقدم للناس الحق النقي المتألق بالنور على نقيض ظلمة أخطاء الكهنة والفريسيين . ثم بسط أمام أنظار أولئك الرؤساء حالتهم على حقيقتها ، والقصاص الذي لابد أن يعقب إصرارهم على ارتكاب الأعمال الشريرة . ثم قدم إليهم الإنذار بكل أمانة ، ومع ذلك فقد بقي للمسيح عمل أخر يعمله . كان أمامه غرض آخر يجب إتمامه.

ازداد اهتمام الشعب بالمسيح وعمله ازديادا مطردا . لقد سحرتهم روعة تعاليمه ومع ذلك فقد كانوا في أشد ارتباك . كانوا يوقرون الكهنة والمعلمين لأجل ذكائهم وتقواهم المصطنعة ، وفي كل الشؤون الدينية كان الشعب يقدم للرؤساء طاعة كاملة . ومع ذلك فها هم الآن يرون أولئك الرجال يحاولون إلحاق الإهانات بيسوع المعلم الذي أضاءت فضائله ومعرفته وزاد نورها بتوالي هجماتهم عليه . نظروا إلى وجوه أولئك الكهنة والشيوخ المتجهمة فرأوا الهزيمة والارتباك مرتسمين عليها . وقد ذهلوا لكون الرؤساء رفضوا الإيمان بيسوع مع أن تعاليمه كانت في غاية الوضوح [576] والبساطة . ولم يكونوا هم أنفسهم يعرفون كيف يتصرفون . فبجزع وشوق جعلوا يراقبون حركات أولئك الرؤساء الذين كانوا دائما يتبعون مشورتهم.

قيود التقاليد

كانت غاية المسيح من أمثاله التي أوردها غاية مزدوجة ، فقد كان يرمي إلى إنذار الرؤساء وتعليم الشعب الراغب في التعلم . ولكن الحاجة كانت تدعوه لأن يتكلم بصراحة أعظم مما فعل قبلا . إن الشعب بسبب احترامهم للتقاليد وثقتهم العمياء برجال الكهنوت الفاسدين كانوا مستعبدين . ولابد للمسيح أن يحطم تلك الأغلال . فينبغي أن يفضح خلق الكهنة والرؤساء والفريسيين علنا وبكيفية شامل.

فقال: ”على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه،

ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون” (متى 23 : 2، 3). كان الكتبة والفريسيون يدعون أنهم مزودون بسلطان إلهي شبيه بما قد أعطي لموسى . كما ادعوا أنهم أخذوا مكانة كمفسري الناموس وقضاة الشعب . ولهذا الاعتبار طلبوا من الشعب أن يقدموا لهم أعظم إكرام وطاعة . لذا أمر يسوع سامعيه أن يعملوا ما يطلب منهم المعلمون حسب الناموس ولكن لا يتشبهوا بهم ، لأنهم هم أنفسهم لم يمارسوا التعاليم التي كانوا يعلمونها للناس.

ثم إنهم كانوا يعلمون تعاليم كثيرة مناقضة للكتاب المقدس . فقد قال يسوع: “فإنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحرّكوها بإصبعهم” (متى 23 : 4). لقد فرض الفريسيون على الشعب كثيرا من النظم والقوانين المبنية على التقاليد وكانت تحد من الحرية الشخصية إلى حد لا يقبله العقل فكانوا يفسرون بعض أجزاء الشريعة تفسيرا يفرض على الناس بعض الفرائض التي كانوا هم أنفسهم يتجاهلونها في الخفاء . وكانوا أحيانا يدعون أنهم معفون منها حسبما تقتضيه أهواؤهم.

كان الهدف الذي وضعوه نصب عيونهم هو الإشادة بتقواهم والتظاهر بها . وقد بذلوا كل جهدهم في سبيل ذلك ، ولم يكونوا يتورعون عن أي شيء للوصول إلى غرضهم . أمافيما يختص بالوصايا الإلهية فقد أمر الرب موسى قائلا: “واربطها علامة على يدك، [577] ولتكن عصائب بين عينيك” (تثنية 6 : 8). هذا الكلام له معناه العميق . فإذ يلهج الإنسان بكلمة الله ويمارسها سالكا بموجبها فإنه يصل إلى درجة عظيمة من النبل والسمو . وفي المعاملات البارة الرحيمة تظهر اليدان مبادئ شريعة الله كختم المصادقة على اعتراف الشفتين . وستحفظان من قبول الرشوة وكل فساد وخداع ، وستجتهدان وتنشطان في أعمال المحبة والرحمة . والعينان إذ تتجهان نحو غرض نبيل ستكونان صافيتين وصادقتين . والوجه المعبر والعينان اللتان تنطقان بأفصح بيان تشهد للخلق الذي بلا لوم الذي يتصف به كل من يحب كلمة الله ويكرمها . ولكن اليهود في أيام المسيح لم يفطنوا إلى هذا كله . فان الأمر الذي صدر إلى موسى حرف بحيث فهمه الناس على أن يكتب الإنسان وصايا الله ويجعلها لباسا له . وتبعا لذلك كتبت الوصايا على رقوق وكانت تربط في مكان ظاهر في الجبهة أو على اليد . ولكن هذا الإجراء لم يجعل شريعة الله تتمكن أو تثبت في الذهن والقلب . ولكن الناس كانوا يلبسون تلك الرقوق كسمات أو شارات لتسترعي انتباه الآخرين . وكان يظن أنها تكسب من يلبسونها هيئة التعبد والقداسة التي تلزم الناس بإكرامهم وتوقيرهم ، فوجه يسوع ضربة شديدة إلى هذا الادعاء الباطل.

الرب يوبخ طلب تمجيد الذات

“وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس: فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهذاب ثيابهم، ويحبون المتكأ الأول في الولائم، والمجالس الأولى في المجامع، والتحيات في الأسواق، وأن يدعوهم الناس: سيدي سيدي! وأما أنتم فلا تدعوا سيدي، لأن معلمكم واحد المسيح، وأنتم جميعاً أخوة. ولا تدعوا لكم أباً على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السموات. ولا تدعوا معلّمين، لأن معلّمكم واحد المسيح” (متى 23 : 5 — 10). بمثل هذه الأقوال الصريحة كشف المخلص عن الطموح الأناني الذي كان يطلب أبدا مجالا وسلطانا وهو يتظاهر بالوداعة الكاذبة في حين كانت القلوب مشحونة طمعاً وحسدا . عندما كان الناس يدعون إلى وليمة كان الضيوف يجلسون في المكان الملائم لمقامه . فالذين كان يعطى لهم أكرم مكان كانوا يتمتعون باهتمام خاص وينالون حظوة عظيمة . وكان الفريسيون دائبين دائما في تدبير خططهم للحصول

على تلك الكرامات ، فوبخ يسوع هذه التصرفات. [578] كما أنه وبخ الغرور الذي جعل أولئك القوم يتحرقون شوقاً للحصول على ألقاب الشرف مثل "سيد" أو "معلم". وأعلن أن هذا اللقب لا يخص إنسانا بل: يخص المسيح نفسه . لقد كان الكهنة والكتبة والرؤساء ، مفسرو الناموس والمهيمنون عليه ، إخوة أبناء أب واحد وقد شدد يسوع على ألا يطلق الشعب أي لقب من ألقاب الشرف على إنسان ليدل على سيطرته على ضمائرهم أو إيمانهم.

لو كان المسيح عائشاً على الأرض اليوم بين من يحملون الألقاب الدينية الرنانة التي لا يوصف بها إلا الله أما كان يردد كلامه القائل: "أما أنتم فلا تدعو سيدي، لأن معلمكم واحد المسيح"؟ إن الكتاب المقدس يعلن عن الله قائلا: "قدوس ومهوب اسمه" (مزمور 111 : 9). أي مخلوق بشري يستحق أن يطلق عليه هذا اللقب ؟ وما أقل ما يظهر الإنسان من الحكمة والبر اللذين يدل عليهما هذا اللقب ! وما أكثر من يطلقون هذا اللقب على أنفسهم وهم في نفس الوقت يمثلون اسم الله وصفاته أسوا تمثيل ! واأسفاه ، فما أكثر ما يختفي الطموح العالمي والاستبداد والتعسف وأسفل الخطايا وأنجسها تحت ستار الثياب المزينة التي يلبسها أصحاب المراكز المقدسة الهامة ! وقد استطرد المخلص قائلا:

"أكبركم يكون خادماً لكم. فمن يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع" (متى 23 : 11 و 12)! عّلم المسيح مرارا عديدة أن العظمة الحقيقية تقاس بقيمة الإنسان الأخلاقية . فحسب تقدير السماء تنحصر عظمة الخلق في كوننا نعيش لنعمل الخير لبني الإنسان ، وفي القيام بأعمال المحبة والرحمة . فلقد كان المسيح ، ملك المجد ، خادما للبشر الساقطين.

قال يسوع: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدّام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون" (متى 23 : 13). إن الكهنة والناموسيين إذ حرفوا الكتب المقدسة فقد أعموا أذهان أولئك الذين لولا هذا التصرف من جانب الرؤساء ما كانوا قد عرفوا عن ملكوت المسيح ، وتلك الحياة الإلهية في أعماق الإنسان التي هي جوهرية للقداسة الحقيقية.

عقول مظلمة وأيد جشعة

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلّة [579] تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم" (متى 23 : 14).

كان للفريسيين نفوذ عظيم على الشعب وقد استفادوا من هذا لخدمة مصالحهم . فقد ظفروا بثقة الأرامل التقيات ، وإذ ذاك أقنعوهن بوجوب تكريس أملاكهن لأغراض دينية .وبعدما استولى أولئك المتآمرون المحتالون على أموال الأرامل استخدموها لمنفعتهم الشخصية . ولكي يخفوا تلك الخيانة كانوا يقدمون صلوات طويلة جهارا متظاهرين بالتقوى . وقد أعلن المسيح أن هذا الرياء سيجلب عليهم دينونة أعظم . وهذا التوبيخ ينصب على رؤوس كثيرين في أيامنا هذه الذين يتشدقون بالتقوى . لقد تلطخت حياتهم بالأنانية والطمع ، ومع ذلك فهم يخفون هذا كله تحت رداء الطهارة الزائفة ، وبذلك يخدعون بني جنسهم إلى حين . ولكنهم لن يستطيعوا أن يخدعوا الله . إنه يعرف كل نوايا القلب وسيدين كل إنسان حسب أعماله.

دان المسيح سوء المعاملة بلا رحمة ولكنه حرص أيضاً على عدم التقليل من الالتزام والمسؤولية . لقد وبخ الناس على الأنانية التي سلبت الآخرين حقوقهم ، وجعلت أصحابها يسيئون استعمال عطايا الأرامل . وفي نفس الوقت امتدح الأرملة التي أتت بتقدمتها إلى خزانة بيت الله . إن سوء استعمال الإنسان للعطية لم يحرم المعطين من بركة الله.

فلسا الأرملة

كان يسوع في الرواق الذي كانت فيه خزانة الهيكل وكان يراقب الناس الآتين ليقدمواعطاياهم . ثم أتى كثيرون من الأغنياء بمبالغ كبيرة وكانوا يقدمونها بتفاخر وكبرياء . وقد نظر إليهم يسوع بحزن ولم يقل شيئا عن عطاياهم السخية . ولكن فجأة أشرق محياه عندما رأى أرملة فقيرة تقترب بتردد وخجل كأنما تخشى أن يراها أحد . وإذ كان الأغنياء المتغطرسون يتقدمون ليضعوا تقدماتهم تراجعت هي كأنها لا تجرؤ على التقدم أكثر . ومع ذلك كانت تتوق لأن تقدم شيئا ولو قليلا لعمل الرب الذي كانت تحبه . نظرت إلى التقدمة التي في يدها وكانت لا تساوي شيئا أمام عطايا الأغنياء الواقفين من حولها . ومع ذلك كانت تقدمتها هي كل ما تملكه . فانتهزت الفرصة وبسرعة ألقت فلسيها ثم ذهبت في طريقها بعجلة . ولكن فيما كانت تفعل ذلك التقت عيناها بعيني يسوع اللتين حدقتا النظر إليها باشتياق.

ثم دعا المخلص تلاميذه إليه وأمرهم أن يلاحظوا فقر تلك الأرملة . ومن ثم سمعت [580] المرأة كلامه وهو يمتدحها بقوله: "بالحق أقول لكم: إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع" (لوقا 21 : 3). فانهمرت من عينيها دموع الفرح حين أحست بأن صنيعها قد فهم وحظي بالتقدير . ربما وجد كثيرون ممن نصحوا تلك الأرملة بأن تحتفظ لنفسها بالقليل الذي معها لتستخدمه لنفسها . لأنه إذ يوضع بين أيدي الكهنة المتزمتين فسيضيع بين التقدمات الأخرى الغالية التي يؤتى بها إلى الخزانة . ولكن يسوع فهم بواعثها ، فلقد كانت تؤمن بأن خدمة الهيكل معينة من الله وكانت تتوق لأن تبذل قصارى جهدها للمساهمة في نفقاته . لقد عملت ما استطاعت عمله ، وكان عملها مزمعاً أن يصير نصبا تذكاريا لها مدى الدهر وسبب فرحها في الأبدية . لقد قدمت قلبها مع تقدمتها التي قدرت قيمتها لا بمقدار ما تساويه قطعة النقود ، بل بمقدار محبتها لله واهتمامها بعمله الذي دفعها لتقديمها.

قال يسوع عن هذه الأرملة الفقيرة إنها "ألقت أكثر من الجميع". إن الأغنياء ألقوا من فضلتهم ، وكثيرون منهم قدموا ما قدموه بقصد المفاخرة والمباهاة والحصول على مجد من الناس ، ولم تحرمهم عطاياهم الكبيرة من متع الحياة أو حتى الترف ، فهي لم تتطلب تضحية ، ولذلك لم تستحق أن تقارن بقيمة ما بلغه فلسا الأرملة.

أسمى قيمة من النقود

إن الباعث أو الدافع هو الذي يعطى ميزة لأعمالنا ، فإما أن يصمها بوصمة عار أو يعطيها القيمة الأدبية التي تستحقها . فليست الأشياء العظيمة التي تراها كل عين ويمتدحها كل لسان هي التي لها قيمة عظيمة في نظر الله ، ولكن الواجبات البسيطة التي نؤديها بفرح والعطايا القليلة القيمة التي نقدمها في غير مباهاة والتي تبدو للعين البشرية كأنها عديمة القيمة هي في الغالب التي لها أسمى تقدير في نظر الله . فالقلب العامر بالإيمان والنابض بالحب هو أغلى في نظر الله من أثمن العطايا . إن الأرملة الفقيرة قدمت كل معيشتها لتحمل القليل الذي عمقه . لقد حرمت نفسها من الطعام لتقدم الفلسين لعمل الله الذي قد أحبته . وقد فحلت ذلك بإيمان ، إذ كانت تؤمن بأن أباها السماوي لن يغضي عن عوزها الشديد ولن ينساها . فهذه الروح المنكرة لنفسها وذلك الإيمان الشبيه بإيمان الأولاد هما اللذان استحقا مديح المخلص واستحسانه. [581]

يوجد كثيرون من الفقراء الذين يرغبون في إظهار شكرهم لله على نعمته وحقه ، ويرغبون كل الرغبة في المساهمة مع إخوتهم الأوفر ثراء منهم في معاضدة عمل الرب .فينبغي ألا يصد أمثال أولئك الناس بل ليسمح لهم بأن يضعوا القليل الذي لهم في المصرف السماوي . فمتى قدمت هذه العطايا من قلوب مفعمة حبا لله فمع أنها تبدو تافهة فإنها تصير عطايا مكرسة وتقدمات لا تقدر بثمن يفرح بها قلب الله و يباركها.

إن يسوع عندما قال إن تلك الأرملة "ألقت أكثر من الجميع" كان صادقاً في كلامه ، ليس فقط من حيث الدافع بل أيضاً من حيث نتائج تلك التقدمة . إن "الفلسين الذين قيمتهما ربع" قد جلبا إلى خزانة الله كمية من المال أعظم من كل التقدمات التي أتى بها أولئك اليهود الأثرياء . إن أثر تلك التقدمة البسيطة كان كنبع ماء صغير عند منبعه ، ولكن بعد ذلك يصير واسعا وعميقا في مجراه وتفيض مياهه مدى الأجيال . وبوسائل لا حصر لها ساهمت تلك التقدمة في إسعاف الفقراء وانتشار الإنجيل . إن عمل التضحية الذي قامت به تلك الأرملة قد أثر متفاعلا في قلوب آلاف الناس في كل البلدان والعصور . وكان له تأثير في الأغنياء والفقراء ، فضاعفت تقدماتهم من قيمة عطيتها . إن بركة الله على فلسي الأرملة جعلتهما سببا في نتائج عظيمة ، وكذلك الحال مع كل تقدمة نقدمها وكل عمل نقوم به برغبة مخلصة لمجد الله فهو مرتبط بمقاصد الله القادر على كل شيء . إن نتائج ذلك العمل للخير لا يمكن تقديرها.

أحمال لا لزوم لها

تابع المخلص تشهيره بالكتبة والفريسيين فقال: "ويل لكم أيها القادة العميان! القائلون: من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال والعميان! أيما أعظم: الذهب أم الهيكل الذي يقدّس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان! أيما أعظم: القربان أم المذبح الذي يقدّس القربان؟" (متى 23 : 16 — 19). لقد فسر الكهنة مطاليب الله بحسب مقياسهم المحدود المزيف . كانوا يدعون أنهم يصنعون تفريقا دقيقا بالنسبة إلى درجة جسامة الخطايا المختلفة مستخفين ببعض الخطايا ، ومعتبرين بعض الخطايا الأخرى التي قد تكون أقل شأنا كأن لا غفران لها . فلأجل اعتبارات مالية أعفوا بعض الناس من [582] وفاء نذورهم ، وفي مقابل مبالغ كبيرة من المال كانوا أحيانا يتغاضون عن جرائم خطيرة . وفي نفس الوقت كان هؤلاء الكهنة والرؤساء يصدرون في بعض الحالات الأخرى حكما صارما على هفوات تافهة.

عظام وقبور

ثم عاد يسوع يقول: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تعشّرون النعنع والشبث والكمون، وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك" (متى 23 : 23). وفي كل هذا الكلام يدين المسيح مرة أخرى إساءة استخدام الالتزامات المقدسة . وهذا الالتزام نفسه لا يغفله ، فالله هو الذي فرض نظام العشور وقد حفظ منذ أقدم العصور . فإبراهيم أبو المؤمنين قدم عشرا من كل أمواله . وكان رؤساء إسرائيل يسلمون بضرورة دفع العشور ، وكان هذا العمل صوابا ، ولكنهم لم يتركوا الشعب ليتحملوا بأنفسهم تبعة اقتناعهم بالواجب ، بل وضعت قوانين تعسفية لكل حالة .

وقد تعقدت كل المطاليب بحيث غدا من المستحيل حفظها . ولم يكن أحد يعرف متى تتم عهوده . كان ذلك النظام عادلا ومقبول بحسب ما أعطاه الله ، ولكن الكهنة والرؤساء جعلوه عبئا مملا ثقيلا.

إن كل ما يأمر به الله له أهميته . فلقد اعتبر المسيح تقديم العشور واجبا ، غير أنه أبان لسامعيه أن هذا لا يعفيهم من مسؤولية إهمالهم للواجبات الأخرى . كان الفريسيون مدققين جدا في تعشير الأعشاب النامية في البساتين كالنعنع والشبث والكمون ، فهذا لم يكن ليكلفهم كثيرا ، بل قد جعلهم يشتهرون بالتدقيق والقداسة . وفي نفس الوقت فإن أوامرهم ونواهيهم التي لا نفع منها ضايقت الشعب وأضاعت توقير الناس لذلك النظام المقدس الذي قد أقره الله نفسه . لقد شحنوا عقول الناس بفروق تافهة ، وأبعدوا تفكيرهم عن الحقائق الجوهرية ، فالأمور العظيمة الأهمية في الناموس ، كالحق والرحمة والإيمان أغفلت . وقد قال لهم يسوع: " كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك".

وهنالك قوانين أخرى أفسدها المعلمون على هذا النحو . ففي الأوامر المعطاة للشعب بواسطة موسى نهاهم الله عن أكل كل شيء نجس . فأكل لحم الخنزير وبعض الحيوانات [583] الأخرى كان محرماً لاحتمال كونه يملأ الدم بالنجاسة ويقصر العمر . ولكن الفريسيين لم يتركوا هذه النواهي كما قد أعطاها الله بل تطرفوا إلى الحدود غير الجائزة وكان ضمن الأشياء المطلوب من الشعب عملها أن يصفوا كل الماء الذي يستعملونه لئلا تكون فيه أصغر حشرة يمكن حسبانها ضمن الحيوانات النجسة . وإذ قارن يسوع بين هذه النواهي التافهة وبين هول خطاياهم الفعلية قال للفريسيين: "أيها القادة العميان! الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل" (متى 23 : 24).

قال لهم أيضاً: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة" (متى 23 : 27). فكما أن القبر المبيض والمزين من الخارج يخفي في داخله الجثث المتعفنة ، فكذلك القداسة الظاهرية التي كان يتباهى بها الكهنة والرؤساء كانت تخفي وراءها الآثام والمفاسد . ثم قال أيضاً:

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزيّنون مدافن الصدّيقين، وتقولون: لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء" (متى 23 / 29 — 31). إن اليهود لكي يظهروا تقديرهم للأنبياء الذين ماتوا جعلوا بكل اهتمام وحماسة يزينون مدافنهم ، ولكنهم لم يستفيدوا من تعاليمهم ولا ألقوا بالا إلى توبيخاتهم.

ففي أيام المسيح اهتم الناس اهتماما خرافيا بمدافن الموتى وأنفقت مبالغ طائلة من المال على تزيينها . وكان هذا عبادة أوثان في نظر الله . وذلك أن الناس في توقيرهم المبالغ فيه وغير اللائق بالموتى برهنوا على أنهم لم يحبوا الله من كل القلب ولا أحبوا القريب كالنفس ونفس هذه الوثنية متفشية بين الناس في هذه الأيام . كثيرون مجرمون في كونهم يهملون الأرامل واليتامى والمرضى والفقراء لكي يبنوا أنصابا وتماثيل غالية الثمن للموتى . فهم ينفقون الوقت والمال والجهود بسخاء لأجل هذه الاغراض ، في حين أنهم يهملون واجبهم نحو الأحياء . فتلك الواجبات التي قد فرضها المسيح بكل صراحة قد تركت وأغفلت.

لقد بنى الفريسيون قبور الأنبياء وزينوا مدافنهم وقال أحدهم للآخر: لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في سفك دم خدام الله . ولكنهم كانوا في نفس الوقت يتآمرون لسفك دم ابنه . ونحن ينبغي أن نتخذ من هذا درسا لنفوسنا ، ويجب أن نفتح عيوننا للتحقق من قوة [584] الشيطان على خداع العقول التي تبتعد عن نور الحق . كثيرون يسيرون في إثر خطوات الفريسيين . فهم يكرمون أولئك الذين ماتوا في سبيل إيمانهم . وهم يندهشون من عمى اليهود في رفضهم للمسيح . ثم يعلنون قائلين: لو عشنا في أيامه لكنا بكل سرور قبلنا تعاليمه وما كنا اشتركنا قط في جريمة من قد رفضوا المخلص . ولكن عندما تستلزم الطاعة لله إنكار الذات والتواضع فإن نفس هؤلاء الناس يخدمون اقتناعهم ويرفضون الطاعة . وهكذا يظهرون نفس الروح

التي اتصف بها الفريسيون الذين دانهم المسيح.

سافكو دم

إن اليهود لم يكونوا يحسون بمسؤوليتهم الهائلة في رفضهم للمسيح . فمنذ الوقت الذي أهرق فيه دم أول إنسان عندما ذبح قايين أخاه هابيل الصديق ، ونفس ذلك التاريخ يتكرر مع تفاقم الجرائم . ففي كل عصر كان الأنبياء يرفعون أصواتهم ضد خطايا الملوك والولاة والشعب وهم يخاطبونهم بالكلام الذي وضعه الله في أفواههم وقد أطاعوه مخاطرين بحياتهم . ومن جيل إلى جيل تجمعت الدينونة والقصاص الرهيب على رؤوس رافضي النور والحق . وكان أعداء المسيح يستمطرون هذا القصاص فوق رؤوسهم . إن خطية الكهنة والرؤساء كانت أعظم وأثقل من كل ما ارتكبه الناس في العصور السالفة . وبرفضهم للمخلص أوقعوا أنفسهم تحت مسؤولية دم كل الناس الأبرار الذين قتلوا من أيام هابيل إلى أيام المسيح . كان كأس إثمهم قد فاض وكان مزمعا أن ينصب على رؤوسهم في نقمة عدل الله . وقد قال يسوع بهذا الصدد:

“لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض، من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم: إن هذا كله يأتي على هذا الجيل!” (متى 23 : 35 و 36).

لقد عرف الكتبة والفريسيون الذين سمعوا كلام يسوع أن ذلك الكلام حق . وقد عرفوا كيف مات زكريا النبي . فإذ كان ينطق بكلام الإنذار من قبل الله تسلط على الملك المرتد غضب شيطاني وبأمره قتل النبي وقد رش من دمه على نفس أحجار رواق الهيكل ولم يمكن محو ذلك الدم بل بقي ليكون شهادة على ارتداد إسرائيل . وطالما كان الهيكل باقيا بقيت [585] لطخات ذلك الدم الزكي صارخة تطلب الانتقام . وإذ أشار يسوع إلى تلك الخطايا المخيفة سرت في ذلك الجمع هزة رعب.

يوبخ في محبة

وإذ نظر يسوع إلى الأمام إلى المستقبل أعلن أن عصيان اليهود ورفضهم لخدام الله سيبقيان كما كانا فيما مضى ثم قال:

“لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة” (متى 23 : 34) — أنبياء وحكماء مملوئين من الإيمان والروح القدس- كاستفانوس ويعقوب وآخرين كثيرين- سيحكم عليهم ويقتلون . فإذ رفع المسيح يده إلى السماء وقد غمره نور إلهي جعل يخاطب الناس الماثلين أمامه كقاض . وصوته الذي طالما سمع ينطق بالتوسلات الرقيقة ، سمع الآن ينطق بكلام التوبيخ والدينونة . فارتعب السامعون ، ولم يكن ممكنا أن يمحى تأثير كلامه ونظراته .

كان غضب المسيح منصبا على الرياء والخطايا الشنيعة التي كانت علة هلاك أرواح الناس وهم يموهون على الشعب ويهينون الله . وفي محاجة الكهنة والرؤساء الخادعة المموهة مع الفادي فطن إلى عمل القوات الشيطانية . وقد كان تشهيره بالخطية صارما وفاحصا ولكنه لم ينطق بكلام انتقامي . لقد

اشتعل غضبه المقدس ضد سلطان الظلمة ولكن لم يبد منه أي اهتياج . وكذلك كل مسيحي يعيش على وفاق مع الله وله صفات الرحمة والمحبة الجميلة لابد أن يحس بغضب مقدس ضد الخطية ، ولكن الغضب لا يثيره بحيث يشتم من يشتمونه . وحتى لو التقى بمن تحركهم قوة شيطانية ليروجوا الكذب ففي المسيح لابد أن يحتفظ بالهدوء وضبط النفس.

ولقد ارتسم الإشفاق الإلهي على وجه ابن الله عندما ألقى نظرة أخيرة على الهيكل ثم على سامعيه . وبصوت خنقته العبرات والحزن القلبي العميق صاح قائلا: "يا أورشليم، يا أورشليلم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا!" (متى 23 : 37). هذا هو كفاح الانفصال . ففي مرثاة المسيح يسكب الله قلبه . إنه الوداع الخفي لمحبة الله الصابرة المتمهلة. [586]

يفصلون أنفسهم عن الله

لقد أبكم الفريسيون والصدوقيون جميعا . ثم دعا يسوع تلاميذه وتأهب لمبارحة الهيكل ، ليس كمن قد انهزم وأرغم على الانصراف من أمام خصومه بل كمن قد أتم عمله . لقد خرج من ذلك الصراع ظافرا منتصرا.

إن تلك الدرر التي خرجت من بين شفتي المسيح في ذلك اليوم الكثير الوقائع قد أودعها كثيرون في قلوبهم . فبالنسبة إليهم بدأت في الحياة آراء جديدة وأوقظت أشواق جديدة وبدأ تاريخ جديد . وبعد صلب المسيح وقيامته تقدم هؤلاء الناس إلى الأمام وأتموا مأموريتهم الإلهية بحكمة وغيرة متناسبتين مع عظمة العمل . لقد حملوا رسالة وصلت إلى قلوب الناس ، رسالة أضعفت قوة الخرافات القديمة التي أوهنت حياة آلاف الناس . وأمام شهادتهم بدت النظريات والفلسفات البشرية كخرافات عاطلة . وقد كانت النتائج التي حدثت من أثر أقوال المخلص عظيمة جدا في نظر ذلك الجمع المندهش المرتعب في هيكل أورشليم .

إن إسرائيل كأمة قد فصلوا أنفسهم عن الله . لقد قطعت أغصان الزيتونة الطبيعية . فإذ نظر يسوع إلى داخل الهيكل ؟ لأخر مرة قال بشجن مفجع محزن: "هوذا بيتكم يترك لكم خراباً. لأني أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب!" (متى 23 : 38 و 39). كان قبل ذلك يدعو الهيكل بيت ابيه ، أما الآن ففيما كان ابن الله خارجا من الهيكل انسحب حضور الله إلى الأبد من ذلك الهيكل الذي قد بني لمجده . ومنذ ذلك الحين صارت طقوسه بلا معنى وخدماته سخرية لاذعة. [587]

الفصل الثامن والستون ـــ في الدار الخارجية

"وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد. فتقدّم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل، وسألوه قائلين: يا سيد، نريد أن نرى يسوع. فأتى فيلبس وقال لأندراوس، ثم قال أندراوس وفيلبس ليسوع" (يوحنا 12 : 20 — 22).

في هذا الوقت بدا وكان عمل المسيح قد أصيب بهزيمة قاسية . لقد انتصر في صراعه مع الكهنة والفريسيين ، ولكن كان من الواضح أنهم لن يقبلوه أبدا كمسيا . وها جاء وقت الانفصال النهائي . فقد بدا لعيون التلاميذ وكأن الحالة ميؤوس منها . ولكن المسيح كان يقترب من نهاية عمله . فالحادثة العظيمة التي لم تكن تهم اليهود وحدهم بل العالم أجمع كانت وشيكة الوقوع . فعندما سمع يسوع هذا الطلب الملح القائل: "نريد أن نرى يسوع" منبعثا من قلب العالم الجائع اشرق وجهه وتهلل قائلا: "قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان" (يوحنا 12 : 23). لقد رأى في طلب هؤلاء اليونانيين عربون نتائج كفارته العظيمة.

"نريد أن نرى يسوع"

جاء هؤلاء الناس من الغرب ليروا المخلص عند نهاية حياته كما جاء المجوس من المشرق ليروه في طفولته . فعند ميلاد المسيح كان اليهود منغمسين في أعمالهم ومطامعهم بحيث لم يعلموا بمجيئه . وقد أتى المجوس من بلاد وثنية إلى المذود بهداياهم ليسجدوا للمخلص . وهكذا هؤلاء اليونانيون الذين كانوا يمثلون أمم العالم وقبائله وشعوبه أتوا ليروا يسوع . وهكذا يجذب صليب المخلص الناس من كل البلدان وفي كل العصور . "إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتّكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات" (متى 8 : 11). [588]

كان اليونانيون قد سمعوا عن دخول يسوع الانتصاري إلى أورشليم . وقد ظن البعض وأذاعوا الخبر بأنه قد طرد الكهنة والرؤساء من الهيكل وأنه سيجلس على عرش داود ويملك على إسرائيل . فتاق أولئك اليونانيون لمعرفة الحقيقة بالنسبة إلى رسالته فقالوا: "نُرِيد أَنْ نَرى يسوعَ . وقد أجيبوا إلى طلبهم . وعندما وصل الخبر إلى يسوع كان في الهيكل في مكان لا يسمح لغير اليهود بدخوله فخرج إلى اليونانيين في الدار الخارجية وقابلهم مقابلة شخصية.

كانت ساعة تمجيد المسيح قد أتت . كان واقفا في ظل الصليب ، وقد أبان له طلب اليونانيين أن الذبيحة التي كان مزمعا أن يقدمها ستأتي بأبناء كثيرين إلى الله . وعرف أن اليونانيين سيرونه بعد قليل في وضع لم يكونوا يحلمون به حينئذ . سيرونه في مركز أدنى من مركز باراباس اللص القاتل الذي سيطلب إطلاقه دون ابن الله . وسيسمعون الشعب يقررون اختيارهم بتحريض من الكهنة والرؤساء ، وإذ سألهم بيلاطس قائلاً: "فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح؟ قال له الجميع: "ليصلب!" (متى 27 : 22). عرف

المسيح أنه إذ يقدم هذه كفارة لأجل خطايا الناس فسيكمل ملكوته وينتشر إلى كل أنحاء العالم . فسيرد القلوب وينتصر روحه . ولمدى لحظة نظر إلى الأحداث المستقبلة ، وسمع من كل أنحاء العالم أصواتا تعلن قائلة: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!" (يوحنا 1 : 29). رأى في هؤلاء الغرباء عربونا وباكورة لحصاد وفير عندما ينقض حائط السياج بين اليهود والأمم وتسمع كل الأمم والألسنة والشعوب رسالة الخلاص . وفي انتظار تحقيق هده الآمال نطق بهذا القول: "قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان" (يوحنا 12 : 23). ولكن الكيفية التي بها سيتحقق هذا التمجيد لم تغب قط عن بال المسيح . إن جمع الأمم إلى الحظيرة كان سيجيء بعد موته القريب . فبموته فقط يمكن أن يخلص العالم . إن ابن الله كان ينبغي أن يقع في الأرض ويموت كحبة الحنطة . كان يجب أن يدفن في الأرض بعيدا عن الأنظار ولكنه كان سيقوم ثانية. [589]

حياة من موت

لقد بسط المسيح أمام تلاميذه الأمور التي ستحدث له مستقبلا ممثلا لذلك بأشياء من الطبيعة حتى يستطيعوا فهم أقواله . إن النتيجة الحقيقية لرسالته لم يكن يمكن الوصول إليها إلا بموته . قال: "الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير" (يوحنا 12 : 24). إن حبة الحنطة عندما تقع في قلب الأرض وتموت تنبت وتحمل ثمرا . وهكذا موت المسيح كان مزمعا أن يأتي بثمر لملكوت الله . وطبقا لنواميس مملكة النبات كان سينتج عن موته حياة.

إن من يحرثون الأرض يجدون هذا المثل أمامهم دائما . فالإنسان يحتفظ بحنطته عاما بعد عام بكونه يلقي بأفضل جزء منها كما يبدو . لابد من أن تدفن هذه الحنطة في أتلام الحقل والرب يحرسها ويرعاها . وبعد ذلك يظهر النبات ثم السنبل ثم القمح الملآن في السنبل . ولكن هذه الأطوار لا تتم إلا بعد ما تدفن الحنطة وتختفي وتضيع حسب الظاهر.

إن البذار الذي يدفن في الأرض يثمر والثمر الجديد يزرع مرة أخرى ، وبهذه الكيفية يربو المحصول ويتضاعف . وكذلك موت المسيح على صليب جلجثة سيثمر للحياة الأبدية . وإن التأمل في هده الكفارة سيكون مجدا للذين سيحيون مدى أجيال الأبد كثمرة لها.

إن حبة الحنطة التي تحتفظ بحياتها لا يمكنها أن تأتي بثمر بل تبقى وحدها . كان المسيح يستطيع أن ينجو بنفسه من الموت لو أراد . فلو فعل ذلك لبقي وحده ، وما كان يمكنه أن يأتي ببنين وبنات إلى الله . إنما فقط بتسليمه حياته للموت كان يمكنه أن يمنح البشرية الحياة . وليس بغير سقوطه في الأرض ليموت كان يمكنه أن يصير الحبة التي أثمرت كل ذلك الحصاد الوفير - تلك الجموع الغفيرة التي قد افتديت لله من كل أمة وقبيلة ولسان وشعب.

درس في العطاء والبذل

إن المسيح يقرن بهذا الحق درس التضحية الذي ينبغي للجميع أن يتعلموه فيقول: "من يحب نفسه يهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية" (يوحنا [590] 12 : 25). فكل من يريدون أن يأتوا بثمر كعاملين مع المسيح عليهم أولا أن يقعوا في الأرض ويموتوا . ينبغي أن تلقى الحياة

في أتلام حاجة العالم . يجب أن يموت حب الذات والمصلحة الشخصية . إن قانون تضحية النفس هو قانون حفظها . إن الفلاح يحتفظ بحنطته إذ يلقي بها بعيدا . وهذا يصدق على الحياة البشرية . فالبذل هو الحياة . والحياة التي تحفظ هي التي تبذل بكل سخاء في خدمة الله والناس . فأولئك الذين يضحون بحياتهم في هذا العالم لأجل المسيح يحفظونها لحياة أبدية.

إن الحياة التي تنفق لأجل الذات تشبه حبة الحنطة التي تؤكل ، فهي تختفي ولكنها لا تظهر بعد ذلك ومن ثم لا يكون لها ثمر . يمكن لإنسان أن يجمع للذات كل ما يستطيع فيعيش ويفكر ويدبر للذات ولكن حياته تنقضي فلا يبقى له شيء . فقانون خدمة الذات هو قانون هلاكها.

قال يسوع أيضاً: "إن كل أحد يخدمني فليتبعني، وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب" (يوحنا 12 : 26). إن كل من قد حملوا مع يسوع صليب التضحية سيكونون شركاءه في المجد وإن سرور المسيح في اتضاعه وآلامه كان أن تلاميذه سيشاركونه في مجده . إنهم ثمرة تضحيته بذاته . كما أن انطباع صفاته وروحه في قلوبهم هو مكافأته وسيكون ذلك موضوع فرحه مدى الأبدية . وهذا الفرح الذي سيشاركونه فيه كثمرة من ثمار تعبهم وتضحيتهم يرى في قلوب الآخرين وحياتهم . إنهم عاملون مع المسيح ، والآب سيكرمهم كما يكرم ابنه.

في انتظار الآلام

إن رسالة أولئك اليونانيين التي ترمز إلى جمع الأمم إلى الحظيرة صورت أمام ذهن يسوع رسالته كلها . لقد مر أمام ذهنه عمل الفداء منذ الوقت الذي فيه وضع التدبير في السماء إلى ساعة الموت التي كانت قريبة جدا . وقد بدا وكأن سحابة غامقة تحيط بابن الله. فأحس بها أولئك القريبون منه- جلس مستغرقا في تفكيره . أخيرا قطع حبل الصمت بصوته الحزين وهو يقول: "الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب نجّني من هذه الساعة؟ ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة" (يوحنا 12 : 27). إن المسيح بإحساسه السابق كان قد بدأ يشرب كأس المرارة . لقد انكمشت بشريته من هول ساعة الهجران والترك
[591] الرهيبة عندما تدل كل الظواهر على أن الله نفسه قد تركه ، وعندما يراه الجميع مصابا مضروبا من الله ومذلولا . وانكمش أيضاً أمام فكرة التشهير به أمام الناس ومعاملة اليهود له كمن هو شر المجرمين ، كذلك انكمش أمام الموت المشين المهين . وإن تطيره من هول الصراع بينه وبين قوات الظلمة وإحساسه بهول حمل الأثام البشرية المخيف ، وغضب الآب بسبب الخطية- كل هذا جعل روح يسوع تخور فغشى وجهه شحوب الموت.

ولكن عقب ذلك جاء خضوعه الإلهي لإرادة الآب فقال: "ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة. أيها الآب مجّد اسمك!" (يوحنا 12 : 27 و 28). إن مملكة الشيطان لا يمكن أن تقلب أو تخرب إلاَّ عن طريق موت المسيح . إذ بهذا وحده يمكن أن يفتدى الإنسان ويتمجد الله . فقبل المسيح العذاب والموت ورضي بالتضحية . إن جلال السماء قبل أن يتألم كحامل الخطية . فقد قال: "أيها الآب مجّد اسمك". وإذ كان يسوع يتكلم بهذه الكلمات جاء صوت من السحابة التي كانت محلقة فوق رأسه يقول: "مجدت، وأمجد أيضاً!" (يوحنا 12 : 28). لقد تمجد الله في حياة المسيح كلها من المذود إلى الوقت الذي فيه جاءه هذا الصوت ، وفي المحاكمة القادمة فان الآم ذلك الإله المتجسد ستمجد حقا اسم أبيه.

وعندما سمع الصوت نزل نور من السحابة وأحاط بالمسيح كما لو أن ذراعي القدرة غير المتناهية تحيطان به كسور من نار . وقد شاهد الجمع الواقف هذا المنظر برعب وذهول . ولم يجرؤ أحد على الكلام

بل وقف الجميع صامتين وقد حبسوا أنفاسهم وثبتوا أنظارهم في يسوع . فإذ قدم الآب شهادته ارتفعت السحابة وانتشرت في جو السماء . وفي ذلك الحين انقطعت الشركة المنظورة بين والآب والابن.

صوت الله

“فالجمع الذي كان واقفاً وسمع، قال: قد حدث رعد! وآخرون قالوا: قد كلّمه ملاك!” (يوحنا 12 : 29). ولكن أولئك اليونانيين الذين كانوا يريدون أن يروا يسوع نظروا السحابة وسمعوا الصوت وفهموا مع وعرفوا المسيح حقا . وقد أعلن لهم على أنه المرسل من قبل الله .

لقد سمع صوت الله عند عماد يسوع في بدء خدمته ، ومرة أخرى سمع وهو فوق جبل التجلي ، وها هو الآن يسمع للمرة الثالثة في ختام خدمته ، وقد سمعه جمع أكبر من الناس [592] في ظروف خاصة . كان يسوع قد فرغ لتوه من التحدث بأخطر الحقائق الخاصة بحالة اليهود ، وقدم لهم آخر إنذار ثم نطق بحكم الدينونة عليهم . والآن ها هو الله يضع ختم المصادقة والقبول على رسالة ابنه . لقد اعترف بذاك الذي رفضه إسرائيل . قال يسوع: “ليس من أجلي صار هذا الصوت، بل من أجلكم” (يوحنا 12 : 3). كانت تلك الشهادة هي البرهان الختامي على أنه مسيا والعلامة التي قدمها الآب على أن يسوع قد نطق بالصدق وأنه ابن الله واستطرد المسيح قائلا: “الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً. وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع. قال هذا مشيراً إلى أيّة ميتى كان مزمعاً أن يموت” (يوحنا 12 : 31 — 33). وكأنما هو يقول: هذه هي أزمة العالم فإذا صرت أنا كفارة لأجل خطايا الناس فالعالم سيستنير وستتحطم قبضة الشيطان على نفوس الناس ، وصورة الله المشوهة ستعود إلى البشرية كما كانت ، وسترث الوطن السماوي أخيراً أسرة من القديسين المؤمنين . هذه هي نتيجة موت المسيح . إن المخلص غارق في التأمل في مشهد النصرة الماثل أمامه ، فهو يرى الصليب المشين القاسي بكل ما يصاحبه من أهوال ، متوهجا بالمجد.

“أجذب إليّ الجميع”

ولكن عمل فداء البشرية ليس هو كل ما تم بالصليب . إن محبة الله تُعَلن للكون ، ورئيس هذا العالم يطرح خارجا ، وكل الاتهامات التي قدمها الشيطان ضد الله قد ضاعت ودحضت ، والعار الذي ألقي به على السماء قد زال أبد الدهر . والملائكة والناس يجتذبون إلى الفادي . فلقد قال: “وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع”.

كان ملتفا حول المسيح جمع من الناس وهو ينطق بهذه الأقوال . فقال أحدهم: “نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟ من هو هذا ابن الإنسان؟” “فقال لهم يسوع: النور معكم زماناً قليلاً بعد، فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب. ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور. تكلّم يسوع بهذا ثم مضى واختفى عنهم” (يوحنا 12 : 34 — 36). [593]

“ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها، لم يؤمنوا به” (يوحنا 12 : 37). لقد سألوا المسيح مرة قائلين: “أية آية تصنع لترى ونؤمن بك؟” (يوحنا 6 : 30). ومع أنه قدم لهم آيات لا حصر لها لكنهم

أغمضوا عيونهم وقسوا قلوبهم . والآن بعدما تكلم الآب نفسه لم يستطيعوا أن يطلبوا آية جديدة ، ومع ذلك فقد ظلوا موغلين في عدم إيمانهم.

“ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به، لئلا يصيروا خارج المجمع” (يوحنا 12 : 42). لقد أحبوا مجد الناس أكثر من رضا الله . فلكي ينجوا بأنفسهم من الهوان والعار أنكروا المسيح ورفضوا هبة الحياة الأبدية . وما أكثر الناس الذين يفعلون مثل هذه في كل العصور ! إن كلمات التحذير التي نطق بها المخلص تنطبق عليهم إذ قال: “من يحب نفسه يهلكها” (يوحنا 12 : 25) كما قال أيضاً: “من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلّمت به هو يدينه في اليوم الأخير” (يوحنا 12 : 18).

واأسفاه على أولئك الذين لم يعرفوا زمان افتقادهم ! لقد غادر المسيح الهيكل إلى الأبد بتأسف وعلى مهل وقد شمله حزن عظيم. [594]

الفصل التاسع والستون—إزاحة الستار عن المستقبل

إن كلام المسيح الذي نطق به في مسامع الكهنة والرؤساء حين قال لهم: "هوذا بيتكم يترك لكم خراباً" (متى 23 : 38) ملأ قلوبهم رعبا وهلعا . لقد تظاهروا بعدم الاكتراث ، إلا أن هذا السؤال ظل يتردد في أذهانهم وهو: "يا ترى ما معنى هذا الكلام وما فحواه؟" لقد بدا خطرا خفيا يتهددهم . فهل من الممكن أن الهيكل الفخم الذي هو مجد الأمة وفخرها يوشك أن يصير خرابا يبابا ؟ كان التلاميذ متطيرين ومتشائمين كذلك ، وكانوا ينتظرون بجزع أن يدلي إليهم يسوع ببعض البيانات الهامة فإذ كانوا خارجين معه من الهيكل وجهوا التفاته إلى متانة بناءه وجماله . لقد كانت حجارة الهيكل من أنقى أنواع الرخام الناصح البياض بعضها هائل الحجم . وقد صمد جزء من السور أمام حصار نبوخذنصر . وبدا في بنيانه القوي المتين كما لو كان حجرا واحدا مقطوعا من المحجر . ولم يكن التلاميذ يفهمون كيف يمكن أن تلك الجدران الهائلة المتينة تنهدم ؟

عندما وَجه التلاميذ انتباه السيد إلى فخامة الهيكل فما كان أعمق الأفكار التي خطرت لذلك المرذول المرفوض ! نعم إن المنظر الذي كان أمامه غاية في الجمال ، ولكنه قال بحزن: إني أرى كل شيء . نعم إن المباني مدهشة حقا ، وأنتم تشيرون إلى هذه الجدران كأنها لا يمكن أن تنهدم ولكن أصغوا إلى ما أقوله لكم . إنه سيأتي يوم فيه "لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض!" (متى 24 : 2).

نطق المسيح بهذا الكلام على مسامع جمع غفير من الناس . ولكن عندما انفرد بتلاميذه سأله بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس فيها كان جالسا على جبل الزيتون قائلين: "قل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟" (متى 24 : 2). ولكنه لم يجب تلاميذه بتفصيل عن حوادث خراب أورشليم ويوم مجيئه العظيم كلا على حدة ، ولكنه دمج بين ذينك الحادثين . فلو أنه كشف لتلاميذه عن تلك الحوادث المستقبلة كما قد رآها هو لما استطاعوا احتمال المنظر . فرحمة بهم دمج بين الأزمتين تاركا للتلاميذ [595] المجال ليدرسوا المعنى لأنفسهم . وعندما أشار إلى خراب أورشليم تجاوزت أقواله النبوية تلك الحادثة إلى الحريق الهائل في ذلك اليوم الذي فيه يخرج الرب من مكانه ليعاقب العالم على آثامه عندما تكشف الأرض دماءها ولا تغطي قتلاها بعد . وقد قدم هذا الحديث كله ليس للتلاميذ وحدهم ولكن لمن سيعيشون في آخر مشاهد تاريخ هذه الأرض.

علامات المنتهى

وإذ التفت المسيح إلى التلاميذ قال: "انظروا! لا يضلّكم أحد. فإن كثيرين سيأتون بإسمي قائلين: أنا هو المسيح! ويضلّون كثيرين" (متى 24 : 4، 5). سيظهر مسحاء كذلك كثيرون وسيدعون القدرة على صنع

المعجزات ويعلنون أن وقت خلاص الأمة الإسرائيلية قد أتى . هؤلاء سيضلون كثيرين . وقد تمت أقوال المسيح . ففي الفترة التي مرت من موته إلى حصار أورشليم ظهر كثيرون من المسحاء الكذبة . ولكن هذا الإنذار مقدم أيضاً لنا نحن العائشين في هذا العصر . فنفس الأكاذيب التي راجت في الفترة التي سبقت خراب أورشليم قد راجت ولا تزال رائجة في كل المصور وإلى يومنا هذا.

”وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب. انظروا، لا ترتاعوا. لأنه لا بد أن تكون هذه كلها، ولكن ليس المنتهى بعد“ (متى 24 : 6) قبل خراب أورشليم كان الناس يتقاتلون في طلب السيادة . فلقد قتل أباطرة ، وأقرب الأقربين إلى الملوك قتلوا وكانت هنالك حروب وأخبار حروب . وقد قال المسيح: ”لا بد أن تكون هذه كلها“ (متى 24 : 6)، ”ولكن ليس المنتهى (نهاية الأمة اليهودية كأمة) بعد“. ثم استأنف المسيح كلامه فقال: ”أنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن. ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع“ (متى 24 : 6 — 8). وقال المسيح إن المعلمين إذ يرون هذه الآيات سيعلنون أنها أحكام الله على الأمم لأجل استعبادهم لشعبه المختار . وسيعلنون أيضاً أنها علامة مجيء مسيا . فلا تضلوا ولا يخدعنكم أحد فإنها مبتدأ أحكامه هو . لقد نظر الشعب إلى أنفسهم ولم يتوبوا أو يرجعوا حتى أشفي ارتدادهم . فالآيات التي يفسرونها على أنها علامات تحررهم من العبودية إنما هي آيات هلاكهم ثم قال أيضاً: ”حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم، وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي. وحيئذ [596] يعثر كثيرون ويسلّمون بعضهم بعضاً ويبغضون بعضهم بعضاً“ (متى 24 : 9، 10) لقد كابد المسيحيون كل هذا . وقد سلم الآباء والأمهات أولادهم ، وسلم الأولاد والديهم ، كما سلم الأصدقاء أصدقاءهم إلى رجال السنهدريم . وتمم المضطهدون مقاصدهم إذ قتلوا استفانوس ويعقوب وغيرهما من المسيحيين.

زمن اضطهاد

لقد أعطى الله للأمة اليهودية فرصة أخرى عن طريق خدامه لعلهم يتوبون ، فأعلن

نفسه بواسطة شهوده في القبض عليهم ومحاكمتهم وطرحهم في أعماق السجون . ومع ذلك حكم عليهم قضاتهم بالموت . كانوا رجالا أفاضل ولم يكن العالم مستحقا لهم ، وإذ قتلهم اليهود فقد صلبوا ابن الله مرة أخرى . إن ذلك العمل سيتكرر . فالهيئات الحكومية ستسن شرائع وقوانين تحد من الحرية الدينية . وسينتحلون لأنفسهم السلطان الذي هو من حق الله وحده . وسيسوقهم الوهم إلى أن يظنوا أنهم قادرون على التحكم في ضمائر الناس التي ينبغي ألا يسيطر عليها أحد غير الله . وها هم قد بدأوا ذلك الآن وسيداومون على ذلك العمل ويتقدمون فيه شوطا بعيدا حتى يصلوا إلى حد لا يمكنهم أن يتجاوزوه . فالله لابد من

أن يتدخل للدفاع عن شعبه الأمناء المخلصين حافظي وصاياه. في كل مرة يثور فيها الاضطهاد يتخذ الذين يشهدونه قرارا إما إلى جانب المسيح أو ضده . فالذين يبدون عطفهم على من يحكم عليهم ظلما يبرهنون على تعلقهم بالمسيح. والآخرون يعثرون لأن مبادئ الحق تتعارض مع أعمالهم . وكثيرون يتعثرون ويسقطون ويرتدون عن الحق الذي كانوا قبلا يدافعون عنه . وأولئك الذين يرتدون في إبان المحاكمة يشهدون زورا على إخوتهم ويسلمونهم وذلك لكي يضمنوا سلامة أنفسهم . وقد حذرنا المسيح من هذا لكي لا نستغرب من التصرف القاسي غير الطبيعي الذي يختاره من يرفضون النور.

لقد أعطى المسيح تلاميذه علامة للخراب القادم على أورشليم وأرشدهم إلى وسيلة الهروب فقال: ”ومتى رأيتم أورشليمم محاطة بجيوش، فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. حينئذ ليهرب الذين في

اليهودية إلى الجبال، والذين في وسطها فيلفرّوا خارجاَ، [597] والذين في الكور فلا يدخلوها، لأن هذه أيام انتقام، ليتم كل ما هو مكتوب" (لوقا 21 : 10 — 22). هذا الإنذار أعطي ليعيه ويعمل به سامعوه بعد ذلك بأربعين سنة عند خراب أورشليم . وقد أطاع المسيحيون هذا الإنذار ولم يهلك واحد منهم عند سقوط المدينة.

قال المسيح: "وصلّوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا سبت" (متى 24 : 20). إن من قد صنع السبت لم يبطله ولا سمره بصليبه . إن السبت لم يبطل ولا ألغي بموت المسيح وإلا لما وجب تقديسه بعد الصلب بأربعين سنة . إذ كان على التلاميذ أن يواظبوا على الصلاة لمدة أربعين سنة حتى لا يكون هربهم في يوم سبت .

"لو لم تقصّر تلك الأيام"

وانتقل المسيح بسرعة من الكلام عن خراب أورشليم إلى الكلام عن الحدث الأعظم ، وهو آخر حلقة في سلسلة تاريخ هذه الأرض- أي مجيء ابن الله في جلاله ومجده . وبين هذين الحادثين انكشف أمام باصرة المسيح أجيال طويلة من الظلمة ، أجيال مخضبة بالدماء والدموع والعذاب ستجوز فيها كنيسته . لم يكن التلاميذ حينئذ يستطيعون احتمال رؤية تلك المناظر المفجعة ، ولهذا مر المسيح عليها مرورا سريعا دون أن يسهب في الكلام عنها . ثم قال: "لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. ولو لم تقصّر تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكن لأجل المختارين تقصّر تلك الأيام". ولمدى أكثر من ألف سنة كان سيحيق باتباع المسيح اضطهاد هائل لم يسبق للعالم أن رأى له مثيلا . وكان سيقتل من أولئك الأبرار ملايين فوق ملايين . فلو لم تمتد يد الله لحماية شعبه لهلك الجميع . ولقد قال السيد: " لأجل المختارين تقصّر تلك الأيام" (متى 24 : 21 و 22).

وها هو المسيح الآن يتكلم عن مجيئه الثاني في لغة لا يمكن أن يساء فهمها ، ويحذر سامعيه من المخاطر التي ستسبق مجيئه إلى العالم فيقول: "حينئذ إن قال لكم أحد: هوذا المسيح هنا! أو : هنا! فلا تصدّقوا. لأنه سيقوم مسحاء وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب، حتى يضلّوا لو أمكن المختارين أيضاً. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم. فإن قالوا لكم: ها هو في البرية! فلا تخرجوا. ها هو في المخادع! فلا تصدّقوا". (متى 24 : [598] 23 — 27). ومن بين العلامات التي أوردها المسيح عن خراب أورشليم قوله إنه سيقوم أنبياء كثيرون ويضلون كثيرين . وقد قام أنبياء كذبة وخدعوا الناس وقادوا جموعا غفيرة منهم إلى البرية . وبعض السحرة والمنجمين ادعوا أن لديهم قوة عجائبية فاجتذبوا الشعب وراءهم إلى الجبال المنعزلة . ولكن هذه النبوة تنطبق أيضاً على الأيام الأخيرة . فالمقصود بهذه أن تكون علامة لمجيء المسيح ثانية . حتى في هذه الأيام يعطي أنبياء كذبة والمسحاء الكذبة آيات وعجائب ليخدعوا تلاميذ الرب ويضلوهم . ألا نسمع في هذه الأيام الصيحة القائلة: "ها هو في اْلبرية؟" ألم يخرج آلاف الناس إلى البرية مؤملين أن يجدوا المسيح ؟ وألا نسمع عن آلاف الجماعات الذين بينهم من يدعون أنهم يتحدثون مع أرواح الموتى ومنهم من يقولون: "ها هو في المخاردع"؟ هذا هو الادعاء الذي يقدمه من يعتقدون بمناجاة الأرواح . ولكن ماذا يقول المسيح ؟ إنه يقول: "لا تصدّقوا. لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان".

ترتيب إلهي

إن المخلص يعطينا علامات مجيئه ، بل أكثر من هذا فهو يحدد الوقت الذي فيه تظهر أول هذه العلامات فيقول: “وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماوات تتزعزع. وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت، فيجمعون مختاريه من الأربع رياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها” (متى 24 : 26 — 31)

وقد أعلن المسيح أنه في نهاية الاضطهاد البابوي العظيم ستظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه وتسقط النجوم من السماء . ثم يقول: “فمن شجرة التين تعلموا المثل: متى صار غصنها رخصاً وأخرجت أوراقها، تعلمون أن الضيف قريب. هكذا أنتم أيضاً، متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب” (متى 24 : 32 و 33).

لقد أورد المسيح علامات مجيئه ، وهو يعلن لنا أنه يمكننا أن نعرف عندما يكون هو قريبا على الأبواب . ويقول عمن يرون هذه العلامات: “لا يمضي هذا الجيل حتى يكون [599] هذا كله” (متى 24 : 34). هذه العلامات قد ظهرت ، فإننا نعلم عن يقين أن مجيء الرب قريب . وهو يقول: “السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول” (متى 24 : 35).

إن المسيح آتٍ على السحاب بقوة ومجد عظيم . وستحف به جماهير من الملائكة المتألقين بالضياء . وسيأتي ليقيم الأموات ويغير القديسين الأحياء من مجد إلى مجد . سيأتي ليكرم الذين أحبوه وحفظوا وصاياه ويأخذهم لنفسه . إنه لم ينسهم ولا نسي وعده لهم . وسيعود شمل الأسرة ليلتئم من جديد . إننا عندما ننظر إلى موتانا يمكننا أن نفكر في ذلك الصباح الذي فيه يضرب بوق الله عندما “يقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغيّر” (1 كورنثوس 15 : 52). بعد قليل سنرى الملك في بهائه . بعد قليل سيمسح كل دمعة من عيوننا . بعد قليل سيوقفنا “أمام مجده بلا عيب في الابتهاج” (يهوذا 24) ولهذا عندما أورد لنا علامات مجيئه قال: “ومتى ابتدأت هذه تكون، فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجلتكم تقترب” (لأن فداءكم يقترب) (لوقا 21 : 28).

ولكن المسيح لم يعلن عن اليوم أو الساعة التي فيها يأتي . وقد أخبر تلاميذه بكل صراحة أنه هو نفسه لا يمكنه أن يعلن عن يوم أو عن ساعة مجيئه الثاني . فلو كانت له الحرية لأن يعلن ذلك فما الذي كان يدعوه لأن ينبههم ليكونوا في حالة الانتظار الدائم أو مع ذلك فإنه يوجد من يدعون معرفة نفس يوم وساعة ظهور الرب . إنهم غيورون جدا في رسم المستقبل . ولكن الرب يحذرهم من مثل هذا التصرف وهذا التشبث الذي لا أساس له . إن الوقت المضبوط لمجيء ابن الإنسان ثانية هو سر احتفظ به الله لنفسه.

أيام نوح

ثم يستطرد المسيح مشيرا إلى حالة العالم عند مجيئه فيقول: “وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضاً مجيء الإنسان. أنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون، إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع، كذلك يكون أيضاً مجيء ابن

الإنسان” (متى 24 : 37 — 39). إن المسيح لا يورد هنا عصرا ذهبيا زمنيا ، ألف سنة فيها يتأهب الجميع للأبدية . ولكنه يقول لنا إنه كما في أيام نوح كذلك ستكون الحال عندما يأتي ابن الإنسان ثانية. [600]

وكيف كانت الحال في أيام نوح ؟ يقول الكتاب: “ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم” (تكوين 6 : 5). إن سكان العالم الذين عاشوا قبل الطوفان ارتدوا عن الرب ورفضوا عمل إرادته المقدسة واتبعوا تصوراتهم النجسة وآراءهم الفاسدة . وقد هلكوا بسبب شرورهم . والعالم اليوم يسير على نفس هذا النهج . إنه لا يرينا علامات خادعة عن مجد العصر الذهبي . إن من يتحدون شريعة الله يملأون الأرض شرا كل يوم . فالمراهنات وسباق الخيل والمقامرة والإسراف والأعمال الشهوانية والأهواء الجامحة- كل هذه تملأ العالم بالظلم والاغتصاب بسرعة هائلة .

إن المسيح وهو ينبئ بخراب أورشليم قال: “لكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص. ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهى” (متى 24 : 12 — 14). وستتم هذه النبوة مرة ثانية ، فالإثم المستشري في ذلك اليوم يجد له شبيها ومثيلا في هذا الجيل .وكذلك فيما يختص بالتنبؤ عن الكرازة بالإنجيل . فقبل سقوط أورشليم كتب بولس مسوقا بالروح القدس يقول إن الإنجيل قد كرز به “في كل الخليقة التي تحت السماء” (كولوسي 1 : 23) وكذلك الآن قبل مجيء ابن الإنسان ، فالبشارة الأبدية يبشر بها كل الساكنين على الأرض من “كل أمة وقبيلة ولسان وشعب” (رؤيا 14 : 6 و 14). لقد “أقام (الله) يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل” (أعمال 17 : 31). والمسيح يخبرنا متى يأتي ذلك اليوم . إنه لا يقول لنا إن العالم كله سيهتدي إلى الله ، بل: “يكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهى” (متى 24 : 14). إننا بتقديمنا بشارة الملكوت للعالم يكون في مقدورنا التعجيل بمجيء الرب ثانية . لا ينبغي لنا فقط أن ننتظر بل أن نطلب “سرعة مجيء يوم الرب” (2 بطرس 3 : 12). لو كانت كنيسة المسيح قد قامت بعملها المعين عليها من الرب لكان قد تم إنذار العالم كله قبل اليوم ، وكان الرب يسوع قد أتى إلى أرضنا بقوة ومجد كثير. [601]

اسهروا وصلوا

إن المسيح بعدما أورد علامات مجيئه قال: “متى رأيتم هذه الأشياء صائرة، فاعلموا أن ملكوت الله قريب” (لوقا 21 : 31). “انظروا! اسهروا وصلّوا” (مرقس 13 : 33). إن الله قدم للناس الإنذار دائما بالأحكام القادمة . وأولئك الذين آمنوا برسالته لعصرهم وتصرفوا بموجب إيمانهم إطاعة لوصاياه نجوا من الأحكام التي حلت بالعصاة وغير المؤمنين . لقد جاء كلام الله إلى نوح يقول: “ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك، لأني إياك رأيت باراً لدي”. وقد أطاع نوح الله فنجا . لقد جاءت رسالة الله إلى لوط تقول: “قوموا اخرجوا من هذا المكان، لأن الرب مهلك المدينة” (تكوين 7 : 1 ؛ 19 : 14). فوضع لوط نفسه تحت حراسة رسل السماء فنجا . كذلك قدم الإنذار إلى تلاميذ المسيح عن خراب أورشليم فالذين راقبوا علامات الخراب العتيد وهربوا من المدينة نجوا من الهلاك ، وكذلك نحن الآن فقد قدم إلينا الإنذار عن مجيء المسيح ثانية والهلاك القادم على العالم . فالذين يعون هذا الإنذار ويعملون به سيخلصون.

ولكوننا لا نعلم الوقت المضبوط لمجيئه فقد أمرنا بأن نسهر . “طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء

سيدهم يجدهم ساهرين" (لوقا 12 : 37). إن أولئك الساهرين إلى يوم مجيء الرب لن يكون انتظارهم باطلا أو عاطلا . إن انتظار الناس لمجيء المسيح يجعلهم يخشون الرب ويخافون من أحكامه ودينونته على العصيان والعصاة . وهو يوقظهم ليتحفظوا من خطية رفض هبات رحمة الرب . وأولئك الذين ينتظرون الرب إنما يطهرون أنفسهم بإطاعة الحق . وهم يقرنون العمل الجاد الغيور بالانتظار والسهر . ولكونهم يعلمون أن الرب على الأبواب فإن غيرتهم تنتعش لتتعاون مع الأجناد السماويين في العمل لأجل خلاص النفوس . هؤلاء هم العبيد الأمناء الحكماء الذين يقدمون لأهل بيت الرب "العلوفة في حينها" (لوقا 12 : 42). إنهم يعلنون الحق الذي يطبقونه الآن بكيفية خاصة . وكما أن كلا من أخنوخ ونوح وإبراهيم وموسى أعلن الحق لمعاصريه كذلك عبيد المسيح يقدمون اليوم الإنذار الخاص لجيلهم.

"سيدي يبطئ قدومه"

ولكن المسيح يقدم لنا عينة أخرى فيقول: "ولكن إن قال ذلك العبد الردي في قلبه: سيدي [602] يبطئ قدومه. فيبتدئ يضرب العبيد رفاقه ويأكل ويشرب مع السكارى. يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره" (متى 24 : 48 — 50).

يقول العبد الرديء في قلبه: "سيدي يبطئ قدومه". إنه لا يقول إن المسيح لن يأتي ولا يتهكم على فكرة مجيئه الثاني ، ولكنه في قلبه وبأعماله وبأقواله يعلن أن السيد يبطئ قدومه . وهو يبعد عن أذهان الآخرين الاقتناع بسرعة مجيء الرب . وهو يؤثر على الآخرين ليلجأوا إلى التأجيل في تصلف وعدم مبالاة . ويجعلهم يظلون مطمئنين سادرين في سباتهم وحبهم للعالم . والشهوات الأرضية والأفكار الفاسدة تتحكم في الذهن . إن العبد الرديء يأكل ويشرب مع السكارى ويشترك مع العالم في طلب المسرات ويضرب العبيد رفقاءه إذ يتهم ويدين العبيد الأمناء لسيدهم . وهو يندمج مع أهل العالم . إن العشير الشرير يتقدم مع من يشبهه في طرق العصيان إنها مماثلة مخيفة . لقد أخذ في الشرك مع العالم . "يأتي سيد ذلك العبد .. فيقطعه ويجعل نصيبه من المرائين" (متى 24 : 50 و 51).

"فإني إن لم تسهر، أقدم عليك كلص، ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك" (رؤيا 3 : 3). إن مجيء المسيح سيكون مفاجأة للمعلمين الكذبة . إنهم يقولون: "سلام وأمان". فالكهنة المعلمين قبل سقوط أورشليم كانوا ينتظرون هم أيضاً أن الكنيسة ستتمتع بالنجاح والمجد العالميين . وهم يفسرون علامات الأزمنة على أنها ترمز إلى هذا . ولكن ماذا يقول الوحي؟ "يفاجئهم هلاك بغتة" (1 تسالونيكي 5 : 3). فكل الذين يعيشون على وجه كل الأرض ، وكل الذين يجعلون هذا العالم وطنا لهم سيأتي عليهم يوم الرب كالفخ وسيأتي كلص يترصد الفريسة.

وقت دمار

إن العالم المليء بالعربدة والمسرات الآثمة هو نائم يغط في طمأنينته الجسدية . والناس يبعدون عن تفكيرهم مجيء الرب ويسخرون بالإنذارات . وهم يتشدقون في فخر وكبرياء قائلين: "كل شيء باق هكذا من بدء الخليقة"، "ويكون الغد كهذا اليوم عظيماً بل أزيد جداً" (2 بطرس 3 : 4 ؛ إشعياء 56 : 12)، وسننغمس في عمق أعمال محبة الذات . ولكن المسيح يقول: "ها أنا آتي كلص" (رؤيا 16 : 15). ففي

نفس الوقت الذي يقول العالم فيه [603] بازدراء: "أين هو موعد مجيئه؟" تكون العلامات في طريقها إلى الإتمام . وفيما هم يصرخون قائلين: "سلام وأمان"، "يفاجئهم هلاك بغتة"، وعندما يصير المزدري ورافض الحق متغطرسا ، وعندما يسير الناس في روتين عملهم اليومي مسرعين في جمع المال دون اعتبار للمبادئ ، وعندما يكون الطالب جادا بكل شوق في طلب العلم فيما عدا معرفة كتابه المقدس يأتي المسيح كلص.

إن كل ما في العالم هو في حالة انفعال واهتياج ، وعلامات الأزمنة تنذر بالسوء ، والأحداث القادمة تلقي ظلالها القاتمة على ما أمامها ، وروح الله هو في طريقه للانسحاب من الأرض ، والنكبات تجيء متلاحقة بعضها في إثر بعض في البحر وعلى اليابسة .فهنالك الأعاصير والزلازل والحرائق والفيضانات وجرائم القتل بمختلف أنواعها . من ذا يستطيع التكهن بالمستقبل ؟ أين توجد السلامة والأمان ؟ لا يوجد أمان في أي شيء بشري أو أرضي . والناس يسرعون للانضواء تحت الراية التي اختاروها . وهم بصبر نافد ينتظرون تحركات قادتهم . هنالك من ينتظرون ساهرين وعاملين على سرعة ظهور السيد وهنالك فريق آخر يصطفون تحت قيادة المرتد العظيم الأول مهلك النفوس . وقليلون هم الذين يعتقدون بوجود جحيم العذاب فيبتعدون عنه ، والسماء ليسعوا إلى الحصول عليها.

إن الأزمة تزحف إلينا سريعا . والشمس تشرق في السماء سائرة في مدارها العادي كل يوم ، والسماوات لا تزال تحدث بمجد الله . والناس لا يزالوا يأكلون ويشربون ويغرسون ويبنون ويتزوجون ويزوجون . والتجار ما زالوا يشترون ويبيعون ، والناس ما زالوا يتدافعون بالمناكب أحدهم ضد الآخر يتنازعون للوصول إلى أرفع المناصب . ومحبو الملذات والطرب ما زالوا يتزاحمون على الملاهي ويتدفقون على ميادين السباق وجحيم القمار . إن أعظم تهيج يسود ومن ساعة الانتظار والإمهال تقترب من نهايتها وستنتهي وشيكا . ويختم إلى الأبد على مصير كل إنسان . إن الشيطان يعلم أن وقته قصير ولذلك فقد عبأ كل قواته للعمل على خداع الناس وتضليلهم وإيهامهم وصرفهم عن التفكير وسلب عقولهم حتى تنقضي فرصة الإمهال ويغلق باب الرحمة إلى الأبد.

فبكل خطورة وقوة تأتينا كلمات ربنا المحذرة عبر الأجيال من فوق جبل الزيتون قائلة: [604] "فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمارٍ وسكر وهموم الحياة، فيصادفكم ذلك اليوم بغتة"، "اسهروا إذاً وتضرّعوا في كل حين، لكي تحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون، وتقفوا قدّام ابن الإنسان" (لوقا 21 : 30 و 36). [605]

الفصل السبعون—كأس ماء فقط

"ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده. ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميّز بعضهم من بعض" (متى 25 : 31 و 32). هكذا صور المسيح لتلاميذه وهم فوق جبل الزيتون مشهد يوم الدينونة العظيم . كما صور لهم الحكم في ذلك على أنه يتجه إلي نقطة واحدة . فعندما تجتمع أمامه جميع الشعوب سيكون هنالك فريقان لا ثالث لهما ، ومصيرهم الأبدي سيتقرر بحسب ما قد فعلوه أو ما أهملوه من واجب نحوه في شخص الفقراء والمتألمين.

وفي ذلك اليوم لن يعرض المسيح أمام الناس العمل العظيم الذي قد عمله لأجلهم في بذله حياته لفدائهم ، بل سيعرض أمامهم عمل الأمانة الذي قد فعلوه لأجله . فالذين يقيمهم عن يمينه سيقول لهم :"تعالوا يا مباركة أبي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعت فأطعمتموني. عطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني. عرياناً فكسوتموني. مريضاً فزرتموني. محبوساً فأتيتم إليّ". ولكن أولئك الذين يمتدحهم المسيح لا يعلمون أنهم قد خدموه . فيجيبهم على تساؤلهم الحائر قائلا: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم" (متى 25 : 34 — 36 و 40).

كان يسوع قد أنذر تلاميذه بأنهم سيكونون مبغضين من الجميع مضطهدين ومضايقين . وكثيرون منهم سيطردون من بيوتهم ويشردون بحيث يصيرون فقراء بلا مأوى . وكثيرون سيحل بهم الضيق والضنك بسبب الأمراض والعسر والحرمان . وكثيرون سيلقى بهم في غياهب السجون . إلا أن السيد وعد كل من ترك لأجله بيتا أو صديقا بأن يكون له في هذا الزمان مئة ضعف . والآن هاهو يؤكد لكل من قد خدموا إخوتهم أنهم سينالون بركة خاصة . قال: يمكنكم أن تتحققوا من شخصي في كل من يتألمون لأجل اسمي . وكما تريدون أن تخدمونني عليكم أن تخدموهم ، وهذا هو البرهان على أنكم تلاميذي. [606]

مولودون من الله

إن كل من ولدوا في الأسرة السماوية هم إخوة الرب بمعنى خاص . إذ أن محبة المسيح تربط أفراد أسرته معا بأوثق الربط . وأينما تتجلى تلك المحبة فهناك تعلن الصلة الإلهية "كل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله" (1 يوحنا 4 : 7).

إن الذين يمتدحهم المسيح في يوم الدين قد لا يكونون يعرفون إلا النزر اليسير من العلوم اللاهوتية . ولكنهم أحبوا مبادئ الله واحتضنوها وبتأثير روح الله صاروا بركة لعشرائهم . بل حتى بين الوثنيين يوجد بعض من يتصفون بالرفق والرحمة والحنان . فقبلما سمعوا كلام الحياة صاروا أصدقاء للكارزين وخدموهم مخاطرين بحياتهم . وبين الوثنيين يوجد من يعبدون الله بجهل . أولئك الذين لم يصل إليهم النور قط بواسطة أي إنسان ، ومع ذلك فإنهم لن يهلكوا . فمع جهلهم للناموس المكتوب بيد الله فقد سمعوا صوته

يكلمهم في الطبيعة وتمموا مطاليب الناموس . وأعمالهم تدل على أن الروح القدس قد لمس قلوبهم فيعتبرون بأنهم أولاد الله.

وكم سيندهش ويفرح المتواضعون بين الأمم والوثنيين حين يسمعون المخلص نفسه قائلا لهم: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم" ! وكم سيفرح قلبالله غير المحدود في حبه حين يشخص إليه أتباعه مندهشين وفرحين حين يسمعون منه كلام الاستحسان !

ولكن محبة المسيح لا تنحصر في طائفة دون أخرى . إنه مرتبط بكل واحد من بني الإنسان . فلكي نصير أعضاء في الأسرة السماوية صار هو فردا في الأسرة البشرية . إنه ابن الإنسان ، ولذلك فهو أخ لكل ابن وابنة من نسل آدم . وعلى تابعيه ألا يحسوا بأنهم منفصلون عن العالم الهالك حولهم . إنهم جزء من نسيج البشرية العظيم ، والسماء تنظر إليهم على اعتبار أنهم إخوة الخطاة والقديسين على السواء . إن محبة المسيح تحتضن الساقطين والمخطئين والأثمة . وكل عمل من أعمال المحبة والشفقة لإقامة نفس ساقطة يقبل كما لو كان قد صنع بالرب نفسه. [607]

الاهتمام بالفقراء

إن ملائكة السماء يرسلون لخدمة أولئك العتيدين أن يرثوا الخلاص . ونحن الآن لا نعرف من هم أولئك الناس إذ لم يعلن بعد من هم الذين سينتصرون ويؤهلون لشركة ميراث القديسين في النور ، ولكن ملائكة السماء يجولون في الأرض طولا وعرضا عاكفين على تعزية المحزونين وحراسة المعرضين للمخاطر وكسب قلوب بني الإنسان للمسيح . لا تهمل أو تغفل نفس واحدة ، فالله لا يحابي الوجوه ، وهو يرعى كل النفوس التي جبلها بنفس الاهتمام والحب.

إنك إذ تفتح بابك لإخوة المسيح المحتاجين والمتضايقين فأنت إنما ترحب بالملائكة غير المنظورين . أنت تدعو رفاقا هم خلائق سماوية وهم يأتون بجو مشبع بالفرح والسلام . يأتون وفي أفواههم تسابيح السماء ، وفي السماء يسمع صدى تسبيحاتهم . فكل عمل من أعمال الرحمة يشيع البهجة في السماء . والآب من فوق عرشه يحصي عدد العاملين المنكرين لذواتهم بين أفضل كنوزه وأغلى جواهره.

أما الذين عن يسار المسيح والذين أهملوه في أشخاص الفقراء والمتضايقين فلم يكونوا يحسون بجرمهم . لقد أعماهم الشيطان فلم يدركوا أنهم مدينون لإخوتهم . كانوا منطوين على أنفسهم فلم يكترثوا لحاجات الغير.

لقد منح الله الثروة للأغنياء لكي يخففوا بها آلام المتضايقين ويجلبوا العزاء والراحة لأولاده المتألمين ، ولكنهم في غالب الأحيان لا يكترثون لحاجات الآخرين . إنهم يظنون أنفسهم أرفع من إخوتهم الفقراء ، ولا يضعون أنفسهم في مكان المساكين ليحسوا بإحساسهم ، ولا يدركون شيئا من تجارب الفقراء وكفاحهم فتموت الرحمة في قلوبهم . إن القصور الفخمة للأثرياء والكاتدرائيات العظيمة تغلق في وجوه الفقراء . فالمال الذي قد منحهم إياه الله ليباركوا به الفقراء ينفقونه على ملذاتهم وإشباع كبريائهم وأنانيتهم . إن الفقراء يحرمون كل يوم من التعليم الذي ينبغي أن يحصلوا عليه ، عن رأفة الله ومراحمه لأنه قد دبر كل ما يلزم لهم لكي يحصلوا على لوازم الحياة . إنهم يحسون بشدة وطأة الفقر الذي يجعلهم يضيقون ذرعا بالحياة . وكثيرا ما يجربون لأن يصبحوا حسودين وغيورين [608] فتمتلئ نفوسهم بالظنون الرديئة . إن أولئك الذين لم يتحملوا ثقل العوز وضغط الحاجة في غالب الأحيان يعاملون الفقراء بمنتهى الازدراء وينظرون إليهم كما لو كانوا متسولين.

ولكن المسيح يرى ذلك كله ويقول: لقد كنت أنا الجوعان والعطشان والغريب ، أنا الذي كنت مريضا ومحبوسا . فإذ كنتم أنتم جالسين على موائدكم الحافلة بأشهى الأطعمة كنت أنا أتضور في مسكني الحقير أو في عرض الشارع . وفي حين كنتم مستريحين في بيوتكم الفخمة لم أكن أنا أجد مكانا أسند إليه رأسي ، وعندما كانت خزائن ملابسكم ملأى بأغلى الحلل وأجمل الثياب كنت أنا محروما من كل شيء . وحين كنتم أنتم تركضون وراء مسراتكم وملذاتكم كنت أنا سجينا ومتروكا.

وعندما جدتم بالقليل من فتات الخبز اليابس على الفقير الذي يتضور جوعا ، وأعطيتم العراة المساكين الثياب الرثة البالية ليستتروا بها ولتقيهم شر الصقيع وزمهرير الشتاء ألم تعلموا أنكم إنما كنتم تقدمونها لرب المجد؟ لقد كنت مدى أيام حياتكم قريبا منكم في شخص أولئك المتألمين المتضايقين . ولكنكم لم تطلبوني ، ولم تريدوا أن تكون لكم شركة معي . لذلك فأنا لا أعرفكم.

في خطوات المسيح

كثيرون يحسون أنه يكون امتيازا عظيما لهم لو أتيحت لهم الفرصة لزيارة الأماكن التي تردد إليها المسيح حين كان على الأرض ، والسير في الطرق التي قد وطئتها قدماه ، وأن يتطلعوا إلي البحيرة التي أحب السيد أن يعلم الجموع بالقرب منها ، والتلال والأودية التي كان يرنو ببصره إليها . ولكن لا حاجة بنا للذهاب إلي الناصرة وكفرناحوم وبيت عنيا لنسير في إثر خطوات يسوع . فإننا نرى أثر خطواته أمام سرير رجل مريض وفي أكواخ الفقراء وفي الأزقة المزدحمة في مدينة عظيمة وفي كل مكان توجد فيه قلوب بشرية بحاجة إلي العزاء . فإذ نتصرف كما كان يسوع يتصرف وهو على الأرض نكون سائرين في إثر خطواته .

قال يسوع: "لأن الفقراء معكم في كل حين" (يوحنا 12 : 8). إذا فبإمكان الجميع أن يجدوا شيئا يعملونه من أجلهم ، ولا حاجة لأي واحد أن يشعر بأن لا مجال له ليخدم [609] المسيح أو يتعب في سبيله . هناك ملايين وملايين من النفوس البشرية الموشكة على الهلاك وهي مقيدة بسلاسل الجهل والخطية ، ولم تسمع قط عن محبة المسيح لها . فلو تبدلت حالنا فصارت كحالهم فما الذي كنا نشتهي أن يفعلوه لأجلنا ؟ إننا ملزمون بأن نفعل لهم كل هذا طالما نحن قادرون على عمله لأجلهم . إن قانون المسيح للحياة الذي بموجبه سيثبت كل منا أو يسقط في يوم الدينونة هو هذا: "كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم" (متى 7 : 12).

لقد بذل المخلص حياته الغالية ليقيم كنيسة قادرة أن تعنى بالنفوس الحزينة المجربة .وقد تكون هنالك جماعة من المؤمنين الفقراء غير المتعلمين وغير المعروفين ، ومع ذلك ففي المسيح يمكنهم القيام بعمل في البيت وفي البيئة وفي الكنيسة وحتى في الأقاليم البعيدة، وسيكون تأثرهم بعيد المدى كالأبدية.

عاملون مع الله

وحيث أن هذا العمل مهمل نرى كثيرين من التلاميذ الشباب لا يقدمون أكثر من بداية الاختبار المسيحي . إن النور الذي كان يتوهج في قلوبهم عندما قال لهم يسوع ولكل واحد بمفرده: "مغفورة لك خطاياك" (متى 9 : 2 ؛ مرقس 2 : 5 ؛ لوقا 5 : 20 ؛ 7 : 48) كان يمكنهم الاحتفاظ به حيا متوهجا لو

ساعدوا المحتاجين . إن النشاط العظيم الذي لا يهجع الذي في غالب الأحيان يكون مبعث خطر على الشباب يمكن توجيهه ليجري في قنوات ، وعندما يفيض منها يفيض بالبركات . إن الذات ستنسى في العمل الجدي لخير الآخرين.

إن من يخدمون الآخرين سيخدمهم رئيس الرعاة . فهم أنفسهم سيشربون من ماء الحياة ويرتوون . إنهم لن يشتاقوا إلي تسليات مثيرة أو إلي تغيير في حياتهم ، فموضوع اهتمامهم الوحيد سيكون كيف يمكنهم تخليص النفوس الموشكة على الهلاك . وسيكون اختلاطهم بالمجتمع نافعا فمحبة الفادي ستوحد بين القلوب.

وعندما نتحقق من أننا عاملون مع الله فإننا لا ننطق بمواعيده في غير اكتراث فإنها ستشتعل في قلوبنا وتضطرم على شفاهنا . إن الله حين دعا موسى لأن يخدم شعبا جاهلا غير منظم وعاصيا قدم له هذا الوعد: "وجهي يسير فأريحك"، و "إني أكون معك" [610] (خروج 33 : 14 ؛ 3 : 12). وهذا الوعد مقدم لكل من يخدمون نيابة عن المسيح لتخفيف آلام المتألمين والمتضايقين.

إن محبة المؤمن للناس هي شهادة للأرض على محبة الله . إن ملك المجد صار واحدا منا لكي يغرس فينا هذه المحبة وليجعلنا أولادا في أسرة واحدة . وعندما نتمم وصيته الوداعية: "هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم" (يوحنا 15 : 12)، وحينما نحب العالم كما قد أحبه هو فحينئذ تكون رسالته بالنسبة لنا قد تمت على أكمل وجه ، وسنكون مؤهلين للسماء ، لأن السماء ستكون في قلوبنا.

أما إذا امتنعت عن أن تنقذ "المنقادين إلى الموت، والممدودين للقتل .. إن قلت: هوذا لم نعرف هذا. أفلا يفهم وازن القلوب؟ وحافظ نفسك ألا يعلم؟ فيرد على الإنسان مثل عمله" (أمثال 24 : 11 و 12). وفي يوم الدينونة العظيم فإن أولئك الذين لم يخدموا المسيح والذين لم يفكروا في غير أنفسهم ولا اهتموا بغيرهم سيجعلهم ديان كل الأرض مع فعلة الإثم ، وستقع عليهم نفس دينونة الأشرار.

كل واحد منا اؤتمن على وديعة وسيسأل راعي الخراف العظيم كلا منا قائلا: "أين القطيع الذي أعطي لك، غنم مجدك؟ ماذا تقولين حين يعاقبك" (إرميا 13 : 20 و 21). [611]

الفصل الحادي والسبعون—خادم الجميع

كان المسيح جالسا إلي المائدة مع تلاميذه في العلية في أحد بيوت أورشليم ، وكانوا قد اجتمعوا لممارسة الفصح ، إذ رغب المخلص في الاحتفاء بهذا العيد هذه المرة مع الاثني عشر وحدهم . كان يعلم أن ساعته قد أتت ، وكان هو نفسه خروف الفصح الحقيقي . وفي اليوم الذي كان الفصح سيؤكل فيه كان هو سيقدم ذبيحة . كان مزمعا أن يشرب كأس الغضب ، وكان عليه أن يقبل صبغة الآلام الأخيرة ، ولكن بقيت له ساعات هدوء قليلة بعد ، فكان ينبغي أن تُقضى تلك الساعات فيما يؤول لخير تلاميذه المحبوبين ونفعهم.

كانت حياة المسيح كلها حياة الخدمة وإنكار الذات . "لم يأت ليُخدم بل ليَخدم" (متى 20 : 28) - كان هذا هو الدرس المستفاد من كل عمل عمله ، ولكن تلاميذه لم يكونوا قد تعلموا ذلك الدرس بعد . ففي عيد الفصح الأخير هذا كرر يسوع هذا الدرس بمثال جعله يرسخ في أذهانهم وقلوبهم رسوخا دائما.

كانت الاجتماعات التي تضم يسوع وتلاميذه اجتماعات مفرحة للغاية ، وكانوا كلهم يقدرونها تقديرا عظيما . وفي كل مرة مورس فيها عشاء الفصح كانت هنالك مشاهد تتطلب اهتماما خاصا ، ولكن يسوع كان مضطربا في هذا العيد . لقد كان مثقل القلب ، وكان يغشي محياه ظلام حزن شديد . وإذ اجتمع مع تلاميذه في العلية لاحظوا أن شيئا ما محزنا كان يضغط نفسه ، ومع عدم معرفتهم السبب كانوا يشاركونه في حزنه.

العشاء الأخير

فلما اجتمعوا معا حول المائدة قال لهم بنغمة حزن مؤثرة: "شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم، لأني أقول لكم: إني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله" (لوقا 22 : 15 — 18). [612]

لقد عرف المسيح أن وقته قد حان ليرحل عن هذا العالم ويمضي إلي أبيه . فإذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم ، أحبهم إلي المنتهى . لقد كان الآن تحت ظل الصليب وكان الألم يعتصر قلبه ويعذبه . عرف أن الجميع سيتركونه في ساعة تسليمه ، وعرف أنه سيموت بعملية في منتهى الإذلال كما كان يعامل المجرمون . عرف الجحود والقسوة اللذين بهما سيعامله أولئك الذين أتى ليخلصهم ، وعرف هول التضحية التي كان قادما عليها ، وكيف أنها ستكون عبثا وبلا فائدة لأناس كثيرين . فإذ كان عالما بكل ما سيأتي عليه فبالطبع كان لابد أن يطغي عليه التفكير في اتضاعه و آلامه ، ولكنه مع ذلك نظر إلي الاثني عشر الذين كانوا معه كخاصته ، والذين بعدما يشاهدون العار والحزن والمعاملة المؤلمة القاسية التي سيعامل بها سيتركون ليكافحوا في العالم . إن تفكيره في آلامه كان مرتبطا أبدا بتلاميذه . فلم يفكر في نفسه

، بل كان اهتمامه بهم هو الأول والأعظم في تفكيره.

مشاجرة بين التلاميذ

وإذ كان يسوع مجتمعا مع تلاميذه في هذه الليلة الأخيرة كان لديه الشيء الكثير ليقوله لهم . فلو كانوا متأهبين لقبول ما كان يتوق لأن يقوله لهم لكانوا قد نجوا من الحزن الذي يمزق القلب ومن خيبة الأمل وعدم الإيمان . ولكن يسوع رأى أنهم لا يستطيعون احتمال سماع ما كان عليه أن يقوله لهم . فإذ تطلع في وجوههم جمدت على شفتيه كلمات التحذير والتعزية التي هم بأن ينطق بها ، فمرت عليهم لحظات صمت وبدا وكأن يسوع ينتظر ، وكان التلاميذ في حال الملل والسآمة . وقد بدا وكأن العطف والرقة اللذين أثارهما حزن يسوع قد اختفيا وزالا ، ولذلك فإن كلماته الحزينة التي كان يشير بها إلي آلامه لم تحدث فيهم التأثير المطلوب . ثم إن النظرات التي كانوا يحدجون بها بعضهم البعض نمت عن وجود الحسد والمنازعات والخصومات في قلوبهم.

"وكانت بينهم مشاجرة من منهم يظن أنه أكبر" (لوقا 22 : 24). فهذه المشاجرة التي نشبت في حضور المسيح أحزنت قلبه وجرحته جرحا عميقا . كان التلاميذ متعلقين بفكرتهم المحبوبة لديهم من أن المسيح سيثبت سلطانه ويجلس على عرش داود . [613] وكان كل منهم يتوق في قلبه إلي إحراز أسمى مكانة في الملكوت . جعل كل منهم يفاضل بين نفسه وإخوته ، وبدلا من أن يعتبر إخوته أفضل منه وأجدر صار كل منهم يعتبر نفسه الأفضل والأجدر . وإن الطلب الذي كان قد تقدم به يعقوب ويوحنا إلي المسيح في أن يجلس الواحد منهما عن يمينه والآخر عن يساره في عرشه أثار غضب الباقين . وكون ذينك الأخوين يتجاسران لطلب أسمى المناصب لنفسيهما أثار نفوس العشرة عليهما بحيث كاد الأمر يفضي إلي الجفاء والفرقة . فلقد أحسوا بأنه قد أسيء تقديرهم ولم يقدر ولاؤهم ولا مواهبهم التقدير اللائق . وكان يهوذا أشد قسوة على يعقوب ويوحنا من الباقين.

عندما دخل التلاميذ العلية للعشاء كانوا في أشد حالات الاستياء والامتعاض . جلس يهوذا عن يسار المسيح وجلس يوحنا عن يمينه . فإذا كان هنالك مكان يعتبر أسمى الأماكن فقد صمم يهوذا على أن يشغله . وقد ظن أن ذلك المكان هو الواقع بجوار المسيح. وكان يهوذا خائنا .

مهمة الخادم

ثم ظهر سبب آخر للنزاع . ففي الأعياد كانت العادة أن يتولى الخدم غسل أرجل الضيوف . وفي تلك المناسبة أعد كل شيء لهذه الخدمة ، فقد كان هنالك المغسل والطست والمنشفة معدة لخدمة غسل الأرجل ، ولكن لم يكن يوجد خادم ، فكان على التلاميذ أن يقوموا بتلك الخدمة ، ولكن إذ كان كل واحد منهم متأثرا بكبريائه الجريحة ترفع عن القيام بعمل الخادم . وقد أبدوا جميعا عدم اكتراث كأنما هم لا يشعرون بأن لهم عملا ليعملوه . وفي صمتهم رفضوا أن يتواضعوا .

فكيف يأتي المسيح بهذه النفوس المسكينة إلي حالة لا يستطيع الشيطان فيها أن ينتصر عليهم انتصارا حاسما ؟ وكيف يريهم أن مجرد الاعتراف بالتلمذة له لا يجعلهم تلاميذ أو يضمن لهم مكانا في ملكوته ؟ وكيف يبرهن لهم على أن خدمة المحبة والوداعة الحقيقية هما عنصر العظمة الحقة ؟ وكيف يضرم نار

المحبة في قلوبهم ويقدرهم على إدراك ما اشتاق إلي أن يقوله لهم ؟

لم يتحرك التلاميذ لخدمة بعضهم البعض ، وتريث المسيح بعض الوقت ليرى ما هم [614] فاعلون . وإذا به وهو المعلم الإلهي يقوم عن العشاء ، وبعدما يخلع ثيابه الخارجية حتى لا تعيقه عن الحركة يأخذ منشفة ويتزر معها . جعل التلاميذ ينظرون إلي معلمهم بدهشة واهتمام ، ثم انتظروا بسكوت ما سيحدث بعد ذلك . "ثم صب ماء في مغسل، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها" (يوحنا 13 : 5). هذا الصنيع فتح أعين التلاميذ . وقد امتلأت نفوسهم حزنا وإذلالا مريرين . لقد فهموا التوبيخ الذي لم ينطق به معلمهم ورأوا أنفسهم في نور جديد تماما.

وهكذا عبر المسيح عن حبه لتلاميذه . لقد ملأته أنانيتهم وكبرياؤهم حزنا ، ولكنه لم يشتبك معهم في جدال فيما يختص بمشكلتهم . وبدلا من ذلك قدم لهم مثالا لم ينسوه طيلة حياتهم قط . إن محبته لهم لم تكن لتتأثر أو تنطفئ . لقد عرف أن الآب دفع كل شيء إلي يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي . كان عنده إحساس كامل بألوهيته ، ولكنه خلع عنه تاج الملك وثياب الملك وأخذ صورة عبد . لقد كان بين آخر أعماله التي قام بها على الأرض أنه تمنطق كعبد وقام بعمل العبيد.

أرجل مغسولة

لقد اتصل يهوذا بالكهنة والكتبة مرة ثانية قبل الفصح ، وتعاقد معهم على أن يسلم يسوع إلي أيديهم . ومع ذلك فقد اندمج في وسط التلاميذ كما لو كان بريئا من كل ذنب ومهتما بإعداد كل مطاليب العيد . لم يكن التلاميذ يدرون شيئا عن نوايا يهوذا ، لكن يسوع وحده هو الذي كان مطلعا على خفايا قلبه ، ومع ذلك فلم يشهر به ، بل تاق إلي خلاص نفسه . كان قلب الفادي مثقلا بالحزن عليه ، كما أثقل على أورشليم التي بكى عليها إذ كان محكوما عليها بالهلاك . إن قلبه كان يصرخ قائلا: كيف أتخلى عنك وأقطع الأمل منك ؟ لقد أحس يهوذا بقوة تلك المحبة التي تكتنفه ، فإذ كانت يدا المخلص تغسلان قدما يهوذا المتسختين وتمسحانهما بالمنشفة اختلج قلبه في تلك اللحظة عينها بانفعالات شديدة وكاد يتحرك للاعتراف بخطيته ، لكنه لم يرد أن يتواضع ، بل قسى قلبه فلم يتب ، وعادت إليه البواعث التي كانت قد زايلته إلي حين فتحكمت فيه من جديد . حينئذ تعثر يهوذا حين رأى يسوع يقوم بغسل أرجل تلاميذه . ففكر قائلا إذا كان يسوع قد وضع نفسه إلي هذا الحد [615] فلا يمكن أن يكون هو ملك إسرائيل ، وهكذا ضاع كل أمل في الكرامة العالمية التي يمكن الحصول عليها من مملكة أرضية ، فاقتنع يهوذا بأنه لا يمكنه أن ينال مغنما من اتباعه المسيح . فبعدما رآه يحط من مقامه ، كما ظن ، ثبت على عزمه في التبرؤ منه ، والاعتراف بأنه كان مخدوعا . لقد دخله الشيطان ، فعقد العزم على إتمام العمل الذي كان قد تعاقد مع الأعداء على القيام به وهو تسليم سيده لأيديهم.

إن يهوذا حين اختار مكانه على المائدة حاول أن يضع نفسه في الموضع الأول . والمسيح ، كخادم ، خدمه أول التلاميذ . أما يوحنا الذي كان يهوذا يشعر نحوه بالنفور والمرارة الشديدة فقد ترك للآخر . ولكن يوحنا لم يعتبر ذلك توبيخا أو ازدراء موجها إليه . فإذ لاحظ التلاميذ عمل المسيح تأثروا تأثرا عميقا . ولما جاء دور سمعان بطرس صاح قائلا باندهاش: "يا سيد، أنت تغسل رجليّ!" لقد انسحق قلبه أمام تنازل المسيح . وملأ الخزي وجهه وقلبه لأن أحدا من التلاميذ لم يقم بتلك الخدمة ، فقال له المسيح: "لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد" (يوحنا 13 : 6 و 7). إن بطرس لم يحتمل أن يرى سيده الذي كان يؤمن بأنه ابن الله يقوم بعمل الخدم والعبيد . فثارت نفسه وكل كيانه احتجاجا على هذا الاتضاع .

إنه لم يكن يعلم أنه لأجل هذا جاء المسيح إلي العالم . فبكل تشديد قال: "لن تغسل رجليّ أبداً!" (يوحنا 13 : 8).

بكل وقار أجاب المسيح بطرس بقوله: "إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب" (يوحنا 13 : 8). إن هذه الخدمة التي رفض بطرس قبولها كانت رمزا لغسل أسمى وأمجد. لقد أتى المسيح ليغسل القلوب و يطهرها من لوثات الخطية . فإذ رفض بطرس السماح للمسيح بأن يغسل قدميه كان يرفض الاغتسال الأسمى المتضمن في الاغتسال الأدنى . وفي الحقيقة كان يرفض ربه وسيده . إن السماح للسيد بأن يعمل ما يؤول إلي تطهيرنا ليس إذلالا له . إن أصدق وداعة هي أن نقبل بقلوب شاكرة أي تدبير يقدم لأجلنا ، وبكل غيرة نقدم الخدمة للمسيح.

فعندما قال المسيح لبطرس: "إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب" أخضع بطرس كبرياءه وعناده . لم يستطع احتمال فكرة الانفصال عن المسيح ، إذ كان يعتبر ذلك كارثة له أمر من الموت ، "قال له سمعان بطرس: يا سيد، ليس رجليّ فقط بل أيضاً يديّ [616] ورأسي. قال له يسوع: الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله. وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم" (يوحنا 13 : 9 و 10).

"أنتم طاهرون"

إن هذا الكلام يعني شيئا أكثر من طهارة الجسد . إن المسيح لا يزال يتحدث عن التطهير الأسمى ممثلا بالتطهير الأدنى . إن من اغتسل فهو طاهر ولكن رجليه المنتعلتين سرعان ما يلحقهما الغبار وتحتاجان للغسل من جديد . وكذلك بطرس وإخوته كانوا قد اغتسلوا في الينبوع العظيم المفتوح للخطية والنجاسة . لقد اعترف بهم المسيح كخاصته ولكن التجربة ساقتهم إلي الشر فكانوا لا يزالون بحاجة إلي نعمته المطهرة . إن يسوع عندما تمنطق بالمنشفة ليغسل الغبار عن أرجلهم كان يريد بنفس ذلك العمل أن يغسل من قلوبهم الخصومة والنزاع والحسد والكبرياء ، وكان هذا أهم بكثير في نتائجه من مجرد غسل أرجلهم . فبالروح التي كانت فيهم حينئذ لم يكن أحد منهم مستحقا للشركة مع المسيح . فما لم ينتقلوا إلي حال الوداعة والمحبة لن يكونوا مؤهلين للاشتراك في عشاء الفصح أو في الخدمة التذكارية التي كان المسيح مزمعا أن يسنها ، فينبغي أن تتطهر قلوبهم . إن الكبرياء وطلب ما للذات تخلقان في النفوس البغضاء والمنازعات ، ولكن يسوع غسل من قلوب تلاميذه كل هذا حين غسل أرجلهم . لقد تغيرت مشاعرهم . فإذ نظر يسوع إليهم أمكنه أن يقول: "وأنتم طاهرون" فالآن توحدت قلوبهم وحلت فيها المحبة كل للآخر . لقد صاروا الآن ودعاء وقابلين للتعلم . وفيما عدا يهوذا كان كل منهم مستعدا أن يتنازل للأخر عن أرفع مكان . والآن بعدما أخضعت قلوبهم وامتلأت شكرا صاروا مستعدين لقبول أقوال المسيح.

وكبطرس وإخوته نحن أيضاً قد اغتسلنا في دم المسيح ، ومع ذلك فمرارا كثيرة تتلوث طهارة القلب عن طريق الاحتكاك بالشر . فعلينا أن نأتي إلي المسيح في طلب النعمة المطهرة . لقد تراجع بطرس إذ لم يرد أن يجعل رجليه الملوثتين تلامسان يدي سيده ومعلمه . ولكن كم من مرة جعلنا قلوبنا الملوثة تلامس قلب المسيح ! وما أشد الحزن الذي نجلبه عليه بحدة طباعنا وبطلنا وكبريائنا ! ومع ذلك فيجب أن نأتيه بكل ضعفاتنا ونجاساتنا إذ لا يستطيع أن يطهرنا أحد سواه . إننا لن نكون مؤهلين للشركة معه ما لم نتطهر باستحقاقه. [617]

قال يسوع لتلاميذه: "وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم" (يوحنا 13 : 10). لقد غسل رجلي يهوذا ولكن

يهوذا لم يسلم قلبه ليسوع ، ولذلك لم يكن مطهرا ، إذ لم يخضع نفسه للمسيح.

العظمة في التواضع

فلما كان المسيح قد غسل أرجل التلاميذ واخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: “أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً، وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا تصنعون أنتم أيضاً. الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله” (يوحنا 13 : 12 — 16).

أراد المسيح أن يفهم تلاميذه أنه مع كونه قد غسل أرجلهم فإن ذلك لم ينقص من كرامته في شيء . “أنتم تدعونني معلماً وسيداً، وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك”. ولكونه متفوقا جدا وساميا إلي أقصى حد فقد أضفى على هذه الخدمة أهمية ونعمة عظيمتين . لم يكن أحد ممجدا كالمسيح ومع ذلك فقد تنازل وقام بأحقر خدمة . فحتى لا يضل شعبه بواسطة الأنانية الرابضة في القلب الطبيعي والتي تقويها وتغذيها خدمة الذات قدم المسيح نفسه مثالا للوداعة . إنه لم يكلف إنسانا بهذا العمل العظيم ، فلقد اعتبره ذا أهميه عظيمة جدا بحيث أنه هو نفسه المعادل لله ، اتخذ من تلاميذه موقف الخادم . فإذ كانوا يتنازعون على أرفع مكان إذا به هو الذي له ستجثو كل ركبة ، والذي يعتبر ملائكة السماء خدمته كرامة ومجدا عظيمين ينحني ليغسل أرجل أولئك الذين كانوا يدعونه سيدا بل لقد غسل رجلي مسلمه.

قدم المسيح بحياته وتعاليمه أكمل مثال للخدمة المنكرة لذاتها التي مصدرها الله . فالله لا يعيش لذاته . لقد خلق العالم وفيه يقوم الكل فهو على الدوام يخدم الآخرين ، “يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين” (متى 5 : 45). لقد سلم الله لابنه مقياس ونموذج الخدمة هذا . ثم أسلم يسوع لكي يكون رأسا ورئيسا للبشرية حتى بمثاله يعلم الناس ما هو معنى الخدمة . كانت كل حياته خاضعة لناموس الخدمة . إذ خدم الجميع وأعان الجميع . وهكذا عاش بموجب شريعة الله وأرانا بمثاله كيف نطيعها. [618] حاول يسوع مرارا عديدة أن يثبت هذا المبدأ في عقول تلاميذه . فحين قدم يعقوب ويوحنا طلبهما لكي يحظيا بأسمى المراكز قال: “من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً” (متى 20 : 26). وكأنما هو يقول: لا مكان في ملكوتي لمبدإ الأفضلية والتسامي.فالعظمة الحقيقية هي عظمة الوداعة . والتمييز الوحيد هو في تكريس النفس لخدمة الآخرين.

“أعطيتكم مثالاً”

بعدما غسل أرجل تلاميذه قال لهم: “أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً”. إن المسيح لم يفرض عليهم بهذه الكلمات الكرم وحسن الضيافة وحسب ، بل كان يقصد شيئا أكثر من مجرد غسل أرجل الضيوف لإزالة وعثاء السفر ، فلقد سن المسيح حينئذ خدمة دينية . والسيد إذ قام بهذا العمل أضفى على هذه الخدمة الوضيعة كرامة عظيمة بحيث صار فريضة مقدسة . وكان على التلاميذ أن يحفظوه لكي يذكروا دائما تعاليمه عن التواضع والخدمة . كانت هذه الفريضة هي الإعداد الذي رسمه المسيح لخدمة العشاء الرباني ،لأنه إذا أبقى الإنسان الكبرياء والنفور والنزاع حبا في الرفعة والسمو في

داخله فالقلب لا يمكنه أن يدخل في شركة مع المسيح . وحينئذ لن نكون مستعدين للتناول من شركة جسده ودمه ، ولهذا أراد يسوع أن تحفظ ذكرى اتضاعه أولا.

إذ يتقدم أولاد الله إلي هذه الفريضة عليهم إن يذكروا ما قاله رب الحياة والمجد: ”أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً، وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا تصنعون أنتم أيضاً. الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله. إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه“ (يوحنا 13 : 12 — 17). إن الإنسان ميال بطبعه إلي اعتبار نفسه أعظم من أخيه ، وإلي خدمة نفسه وطلب أرفع مكان . وغالبا ما تنتج عن ذلك الظنون الرديئة ومرارة الروح . إن الفريضة التي تسبق عشاء الرب يجب أن تكتسح أمامها كل سوء تفاهم وتبعد الإنسان عن نطاق الأنانية وتجعله يكف عن تحطيم الذات ويلجأ إلي وداعة القلب التي تدفعه إلي خدمة الإخوة. [619]

إن الرقيب السماوي القدوس هو حاضر في هذه الفرصة ليجعلها فرصة لاختبار النفس والتبكيت عن الخطية واليقين المبارك بغفران الخطايا . إن المسيح بملء نعمته حاضر ليغير اتجاه التفكير الذي كان يسير في قنوات الأنانية . والروح القدس يحيي وينعش أحاسيس من يتبعون مثال سيدهم . وإذ نذكر اتضاع المخلص لأجلنا فالأفكار ترتبط بعضها ببعض ثم تتكون لدى الإنسان سلسلة من الذكريات ، ذكريات صلاح الله العظيم وفضل الأصدقاء الأرضيين ورقتهم . ثم تعود إلي الذهن ذكريات البركات المنسية والمراحم التي أسأنا استعمالها والإحسانات التي ازدرينا بها . ويظهر أصل المرارة الذي تراكم في تربة القلب فعطل نمو نبات المحبة الثمين . وكذلك نذكر نقص خلقنا وإهمالنا لواجباتنا وجحودنا لفضل الله وفتور محبتنا للإخوة . ونرى الخطية التي يراها الله في قلوبنا . ولن تكون أفكارنا هي أفكار الرضى عن نفوسنا بل لومها والاتضاع أمام الله . ثم إن الذهن ينشط فيحطم كل السياجات التي أوجدت النفور . كما أن الأفكار والأقوال الشريرة تنبذ بعيدا . وإذ نعترف بخطايانا ننال الغفران ، فتدخل نعمة المسيح القاهرة إلي النفس فتجذب محبته القلوب بعضها إلي بعض في وحدة مباركة.

”بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً“

وحين يفهم الدرس المقصود بالخدمة التمهيدية تضطرم الرغبة في طلب حياة روحية أسمى . فالشاهد الإلهي سيستجيب لهذه الرغبة ، والنفس تسمو ، ونحن يمكننا الاشتراك في المائدة المقدسة ونحن شاعرون بأن خطايانا قد غفرت . وسيملأ المسيح شمس البر مقاصير هيكل العقل والنفس بنوره ، فنقول مع يوحنا: ”هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!“ (يوحنا 1 : 29).

إن الذين يقبلون روح هذه الخدمة لن تصير هذه الخدمة مجرد طقس عديم القوة بالنسبة إليهم . ولكن الدرس الدائم الذي يتعلمونه هو هذا: ”بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً“ (غلاطية 5 : 13). إن المسيح إذ غسل أرجل تلاميذه قدم البرهان على أنه يمكنه القيام بأية خدمة مهما كانت وضيعة ما دامت تجعلهم وارثين معه لكنوز السماء الأبدية . وإن تلاميذ المسيح وهم يمارسون نفس هذه الفريضة تعهدوا بخدمة إخوتهم كذلك . وكلما مورست هذه الفريضة بالكيفية الصائبة فإن أولاد الله يندمجون في شركة مقدسة لجلب [620] المعونة والبركة لبعضهم البعض . ويأخذون على أنفسهم العهد أن يقضوا حياتهم في خدمة مجردة ، ولا يكتفون بخدمة بعضهم بعضا ، ولكن حقل خدمتهم سيكون واسعا جدا كما كان حقل خدمة سيدهم . إن العالم مشحون بمن يحتاجون إلي خدمتنا . فالفقراء والعاجزون والجهلاء موجودون في كل

بقاع الأرض . وأولئك الذين اشتركوا في المائدة مع المسيح في العلية سيخرجون للخدمة كما قد خرج هو.

إن يسوع المخدوم من الجميع أتى ليكون خادما للجميع . ولكونه قد خدم الجميع فسيخدمه الجميع ثانية ويكرمونه . والذين يريدون أن يشاركوه في صفاته الإلهية وفي فرح رؤية الخطاة يفتدون عليهم أن يتمثلوا به في الخدمة المضحية.

كل هذا اشتملت عليه أقوال المسيح عندما قال: "لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً". كانت هذه هي غاية الخدمة التي أداها . وهو يقول: "إن علمتم هذا" وعرفتم الغرض من تعاليمه "فطوباكم إن عملتموه". [621]

الفصل الثاني والسبعون— "لذكري"

"إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها، أخذ خبزاً وشكر وكسر، وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشّوا، قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري. فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء" (1 كورنثوس 11 : 23 — 26). كان المسيح واقفا عند نقطة انتقال بين عهدين ، والعيد العظيم لكل منهما . فهو كحمل الله الذي بلا عيب كان مزمعا أن يقدم نفسه ذبيحة خطية وهكذا ينهي نظام الرموز والطقوس التي لمدى أربعة آلاف سنة كانت ترمز إلي موته . فإذ أكل الفصح مع تلاميذه سن بدلا منه الخدمة التي كانت مزمعة أن تكون تذكارا لذبيحته العظيمة . فذلك العيد اليهودي القومي كان مزمعا أن يبطل إلي الأبد . وتلك الخدمة التي سنها المسيح كان على تابعيه أن يحفظوها في كل البلدان والعصور.

فريضة الفصح

كانت فريضة الفصح قد رسمت كتذكار لخلاص العبرانيين من عبودية مصر . وقد أوصى الله شعبه أنه عندما يسألهم أولادهم من سنة لأخرى عن معنى هذه الفريضة أن يسردوا على مسامعهم تاريخ نجاتهم . وبهذه الكيفية تظل هذه الذكرى ، ذكرى ذلك الخلاص العجيب جديدة وماثلة في أذهان الجميع . أما فريضة عشاء الرب فقد أعطيت تذكارا للخلاص العظيم الذي تم بموت المسيح . فينبغي حفظ هذه الفريضة إلي يوم مجيئه الثاني بقوة ومجد عظيم . هذه هي الوسيلة التي بها يظل هذا العمل العظيم ماثلا في أذهاننا.

إن بني إسرائيل عند نجاتهم من عبودية مصر أكلوا الفصح وهم واقفون على أقدامهم وأحقاؤهم مشدودة وعصيهم في أيديهم وهم مستعدون للرحيل . كانت طريقة احتفائهم بهذه [622] الفريضة متوافقة مع حالتهم لأنهم كانوا بعد قليل سيطردون من أرض مصر ، وكانوا على وشك البدء في رحلة مؤلمة وشاقة في البرية . أما في أيام المسيح فكانت الأحوال قد تبدلت فما عادوا الآن يخشون الطرد من أرض غريبة إذ كانوا ساكنين في أرضهم . فوفقا للراحة التي أعطيت لهم كان الشعب يأكلون الفصح وهم متكئون ، فكانت المتكئات توضع حول المائدة ، وكان الضيوف يتكئون عليها على اليد اليسرى ليستطيعوا تناول العشاء باليد اليمنى الطليقة . وفي هذا الوضع كان الضيف يستطيع أن يريح رأسه على صدر من يتكئ بجواره . وإذ كانت الأرجل على حافة المتكأ الخارجية كان يمكن لمن يمر حول الدائرة الخارجية أن يغسلها.

كان المسيح لا يزال جالسا إلي المائدة التي كان قد قدم عليها عشاء الفصح . وكانت أمامه أقراص الفطير التي كانت تؤكل في عيد الفصح، كما كانت على المائدة أيضا خمر الفصح غير المختمرة .

والمسيح يستخدم هذين الرمزين لتمثيل ذبيحته التي بلا عيب . فلا شيء مما أفسده الاختمار الذي هو رمز الخطية والموت كان يمكن أن يمثل الحمل الذي "بلا عيب ولا دنس" (1 بطرس 1 : 19).

"وفيما هم يأكبون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: "خذوا كلوا. هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا. وأقول لكم: إني من اللآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي" (متى 26 : 26 — 28).

خائن في وسطهم

كان يهوذا الخائن حاضرا عند ممارسة فريضة عشاء الرب . وقد تناول من يسوع رمزي جسده المكسور ودمه المسفوك ، وسمع قول السيد: "اصنعوا هذا لذكري" (لوقا 22 : 19). وإذ كان جالسا هناك في نفس محضر حمل الله جعل ذلك الخائن يتأمل في نواياه المظلمة الخبيثة ، وقد احتضن أفكاره الانتقامية المشؤومة.

وعند غسل الأرجل قدم يسوع الدليل المقنع على علمه ومعرفته لصفات يهوذا ونوايا [623] قلبه . فلقد قال: "وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم" (يوحنا 13 : 11). كان هذا القول كافيا لإقناع ذلك التلميذ الكاذب بأن المسيح كان عالما بنواياه الخفية . ثم هاهو المسيح يتكلم بصراحة أعظم . فإذ كانوا جالسين إلي المائدة نظر المسيح إلي تلاميذه وقال: "لست أقول عن جميعكم. أنا أعلم الذين اخترتهم. لكن ليتم الكتاب: الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه" (يوحنا 13 : 18).

ولكن حتى الآن لم يشك التلاميذ في يهوذا إلا أنهم رأوا المسيح مضطربا جدا . وقد غشيتهم جميعا سحابة حزن وإحساس سابق بوقوع كارثة مخيفة لم يكونوا يعرفون نوعها .

وفيما كانوا يأكلون صامتين قال يسوع: "الحق الحق أقول لكم: إن واحداً منكم سيسلمني!" (يوحنا 13 : 21). فإذ سمعوا هذا الكلام شملهم الذهول والرعب . لم يستطيعوا أن يدركوا كيف أن أي واحد منهم يعامل معلمهم الإلهي بمثل هذا الغدر . فلأي سبب يسلمونه ؟ ولمن يسلمونه ؟ ومن ذا الذي يمكن أن يضمر في قلبه تلك النية الشريرة ؟ لا يمكن أن يكون ذلك الإنسان واحدا من الاثني عشر الذين اصطفاهم واختصهم فوق كل من سواهم بامتياز الاستماع إلي تعاليمه ، والذين كان لهم نصيب من محبته العجيبة وقد خصهم باهتمامه العظيم إذ أدخلهم إلى قدس الشركة الوثيقة معه !

فلما تحققوا من فحوى كلامه وذكروا صدق أقواله تملكهم الخوف وبدأوا يشكون في نفوسهم . ثم جعلوا يفحصون قلوبهم ليروا هل كانوا قد سمعوا لفكر شرير ضد معلمهم بأن يقتحم عقولهم . وبانفعال حزن مؤلم مرير بدا الواحد منهم بعد الآخر يسأل قائلا: "قل أنا هو يا رب؟" (متى 26 : 22). أما يهوذا فبقي صامتا . وإذ كان يوحنا في أشد هم وكرب سأله قائلا: "يا سيد، من هو؟" (يوحنا 13 : 25). فأجابه يسوع بقوله: "الذي يغمس يده معي في الصحفة هو يسلمني! إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلّم ابن الإنسان. كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد!" (متى 26 : 23 و 24). كان كل من التلاميذ قد تفحص وجه أخيه بدقة وهو يسأل السيد قائلا: "ها أنا هو يا رب؟" والآن فها صمت يهوذا يجتذب إليه أنظار الجميع . ففي وسط البلبلة التي أحدثتها كثرة الأسئلة وتعبيرات الدهشة لم يكن يهوذا قد سمع جواب يسوع عن سؤال يوحنا . أما الآن فلكي يدرأ عن نفسه نظرات التلاميذ المتفحصة سأل كما سألوا هم أيضا: "هل أنا هو يا سيدي؟" فأجابه يسوع بكل وقار: "أنت قلت" (متى 26 : 25).

[624]

فإذ شمل يهوذا ارتباك ودهشة بالغان لأن أمره قد فضح قام مسرعا تاركا ذلك المكان ، "ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة .. فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت. وكان ليلاً" (يوحنا 13 : 27 و 30). لقد كان الوقت ليلا على الخائن عندما ابتعد عن يسوع إلي الظلمة الخارجية.

قبلما خطا يهوذا هذه الخطوة لم يكن قد تجاوز منطقة إمكانية التوبة. ولكن عندما خرج من حضرة ربه وصحبة زملائه التلاميذ كان قد اتخذ الخطوة الحاسمة متجاوزا الحدود.

التماسات تصد

كان صبر يسوع وطول أناته عجيبين وهو يتعامل مع هذه النفس المجرمة. لقد عمل كل ما كان يمكن عمله لخلاص يهوذا ، فبعدما تآمر مرتين مع الأعداء لتسليم سيده أعطاه يسوع فرصة أخرى للتوبة . فإذ عرف المسيح الغرض الخفي الذي كان يضمره ذلك الخائن في قلبه قدم له الدليل الأخير المقنع على ألوهيته . وكان هذا بالنسبة إلي ذلك التلميذ الخائن آخر دعوة للتوبة . إن قلب المسيح البشري الإلهي لم يضن بأية دعوة أو وسيلة كان يمكنه أن يقدمها . فأمواج الرحمة التي صدتها صخرة الكبرياء العنيدة عادت بأمواج المحبة القوية الغالبة . ولكن مع أن يهوذا ذهل وفزع عندما اكتشفت جريمته فقد زاد إصرارا على إصراره . فمن على مائدة العشاء الرباني خرج ليستكمل إجراءات التسليم.

إن المسيح إذ نطق بالويل على يهوذا كانت له مقاصد رحيمة نحو تلاميذه. لقد أعطاهم بذلك آخر برهان على كونه مسيا . فقد قال: "أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون أني أنا هو" (يوحنا 13 : 19). فلو بقي يسوع صامتا متظاهرا بأنه يجهل ما سيأتي عليه ربما كان تلاميذه يظنون أن معلمهم ليست له البصيرة الإلهية التي ترى ما في الخفاء ، وكانوا قد أخذوا على غرة وأسلموا بين أيدي الدهماء المتعطشين لسفك الدماء . كان يسوع قد قال لتلاميذه قبل ذلك بسنة إنه قد اختارهم الاثني عشر وواحد منهم شيطان . والآن فها الكلام الذي قاله ليهوذا الذي به برهن على أن معلمه عالم تمام العلم بخيانته يقوي إيمان تابعي المسيح الحقيقيين في أثناء اتضاعه . وعندما تجيء نهاية يهوذا [625] المخيفة المحتومة فسيذكرون الويل الذي نطق به يسوع على مسلمه.

كان للمخلص غرض آخر ، فهو لم يجرد من الخدمة ذاك الذي عرف أنه خائن. إن التلاميذ لم يفهموا كلام معلمهم حين قال لهم: "وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم"، ولا حتى عندما أعلن وهو على المائدة قائلا: "الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه" (يوحنا 13 : 11 و 18). ومن بعد ذلك لما وضح لهم معنى كلام المسيح جعلوا يفكرون في صبر الله ورحمته نحو ذاك الذي ارتكب أشنع وأرهب خطية.

مع أن يسوع كان قد عرف يهوذا من البدء فقد غسل رجليه. وكان لذلك الخائن امتياز مشاركة المسيح في الفريضة المقدسة . لقد استخدم المخلص الطويل الأناة كل وسيلة لاجتذاب ذلك الخاطئ ليقبله وليتوب ويتطهر من نجاسات خطيته . وفي هذا كله هو مثال لنا . فعندما نرى إنسانا واقعا في خطية يجب ألا نعتزل عنه ، فلا نتركه أو نعزل نفسنا عنه في غير اكتراث لئلا يصير فريسة للتجربة ، ولا نطرده لينضم إلي حزب الشيطان . هذه ليست إرادة المسيح . فلأن التلاميذ كانوا مذنبين ومخطئين غسل السيد أرجلهم . وبهذه الكيفية أقبل الاثنا عشر إلي التوبة فيما عدا واحدا فقط.

“ ليمتحن الإنسان نفسه”

إن مثال المسيح يحرم استثناء أي إنسان من التقدم إلي المائدة أو إيقافه أو حرمانه. نعم إن الخطية العلنية توجب استثناء المذنب ، وهذا ما يعلمنا إياه الروح القدس بوضوح كما قد ورد في (1 كورنثوس 5 : 11)، ولكن فيما عدا هذا ينبغي ألا ندين أحدا . إن الله لم يترك الأمر بيد الناس ليحكموا في من ومن هم الذير يتقدمون إلي المائدة في هذه المناسبات ، إذ من من الناس يعرف خفايا القلوب ؟ ومن يستطيع أن يميز الزوان من الحنطة ؟ “ليمتحن الإنسان نفسه، وهكذا يأكل من الخبز ويسرب من الكأس”، “إذا أي من أكل هذا الخبز، أو شرب كأس الرب، بدون استحقاق، يكون مجرماً في جسد الرب ودمه”، (1 كورنثوس 11 : 28 و 27 و 29).

وعندما يجتمع المؤمنون لممارسة الفرائض يوجد رسل لا تراهم العين البشرية. وقد يكون هناك إنسان كيهوذا في وسط تلك الجماعة ، فإذا كان الأمر كذلك فسيكون هناك [626] رسل من قبل سلطان الظلمة لأنهم يلازمون كل من يرفضون الخضوع لسلطان الروح القدس. ثم إن ملائكة السماء موجودون هناك أيضا . فهؤلاء الزوار غير المنظورين يكونون حاضرين في كل مناسبة كهذه . وقد يكون حاضرا بين تلك الجماعة أناس ليسوا عبيدا للحق والقداسة بإخلاص ومع ذلك يرغبون في الاشتراك في الخدمة . فينبغي ألا يمنعوا . يوجد شهود حاضرون ، كانوا حاضرين حين غسل يسوع أرجل التلاميذ ورجلي يهوذا . لقد شاهدت المنظر عيون من هم أعظم من بنوا الإنسان.

والمسيح حاضر بالروح القدس ليختم على فريضته ، وهو هناك ليبكت القلب ويلينه .ولا يمكن أن تخفي عليه نظرة أو فكر يختلج به أي قلب منسحق. إنه ينتظر لكي يرحب بالتائب المنسحق القلب . وكل شيء معد لقبول تلك النفس . فذاك الذي قد غسل رجلي يهوذا يشتاق لأن يغسل كل قلب من أقذار الخطية.

وينبغي ألا يؤخر أي واحد نفسه عن المائدة المقدسة لوجود بعض الناس العديمي الاستحقاق. فكل تلميذ مدعو للاشتراك علنا ، وبذلك يشهد بأنه قد قبل المسيح كمخلصه الشخصي . إن المسيح يتقابل مع شعبه في هذه الفرائض رسميا وهو ينشطهم بحضوره .وقد يقدم هذه الفرائض بعض الخدام ذوي الأيدي والقلوب غير الطاهرة ، ولكن المسيح هناك ليخدم أولاده . فكل من يأتون مثبتين عيون إيمانهم فيه سينالون بركة عظيمة . وكل من يهملون هذه المناسبات والامتيازات الروحية سيخسرون خسارة عظيمة . وعلى هؤلاء يصدق هذا القول: “وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم”.

فريضة سلام

إن المسيح إذ اشترك مع تلاميذه في التناول من الخبز والخمر أخذ على نفسه العهد بأن يكون فاديا لهم . وقد سلمهم العهد الجديد الذي بموجبه كل من يقبلونه يص ي رون أولادا لله ووارثين مع المسيح . وبموجب هذا العهد تمنح لهم كل بركة يمكن أن تمنحها السماء في هذه الحياة والحياة العتيدة . كان ينبغي أن تختتم وثيقة هذا العهد بدم المسيح . وكان ينبغي أن فريضة العشاء المقدسة تذكر التلاميذ بالذبيحة العظيمة المقدمة لأجل كل فرد منهم شخصيا كواحد من بني الإنسان الساقطين. [627] ولكن لم يكن المقصود من خدمة الشركة هذه أن تكون فرصة للحزن ، ولم يكن هذا هو المقصود بها . فإذ يجتمع تلاميذ الرب حول مائدته ينبغي ألا يذكروا تقصيراتهم بالحسرة والندم . وليس لهم أن يطيلوا التفكر في اختبارهم

الديني السابق سواء أكان مشرفا أو محزنا ، وألا يتذكروا الفروق بينهم وبين إخوتهم . فالخدمة التمهيدية قد تناولت كل هذا . فامتحان النفس والاعتراف بالخطية والتوفيق بين الفروق قد تم كله . أما الآن فسيلتقون بالمسيح . وليس لهم أن يقفوا في ظلال الصليب بل في نوره المخلص ، وعليهم أن يفتحوا النفس لتدخل أشعة شمس البر . فبقلوب مطهرة بدم المسيح الزكي وهم يحسون إحساسا كاملا بحضوره وإن لم يروه بعيونهم الجسدية عليهم أن يسمعوا قوله: "سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" (يوحنا 14 : 27).

يقول سيدنا: وأنتم متبكتون على الخطية اذكروا أنني قد مت لأجلكم. وحين تظلمون وتضطهدون وتتضايقون لأجلي ولأجل الإنجيل اذكروا محبتي التي كانت عظيمة بحيث أنني بذلت حياتي لأجلكم . وحين تبدو واجباتكم شاقة وقاسية وحين يتراءى لكم أن أعباءكم أثقل من أن تحتملوها فاذكروا أنني لأجلكم قد احتملت الصليب مستهينا بالخزي . وحين يرتجف قلبكم من هول المحنة القاسية اذكروا أن فاديكم حي ليشفع فيكم.

لئلا ننسى

إن خدمة العشاء تشير إلي مجيء المسيح ثانية. ولكن القصد منها أن تحفظ هذا الرجاء حيا في عقول التلاميذ . وكلما اجتمعوا معا لإحياء ذكرى موته كانوا يتحدثون عن كيف: "أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا. وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي" (متى 26 : 26 — 29). ففي ضيقهم وجدوا عزاء في الرجاء برجوع سيدهم . وإذ كانوا يفكرون في هذا القول: "كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء" (1 كورنثوس 11 : 26). كان هذا الفكر ثمينا إلي درجة لا يمكن التعبير عنها.

هذه هي الأمور التي ينبغي ألا تغيب عن بالنا أبدا. إن محبة يسوع بقوتها التي [628] تحصرنا ينبغي أن تظل جديدة في أذهاننا على الدوام. لقد رسم المسيح هذه الخدمة حتى تتحدث إلي حواسنا عن محبة الله التي قد أظهرت لأجلنا . لا يمكن أن يكون هنالك اتحاد بين نفوسنا والله إلا عن طريق المسيح . إن الاتحاد والمحبة الكائنين بين الأخ وأخيه ينبغي أن يزيدا ثباتا ويدوما إلي الأبد بواسطة محبة يسوع . ولا شيء أقل من موت المسيح أمكن أن يجعل محبته فعالة لأجلنا . إنما بسبب موته دون سواه يمكننا أن ننتظر مجيئه الثاني بفرح . إن ذبيحته هي مركز رجائنا . فعلينا أن نثبت إيماننا في هذا .

إن الفرائض التي تشير إلي اتضاع سيدنا وآلامه كثيرا ما تمارس شكليا ، ولكنها قد وضعت لغرض معين. إن حواسنا هي بحاجة إلي الإحياء والإنعاش لتتمسك بسر التقوى . إنه امتياز عظيم للجميع أن يدركوا ، أكثر بكثير مما ندرك نحن ، آلام المسيح الكفارية. "كما رفع موسى الحية في البرية" هكذا رفع ابن الإنسان لكي "لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3 : 14 و 15). علينا أن ننظر إلي صليب جلجثة الذي عليه علق مخلصنا ومات . إن مصالحنا الأبدية تتطلب منا أن نظهر إيماننا بالمسيح.

خبز وخمر

قال سيدنا: "إن لم تأكلوا جسد الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم .. لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق" (يوحنا 6 : 53 — 55). وهذا ينطبق على طبيعتنا الجسدية . إننا مدينون لموت المسيح حتى بحياتنا الأرضية . فالخبز الذي نأكله هو مشترى بجسد المسيح المكسور والماء الذي نشربه مشترى بدمه المسفوك . لا يمكن أن إنسانا ، قديسا كان أم خاطئا ، يأكل خبزه اليومي إلا وهو يتغذى بجسد المسيح ودمه .وصليب جلجثة مرسوم على كل رغيف . ، وهو ينعكس على كل مجاري المياه . كل هذا علمه المسيح حين عين رموز ذبيحته العظيمة . إن النور الذي يشع من خدمة الاشتراك في العلية يضفي قدسية على مئونتنا التي نتناولها كل يوم . فمائدة العائلة تصير مائدة الرب ، وكل وجبة طعام تصير عشاء الرب.

فكم بالحري تصدق أقوال المسيح بالأكثر على طبيعتنا الروحية ! إنه يعلن قائلا: "من [629] يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية". يمكننا أن نحيا حياة القداسة بكوننا نقبل الحياة التي سكبت لأجلنا على صليب جلجثة . ونقبل هذه الحياة عندما نقبل كلمته وعندما نعمل الأعمال التي أمرنا بعملها ، وهكذا نصير متحدين به ، فهو يقول: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه. كما أرسلني الآب الحي، وأنا حي بالآب، فمن يأكلني هو يحيا بي" (يوحنا 6 : 54 و 56 و 57). هذه الآيات تنطبق على المائدة المقدسة بمعنى خاص . فإذ يتأمل الإيمان في ذبيحة مخلصنا العظيمة فالنفس تهضم حياة المسيح الروحية وتتمثل بها وتستوعبها . فتلك النفس تحصل على قوة روحية كلما تناولت من المائدة المقدسة . إن الخدمة تنطوي على رابطة حية بواسطتها يتحد المؤمن بالمسيح ، وبذلك يرتبط بالآب . وهي بمعنى خاص توجد رابطة بين الخلائق البشرية الضعيفة والله.

ونحن إذ نتناول من الخبز والخمر اللذين يرمزان إلي جسد المسيح المكسور ودمه المسفوك فإننا بالفكر والتصور ننضم إلي مشهد العشاء في العلية ، ويبدو كأننا نسير في طرقات البستان الذي قد تقدس بالآلام الشديدة التي تحملها ذاك الذي حمل خطايا العالم ، ونشهد الصراع الهائل الذي بواسطته تصالحنا مع الله . لقد رسم المسيح بيننا مصلوبا.

ونحن إذ نشخص في فادينا المصلوب ندرك إدراكا كاملا عظمة ومعنى الذبيحة العظيمة التي قدمها جلال السماء . وتدبير الخلاص يتمجد في نظرنا . كما أن تفكيرنا في جلجثة يوقظ في قلوبنا انفعالات حية ومقدسة . وتمتلئ قلوبنا وتنطق أفواهنا بالشكر لله وللحمل لأن الكبرياء وعبادة الذات لا يمكنها أن تنمو أو تترعرع في النفس التي تذكر دائما مناظر جلجثة .

والذي يرى محبة المخلص التي لا تبارى سيسمو تفكيره ويتطهر قلبه وتصلح أخلاقه . وسيخرج ليكون نورا للعالم ويعكس في حياته هذه المحبة العجيبة إلي درجة ما .إننا كلما أطلنا التأمل في صليب المسيح أمكننا أن ننطق بما قاله الرسول بكيفية أكمل إذ قال: "حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صلب العالم لي وأنا للعالم" (غلاطية 6 : 14). [630]

الفصل الثالث والسبعون — "لا تضطرب قلوبكم"

نظر المسيح إلى تلاميذه بمحبة إلهية وبعطف غاية في الرقة ثم قال لهم: "الآن تمجّد ابن الإنسان وتمجّد الله فيه" (يوحنا 13 : 31). كان يهوذا قد خرج من العلية وكان المسيح وحده مع الأحد عشر . كان مزمعا أن يحدثهم عن افتراقه الوشيك عنهم ، ولكنه قبل أن يفعل ذلك أشار إلى الغاية العظمى لرسالته . هذه هي الغاية التي جعلها نصب عينيه دائما . لقد كان سرور قلبه أن اتضاعه وكل آلامه تمجد اسم الآب . وقد وجه أفكار تلاميذه إلى هذا الأمر أولا .

وإذ خاطبهم بتعبير الإعزاز "يا أولادي" قال: "أنا معكم زماناً قليلاً بعد. ستطلبونني، وكما قلت لليهود: حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن" (يوحنا 13 : 33).

لم يستطع التلاميذ أن يفرحوا عندما سمعوا هذا الكلام . فلقد شملهم الخوف والتفوا حول المخلص . إن سيدهم وربهم وصديقهم ومعلمهم المحبوب كان أعز عليهم من الحياة . ففي كل ضيقاتهم ومتاعبهم نظروا إليه في طلب العون ، وكان عزاءهم في أحزانهم وفشلهم ، ولكن ها هو مزمع أن يتركهم وهم الشرذمة الموجودة الضعيفة . لقد كانت التطيرات المحزنة السوداء تملأ قلوبهم .

لكن أقوال المسيح التي نطق بها في مسامعهم كانت مفعمة بالرجاء . لقد عرف أن العدو سيهاجمهم ، وأن حيل الشيطان ناجحة وقوية جداً ضد هؤلاء الذين كانت تضايقهم الصعوبات . ولذلك ارتقى بهم عن الأشياء التي ترى إلى "التي لا ترى" (2 كورنثوس 4 : 18)، فحول أنظارهم عن أرض الغربة إلى الوطن السماوي. [631]

"أمضي لأعد لكم مكاناً"

قال لهم: "لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأعد لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إلي، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق" (يوحنا 14 : 1 — 4). إنه يقول لهم ما معناه: لأجلكم أتيت أنا إلى العالم ولأجلكم أخدم . وعندما أمضي سأتابع عملي الغيور لأجلكم . لقد أتيت إلى العالم لأعلن نفسي لكم لكي تؤمنوا . وأنا ماض إلى الآب لأتعاون معه لأجلكم . إن الغاية من انطلاق المسيح كانت على عكس ما كان يخشاه التلاميذ . فلم يكن ذلك الانطلاق انفصالا نهائيا . فلقد كان السيد ذاهبا ليعد لهم مكانا حتى يأتي أيضاً ويأخذهم إليه . ففيما كان هو يبنى لهم منازل كان عليهم هم أن يبنوا أخلاقهم لتكون على مثال صفات الله.

وإذ كان التلاميذ لا يزالون متحيرين إذا بتوما الذي كانت الشكوك تضايقه دائما يقول له: "يا سيد، لسنا نعلم أين تذهب، فكيف نقدر أن تعرف الطريق؟ قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد

يأتي إلى الآب إلا بي. لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه" (يوحنا 14 : 5 — 7).

لا توجد طرق متعددة إلى السماء . فليس لكل إنسان أن يختار طريقه ، فالمسيح يقول: "أنا هو الطريق .. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي". فمنذ كرز بأول عظة من الإنجيل عندما أعلن في عدن أن نسل المرأة يجب أن يسحق رأس الحية رفع المسيح كالطريق والحق والحياة . كان هو الطريق عندما كان آدم حيا ، وعندما قدم هابيل لله دم خروفه المذبوح كرمز لدم الفادي . لقد كان المسيح هو الطريق الذي به خلص الآباء والأنبياء.فهو الطريق الذي به دون سواه يمكننا الاقتراب إلى الله.

تعاليم لم يفهمها التلاميذ

قال المسيح: "لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه" ومع ذلك فإن التلاميذ لم يفهموا بعد فقد صاح فيلبس قائلاً : "يا سيد، أرنا الآب وكفانا" (يوحنا 14 : 7 و 8). [632]

فإذ اندهش المسيح من بلادة فيلبس وبطء فهمه سأله باندهاش وألم: "أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس!" أيمكن أنك لا ترى الآب في الأعمال التي قد عملها بواسطتي؟ ألا تؤمن أنني قد أتيت لأشهد للآب ؟ "كيف تقول أنت: أرنا الآب؟"، "الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا 14 : 9). إن المسيح لم يكف عن أن يكون إلها عندما تأنس .فمع أنه وضع نفسه وصار إنسانا فقد كان لا يزال محتفظا بلاهوته . فالمسيح وحده هو الذي استطاع أن يمثل الآب لدى البشرية ، وكان للتلاميذ امتياز رؤية هذا التمثيل لمدى أكثر من ثلاث سنين.

قال يسوع: " صدقوني أني في الآب والآب فيّ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها" (يوحنا 14 : 11). كان يمكن لإيمانهم أن يستند بلا خوف على البرهان الذي قدمته أعمال المسيح ، تلك الأعمال التي لم يعملها أي إنسان من تلقاء نفسه ولا يقدر أن يعملها . لقد شهدت أعمال المسيح لألوهيته ، ففيه أعلن الآب ذاته .

لو آمن التلاميذ بهذه الصلة الحيوية بين الآب والابن لما خذلهم إيمانهم عندما رأوا آلام المسيح وموته لكي يخلص العالم الهالك. كان المسيح يحاول أن يسمو بهم من حالة الإيمان الضعيفة إلى الاختبار الذي كان يمكنهم الحصول عليه لو تحققوا حقا ما هو- الله في جسد إنسان . كان يريدهم أن يروا أن إيمانهم يجب أن يقودهم إلى الله ويرسو هناك .بأية غيرة ومثابرة حاول مخلصنا الرقيق القلب أن يعد تلاميذه لمواجهة عواصف التجربة التي كانت موشكة أن تهب عليهم . كان يريدهم أن يستتروا معه في الله.

وإذ كان المسيح ينطق بهذه الأقوال كان مجد الله يشع من وجهه فأحس كل الحاضرين برهبة مقدسة وهم يصغون بانتباه ذاهل إلى أقواله ، وقد انجذبت إليه قلوبهم بكل قوة. وإذ جذبوا إلى المسيح بمحبة أعظم انجذبت قلوبهم إلى بعضهم البعض ، وأحسوا أن السماء قريبة منهم جدا وأن الكلام الذي كانوا يستمعون إليه لم يكن إلا رسالة إليهم من أبيهم السماوي.

أعمال الله

استطرد المسيح قائلا: " الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً" (يوحنا 14: 12). كان المخلص يتوق من أعماق قلبه إلى أن يفهم تلاميذه لأية غاية اتحدت ألوهيته بالبشرية . لقد أتى إلى العالم لكي يظهر مجد الله ، لكي [633] يرفع الإنسان بقوة ذلك المجد المجددة. تجلى الله فيه لكي يتجلى هو فيهم . إن يسوع لم يظهر أي صفات ولا مارس أية قوات إلا ويمكن للناس أن ينالوها بالإيمان به . فيمكن لكل تابعيه أن يمتلكوا بشريته الكاملة إذا خضعوا لله كما قد فعل هو.

"ويعمل أعظم منها، لأني ماض إلى أبي". ولكن المسيح لم يكن يقصد بهذا القول أن عمل تلاميذه يمكن أن يكون من نوع أسمى مما قد عمل هو ، بل قصد أنه سيكون أبعد مدى وأوسع . إنه لم يشر إلى صنع المعجزات فقط بل أشار إلى كل ما يمكن أن يحدث تحت تأثير الروح القدس.

بعد صعود الرب تحقق التلاميذ من إتمام وعده . إن مشاهد صلب المسيح وقيامته وصعوده كانت حقائق حية بالنسبة إليهم . لقد رأوا النبوات تتم حرفيا . وإذ فتشوا الكتب قبلوا تعاليمها بإيمان ويقين لم يختبروهما من قبل . وعلموا أن معلمهم الإلهي كان صادقا في كل أقواله . فإذ أفضوا إلى الناس باختبارهم وعظموا محبة الله ذابت قلوب الناس وخضعت فأمنت جماهير كثيرة بيسوع.

إن وعد المخلص لتلاميذه هو أيضاً وعد لكنيسته إلى انقضاء الدهر . إن الله لم يقصد أن تدبيره العجيب لفداء بنى الإنسان يحقق نتائج زهيدة . فكل من يخرجون للعمل غير متكلين على ما يستطيعون هم عمله بل على ما يستطيع الله أن يعمله بواسطتهم ولأجلهم لا بد أن يتحققوا من إتمام وعده . فلقد أعلن السيد قائلا: "الأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، لأني ماض إلى أبي" (يوحنا 14 : 12).

لم يكن التلاميذ إلى ذلك الحين يدرون شيئا عن إمكانيات وقدرة المخلص غير المحدودة . فقال لهم: "إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي" (يوحنا 16 : 24). وقد أوضح لهم أن السر في نجاحهم هو في كونهم يسألون القوة والنعمة باسمه . إنه سيتراءى أمام الآب ليسأله من أجلهم . إن يسوع يقدم صلاة أي مصل متضع كأنها رغبته هو لأجل مصلحة تلك النفس . فكل صلاة منبعثة من قلب مخلص تسمع في السماء . قد لا تكون صلاة فصيحة أو فيها ألفاظ منمقة ، ولكن متى كانت صاعدة من القلب فسترتفع إلى المقدس الذي يخدم فيه يسوع وهو يقدمها إلى الآب دون أن تكون فيها كلمة واحدة غير مصقولة أو فيها أية لعثمة بل تكون جميلة وعطرة ببخور كمالاته. [634]

هو يعطينا القوة

إن طريق الإخلاص والاستقامة ليس سهلا أو خاليا من العوائق ، ولكننا في كل مشكلة أو صعوبة نرى ما يدعونا إلى الصلاة . لا يوجد بين الأحياء من عنده قوة لم يستمدها من الله . والنبع الذي منه تأتي مفتوح لأحقر إنسان . قال يسوع: "مهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن. إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله" (يوحنا 14 : 13و 14).

"باسمي" هكذا أمر المسيح تلاميذه أن يصلوا . فباسم المسيح يقف تابعوه أمام الله . إن لهم قيمة في نظر الرب على قدر ما للذبيحة التي قدمها يسوع لأجلهم من قيمة . وبسبب بر المسيح المنسوب لهم يحسبون كرماء وأعزاء . فلأجل المسيح يغفر الرب لخائفيه . وهو لا يرى فيهم خسة الخطاة أو سفالتهم ، بل يرى فيهم صورة ابنه الذي به يؤمنون.

إن الرب يحس بالحزن عندما يقدر شعبه أنفسهم تقديرا منخفضا وضيقا . فهو يرغب في أن ميراثه

المختار يقدرون أنفسهم بنسبة الثمن الذي دفعه . إن الله يحبهم وإلا ما كان قد أرسل ابنه للقيام بتلك المأمورية المكلفة ليفتديهم . إنهم لازمون له وهو يسر غاية السرور عندما يطلبون منه أعظم الطلبات ليمجدوا اسمه . ولهم أن ينتظروا منه أشياء عظيمة إن كان لهم إيمان بمواعيده.

ولكن الصلاة باسم المسيح تعني شيئا أكثر من هذا ، فهي تعني أننا نقبل صفاته ونظهر روحه ونباشر أعماله . إن وعد المخلص يقدم لنا على شرط ، فهو يقول :"إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي" (يوحنا 14 : 15). إنه لا يخلص الناس في خطاياهم بل من خطاياهم ، فالذين يحبونه يبرهنون على محبتهم بالطاع

الطاعة الحقيقية

كل طاعة حقيقية تنبع من القلب . لقد كان المسيح يعمل بقلبه . وإذا نحن رضينا فهو سيدمج نفسه في أفكارنا وأهدافنا ، وبذلك تصير قلوبنا وأفكارنا في حاله وفاق وانسجام مع إرادته حتى إذ نطيعه لا نكون سوى منفذين لبواعثنا ومحققين لرغباتنا . وإذ تكون الإرادة نقية ومقدسة ستجد أن أعظم وأسمى سرورها هو في القيام بخدمة الله . وعندما نعرف الله، [635] وامتياز معرفته يكون ميسور لنا ، فإن حياتنا تكون حياة الطاعة المستمرة . فإذ نقدر صفات المسيح التقدير اللائق ، وإذ نكون في شركة مع الله فستصير الخطة كريهة بالنسبة إلينا.

وكما عاش المسيح الناموس في البشرية ، كذلك يمكننا أن نفعل نحن إن تمسكنا بالله في طلب القوة . ولكن ليس لنا أن نلقي تبعة واجباتنا على الآخرين وننتظر منهم أن يخبرونا بما يجب أن نعمل . فنحن لا يمكننا الاعتماد على البشر في طلب المشورة . إن الرب سيعلمنا واجبنا بنفس الرغبة التي هو مستعد أن يعلم بها الآخرين . فإن أتينا إليه بإيمان فسيخبرنا بأسراره هو بنفسه . وستلتهب قلوبنا فينا مرارا عديدة إذ يقترب منا السيد ويتحدث معنا كما تحدث مع أخنوخ . وأولئك الذين يعزمون على ألا يعملوا شيئا مغيظا أو محزنا لقلب الله ، فبعدما يبسطون قضيتهم أمامه سيعرفون ما يجب عليهم أن يعملوه . ولن محزنا لقلب الله ، فبعدما يبسطون قضيتهم أمامه سيعرفون ما يجب عليهم أن يعملوه . ولن يحصلوا على الحكمة وحدها بل سينالون قوة ، وستعطى لهم القوة التي قد وعدهم بها المسيح ، للطاعة والخدمة . "كل شيء" قد دفع للمسيح لسد حاجات البشر الساقطين . أعطي له كرأس البشرية ونائبها . "زمهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضية أمامه" (1 يوحنا 3 : 22).

إن المسيح قبلما قدم ذاته ذبيحة بحث عن أعظم عطية جوهرية وكاملة ليمنحها لتابعيه ، تلك العطية التي تجعل في متناول أيديهم مصادر النعمة التي لا حدود لها فقال لهم: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" (يوحنا 14 : 16 — 18).

كان الروح في العالم قبل ذلك . فمنذ بدء عمل الفداء كان يرف على قلوب الناس . ولكن عندما كان المسيح على الأرض لم يكن التلاميذ يريدون معينا آخر سواه . ولم يكونوا ليشعروا بحاجتهم إلى الروح القدس حتى يحرموا من حضور المسيح ، وبعد ذلك يحل عليهم روح الله. إن الروح القدس هو نائب المسيح ، ولكن ليست له طبيعة بشرية ، فهو مستقل عنها .لم يكن يمكن للمسيح أن يوجد في كل مكان بشخصه إذ كان يعرقله جسد بشريته . ولذلك كان من مصلحة التلاميذ أن يمضي المسيح إلى الآب ويرسل الروح ليكون خليفة له على الأرض . وحينئذ لم يكن لأي إنسان أية ميزة بسبب مركزه أو صلته الشخصية بالمسيح . [636] فبواسطة الروح القدس يسهل على كل إنسان الوصول إلى المخلص . وبهذا المعنى كان

سيصير أقرب إليهم مما لو لم يصعد إلى الأعالي.

عون عند الحاجة

“الذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي” (يوحنا 14 : 21) لقد كان يسوع عالما بما سيحدث لتلاميذه مستقبلا . رأى واحدا منهم معلقا على آلة الإعدام ، وآخر مصلوبا على صليب ، وشخصا آخر منفيا في جزيرة صخرية نائية في البحر ، ورأى آخرين يساقون إلى الاضطهاد والموت . وقد شجعهم بوعده لهم بأنه سيكون معهم في كل تجاربهم . وذلك الوعد لم يفقد شيئا من قوته . إن الرب يعرف كل شيء عن خدامه الأمناء الذين لأجل اسمه طرحوا في السجون أو نفوا إلى جزر موحشة وهو يعزيهم بحضوره . فعندما يقف المؤمن أمام محاكم هذا العالم الظالمة لكي يحاكم لأجل الحق فالمسيح يقف معه ، وكل التعييرات التي تنهال عليه إنما تنهال على المسيح ، والمسيح يدان مرة ثانية في أشخاص تلاميذه الأمناء . وعندما يسجن أحد القديسين فالمسيح يغدق عليه من محبته . وحين يقاسي آلام الموت لأجل المسيح يقول السيد : “أنا هو الحي. وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين! .. ولي مفاتيح الهاوية والموت” (رؤيا 1 : 18). فالحياة التي تبذل لأجلي محفوظة للمجد الأبدي.

ففي كل الأوقات وكل الأماكن ، في كل الأحزان والتجارب عندما يبدو كل شيء مظلما ومتجهما والمستقبل محيرا ، وحين نحس بعجزنا ووحدتنا سيرسل إلينا المعزي إجابة لصلاة الأيمان . قد تفصلنا الظروف عن كل أصدقائنا الأرضيين ولكن لا يوجد ظرف أو ساعة لتباعد بيننا وبين المعزي السماوي . فأينما نكون وأينما نذهب هو عن يميننا دائما ليسندنا ويعضدنا ويشجعنا ويبهج قلوبنا.

ولكن التلاميذ ظلوا غير مدركين للمعنى الروحي لكلام المسيح ، فعاد يفسر معناه . وقد أخبرهم أنه بالروح سيعلن نفسه لهم فقال: “وأما المعزّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلّمكم كل شيء” (يوحنا 14 : 26). لن تقولوا فيما بعد إننا لا نستطيع أن نفهم . ولن تعودوا لتنظروا في مرآة في لغز ولكنكم ستستطيعون أن “تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا [637] محبة المسيح الفائقة المعرفة” (أفسس 3 : 18 و 19).

كان على التلاميذ أن يشهدوا لحياة المسيح وأعماله وعن طريق كلامهم كان هو مزمعا أن يتحدث مع جميع الناس على وجه الأرض . أما في الحديث عن أتضاع المسيح وموته فكان لا بد لهم من مواجهة تجارب كثيرة وخيبة أمل مريرة . ولكن لكي يكون كلامهم بعد هذا مضبوطا ومتقنا فقد وعدهم يسوع قائلا: إن المعزي “يذكركم بكل ما قلته لكم” (يوحنا 14 : 26).

“هو يرشدكم إلى جميع الحق”

ثم تابع السيد كلامه قائلا: “إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كا ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم” (يوحنا 16 : 12 — 14). كان يسوع قد فتح أمام تلاميذه مجالا فسيحا للحق . ولكنه كان أمرا غاية في الصعوبة بالنسبة إليهم أن يميزوا بين تعاليمه وتقاليد الكتبة والفريسيين وتعاليمهم . كانوا قد تربوا على قبول تعاليم المعلمين على أنها صوت الله

، وكان لها سلطان على أذهانهم وقد صافت أحاسيسهم فاحتلت الأفكار الأرضية والأشياء الزمنية حيزا كبيرا من تفكيرهم . لم يدركوا طبيعة ملكوت المسيح الروحية مع إنه كان قد أوضحها لهم مرارا هذا عددها . وقد ارتبكت عقولهم فلم يدركوا قيمة الأقوال الإلهية التي أوردها لهم المسيح . وبدا وكأن كثيرا من تلك التعاليم قد ضاع هباء بالنسبة إليهم . رأى المسيح أنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي لأقواله . فبكل رفق وعدهم بأن الروح القدس سيذكرهم بكل ما قاله لهم . ثم إنه أمسك عن أن يقول لهم أشياء كثيرة مما لم يمكنهم أن يفهموها . وهذه أيضا سيكشفها لهم روح الله . كان الروح سينشط أفهامهم حتى يمكنهم تقدير الأمور السماوية . قال يسوع: "وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق" (يوحنا 16 : 13).

إن المعزي يدعى "روح الحق". وعمله هو أن يوضح الحق ويصونه . إنه أولا يسكن في القلب كروح الحق ، وهكذا يصير هو المعزي . في الحق عزاء وسلام ، ولكن لا سلام أو عزاء حقيقي في الكذب أو النفاق . إن الشيطان يستمد قوته وسلطانه على العقل [638] عن طريق النظريات والتقاليد الكاذبة. وإذ يوجه الشيطان الناس إلى النظريات الكاذبة يشوه الحق . أما الروح القدس فيخاطب الذهن بواسطة الكتب المقدسة ويطبع الحق ويكتبه في القلب . وهكذا هو يفضح الضلال ويطرده من النفس . فالمسيح يخضع لنفسه شعبه المختار بواسطة روح الحق العامل بكلمة الله .

مصدر قوتنا

إن يسوع وهو يصف لتلاميذه عمل الروح القدس أراد أن يبث في قلوبهم الفرح والرجاء اللذين كانا يفيضان من قلبه. لقد فرح بسبب المعونة العظيمة التي أعدها لكنيسته . لقد كانت عطية الروح القدس أسمى كل العطايا التي أمكنه أن يطلبها من الآب لأجل تمجيد شعبه . كان الروح القدس سيعطى كقوة مجددة ، إذ بدونه لن تجدي ذبيحة المسيح فتيلا . لقد زادت قوة الشر وتفاقمت أجيالا طويلة ، وكان خضوع الناس لعبودية الشيطان مذهلا ومحيرا . ولم يكن ممكنا مقاومة الخطية أو الانتصار عليها إلا بقوة الأقنوم الثالث من اللاهوت الذي لا يأتي بقوة ضعيفة بل في ملء القوة الإلهية . إن الروح هو الذي يجعل عمل فادي العالم ذا أثر فعال . والقلب يتطهر بقوة الروح . وبواسطة الروح يصير المؤمنون شركاء الطبيعة الإلهية . لقد أعطى المسيح روحه كقوة إلهية للانتصار على كل الميول الموروثة المتأصلة في النفس لعمل الشر ، وليطبع صفاته على قلوب أفراد كنيسته.

قال يسوع عن الروح القدس: " ذاك يمجدني" (يوحنا 16: 14). لقد جاء المخلص ليمجد الآب بإظهار محبته ، وكذلك جاء الروح ليمجد المسيح بإعلان نعمته للعالم . فنفس صورة الله ستخلق من جديد في قلوب بني الإنسان . إن مجد الله ومجد المسيح متضمنان في اكتمال خلق شعبه.

قال المسيح: " ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة" (يوحنا 16: 18). لن تكون الكرازة بالكلمة ذات فائدة بدون حضور الروح القدس ومساعدته الدائمين. هذا هو المعلم الوحيد المقتدر في تعليم حق الله . فعندما يوصل الروح القدس الحق إلى القلب فهو يحيي الضمير ويغير الحياة . ولا وسيلة تنفع غير ذلك . قد يستطيع إنسان ما أن يقدم كلمة الله في حرفيتها ، وقد يكون خبيرا بكل أوامرها ومواعيدها ، ولكن ما لم يوصل [639] الروح القدس الحق إلى القلب فلن تسقط النفس على الحجر وتترضض. ولا يمكن لأي قدر من التهذيب مهما عظم ، ولا أية امتيازات مهما جل شأنها أن تجعل إنسانا قناة للنور بدون أن يتعاون مع روح الله . ولن ينجح بذار الإنجيل الذي يلقى ما لم تبعث فيه الحياة

بواسطة ندى السماء . فقبلما كتب سفر واحد من أسفار العهد الجديد ، وقبلما ألقيت عظة واحدة من الإنجيل بعد صعود المسيح حل الروح القدس على الرسل المصلين . وحينئذ شهد الأعداء عنهم قائلين: "ها أنتم ملأتم أورشليم بتعليمكم" (أعمال 5 : 28).

النفس الخاضعة لله

وعد المسيح بأن يعطي الروح القدس لكنيسته ، والوعد هو لنا كما كان للتلاميذ الأولين. لكنه كأي وعد آخر يعطى بموجب شروط . كثيرون يعتقدون ويجاهرون بأن لهم الحق في وعد الرب ، وهم يتحدثون عن المسيح والروح القدس ، ومع ذلك لا يجنون فائدة . إنهم لا يسلمون نفوسهم لقيادة القوى الإلهية وإرشادها وسيادتها . إننا لا يمكننا أن نستخدم الروح القدس ، ولكن الروح هو الذي يستخدمنا . فبواسطة الروح يعمل الله في قلوب أولاده "أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (فيلبي 2 : 13). ولكن كثيرين لا يخضعون لهذا الحق فهم يريدون أن يسيروا أنفسهم . وهذا هو السبب في عدم قبولهم هبة السماء . إنما فقط الذين ينتظرون الرب بتواضع وينتظرون منه الإرشاد والنعمة هم الذين يعطى لهم الروح ، فقوة الله تنتظر منهم الطلب والقبول . هذه البركة الموعود بها والتي تطلب بإيمان تأتى وفي أثرها كل البركات الأخرى . وهى تعطى بحسب غنى نعمة المسيح ، وهو مستعد لأن يمنح كل نفس بحسب قدرتها على القبول.

إن يسوع في حديثه مع تلاميذه لم يشر إشارة محزنة إلى آلامه وموته. وقد كان آخر ما تركه لهم هو تركة السلام فقد قال: "سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب" (يوحنا 14 : 27).

وقبلما تركوا العلية قاد المخلص تلاميذه في إنشاد تسبيحة شكر. وقد سمع صوته ليس كمن ينطق بمرثاة بل بنغمة تسبيحة عيد الفصح المفرحة ، وهي تقول: "سبّحوا الرب يا كل الأمم. حمّدوه يا كل الشعوب. لأن رحمته قد قويت علينا، وأمانة الرب إلى الدهر. هلّلويا" (مزمور 117 : 1، 2). [640]

"تنكرني ثلاث مرات"

بعد الانتهاء من التسبيح خرجوا مخترقين الشوارع المزدحمة وساروا إلى أن خرجوا من باب المدينة إلى جبل الزيتون . ساروا على مهل وكل منهم مشغول بأفكاره . وإذ بدأوا ينزلون الجبل قال يسوع بنغمه تعبر عن أعمق الحزن: "كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية" (متى 26 : 31). وقد أصغى التلاميذ إلى كلامه في حزن وذهول . لقد ذكروا كيف أنه عندما تكلم عن نفسه في مجمع كفرناحوم كمن هو خبز الحياة عثر كثيرون وتركوه ومضوا . ولكن الاثني عشر لم يبرهنوا على عدم إيمانهم . وإذ تكلم بطرس بلسان إخوته أعلن ولاءه للمسيح . حينئذ قال المخلص: "أليس أني أنا اخترتكم، الاثني عشر؟ وواحد منكم شيطان!" (يوحنا 6 : 70). وفي العلية قال يسوع إن واحدا من الاثني عشر مزمع أن يسلمه ، وإن بطرس سينكره . أما الآن فكلامه يشملهم جميعا.

والآن فها صوت بطرس يسمع وهو يحتج باشتداد وعنف قائلا: "وإن شك الجميع فأنا لا أشك!" (مرقس 14 : 29). وإذ كانوا في العلية أعلن بطرس قائلا: "إني أضع نفسي عنك!" (يوحنا 13 : 37).

كان يسوع قد أنذره أنه في نفس تلك الليلة سينكر مخلصه . والآن فها المسيح يكرر إنذاره قائلا: "الحق الحق أقول لك: إنك اليوم في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك مرتين، تنكرني ثلاث مرات" ولكن بطرس "ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك! وهكذا قال أيضاً الجميع" (مرقس 14 : 30 و 21). فإذ كانوا واثقين بأنفسهم أنكروا التصريح المتكرر الذي نطق به ذاك العليم بكل شيء . لم يكونوا متأهبين للامتحان . فعندما تباغتهم التجربة سيتحققون من ضعفهم.

إن بطرس عندما قال إنه مستعد أن يمضي مع سيده إلى السجن وإلى الموت كان يعني كل كلمة قالها ، ولكنه لم يكن يعرف نفسه ، إذ كانت رابضة في قلبه عناصر الشر التي ستساعد الظروف على إحيائها وظهورها . وما لم يحس بخطره فهذه قد تفضي به إلى الهلاك الأبدي . رأى المخلص الأنانية متمكنة من قلب تلميذه ، واليقين الذي قد يتغلب على حبه للمسيح . وقد ظهر في اختباره كثير من الوهن والضعف والخطية التي لم تكبح وعدم الاكتراث الروحي والطبع غير المقدس والتهور في تعريض نفسه للتجربة ، فكان إنذار [641] المسيح الخطير دعوة لاختبار النفس وفحص القلب . كان بطرس بحاجه إلى أن يشك في نفسه وأن يكون له إيمان أعمق بالمسيح . فلو قبل الإنذار بوداعة لكان يصرخ إلى راعي الخراف ليحفظ خرافه . إنهم إذ كانوا في السفينة في بحر الجليل أوشك (بطرس) على الغرق فصرخ قائلاً: "يا رب، نجّني!" (متى 14 : 30). حينئذ امتدت يد المسيح لإنقاذه . وهكذا لو صرخ هو الآن إلى يسوع قائلا نجني من نفسي ، لكان قد حفظ ، ولكنه أحس أن يسوع يشك فيه واعتبر ذلك قسوة منه . كان قد جرح وصار أشد إصرارا على الثقة بنفسه.

نظر يسوع إلى تلاميذه نظرة إشفاق . إنه لا يمكنه إنقاذهم من التجربة ، ومع ذلك فهو لا يتركهم بلا عزاء . وها هو يؤكد لهم أنه سيحطم قيود القبر وإن محبته لهم لن تخمد . ثم يقول لهم: "بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل" (متى 26 : 32). وقبل إنكارهم له ، يؤكد لهم غفرانه . وبعد موته وقيامته علموا أن خطاياهم قد غفرت وصاروا أعزاء على قلب المسيح.

دروس من الكرمة

سار يسوع وتلاميذه في طريقهم إلى جثسيماني التي كانت معتكفا عند سفح جبل الزيتون حيث اعتاد السيد المجيء إليه للتأمل والصلاة . كان المخلص يوضح لتلاميذه رسالته إلى العالم والعلاقة الروحية بينه وبينهم التي عليهم أن يدعموها ويحرصوا عليها . والآن فها هو يقدم مثالا . فالقمر يرسل أنواره فيكشف لهم عن كرم عنب زاه . فإذ يوجه التفات تلاميذه إليه يستخدم الكرمة كرمز فيقول:

"أنا الكرمة الحقيقية" (يوحنا 15 : 1) فبدلا من اختيار النخلة الرشيقة أو شجرة الأرز العالية أو شجرة السنديان القوية اختار يسوع الكرمة بعطفها المتعلقة الممتدة مشبها نفسه بها . فالنخلة وشجرة الأرز وشجرة السنديان كل منها تنتصب لوحدها ولا حاجة بها إلى ما يسندها ، أما الكرمة فتلتف حول العريشة وهكذا تتسلق إلى السماء . كذلك المسيح في بشريته كان يعتمد على قدرة الله . لقد أعلن قائلا: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاَ" (يوحنا 5 : 30).

قال السيد: "أنا الكرمة الحقيقية". كان اليهود دائما يعتبرون الكرمة أكرم الأغراس ورمزا لكل ما هو قوي وعظيم ومثمر . وقد شبه إسرائيل بكرمة غرسها في أرض الميعاد. [642] كان اليهود يبنون رجاءهم في الخلاص على صلتهم بإسرائيل (يعقوب). ولكن يسوع يقول: أنا الكرمة الحقيقية . لا تظنوا أن صلتكم بإسرائيل تجعلكم شركاء في حياة الله أو ورثة الوعد . إن الحياة الروحية لا تنال إلا عن طريقي أنا

وحدي.

قال يسوع: "أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام" (يوحنا 15 : 1). فعلى تلال فلسطين غرس أبونا السماوي هذه الكرمة العظيمة الجميلة . وكان هو نفسه الكرام . وقد اجتذب جمال هذه الكرمة انتباه الكثيرين الذين اعترفوا أنها نازلة من السماء . ولكنها بدت لأنظار رؤساء إسرائيل كعرق من أرض يابسة . فأمسكوا ذلك الغرس ورضضوه وداسوه بأقدامهم النجسة . وكانوا يفكرون في ملاشاته إلى الأبد . ولكن الكرام السماوي لم يغب غرسه هذا عن نظره . فبعدما ظن الناس أنهم قتلوه أخذه الكرام وغرسه من جديد في الجانب الآخر من السور . وما عاد جذع الكرمة يرى بعد ذلك ، فلقد اختفى بعيدا عن هجمات الناس القاسية . ولكن أغصان الكرمة تدلت على السور وكانت تمثل الكرمة . وعن طريق هذه الأغصان كان يمكن أن تطعم بعض الأغصان الغريبة في الكرمة وتتحد بها . فأتت تلك الأغصان المطعمة بثمر . واقتطف عابرو الطريق من هذه الأثمار.

قال المسيح لتلاميذه: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان" (يوحنا 15 : 5). فمع أنه كان مزمعا أن يؤخذ منهم فإن اتحاده الروحي بهم لم يكن ليتغير . قال لهم: إن ارتباط واتحاد الغصن بالكرمة يشبه ارتباطكم بي الذي عليكم أن تدعموه . إن الغصن مطعم في الكرمة الحية وإذ تتداخل أنسجة كل من الغصن والكرمة بعضها في بعض ينمو الغصن في جذع الكرمة . وحياة الكرمة تصير هي حياة الغصن . كذلك النفس المائتة بالذنوب والخطايا تنال الحياة بارتباطها بالمسيح ، فإذ يؤمن الخاطئ به كمخلصه الشخصي يتم الاتحاد . إن الخاطئ يقرن ضعفه بقدرة المسيح ، وتفاهته بملء المسيح ووهنه بقوة احتمال المسيح وحينئذ يكون له فكر المسيح . لقد لامست بشرية المسيح بشريتنا ولامست بشريتنا الإلوهية.

وهكذا عن طريق عمل الروح القدس يصير الإنسان شريك الطبيعة الإلهية ويقبل في المحبوب.
[643]

"اثبتوا فيّ"

ومتى تم اتحادنا بالمسيح ينبغي المحافظة عليه . قال المسيح: :اثبتوا فيّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيّ" (يوحنا 15 : 4). هذه ليست لمسة عرضية ولا ارتباط بين حين وآخر . ولكن الغصن يصير جزءاً من الكرمة الحية . إن اتصال الحياة والقوة والثمر من الجذر إلى الأغصان يبقى دائما لا يعوقه عائق فالغصن متى انفصل عن الكرمة لا يعيش . قال يسوع : كذلك أنتم أيضاً لا حياة لكم بعيدا عني . إن الحياة التي أخذتموها مني يمكن حفظها بالشركة المستمرة معي لا بأي شيء آخر . فبدوني لا تستطيعون الانتصار على خطية واحدة أو مقاومة تجربة واحدة .

"اثبتوا فيّ وأنا فيكم". إن الثبات في المسيح معناه إننا نستمد من روحه بصفة دائمة لا توقف فيها ، فتكون حياتنا حياة التسليم لخدمته في غير تحفظ . وينبغي أن تكون قناة الاتصال مفتوحة أبدا بين الإنسان وإلهه . فكما أن غصن الكرمة يمتص على الدوام عصارة الكرمة الحية كذلك علينا نحن أن نتعلق بيسوع ونقبل منه بالإيمان قوته وكمال خلقه.

إن الجذع يرسل غذاءه وعصارته عبر الفرع إلى أبعد عسلوج . وكذلك المسيح يرسل تيار القوة الروحية إلى كل مؤمن . وطالما كانت النفس مرتبطة بالرب فلا خطر عليها من أن تذبل أو تضعف.

إن حياة الكرمة تظهر في الثمر العطر الذكي الرائحة الذي تحمله الأغصان . قال يسوع: "الذي يثبت

فيّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يوحنا 15 : 5). فإذ نحيا بالإيمان بابن الله فسيظهر ثمر الروح في حياتنا . ولا تفقد ثمرة واحدة .

الإتيان بثمر

"أبي (هو) الكرّام. كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه" (يوحنا 15 : 1 و 2). عندما يكون الغصن المطعم مرتبطا بالكرمة ارتباطا خارجيا فقد لا يكون هنالك اتحاد حيوي.وحينئذ لن يكون نمو أو ثمر . وهكذا يمكن أن يوجد ارتباط ظاهري بالمسيح دون أن [644] يكون هنالك اتحاد حقيقي به بالإيمان . إن اعتراف الناس بالديانة قد يجعلهم ينضمون إلى الكنيسة ولكن صفاتهم وتصرفاتهم تبرهن عما إذا كانوا مرتبطين بالمسيح حقا أو لا . فإن لم يأتوا بثمر فهم أغصان كاذبة . وإن انفصالهم عن المسيح ينتهي بالهلاك الشامل كما هو ممثل بالغصن اليابس الميت ، "إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن، فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار، فيحترق" (يوحنا 15 : 6).

"وكل ما يأتي بثمر ينقيه (يشذبّه) ليأتي بثمر أكثر" (يوحنا 15 : 2). فمن بين الاثني عشر الذين اتبعوا يسوع كان هنالك واحد يشبه الغصن اليابس وكان مزمعا أن ينزع ، أما الباقون فكان لا بد أن يجوزوا تحت سكين التشذيب بمرورهم بالتجربة المرة . وبكل رقة ووقار أوضح يسوع غاية الكرام . إن التشذيب لا بد أن يحدث ألما ، ولكن الذي يستعمل السكين هو الآب . إنه لا يعمل بيد عابثة أو قلب عديم الاكتراث . توجد أغصان ممتدة على الأرض فهذه ينبغي فصلها عن كل الدعامات الأرضية التي تعلق بها الأفرع ، إذ عليها أن ترتفع إلى السماء وتستند على الله . ينبغي تشذيب الأفرع والأوراق الزائدة التي تمتص عصارة الحياة من الثمر ، كما ينبغي قطع الأفرع المفرطة في النمو لكي يعطى المجال لأشعة شمس البر الشافية أن تغمر الكرمة كلها . إن الكرام ينزع الأفرع النامية المضرة حتى تكون الثمار أحلى وأوفر.

قال يسوع: "بهذا يتمجد أبي: أن تأتوا بثمر كثير" (يوحنا 15 : 8). إن الله يريد أن يظهر فيك قداسة صفاته وإحسانه ورأفته وحنانه . ومع ذلك فالمخلص لا يأمر تلاميذه بأن يتعبوا ويكدوا لكي يأتوا بثمر ، ولكنه يأمرهم أن يثبتوا فيه إذ يقول: "إن ثبتم فيّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم" (يوحنا 15 : 7). إن المسيح يثبت في تابعيه بواسطة الكلمة . هذا هو الاتحاد الحيوي الذي يتمثل في أكل جسده وشرب دمه . إن كلام المسيح هو روح وحياة . فإذ تقبلون كلامه فأنتم إنما تقبلون حياة الكرمة . إنكم تحيون "بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى 4 : 4). وحياة المسيح فيكم تثمر ثمرا كالذي فيه . إن كوننا نحيا في المسيح ونتمسك به ونستند عليه ونستمد غذاءنا منه . فإننا نثمر ثمرا شبيها بثمر المسيح.

أحبوا بعضكم بعضا

إن المسيح في اجتماعه الآخر هذا مع تلاميذه كانت رغبته العظمى التي أفصح لهم عنها [645] هي أن يحبوا بعضهم بعضا كما أحبهم . وقد خاطبهم بهذا مراراً . فقد ردد هذا القول: "بهذا أوصيكم حتى تحبوا بعضكم بعضاً" (يوحنا 15 : 17). إن أول وصية أوصاهم بها كانت قوله لهم: "وصية جديدة أنا أعطيكم: أنا تحبّوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبّون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً" (يوحنا 13 : 34).

كانت هذه وصية جديدة بالنسبة إلى التلاميذ لأنهم لم يحبوا بعضهم بعضا كما قد أحبهم المسيح . وقد رأى أنه ينبغي لهم أن يخضعوا لآراء جديدة وبواعث جديدة وأن يمارسوا مبادئ جديدة . ففي نور حياته وموته كان عليهم أن يدركوا المحبة إدراكا جديداً وقد كان لأمره القائل لهم أن يحبوا بعضهم بعضا معنى جديد في نور ذبيحته الكفارية . إن كل عمل النعمة هو خدمة المحبة الواحدة المتصلة ، والمساعي المضحية والمنكرة لذاتها . ففي كل ساعة من ساعات تغرب المسيح على الأرض كانت ينابيع محبة الله تفيض من قلبه في أنهار ، دائمة الجريان لا تقهر . وكل من هو ممتلئ بروحه لا بد أن يحب كما قد أحب السيد العالم . ونفس المبدأ الذي حرك المسيح سيحرك كل شعبه في معاملتهم لبعضهم البعض.

وهذه المحبة هي برهان تلمذتهم . قال يسوع: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي: إن كان لكم حب بعضاً لبعض" (يوحنا 13 : 35). عندما يرتبط الناس معا ليس قهرا أو بسبب المصلحة الشخصية بل بالمحبة فإنهم يظهرون عمل سلطة فوق كل سلطان بشري . وأينما توجد هذه الوحدة فهي برهان على أن صورة الله قد أعيدت إلى البشرية ، وأن مبدأ جديدا للحياة قد غرس في النفس . وهذا يبرهن على أن في الطبيعة الإلهية قوة تصمد أمام قوات الشر العظيمة ، وأن نعمة الله تخضع الأنانية المتأصلة في القلب الطبيعي.

هذه المحبة إذ تظهر في الكنيسة لا بد أن تثير غضب الشيطان ، إن المسيح لم يرسم أمام تلاميذه طريقا هينا لينا ، فلقد قال: "إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته. ولكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم. اذكروا الكلام الذي قلته لكم: ليس عبد أعظم من سيده. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم، وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم. لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي، لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني" (يوحنا 15 : 18 — 21). إن رسالة الإنجيل ستنتشر وتذاع وسط صراع مرير وفي وجه المقاومات والمخاطر والخسائر والآلام . ولكن من يفعلون هذا إنما يتتبعون خطوات سيدهم. [646]

"عبثاً تعبت"

واجه المسيح كفادي العالم فشلا ظاهرا مدى سني خدمته . إنه هو الذي كان رسول الرحمة لعالمنا بدا وكأنه قد عمل قليلا مما كان يتوق لأن يعمله في رفع الناس من حضيض الخطية وتخليصهم . وقد بادرت كل قوات الشيطان لعرقلته وإعاقته ولكنه لم يفشل . إنه يقول في نبوة إشعياء: "عبثاً تعبت. باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي. لكن حقي عند الرب، وعملي عند إلهي .. فينضم إليه إسرائيل فأتمجّد في عيني الرب، وإلهي يصير قوّتي". وليسوع قدم هذا الوعد: "هكذا قال الرب فادي إسرائيل، قدّوسه، للمهان النفس، لمكروه الأمة، لعبد المتسلطين" ... هكذا قال الرب: ... أحفظم وأجعلك عهداً للشعب، لإقامة الأرض، لتمليك البراري، قائلاً للأسرى: اخرجوا. للذين في الظلام: اظهروا .. لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم" (إشعياء 49 : 4و 5و 7 — 10).

اطمأن يسوع واستراح لهذا الوعد ولم يعط للشيطان مجالا . وعندما كان المسيح يخطو

خطواته الأخيرة في وادي الاتضاع ، وعندما اكتنف روحه حزن رهيب قال لتلاميذه إن "رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء" وإن "رئيس هذا العالم قد دين"، "الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً" (يوحنا 14 : 30 ؛ 16 : 11 ؛ 12 : 31). إن المسيح قد تتبع بعين النبوة المشاهد التي ستحدث في صراعه الأخير العظيم . لقد علم أنه عندما يقول: "قد أكمل" فكل السماء ستنتصر ، وستسمع أنغام الموسيقى التي

سيحملها إليه الهواء من بعيد وهتافات الظفر في ربوع السماء . وقد عرف أن صوت جرس الموتى سيدق مؤذنا باندحار مملكة الشيطان ، وسينادى باسم المسيح من عالم إلى عالم في الكون بأسره.

فرح المسيح لأنه استطاع أن يفعل لشعبه أكثر مما طلبوا أو افتكروا . وتكلم بكل يقين عالما أن أمرا إلهياً عالياً قد قضي به قبل كون العالم . وعلم أن الحق المزود بقوة الروح القدس القادر على كل شيء لا بد أن يقهر قوات الشر ، وأن الراية الملطخة بالدم ستخفق منتصرة فوق تابعيه . وعرف أيضاً أن حياة تلاميذه الواثقين به ستكون كحياته — سلسلة نصرات متواصلة . وهى لا ترى في العالم على إنها نصرات ، ولكنها ستعرف على أنها نصرات في عالم الأبد. [647]

مواعيد بإعطاء القوة

ثم قال لهم: "قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم" (يوحنا 16 : 33). إن المسيح لم يفشل قط ولا يئس . فعلى تابعيه أن يظهروا إيمانا صبوراً كإيمانه . عليهم أن يعيشوا كما عاش هو ويخدموا كما قد خدم لأنهم يعتمدون عليه كمن هو سيد العاملين . وينبغي أن تكون عندهم الشجاعة والنشاط والمثابرة اللازمة لهم . ومع إن طريقهم تكتنفه صعوبات يبدو تخطيها مستحيلا فعليهم بنعمته أن يتقدموا . وبدلا من أن يحزنوا أو ينوحوا لوجود الصعوبات فإنهم مدعوون للتغلب عليها . عليهم ألا ييأسوا من شيء بل أن يرجوا في كل شيء . لقد ربطهم المسيح بعرش الله بسلاسل محبته الذهبية التي لا تبارى . إن غايته هي أن أسمى قوة في الوجود المنبعثة من مصدر كل قوة تعطى لهم . يجب أن تكون عندهم قوة لمقاومة الشر ، قوة لا تقدر الأرض أو الموت أو الجحيم أن تقهرها ، قوة تعينهم على الانتصار كما انتصر المسيح.

إن المسيح يقصد أن نظام السماء وخطة السماء للحكم وانسجام السماء الإلهي يتمثل في كنيسته على الأرض . فبهذه الكيفية يتمجد في وسط شعبه . وعن طريقهم سيشرق شمس البر بنوره الباهر مبددا ظلام العالم . لقد منح المسيح كنيسته تسهيلات كثيرة لكي يحصل من مفدييه اللذين هم ميراثه المقتنى على مجد عظيم . كما منح شعبه إمكانيات وبركات لتمثل كفايته وغنى نعمته ومحبته . إن الكنيسة وقد وهب لها بر المسيح هي مستودعه ، وفيها سيبدو غنى رحمته ونعمته ومحبته في أجمل وأكمل مظهر . إن المسيح ينظر إلى شعبه في طهارتهم وكمالهم على أنهم مكافأته عن اتضاعه وكمال مجده - المسيح المركز العظيم الذي منه يتلألأ كل المجد وبكلمات الرجاء القوية أنهى المخلص تعاليمه . وبعد ذلك سكب عبء نفسه في صلاة لأجل تلاميذه . فرفع عينيه إلى السماء وقال . "أيها الآب، قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً، إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدرية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنا 17 : 1 — 13).

لقد أكمل المسيح العمل الذي أعطي له ليعمله وقد مجد الله على الأرض وأظهر اسم الآب ، وحشد الذين كان عليهم أن يقوموا بعمله بين الناس . ثم قال: "وأنا ممجّد فيهم. [648] ولست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك. أيها الآب القدوس، احفظهم في اسمك الذين اعطيتني، ليكونوا واحداً كما نحن" (يوحنا 17 : 10، 11). "ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكون الجميع واحداً .. أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكمّلين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني" (يوحنا 17 : 20 و 21 و 23).

هكذا يستودع المسيح كنيسته المختارة بين ذراعي الآب بلغة من له سلطان إلهي .فكرئيس كهنة

مكرس للرب يتشفع في شعبه ، وكراع أمن يجمع قطيعه تحت ظل الله القدير والملجأ القوي الأمين . وقد بقيت عليه آخر معركة يخوضها ضد الشيطان . وها هو يخرج ليواجه تلك المعركة. [649]

الفصل الرابع والسبعون—ليلة في بستان

سار المخلص على مهل في صحبة تلاميذه إلى بستان جثسيماني . وكان نور القمر الفضي في ليلة الفصح وقد صار بدرا يضيء في تلك الليلة الصافية . وكانت المدينة التي نصبت في أرجائها خيام الحجاج هادئة ساكنة.

كان يسوع يتحدث بكل جد واهتمام مع تلاميذه وهو يعلمهم . ولكنه عندما اقترب من جثسيماني صمت صمتا غريبا . لقد سبق له أن زار هذه البقعة مرارا للتأمل والصلاة . ولكنه لم يكن قط مثقل القلب بالحزن كما كان في هذه الليلة ، ليلة آلامه الأخيرة . إنه مدى سني حياته على الأرض كان يسير في نور حضرة الله . وعندما كان يشتبك في صراع مع أناس أشرار بتحريض من روح الشيطان ذاتها أمكنه أن يقول: “والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه” (يوحنا 8 : 29). أنا الآن فقد بدا وكأنه منفي بعيدا عن نور وجه الله المعزي والمعين . ها هو الآن يحصى مع أثمة فعليه أن يحمل آثام الجنس البشري الساقط . فذاك الذي لم يعرف خطية ينبغي أن يوضع عليه إثم جميعنا . إن الخطية تبدو أمامه مخيفة جدا ، وعبء الآثام الذي عليه أن يحمله يبدو ثقيلا وهائلا جدا حتى لقد جرب أن يخشى لئلا ينفيه إلى الأبد بعيدا عن محبة أبيه . وإذ أحس بهول غضب الله ضد العصيان قال: “نفسي حزينة جداً حتى الموت” (مرقس 14 : 34).

غمرات ألم

وإذ اقتربوا من البستان لاحظ التلاميذ التبدل الذي ظهر على معلمهم . لم يسبق لهم أن رأوه في مثل ذلك الحزن وذلك الوجوم . وإذ كان يتقدم في سيره زاد هول تلك الكآبة ، ومع ذلك لم يجسروا أن يسألوه عن سبب حزنه وكآبته . كان يترنح كأنه يوشك أن يسقط .وعند وصولهم إلى البستان بحث التلاميذ بكل جزع عن مكان اعتكافه المعتاد حتى يستريح معلمهم . كل خطوة كان يخطوها الآن كان يبذل فيها جهدا عنيفا . كان يتأوه بصوت عال [650] كأنما يتألم من ضغط حمل ثقيل . ولولا أن تلاميذه سندوه مرتين لسقط على الأرض.

وعند مدخل البستان ترك يسوع جميع التلاميذ ما عدا ثلاثة ، وطلب منهم أن يصلوا لأجل أنفسهم ولأجله . دخل إلى ذلك المخبأ المنعزل يصحبه بطرس ويعقوب ويوحنا . لقد كان هؤلاء الثلاثة هم ألصق صحب المسيح . كانوا قد رأوا مجده على جبل التجلي ورأوا موسى وإيليا يتكلمان معه وسمعوا الصوت الآتي من السماء . والآن فها المسيح في صراعه العظيم يطلب منهم أن يكونوا معه . لقد كانوا مرارا كثيرة يقضون الليل معه في هذا المعتكف . وفي تلك الأوقات كانوا بعدما يقضون وقتا في السهر والصلاة ينامون بهدوء على مقربة من معلمهم إلى أن يوقظهم في الصباح ليخرجوا ليستأنفوا عملهم من جديد . أما الآن فهو

يطلب منهم أن يقضوا الليلة معه في الصلاة . ومع ذلك فهو لا يحتمل أن يشهد حتى أخصاؤه هؤلاء الآلام التي كان عليه أن يحتملها.

قال يسوع لأولئك التلاميذ الثلاثة :"امكثوا ههنا واسهروا معي" (متى 26 : 38).

مضى عنهم قليلا ، غير مبتعد ليمكنهم رؤيته وسماعه ، وخر على الأرض. وقد أحس أنه لكونه حمل الخطية فقد انفصل عن أبيه . كانت الهوة واسعة وعميقة ومظلمة جدا فارتجفت روحه أمامها . وينبغي ألا يسخر قوته الإلهية للهرب من تلك الآلام الرهيبة فكإنسان عليه أن يتحمل قصاص خطية الإنسان ، وكإنسان عليه أن يتحمل غضب الله على العصيان.

في صراع مع الشيطان

كان المسيح الآن في موقف يختلف عن كل المواقف التي وقفها من قبل. إن النبي يصف آلامه أجمل وأدق وصف حين يقول: "استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود" (زكريا 13 : 7). فكبديل وضامن للإنسان الخاطئ كان لا بد للمسيح أن يتألم تحت عدالة الله . وقد رأى عن اختبار ما معنى العدل . كان قبل ذلك شفيعا في الآخرين ، أما الآن فها هو يتوق إلى من يشفع فيه.

وإذ أحس المسيح بأن اتحاده بالآب قد انفصم. كان يخشى لئلا يعجز وهو في طبيعته البشرية عن الصمود في الصراع الذي كان قادما عليه ضد قوات الظلمة . في برية [651]

التجربة كان مصير الجنس البشري مستهدفا للخطر. ولكن المسيح انتصر حينئذ . أما الآن فها المجرب قد جاء لكي يشتبك مع يسوع في المعركة الأخيرة الحاسمة . وقد ظل يتأهب لهذه المعركة مدى ثلاث سني خدمة المسيح . كان كل شيء مهددا بالخطر بالنسبة إلى الشيطان . فإذا أخفق هنا فقد ضاع أمله في السيادة ، وممالك العالم تصير للمسيح أخيراً ، وهو نفسه سيقهر ويطرح خارجا . أما إذا انغلب المسيح فالأرض تصر مملكة للشيطان وسيصير الجنس البشري تحت سلطانه إلى الأبد . وإذ كانت نتيجة المعركة ماثلة أمام المسيح كانت نفسه ممتلئة بالرعب والذهول بسبب انفصاله عن الله . وقد قال له الشيطان إنه إن صار ضامنا للعالم الشرير فقد يصبح انفصاله عن الله أبديا وسيكون هوضمن رعايا مملكة الشيطان ولن يكون واحدا مع الله فيما بعد.

وأي نفع يجَتنى من وراء هذه التضحية ؟ وكم بدت ذنوب الناس وجحودهم أمرا ميؤوسا منه ! وأظهر الشيطان الموقف للفادي في أقسى صورة إذ قال له إن الناس الذين يدعون لأنفسهم حق السيادة على الكل في الامتيازات الزمنية والروحية قد رفضوك ، وهم يطلبون إهلاكك أنت أساس ومركز وختم المواعيد المقدمة لهم كشعب الله الخاص . وها واحد من تلاميذك الذي أصغى إلى تعاليمك وكان في طليعة العاملين في أوجه نشاط الكنيسة مزمع أن يسلمك ، وها واحد آخر من أشد أتباعك غيرة سينكرك ، والجميع سيتركونك ويهربون . كان المسيح بكل كيانه ينفر من هذا الفكر ويمقته . فكون أولئك الذين شرع في تخليصهم ، والذين قد أحبهم إلى هذا الحد ينضمون إلى الشيطان في مؤامراته — هذا طعن نفسه في الصميم . لقد كان صراعا رهيبا ، قياسه هو إثم أمته والمشتكين عليه ومسلمه وإثم العالم الذي وضع في الشرير . وقد ضغطت خطايا الناس بكل ثقلها على قلب المسيح ، وكاد شعوره بغضب الله على الخطية يسحقه ويقضي عليه.

انظروه وهو يتأمل في فداحة الثمن الذي عليه أن يدفعه لفداء نفس الإنسان. وهو في شدة عذابه يتشبث بالأرض الباردة كأنما يحاول منع نفسه من الابتعاد عن الله أكثر . وها ندى الليل الشديد البرودة يسقط على

جسمه المنطرح على الأرض ولكنه يلتفت إليه . وها شفتاه الشاحبتان تنفرجان عن هذه الصرخة: "يا أبتاه، إن أمكن فاتعبر عني هذه الكأس" ومع ذلك فهو يضيف هذا القول: "ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (متى 26 : 39). [652]

إن القلب البشري يشتاق إلى من يعطف عليه في آلامه. وقد أحس المسيح بهذا الشوق في أعماق كيانه . ففي غمرة آلامه النفسية الهائلة أتى إلى تلاميذه برغبة وشوق لعله يسمع بعض عبارات التعزية من أفواه خاصته هؤلاء الذين طالما باركهم وعزاهم وسترهم من هول الحزن والضيق . فذاك الذي كان فمه دائما ينطق في مسامعهم بألفاظ العطف كان الآن يحتمل آلاما فوق طاقة البشر وكان يتوق لأن يعرف أنهم يصلون لأجله ولأجل أنفسهم . كم ظهرت الخطية قاسية في شدة ظلامها وخبثها ! قاسية كانت تجربة ترك الجنس البشري يحصد ثمار إثمه بينما يقف هو بارا أمام الله . ولو أمكنه أن يعرف أن تلاميذه يدركون هذا ويقدرونه لكان يتشدد ويتقوى.

التلاميذ وسلطان الكرى

فإذ نهض عن الأرض بجهد مضن سار وهو يتعثر إلى حيث كان قد ترك رفقاءه. ولكنه "وجدهم نياماً" (متى 26 : 40). لو كان قد وجدهم جاثين يصلون لكان استراح ، ولو كانوا قد لجأوا إلى الله حتى لا ينهزموا أمام قوات الشيطان لتعزى بإيمانهم الثابت .ولكنهم لم يلتفتوا إلى إنذاره المتكرر القائل لهم: "اسهروا وصلّوا". في بادئ الأمر اضطربوا إذ رأوا معلمهم الذي كان عادة هادئا وجليلا ، يصارع بحزن ليدركه العقل . كانوا قد صلوا حين سمعوا الصرخات الشديدة الصادرة من قلب سيدهم المتألم . ولم يكونوا يقصدون أن يتركوا سيدهم ، ولكن سلطان النوم بدا وكأنما قد شل أجسامهم — ذلك السلطان الذي كان يمكنهم أن يطردوه عنهم لو استمروا يجاهدون في الصلاة أمام الله . لم يكونوا متحققين من وجوب السهر وتقديم الصلاة الحارة لكي يثبتوا أمام التجربة .

إن يسوع قبلما بدأ السير في طريقه إلى البستان كان قد قال لتلاميذه: " كلكم تشكّون فيّ في هذه الليلة" ولكنهم صرحوا له بكل تأكيد وأقوى تشديد بأنهم مستعدون للذهاب معه إلى السجن وإلى الموت. وقد أضاف بطرس المسكين المكتفي بنفسه قائلا: "وإن شكّ الجميع فأنا لا أشكّ!" (مرقس 14 : 27 و 28). ولكن التلاميذ اتكلوا على أنفسهم . إنهم لم يلتفتوا إلى معينهم القدير كما قد أوصاهم المسيح . وهكذا في حين كان المخلص في أشد الحاجة إلى عطفهم وصلواتهم وجدهم نياما . حتى بطرس كان نائما. [653]

وحتى يوحنا التلميذ الحبيب الذي كان يتكئ على صدر يسوع كان نائما. كان ينبغي أن محبة يوحنا لسيده تجعله يبيت ساهرا وكان يجب عليه أن يمزج صلواته الحارة بصلوات مخلصه الحبيب وهو في أشد حالات الحزن والانسحاق . كان الف ا دي يقضي ليالي كاملة مصليا لأجل تلاميذه حتى لا يفنى إيمانهم . فلو قدم يسوع ليعقوب ويوحنا السؤال الذي سبق أن قدمه لهما قائلا: "أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا، وأنا تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟" لما تجرآ على أن يقولا: "نستطيع" (متى 20 : 22).

استيقظ التلاميذ على صوت يسوع ولكنهم كادوا لا يعرفونه. كان وجهه قد تغير بسبب آلامه المبرحة . ثم قال مخاطبا بطرس: "يا سمعان، أنت نائم! أنا قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أنا الروح فنشيط، وأنا الجسد فضعيف" (مرقس 14 : 37 و 38). إن ضعف التلاميذ أثار عطف يسوع عليهم . لقد بات يخشى أنهم لن يكونوا قادرين على احتمال الامتحان القادم عليهم عندما

يسلم للموت . إنه لم يوبخهم بل قال لهم : "اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة". إنه وهو في شدة آلامه عذرهم بسبب ضعفهم قائلا: "أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف".

مثل قصبة مرضوضة محنية

ومرة أخرى حل بابن الله ألم فوق طاقة البشر . فإذ كان خائرا ومنهوكا سار متعثرا إلى مكان صراعه الأول . بل قد زادت آلامه عما كانت . فإذ هجمت عليه الآلام النفسية وكان في جهاد شديد "صار عرقة كقطرات دم نازلة على الأرض" (لوقا 22 : 44). إن أشجار السرو والنخل كانت هي الشهود الصامتة لآلامه وعذاباته . ومن بين أغصانها وأوراقها سقطت بعض قطرات الندى الثقيلة على جسمه المحطم ، كما لو أن الطبيعة كانت تبكي على خالقها الذي كان صارع قوات الظلمة وحده.

قبل ذلك بقليل وقف يسوع كشجرة أرز قوية لا تتزعزع أمام عواصف المقاومة التي هاجمته بكل قوتها وهياجها . لقد حاول الناس ذوو الإرادة العنيدة والقلوب المفعمة بالمكر والدهاء أن يربكوه أو يقهروه ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . فوقف بجلاله الإلهي بوصفه [654] ابن الله أما الآن فكان يشبه قصبة مرضوضة قد التوت أمام عاصفة هوجاء. لقد اقترب من ختام عمله منتصرا ، وفي كل خطوة كان يحرز انتصارا على قوات الظلام . وكمن قد تمجد فعلا قال إنه واحد مع الله . وبكلام ثابت لا أثر فيه للتردد أو التلعثم تغنى بأغاني الحمد . وكان يحدث تلاميذه بكل شجاعة ورقة . أما الآن فقد أتت ساعة سلطان الظلمة ،الآن يسمع صوته في سكون الليل وليست فيه نغمة انتصار بل كان مفعما بالآلام البشرية. وقد سمعت آذان التلاميذ الناعسين كلام المخلص حين قال: "يا أبتاه، إن لم يمكن أن تعبر عنّي هذه الكأس إلا أن أشربها، فتكن مشيئتك" (متى 26 : 42).

كان أول خاطر خطر للتلاميذ هو أن يذهبوا إلى سيدهم ، ولكنه كان قد أمرهم أن يلبثوا في مكانهم ساهرين ومصلين. وعندما جاء إليهم يسوع وجدهم لا يزالون يغطون في نومهم . ومرة أخرى أحس الفادي بحاجته إلى صحبة الأصدقاء ، وإلى بعض كلمات يقولها له تلاميذه فتجلب إليه الراحة وتقشع عن نفسه غياهب الظلمة التي كانت تكتنفه وكادت تنتصر عليه . ولكن أعينهم كانت ثقيلة: "فلم يعملوا بماذا يجيبونه" (مرقس 14 : 40). ثم أيقظهم حضوره فرأوا وجهه وإذا عليه آثار العرق الدموي من أثر العذاب والجهاد فامتلأوا خوفا ، ولم يستطيعوا أن يسبروا غور آلامه النفسية . " كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم" (إشعياء 52: 14).

لحظة القرار

وإذ تركهم يسوع مضى مرة أخرى إلى معتكفه وخر على وجهه إذ طغي على نفسه رعب ظلمة عظيمة. لقد ارتعبت بشرية ابن الله في تلك الساعة الحرجة . إنه لم يصل الآن لأجل تلاميذه لكي لا يفنى إيمانهم بل كان يصلي لأجل نفسه المجربة المعذبة ، إذ أتت اللحظة المخيفة التي كانت ستقرر مصير العالم . كان مصير العالم يتأرجح في كفة الميزان . كان يمكن المسيح حتى الآن أن يرفض شرب الكأس التي كان يجب أن يشربها الإنسان الأثيم . لم يكن قد مضى الوقت بعد ، فيمكنه أن يمسح عن جبينه ذلك العرق الدموي تاركا الإنسان يهلك في إثمه . كان يمكنه أن يقول : ليقع على الإنسان العاصي قصاص خطيته

وعصيانه ، أما أنا فسأعود إلى أبي . فهل سيشرب ابن الله كأس الهوان [655] والعذاب المريرة ؟ وهل سيتحمل البار عواقب لعنة الخطية ويخلص المذنب ؟ ثم نطقت شفتا يسوع الشاحبتان المرتعشتان بهذا القول: "يا أبتاه، إن لم يمكن أن تعبر عنّي هذه الكأس إلا أن أشربها، فلتكن مشيئتك".

نطق بتلك الصلاة ثلاث مرات ، وثلاث مرات ارتجفت بشريته وانكمشت أمام التضحية الآخرة العظمى . أما الآن فها تاريخ الجنس البشري يمر أمام فادي العالم . وقد رأى أن المعتدين على الشريعة لو تركوا لذواتهم فلا بد من هلاكهم ، وهو يرى عجز الإنسان ، ويرى قوة الخطية ، وها هو يسمع عويل ومراثي العالم المحكوم عليه بالهلاك . وإذ يرى مصير العالم المحتوم يعقد إذ ذاك عزمه . فهو سيخلص الإنسان مهما كلفه ذلك . إنه يقبل صبغة الدم حتى بواسطته ينال ملايين الهالكين الحياة الأبدية . لقد ترك عرش السماء حيث الطهارة والسعادة والمجد ليخلص الخروف الواحد الضال ، العالم الواحد الذي سقط بسبب العصيان . ولن يتراجع عن أداء مهمته وسيصير كفارة عن الجنس الذي أصر على ارتكاب الخطية . وها هي صلاته لا تنم عن شيء سوى التسليم ، إذ يقول :"إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أنا أشربها، فلتكن مشيئتك".

فلما كان قد عقد العزم على ذلك انطرح كالمائت على الأرض بعدما كان قد نهض عنها قليلا . فأين كان التلاميذ الآن ليسندوا رأس معلمهم المعيى بأيديهم الرقيقة ، ويغسلوا ذلك الجبين الذي كان حقا مشوها أكثر من بنى آدم ؟ لقد داس المخلص المعصرة وحده ومن الشعوب لم يكن معه أحد.

ولكن الله تألم مع ابنه . لقد رأى الملائكة آلام المخلص . رأوا سيدهم محاطا بفيالق من قوات الشيطان ، وقد ناءت طبيعته مرتجفة تحت وطأة رعب غامض ، فحدث سكوت في السماء ولم تسمع ألحان موسيقية . فلو أمكن لبني الإنسان أن يروا ذهول أجناد السماء ، عندما رأوا بحزن الآب يحجز أشعة نور محبته ومجده عن ابنه الحبيب لأمكنهم أن يدركوا إدراكا أعمق حقيقة كون الخطية خبيثة ومكدرة في نظر الله.

الكون بأسره يراقبه

لقد راقب سكان العوالم الأخرى غير الساقطين وملائكة السماء بأعظم اهتمام ذلك [656] الصراع وهو يقترب من نهايته . ثم إن الشيطان وحلفاءه الأشرار وجيوش الارتداد راقبوا بكل انتباه هذه الأزمة العظيمة في عمل الفداء . إن كلا من قوات الخير وقوات الشر انتظرت لترى ماذا ستكون إجابة السماء على طلبة المسيح التي قدمها ثلاث مرات . كان الملائكة يتوقون لتقديم الغوث والنجدة لذلك المتألم الإلهي . ولكن ما كان ذلك ليتاح لهم .ولم يكن هنالك طريق للنجاة مفتوحا أمام ابن الله . ففي هذه الأزمة المخيفة عندما كان كل شئ مهددا بالخطر ، وعندما كانت يد ذلك المتألم ترتعش وهى تمسك بتلك الكأس انفتحت السماء وأشرق نور في وسط تلك الظلمة الثائرة وساعة الأزمة الخانقة ونزل الملاك القوي الواقف في حضرة الله والذي يشغل المركز الذي سقط منه الشيطان ووقف إلى جوار المسيح . أتى الملاك لا ليأخذ الكأس من يد المسيح بل ليقويه على شربها مؤكدا له محبة الآب . لقد أتى ليمنح القوة لذلك الإله المتأنس المصلي . وقد وجه نظره إلى السماء المفتوحة وأخبره عن النفوس التي ستخلص نتيجة آلامه ، وأكد له أن أباه أعظم وأقوى من الشيطان ، وأن موته ستكون نتيجته الهزيمة النهائية الماحقة للشيطان ، وأن مملكة هذا العالم ستعطى لقديسي العلي . وقال له إنه سيرى من تعب نفسه ويشبع لأنه سيرى جماهير من الجنس البشري وقد خلصت خلاصا أبديا.

لم تنته آلام المسيح ولكن غمه ومفشلاته زايلته ، ولم تخف وطأة العاصفة بأي حال ، ولكن ذاك الذي

هبت عليه تقوى لمواجهتها في شدة عنفها . فخرج هادئا وساكنا وأضاء وجهه الملطخ بالدم بنور سلام سماوي . لقد حمل ما لم يكن في استطاعة أي مخلوق بشري حمله بأي حال لأنه احتمل آلام الموت لأجل كل إنسان.

استيقظ التلاميذ النائمون فجأة إذ اشرق عليهم النور المحيط بالمخلص . فرأوا الملاك المنحني فوق معلمهم المنطرح على الأرض ورأوه وهو يرفع رأس المخلص إلى حضنه ويشير إلى السماء ، وسمعوا صوته كأعذب صوت موسيقي وهو ينطق بكلام العزاء والرجاء . وقد ذكر التلاميذ المنظر الذي كانوا قد رأوه فوق جبل التجلي ، وذكروا أيضاً النور الذي أحاط بيسوع حين كان في الهيكل والصوت الذي جاء من السحابة . والآن ها هو نفس ذلك المجد يعلن ثانية فما عادوا يخشون على معلمهم . لقد كان تحت رعاية الله إذ أرسل إليه ملاك قوي ليحرسه . ومرة أخرى يستسلم التلاميذ في إعيائهم لذلك النعاس الغريب الذي غلبهم على أمرهم ، وها يسوع يراهم نياما مرة أخرى. [657]

الرعاع يقبضون عليه

فإذ ينظر إليهم بحزن يقول: "ناموا الآن واستريحوا! هوذا الساعة قد اقتربت، وابن الإنسان يسلّم إلى أيدي الخطاة" (متى 26 : 45).

وفيما هو ينطق بهذه الكلمات سمع وقع أقدام الرعاع القادمين للبحث عنه . فقال لتلاميذه: "قوموا ننطلق! هوذا الذي يسلّمني قد اقترب!" (متى 26 : 46).

وإذ تقدم يسوع لمواجهة مسلمه لم يبق أي أثر ظاهر فيه للعذابات التي كان يقاسيها آنئذ . وإذ وقف في مقدمة تلاميذه سأل تلك الجموع قائلا: "من تطلبون؟" أجابوه: "يسوع الناصري". قال لهم يسوع: "أنا هو" (يوحنا 18 : 4 و 5). فبعدما نطق يسوع بهذه الكلمات تقدم الملاك الذي كان قد خدم الفادي مؤخرا وتوسط بينه وبين أولئك الرعاع وقد أشرق وجه المخلص بنور سماوي وظلله شبه حمامة . فأمام هذا المجد الإلهي لم يستطع أولئك القوم المتعطشون لسفك الدماء أن يقفوا لحظة واحدة بل صعقوا وتراجعوا ، وسقط الكهنة والشيوخ والعسكر وحتى يهوذا ، على الأرض كالموتى.

بعد ذلك انسحب الملاك وانسحب معه النور . كانت لدى يسوع فرصة فيها يهرب ، ولكنه بقي في مكانه هادئا ورابط الجأش . وكمن هو ممجد وقف في وسط أولئك الناس القساة . وكانوا في هذه المرة منطرحين عاجزين عند قدميه . وكان التلاميذ يشخصون وقد عقدت الدهشة والخوف ألسنتهم.

ولكن سرعان ما تبدل المشهد ، فقد وقف أولئك الرعاع على أقدامهم واجتمع على يسوع عساكر الرومان والكهنة ويهوذا ، وبدوا في خجل من ضعفهم وفي خشية من أن يهرب المسيح بعد كل ذلك. ومرة أخرى يسألهم قائلا: "من تطلبون؟". لقد تبرهن لهم أن الشخص الواقف أمامهم هو ابن الله ولكنهم لم يقتنعوا ، وقد أجابوه على سؤاله "من تطلبون؟" بقولهم: "يسوع الناصري". فقال لهم يسوع: "قد قلت لكم: إني أنا هو. فإن كنتم تطلبوننب فدعوا هؤلاء يذهبون"، (مشيراً إلى التلاميذ) — (يوحنا 18 : 7 و 8). لقد عرف مقدار ضعف إيمان التلاميذ ، ولذلك حاول أن يحميهم من التجارب والمصاعب لأنه لأجلهم كان مستعدا أن يبذل نفسه. [658]

قبلة الخيانة

لم ينس يهوذا الخائن الدور الذي كان عليه أن يمثله . فعندما دخل أولئك الرعاع إلى البستان سار هو في الطليعة وكان رئيس الكهنة يتبعه عن قرب . وقد أعطى يهوذا علامة لمطاردي يسوع قائلا: "الذي أقبله هو هو. أمسكوه" (متى 26 : 48). والآن ها هو يتظاهر بأن لا شأن له بهم . وإذ يدنو من يسوع يمسك بيده كما لو كان صديقا حميما . ثم يحييه قائلا: "السلام يا سيدي!" (متى 26 : 49). ويقبله مرارا ويتصنع البكاء كما لو كان يعطف عليه في خطره.

فقال له يسوع: "يا صاحب، لماذا جئت؟" ثم ارتجف صوته بالحزن إذ أضاف قائلاً: "أبقبلة تسلّم ابن الإنسان؟" (متى 26 : 50 ؛ لوقا 22 : 48). كان ينبغي أن هذا القول يحرك ضمير الخائن ويلمس قلبه العنيد . ولكن الشرف والولاء والرقة الإنسانية كانت قد تركته فوقف جريئا متحديا ، ولم يبد عليه أي ميل للتوبة ، فقد أسلم نفسه للشيطان وعجز عن مقاومته ، ولم يرفض يسوع قبلة الخائن.

زادت جرأة أولئك الرعاع عندما رأوا يهوذا يلمس شخص ذاك الذي رأوه ممجدا منذ لحظات . وها هم الآن يلقون الأيدي على يسوع ، ثم يتقدمون ليوثقوا تينك اليدين الغاليتين اللتين كانتا تعملان الخير دائما .

الأذن المقطوعة

كان التلاميذ يظنون أن معلمهم لن يسمح بأن يقبض عليه ، لأن نفس القوة التي جعلت أولئك الرعاع يسقطون كالموتى تستطيع أن تجعلهم عاجزين عن عمل شيء حتى يتمكن يسوع ورفاقه من الهرب . ولكن أملهم خاب فغضبوا عندما رأوا الأعداء يوثقون بالحبال ذاك الذي كانوا يحبونه . حينئذ ثار غضب بطرس ، وفي تهوره استل سيفه محاولا أن يدافع عن معلمه ، ولكنه فقط قطع أذن عبد رئيس الكهنة . وعندما رأى يسوع ما حدث حل وثاق يديه وأن يكن ممسكا بكل قوة بين أيدي عسكر الرومان ، و قال: "دعوا إلي هذا!" ثم لمس الأذن المقطوعة وأبرأها في الحال (لأوقا 22 : 51). ثم قال لبطرس: [659] "رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذي يأخذون السيف بالسيف يهلكون! أتظن أني لا أستطيع الآن أنا أطلب إلى أبي فيقدّك لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة؟" - أي جيشا بدلا من كل تلميذ من تلاميذه . فكان التلاميذ يفكرون قائلين: آه لماذا لا يخلص نفسه ويخلصنا ؟ فجوابا على الفكر الذي جال في خواطرهم ولم يصرحوا به أضاف قائلا: "فكيف تكمّل الكتب: أنه هكذا ينبغي أن يكون؟" "الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟" (متى 26 : 52 — 54 ؛ يوحنا 18 : 11).

إن العظمة التي كان يتصنعها رؤساء اليهود لم تجعلهم يترفعون عن الاشتراك مع الرعاع في مطاردة يسوع . لقد كان القبض عليه أمرا أهم من أن يوكلوه إلى اتباعهم . فقد سار الكهنة والشيوخ الماكرون مع جند الهيكل والأوباش وراء يهوذا إلى جثسيماني . يا لها من صحبة تليق بأولئك الرؤساء للسير معهم - جماعة من الرعاع المشتاقين إلى أي شيء مثير ومسلحين بكل أنواع الأسلحة كأنما يطاردون وحشا ضاريا !

إذ التفت المسيح إلى الكهنة والشيوخ ثبت عليهم نظرته الفاحصة . والكلام الذي وجهه إليهم حينئذ لم ينسوه مدى الحياة فلقد كان كالسهام المسنونة مصوبة إلى قلوبهم من يدي الله القدير . فبكل جلال وعظمة قال لهم: لقد خرجتم علي بسيوف وعصي كما لو كنت سارقا أو لصا . لقد كنت أجلس كل يوم في الهيكل أعلم . وكانت لديكم فرص كثيرة سانحة لتلقوا علي الأيادي ولكنكم لم تفعلوا شيئا . إن الليل هو أصلح وقت للقيام بعملكم . "هذه ساعتكم وسلطان الظلمة" (لوقا 22 : 53).

حينئذ ارتعب التلاميذ عندما رأوا يسوع يسمح لنفسه بأن يقبضوا عليه ويوثقوه ، وقد آلمهم وأسخطهم كونه سمح بوقوع هذا الإذلال والهوان على نفسه وعليهم . ولم يفهموا كيف يعللون عن تصرفه هذا ، ولاموه لأنه سلم نفسه لأولئك الرعاع . ففي سخطهم وخوفهم اقترح بطرس أن ينقذوا أنفسهم . فتنفيذاً لهذا الاقتراح "تركه الجميع وهربوا" (مرقس 14 : 50). ولكن المسيح كان قد سبق فأنبأ بهذا الهجران إذ قال: "هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركوني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الآب معي" (يوحنا 16 : 32). [660]

الفصل الخامس والسبعون—محاكمة في الليل

ساروا في طريقهم مخترقين وادي قدرون وعبروا البساتين وحدائق الزيتون وهم يدفعون يسوع أمامهم ويستحثونه ليسرع في سيره في الشوارع الساكنة في تلك المدينة الهاجعة . كان الوقت بعد منتصف الليل ، ولكن صرخات الاستهزاء الخارجة من أفواه أولئك الرعاع شوشت ذلك السكون الشامل . وقد أوثق المخلص وفرضت عليه حراسة شديدة وكان يسير بكل صعوبة ، ولكن القابضين عليه أسرعوا به في شغف إلى قصر حنان رئيس الكهنة السابق .

كان حنان هذا رئيس أسرة الكهنوت القائمة بالخدمة ، فاحتراما لشيخوخته كان الشعب يعتبرونه كرئيس كهنة . وكانوا يلتمسون منه المشورة وينفذونها كما لو كانت صوت الله .فينبغي أن يكون هو أول من يرى يسوع أسيرا تحت سلطان الكهنة . وينبغي أن يكون حاضرا عند محاكمة هذا الأسير لئلا يخفق قيافا غير المحنك في تحقيق الغاية التي لأجلها ظلوا يعملون ويتآمرون طويلا ، فينبغي الانتفاع بحيلته ومكره ودهائه في هذه الفرصة ، لأنه مهما تكن الظروف فلا بد من إدانة المسيح.

كان المسيح سيحاكم رسميا أمام السنهدريم ، ولكن كان لا بد من أن يحاكم محاكمة تمهيدية أمام حنان . ولم يكن في سلطان السنهدريم أن ينفذ الحكم بإعدام أحد ما دامت الأمة خاضعة لحكم الرومان . وكل ما كانوا يستطيعون عمله هو أن يفحصوا الأسير ويحكموا عليه . ثم ينتظرون مصادقة السلطات الرومانية عليه . لذلك كان من اللازم توجيه تهم إلى المسيح يعتبرها الرومان جرائم . كذلك يجب البحث عن تهمة توجه إلى يسوع تكون كافية لإدانته في نظر اليهود . إن عددا غير قليل من الكهنة والرؤساء تأثروا من تعاليم المسيح ، إلا أن خوفهم من الحرم (القطع) منعهم من الاعتراف به . وقد تذكر الكهنة جيدا سؤال نيقوديموس حين قال: "ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟" (يوحنا 7 : 51). كان هذا السؤال حاسما في فض المجلس وإحباط [661] تلك المؤامرات آنئذ . ولم يدع يوسف الرامي ولا نيقوديموس لحضور محاكمة يسوع في هذه المرة . ومع ذلك كان يوجد آخرون عندهم الجرأة في الكلام لإقرار العدالة . وكان ينبغي السير في المحاكمة بحيث يتألب كل أعضاء السنهدريم ضد يسوع . كانت هنالكتهمتان أراد الكهنة تثبيتهما . فلو أمكنهم أن يثبتوا على يسوع تهمة التجديف فسيدينه اليهود . فإن أمكن إثبات تهمة كونه يروج العصيان ويبث روح التمرد فسيدينه الرومان .وقد حاول حنان أن يثبت التهمة الثانية على يسوع أولا فسأله عن تلاميذه وعن تعليمه على أمل أن يصرح أسيره بما يمكن أن يعتبر تهمة ضده فيتخذه رئيس الكهنة ذريعة ضده لاتهامه . حاول أن يستدرجه لعله ينطق بتصريح يبرهن على أنه كان يحاول تكوين جمعية سرية يهدف من ورائها إلى إقامة مملكة جديدة . وفي هذه الحالة كان الكهنة يسلمونه إلى أيدي الرومان كمن يعكر السلام ويخلق الثورات.

"اسأل الذين قد سمعوا"

عرف المسيح نوايا رئيس الكهنة كما لو كانت كتابا مفتوحا أمامه . وكأنما كان يعرف دخيلة نفس مستجوبه فنفى أن يكون قد ألف مع تابعيه أية جمعية سرية ، أو أنه جمعهم في الخفاء تحت ستار الظلام ليخفي نواياه عن الناس . فليس لديه سر يخفيه فيما يختص بمقاصده أو تعاليمه فأجاب قائلا: "أنا كلّمت العالم علانية. أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء" (يوحنا 18 : 20).

قارن المخلص بين طريقته في العمل ووسائل المشتكين ضده ، فقد ظلوا يتصيدونه شهورا محاولين أن يمسكوه ليحاكموه محاكمة سرية حتى يمكنهم عن طريق الاستعانة بشهود الزور أن يحصلوا على ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالالتجاء إلى العدالة . وها هم الآن ينفذون أغراضهم . لقد كانت وسيلتهم هي الالتجاء إلى الرعاع ليقبضوا عليه في نصف الليل ، والهزء والسخرية به قبل إدانته ، بل حتى قبل تقديم الشكوى ضده ، ولكنها لم تكن وسيلته . لقد كان عملهم انتهاكا لحرمة القانون إذ أعلنت قوانينهم نفسها أن كل متهم ينبغي أن يعامل على إنه بريء إلى أن تثبت إدانته . إن نفس قوانينهم أدانت الكهنة.

ثم التفت يسوع إلى سائله وقال: "لماذا تسألني أنا؟" ألم يرسل الكهنة والرؤساء [662] جواسيس لمراقبة حركاته وإبلاغهم كل ما قاله ؟ ألم يكن هؤلاء الجواسيس حاضرين في كل اجتماع للشعب ونقلوا للكهنة خبرا عن كل أقواله وأعماله ؟ ثم قال له يسوع: "اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمتهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا" (يوحنا 18 : 21).

وقد أبكم حنان لأن جواب المسيح كان حاسما . وخيفة أن يقول المسيح شيئا عن أعمال حنان وتصرفاته التي كان يفضل بقاءها طي الكتمان لم يقل للمسيح شيئا آخر في ذلك الحين . فثار أحد ضباط حنان واحتدم غيظه عندما رأى سيده وقد ارتج عليه باب الكلام فلطم يسوع على وجهه قائلا له: "أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟" (يوحنا 18 : 22).

فأجابه يسوع قائلا له بكل هدوء: "إن كنت قد تكلّمت ردياً فاشهد على الردي، وإن حسناً فلماذا تضربني؟" (يوحنا 18 : 22 و 23). إنه لم ينطق بكلام الانتقام الناري . إن طريقته الهادئة في الكلام والتصرف نبعت من قلب طاهر صبور ورقيق لا يمكن استفزازه.

منع العون السماوي

تألم المسيح آلاما قاسية من الشتائم والإهانات التي انهالت عليه . لقد لاقى كل إهانة من الخلائق التي قد خلقها والتي لأجلها أقدم على تلك التضحية الهائلة إذ قدم نفسه ذبيحة لأجلهم . تألم بنسبة كمال قداسته وبغضه للخطية . ومحاكمته التي جرت على أيدي أولئك الناس الذين كانوا يمثلون دور الشياطين كانت بالنسبة إليه تضحية دائمة . وكونه محاطا بتلك الخلائق التي كانت تحت سيطرة الشيطان كان منفرا له . عرف أنه كان يستطيع في لحظة أن يطرح معذبيه القساة أولئك في الرماد بإظهار قدرته الإلهية . وقد زاد هذا من قسوة تلك المحاكمة.

كان اليهود ينتظرون ظهور مسيا في أبهة ظاهرة . كانوا ينتظرون أنه بومضة من إرادته القاهرة سيغير مجرى تفكير الناس ويرغمهم على الاعتراف بسيادته . وهكذا اعتقدوا أنه بهذه الكيفية سيظفر بالمجد لذاته ويحقق لهم مطامعهم وآمالهم . فلما عومل المسيح بمنتهى الاحتقار جاءته تجربة شديدة ليعلن صفته الإلهية . لقد كان يستطيع بكلمة أو نظرة إرغام ظالميه ومضطهديه على الاعتراف به رباً وسيداً فوق كل الملوك [663] والرؤساء والكهنة والهيكل . ولكنها كانت مهمته الصعبة أن يظل في مركزه الذي

قد اختاره كواحد مع البشر.

رأى ملائكة السماء كل حركة اتخذت ضد قائدهم المحبوب ، وكانوا يتوقون لإنقاذ المسيح . إن الملائكة هم على أعظم جانب من القدرة في تنفيذهم مقاصد الله ، ففي مرة قتلوا من جيش أشور في ليلة واحدة 185 ألفا امتثالا لأمر المسيح . فكم بالأولى يستطيع الملائكة بكل سهولة وهم ينظرون ذلك المشهد المهين مشهد محاكمة المسيح أن يظهروا غضبهم بكونهم يحرقون بالنار أعداء الله ! ولكن لم يؤمروا بذلك . فذاك الذي كان يستطيع أن يقضي على أعدائه بالموت احتمل قسوتهم . إن محبته لأبيه والعهد الذي أخذه على نفسه منذ تأسيس العالم بأن يصير حامل الخطايا ، كل ذلك جعله يحتمل بدون تذمر المعاملة القاسية من أولئك الذين قد أتى ليخلصهم . كان من ضمن رسالته أن يحمل في جسد بشريته كل تعيير وإهانة يصبها الناس عليه . وكان رجاء الإنسانية الوحيد هو في تسليم المسيح لكل ما كان يمكنه احتماله من أيدي الناس وقلوبهم.

يفتشون عن تهمة

لم يقل المسيح شيئا يمكن أن يتخذه المشتكون ذريعة ضده ، ومع ذلك فقد كان موثقا للدلالة على كونه مدينا . ومع ذلك فلا بد لهم من أن يتظاهروا بأنهم ملتزمون جانب العدل . كان من الضروري أن يكون هنالك شكل المحاكمة القانونية ، وهذا ما حرصت السلطات على الإسراع لعمله . لقد عرفوا الاعتبار العظيم الذي يكنه الشعب ليسوع فكان أولئك الرؤساء يخشون لئلا إذا ذاع خبر القبض عليه فالشعب سيحاولون إنقاذه . ثم إذا لم يسرعوا في المحاكمة وتنفيذ الحكم فسيلتزمون أن يؤجلوا إجراءاتهم أسبوعا كاملا بسبب الاحتفاء بعيد الفصح . وقد يكون من أثر ذلك إحباط كل خططهم ومؤامراتهم .فلكي يتمكنوا من إدانة يسوع لجأوا إلى الشغب الذي تمكن أن يصطنعه الرعاع ، وكان كثيرون منهم من سوقة أورشليم . فلو تأخروا أسبوعا فستخف وطأة الضجة بالطبع ومن المرجح أن يكون لذلك كله رد فعل . أما أفاضل الشعب فسينضمون إلى جانب المسيح ، وسيتقدم كثيرون ليشهدوا على براءته إذ يذيعون أخبار الآيات والقوات التي قد صنعها .وقد يكون هذا سببا في إثارة سخط وغضب عامين على رجال السنهدريم . وسيوجه [664] إليهم اللوم على إجراءاتهم ويطلق سراح يسوع ليتقبل ولاء الجموع من جديد . ولذلك عقد الكهنة والرؤساء العزم على تسليم يسوع إلى أيدي الرومان قبلما تتكشف نواياهم.

لكن كان عليهم قبل كل شيء تلفيق تهمة ضد المسيح . إنهم لم يحققوا مأربا بعد . لقد أمر حنان بأن يؤخذ يسوع إلى قيافا . وكان هذا أحد رجال حزب الصدوقيين الذين غدا بعض منهم الآن أشد أعداء المسيح تهوراً . وقيافا نفسه وإن يكن ينقصه الشيء الكثير من قوة الخلق كان شبيها كل الشبه بحنان في قسوته وظلمه واستهتاره ، وهو سيبذل قصارى جهده لإهلاك يسوع . كان ذلك في بكور الصباح والظلام ما زال حالكا جداً ، وعلى نور المشاعل والمصابيح سارت فرقة الجنود المسلحين بأسيرهم إلى قصر رئيس الكهنة . وإذ كان رجال السنهدريم في طريقهم إلى هذا القصر عاد حنان وقيافا يستجوبان يسوع ولكن في غير طائل.

يقف هادئا وسط هياج العاصفة

فلما اجتمع المجلس في دار القضاء جلس قيافا على كرسي الرئاسة وجلس على كلا الجانبين القضاة ومن كانوا مهتمين بالمحاكمة اهتماما خاصا . وقد أوقف الجنود الرومان فوق المنصة تحت العرش وعند أسفل العرش وقف يسوع الذي اتجهت إليه أنظار الجمع كله . وهنا بلغ الاهتياج أشده . لم يكن بين كل ذلك الجمع أحد هادئا ورصينا غير يسوع . وقد بدا وكأن كل الجو المحيط به مشمول بتأثير مقدس.

كان قيافا يعتبر يسوع منافسا له . إن تلهف الشعب على سماع أقوال المخلص واستعدادهم الظاهر لقبول تعاليمه أثار الغيرة المرة في قلب رئيس الكهنة . ولكن إذ نظر قيافا إلى أسيره امتلأت نفسه إعجابا به عندما رأى منظره النبيل ومقامه الجليل . وقد راود قلبه اقتناع بأن هذا الإنسان لابد أن يكون مماثلا لله . ولكنه سرعان ما طرد عنه ذلك الفكر بكل ازدراء . وفي الحال سمع صوته ينطق بألفاظ السخرية والعجرفة وهو يأمر يسوع بأن يصنع أمامهم أعجوبة واحدة . لكن كلامه لم يحرك للمخلص ساكنا وكأنه لم يسمع شيئا . وقد قارن الشعب بين التصرف المهتاج الخبيث الذي بدا من كل من حنان وقيافا وبين تصرف يسوع الملكي الهادئ ، فثار حتى في قلوب أقسى ذلك الجمع صلابة هذا السؤال : هل يمكن أن هذا الإنسان ذا المنظر الإلهي يدان كمجرم ؟ [665]

وإذ لاحظ قيافا تأثير يسوع على الناس أسرع في إجراءات المحاكمة . فوقع أعداء يسوع في حيرة وارتباك عظيمين . كانوا مصممين على إدانته ولكنهم لم يكونوا يعلمون كيف يحققون غرضهم . كان أعضاء المجلس بعضهم من الفريسيين والبعض من الصدوقيين وكان بين ذينك الحزبين عداء مرير ومنازعات لا تنتهي . ولم يجرؤوا على المجادلة في الأمور التي هي مثار النزاع خشية وقوع مشاجرة بينهم . فلو نطق يسوع بكلمات قليلة لثار تعصب الفريقين ضد بعضهم البعض وبذلك كان يحول غضبهم بعيدا عنه . عرف قيافا هذا فأراد أن يتحاشى إثارة أية خصومة . كان يوجد شهود كثيرون مستعدين لأن يثبتوا أن المسيح قد شهر بالكهنة والكتبة وأنه دعاهم مرائين وقتلة ، ولكن هذه الشهادة لم يكن من اللائق تقديمها . فالصدوقيون في منازعاتهم الشديدة مع الفريسيين كالوا لهم نفس تلك التهم . ومثل هذه التهم لا يقام لها وزن في نظر الرومان الذين كانوا هم أنفسهم مشمئزين من ادعاءات الفريسيين . ولكن كان هناك دليل كاف على أن يسوع أبدى استخفافه بتقاليد اليهود ، وبكل جرأة ذم الكثير من طقوسهم . أما فيما يختص بالتقاليد فكان بين الفريسيين والصدوقيين عداوة ومنازعات لا تنتهي . كما أن هذا الدليل لم يعره الرومان أي اهتمام . ولم يجسر أعداء المسيح على اتهامه بنقض السبت لئلا ينتهي الاستجواب إلى الكشف عن طبيعة عمله . فلو كشفت معجزات الشفاء التي أجراها المخلص للنور لكان في ذلك هزيمة ماحقة لغرض الكهنة ذاته.

المشتكون يقعون في ورطة

وقد قدمت رشوة لشهود الزور ليشهدوا كذبا على يسوع بأنه يثير التمرد والعصيان ويحاول إقامة حكومة منفصلة ، ولكن اتضح أن شهادتهم غامضة ومتناقضة . وبعد الفحص كذب أولئك الشهود ما قد قرروه.

كان المسيح في بدء خدمته قد قال: “انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه” ففي هذه النبوة المجازية أنبأ المسيح بموته وقيامته ، “وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده” (يوحنا 2 : 19 و 21). وقد فهم اليهود هذا القول فهما حرفياً على أنه يشير إلى هيكل أورشليم . فبين كل أقوال المسيح لم يجد الكهنة ما يؤاخذونه عليه غير هذا . فبتحريفهم لمعنى هذا الكلام كانوا يؤملون أنهم سيظفرون بمرادهم . لقد اشتغل

الرومان في بناء [666] الهيكل وزخرفته وكانوا يفخرون به جدا ، فأي احتقار يوجه إلى الهيكل كأن كفيلا بأن يثير غضبهم . فحول هذه النقطة كان يمكن للرومان واليهود و الفريسيين والصدوقيين أن يجتمعوا ، لأن الجميع كانوا يوقرونه توقيراً عظيما . وقد تقدم اثنان ليشهدا في هذه المسألة ولم تكن شهادتهما متناقضة كما كانت شهادة من سبقوهما . فإذ كان أحد ذينك الرجلين قد أخذ رشوة وقف يشهد على يسوع قائلا: "هذا قال: إني أقدر أن أنقض هيكل الله، وفي ثلاثة أيام أبنيه" (متى 26 : 61). وهكذا حرف كلام المسيح . فلو نقل كلامه كما قد نطق هو به تماما لما استوجب ذلك إدانته حتى من رجال السنهدريم . فلو كان يسوع مجرد إنسان كما ادعى اليهود لما دل إعلانه هذا إلا على روح التفاخر غير المعقول ، ولكن لم يكن بالإمكان تأويله على أنه تجديف . وحتى بعدما حرف شاهدا الزور كلامه لم يكن يوجد فيه ما يمكن أن يعتبره الرومان علة تستوجب الموت.

وفي صبر عجيب أصغى يسوع إلى تلك الشهادات المتناقضة ولم ينطق بكلمة دفاعاً عن نفسه . أخيراً أصيب المشتكون عليه بالحيرة والارتباك والجنون . فلم يكن هنالك أي تقدم في المحاكمة ، وبدا وكأن كل مؤامراتهم قد أصابها الفشل ، فتسرب اليأس إلى قلب قيافا ولم يبق أمامه غير ملجأ واحد يلوذ به . ينبغي أن يرغم المسيح على إدانة نفسه . قام رئيس الكهنة عن كرسي القضاء مقطب الوجه غاضبا ، ودل صوته وهيئته على أنه لو كان في مقدوره أن يضرب أسيره الماثل أمامه الضربة القاضية لفعل ، فصاح قائلا: "أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هذان عليك؟" (متى 26 : 62).

ولكن يسوع ظل ساكتا: "أما هو فتذلّل ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إشعياء 53 : 17).

"أنت قلت"

أخيرا رفع قيافا يمناه إلى السماء وخاطب المسيح في هيئة قسم مقدس قائلا له: "أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟" (متى 26 : 63).

فأمام هذا الاستشهاد لم يستطع المسيح أن يظل صامتا . كان هنالك وقت للسكوت ووقت للكلام . إنه لم يتكلم حتى وجه إليه سؤال مباشر . عرف أن إجابته الآن ستجعل [667] موته أمراً محتوماً ، ولكن وجه إليه هذا الاستشهاد من أعلى سلطة معترف بها من الأمة وباسم الله العلي . إن المسيح لم يقصر في إظهار الاحترام اللائق بالناموس . وأكثر من هذا فإن صلته بالآب كانت مثار التساؤل . فعليه أن يعلن بكل وضوح صفته ورسالته . لقد قال يسوع لتلاميذه: "فكل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السماوات" (متى 10 : 32). وها هو الآن بمثاله يكرر الدرس.

أصاخ كل إنسان بأذنيه ليسمع ، وثبت الجميع عيونهم في وجه يسوع عندما أجاب قائلا: "أنت قلت! ". وقد بدا وكأن نورا من السماء قد أضاء وجهه الشاحب عندما أردف قائلا: "وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء" (متى 26 : 62).

ولمدى لحظة سطعت ألوهية المسيح في ثوب بشريته ، وقد جبن رئيس الكهنة وارتعب أمام عيني المخلص الفاحصتين . وبدا وكأن تلك النظرة قد كشفت أفكاره الخفية وأحرقت قلبه . ولم ينس إلى نهاية حياته تلك النظرة الفاحصة التي وجهها إلى قلبه ابن الله المضطهد المظلوم .

قال يسوع: "من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء". وبهذه الكلمات عرض المسيح منظراً آخر هو عكس المنظر الذي كان يرى في ذلك المكان . فإذ هو رب الحياة

والمجد سيجلس عن يمين الله وسيكون ديان كل الأرض ، ولا مرد لحكمه ولا يستأنف ضده . وحينئذ ستكشف كل الأسرار في نور وجه الله وسيحكم على كل إنسان كما يكون عمله .

إن كلام المسيح هذا أفزع رئيس الكهنة . فالفكر بأنه ستكون قيامة للأموات عندما يقف الجميع أمام عرش دينونة الله ليجازوا حسب أعمالهم ، كان فكرا مفزعا ومرعبا لقيافا . لم يرد أن يصدق بأنه في المستقبل سيحكم عليه حسب أعماله . لقد مرت أمام عينيه كما لو كانت شريطاً سينمائياً مشاهد الدينونة الأخيرة . ولمدى لحظة أبصر ذلك المنظر المخيف منظر القبور وهي تسلم موتاها ، كما انكشفت الأسرار التي كان هو يرجو أنها ستظل إلى الأبد طي الخفاء ، ولمدى لحظة أحس كأنه أمام الديان السرمدي الذي عينه المطلعة على كل شيء تقرأ ما في أعماق نفسه ، وتكشف للنور أسراراً كان يظن أنها ستظل مدفونة مع أصحابها .

ذلك المنظر غاب عن ذهن رئيس الكهنة وقلبه ، ولكن كلام المسيح كان قد نفذ إلى [668] قلب ذلك الصدوقي . لقد أنكر قيافا عقيدة قيامة الأموات والدينونة والحياة العتيدة . أما الآن فقد أصيب بجنون الغضب الشيطاني . فهل هذا الأسير الماثل أمامه يجرؤ على مهاجمة نظرياته التي يعتز بها ويحبها أعمق حب ؟ فإذ مزق ثيابه كي يرى الناس رعبه المصطنع أمر بإدانة هذا الأسير على تجديفه بدون مقدمات ثم قال: "ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها قد سمعتم تجديفه!" فجميعهم إذ ذاك أدانوه (متى 26 : 65 و 66).

الثوب الذي مزق

إن التبكيت الممزوج بالغضب هو الذي قاد قيافا إلى فعل ما قد فعل . كان يتميز غيظا على نفسه لكونه قد صدق أقوال المسيح ، وبدلا من أن يمزق قلبه لشعوره العميق بالحق والاعتراف بأن يسوع هو مسيا ، مزق رداءه الكهنوتي وهو مصر على المقاومة . كان لهذا التصرف دلالته العميقة ، ولم يكن قيافا يفهم كنه معناه . ففي هذا العمل الذي عمله ليؤثر به على القضاة ويحصل منهم على حكم بإدانة المسيح دان رئيس الكهنة نفسه .وبموجب شريعة الله لم يكن أهلا للكهنوت . لقد حكم على نفسه بالموت.

لقد كان محظوراً على رئيس الكهنة أن يمزق ثيابه . وبموجب الناموس اللاوي كان ذلك العمل محرماً تحت حكم الموت . لم يكن يسمح لرئيس الكهنة أن يمزق ثيابه في أية ظروف ولا لأي اعتبار . كانت العادة عند اليهود أن يمزقوا ثيابهم عند موت صديق عزيز. ولكن الكهنة لم يكن يسري عليهم هذا العرف . وإننا نجد في لاويين (10 : 6) أمراً صريحاً واضحاً من المسيح بهذا الشأن.

كل ما كان يلبسه الكاهن كان يجب أن يكون سليما وبلا عيب ، فتلك الثياب الرسمية الجميلة كانت رمزا لصفة المرموز إليه العظيم يسوع المسيح . لم يكن يقبل أمام الله غير الكمال التام في اللبس والهيئة والكلام والروح . إنه قدوس فينبغي أن يظهر مجده وكماله في الخدمة الأرضية . ولا شيء غير الكمال يمكن أن يمثل قداسة الخدمة السماوية أصدق تمثيل . يمكن للإنسان المحدود أن يمزق قلبه بكونه يبدي روح التواضع والانسحاق .هذا الإنسان يراه الله ويميزه . ولكن ثياب الكهنوت لا يجوز تمزيقها لأن هذا يشوه صورة السماويات . إن رئيس الكهنة الذي كان يتجرأ على الظهور في الخدمة المقدسة والاشتراك [669] في خدمة المقدس وهو في ثيابه الممزقة كان ينظر إلهيه كمن قد بتر نفسه من الله . فبتمزيق ثيابه كان يقطع نفسه ويحرمها من أن تكون شخصية نائبة (رمزية) ، ولا يعود الله يقبله ككاهن قائم بالخدمة . إن هذا التصرف من قبل قيافا أظهر غضب الإنسان ونقصه على حقيقتهما.

إن قيافا إذ مزق ثيابه أبطل شريعة الله لكي يتبع تقاليد الناس . فالشريعة التي وضعها الناس اشترطت

أنه في حالة التجديف يمكن للكاهن أن يمزق ثيابه رعبا من تلك الخطية ويكون مع ذلك بريئاً ، وهكذا أبطلت شريعة الله بواسطة وصايا الناس.

كان الشعب بكل اهتمام يراقبون تصرفات رئيس الكهنة . وقد فكر قيافا في أن يباهي بتقواه ، ولكنه بهذا العمل الذي كان يرمي من ورائه إلى اتهام المسيح كان يشتم ذاك الذي قال الله عنه: "اسمي فيه" (خروج 23 : 21). لقد كان هو نفسه يجدف . وإذ كان واقعاً تحت دينونة الله حكم على المسيح بأنه مجدف.

وعندما مزق قيافا ثيابه كان عمله يدل على الوضع الذي كان على الأمة اليهودية كأمة أن تشغله حيال الله بعد ذاك . فذلك الشعب الذي كان قبلا محبوبا من الله بدأوا يفصلون أنفسهم عنه ، وكانوا يتخذون خطوات سريعة في الانفصال عن الله . وعندما صرخ المسيح وهو على الصليب قائلا "قد أكمل" (يوحنا 19 : 30). وانشق حجاب الهيكل إلى اثنين أعلن الساهر القدوس أن الأمة اليهودية قد رفضت ذاك الذي كان كل رموزهم تشير إليه وخلاصة كل تلك الرموز . لقد طلق إسرائيل من الله وانفصل عنه . إذاً فنعما فعل قيافا بتمزيق ثيابه الرسمية التي كانت تدل حينئذ على أنه يمثل رئيس الكهنة الأعظم ، لأن تلك الثياب ما عاد لها أي معنى ، لا له ولا للشعب . حسنا فعل رئيس الكهنة بتمزيق ثيابه من فرط الرعب على نفسه وعلى الأمة.

يعامل كمجرم

أصدر السنهدريم حكمه بأن يسوع يستوجب الموت . ولكن محاكمة أي أسير في الليل كانت نقضا للشريعة اليهودية . ففي المحاكمات القانونية ما كان يمكن عمل شيء إلا في نور النهار وأمام المجمع بكامل أعضائه . ولكن بالرغم من ذلك كله عومل المخلص كما لو كان مجرما مقضيا عليه ، فأسلم لأيدي أحط الناس وأنجسهم ليسخروا ويمثلوا به . [670] وكان في داخل قصر رئيس الكهنة دار فضاء اجتمع فيها الجند والجمع ، فأخذ يسوع عبر هذه الدار إلى غرفة الحراس . وكان الناس من كل جانب يسخرون به لأنه قال أنا ابن الله . وجعلوا يرددون كلامه الذي فاه به حين قال: " ... جالساً عن يمين القوة"، "وآتياً على سحاب السماء" في تهكم لاذع . وإذ كان في غرفة الحراس منتظرا محاكمته القانونية لم يكن يوجد من يدفع عنه الأذى . لقد رأى السوقة الأغبياء كيف عومل يسوع بكل قسوة أمام المجمع ، ومن أجل هذا صرحوا لأنفسهم بأن يظهروا كل ما في قلوبهم من عناصر شيطانية . إن نفس نبل المسيح ومنظره الإلهي ساقهم إلى الجنون . ووداعته وبراءته وصبره الإلهي- كل ذلك ملأهم بالكراهية الشيطانية . لقد داسوا على الرحمة والعدل . إنه لم يسبق لأي مجرم أن عومل بمثل تلك القسوة المجردة من الإنسانية كما عومل ابن الله.

ولكن كان هنالك عذاب أقسى تمزق له قلب يسوع . إن الضربة التي أحدثت في نفسه أقسى الآلام لم يكن أي عدو يستطيع أن يوقعها عليه . فإذ كان يحاكم تلك المحاكمة الزائفة أمام قيافا كان أحد تلاميذه ينكر.

الديك الذي صاح

بعدما ترك التلاميذ معلمهم في البستان وهربوا تجرأ اثنان منهم على اتباع الرعاع الذين قبضوا على

يسوع ، ولكن من بعيد . كان ذانك التلميذان هما بطرس ويوحنا . وقد عرف الكهنة يوحنا على أنه تلميذ معروف تمام المعرفة من تلاميذ يسوع فسمحوا له بالدخول إلى الدار على أمل أنه عندما يرى الإذلال الذي يعامل به سيده سيحتقر فكرة كونه ابن الله . ثم تكلم يوحنا لمصلحة بطرس فسمح له هو أيضا بالدخول.

وفي الدار كانوا قد أضرموا ناراً لأن تلك الساعة كانت أشد ساعات الليل برودة إذ كانت قبيل الفجر فالتف جماعة حول النار ، وبكل جرأة جلس بطرس معهم . ولم يكن يريد أن يعرف بأنه تلميذ ليسوع . فإذ يندمج في وسط ذلك الجمع في غير اكتراث كان يرجو أن يحسبه من حوله واحدا ممن أتوا بيسوع إلى تلك الدار.

ولكن عندما أشرق النور على وجه بطرس نظرت إليه المرأة البوابة نظرة فاحصة .وقد لاحظت أنه دخل مع يوحنا ورأت الكآبة مرتسمة على وجهه فرجحت أن يكون تلميذا [671] ليسوع ، وحيث كانت إحدى جواري بيت قيافا تاقت إلى معرفة الحقيقة . فقالت لبطرس: "ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟" ففزع بطرس وارتبك إذ اتجهت إليه كل الأنظار على التو ، فتظاهر بأنه لم يفهم سؤالها . ولكنها كانت مصرة على كلامها ، وقالت لمن حولها إن هذا الرجل كان مع يسوع . فاضطر بطرس إلى أن يجيب قائلا للجارية بغضب: "لست أعرفه يا امرأة!" (يوحنا 18 : 17 ؛ لوقا 22 : 57). كان هذا أول إنكار ، وللوقت صاح الديك . آه يا بطرس . أبهذه السرعة تستحي بمعلمك وتنكر سيدك !

أما يوحنا فعند دخوله إلى دار المحاكمة لم يحاول إخفاء حقيقة كونه تابعا ليسوع ، ولم يختلط بأولئك الأجلاف الذين كانوا يشتمون معلمه . ولم يسأله أحد شيئا لأنه لم يدع أنه شخص آخر وألا لكان جعل نفسه هدفا للشكوك ، إذ اعتزل في مكان منعزل بعيداً عن الرعاع لكي يكون قريبا من سيده ما أمكن . ففي مثل ذلك المكان يستطيع أن يرى ويسمع كل ما يحدث عند محاكمة سيده.

لكن بطرس لم يكن يريد أن أحداً يعرفه على حقيقته . وإذ تظاهر بعدم الاكتراث أقحم نفسه على أرض العدو فصار فريسة سهلة المنال للتجربة . لو دعي ليحارب عن سيده لبرهن على أنه جندي شجاع . ولكن عندما أشار إليه إصبع السخرية والاحتقار برهن على جبنه . إن كثيرين ممن لا ترهبهم الحرب الحامية الوطيس دفاعا عن سيدهم تدفعهم السخرية إلى إنكار إيمانهم . فإذ يعاشرون الناس الذين كان يجب أن يتجنبوهم يضعون أنفسهم في طريق التجربة . وهم بهذا يدعون العدو ليجربهم ، وهذا يسوقهم إلى أن يقولوا أو يفعلوا ما لا يمكن أن يرتكبوه في ظروف أخرى . إن أي تلميذ للمسيح يخفي إيمانه في أيامنا هذه خوفا من الآلام والعار إنما ينكر سيده كما فعل بطرس في ليلة محاكمة سيده.

حاول بطرس أن يخفي اهتمامه بمحاكمة سيده ، ولكن قلبه كان يتعذب حزنا وهو يسمع التعييرات ويرى الإهانات تكال للفادي . وأكثر من هذا فقد كان مندهشا وغاضبا لأن يسوع أهان نفسه وتلاميذه باستسلامه لتلك المعاملة . فلكي يخفي مشاعره الحقيقية حاول الاشتراك مع مضطهدي يسوع في سخريتهم اللاذعة . ولكن مظهره كان غير طبيعي . لقد كان يمثل أكذوبة خطرة . وفيما كان يحاول أن يتكلم في غير اهتمام لم يستطع أن يمنع نفسه من التعبير عن غضبه عندما رأى الإهانات تنهال على سيده. [672]

التفت الناس إليه للمرة الثانية فاتهم مرة أخرى بكونه من تلاميذ يسوع فأنكر بقسم قائلاً: "لست أعرف الرجل!" (متى 26 : 72). وبعد ذلك قدمت له فرص أخرى . فبعد ساعة عندما سأله أحد عبيد رئيس الكهنة الذي قطع بطرس أذنه قائلا: "أما رأيتك أنا معه في البستان؟" "حقاً أنت منهم، لأنك جليلي أيضاً ولغتك تشبه لغتهم!" (يوحنا 18 : 26 ؛ مرقس 14 : 70). وهنا اهتاج بطرس وثارت نفسه . لقد اشتهر تلاميذ يسوع بطهارة ألسنتهم ولغتهم المهذبة . فلكي يمعن بطرس في خداع سائليه ولكي يزكي ادعاءه بأنه شخص آخر أنكر سيده بقسم ولعن ، وهنا صاح الديك مرة أخرى ، حينئذ سمع بطرس صياح الديك فتذكر

كلام يسوع الذي قاله له: "قبل أن يصيح الديك مرتين، تنكرني ثلاث مرات" (مرقس 14 : 30).

بطرس المتهالك ندما

ففيما كانت الأقسام المهينة على شفتي بطرس وصياح الديك لا يزال يرن في أذنيه تحول المخلص عن قضاته العابسين وحدق بنظره إلى تلميذه المسكين. وفي نفس الوقت التقت عينا بطرس بعيني سيده . ففي ذلك المحيا الرقيق قرأ بطرس آيات العطف والحزن، ولكن لم يكن هنالك أثر للغضب.

إن منظر ذلك الوجه الشاحب المتألم وتينك الشفتين المرتعشتين ونظرة الإشفاق والغفران طعنت قلب بطرس كسهم حاد. فثار ضميره ونشطت ذاكرته . ذكر بطرس وعده لسيده منذ ساعات قليلة بأنه مستعد لأن يذهب معه إلى السجن وإلى الموت ، كما ذكر حزنه عندما قال له المخلص وهم مجتمعون معا في العلية بأنه سينكره ثلاث مرات في نفس هذه الليلة . وها هو بطرس يعلن الآن أنه لا يعرف يسوع . وقد تأكد له الآن وإن يكن بحزن عميق أن سيده كان يعرفه جيدا ويعرف قلبه معرفة دقيقة ، ذلك القلب الخادع الذي كان يجهله بطرس نفسه.

جاءته الذكريات متلاحقة بعد ذلك. فرأفة المخلص ورحمته وطول أناته ورقته وصبره على تلميذه المخطئ - كل هذا عاد فتذكره ، كما ذكر إنذار المخلص له عندما خاطبه قائلاً: "سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة! ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لوقا 22 : 31 و 32). فبرعب شديد تفكر في جحوده وكذبه [673] وأقسامه الباطلة. ثم نظر إلى معلمه مرة أخرى فرأى يدا نجسة معتدية تمتد لتلطمه على وجهه . فإذ لم يتمكن من احتمال ذلك المنظر اندفع خارجا من ذلك الدار منكسر القلب.

تقدم سائراً وحده في الظلام ولم يعرف ولا اهتم بأن يعرف إلى أين هو ذاهب. أخيراً وجد نفسه في جثسيماني . وقد عاد إلى ذهنه المنظر الذي حدث منذ ساعات قليلة واضحا . فوجه سيده المتألم والملطخ بالعرق الذي نضح من جبينه كقطرات دم ، والذي كان يرتعش من فرط الألم كان ماثلا أمامه . وذكر بفرط الندم أن يسوع قد بكى وتألم في الصلاة وحده بينما أولئك الذين كان يجب أن يشاركوه في تلك الساعة القاسية كانوا نياماً. وذكر أيضا وصيته المقدسة حين قال لهم: " اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في التجربة" (متى 26: 41). ثم عاد إلى ذهنه المشهد الذي حدث في دار رئيس الكهنة . وقد تعذب قلبه الدامي حين علم أنه وضع على كاهل المخلص اثقل عبء فوق الإذلال والحزن الذي كان يعانيه . ففي نفس البقعة التي سكب فيها يسوع نفسه أمام الآب في حزن شديد سقط بطرس على وجهه وتمنى الموت لنفسه.

إن بطرس إذ نام في الوقت الذي فيه أوصاه معلمه أن يسهر ويصلي كان قد أعد الطريق لخطيته الهائلة. وإذ نام كل التلاميذ في تلك الساعة الحرجة خسروا خسارة فادحة . لقد عرف المسيح البلوى المحرقة التي كانوا مزمعين أن يجوزوا فيها ، وعرف أيضا كيف سيعمل الشيطان على تخدير حواسهم حتى لا يتأهبوا لتلك المحنة ، و لهذا السبب أنذرهم . فلو كان بطرس قد قضى الساعات التي مرت عليه في البستان ساهرا مصلياً ، لما ترك ليستند على قوته الواهنة ولما أنكر سيده . لو كان التلاميذ سهروا مع المسيح وهو في أشد حالات الحزن والألم لكانوا تأهبوا لمشاهدة آلامه على الصليب . وكانوا قد فهموا ، إلى حد ما ، طبيعة عذاباته الرهيبة ، وكانوا استطاعوا أن يذكروا أقواله التي أنبأت عن آلامه وموته وقيامته . وفي وسط الظلمة الداجية ، ظلمة أقسى ساعة ، كان يمكن لأنوار الرجاء أن تبدد ظلمة يأس التلاميذ وتسند إيمانهم.

محكمة عند طلوع الشمس

وحالما طلع النهار التأم مجمع السنهدريم ثانية وأتي بيسوع إلى قاعة الاجتماع. كان قد أعلن عن نفسه انه ابن الله . ولكنهم حرفوا أقواله لتكون تهمة يوجهونها ضده . إلا أنهم [674] لم يستطيعوا إدانته بموجب هذا لأن كثيرين منهم لم يكونوا حاضرين في جلسة الليلة السابقة فلم يسمعوا أقواله ، وقد عرفوا أن القضاء الروماني لن يجد في هذه التهمة علة تستوجب الموت. ولكن لو أنهم كلهم يسمعونه يردد نفس كلامه بشفتيه لأمكنهم بلوغ مأربهم . ذلك أن ادعاءه بأنه مسيا يمكنهم تحريفه على أنه ادعاء القصد منه إثارة فتنة سياسية.

فقالوا له: "إن كنت أنت المسيح، فقل لنا!" ولكن المسيح ظل صامتا فجعلوا يلحون عليه بأسئلتهم . أخير أجابهم بنغمة محزنة محركة للعواطف قائلا لهم: "إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني". ولكن حتى لا يكون لهم عذر أضاف قائلاً: "منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله" (لوقا 22 : 67 — 69).

فسألوه بصوت واحد قائلين: " أفأنت ابن الله؟" فأجابهم قائلاً: " أنتم تقولون إني أنا هو". فصاحوا قائلين: "ما حاجتنا بعد إلى شهادة؟ لأننا نحن سمعنا من فمه" (لوقا 22 : 70 و 71).

وهكذا بموجب إدانة السلطات اليهودية ليسوع للمرة الثالثة كان لا بد أن يموت. وقد ظنوا أنه لا يلزمهم إلا مصادقة الرومان على هذا الحكم وحينئذ يسلمونه إلى أيديهم.

يصرخون: اقتلوه

ثم تلا ذلك المشهد الثالث لإهانة المسيح والسخرية به ، وكان ذلك أردأ وأشد إيلاما له حتى مما لاقاه ، من الرعاع: فأمام الكهنة والرؤساء وبمصادقتهم حدث كل ذلك. لقد انتزعت من قلوبهم كل مشاعر الرفق والإنسانية . فإذ كانت حججهم واهية وقد عجزوا عن إسكات صوت يسوع لجأوا إلى أسلحة أخرى كتلك التي استخدمت في عصور التاريخ المتعاقبة لإسكات الذين حسبوا هراطقة - أي إيقاع الآلام والظلم ، والحكم بالموت عليه.

وعندما نطق القضاء بالحكم على يسوع شمل الشعب هياج شيطاني ، فكان زئيرهم يشبه زئير الضواري. فاندفع ذلك الجمع نحو يسوع صارخين وقائلين إنه مجرم . اقتلوه ! ولولا وجود جنود الرومان لما عاش يسوع حتى يعلق على صليب جلجثة . ولولا تدخل السلطات الرومانية التي كبحت بقوة السلاح جماح أولئك الرعاع المهتاجين لمزقوا يسوع إربا إربا أمام أولئك القضاة. [675]

غضب الوثنيون بسبب المعاملة التي عومل بها ذاك الذي لم تثبت ضده أية تهمة. وقد أعلن الضباط الرومان أن اليهود إذ أصدروا حكمهم بإدانة يسوع كانوا بذلك يتعدون على سلطان الرومان ، وإن إدانة إنسان والحكم عليه بالموت بناء على اعترافه كان انتقاضا على الشريعة اليهودية . فهذا التدخل عقبته فترة توقف في الإجراءات . ولكن قلوب رؤساء اليهود كانت قد تحجرت فما عاد فيها أي عطف وما عادوا يحسون بأي خجل.

لقد نسي الكهنة والرؤساء جلال مركزهم وجعلوا يهينون ابن الله بنعوت نجسة كريهة .جعلوا يعيرونه بنسبه وأعلنوا أن ادعاءه أنه مسيا جعله مستحقا لأشنع ميتة مهينة. إن أنجس الناس الفاسقين أهانوا

المخلص إهانات مخجلة . فغطوا وجهه بثوب بال وجعل معذبوه يلطمونه على وجهه قائلين: “تنبأ لنا أيها المسيح، من ضربك؟” (متى 26 : 68). فلما نزعوا عن وجهه ذلك الثوب بصق في وجهه رجل حقير.

لقد سجل ملائكة السماء ، بكل أمانة ، كل إهانة وكل نظرة وكل عمل ضد قائدهم المحبوب. وفي يوم من آتٍ ، وكل آت قريب ، سينظر أولئك الناس الأدنياء الذين احتقروا المسيح وبصقوا في وجهه الهادئ الشاحب- سينظرون ذلك الوجه في ملء مجده وهو يشع بلمعان أشد من نور الشمس. [676]

الفصل السادس والسبعون ـــــتاريخ حياة خائن

إن تاريخ يهوذا يرينا الخاتمة المؤلمة لحياة كان يمكن أن تكون مكرمة من الله. لو كان يهوذا قد مات قبل الرحلة الأخيرة إلى أورشليم لاعتبر جديرا بمكانة بين الاثني عشر ، ولأحسوا بالخسارة عند موته . والمقت الذي ظل يلاحقه مدى أجيال التاريخ ما كان يكون له وجود لولا صفاته التي نضجت وظهرت على حقيقتها في نهاية تاريخه . ولكن كان هنالك غرض لأجله انكشفت أخلاقه للعالم ، فلقد صار إنذارا لكل من تسول لهم أنفسهم أن يخونوا الأمانة المقدسة المسلمة لهم .

قبل الفصح بقليل جدد يهوذا اتفاقه مع الكهنة على أن يسلم يسوع إلى أيديهم ، وتم الاتفاق على أن يقبض على المخلص في أحد المعتكفات التي كان يتردد عليها للتأمل والصلاة. ومنذ أقيمت الوليمة في بيت سمعان كانت لدى يهوذا فرصة للتأمل في الدور الذي تعهد أن يقوم به ، ولكنه لم يغير رأيه . فبثلاثين من الفضة- التي هي ثمن عبد- باعرب المجد للعار والموت.

كان يهوذا محبا للمال بطبعه ، ولكنه لم يكن دائما فاسدا إلى حد القيام بمثل هذا العمل. لقد ظل محتضنا تلك الروح الشريرة ، روح الجشع حتى غدت الدافع المسيطر على حياته. فلقد طغت محبته للمال على محبته للمسيح . فلما صار عبدا لرذيلة واحدة سلم نفسه للشيطان لينساق في تيار الخطية إلى أبعد مدى.

انضم يهوذا إلى التلاميذ عندما كانت تتبع المسيح جموع كثيرة ، حيث حركت تعاليم المسيح قلوبهم وذهلوا من كلامه الذي نطق به في المجمع أو على شاطئ البحر أو من فوق الجبل. وقد رأى يهوذا العرج والعمى والمرضى يتقاطرون على يسوع من القرى والمدن . رأى المحتضرين عند قدميه . ورأى قوات المخلص ومعجزاته لشفاء المرضى وإخراج الشياطين وإقامة الموتى . فأحس هو في نفسه ببرهان قوة المسيح . كما لاحظ أن تعاليم المسيح تفوق كل ما سبق أن سمعه . فأحب المعلم العظيم واشتاق إلى أن يكون [677] معه. وأحس بالرغبة في أن تتغير أخلاقه وحياته وكان يرجو أن يختبر هذا التغيير عن طريق ارتباطه بيسوع . ولم يرده المخلص ، بل أعطاه مكانا بين التلاميذ الاثني عشر ، ووكل إليه عمل المبشر وأعطاه سلطانا لشفاء المرضى وإخراج الشياطين . ولكن يهوذا لم يصل إلى حد تسليم نفسه للمسيح تسليماً كاملاً . فلم يطرد عن نفسه حب المال أو الأطماع الدنيوية . ومع أنه قبل أن يكون في مركز خادم المسيح لم يخضع نفسه للتأثيرات الإلهية ليصوغه الرب كما يريد . وقد أحس أن بإمكانه الاحتفاظ بحكمه وآرائه الخاصة ، فربى في نفسه ميلا للانتقاد والاتهام.

كفء في نظر نفسه

كانت ليهوذا مكانة مرموقة بين التلاميذ وكان له عليهم تأثير عظيم. وكان يهنئ نفسه على مواهبه

الفذة ويعتبر أخوته أدنى منه بما لا يقاس في أصالة الرأي والمواهب . وكان يفكر قائلا إنهم لا يرون الفرص السانحة المقدمة لهم ولذلك فهم لا يستفيدون منها . إن الكنيسة لا يمكنها أن تنجح أو تتقدم وفيها أمثال هؤلاء القادة القصيري النظر . إن بطرس رجل متهور ، فهو يتحرك ويعمل بدون تفكر ، أما يوحنا الذي كان يختزن في عقله وقلبه الحقائق التي كان المسيح ينطق بها فكان يهوذا يرى أنه لا يصلح لأن يكون رجلاً اقتصادياً . ومتى الذي علمته مهنته السابقة أن يكون دقيقا في كل شيء كان مدققا جداً في أمر الأمانة ، وكان دائم التفكير في أقوال المسيح وكان مشغولاً بها جدا حتى ، كما حكم عليه يهوذا ، لم يكن يوثق به للاضطلاع بعمل ناجح مستمر . وهكذا أجمل يهوذا التلاميذ كلهم ، وكان يهنئ نفسه بالقول أنه لولا خبرته في الإدارة والتدبير لوقعت الكنيسة في ورطة وارتباك مالي مرارا عديدة . فاعتبر يهوذا نفسه الشخص الكفء الذي لا يمكنه أن يخدع . ففي تقديره كان هو مفخرة عمل الرب ، وهكذا كان يصور نفسه دائما.

لكن يهوذا عمي عن ضعف خلقه. وقد أوجده المسيح في وضع خاص بحيث تكون له فرصة لأن يرى هذا الضعف ويصلحه . وكأمين صندوق للتلاميذ كان مطلوبا منه أن يدبر حاجات تلك الجماعة الصغيرة ويسد حاجات الفقراء . وعندما كان في العلية في عيد الفصح قال له يسوع: ”ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة“ (يوحنا 13 : 27)، فظن [678] التلاميذ أن السيد أمره بأن يشتري ما يحتاجون إليه للعيد أو أن يعطي شيئا للفقراء. وإذ كان يهوذا يخدم الآخرين كان ينبغي أن يربي في نفسه روحا خالية من الأثرة . ولكن فيم ا كان يصغي كل يوم إلى تعاليم المسيح ويرى حياته التي لا أثر فيها للأنانية انغمس في ميوله للطمع . والمبالغ الضئيلة التي كانت تصل إلى يده كانت تجربة دائمة له . ومرارا عندما كان يقدم للمسيح خدمة صغيرة أو يكرس بعض وقته لأغراض دينية كان يبيح لنفسه أن يأخذ جزءا من ذلك القليل الذي كان في الصندوق أجرا له . وكانت تلك الأعذار كافية في نظره لتبرير عمله ، ولكنه في نظر الله كان سارقا ولصا.

كان يهوذا يستاء عندما كان المسيح يردد هذا المبدأ مرارا وهو أن ملكوته ليس من هذا العالم. وقد رسم في ذهنه خطة كان ينتظر أن المسيح سيسير عليها . لقد قرر أنه ينبغي إطلاق سراح يوحنا المعمدان بإخراجه من سجنه . ولكن ها هو يوحنا يظل سجينا إلى أن يقطع رأسه ، وها هو يسوع بدلا من أن يثبت حقه الملكي وينتقم لموت يوحنا يذهب مع تلاميذه ليعتكفوا في موضع خلاء . أما يهوذا فكان يريد إثارة حرب أشد عدوانا . وقد فكر أنه إذا كان يسوع لا يمنع تلاميذه من تنفيذ خططهم فالعمل لا بد أن ينجح . لاحظ يهوذا عداوة قادة اليهود المتزايدة للمسيح ورأى عدم مبالاة يسوع بهم عندما تحدوه طالبين منه آية من السماء . وقد أفسح في قلبه مجالا لعدم الإيمان فأدخل العدو إلى ذلك القلب كثيرا من أفكار الشك والتمرد . فكان يتساءل مثلا قائلا: لماذا يسهب المسيح كثيرا في الكلام عن الأمور المثبطة للهمم ؟ ولماذا يتنبأ عن وقوع التجارب عليه وعلى تلاميذه ؟ إن أمل يهوذا في أن يكون له مركز سام في الملكوت الجديد ساقه إلى تأييد دعوى المسيح ، فهل تخيب آماله ؟ إن يهوذا لم يكن قد قرر بأن يسوع ليس ابن الله ولكنه كان يتساءل مرتابا ويحاول أن يجد تعليلا لمعجزاته.

محبة الذات تعمي بصيرته

وعلى الرغم من تعاليم المخلص فإن يهوذا كان دائما يروج فكرة كون المسيح سيملك على عرش داود في أورشليم. وعندما أشبع يسوع الخمسة الآلاف حاول يهوذا إتمام هذا الأمر . وفي تلك الفرصة ساعد

يهوذا في توزيع الطعام على ذلك الجمع الجائع . وكانت [679] لديه فرصة لأن يرى مقدار النفع الذي في قدرته أن يقدمه للآخرين. وأحس بالرضى والشبع الذي يجيء من خدمة الله . كذلك أعان في الإتيان بالمرضى المتألمين من بين الجمع إلى حيث كان المسيح . وقد رأى مقدار الراحة والفرح والبهجة التي تحل في قلوب البشر عن طريق قوة يسوع الشافية ، وكان يمكنه أن يدرك طرق المسيح . ولكن أغراضه الذاتية وأثرته أعمت عينيه . كان يهوذا أول من حاول الاستفادة من الحماسة التي أثارتها معجزة الأرغفة . وكان هو الذي دبر مشروع خطف يسوع وجعله ملكا . كانت له آمال عالية ، ولذلك كانت خيبته مريرة.

كان حديث المسيح عن خبز الحياة في المجمع هو نقطة التحول في تاريخ يهوذا. لقد سمع هذا القول: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم" (يوحنا 7 : 53) ورأى يهوذا أن يسوع يقدم للناس نفعاً روحياً لا زمنياً . وقد اعتبر يهوذا نفسه رجلا بعيد النظر ، وظن أنه استطاع أن يرى أن يسوع لم يكن يحظى بالكرامة ، ولذلك لا يستطيع أن يقدم لتابعيه رتبا عالية ، فعقد العزم على ألا يرتبط بالمسيح عن قرب إلا بدرجة تمكنه من التراجع ، فعزم على أن يترقب الفرص ، وقد فعل.

من ذلك الوقت بدأ يجاهر بشكوكه التي أربكت التلاميذ وحيرتهم. لقد خلق الخصومات والمشادات والمبادئ المضللة مرددا الحجج التي كان يوردها الكتبة والفريسيون ضد دعوى المسيح . فكل المتاعب والمضايقات والصلبان الكبيرة والصغيرة والصعوبات والمعطلات الظاهرة لتقدم الإنجيل - كل هذا فسره يهوذا على أنه برهان على عدم صدق الإنجيل . وكان يورد آيات كتابية لم يكن لها ارتباط بالحقائق التي كان يسوع يعلم بها وهذه الآيات عندما كانت تخرج عن سياقها والمعنى الذي قيلت لأجله كانت تحير التلاميذ وتزيد من المفشلات التي كانت تصدمهم بلا انقطاع . ومع ذلك فإن يهوذا عمل هذا كله بكيفية تظهره على أنه رجل حي الضمير . وعندما كان التلاميذ يبحثون عن برهان إثبات صدق أقوال المعلم العظيم إذا بيهوذا يقودهم دون أن يشعروا إلى طريق آخر . وهكذا فبطريقة دينية وحسب الظاهر حكيمة كان يهوذا يقدم المسائل في نور يختلف عما قدمه به المسيح . ويقرن بكلامه معنى يختلف عن المعنى الذي قصده يسوع . فكانت مقترحاته دائما تثير الطموح والرغبة في التفوق العالمي ، وهكذا كان يحول أفكار التلاميذ عن الأمور الهامة التي كانت عليهم الاهتمام بها . إن المنازعات حول من منهم يكون الأعظم [680] كانت تحدث في أغلب الأحيان بإيعاز من يهوذا.

" واحد منكم شيطان"

وعندما قدم يسوع لذلك الرئيس الغني شرط التلمذة استاء يهوذا وظن أن خطأ قد وقع .فلو أن رجالا من أمثال هذا الرئيس ينضمون إلى المؤمنين لكانوا يعضدون المسيح ويساهمون في نشر رسالة إنجيله. وقد فكر قائلا إنه لو طلب منه أن يكون ناصحا ومشيرا لكان يبتكر وسائل كثيرة لخير تلك الكنيسة الصغيرة . قد تختلف مبادئه وطرقه قليلا عن مبادئ المسيح وطرقه ، ولكنه كان يظن نفسه أحكم من المسيح في تلك الشؤون.

وفي كل ما كان يقوله المسيح لتلاميذه كان هنالك شيء يخالفه فيه يهوذا في قلبه ، فبتأثيره كانت خميرة النفور تعمل عملها. لم يكن التلاميذ يرون العامل الحقيقي في كل هذا . ولكن يسوع عرف أن الشيطان كان يطبع صفاته على قلب يهوذا ، وكان بذلك يفسح المجال له ليؤثر على باقي التلاميذ . وقد أعلن المسيح قبل تسليمه بعام قائلا: "أليس أني أنا اخترتكم، الاثني عشر؟ وواحد منكم شيطان!" (يوحنا 6 : 70).

مع ذلك فإن يهوذا لم يجاهر بالمقاومة ، كلا ولا ظهر أنه كان يشك في تعاليم المخلص ، كما لم يجاهر بالتذمر حتى جاء وقت الوليمة التي أقيمت في بيت سمعان. فعندما دهنت مريم بالطيب قدمي المخلص ظهرت أطماع يهوذا . وعندما سمع يهوذا توبيخ يسوع بدا كأن روحه قد صارت كتلة من المرارة ، فكبرياؤه الجريحة وتعطشه للانتقام نقضا السياجات ، وتحكم فيه الطمع الذي احتضنه في قلبه أمدا طويلا . وهذا سيكون اختبار كل من يصر على مداعبة الخطية والتحرش بها . إن عناصر الفساد التي لا تقاوم وتغلب تستجيب لتجارب الشيطان فيستأسر الشيطان إرادة الإنسان.

إلا أن يهوذا لم يكن قد تقسى بعد تماما. وحتى بعدما تعهد مرتين بأن يسلم المخلص كان أمامه المجال للتوبة . وعند عشاء الفصح أعلن يسوع ألوهيته بكشفه لنوايا الخائن . إنه بكل رقة شمل يهوذا في خدمته التي قام بها لأجل التلاميذ . ولكنه لم يكترث لآخر توسلات المحبة . وحينئذ تقرر مصير يهوذا ، وتانك الرجلان اللتان غسلهما يسوع خرجتا لإتمام تدبير الخيانة والتسليم. [681]

جعل يهوذا يتحاج قائلا إنه إذا كان يسوع سيصلب فلا بد من حدوث ذلك ، وعمله في تسليم المخلص لن يغير النتيجة. فإذا كان يسوع لن يموت فإن التسليم سيضطره لتخليص نفسه . وعلى كل حال فإن يهوذا سيربح شيئا بغدره وخيانته . وقد حسب أنه قد عقد صفقة رابحة بتسليمه سيده.

نوايا الخائن

ومع ذلك فإن يهوذا لم يكن يعتقد أن المسيح سيسمح للأعداء بالقبض عليه. إنه بتسليمه إياه كان يقصد أن يعلم يسوع درسا . لقد قصد أن يلعب دورا يجعل المخلص حريصا من ذلك الحين على معاملته بالاحترام الذي يستحقه . ولكن يهوذا لم يكن يعلم أنه إنما يسلم المسيح للموت . كم من مرة عندما كان المخلص يعلم بأمثال أذهلت تلك الأمثال الكتبة والفريسيين ! وكم من مرة حكموا هم على أنفسهم ! في أحيان كثرة عندما كانت قلوبهم تقتنع بالحق امتلأوا حنقا ورفعوا حجارة ليرجموه ولكنه مراراً كثيرة كان ينجو بنفسه . ففكر يهوذا قائلا: ما دام يسوع قد نجا من إشراك هذا عددها فهو بالتأكيد لن يسمح لأحد بالقبض عليه.

لذلك عزم يهوذا على إجراء تجربة. قال: إذا كان يسوع هو مسيا حقا فالشعب الذين قد عمل معهم كل هذا سيحتشدون حوله وينادون به ملكا . وهذا سيقنع نهائيا عقولا كثرة كانت تساورها الشكوك ، وسيكون ليهوذا فضل إجلاس الملك على عرش داود ، وهذا الصنيع سيضمن له أسمى مكانة بعد المسيح في الملكوت الجديد.

لقد مثل ذلك التلميذ الخائن دوره بتسليم يسوع ، فعندما قال لقادة الرعاع في البستان: “ الذي أقبله هو هو. أمسكوه” (متى 26 : 48) كان يهوذا يعتقد تماما أن المسيح سينجو من أيديهم . فإذا لاموه حينئذ كان سيجيبهم قائلا: ألم أقل لكم امسكوه بحرص ؟

رأى يهوذا القابضين على يسوع يعملون بمشورته إذ شدوا وثاقه جيداً. وبكل ذهول رأى يهوذا المخلص يستسلم لهم وهم يمضون به ، فتبعه بجزع من البستان إلى المحاكمة أمام رؤساء اليهود . وفي كل لحظة كان يهوذا ينتظر أن يسوع سيباغت أعداءه إذ يظهر أمامهم كابن الله ويحبط كل مؤامراتهم ويشل قوتهم . ولكن بعدما مرت ساعة وتلتها [682] ساعات ويسوع مستسلم للأعداء محتملا كل إهانة وقعت عليه استولى على ذلك الخائن خوف رهيب لئلا يكون قد باع معلمه للموت.

وإذ أوشكت المحاكمة على الانتهاء لم يستطع يهوذا احتمال تعذيبات ضميره المذنب أكثر من ذلك.

وفجأة رن في أرجاء تلك الدار صوت أجش ، فسرت في كل القلوب هزة رعب . وإذا بذلك الصوت يقول: إنه بريء ، فأطلق سراحه يا قيافا.

"أخطأت"

وقد رؤي يهوذا يشق لنفسه طريقا بجسمه الفارع الطول في وسط ذلك الجمع الفزع. كان شاحب الوجه وقد تجمدت على جبينه قطرات كبيرة من العرق . وإذ تقدم من كرسي القضاء طرح أمام رئيس الكهنة قطع الفضة ثمن خيانته لسيده . وإذ أمسك بثياب قيافا بكل لهفة توسل إليه أن يطلق سراح يسوع معلنا أنه لم يفعل شيئا يستحق لأجله الموت . فبكل غضب نحى قيافا يهوذا بعيدا عنه ، ولكنه كان متحيرا لا يدري ماذا يقول . ها قد فضحت خيانة الكهنة وغدرهم . لقد بات واضحا أنهم قد أعطوا رشوة لذلك التلميذ الخائن ليسلم إليهم معلمه.

ومرة أخرى قال يهوذا: " أخطأت إذ سلّمت دماً بريئاً". ولكن بعدما استعاد رئيس الكهنة رباطة جأشه أجاب يهوذا قائلا باحتقار: "ماذا علينا؟ أنت أبصر!" (متى 27 : 4). كان الكهنة يرغبون في جعل يهوذا آلة في أيديهم . ولكنهم احتقروا نذالته . فلما ارتد إليهم راجعا معترفا ركلوه وطردوه.

أما الآن فها يهوذا ينطرح عند قدمي يسوع معترفا بأنه ابن الله ومتوسلا إليه أن يخلص نفسه. ولم يوبخه المخلص على خيانته له . لقد عرف أن يهوذا لم يتب ، فلقد أجبر على ذلك الاعتراف الخارج من أعماق نفسه المجرمة بواسطة إحساسه الرهيب بالدينونة وانتظار يوم الهلاك المخيف ، ولكنه لم يكن يحس بالحزن العميق الذي يمزق القلب لكونه قد أسلم للموت ابن الله الذي بلا عيب وأنكر قدوس شعبه . ومع ذلك فإن يسوع لم ينطق بالدينونة عليه بل نظر إليه بكل إشفاق وقال: لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة.

سرت بين ذلك الجمع همهمة اندهاش. إنهم بدهشة بالغة رأوا صبر المسيح على ذلك [683] الخائن. ومرة أخرى ساد عليهم الاقتناع بأن هذا الإنسان لابد أن يكون أكثر من إنسان عادي . ولكنهم عادوا يتساءلون: ولكن إذا كان هو ابن الله فلماذا لم يحطم السلاسل والقيود وينتصر على من يزدرون به.

رأى يهوذا أن كل توسلاته قد ذهبت هباء فاندفع خارجا من تلك الدار وهو يصرخ قائلا: فات الأوان! فات الأوان ! وقد أحس أنه لا يمكنه أن يعيش ليرى يسوع معلقا على الصليب . ففي يأسه خرج وشنق نفسه.

وبعد مرور ساعات قليلة من ذلك اليوم نفسه ، وفي الطريق من دار ولاية بيلاطس إلى جلجثة إذ كان الناس الأشرار يقودون يسوع إلى مكان الصلب وهم يصيحون صيحات السخرية والاحتقار كفوا عن ذلك فجأة. فإذ عبروا من بقعة خلاء رأوا تحت شجرة يابسة جثة يهوذا . لقد كان منظرا يدعو إلى أشد الاشمئزاز . إن ثقل جسم ذلك الرجل قطع الحبل الذي كان مشنوقا به وهو مدلى من الشجرة . فإذ سقط تمزق جسمه تمزيقا مريعا ، وكانت الكلاب تنهش جثته . ففي الحال أخذوا الجثة ودفنوها بعيدا عن الأنظار . ولكن الناس قللوا من سخريتهم بعد ذلك . وقد دل شحوب وجوههم على ما كان يجول في نفوسهم من خواطر . إذ بدا وكأن الدينونة قد بدأت تتسكب على أولئك الذين كانوا مجرمين في دم يسوع. [684]

الفصل السابع والسبعون — " هوذا الإنسان! "

ها هو المسيح يقف موثق اليدين كأسير في دار ولاية بيلاطس الوالي الروماني. وحول المسيح يقف حراس من الجنود ، وها الناس يتقاطرون على الدار التي كادت تغص بالمشاهدين . وخارج الباب قضاة السنهدريم والكهنة والرؤساء والشيوخ والرعاع.

إن رجال السنهدريم بعدما حكموا بإدانة يسوع أتوا إلى بيلاطس حتى يثبت الحكم وينفذه. ولكن هؤلاء الرؤساء اليهود لم يريدوا دخول دار الولاية الرومانية . فبموجب شريعتهم الطقسية يحسبون نجسين لو دخلوا إلى دار الولاية ، وبذلك يحرمون من الاشتراك مع الشعب في الاحتفاء بعيد الفصح . إنهم في عماهم لم يروا أن عداوتهم القاتلة ليسوع قد نجست قلوبهم . ولم يروا أن المسيح هو خروف الفصح الحقيقي ، فحيث قد رفضوه فيكون العيد العظيم بالنسبة إليهم قد فقد معناه ودلالته.

وعندما أتي بالمخلص إلى دار القضاء لم ينظر إليه بيلاطس نظرة ود أو صداقة. لقد استدعى ذلك الحاكم الروماني من حجرة نومه على عجل فصمم على أن ينهي عمله بأسرع ما يمكن . كان على استعداد لأن يعامل أسيره بقسوة واستبداد . وإذ طبع على وجهه أقسى مظاهر العبوسة التفت ليرى أي نوع من الناس هذا الإنسان الذي سيفحصه حتى أنه أوقظ من نومه في مثل هذه الساعة المبكرة لكي يحكم في أمره . وقد عرف أنه لابد أن يكون واحدا ممن كان رؤساء اليهود يتوقون إلى محاكمتهم وإيقاع القصاص بهم بسرعة.

أمام الحاكم الروماني

التفت بيلاطس إلى الرجال القابضين على يسوع ثم نظر إلى أسيره نظرة فاحصة. لقد سبق له أن تعامل مع كل أنواع المجرمين ولكن لم يؤت إليه قط بإنسان كهذا ارتسمت على محياه آيات النبل والصلاح . لم ير على وجهه أي أثر ينم عن أنه آثم ، أو أي تعبير عنالخوف أو الجسارة أو التحدي بل رأى أمامه إنسانا عليه سيماء الهدوء والعظمة . فلم تكن [685] على وجهه آثار الإجرام بل كان عليه طابع السماء.

إن منظر يسوع جعل أسارير بيلاطس تنفرج ، فأوقظت طبيعته الصالحة. كان قد سمع عن يسوع وأعماله . وكانت امرأته قد أخبرته عن بعض الأعمال العجيبة التي أجراها النبي الجليلي الذي كان يشفي المرضى ويقيم الموتى . ذكر بيلاطس هذا كله كما لو كان يحلم . وذكر الإشاعات التي كان قد سمعها من مصادر مختلفة ، فعزم على أن يطلب من اليهود أن يخبروه بالتهم التي يقدمونها ضد هذا الأسير.

سألهم قائلا: من هذا الإنسان ، ولماذا أتيتم به إلى هنا ، وأية شكاية تقدمونها ضده ؟؟ فارتبك اليهود . وإذ كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون إثبات أية تهمة ضد المسيح لم يكونوا يرغبون في أن يكون الفحص علنيا . فأجابوه قائلين إنه مضل يدعى يسوع الناصري.

فسألهم بيلاطس مرة أخرى قائلا: "أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟" فلم يجبه الكهنة عن سؤاله بل أجابوه بكلام دل على شدة انفعالهم إذ قالوا: "لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلّمناه إليك!" (يوحنا 18 : 29 و 30). وكأنهم يقولون: عندما يقدم إليك رجال السنهدريم الذين هم رؤساء الأمة رجلا يعتبرونه مستحق للموت فهل هنالك ما يدعو إلى السؤال عن التهمة الموجهة إليه ؟ أرادوا بهذا أن يشعروا بيلاطس بأهمية مكانتهم ، وهذا يسوقه إلى إجابة طلبهم بدون حاجة إلى أمور تمهيدية أو أية تفاصيل . كانوا يتوقون على مصادقة بيلاطس على حكمهم لأنهم كانوا يعلمون أن الشعب الذين شاهدوا معجزات المسيح كان يمكنهم أن يسردوا قصة أخرى تختلف اختلافا بينا عن الأكاذيب التي كان أولئك الرؤساء يرددونها.

كان الكهنة يظنون أنهم أمام بيلاطس الضعيف المتقلب سيكونون قادرين على تنفيذ خططهم بدون كبير عناء. لقد سبق لبيلاطس أن وقع على حكم الموت بسرعة إذ أدان رجالا كانوا هم أعلم الناس بأنهم لا يستحقون الموت ، إذ كانت حياة أي أسير قليلة الأهمية في تقديره ، وسواء أكان بريئا أو مذنبا فذلك لم يكن أمرا بالغ الخطورة . كان الكهنة يؤملون أن بيلاطس سيقضي بالموت على يسوع بدون أن يعطيه فرصة للدفاع عن نفسه .هذه هي المنة التي طلبوها من بيلاطس بمناسبة حلول عيدهم القومي العظيم. [686]

تأخير حكم الموت

ولكن بيلاطس رأى في هذا الأسير شيئا منعه من التهور فلم يجرؤ على عمل ذلك .لقد عرف نوايا الكهنة ، وذكر كيف أن يسوع منذ أيام قليلة أقام لعازر الرجل الذي ظل مدفونا في قبره أربعة أيام. ولذلك عزم على ألا يلقي عليه حكما بالإدانة قبلما يعرف ما هي التهم الموجهة ضده ، وما إذا كان يمكن إقامة الدليل على صدقها.

فقال لهم: إذا كان حكمكم كافيا فلماذا جئتموني بهذا الأسير ؟ " خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم" (يوحنا 18: 31). فإذ أحرجهم بيلاطس أجابوه قائلين إنهم قد حكموا عليه ولكن لا بد من أن ينطق هو بحكمه ليكون حكمهم شرعيا . فسألهم بيلاطس: وبماذا حكمتم ؟ فأجابوه قائلين: حكمنا عليه بالموت ، ولكن لا يجوز لنا أن نقتل أحدا . التمسوا من بيلاطس أن يصدق قولهم بأن المسيح مجرم فينفذ حكمهم وهم يتحملون مسؤولية ذلك .لم يكن بيلاطس قاضيا عادلا أو رجلا حي الضمير . ولكن مع ضعف خلقه الأدبي فقد رفض إجابة هذا الطلب . إنه لا يقضي بالموت على يسوع حتى تثبت عليه تهمة.

وهنا وقع الكهنة في ورطة. لقد رأوا أنه ينبغي لهم إخفاء ريائهم تحت أسمك قناع .ينبغي ألا يسمحوا بإذاعة حقيقة كون المسيح قد قبض عليه لأسباب دينية . فلو قدم هذا كعلة للإدانة فلن يكون لإجراءاتهم أي وزن في نظر بيلاطس . ينبغي لهم أن يصوروا يسوع على أنه يعمل ضد القانون العام ، وفي هذه الحالة يمكن إدانته على إنه مجرم سياسي . كانت الفتن والثورات تقوم بين اليهود ضد الحكم الروماني بلا انقطاع . وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بكل صرامة و قسوة ، وكانوا أبدا يقظين ليقضوا على كل ما من شأنه أن يؤدي إلى قيام الثورات.

قبل هذا بأيام قليلة فقط حاول الفريسيون أن يوقعوا المسيح في الفخ إذ سألوه قائلين: " أيجوز لنا أن تعطي جزية لقيصر أم لا؟" ولكن المسيح كشف الستار عن نفاقهم. والرومان الذين كانوا حاضرين حينئذ رأوا خيبة أولئك المتآمرين وهزيمتهم المنكرة عندما أجابهم المسيح بقوله: "أعطوا إذاً ما للقيصر للقيصر وما لله لله" (لوقا 20 : 22 و 25).

فالآن ها هم الكهنة يظنون أنهم في تلك الحادثة يستطيعون أن يجعلوا الناس يصدقون أن [687]

المسيح علم بما أرادوه هم أن يعلم به. ففي كربهم الشديد طلبوا من بعض شهود الزور أن يشهدوا ضده قائلين: "وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تعطى جزية للقيصر، قائلاً: "إنه هو مسيح ملك" (لوقا 23 : 3). هذه ثلاث تهم لا أساس لها من الصحة . لقد عرف الكهنة هذا ولكنهم كانوا مستعدين لأن يشهدوا زورا للوصول إلى غرضهم.

أدرك بيلاطس غرضهم فلم يصدق إن هذا الأسير تآمر ضد الحكومة. إن منظره الدال على الوداعة والطهارة لا يمكن أن يتفق مع تلك التهمة بأي حال ، وكان بيلاطس مقتنعا بأن هنالك مؤامرة هائلة لإهلاك إنسان بريء اعترض طريق أولئك الرؤساء . فالتفت إلى يسوع وسأله قائلاً: "أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: "أنت تقول" (لوقا 23 : 3)، وغإذا بشعاع براق يندفع من محياه فيضيء مثل نور الشمس.

سلام وسط هياج الأمواج

عندما سمعوا هذا الجواب أشهد قيافا ومن معه بيلاطس على أن يسوع اعترف بصدق التهمة التي وجهوها إليه. فجعل الكهنة والكتبة والرؤساء يصرخون صرخات عالية طالبين منه الحكم على يسوع بالموت . ولقد ردد الرعاع تلك الصرخات وكان صوت الجلبة يصم الآذان ، فتحير بيلاطس . وإذ رأى أن يسوع لا يدفع تلك التهم عن نفسه قال له: "أما تجيب بشيء؟ أنظر كم يشهدون عليك! فلم يجب يسوع أيضاً بشيء" (مرقس 15 : 4 و 5).

فإذ كان يسوع واقفا خلف بيلاطس وهو يرى كل من في الدار سمع كل الشتائم ، ولكنه لم يجب بكلمة على كل تلك التهم . كانت هيئته تبرهن على إحساسه ببراءته . وقف ثابتا أمام هياج الأمواج التي كانت تصطخب من حوله . وقد بدا وكأن أمواج الغضب التي كانت تعلو وترتفع كأمواج المحيط الصاخبة جعلت تهدر من حوله ولكنها لم تمسه . وقف صامتا ولكن صمته كان أبلغ من كل كلام . كان كنور يشع من إنسانه الداخل إلى إنسانه الخارج.

أدهشت طلعته بيلاطس فجعل يسائل قائلا: هل هذا الرجل لا يكترث لهذه الإجراءات لأنه لا يهتم بإنقاذ حياته ؟ وإذ نظر إلى يسوع وهو يتحمل الإهانات والسخرية دون أن يفكر في الثأر لنفسه أحس بأنه لا يمكن أن يكون إنسانا آثما أو ظالما كما كان الكهنة الصاخبون . [688] فإذ كان يرجو أن يعلم الحقيقة منه ويتخلص من صخب الشعب أخذ بيلاطس يسوع جانبا وسأله ثانية: "أنت ملك اليهود؟".

فلم يجبه يسوع مباشرة . لقد عرف أن الروح القدس كان يجاهد مع بيلاطس فأعطاه فرصة للاعتراف بما يعتقده . فقال له: "أمن ذاتك تقول هذا، أم آخرون قالوا لك عني؟" أي- هل هذه هي اتهامات الكهنة ، أم أن الرغبة في الحصول على النور مني هي التي ألهمتك بهذا السؤال ؟ فهم بيلاطس مرمى كلام المسيح ، ولكن الكبرياء قفزت إلى قلبه فلم يرد أن يعترف بالاقتناع الذي كان يلح عليه فقال: "ألعلي أنا يهودي؟ أمتّك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ. ماذا فعلت؟" (يوحنا 18 : 35).

ضاعت فرصة بيلاطس الذهبية . إلا أن يسوع لم يتركه دون أن يعطيه مزيدا من النور . ففي حين أنه لم يقدم جوابا مباشرا صريحا على سؤال بيلاطس فقد أوضح له رسالته ، وأفهم بيلاطس أنه لم يكن يطلب عرشا أرضيا.

قال له: "مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أسلّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا. فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول: إني ملك. لهذا قد ولدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع

صوتي" (يوحنا 18 : 36 و 37).

أكد المسيح أن كلمته هي في ذاتها مفتاح يفتح ويكشف السر لمن هم مستعدون لقبولها ، إذ فيها تكمن القوة الداعية لها ، وهذا هو سر انتشار ملكوت الحق . كان يطلب من بيلاطس أن يدرك أنه بواسطة قبول الحق وامتلاكه يمكن أن تتجدد الطبيعة الهالكة لا بأية وسيلة أخرى.

"لست أجد فيه علّة واحدة"

كانت لدى بيلاطس رغبة في معرفة الحق ومن عقله كان مرتبكا . إنه بكل شوق فهم أقوال المخلص ، واستيقظ في نفسه شوق عظيم لمعرفة ما هو الحق وكيف يمكن الحصول عليه . فسأله قائلا: "ما هو الحق؟" إلا أنه لم ينتظر جوابا . إن الصخب والشغب في الخارج ذكره بمشكلة الساعة ، لأن الكهنة كانوا يلحون في طلب عمل حاسم سريع . فإذ [689] خرج إلى اليهود أعلن قائلا بكل تشديد: "أنا لست أجد فيه علّة واحدة" (يوحنا 18 : 38).

إن هذا الكلام الذي نطق به هذا القاضي الوثني كان تعنيفا قاسيا لغدر رؤساء إسرائيل وكذبهم إذ كانوا يشتكون على المخلص . فإذ سمع الكهنة والشيوخ هذا الكلام من فم بيلاطس أحسوا بخيبة آمالهم وأطلقوا لهياجهم وغضبهم العنان . لقد ظلوا طويلا يتآمرون في انتظار هذه الفرصة . فإذ رأوا أن هناك أملا في إطلاق سراح يسوع بدا وكأنهم يريدون أن يمزقوه إربا . فجعلوا يشهرون ببيلاطس بأصوات عالية ، ويتهددونه بالطعن فيه لدى السلطات الرومانية ، واتهموه بأنه لا يريد أن يقضي بالموت على يسوع الذي كانوا يؤكدون أنه ثائر على القيصر.

كانت تسمع صيحات غاضبة تعلن أن تأثير التمرد الذي ينشره يسوع معروف جيدا في كل مكان في البلاد ، وقال الكهنة: "إنه يهيّج الشعب وهو يعلّم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا" (لوقا 23 : 5) لم يكن بيلاطس يفكر في ذلك الوقت في إدانة المسيح ، حيث علم أن اليهود كانوا يشتكون ضده مدفوعين بدافع الكراهية والتعصب ، وقد عرف واجبه . إن العدل يتطلب إطلاق سراح يسوع في الحال ، ولكن بيلاطس كان يخشى نوايا الشعب الشريرة . فلو رفض تسليم يسوع إلى أيديهم فلا بد من حدوث شغب ، وكان هو يخاف من مواجهة الشعب الغاضب الثائر . فحين علم أن يسوع جليلي عزم على إرساله إلى هيرودس حاكم الجليل الذي كان في أورشليم في تلك الأيام . إذ بهذا الإجراء حاول بيلاطس أن يلقي عن نفسه مسؤولية الحكم على يسوع إلى هيرودس ، كما كان بهذا يحاول أن يقضي على العداوة والخصومة القديمة التي كانت بينه وبين هيرودس . وقد تم له ما أراد فصار ذانك الحاكمان المتخاصمان صديقين بسبب محاكمة المخلص.

هيرودس يفحص يسوع

سلم بيلاطس يسوع ثانية إلى أيدي الجند . وفي وسط تهكم الرعاع وسخريتهم أسرعوا به إلى قصر هيرودس . "وأما هيرودوس فلما رأى يسوع فرح جداً" (لوقا 23 : 8). لم يسبق له أن رأى المخلص . ولكنه "كان يريد من زمان طويل أن يراه، لسماعه عنه أشياء كثيرة، وترجّى أن يرى آية تصنع منه" (لوقا 23 : 8). كان هيرودس هذا هو الرجل الذي [690] لطخ يديه بدم يوحنا المعمدان . إنه عندما سمع

عن يسوع أول مرة تملكه الفزع وقال: "هذا هو يوحنا الذي قطعت أنا رأسه. إنه قام من الأموات! "، "ولذلك تعمل به القوات" (مرقس 6 : 16 ؛ متى 14 : 2). ومع ذلك فقد تاق هيرودس لرؤية يسوع . والآن ها الفرصة مواتية لإنقاذ حياة هذا النبي . تمنى الملك أن يبعد عن عقله إلى الأبد منظر ذلك الرأس الذي قد أتى به إليه على طبق ، كما أراد إشباع فضوله ، ففكر قائلا إنه إذا قدم ليسوع أي أمل في إطلاق سراحه فهو بكل سرور سيفعل كل ما يطلب منه.

وقد تبع يسوع إلى قصر هيرودس جمع كبير من الكهنة والشيوخ . وعندما أدخل المخلص أمام الملك بدأ هؤلاء الأحبار بتقديم شكاياتهم ضده باهتياج شديد . ولكن هيرودس لم يبد اهتماما كبيرا بتلك التهم . فأمر الجميع أن يصمتوا لتكون لديه فرصة فيها يستجوب المسيح . وأمر بأن يحل المسيح من وثاقه . وفي نفس الوقت اتهم أعداءه بالقسوة في معاملته . وإذ نظر برفق إلى وجه فادي العالم الوقور رأى مرتسما عليه سيماء الحكمة والطهارة . وعلم كما علم بيلاطس من قبل أن المسيح قد أشتكي عليه بدافع من الخبث والحسد.

سأل هيرودس المسيح بكلام كثير ولكن المخلص ظل ملتزما جانب الصمت طول الوقت . وبناء على أمر الملك أدخل العرج والمقعدون ، ثم أمر المسيح أن يبرهن على صدق ادعاءاته بإجراء معجزة . قال له هيرودس: الناس يقولون عنك إنك تستطيع أن تشفي المرضى ، وأنا أتوق لأن أرى أن شهرتك التي طبقت الآفاق ليست أمرا مكذوبا أو مبالغا فيه . ولم يستجب يسوع لطلب هيرودس . وظل هيرودس يلاحقه بطلباته وإلحاحه فقال له: إن كنت تستطيع أن تصنع المعجزات لأجل خير الآخرين فاصنعها الآن لأجل خيرك أنت وهذا سيكون في مصلحتك . ومرة أخرى أمره قائلا: أرنا آية تبرهن على إنك تملك القوة التي بها صنعت المعجزات العظيمة المنسوبة إليك . ولكن المسيح كان كمن لا يسمع ولا يرى . لقد اتخذ ابن الله طبيعة الإنسان فينبغي أن يعمل كما يجب على الإنسان أن يعمل في مثل تلك الظروف . ولذلك ينبغي ألا يصنع معجزة لينقذ نفسه من الآلام والإذلال الذي ينبغي أن يتحمله الإنسان عندما يوضع في مثل ذلك الموقف. [691]

بصمته يذل كبرياء الملك

وقد وعد هيرودس المسيح أنه إذا صنع أمامه معجزة فسيطلق سراحه . لقد رأى المشتكون على يسوع بعيونهم العجائب التي صنعها بقوته ، وسمعوه وهو يأمر القبر أن يسلم الموتى الذين فيه ، كما رأوا الموتى يخرجون إطاعة لصوته . وأخشى ما كانوا يخشونه الآن هو أن يصنع معجزة يظهر بها قدرته ، لأن في إظهار قوته القضاء على كل خططهم وقد يكلفهم حياتهم . ومرة أخرى قدم الكهنة والرؤساء شكاياتهم في جزع شديد ، ثم رفعوا أصواتهم قائلين عن يسوع إنه خائن ومجدف وإنه يصنع معجزاته بقوة بعلزبول رئيس الشياطين . لقد صارت تلك القاعة مسرحا للارتباك والتشويش ، فالبعض كانوا يصرخون بشيء وغيرهم بشيء آخر.

كان ضمير هيرودس الآن أقل حساسية مما كان عندما اهتز رعبا حين طلبت هيروديا رأس يوحنا المعمدان . لقد ظل وقتا يحس بوخزات الندم الأليمة على عمله المريع ، ولكن أحاسيسه الأدبية ازدادت انحطاطا بسبب حياة الخلاعة التي عاشها . أما الآن فقد تقسى قلبه إلى حد أن صار يفتخر بالقصاص الذي أوقعه على يوحنا لأنه تجرأ على توبيخه . وها هو الآن يهدد يسوع إذ أعلن مرارا أن له سلطانا أن يطلقه وسلطانا أن يحكم عليه . ولكن لم يبد على يسوع أنه قد سمع شيئا.

أثار هذا الصمت ثائرة هيرودس ، إذ دل صمته على عدم اكتراثه لسلطانه . إن تجاهله لهذا الملك المختال الفخور سيكون أشد إيلاما له من مجرد توبيخه . ومرة أخرى هدد يسوع بغضب ، ولكنه ظل صامتا وثابتا.

إن رسالة المسيح إلى هذا العالم لم تكن لمجرد إشباع الفضول العاطل . لقد أتى لكي يشفي المنكسري القلوب ، فلو كان هنالك مجال لأن يتكلم كلاما يكون من نتائجه شفاء النفوس المريضة التي جرحتها الخطية لما ظل صامتا . ولكن لم يكن لديه ما يقوله لأولئك الذين يدوسون الحق تحت أقدامهم النجسة .

كان المسيح يستطيع أن يكلم هيرودس كلاما يخترق مسمع ذلك الملك القاسي ، وكان يمكنه أن يصعقه بالخوف والرعب إذ يكشف أمام عينيه كل خطاياه التي ارتكبها في مدى حياته وهول دينونته القادمة . ولكن صمت المسيح كان أقسى توبيخ يمكن أن يوجهه [692] إليه . لقد رفض هيرودس الحق الذي قدمه إليه أعظم الأنبياء . ولذلك فلن تقدم إليه رسالة أخرى. لم يكن لدى جلال السماء ما يقوله له . إن تلك الأذن التي كانت أبدا مفتوحة لسماع كل شيء عن ويلات البشر وبلاياهم لم يكن لديها مجال لسماع أوامر هيرودس . وتانك العينان اللتان كانتا دائما تستقران على الخاطئ في محبة مشفقة غافرة لم تلتفتا إلى هيرودس . وتانك الشفتان اللتان كانتا تنطقان بأقوى حق مؤثر واللتان جعلتا تنذران الخطاة المنحطين في توسل رقيق كانتا مطبقتين أمام الملك المتكبر الذي لم يكن يحس بحاجته إلى مخلص.

اكمد وجه هيرودس من فرط الغضب ، وإذ التفت إلى الجمع الواقف أمامه أعلن أن يسوع إنسان محتال دجال . وبعد ذلك قال ليسوع إذا لم تقدم برهانا على صدق دعواك فسأسلمك إلى العسكر والشعب فقد يفلحون في حملك على الكلام . فإن كنت محتالاً فإنك لا تستحق غير الموت بأيديهم . أما إن كنت ابن الله فخلص نفسك بعمل معجزة.

هيرودس يتبكت

ما أن نطق هيرودس بهذا الكلام حتى هجم الناس على المسيح . لقد هجم ذلك الشعب على يسوع كما تهجم الوحوش الضارية على الفريسة . فجعلوا يسحبونه هنا وهناك ، وقد شارك هيرودس جمهور الرعاع في إذلال ابن الله ، ولولا تدخل جنود الرومان وإرغامهم ذلك الشعب المخبول على التراجع لتمزق جسد المخلص إربا.

"فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به، وأبسه لباساً لامعاً" (لوقا 23 : 11). وقد اشترك جند الرومان في تلك الإهانات . إن كل ما استطاع أولئك الجنود الأشرار الفاسدون أن يبتكروه من إهانات بمساعدة هيرودس وأحبار اليهود انصب على المخلص ، ولكن صبره الإلهي لم يخذله.

حاول مضطهدو المسيح أن يقيسوا أخلاقه على أخلاقهم . لقد صوروه على إنه في مثل سفالتهم . ولكن خلف كل ذلك المظهر الحاضر ظهر منظر آخر- منظر سيرونه في ملء مجده يوما ما . كان يوجد بعض من ارتعبوا في حضرة المسيح ، فعندما كان ذلك الجمع السمج يجثون أمامه في سخرية تراجع بعض من تقدموا ليسخروا به وهم خائفون صامتون ، [693] وقد تبكت هيرودس . لقد كانت آخر أشعة نور رحمة الله تسطع على قلبه الذي تقسى بالخطية ، وأحس بأن هذا الأسير لا يمكن أن يكون إنسانا عاديا لأن ألوهيته أشرقت من خلال بشريته ، ففي نفس الوقت الذي كان المسيح فيه محاطا بالهازئين والزناة والقتلة أحس هيرودس بأنه يرى أمامه إلها متربعا على عرشه.

ومع أن هيرودس كان رجلا قاسيا فإنه لم يجرؤ على المصادقة على إدانة المسيح ، فقد كان يرغب

في إخلاء نفسه من المسؤولية الرهيبة فأعاد يسوع إلى دار القضاء الروماني.

أحس بيلاطس بالخيبة واغتم كثيرا . فلما عاد إليه اليهود بأسيرهم سألهم بضجر عما يريدونه أن يفعل . فجعل يذكرهم بأنه كان قد فحص يسوع ولم يجد فيه علة ، وأخبرهم بأنهم قد قدموا شكاوى ضده ولكنهم لم يستطيعوا إثبات تهمة واحدة ضده ، وقد أرسل يسوع إلى هيرودس حاكم الجليل وأحد بني أمتهم ولكنه هو أيضا لم يجد فيه علة تستوجب الموت .ثم قال لهم: ”فأنا أؤدبه وأطلقه“ (لوقا 23 : 16).

وهنا برهن بيلاطس على ضعفه . لقد أعلن أن يسوع بريء ولكنه أراد أن يجلده لكي يهدئ ثائرة المشتكين عليه . لقد آثر أن يضحي بالعدالة والمبادئ القويمة لكي يتواطأ مع أولئك الرعاع . هذا التصرف أوقفه في مركز حرج ، فقد ثار ذلك الجمع عليه بسبب تردده وازدادوا صراخا مطالبين بموت الأسير . فلو وقف بيلاطس ثابتا من البداية ورفض إدانة ذلك الإنسان الذي لم يجد فيه ذنبا ولا علة لكان قد حطم الأغلال المميتة التي كان سيوثق بها مكبلا بالإثم والندامة مدى حياته . لو نفذ اقتناعه بالصواب لما تجرأ اليهود على إملاء إرادتهم عليه . كان المسيح سيموت ولكن الجرم ما كان ليستقر على رأس بيلاطس . ولكن بيلاطس انحدر شيئا فشيئا في طريق مخالفة ضميره . لقد اعتذر لنفسه عن الحكم بالعدل والإنصاف ، وها هو الآن يكاد يكون عاجزا تماما بين أيدي الكهنة والرؤساء . إن تقلقله وتردده أفضيا إلى هلاكه .

آلام في حلم

ولكن حتى الآن لم يترك بيلاطس ليتصرف في غير تبصر . لقد جاءته رسالة من الله تحذره من ارتكاب الجريمة التي كان قادما على ارتكابها . فإجابة لصلاة المسيح افتقد ملاك [694] من السماء امرأة بيلاطس فرأت المخلص في الحلم وتحدثت معه . لم تكن تلك السيدة يهودية ، ولكن فيما كانت تنظر إلى يسوع في الحلم لم يكن عندها أي شك في صفاته أو رسالته . عرفته بأنه ابن الله . ورأته يحاكم في دار القضاء وهو موثق اليدين كما لو كان مجرما . ورأت هيرودس وعساكره يهزأون به ويسخرون منه سخرية لاذعة ورهيبة .وسمعت الكهنة والرؤساء المملوئين خبثا وحسدا وهم يشتكون عليه بغضب جنوني . وسمعتهم يقولون: ”لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت“ (يوحنا 18 : 7). ورأت بيلاطس يسلم يسوع ليجلد بعدما أعلن قائلا: ”أني لست أجد فيه علّة“. وسمعت بيلاطس ينطق بالحكم عليه ورأته وهو يسلم المسيح لقاتليه . ورأت الصليب مرفوعا فوق جبل جلجثة . ورأت الأرض متشحة بالمسوح والظلام ، وسمعت تلك الصرخة الخفية: ”قد أكمل“ (يوحنا 19 : 30). وبعد ذلك رأت مشهدا آخر . رأت المسيح جالسا على سحابة عظيمة بيضاء بينما كانت الأرض تسبح في الفضاء ، ورأت قاتليه يهربون من بهاء مجده فصرخت صرخة فزع ثم استيقظت وفي الحال أرسلت إلى بيلاطس رسالة إنذار.

ففيما كان بيلاطس مترددا فيما كان ينبغي أن يفعل تقدم رسول وشق لنفسه طريقا في وسط ذلك الجمع وسلم لبيلاطس رسالة من امرأته تقول فيها: ”إياك وذلك البار، لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله“ (متى 27 : 9).

يفضلون عليه لصا قاتلا

شحب وجه بيلاطس إذ كان متحيرا بسبب العوامل التي كانت تتصارع في نفسه .ولكن فيما كان هو

يتلكأ في عمله كان الكهنة والرؤساء دائبين في إضرام نار التعصب ضد المسيح في عقول الشعب . فاضطر بيلاطس إلى أن يعمل . فكر في عادة اصطلحوا عليها قد يكون فيها إطلاق سراح المسيح ، ذلك أنه كانت هنالك عادة مألوفة تقضي بإطلاق سراح أحد الأسرى الذي يختاره الشعب في ذلك العيد . كانت تلك العادة عادة وثنية ، ولم يكن فيها أي أثر من آثار العدل ، ولكن اليهود كانوا يقدرونها تقديرا عظيما . وكان يوجد في ذلك الحين أسير لدى السلطات الرومانية يدعى باراباس ، كان محكوما عليه بالموت . ادعى هذا الرجل أنه هو مسيا ، كما ادعى أن له السلطان على أن يغير [695] الأنظمة وأن يصلح الأوضاع المقلوبة في العالم . وإذ خدعه الشيطان ادعى أن كل ما يمكنه الاستيلاء عليه بالسرقة أو بالسلب هو من حقه . وقد عمل أعمالا عجيبة بقوة الشيطان وتبعه بعض الشعب ، مما أثار فتنة ضد الحكومة الرومانية . وتحت ستار الحماية الدينية صار وغدا قاسيا متهورا مصرا على التمرد والقسوة . فإذ أعطى بيلاطس الشعب حق الاختيار بين هذا الرجل وبين المخلص البريء ظن أنه سيحمسهم لأن يلزموا جانب العدل . وكان يرجو أنه سيظفر بعطفهم على يسوع ضد الكهنة والرؤساء . وهكذا إذ التفت إلى الجمع سألهم باهتمام عظيم قائلا: "من تريدون أن أطلق لكم؟ باراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح؟" (متى 27 : 17).

فجاء جوابهم كزئير الوحوش الضارية قائلا: "أطلق لنا باراباس!" (لوقا 23 : 18) وقد زاد صراخهم وارتفع عاليا وهم يقولون: باراباس ! باراباس ! وإذ ظن أن الشعب لم يفهموا سؤاله عاد يسألهم: "أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟" (مرقس 15 : 9)، فصرخوا ثانية قائلين: "خذ هذا واطلق لنا باراباس!" (لوقا 23 : 18). فسألهم بيلاطس قائلاً: "فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح؟" (متى 27 : 23)، ومرة أخرى ارتفع زئير تلك الجموع كما لو كانوا شياطين . إن الشياطين أنفسهم اندسوا بين الناس في هيئة بشر ، وما الذي كان ينتظر منهم إلا أن يصرخوا بصوت واحد قائلين: "ليصلب!" (متى 27 : 23).

اضطرب بيلاطس ، إذ لم يكن في حسبانه أن الأمر سيصل إلى تلك الدرجة من الخطورة . لقد ارتعب من فكرة تسليم إنسان بريء ليلاقي أقسى ميتة مهينة ومشينة يمكن إيقاعها بإنسان . فلما هدأ زئير تلك الصرخات التفت إلى الشعب قائلا: "وأي شر عمل؟" (مرقس 15 : 14). ولكن الأمر كان قد تفاقم وزاد في خطورته بحيث لم تعد تجدي فيه الحجة . إنهم لم يكونوا يريدون معرفة البراهين على براءة المسيح بل كانوا يطلبون إدانته.

لكن بيلاطس ظل يحاول إطلاق المسيح وإنقاذه من الموت: "فقال لهم ثالثة: فأي شر عمل هذا؟ إني لم أجد فيه علّة للموت، فأنا أؤدبه وأطلقه" (لوقا 23 : 22). ولكن مجرد ذكر كلمة إطلاقه أثار الشعب وزاد في هياجهم عشرة أضعاف فصرخوا قائلين: اصلبه ، اصلبه ! وقد زاد اشتداد تلك العاصفة وتفاقم هياج الشعب بسبب تردد بيلاطس.

أُخذ يسوع وهو خائر ومعي ، وقد غطت الجروح جسمه ثم جلد على مرأى من تلك [696] الجموع: "فمضى به العسكر إلى داخل الدّار، التي هي دار الولاية، وجمعوا كل الكتيبة. وألبسوه أرجواناً، وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه عليه، وابتدأوا يسلّمون عليه قائلين: السلام يا ملك اليهود! ... ويبصقون عليه، ثم يسجدون له جاثين على ركبهم" (مرقس 15 : 16 — 19). وأحيانا كانت تمتد يد آثمة وتختطف القصبة التي كانت قد وضعت في يده وتضربه على رأسه المكلل بإكليل الشوك فكان الشوك ينغرز في جبينه فكانت قطرات الدم تنزل على وجهه ولحيته .

الظالم والمظلوم

ابهتي أيتها السماوات وتحيري واقشعري أيتها الأرض . ها هم الظالمون وها هو المظلوم . هاهم جماعة من المعتوهين المجانين يحيطون بمخلص العالم ، وها هي السخرية والتهكم تتخللها الأقسام السمجة والتجاديف . وها هم الرعاع العديمو الشعور ينتقدون ميلاد المسيح الوضيع وحياة التواضع التي عاشها . وها هم يستهزئون بدعواه بأنه ابن الله ، وهاهي الأفواه تتناقل النكات السمجة والتهكم اللاذع المهين !!

إن الشيطان هو الذي قاد أولئك الرعاع إلى إهانة المخلص . لقد كان غرضه أن يغيظه لينتقم إذا أمكن ، أو يدفعه إلى عمل معجزة ليطلق نفسه حرا ، وهكذا ينهار تدبير الخلاص ويتحطم . فأقل لطخة على حياته البشرية ، وإخفاق بشريته ، ولو مرة واحدة في احتمال المحنة الرهيبة كان ذلك كفيلا بأن يجعل حمل الله ذبيحة ناقصة ، وهكذا يخفق المسيح في فداء بني الإنسان . ولكن ذاك الذي كان يستطيع بأمره أن يجيء بالأجناد السماويين لمعونته ، الذي كان يستطيع أن يطرد أولئك الرعاع فيفرون هاربين مرتعبين من منظره عندما يرهبهم بنور جلال ألوهيته ، استسلم بهدوء كامل للإهانات والاعتداءات السمجة.

لقد طلب أعداء المسيح منه آية لإثبات ألوهيته ، ولكن كان أمامهم برهان أعظم بكثير من كل ما طلبوه . فكما أن القسوة جعلت معذبي يسوع ينحطون إلى أحط من درجة الإنسانية فصاروا كالشياطين ، كذلك وداعة يسوع وصبره رفعا مقامه فوق بني الإنسان ، وبرهنا على صلته بالله . إن اتضاعه كان ضمانا لرفعته وتمجيده . وإن قطرات الدماء التي نزلت من صدغيه إلى وجهه ولحيته كانت ضمانا لتطييبه "بزيت الابتهاج" (عبرانيين 1 : 9) كرئيس كهنتنا العظيم. [697]

اهتاج الشيطان وغضب جدا حين رأى أن كل الإهانات التي انهالت على المخلص لم تستطع أن تجعله ينطق بكلمة تذمر واحد . فمع أنه اتخذ طبيعة الإنسان فقد أسندته قوة الجلد والاحتمال الإلهي ، ولم يمل عن إرادة أبيه في صغيرة أو كبيرة.

إن بيلاطس عندما أسلم يسوع للجلد والسخرية كان يظن إنه بذلك يثير عطف الشعب عليه ، وكان يرجو أنهم سيعتبرون ذلك قصاصا كافيا . وكان يظن أيضا أنه حتى الكهنة الحاقدون سيقنعون بذلك . ولكن أولئك اليهود رأوا بذكائهم الحاد ضعف بيلاطس في تأديبه لإنسان أعلن هو مرارا أنه بريء . وقد رأوا أن بيلاطس يبذل جهوده لإنقاذ حياة الأسير فصمموا على عدم إطلاق يسوع . وقد جعلوا يفكرون قائلين: إن بيلاطس أمر بجلد يسوع لكي يرضينا ، فإذا كنا نمضي بإصرارنا حتى نصل إلى نتيجة حاسمة فسنبلغ مأربنا.

أما بيلاطس فقد أرسل الآن يطلب الإتيان بباراباس إلى دار القضاء . فلما جيء به أوقف ذينك الأسيرين جنبا إلى جنب . وإذ أشار إلى المخلص قال بصوت التوسل المهيب: "هوذا الإنسان! "، "ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علّة واحدة" (يوحنا 18 : 5 و 4).

هناك وقف ابن الله وعليه ثوب السخرية وإكليل الشوك . وإذ كان معرى إلى الحقوين بانت على ظهره آثار الجلدات الطويلة القاسية التي جرى الدم منها غزيرا . وكان وجهه ملطخا بالدم ، وبدت عليه آثار الإرهاق والألم الشديد . ولكنه كان حينئذ أجمل مما كان في أي وقت مضى . لم يكن منظر المخلص مفسدا أمام أعدائه ، وقد عبرت كل تقاسيم وجهه عن الرقة والتسليم وأرق الحنان نحو أعدائه القساة . لم يبد عليه الجبن أو الضعف بل قوة وعظمة الاحتمال وطول الأناة . كان الفرق عظيما بينه وبين الأسير الواقف إلى جواره فكل تقاطيع وجه باراباس دلت على أنه وغد قاس ، وقد ظهر الفرق واضحا لدى كل المشاهدين . كان بعض أولئك الناس يبكون . فإذ نظروا إلى يسوع فاضت قلوبهم بالعطف عليه . وحتى الكهنة والرؤساء اقتنعوا بصدق دعواه.

لم يكن كل الجنود الرومان المحدقين النظر إلى المسيح قساة ، فقد كان بعضهم ينظرون إليه بكل اهتمام ليروا دليلا واحدا ينبئ عن كونه مجدفا أو شخصا خطرا . ومن وقت إلى آخر كانوا ينظرون إلى

باراباس نظرات الازدراء . ولم تكن هنالك حاجة إلى [698] فراسة عميقة لمعرفة خبايا أخلاقه . ثم بعد ذلك كانوا يلتفتون إلى ذاك الواقف ليحاكم ، وقد نظروا إلى ذلك المتألم الإلهي بإشفاق عميق . إن استسلام المسيح الصامت طبع على أذهانهم منظرا لن يمحى ، إما إلى أن يعترفوا بأنه هو مسيا ، أو إلى أن يختموا على مصيرهم برفضهم إياه.

امتلأ بيلاطس دهشة من صبر المخلص في غير تذمر أو شكوى . ولم يكن يشك في أن منظر هذا الإنسان الذي يختلف اختلافا بينا عن منظر باراباس سيحرك اليهود بالعطف على يسوع . ولكنه لم يكن يفهم مقدار الكراهية والتعصب المرير الذي كان يضمره الكهنة للمسيح الذي لكونه نور العالم فقد كشف عن ظلمتهم وشرهم . لقد أهاجوا الرعاع ليثوروا عليه ثورة جنونية . ومرة أخرى صرخ الكهنة والرؤساء والشعب تلك الصرخة المخيفة قائلين: "اصلبه! اصلبه! ". أخيرا إذ نفذ صبر بيلاطس أمام قسوتهم غير المعقولة صاح قائلاً: "خذوا أنتم واصلبوه، لأني لست أحد فيه علّة" (يوحنا 19 : 6).

إن هذا الحاكم الروماني مع إنه كان معتادا رؤية مناظر القسوة فقد تحرك قلبه بالعطف على ذلك الأسير المتألم الذي مع إنه حكم عليه وجلد وكان دامي الجبهة وممزق الظهر ، فقد كانت هيئته لم تزل هيئة ملك على عرشه . ولكن الكهنة أعلنوا قائلين: "لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابن الله" (يوحنا 19 : 7).

يرى فيه شخصا إلهيا

فزع بيلاطس . فهو لم تكن لديه فكرة صحيحة عن المسيح ورسالته ، ولكنه كان يؤمن إيمانا مبهما بالله وبخلائق أسمى من بني الإنسان . وإن فكرة كانت قد مرت قبلا بذهنه بدأت الآن تتخذ لها هيئة معينة ، فجعل يتساءل ما إذا لم يكن ذلك الشخص الماثل أمامه شخصا إلهيا مع إنه يلبس ثوب أرجوان للزراية والسخرية وعلى رأسه إكليل من شوك

عاد إلى ساحة القضاء وسأل يسوع قائلا: "من أين أنت؟" (يوحنا 19 : 9). أما يسوع فلم يعطه جوابا . كان المخلص قد تحدث مع بيلاطس بكل حرية موضحا له رسالته كمن جاء ليشهد للحق ، أما بيلاطس فاحتقر النور . لقد أساء استخدام مركزه السامي كقاضٍ إذ تنحى عن مبادئه وسلطته نزولا على مطاليب الرعاع . ولم يكن لدى يسوع نور آخر [699] يعطيه إياه . فإذ اغتاظ من صمت الفادي قال له بكل غطرسة:

"أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟"

"لم يكن لك عليّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق، لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم" (يوحنا 19 : 10 و 11). وهكذا نجد أن المخلص المشفق الرحيم في وسط آلامه وأحزانه المرة عذر بقدر المستطاع لذلك الحاكم الروماني فعلته ، وهو الذي أسلمه ليصلب . فما أعظم هذا من مشهد يمكن تقديمه للعالم مدى العصور ! وما أعظِم النور الذي يريقه على صفات ذاك الذي هو ديان كل الأرض ! قال يسوع: "الَّذِي أَسلمني إِلَيكَ لَه خَطِيةٌ أَعظَم"، وكان المسيح بذلك يقصد قيافا الذي ، بصفته رئيسا للكهنة ، كان يمثل الأمة اليهودية . لقد كانوا يعرفون المبادئ التي كانت مسيطرة على السلطات الرومانية . أما هم فقد أعطي لهم النور من النبوات التي شهدت عن المسيح ، ومن تعاليمه ومعجزاته . وقد حصل قضاة اليهود على براهين لا تخطئ على ألوهية ذاك الذي حكموا عليه بالموت ، وقد دينوا بموجب النور المعطى لهم.

إن أعظم جرم وأثقل مسؤولية كانت هي مسؤولية أولئك الذين احتلوا أرفع المناصب في الأمة الذين أودعت بين أيديهم أقدس الودائع التي خانوها وسلموا فيها بكل نذالة . لقد كان بيلاطس وهيرودس وعساكر الرومان يجهلون حقيقة يسوع بالقياس إلى هؤلاء ، وقد فكروا في إرضاء الكهنة والرؤساء بإهانتهم ليسوع ومعاملته بالقسوة . إنهم لم يحصلوا على النور الذي حصلت عليه الأمة اليهودية بكل سخاء . ولو أعطي النور للعسكر لما عاملوا المسيح بمثل تلك القسوة.

"إني بريء من دم هذا البار"

اقترح بيلاطس مرة أخرى أن يطلق المخلص: "ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقت هذا فلست محباً للقيصر" (يوحنا 19 : 12). وهكذا كان أولئك المنافقون يتظاهرون بغيرتهم على سلطان القيصر . لقد كان اليهود ألد أعداء الحكم الروماني ، وكانوا قساة في عدائهم . وعندما لم يكن هنالك خطر عليهم من إرغام الرومان على إجابة مطاليبهم القومية والدينية كانوا يفعلون ذلك بكل استبداد وطغيان . ولكن عندما [700] كانوا يريدون تحقيق غرض ينطوي على القسوة كانوا يمجدون سلطان القيصر . فلكي يتحقق لهم إهلاك المسيح أعلنوا ولاءهم للحكم الأجنبي الذي كانوا يمقتونه.

وقد عادوا يصيحون قائلين: "كا من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر!" (يوحنا 19 : 12). لمس هذا القول نقطة الضعف في بيلاطس . فلقد كادت الحكومة الرومانية تشك فيه ، وكان هو يعرف أن مثل تلك الشكوى فيها القضاء عليه ، كما كان يعرف أنه لو أحبطت أغراض اليهود ولم يجابوا إلى طلبهم فسينقلبون ضده ولن يتركوا وسيلة للانتقام منه . وها هو يرى أمامه مثالا لإصرارهم الذي به طلبوا القضاء على ذاك الذي أبغضوه بلا سبب.

حينئذ جلس بيلاطس على كرسي الولاية وقدم يسوع لليهود مرة أخرى قائلا: "هوذا ملككم!" ومرة أخرى صرخوا صرختهم المجنونة قائلين: "خذه! خذه! اصلبه!" (يوحنا 19 : 14 و 15). فسألهم بيلاطس بصوت سمعه الجميع قائلا: "أأصلب ملككم؟" فخرجت من أفواههم النجسة المجدفة هذه الكلمات: "ليس لنا ملك إلا قيصر!" (يوحنا 19 : 15). وهكذا إذ اختارت الأمة اليهودية أن يحكم عليها ملك وثني انسحبت من تحت حكم الله . لقد رفضوا ملك الله عليهم . ومن ذلك الحين لم يكن لهم مخلص . لم يكن لهم ملك إلا قيصر. فقاد الكهنة والمعلمون الشعب إلى هذا المصير ، كما كانوا مسؤولين عن هذا وعن كل ما تلاه من عواقب مخيفة ، وهكذا تسبب الرؤساء الدينيون في جلب الخطية والهلاك على تلك الأمة.

"فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً: إني بريء من دم هذا البار! أبصروا أنتم!" (متى 27 : 24). نظر بيلاطس إلى المخلص بخوف مستذنبا نفسه . ومن بين ذلك البحر الزاخر من الوجوه المتطلعة إلى فوق لم ير السلام أو الطمأنينة إلا على وجه يسوع . وبدا وكأن هالة من النور الهادئ تحيط برأسه . وقال بيلاطس في قلبه: إنه إله . وإذ التفت إلى الجمع أعلن قائلا: إني بريء من دمه . خذوه أنتم واصلبوه . ولكن اسمعوا أيها الكهنة والرؤساء إني أعلن أنه بار . فعسى أن ذاك الذي يقول هو إنه أبوه يدينكم أنتم ولا يدينني أنا على جريمة هذا اليوم . ثم التفت إلى يسوع وقال له: اغفر لي هذا الخطأ فأنا لا أستطيع إنقاذك . وبعدما جلده مرة ثانية أسلمه ليصلب. [701]

كان بيلاطس يتوق لإنقاذ يسوع ، ولكنه رأى أنه إذا أراد الاحتفاظ بمنصبه وكرامته فلن يستطيع إنقاذه . فلكي لا يخسر سلطته الدنيوية اختار التضحية بحياة شخص بريء .ما أكثر الذين يضحون بالمبدأ لكي

يجنبوا أنفسهم الخسائر والآلام . إن الضمير والواجب يوجهاننا في اتجاه خاص ، أما المصلحة الذاتية فتوجهنا في اتجاه آخر . إن التيار يسرع في الاتجاه الخاطئ ، فالذي يتواطأ مع الشر ويرضى به سيجرفه التيار إلى ظلمة الإثم المخيفة.

استسلم بيلاطس لمشيئة أولئك الرعاع . فبدلا من المخاطرة بمنصبه أسلم يسوع للصلب. ولكن بالرغم من كل حذره وحيطته فقد أصابه بعد ذلك نفس ما كان يخشاه . لقد جرد من كل أوسمة الشرف وهوى من ذلك المنصب الرفيع . وإذ كان يتعذب من تبكيت ضميره وكبريائه الجريحة مات منتحرا بعد صلب المسيح بقليل . وهكذا نجد أن كل من يتواطأ مع الخطية لن ينالوا سوى الحزن والألم والهلاك . "توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت" (أمثال 14 : 12).

"دمه علينا"

عندما أعلن بيلاطس أنه بريء من دم المسيح أجابه قيافا متحديا: "دمه علينا وعلى أولادنا" (متى 27 : 25). وقد ردد الكهنة والرؤساء نفس تلك الكلمات المخيفة ، كما دوت بها أصوات الجموع الوحشية . "دمه علينا وعلى أولادنا".

اختار شعب إسرائيل لأنفسهم . فإذ أشاروا إلى يسوع قالوا: "ليس هذا با باراباس!" (يوحنا 18 : 40). إن باراباس الذي كان لصا قاتلا كان رمزا للشيطان ، أما المسيح فكان يمثل الله . وقد رفضوا المسيح واختاروا باراباس . وكان باراباس سيطلق لهم . وهم إذ وقع اختيارهم على باراباس فقد اختاروا ذلك الذي كان من البدء كذابا وقتالا للناس . لقد كان الشيطان قائدا لهم . وكأمة نفذوا كل أوامر الشيطان . لقد عزموا على أن يعملوا أعماله ولا بد أن يخضعوا لحكمه القاسي . وذلك الشعب الذين اختاروا باراباس ورفضوا المسيح كان لا بد لهم أن يجرعوا تلك الكأس المريرة كأس قسوة باراباس إلى انقضاء الدهر.

إن اليهود إذ نظروا إلى حمل الله المضروب والمتألم صرخوا قائلين: "دمه علينا وعلى [702] أولادنا" وقد صعدت تلك الصرخة المخيفة إلى عرش الله . وذلك الحكم الذي حكموا به على أنفسهم كتب في السماء . فأجيبت تلك الطلبة ، إذ صار دم ابن الله لعنة دائمة على أولادهم وأولاد أولادهم.

كل ذلك تحقق بكيفية مرعبة في خراب أورشليم ، وأظهر ذلك كله بكيفية مخيفة في الأحداث التي مرت بالأمة اليهودية مدى ثمانية عشر قرنا- إذ كانوا غصنا مقطوعا من الكرمة ، غصنا يابسا وعقيما ليجمع ويطرح في النار ويحترق . وإذ كانوا يجولون في كل العالم من أرض إلى أرض ومن قطر إلى قطر كانوا أمواتا ، نعم أمواتا بالذنوب والخطايا.

وستجاب تلك الطلبة بكيفية مرعبة في يوم الدين العظيم . إذ عندما يجيء المسيح إلى الأرض ثانية فالناس لن يروه كما كان أسيرا يحدق به الرعاع: ولكنهم سيرونه كمن هو ملك السماء . إنه سيأتي في مجده ومجد أبيه ومجد الملائكة القديسين . وستكون حاشيته التي ترافقه في طريقه ربوات ربوات وألوف ألوف من الملائكة الذين هم أبناء الله الحسان المنتصرون وعليهم مسحة من الجمال والمجد لا تباري . وحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب . حينئذ ستراه كل عين والذين طعنوه . وعوضا عن إكليل الشوك سيلبس إكليل المجد- إكليل في داخل إكليل . وبدلا من ذلك الرداء الأرجواني البالي سيتسربل بثوب أشد بياضا من النور: "لا يقدر قصّار على الأرض أن يبيّض مثل ذلك" (مرقس 9 : 3). "وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك ورب الأرباب" (رؤيا 19 : 16). وسيكون هناك أولئك الذين سخروا به وضربوه . ومرة أخرى سيرى الكهنة والرؤساء ذلك المشهد الذي قد رأوه في دار

القضاء . وكل حادث سيظهر أمامهم كما لو كان مكتوبا بحروف من نار . وحينئذ فالذين صرخوا قائلين: "دمه علينا وعلى أولادنا" سيجابون إلى طلبهم . وحينئذ سيعرف العالم كله ويدرك . وحينئذ سيتحققون من شخصية ذاك الذي كانوا يحاربونه مع إنهم بشر ضعفاء . ففي رعب وعذاب هائلين سيصرخون إلى الجبال والصخور قائلين: "اسقطي علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم. ومن يستطيع الوقوف؟" (رؤيا 6 : 16 و 17). [703]

الفصل الثامن والسبعون—موت على قمة جبل

"ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى "جمجمة" صلبوه هناك" (لوقا 23 : 33).

يسوع، "لكي يقدّس الشعب بدم نفسه، تألم خارج الباب" (عبرانيين 13 : 12). إن آدم وحواء إذ تعديا على شريعة الله طردا من جنة عدن . فكان لزاما على المسيح نائبنا أن يتألم خارج حدود أورشليم . لقد مات خارج الباب حيث كان يعدم المجرمون والقتلة . إن كلمات الرسول القائلة: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا" (غلاطية 3 : 13) هي كلمات لها دلالتها العميقة.

وقد تبع يسوع من دار القضاء إلى جلجثة جمع غفير من الشعب . وذاع نبأ الحكم عليه في أورشليم كلها ، فتقاطر إلى مكان الصلب جماهير من كل الطبقات والرتب . وكان الكهنة والرؤساء مرتبطين بوعد ألا يزعجوا أتباع المسيح إذا أسلم هو إلى أيديهم . فانضم إلى ذلك الجمع تلاميذ السيد وكل من قد آمنوا به من المدينة والإقليم المجاور . الجميع تبعوا المخلص.

سمعان القيرواني

وإذ خرج يسوع من باب دار ولاية بيلاطس وضع الصليب الذي كان معدا لباراباس على كتفيه الممزقتين الداميتين . وكان هناك اثنان من شركاء باراباس محكوما عليهما بالموت مع يسوع في نفس الوقت ، فوضع على أكتافهما صليبان . وكان صليب المخلص أثقل من أن يستطيع النهوض به وهو في حالة الإعياء والألم . فعند تناول عشاء الفصح مع تلاميذه لم يذق طعاما ولا شرابا . وقد اشتبك في صراع هائل مع قوات الشيطان في بستان جثسيماني فتعذبت نفسه ، كما احتمل آلام التسليم والخيانة ، ورأى تلاميذه يتركونه ويهربون . لقد أخذ من أمام حنان إلى قيافا إلى بيلاطس ، ومن هناك أخذ إلى هيرودس ثم أعيد إلى بيلاطس مرة أخرى . وقد انهالت عليه ألوان من [704] الإهانات والسخرية ، كما تعذب من آلام الجلد مرتين . وطوال تلك الليلة كان يرى مشهد بعد آخر وكانت كلها مما يصعب على النفس احتماله إلى أقصى حد . ولكن المسيح لم يفشل ، فلم ينطق إلا بما يمجد الله . وطيلة ساعات تلك المحاكمة المزيفة المهينة ظل معتصما بثباته وعظمته . ولكن عندما وضع الصليب على منكبيه ليحمله بعدما جلد ثاني مرة لم تستطع طبيعته البشرية أن تحتمل أكثر من ذلك فسقط تحت حمله من الإعياء.

رأى الجمع الذي كان يتبعه خطواته الضعيفة المتعثرة ، ولكنهم لم يبدوا نحوه أي عطف أو رفق ، بل جعلوا يعيرونه وينتهرونه لعجزه عن حمل صليبه الثقيل . ومرة أخرى وضع عليه الصليب ولكنه سقط على الأرض مرة أخرى مغشيا عليه. فرأى ظالموه ومضطهدوه استحالة كونه يتقدم حاملا صليبه إلى أبعد من ذلك . وقد تحيروا في البحث عمن يرضى بحمل ذلك الحمل المذل . فاليهود أنفسهم لم يكونوا يستطيعون ذلك خشية أن يتنجسوا بحمل الصليب فيحرمون من ممارسة الفصح . وحتى الرعاع أنفسهم لم

يكن بينهم من يرضى بأن يتنازل لحمل الصليب.

وفي ذلك الوقت التقى بهذا الجمع رجل غريب يدعى سمعان القيرواني كان آتيا من الحقل . فسمع التعبيرات البذيئة الصادرة من ذلك الجمع ، وسمعهم وهم يرددون هذا القول بكل ازدراء: أفسحوا الطريق لملك اليهود ! فإذ يقف مندهشا من ذلك المنظر ومعبرا عن إشفاقه يمسكونه ويضعون الصليب على منكبيه.

كان سمعان هذا قد سمع عن يسوع ، وكان ابناه يؤمنان بالمخلص أما هو نفسه فلم يكن تلميذا ، فكان حمله للصليب إلى جلجثة بركة له ، وقد ظل مدى حياته بعد ذلك يشكر الله على هذه العناية ، إذ قادته العناية إلى أن يأخذ على نفسه صليب المسيح بمحض اختياره ويقف دائما فرحا تحت حمله.

حزن وعطف

كان بين من تبعوا المسيح إلى ساحة الموت القاسي عدد غير قليل من النساء وقد ثبتن أنظارهن في يسوع. وبعض منهن كن قد رأينه قبل ذلك ، بعض منهن كن قد حملن إليه [705] مرضاهن المتألمين ، وبعض منهن كن قد شفين من أمراضهن ، وكانت تتلى على مسامعهن قصة المشاهد التي حدثت. وهن يندهشن من العداوة التي يضمرها أولئك الناس للمسيح مع أن قلوبهن تذوب وتكاد تتمزق حزنا عليه . وبالرغم من تصرف ذلك الجمع الدال على الجنون ، وكلام الغضب الذي ينطق به الكهنة والرؤساء ، فإن هؤلاء النسوة يظهرن عطفهن عليه . وإذ يسقط يسوع مغشيا عليه تحت الصليب ينفجرن نائحات مولولات .

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استرعى انتباه المخلص. فمع إنه كان يقاسي أشد الآلام وهو يحمل خطايا العالم فهو لم يكن عديم الاكتراث لهذا الحزن وهذا العطف من جانب أولئك النساء ، فالتفت إليهن بعطف ورقة . لم يكن مؤمنات به . وكان يعلم أنهن يبكين عليه لا كمن هو مرسل من الله ، بل ثارت في نفوسهن أحاسيس الإشفاق البشري . لم يحتقر هو هذا العطف منهن ، فلقد أثار عطفهن عليه في قلبه عطفا أعمق عليهن ، فقال يخاطبهن: "يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن" (لوقا 23 : 28). لقد حول المسيح نظره عن المشهد الماثل أمامه ونظر إلى الأمام إلى أيام خراب أورشليم . ففي ذلك المشهد المخيف كان كثيرون ممن يبكون عليه الآن سيهلكون هم وأولادهم.

ثم انتقل فكر المسيح من مشهد سقوط أورشليم إلى مشهد دينونة أعم وأوسع. لقد رأى في خراب تلك المدينة العاصية رمزا للهلاك الأخير المزمع أن يأتي على العالم ، فقال: "حينئذ يبتدئون يقولون للجبال: اسقطي علينا! وللآكام: غطّينا! لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس؟" (لوقا 23 : 30 و 31). وقد رمز المسيح بالعود الرطب إلى نفسه كالفادي البار . لقد سمح الله بأن غضبه على الإثم ينصب على ابنه الحبيب ، فكان يسوع مزمعا أن يصلب لأجل خطايا الناس . فأي آلام سيتحملها الخاطئ السادر في خطاياه ؟ ! إن غير التائبين وغير المؤمنين جميعهم سيختبرون حزنا وشقاء لا يمكن وصفهما بالكلام.

وكان بين من ساروا مع المسيح إلى جلجثة كثيرون ممن كانوا منذ أيام قليلة يحفون به وهم يرددون هتافات الفرح والانتصار ويلوحون بسعوف النخل في دخوله منتصرا إلى [706] أورشليم. ولكن عددا غير قليل منهم ممن كانوا يهتفون له ويمجدونه لأن ذلك كان أمرا شائعا بين الجمع ، ضموا أصواتهم إلى من كانوا يصرخون ضده قائلين: "اصلبه! اصلبه! ". عندما كان المسيح داخلا إلى أورشليم انتعشت آمال

التلاميذ وسمت إلى القمة. وكانوا يحفون بمعلمهم وهم يحسون أن انتسابهم إليه شرف ما بعده شرف. أما الآن وهو في حال الذل والهوان فكانوا يتبعونه من بعيد . كانت قلوبهم مفعمة حزنا ونفوسهم منحنية تحت ثقل آمالهم المنهارة . وها قد تحقق كلام يسوع حين قال: "كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب" أني أضرب الراعي فتتبدّد خراف الرعية" (متى 31 : 26).

يسمر على الصليب

إذ وصل الموكب إلى مكان الإعدام أوثق الأسرى إلى آلات التعذيب. كان اللصان يتصارعان مع من وضعوهما على الصليبين ، أما يسوع فلم تبد منه أية مقاومة . وقد تبعت مريم أم يسوع ابنها إلى جلجثة مستندة على يوحنا ، التلميذ الحبيب . كانت قد رأته مغشيا عليه تحت حمل الصليب وكانت تتوق إلى أن تسند رأسه الجريح بيدها وترطب جبينه الذي طالما استند إلى حضنها . ولكن لم يسمح لها بذلك الامتياز المؤلم . كانت كالتلاميذ لم تزل ترجو أن يظهر يسوع قدرته ويخلص نفسه من أيدي أعدائه . ومرة أخرى غاص قلبها في أعماقها حين ذكرت الأقوال التي فيها أنبأ بالحوادث التي كانت تجري حينئذ . وإذ أوثق اللصان كل إلى صليبه كانت هي تنتظر بقلق وعذاب . فهل ذاك الذي وهب للموتى الحياة يسمح بأن يدع نفسه يصلب ؟ وهل يموت ابن الله تلك الميتة القاسية وهل لا بد لها أن تتخلى عن إيمانها بأن يسوع هو مسيا ؟ وهل لابد لها أن تشاهد عاره وأحزانه دون أن يسمح لها حتى بأن تخدمه في ضيقه ؟ لقد رأت يديه ممدودتين على الصليب وقد أتي بالمطرقة والمسامير ، فإذ اخترقت تلك المسامير لحمه الرقيق فإن التلاميذ المحطمي القلوب حملوا أم يسوع بعيدا حتى لا تقع عيناها على ذلك المنظر المفجع القاسي.

لم تبد من المخلص كلمة تذمر أو شكوى ، بل ظل الهدوء والرصانة مرتسمين على وجهه. ولكن العرق كان يتصبب من جبينه . ولم تكن هناك يد مشفقة رحيمة لتمسح عن [707] وجهه عرق الموت ، ولا كلام العطف والولاء الثابت ليثبت قلبه البشري. وإذ كان العسكر يقومون بعملهم المخيف القاسي صلى يسوع لأجل أعدائه قائلا: "يا أبتاه، أغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا 23 : 3). لقد انتقل تفكيره بعيدا عن آلامه إلى خطية معذبيه والجزاء الرهيب الذي يحل بهم . لم يستمطر اللعنات على العسكر الذين عاملوه بمنتهى الخشونة والقسوة . كلا ولا استنزل النقمة على الكهنة والرؤساء الذين كانوا ينظرون ويتفرسون في يسوع المصلوب فرحين بتحقيق أغراضهم ، بل رثى المسيح لهم في جهالتهم وإثمهم ، ولكنه فقط قدم هذا الالتماس عنهم: "أنهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

لو علموا أنهم إنما كانوا يعذبون ذاك الذي قد أتى لكي يخلص البشرية الساقطة من الهلاك الأبدي ، لاستولى عليهم الندم والرعب ، ولكن جهلهم لم يمح جريمتهم لأنه كان امتيازا لهم أن يعرفوا يسوع ويقبلوه مخلصا لهم . إن البعض منهم كانوا سيكتشفون خطيتهم ويتوبون ويهتدون ، بينما البعض الآخر بسبب قساوة قلوبهم جعلوا استجابة صلاة المسيح لأجلهم أمرا مستحيلا . ومع ذلك ، سواء كان هذا أو ذاك ، فإن مقاصد الله كانت في طريقها إلى الإتمام . وقد صار ليسوع الحق في أن يصير شفيعا للناس عند الآب.

إن صلاة المسيح لأجل أعدائه شملت العالم كله. لقد شملت كل خاطئ عاش أو قد يعيش منذ إنشاء العالم إلى انقضاء الدهر . إن خطية صلب ابن الله تستقر على رؤوس الجميع . والغفران يقدم مجانا للجميع. "من يرِدْ" يمكنه أن يحصل على السلام مع الله ويرث الحياة الأبدية.

العنوان غير المرغوب فيه

حالما سمر يسوع بالصليب رفع رجال أشداء الصليب وبعنف شديد غرزوه في المكان المعد له. وهذا سبب لابن الله أشد العذاب . حينئذ كتب بيلاطس عنوانا بالعبرانية واللاتينية واليونانية ووضعه فوق الصليب ، فوق رأس يسوع . وهذه هي الكتابة: "يسوع الناصري ملك اليهود"، فأثار هذا العنوان اليهود وأهاجهم . إنهم عندما كانوا في دار ولاية بيلاطس صرخوا قائلين: "اصلبه" "ليس لنا ملك إلا قيصر!" (يوحنا 19 : 15). وأعلنوا أن كل من يعترف بملك آخر يعد خائنا . فكتب بيلاطس الرأي الذي عبروا عنه ، إذ لم يقدموا على يسوع علة إلا كونه ملك اليهود لذا كانت تلك الكتابة اعترافا حقيقيا بولاء [708] اليهود لسلطان الرومان ، إذ أعلن ذلك العنوان أن أي من يدعي أنه ملك إسرائيل فسيحكمون عليه بأنه مستوجب الموت . لقد خدع الكهنة أنفسهم . فعندما كانوا يتآمرون على قتل المسيح أعلن قيافا أنه من اللائق أن يموت إنسان واحد لينقذ الأمة . فها هو رياؤهم ينكشف الآن . فلكي يهلكوا المسيح كانوا مستعدين للتضحية حتى بكيانهم القومي.

وقد رأى الكهنة الآن فعلتهم على حقيقتها وطلبوا من بيلاطس أن يغير العنوان فقالوا له: "لا تكتب: ملك اليهود، بل: إن ذاك قال: أنا ملك اليهود!" (يوحنا 19 : 21). ولكن بيلاطس نقم على نفسه الآن بسبب ضعفه السابق وكان احتقاره عظيما للكهنة والرؤساء الجسورين الماكرين فأجابهم بكل فتور قائلا: "ما كتبت قد كتبت" (يوحنا 19 : 22).

إن قوة أسمى وأعظم من قوة بيلاطس أو قوة اليهود هي التي قادت إلى وضع ذلك العنوان فوق رأس يسوع . فقد قصدت عناية الله أن يوقظ ذلك العنوان تفكير الناس ويجعلهم يفتشون الكتب . كان الموضع الذي صلب فيه المسيح قريبا من المدينة ، وكان آلاف الناس من كل البلدان في أورشليم في تلك الأيام فكانوا لا بد أنهم سيلاحظون العنوان القائل إن يسوع الناصري هو مسيا . لقد كان ذلك العنوان حقا حيا كتبته يد بإرشاد الله.

سخرية الأعداء

في آلام المسيح التي قاساها على الصليب تمت النبوة ، إذ سبق المخلص فأنبأ قبل ذلك بقرون طويلة عن نوع المعاملة التي كان سيعامل بها ، فلقد قال: "لأنه قد أحاطت بي كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتني. ثقبوا يديّ ورجليّ. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرّسون فيّ. يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون" (مزمور 22 : 16 — 18). إن النبوة الخاصة بثيابه تمت بدون مشورة أو تداخل أصدقاء المصلوب أو أعدائه. فلقد أعطيت ثيابه للعسكر الذين رفعوه على الصليب ، وسمعهم المسيح يتنازعون وهم يقسمون ثيابه فيما بينهم . وكان قميصه بغير خياطة منسوجا كله من فوق . فقال بعضهم لبعض: "لا نشقه، بل نقترع عليه لمن يكون" (يوحنا 19 : 24).

وفي نبوة أخرى أعلن المخلص قائلا: "العار قد كسر قلبي فمرضت. انتظرت رقّة فلم تكن، ومعزّين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلا" (مزمور [709] 69 : 20 و 21). كان الذين يحكم عليهم بالموت صلبا يسمح بإعطائهم جرعات مخدرة حتى لا يحسوا بالألم . وقد قدمت تلك الجرعة ليسوع ، لكنه عندما ذاقها لم يرد أن يشربها. لم يرد أن يتجرع شيئا يشوش عقله أو يربكه ، إذ

ينبغي أن يثبت إيمانه في الله ، ففي هذا كانت قوته الوحيدة . إن تخدير حواسه كان سيعطي للشيطان ميزة.

صب أعداء يسوع جامات غضبهم عليه وهو معلق على الصليب . لقد اشترك الكهنة والرؤساء والكتبة مع الرعاع في السخرية بالمخلص في ساعة احتضاره . عند معمودية المسيح وتجليه سمع صوت الله معلنا أن المسيح هو ابنه . ومرة أخرى قبيل تسليمه تكلم الآب شاهدا لألوهية ابنه . أما الآن فقد صمتت السماء ، ولم تسمع أية شهادة لصالح المسيح ، فاحتمل وحده إهانة الأشرار وسخريتهم.

وجعلوا يعيرونه قائلين: "إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب! "، "ليخلّص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله!" (متى 27 : 40 ؛ لوقا 23 : 35). في برية التجربة قال له الشيطان: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً"، "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل" من على جناح الهيكل (متى 4 : 3 و 6). وقد كان الشيطان وجنوده حاضرين أمام الصليب في هيئة بشرية . كان رئيس الشياطين وجنوده يتعاونون مع الكهنة والرؤساء . إن معلمي الشعب أثاروا الرعاع الجهلاء حتى يدينوا ذاك الذي لم يسبق لكثيرين منهم أن رأوه ، كما أرغموا على الشهادة ضده . لقد تحالف الكهنة والرؤساء والفريسيون مع الرعاع القساة القلب في جنون شيطاني . تحالف الرؤساء الدينيون مع الشيطان وجنوده وكانوا يأتمرون بأمره.

وإذ كان يسوع يتألم وهو يحتضر سمع ما نطق به الكهنة حين أعلنوا قائلين: "خلّص آخرين وأمّا نفسه فما يقدر أن يخلّصها! إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به!" (مرقس 15 : 31 و 32). كان المسيح يستطيع أن ينزل عن الصليب ، ولكن رجاء الخاطئ في غفران الله ورضاه ينحصر في كون المسيح لم يرد أن يخلص نفسه.

إن أولئك الرجال الذين ادعوا أنهم مفسرو النبوات كانوا وهم يسخرون بالمخلص يرددون نفس الأقوال التي سبق الوحي فأنبأ بأنهم سيقولونها في تلك المناسبة . ومع ذلك فإنهم في عمى قلوبهم لم يروا أنهم كانوا يتممون النبوات . وأولئك الذين قالوا في سخرية: "قد اتّكل [710] على الله، فلينقذه الآن إن أراده! لأنه قال: أنا ابن الله!" (متى 27 : 43) لم يكونوا يفكرون في أن شهادتهم سيتردد صداها عبر الأجيال . ولكن مع إن هذا الكلام قيل على سبيل السخرية فقد كان دافعا للناس لأن يفتشوا الكتب كما لم يفعلوا من قبل . وقد سمع الحكماء منهم وفتشوا وتفكروا وصلوا . وكان يوجد بعض من لم يعطوا أنفسهم راحة حتى قارنوا الأسفار المقدسة بعضها ببعض ورأوا معنى رسالة المسيح ولم يسبق أن انتشرت معرفة الناس ليسوع بصورة عامة كما حدث عندما علق على الصليب . لقد أشرق نور الحق في قلوب كثيرين ممن رأوا مشهد الصلب وسمعوا أقوال المسيح.

توبة لص

وإذ كان يسوع يعاني أقسى ألوان العذاب على الصليب أشرقت على نفسه شعاعة من نور العزاء . تلك كانت صلاة اللص التائب . كان كلا اللصين المصلوبين مع يسوع يعيرانه في البداية ولكن أحدهما وهو متأثر بآلامه أمعن في تهوره وتحديه . أما رفيقه فلم يتمثل به . لم يكن هذا الرجل مجرما قاسي القلب . لقد ضل سواء السبيل بتأثير العشراء الأشرار ولكنه كان أقل جرما من أولئك الرجال الذين كانوا واقفين تحت الصليب يعيرون المخلص . كان قد رأى يسوع وسمع تعاليمه وقد بكتته تلك التعاليم ، ولكن الكهنة والرؤساء أبعدوه عن السيد . وإذ حاول أن يكبت اقتناعه غاص في الخطية أعمق فأعمق إلى أن قبض عليه وحوكم كمجرم وحكم عليه بالموت صلبا ، وقد كان بصحبة يسوع في دار القضاء وفي طريقه إلى

جلجثة ، وسمع بيلاطس يصرخ قائلا: "أني لست أجد فيه علة واحدة" (يوحنا 19 : 4). و قد لاحظ هيئته الإلهية وغفرانه ورحمته لمعذبيه . وعلى الصليب كان يرى كثيرين من رجال الدين يدلعون اللسان باحتقار ويسخرون بالرب يسوع . رأى أولئك الناس يهزون رؤوسهم وسمع تعييرات المعيرين التي جعل اللص الآخر يرددها إذ قال: "إن كنت أنت المسيح، فخلّص نفسك وإيانا!" (لوقا 23 : 29). وكان يسمع من بين المجتازين كثيرين يدافعون عن يسوع وهم يرددون أقواله ويتحدثون عن أعماله فيعود إليه اقتناعه بأن هذا لا بد أن يكون المسيح . فيلتفت إلى اللص الآخر ويقول له: "أولاً أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟" إن ذينك اللصين المحتضرين ما عادا يخافان الناس في شيء . ولكن الاقتناع بوجود إله يخشى ، ومستقبل [711] يدعو إلى الرعب يضغطان على نفس أحدهما ، والآن فها حياته التي كانت كلها ملوثة بالشر والإثم موشكة على الانتهاء . ثم تأوه قائلا: "أما نحن فبعدل، أننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محلّه" (لوقا 23 : 40 و 41).

لا سؤال ولا شكوك أو تعييرات الآن . لما حكم على ذلك اللص بالموت أمسى يائسا بلا رجاء . ولكن ها الأفكار الغريبة الرقيقة تقفز إلى ذهنه بكل ما كان قد سمعه عن يسوع وكيف شفى المرضى وغفر الخطايا . وقد سمع أقوال من آمنوا بيسوع وتبعوه باكين نائحين . ورأى العنوان المكتوب فوق صليب المخلص وقرأه . وسمع المجتازين يرددونه وكان بعضهم يردونه وشفاههم ترتجف من فرط التأثر والحزن ، بينما كان آخرون يسخرون هازئين . وها الروح القدس ينير عقل ذلك اللص شيئا فشيئا فتتصل حلقات الأدلة بعضها ببعض . لقد رأى في يسوع المسحوق المزدرى به والمعلق على الصليب حمل الله الذي يرفع خطية العالم . وامتزج الرجاء بالعذاب في صوت ذلك اللص العاجز المائت وهو يلقي بنفسه على المخلص المائت صارخا وقائلا: "اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك" (لوقا 23 : 42).

في الفردوس

وسرعان ما أتاه الجواب . فبصوت رقيق عذب ملؤه الحب والحنان والسلطان قال له المخلص: "الحق أقول لك: إنك[1] اليوم تكون معي في الفردوس" (لوقا 23 : 43).

وطوال ساعات العذاب الطويلة كانت أذنا يسوع تصطكان بسماع الشتائم وألفاظ السخرية . وإذ كان معلقا على الصليب كان يسمع التعييرات واللعنات تنهال عليه . وبقلب مشتاق كان يصبو إلى سماع كلمات تعبر عن الإيمان من أفواه تلاميذه . ولكنه لم يسمع غير هذه العبارة المحزنة: "ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل" (لوقا 24 : 21). إذاً فكم كان مفرحا لقلب المخلص كونه يسمع تلك الاستغاثة الدالة على الإيمان والحب من فم ذلك اللص المحتضر ! ففي حين أن رؤساء اليهود ينكرون ويتنكرون له ،

---

١ [1] كلمة ((إنك)) ليست موجودة في الأصل اليوناني. انظر مقدمة الكتاب المقدس المشوهد الكبير.

[712]

حتى تلاميذه يشكون في ألوهيته فإن هذا اللص المسكين الواقف على حافة الأبدية يدعو يسوع رباً . لقد كان كثيرون على أتم استعداد لأن يدعوه رباً عندما كان يصنع المعجزات وبعد قيامته من الأموات . ولكن ولا واحد دعاه ربا وهو معلق على الصليب إلا ذلك اللص التائب الذي خلص في الساعة الحادية عشرة.

أصغى الواقفون تحت الصليب إلى كلام اللص وهو يدعو يسوع ربا ، واسترعت انتباههم نغمة كلام

ذلك اللص التائب . وأولئك الذين كانوا يتشاجرون عند قاعدة الصليب على ثياب المسيح وهم يقترعون على قميصه كفوا عن الشجار ليصغوا وخفتت أصواتهم الغاضبة . وقد نظروا إلى المسيح وهم صامتون وانتظروا الجواب الذي ستنطق به تانك الشفتان المائتتان.

وعندما نطق السيد بذلك الوعد إذ بتلك السحابة القاتمة التي بدا إنها تكتنف الصليب يخترقها نور لامع محي . فقد حصل ذلك اللص التائب على السلام الكامل ، سلام القبول لدى الله ، وتمجد المسيح وهو في أشد حالات الاتضاع والإذلال . فذلك الذي رآه الجميع منهزما قد انتصر . لقد اعترف به كمن هو حامل الخطايا . يمكن للناس أن يعملوا ما يشاؤون بجسم بشريته ، يمكنهم أن يكللوا جبينه المقدس بإكليل الشوك وأن يجردوه من ثيابه ويتشاجروا وهم يقتسمونها . ولكنهم لا يستطيعون أن يجردوه من سلطانه على أن يغفر الخطايا . إن في موته شهادة على ألوهيته وعلى مجد الآب . إن أذنه لم تثقل عن أن تسمع ولا قصرت يده عن أن تخلص . إن من حقه كملك أن يخلص إلى التمام من يتقدمون به إلى الله.

الحق أقول لك اليوم ، تكون معي في الفردوس . إن المسيح لم يعد ذلك اللص بأنه سيكون معه في الفردوس في ذلك اليوم ، فهو نفسه لم يذهب إلى الفردوس في ذلك اليوم . لقد رقد في القبر وفي صباح يوم القيامة قال: "لم أصعد بعد إلى أبي" (يوحنا 20 : 17). ولكن ذلك الوعد قدم للص في يوم الصلب الذي كان يبدو أنه يوم الهزيمة والظلمة . إن المسيح يقول لذلك اللص: اليوم وأنا في هذه الحالة أموت على الصليب كفاعل شر أؤكد لك أنك سوف تكون معي في الفردوس.

إن اللصين اللذين صلبا مع يسوع كان أحدهما على جانبه من هنا والآخر على جانبه من هناك وهو في الوسط . وكانت هذه هي تعليمات الكهنة والرؤساء . إن مركز المسيح على [713] الصليب الأوسط كان ليدل على أنه أشر المجرمين الثلاثة . وهكذا تم الكتاب القائل: "أحصي مع أثمة" (إشعياء 53 : 12). ولكن الكهنة لم يفطنوا إلى المعنى الكامل لعملهم . فكما أن يسوع المصلوب بين لصين وضع "في الوسط" فكذلك نصب صليبه في وسط العالم الذي وضع في الشرير . وكلمات الغفران التي قيلت للص التائب أشعلت نورا أضاء إلى أقصى الأرض.

"هوذا أمك"

نظر الملائكة بذهول إلى المحبة غير المحدودة التي أظهرها الفادي الذي إذ كان يقاسي أشد ألوان العذاب في ذهنه وجسده لم يكن يفكر إلا في الآخرين . وقد شجع تلك النفس التائبة على الإيمان . ففي اتضاعه خاطب بنات أورشليم كنبي ، وككاهن وشفيع طلب من الآب أن يغفر لقاتليه ، وكالمخلص المحب غفر لذلك اللص التائب خطاياه.

وإذ كان يسوع يجول ببصره في ذلك الجمع المجتمع حوله استرعى انتباهه أحد الأشخاص . فعند أسفل الصليب كانت مريم أمه مستندة على تلميذه يوحنا . لم تستطع البقاء بعيدا عن ابنها . وإذ كان يوحنا يعلم أن النهاية قريبة أعادها إلى موضع الصلب. وهناك ذكر المسيح أمه في ساعة احتضاره ، فإذ نظر إلى وجهها المضروب بالحزن ونظر إلى يوحنا قال لها: "يا امرأة، هوذا ابنك"، وقال ليوحنا: "هوذا أمك" (يوحنا 19 : 26 و 27). وقد فهم يوحنا كلام المسيح وقبل أن يكون أمينا على تلك الوديعة . ففي الحال أخذ مريم إلى خاصته . وظل من تلك الساعة يرعاها بكل رقة ومحبة . يا له من مخلص محب رحيم ، ففي غمرة آلامه الجسدية وعذاباته الذهنية كان يهتم بأمه ويفكر في راحتها !

لم يكن لديه مال به يدبر ما يكفل لها الراحة ، ولكن يوحنا كان يحبه أعمق الحب فوكل إليه أمر أمه

ليحتفظ بها كإرث ثمين . وهكذا ضمن لها ما كانت في أشد الحاجة إليه ــــ أي العطف الرقيق من شخص يحبها لأنه أحب يسوع . وإذ قبلها كأمانة مقدسة حصل على بركة عظيمة . فلقد كانت مذكرا دائما له بمعلمه الحبيب .

إن المسيح يقدم لنا مثالا كاملا للمحبة البنوية ، وهذا المثال يضيء بلمعان قوي لا تستطيع كلمات الأجيال أن تخفيه . لقد ظل قرابة ثلاثين عاما يضطلع بأعباء البيت. والآن ، حتى وهو في أشد حالات الكرب والنزع الأخير لا ينسى أن يكفل ما فيه راحة أمه [714] الأرملة الحزينة . ونفس هذه الروح لا بد أن ترى في كل تلاميذ الرب . فالذين يتبعون المسيح لا بد من أن يشعروا بأن ديانتهم توجب عليهم إكرام والديهم وإعالتهم . فالقلب الذي تملك عليه محبة المسيح لا يمكن أن يقصر في رعاية الوالدين والعطف والإشفاق عليهم.

خطايا العالم تسحق قلبه

والآن فها رب المجد يموت كفارة عن البشرية . وإذ أسلم المسيح حياته الغالية لم يصده فرح النصرة ، فكل ما كان حوله كان ظلاما يصعب احتماله . إن ما كان يضغط على نفسه لم يكن هو الخوف من الموت ، ولم يكن عار الصليب هو الذي سبب له عزابا لا يوصف . فقد كان المسيح سيد المتألمين . ولكن آلامه كان سببها إحساسه بشر الخطية وعلمه أنه لكون الشر صار أمرا مألوفا لدى الإنسان فقد عمي الإنسان عن شناعته وهوله، كما رأى المسيح مقدار تحكم الخطية في القلب البشري وقلة عدد من يرغبون في التحرر من عبوديتها . وعرف أنه بدون معونة الله لابد من هلاك بني الإنسان . رأى جماهير كثيرة من الناس يهلكون وهم قريبون من المعونة الإلهية العظيمة.

لقد وضع على المسيح نائبنا وضامننا إثم جميعنا . حسب مذنبا ليفتدينا من دينونة الناموس ولعنته ، فلقد كان إثم كل واحد من نسل أدم يضغط على قلب الفادي . إن غضب الله على الخطية وإعلانه لسخطه العظيم على الإثم ملأ نفس ابنه حزنا ورعبا . والمسيح مدى سني حياته كلها ظل يعلن للعالم الساقط الأخبار السارة عن رحمة الآب ومحبته الغافرة . وكان موضوع حديثه هو الخلاص لأشر الخطاة . أما الآن وهو يحمل أثقال خطايا البشرية الهائلة فلا يمكنه أن يرى وجه الآب المصالح . إن احتجاب وجه الله عن المخلص في هذه الساعة ، ساعة العذاب الذي لا يطاق جعل سهام الحزن العميق تخترق قلبه ، ذلك الحزن الذي لا يمكن لإنسان أن يدركه إدراكا كاملا . وقد كان هذا العذاب النفسي عظيما جدا بحيث لم يكد يحس بآلامه البشرية.

اعتصر الشيطان بتجاربه القاسية قلب يسوع . ولم يستطع المخلص أن يخترق ببصره أبواب القبر . ولم يصور له الرجاء أنه سيخرج من القبر ظافرا ، ولا أخبره عن قبول الآب لذبيحته . وكان يخشى أن تكون الخطية كريهة جدا في نظر الله بحيث يكون انفصال [715] أحدهما عن الأخر أبديا. ولقد أحس المسيح بالعذاب الذي يحس به الخاطئ عندما لا تعود الرحمة تتوسل ، لأجل الجنس البشري الأثيم . إن إحساسه بالخطية وهي تستمطر غضب الآب على يسوع بديل الخطاة هو الذي جعل الكأس التي شربها مرة جدا وسحق قلب ابن الله.

الصليب المحتجب

ذهل الملائكة وهم يرون عذابات المخلص ويأسه. وحجب الأجناد السماويون وجوههم حتى لا يروا ذلك المنظر المخيف . بل حتى الطبيعة الجامدة عبرت عن عطفها على مبدعها المهان وهو يحتضر . فالشمس رفضت أن تنظر إلى ذلك المشهد الرهيب . لقد كانت أشعتها تملأ الأرض نورا في وقت الظهيرة ، ولكنها فجأة بدت أنها اختفت عن الوجود وقد غطت الصليب ظلمة داجية كما لو كانت غطاء بعش . " كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة" (لوقا 23: 44). لم يكن كسوف الشمس أو أي سبب آخر طبيعي هو علة هذا الظلام الذي كان كثيفا كظلام نصف الليل دون أن يضيء فيه القمر أو النجوم ، بل كان شهادة معجزية قدمها الله لأجل تثبيت إيمان الأجيال القادمة.

النجوم ، بل كان شهادة معجزية قدمها الله لأجل تثبيت إيمان الأجيال القادمة. في الظلمة الداجية استتر وجه الله . إنه يجعل الظلمة مظلته ويخفي مجده عن العيون البشرية . لقد كان الله وملائكته الأبرار بجوار الصليب . وكان الآب مع ابنه ، ومع ذلك فهو لم يعلن حضوره . فلو كان مجده قد أشرق من خلف السحابة لهلك كل من رآه من الناس . وفي تلك الساعة الرهيبة لم يكن المسيح ليجد عزاء بحضور الآب . لقد داس المعصرة وحده ومن الشعوب لم يكن معه أحد.

أخفى الله في ذلك الظلام الدامس آخر عذاب بشري يقاسيه ابنه. إن كل من قد رأوا المسيح في آلامه اقتنعوا بألوهيته ، فذلك الوجه إذ قد رآه الناس لم ينسوه قط . وكما ارتسم على وجه قايين سيماء جريمة القتل كذلك وجه المسيح ارتسم عليه سيماء البرارة والوقار والمحبة والإحسان - أي صورة الله . ولكن المشتكين عليه لم يلقوا بالا إلى مصادقة السماء . لقد كانت تلك الجموع الساخرة تحملق فيه مدى ساعات عذابه الطويلة . أما الآن فها الرحمة الإلهية تخفيه تحت رداء الله.

وقد بدا وكأن صمت القبور قد شمل جبل جلجثة. واكتنف ذلك الجمع الواقف عند [716] الصليب رعب لم يعرف أحد كنهه ، فتوقف الناس عن لعناتهم وشتائمهم إذ جمدت على ألسنتهم التعابير بينما هم ينطقون بها ، وانطرح الرجال والنساء والأولاد على الأرض ، وومضت البروق من قلب تلك السحابة من آن لآخر وكشفت عن الصليب والفادي المصلوب ، فكان الكهنة والرؤساء والكتبة والجلادون والرعاع جميعهم يعتقدون أن وقت العقاب قد حان. وبعد قليل جعل البعض يتهامسون قائلين إن يسوع ينزل الآن عن الصليب . وبعض منهم حاولوا أن يتلمسوا طريقهم إلى المدينة وهم يقرعون صدورهم ويولولون رعبا.

وفي الساعة التاسعة انقشعت الظلمة عن الناس ولكن المخلص ظل مكتنفا بها . كانت تلك الظلمة رمزا للعذاب والرعب اللذين كانا يضغطان على قلبه ولم يستطع أي إنسان أن يخترق ببصره الظلام الذي كان يحيط بالصليب . ولم يمكن لبشر أن يخترق الظلام الأعمق الذي التف حول نفس المسيح المتألمة . وقد بدا وكأن البروق الغاضبة كانت ترشقه وهو معلق على الصليب . حينئذ: "صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لما شبقتني؟ أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" (متى 27 : 46). وإذ استقرت الظلمة الخارجية على المخلص صرخ كثيرون قائلين : لقد حلت عليه نقمة السماء . إن سهام غضب الله تنتشب فيه لأنه ادعى أنه ابن الله . وكثيرون ممن آمنوا بيسوع سمعوا صرخة اليأس التي نطق بها ، وقد تركهم الرجاء . فإذا كان الله قد ترك يسوع ففيم يثق تابعوه ؟

"أنا عطشان"

حين انقشعت الظلمة بعيدا عن روح المسيح المتضايقة أحس بآلامه الجسدية فصرخ قائلاً: "أنا عطشان" (يوحنا 19 : 28). فإذ رأى أحد الجنود الرومان شفتي المخلص المحترقتين عطشا أخذته الشفقة

فتناول إسفنجية ووضعها على زوفا وغمسها في إناء به خل وقدمها ليسوع . أما الكهنة فكانوا يهزأون بآلامه وعذابه . عندما غطت الظلمة الأرض امتلأت قلوبهم رعبا وهلعا . فلما خفت حدة الخوف والرعب عاد إليهم الخوف مرة أخرى لئلا يهرب يسوع منهم . وقد حرفوا كلام المسيح عندما صرخ قائلا: "إلوي، إلوي، لما شبقتني؟" فباحتقار وازدراء عظيمين قالوا : "هوذا ينادي إيليا". وقد رفضوا آخر فرصة أتيحت لهم لإغاثته بل قالوا: "اترك. لنرى هل يأتي إيليا يخلّصه!" (مرقس 15 : 34 و 35 ؛ متى 27 : 49). [717]

إن ابن الله الذي بلا عيب علق على الصليب وتمزق جسمه من أثر الجلد. وتانك اليدان اللتان طالما امتدتا لكي تباركا الناس سمرتا على الصليب الخشبي ، وتانك القدمان اللتان لم تكلا من الانتقال من هنا إلى هناك للقيام بخدمات المحبة دقت فيهما المسامير التي نفذت إلى خشبة الصليب ، وذلك الرأس الملكي الذي وخزه إكليل الشوك ، وتانك الشفتان المرتعشتان وهما تصرخان صرخات الألم والويل ، وكل ما قد احتمله — قطرات الدم النازلة من رأسه ويديه وقدميه ، والعذاب ، الذي صهر كل جسمه ، والآلام التي لا ينطق بها والتي غمرت نفسه عندما حجب الآب وجهه عنه — كلها تنطق بأفصح لسان لتحدث كل فرد من بني الإنسان معلنة وقائلة: لأجلك رضي ابن الله أن يحمل عبء الذنوب الثقيل هذا . ولأجلك يسلب أسلاب الموت ويفتح أبواب الفردوس . فذاك الذي سكن أمواج البحر الصاخبة ومشى فوق لجج المياه الثائرة ، والذي أرعب الشياطين وجعل الأمراض تهرب من حضرته ، والذي فتح أعين العميان وأعاد للموتى الحياة — يقدم نفسه على الصليب ذبيحة وذلك حبا بك . إنه هو حامل الخطايا يحتمل غضب الله العادل ولأجلك صار خطية بذاتها.

وقف أولئك المشاهدون صامتين يرقبون نهاية ذلك المشهد المخيف وقد عادت الشمس لتشرق من جديد ، ولكن الصليب ظل مكتنفا بالظلام . تطلع الكهنة والرؤساء إلى أورشليم ، وإذا بهم يرون السحاب الكثيف ينعقد في سماء المدينة وفوق سهول اليهودية. إن شمس البر ونور العالم كان يسحب نوره بعيدا عن أورشليم المدينة التي كانت قبلا محبوبة وقد تمتعت بإحسانات كثيرة . أما الآن فهوذا سهام بروق غضب الله الشديدة تصوب إلى تلك المدينة المحكوم عليها بالهلاك.

الحجاب المنشق

وفجأة انقشعت الظلمة عن الصليب . فبصوت واضح كصوت بوق بدا وكأنه يرن في كل أرجاء المسكونة صرخ يسوع قائلا: "قد أكمل"، "يا أبتاه، في يديك أستودع روحي" (يوحنا 19 : 30 ؛ لوقا 23 : 46). وقد أحاط بالصليب نور وأشرق وجه المخلص بمجد عظيم كنور الشمس . حينئذ نكس يسوع رأسه على صدره وأسلم الروح.

إن المسيح إذ كان محاطا بالظلمة المخيفة وكان يبدو وكأن الله قد تركه شرب كأس الويل والألم البشري حتى الثمالة . وفي تلك الساعات المخيفة كان معتمدا على برهان [718] قبول الآب له المعطى له إلى تلك اللحظة . كان خبيرا بصفات أبيه ، وإدراك عدالته ورحمته وحبه العظيم . وبالإيمان استند على الآب الذي كان دائما يسر بطاعته . وإذ استودع نفسه بكل خضوع بين يدي الله فقد زايله الإحساس بفقدان رضى أبيه . لقد انتصر المسيح بالإيمان.

لم يسبق للأرض أن شهدت مثل ذلك المنظر . وقد وقف كل الجمع ذاهلين كالمصعوقين وشخصوا في المخلص بأنفاس لاهثة . ومرة أخرى غطت الظلمة الأرض وسمعت دمدمة كقصف الرعد الثقيل ثم حدثت

زلزلة مخيفة عنيفة . واهتز الناس وتمايلوا وسقطوا على بعضهم أكواما فوق أكوام . وتبع ذلك تشويش وحشي ورعب عظيم لا مثيل لهما . وفي الجبال المجاورة تشققت الصخور وتدحرجت إلى السهول بصوت تحطيم شديد . وتفتحت القبور ولفظت موتاها . وبدا وكأن الخليقة كلها ترتجف وتتحطم وتتطاير شظاياها . وانطرح الكهنة والرؤساء والجند والجلادون والشعب على الأرض وقد عقد الرعب ألسنتهم.

عندما صرخ المسيح قائلا: "قد أكمل" كان الكهنة يخدمون في الهيكل . وكان الوقت وقت تقديم الذبيحة المسائية وقد أتي بالحمل الذي يرمز إلى المسيح ليذبح . وإذ كان الكاهن متسربلا بملابسه المقدسة الجميلة وقف شاهرا السكين كما فعل إبراهيم عندما كان مزمعا أن يذبح ابنه . وكان الشعب ينظرون إليه باهتمام عظيم . ولكن هوذا الأرض يرتجف وتتزلزل لأن الرب نفسه يقترب من المكان . وإذا بيد غير منظورة تشق حجاب الهيكل الداخلي من فوق إلى أسفل بصوت تمزيق شديد فينكشف لعيون الشعب المكان الذي كان الله يملأه قبلا بحضوره . في هذا المكان كان يسكن مجد الشكينا . وفي هذا المكان أعلن الله مجده فوق الغطاء (غطاء التابوت) . ولم يرفع أحد قط هذا الحجاب الذي يفصل بين هذا المسكن وبين باقي الهيكل إلا رئيس الكهنة . وكان يدخل إلى قدس الأقداس هذا مرة واحدة في السنة لكي يكفر عن خطايا الشعب . ولكن ها هو الحجاب ينشق إلى اثنين . فما عاد قدس أقداس المسكن الأرضي مقدسا.

لقد سيطر الرعب والتشويش على كل شيء . فالكاهن يوشك أن يذبح الذبيحة ولكن السكين تسقط من يده المضطربة فيهرب الخروف بعيدا . لقد التقى الرمز بالمرموز إليه [719]

بموت ابن الله . لقد قدمت الذبيحة العظيمة وانفتح الطريق إلى قدس الأقداس . وأعد للجميع طريق جديد حي . ولا حاجة للبشرية الخاطئة الحزينة أن تنتظر مجيء رئيس الكهنة فيما بعد . ومنذئذ فصاعدا سيخدم المخلص ككاهن وشفيع في سماء السماوات . وقد بدا وكأن صوتا حيا يخاطب المصلين قائلا: لقد انتهت من الآن كل الذبائح والتقدمات عن الخطية . لقد جاء ابن الله كما قال هأنذا أجيء (في درج الكتاب مكتوب عني) لأفعل مشيئتك يا الله "بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداء أبدياً" (عبرانيين 10 10 : 7 ؛ 9 : 12). [720]

الفصل التاسع والسبعون— “قد أكمل”

إن المسيح لم يسلم الروح إلا بعدما أكمل العمل الذي قد أتى إلى العالم ليعمله . وفيما هو يسلم الروح قال: “قد أكمل” (يوحنا 19 : 30). لقد كسب المعركة . إن يمينه وذراع قدسه قد منحتاه النصرة . وكمنتصر غرس رايته على المرتفعات الدهرية . ألم يكن هنالك فرح بين الملائكة ؟ لقد انتصرت السماء كلها بنصرة المخلص . أما الشيطان فقد انهزم وعلم أن مملكته قد ضاعت.

إن القول “قد أكمل” كان له معنى عميق عند الملائكة والخلائق غير الساقطة ، إذ عمل الفداء العظيم قد أكمل لأجلهم كما لأجلنا فهم يشتركون معنا فى ثمار نصرة المسيح.

إن خلق الشيطان لم يعرف على حقيقته للملائكة أو العوالم غير الساقطة إلى أن مات المسيح . لقد ارتدى رئيس المرتدين ثياب الخداع حتى أن الخلائق المقدسة نفسها لم تدرك مبادئه ولم يروا بكل وضوح طبيعة عصيانه.

لقد كان مخلوقا ذا قوة ومجد عجيبين ذاك الذي وقف يحارب الله . يقول الرب عن لوسيفر: “أنت خاتم الكمال، ولآن حكمة وكامل الجمال” (حزقيال 28 : 12). كان لوسيفر هو الكروب المظلل . وكان يقف في نور وجه الله . لقد كان أسمى كل الخلائق وفي مقدمة من أعلنوا مقاصد الله للمسكونة . وبعدما أخطأ زادت وتفاقمت قوته على الخداع فصار من الصعب اكتشاف خلقه بسبب المركز السامي الذي كان له عند الآب.

كان الله يستطيع أن يهلك الشيطان والذين شاطروه الشعور بمثل السهولة التي بها يلقي الإنسان حصاة على الأرض . ولكنه لم يفعل هذا . لم يكن يمكن الانتصار على العصيان بالعنف . إن قوة الإرغام لا توجد إلا تحت حكم الشيطان . أما مبادئ الرب فليست هكذا ، فسلطته ترتكز على الصلاح والرحمة والمحبة . وكان إبراز هذه المبادئ هو الوسيلة التي استخدمت . إن حكم الله حكم أدبي ، والحق والمحبة هما القوة الغالبة. [721]

كان قصد الله هو وضع الأشياء على أساس أبدي راسخ ، وفى مجالس السماء تقرر أن يعطى الشيطان الوقت الكافي ليظهر المبادئ التي ستكون أساس نظام حكمه . ولقد أدعى أن مبادئه هذه كانت أسمى من مبادئ الله ، وقد أعطي الوقت الكافي لتفاعل مبادئ الشيطان لكي تراها المسكونة السماوية.

قاد الشيطان الناس إلى الخطية فبدأ تدبير الفداء في العمل . ولمدى أربعة آلاف سنة كان المسيح يعمل لرفع الإنسان بينما كان الشيطان يعمل على هلاكه وانحطاطه . وشاهدت المسكونة السماوية ذلك كله.

هجمات شيطانية

وعندما جاء يسوع إلى العالم عبأ الشيطان كل قواته لمحاربته . فمنذ ظهر كطفل في بيت لحم حاول ذلك المغتصب إهلاكه ، وبكل وسيلة ممكنة حاول أن يمنع يسوع من النمو إلى الطفولة الكاملة والرجولة

التي بلا لوم أو القيام بالخدمة المقدسة والذبيحة التي بلا عيب . ولكنه انهزم إذ لم يستطع أن يسوق يسوع إلى ارتكاب الخطية ، ولا أمكنه أن يضعف عزمه أو يثنيه عن العمل الذي جاء إلى العالم ليعمله . ولقد هبت عليه عواصف غضب الشيطان من البرية إلى جلجثة ، ولكن على قدر ما زادت تلك العواصف قسوة زاد تعلق ابن الله بيد الآب ثباتا فصار متقدما في الطريق المخضب بالدم . وكل محاولات الشيطان لمضايقته والانتصار عليه أظهرت صفاته التي بلا عيب في نور أنقى وأكمل.

كانت كل السماء والعوالم غير الساقطة شهوداً لذلك الصراع . فبأي اهتمام عظيم وعميق تتبعوا المشاهد الختامية لذلك الصراع ! لقد رأوا المخلص داخلا إلى بستان جثسيماني ونفسه منحنية من هول الظلمة الداجية . وقد سمعوا صرخته المرة حين قال: "يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس" (متى 26 : 39). وعندما احتجب عنه وجه الآب رأوه وإذا هو يتألم من حزن أشد مرارة من مرارة صراعه الأخير العظيم مع الموت. لقد نضح من جسمه عرق كقطرات دم نازلة على الأرض ، وثلاث مرات اغتصبت من بين شفتيه صلاة في طلب النجاة . وإذ ذاك لم تستطع السماء أن تحتمل ذلك المنظر فأرسل إلى ابن الله رسولا يعزيه. [722]

رأت السماء الضحية تسلم إلى أيدي الرعاع المجرمين الذين كانوا يدفعون المخلص دفعا سريعا من محكمة إلى أخرى وهو يشيع بالسخرية والظلم والعنف ، وسمعت تهكمات مضطهديه على اتضاع مولده ، وسمعت أيضا واحدا من تلاميذه ينكره وهو يحلف ويلعن، ورأت التحريضات المجنونة التي كان الشيطان يحرض بها الناس ، وقوته التي كان بها يلهب خبثهم وغضبهم- يا له من منظر مخيف !- أن يقبض على المخلص في منتصف الليل في جثسيماني ويسحب هنا وهناك من قصر إلى دار قضاء ، ويستدعى للمحاكمة مرتين أمام الكهنة ومرتين أمام السنهدريم ومرتين أمام بيلاطس ومرة أمام هيرودس ، ويستهزأ به ويجلد ويحكم عليه ، ويؤخذ ليصلب حاملا صليبه الثقيل في وسط عويل بنات أورشليم وتهكمات الرعاع.

لقد رأت السماء المسيح معلقا على الصليب فشملها الذهول والحزن حين رأت الدم يقطر من وجهه والعرق المصبوغ بالدم يتجمع على جبينه ، والدم ينزف من يديه ورجليه وينزل قطرة بعد قطرة على الصخور التي نقرت فيها نقرة ليوضع فيها الصليب. ثم إن ثقل جسمه الذي ضغط على يديه ورجليه جعل ثقوب المسامير تنشق وتتسع . وإن أنفاسه المنهوكة زادت سرعة وعمقا عندما كانت نفسه تلهث تحت ثقل خطايا العالم . وقد امتلأ كل سكان السماء دهشة عندما قدم المسيح صلاته وهو يقاسي هول العذاب المرير إذ قال: "يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا 23 : 34). ومع ذلك فالناس المخلوقون على صورة الله اتفقوا على سحق ابنه الوحيد . ما كان أرهب هذا المنظر الذي رآه سكان المسكونة السماوية !

إن رياسات وسلاطين الظلمة كانوا مجتمعين حول الصليب لتلقي ظلمات عدم الإيمان على قلوب بني الإنسان . إن الله عندما خلق هذه الخلائق لتقف أمام عرشه كانت جميلة ومجيدة . وكان جمالهم وقداستهم يتناسبان مع سمو مراكزهم . لقد أغدق الله عليهم من حكمته ومنطقهم بحلة سماوية . وكانوا خدام الرب . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يميز في الملائكة الساقطين صورة السرافيم الممجدين الذين كانوا قبلا يخدمون أمام عرش السماء؟

لقد تحالفت القوات الشيطانية مع الناس الأشرار في تضليل الشعب حتى يعتبروا أن المسيح هو رئيس الخطاة وبذلك يصير هدفا لكراهيتهم واحتقارهم. إن من كانوا يسخرون [723] بالمسيح وهو معلق على الصليب كانت روح العاصي العظيم الأول مطبوعة على قلوبهم .وقد ملأ أفواههم بالألفاظ السافلة البذيئة وأوعز إليهم بالتعييرات. ولكنه لم يجن شيئا من وراء ذلك كله.

الشر يفضحه البر

ولو وجدت في المسيح خطية واحدة ، أو لو خضع للشيطان في شيء صغير لينجو من العذابات الهائلة لانتصر عدو الله والإنسان. لقد نكس المسيح رأسه وأسلم الروح ولكنه ظل ثابتا على إيمانه وخضوعه لله ، "وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه، لأنه قد طرح المشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً" (رؤيا 12 : 10).

رأى الشيطان أن القناع الذي كان يخفي تحته حقيقته قد تمزق ، فانكشفت سياسته الخادعة أمام الملائكة غير الساقطين وأمام مسكونة السماء ، وأعلن عن نفسه كقاتل. فإذ أهرق دم ابن الله فقد حرم نفسه من عطف الكائنات السماوية ومحبتهم . ومنذ ذلك الحين صار عمله محصوراً . ومهما يكن الموقف الذي يتخذه فإنه ما عاد ينتظر الملائكة عند عودتهم من السماء ليتهم أمامهم إخوة المسيح بأنهم يلبسون ثياب السواد ونجاسة الخطية. لقد انفصمت آخر حلقة من حلقات العطف بين الشيطان والعالم السماوي.

ومع ذلك فإن الشيطان لم يهلك حينئذ ، إذ حتى إلى ذلك الحين لم يكن الملائكة كلهم يدركون ما اشتمل عليه ذلك الصراع العظيم. فالمبادئ المعرضة للخطر كان لابد أن تتكشف أكثر . ولأجل الإنسان كان لابد أن يظل الشيطان باقيا . وكان لابد للناس والملائكة أن يلمسوا الفرق بين سلطان النور وسلطان الظلمة . وكان على الإنسان أن يختار لنفسه أي الاثنين يخدم.

عند بدء ذلك الصراع العظيم أعلن الشيطان أن شريعة الله لا يمكن حفظها ، وأن العدل على نقيض الرحمة ، وأنه لو تعدى الخاطئ الشريعة فمن المستحيل أن تغفر خطاياه ، وأنه لابد لكل خطية من أن تنال قصاصها ـ هكذا قال الشيطان ، وإنه إذا تجاوز الله عن معاقبة الخطية فلن يكون اله العدل والحق. فعندما نقض الناس شريعة الله وتحدوا إرادته [724] تهلل الشيطان وأعلن قائلا: لقد تبرهن أن الشريعة لا يمكن أن تطاع ولا يمكن أن تغفر خطية الإنسان. فطالب الشيطان بأن ينفى كل الجنس البشري إلى الأبد بعيدا عن رضى الله حيث أنه هو قد نفي من السماء بعد ما أخطأ . ثم قال: إن الله لو رحم الخاطئ لا يمكن أن يكون عادلا.

رحمة وعدل

ولكن مع كون الإنسان خاطئا فقد كان في موقف يختلف عن موقف الشيطان. لقد أخطأ لوسيفر وهو في السماء في نور مجد الله . وأعلنت له محبة الله بمقدار أعظم مما لم يحظ به أي مخلوق أخر . ومع إدراكه لصفات الله ومعرفته لصلاحه اختار أن يتبع إرادته الأنانية المستقلة . كان هذا الاختيار نهائيا قاطعا . ولم يكن هنالك ما يستطيع الله أن يفعله لأجله أكثر من ذلك ليخلصه . أما الإنسان فقد خدع إذ أظلمت عقله مغالطات الشيطان .ولم يكن يعرف شيئا عن علو محبة الله وعمقها . وكان له رجاء في معرفة محبة الله ، إذ حين يرى صفات الله على حقيقتها قد يجتذب إليه ثانية.

إن رحمة الله للبشر أعلنت بواسطة يسوع . إلا أن الرحمة لا تل غي العدل أو تلقيه جانبا . إن الشريعة تعلن صفات الله ولا يمكن تغيير نقطة واحدة أو حرف واحد ليتفق والإنسان في حالته الساقطة . لم يغير الله شريعته ولكنه ضحى بنفسه في المسيح لأجل فداء الإنسان . فإن "الله كان في المسيح مصالحاً العالم

لنفسه" (2 كورنثوس 5 : 19).

إن الشريعة تتطلب البر - الحياة البارة والخلق الكامل . وهذا ما لا يستطيعه الإنسان إذ هو لا يستطيع القيام بمطاليب شريعة الله المقدسة . ولكن المسيح إذ أتى إلى الأرض كإنسان عاش حياة مقدسة واتصف بالكمال الخلقي . وهو يقدم هذا كله هبة مجانية لكل من يقبله . إن حياته تنوب عن حياة الناس . وهكذا يحصلون على غفران خطاياهم الماضية بواسطة صبر الله واحتماله . وأكثر من ذلك فإن المسيح يطبع صفات الله على قلوب الناس . وهو يبني خلق الإنسان على مثال صفات الله ، وهو بناء فخم من القوة والجمال الروحيين . وهكذا نرى أن نفس بر الناموس يتم في من يؤمن بالمسيح . فيمكن لله أن: "يكون باراً ويبرّر من هو من الإيمان بيسوع" (رومية 3 : 26). [725]

وقد عبر عن محبة الله في عدله بقدر ما عبر عنها في رحمته . إن العدل هو أساس كرسيه وثمرة محبته . لقد كانت غاية الشيطان أن يفصل الرحمة عن الحق والعدل . وحاول أن يبرهن على أن بر شريعة الله هو عدو السلام ، لكن المسيح يرينا أنهما في تدبير الله متحدان لا انفصال بينهما ، فالواحد منهما لا وجود له بدون الآخر "الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاثما" (مزمور 85 : 10).

لقد برهن المسيح بحياته وموته على أن عدل الله لم ينقض رحمته ، بل أن الخطية يمكن أن تغفر ، وأن الشريعة عادلة ويمكن إطاعتها طاعة كاملة. وقد دحضت اتهامات الشيطان، كما قدم الله للإنسان برهانا لا يخطئ على محبته.

محاربة شريعة الله

وهناك خديعة أخرى كانت ستظهر . لقد أعلن الشيطان أن الرحمة تنتقص العدل وأن موت المسيح ألغى شريعة الآب . فلو أمكن تغير الشريعة أو إلغاؤها لما كانت هنالك حاجة لأن يموت المسيح . ولكن إلغاء الشريعة معناه تأييد الإثم وتخليده وإخضاع العالم لسلطان الشيطان . فلأن الشريعة لا يعتريها تغير أو تبدل ، ولأن الإنسان لا يمكنه أن يخلص بدون الطاعة لوصاياها . لهذا رفع يسوع على الصليب . ولكن الشيطان شوه نفس الوسيلة التي بها أثبت المسيح الشريعة ، قائلا إنها تنقضها . وهنا يبدأ آخر صراع في الحرب العظيمة بين المسيح والشيطان.

إن الشيطان يدعي أن الشريعة التي نطق بها الله بفمه مخطئة ، وأن هنالك شرطاً أغفل وألقي به جانبا . هذا هو الادعاء الذي يقدمه إبليس . وهذه هي آخر خدعة ينشرها في العالم . لا حاجة به إلى مهاجمة الشريعة بجملتها . فإذا أمكنه أن يسوق الناس إلى إهمال وصية واحدة فقد نال بغيته "لأن من حفظ كل الناموس، وإنما عثر في واحدة، فقد صار مجرماً في الكل" (يعقوب 2 : 10). فإذ يرضى الناس بكسر وصية واحدة يمسون تحت رحمة الشيطان . والشيطان يحاول أن يسود على العالم بكونه يبدل شريعة الله بوصايا الناس . هذا ما تنبأ عنه الأنبياء لقد أعلن عن السلطة المرتدة العظيمة التي تمثل الشيطان بهذا القول: "ويتلم بكلام ضد العلي ويبلي قديسي العلي، ويظن أنه يغيّر الأوقات [726] والسنة، ويسلّمون ليده" (دانيال 7 : 25).

إن الناس بكل تأكيد سيضعون شرائعهم ليبطلوا شريعة الله وسيحاولون التحكم في ضمائر الآخرين ، وفي غيرتهم على تنفيذ شرائعهم سيقاومون بنى جنسهم.

إن الحرب التي أثيرت ضد شريعة الله والتي بدأت في السماء ستظل مستعرة إلى انقضاء الدهر . وسيمتحن كل إنسان . وعلى كل إنسان في العالم أن يحكم لنفسه فيما إذا كان سيسلك في سبيل الطاعة أو

ينحرف إلى طريق العصيان ، وعلى الجميع أن يختاروا إما شريعة الله أو شرائع الناس وسيكون هنالك فاصل يفصل بين الفريقين . ولن يكون أكثر من فريقين ، وستنكشف أخلاق كل إنسان . وسيبرهن كل واحد إما على أنه قد أختار طريق الولاء أو طريق العصيان.

إزالة الخطية نهائيا

وبعد ذلك تجيء النهاية وسيزكي الله شريعته ويخلص شعبه . أما الشيطان وكل من قد انحازوا إليه فسيقطعون وستهلك الخطية والخطاة فلا يبقى لهم أصل ولا فرع (راجع ملاخي 4 : 1) - فالشيطان هو الأصل وأتباعه هم الفروع . وحينئذ سيتم القول الوارد عن سلطان الشر إذ يقول الله: "من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة ... أبيدك أيها الكروب المظلّل من بين حجارة النار ... وتكون أهوالاً ولا توجد بعد إلى الأبد"، "بعد قليل لا يكون الشرير. تطلّع في مكانه فلا يكون" (حزقيال 28 : 6 — 19 ؛ مزمور 37 : 10 ؛ عوبديا 16).

ليس هذا عملا تعسفيا من جانب الله ، ولكن الذين رفضوا رحمته لابد أن يحصدوا ما قد زرعوه . إن الله هو منبع الحياة . فمتى اختار البعض خدمة الخطية فهم يفصلون أنفسهم عن الله ويقطعون من الحياة ، لأنهم "متجنبون عن حياة الله". يقول المسيح "كل مبغضيّ يحبّون الموت" (أفسس 4 : 18 ؛ أمثال 36 : 8). إن الله يعطي الناس حياة إلى حين حتى تتضح أخلاقهم ومبادئهم . وإذ يتم هذا ينالون جزاء اختيارهم . أما الشيطان وكل من يتحدون به فإذ يقضون حياتهم في عصيان الله يضعون أنفسهم في مركز عدم الوفاق أو الانسجام مع الله بحيث أن نفس وجوده سيكون بالنسبة إليهم نارا آكلة ، حيث أن مجد ذاك [727] الذي هو محبة سيهلكهم.

عند بدء النزاع العظيم لم يفهم الملائكة كل هذا . فلو ترك الشيطان وكل جنوده وقتئذ ليحصدوا كل ثمار خطيتهم لهلكوا ، ولكن ما كان هذا ليوضح للكائنات السماوية أن هذه هي النتيجة الحتمية للخطية ، وكان الشك في صلاح الله سيظل رابضا في أذهانهم كبذار شرير ، وكان يثمر ثماره المريرة وهى الخطية والويل .

لكن الحال لن يكون هكذا عند نهاية الصراع الرهيب . فبعد إتمام تدبير الفداء تنكشف صفات الله لكل الخلائق العاقلة . وسيرى أن وصايا الشريعة الإلهية هي كاملة لا تتغير .وحينئذ تظهر الخطية على حقيقتها ، والشيطان تنكشف خفاياه ويعرف على حقيقته .وحينئذ يزكي استئصال الخطية محبة الله وتثبت كرامته أمام سكان المسكونة الذين يسرون بعمل إرادته وشريعته في قلوبهم.

إذاً فنعما فرح الملائكة عندما نظروا إلى صليب المخلص لأنه مع كونهم لم يدركوا كل شيء على حقيقته فقد علموا أن هلاك الخطية والشيطان تحقق إلى الأبد ، وأن فداء الإنسان قد تحقق ، وأن الكون قد صار في أمان أبد الدهر . إن المسيح نفسه قد أدرك تمام الإدراك نتائج الذبيحة المقدمة فى جلجثة . وقد نظر إلى الأمام إلى ذلك كله عندما صرخ وهو معلق على الصليب قائل : "قد أكمل". [728]

الفصل الثمانون—في قبر يوسف

أخيرا استراح يسوع ، فلقد انقضى اليوم الطويل يوم العار والعذاب . وإذ أعلنت آخر أشعة الشمس الغاربة قدوم السبت كان ابن الله مضجعا بسكون في قبر يوسف . لقد أكمل عمله فطوى يديه في سلام . واستراح طوال ساعات يوم السبت المقدسة .

في البدء استراح الآب والابن في يوم السبت بعدما أتما عمل الخلق . فعندما: "أكملت السماوات والأرض وكل جندها" (تكوين 2 : 1) فرح الخالق وكل الخلائق السماوية وهم يتأملون في ذلك المنظر المجيد ، "ترنّمت كواكب الصبح معاً، وهتف جميع بني الله؟" (أيوب 38 : 7). والآن فها يسوع يستريح من عمل الفداء ، ومع أن محبيه على الأرض قد امتلأت قلوبهم حزنا فقد شمل الفرح ساكني السماء . لقد بدا لعيون السماويين أن المستقبل يبشر بمجد عظيم . رأى الله وملائكته وإذا الخليقة قد أعتقت والجنس البشري قد افتدى . فبعدما غلبوا الخطية لن يمكن أن يسقطوا- وهذه النتيجة نبعت من عمل المسيح الذي قد أكمل . وقد اقترن بهذا المنظر إلى الأبد اليوم الذي استراح يسوع: "الكامل صنيعه"، وقد عرفت العوالم "أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد" (تثنية 32 : 4 ؛ جامعة 3 : 14). فعندما تجيء أزمنة "رد كل شيء" التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر (أعمال 3 : 21) فإن السبت الذي فيه استراح يسوع في قبر يوسف ، سيظل هو يوما للراحة والفرح . وستشترك الأرض مع السماء في التسبيح عندما "من سبت إلى سبت" (إشعياء 66 : 23) يسجد شعوب المخلصين في تعبد مفرح لله والخروف. [729]

شهادة جندي وثني

وفي ختام حوادث يوم الصلب جاء برهان جديد على إتمام النبوات وجاءت شهادة جديدة على ألوهية المسيح ، فعندما انقشعت الظلمة عن الصليب وصرخ المخلص صرخة الموت، في الحال سمع صوت يقول: "حقاً كان هذا ابن الله!" (متى 27 : 54).

وهذه الشهادة لم ينطق بها صاحبها همسا . فإذ سمعها الناس اتجهت كل الأنظار هنا وهناك لمعرفة من نطق بها ومن أين أتت . فمن ذا الذي قال هذا القول ؟ كان ذلك الرجل هو قائد المئة الجندي الروماني . إن الصبر الإلهي الذي أبداه المخلص ، وموته الفجائي مع صيحة النصرة التي نطق بها كان لها تأثيرها في قلب ذلك الرجل الوثني . لقد اكتشف قائد المئة في ذلك الجسم المسحوق المرضوض المعلق على الصليب صورة ابن الله فلم يسعه إلا الاعتراف بإيمانه . وهكذا قدم برهان جديد على أن فادينا سيرى من تعب نفسه .ففي نفس يوم موته رأينا ثلاثة رجال مختلفين عن بعضهم البعض اختلافا بينا يعلنون إيمانهم- وهم قائد المئة الذي كان على رأس الحرس الروماني ، وسمعان القيرواني الذي حمل صليب المخلص ،

واللص الذي مات مصلوبا إلى جوار السيد .

وعندما أقبل المساء شمل موضع جلجثة سكون غير طبيعي . وقد تفرق الجمع وعاد كثيرون إلى أورشليم وحدث في أرواحهم تغيير عجيب لم يختبروه في صبيحة ذلك اليوم .كان كثيرون قد تقاطروا على موضع الصلب مدفوعين بدافع الفضول لا لأنهم كانوا يبغضون المسيح . ولكنهم كانوا لا يزالون يعتقدون بصدق اتهامات الكهنة للمسيح ، فكانوا ينظرون إليه على أنه فاعل شر . وقد اشتركوا مع الرعاع في توجيه الشتائم إلى المسيح مدفوعين إلى ذلك بدافع اهتياج غير طبيعي . ولكن عندما اتشحت الأرض بالمسوح والسواد وبدأت ضمائرهم تبكتهم أحسوا أنهم قد ارتكبوا جرماً عظيماً . فلم تسمع في غضون تلك الظلمة المخيفة أية كلمة هزل أو ضحكة ساخرة ، فلما أشرق النور من جديد رجعوا إلى بيوتهم في وجوم وصمت رهيب . وقد اقتنعوا الآن بأن التهم التي قدمها الكهنة الذي ضد يسوع كانت تهماً كاذبة وأن يسوع لم يكن إنساناً مدعيا . وبعد أسابيع قليلة عندما كان بطرس يكرز في يوم الخمسين كان هؤلاء الناس بين ألوف من اهتدوا إلى المسيح. [730]

ولكن قادة اليهود لم يتغيروا ولا أثرت فيهم الأحداث التي شاهدوها ، ولم تخف وطأة كراهيتهم ليسوع . والظلمة التي لفئت الأرض في وشاحها عند الصلب لم تكن أشد حلوكة من تلك التي كانت لم تزل مخيمة على عقول الكهنة والرؤساء . عند ميلاد المسيح عرفه النجم وقاد المجوس إلى المذود الذي كان مضجعا فيه . وقد عرفه جمهور الجند السماوي وتغنوا مسبحين فوق سهول بيت لحم . والبحر عرف صوته وامتثل لأمره . والأمراض والموت عرفت سلطانه وسلمته قتلاها . وقد عرفته الشمس فعندما شاهدت عذابات الموت التي كان يعانيها حجبت وجهها ونورها . والصخور عرفته فارتعدت وتشققت عندما سمعت صرخته . والطبيعة الجامدة عرفت المسيح وشهدت لألوهيته . أما كهنة إسرائيل ورؤس ا ؤهم فلم يعرفوا ابن الله.

ومع ذلك فإن الكهنة والرؤساء لم يكونوا مطمئنين ولا مستريحين . لقد حققوا أغراضهم إذ قتلوا المسيح إلا أنهم لم يكونوا يحسون بنشوة الظفر التي كانوا ينتظرونها . حتى في ساعة انتصارهم المزعوم كانت الشكوك تزعجهم عما سيتمخض عنه المستقبل . لقد سمعوا صرخة المسيح القائلة: "قد أكمل" وقوله: "يا أبتاه، في يديك أستودع روحي" (يوحنا 19 : 30 ؛ لوقا 23 : 46). ورأوا الصخور تتشقق وأحسوا بالزلزلة العظيمة فلم يكونوا مستريحين ولا مطمئنين.

لقد كانوا يحسدون المسيح بسبب النفوذ الذي كان له على الشعب حين كان حيا ، وحسدوه حتى في موته . ولقد باتوا يخافون من المسيح الميت أكثر كثيرا مما كانوا يخافون من المسيح الحي ، وأمسوا يخشون لئلا يتجه انتباه الناس بعد ذلك إلى الحوادث المرافقة للصلب وكانوا يخافون من نتائج عمل ذلك اليوم . ولم يكونوا يريدون لأي اعتبار أن يظل جسده معلقا على الصليب في يوم السبت . وكان ميعاد يوم السبت يقترب ، فبقاء أجساد المصلوبين معلقة على الصلبان كان فيه انتهاك لكرامة السبت . فاتخذ رؤساء اليهود هذا ذريعة تقدموا بها إلى بيلاطس حتى يعجل بموت المصلوبين وإنزال أجسادهم قبل غروب الشمس.

دم وماء

وكان بيلاطس مثلهم لا يرغب في بقاء جسد يسوع معلقاً على الصليب . وإذ حصلوا [731] على إذن منه كسروا سيقان اللصين المصلوبين لكي يعجلوا بموتهما . أما يسوع فوجدوا أنه قد مات . إن الجند

الأجلاف لانت قلوبهم بسبب ما قد سمعوه ورأوه من يسوع فامتنعوا عن كسر ساقيه . وهكذا في تقديم حمل الله تمت وروعيت شريعة الفصح القائلة: ”لا يبقوا منه إلى الصباح ولا يكسروا عظماً منه. حسب كل فرائض الفصح يعملونه“ (العدد 9 : 12).

وقد دهش الكهنة والرؤساء حين علموا أن يسوع قد مات . إن المصلوبين كانت تطول مدة عذابهم قبلما يسلمون الروح . وكان من الصعب الحكم في الوقت الذي تنتهي فيه الحياة . لقد كان أمرا لم يسمع به أن يموت إنسان بعد صلبه بست ساعات ، وكان الكهنة يريدون التأكد من موت يسوع . فبناء على اقتراحهم طعن أحد العسكر جنب المخلص بحربته ، فخرج من ذلك الجرح نبعان غزيران منفصلان ، أحدهما من الدم والآخر من الماء . ولاحظ الواقفون كلهم هذا ، كما سجل يوحنا هذا الحادث بكل وضوح قائلا: ”لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء. والذي عاين شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم. لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل: عظم لا يكسر منه“ (يوحنا 19 : 34 — 37).

ولكن بعد قيامة المسيح أعلن الكهنة والرؤساء أن المسيح لم يمت على الصليب وإنما فقط غشي عليه ثم أنعش بعد ذلك وعاش . وأكد آخرون أن الذي دفن في القبر لم يكن جسدا حقيقيا من لحم وعظام بل كان صورة جسد . ولكن ما عمله عساكر الرومان يدحض كل هذه الأكاذيب . إنهم لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات . ولكنهم إرضاء لليهود طعنوا جنبه بحربة . فلو لم يكن قد مات من قبل لكانت هذه الطعنة كفيلة بالقضاء عليه في الحال .

لكن الحقيقة هي أنه لا طعنة الحربة ولا آلام الصلب هي التي تسببت في موته يسوع .إن تلك الصرخة التي صرخها ”بصوت عظيم“ (متى 27 : 50 ؛ لوقا 23 : 46) في لحظة الموت ، وينبوع الدم والماء الذي سال من جنبه أعلنا أنه مات بقلب كسير . نعم لقد انكسر قلبه من شدة الحزن ، ولقد ذبحته خطية العالم .

وبموت المسيح هلكت وتلاشت كل آمال تلاميذه . لقد نظروا إلى عينيه المغلقتين ورأسه المنكس وشعره المخضب بالدم ويديه ورجليه المثقوبة فكان حزنهم شديدا لا يعبر [732] عنه . وقد ظلوا إلى النهاية متمسكين بأملهم أنه لن يموت وكادوا لا يصدقون بأنه قد مات . ففي غمرة الحزن لم يذكروا كلامه الذي فيه أنبأهم بهذا المشهد الماثل أمامهم . لا شيء مما قاله لهم في الماضي استطاع أن يعزيهم وقتئذ ، فلم يروا غير الصليب والمصلوب الدامي الجسم . بدا المستقبل أمامهم متجهما ومكتنفا باليأس . وقد هلك إيمانهم بيسوع ، ولكنهم لم يسبق لهم أن أحبوه كما أحبوه الآن . ولم يسبق لهم أن عرفوا قيمته وحاجتهم إلى حضوره كما أحسوا الآن.

حتى مع أن السيد كان عديم الحياة فقد كان عزيزا جدا على قلوب التلاميذ . كانوا يتوقون إلى أن يدفنوه بكل إكرام ولكنهم كانوا حائرين في كيف يفعلون ذلك . لقد حكم على يسوع بالموت بناء على تهمة الخيانة للحكم الروماني ، والذين يموتون لأجل هذا الذنب كانوا يدفنون في القبور المخصصة لهكذا مجرمين . ظل يوحنا والنساء القادمات من الجليل بجوار الصليب . إنهم لم يستطيعوا ترك جسد سيدهم ليسلم لأيدي العسكر العديمي الشعور ليدفنوه في قبر حقير . ومع ذلك فلم يكونوا يستطيعون منع ذلك ، ولم يستطيعوا الحصول على منة من السلطات اليهودية ، ولا كان لهم نفوذ لدى بيلاطس.

يدفن بكل إكرام

ففي هذه الساعة الحرجة خف يوسف الرامي ونيقوديموس لنجدة التلاميذ . كان هذان الرجلان عضوين في مجمع السنهدريم ولهما صلة ببيلاطس . وكانا كلاهما غنيينويتمتعان بنفوذ عظيم . وقد صمما على أن يدفن جسد يسوع بكل إكرام . فذهب يوسف إلى بيلاطس بكل شجاعة وطلب جسد يسوع . فلأول مرة علم بيلاطس أن يسوع مات حقاً . كانت قد وصلته أخبار متضاربة عن الأحداث التي جرت عند الصلب ، ولكن خبر موت المسيح كان قد أخفي عنه تعمدا . كان الكهنة والرؤساء قد حذروا بيلاطس لئلا يخدعه تلاميذ المسيح فيما يختص بجسده . فإذ تقدم إليه يوسف بذلك الطلب أرسل يستدعي قائد المئة الذي كان يحرس الصليب وتحقق من موت المسيح . وطلب منه فأخبره عن المشاهد التي حدثت في جلجثة وبذلك تثبتت شهادة يوسف.

أجيب يوسف إلى طلبه . ففيما كان يوحنا مضطربا ومتحيرا في كيف يدفن جسد سيده [733] عاد يوسف وبيده ترخيص من بيلاطس بأخذ جسد المسيح ودفنه . وجاء أيضاً نيقوديموس حاملا مزيج مر وعود غالي الثمن نحو مئة منا لتحنيط الجثمان . إن أعظم أشراف أورشليم ما كان ليظفر جسده بإكرام أعظم من هذا عند موته . فاندهش التلاميذ حين رأوا هذين الرئيسين الغنيين مهتمين بدفن جسد سيدهم بكل إكرام مثلهم تماما.

إنه لا يوسف ولا نيقوديموس جاهر بتلمذته للمخلص في حياته . لقد عرفا أن مثل تلك الخطوة كفيلة بطردهما من مجمع السنهدريم ، وكانا ينويان أن يحميا المسيح بنفوذهما في جلسات ذلك المجمع . وقد بدا أنهما نجحا إلى حين . ولكن الكهنة الماكرين إذ رأوهما يعطفان على المسيح عرقلوا خططهما . ففي غيابهما حكم على يسوع وأسلم ليصلب . أما الآن وقد مات فما عادا يخفيان حبهما له . ففي حين كان التلاميذ يخشون المجاهرة بأنهم أتباعه خف يوسف ونيقوديموس إلى مساعدتهم . كانوا في أشد الحاجة إلى معونة هذين الرجلين الغنيين الشريفين . فلقد أمكنهما أن يقوما للمعلم المائت بما كان يستحيل على التلاميذ الفقراء أن يقوموا به ، كما قاما بحمايتهم بواسطة ثروتهما ونفوذهما من حقد الكهنة والرؤساء وأذاهم.

وبكل رقة ووقار أنزلا بأيديهما جسد يسوع من على الصليب . وقد انهمرت دموع العطف من مآقيهما وهما ينظران إلى ذلك الجسد المرضض والممزق . وكان يوسف يملك قبرا جديدا منحوتا في صخرة . وكان محتفظا به لنفسه . ولكونه قريبا من جلجثة فقد أعده لجسد يسوع . وبكل حرص لف الجسد مع الأطياب التي أتى بها نيقوديموس في الأكفان وحمل الفادي إلى القبر . فمدد التلاميذ الثلاثة تلك الأعضاء الممزقة ، وطووا اليدين المثقوبين على صدره الذي توقف فيه القلب عن الخفقان . وقد أتت النساء الجليليات ليرين أن كل ما يمكن أن يعمل قد عمل لجثمان معلمهن العديم الحياة . ورأين الحجر الثقيل يدحرج ويوضع على باب القبر ، ويترك المخلص ليستريح . كانت النساء آخر من تركن الصليب وآخر من تركن قبر المسيح . وإذ كانت ظلال المساء تتجمع ظلت مريم المجدلية والمريمات الأخريات باقيات عند موضع راحة سيدهم يسكبن دموع الحزن والحسرة على المصير الذي صار إليه ذاك الذي قد أحببنه ، "فرجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرحن حسب الوصية" (لوقا 23 : 56). [734]

يوم يصعب نسيانه

كان يوم ذلك السبت يوما لم يمكن أن ينساه التلاميذ الحزانى ، وكذلك الكهنة والرؤساء والكتبة والشعب . وعند غروب الشمس في مساء يوم الاستعداد ضربت الأبواق إيذانا بقدوم السبت . وقد مورس الفصح كما سبق أن مورس منذ قرون طويلة خلت ، بينما ذاك الذي كان الفصح يرمز إليه قتل بأيدي أثمة

ودفن بقبر يوسف . وفي يوم السبت امتلأت أروقة الهيكل بالعابدين . وبعد عودة رئيس الكهنة من جلجثة كان هناك متسربلا بأبهى ثيابه المقدسة ، بينما الكهنة اللابسون العمائم البيض الممتلئون نشاطا كانوا يقومون بواجباتهم . ولكن بعض من كانوا حاضرين لم يكونوا مستريحين إذ كان دم الثيران والتيوس يقدم عن الخطية . إنهم لم يكونوا يحسون بأن الرمز قد التقى بالمرموز إليه ، وبأن ذبيحة سرمدية قدمت لأجل خطايا العالم . ولم يعلموا أنه لم تبق قيمة لممارسة الخدمة الطقسية . ولكن لم يسبق لتلك الخدمة أن شوهدت بمثل تلك المشاعر المتضاربة . وكانت الأبواق والآلات الموسيقية وأصوات المغنين عالية وواضحة كالعادة . ولكن شعورا بالتنافر والشذوذ ساد على كل شيء . وجعل الواحد يسأل الآخر عن حادث غريب قد حدث . كان قدس الأقداس قبل ذلك مصونا ومحروسا من كل تطفل ، أما الآن فقد بدا مكشوفا لعيون الجميع . فالحجاب السميك المصنوع من القماش المزركش ومن الكتان النقي والمنسوج بالذهب والإسمانجوني والأرجوان انشق من فوق إلى أسفل ، فذلك المكان الذي كان الرب يتقابل فيه مع رئيس الكهنة ليعلن له مجده ، المكان الذي كان غرفة استقبال الله المقدسة- صار مكشوفا لكل عين ، مكانا ما عاد الرب يقيم له أي اعتبار وكان الكهنة يخدمون أمام المذبح وقد امتلأت قلوبهم بالوساوس المحزنة . إن انكشاف قدس الأقداس ملأهم بالرعب والتطير من توقع حدوث كارثة.

انشغل كثيرون بأفكار أوحت بها مشاهد جلجثة . فمنذ يوم الصلب إلى يوم القيامة كان كثيرون ساهرين يفتشون النبوات ، بعض منهم كانوا يفتشون الكتب ليعرفوا المعنى الكامل للعيد الذي كانوا يحتفلون به ، والبعض الآخر ليجدوا برهانا على أن يسوع ليس كما كان يدعي ، بينما غيرهم كانوا بقلوب مثقلة بالحزن يبحثون عن براهين تدل على أنه مسيا الحقيقي . ومع أنهم كانوا يفتشون الكتب لأغراض متباينة فقد اقتنعوا كلهم بنفس الحق — [735] وهو أن النبوات قد تمت في الحوادث التي جرت في الأيام القليلة الماضية وأن المصلوب هو فادي العالم . وكثيرون ممن اشتركوا في الخدمة في ذلك الحين لم يشتركوا بعد ذلك قط في طقوس الفصح ، وكثيرون حتى من الكهنة أنفسهم اقتنعوا بصفات يسوع الحقيقية .إن تفتيشهم للكتب لم يكن عبثا ، وبعد قيامته اعترفوا أنه ابن الله.

إن نيقوديموس عندما رأى يسوع مرفوعا على الصليب ذكر كلام السيد الذي قاله له في تلك الليلة وهما معا في جبل الزيتون . فلقد قال المسيح: "وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يومن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا 3 : 14 و 15). وفي يوم السبت عندما كان المسيح مدفونا في القبر كانت لدى نيقوديموس فرصة للتأمل . لقد استنار عقله الآن بنور أوضح ، وما عاد الكلام الذي خاطبه به يسوع غامضا ، كما أحس بأنه خسر كثيرا لكونه لم يرتبط بالمخلص مدى حياته. والآن هاهو يتذكر حوادث جلجثة . فصلاة المسيح لأجل قاتليه وجوابه على توسل اللص المائت - كل ذلك تحدث إلى قلب هذا المشير المتعلم ، بقوة عظيمة . ثم نظر أيضاً إلى المخلص وهو يعاني سكرات الموت وسمع صرخته القائلة: "قد أكمل" التى نطق بها كقائد منتصر ، ثم رأى الأرض تتزلزل والسماوات يغطيها الظلام وحجاب الهيكل ينشق والصخور تتشقق فثبت إيمانه إلى الأبد . إن نفس الحادثة التى هدمت آمال التلاميذ أقنعت يوسف ونيقوديموس بألوهية يسوع . لقد تبددت مخاوفهما وانتصرت عليهما شجاعة إيمانهما الثابت الذي لا يتزعزع.

"نريد المسيح الشافي"

إن المسيح لم يسترع انتباه الجموع من قبل كما حدث الآن وهو راقد في القبر . فكما كانوا يفعلون قبلا

أتى الشعب بمرضاهم والمعذبين منهم ووضعوهم في أروقة الهيكل وهم يتساءلون قائلين: من يستطيع أن يخبرنا عن يسوع الناصري ؟ وقد أتى كثيرون من أماكن بعيدة ليجدوا ذاك الذي كان يشفي المرضى ويقيم الموتى . ومن كل جانب كانت تسمع هذه الصرخة: إننا نريد المسيح الشافي ! وفي تلك الفرصة كان الكهنة يفحصون أولئك الذين كان يظن أن أعراض البرص قد ظهرت عليهم ، وكثيرات من النساء كن يسمعن الحكم [736] على أزواجهن ، والأزواج على زوجاتهم والآباء على أولادهم بأنهم قد أصيبوا بالبرص وأنه محكوم عليهم بالخروج من كنف بيوتهم والابتعاد عن رعاية أصدقائهم وأن عليهم أن يحذروا كل غريب بتلك الصرخة المبكية القائلة: "نجس . نجس". ولكن يدي يسوع الناصري المحبتين اللتين لم ترفضا قط أن تلمسا أي أبرص كريه بتلك اللمسة الشافية هما الآن مطويتان على صدره . والشفتان اللتان كانتا تخاطبان الأبرص بكلام العزاء قائلتين "أريد، فاطهر!" (متى 8 : 3) هما الآن صامتتان . وعبثا لجأ الكثيرون إلى الكهنة والرؤساء في طلب العطف والراحة . وبدا وكأنهم مصممون على أن يكون المسيح حيا بينهم ثانية . وبغيرة وإصرار سألوا عنه وقد أبوا أن ينصرفوا ، ولكنهم طردوا من أروقة الهيكل وأوقف الجند على الأبواب ليمنعوا دخول الجموع الذين أتوا بالمرضى والمحتضرين طالبين الدخول.

غاصت قلوب المتألمين الذين أتوا يطلبون الشفاء من المخلص في أعماق هوة اليأس والخيبة . وامتلأت الشوارع بالصراخ والعويل والبكاء . وكاد المرضى يموتون افتقارا إلى لمسة يسوع الشافية . وعبثا استشاروا الأطباء إذ لم يكن بينهم أحد ماهرا كذاك الذي كان مدفونا في قبر يوسف.

هذا، وإن النوح والبكاء الذي كان يسمع من كل مكان أقنع ألوف الناس بأن نورا عظيما قد انطفأ من العالم . فبدون المسيح كانت الأرض قتاما وظلاما ومكتنفة بالأحزان . وكثيرون ممن كانوا قد رفعوا أصواتهم قائلين: "اصلبه، اصلبه" تحققوا الآن هول الكارثة التى حلت بهم ، ورغبوا في أن يصرخوا قائلين: أعيدوا إلينا يسوع ! لو كان ما زال حيا.

وعندما علم الشعب أن يسوع قد قتل بأيدي الكهنة جعلوا يستخبرون عن موته . وقد أبقيت تفصيلات محاكمته سرا على قدر الإمكان ، ولكن المدة التي كان السيد فيها مدفونا في القبر كان اسمه يتردد على أفواه ألوف من الشعب . وتناقلت الألسنة في كل مكان أنباء تلك المحاكمة المزورة الكاذبة ووحشية الكهنة والرؤساء . وقد دعا الأذكياء بين الشعب جماعة الكهنة ليوضحوا لهم النبوات الواردة عن مسيا في العهد القديم ، فإذ حاول الكهنة الالتجاء إلى الكذب في إجابتهم صاروا كالمجانين ولم يستطيعوا شرح النبوات التي كانت تشير إلى آلام المسيح وموته . وكثيرون من أولئك المستفسرين اقتنعوا بأن المكتوب قد تم. [737]

ذُعر المعلمين الدينيين

إن النقمة التي أوقعها الكهنة على المسيح وظنوا أنهم سيسعدون بها كانت افسنتينا ومرارة لهم ، وقد علموا أنهم إنما يواجهون لوم الشعب الشديد ، كما علم الناس أن أولئك الذين حرضوهم ضد يسوع صاروا الآن يرتعبون من فعلتهم المشينة الشنعاء . لقد حاول هؤلاء الكهنة أن يقنعوا أنفسهم بأن يسوع مخادع ولكنهم عبثا حاولوا ، فلقد وقف بعض منهم أمام قبر لعازر ورأوه يخرج من قبره حيا . وكانوا هم يرتعبون خوفا من أن المسيح سيقوم من الأموات ويظهر أمامهم ثانية . لقد سمعوه يعلن أن له سلطانا أن يضع حياته وسلطانا أن يأخذها . وذكروا قوله: "انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يوحنا 2 : 19). كذلك أخبرهم يهوذا بما قاله يسوع لتلاميذه وهم مسافرون في آخر سفرة إلى أورشليم إذ حدثهم قائلا: "ها نحن

صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يسلَم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم” (متى 20 : 18 و 19). عندما سمعوا هذه الأقوال أول مرة سخروا واستهزأوا ، ولكنهم الآن يذكرون أن كل نبوات المسيح تمت . لقد قال إنه سيقوم من الأموات في اليوم الثالث ، ومن يستطيع أن يؤكد أن هذا أيضاً لن يحدث ؟ كانوا يتوقون إلى أن يطردوا تلك الأفكار بعيدا عنهم ولكنهم لم يستطيعوا . وكأبيهم الشيطان كانوا يؤمنون ويقشعرون.

أما الآن وقد زايلهم جنون الاهتياج فقد بدأت صورة المسيح تحتل مكانها في عقولهم. فتصوروه وهو واقف رصينا أمام أعدائه لا يشكو من أحد محتملا تعييراتهم وإهاناتهم بدون تذمر ، كما عادت إلى ذاكرتهم كل حوادث محاكمته وصلبه بقوة إقناع عظيمة قاهرة بأنه ابن الله . وأحسوا بأنه قد يقف أمامهم في أية ساعة فيصير المشكو في حقه شاكيا ، والمدان ديانا ، والمقتول يطالب بإجراء العدل بإهلاك قاتليه.

لم يستطيعوا أن يستريحوا في يوم السبت إلا قليلا . ومع أنهم لم يكونوا يستطيعون دخول بيت أممي خشية التنجس فقد عقدوا مجلسا للتشاور في ماذا يفعلون بجسد المسيح .ينبغي للموت والقبر أن يمسكا جسد ذاك الذي قد صلبوه ، ”وفي الغد الذي بعد الإستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلي بيلاطس قائلين: يا سيد، قد تذكرنا أن ذلك المُضل [738] قال وهو حي: إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث، لئلا يأتي تلاميذه ليلاً يسرقوه، ويقولوا للشعب: إنه قام من الأموات، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى! فقال لهم بيلاطس: عندكم حرّاس. اذهبوا واضبطوه كما تعلمون” (متى 27 : 62 — 65).

القبر المختوم

أعطى الكهنة تعليماتهم لضبط القبر وحراسته . ووضع حجر كبير على باب القبر . وأمام هذا الحجر ثبتوا حبالا في نهاية الصخرة من هنا ومن هناك وختموها بالختم الروماني . ولم يكن يمكن تحريك الحجر دون كسر الختم . وأتي بفرقة من الحرس قوامها مئة جندي اصطفوا حول القبر ليحولوا دون العبث به . وقد بذل الكهنة قصاراهم ليبقوا جسد المسيح حيث كان مدفونا . فظل مختوما عليه بكل حرص كأنما ليظل هناك إلى انقضاء الدهر.

هكذا كان البشر الضعفاء يتشاورون ويدبرون . ولم يتحقق أولئك القتلة من عدم جدوى كل محاولاتهم . ولكن الله تمجد في عملهم هذا . إن نفس الجهود التي بذلت لمنع قيامة المسيح هي من أعظم البراهين المقنعة لإثباتها . وبقدر كثرة عدد الجنود المصطفين حول القبر كان قدر قوة الشهادة على أنه قد قام . وقبل موت المسيح بمئات السنين أعلن الروح القدس على لسان صاحب المزامير قائلا: ”لماذا ارتجّت الأمم، وتفكر الشعوب في الباطل؟ قام ملوك الأرض، وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه، قائلين: لنقطع قيودهما، ولنطرح عنا ربطهما. الساكن في السماوات يضحك. الرب يستهزئ بهم” (مزمور 2 : 1 — 4). لقد عجز جنود الرومان وأسلحة الرومان عن أن تبقي رب الحياة في القبر . فلقد حانت ساعة خروجه. [739]

الفصل الحادي والثمانون—صبح مجيد

كانت ليلة أول أيام الأسبوع تقترب من نهايتها ببطء ، وقد جاءت أحلك ساعات تلك الليلة قبل انبلاج الصبح ، وكان المسيح لا يزال سجينا في قبره الضيق ، وكان الحجر الكبير لا يزال في مكانه ، والختم الروماني كان سليما ، غير مكسور ، وكان جند الرومان في مكان حراستهم . وكان هناك حراس لا يراهم أحد . فقد كان هناك جند من الملائكة الأشرار مجتمعين حول ذلك المكان . ولو كان ذلك في الإمكان لكان سلطان الظلمة ، يعاونه جيشه المرتد ، يبقون القبر الذي كان ابن الله فيه مختوما إلى الأبد . ولكن جيشا سماويا كان يعسكر حول القبر . إن الملائكة المقتدرين قوة كانوا يحرسون القبر منتظرين ليرحبوا برئيس الحياة . "وإذا زلزلة عظيمة حدثت، لأن ملاك الرب نزل من السماء" (متى 28 : 2). إن هذا الملاك نزل من السماء متسربلا بحلة السماء ، وقد تقدمته أنوار مجد الله وأنارت طريقه . "وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض كالثلج. فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموات" (متى 28 : 3 و 4).

أين قوة حراسكم أيها الكهنة والرؤساء ؟ ها الجنود البواسل الذين لم يخافوا من أية قوة بشرية قد صاروا الآن أسرى بلا سيف أو رمح . إن الوجه الذي ينظرون إليه ليس وجه أي محارب بشري ولكنه وجه أقوى جندي في جيش الرب . إن هذا الرسول هو الذي يشغل المركز الذي سقط منه الشيطان . إنه نفس ملاك الرب الذي أعلن من فوق تلال بيت لحم خبر ميلاد المسيح . وقد ارتجفت الأرض عند قدومه ، وولت جيوش الظلام الأدبار. وإذ كان يدحرج الحجر بدا وكأن السماء قد نزلت على الأرض . والحراس يرونه وهو يدحرج الحجر كما لو كان حصاة ويسمعونه يصرخ قائلا: يا ابن الله اخرج . إن أباك يدعوك . ثم يرون يسوع وهو يخرج من القبر ويسمعونه يعلن من فوق القبر المفتوح قائلاً: "أنا هو القيامة والحياة" (يوحنا 11 : 25). وإذ يخرج بجلال ومجد عظيم يخر [740] الملائكة ساجدين أمام الفادي ويرحبون به بأغاني الحمد.

في الساعة التي وضع فيها المسيح حياته حدثت زلزلة كما حدثت زلزلة أخرى في اللحظة التى فيها أخذها منتصرا . فذاك الذي غلب الموت والهاوية خرج من القبر بخطوات قائد منتصر في وسط تزلزل الأرض ووميض البروق وقصف الرعود . وعندما يأتي إلى الأرض ثانية سيزلزل "لا الأرض فقط بل السماء أيضاً"، "ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعرزال"، "وتلتف السماوات كدرج"، "تنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها"، "ولكن الرب ملجأ لشعبه، وحصن لبني إسرائيل" (عبرانيين 12 : 26 ؛ إشعياء 24 : 20 ؛ 34 : 4 ؛ 2 بطرس 3 : 10 ؛ يوئيل 3 : 16).

يخرج من القبر ممجدا

عند موت يسوع رأى العسكر الأرض ملتحفة بالظلام في وقت الظهر ، أما عند قيامته فقد رأوا لمعان

نور الملائكة ينير ظلام الليل وسمعوا سكان السماء يغنون بفرح وانتصار قائلين: لقد غلبت الشيطان وقوات الظلمة . ابتلعت الموت إلى غلبة !

خرج المسيح من القبر ممجدا ورآه الحراس الرومان فحدقوا النظر إلى وجه ذاك الذي كانوا يهزأون به ويسخرون منه منذ عهد قريب . وقد تحققوا من أن هذا الكائن الممجد هو نفس الأسير الذي رأوه في دار الولاية ، والذي ضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه . هذا هو ذاك الذي وقف مستسلما أمام بيلاطس وهيرودس وقد تمزق جسده من أثر الجلدات القاسية ، هو الذي سمر على الصليب والذي كان الكهنة والرؤساء وهم راضون كل الرضى يهزون رؤوسهم قائلين: “خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها!” (متى 27 : 42). هذا هو الذي وضع في قبر يوسف الجديد . إن حكم السماء العالي قد أطلق الأسير . ولو تكدست فوق قبره جبال فوق جبال لما أمكنها أن تمنعه من الخروج.

فلما رأى حراس الرومان الملائكة والمخلص الممجد غشي عليهم وصاروا كأموات .فلما اختفي السماويون عن أنظارهم قاموا ووقفوا على أقدامهم وبسرعة عظيمة على قدر ما استطاعت أرجلهم المرتعدة أن تحملهم ساروا إلى باب البستان . وإذ كانوا يترنحون [741] كالسكارى أسرعوا إلى المدينة وأخبروا من صادفهم بالخبر العجيب . كانوا سائرين في طريقهم إلى بيلاطس ، ولكن الخبر وصل إلى أسماع السلطات اليهودية فأرسل الكهنة والرؤساء يطلبون مثولهم أمامهم أولا . وكان منظر أولئك الحراس غريبا . فإذ كانوا يرتجفون خوفا وقد شحبت وجوههم شهدوا لقيامة المسيح . أخبرهم الحراس بكل شيء كما قد رأوه تماما . ولم يكن لديهم وقت لأن يفكروا أو يقولوا شيئا غير الحق . وبأصوات بان فيها الألم قالوا: إن المصلوب هو ابن الله ، فلقد سمعنا ملاكا يعلن أنه جلال السماء وملك المجد.

بلبلة ورعب

بدت وجوه الكهنة كوجوه الموتى ، وحاول قيافا أن يتكلم وانفرجت شفتاه ولكنه لم ينبس ببنت شفة . وإذ كان الحراس على أهبة الخروج من غرفة المجلس إذا بصوت يستوقفهم .فقد استطاع قيافا أخيرا أن يتكلم فقال لأولئك الحراس: انتظروا ، انتظروا . لا تخبروا أحدا بشيء مما رأيتم.

ثم أعطي لأولئك الجنود بلاغ كاذب . فلقد قال لهم الكهنة: “قولوا إن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام” (متى 28 : 13). وهنا نجد الكهنة يخادعون أنفسهم ، إذ كيف يقول الحراس إن التلاميذ سرقوا الجسد وهم نيام ؟ وكيف يمكنهم معرفة ذلك ما داموا نياما ؟ ولو كان التلاميذ قد سرقوا جسد المسيح حقا ، أفما كان الكهنة أول من يحكمون عليهم ؟ وإذا كان الحراس قد ناموا عند القبر أما كان الكهنة أول من يشتكون عليهم أمام بيلاطس ؟

ارتعب الحراس من فكرة كونهم يثبتون على أنفسهم تهمة النوم في مركز حراستهم إذ كان جزاء هذه الجريمة القتل . فهل يشهدون كذبا فيخدعون الشعب ويعرضون حياتهم للخطر ؟ ألم يحرسوا القبر وهم ساهرون طوال الليل ، فكيف يثبتون أمام المحكمة لو حلفوا زورا ولو طمعا في المال ؟

فلكي يسكت الكهنة الشهادة التي كانوا يخافونها وعدوا الحراس أن يعملوا ما يكفل سلامتهم قائلين إن بيلاطس مثلهم تماما لا يرغب في انتشار هذا الخبر ، فباع أولئك الجنود الرومان صدقهم وأمانتهم لليهود بالمال.

لقد وقفوا أمام الكهنة مثقلين بأرهب أخبار الحق ، ولكنهم خرجوا محملين بالمال ، [742] وعلى ألسنتهم خبر كاذب لقنهم إياه الكهنة .

وفي أثناء ذلك وصل خبر قيامة المسيح إلى بيلاطس . ومع أن هذا الوالي كان مسئولا عن تسليم المسيح للموت كان قليل الاكتراث نسبيا . ففي حين أنه حكم على المخلص وهو كاره وبه عطف شديد عليه ، إلا أن ضميره لم يبكته حتى ذلك الحين . فبرعب شديد حبس نفسه في بيته وعزم على ألا يرى أحدا . لكن الكهنة شقوا طريقهم إليه وأخبروه بالأكذوبة التي كانوا قد اخترعوها وألحوا عليه أن يتغاضى عن إهمال الحراس لواجبهم . وقبلما يطابق معهم راح يسأل الحرس بنفسه عن القضية . أما الحراس فإنهم خوفا على سلامتهم لم يجسروا على إخفاء شيء عن الوالي إذ طلب منهم أن يخبروه بكل ما حدث . أما هو فلم يثر تلك المسألة فيما بعد ، إلا أنه بعد ذلك لم يعد يعرف طعم السلام. عندما دفن يسوع في القبر انتصر الشيطان . وكان يؤمل أن المسيح لن يستعيد حياته ثانية . وادعى إبليس أن له الحق في جسد الرب ، لذلك أقام حراسة حول القبر محاولا أن يبقي جسد المسيح في أسره . ولكنه غضب أشد الغضب عندما هرب ملائكته لدى قدوم رسول السماء . وعندما رأى المسيح يخرج ظافرا عرف أن ملكه سينقضي وأنه لا بد سيموت في النهاية.

"أنا هو القيامة"

إن الكهنة إذ صلبوا المسيح وقتلوه جعلوا أنفسهم آلات في يد الشيطان . والآن ها هم يصيرون تحت سيطرته التامة . لقد أوقعوا أنفسهم في شرك لم يكونوا يجدون بابا للنجاة منه إلا بمواصلة حربهم ضد المسيح . فعندما سمعوا بنبأ قيامته باتوا يخشون غضب الشعب وأحسوا بأن حياتهم في خطر . وظنوا أن أملهم الوحيد هو في إثبات كون المسيح مخادعا بإنكار قيامته . فرشوا الحراس وضمنوا سكوت بيلاطس ، كما نشروا الأخبار الكاذبة في كل مكان . ولكن كان هنالك شهود لم يستطيعوا إسكاتهم . إن الكثيرين كانوا قد سمعوا شهادة الحراس لقيامة المسيح ، كما أن بعض الأموات الذين خرجوا من قبورهم مع المسيح ظهروا لكثيرين وأعلنوا أنه قد قام . وقد وصلت الأخبار إلى الكهنة عن أناس رأوا هؤلاء الذين قد قاموا وسمعوا شهادتهم . فكان الكهنة والرؤساء في رعب دائم لئلا يقفوا وجها [743] لوجه أمام المسيح وهم سائرون في الشوارع أو وهم في خلوة في بيوتهم . وأحسوا بأنه لا أمان لهم . إن المزاليج والأبواب المغلقة بكل إحكام لا يمكنها أن تحمي الإنسان من ابن الله . وفي النهار والليل ظل ذلك المشهد الذي حدث في دار القضاء حين صرخوا قائلين: "دمه علينا وعلى أولادنا" (متى 27 : 25) ماثلا أمام عيونهم لا يفارقهم البتة . إن ذكرى ذلك المشهد لم تفارق عقولهم قط . وما عادوا يذوقون طعم النوم الهنيء بعد ذلك أبدا.

وعندما سمع صوت الملاك العظيم أمام قبر المسيح قائلا إن الآب يدعوك ، خرج المخلص من القبر بالحياة التي كانت له في ذاته . وقد تحقق الآن صدق كلامه حين قال: "أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. وقد تحققت الآن النبوة التي كان قد أنبأ بها الكهنة والرؤساء عندما قال لهم انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه" (يوحنا 10 : 17 و 18 ؛ 2 : 19).

وفوق قبر يوسف المشقوق أعلن المسيح قائلا بكل انتصار: "أنا هو القيامة والحياة" ولم يكن يمكن لغير الله أن يفوه بهذا الكلام . فكل الخلائق تعيش بإرادة الله وقدرته . إنهم يعتمدون على الله إذ يستمدون الحياة منه . فمن أسمى السرافيم إلى أدنى الخلائق الحية -الجميع يشبعون ويرتوون من نبع الحياة . إنما فقط ذاك الذي هو واحد مع الله هو وحده الذي استطاع أن يقول: "لي سلطان أن أضعها (حياتي) ولي سلطان أن آخذها أيضاً". إن المسيح بقوة ألوهيته كان له السلطان أن يحطم قيود الموت.

باكورة الحصاد

قام المسيح من الأموات كباكورة للراقدين . لقد كان هو المرموز إليه بحزمة الترديد .وكانت قيامته في نفس اليوم الذي كانت حزمة الترديد ستقدم فيه أمام الرب . وقد ظل هذا الطقس الرمزي يمارس مدة تزيد عن ألف سنة . فمن حقول الحصاد كانت تجمع أول السنابل التي تنضج قبل غيرها . وعندما كان الشعب يذهبون إلى أورشليم في عيد الفصح كانت حزمة الباكورة تردد كتقدمة شكر للرب . وقبل تقديم حزمة الباكورة هذه لم يكن يسمح باستعمال المنجل في حصاد حقل الحنطة ولا حزمها في حزم . وتلك الحزمة [744] المكرسة للرب كانت تمثل الحصاد . كذلك المسيح الباكورة يمثل الحصاد الروحى العظيم الذي سيجمع لملكوت الله . وقيامته هي رمز وعربون لقيامة كل الأموات الأبرار ، "لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضاً معه" (1 تسالونيكي 4 : 14).

وإذ قام المسيح فقد سبى سبيا إذ أقام من القبر جماعة من الأسرى . فالزلزلة التي حدثت عند موته فتحت قبور هؤلاء الناس. وعندما قام خرجوا من قبورهم معه . لقد كانوا عاملين مع الله وشهدوا للحق وقدموا أرواحهم ثمنا لذلك . فالآن عليهم أن يشهدوا لمن أقامهم من الأموات.

إن يسوع في أثناء خدمته أعاد الحياة للموتى . فقد أقام ابن أرملة نايين وابنة رئيس المجمع ولعازر ، ولكن هؤلاء لم يتسربلوا بالخلود فبعد قيامتهم كانوا لا يزالون خاضعين للموت . ولكن أولئك الذين خرجوا من قبورهم عند قيامة المسيح أقيموا لحياة أبدية . لقد صعدوا معه كتذكارات لنصرته على الموت والهاوية . وقد قال المسيح: هؤلاء ما عادوا أسرى الشيطان فلقد افتديتهم . لقد أخرجتهم من القبور كباكورة لقوتي ليكونوا معي حيث أكون . لن يذوقوا الموت أو الحزن فيما بعد.

هؤلاء دخلوا المدينة وظهروا لكثيرين وأعلنوا قائلين: لقد قام المسيح من الأموات وقمنا نحن معه . وهكذا تأيدت حقيقة القيامة . فالقديسون المقامون شهدوا لصدق هذا القول: "تحيا أمواتك تقوم الجثث". وقد كانت قيامتهم مثالا لإتمام النبوة القائلة: "استيقظوا، ترنموا يا سكان التراب. لأن طلّك طل أعشاب، والأرض تسقط الأخيلة" (إشعياء 26 : 19).

لحظة رقاد

والمسيح للمؤمن هو القيامة والحياة . ففي مخلصنا أعيدت لنا الحياة التي ضاعت بسبب الخطية لأن له حياة في ذاته ليحيي من يشاء وله مطلق السلطان لأن يهب الخلود .فالحياة التى وضعها (بذلها) في جسم بشريته يأخذها ثانية ويعطيها للبشرية . ولقد قال: "السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون [745] لهم أفضل"، "من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية"، "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنا 10 : 10 ؛ 4 : 14 ؛ 6 : 54).

إن الموت بالنسبة إلى المؤمن هو أمر زهيد . والمسيح يتكلم عنه كما لو كان أمرا قليل الخطورة . "إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد". "لن يذوق الموت" والموت للمسيحي إن هو إلاّ رقاد ، فترة سكون وظلام . الحياة مستترة مع المسيح في الله . "متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد" (يوحنا 8 : 51 و 52 ؛ كولوسي 3 : 4).

إن الصرخة التي صرخها المسيح على الصليب قائلا: "قد أكمل" سمعت بين الأموات . فاخترقت جدران القبور وأمرت الأموات أن يقوموا . وكذلك سيحدث عندما يسمع صوت المسيح من السماء ، وهذا الصوت سيخترق القبور ويحطم مغاليقها ويقوم الأموات في المسيح . عند قيامة المخلص فتحت قبور قليلة ولكن في مجيئه الثاني سيسمع صوته كل الموتى الأعزاء ويخرجون لحياة الخلود المجيدة . فنفس القوة التي أقامت المسيح من الأموات ستقيم كنيسته وتمجدها معه فوق كل الرياسات والسلاطين وفوق كل اسم يسمى ليس في هذا العالم فقط بل في العالم الآتي أيضاً. [746]

الفصل الثاني والثمانون— “لماذا تبكين؟”

إن النساء اللواتي كن واقفات إلى جوار صليب المسيح ظللن ينتظرن مرور ساعات يوم السبت . وفي أول أيام الأسبوع وفي الصباح الباكر سرن في طريقهم إلى القبر حاملات الحنوط والأطياب ليدهن جسد المخلص . ولم يكن يفكرن في قيامته من الأموات.

لقد غربت شمس آمالهم وجثم الليل بظلامه وحزنه على قلوبهم . وفيما كن سائرات جعلن يردن ذكرى أعمال رحمة المسيح وكلام التعزية الذي نطق به . ولكنهن نسين قوله: “ولكني سأراكم أيضاً” (يوحنا 16 : 22).

وإذ كن يجهلن حتى الحوادث الجارية حينئذ اقتربن من البستان . وفيما هن سائرات كن يقلن: “يدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟” (مرقس 16 : 3). لقد كن يعرفن أنهن عاجزات عن أن يدحرجن الحجر ، ولكنهن مع ذلك تقدمن سائرات في طريقهن .وإذا بالسماوات تضيء بغتة بلمعان عظيم لم يكن منبعثا من شروق الشمس ، وإذا بالأرض تتزلزل . وقد رأين الحجر العظيم مدحرجا ، أما القبر فكان فارغا .

القبر المفتوح

لم تكن النساء كلهن قد أتين من اتجاه واحد ، وكانت مريم المجدلية هي أول من وصلت إلى ذلك المكان . ولما رأت الحجر مدحرجا عادت مسرعة لتخبر التلاميذ . وفي تلك الأثناء جاءت المرأتان الأخريان . وكان يرى نور يضيء حول القبر ، ولكن جسد يسوع لم يكن هناك . وفيما هما في ذلك المكان وجدتا فجأة أنهما لم تكونا وحدهما . ذلك أن شابا بثياب براقة كان جالسا إلى جوار القبر . وكان هو الملاك الذي دحرج الحجر . وإن قد اتخذ هيئة بشرية حتى لا تخاف منه صديقتا يسوع تانك. ولكن نورا سماويا مجيدا كان لم يزل يحيط به فخافت المرأتان . وكانتا مزمعتين أن تطلقا سيقانهما للريح وتهربا . ولكن الملاك استوقفهما قائلا: “لا تخافا أنتما، [747] فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو إلهنا، لأنه قام كما قال! هلما انظرا الموضع الذي كان الرب مضطجعاً فيه. واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه: إنه قد قام من الأموات” (متى 28 : 5 — 7). وإذا تتطلع النسوة إلى القبر ثانية يسمعن نفس ذلك الخبر العجيب . إذ يوجد هناك ملاك آخر بهيئة بشرية يقول للنساء: “وإذ كنّ خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض، قالا لهنّ: “لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات؟ ليس هو ههنا، لكنه قام! اذكرن كيف كلّمكن وهو بعد في الجليل قائلاً: إنه ينبغي أن يسلّم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة، ويصلب، وفي اليوم الثالث يقوم” (لوقا 24 : 5 — 7).

وقد قام ، قد قام ! كررت النساء هذا القول مرارا وتكرارا . إذا فلا حاجة إلى الأطياب أو العطور أو الحنوط فالمخلص حي وليس ميتاً . وهاهن الآن يذكرن كيف أنه عندما كان يتكلم عن موته كان يقول إنه

سيقوم ثانية . أي يوم هذا للعالم ! انطلقتا سريعا من ذلك المكان "بخوف وفرح عظيم، راكضتين لتخبرا تلاميذه" (متى 28 : 8).

ولكن المجدلية لم تكن قد سمعت ذلك الخبر السار . فذهبت لتخبر بطرس ويوحنا بذلك الخبر المحزن قائلة: "أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه!" (يوحنا 20 : 2). فأسرع التلميذان إلى القبر فوجداه كما قالت مريم . لقد وجدا الأكفان والمنديل إلا أنهما لم يجدا سيدهما . ولكن حتى في هذا كانت توجد شهادة على أنه قد قام . لم تكن الأكفان ملقاة في غير اكتراث بل كانت ملفوفة بكل حرص وعناية ، وكل منهما وحده . جاء يوحنا: "ورأى فآمن" (يوحنا 20 : 8). إنه لم يكن قد فهم بعد الكتاب القائل إن المسيح ينبغي أن يقوم من الأموات . ولكنه الآن يذكر أقوال المخلص التي فيها أنبأ قيامته.

إن المسيح نفسه هو الذي لف تلك الأكفان بمثل ذلك الحرص . فعندما نزل الملاك العظيم من السماء إلى القبر تبعه ملاك آخر كان معه يحرس جسد الرب . فعندما دحرج الملاك الأول الحجر دخل الملاك الثاني القبر وحل الربط عن جسد يسوع . ولكن المخلص هو الذي لف الأكفان بيديه ووضع كلا منها في مكانه . فذاك الذي يسير الكواكب كما يحرك الذرات لا يوجد شيء عديم الأهمية في نظره . إن النظام والكمال يريان في كل أعماله. [748]

صوت السيد الرب

وقد تبعت مريم بطرس ويوحنا إلى القبر ، فلما رجعا إلى أورشليم ظلت هي هناك .وإذ كانت تتطلع إلى داخل القبر الفارغ ملأ الحزن قلبها . وإذ تطلعت رأت الملاكين واحدا عند الرأس والآخر عند الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعا . فسألاها قائلين: "فقالا لها: يا امرأة لماذا تبكين؟ قالت لهما: إنهم أخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه!" (يوحنا 20 : 13).

وبعد ذلك اتجهت إلى ناحية أخرى بعيدا عن الملاكين إذ ظنت أنها لا بد أن تجد من يخبرها عما صنع بجسد يسوع . وإذا بصوت آخر يسألها قائلا: "يا امرأة، لماذا تبكين؟ من تطلبين؟" (يوحنا 20 : 15) فمن خلال الدموع التي امتلأت بها عيناها رأت رجلا . "فقالت له: يا سيد، إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته، وأنا آخذه" (يوحنا 20 : 15). إذا كان قبر هذا الرجل الغني أكرم من أن يدفن فيه جسد يسوع فستجد هي نفسها مكانا له . هناك قبر خرج منه ساكنه بكلمة المسيح حيث كان لعازر مضطجعا . أفلا يمكنها أن تجد قبرا هناك تدفن فيه سيدها ؟ وقد كانت تحس أن احتفاظها بجسد سيدها المصلوب العزيز يكون عزاء عظيما لها في حزنها .

ولكن الآن هاهو يسوع يقول لها بصوته المألوف لديها: "يا امرأة" وقد عرفت الآن أن الذي يخاطبها لم يكن إنسانا غريبا . فلما نظرت إليه رأت أمامها المسيح الحي . ففي فرحها نسيت أنه قد صلب . فوثبت إليه كأنما لتحتضن رجليه وقالت: "ربّوني" ولكن المسيح رفع يديه قائلاً لها: "لا تعيقيني". "قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا 20 : 16 و 17). فسارت مريم راجعة في طريقها إلى التلاميذ وفي فمها تلك الرسالة المفرحة.

رفض يسوع قبول الولاء من أتباعه حتى أيقن أن الآب قد قبل ذبيحته . لقد صعد إلى المواطن السماوية وسمع من الله نفسه تأكيدا أن كفارته التي قدمها عن خطايا الناس كافية وأن الجميع يمكنهم أن ينالوا بدمه الحياة الأبدية . وقد أقر الآب عهده مع المسيح وأنه سيقبل التائبين المطيعين ويحبهم كما يحب

ابنه . كان على المسيح أن يتمم عمله وينجز [749] عهده كما قال: "وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز، والإنسان أعو من ذهب أوفير" (إشعياء 13 : 12). وقد دفع كل سلطان في السماء وعلى الأرض إلى رئيس الحياة . ثم عاد إلى تابعيه في عالم الخطية ليوزع عليهم من قوته ومجده.

عندما كان المخلص في حضرة الله يتقبل العطايا لأجل كنيسته كان التلاميذ يفكرون في قبره الفارغ وهم ينوحون ويبكون . فذلك اليوم الذي كان يوم بهجة وفرح لكل السماء كان يوم شكوك وحيرة وارتباك للتلاميذ . إن عدم تصديقهم لشهادة النساء يرينا إلى أي حد هبط إيمانهم وضعف . وخبر قيامة المسيح كان يختلف اختلافا بينا عما كانوا يتوقعونه بحيث لم يصدقوه . لقد ظنوا ذلك الخبر طيبا إلى حد يصعب تصديقه . لقد سمعوا كثيرا من التعاليم وما يسمى نظريات الصدوقيين العلمية حتى أن الأثر الذي طبعه خبر القيامة في أذهانهم كان ملتبسا وغامضا . إنهم لم يكونوا يعرفون إلا النزر اليسير عن معنى القيامة من الأموات . وكانوا عاجزين عن الإلمام بهذا الموضوع العظيم.

"لتلاميذه ولبطرس"

قال الملاكان للنساء: "اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه كما قال لكم" (مرقس 16 : 7). كان ذانك الملاكان يلازمان المسيح مدى حياته على الأرض لحراسته . لقد شاهدا كيف حوكم وصلب وسمعا كلامه الذي قاله لتلاميذه وهذا يظهر من رسالتهما للتلاميذ وكان ينبغي لهم أن يصدقوها ، فهذا الكلام لا يمكن أن يقوله إلا رسل سيدهم المقام.

قال الملاكان: "قلن لتلاميذه ولبطرس". إن بطرس منذ مات المسيح ظل منسحق القلب ندما . فإنكاره المشين لسيده ونظرة المحبة المشوبة بالحزن والألم التي وجهها إليه المخلص كانا ماثلين أمامه على الدوام ، ودون جميع التلاميذ قاسى بطرس أمر الآلام ، فأعطى له اليقين بأن توبته قد قبلت وأن خطيته قد غفرت . وقد ذكر بالاسم.

"قلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه". إن التلاميذ كلهم تركوا يسوع ، فالدعوة الموجهة إليهم مرة أخرى للاجتماع به تشملهم جميعا . إنه لم يطرحهم ولا رفضهم . ولما قالت لهم مريم المجدلية إنها قد رأت الرب كررت لهم نفس الدعوة إلى [750] الاجتماع في الجليل . وقد وصلتهم الرسالة للمرة الثالثة . فبعدما صعد يسوع إلى الآب ظهر لامرأتين أخريين وقال لهما: "سلام لكما. فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له .. فقال لهما يسوع: لا تخافا. اذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل، وهناك يرونني" (متى 28 : 9و 10).

شك وحيرة

كان أول عمل للمسيح على الأرض بعد قيامته هو أن يقنع تلاميذه بمحبته الكاملة واعتباره الرقيق لهم . وقد ظهر لهم مرارا وتكرارا ليبرهن لهم على أنه مخلصهم الحي وأنه قد حطم قيود القبر وما عاد عدوه الموت يمسكه بعد . ولكي يعلن لهم أنه لا يزال يكن لهم نفس المحبة التي كانت في قلبه نحوهم كما كان عندما كان هو معلمهم الحبيب ظهر لهم مرارا . لقد أراد أن يمكِّن أواصر المحبة بينه وبينهم أكثر مما كانت . قال للمرأتين: اذهبا قولا لإخوتي أن يلاقوني في الجليل.

عندما سمع التلاميذ بهذا الميعاد الذي حدده السيد بكل توكيد ابتدأوا يذكرون أقواله التي أنبأهم فيها بقيامته . ولكن حتى إلى الآن لم يجد الفرح طريقه إلى قلوبهم إذ لم يستطيعوا أن يطرحوا عنهم شكوكهم وحيرتهم . حتى بعدما أخبرتهم المرأتان بأنهما قد رأتا الرب لم يصدقهما التلاميذ ، وظنوا أنهما قد وقعتا تحت تأثير خداع.

لقد بدأ وكأن ضيقا يتلوه ضيق . ففي اليوم السادس من الأسبوع رأى التلاميذ سيدهم يموت ، وفي اليوم الأول من الأسبوع لم يجدوا جسده في القبر ، كما اتهموا بسرقة الجسد لإيهام الناس وخداعهم . وقد كانوا يائسين من تصحيح تلك الأكاذيب التي أشيعت ضدهم ووصلت إلى كل الأسماع . وكانوا يخشون عداوة الكهنة وغضب الشعب فتاقوا إلى حضور يسوع الذي أعانهم في كل مشكلاتهم.

مرارا كثيرة كانوا يرددون هذا القول: "ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل". ففي وحدتهم وحزن قلوبهم ذكروا قوله: "لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس؟" (لوقا 24 : 21 ؛ 23 : 31). وقد اجتمعوا معا في الليلة وأغلقوا خلفهم الأبواب وأوصدوها جيدا إذ كانوا يعلمون مصيرهم سيكون كمصير [751] معلمهم المحبوب.

لكن كان يمكنهم أن يكونوا فرحين طول تلك المدة لعلمهم بأن مخلصهم قد قام . لقد وقفت مريم في البستان باكية في حين كان يسوع قريبا منها جدا . إن الدموع أعمت عينيها فلم تميزه . وكذلك كانت قلوب التلاميذ مفعمة حزنا بحيث لم يصدقوا رسالة الملائكة ولا كلام المسيح نفسه.

كم من الناس لا زالوا يفعلون نفس ما فعله التلاميذ ! وكم منهم يرددون صرخة اليأس التي نطقت بها مريم حين قالت: "أخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه!" (يوحنا 20 : 13). وكم من الناس يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال- لماذا تبكون ؟ إنه قريب منهم جدا ولكن عيونهم المغرورقة بالدموع لا تميزه . إنه يخاطبهم ولكنهم لا يفهمون كلامه.

حبذا لو أن الرؤوس المنحنية تنتصب والعيون تتفتح لتراه ، والآذان تصغي لصوته! "اذهبا سريعاً قولا لتلاميذه: إنه قد قام من الأموات". قولا لهم ألا ينظروا إلى قبر يوسف الجديد الموضوع على بابه حجر كبير والمختوم بختم الرومان . إن المسيح ليس هناك . لا تنظروا إلى القبر الفارغ . لا تنوحوا كمن هم عاجزون ولا رجاء لهم. إن يسوع حي ولأنه حي فسنحيا نحن أيضاً معه . فمن أعماق القلوب الشاكرة والشفاه التى لمستها الجمرة المقدسة لترتفع تلك الأغنية المفرحة قائلة: المسيح قام ، وهو حي ليشفع فينا . تمسكوا بهذا الرجاء ليسند نفوسكم كمرساة ثابتة وأمينة . آمنوا فتروا مجد الله. [752]

الفصل الثالث والثمانون ـــ في الطريق إلى عمواس

في أصيل يوم القيامة وقبيل الغروب كان اثنان من التلاميذ سائرين في طريقهما إلى عمواس التي هي بلدة صغيرة تبعد عن مدينة أورشليم مسافة ثمانية أميال . ومع أن هذين التلميذين لم يكونا يحتلان مركزا ممتازا أو مكانة مرموقة في عمل المسيح فقد كانا يؤمنان به إيمانا قويا . كانا قد أتيا إلى المدينة لإحياء عيد الفصح ، ولكن الحوادث الأخيرة سببت لهما ارتباكا عظيما . كانا قد سمعا الخبر الذي أشيع في الصباح عن سرقة جسد الرب من القبر ، كما سمعا خبر رؤية النسوة للملاكين ومقابلتهن ليسوع . وهاهما الآن يعودان إلى بلدتهما ليقضيا بعض الوقت في التأمل والصلاة . كانا سائرين في ذلك المساء وقلباهما مثقلان بالحزن وكانا يتحدثان عن مشاهد المحاكمة والصلب . لم يسبق لهما من قبل أن خار عزمهما أو انخلع قلبهما كما حدث لهما الآن . ففي يأسهما وعدم إيمانهما كانا يسيران في ظل الصليب.

الرجل الغريب

وما أن تقدما في سيرهما قليلا حتى انضم إليهما ثالث وكان رجلا غريبا ، ولكنهما كانا غارقين في كآبتهما وخيبة آمالهما حتى لم يتبينا هيئته جيدا وقد استأنفا الحديث معبرين عن أفكار قلبيهما . كانا يتباحثان فيما يختص بالتعاليم التي نطق بها المسيح والتي بدا أنهما لا يفهمانها . وفيما كانا يتحدثان عن تلك الأحداث التي جرت أخيرا كان يسوع يتوق إلى تعزيتهما . لقد رأى حزنهما وفهم الأفكار المتضاربة المحيرة التي جعلتهما يفكران قائلين هل يمكن أن هذا الإنسان الذي رضي أن يذل ويهان إلى هذا الحد يكون هو المسيح ؟ واستبد بهما الحزن فلم يستطيعا أن يمسكا نفسيهما عن البكاء . علم يسوع أن قلبيهما مرتبطان به بربط المحبة فاشتاق إلى أن يمسح دموعهما ويملأهما بالفرح والسعادة . ولكن [753] عليه أولا أن يقدم لهما دروسا لا ينسيانها أبدا.

”فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟ فأجاب أحدهما، الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرّب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟” (لوقا 24 : 17 و 18). ثم أخبراه عن خيبة آمالهما في معلمهما ”الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقوم أمام الله وجميع الشعب”، ومع ذلك ”أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه” وبقلبين أدماهما الحزن وأثقلتهما خيبة الأمل قالا: ”ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن، مع هذا كله، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك” (لوقا 24 : 19 — 27).

والغريب أن التلاميذ لم يذكروا أقوال المسيح ولا تحققوا من أنه قد سبق فأنبأ بالحوادث التي حدثت . ولم يتحققوا من أن الجزء الأخير من إعلانه سيتم بكل تأكيد كما تم الجزء الأول وأنه سيقوم في اليوم الثالث . هذا هو الجزء الهام الذي كان يجب عليهم أن يذكروه . إن الكهنة والرؤساء لم ينسوا هذا التصريح

، "وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين: يا سيد، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حيّ: إني بعد ثلاثة أيام أقوم" (متى 27 : 62 و 63). أما التلاميذ فلم يذكروا تصريح المسيح هذا.

"فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلّم به الإنبياء! أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده؟" (لوقا 24 : 25 و 26). تساءل التلميذان في من يكون هذا الغريب حتى يعرف دخيلة نفسيهما ويكتشف ما في قلبيهما ويتحدث بمثل تلك الغيرة وذلك الحنو والعطف والرجاء ؟ فلأول مرة بعد تسليم المسيح بدآ يحسان بالرجاء . وكثيرا ما كانا يتطلعان باهتمام إلى رفيقهما ويفكران أن أقواله هي نفس ما كان سيحدثهما به المسيح ، فامتلآ دهشة وابتدأت الآمال المشرقة تنير قلبيهما.

موسى والأنبياء

وإذ ابتدأ من موسى الذي هو أول تاريخ الكتاب المقدس جعل يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب . ولو كان قد عرفهما بنفسه من الأول لكان قلباهما قد شبعا . [754] وفي ملء فرحهما ما كانا يتوقان إلى أي شيء آخر . ولكن كان من اللازم لهما أن يفهما الشهادة المقدمة له في رموز العهد القديم ونبواته . فينبغي أن يثبتا إيمانهما على هذه الأمور . لم يصنع المسيح معجزة لإقناعهما ، ولكن عمله الأول كان أن يفسر لهما الكتب. لقد ظنا أن موته كان ضربة قاضية لكل آمالهما وانتظاراتهما . أما الآن فقد أراهما من الأنبياء أن هذا هو أول برهان لتثبيت إيمانهما.

إن يسوع بتعليمه لهذين التلميذين برهن علي أهمية العهد القديم كشاهد لرسالته .إن كثيرين من المعترفين بالمسيحية في هذه الأيام ينبذون العهد القديم مدعين أنه ما عادت له فائدة . ولكن هذا ما لا يعلم به المسيح . إنه يقدر العهد القديم تقديرا عظيما حتى لقد قال مرة "إن كانوا لا يسمعون من موسى والإنبياء، ولا إن قام واحد من الإموات يصدقون" (لوقا 16 : 31).

إن صوت المسيح هو الذي يتكلم في الآباء والأنبياء منذ عهد آدم إلى انقضاء الدهر .إن المخلص معلن في العهد القديم كما في العهد الجديد بكل وضوح سواء بسواء . إن النور المقتبس من النبوات الماضية هو الذي يبسط لنا حياة المسيح وتعاليمه في العهد الجديد بكل وضوح وجمال . ومعجزات المسيح هي برهان ألوهيته . ولكن البرهان الأعظم على كونه فادي العالم هو في المقارنة بين نبوات العهد القديم وتاريخ العهد الجديد.

إن المسيح في محاجته مع تلميذيه مما ورد في النبوات أعطاهما فكرة صحيحة عن وضعه في البشرية . إن انتظارهما لمسيا الذي كان سيجلس على عرشه ويأخذ سلطانه بحسب رغائب الناس كان أمرا مضللا . إذ أن هذا يتعارض مع الإدراك الصحيح لنزوله عن مقامه السامي العظيم المجيد إلى أحقر مكان وأدنى منزلة يمكن أن يصل إليها إنسان .رغب المسيح أن تكون أفكار تلميذيه طاهرة وصادقة في كل شيء . كان عليهما أن يفهما بقدر الإمكان ما يختص بكأس الآلام المعين عليه أن يشربها . وقد أبان لهما أن الصراع الهائل الذي لم يفهماه بعد كان إتماما للعهد الذي أبرم قبلما وضعت أساسات العالم . إذ وجب أن يموت المسيح كما وجب أن يموت كل من يتعدى الشريعة إذا ظل سادرا في عصيانه وخطاياه . كان هذا أمرا لابد منه ومنه لن ينتهي بهزيمة بل بنصرة أبدية مجيدة . [755] وقد أخبرهما يسوع أنه ينبغي بذل كل الجهد لأجل خلاص العالم من الخطية . وينبغي أن يعيش تلاميذه كما عاش هو ويخدموا كما خدم بجهد شديد ومثابرة عظيمة.

وهكذا ظل المسيح يتحدث مع تلميذيه وفتح ذهنهما ليفهما الكتب . وقد أحس التلميذان بالإعياء ولكن الحديث لم ينقطع . لقد نطق المخلص بكلام الحياة واليقين ، ولكن أعينهما كانت لا تزال ممسكة عن معرفته . وإذ أخبرهما عن خراب أورشليم نظرا إلى المدينة المحكوم عليها بالهلاك وبكيا . ولكنهما لم يستطيعا معرفة ذلك الرفيق . ولم يكونا يعلمان أن الشخص الذي كان موضوع حديثهما كان سائرا معهما جنبا إلى جنب ، لأن المسيح أشار إلى نفسه كأنه إنسان آخر . وقد ظنا أنه ربما كان أحد الذين حضروا العيد العظيم وهو الآن عائد إلى وطنه . وكان نظيرهما يمشي بكل حذر على الطريق الصخري الوعر ، وبين حين وآخر كان يتوقف معهما ليستريح قليلا . وهكذا ظلوا سائرين على الطريق الصخري ، بينما ذاك الذي بعد قليل كان سيجلس على يمين الله والذي استطاع إن يقول: "دفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الإرض" كان سائراً إلى جوارهما (متى 28 : 18).

الضيف المدعو

وفيما كانوا سائرين غربت الشمس ، وقبل وصول المسافرين إلى مكان راحتهم ترك الفعلة المشتغلون في الحقول عملهم . وإذ كان التلميذان مزمعان أن يدخلا بيتهما تظاهر الغريب وكأنه يريد أن يواصل السفر إلى مكان أبعد . ولكن التلميذين أحسا بقوة تجذبهما إليه . فلقد كانت نفساهما جائعتين لسماع المزيد من كلامه ، فقالا له: "امكث معنا" ولم يكن يبدو عليه أنه قد قبل دعوتهما . فألحا عليه قائلين: "لأنه نحو المساء وقد مال النهار"، فأجاب المسيح طلبهما "فدخل ليمكث معهما" (لوقا 24 : 29).

لو أن التلميذين لم يلحا في دعوتهما لما كانا قد عرفا أن رفيقهما في السفر هو الرب المقام . إن المسيح لا يفرض نفسه أبدا على أي إنسان . إنه يهتم بمن يحتاجون إليه . إنه بكل سرور يدخل أحقر بيت ليفرح أشد القلوب تواضعا . أما إذا كان الناس عديمي الاكتراث بحيث لا يفكرون في الضيف السماوي ولا يسألونه أن يمكث معهم فهو يتحول ويعبر. [756]

وهكذا يخسر كثيرون خسارة عظيمة . إنهم لا يعرفون المسيح كما لم يعرفه ذانك التلميذان وهو سائر معهما حول الطريق.

وسرعان ما أعد طعام العشاء البسيط من الخبز ، ووضع أمام الضيف الذي أخذ مكانه على رأس المائدة . والآن هاهو يبسط يديه ليبارك الطعام . وإذا بالتلميذين يتراجعان في دهشة ، وإذا برفيقهما يبسط يديه كما اعتاد معلمهما أن يفعل تماما . ثم إذ ينظران إلى يديه ثانية يريان فيهما أثر المسامير . فيصيحان كلاهما في الحال: إنه الرب يسوع ! لقد قام من الأموات !

وإذ يقومان ليخرا عند قدميه ويسجدا له يختفي عن نظرهما . ثم ينظران إلى المكان الذي كان يجلس فيه ذاك الذي كان جسمه مدفونا في القبر منذ عهد قريب ، ويقول أحدهما للآخر: "ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلّمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب؟" (لوقا 24 : 32).

ولكن إذ حصلا على هذا الاختبار الجميل وصار عندهما هذا الخبر المفرح ليبلغاه لم يستطيعا الجلوس ليتحدثا معا ، بل ما عادا يحسان بالجوع أو الإعياء ، فيتركان الطعام دون أن يذوقا منه شيئا ، وإذ يمتلئ قلباهما فرحا يخرجان توا عائدين في نفس الطريق التي قدما منها متجهين إلى أورشليم ، مسرعين ليخبرا التلاميذ في المدينة بما قد رأياه وسمعاه . في بعض أجزاء الطريق لم يكن السير مأمونا ولكنهما يتسلقان الأماكن الشديدة الانحدار ، وكانت أرجلهما تنزلق على الصخور الملساء . إنهما لا يريان ولا يعرفان أنهما في حراسة ذاك الذي كان سائرا معهما في نفس الطريق . وإذ يمسك كل منهما عصاه ليتوكأ عليها جعلا

يحثان الخطى وهما يتمنيان لو يسرعان في السير . ومع أنهما كانا يضلان الطريق بعض الوقت فإنهما يعودان إليه ثانية . أحيانا كانا يركضان وأحيانا أخرى كانا يتعثران ولكنهما كانا دائما يجدان في السير ، وكان رفيقهما غير المنظور بجانبهما دائما.

الليل قاتم الظلام ولكن شمس البر يشرق عليهما بنوره . إن قلبيهما يكادان يقفزان من شدة الفرح ، ويبدو وكأنهما في عالم جديد . إن المسيح مخلص حي . ما عادا ينوحان عليه كمن هو ميت . لقد قام المسيح !- وهما يرددان هذا القول مرارا عديدة [757] . هذه هي الرسالة التى يحملانها إلى التلاميذ النائحين المحزونين . ولابد أن يخبراهم بتلك القصة العجيبة قصة السير إلى عمواس ، ولابد أن يخبراهم عمن كان رفيقا لهما في السفر . إنهما يحملان أعظم رسالة أعطيت للعالم ، رسالة بشرى مفرحة عليها تتوقف آمال الأسرة البشرية في الزمن الحاضر وفي الأبدية . [758]

الفصل الرابع والثمانون— "سلام لكم"

عندما وصل التلميذان إلى أورشليم دخلا من الباب الشرقي الذي يبقى مفتوحا طول ليالي الأعياد والمواسم . إن البيوت يسودها الظلام والسكون ، ولكن ذينك المسافرين يسيران مخترقين الشوارع الضيقة علي نور القمر الطالع ويتوجهان إلى العلية حيث قضى يسوع آخر الساعات في الليلة الأخيرة قبل موته . وهما يعرفان أن إخوتهما في ذلك المكان . ومع أن الوقت كان متأخرا جدا فإنهما يعلمان أن التلاميذ لن يناموا حتى يعلموا علم اليقين ماذا حدث لجسد سيدهم. وإذ يجدان باب العلية موصدا بكل إحكام يقرعان الباب طالبين الدخول ولكن لا يجيبهما أحد ، وكل شيء ساكن . حينئذ يذكران اسميهما فيفتح الباب بكل حذر فيدخلان ، ويدخل معهما شخص ثالث وإن يكن غير منظور . ثم يغلق الباب ثانية خيفة دخول أحد الجواسيس .

فيجد المسافران الجميع وإذ هم في حالة دهشة واهتياج . إن أصوات المجتمعين في العلية ترتفع بالشكر والحمد وهم يقولون: "إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان!" (لوقا 24 : 34). وحينئذ يتقدم ذانك المسافران وهما يلهثان إذ كانا يسرعان في سيرهما إلى أورشليم ، ليخبرا الباقين بقصتهما العجيبة وكيف ظهر لهما يسوع . فما أن انتهيا من حديثهما حتى قال البعض إنهم لا يصدقون هذا الكلام ، لأنه خبر طيب ، حيث يصعب تصديقه أحد ، وإذا بشخص آخر يقف أمامهم . فاتجهت كل الأنظار إلى هذا الغريب . لم يقرع أحد الباب طالبا الدخول ، ولم يسمع وقع خطوات أحد . وهنا يفزع التلاميذ ويتساءلون عن معنى ذلك . وحينئذ يسمعون صوتا لا يمكن أن يكون غير صوت سيدهم ، فتنطق شفتاه بالقول: "سلام لكم!" (لوقا 24 : 36) بصوت واضح ونغمة عذبة "فجزعوا وخافوا، وظنّوا أنهم نظروا روحاً. فقال لهم: ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟ انظروا يديّ ورجليّ: إني أنا هو! جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه" (لوقا 24 : 37 — 40). [759]

يعرفون المخلص

لقد رأوا يديه ورجليه التي ثقبتها المسامير القاسية ، وميزوا صوته الذي لم يكن يشبهه أي صوت آخر ، " وبينما هم غير مصدقين من الفرح، ومتعجبون، قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءاً من سمك مشوي، وشيئاً من شهد عسل. فأخذ وأكل قدامهم"، "ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب" (لوقا 24 : 41 — 43 ؛ يوحنا 20 : 20). لقد حل الإيمان والفرح في مكان عدم الإيمان . وبمشاعر لا يمكن التعبير عنها اعترفوا بمخلصهم المقام.

عند ميلاد يسوع أعلن الملائكة السلام للأرض وللناس المسرة. والآن عندما ظهر لتلاميذه أول مرة

بعد قيامته خاطبهم المخلص بتلك الكلمات المباركة قائلا "سلام لكم!" إن يسوع مستعد أبدا لأن يتكلم بالسلام للنفوس المثقلة بالشكوك والمخاوف . الله ينتظر منا أن نفتح له أبواب قلوبنا قائلين "امكث معنا" إنه يقول: "هأنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي" (رؤيا 3 : 20).

إن قيامة يسوع هي رمز للقيامة الأخيرة لكل الراقدين فيه. لقد كان وجه المخلص المقام وتصرفاته وحديثه كلها مألوفة لدى تلاميذه ؟ فكما قام يسوع من الأموات كذلك كل الراقدين فيه يقومون ثانية . وسنعرف أصدقاءنا كما قد عرف التلاميذ يسوع . ربما كانت صورهم مشوهة أو قبيحة أو مضناة في هذه الحياة الفانية ، فإذ يقومون في ملء الصحة والجمال فإنهم في أجسادهم الممجدة سيحتفظون بشخصياتهم في كمالها إذ يقول الرسول "سأعرف كما عرفت" (1 كورنثوس 13 : 12). في الوجوه المشرقة بالنور المنبعث من وجه يسوع سنميز تقاطيع وجوه من نحبهم.

وعندما اجتمع يسوع بتلاميذه ذكرهم بالأقوال التي قالها لهم قبل موته أنه لابد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنه في ناموس موسى والأنبياء والمزامير. " حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب. وقال لهم: هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدأ من أورشليم. وأنتم شهود لذلك" (لوقا 24 : 45 — 48).

بدأ التلاميذ يتحققون طبيعة عملهم ومدى اتساعه. كان عليهم أن يعلنوا للعالم الحقائق [760] التي ائتمنهم المسيح عليها. إن حوادث حياته وموته وقيامته والنبوات المشيرة إلى تلك الحوادث ، وقدسية شريعة الله وأسرار تدبير الخلاص وقوة يسوع على غفران الخطايا- كانوا هم شهودا لكل هذه الأمور ، وكان عليهم أن يعلنوها للأمم . كان عليهم أن يعلنوا إنجيل السلام والخلاص بالتوبة والإيمان بقوة المخلص.

خدام لله

" ولما قال هذا نفخ وقال لهم: اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت" (يوحنا 20 : 22 و 23). لم يكن الروح القدس قد أعلن بعد بكماله لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد . إن عطية الروح القدس الكاملة الفائضة لم تنسكب في كمالها إلا بعد صعود المسيح . ولم يكن التلاميذ ليستطيعوا الاضطلاع بالمأمورية الملقاة على عواتقهم ألا وهي الكرازة بالإنجيل في كل العالم إلا بعد حصولهم على تلك العطية . ولكن أعطي لهم الروح آنئذ لغرض خاص . فقبلما يتمم التلاميذ واجباتهم الرسمية في صلتهم بالكنيسة نفخ المسيح من روحه عليهم . لقد وضع بين أيديهم أمانة ذات قداسة خاصة لذلك أراد إقناعهم بهذه الحقيقة وهي أنه بدون الروح القدس لا يمكن إتمام هذا العمل.

إن الروح القدس هو نسمة الحياة الروحية في النفس. وإعطاء الروح هذا هو إعطاء حياة المسيح . وهذا يزود من يقبله بصفات المسيح . إن أولئك المتعلمين هكذا من الله ، والذين يعمل روح الله في دواخلهم والذين تظهر حياة المسيح في حياتهم هم وحدهم الذين يستطيعون أن يواجهوا العالم كممثلين للرب وأن يخدموا لصالح الكنيسة.

قال المسيح "من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت" (يوحنا 20 : 23). إن المسيح لا يجيز لأي إنسان بموجب هذا الكلام أن يدين الآخرين . فإنه في موعظته التي ألقاها على الجبل نهى عن ذلك ، لأن هذا من حق الله وحده . ولكنه يلقي على الكنيسة في مقدرتها المنظمة هذه التبعة قبل كل فرد من

أعضائها . إن على الكنيسة واجبا نحو من يسقطون في الخطية . وهذا الواجب هو أن تنذر وتعلم وإن أمكن تسترد . إن الرب يقول: "وبّخ، انتهر، عظ بكل أناة وتعليم" (2 تيموثاوس 4 : 2). تصرفوا بكل أمانة نحو كل تعد . وانذروا كل نفس واقعة في خطر . لا تعطوا المجال لأي إنسان ليخدع [761] نفسه ، وصفوا الخطية بأوصافها الحقيقية. وأعلنوا ما قاله الله عن الكذب وكسر يوم السبت والسرقة وعبادة الأوثان وكل شر آخر . " إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله" (غلاطية 5: 21). فإن أصروا على البقاء في الخطية فالحكم الذي تحكمون به على أساس كلمة الله يحكم عليهم به في السماء لأنهم إذ يختارون الخطية ينكرون المسيح . وينبغي أن تبرهن الكنيسة على أنها لا تصادق على أعمالهم ، وإلا فإنها هى نفسها تهين سيدها . عليها أن تقول عن الخطية نفس ما يقوله الله ، وعليها أن تتصرف حيالها كما يوجهها الله ، والسماء تصادق عليها . والذي يزدري بسلطان الكنيسة إنما يزدري بالمسيح نفسه.

الرب وحده يغفر الخطايا

ولكن في الصورة ناحية أشد إشراقا ، وهي قوله: " من غفرتم خطاياه تغفر له" . ينبغي أن تعطى الأولية لهذا الفكر . وفي جهدنا الذي نبذله مع المخطئين لتتجه كل عين إلى المسيح . على الرعاة أن يقدموا كل رعاية رقيقة لقطيع الرب وعليهم أن يتحدثوا مع المخطئين عن رحمة المخلص الغافرة وليشجعوا الخاطئ على التوبة والإيمان بذاك الذي يستطيع أن يغفر . ليعلنوا هذا القول بسلطان كلمة الله: "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كل إثم" (1 يوحنا 1 : 9). إن كل من يتوبون لهم هذا الضمان: "يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم" (ميخا 7 : 19).

لتقبل الكنيسة توبة الخاطئ بقلوب شاكرة. لينقل التائب من ظلمة عدم الإيمان إلى الإيمان والبر . لتوضع يده المرتجفة في يد يسوع المحب . إن مثل هذا الغفران تصادق عليه السماء.

بهذا المعنى وحده للكنيسة الحق في أن تغفر للخاطئ. فغفران الخطايا ينال بواسطة استحقاقات المسيح وحدها . إنه لم يعط السلطان لإنسان أو لجماعة من الناس ليحرروا النفس من الإثم . لقد أوصى المسيح تلاميذه أن يكرزوا بغفران الخطايا باسمه بين كل الأمم ، ولكنهم هم أنفسهم لم يكونوا مزودين بسلطان لمحو لطخة واحدة من لطخات [762] الخطية، إذ جاء أنه: " ليس اسم آخر تحت السماء، قد أعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص" (أعمال 4: 12).

توما المشكك

عندما التقى يسوع بالتلاميذ في العلية أول مرة لم يكن توما معهم. لقد سمع الأخبار من الآخرين وقدم له البرهان الكافي على أن يسوع قام ، ولكن الكآبة وعدم الإيمان كانا يملآن قلبه . وعندما أخبره التلاميذ عن الظهورات العجيبة للمخلص المقام ، هذا جعله يغوص إلى عمق أعماق اليأس . فكان يفكر قائلا: إذا كان يسوع قد قام حقا من الأموات فلم يعد هنالك رجاء في إقامة ملكوت أرضي . وقد اعتبر ظهور معلمه للتلاميذ من دونه هو جارحا لغروره . فأصر على عدم الإيمان . ولمدى أسبوع كامل ظل محتضنا تعاسته التي بدت أشد حلوكة بالمقارنة مع رجاء إخوته وإيمانهم.

وفي غضون هذه المدة ظل يردد القول: "إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن" (يوحنا 20 : 25). لم يرد أن يبصر بعيون إخوته أو يلجأ إلى الإيمان المستند على شهادتهم . لقد أحب سيده حبا عظيما ولكنه سمح للغيرة وعدم الإيمان بأن يسيطرا على عقله وقلبه.

أما الآن فإن عددا من التلاميذ جعلوا العلية المألوفة بيتهم المؤقت ، وعند المساء كانوا كلهم يجتمعون فيها عدا توما . وفي ذات مساء عقد توما العزم على أن يجتمع مع التلاميذ الآخرين . وبالرغم من عدم إيمانه كان عنده أمل ضعيف في أن يكون الخبر السار الذي سمعه صحيحا . فإذ كانوا يتناولون طعام العشاء جعلوا يتحدثون عن البراهين التي قد أوردها لهم المسيح من النبوات ، "فجاء يسوع والأبواب مغلّقة، ووقف في الوسط وقال: سلام لكم! ".

وإذ التفت إلى توما قال له: " هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يديك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن با مؤمناً". هذا الكلام برهن على أن يسوع كان عالما بأفكار توما وكلامه . فذلك التلميذ المشكك علم أنه ولا واحد من زملائه رأى يسوع منذ أسبوع ، ولذلك فلا يمكن أن يكونوا قد أخبروا معلمهم بشكوك توما . ولهذا فقد عرف أن [763] الذي أمامه هو سيده وربه. ولم تكن له رغبة وما عادت به حاجة إلى برهان جديد . وقد وثب قلبه فرحا وخر عند قدمي يسوع قائلا: "ربي وإلهي!" (يوحنا 20 : 26 — 28).

قبل يسوع اعترافه ولكنه وبخ عدم إيمانه بلطف قائلا له: " لأنك رأيتني يا توما آمنت! طوبى للذين آمنوا ولم يروا" (يوحنا 20 : 29). كان يمكن أن يكون إيمان توما مرضيا للمسيح أكثر لو كان قد آمن بناء على شهادة إخوته . ولو أن العالم اليوم يتمثل بتوما فلن يكون هناك من يؤمن للخلاص ، لأن كل من يقبلون المسيح عليهم أن يفعلوا ذلك بناء على شهادة الآخرين.

إن كثيرين ممن يستسلمون للشك يعتذرون قائلين إنه لو كان يعطى لهم البرهان المقدم لتوما من رفقائه لكانوا يؤمنون . ولكنهم لا يدرون أن لديهم ليس ذلك البرهان وحده بل أكثر منه بكثير . إن كثيرين ممن ينتظرون إزالة كل أسباب الشكوك كتوما لن تتحقق رغباتهم . إنهم بالتدريج يمعنون في عدم إيمانهم . فأولئك الذين يعودون أنفسهم رؤية الجانب المظلم ويتذمرون ويشتكون لا يعرفون ما هم صانعون . إنهم يبذرون بذور الشك وسيحصدون حصاد الشك . ففي الوقت الذي يكون فيه الإيمان والثقة جوهريين سيجد كثيرون أنفسهم عاجزين عن أن يرجوا أو يؤمنوا.

إن يسوع في معاملته لتوما يقدم درسا لأتباعه. فمثاله يرينا كيف يجب علينا أن نعامل الضعفاء الإيمان والذين يسمحون للشكوك أن تتسلط عليهم . إن يسوع لم ينهل على توما بالانتهار ولا وبخه ولا اشتبك معه في جدال . ولكنه أعلن نفسه لتلميذه المتشكك . إن توما كان غير معقول البتة في إملاء شروط إيمانه ، ولكن يسوع بمحبته السخية واهتمامه وتقديره نقض كل السياجات . يندر الانتصار على عدم الإيمان بالجدال ، ولكنه على العكس يجعل صاحبه يهب للدفاع عن نفسه ويجد لنفسه سندا وعذرا للآخرين . ولكن دع يسوع فقط في محبته ورحمته يعلن كالمخلص المصلوب ، وحينئذ نسمع ونرى كثيراً من الشفاه العاصية تنطق باعتراف توما قائلة: "ربي وإلهي! ". [764]

الفصل الخامس والثمانون— فطور على الشاطئ

كان يسوع قد رتب أن يجتمع بتلاميذه في الجليل. فحالما انقضى أسبوع الفصح انطلق التلاميذ إلى هناك . إن غيابهم عن أورشليم في أثناء العيد كان يفسر على أنه نفور وسخط وهرطقة . لذلك ظلوا هناك حتى انتهى العيد . ولكن حالما انقضت تلك الأيام عادوا إلى وطنهم فرحين لمقابلة المخلص كما أوصاهم.

كان سبعة من التلاميذ مع بعضهم. وكانوا لابسين ثياب الصيادين الوضيعة .ولكن مع كونهم فقراء في الماديات فقد كانوا أغنياء في معرفة الحق وممارسته ، مما جعلهم في اعتبار السماء معلمين في أسمى مرتبة . إنهم لم يتتلمذوا في مدارس الأنبياء ، ولكنهم لمدى ثلاث سنين كانوا تلاميذ لأعظم معلم عرفه العالم . وقد رفعتهم تعاليمه فصاروا عاملين أذكياء ومهذبين أمكن أن يهتدي الناس بواسطتهم لمعرفة الحق.

إن المسيح كان قد قضى جانبا كبيرا من وقته بجانب بحر الجليل. فإذ اجتمع التلاميذ في موضع حيث لم يكن ينتظر أن يزعجهم أحد وجدوا أنفسهم محاطين بأشياء ذكرتهم بيسوع ومعجزاته . ففي عرض هذا البحر عندما امتلأت قلوبهم رعبا وكانت العاصفة الهوجاء تسرع بهم إلى الهلاك سار المسيح فوق الأمواج وأتى لنجدتهم ، وقد هدأ هذا البحر نفسه أمام سلطان كلمته . وعلى مدى البصر كان يرى الشاطئ حيث أشبع أكثر من عشرة آلاف نفس من قليل من الخبز وصغار السمك . وعلى مسافة ليست بعيدة كانت كفرناحوم التي كانت مسرحا لكثير من معجزاته . فعندما نظر التلاميذ إلى ذلك المشهد عادت إلى عقولهم أقوال المخلص وذكريات أعماله. [765]

يخرجون للصيد

كان وقت المساء جميلا ، وإذا ببطرس الذي كان لا يزال يحن إلى قواربه وصيده يقترح على رفقائه أن يخرجوا إلى عرض البحر ويلقوا شباكهم للصيد. وكان الجميع مستعدين لتنفيذ تلك الفكرة إذ كانوا في حاجة إلى الطعام واللباس اللذين يمكن أن يسدهما الصيد الناجح في تلك الليلة . وهكذا خرجوا في السفينة ولكنهم لم يمسكوا شيئا . لقد ظلوا يكدون طوال الليل بلا جدوى . وفي غضون ساعات تلك الليلة المضنية ظلوا يتحدثون عن سيدهم الغائب ويستعيدون ذكريات الحوادث العجيبة التى شهدوها بجانب البحر . وكانوا يتساءلون عن مستقبلهم ، وقد حزنوا عندما ذكروا ما ينتظرهم في مستقبل الأيام.

ولكن طوال تلك المدة كان على الشاطئ رقيب فريد يراقبهم بنظره وإن يكونوا لم يروه. أخيرا انبثق نور الفجر وكانت السفينة قريبة من الشاطئ فرأى التلاميذ شخصا غريبا واقفا هناك ، وقد بادرهم بهذا السؤال :"يا غلمان ألعل عندكم إداماً؟" فلما أجابوه قائلين: لا! فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا. فألقوا، ولم يعوجوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك" (يوحنا 21 : 5 و 6) عرف يوحنا ذلك الغريب فصاح يقول لبطرس "هو الرب! ". ففرح بطرس وابتهج حتى أنه من شدة شوقه ألقى

بنفسه في الماء وسرعان ما كان بجوار معلمه على الشاطئ . ثم أتى التلاميذ الآخرون في السفينة ومعهم الشبكة ملآنة سمكا . " فلما خرجوا إلى الأرض نظروا جمراً موضوعاً وسمكاً موضوعاً عليه وخبزاً" (يوحنا 21: 9).

اعترتهم دهشة بالغة عقدت ألسنتهم عن أن يسألوا من أين أتى الجمر والطعام: " قال لهم يسوع" قدّموا من السمك الذي أمسكتم" (يوحنا 21: 10). فاندفع بطرس إلى الشبكة التي كان قد تركها وأعان إخوته في سحبها إلى الشاطئ . فبعدما أتموا العمل وأعدوا كل شيء أمرهم يسوع أن يتغدوا . ثم كسر الخبز وقسمه بينهم فعرفه التلاميذ السبعة واعترفوا به ، فعادت إلى أذهانهم الآن ذكرى إشباع الخمسة الآلاف على جانب الجبل . ولكن خوفاً غامضا وقع عليهم فجعلوا يشخصون في المخلص المقام وهم صامتون.

وبكل وضوح ذكروا المنظر الذي حدث بجانب البحر عندما دعاهم يسوع ليتبعوه. [766] لقد ذكروا كيف أنهم امتثالا لأمره بعدوا في العمق وألقوا الشبكة ، وكيف أنها أمسكت سمكا كثيرا جدا حتى بدأت تتمزق. وحينئذ دعاهم يسوع لأن يتركوا سفن صيدهم ووعدهم بأنه سيجعلهم صيادي الناس . وقد كرر نفس المعجزة الآن ليجعل ذلك المنظر ماثلا في أذهانهم ويعمق تأثيره في نفوسهم . كان عمله هو تجديد إرساليته لتلاميذه . وقد أبان لهم أن موته لم يقلل من التزامهم بالقيام بالعمل الذي عينه لهم . ومع أنهم كانوا سيحرمون من عشرته ورفقته الشخصية لهم ، ومن موارد الرزق الذي كانوا يحصلون عليه من حرفتهم الأولى فإن المخلص المقام سيرعاهم . ففيما كانوا يقومون بعمله تكفل هو بتدبير أعوازهم. كان ليسوع غرض خاص عندما أمرهم بإلقاء الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن ، فقد كان واقفا على الشاطئ على الجانب الأيمن الذي كان جانب الإيمان . فإذا عملوا وخدموا وهم مرتبطون به- واتحدت قوته الإلهية مع جهدهم البشري- فلن يفشلوا.

توبة بطرس

وكان هنالك درس آخر كان على يسوع أن يقدمه ، وله صلة خاصة ببطرس. لقد كان إنكار بطرس المشين لسيده متناقضا تماما مع ادعائه السابق بالولاء للسيد . لقد أهان المسيح وتعرض لارتياب إخوته فيه . وكانوا يظنون أنه لن يسمح له بأن يحتل مكانته التي كانت له بينهم من قبل . وكان هو نفسه يشعر بأنه قد خان الأمانة . فقبلما يدعى ليستعيد مركزه من جديد ويضطلع بعمله الرسولي عليه أن يبرهن أمامهم جميعا على توبته .وبدون هذا فإن خطيته ، مع أنه قد تاب عنها ، قد تلاشي تأثيره كخادم للمسيح ، فأعطاه المخلص الفرصة ليستعيد ثقة إخوته ، وبقدر الإمكان يمحو العار الذي قد جلبه على الإنجيل.

هنا درس مقدم لكل تابع للمسيح. إن الإنجيل لا يمكن أن يعقد أي اتفاق مع الشر ، ولا يمكنه التغاضي عن الخطية . فالخطايا السرية يجب الاعتراف بها سرا أمام الله . أما فيما يختص بالخطايا العلنية فينبغي أن يكون الاعتراف بها علنيا . إن العار الذي جلبه التلميذ بخطيته يقع على المسيح . إنه يجعل الشيطان ينتصر والنفوس المترددة تتعثر . فلكي يبرهن التلميذ على توبته عليه بقدر الإمكان أن يمحو هذا العار.

فإذ كان المسيح وتلاميذه جالسين يتناولون الغداء معا قال المخلص لبطرس: " يا سمعان [767] بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟" قال هذا مشيرا إلى إخوته التلاميذ . لقد أعلن بطرس مرة قائلاً: "وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً" (متى 26 : 33). ولكنه الآن يعرف نفسه معرفة أعمق وأصدق . أجاب "نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك" دون أن يعطي تأكيداً حارا عن محبته التي تفوق محبة إخوته للسيد ولا يعبر

الآن عن اندفاعه بل يترك تقدير إخلاصه إلى ذاك الذي يقرأ بواعث القلب والضمير بقوله: " أنت تعلم أني أحبك " . وهنا يأمره يسوع قائلاً: "ارع خرافي" (يوحنا 21 : 15، 16).

ومرة أخرى قدم يسوع نفس الامتحان لبطرس مكررا كلماته السابقة ، قائلا: " يا سمعان بن يونا أتحبني؟" وفي هذه المرة لم يسأل بطرس ما إذا كان يحبه أكثر من إخوته. فجاء جواب بطرس الثانى كالأول لا أثر فيه للتأكيد المبالغ فيه فقال: "نعم يا رب، أنت تعلم أني أحبك" قال له يسوع: "ارع غنمي". وللمرة الثالثة سأله المخلص ذلك السؤال الفاحص قائلا: "يا سمعان بن يونا، أتحبني؟" فحزن بطرس إذ ظن أن يسوع يشك في محبته . لقد عرف أن لسيده الحق في أن يشك فيه . فمن أعماق قلبه المتألم أجاب قائلا: "يا رب، أنت تعلم كل شيء. أنت تعرف أني أحبك". فقال له يسوع مرة أخرى: "ارع غنمي" (يوحنا 21 : 16 و 17).

كان بطرس قد أنكر سيده ثلاثا جهارا أمام الناس ، لذلك جعله المسيح يعترف أمامه ثلاث مرات مؤكدا له حبه وولاءه ، إذ جعل ذلك السؤال يتغلغل في أعماقه كسهم مسنون إلى قلبه الدامي. لقد كشف يسوع أعماق توبة بطرس أمام عيون أولئك التلاميذ المجتمعين ، وأراهم كيف أن ذلك التلميذ الذي كان قبلا متفاخرا قد اتضع وأذل تماما.

كان بطرس مقداما وسريع الاندفاع بطبعه ، وقد استفاد الشيطان من تلك النقائص ليسقطه. ولكن قبيل سقوط بطرس قال له يسوع: "هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة! ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت ثبّت إخوتك" (لوقا 22 : 31 و 32). ثم جاء ذلك الوقت وظهر التغيير واضحا في بطرس . إن تلك الأسئلة المتقاربة الفاحصة التي قدمها الرب لبطرس لم يجب عنها بأية عبارة جريئة ولا قدم جوابا يدل على الاكتفاء بالذات . وبسبب اتضاع بطرس وتوبته أعد إعدادا أفضل من الأول ليكون راعيا للقطيع. [768]

رعاية الخراف

إن أول عمل أسنده المسيح إلى بطرس بعد إعادته إلى الخدمة كان رعاية الخراف. كان بطرس قليل الخبرة في هذا العمل إذ كان العمل يتطلب عناية ورقة عظيمتين ومزيدا من الصبر والمثابرة . كان هذا العمل يتطلب منه أن يخدم الحديثي الإيمان ويعلم الجهال ويفسر لهم آيات الكتاب ويدربهم على أن يكونوا نافعين في خدمة المسيح . ولم يكن بطرس قبل ذلك لائقا لهذا العمل أو حتى لإدراك أهميته . ولكن هذا هو العمل الذي أسنده إليه المسيح الآن . وقد أعده اختباره الذي جاز فيه حين اختبر مرارة الآلام والتوبة للقيام به.

إن بطرس قبل سقوطه كان دائما يتكلم كلاما طائشا بروح الاندفاع. وكان دائما يتطوع لإصلاح أخطاء الآخرين والتعبير عما في فكره قبلما يفهم نفسه فهما صحيحا أو ما يجب عليه أن يقوله . ولكن بعد توبته ورجوعه اختلف عما كان اختلافا عظيما . لقد ظل محتفظا بغيرته الأولى ولكن نعمة المسيح ضبطت تلك الغيرة ونظمتها . ما عاد سريع الاندفاع كما في الأول ولا واثقا بنفسه ولا ممجدا لذاته ، بل صار هادئا ضابطا لنفسه وقابلا للتعلم .وهكذا استطاع أن يرعى الخراف والغنم في قطيع المسيح.

إن طريقة المسيح في معاملته لبطرس كان فيها درس له ولإخوته. لقد علمتهم أن يعاملوا المخطئين بالصبر والعطف والمحبة الغافرة . إن بطرس مع كونه قد أنكر سيده فإن المحبة التي كانت له في قلب يسوع لم تضعف قط . هكذا ينبغي لجميع خدام المسيح أن يحسوا بمثل تلك المحبة نحو الغنم والخراف

المسلمة لرعايتهم . فإذ ذكر بطرس ضعفه وفشله كان عليه أن يعامل أفراد قطيعه بنفس الرقة التي قد عامله بها المسيح.

إن السؤال الذي قدمه المسيح لبطرس كان له مغزاه. لقد ذكر شرطا واحدا للتلمذة والخدمة فقال: "أَتُحبني؟" هذا هو المؤهل الجوهري . فمع أن بطرس كان يمكن أن يكون له مؤهل آخر فإنه بدون محبة المسيح ما كان يمكنه أن يكون راعيا أمينا على قطيع الرب. فالمعرفة والإحسان والفصاحة والشعر والغيرة كلها أمور تساعد على تأدية العمل العظيم، ولكن بدون محبة يسوع في القلب فإن عمل الخادم المسيحي يمسي فشلا ماحقا. [769]

في رفقة يسوع

بعد ذلك سار يسوع مع بطرس وحدهما لأنه كان يريد أن يحادثه على انفراد . كان يسوع قد قال له قبيل موته: "حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيراً. قال له بطرس: لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟ إني أضع نفسي عنك!" (يوحنا 13 : 36 و 37). عندما قال بطرس هذا لم يكن يعلم إلى أي المرتفعات والمنخفضات ستقوده خطوات المسيح . وقد فشل بطرس في الامتحان . ومع هذا فقد بقيت فرصة أخرى فيها يبرهن بطرس على محبته للمسيح . ولكي يقوى على احتمال الامتحان النهائي لإيمانه كشف له المخلص الستار عن المستقبل . فقال له إنه بعد حياة يقضيها في عمل نافع وتدركه الشيخوخة وتضعف قواه فسيتبع سيده حقا . قال له يسوع: "الحق الحق أقول لك: لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشي حيث تشاء. ولكن متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يمجّد الله بها" (يوحنا 21 : 18 و 19).

هكذا أعلن يسوع لبطرس نفس الكيفية التي كان مزمعا أن يموت بها ، بل لقد أنباه عن مد يديه على الصليب . ثم قال له: "اتبعني" (يوحنا 21 : 19). ولم يضعف قلب بطرس بسبب هذا الإعلان . فلقد أحس بأنه على أتم الاستعداد لاحتمال أية ميتة لأجل سيده.

كان بطرس قبل ذلك يعرف المسيح حسب الجسد كما يعرفه كثيرون اليوم . ولكن لم يكن له أن يظل محدود الأفق . ما عاد الآن يعرف سيده كما قد عرفه في معاشرته له في الجسد البشري . لقد أحبه كإنسان وكمعلم مرسل من السماء ، أما الآن فيحبه كالله . كان قد تعلم أن المسيح بالنسبة إليه هو الكل في الكل . أما الآن فهو مستعد لأن يقاسم سيده خدمة التضحية . وعندما جيء به إلى الصليب صلبوه منكس الرأس كطلبه . فلقد أحس أنه لو صلب كما قد صلب سيده لكان ذلك شرفا لا يستحقه.

دروس ليومنا

كان قول المسيح لبطرس: "اتبعني" غنيا بالتعاليم . وقد أعطي له الدرس ليس فقط [770] لأجل ساعة موته بل لأجل كل خطوات حياته . كان بطرس قبل الآن يميل لأن يعمل مستقلا . لقد حاول أن يرسم الخطط لأجل عمل الله بدلا من أن ينتظر ليعمل بموجب تدبير الله . ولكنه لم يكسب شيئا من اندفاعه أمام الرب . وها يسوع يأمره قائلا "اتبعني". لا تركض أمامي حتى لا تلتزم أن تواجه قوات الشيطان وحدك . دعني أسير أمامك حتى لا تنهزم أمام العدو.

وفيما كان بطرس سائرا بجوار يسوع رأى يوحنا يتبعهما ، إذ كان يرغب في معرفة مستقبله: "قال يسوع: يا رب، وهذا ما له؟ قال له يسوع: إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء، فماذا لك؟ اتبعني أنت!" (يوحنا 21 : 21 و 22). كان على بطرس أن يعلم أن سيده يريد أن يعلن له كل ما يكون من الخير له أن يعلمه . ينبغي لكل واحد أن يتبع المسيح بغير جزع غير لائق فيما يختص بالعمل المعين للآخرين . إن قول يسوع عن يوحنا: "إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء" لم يكن فيه أي تأكيد أن هذا التلميذ سيبقى إلى مجيء المسيح ثانية . إنما هو فقط أكد سلطانه المطلق ، وأنه حتى لو كان يشاء حدوث هذا فإنه لا يؤثر في عمل بطرس بأي حال ، أن مستقبل كل من يوحنا وبطرس هو في يد سيدهما وكان على كل منهما أن يطيعه ويتبعه.

ما أكثر من يشبهون بطرس منا في هذه الأيام ! إنهم مهتمون بشئون الآخرين ويشتاقون لمعرفة واجبهم في حين أنه يخشى عليهم من إهمال واجباتهم . إن عملنا هو النظر إلى المسيح واتباع خطواته . إننا سنرى أخطاء في حياة الآخرين ونقصا في أخلاقهم . إن البشرية مكتنفة بالضعف ولكننا نجد الكمال في المسيح . فإذ نشخص إليه نتغير.

عاش يوحنا حتى صار شيخا هرما . لقد شاهد خراب أورشليم وخراب الهيكل العظيم -رمزا لخراب العالم في النهاية . وظل يوحنا يتبع آثار خطوات سيده عن أقرب قرب إلى نهاية حياته . وكانت خلاصة شهادته للكنائس هي هذه: "أيها الأحباء، لنحب بعضنا بعضاً"، "ومن يثبت في المحبة، يثبت في الله والله فيه" (1 يوحنا 4 : 7 و 16).

لقد أعيد بطرس إلى رتبة الرسولية ولكن الكرامة والسلطان اللذين أعطيا له من المسيح لم يخولاه حق السيادة على إخوته . وهذا أوضحه المسيح جيدا ، إذ عندما سأل بطرس [771] يسوع قائلا: "وهذا ما له؟" أجابه السيد بقوله: "فماذا لك؟ اتبعني أنت!" (يوحنا 21 : 22). لم يكرم بطرس كرأس الكنيسة ورئيسها . إن الإحسان الذي أبداه له المسيح إذ غفر له ارتداده ، وتكليفه برعاية القطيع ، وأمانة بطرس في اتباع المسيح- كل ذلك جعله يظفر بثقة إخوته . وقد كان له نفوذ كبير في الكنيسة . ولكن الدرس الذي علمه المسيح لبطرس عند بحر الجليل ظل راسخا في ذهنه مدى الحياة . وإذ يكتب إلى الكنائس بإلهام الروح القدس يقول: "أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يعلن، ارعوا رعية الله التي بينكم نظاراً، لا عن اضطرار بل بالإختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، ولا كمن يسود على الأنصبة، با صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى" (1 بطرس 5 : 1 — 4). [772]

الفصل السادس والثمانون—المأمورية العظيمة

إن المسيح إذ كان قريبا جدا من عرشه السماوي أوصى تلاميذه قائلا: “دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض”، “وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها” (متى 28 : 18 ؛ مرقس 16 : 15). وقد ردد هذه الأقوال مرارا عديدة حتى يدرك التلاميذ معناها . كان ينبغي أن يضيء نور السماء في شدة لمعانه وصفائه على كل ساكني الأرض ، العالي منهم والدون ، والأغنياء والفقراء . كان على التلاميذ أن يكونوا عاملين مع فاديهم في عملية تخليص العالم.

كانت هذه المأمورية قد أسندت إلى الاثني عشر عندما اجتمع المسيح بهم في العلية ، ولكن كان ينبغي إسنادها الآن إلى عدد أكبر . فعندما اجتمعوا معا على أحد جبال الجليل كان هناك جميع المؤمنين الذين أمكن دعوتهم إلى ذلك الاجتماع . كان المسيح نفسه قبل موته قد سبق فحدد زمان هذا الاجتماع ومكانه . وقد ذكر الملاك الذي كان عند القبر التلاميذ بوعد السيد لهم أن يلتقي بهم في الجليل . وتكرر هذا الوعد للمؤمنين المجتمعين في أورشليم في أسبوع عيد الفصح ، وعن طريق هؤلاء وصل إلى كثيرين من الموجودين الذين كانوا ينوحون بسبب موت سيدهم . وكان الجميع ينتظرون هذا اللقاء باهتمام شديد .وقد ذهبوا إلى مكان الاجتماع في طرق دائرية وافدين من اتجاهات مختلفة حتى لا يثيروا شكوك اليهود الحسودين . وقد أتوا بقلوب مندهشة وهم يتحدثون بكل اهتمام وغيرة عن الخبر الذي قد سمعوه عن المسيح.

اجتماع المؤمنين

وفي الوقت المعين اجتمع حوالي خمس مئة من المؤمنين في جماعات صغيرة على الجبل وهم مشتاقون لمعرفة كل ما يمكنهم أن يعرفوه ممن قد رأوا المسيح بعد قيامته .وقد جعل التلاميذ يمرون من جماعة إلى أخرى يخبرونهم بكل ما قد رأوه وسمعوه عن [773] يسوع . وكانوا يناقشونهم مما في الكتب كما قد فعل هو معهم . وأخبر توما بقصة عدم إيمانه وكيف تلاشت شكوكه . وفجأة وقف يسوع في وسطهم . ولم يستطع أحد منهم أن يعرف من أين ولا كيف جاء . وكثيرون ممن كانوا مجتمعين هناك لم يسبق لهم أن رأوه قط ، ولكنهم شاهدوا آثار الصلب في يديه ورجليه . وكانت طلعته كوجه الله . فعندما رأوه سجدوا له.

ولكن بعضهم شكوا كما هي الحال دائما . إذ هناك أناس صعب عليهم أن يدربوا إيمانهم فيضعون أنفسهم في صفوف المتشككين . هؤلاء يخسرون كثيرا بسبب عدم إيمانهم.

كان هذا هو اللقاء الوحيد بين يسوع وكثيرين من المؤمنين بعد قيامته ، فتقدم إليهم وخاطبهم قائلا: “دفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض” (متى 28 : 18). كان التلاميذ قد سجدوا له قبلما كلمهم ،

ولكن كلامه هذا الذي خرج من بين شفتيه اللتين كان قد أغلقهما الموت ملأهم بقوة خاصة . لقد كان الآن هو المخلص المقام . كان كثيرون منهم قد رأوه يستخدم قوته في شفاء المرضى وإخراج الشياطين . وكانوا يؤمنون أن عنده قوة يستطيع بواسطتها أن يقيم ملكوته في أورشليم ، وقوة على إخماد كل مقاومة ، وقوة على عناصر الطبيعة . لقد سكن البحر الصاخب ومشى على أمواجه الثائرة وأعاد للموتى الحياة . والآن هاهو يعلن أن: "كُلُّ سُلطانٍ" قد دفع إليه . وانتقل كلامه بأذهان سامعيه من الأمور الأرضية والزمنية إلى الأمور السماوية الابدية . لقد حلقت أذهانهم في الأعالي إلى أسمى إدراك لعظمته ومجده.

كان كلام المسيح على ذلك الجبل إعلانا بأن ذبيحته التي قدمها لأجل الناس كاملة .وقد تمت كل شروط الكفارة ، وأكمل العمل الذي لأجله أتى إلى هذا العالم ، وكان هو في طريقه إلى عرش الله ليمجده ويكرمه الملائكة والرياسات والسلاطين . لقد دخل إلى عمله كوسيط . فإذ كان متسربلا بسلطان لا حد له كلف التلاميذ بهذه المأمورية قائلا لهم: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (متى 28 : 19 و 20). [774]

لقد كانت الأمة اليهودية مستودعاً للحق المقدس . ولكن المبادئ الفريسية جعلتهم أشد أمم الأرض انطواء وتعصبا . فكل ما كان يختص بالكهنة والرؤساء - ملابسهم وعاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم-جعلتهم غير مستأهلين لأن يكونوا نورا للعالم . لقد نظرت تلك الأمة إلى نفسها على أنها هي العالم ، ولكن المسيح أرسل تلاميذه ليكرزوا بإيمان وعبادة لا أثر فيهما لنظام الطبقات أو القومية ، إيمان يلائم كل الشعوب والأمم وكل طبقات الناس.

يبتدئون من أورشليم

وقبلما ترك المسيح تلاميذه أوضح لهم طبيعة ملكوته . وقد ذكرهم بما سبق أن قاله لهم عن هذا الملكوت . وأعلن لهم أنه لا يريد أن يقيم في هذا العالم ملكوتا زمنيا بل ملكوتا روحيا . إنه لن يملك على عرش داود كملك أرضي . ومرة أخرى أوضح لهم الكتب مبرهنا لهم أن كل ما حدث له كان معينا في السماء ومرسوما في المقررات التي بينه وبين الآب . وقد سبق رجال الله الملهمون بالروح القدس فأنبأوا بكل هذا . قال لهم: ها أنتم ترون أن كل ما قد أعلنته لكم عن رفض الأمة لي كمسيا قد حدث . وثبت كل ما أعلنته لكم فيما يختص بالإذلال الذي قاسيته . وفي اليوم الثالث قمت ثانية . فتشوا الكتب بأعظم اجتهاد لتروا أن كل ما قد حددته النبوات عني قد تم.

وقد أوصى المسيح تلاميذه أن ينجزوا العمل الذي تركه أمانة بين أيديهم وأن يبتدئوا من أورشليم . لقد كانت أورشليم مسرح اتضاعه وتنازله المذهل لأجل الجنس البشرى ، وفيها تألم ورفض وحكم عليه بالموت . لقد ولد في أرض اليهودية ، وهناك إذ أخذ جسما بشريا سار بين الناس ، وقليلون من الناس كانوا يدركون إلى أى مدى اقتربت السماء من الأرض عندما عاش يسوع بين الناس . فينبغي للتلاميذ أن يبدأوا خدمتهم من أورشليم.

وبالنظر إلى كل الآلام التي احتملها المسيح هناك ، والأتعاب والجهود التي بذلها ولم يقدرها الناس كان يمكن للتلاميذ أن يطلبوا من السيد أن يرسلهم إلى حقل أفضل يبشر بالنجاح ، ولكنهم لم يتقدموا إليه بذلك الطلب . كان ينبغي للتلاميذ أن يتولوا بالغرس والرعاية نفس الحقل الذي ألقى المسيح فيه بذار الحق . وسينمو البذار ويأتي بثمر كثير. كان على التلاميذ أن يحتملوا الاضطهاد وهم يقومون بعملهم بسبب حسد

اليهود [775] وعداوتهم. لأن هذا ما سبق معلمهم واحتمله ، فعليهم ألا يهربوا من الاضطهاد ، وينبغي أن تقدم أول هبات الرحمة لقاتلي المخلص.

وكان في أورشليم كثيرون ممن كانوا قد آمنوا بيسوع وكثيرون ممن كان الكهنة والرؤساء قد غرروا بهم ، فكان لابد أن يقدم الإنجيل لهؤلاء أيضاً ، وكان يجب أن يدعوا للتوبة . وكان ينبغي إيضاح هذا الحق العجيب وهو أنه لا يمكن الحصول على غفران الخطايا إلا عن طريق المسيح وحده . وإذ هاجت كل أورشليم بسبب الحوادث المثيرة التي وقعت في الأسابيع القليلة الماضية ، فإن الكرازة بالإنجيل كانت مزمعة أن تحدث في النفوس أعمق التأثيرات.

الوعد بالقوة والحماية

ولكن لم يكن العمل ليقتصر على أورشليم واليهودية وحدهما بل كان ينبغي أن يمتد إلى أقصى الأرض . قال المسيح لتلاميذه : لقد كنتم شهودا لحياة التضحية التي قدمتها لأجل العالم ، وشاهدتم عملي وتعبي الذي كابدته لأجل اسرائيل . فمع أنهم لم يريدوا أن يأتوا إلي لتكون لهم حياة ، ومع أن الكهنة والرؤساء قد عملوا بي ما أرادوا ، ومع أنهم رفضوني كما قد تنبأت الكتب - فستعطى لهم فرصة أخرى لقبول ابن الله . لقد رأيتم كيف أنني أقبل مجانا كل من يأتون إل ي معترفين بخطاياهم : من يقبل إل ي فلا أخرجه خارجا . فكل من يريد ، يمكنه أن يتصالح مع الله وينال الحياة الأبدية . فيا تلاميذي إني أستودعكم رسالة الرحمة هذه . وإنما يجب تقديمها لإسرائيل أولا وبعد ذلك لكل الأمم والألسنة والشعوب . يجب أن تقدموها لليهود وللأمم . وكل من يؤمنون تجمعهم كنيسة واحدة.

وبواسطة عطية الروح القدس كان التلاميذ سيزودون بقوة مدهشة . وكانت شهادتهم ستثبت بالآيات والعجائب . وكانت ستصنع معجزات ليس فقط بواسطة الرسل وحدهم ولكن أيضاً بواسطة من قبلوا رسالتهم . قال يسوع: "يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة. يحملون حيّات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون" (مرقس 16 : 17 و 18).

في ذلك الحين كان القتل بالسم أمرا شائعا وكان الناس ذوو المبادئ السافلة لا يترددون [776] أو يتورعون عن استخدام السموم في القضاء على من يقفون في طريق أطماعهم . وقد عرف يسوع أن حياة تلاميذه ستتعرض لذلك الخطر . وكثيرون من الأشرار سيظنون أنهم إذا قتلوا شهود الله فإنما يقدمون خدمة له . ولذلك وعدهم يسوع بالوقاية من هذا الخطر.

كان التلاميذ سيزودون بنفس القوة التي كانت ليسوع حتى يشفوا "كل مرض وكل ضعف في الشعب". وإذ يشفون أمراض الجسد باسمه فإنهم بذلك يشهدون لقدرته على شفاء النفس "متى 4 : 23. انظر أيضاً 9 : 6). والآن هاهو يعدهم بهبة جديدة . كان على التلاميذ أن يكرزوا بين الأمم الأخرى ، فكانوا سيعطون قوة للتكلم بألسنة أخرى . كان الرسل ومن معهم قوما أميين ومع ذلك فبواسطة انسكاب الروح القدس عليهم في يوم الخمسين صار حديثهم طاهرا وبسيطا ومتقنا وصحيحا سواء في استعمال الكلمات أو في اللفظ بلغتهم أو بأي لغة أجنبية.

عمل لأجل الجميع

وهكذا أعطى المسيح لتلاميذه تفويضا ، وأعد كل ما يلزمهم لإتمام ذلك العمل وأخذ على نفسه مسؤولية نجاح العمل . وطالما كانوا مطيعين لكلامه وقاموا بعملهم وهم مرتبطون به فما كانوا ليفشلوا . قال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع ، إلى أقصى مكان في المسكونة ، ولكن اعلموا أني سأكون معكم . اخدموا بإيمان وثقة لأنه لن يأتي وقت أترككم فيه.

وقد شمل تفويض المخلص لتلاميذه كل المؤمنين ، وهو يشمل كل المؤمنين بالمسيح في كل العصور . إن الظن بأن عمل ربح النفوس وتخليصها مقتصر على الخدام المرتسمين وحدهم هو خطأ قاتل . إن كل من قد أتى إليهم الوحي الإلهي قد استؤمنوا على الإنجيل . وكل من يقبلون حياة المسيح هم معينون لأن يعملوا على خلاص بني جنسهم .لقد أقيمت الكنيسة لأجل هذا العمل ، وكل من يأخذون على أنفسهم عهودها المقدسة قد ارتبطوا بموجب تلك العهود أن يكونوا عاملين مع المسيح.

"الروح والعروس يقولان: تعال! ومن يسمع فليقل: تعال!" (رؤيا 22 : 17). على كل من يسمع أن يكرر الدعوة . مهما تكن حرفة الإنسان في الحياة ينبغي أن يكون اهتمامه الأول هو ربح النفوس للمسيح . قد لا يكون قادرا على مخاطبة الجماهير [777] في كنيسة ، ولكنه يستطيع أن يخدم بين الأفراد . ويمكنه أن يبلغ هؤلاء الأفراد التعاليم التي أخذها من سيده ، فالخدمة لا تنحصر في الكرازة وحدها . إن أولئك الذين يخففون آلام المرضى والمتألمين ويساعدون المعوزين ويشجعون اليائسين والقليلي الإيمان بكلام العزاء- كل أولئك يخدمون . فهنا وهناك توجد نفوس منحنية تحت أثقال آثامها . والذي يحط من قدر الإنسان ليس هو المشقة أو التعب أو الفقر ، ولكنه الإثم وعمل الشر . هذا يجلب على الإنسان التعب والتبرم . إن المسيح يطلب من خدامه أن يخدموا المرضى بالخطية.

كان على التلاميذ أن يبدأوا عملهم حيث كانوا . فلم يكن يجب إغفال الحقل الأصعب الذي لا يرجى منه خير . وهكذا على كل خادم للمسيح أن يبدأ حيث هو . فقد توجد بين عائلاتنا نفوس جائعة إلى العطف وإلى خبز الحياة . وقد يكون هنالك أولاد يجب تربيتهم للمسيح . يوجد أناس وثنيون واقفون على أبوابنا . فلنقم بالعمل الأقرب إلينا بكل أمانة .وبعد ذلك يمكننا أن نمد جهودنا ومساعينا إلى أبعد مكان يمكن أن يرسلنا إليه الله . إن كثيرين يبدو عملهم محصورا بحكم الظروف ، ولكن أينما يكن ذلك العمل ، فإذا كنا نعمله بإيمان واجتهاد فسيكون له أثره إلى أقصى الأرض . إن عمل المسيح حين كان على الأرض بدا وكأنه منحصر في حيز ضيق ، ولكن جماهير من كل البلدان استمعوا لرسالته . أحيانا كثيرة يستخدم الله أبسط الوسائل لتحقيق أعظم النتائج . إن تدبيره هو أن كل جزء في عمله يعتمد على كل الأجزاء الأخرى ، كعجلة في داخل عجلة والكل يعمل في تناسق تام . إن أبسط عامل يحركه روح الله يمكن أن يلمس أوتار غير منظورة فترسل أشجى الأنغام إلى أقاصي الأرض ، وتبعث أنغامها على مدى الدهور.

ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أمر الرب القائل: "اذهبوا إلى العالم أجمع". الرب يدعونا إلى أن نرفع أنظارنا إلى الأقاليم البعيدة . إن المسيح ينقض حائط السياج والتعصب القومي الموجب للانقسام ، ويعلمنا أن نحب كل الأسرة البشرية ، وهو يرفع الناس فوق الأفق الضيق الذي تعرضه الأنانية ، ويبطل كل الحدود الإقليمية وفروق المجتمع المصطنعة . ولا يجعل فارقا بين قريب وغريب أو عدو وصديق . وهو يعلمنا أن ننظر إلى كل نفس محتاجة على أنها نفس أخ لنا ، وأن نعتبر العالم حقلنا. [778]

المواهب الموعود بها

عندما قال المخلص: "اذهبوا ... تلمذوا جميع الأمم" قال أيضاً: "وهذه الآيات تتبع المؤمنين:

يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة. يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون". إن هذا الوعد بعيد المدى كالتفويض . ولكن ليس معنى هذا أن يزود كل مؤمن بكل المواهب . إن الروح يقسم لكل واحد بمفرده كما يشاء "(1 كورنثوس 12 : 11) ولكن هبات الروح موعود بها لكل مؤمن بحسب حاجته لعمل الرب . والوعد لا يزال قويا يركن إليه الآن كما كان في أيام الرسل: "هذه الآيات تتبع المؤمنين" هذا هو امتياز أولاد الله. وعلينا أننا بالإيمان نتمسك بكل ما يمكننا الحصول عليه كهبات من هبات الإيمان.

"يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون". إن هذا العالم هو مستشفى كبير للأمراض المعدية المستعصية ولكن المسيح أتى ليشفي المرضى ولينادي لأسرى الشيطان بالعتق . لقد كان هو في نفسه الصحة والقوة . ولقد قدم حياته للمرضى والمصابين ومن فيهم شياطين ، ولم يطرد أي إنسان أتاه ليحصل على قوته الشافية . عرف أن أولئك الذين أتوا إليه في طلب المعونة كانوا قد جلبوا على أنفسهم المرض ، ومع ذلك فهو لم يرفض أن يشفيهم .وعندما كانت قوة المسيح تلامس تلك النفوس المسكينة كانوا يتبكتون على الخطية وكان كثيرون منهم يحصلون على شفاء الروح كما على شفاء الجسد من الأمراض العضالة . ولا يزال الإنجيل يملك نفس هذه القوة . فلماذا لا نشهد اليوم نفس هذه النتائج ؟

إن المسيح يحس بويلات كل مريض . فعندما تمزق الأرواح الشريرة جسما بشريا فالمسيح يحس باللعنة . وعندما تلتهب منابع الحياة بنار الحمى فالمسيح يحس بذلك العذاب. وهو لا يزال الآن راغبا في شفاء المرضى كما كان وهو على الأرض بذاته . وخدام المسيح هم نوابه والقنوات التي يعمل عن طريقها ، فهو يرغب في استخدام قوته الشافية عن طريقهم.

كان في الطريقة التي استخدمها المخلص في الشفاء دروس لتلاميذه . فذات مرة طلى بالطين عيني الأعمى وأمره قائلا: "اذهب اغتسل في بركة "سلوام" الذي تفسيره: مرسل فمضى واغتسل وأتى بصيراً" (يوحنا 9 : 7). ولم يكن يمكن نوال الشفاء إلا عن طريق [779] الشافي العظيم ، ومع ذلك فقد استخدم المسيح وسائط الطبيعة البسيطة . ففي حين أنه لم يرض عن الشفاء بالعقاقير فقد صادق على استعمال العلاجات الطبيعية البسيطة.

لقد قال المسيح لكثيرين ممن كانوا معذبين ونالوا الشفاء على يديه: "لا تخطئ أيضاً، لئلا يكون لك أشر" (يوحنا 5 : 14). وهكذا علمنا أن المرض هو نتيجة انتهاك شرائع الله الطبيعية والروحية . إن الشقاء العظيم الذي يملأ العالم ما كان يوجد لو أن الناس عاشوا على وفاق مع تدبير الخالق.

الطبيب الأعظم

لقد كان المسيح هو مرشد العبرانيين ومعلمهم منذ القدم ، وقد علمهم أن الصحة هي مكافأة الطاعة لشريعة الله . إن الطبيب العظيم الذي شفى المرضى في فلسطين كان قد كلم شعبه من عمود السحاب مخبرا إياهم عما يجب عليهم عمله وما يريد الله أن يصنعه لأجلهم . قال: "إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك، وتصنع الحق في عينيه، وتصغى إلى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه، فمرضاً ما مما وضعته على المصريين لا أضع عليك. فإني أنا الرب شافيك" (خروج 15 : 26). وقد أعطى المسيح لإسرائيل وصايا خاصة بعاداتهم في الحياة اليومية فأكد لهم قائلا: "ويرد الرب عنك كل مرض" (تثنية 7 : 15). وعندما تمموا كل الشروط تثبت لهم الوعد إذ يقول الكتاب: "ولم يكن في أسباطهم عاثر" (مزمور 105 : 37).

هذه الدروس هي لنا نحن أيضاً . فهنالك شروط ينبغي لمن يريدون حفظ صحتهم أن يراعوها . وعلى

كل واحد أن يعرف ما هى هذه الشروط . إن الرب لا يرضى بأن نجهل شريعته ، طبيعية كانت أو روحية . كما ينبغي لنا أن نكون عاملين مع الله لكي نسترد صحة أجسادنا وأرواحنا.

وعلينا كذلك أن نرشد الآخرين إلى الكيفية التي بها يصونون صحتهم وكيف يستردونها .فعلينا أن نقدم للمرضى العلاجات التي قد أعدها الله في الطبيعة ، وأن نوجه أنظارهم إلى ذاك الذي يستطيع وحده أن يعيد إليهم صحتهم . إن عملنا هو تقديم المرضى والمعذبين إلى المسيح على أيدي إيماننا لنعلمهم أن يؤمنوا بالشافي العظيم . وعلينا نحن أن نتمسك بوعد [780] الرب ونصلي طالبين منه أن يظهر قدرته. إن جوهر الإنجيل هو الشفاء والمخلص يريدنا أن نأمر المرضى واليائسين والمعذبين أن يتمسكوا بقوته.

كانت قوة المحبة متجلية في كل معجزات الشفاء التي أجراها المسيح . ونحن إذ نشترك مع المسيح في تلك المحبة يمكننا بالإيمان أن نكون آلات لإنجاز عمله . أما إذا أهملنا في الارتباط بالمسيح برباط إلهي فإن تيار النشاط المعطي الحياة لا يمكن أن يجري بفيضه منا إلى الشعب . كانت هناك بعض الأماكن التي لم يستطع المخلص نفسه أن يصنع فيها قوات كثيرة لعدم إيمانهم . وهكذا الآن نجد أن عدم الإيمان يفصل الكنيسة عن المعين الإلهي ، لأن تمسكها بالحقائق الأبدية واهن وضعيف . فلعدم إيمانها يفشل الله ويسلب منه مجده.

إن المسيح يعد الكنيسة بأن يكون معها وهي تعمل عمله. لقد أمر المسيح تلاميذه أن يذهبوا ويتلمذوا جميع الأمم . ووعدهم قائلا: "وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر". ومن بين الشروط الأولى للحصول على قوة الرب كوننا نحمل نيره . إن نفس عنصر حياة الكنيسة يتوقف على أمانتها في إتمام المأمورية التي كلفها الرب بها . فإهمال هذا الواجب يتبعه حتما ضعف وانحلال روحي . فحيث لا يوجد عمل بنشاط لأجل الآخرين فالمحبة تتضاءل ، والإيمان يمسي كليل البصر.

" علموا الناس"

إن المسيح يقصد أن خدامه يعلمون الكنيسة عمل الإنجيل. عليهم أن يعلموا الشعب كيف يطلبون ويخلصون ما قد هلك. فهل هذا ما يفعلونه ؟ واأسفاه ! ما أقل أولئك الذين يحاولون أن ينفخوا في شرارة الحياة في كنيسة موشكة على الموت ! وما أقل عدد الكنائس التى تجد الرعاية الكافية كالحملان المريضة من أولئك الذين ينبغي أن يطلبوا الخروف الضال ! ويوجد دائما ملايين فوق ملايين من الناس الذين يهلكون بلا مسيح.

لقد أثيرت محبة الله التى لا يسبر غورها إلى عمق أعماقها لأجل الناس. وإن الملائكة ليندهشون حين يرون أولئك الذين تغدق عليهم هذه المحبة لا يقدمون إلا شكرا ضئيلا تافها، يستغربون لأن الناس لا يقدرون محبة الله إلا تقديرا ضئيلا . إن السماء لتسخط على الإهمال اللاحق بالنفوس البشرية وهل نريد أن نعرف كيف يعتبر المسيح ذلك ؟ ماذا يكون شعور أب [781] أو أم لو عرفا أن ابنهما الذي ضل في وسط الثلوج في البرد القارس قد مر به أولئك الذين كان يمكنهم أن ينقذوه ، فتركوه ليهلك ؟ ألا يحزنان جدا ويغضبان غضبا جنونيا ؟ ألا يشهران بأولئك القتلة القساة القلوب بغضب ملتهب كدموعهما وقوي كحبهما ؟ إن آلام كل إنسان هي آلام كل ابن لله . وأولئك الذين لا يمدون يد المعونة لبني جنسهم الهالكين يثيرون غضب الله العادل . هذا هو غضب الخروف . إن أولئك الذين يدعون أن لهم شركة مع المسيح وهم في نفس الوقت لا يكترثون لحاجات بني جنسهم ، لمثل هؤلاء سيقول الرب في يوم الدينونة الأخير الرهيب: "لا أعرفكم من أين أنتم، تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم! " (لوقا 13: 27).

وفي المأمورية التي أسندها المسيح لتلاميذه لم يكتف بأن أجمل لهم عملهم بل قدم لهم الرسالة فقال لهم: " علموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به". كان على التلاميذ أن يعلموا نفس ما علم به المسيح . فما تكلم به ، ليس فقط ما قاله شخصيا بل أيضاً بواسطة أنبياء ومعلمي العهد القديم ، ينبغي أن يكون ضمن هذه التعاليم . كل تعليم بشري يجب إبعاده ، ولا مكان للتقاليد أو إقحام نظريات الإنسان واستنتاجاته ولا للتشريع الكنسي . إن الوصايا التي قد وضعتها السلطة الإكليريكية غير متضمنة في كلام المسيح لتلاميذه ، فينبغي ألا يعلم أي خادم للمسيح وصايا الناس . فالناموس والأنبياء مع كلام المسيح وأعماله هي الأمانة المسلمة للتلاميذ ليبلغوها للعالم . إن اسم المسيح هو كلمة السر والشعار المميز لهم ورباط الاتحاد وسلطانهم في مجرى أعمالهم ومصدر نجاحهم . لا شيء مما لا يحمل اسمه له أي اعتبار في ملكوته.

قوة حية

ينبغي تقديم الإنجيل لا كنظرية عديمة الحياة بل كقوة عاملة على تغيير الحياة. إن الله يريد أن من يقبلون نعمته يشهدون لقوتها . فأولئك الذين كان تصرفهم مغيظا له جدا يقبلهم مرحبا بهم . عندما يتوبون يعطيهم من روحه الإلهي ويضعهم في أسمى مراكز الثقة ويرسلهم إلى معسكر العصاة ليعلنوا لهم عن رحمته غير المحدودة . وهو يطلب من عبيده أن يشهدوا لهذه الحقيقة وهي أنه بواسطة نعمته يمكن للناس أن يحصلوا على صفات شبيهة بصفات المسيح ، ويمكنهم أن يفرحوا بيقين محبته . وهو يريدنا أن نشهد لهذه [782] الحقيقة وهي أن الرب لا يستطيع أن يستريح حتى يسترد الجنس البشري ويعود إلى مركزه السابق ليكون للناس امتيازهم المقدس وهو أن يكونوا بنين وبنات له.

إن في المسيح رقة قلب الراعي ومحبة الآب ونعمة المخلص الرحيم التي لا تبارى. إنه يقدم بركاته بناء على أعظم الشروط ترغيبا . وهو لا يكتفي بمجرد الإعلان عن هذه البركات ، ولكنه يقدمها بطريقة تجعلها على أشد جانب من الجاذبية ليوقظوا في النفوس الرغبة في امتلاكها . وهكذا يجب على خدامه أن يقدموا غنى مجد العطية التي لا يعبر عنها . إن محبة المسيح العجيبة تذيب القلوب وتخضعها في حين أن مجرد تكرار العقيدة لا يجدي شيئا ولا يأتي بنتيجة . "عزّوا، عزّوا شعبي، يقول إلهكم"، "على جبل عال اصعدي، يا مبشرة صهيون. ارفعي صوتك بقوة، يا مبشرة أورشليم. ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا: هوذا إلهك ... كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها" (إشعياء 40 : 1، 9، 11). أخبروا الناس عن ذاك الذي هو "معلّم بين ربوة" والذي "كله مشتهيات" (نسيد 5 : 10 و 16). إن الكلام وحده لا يكفي بل ينبغي أن تنعكس صفات المسيح على أخلاقنا وتظهر في حياتنا . إن المسيح ينتظر من كل تلميذ أمين أن يعكس صورته . والله قد سبق فعين كل أولاده "ليكونوا مشابهي صورة ابنه" (رومية 8 : 29). وفي حياة كل واحد ينبغي أن حياة المسيح الطويلة الأناة وقداسته ووداعته ورحمته وحقه تعلن للعالم.

خرج التلاميذ الأولون ليكرزوا بالكلمة فأظهروا المسيح في حياتهم. وكان الرب يعمل معهم، "يثبت الكلام بالآيات التابعة" (مرقس 16 : 20). إن هؤلاء التلاميذ أعدوا أنفسهم لعملهم . وقد اجتمعوا معا قبل يوم الخمسين وطرحوا عنهم كل الخلافات . كانوا جميعهم معا بنفس واحدة وكانوا يؤمنون بوعد المسيح بإعطائهم البركة فصلوا بإيمان . إنهم لم يطلبوا البركة لأنفسهم فقط ، فلقد كانوا مثقلين بحمل عظيم لخلاص النفوس . كان ينبغي أن يحمل الإنجيل إلى أقصى الأرض ، وقد طلب التلاميذ الحصول على القوة التي قد وعدهم المسيح بها . وهكذا انسكب عليهم الروح القدس وآمن آلاف من الناس في يوم واحد

وهكذا يمكن أن يحدث ذلك الآن. وبدلا من آراء الناس ليكرز الخدام بكلمة الله. وليطرح المسيحيون عنهم انقساماتهم ومنازعاتهم وليسلموا أنفسهم لله ليستخدمهم في خلاص [783] الهالكين. ليطلبوا البركة بإيمان فتأتي. إن انسكاب الروح في أيام الرسل كان هو "المطر المبكر" وقد كانت نتائجه مجيدة. أما "المطر المتأخر" فسيكون أغنى وأغزر (يوئيل 2 : 23).

مكملون في المسيح

إن كل من يكرسون أنفسهم وأجسادهم وأرواحهم لله سيحصلون باستمرار على هبة القوة الجسدية والعقلية. وموارد السماء التي لا تنفد هي تحت طلبهم. إن المسيح يعطيهم نسمة من روحه وحياة من حياته. والروح القدس يقدم أسمى قواته لتعمل في القلب والعقل. ونعمة الله توسع قواهم وتزيدها وتكثرها. وكل كمالات الطبيعة الإلهية تخف إلى معونتهم. وبواسطة التعاون مع المسيح يكونون كاملين فيه، وفي ضعفهم البشري يكونون قادرين على أن يعملوا عمل الله القدير.

إن المخلص يتوق إلى إظهار نعمته وإلى أن يطبع صفاته على كل العالم. إنه مقتناه، وهو يرغب في أن يجعل الناس أحرارا وأطهارا. ومع أن الشيطان يبذل قصاراه ليعطل هذا الغرض ويعرقله فبواسطة الدم المسفوك لأجل العالم توجد انتصارات يجب إحرازها حتى يتمجد بها الله والخروف. ولن يقنع المسيح حتى تكمل النصرة "من تعب نفسه يرى ويشبع" (إشعياء 53 : 11). وستسمع كل أمم الأرض إنجيل نعمته. ومع أن الجميع لا يقبلون نعمة الرب لكن الذرية "تتعبد له. يخبّر عن الرب الجيل الآتي" (مزمور 22 : 30)، "والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماؤ تعطى لشعب قديسي العلي". " لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر"، "فيخافون من المغرب اسم الرب، ومن مشرق الشمس مجده" (دانيال 7 : 27 ؛ إشعياء 11 : 9 ؛ 59 : 19).

"ما أجمل على الجبال قدمي المبشر، المخبر بالسلام، المبشر بالخير، المخبر بالخلاص، القائل لصهيون: قد ملك إلهك!. صوت مراقبيك. يرفعون صوتهم. يترنمون معاً، لأنهم يبصرون عيناً لعين عند رجوع الرب إلى صهيون. أشيدي ترنمي معاً يا خرب أورشليم، لأن الرب قد عزى شعبه. فدى أورشليم. قد شمّر الرب عن ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم، فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا" (إشعياء 52 : 7 — 10). [784]

الفصل السابع والثمانون ــــ ملاكان ووعد

حان الوقت الذي يصعد المسيح فيه إلى عرش أبيه. فكمنتصر إلهي كان مزمعا أن يعود بتذكارات انتصاره إلى المواطن السماوية . كان قد أعلن قبل موته قائلا لأبيه: "ألعمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته" (يوحنا 17 : 4). وبعد قيامته ظل باقيا على الأرض بعض الوقت حتى يتعرف عليه تلاميذه في جسده المقام الممجد . أما الآن فقد استعد للانطلاق . لقد أثبت حقيقة كونه مخلصا حيا . لم يكن بالتلاميذ حاجة لأن يشركوا بينه وبين القبر ، ولكنهم بدأوا يفكرون فيه كمن هو ممجد في نظر مسكونة السماء.

اختار يسوع لمكان صعوده بقعة طالما قدسها بحضوره حين كان يعيش بين الناس .إنه لم يشرف جبل صهيون حيث مدينة داود ولا جبل المريا حيث يرى الهيكل ، فهناك سخر الشعب بالمسيح ورفضوه ، وهناك بعدما عادت أمواج الرحمة بقوة محبة أعظم صدتها تلك القلوب التي هي أقسى من الصخر. فإذ كان يسوع لذلك متعبا ومثقل القلب خرج من هناك ليستريح في جبل الزيتون . إن الشكينا المقدس إذ ارتحل عن الهيكل الأول استقر على الجبل الشرقي كأنما كان يأبى ترك المدينة المقدسة . فهكذا وقف المسيح فوق جبل الزيتون بقلب مشتاق وهو يشرف على أورشليم . لقد تقدست أحراش الجبل وأوديته بصلواته ودموعه . وقد رددت جوانبه صدى هتاف النصرة من الجماهير معلنة أنه ملك إسرائيل . وعند سفره وجد مكانا يستريح فيه في بيت لعازر ببيت عنيا . وفي بستان جثسيماني الواقع عند أسفل الجبل كان السيد يصلي معذبا وحده . فكان صعوده إلى السماء من فوق هذا الجبل . وحين يأتي مرة أخرى ستستقر قدماه فوق قمة هذا الجبل نفسه . ولن يأتي كرجل أوجاع بل كملك منتصر ومجيد عندما يقف على جبل الزيتون ، عندما ترتفع أصوات هتافات العبرانيين قائلة هللويا ممتزجة بتسبيحات الأمم قائلة أوصنا ، وأصوات هتاف جماهير المفديين العظيمة سترتفع منشدة وقائلة: توجوه ربا على الكل. [785]

على جبل الزيتون

الآن سار يسوع وتلاميذه الأحد عشر إلى الجبل ، وإذ مروا من باب أورشليم جعل كثيرون من الناس ينظرون نظرات تساؤل واستفهام إلى تلك الجماعة الصغيرة التي يقودها واحد كان الرؤساء منذ أسابيع قليلة قد حكموا عليه بالموت وصلبوه. ولم يكن التلاميذ يعلمون أن هذا اليوم هو آخر يوم يجتمعون فيه بمعلمهم . وقد صرف يسوع الوقت في الحديث معهم مرددا وصاياه السابقة . وعندما اقتربوا من جثسيماني توقف المسيح عن السير لكي يتذكروا هم الدروس التي كانوا قد تلقوها منه في ليلة آلامه العظيمة . ومرة أخرى ألقى نظره على الكرمة التي جعلها رمزا للاتحاد بينه وبين كنيسته والآب . ومرة أخرى ردد على مسامعهم الحقائق التي كان قد أعلنها لهم . كل ما كان حوله كان يذكرهم بمحبته التي لم يكافأ عليها . حتى التلاميذ الذين كان يحبهم حبا عظيما جلبوا عليه العار في ساعة اتضاعه وموته إذ تركوه وهربوا.

لقد تغرب المسيح في العالم ثلاثا وثلاثين سنة. واحتمل احتقار العالم وإهاناته وسخريته وقد رفض وصلب . فالآن وهو مزمع أن يصعد إلى عرش مجده — إذ يستعيد في ذهنه جحود الشعب الذي جاء ليخلصه- هلا يحرمهم من عطفه وحبه ؟ ألا يركز محبته في تلك المملكة التي تقدره ، حيث الملائكة الأبرار رهن إشارته لينفذوا أوامره ؟ كلا ، فإن وعده لأحبائه الذين يتركهم على الأرض هو هذا: "وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (متى 28 : 20).

ولدى وصولهم إلى جبل الزيتون تقدمهم يسوع عبر القمة إلى جوار بيت عنيا. وهنا وقف يسوع واجتمع التلاميذ حوله . وإذ كان ينظر إليهم بكل محبة أضاء وجهه بنور باهر. لم يوبخهم على أخطائهم وسقطاتهم . ولكن آخر كلمات نطق بها الرب في مسامعهم كانت كلاما عميقا في رقته ولطفه . وإذ بسط يديه ليباركهم ويؤكد لهم رعايته وحراسته ابتدأ يصعد إلى السماء ببطء وقد اجتذبته إليها قوة أعظم من أية جاذبية أرضية . وفيما كان يصعد تاركا إياهم نظر التلاميذ المشدوهون المرتعبون محدقين بأنظارهم المتعبة ليلقوا نظرة أخيرة على سيدهم الصاعد . وقد أخذته سحابة من المجد عن أعينهم . وإذ استقبلته مركبة السحابة الملائكية سمع التلاميذ هذا الصوت ثانية: "ها أنا معكم كل الأيام إلى [786] انقضاء الدهر". وفي نفس الوقت حمل النسيم إليهم أعذب الأصوات الموسيقية من أجواق الملائكة.

" آتي أيضاً"

وإذ كان التلاميذ لا يزالون يحدقون بأنظارهم إلى فوق سمعوا أصواتا رنت كأعذب الأنغام الموسيقية ، فلما التفتوا رأوا ملاكين في هيئة بشرية فكلماهم قائلين: " أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء" (أعمال 1 : 11).

إن هذين الملاكين كانا ضمن ذلك الجمع الذي كان منتظرا في سحابة نيرة لمرافقة يسوع إلى موطنه السماوي. كان هذان الملاكان أرفع أجناد السماء وهما اللذان أتيا إلى القبر عند قيامة المسيح ، وكانا معه مدى حياته التي عاشها على الأرض . كان كل السماويين مشتاقين ومتلهفين لانقضاء مدة وجود السيد في عالم شوهته الخطية وجلبت عليه اللعنة . وها قد جاء الوقت الذي فيه يستقبل سكان السماء مليكهم . ألم يكن هذان الملاكان يتحرقان شوقا للانضمام إلى الجمع الذي رحب بيسوع ؟ ولكنهما رفقا وحبا بأولئك الذين قد تركهم السيد انتظرا ليقدما لهم رسالة العزاء . " أليس جميعهم أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص! " (عبرانيين 1: 14).

صعد المسيح إلى السماء في هيئة البشر ، وقد رأى التلاميذ السحابة وهي تأخذه. يسوع نفسه الذي تحدث وصلى معهم والذي كسر لهم الخبز والذي كان معهم في سفنهم وهم في عرض البحيرة ، والذي في نفس ذلك اليوم جاهد للتسلق معهم فوق جبل الزيتون- يسوع هذا نفسه صعد إلى السماء ليجلس مع أبيه في عرشه . وقد أكد لهم الملاكان أن ذاك الذي قد رأوه صاعدا إلى السماء سيأتي ثانية كما قد صعد . سيأتي "مع السحاب، وستنظره كل عين" ويقول الرسول أيضاً إن "الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة وبوق الله، سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً". وقال المسيح كذلك: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده" (رؤيا 1 : 7 ؛ 1 تسالونيكي 4 : 16 ؛ متى 25 : 31). وحينئذ يتم وعده لتلاميذه حين قال: "إن مضيت [787] وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إلي، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً" (يوحنا 14: 3). إذا يحق للتلاميذ أن

يفرحوا برجاء رجوع سيدهم .

مفعمون حمدا وشكرا لله

وعندما رجع التلاميذ إلى أورشليم نظر الناس إليهم بدهشة وذهول. فبعد محاكمة المسيح وصلبه كان يظن أنه سيبدو عليهم الغم والانكسار والخجل . وكان أعداؤهم يظنون أنه سيبدو على وجوههم الحزن وعار الهزيمة ، ولكن بدلا من ذلك كان يرى على وجوههم الفرح والنصرة . كانت تتألق على وجوههم أنوار سعادة ليست من هذه الأرض . إنهم لم ينوحوا حزنا على آمالهم وانتظاراتهم التى خابت ، ولكن قلوبهم كانت مفعمة حمدا وشكرا لله . وبفرح عظيم أخبروا الناس بذلك الحادث العجيب ، حادث قيامة المسيح وصعوده إلى السماء وقد قبل كثيرون شهادتهم.

لم يعد التلاميذ يرتابون بالمستقبل. لقد عرفوا أن يسوع في السماء ، وأن عواطفه لا تزال معهم . وقد أيقنوا أن لهم صديقا أمام عرش الله فاشتاقوا إلى أن يقدموا طلباتهم إلى الآب باسم يسوع . ففي رهبة مقدسة جثوا للصلاة وهم يكررون هذا الوعد الأكيد عندما قال لهم المسيح أن: “كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم. إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. أطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً” (يوحنا 16 : 23 و 24). لقد مدوا يد الإيمان إلى أعلى فأعلى وفي أفواههم هذه الحجة القوية: “المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا” (رومية 8 : 34). وقد أتاهم يوم الخمسين بملء الفرح في محضر المعزي ، كما قد وعدهم المسيح.

في ديار السماء

كانت السماء كلها منتظرة لترحب بالمخلص إلى الديار السماوية. فإذ صعد سار في المقدمة وكان في أثره جمهور السبايا الذين تحرروا عند قيامته . وقد تبع الأجناد السماويون ذلك الموكب الفرح بهتافاتهم وأغاني حمدهم.

وفيما هم يقتربون من مدينة الله قدم موكب الصاعدين مع يسوع هذا الطلب قائلين [788] “ ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات، فيدخل ملك المجد” . فأجاب الحراس المشتاقون قائلين: “من هو هذا ملك المجد؟” إنهم يسألون هذا السؤال لا لأنهم لا يعرفون من هو بل لأنهم يريدون أن يسمعوا صوت التسبيح والبهجة القائل: “من هو هذا ملك المجد؟ الرب القدير الجبار، الرب الجبار في القتال. ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات، فيدخل ملك المجد”. ومرة أخرى يسمع السؤال “من هو هذا ملك المجد؟” لأن الملائكة لا يتعبون أبدا من أن يسمعوا أن اسمه يمجد ويسبح . فالملائكة الذين يرافقون الرب يجيبون قائلين: “رب الجنود هو ملك المجد” (مزمور 24 : 7 — 10).

حينئذ تنفتح أبواب مدينة الله على سعتها فيدخل جماهير الملائكة من الأبواب في وسط عاصفة قوية من الموسيقى المطربة.

مقبول من الله

هناك العرش وقوس قزح الوعد. وهناك الكاروبيم والسرافيم . فيجتمع رؤساء جند الملائكة وأبناء الله وممثلو العوالم غير الساقطة . إن المجلس السماوي الذي قد وقف أمامه لوسيفر متهما الله وابنه ، وممثلو العوالم التي كان الشيطان يريد أن يقيم سلطانه فيها -جميعهم هناك للترحيب بالفادي . إنهم يتوقون للاحتفاء بنصرته ولتمجيد مليكهم.

غير أنه يشير عليهم بالتنحي جانبا. لم يأت الوقت بعد . إنه لا يستطيع أن يلبس إكليل المجد أو ثوب الملك . فهو يدخل في حضرة أبيه . ومن ثم يشير إلى رأسه الجريح وجنبه المطعون وقدميه المثقوبتين ، ويرفع يديه اللتين فيهما آثار المسامير ويشير إلى دلائل نصرته ويقدم للآب حزمة الترديد أي أولئك الذين أقيموا معه كممثلين للجمع العظيم الذين سيخرجون من قبورهم في مجيئه الثاني . حينئذ يقترب من الآب الذي يكون أمامه فرح بخاطئ واحد يتوب ، الذي يفرح بترنم لأجل واحد . قبل وضع أساسات الأرض كان الآب والابن قد تعاهدا معا على فداء الإنسان فيما لو غلبه الشيطان . وقد تصافحت أيديهما في عهد مقدس ليكون المسيح ضامنا للجنس البشري . ولقد تمم المسيح هذا العهد فإذ كان معلقا على الصليب صرخ مخاطبا الآب قائلا: "قد أُكْملَ" وقد نفذ الاتفاق كاملا . وهاهو [789] الآن يعلن قائلا: " أيها الآب، قد أكمل. لقد فعلت مشيئتك يا إلهي وقد أتممت فعل الفداء. إذا كان عدلك قد اكتفى فأنا: "أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا" (يوحنا 19 : 30 ؛ 17 : 24).

ها صوت الله يسمع معلنا أن العدل قد اكتفي فانهزم الشيطان. إن أحباء المسيح الكادحين المصارعين على الأرض قد أنعم عليهم (قبلوا) في المحبوب (راجع أفسس 1 : 6) وأمام ملائكة السماء وممثلي العوالم غير الساقطة أعلن أنهم قد تبرروا ، فحيث يكون هو تكون كنيسته: "الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاثما" (مزمور 85 : 10). إن ذراعي الآب يحتضنان ابنه. وحينئذ يصدر هذا الأمر: "لتسجد له كل ملائكة الله" (عبرانيين 1 : 6).

إن الرؤساء والسيادات والسلاطين تعترف بفرح لا ينطق به بسيادة رئيس الحياة. وجماهير الملائكة ينطرحون أمامه بينما يصعد هتاف الفرح ويملأ كل الديار السماوية قائلا: "مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة!" (رؤيا 5 : 13).

إن أغاني الانتصار تمتزج بالموسيقى التي تبعثها قيثارات الملائكة حتى ليلوح أن السماء قد امتلأت فرحا وحمدا. لقد غلبت المحبة وقد وجد الضال وفي السماء ترن أصوات عالية وهي تعلن قائلة: "للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين" (رؤيا 5 : 13).

ومن منظر الفرح السماوي يعود إلينا على الأرض صدى قول المسيح العجيب: " إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا 20: 17). لقد اتحدت أسرة السماويين بأسرة الأرضيين . إن ربنا لأجلنا قد صعد ولأجلنا يحيا: "فمن ثم يقدر أن يخلّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم" (عبرانيين 7 : 25).